

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

الْمُسَكَّى

بِأَوْدَانِ أَهْلِ السُّنَنِ

تَصْنِيفُ

أَبِي مَنْصُورٍ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَازِيدِيِّ السَّمَرْقَنْدِيِّ الْحَنْفِيِّ

(ت ٥٢٢٢ هـ)

تَحْقِيقُ

فَاطِمَةُ يَوْسُفِ النُّحَيْمِي

الْمَجْلَدُ الْخَامِسُ

مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ نَاشِرُونَ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ
السَّكَنِي

تَاوِيلَاتُ أَهْلِ السُّنَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

غاية في كلمة



مؤسسة الرسالة ناشرون

منشورات
مَرْوَانُ رَضْوَانُ دَجْبُول

هاتف: ٥٤٦٧٢٠ - ٥٤٦٧٢١
فاكس: ٥٤٦٧٢٢ (٩٦١١)
صيف: ١١٧٤٦٠
بيروت - لبنان

Resalah
Publishers

Tel: 546720 - 546721
Fax: (9611) 546722
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon

Email:
resalah@resalah.com
Web site:
<http://www.resalah.com>

جميع الحقوق محفوظة للناس

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

ISBN 9953-32-096-9

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠٠٤ م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.



اللهم

اجعلني ومن كانت له يد في
إخراج هذا الكتاب ومن يقرؤه ممن يردد
دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام
﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

فاطمة يوسف الخيمي

سورة (١) الرحمن

مكية. وقيل: مدنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ قد عَرَفَتِ الْعَرَبُ، وَعَلِمَتْ أَنَّ الرَّحْمَنَ عَلَى مِيزَانٍ فَعَلَانٍ مُشْتَقٌّ مِنَ الرَّحْمَةِ. لَكِنَّ أَحَدًا مِنَ الْخَلَائِقِ لَا يَتَلَعُّ فِي الرَّحْمَةِ مَبْلَغًا يَسْتَحِقُّ التَّسْمِيَةَ بِهِ رَحْمَانٌ. لِذَلِكَ خَصَّ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ بِتَسْمِيَةِ رَحْمَانٍ، وَإِنْ كَانَ مُشْتَقًّا مِنَ الرَّحْمَةِ كَالرَّحِيمِ، وَجَازَ تَسْمِيَةُ غَيْرِهِ رَحِيمًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ذَكَرَ أَنَّ الرَّحْمَنَ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ وَلَمْ يَذْكُرْ لِمَنْ عَلَّمَهُ. فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ أَنَّهُ تَبَارَكَ، وَتَعَالَى ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ رَسُولَنَا ﷺ ثُمَّ يُخْرِجُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ:

أَخَذَهَا: أَنَّهُ جِبْرَائِيلُ ﷺ ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ [النجم: ٥ و ٦] لَكِنْ خَرَجَتْ الْإِضَافَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِمَا أَنَّهُ عَلَّمَهُ بِأَمْرِهِ.

والثاني: أَضَافَ التَّعْلِيمَ إِلَى نَفْسِهِ لِمَا أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَثْبَتَهُ فِي قَلْبِهِ حَتَّى لَا يَنْسَاهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَتُفَوِّكُ فَلا تَنسَى﴾ [الأعلى: ٦] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَنَبَّلَ بِهِ﴾ ﴿وَإِنْ عَلَيْنَا جَمْعٌ وَقَدْ أَنذَرْتَهُ﴾ [القيامة: ١٦ و ١٧] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

والثالث: أَضَافَ إِلَى نَفْسِهِ وَأَنَّهُ عَلَّمَهُ جِبْرَائِيلُ ﷺ لِأَنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ لِیَفْعَلَ التَّعْلِيمَ مِنْ جِبْرَائِيلَ ﷺ.

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ أَيَّ آدَمَ ﷺ وَ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أَيَّ الْأَسْمَاءِ الَّتِي ذَكَرَ فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] إِذْ لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْأَسْمَاءِ إِلَّا بِالتَّأْقِينِ، لَيْسَتْ كَالْأَشْيَاءِ الَّتِي تُعْرَفُ، وَتُذَكَّرُ بِالِاسْتِدْلَالِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ أَيَّ خَلَقَ كُلَّ إِنْسَانٍ، وَ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أَيَّ عَلَّمَهُ بَيَانَ مَا يَمْتَنِعُهُمْ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقِ الْإِنْسَانَ لِيَتَرَكَّهُ سُدًى.

وَيُحْتَمَلُ عَلَّمَ كُلَّ إِنْسَانٍ مَا غَابَ عَنْهُمْ حَتَّى عَرَفُوا بِمَا شَاهَدُوا مِنَ اللَّوْنِ وَالطَّعْمِ وَاللَّذَّةِ / ٥٤١ - ب/ عَلَّمَ مَا غَابَ عَنْهُمْ مِنْ جَنْبِهِ وَلَوْنِهِ وَلَذَوِيهِ اسْتِدْلَالًا بِمَا شَاهَدُوا.

وَيُحْتَمَلُ الْإِسْتِدْلَالُ بِالشَّاهِدِ عَلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَمَّا شَاهَدُوا الْإِنْسَانَ^(١) مُخْتَاجًا عَاجِزًا مُحَاطًا بِالْحَوَائِجِ وَالْحَوَادِثِ، عَرَفُوا أَنَّ لَهُ خَالِقًا قَادِرًا أَنْشَأَهُ كَذَلِكَ.

وَيُحْتَمَلُ مَا ذَكَرَ مِنْ تَعْلِيمِ الْبَيَانِ الْقُرْآنِ، وَذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ وَ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ بَيَانَ الْقُرْآنِ^(٢) حَتَّى يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ كُلِّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَمَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ.

وَجَائِزٌ أَنْ يُضَرَّفَ بَعْضُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ وَبَعْضُهُ إِلَى آدَمَ ﷺ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ آدَمَ، وَ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ بَيَانَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(١) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ: ذَكَرَ أَنْ (٢) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: حَتَّى. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الْأَشْيَاءُ. (٤) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ.

وجائز أن يكون خلق الإنسان كل إنسان ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ و﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي علَّمَهُ شيئاً من بيان القرآن من الأحكام والشرائع ونحو ذلك. وقال القتيبي: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي الكلام، والله أعلم.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ قال أهل التأويل: بوجهين:

أحدهما: أي يُحَسَّبُ بهما عددُ الأوقات والأزمنة، ويُعرف بهما حساب ذلك.

والثاني: أي يُحَسَّبُ بهما حسابُ منازلهما التي يطلُعَانِ منها، وَيَغِيْبَانِ فيها، وَمَجَارِيهِنَّ التي يَجْرِيَانِ فيها، لَا يَتَجَاوَزَانِهَا فِي شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ.

وقال أبو عوسجة: قوله: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ جَمْعُ الْحِسَابِ. وقال القتيبي: بِحِسَابِ مَنَازِلٍ لَا يَغْدُوْنِهَا.

وفيه زيادةٌ مَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُمَا بِحَيْثُ تُعْرَفُ بِهِمَا حَقِيقَةُ أَغْيَانِ الْأَشْيَاءِ لِمَا جَعَلَ فِيهِمَا مِنَ النُّورِ وَالضِّيَاءِ الَّذِي [بِهِ] تَتَجَلَّى لِلْخَلْقِ الْأَشْيَاءُ الْمَسْتَوْرَةُ، فَيَقَالُ لِمُنْكَرِي^(٢) الرِّسَالَةِ وَتَفْضِيلِ بَعْضِ الْبَشَرِ عَلَى بَعْضٍ: أَمَّا^(٣) شَاهِدَتُمْ أَشْيَاءَ، خُصَّتْ بِفَضْلِ ضِيَاءٍ وَتَجَلِّيَةٍ^(٤)؟ فَلِمَ أَنْكَرْتُمْ فَضْلَ بَعْضِ الْبَشَرِ بِفَضْلِ بَيَانٍ وَعِلْمٍ وَرِسَالَةٍ؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾: ﴿وَالنَّجْمُ [وَالشَّجَرُ]﴾^(٥) يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: الكواكب، فَإِنْ كَانَ هُوَ الْمُرَادُ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: يَسْجُدُ لَهُ مَا بِهِ زِينَةُ الدُّنْيَا وَمَا بِهِ زِينَةُ الْأَرْضِ، وَهِيَ الْكَوَاكِبُ، وَهِيَ الْأَشْجَارُ.

[وَالثَّانِي]^(٦): يَخْتَمِلُ النُّجُومُ كُلُّ نَبْتٍ يَنْبُتُ فِي الْأَرْضِ، لَا سَاقَ لَهُ، وَالشَّجَرُ هُوَ الَّذِي لَهُ سَاقٌ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: يَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مَا يَظْهَرُ مِنَ الْأَرْضِ، وَيَخْرُجُ: مَا ازْتَفَعَ، وَعَلَا، وَمَا لَمْ يَرْتَفِعْ.

ثُمَّ سُجُودُهُمَا يَخْتَمِلُ وَجُوهًا:

أحدها: سُجُودُ خَلْقِهِ؛ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ كُلِّ شَيْءٍ دَلَالَةً السُّجُودِ لَهُ وَالشَّهَادَةَ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ.

والثاني: سُجُودُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمَوَاتِ طَاعَتُهَا لَهُ عَنِ اضْطِرَارٍّ وَتَسْخِيرٍ نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَتَبَايَعْتُمْ أَوْ كَرِهْتُمْ فَلَا تَأْتِيَا مَلَائِكَةً﴾ [فصلت: ١١].

والثالث: سُجُودُ حَقِيقَةٍ؛ يَجْعَلُ اللَّهُ فِي سِرِّيَّةٍ^(٧) هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مَعْنَى تَسْجُدُ^(٨) بِهِ لِلَّهِ تَعَالَى، يَعْلَمُهُ هُوَ، وَلَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَهُمْ إِلَّا سُبُحٌ بِحُجُودٍ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال بعضُ النَّاسِ: سُجُودُهُمَا هُوَ تَمَثُّلُ ظِلَالِهِمَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَفَتَّحُونَ ظِلَالَهُ عَنِ الْأَيْمَنِ وَالْأَسْمَإِ سُجُودًا لِلَّهِ﴾ [النحل: ٤٨].

ثُمَّ لَا يَلْزَمُ السُّجُودُ بِتِلَاوَةِ هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا مِمَّا ذَكَرَ [مِنْ] ^(٩) سُجُودِ الْمَوَاتِ وَطَاعَتِهَا لِأَنَّهَا مَوَاتٌ، لَيْسَتْ بِأَهْلِ السُّجُودِ، وَإِنَّمَا سُجُودُهَا عَنِ اضْطِرَارٍّ كُلِّ مَخْلُوقٍ فِي مَعْنَاهُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى السُّجُودِ.

وَإِنَّمَا يَلْزَمُ السُّجُودَ بِتِلَاوَةِ آيَاتٍ ذَكَرَ فِيهَا سُجُودُ مَنْ هُوَ مِنْ أَهْلِ السُّجُودِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧ وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ هَذَا يُخْرَجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَرَادَ حَقِيقَةَ الرَّفْعِ، أَيْ رَفَعَهَا بِلا عَمَدٍ مِنَ الْأَسْفَلِ وَلَا تَغْلِيْقٍ مِنَ الْأَعْلَى، أَيْ أَنْشَأَهَا كَذَلِكَ مَرْفُوعَةً، لَا أَنْ كَانَتْ مَوْضُوعَةً، فَرَفَعَهَا، وَأَمْسَكَهَا كَذَلِكَ لِيُعْلَمَ أَنَّ قُدْرَتَهُ خِلَافَ قُدْرَةِ الْخَلْقِ وَقُوَّتِهِمْ.

والثاني: ﴿رَفَعَهَا﴾ أَيْ رَفَعَ قَدْرَهَا وَمَنْزِلَتَهَا فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ حَتَّى يَرْفَعُوا أَيْدِيَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ إِلَيْهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ لِمَا جَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْبَرَكَاتِ الَّتِي تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي م: بِهَا، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لِمُنْكَرٍ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: كَمَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَجَلَّى. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: سِيرَتِهِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَسْجُدُونَ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ الذي يزن الناس به الأشياء، وبه يتحقق الإيفاء والاستيفاء؟ امتحنهم بذلك ليعرفوا بذلك قُبْحُ التَّقْصِيرِ في ما أمروا به والمجاورة عما نُهوا عنه. وذلك يَحْتَمِلُ في الأحكام والشرائع والتوحيد وصرف الألوهية والعبادة إلى غير الذي يَسْتَحِقُّهُ لِيَعْلَمُوا التَّقْصِيرَ في ذلك، والله أعلم.

وَيَحْتَمِلُ المراد بالميزان أن الأحكام التي وُضِعَتْ بَيْنَ الْخَلْقِ والشرائع التي جُعِلَتْ عليهم ليقوموا بوفائها، ويشتها عن التَّقْصِيرِ فيها والتَّعَدِّي عن حُدُودها.

وقيل: الميزان العدل، وهو ما ذكرنا، والله أعلم.

وَذَكَرَ أَنَّ الْمَوَازِينَ ثَلَاثَةٌ:

أحدها: العقول، وهي التي تُعَرَفُ بها محاسن الأشياء ومساوئها وقُبْحُ الأشياء وحُسْنُها.

والثاني: الميزان الذي جُعِلَ بَيْنَ الْخَلْقِ لإيفاء الحقوق والاستيفاء.

والثالث: الذي جُعِلَ في الآخرة لِيُؤْتَى به ثواب الأعمال وجزائها، والله أعلم.

الآيتان ٨ و ٩ وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي لا تتقصوا في الميزان.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ الأمر بإقامة الوزن والإتمام في الوزن: أمر بالإتمام ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ نهي عن التَّقْصَانِ. والأمر بالشيء نهي عن ضده. وهما جَمَعَ بَيْنَهُمَا صريحاً تأكيداً لِيَابِ الْوَزْنِ والميزان. وَيَحْتَمِلُ الوجوه الثلاثة التي ذكرنا.

وعن قتادة [أنه قال]^(١): كان ابن عباس رضي الله عنه يقول: يا معشر الموالى إنكم قد وُلِيتُمْ أمرين [بهما]^(٢) هلك الناس، هما^(٣) المكيال والميزان.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ في الميزان باللسان أي لسان الميزان.

وقيل لابن عمر رضي الله عنه: إن أهل المدينة لا يؤفون الكيل، قال: وما يمتنعهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ﴾ [المطففين: ١].

الآية ١٠ وقوله ص: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْثَرِ﴾ [قال بعضهم: الأنام]^(٤): هو كل ذي روح. وقال بعضهم: الأنام، هو جَمْعُ الْخَلْقِ. ولكن عندنا الأنام كأنه البَشَرُ لأنه^(٥) اخْبَرَ أَنَّ الْأَرْضَ أَنْشَأَهَا لِلْبَشَرِ، وَوَضَعَهَا لَهُمْ، وهو ما ذكر في مواضع: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٩ و...]. [وقال في مواضع]: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠ و...].

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿فِيهَا فَتَكِهَةٌ وَالَّتِخْلُ ذَاتُ الْأَكْثَارِ﴾ يُذَكِّرُهُمْ نِعْمَةَ التي أنشأها لهم في الأرض من الفواكه وأنواع الثمار والحبوب التي جعلها رزقاً لهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَاتُ الْأَكْثَارِ﴾ أي ذات الغُلْفِ والاعطية.

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿وَرَكْعَتٌ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ بِرَفْعِ^(٦) النون وكسرها. فَمَنْ كَسَرَهَا ذهب إلى الرِّيحَانِ، وهو الرُّزْقُ الذي تُرَزَقُونَ مِنَ الحبوبِ والثمارِ، والعَصْفُ: الورد، فيكون المعنى: والحب ذو الورد والرُّزْقِ.

وَمَنْ رَفَعَهَا فَعَلَى الْإِبْتِدَاءِ عطفاً على الحب.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: الآية. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤٦/٧.

واختلفوا في تفسير العصف والرياحان: منهم من قال: العصف ورق الزرع من الجنة والشعير وغيرهما، وقيل: هو التين، وقيل: هو أول ما ينبت من الزرع، وقيل: العصف هو الزرع نفسه. ولكن أضاف العصف إلى الحب لما منه ينشأ الحب، ومنه يخرج.

وأما الرياحان [فقد قيل: ^(١)] هو خضرة الزرع، وقيل: هو الذي يشم، وقيل: هو الرزق الذي يزرعون من الحبوب والثمار.

كذلك روي عن ابن عباس رضي الله عنه الرياحان هو الحب، وقال القشيري: الرياحان الرزق؛ يقال: اطلب ربحان الله أي رزقه، والله أعلم.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ هذا خطاب للجن والإنس، وفيه دلالة أن النبي ﷺ كان مبعوثاً إلى الإنس والجن ٥٤٢ - ١/ جميعاً.

ألا ترى أنه قال في آية أخرى: ﴿يَتَمَتَّعُونَ لِلْيَنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وقيل: ليس أن يخاطبها جملة ولكن يخاطب كل إنسي وجني في نفسه كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥] ليس أن قال الفريقان جميعاً كونوا هوداً تهتدوا. ولكن قال اليهود: كونوا هوداً تهتدوا، وقال النصارى: كونوا نصارى تهتدوا. فعلى ذلك هذا.

ثم قوله ﷺ ﴿يَأَيُّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه [أنه ^(٢)] قال: «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ سورة الرحمن من أولها، فسكتوا، فقال: لقد قرأتها على الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كانوا كلما قرأت عليهم: ﴿يَأَيُّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد». [الترمذي ٣٢٩١]

ثم في ما ذكر من قوله: ﴿وَالْأَرْضُ وَصَعَهَا لِلْأَنَارِ﴾ ﴿فِيهَا فُكْكَةٌ وَالَّتِي فِيهَا الْكُكُورُ﴾ [الآيات: ١٠ و ١١ و ...] إلى آخره يذكر نعمه وقدرته وتدبيره وعلمه ووحدانيته.

أما نعمه فإنها ^(٣) بسط الأرض لهم بما فيها من أنواع الحبوب والفواكه التي بها قوامهم والعصف وأنواع النبات التي بها قوام دوابهم. وأما بيان قدرته وسلطانه وإنشاء هذه الفواكه والحبوب في أكمامها ما يعجز الخلق عن إحداث شيء وفعله في العلق ليغلب أن صنعه وفعله خارج عن المعالجات والممارسات التي لا يتحقق مع الاغطية. فإن قدرته وفعله غير مقيسين بأفعال الخلق وقدرتهم.

كذلك الأولاد في البطون والفراخ في البيض وأمثالها في الظلمات ليغلب أنه لا يخفى عليه شيء. ثم إنشاء هذه الثمار والحبوب في الرق التي لا يَحْتَمِلُ [فيه] ^(٤) البرد والحر في الأكمام من وراء الحجب، وإسكانها فيها في حال صغفها، فإذا اشتدت، وقويت، أخرجهما في العلق، في ذلك لطف منه ونعمة عظيمة على خلقه. وفيه إثبات البعث من وجهين:

أحدهما: أن من قدر على إنشاء هذه الأشياء قادر على إعادة الخلق.

والثاني: أنه لما أنشأ لهم ما ذكر، ثم منهم من شكر هذه النعم، ومنهم من كفر، ثم استوتوا في هذه الدنيا. وفي الحكمة التفريق بينهما، فلا بد من دار أخرى، فيها يفرق بينهما.

وفيه لزوم الإمتحان؛ إذ لا يَحْتَمِلُ أن ينشئ لهم هذه النعم، ثم يتركهم سدى لا يستأدي شكر ما أنعم عليهم. ثم معرفة الشاكر منهم والكافر لا تعرف إلا بمعرفة يعرفهم، لأن مقدار الشكر وكيفية لا يعرفان ^(٥) بمجرد العقل، فيضطرهم إلى رسول يخبرهم عن الله تعالى ذلك، فيكون فيه إثبات الرسالة.

ثم في إخراج هذه الحبوب والفواكه كلها في وقت واحد من المشرق والمغرب على سني واحد في زمان واحد من غير تفاوت دليل على أن علمه وتدبيره أزلان ذاتان؛ إذ لم يمنعه شيء عن شيء.

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: فإنه. (٣) في الأصل وم: فإنه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يعرف.

ثم اتساق ذلك واتصال ما ذكر من منافع الأرض بمنافع السماء من غير مدخل من أحد دليل على وحدانيته؛ إذ لو كان ذلك فعل عدد ما جرى ذلك على سنن واحد على ما هو التدافع والتمانع في الأمر القائم بين اثنين عند الاختلاف، والله الموفق.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ذكر في خلق الإنسان أحوالاً مختلفة:

مرّة قال: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] والتراب هو الذي لم يصبه الماء.

ومرّة قال: خَلَقَهُ ﴿مِنْ طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢ و ١٠٠] والطين هو [التراب]^(١) الذي أصابه الماء، واغتنج. ومرّة قال: [خَلَقَهُ]^(٢) ﴿مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] واللازب هو الذي يلتصق باليد، ويلزقه، وهو الجير الخالص.

وقال مرّة: [خَلَقَهُ]^(٣) ﴿مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] وهو الذي اسودّ، وتغيّر من طول المكث.

ومرّة قال: [خَلَقَهُ]^(٤) ﴿مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] والصلصال هو الذي له صوت إذا حرك، وهو من صلصلة الحديد.

ويختلّ ﴿صَلْصَلٍ﴾ أي متين، يقال: صلّ البئر إذا اتّين، والفخار هو الذي تكسر إذا ييس.

وقال أبو عوسجة: الفخار الذي طبع.

فجائز أن تكون هذه الأحوال التي ذكرت على اختلافها في ذلك الإنسان: كان في الابتداء تراباً، ثم صار لازباً لأنه كان من جير الطين وخرو. ثم صار مسنوناً متيناً أسود لطول مكثه، وصلصلاً لكثرة تربيته ولجودته، يكون له صوت. وتشبيهه بالفخار يختلّ وجهين: تكسره^(٥) وييسه^(٦) لأنه كان ذا جوف كالفخار أو لطول المكث وكثرة التربة؛ إذ طين الفخار له هذه الصفات، والله أعلم.

الآية ١٥ وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾ الجان^(٧) ذكر أنه أبو الجن وأن^(٨) لفظة «الجان» الوُحْدَانُ، والجن جماعة.

وكذا قال أبو عوسجة: الجان.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾ قال بعضهم: المارج هو لهب النار، صافٍ، لا دخان فيه؛ يقال: مرّجت النار، إذا التهبّت، فالمارج على هذا النار التي فارقت الحطب، والتهبّت، وارتفعت عنه. وكذا قال أبو عوسجة: المارج ههنا اللهب من قولك: مرّج الشيء إذا اضطرب، ولم يستقر.

وعلى ما قال بعضهم في قوله: ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الفرقان: ٥٣ والرحمن: ١٩] أي خلط، وجمع بينهما، يجيء أن يكون خلّق الجان من نار غير منقطعة من الحطب ولا خالية من الدخان. وكذا قال أبو عبيد: ﴿مِنْ مَّارِجٍ﴾ أي من خلط من النار.

وعلى تأويل من قال في قوله: ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي أرسل أحدهما في الآخر؛ فهو يكون من نار منقطعة من الحطب.

وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة، إنما الحاجة إلى معرفة ما أودع من الحكمة في ما ذكر من خلق آدم ﷺ من التراب وخلق الجان من النار والفائدة في ذلك، والله أعلم.

يُخْبِرُ عَنْ قُدْرَتِهِ: أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ ذَلِكَ التُّرَابِ وإخراج جميع ما في الدنيا من الناس من نفس [واحدة]^(٩) لا يَحْتَمِلُ أَنْ يُعْجِزَهُ شَيْءٌ.

وكذلك ما ذكر من خلّق ألوان النار وإخراج ما أخرج منه من النسل حتى أخذ الدنيا بأسرها، لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، ولو^(١٠)

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لتكسره. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: أو. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الآية. (٨) في الأصل وم: وأنه. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: ولا ما.

اجْتَمَعَ حُكَمَاءُ الْبَشَرِ وَالْجِنِّ [ما] ^(١) أَذْرَكُوا الْمَعْنَى الَّذِي بِهِ أَنْشَأَ الْإِنْسَانَ مِنْهُ، وَأَخْرَجَ هَذَا الْخَلْقَ مِنْهُ. وَفِي ذَلِكَ وَجْهَانِ مِنَ الْحِكْمَةِ.

أَحْذَهُمَا: مَا ذَكَّرْنَا مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَعْثِ

وَالثَّانِي: أَنَّ كُلَّ مَا ذَكَرَ مِنَ الثَّقَلِ وَالتَّغْيِيرِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَإِخْرَاجِ مَا أَخْرَجَ مِنْهُ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ عَبَثًا بَاطِلًا. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بَعَثٌ لَكَانَ إِنْشَاءُ هَذَا الْخَلْقِ عَبَثًا بَاطِلًا، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

الآية ١٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيَأْتِي آءَالَهُ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: إِذَا لَمْ تُنْكِرُوا شَيْئًا مِنْ آيَاتِهِ، أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُ، فَمَا لَكُمْ تُنْكِرُونَ قُدْرَتَهُ عَلَى الْبَعْثِ وَغَيْرِهِ؟

الآية ١٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ كَقَوْلِهِ ^(٢) فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿تَلَا أَوَّلَ رَبِّي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] وَقَدْ ذَكَّرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

ثُمَّ دَلَّ قَوْلُهُ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿رَبِّي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ وَذَكَرَ الْحَدَّ لِهَمَا؛ أَعْنِي الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ فِي الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ عَلَى أَنَّهُمَا طَلَعَا [حَيْثُ طَلَعَا] ^(٣) بِأَمْرِ، وَغَرَبَا حَيْثُ غَرَبَا بِأَمْرِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَا بِأَمْرِ لَكُنْ بِأَنْفُسِهِمَا لَكَانَا يَظْلَعَانِ، وَيَغْرُبَانِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ وَالْأَطْرَافِ، وَلَا يَرْجِعَانِ إِذَا بَلَغَا مَكَانًا، وَلَا يَزْدَادَانِ، وَلَا يَنْقُصَانِ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ.

الآية ١٨ [وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيَأْتِي آءَالَهُ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾] ^(٤) هَذَا كَلْمُهُ مُنْشَأً لِلْبَشَرِ مُسَخَّرٌ لَهُمْ، فَيَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: مَا بَالُ الْمَجْعُولِ لَكُمْ أَظْهَرَ لَكُمْ تَعَالَى مِنْكُمْ حِينَ ^(٥) لَا يَتَجَاوَزُ الْحَدَّ الَّذِي جُعِلَ لَهُ، وَلَا يَتَعَدَّى أَمْرَ خَالِقِهِ ^(٦)؟ وَأَنْتُمْ تَتَجَاوَزُونَ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَتَتَعَدُّونَ حُدُودَهُ.

وَفِي الْآيَةِ [رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ] ^(٧) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ تَخْصِيصَ الشَّيْءِ بِالذَّكْرِ لَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ مَا عَدَاهُ؛ إِلَّا تَرَى أَنَّهُ خَصَّ رَبَّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبَّ الْمَغْرِبَيْنِ، وَلَمْ يَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِرَبِّ مَا بَيْنَهُمَا، أَوْ لَيْسَ بِرَبِّ مَا سِوَى الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٩ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَمِيحَانِ﴾ قِيلَ: جَمَعَ بَيْنَهُمَا، وَخَلَطَ. وَقِيلَ: أَحَدُهُمَا الْعَذْبُ، وَالْآخَرُ الْمَالِحُ. وَقِيلَ: ﴿يَلْتَمِيحَانِ﴾ أَيِ يَتَقَابِلَانِ.

الآية ٢٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَبْتَهِمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْيِغِيَانِ﴾ أَيِ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حِجَابٌ وَحَاجِزٌ ﴿لَا يَبْيِغِيَانِ﴾ قِيلَ: لَا يَخْتَلِطَانِ، وَلَا يَنْتَزِجَانِ، وَلَا يَتَغَيَّرُ طَعْمُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا.

يُخْبِرُ عَنْ لُطْفِهِ فِي مَتَابِعِهِمَا عَنِ الْإِمْتِزَاجِ / ٥٤٢ - ب/ وَمِنْ طَبِيعِ الْمَاءِ الْإِمْتِزَاجُ وَالْإِخْتِلَاطُ. فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى هَذَا لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَقِيلَ: ﴿لَا يَبْيِغِيَانِ﴾ أَيِ لَا يَتَجَاوَزَانِ حَدَّ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي حَدَّ لَهُمَا.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي الْبَحْرَيْنِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: أَحَدُهُمَا: بَحْرُ رُومٍ، وَالْآخَرُ: بَحْرُ هِنْدٍ، وَبَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ أَيِ مَكَانٌ ﴿لَا يَبْيِغِيَانِ﴾ أَيِ لَا يَخْتَلِطَانِ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَصَمِّ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: أَحَدُهُمَا: بَحْرُ السَّمَاءِ، وَالْآخَرُ: بَحْرُ الْأَرْضِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَنَنْتَحِلَا أَتُوبَ السَّمَاءِ بِمَاوُ مُنْتَهَرِ﴾ ﴿وَقَبَرْنَا الْأَرْضَ عِبُونَ﴾ فَالْتَفَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرِ قَدِّ قُدْرَةٍ [القمر: ١١ و ١٢].

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٨): ﴿يَبْتَهِمَا بَرْزَخٌ﴾ وَهُوَ الْهَوَاءُ وَالْأَرْضُ وَسُكَّانُ الْأَرْضِ، وَهَذَا أَيْضًا لُطْفٌ مِنْهُ تَعَالَى.

الآية ٢١ [وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيَأْتِي آءَالَهُ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾] ^(٩)

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ثم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: لهم ولا يتعدون أمر خالقهما. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: و. (٩) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢٢ وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْثُ وَالْمَرَجَانُ﴾: منهم مَنْ قَالَ: يَخْرُجَانِ^(١) مِنَ الْعَذْبِ وَالْمَالِحِ جَمِيعاً كما هو ظاهر الآية.

ومنهم مَنْ قَالَ: يَخْرُجَانِ مِنَ الْمَالِحِ خَاصَّةً دُونَ الْعَذْبِ، وَإِنْ كَانَتْ الْإِضَافَةُ إِلَيْهِمَا، وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي اللُّغَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿يَنْتَعَشِرُ اللَّيْنُ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾؟ [الأنعام: ١٣٠] ولم يَأْتِ مِنَ الْجِنِّ رُسُلٌ، وَذَلِكَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ. ثم قُرِئَ بِنَضْبِ الْيَاءِ وَرَفْعِ الْيَاءِ وَنَضْبِ الرَّاءِ^(٢)؛ فَالْأَوَّلُ عَلَى جَعْلِ الْفِعْلِ لِغَيْرِهِمَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢].

ثم اخْتَلَفَ فِي اللَّوْثِ وَالْمَرَجَانِ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: اللَّوْثُ مَا عَظَمَ مِنْهُ، وَالْمَرَجَانُ مَا صَغُرَ مِنَ اللَّوْثِ. ومنهم مَنْ قَالَ عَلَى الْعَكْسِ، وَكَثَرُوهُمْ عَلَى الْأَوَّلِ. كَذَلِكَ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكِ. وَكَذَا قَالَ أَبُو عَرَسَةَ: الْمَرَجَانُ صِغَارُ اللَّوْثِ وَالْوَحْدَةُ مَرَجَانَةٌ. وقيل: إِنَّ الْمَرَجَانَ الْمُخْتَلِطَ مِنَ الْجَوَاهِرِ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ: مَرَجْتُ أَيِ غَلَطْتُ. وقيل: إِنَّهُ ضَرْبٌ خَاصٌّ مِنَ الْجَوْهَرِ مِنَ الْبَحْرِ.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: إِذَا جَاءَ الْقَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ انْفَتَحَتِ الْأَصْدَافُ، فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ اللَّوْثُ. وقيل: إِنَّمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْثُ وَالْمَرَجَانُ﴾ وَإِنَّمَا يَخْرُجُ اللَّوْثُ مِنَ الْعَذْبِ دُونَ الْمَالِحِ لِأَنَّ الْعَذْبَ وَالْمَالِحَ يَلْتَقِيَانِ، فَيَكُونُ الْعَذْبُ لِقَاحاً لِلْمَالِحِ كَمَا يُقَالُ: يَخْرُجُ الْوَلَدُ مِنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَإِنَّمَا تِلْكَ الْأُنْثَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. **الآية ٢٣** [وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾]^(٣).

الآية ٢٤ وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَوَارِثُ الْبَنَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [عَنِ إِبْرَاهِيمَ، رَجَمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ قَرَأَ: الْمُنْشِثَاتُ]^(٤) بِكسْرِ الشَّيْنِ^(٥)، وَفَسَّرَ بَعْضُ النَّاسِ الْمُنْشِثَاتُ أَيِ ظَاهِرَاتِ السَّيْرِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَرَأَهَا بِفَتْحِ الشَّيْنِ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: وَبِهَا يُقْرَأُ لِأَنَّهُ تَفْسِيرُهَا أَنَّهَا الَّتِي رُفِعَ قَلْعُهَا فِي الْبَحْرِ، فَهِيَ الْآنَ مُقْلَعٌ^(٦) بِهَا، فَقِيلَ: الْمُنْشِثَاتُ، وَهِيَ الْمُرْتَفَعَاتُ [الْقُلُوعُ]^(٧) وَالَّتِي لَمْ [تُرْفَعْ قُلُوعُهَا]^(٨) فَلَيْسَتْ بِمُنْشِثَاتٍ. وقيل: الْمَخْلُوقَاتُ وَالْجَوَارِي هِيَ الشُّقُنُ الْمُنْشِثَاتُ.

وقوله تعالى: ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ أَيِ هِيَ فِي الْبَحَارِ كَالْجِبَالِ فِي الْبَرَارِي. قِيلَ: وَهِيَ الْأَعْلَامُ أَنْفُسُهَا.

ثم فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي ذُكِرَتْ وَجْهٌ مِنَ الْحِكْمَةِ وَإِبَاتِ الْقُدْرَةِ لِلَّهِ تعالى:

أَحَدُهَا: أَنَّ مَنْ قَدَّرَ عَلَى تَسْخِيرِ الْبَحَارِ وَإِنْشَاءِ مَا فِيهَا، وَعَلَّمَ إِخْرَاجَ مَا فِيهَا الْأَدْمِيَّ وَاتِّخَاذَ الشُّقْنِ وَإِجْرَاءَهَا فِي الْبَحَارِ لِلْوُصُولِ إِلَى الْمَنَافِعِ الَّتِي فِي الْبُلْدَانِ النَّائِيَةِ قَادِرٌ عَلَى الْبَعْثِ وَغَيْرِهِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ لَا مَسِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا فِي الْبَحَارِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَاتِّخَاذِ الشُّقْنِ وَإِجْرَائِهَا فِي الْبَحَارِ وَمَعْرِفَةِ مَا وَرَاءَ الْبَحَارِ مِنَ الْبُلْدَانِ النَّائِيَةِ، وَمَا فِيهَا إِلَّا بِخَبَرِ الرُّسُلِ.

فَيَقُولُ^(٩)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: مَا بِالْكُمِ صَدَّقْتُمُ الرُّسُلَ وَالْأَوَائِلَ فِي مَا يَرْجِعُ إِلَى مَنَافِعِكُمُ الدُّنْيَوِيَّةِ؟ وَلَمْ تُصَدِّقُوهُمْ فِي مَا يَرْجِعُ إِلَى الدِّينِ وَالْآخِرَةِ مِنَ الْوَعِيدِ.

أَوْ يَقُولُ: مَا بِالْكُمِ لَا تُنْكِرُونَ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي جَعَلَهَا لَكُمْ أَنِهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؟ فَكَيْفَ تُنْكِرُونَ مَا أَنَاكُمْ بِهِ الرُّسُلُ تعالى؟

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَخْرُجُ. (٢) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٧/٤٧. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٧/٤٩. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مَقْلُوعٌ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرْتَفِعُ قَلْعُهَا. (٩) هَذَا هُوَ الْوَجْهُ الثَّلَاثُ.

ثم في قوله: ﴿وَلَهُ الْكِبَرُ الْمُنْتَهَىٰ فِي الْبَرِّ كَالْأَكْبَرِ﴾ دلالةً تَقْضِي قولَ المعتزلة في إنكارهم خَلْقَ أفعالِ العباد؛ فإنه أضاف السُّقُنَ إلى نفسه بقوله: ﴿وَلَهُ الْكِبَرُ الْمُنْتَهَىٰ﴾ وقد اتَّخَذَهَا بَنُو آدَمَ بأفعالهم. فلو لم يَكُنْ لَهُ في أفعالهم صُنْعاً لَكَانَتْ السُّقُنُ لَهُمْ لَا لَهُ، والله أعلم.

الآية ٢٥ وقوله تعالى: ﴿يَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكَ تَكْذِبِينَ﴾ إذا لم تُكْذِبْ شيئاً من الآءِ رَبِّكَما أنه من الله تعالى، ولم تُكْذِبْ ما أتاكم من الأخبار في منافع الدنيا، فكيف تُكْذِبَانِ أخبارَ الرسل ﷺ بعد ما جاؤوا بالآيات والحجج؟.

الآيات ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَبَقِيَ رَبُّكَ ذُو الْمَلَكِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ﴿يَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكَ تَكْذِبِينَ﴾ ^(١) يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدها: أي مُلْكُ كُلِّ مَنْ فِي الْأَرْضِ فَانٍ، وَبَقِيَ مُلْكُ رَبِّكَ أَبَداً دائماً.

والثاني ^(٢): سلطانُ كُلِّ مَنْ عَلَيْهَا، أو قُوَّةُ كُلِّ مَنْ عَلَيْهَا، وقُدْرَتُهُ، فإن، وَبَقِيَ سلطانُ رَبِّكَ وقُدْرَتُهُ ورُبُوبِيَّتُهُ لِيَعْلَمَ أَنَّ مُلْكَهُ وَسُلْطَانَهُ بِذَاتِهِ لَا بِالْخَلْقِ وَلَا ^(٣) يَكُونُ فَنَاءُهُمْ وَذَهَابُهُمْ يُدْخِلُ نَقْصاً أو وَهْناً فِي مُلْكِهِ، خِلَافَ مُلْكِ ملوكِ الْأَرْضِ وَسُلْطَانِهِمْ.

[والثالث] ^(٤): جائزٌ أَنْ يَكُونَ قَالَ هَذَا عَلَى الْإِيَّاسِ لِلْكُفْرَةِ وَقَطْعِ الرِّجَاءِ عَنْ عِبَادَةِ مَنْ عَبَدُوا دُونَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ وَمَنْ ^(٥) يَخْدُمُونَهُمْ؛ كَأَنَّهُ ^(٦) يَقُولُ: كُلُّ مَنْ عَبْدَ دُونَهُ، أو خَدَمَ، أو عَمِلَ، لَا لِيُوجِبَ اللَّهُ فَكُلَّهُ فَإِنْ ذَاهَبَ إِلَّا مَا عَمِلَ لِيُوجِبَ اللَّهُ فَإِنَّهُ بَاقٍ، والله أعلم.

والباطنية يقولون: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي النَّفْسُ الْجَسَدَانِيَّةُ، وَبَقِيَ النَّفْسُ الرُّوحَانِيَّةُ أَبَداً، لَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِذَا فَنِيَتْ هَذِهِ الْأَجْسَادُ يُنْشِئُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَاتِ أَنْفُساً رُوحَانِيَّةً تَبْقَى أَبَداً.

وَيَحْتَمِلُ ﴿وَبَقِيَ رَبُّكَ﴾ أي كُلُّ مَا يَطْلُبُ مِنَ الْعَمَلِ وَغَيْرِهِ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى، فَكُنِيَ بِالْوَجْهِ عَنِ الرِّضَا. وقوله ﷻ: ﴿ذُرِّ الْمَلَكِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ^(٧) يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: عَلَى الْخَلْقِ ^(٨) إِجْلَالُ خَلْقِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ وَتَعْظِيمُ ذَلِكَ.

والثاني: [على] ^(٩) أَنْ يَجِلَّ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، أي مِنْهُ إِجْلَالٌ مَنْ أَجَلَ فِي الدُّنْيَا وَإِكْرَامٌ مَنْ أَكْرَمَ فِي الْآخِرَةِ، والله أعلم.

الآيتان ٢٩ و ٣٠ وقوله تعالى: ﴿يَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكَ تَكْذِبِينَ﴾ ﴿يَسْتَلْزَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿يَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكَ تَكْذِبِينَ﴾ ^(١٠) يُخْبِرُ اللَّهُ ﷻ عَنْ فَرْعِ أَهْلِ السَّمَاءِ وَأَهْلِ الْأَرْضِ إِلَيْهِ عِنْدَ الْإِيَّاسِ مِنَ الْخَلْقِ وَانْقِطَاعِ الرِّجَاءِ عَنْهُمْ، وَهُوَ يَذْكُرُ أَنَّهُ الْمَفْرُغُ فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا وَلِلْخَلَائِقِ كُلِّهِنَّ، وَمَنْ يَسْأَلُونَ الرِّزْقَ وَالنَّجَاةَ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ: ﴿قُلْ مَنْ يُنْعِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ﴾ الآية [الأنعام: ٦٣] وقوله ﷻ: ﴿قُلْ اللَّهُ يَتَجَكَّمُ بَيْنَا وَبَيْنَ كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: ٦٤] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضَرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَرِّ﴾ [الإسراء: ٦٧].

هذا صَلَةٌ قَوْلِهِ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَبَقِيَ رَبُّكَ ذُو الْمَلَكِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الآيتان: ٢٦ و ٢٧].

يقول، والله أعلم: شأْنُهُ وَأَمْرُهُ بَاقٍ دَائِمٌ أَبَداً وَذَهَابُ الْخَلْقِ لَا يُدْخِلُ نَقْصاً فِي شَأْنِهِ وَأَمْرِهِ وَلَا وَهْناً فِي سُلْطَانِهِ وَمُلْكِهِ، بَلْ هُوَ فِي شَأْنِهِ وَأَمْرِهِ عِنْدَ فَنَائِهِمْ كَهُوَ فِي حَالِ حَيَاتِهِمْ.

وجائزٌ أَنْ يَكُونَ مَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّ الْيَهُودَ قَالَتْ: إِنَّ اللَّهَ اسْتَرَاخَ يَوْمَ السَّبْتِ، لَا يَقْضِي بِشَيْءٍ، وَلَا يَحْكُمُ، وَلَا يَأْمُرُ، وَلَا يَقْعُلُ فِعْلاً، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ مِنْ إِحْدَاثِ وَإِفْنَاءِ وَإِحْيَاءِ وَإِمَاتَةٍ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: يحتمل. (٣) في الأصل وم: حتى. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: وما.

(٦) في الأصل وم: كأنهم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: خلق. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وأصله أن الله تعالى إذا وُصِفَ بالأزلي يُقال: عالم لم يزل، رازق بذاته لم يزل، وإذا ذُكِرَ بأمرٍ وتدبيرٍ مُضافٍ إلى الخلق يوصف على ذكر الوقت، فيكون الوقت للخلق لا له نحو أن يقال: إن الله تعالى لم يزل عالماً بجلوسك ههنا أو في هذا الوقت، أي لم يزل عالماً أين تجلس الآن أو تجيء الآن، أو في هذا الوقت.

وإذا وصفت بالماضي قلت: لم يزل عالماً بما كان بالماضي، وبالمستقبل^(١) لم يزل عالماً بما يكون أنه يكون في وقت كذا، وبالحال لم يزل عالماً بكونه كائناً للحال ونحو ذلك نفياً لوقوع الخلق أن المخلوق كيف يكون في الأول.

فعلى ذلك قوله ﷻ: ﴿كَلَّ يَوْمَ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ذكر اليوم والوقت لثلاث ٥٤٣ - ١ / يتوهم كون الخلق قديماً، والله أعلم.

الآيتان ٣١ و ٣٢ وقوله تعالى: ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ النَّقْلَانِ﴾ [﴿يَأَيُّ مَالِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾]^(٢) قرئ ﴿سَنَفَعُ﴾ بالنون والياء^(٣) ويرفع الراء في الحالين.

قال أبو عبيد: بالياء يقرؤها [حمزة والكسائي وغيرهما]^(٤) كقولهِ تعالى: ﴿يَسْأَلُهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية: ٢٩] ذكّر على المغايبة.

فكذلك هذا الذي بُني عليه. قال الزجاج: قوله تعالى: ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ﴾ ليس هو الفراغ عن الشغل، لكن كما يقول الرجل لآخر: سافع لك كذا أي ساجعل لك، أو كلاماً نحوه.

ومنهم من يقول: هذا على الوعيد؛ في كلام العرب يقول الرجل: سافع لك، وإني لفارع على الوعيد. وقال أبو بكر الكيساني: إن الفراغ ليس يستعمل في الفراغ من الشغل خاصة، لكن يستعمل له ولغيره من نحو إنجاز ما وعد، وأوعد، كأنه قال: سننجز لكم ما أوعدتكم ﴿أَيُّهُ النَّقْلَانِ﴾.

وعندنا أن الفراغ هو اسم لانقضاء الفعل وتمايمه لا للفراغ من الشغل؛ يقال: فلان فرغ من شغله، إذا فرغ من بناء داره، إذا أتمه، وانقضى ذلك.

الآ ترى أنه، وإن فرغ من شغل تلك الدار وذلك العمل، فهو مشغول بغيره؟ دل أنه ليس باسم للفراغ من الشغل؛ إذ لو كان اسماً للفراغ من الشغل لا يوصف به، وهو مشغول بغيره. دل أنه اسم للتمام والانقضاء. لكن فهم الخلق بعضهم من بعض الفراغ من الشغل لما أن فعلهم الشيء لا يلتزم إلا بالشغل في ذلك، ففهم ذلك من فعلهم.

فأما الله ﷻ حين^(٥) لا يشغله فعل عن فعل ولا شيء عن شيء لم يجر أن يفهم من فراغه من الشغل فراغه، وبالله العزيمة والتوفيق.

الآيتان ٣٣ و ٣٤ وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ الْمَوْتَى وَالْأَمْوَاتِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [﴿يَأَيُّ مَالِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾]^(٦) له تاويلان:

أحدهما: كأنه لو مكن لكم النفاذ من أقطار السموات والأرض ونواحيها، فانفذوا، فتجدوا هنالك، وتروا من آيات من كذب بالرسول ﷺ وما حل بهم بالكذب.

ثم قال: ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي لا تنفذون، لو مكن لكم من النفاذ، إلا تجدون حجب من أهللك منهم ظاهرة أنه يم أهلكتهم؟ وهو كقولهِ تعالى: ﴿قُلْ يَسِّرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١] أمرهم بالسير في الأرض والتدبر في آثار من أهللك بماذا أهللك من أهللك منهم، وبماذا نجا من نجا، والله أعلم.

والثاني: على الإعجاز أي لا تستطيعون أن تخرجوا أو تنفذوا من أقطار السموات والأرض. ولو مكن لكم من النفاذ والخروج منها لوجدتم ثم سلطاني وحججي وملكي هنالك قائماً، أي لا تقدرون على الخروج من سلطاني وملكي حيثما

(١) من م، في الأصل: بالمستقبل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم الآيات القرآنية ج ٧ / ٥٠. (٤) انظر المرجع السابق: الجزء والصفحة. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم.

كُنْتُمْ، بل حيثما سِرْتُمْ وَكُنْتُمْ [فانتُمْ] (١) في سُلْطَانِي وَمُلْكِي، فلا تَتَخَلَّصُونَ مِنَ الْمَوْتِ وَالْهَلَاكِ، وهو كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْتَفِعُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي السَّمَاءِ﴾ الآية [الأنعام: ٣٥].

وَقَالَ الضُّحَّاكُ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: ﴿بَنَسْتَرُ لَيْلٍ وَالْإِصْبَحِ﴾ قد جاء أَجْلُكُمْ فَانْقُدُوا مِنْ أَقْطَارِهِمَا ﴿لَا تَقْدُورُ إِلَّا بِسُلْطَانِي﴾ مني؛ يعني أنه لا يُنْجِيكُمْ أَحَدٌ مِنَ الْمَوْتِ، وأنتم مَيِّتُونَ، أي لا تَأْتُونَ قُطْرًا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا تَجِدُونَ (٢) هنالك سُلْطَانَ اللَّهِ وَمَلَكُوتَهُ.

يقول: لا تَسْتَطِيعُونَ فِرَارًا مِنَ الْمَوْتِ وَلَا مَحِيصًا، وَإِنْ نَفَذْتُمْ مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَلَنْ تَخْرُجُوا مِنْ سُلْطَانِي، وَأَنَا أَخُذُكُمْ بِالْمَوْتِ حَيْثُ كُنْتُمْ، وهو كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنِمَّا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتٍ مُتَشَتِّتَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى مَلَائِكَةً عِنْدَ الْحَشْرِ، فَيَحِيطُونَ بِالدُّنْيَا، فلا يَسْتَطِيعُ شَيْطَانٌ وَلَا إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ [يَكُونُ فِي أَقْطَارِهَا] (٣) أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْأَقْطَارِ، وَلَوْ خَرَجُوا كَانُوا فِي سُلْطَانِ اللَّهِ.

وَقِيلَ: ﴿إِلَّا بِسُلْطَانِي﴾ أي بِحُجَّةٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: إِلَّا بِمُلْكٍ. وَقَالَ [بَعْضُهُمْ] (٤): إِلَّا بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم أَوْعَدَهُمْ، فَقَالَ: ﴿بُرْسُلٌ عَلَيْكَ شَوَاطِلٌ مِنْ نَارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنْصِيرَانِ﴾ قُرِئَ ﴿شَوَاطِلٌ﴾ بِضَمِّ الشَّيْنِ وَكَسْرِهَا (٥).

وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ بِالْكَسْرِ وَكَذَا عَنْ مُجَاهِدٍ، وَقُرِئَ ﴿وَنَحَاسٌ﴾ بِكَسْرِ السَّيْنِ وَضَمِّهِ (٦). فَمَنْ رَفَعَ ﴿وَنَحَاسٌ﴾ عَطَفَهُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿شَوَاطِلٌ﴾ وَمَنْ كَسَرَهُ عَطَفَهُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿مِنْ نَارٍ﴾.

ثم اخْتَلَفَ فِي تَأْوِيلِ الشَّوَاطِلِ وَالنَّحَاسِ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه النَّحَاسُ الدُّخَانُ. وَقِيلَ: الشَّوَاطِلُ هِيَ لَهَبُ النَّارِ، وَالَّذِي لَا دُخَانَ فِيهِ، وَالنَّحَاسُ هُوَ الدُّخَانُ.

وَعَنِ الْكَلْبِيِّ: الشَّوَاطِلُ لَهَبُ النَّارِ، وَالنَّحَاسُ الصُّفْرُ الَّذِي يُذَابُ، فَيَذُوبُ (٧) بِهِ.

وَقِيلَ: الشَّوَاطِلُ هِيَ الدُّخَانُ، وَالنَّحَاسُ هُوَ النَّحَاسُ الْمَعْرُوفُ، يُذَابُ، وَيُصَبُّ عَلَى رُؤُوسِهِمْ.

وَقَالَ الضُّحَّاكُ: الشَّوَاطِلُ الدُّخَانُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ اللَّهَبِ، لَيْسَ بِدُخَانِ الْحَطَبِ، وَالنَّحَاسُ الصُّفْرُ.

فَمَنْ قَرَأَ بِالْحَفْظِ يَقُولُ: لَهَبٌ مِنْ نَارٍ وَمِنْ دُخَانٍ، وَمَنْ قَرَأَ بِالرَّفْعِ، أَرَادَ بِهِ الصُّفْرَ؛ يَقُولُ: ﴿بُرْسُلٌ عَلَيْكَ شَوَاطِلٌ مِنْ نَارٍ وَنَحَاسٌ﴾ ذَائِبٌ فِي النَّارِ، وَقِيلَ: النَّحَاسُ فِي الْقِرَاءَتَيْنِ، يَحْتَمِلُ الدُّخَانَ، وَيَحْتَمِلُ الصُّفْرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَنْصِيرَانِ﴾ قِيلَ: لَا تَمْتَنِعَانِ مِنْ ذَلِكَ، وَيَحْتَمِلُ أَي [لَا] (٨) نَاصِرَ لَكُمَا كَمَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّهُ قَدْ ذَكَرَ فِي أَوَّلِ الْآيَاتِ الْآلَاءِ وَالنُّعَمَ، فَقَرَنَ بِأَحَدِهِمَا ﴿فِي أَيِّ آلَاءٍ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ وَقَدْ انْقَطَعَ ذِكْرُ الْآلَاءِ ههنا، وَذَكَرَ الْمَوَاحِدَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، فَمَا فَائِدَةُ قِرَائِنِ قَوْلِهِ ﴿فِي أَيِّ آلَاءٍ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ بِأَخْرِجِهَا؟ قِيلَ: إِنَّ الْوَعْدَ تَرْغِيبٌ، وَفِي التَّوَعِيدِ تَرْهِيبٌ، فَيَرْغَبُ فِي الْوَعْدِ، وَيُخَافُ، وَيَرْهَبُ مِنَ التَّوَعِيدِ، فَيَرْتَدُّ عَمَّا يُوعَدُ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ نِعْمَةً عَظِيمَةً؛ إِذْ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ تَتِمُّ الْمُنْعَةُ، وَبِالْمُنْعَةِ تَتِمُّ النُّعْمَةُ.

لِذَلِكَ ذَكَرَ عَلَى إِثْرِ التَّوَعِيدِ: ﴿فِي أَيِّ آلَاءٍ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ﴾.

الْآيَتَانِ ٣٧ وَ ٣٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [فِي أَيِّ آلَاءٍ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ] (٩) يَذْكُرُ تَغْيِيرَ هَذَا الْعَالَمِ يَوْمَئِذٍ وَقَوْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَهُوَ كَمَا ذَكَرَ مِنْ تَبْدِيلِ السَّمَاءِ حِينَ (١٠) قَالَ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٤٨] وَقَالَ (١١): ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وَغَيْرَ (١٢) ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَ مِنْ تَغْيِيرِ الْجِبَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَبْكَ مَنشُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وَقَوْلِهِ: ﴿كَيْبًا مَهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] وَقَوْلِهِ: ﴿كَالْمُهَيْبِ الْمُنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وَنَحْوِ ذَلِكَ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وجدوا. (٣) أدرجت في الأصل وم بعد: بالدنيا. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥٢/٧. (٦) انظر المرجع السابق والصفحة. (٧) في الأصل وم: فيذيبون. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: وقوله. (١٢) في الأصل وم: في غير.

ثم قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ زُرْقَةً ۖ كَالَّذِينَ﴾ منهم مَنْ قَالَ: شَبَّهَ السماءَ لِكَثْرَةِ تَلَوْنِهَا بِفَرْشِ الوردِ؛ يَكُونُ فِي الرَّبِيعِ بِلَوْنِ، ثم يَصِيرُ إِلَى لَوْنٍ آخَرَ ثم إِلَى آخَرَ. فَعَلَى ذَلِكَ مَا ذَكَرَ مِنْ تَغْيِيرِ السماءِ وَتَلَوْنِهَا.

ومِنْهُمْ مَنْ قَالَ: شَبَّهَهَا بِالذَّهَانِ، وَهُوَ الدُّهْنُ، لِيلِينِهَا وَضَعْفِهَا، وَهُوَ كَمَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨] وَ الْمُهْلُ هُوَ دُرْدِيُّ الرَّبْتِ. لَكِنَّ التَّشْبِيهَ بِالْمُهْلِ إِنَّمَا يَكُونُ لِكَثْرَةِ التَّلَوْنِ لَا لِلَّيْنِ. فَيَكُونُ فِي هَذَا التَّأْوِيلِ نَوْعٌ وَفِي^(١)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقيلَ إِنَّمَا تَحْمَرُّ، وَتَدُوبُ كَالذَّهْنِ.

وَرُويَ أَنَّ سَفَاءَ الدُّنْيَا مِنْ حَدِيدٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صَارَتْ مِنَ الْخُضْرَةِ إِلَى الْإِخْمَرِ مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ إِذَا حُمِيَ بِالنَّارِ.

ثم قَالَ بَعْضُهُمْ: الذَّهَانُ جَنْعُ الذَّهْنِ، وَيُقَالُ: الذَّهَانُ الْأَدِيمُ الْأَحْمَرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٩ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُنْفَعُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ اِخْتَلَفَ فِي تَأْوِيلِهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: أَي لَا يُسْأَلُ إِنْسِي وَلَا جِنِّي عَنْ ذَنْبٍ غَيْرِهِ، إِنَّمَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبٍ نَفْسِي نَحْوُ مَا يُسْأَلُ عَنْ أَضَلِّ غَيْرِهِ عَنْ ضَلَالِ ذَلِكَ الْغَيْرِ، إِنَّمَا يُسْأَلُ الَّذِي أَضَلَّهُ عَنْ إِضْلَالِهِ، وَيُسْأَلُ الضَّالُّ عَنْ ضَلَالِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ جَمْعَهُمَا نَحْتَأَقْدِرُهُمَا﴾ الْآيَةُ [فصلت: ٢٩]

ومِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَا يُسْأَلُ بَعْضٌ عَنْ بَعْضٍ، أَي لَا يُسْأَلُ جِنِّي عَنْ ذَنْبِ إِنْسِي وَلَا إِنْسِي عَنْ ذَنْبِ جِنِّي.

ومِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَا يُسْأَلُونَ سُؤَالَ اسْتِخْبَارٍ وَاسْتِفْهَامٍ / ٥٤٣ - ب/ أَي مَاذَا^(٢) فَعَلْتُمْ؟ وَلَكِنْ يُسْأَلُونَ لِمَ فَعَلْتُمْ [مَا فَعَلْتُمْ]^(٣)؟ يُسْأَلُونَ^(٤) عَنْ الْحُجَّةِ لَا عَنْ نَفْسِ الْفِعْلِ، لِأَنَّ كُلَّ ذِي مَذْهَبٍ وَدِينٍ إِنَّمَا يَقْعَلُ لِحُجَّةٍ، تَكُونُ لَهُ.

ومِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَا يُسْأَلُونَ عَنْ ذُنُوبِهِمْ لِمَا يَكُونُ فِي وَجْهِهِمْ مِنَ الْأَعْلَامِ مِنَ الْأَسْوَدَادِ وَزُرْقَةِ الْعُيُونِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرَ فِي الْكِتَابِ أَنَّمَا تَكُونُ لِلْكَفَّارِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجُوهُهُمْ يَوْمَئِذٍ غَيَّرَ﴾ [عبس: ٤٠] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسُودَتْ وَجُوهُ قَوْمًا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ١٠٦]. وَمَا ذَكَرَ مِنْ أَعْلَامِ الْمُؤْمِنِينَ كَقَوْلِهِ^(٥) تَعَالَى: ﴿وَجُوهُهُمْ يَوْمَئِذٍ نَّارٌ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

وقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يُسْأَلُ الْمَلَائِكَةُ عَنِ الْمُعْجَمِينَ لِأَنَّهُمْ يُعْرِفُونَ بِسِيمَاهُمْ.

الآية ٤٠ [وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا آلَ آدَمُ رَكِبُوا إِلَى نَجْوَى نُوحٍ بِرَكْبِكُمْ﴾]

الآية ٤١ وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُسْلِمِينَ﴾ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ لِلْمُجْرِمِينَ أَعْلَامًا يُعْرِفُونَ بِهَا آخِرَةَ بِهَا عَلَى مَا ذَكَرَ^(٦) مِنَ الْأَسْوَدَادِ الْوُجُوهِ، وَقَالَ: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النَّازِعَاتِ: ٩٨] وَقَالَ^(٧): ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْظُرَ وَجُوهًا فَرْدًا عَلَى آذَانٍهَا﴾ [النِّسَاءِ: ٤٧] أَي أَعْقَابِهَا.

فَهُمْ^(٨)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، تَكُونُ وَجُوهُهُمْ فِي أَوَّلِ الْأَحْوَالِ خَاشِعَةً ثُمَّ غَيْرَةً ثُمَّ مُسَوَّدَةً، ثُمَّ تُنْظَرُ مِنْ نَظَرٍ ذَلِكَ. فَتَعْبُدُ بِاللَّهِ مِنْ تِلْكَ الْأَحْوَالِ الَّتِي ذَكَرَ.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَأْتِي السَّيِّئُ وَالْأَقْبَامُ﴾ قِيلَ: تُكْسَرُ أَضْلَاعُهُمْ وَظُهُورُهُمْ، فَتُجْمَعُ أَقْدَامُهُمْ وَنَوَاصِيهُمُ، فَيَرْمَى بِهِمْ فِي النَّارِ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: تُغْلَى أَيْدِيهِمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ، ثُمَّ تُجْمَعُ بِهَا^(٩) نَوَاصِيهِمْ وَأَقْدَامُهُمْ، ثُمَّ يُدْفَعُونَ إِلَى النَّارِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهَذَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لِمَاذَا. (٣) أَدْرَجْتَ فِي الْأَصْلِ وَم بَعْدَ: مَاذَا فَعَلْتُمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَطْلُبُونَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ قَوْلِهِ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَرْنَا. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهِيَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهِ.

الآية ٤٢: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكْذِبُوا﴾^(١).

الآية ٤٣: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَذِيَّةٌ جَهَنَّمَ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْكَافِرُونَ﴾ أي إذا وَقَعُوا عَلَى الوَصْفِ [الذي]^(٢) ذَكَرَ، عِنْدَ ذَلِكَ يَقَالُ لَهُمْ^(٣): هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُكَذِّبُونَ بِهَا فِي الدُّنْيَا.

الآية ٤٤: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَطُوفُونَ فِيهَا فِي حَمِيمٍ مَّا﴾ أي يَطُوفُونَ بَيْنَ جَهَنَّمَ وَبَيْنَ حَمِيمٍ. فَيَجُوزُ أَنَّهُ كُنِيَ بِجَهَنَّمَ عَمَّا يَأْكُلُونَ، وَهِيَ النَّارُ، وَالْحَمِيمُ عَمَّا يَشْرَبُونَ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: يَطُوفُونَ بَيْنَ مَا يَأْكُلُونَ وَبَيْنَ مَا يَشْرَبُونَ: لَا يَشْبَعُونَ مِمَّا يَأْكُلُونَ، وَلَا يُزَوِّونَ مِمَّا يَشْرَبُونَ، بَلْ كُلَّمَا أَكَلُوا زَادَتْهُمْ جُوعاً، وَكُلَّمَا شَرَبُوا زَادَتْهُمْ عَطَشاً. وَالْحَمِيمُ، هُوَ الشَّرَابُ الَّذِي جُعِلَ لَهُمْ. وَالْأَنبِي، هُوَ الَّذِي قَدْ انْتَهَى حَرُّهُ غَايَتُهُ.

الآية ٤٥: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكْذِبُوا﴾ مِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكْذِبُوا﴾ عَلَى إِفْرِ الرَّعِيدِ إِنَّمَا يَقَالُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكْذِبُوا﴾ فِي الدُّنْيَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَسَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْتِزِعُكُمْ مِنْ دُونِ مَا أَنْتُمْ بِعَالِمِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خِرَنَّتَابَا أَلَمْ يَأْكُلُوا مِنْ رِزْقِنَا﴾ الْآيَةُ [الزمر: ٧١].

الآيتان ٤٦ و ٤٧: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكْذِبُوا﴾]^(٤) ذَكَرَ الْخَوْفَ مِنَ الْمَقَامِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، وَلَمْ يُبَيِّنْ خَوْفَهُ مَا هُوَ^(٥)؟ وَلَا أَنَّهُ إِذَا خَافَهُ تَرَكَهُ، أَوْ لَا.

فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْخَوْفِ مِنَ الْمَقَامِ بَيْنَ يَدَيْ [رَبِّهِ]^(٦) مَا بَيَّنَّ فِي آيَةٍ أُخْرَى، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْأُولَى﴾]^(٧) [النازعات: ٤٠ و ٤١] [وَهُوَ]^(٨) يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مَنَعَ النَّفْسَ عَمَّا تَهْوَاهُ.

وَالثَّانِي: مَنَعَ النَّفْسَ عَنْ أَنْ تَهْوَى مَا نُهِيتَ عَنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيَانٌ مَا ذَكَرَ فِي تِلْكَ الْآيَةِ مِنَ الْخَوْفِ مِنَ الْمَقَامِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، أَيْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ، وَتَرَكَ مَا هُمُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، أَوْ مَا هَوَتْ نَفْسُهُ.

ثُمَّ لَسْنَا نَعْرِفُ مَا فَائِدَةُ ذِكْرِ الْجَنَّتَيْنِ لَهُ؟ لَيْسَ ذَلِكَ فِي ثَلَاثٍ أَوْ أَرْبَعٍ.

قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: إِنَّمَا ذَكَرَ جَنَّتَيْنِ لِأَنَّ الْجَنَاتِ أَرْبَعٌ:

جَنَّةُ عَذْنٍ، وَفِرْدَوْسٌ، وَجَنَّةُ الْمَأْوَى، وَجَنَّةُ النَّعِيمِ لِلْمُقَرَّبِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّادِقِينَ.

فَالْجَنَّتَانِ الْأُخْرَيَانِ لِمَنْ دَوَّنَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمُ أَصْحَابُ^(٩) الْيَمِينِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يُخْرَجَ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ بَصَرُهُ إِذَا نَظَرَ يَمِيناً وَشِمَالاً لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى جَنَّتِهِ، لَا يَقَعُ عَلَى جَنَّةٍ غَيْرِهِ، وَكَذَلِكَ إِذَا نَظَرَ مِنْ الْأَعْلَى أَوْ مِنَ الْأَسْفَلِ لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى مُلْكِهِ وَجَنَّتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالثَّانِي: أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّتَانِ: إِحْدَى الْجَنَّتَيْنِ لِتَرْكِ الْمَسَاوِي، وَالْأُخْرَى لِإِتْيَانِ الْمَحَابِينِ.

وَذَكَرَ الْقَتَبِيُّ عَنِ الْفَرَّاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ قَالَ: قَدْ يُسَمَّى الْعَرَبُ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ بِاسْمِ الْإِثْنَيْنِ إِذَا كَانَ [فِي رَأْسِ الْكَلَامِ أَوْ مَقَاطِعِهِ]^(١٠) لِتَحْقِيقِ الْمُوَافَقَةِ فِي الْمَقَاطِعِ.

فَعَلَى ذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَكَرَ ﴿جَنَّاتٍ﴾ لِمُوَافَقَةِ مَقَاطِعِ الْآيَةِ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ جَنَّةٌ وَاحِدَةٌ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: له. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ذا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: لأصحاب. (١٠) في الأصل وم: رؤوس الآية ومقاطعها.

لَكُنَّ الْقُتْبَى أَنْكَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَقَالَ^(١): إِنَّمَا يُقَالُ ذَلِكَ إِذَا انْقَطَعَ الْكَلَامُ. فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْكَلَامُ غَيْرَ مُنْقَطِعٍ فَإِنَّهُ لَا يُقَالُ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ سَمِيَ الْبَغْتُ مَقَامًا يَنْ يَدِي رَبِّهِ. وَسَمَاءُ رَجوعاً إِلَيْهِ وَيُروى: فَهُوَ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ سَمَاءُ بِمَا ذَكَرَ لِأَنَّ الْبَغْتُ هُوَ نَهَايَةُ هَذَا الْعَالَمِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ سَمَاءُ بِذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَظْهَرُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، لِأَنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَلِأَنَّ التَّذْيِيرَ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِأَنَّهُ لَا تَذْيِيرَ لِأَحَدٍ سِوَاهُ كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ثُمَّ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْجَنَّتَيْنِ لِلْسَّابِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ، وَمَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الآية: ٦٢] لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ.

الآيات ٤٨ - ٥١ ثُمَّ نَعَتَ، وَوَصَفَ^(٢) مَا جَعَلَ لِلْسَّابِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ مَا ذَكَرَ حِينَ^(٣) قَالَ: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ [فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ] وَوَصَفَ مَا جَعَلَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ بِقَوْلِهِ: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ]^(٤) قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ذَوَاتَا أَغْصَانٍ. وَلَكِنْ لَيْسَ فِي هَذَا كَثِيرٌ مِنْ حِكْمَةٍ. لَكِنْ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ مِنَ الْفُنُونِ، أَيْ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَنٍّ وَكُلِّ نَوْعٍ [شَيْءٍ]^(٥).

وَقَالَ مُقَاتِلٌ: ذَلِكَ فِي الْجَنَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ جَعَلَهُمَا لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ: ﴿مُدْهَكَتَانِ﴾ [الآية: ٦٤] وَالْمُدْهَامُ، هُوَ الَّذِي تَضْرِبُ خُضْرَتُهُ لِيَشْدُهَا^(٦) إِلَى السَّوَادِ، وَهُوَ دُونَ الْأَوَّلِ فِي الرَّصْفِ؛ إِذَا لَمْ يَصِفْهُمَا بِصِفَةٍ وَاحِدَةٍ، وَوَصَفَ تَيْنِكَ الْجَنَّتَيْنِ بِالْفُنُونِ، وَقَالَ فِي تَيْنِكَ: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وَقَالَ فِي أَصْحَابِ الْيَمِينِ: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَفْخَخَانِ﴾ [الآية: ٦٦] وَالنَّاضِخُ، هُوَ الَّذِي لَا يُبَيِّنُ جَرَيَانَهُ، وَوَصَفَ تَيْنِكَ بِالْجَرَيَانِ، وَالنُّضْخُ دُونَ الْجَرَيَانِ.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿تَفْخَخَانِ﴾ اللَّتَانِ تَفُورَانِ بِالمَاءِ، وَالنُّضْخُ دُونَ النَّضْخِ، وَهُوَ الرُّشُّ. وَقَالَ فِي الْجَنَّتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَنٍّ﴾ [الآية: ٥٢] أَيْ صِنْفَانِ أَوْ لَوْنَانِ [مِنْ]^(٧) أَيْ شَيْءٍ كَانَ. وَقَالَ فِي أَصْحَابِ [الْيَمِينِ]^(٨): ﴿فِيهِمَا فَنَكُهُ وَفَنَانٌ﴾ [الآية: ٦٨]: ذَكَرَ أَشْيَاءَ مَعْدُودَةً، وَعَمَّ الْأَشْيَاءَ فِي تَيْنِكَ حِينَ^(٩) قَالَ: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَنٍّ﴾ [الآية: ٥٢] لِتَفْضِيلِ أَوَّلِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ^(١٠) فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ حِكْمَةٌ عَلَى جِدَّةٍ بِقَوْلِهِ^(١١) تَعَالَى: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ مِنْهُمَا مِنْ كُلِّ فَنٍّ وَكُلِّ نَوْعٍ [شَيْءٍ]^(١٢)؛ وَإِخْدَى الْعَيْنَيْنِ هِيَ الْعَيْنُ الْمَعْرُوفَةُ الْمَوْعُودَةُ، وَالْأُخْرَى الَّتِي لَا يَغْرِفُونَ، وَلَا يُوعَدُونَ.

الآيتان ٥٢ و ٥٣ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَنٍّ﴾ [فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ]^(١٣) أَيْ صِنْفَانِ وَلَوْنَانِ عَلَى غَيْرِ تَغْيِيرٍ [اللَّوْنِ، وَلَا فُسَادٍ]^(١٤) يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ، لِأَنَّ تَغْيِيرَ اللَّوْنِ فِي الدُّنْيَا، لَا يَكُونُ لِلْفَوَاكِهِ إِلَّا بَعْدَ دُخُولِ فُسَادٍ فِيهَا، يُخْبِرُ أَنَّ تَغْيِيرَ لَوْنِهِ لَا لِفُسَادٍ، يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا ذَكَرَ الزَّوْجَيْنِ مِنَ الْفَوَاكِهِ لِمَا أَنَّ قُلُوبَ الْبَشَرِ قَدْ حُطِرَتْ بِأَحَدِ الزَّوْجَيْنِ وَتَمَيَّزَتْ أَنْفُسُهُنَّ، وَالزَّوْجُ الْآخَرُ، هُوَ لُطْفٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ فَضْلاً مِنْهُ إِلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْطُرَ عَلَى بَالِهِمْ، وَلَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ أَبْصَارُهُمْ، وَلَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ أَمَانُهُمْ إِكْرَاماً لَهُمْ وَإِحْسَاناً^(١٥).

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ الْمُرَادُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَبْيِينَ مَا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، وَلَكِنْ فِيهِ تَبْيَانٌ فَضْلِ السَّابِقِينَ عَلَى أَصْحَابِ الْيَمِينِ أَنَّ أَوَّلَكَ يُعْطَوْنَ مِنَ الْفَضْلِ ضِعْفِي مَا أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَذَلِكَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَآن. (٣) الرُّوَا سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٥) وَ(٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم لَشِدَّتْهُ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَذْكُر. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٥) فِي الْأَصْلِ: الطَّعْمُ وَالْفُسَادُ، فِي م: الطَّعْمُ وَلَا فُسَاد. (١٦) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ وَم: وَامْتَنَانًا.

الآيتان ٥٤ و ٥٥ وقوله تعالى: ﴿مُكَيِّبِينَ عَلَىٰ قُرْبَىٰ بَلَاءُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ ﴿يَأْتِيَنَّ آلَآءُ رَبِّكُمَا تَذَكُّرًا﴾^(١):

قَالَ الْفَرَاءُ: يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْبِطَانَةُ وَالظَّاهِرَةُ جَمِيعًا مِنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ وَمِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ. لَكِنْ سَمِيَ الْجِهَةُ الَّتِي تَلِي أَجْسَادَهُمْ بِطَانَةً وَالْأُخْرَى ظَهَارَةً كَالسَّمَاءِ^(٢): إِنَّ الْجِهَةَ [الَّتِي]^(٣) تَلِي الْمَلَانِكَةَ، هِيَ بَطَانَتُهُمْ وَظَهَارَتُهَا، وَمَا تَلَيْنَا / ٥٤٤ - / ظَهَارَتُهُمْ وَبِطَانَتُهُمْ. وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ، يَلِي إِنْسَانًا، فَهُوَ بِطَانَةٌ، وَالْجَانِبُ الَّذِي لَا يَلِيهِ ظَهَارَةٌ؛ يُقَالُ: هَذَا ظَهَرُ السَّمَاءِ لِلْجَانِبِ الَّذِي تَرَاهُ، وَالْأُخْرَى بَظَنُ السَّمَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: لَا، وَلَكِنْ ذَكَرَ الْبِطَانَةَ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ، وَلَمْ يَذْكُرِ الظَّاهِرَةَ، وَالْعُرْفُ فِي النَّاسِ أَنَّ ظَهَارَةَ قُرَيْشِهِمْ أَنْفُسُ مِنْ الْبِطَانَةِ، وَالْبِطَانَةُ دُونَ الظَّاهِرَةِ.

فَعَلَى ذَلِكَ فِي ذِكْرِ الْبِطَانَةِ وَوَضَفِهَا دَلَالَةٌ أَنَّ ظَهَارَتَهَا أَرْفَعُ وَأَنْفُسُ مِنَ الْبِطَانَةِ.

لَكِنْ مَا قَالَهُ: الْفَرَاءُ صَحِيحٌ، وَمَا ذَكَرَهُ الْقُتَيْبِيُّ، هُوَ مِنْ صَنِيعِ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا مِنْ اتِّخَاذِ الظَّاهِرَةِ قَوْقَ الْبِطَانَةِ لِمَا لَا تَحْتَمِلُ أَمْلَاكُهُمُ التَّسْوِيَةَ بَيْنَ مَا يَبْظَنُ وَمَا ظَهَرَ فِي التَّفَاسَةِ وَالرَّفْعَةِ.

فَأَمَّا اللَّهُ ﷻ فَلَا تَفَادَ لِحَزَائِنِهِ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَكَيْفَ يَشَاءُ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: قَدْ أَخْبَرْتُمْ بِالْبِطَانِ، فَكَيْفَ بِالظَّاهِرَةِ؟ ثُمَّ الْإِسْتَبْرَقُ اخْتَلَفَ فِيهِ: قِيلَ: هُوَ مَا عَظَلَ مِنْهُ يَلْسَانُ قَوْمٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مَا دَقَّ، وَرَقَّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَلَا تَفْسَرُهُ نَحْنُ أَنَّهُ، مَا هُوَ، وَكَيْفَ هُوَ، وَلَكِنْ نَعْلَمُ أَنَّهُ شَيْءٌ، قَدْ وَعَدَ لَهُمْ رَبُّهُمْ، وَهُوَ شَيْءٌ، تَرَعَّبَ فِيهِ أَنْفُسُهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَحَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَكَرَ هَذَا فِي حَقِّ السَّابِقِينَ الَّذِينَ سَارَعُوا فِي الْخَيْرَاتِ، وَاسْتَبَقُوا^(٤) مَا وَعَدَ لَهُمْ رَبُّهُمْ بِمَا لَمْ يَرَوْا لِبَطَاعَتِهِمْ قِيمَةً، وَيَغْلِبُهُمْ^(٥) خَوْفُهُمْ فِي التَّقْصِيرِ فِي الْعَمَلِ لِلَّهِ تَعَالَى الْوَاجِبِ عَلَيْهِمْ^(٦) وَفِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، فَقَالَ: ﴿وَحَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الَّذِي وَعَدَ لَكُمْ.

وَقَالَ^(٧) أَهْلُ التَّأْوِيلِ: إِنَّهُ^(٨) الشَّجَرُ [وَلأنَّهُ يَقْتَرِبُ مِنْهُمْ]^(٩) حِينَ يَتَنَازَلُهُ^(١٠) الرَّجُلُ كَيْفَ شَاءَ.

لَكِنْ يَذْكُرْ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَنَّ الْجَنَّتَيْنِ إِنْ بَعْدْنَا فَإِنَّ الثَّمَارَ مِنْهُمُ دَانِيَةٌ.

قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: الْجَنَى الْحَمْلُ، وَاجْتَنَتِ الشَّجَرَةُ الْجَنَى إِذَا حَمَلَتْ، وَأَذْرَكَ حَمْلُهَا.

الآيتان ٥٦ و ٥٧ وقوله تعالى: ﴿فَبِمَنْ قَصَرْتِ الْقَرْفَ لَمْ يَلِيْتَهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿يَأْتِيَنَّ آلَآءُ رَبِّكُمَا تَذَكُّرًا﴾^(١١):

﴿فَبِمَنْ قَصَرْتِ الْقَرْفَ﴾ أَي قَصَرْتِ الْقَرْفَ^(١٢) عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، وَلَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَلَا تَشْتَهِيهِمْ كَقَوْلِهِ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿حُرٌّ مَقْصُورٌ فِي الْخِيَارِ﴾ [الآية: ٧٢] ذَكَرَ هَذَا لِأَنَّ أَهْلَ الدِّينِ يَكُونُونَ مِنْ أَهْلِ غَيْرَةٍ، لَا يُرِيدُونَ أَنْ تَنْظُرَ زَوْجَاتُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَلَا غَيْرُهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِنَّ. فَأَخْبَرَ بِالْآيَتَيْنِ أَنَّهُنَّ لَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ، وَلَا غَيْرُهُمْ [يَنْظُرُونَ]^(١٣) إِلَيْهِنَّ حِينَ^(١٤) وَصَفَهُنَّ بِأَنَّهُنَّ ﴿فَبِمَنْ قَصَرْتِ الْقَرْفَ﴾ وَ﴿حُرٌّ مَقْصُورٌ فِي الْخِيَارِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِيْتَهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ قُرِئَ ﴿لَمْ يَلِيْتَهُنَّ﴾ بِضَمِّ الْمِيمِ^(١٥) وَكُسْرِهِ.

قَالَ الْفَرَاءُ: ﴿لَمْ يَلِيْتَهُنَّ﴾ أَي لَمْ يَقْبِضْنَهُنَّ، وَالطَّمْتُ النِّكَاحُ بِالرُّومِيَّةِ.

وَقَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: لَمْ يُجَامِعْنَهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ.

وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: أَي لَمْ يَمْسُسْنَهُنَّ [إِنْسٌ]^(١٦) فِي التَّرْبِيَةِ كَمَا يُرَبَّى الْأَوْلَادُ وَلَا جَانٌّ عَلَى مَا يَمَسُّ الْجَنُّ الْأَوْلَادَ،

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: كالآسماء. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل: واستيفوا. (٥) في الأصل وم: ويغلبه. (٦) في الأصل وم: عليه. (٧) في الأصل وم: وإن. (٨) في الأصل وم: أي. (٩) في الأصل وم: وإن منهم قريت. (١٠) في الأصل وم: يتناولها. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: طرفهن. (١٣) في الأصل وم: أزواجهن. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥٦/٧. (١٧) من م، ساقطة من الأصل.

فَيُفْسِدُهُمْ. ولكنهم^(١) كما وَصَفَ ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَزْوَاجًا﴾ ﴿عُرَىٰ أَزْوَاجًا﴾ ﴿لَا تَحْسَبِ الْيَمِينَ﴾ [الواقعة: ٣٥] إلى ٣٨.

الآيتان ٥٨ و ٥٩ وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْكَافُوتُ وَالزَّمَيَاتُ﴾ ﴿يَأْيَ آلَاءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(٢) قال أهل التأويل: شبههن بالياقوت لصفائهن وبالمرجان ليياضهن، وهو كما قال^(٣)، والله أعلم.

الآيتان ٦٠ و ٦١ وقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ ﴿يَأْيَ آلَاءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(٤) قيل: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ لهم في الآخرة، أي هل جزاء الفعل^(٥) الحسن في الدنيا إلا العطاء^(٦) الحسن في الآخرة، هو الجنة.

ولكن غيرة كأنه أقرب، أي: هل جزاء إحسان الله تعالى بما أنعم عليهم في الدنيا إلا الإحسان له بالشكر والقبول؟ أي [إتيان الفعل]^(٧) الحسن، أي هو الشكر له وحسن القبول، لأنه ليس يستوجب أحد قبل الله تعالى بإحسانه في الدنيا جزاء في الآخرة إنما الجزاء لهم بحق الفضل والإنعام لا بحق استحقاق.

ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ لهم^(٨) في الآخرة، والله أعلم. واستدل أبو يوسف ومحمد، رحمهما الله تعالى، بهذه الآية على أن للجن ثواباً كما للإنس؛ فإنه جرى الخطاب من أول السورة إلى آخرها للجن والإنس [كقوله تعالى]^(٩): ﴿لِلْجَنِّ نَسَبٌ مِّثْلُ النِّسَابِ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا نِسَاءٌ مُّحْصَوْنَ لَهُمْ لَا يَفْضَحْنَ عَنْهُمْ وَأُولَئِكَ هُمْ ضَرَفُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٦]. فعلى ذلك يشتركون في الوعد والوعيد.

لكن أبو حنيفة، رحمه الله تعالى، يقول: لا ثواب للجن في ذلك من نحو الفواكه والسفن الجوارى. فعلى ذلك ما ذكر من الثواب لهم يجوز الثواب [وليس للجن حوراً]^(١٠) العين، والله أعلم، وقد ذكرناه في غير موضع.

الآيتان ٦٢ و ٦٣ وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ﴿يَأْيَ آلَاءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(١١) فإن كانت الجنتان اللتان سبق ذكرهما للسابقين والصدّيقين، فهاتان اللتان ذكرهما ههنا لأصحاب اليمين على ما ذكره بعض أهل التأويل، فجائز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي في الفضل والقدر والمثلة لفضل أولئك على أصحاب اليمين.

وإن كانت الجنات جميعاً لكل فريق منهم فجائز أن يكون قوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ في المكان والموضع لا في الفضل والقدر. فكانه قال: من أي جهة وقع بصرهم يقع على جناتهم من فوق ومن تحت وعن يمين وشمال؛ أي يكونون وسط الجنات، لا يحتاجون إلى التحويل من مكان إلى مكان كقوله تعالى: ﴿لَا يَتَوَقَّعُنَّ عَنْهَا حَوْلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

الآيتان ٦٤ و ٦٥ وعلى هذا يخرج قوله تعالى: ﴿مُدَّاهَاتَانِ﴾ ﴿يَأْيَ آلَاءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(١٢) على ما ذكرنا [المدهام]^(١٣) هو شديد الخضرة التي تضرب إلى السواد، ووصف هاتين دون وصف بينك الجنتين بقوله تعالى: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ على التأويل الأول.

الآيتان ٦٦ و ٦٧ وكذلك قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَا﴾ ﴿يَأْيَ آلَاءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(١٤) على ما ذكرنا أنهما دون الجاريتين. ولذلك روي عن القراء [أنه]^(١٥) قال: العينان تجريان أفضل من النضاختين بقوله: ﴿نَضَّخَتَا﴾ لأنهما تنضخان بالخير والبركة لأهل الجنة. وقيل: تنضخان بالماء وأنواع الفواكه. وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: تنضخان بالمسك والغنبر كما ينضخ طير الماء على بيوت أهل الدنيا.

الآيتان ٦٨ و ٦٩ وقوله تعالى: ﴿فِيهَا نَكَبٌ مِّثْلُ نَعْلٍ مَّوَّاهٍ﴾ ﴿يَأْيَ آلَاءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(١٦) من الناس من احتج لأبي

(١) في الأصل وم: ولكنهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قالوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فعل. (٦) في الأصل وم: عطاء. (٧) في الأصل وم: الإتيان فعل. (٨) في الأصل وم: له. (٩) في الأصل: من قوله، في م: من قوله. (١٠) في الأصل وم: وللجن يجوز. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) و (١٣) و (١٤) و (١٥) و (١٦) ساقطة من الأصل وم.

حَنِيفَةً، رَجِمَهُ اللَّهُ: فِي مَنْ حَلَفَ لَا يَأْكُلُ فَاكِهَةً، فَأَكَلَ رُمَانًا، لَا يَخْنَثُ فِي يَمِينِهِ لِأَنَّهُ اخْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي أَنَّ الرُّمَانَ وَالرُّطْبَ لَيْسَا مِنَ الْفَاكِهَةِ، لِأَنَّهُ عَطَفَهُمَا عَلَى الْفَاكِهَةِ، وَالشَّيْءُ لَا يُعْطَفُ عَلَى نَفْسِهِ، إِنَّمَا يُعْطَفُ عَلَى غَيْرِهِ.

هذا هو ظاهر الكلام إلا أن تقوم الدلالة على أن مراده بالذكر، وإن كان من جنسِهِ لِضَرْبٍ مِنَ التَّعْظِيمِ أَوْ غَيْرِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيَاتَانِ ٧٠ و٧١ وقوله تعالى: ﴿فِيهِ زَكَاةٌ وَسَآئِرُ الْمَعَادِ الْأُولَىٰ﴾ [٧٠] ﴿وَبِأَيِّ آيَةٍ تُكَذِّبُونَ﴾ [٧١] قيل: حِسَانُ الْخُلُقِ وَحِسَانُ الرَّجُلِ، يُقَالُ: امْرَأَةٌ خَيْرَةٌ وَخَيْرَةٌ، وَنِسْوَةٌ خَيْرَاتٌ، يُقْرَأُ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّثْقِيلِ جَمِيعًا^(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: لِكُلِّ مُؤْمِنٍ خَيْرَةٌ، وَلِكُلِّ خَيْرَةٍ خِيَمَةٌ.

الآيات ٧٢ و ٧٣ وقوله تعالى: ﴿حُرِّدَ مَقْصُورَاتٌ فِي الْبَيْتِ﴾ [﴿يَأْيَ آءِآ وَكُنَّا تُكْذِبَانِ﴾] ^(٣) قيل: أي مخبوسات.

وَأَضْلَهُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ يَكُونُ فِي الْخِيَامِ، لَا يَرَاهُنَّ غَيْرُ أَزْوَاجِهِنَّ، ﴿وَقَصَّصْتُ الْآلَافَ﴾ أَي لَا يَصْرِفْنَ بَصَرَهُنَّ إِلَى غَيْرِ
أَزْوَاجِهِنَّ، وَلَا يَخْبِيَنَّ عَنْهُنَّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيات ٧٤ - ٧٧ وقوله تعالى: ﴿لَا يَلْبِثُنَّ إِشْرَ قَبْلَهُمْ وَلَا بَلَاءٌ﴾ ﴿يَأْتِي الْآلَاءُ زُكُومًا تَكَرُّرًا﴾^(٤) ﴿مُتَكَيِّفِينَ عَلَى رُفُوفٍ خُضْرٍ

وَعَبَقَرِي حَسَانٌ ﴿٥﴾ [يَأَيُّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ] ﴿٥﴾ هو قراءة العامة بِغَيْرِ الألفِ، وَعَنْ عاصِمِ الْحَجْدَرِيِّ: رَفَارَتْ وَعَبَاقِرِي ﴿٦﴾. قِيلَ: الرَّفْرَفُ الْمَجْلِسُ، وَقِيلَ الْمَجَالِسُ، وَقِيلَ: الرِّيَاضُ الْخَضِرُ، وَقِيلَ: الْخِيَامُ، وَقِيلَ: هُوَ فَضْلُ الْفُرْشِ وَالْبُسْطِ.

وأما العَبْقَرِيُّ [فقد]^(٧) قيلَ: هو الزَّرَابِيُّ، وهو بالفارسيَّة النُّخْ.

وقال أبو عبيدة: العبقرى: الطنافسُ الثخان، وقيل: لكل شيءٍ مِنَ البُسْطِ عبقرى.

وقال القُتَيْبِيُّ وأبو عَوْسَجَةَ: العَبْرِيُّ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ/ ٥٤٤ - ب/ ثِيَابٌ تُتَّخَذُ بِعَبْقَرٍ، وَهِيَ بِلْدَةٌ تُنْسَبُ إِلَيْهَا.

وقوله تعالى: ﴿بَرَكَ أَنْتُمْ رَبِّكَ ذِي الْبَلَدَيْنِ وَالْأَكْرَمِ﴾ قال أبو بكرٍ الأصم: تبارك اسمُ ربِّكَ مِنْ أَنْ يَسْتَحِقَّ غَيْرُهُ

اسْمُهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿ذِي الْكَلْبِ﴾ اسْتَحَقَّ عَلَى الْخَلْقِ أَنْ يُجْلَوْهُ، وَيُعْظَمُوهُ مِنْ أَنْ يُسَمَّوْا غَيْرَهُ بِاسْمِهِ ﴿وَالْإِكْرَامُ﴾ هُوَ الْإِكْرَامُ (٨) يُلْحِقُوا بِهِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الزَّوْلِ وَالشَّرِيكِ وَغَيْرِهِ.

ثم قيل في فائدة تكرار قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فبأي آلاء ما في السموات والأرض تكذباني؟ هي^(٩) الدلالة على وُحدانيَّة الله تعالى والشهادة له بأنه خالقُه ومرسلُ رسله وما جاؤوا^(١٠) به، وذلك أن جميع ما فيهما من الطعام والشراب على ما ذكرنا، وذلك كما يقول الرجل لآخر، يلومُه، ويُعانيه: ألم تكن جائعاً، فأطعمتكَ؟ أفتتكرُ هذا؟ ألم تكن ظمآن، فسقيتكَ؟ أفتتكرُ هذا؟ ونحو ذلك.

وجائز أن تكون فائدة التكرار غير هذا، وهي أنه خرج مخرج العظة والتذكير، ومن شأن الموعظة والتذكير^(١١) التكرار والإعادة ليكون أنجع وأخذ للقلوب وأقرب إلى القبول، والله أعلم.



(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) انظر معجم القراءات ج ٥٧/٧. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥٧/٧. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: إن. (٩) في الأصل وم: في. (١٠) في الأصل: رسوله وما جاءت، في م: رسله وما جاءت. (١١) من م، في الأصل: التذكير.

سورة الواقعة^(١)مكية^(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ هذا مما لا يُتَنَدَّأُ به الخطاب، وإنما هو جواب سؤال وخطاب، لم يُذَكَّرْ. فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُونَ ذَكَرُوا كَرَامَاتِهِمْ الَّتِي وَعَدُوا فِي الْآخِرَةِ، فَقَالَ: لَهُمْ أُولَئِكَ الْكَفَرَةُ: مَنْ يَكُونُ ذَلِكَ لَكُمْ؟ فَقَالُوا: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ كَمَا يَسْأَلُ الرَّجُلُ: مَنْ يَكُونُ أَمْرٌ كَذَا؟، يَقُولُ: إِذَا كَانَ كَذَا، فَهُوَ حَرْفُ جَوَابٍ لِسُؤَالِهِ. وَعَلَى هَذَا يُخْرِجُ جَمِيعَ مَا ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ هَذَا النَّوعِ مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُهُ: إِذَا وَقَعَتِ الْمَثْوَبَةُ وَالْعَقُوبَةُ فَتَكُونُ الْوَاقِعَةُ كَنَاءَةً عَنْهُمَا. وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ الْوَاقِعَةُ اسْمًا مِنْ أَسْمَاءِ الْبَغْثِ كَالْقِيَامَةِ وَالسَّاعَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَي لَيْسَ لَوْعَتِهَا مَثْوَبَةٌ، وَلَا تُرَدُّ. وَيُقَالُ: حُجِلَ عَلَيْهِ، فَمَا كَذَبَ، أَي فَمَا رَجَعَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَي هِيَ حَقٌّ، لَيْسَتْ بِكَذِبٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَي لَا يُكَذَّبُ بِهَا أَحَدٌ إِذَا وَقَعَتْ، لَيْسَتْ كَالْآيَاتِ الَّتِي عَايَنُوهَا فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا عَرَفُوا أَنَّهَا آيَاتٌ كَذَّبُوهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَفْصَانًا بَلْ غَشَّى قَوْمٌ مَّشْهُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥ و ١٤] وَغَيْرَ ذَلِكَ؛ يُكَذِّبُونَهَا مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهَا آيَاتٌ. يَقُولُ تَعَالَى: إِذَا عَايَنُوا الْقِيَامَةَ، يَقْرَءُونَ بِهَا، وَيُصَدِّقُونَهَا، وَلَا يُكَذِّبُونَ بِهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَرْجِعْنَا قَمَلًا سَلِيمًا﴾ [السجدة: ١٢] غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ وَنُخَوِّهُ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ: ﴿لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أَي لَيْسَتْ الْأَنْبَاءُ وَالْأَخْبَارُ الَّتِي جَاءَتْ عَلَى وَقْعِهَا وَقِيَامِهَا كَاذِبَةً، بَلْ هِيَ صَادِقَةٌ.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿خَالِضَةً زَائِفَةً﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: تُسَمِّعُ الْقَرِيبَ ﴿زَائِفَةً﴾ تُسَمِّعُ الْبَعِيدَ. وَقَالَ صَاحِبُ هَذَا التَّأْوِيلِ، إِذْ يُفَسِّرُ الْوَاقِعَةَ: [إِنهَا]^(٣) هِيَ الصَّيْحَةُ، وَتِلْكَ ﴿خَالِضَةً زَائِفَةً﴾. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿خَالِضَةً﴾ أَنَسَاءٌ فِي النَّارِ، وَ﴿زَائِفَةً﴾ أَنَسَاءٌ فِي الْجَنَّةِ.

وَيَحْتَمِلُ ﴿خَالِضَةً﴾ لِمَنْ تَكَبَّرَ، وَتَعَطَّطَ عَلَى الْخَلْقِ، [رَادَّةٌ إِيَّاهُ]^(٤) وَ﴿زَائِفَةً﴾ لِمَنْ تَوَاضَعَ لِلْخَلْقِ، وَانْقَادَ لَهُ، وَقِيلَ: وَقِيلَ: ﴿خَالِضَةً﴾ لِأَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ﴾ [القمر: ٤٨] وَ﴿زَائِفَةً﴾ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ يُخْرِجُ عَلَى السُّؤَالِ؛ كَأَنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا وَصَفَ الْقِيَامَةِ وَالْوَاقِعَةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالُوا^(٥) عِنْدَ ذَلِكَ: مَنْ تَكُونُ الْوَاقِعَةُ؟ فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﷺ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ فَازْزُلْزَلَتْ حَتَّى تُثْقِيَ مَا فِي بَطْنِهَا.

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر أن. (٢) أدرج قبلها في م: وهي. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وردة. (٥) في الأصل وم: فقالوا.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿وَسَيَبْجَالُ بَسَا﴾ قيل: فُتَّتْ حتى تصير كالدقيق، ومنه يقال للسويق: المَبْسُوسُ، والسويق يُلْتَبَسُ به الزيت والخُلْط. وقال الحسن: ﴿وَسَيَبْجَالُ بَسَا﴾ أي سِيرَتْ تَسِيرًا.

الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ قيل: الهباء الذي يكون فوق النار إذا خمدت، لا يكون غيرُهُ ﴿مُنْبَثًا﴾ أي مُتَفَرِّقًا. وقيل: ﴿هَبَاءً﴾ أي ترابًا مُتَشِيرًا. وقيل: الهباء المَبْثُوثُ هو ما يَسْطَعُ مِنْ سَنَابِلِ الْخَيْلِ. وقيل: الهباء الغبار الذي تراه في الشمس إذا دخلت من الكوة.

وفيه ^(١) إخبار عن شدة ذلك اليوم وقوله أنه يُفْعَلُ بالرجال كذا مع صلاتيها وطاعتها الله تعالى، فكيف يفعل بكم يا بني آدم مع ضَعْفِكُمْ وكُفْرِكُمْ وَمَعْصِيَتِكُمْ؟ والله أعلم.

الآية ٧ وقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أي أصنافًا ثلاثة.

الآيات ٨ - ١٠ [والأصناف الثلاثة] ^(٢) ما فُسِّرَ عَقِيْبُهُ حِينَ ^(٣) قَالَ: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [وَالشَّيْقُونَ الشَّيْقُونَ] [وقيل: الأصناف الثلاثة] ^(٤) الْمُكَذِّبُونَ وَالْمُحْسِنُونَ وَالسَّابِقُونَ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أصحاب المَيْمَنَةِ مِنَ الْيَمَنِ، وأصحاب الْمَشْأَمَةِ مِنَ الشَّوْءِ.

والثاني: [سُمِّيَ هؤلاء] ^(٥) أصحاب المَيْمَنَةِ لأنهم أصحاب الطَّيِّبَاتِ، وَالْيَمِينُ هي التي تُسْتَعْمَلُ فِي الطَّيِّبَاتِ [وَسُمِّيَ] ^(٦) الْكُفْرَةُ أصحاب الشمال لأنهم أصحاب الْخَبَائِثِ، وَالشَّمَالُ تُسْتَعْمَلُ فِي الْخَبَائِثِ.

وعلى ذلك قوله: ﴿فَتَنَ أَوْقَى كَتَبَهُ يَمِينِهِ﴾ [الإسراء: ٧١ و...]. لَأَنَّ فِي كِتَابِهِمْ طَيِّبَاتٍ وَخَيْرَاتٍ، وَفِي كُتُبِ الْكُفْرَةِ خَبَائِثٌ، فَتَوَيَّ بِشَمَالِهِمْ.

وقيل: سُمُوا أصحاب المَيْمَنَةِ وَالْمَشْأَمَةِ لِمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْقَى كَتَبَهُ يَمِينِهِ﴾ ﴿مَتَوَقَّعًا يَمَاسُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨٧ و] وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْقَى كَتَبَهُ رَدًّا ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق: ١٠]. فكذا فكلٌّ مِنْ أَوْقَى كِتَابَهُ يَمِينِهِ فهو [مِنْ] ^(٧) أصحاب الْيَمَنِ، وَمَنْ أَوْقَى كِتَابَهُ بِشَمَالِهِ فهو [مِنْ] ^(٨) أصحاب الْمَشْأَمَةِ.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَالشَّيْقُونَ الشَّيْقُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ أَيْضًا:

أحدهما: السَّابِقُونَ فِي الْخَيْرَاتِ، يَسْبِقُونَ النَّاسَ فِي كُلِّ خَيْرٍ.

والثاني: السَّابِقُونَ فِي الْإِجَابَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فِي مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ.

ثم جائز أن يكون الخطاب به للناس كافة: الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فيكون الناس كُلُّهُمْ أصنافًا ثلاثة: السَّابِقُونَ وَأَصْحَابُ الْيَمَنِ وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ.

وجائز أن يكون الخطاب بهذه الآية لهذه الْأُمَّةِ عَامَّةً؛ ففِيهِمُ السَّابِقُونَ، وَفِيهِمُ أَصْحَابُ الْيَمَنِ، وَهُمْ أَصْحَابُ النَّظَرِ فِي الْحُجَجِ وَالْآيَاتِ وَالتَّأَمُّلِ فِيهَا، وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ، وَهُمْ الْكُفْرَةُ.

ثم قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ عَلَى التَّعَجُّبِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا يُكْرِمُهُمْ، أَوْ عَلَى التَّعْظِيمِ لِأَوْلَئِكَ لِعَظَمِ مَا يُعْطِيهِمْ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ يُخْرِجُ عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ: عَلَى التَّعَجُّبِ وَالتَّعْظِيمِ لِمَا يَحُلُّ بِهِمْ / ٥٤٥ - وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّيْقُونَ الشَّيْقُونَ﴾ يُخْرِجُ عَلَى هَذَا أَيْضًا: فَلَاَنْ مَا أَمْرُ فَلَانٍ؟ يُقَالُ: فَلَانٌ فَلَانٌ عَلَى تَعْظِيمِ أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا.

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: سوا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

ثم في قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ يقول أصحابنا، رَحِمَهُمُ اللَّهُ، في جعلهم الكُفْرَ كُلَّهُ مِلَّةً واحدةً: لأنه جعل الله تعالى أهل الكُفْرِ على اختلاف مذاهبهم وأديانهم زوجاً وأهل الإسلام زوجين حين جعل الكل أزواجاً ثلاثة، والله أعلم.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يكونَ وَصَفَ التَّقَرُّبِ لَهُمْ لِمَسَابَقَتِهِمْ فِي الْخَيْرَاتِ فِي الدُّنْيَا، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ مُقَرَّبُونَ فِي الْآخِرَةِ بِالْكَوَامَاتِ وَالْمَنْزِلَةِ لِسَبْقِهِمْ فِي الْخَيْرَاتِ أَوْ فِي الْإِجَابَةِ: وَالسَّبْقُ فَعْلُهُمْ، وَالتَّقَرُّبُ بِطَلْفٍ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى وَقَضِيٍّ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّارِ﴾ جميعُ الْجَنَّاتِ نعيمٌ، لَأَنَ فِيهَا نعيماً، وَلَهُ أَنْ يُسَمَّى واحدةً منها نعيماً وَالْآخَرَى عَذَاباً وَالْفِرْدَوْسَ وَالْمَأْوَى لِمَا لَهُ أَنْ يُسَمَّى مَا شَاءَ بِمَا شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ.

الآيتان ١٣ و ١٤ وقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ اِخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيِ ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ وَمَنْ شَهِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَرَّبُوا مِنْهُ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ وَمَنْ بَعْدَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصُحْبَتِهِ وَإِدْرَاكِ زَمَانِهِ، ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ وَمِنْ الْآخِرِينَ، وَهُوَ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «غَيْرُ النَّاسِ قِرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» [البخاري ٢٦٥٢] وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مَنكَرٌ مِّنْ أَفْئَقٍ مِّنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ﴾ [الحديد: ١٠] عَلَى مَا يَذْكُرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَمَمِ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ أَيِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ. وَهَكَذَا يَكُونُ لَوْ اجْتَمَعَ أَهْلُ الْإِيمَانِ مِنْ هَذِهِ [الْأُمَّةِ] ^(١) مَعَ الْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ يَكُونُ هَؤُلَاءِ أَقَلٌّ مِنْهُمْ.

وَيَحْتَمِلُ أَيْضاً أَنَّ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ مِنَ الْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ أَكْثَرُ مِنَ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ ﷺ كُلَّهُمْ مِنَ الْأَمَمِ السَّالِفَةِ.

وَقَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ وَجَدَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجْداً شَدِيداً، وَقَالُوا: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مَتَا إِلَّا قَلِيلٌ، فَتَزَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الآيتان: ٤٠ و ٣٩] لَكِنْ هَذَا لَا يُحْتَمَلُ لِأَنَّهُ خَبَرٌ، وَلَا وَرْدٌ ^(٢) فِي الْأَخْبَارِ نَسَخٌ، وَمَا قَالُوهُ فَهُوَ نَسَخٌ، وَالْوَجْهُ فِيهِ مَا ذَكَّرْنَا.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ هُمْ أَصْحَابُ الْيَمِينِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ جَمِيعاً، أَيِ جَمَاعَةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَجَمَاعَةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْآخِرِينَ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْآخِرُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ فِي الْمُقَرَّبِينَ خَاصَّةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٥ وقوله تعالى: ﴿عَلَّ سُرُرٍ مَّزْمُورَةٍ﴾ وَالسُّرُّرُ قَدْ تَكُونُ فِي الدُّنْيَا مَظْفُوفَةً، وَلَكِنْ لَا تَكُونُ مَوْضُوعَةً، أَيِ مَنَسُوجَةً، وَالْوَضْعُ هُوَ النَّسْجُ؛ يُخْبِرُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ بَيْنَ السُّرْرِ فِي الْآخِرَةِ انْفِصَالٌ وَلَا فُرُوجٌ كَمَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا، لَكِنَّهَا ^(٣) مَوْصُولَةٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ.

الآية ١٦ وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ أَيِ عَلَى السُّرْرِ الَّتِي ذَكَرَ أَنَّهَا مَظْفُوفَةٌ مَوْضُوعَةٌ.

وقوله تعالى: ﴿مُنْقَلِبِينَ﴾ أَيِ يُقَابِلُ [بَعْضُهُمْ بَعْضاً] ^(٤) وَلَا يُعْرِضُونَ، وَلَا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ بِالْقَفَا كَمَا يَفْعَلُ أَصْحَابُ الْمَجَالِسِ فِي الدُّنْيَا؛ يُعْرِضُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَيُحَقِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً؛ يُخْبِرُ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ ^(٥) فِي الْآخِرَةِ خِلَافَ مَا فِي الدُّنْيَا بَحِثٌ لَا يَتَأَدَّى بَعْضٌ مِنْ بَعْضٍ بِوَجْهِ مَا.

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿يَلُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَةٌ تَلَوَّلُونَ﴾ أَيِ ^(٦) إِنَّهُمْ يُعْطَوْنَ فِي الْجَنَّةِ عَلَى مَا يَسْتَحِبُّونَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشَّرَفِ وَطَرَفِ الْوِلْدَانِ، وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَ مِنَ السُّرْرِ وَالْفُرُشِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعٍ مَا تَرَعَّبَ أَنْفُسُهُمْ فِي الدُّنْيَا.

(١) من م، ساقطة من الأصل.. (٢) في الأصل وم: يرد. (٣) في الأصل وم: لكن. (٤) في الأصل: بعضها، في م: بعضاً. (٥) في الأصل وم: يكون. (٦) في الأصل وم: وفيه.

ثم ذَكَرَ أَنَّهُمْ وَلَدَانِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ أَوْلَادٌ، فَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:
أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونُوا^(١) عَلَى هَيْئَةِ الْوِلْدَانِ، وَإِنْ لَمْ يُولَدُوا..

[والثاني^(٢)]: سُمُوا وَلَدَانًا لِوِلَادِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ لَمْ يُولَدُوا^(٣) فِي الْجَنَّةِ، لِأَنَّ التَّوَالِدَ فِي الدُّنْيَا لِحَاجَةِ الْبَقَاءِ، وَأَهْلُ
الْجَنَّةِ بَاقُونَ.

وقوله ﴿عَلَّادِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيِ الْمُقَرَّطُونَ، وَالْخُلْدُ: الْقُرْطُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مِنَ الْخُلُودِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [التوبة: ١٠٠ و...]. أَيِ بَاقِينَ^(٤). وَيُقَالُ: مُسَوَّرُونَ مِنَ السَّوَارِ.

وقوله تعالى: ﴿يَا كُوبُ وَالْأَبَارِيقُ﴾ هِيَ الْكِيزَانُ الْمُدَوَّرَةُ الرُّؤُوسِ الَّتِي لَا عُرَا لَهَا. وَالْأَبَارِيقُ الَّتِي لَهَا عُرَا
وخرطوم.

وجائزٌ أَنْ تَكُونَ الْأَكُوبُ الْأَقْدَاحُ الَّتِي يَشْرَبُونَ بِهَا لِأَنَّ فِي الدُّنْيَا يَكُونُ لِأَهْلِ الشَّرَابِ الْأَبَارِيقُ وَالْأَقْدَاحُ؛ يَضْبُونَ مِنَ
الْأَبَارِيقِ فِي [الْأَقْدَاحِ، وَيَشْرَبُونَ مِنْهَا]^(٥) لَا يَشْرَبُونَ مِنَ الْأَبَارِيقِ. فَعَلَى ذَلِكَ وَعُدُوا فِي الْجَنَّةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ الْكَأْسُ، هِيَ الْقَدَحُ الْمَمْلُوءُ مِنَ الشَّرَابِ، وَأَمَّا الْمَعِينُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ
الْمَاءِ الَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ الْبَصَرُ، فَوَعَدَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يَبْرُونَ﴾ قُرِئَ بِكَسْرِ الزَّايِ وَنَضْبِهِ^(٦)، أَيِ لَا تُصْدَعُ^(٧) خُمُورُهُمْ فِي الْجَنَّةِ
رُؤُوسُهُمْ كَمَا تُصْدَعُ خُمُورُ الدُّنْيَا أَهْلِهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْرُونَ﴾ قِيلَ: بِكَسْرِ الزَّايِ لَا يَنْفَعُ شَرَابُهُمْ، وَبِالْفَتْحِ: لَا يَسْكُرُونَ؛ أَيِ^(٨) إِنَّهُ لَيْسَ فِي خُمُورِهِمْ
الْآفَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي خُمُورِ الدُّنْيَا مِنْ ذَهَابِ الْعَقْلِ وَالصُّدَاعِ وَالتَّفَادِ.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَكِهِمْ مِمَّا يَتَخَبَّطُونَ﴾ جَمِيعُ فَوَاكِهِ الْجَنَّةِ مُخْتَارَةٌ لَكِنْ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:
أَحَدُهُمَا: أَنْ جَمِيعَ فَوَاكِهِيهَا مِمَّا يَتَخَبَّرُونَ.

والثاني: الْعُرْفُ فِي الْفَوَاكِهِ أَنْ تُقَدَّمَ مِنْ أَجْناسٍ مُخْتَلِفَةٍ وَالْوَاوُ لَا مِنْ لَوْنٍ وَاحِدٍ وَنَوْعٍ وَاحِدٍ، فَيَتَخَبَّرُونَ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ
اشْتَهَوْا، وَشَاؤُوا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا يَلْتَذُّونَهَا يَبْتَغُونَ﴾ إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّمَا يَتَنَاولُونَ عَلَى الشَّهْوَةِ [لَا]^(٩) عَلَى الْحَاجَةِ وَسَدَّ
الْجُوعِ، وَهُوَ كَمَا ذَكَرَ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَكْدُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

الآيتان ٢٢ و ٢٣ وقوله تعالى: ﴿وَحَرُّ عَيْنٍ﴾ ﴿كَأَنَّمَا اللَّوْلُؤُ الْمَكْنُونُ﴾ يَحْتَمِلُ تَشْبِيهُ الْحُورِ الْعِينِ بِاللُّوْلُو وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لِمَا لَا شَيْءَ أَضْفَى مِنَ اللَّوْلُو وَالْيَاقُوتِ؛ فَضَرَبَ مَثَلَهُنَّ بِذَلِكَ لِصِفَائِهِ وَبَيَاضِهِ، وَإِلَّا مَا خَطَرَ^(١٠) اللَّوْلُو حَتَّى
يُشْبِهَ الْمَوْعُودَ مِنَ الْجَنَّةِ مِنَ الْحُورِ^(١١) بِهِ؟

والثاني: أَنَّ لِلُّوْلُو [فَضْلًا وَمَنْزِلَةً]^(١٢) عِنْدَ الْعَرَبِ، وَلَيْسَ الْخَطَرُ لِعَبْرِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ، فَيُشْبِهُ ضَرْبَ مَثَلِهِنَّ بِهِ لِفَضْلِ خَطَرِ
ذَلِكَ عِنْدَهُمْ، لَيْسَ ذَلِكَ لِعَبْرِهِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الحج: ٣١] ضَرَبَ مَثَلُ مَنْ
يُشْرِكُ بِاللَّهِ بِالَّذِي خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ، وَالشُّرْكُ بِاللَّهِ أَعْظَمُ مِمَّا ذَكَرَ، لَكِنْ لَيْسَ شَيْءٌ أَعْظَمَ وَأَبْعَدَ مِنَ الْخَرِّ مِنَ السَّمَاءِ
السَّابِعِ^(١٣). فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُونُ. (٢) فِي م: أَوْ. (٣) فِي م: سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: بَاقُونَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الْقَدَحُ، وَيَشْرَبُونَ
مِنْهُ. (٦) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ح ٦٤/٧. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: يَصْدَعُونَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهِ. (٩) فِي م: سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.
(١٠) فِي م: خَصَصَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْحَوَارِي. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فَضْلٌ وَمَنْزِلَةٌ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: السَّابِعُ.

الآية ٢٤ وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً يَسَآءُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ لِلْأَعْمَالِ جَزَاءً كَانَهُمْ عَمِلُوا لَهُ فَضْلاً مِنْهُمْ^(١) وَكَرَمًا فِي حَقِّ عِبَادِهِ، وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ عَامِلِينَ لَأَنْفُسِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتَ أَحْسَنْتَ لِأَنْفُسِكَ﴾ [الإسراء: ٧] وكذلك مَا ذَكَرَ مِنْ شَرَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ مِنْهُمْ وَمَا ذَكَرَ مِنَ الْإِقْرَاضِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] وَإِنْ كَانَتْ أَنْفُسُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ لَهُ [وَمَعَ أَنَّ اللَّهَ]^(٢) عَامِلٌ عَلَى عِبَادِهِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ [فَكَأَنَّهُمَا لَيْسَتْ مِنْهُ]^(٣) فَضْلاً وَكَرَمًا. فَعَلَى ذَلِكَ ذَكَرَ لِأَعْمَالِهِمْ جَزَاءً كَانَهَا^(٤) مِنْهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى [صُنْعاً وَاحْسَاناً. وَحَتَّى إِنَّ]^(٥) كَانُوا عَامِلِينَ [لِأَنْفُسِهِمْ فَمَنْفَعاً]^(٦) أَعْمَالِهِمْ إِلَيْهِمْ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٥ وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ هَذَا يَرْجِعُ إِلَى وَضْفِ خُمُورِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَيْ لَيْسَ فِيهَا الْآفَاتُ الَّتِي تَكُونُ فِي خُمُورِ الدُّنْيَا مِنْ ذَهَابِ الْعَقْلِ وَقَوْلِ اللَّغْوِ وَالْهَذْيَانِ مِثْلُ مَا يَجْرِي عَلَى السُّبُوحِ فِي الدُّنْيَا حِينَ يَشْرَبُونَ^(٧) الْخُمُورَ وَمَا يَأْتُمُونَ بِهِ. وَذَكَرَ لَهُمْ هَذِهِ الْخُمُورَ فِي الْجَنَّةِ لِأَنَّ قَوْمًا يَرْغَبُونَ فِيهَا، وَيَطْلُبُونَهَا بِالْإِمْتِنَاعِ عَنْ شَبِّهِهَا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْخُمُورِ الْمُحَرَّمَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٦ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا يَذَّكَّرُ سَلَكًا/ ٥٤٥ - ب/ سَلَكًا﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَيْ إِلَّا كَلَاماً، فِيهِ سَلَامَةٌ مِنْ جَمِيعِ الْآفَاتِ الَّتِي ذَكَرَ.

وَالثَّانِي: ﴿إِلَّا يَذَّكَّرُ سَلَكًا﴾ أَيْ يُحْيِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِالسَّلَامِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَحْيِيَهُمْ فِيهَا سَلَامًا﴾ [يونس: ١٠].

الآيات ٢٧ - ٢٩ وقوله تعالى: ﴿وَأَحَبُّ إِلَيْنَا مَا أَحَبَّ إِلَيْنَا﴾ [فِي يَذَّكَّرُ سَلَكًا] وَتَلَحُّجُ مَضْمُونِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي ذِكْرِ شَجَرِ السُّدْرِ لَهُمْ وَمَا ذَكَرَ مِنَ الطَّلْحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا لَهُمْ لِتَفْضِيلِ الْمُقَرَّبِينَ عَلَى أَصْحَابِ الْيَمِينِ لِأَنَّهُ قَالَ فِي الْمُقَرَّبِينَ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ الْفَرَقُونَ﴾ [فِي جَنَّاتِ النَّبِيِّينَ] [الآيات: ١٠ - ١٢] إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ مِنْ عِظَمِ الْكَرَامَاتِ الَّتِي ذَكَرَ لَهُمْ، ثُمَّ ذَكَرَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ دُونَ ذَلِكَ لِيُعْلَمَ تَفْضِيلُ الْمُقَرَّبِينَ عَلَى أَصْحَابِ الْيَمِينِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ قَوْمًا مِنَ الْعَرَبِ يَنْتَفِعُونَ بِذَلِكَ لِأَنَّ لَهَا ثَمَرَةً، لَكِنْ لَيْسَتْ بِمُرْغَبَةٍ، وَلَهَا شَوْكٌ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَّ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ ذَلِكَ بِلَا شَوْكٍ وَلَا أَدَى، بَلْ رَغَبَ فِيهِ، وَهُوَ كَمَا وَعَدَ لَهُمْ مِنَ الْخُمُورِ. ثُمَّ نَفَى^(٨) عَنْ خُمُورِهَا الْآفَاتِ. فَعَلَى ذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ شَجَرُ السُّدْرِ فِيهَا بِغَيْرِ آفَاتٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَلَحُّجُ مَضْمُونِ﴾ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هُوَ طَلْحٌ مَنْضُودٌ مُتَرَكَمٌ كَمَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿لَمَّا طَلَحَ نَبِيْدٌ﴾ [ق: ١٠] ذَكَرَ فِي إِحْدَى الْآيَتَيْنِ فَعِيلاً^(٩) وَفِي الْأُخْرَى مَفْعُولاً^(١٠)، وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي اللَّغْوِ.

وقيل: ﴿وَتَلَحُّجُ﴾ بِالْحَاءِ: هُوَ الْمَوْزُ، وَذُكِرَ أَنَّ عَلِيّاً عليه السلام سَمِعَ قَارِئاً يَقْرَأُ: ﴿وَتَلَحُّجُ مَضْمُونِ﴾ فَقَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: مَا شَأْنُ الطَّلْحِ؟ إِنَّمَا هُوَ طَلْعٌ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ فِي الْمَصْحَفِ: ﴿وَتَلَحُّجُ﴾ أَفَلَا تُغَيِّرُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّ الْمُصْحَفَ لَا يُغَيِّرُ الْيَوْمَ. وَهَذَا يُؤَيِّدُ التَّأْوِيلَ الْأَوَّلَ.

وقال أبو معاذ: الطَّلْحُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ شَجَرٌ عِظَامٌ كَثِيرُ الْأَغْصَانِ، وَاجِدُهَا طَلْحَةً، وَقَالَ: ﴿وَتَلَحُّجُ﴾ أَيْ مَقْطُوعِ الشَّوْكِ، خُلِقَ هُنَالِكَ هَكَذَا بِلَا شَوْكِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ عليه السلام فِي شَجَرِ الْحَرَمِ: «لَا يُخَضَّدُ شَوْكُهَا، وَلَا يُغَضَّدُ شَجَرُهَا» [البخاري ١١٢].

(١) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: وَإِنْ كَانَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: كَانَهَا لَيْسَتْ لَهُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: كَانَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: صُنْعٌ وَاحْسَانٌ وَإِنْ. (٦) فِي الْأَصْلِ: أَنْفُسُهُمْ وَمَنْفَعَةٌ، فِي م: لَأَنْفُسِهِمْ وَمَنْفَعَةٌ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: شَرَبُوا. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: نَفَى. (٩) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: فَعِيلٌ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: مَفْعُولٌ.

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿وَزَلَّيْ تَمْدُورٌ﴾ يَصِفُهُ ^(١) أنه ليس فيه ^(٢) شمس، يؤذي حرها، ولا بَرْدٌ، يؤذي. بل ظلٌّ لأن الظلَّ شيءٌ لطيفٌ، لا أذى فيه، ولا [هو شيءٌ يَنْقُلُ] ^(٣) على الأبدان، بل هو شيءٌ يوافق البدنَ، ويخفُّ عليه. وقيل: ﴿تَمْدُورٌ﴾ لأنه لا شمس فيه ^(٤) فتسحبه. وبالشمس يُعرَفُ الظلُّ ههنا، وظلُّ الآخرة ممدودٌ أبداً.

الآية ٢١ وقوله تعالى: ﴿وَمَلَأُوا شَكُوبٌ﴾ قيل: جارٍ غير منقطع، وهو قول القتيبي.

وقال أبو عوسجة: أي مضروب. والاول كأنه أقرب، أي جارٍ أبداً، ليس كعباء الدنيا إلا أن يراد بالانسيكاب ^(٥) صبه من الأعلى إلى الأسفل، وذلك مما رغب إليه في الدنيا.

ثم قوله تعالى: ﴿وَمَلَأُوا شَكُوبٌ﴾ جائر أن يكون ذكر هذا لأصحاب اليمين، وما ذكر من قوله تعالى: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] لِلْمُقَرَّبِينَ ^(٦).

فيكون لِلْمُقَرَّبِينَ قوله تعالى: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ ولأصحاب اليمين [قوله تعالى] ^(٧): ﴿وَزَلَّيْ تَمْدُورٌ﴾ [المطففين: ٢٧] وكذلك ما ذكر من [قوله تعالى] ^(٨): ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [آل عمران: ١٥]... لِلْمُقَرَّبِينَ؛ يكونون في العلين، وتكون الأنهار تحتهم، وما ينسكب، وينصب من الأعلى لأصحاب اليمين، لأنهم يكونون دونهم في الدرجة، والله أعلم.

الآيتان ٢٢ و ٢٣ وقوله تعالى: ﴿وَفَلَنَكْهَرُنَّ كَإِبرَةٍ﴾ ﴿لَا مَقْطُوعَةَ﴾ كأنقطاع فواكه الدنيا؛ يُخبر أنها لا تنقطع في الجنة في وقت من الأوقات وأنها كلما قطعت مرة خرجت أخرى مكانها مهيةً للأكل من غير أن يحتاج فيه إلى وقت للنضج كما في الدنيا تنقطع من وقت خروجها إلى وقت نضجها، وبعد النضج والإدراك تنقطع إلى وقت وجود حملٍ آخر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنَعُ﴾ أي لا آفة بها تقصير ^(٩) ممنوعة كفواكه الدنيا؛ إذ هي تمنع بآفة تضييها.

وقال القتيبي وأبو عوسجة: ﴿لَا مَقْطُوعَةَ﴾ أي لا تحبس كما يمنع في الدنيا بعض من بعض.

الآية ٢٤ وقوله تعالى: ﴿وَفُتًى مَرُوعَةً﴾ أي مرفوعة القدر والمنزلة، أو مرفوعة بنفسها في القيامة، وهو ما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧].

وقيل: ﴿وَفُتًى مَرُوعَةً﴾ النساء؛ يقال: امرأة قريش، ونساء قريش.

الآية ٢٥ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً﴾ قال الأصم وغيره: إن هذا صلة قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ ﴿كَأَمْثَلِ الزُّلْفَى﴾ [التكوير: ٢٢ و ٢٣] كأنه قاله ^(١٠) على إثرو.

وقال القتيبي: إنه لما ذكر على إثر قوله تعالى: ﴿وَفُتًى مَرُوعَةً﴾ ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً﴾ دل أن الفرس كناية عن الأزواج؛ إذ هن اللواتي ^(١١) تفرش، وواحدة الفرس قريش.

وقيل: قد استقرست الناقة إذا اشتبهت الجمل.

والأشبه أن يكون هذا على صلة ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ ﴿كَأَمْثَلِ الزُّلْفَى﴾ [التكوير: ٢٢] إذ ذكر قوله ^(١٢): ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ على [إثر ذكر] ^(١٣) المجاليس والزوجات، فلا ^(١٤) معنى للذكرهن في هذا الموضع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً﴾ أي أنشأناهن في الابتداء على هيئة الاستمتاع، ليس كنساء الدنيا، وهو كما ذكرنا في قوله في صفة الفواكه أنها غير مقطوعة ولا ممنوعة، أي أنها تخرج أول ما تخرج [مهية للأكل] ^(١٥) لا كثمار الدنيا.

(١) في الأصل وم: يصف. (٢) في الأصل وم: فيها. (٣) في الأصل وم: شيء أثقل. (٤) في الأصل وم: فيها. (٥) في الأصل وم: بالانسياب. (٦) في الأصل وم: وقوله تعالى: ﴿وَزَلَّيْ تَمْدُورٌ﴾. (٧) و (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قال. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: اللؤلؤ. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (١٣) في الأصل وم: ذكر إثر. (١٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: على هيئة الأكل.

القبات ٣٦ - ٤١ وقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَاهُمْ أَتَكَارًا﴾ ﴿عُرًّا أَتْرَابًا﴾ [يَأْتِيهِمُ الْيَمِينُ] ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾^(١) قيل: أي خَلَقْنَاهُمْ كَذَلِكَ، وَيَكُنُّ أَبَدًا كَذَلِكَ، كَمَا ذَهَبَتْ عُذْرَتُهُمْ عَادَتٌ، فَيَكُنُّ أَبَدًا عَلَى تِلْكَ اللَّذَّةِ لِأَنَّهُمْ أَنْشَأْنَاهُمْ^(٢) هكذا، والله أعلم.

وقال عامة أهل التأويل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُمْ إِنشَاءً﴾ ﴿جَعَلْنَاهُمْ أَتَكَارًا﴾ أي جَعَلْنَا^(٣) نساء الدنيا مِنَ النِّبَاتِ وَالْأَبْكَارِ [وَوَلَدْنَاهُمْ نِسَاءَ الْجَنَّةِ]^(٤) خَلْقًا جَدِيدًا سِوَى الْخَلْقِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا ﴿جَعَلْنَاهُمْ أَتَكَارًا﴾ وَكُنُّ فِي الدُّنْيَا عَجَائِزَ وَكِبَائِرَ.

وروي على ذلك خَبَرٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِنْ ثَبَتَ، أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُمْ إِنشَاءً﴾ ﴿جَعَلْنَاهُمْ أَتَكَارًا﴾ «الْثَّيْبُ وَالْبِكْرُ» [الطبري في تفسيره ١٨٥/٢٧]. وفي بعض الأخبار [أنه]^(٥) قَالَ: «إِنَّ الْعَجُوزَ لَا تَدْخُلُ الْجَنَّةَ» [المرتضي الزبيدي في الإتحاف ٤٩٩/٧] فِي^(٦) قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُمْ إِنشَاءً﴾ ﴿جَعَلْنَاهُمْ أَتَكَارًا﴾.

وَمَنْ قَالَ: هُوَ صِلَةٌ قَوْلِهِ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ فَهِنَّ^(٧) لَسْنَ نِسَاءِ الدُّنْيَا، وَاللهُ أَعْلَمُ. وقوله تعالى: ﴿عُرًّا أَتْرَابًا﴾ بِجَزْمِ الرَّاءِ مُحَقَّقَةٌ [وَضَمُّهَا. وَكَانَ]^(٨) أَبُو عُبَيْدٍ يَقْرُؤُهَا بِالضَّمِّ لَوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: التَّخْفِيمُ، عَلَى^(٩) أَنَّهَا أَقْيَسُ فِي الْعَرَبِيَّةِ لِأَنَّ وَاحِدَتَهَا^(١٠) عَرُوبٌ، وَهُوَ مِثْلُ صَبُورٍ وَضَبُورٍ وَشُكُورٍ وَشُكْرٍ. وَأَمَّا الْوَجْهُ الْآخَرُ التَّخْفِيفُ فَقِيلَ فِي تَأْوِيلِهِ: عُرْبًا عَاشِقَاتٍ لِأَزْوَاجِهِنَّ.

وقال أبو عَوَسَجَةَ: الْعَرُوبُ الْمَرْحَةُ، وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: هِيَ الْمُتَحَبِّبَةُ إِلَى زَوْجِهَا، وَقِيلَ: الْغَنِيحَاتُ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ. وَقِيلَ: إِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ يُسَمُّونَهَا الْعَرَبِيَّةَ، وَأَهْلَ الْمَدِينَةِ غَنِيحَةً، وَأَهْلَ الْعِرَاقِ الشَّكَلَةَ.

وقال سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿عُرًّا﴾ ضَبْعَاتٍ، وَالضَّبْعَاتُ هِيَ الَّتِي تَعْرُضُ لِلزَّوْجِ مِنَ الشُّهُورَةِ، وَيُقَالُ لِلنَّاقَةِ إِذَا اسْتَهَبَتِ الضَّرَابَ: ضَبْعَةً.

وقوله تعالى: ﴿أَتْرَابًا﴾ أَي مُسْتَوِيَاتٍ الْأَسْنَانِ. وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: التَّرْبُ وَاللَّدَّةُ وَاحِدَةٌ، وَهُوَ بِالْفَارِسِيَّةِ هَمْرَاهُ. وَأَصْلُهُ أَنَّهُمْ اسْتَسَنَّ بِلَا وَلا دِي تَقْدُّمٌ، وَتَتَأَخَّرُ، كَمَا كُنَّ يَتَفَاضَلْنَ فِي الْأَسْنَانِ، فَصِرْنَ فِي الْآخِرَةِ أَتْرَابًا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا تَأْوِيلَهُ أَنَّهُ يُخْرَجُ عَلَى الْوَجْهَيْنِ.

وروي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما [عَنِ النَّبِيِّ]^(١١) أَنَّهُ قَالَ: «هُمَا جَمِيعًا مِنْ أُمَّتِي» [الطبري في تفسيره ١٩١/٢٧] وَكَذَلِكَ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾.

القبات ٤٢ وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ذَكَرَ فِي أَصْحَابِ الْيَمِينِ مَا ذَكَرَ مِنَ التَّعْجِيبِ، وَخَبَرَ عَمَّا يُكْرَمُهُمْ، وَيُعْطِيهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ النِّعَمِ، وَذَكَرَ أَصْحَابَ الشِّمَالِ، وَذَكَرَ عَلَى إِثْرِهِ مَا أَوْعَدَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿فِي سُورٍ وَمَجْمَرٍ﴾ الْآيَاتِ^(١٢).

ثُمَّ ذَكَرَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ أَصْحَابَ الْمِيمَةِ وَالْمَشَامَةِ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُمْ الثَّوَابَ وَلَا الْعَذَابَ؛ وَذَلِكَ، وَاللهُ أَعْلَمُ، لِأَنَّ فِي ذِكْرِ الْمِيمَةِ وَالْمَشَامَةِ دَلَالَةً مَا لَهُمْ، لِأَنَّ الْمِيمَةَ مِنَ الْيَمِينِ، وَالْمَشَامَةُ مِنَ الشُّؤْمِ. فَفِي ذِكْرِ ذَلِكَ بَيَانٌ [مَا]^(١٣) لَهُمْ مِنَ الْكِرَامَاتِ وَمَا لِأُولَئِكَ مِنَ الْعُقُوبَاتِ.

وليس/ ٥٤٦ - أ/ فِي ذِكْرِ الْيَمِينِ وَالشِّمَالِ بَيَانُ الْعِقَابِ، فَذَكَرَ عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ لِيُعْرِفَ مَا لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنَ الْجَزَاءِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أمسين. (٣) في الأصل وم: خلقنا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ثم. (٦) في الأصل وم: ثم. (٧) في الأصل وم: هو. (٨) في الأصل وم: ومضمومة وقال، انظر معجم القراءات القرآنية ح ٦٧/٧. (٩) في الأصل وم: والثاني. (١٠) في الأصل وم: واحدها. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: الآية. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٤٢ وقوله تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَخِيمٍ﴾ قيل: السَّمُومُ هو فَجِيحُ جَهَنَّمَ، والحَمِيم هو الذي انْتَهَى حَرُّهُ غَايَتَهُ. وقيل: السَّمُومُ هو حَرُّ النَّارِ، وقيل: هو رِيحٌ باردة، وقيل: رِيحٌ حارة.

وأصله أنه لما أصابَهُمُ السَّمُومُ اشْتَدَّ بِهِمُ الْعَطَشُ. فعندَ ذَلِكَ يَشْرَبُونَ الْحَمِيمَ رَجَاءً أَنْ يَسْكُنَ بِهِ عَطَشُهُمْ، ويذهبَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، فلا يَزِدَادُ لَهُمْ بِذَلِكَ إِلَّا شِدَّةً عَطَشٍ عَلَى مَا كَانَ، واللهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٣ وقوله تعالى: ﴿ظِلٌّ مِّنْ يَّخْشَى﴾ قيل: هو دُخَانٌ أَسْوَدُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْيَحْمُومُ هو مِنَ الْحَمِيمِ، وقال أبو بكر: أي ظِلٌّ مِّنْ بُخَارٍ، يَجْعَلُ الْيَحْمُومَ بُخَاراً. ثم الظِّلُّ الذي ذَكَرَ ههنا يَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هو الظِّلُّ الذي ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنظِلِّمُوا إِلَى ظِلِّ ذِي تِلْكَ شُعْرٍ﴾ [المرسلات: ٣٠] وقوله: ﴿ظِلٌّ مِّنَ النَّارِ﴾ [الزمر: ١٦]. وقيل: هو الشَّرَاقُ مِنَ النَّارِ.

الآية ٤٤ وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْوِي وَلَا كَرِيمٌ﴾ ﴿لَا يَأْوِي﴾ لأنه مِنَ النَّارِ ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾ لأنه لِهَوَانِهِمْ لَيْسَ لِلْكَرَامَةِ. وقال الحسنُ وقتادة: لا بارِدُ الْمَنْزِلِ ولا كَرِيمُ الْمَنْظَرِ.

الآية ٤٥ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي هذا الْجَزَاءُ لَهُمْ لأنهم كانوا يقولون في الدنيا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَدًا﴾ [سبأ: ٣٥] وإنما قالَ ذَلِكَ مُتْرَفُوهُمْ دُونَ السَّفَلَةِ وَالْآتِبَاعِ [الرُّسُلِ ١١٠] ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

الآية ٤٦ وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى اللَّيْلِ الْعَظِيمِ﴾ اِخْتَلَفُوا فِيهِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى اللَّيْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي على الإثمِ الْعَظِيمِ، وهو الشُّرْكُ. وقيل: الْجَنَّةُ الْعَظِيمُ: [الْجَنَّةُ هِيَ الْكَبَائِرُ، وَالْعَظِيمُ هُوَ الْإِصْرَارُ وَالْإِدَامَةُ] (١).

وقال بعضهم: يُصِرُّونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: يُقْسِمُونَ، وَيَحْتَشُونَ فِيهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنًّا﴾ [النحل: ٣٨] أَقْسَمُوا أَنَّهُمْ لَا يَبْعَثُونَ، فَحِثُّوا فِي ذَلِكَ، لِأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَبْعَثُونَ حِينَ (٢) قَالَ: ﴿بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَسَمُهُمْ مَا ذَكَرَ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩] وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ أُمَّةٍ الْأُمِّيَّةِ﴾ [فاطر: ٤٢] وقد جاءَهُمُ النَّذِيرُ، فلم يكونوا أَهْدَى، وجاءَهُمُ الْآيَاتُ، فلم يؤمنوا بها، فَحِثُّوا فِيهَا.

فَإِنْ كَانَ قَسَمُهُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَبْعَثُونَ حَتَّى يَفْرَغُوا مِنَ الْيَمِينِ لِأَنَّهُمْ أَيْسَرُوا مِنْ ذَلِكَ.

وفيه دلالةٌ صَحِيحَةٌ مَذْهَبِ أَصْحَابِنَا: إِنَّ مَنْ حَلَفَ يَلْمِسُ السَّمَاءَ فَإِنَّهُ (٣) يَخْتُتُ عِنْدَ فَرَاغِهِ مِنَ الْيَمِينِ.

الآيتان ٤٧ و ٤٨ وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدَا يَمَنَّا وَكُنَّا شُرَكَاءَ وَعِظَمًا لَّنَا لَتَبْعُوهُمْ﴾ ﴿أَوْ مَا بَادُوا الْأَوَّلِينَ﴾ قالوا هذا على الْإِسْتِهْزَاءِ وَالْإِسْتِعْيَادِ لِلْبَغْثِ.

الآيتان ٤٩ و ٥٠ أَلَا تَرَى أَنَّهُ أَجَابَهُمْ، فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ ﴿لَتَجْبُرُوهُنَّ إِلَىٰ بَيْتِكُمْ يَوْمَ تَمْلُومُ﴾؟ ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَي يَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي التَّخْلِيقِ، أَي جَمَعَ بَيْنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي التَّخْلِيقِ حِينَ (٤) خَلَقَ الْآخِرِينَ عَلَى إِنْثَرِ الْأَوَّلِينَ، وَإِلَّا لَمْ يَكُونُوا مَخْلُوقِينَ بَعْدُ.

والثاني: ﴿لَتَجْبُرُوهُنَّ﴾ فِي الْأَرْضِ أَي فِي الْقُبُورِ ﴿إِلَىٰ بَيْتِكُمْ يَوْمَ تَمْلُومُ﴾.

الآية ٥١ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ إِلَيْنَا فُتَاتُونَ الْكَافِرُونَ﴾ بآيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَرُسُلِهِ وَالْبَغْثِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لِقَوْلِهِ تَعَالَى. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الْكَبَائِرُ وَالْإِصْرَارُ هُوَ الْإِدَامَةُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الآية ٥٢ وقوله تعالى: ﴿لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ﴾ أخبر أن المكذبين يكونون آكلين من الشجر الزقوم، فيكون كما أخبر. ثم شجرة الزقوم هي التي ذكر أنها ﴿تُخْرِجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤ و٦٥]. وقد ذكرنا تأويله في موضعه.

الآية ٥٣ وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَبِّئُ الْبَاطِلَ﴾ يُخْبِرُ أن ليس لهم مما يأكلون، ويشربون إلا امتلاء البطون؛ لا يذوق عنهم ما يأكلون من الزقوم وغيره الجوع وما يشربون من الحميم العطش عنهم [بل] ^(١) يزاد لهم بذلك [جوع وعطش] ^(٢) على ما كان، والله أعلم.

الآيتان ٥٤ و٥٥ وقوله تعالى: ﴿فَنَشْرِبُونَ نَبِئَ النَّارِ﴾ ﴿فَنَشْرِبُونَ شَرِبَ الْيَمِّ﴾ قيل: الهيم هو إبل يأخذ الداء، يشرب حتى يمتلأ البطن، فلا يروى أبداً للداء الذي فيه. فعلى ذلك أهل النار يشربون، ويأكلون، حتى تمتلئ بطونهم، فلا يروون، ولا يشبعون، والله أعلم.

وقيل: الهيم الإبل الذي يهيم في الأرض، ولا يرد الماء أياماً، ثم إذا أورد الماء يشرب، فيمتلئ بطنه حتى يهلك لامتلاء البطن، وهو قول الأصم.

الآية ٥٦ وقوله تعالى: ﴿هَذَا نَزَّلْنَاهُ بِإِذْنِ رَبِّكَ﴾ أي الذين ذكر [هذا] ^(٣) غداؤهم وريزقهم يوم الدين.

الآية ٥٧ وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ﴾ هذا يخرج على وجهين:

أحدهما: يقول: لما صدقتُموني ورُسلي بآنا خَلَقْنَاكُمْ في الابتداء، فهلا صدقتُمونا ورسلنا بآنا نعيدكم تارة أخرى؟ إذ الأعجوبة في ابتداء الأشياء أكثر منها في الإعادة، وهو ما قال: ﴿وَهُوَ أَفْوَتْ عَلَيْنَا﴾ [الروم: ٢٧].

والثاني: إنكم صدقتُموه ورسله أنه أنشأكم في بطون أمهاتكم في الظلمات الثلاث، ونقلكم من حال إلى حال، لا تختل أن يترككم سدى بلا عاقبة، فيكون فيه إثبات البعث؛ إذ لولا ذلك لكان خلقهم وتحويلهم من حال إلى حال عبثاً كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] والله أعلم.

الآيتان ٥٨ و٥٩ وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَشْتُونَ﴾ ﴿أَنَّا نَحْنُ الْغَالِقُونَ﴾ قد علموا أنهم لم يخلقوا ما يمتنون، ولا خلقوا أنفسهم، فيقول، والله أعلم: قد أفرزتم أنكم لم تخلقوا [ماء منييتكم] ^(٤) ولا تملكون ذلك؛ فقد عرفتم أن الله هو خالقكم وخالق ذلك كله، وهو المالك لذلك.

فإذا عرفتم ذلك، وأنتم أهل تمييز وأكمل عقلاً من غيركم، فإذا لم تملِكوا خلق أنفسكم فالذين هم دونكم أحق [ألا] يملِكوا خلق أنفسهم ^(٥) ^(٦)؟ وخلق ما ذكر، ثبت أن الله تعالى هو خالق ذلك كله، فكيف عبدتم غيره، وصرفتم الألوهية إلى غيره؟

الآية ٦٠ وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدهما: أنه لما كان هو الذي خلقكم وما ذكر، ثم قدر بينكم الموت، وفيكم الولي له والعدو، وقد سوى في الدنيا بين الولي والعدو، وفي الحكمة التفرق بينهما، دل أن هنالك داراً أخرى تفرق بينهما.

والثاني: ﴿وَنَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ أي المعجل والمؤجل، أي لم يجعل موت جميعكم في وقت واحد، بل جعل معجلاً ومؤجلاً في الأصل، وقدر أن تكون مدة أجل هذا أكثر من مدة أجل الآخر.

[والثالث: قيل] ^(٧): ﴿وَنَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ أي سَوَّيْنَا بَيْنَكُمْ في الموت بين عزيزكم وذليلكم ورفيعكم ووضيعكم، لا يسلم أحد منهم.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: جوعاً وعطشاً. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ما أنيتهم. (٥) في م: أنفسكم.

(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: وقيل.

وَيُخْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ، وهو أنه لما قَدَّرَ بَيْنَكُمْ المَوْتَ، وكلُّ واحدٍ يَكْرَهُ المَوْتَ، ثم لم تَمْلِكُوا دفعَ المَوْتِ عن أنفسِكُمْ، دلَّ أن ههنا قاهراً قادراً يَجِبُ القولُ بوجودِهِ والإنقيادُ لِأوامِرِهِ ونَوَاهِيهِ.

الآية ٦١ وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَنْ بَسْبُوفِينَ﴾ [عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ أَنْتَلِكُمْ] أي وما نحنُ بِمَغْلُوبِينَ في تبديلِ أمثالِكُمْ، أو يقولُ: وما نحنُ بِمُجَازِينَ ﴿عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ أَنْتَلِكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنُشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَمْلُونُ﴾ قال أبو بكرٍ الأصمُّ: ﴿وَنُشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَمْلُونُ﴾ مِن تبديلِكُمْ إلى صورةٍ ذميمةٍ قبيحةٍ كصورةِ القردةِ والخنازيرِ ونحوها.

وقيل: ﴿وَنُشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَمْلُونُ﴾ في أيِّ خَلْقٍ شاء، وهو أَقْرَبُ مِنَ الأولِ.

وجائزٌ أن يكونَ مَعْنَاهُ: ﴿وَنُشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَمْلُونُ﴾ في ظلماتٍ ثلاثٍ، الذي لا يَبْلُغُهُ عِلْمُ البَشَرِ ولا تَدِيرُ الحكماءُ إلى أن يَبْلُغُوا ما بَلَّغُوا. فَمَنْ مَلَكَ ذَلِكَ فلا يُخْتَمِلُ أن يَعْجَزَ عَنْ بَغْيٍ أو غَيْرِهِ، واللهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٢ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ فهو على ما ذَكَرْنَا أنكم لَمَّا عَرَفْتُمْ أنه هو الذي أنشَأَكُم النِّشْأَةَ الْأُولَى لا عَنْ أَصْلِ سَبَقٍ لا يُخْتَمِلُ أن يَعْجَزَ عَنِ النِّشْأَةِ الْآخِرَةِ لَأنَّهَا مِثْلُ الْأُولَى في زَعْمِكُمْ أَسهَلُ وَأَهْوَنُ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يُخْرِجُ على ما ذَكَرْنَا: هل تَذَكَّرُونَ وَخُدَائِيَّتَهُ ٥٤٦ - ب/ وَرُبُوبِيَّتَهُ؟ أو هَلَا تَذَكَّرُونَ أنه قادرٌ على البعثِ؟ أو أَلَا تَذَكَّرُونَ أنه، هو المُسْتَوْجِبُ لِشُكْرِ ما أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ؟ أو هَلَا تَذَكَّرُونَ نِعَمَهُ وإِحْسَانَهُ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ: النِّشْأَةُ الْأُولَى ههنا نِشْأَةُ آدَمَ ﷺ وَخَلْقُهُ، أي عَلِمْتُمْ نِشْأَتَهُ لا مِن أَصْلِ ولا اخْتِدَاءٍ لِغَيْرِهِ. فَمَنْ قَدَّرَ على ذَلِكَ فهو على النِّشْأَةِ الْآخِرَى قادرٌ، وعلى تَقْدِيرِ وَهْمِكُمْ أَقْدَرُ، واللهُ المَوْفِقُ.

الآيتان ٦٣ و٦٤ وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ [أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ] [يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ]:

أَحَدُهُمَا: [١] جائزٌ أن يكونَ هذا صِلَةً ما تَقْدَمُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ كأنه يقولُ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ أَلَا تَنْتَفِعُونَ الزَّرْعَ، أم نحنُ الْخَالِقُونَ لَهُ؟ فيكونُ فِيهِ الذي ذَكَرْنَا في ذَلِكَ، واللهُ أَعْلَمُ.

والثاني: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ أَلَا تَنْتَفِعُونَ الْحِرَاءَةَ بِحَيْثُ يَنْبُتُ أم نحنُ الْجَاعِلُونَ بِحَيْثُ يَنْبُتُ؟

الآية ٦٥ ثم قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا﴾ أي يابساً، قال أبو عَوَسَجَةَ: أي مُتَكَسِّراً، لِيُذَكَّرَ نِعَمَهُ التي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ؛ يقولُ: هو الذي جَعَلَهُ بِحَيْثُ يَنْتَفِعُ [بِهِ] وَيَبْقَى. ولو شاءَ لَجَعَلَهُ بِحَيْثُ لا يَنْتَفِعُ بِهِ، أو يُخْبِرُ عَنْ قُدْرَتِهِ أنه قادرٌ على الإنباتِ وعلى الإهلاكِ. فَعَلَى ذَلِكَ [هُوَ] قادرٌ على الإِنشَاءِ والإِعَادَةِ.

وأهلُ التَّأْوِيلِ يقولونَ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ أَلَا تَنْتَفِعُونَ أم نحنُ الْمُنْتَفِعُونَ. وأصلُهُ ما ذَكَرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿فَطَلَّتُمْ تَثْكُونَهَا﴾ قِيلَ: تَعْجَبُونَ، وقيلَ: تَذَمُّونَ، وهي لُغَةٌ عُكُلٍ.

وقال أبو بكرٍ الأصمُّ: أي صِرْتُمْ تَتَنَعَّمُونَ، وتَلَذَّذُونَ، كما يقولُ الرجلُ لِآخَرٍ: لو أَخَذْتُ مَالَكَ، أو سَلْبَتَهُ، صِرْتُ غَنِيًّا، أو اسْتَفْنَيْتُ. ولكن لا نَدْرِي أَيْقَالَ هذا أم لا؟ فَإِنْ كَانَ يُقَالُ ذَلِكَ فَيَصِيرُ تَقْدِيرُهُ كأنه يَتَلَذَّذُ بِكَثْرَةِ ما يَذْكُرُهُ في كُلِّ وَفْتٍ لِأنَّ الرجلَ إذا ذَهَبَ مَالُهُ لا يَزَالُ يَذْكُرُهُ كَالْمُتَلَذَّذِ بِهِ وَالْمُتَنَعِّمِ.

وعن ابنِ عباسٍ ﷺ: ﴿فَطَلَّتُمْ تَثْكُونَهَا﴾ أي تَتَلَاوَمُونَ، وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: فَصِرْتُمْ تَثْكُونَهَا، وقوله: ﴿فَطَلَّتُمْ﴾ يُسْتَعْمَلُ في زَمَانِ النَّهَارِ دُونَ اللَّيْلِ.

الآيتان ٦٦ و٦٧ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُعَذِّبُونَ﴾ [بَلْ نَحْنُ مُعَذِّبُونَ] أي فَطَلَّتُمْ تقولونَ: ﴿إِنَّا لَمُعَذِّبُونَ﴾ ثم اخْتَلَفَ فِيهِ؛ قِيلَ: إِنَّا لَمُعَذِّبُونَ لِقولِهِ: ﴿إِنَّا لَمُعَذِّبُونَ﴾ [الفرقان: ٦٥] وقيلَ: إِنَّا لَمُعَذِّبُونَ الْمُلْقُونَ لِلشَّرِّ، أو نَحْنُ ذَلِكَ. لكنه مِنَ الغُرَمِ الظَّاهِرِ لِأنَّ مُرْتَجِعَهُ خُسْرَانٌ في مَالِهِ أو هَلَاكٌ تَلَحُّقُهُ الغَرَامَةُ لِمَا يَخْتِاجُ إلى غَيْرِهِ.

وأصله: كأنه يقول، والله أعلم، لو جعله خطاً يابساً [لا] ^(١) تتفعون به ظلمتم تقولون: ﴿إِنَّا لَمَعْرُوثُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿بَلْ نَحْنُ عَمْرُوثُونَ﴾ قيل: المعرُوم، هو الذي يَنْتَقَى عنه المال أو ما يَنْتَفِعُ به. وقال بعضهم: مخدودون، وقيل: مُحَارِفُونَ. لكنَّ المعرُوم ظاهر، لا يحتاج إلى التفسير، والله أعلم.

الآيتان ٦٨ و ٦٩ وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ نَحْنُ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يَذْكُرُ نِعْمَهُ عَلَيْهِمْ بما أنزل إليهم من الماء العذب، فيشربون.

الآية ٧٠ وأخبر أنه ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُنْجَابًا فَتَلَوَّا تَشْكُرُونَ﴾ مالحة يهللك ^(٢) الأنفس، ولا تقوم به ^(٣). وكذلك قوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا﴾ [الآية: ٦٥] حتى يخرج من أن يكون، غذاء فيه لكن يفضلوه ورحمته أبقى لهم ذلك أغذية وأشربة. ولذلك قال في آخروه ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي ملا تشكرون [ما] ^(٤) أنعم عليكم؟

ثم هذه الآيات دلالة نقض قول المعتزلة في أفعال العباد حين ^(٥) قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ لَخَالِقُونَ﴾ [الآيتان: ٥٨ و ٥٩] والإمناء، هو فعل العبد؛ إذ هو دفع المني. ثم أخبر أنه خالق ذلك حين ^(٦) قال: ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ وكذلك الجرائد والزراعة فعل العباد، وأخبر أنه خالق ذلك. وفي ^(٧) قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا﴾ [الآية: ٦٥] وقوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُنْجَابًا﴾ نقض قولهم في الأصلح.

فإنه يقال لهم: إن قوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ﴾ فجعله كذا، ثم لم يفعل ذلك، فقد ترك الأصلح، أو يكون الأصلح لهم في إبقاء ذلك، فيصير كأنه قال: لو شاء لجعل ما هو حق وعدل جوراً، ولا يجوز أن يقال: إن الله تعالى لو شاء أن يجور لجار. فعلى أي الوجهين حُمل كان في ذلك نقض مذهبيهم.

وفي قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَهُ الْمَوْتَ﴾ [الآية: ٦٠] نقض قولهم في أن المفتول لم يمُت بأجله، لأن الله تعالى أخبر أنه قَدَّر الموت بينهم، وعندهم أن من قُتل لم يمُت بما قَدَّر الله تعالى، ولم يمُت بأجله، وقد أخبر أنه هو قَدَّر ذلك، وأنه لا يسبق في ذلك لقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوحِينَ﴾.

ولو كان على ما تقول المعتزلة: يموت قبل أجله فقد قالوا: إنه لم يُقدَّر له الموت، وإن القاتل قد سبقه، ومنعه عن وفاء ما جعل له من الأجل والبلوغ إلى ذلك الأجل الذي جعل له، وكذبته في خبره أنه يبلغ إلى ذلك الأجل، والله الموفق. ثم قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ نَحْنُ أَنْزَلْنَاهُ﴾ اختلف في تأويل المزن:

قال عامة أهل التأويل والأدب: المزن، هو السحاب. وقال أبو بكر الأصم: المزن، هو الماء العذب فعلى قوله يكون حرف ﴿مِنْ﴾ صلة؛ كأنه قال: أنتم أنزلتم المزن؟

والظاهر ما ذهب إليه أولئك أنه ينزل من السحاب، والله أعلم.

الآية ٧١ وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ قال بعضهم: ﴿تُورُونَ﴾ توقدون. وقال بعضهم: تَفْدَحُونَ؛ يقال: فَدَحْتُ النَّارَ، وأوريتها، أي أخرجتها؛ يقال: ورَتِ النَّارُ تَرَى ورِيًا، فهي وارية، أي أضاءت.

الآية ٧٢ وقوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ قيل: هي الشجرة التي تُجعل حطباً، وتوقد بها النار، وتُحرق. وقيل: هي الشجرة التي فيها النار التي تتخذ منها الزنود. والأول أقرب، والله أعلم.

الآية ٧٣ وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ قال بعض أهل التأويل: أي جعلنا هذه النار تذكرةً للنار الكبرى، وهي نار الآخرة.

ويحتمل أن يكون ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا﴾ أي هذه النعم الحاضرة ﴿تَذْكِرَةً﴾ للنعم الموعودة، أو جعلنا هذه الشدائد والبلايا في الدنيا تذكرةً لما أوعدنا ^(٨) في الآخرة، والله أعلم.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ادراج قبلها في الأصل وم: ما. (٣) في الأصل وم: له. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) و(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أوعدنا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَا لِلْظَّالِمِينَ﴾ قَالَ بعضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: أَيُّ مُتَاعاً لِلْمُسَافِرِينَ؛ خَصَّ الْمُسَافِرِينَ لِتُرُولِهِمُ الْقَوَاءَ، وَهُوَ الْقَفْرُ، وَهُوَ قَوْلُ الْقَتَبِيِّ. وَقِيلَ: ﴿لِلْمُتَوَيْنِ﴾ الْمُسْتَمْتَعِينَ.

وقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: الْمُتَوِي الَّذِي لَا زَادَ لَهُ. وَقِيلَ: الَّذِي يَقَعُ فِي أَرْضِ قَوَاءٍ، وَالْقَوَاءُ [الْأَرْضُ] ^(١) الْخَالِيَةُ مِنَ النَّاسِ.

وقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: [لَا] ^(٢) أَرَى الَّذِي لَا زَادَ لَهُ مَعَهُ [أَوَّلَى بِالنَّارِ وَلَا أَخَوَجَ إِلَيْهَا مِنَ الَّذِي مَعَهُ الزَّادُ] ^(٣) بَلْ صَاحِبُ الزَّادِ إِلَيْهَا أَخَوَجُ. وَيُقَالُ: رَجُلٌ مُقَرٌّ إِذَا كَانَتْ مَعَهُ مَطِيَّةٌ قَوِيَّةٌ.

﴿وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَسِيتُ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾﴾ ^(٤).

﴿الْآيَتَانِ ٧٥ وَ ٧٦﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ ﴿وَلَئِنَّ لَاقْسَمًا لَّو تَقْلُبُونَ عَظِيمًا﴾ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَإِبْرَاهِيمَ أَنَّهُمَا قَرَأَا بِمَوَاقِعَ عَلَى الْوُحْدَانِ ^(٥). وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَرَأَهَا ﴿بِمَوَاقِعَ﴾ عَلَى الْجَمْعِ، وَبِهِ أَخَذَ أَبُو عُبَيْدٍ، وَقَالَ: إِنَّ بَعْضَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ يَتَأَوَّلُونَهَا عَلَى مَنَازِلِ الْقُرْآنِ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى مَغَائِبِ الْكَوَاكِبِ ^(٦) وَمَسَاقِطِهَا. وَأَيُّ الْوَجْهَيْنِ كَانَ فَالْجَمْعُ فِيهِ أَوَّلَى مِنَ الْوُحْدَانِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ حَرْفَ لَا هُنَا صِلَةٌ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي اللُّغَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْبُدَ﴾ [الْأَعْرَافُ: ١٢] وَنَحْوُهُ يَكُونُ عَلَى الصَّلَةِ، وَالزِّيَادَةُ عَلَى التَّوَكِيدِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ عَلَى إِبْتَابِ حَرْفِ لَا. لَكِنَّهُ جَعَلَ ذِكْرَهُ لِرَدِّ قَوْلِ كَانِ مِنَ أَوَّلِكَ الْكُفْرَةِ وَلِدْفَعِ مُنَازَعَةِ كَانَتْ مِنْهُمْ، لَكِنْ لَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ لِمَا كَانَتْ مَعْرُوفَةً بَيْنَهُمْ، فَرَدَّ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا﴾ ثُمَّ ابْتَدَأَ الْقَسَمَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَقْسِمُ﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: أَقْسِمُ قَسَمًا بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ عَلَى الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا:

[أَحَدُهُمَا: مَا] ^(٧) قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ أَيُّ بِمَوَاقِعِ تُرُولِ الْقُرْآنِ نُجُومًا:

دَلِيلُهُ مَا ذَكَرَ عَلَى إِثَرِهِ: ﴿لَئِنَّ لَقُرْآنًا كَرِيمًا﴾ ﴿فِي كِتَابٍ مَكْثُورٍ﴾ [الْآيَتَانِ: ٧٧ وَ ٧٨].

وَالثَّانِي: ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ الْمَعْرُوفَةُ عَلَى مَا قَالَ بَعْضُهُمْ.

ثُمَّ إِنَّ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ [مَغَائِبِ الْكَوَاكِبِ] ^(٨) فَالْقَسَمُ بِهَا يَكُونُ عَلَى وَجْهِ:

أَخَذَهَا: لِعِظَمِ مَوَاقِعِ النُّجُومِ وَمَحَلِّهَا فِي الْقُلُوبِ وَجَلِيلِ قَدْرِهَا عِنْدَ النَّاسِ حَتَّى يَجْعَلَهَا بَعْضُ ٥٤٧ - أ / الْمُلْحَدَةِ مُدْبِرَةَ الْخَلْقِ.

[وَالثَّانِي] ^(٩): لِكَثْرَةِ مَنَافِعِ الْخَلْقِ بِهَا مِنْ مِغْرِفَةِ [الطَّرِيقِ] ^(١٠) بِهَا وَالسَّبِيلِ وَمِغْرِفَةِ كَثْرَةِ الْأَنْدَاءِ وَالْيَبَاءِ وَمِغْرِفَةِ الْأَوْقَاتِ وَالْأَزْمِنَةِ وَغَيْرِهَا وَمِمَّا يَكْتُرُ ذِكْرُهَا.

[وَالثَّالِثُ] ^(١١): ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ أَيُّ بِمَسَاقِطِهَا؛ وَفِي ذَلِكَ إِخْبَارٌ وَإِنْبَاءٌ عَنْ شِدَّةِ طَاعَةِ النُّجُومِ وَتَسْخِيرِهَا لِإِيَّاهَا لِلْخَلْقِ حَتَّى ^(١٢) تَمْلِكَ قَطْعَ مَسِيرَةِ خَمْسِ مِائَةٍ [عَامٍ] ^(١٣) يَبُومٍ وَلَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ مَا لَا يُتَوَقَّعُ قَطْعُ ذَلِكَ مِنْ سِوَاهَا مِنْ دَوِي الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْنِحَةِ الَّتِي هِيَ أَسْرَعُ لِقَطْعِ الْمَسَافَةِ وَالْوُصُولِ إِلَى مَقَاصِدِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ بِأَجْمَعِهِمْ: إِنَّ الْقَسَمَ بِهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْقَسَمُ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ لَكِنْ أَضَافَ إِلَى

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل.. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٧٣. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: الْكَوْكَب. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: و. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: الْكَوْكَب. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (١٠) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (١٣) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، ساقطة من الأصل وم.

نفسه تغليماً منه لرسول الله ﷺ أن يقسم برّب هذه الأشياء إذا [لم يقع] ^(١) التنازع بينهم وبين رسول الله تعالى ليقسم، وإنما وضع القسم لتأكيد الخبر عند الإنكار والتنازع في ما بينهم وبين الرسل ﷺ.

وكذلك ما ذكر: ﴿وَلَا أَقِيمُ رَبِّيَ الشَّرِيقَ وَالْمَغْرِبَ﴾ [المعارج: ٤٠] ليس من الرسول؛ إذ لا يُحتمل أن يكون الرب هو المُقسم، ويقول: ﴿رَبِّيَ الشَّرِيقَ وَالْمَغْرِبَ﴾ وظاهره ^(٢) أن يكون الرسول هو المُقسم بها. فعلى ذلك الأول، والله أعلم.

ومن الناس من قال: إن الأقسام التي جرى ذكرها في القرآن بالأشياء التي ذكرها لو لم يكن القسم بها لكانت تلك الأشياء تُؤكّد، وتوجب القسم؛ وتؤكد أن لو وقع بها القسم، لأن الأقسام فيه إنما جرى أكثرها في إيجاب البعث والتوحيد وإثبات الرسالة، ونحوها وما جرى ذكرها، لو لم يكن القسم لها لكان يوجب ما يوجب القسم، لأن في هذه الأشياء دلالات على البعث والتوحيد والرسالة، والله الموفق.

الآية ٧٧ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَرَّاءٌ كَرِيمٌ﴾ على قول من يجعل القسم بالقرآن، فهو ظاهر أن يقول: ﴿إِنَّهُ لَقَرَّاءٌ كَرِيمٌ﴾ أي الذي أقسم به، وأنزله نحوه ما هو كريم.

وعلى التأويل الذي يجعل القسم بالنجوم المعروفة يجعل قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَرَّاءٌ كَرِيمٌ﴾ ابتداءً ذكر منه له.

ثم تسمية القرآن كريماً يُخرج على وجوه:

أحدها: وصفه بالكريم لما هو محل لقضاء الحوائج الدنيوية والأخروية. وفي العرف الكريم: من نصب نفسه وأعدّها لقضاء حوائج الخلق والقيام لإنجاحها.

[والثاني] ^(٣): وصفه بالكريم لأن من اتبعه كرم، وشرف.

[والثالث:] ^(٤) كريم عند الله، عظيم، لذلك وصفه بالكريم، والله أعلم.

الآية ٧٨ وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْتُومٍ﴾ قال أهل التأويل: في اللوح المحفوظ؛ سمّاه مكنوناً لأنه مستور عن خلقه عند الله.

الآية ٧٩ وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ يقول: لا يمس ذلك إلا المطهرون. وقال بعضهم: هم الملائكة الذين يجري ذلك على أيديهم كقوله تعالى: ﴿يَأْتِي سَفَرٌ﴾ [كريم بزر] [عبس: ١٥ و ١٦]. طهروا من الذنوب والآثام.

وكان ذكر هذا ليأمنوا من تخريف هذا الكتاب وتبديله.

الآية ٨٠ وهو ما قال على إثره: ﴿نَزِيلٌ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي إنه مكنون عمن يُحرّفه، ويبدّله، وإنه ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ من الذنوب، والتخريف إنهم وذنب [وإنه] ^(٥) من رب العالمين. وهو كما ذكر في آية أخرى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [على قلبك] [الشعراء: ١٩٣ و ١٩٤] وقال [في آية أخرى] ^(٦): ﴿صَلَّاتُهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥].

أخبر أن الذي نزل به من السماء أمين، لا يكون منه التخريف ولا التبديل، وأنه قوي، ولا يقدّر أحد من جن أو إنس أخذه من يده ولا تخريفه.

ثم تمام الأمن بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وكل حفظه إلى نفسه لا إلى أحد من خلقه، فصار محفوظاً من التبديل والتخريف، والله أعلم.

الآية ٨١ وقوله تعالى: ﴿أَفَبِهَذَا لَعْنُوتٌ أَمْ تَذَهْنُونَ﴾ قال بعضهم: أفبهذا القرآن أنتم كافرون؟

الآية ٨٢ [وقوله تعالى:] ^(٧) ﴿وَيَقُولُونَ رَوْفَكُمْ أَكْثَمُ تُكْذِبُونَ﴾ الله تعالى جعل هذا القرآن حياة للدين وقواماً، والرزق حياة للأبدان وما به قوامها، فكذبوا الأمرين جميعاً ما به حياة الدين وحياة الأبدان جميعاً.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بظاهره. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

ثم يُخْرِجُ ما ذَكَرَ مِنْ تَكْذِيبِ الرِّزْقِ عَلَى وَجْهِ:

أَحَدُهَا: ما ذَكَرَ بَعْضُ النَّاسِ [مِنْ] ^(١) أَهْلِ التَّوْبِيلِ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: رَزَقْنَا بَنُو كَذَا؛ كَانُوا يَنْسُبُونَ الرِّزْقَ [إِلَى] ^(٢) ذَلِكَ النَّوْءِ. فَهَذَا يَرُدُّ ^(٣) عَلَى قَوْلِ الْمُنْجِمَةِ: إِنَّ النُّجُومَ هِيَ مُدَبِّرَةُ الْعَالَمِ وَأَرْزَاقِهِمْ، لَا يَجْعَلُونَ لِلَّهِ فِي ذَلِكَ تَدْبِيرًا.

وَأَمَّا مَنْ يَنْسُبُ الرِّزْقَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَيَقُولُ: رَزَقَنَا اللَّهُ تَعَالَى بَنُو كَذَا فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ تَكْذِيبُهُ، إِنَّمَا يُخْرِجُ ذِكْرُ النَّوْءِ [عَلَى] ^(٤) ذِكْرِ سَبَبِ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَرْزُقُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا، وَكَذَلِكَ مَنْ رَأَى الرِّزْقَ مِنَ الْأَسْبَابِ خَاصَّةً.

وَأَمَّا مَنْ يَقُولُ: رَزَقَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِسَبَبٍ كَذَا فَذَلِكَ جَائِزُ الْقَوْلِ بِهِ.

[وَالثَّانِي: مَا] ^(٥) قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أَيِ تَجْعَلُونَ شُكْرَ الرِّزْقِ التَّكْذِيبَ. وَيَوْمَ قَالَ أَبُو عُيَيْدَةَ.

[وَالثَّلَاثُ:] ^(٦) جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ تَكْذِيبُهُمُ الرِّزْقَ صَرْفَ تَسْمِيَةِ الْأُلُوهِيَّةِ إِلَى غَيْرِ الَّذِي رَزَقَهُمُ وَالْعِبَادَةُ لِغَيْرِ الْمُسْتَحَقِّ لَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بِشَسْمَا أَجَدَّ الْقَوْمِ لَأَنْفُسِهِمْ حَتَّى لَمْ يَرْزُقُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا التَّكْذِيبَ؛ يَقُولُ: صَارَ حَظُّكُمْ مِنَ الْقُرْآنِ التَّكْذِيبَ، وَيَجْعَلُ هَذِهِ الْآيَةَ [مَعَ الْآيَةِ الْأُولَى] ^(٧): ﴿أَفَبِهَذَا اللَّيْثُ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ﴾.

وَقَالَ أَبُو بَكْرِ الْأَصَمُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾: وَهُوَ هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي خَصَّكُمْ بِهِ دُونَ آبَائِكُمْ، وَرَزَقَكُمْ بِهِ مَا لَمْ يَرْزُقْ آبَاءَكُمْ مِنْهُ، ثُمَّ جَعَلْتُمْ تَكْذِيبَ ذَلِكَ الرِّزْقِ الَّذِي خَصَّصْتُمْ بِهِ، وَرَزَقْتُمْ، أَوْ كَلَامَ مِنْ نَحْوِهِ، وَهوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَلَّمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]. وَقَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَبِهَذَا اللَّيْثُ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ﴾: هُوَ الَّذِي يُرَى الْمُوَافَقَةَ، وَيَخْتَلِفُ فِي دَفْعِ حُجَّةٍ مَا يَلْزَمُهُ، وَيَرُدُّ عَلَيْهِ، أَوْ كَلَامَ يُشَبِّهُهُ مَعْنَاهُ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: مُذْهَبٌ وَمُدَاهِنٌ لِعَتَانٍ، ثُمَّ أَصْلُ الْمُدَاهِنَةِ مِنَ الْمُخَادَعَةِ؛ يُقَالُ: دَاهَنْتُهُ، وَأَذْهَنْتُهُ، ثُمَّ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُدَاهِنَةِ وَالْمُدَارَاةِ. كَأَنَّ الْمُدَاهِنَةَ لَطَمَعَ لَهُ فِيهِ: يُخَادِعُهُ حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَا يَطْمَعُ، وَالْمُدَارَاةُ الشَّفَقَةُ، يُدَارِيهِ إِشْفَاقًا عَلَيْهِ لِيَتَحَقَّقَ عِنْدَهُ الْحَقُّ، لِيَسْلَمَ لَهُ، وَإِلَّا هُمَا فِي الظَّاهِرِ وَاحِدٌ، وَهُمَا الْمُلَايَنَةُ وَخَفَضُ الْجَنَاحِ. لَكِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا مَا ذَكَّرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيَتَانِ ٨٣ وَ ٨٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ ^(١) وَأَنْتُمْ حِينِلٌ تُنْظَرُونَ﴾ لَيْسَ هَذَا الْكَلَامُ صَلَةً مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْكَلَامِ. ثُمَّ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ صَلَةً مَا قَالَ أُولَئِكَ الْكَافِرَةُ: لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا لَمَا مَاتُوا، وَمَا قُتِلُوا؛ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: لَوْ كَانُوا عِنْدَكُمْ لَمْ يَمُوتُوا، وَلَمْ يُقْتَلُوا، عَلَى مَا زَعَمْتُمْ. فَهَلَا، إِذَا كَانُوا عِنْدَكُمْ، فَبَلَغَتِ الْأَرْوَاحُ الْحُلُقُومَ [تَقْدِيرُونَ] ^(٢) أَنْ تَرْجِعُوهَا، وَتَرُدُّوهَا إِلَى الْأَجْسَادِ الَّتِي كَانَتْ [فِيهَا] ^(٣) لَوْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي قَوْلِكُمْ: لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا لَمَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا. عَلَى هَذَا جَائِزٌ أَنْ يُخْرِجَ تَوْبِيلُ الْآيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ حِينِلٌ تُنْظَرُونَ﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِينِ:

أَحَدُهُمَا: ﴿تُنْظَرُونَ﴾ أَيِ يَنْتَظِرُونَ خُرُوجَ الرُّوحِ؛ إِنَّهَا مَتَى تَخْرُجُ، فَلَا يَمْلِكُونَ رَدَّهَا إِلَى حَيْثُ كَانَتْ، وَلَكِنْ يَنْتَظِرُونَ خُرُوجَهَا مَتَى تَخْرُجُ.

وَالثَّانِي: ﴿وَأَنْتُمْ حِينِلٌ تُنْظَرُونَ﴾ [عَلَى حَقِيقَةِ النَّظَرِ، أَيِ تَنْظُرُونَ] ^(٤) إِلَى سُلْطَانِي وَقُدْرَتِي.

وَقِيلَ: هُوَ مِنَ الْإِنْتِظَارِ، أَيِ تَنْتَظِرُونَ أَنْ يَحُلَّ بِكُمْ الْمَوْتُ، [وَهُوَ] ^(٥) مَا ذَكَّرْنَا.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتُمْ حِينِلٌ تُنْظَرُونَ﴾ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ رَجَاءً أَنْ تَشْفَعَ لَهُمْ فِي ضَيْقِ الْحَالِ لِوَأَنَّمَا

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ر. (٤) في الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ر. (٧) من م، في الأصل: أولى. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

يَضِيقُ الْحَالُ^(١) عَلَيْهِمْ وَالْأَمْرُ^(٢) عِنْدَ حُلُولِ الْمَوْتِ؛ إِذْ لَا بَعَثَ عِنْدَهُمْ، فَيَقُولُ: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُوكُومَ^(٣) فَتَشَفَّعَ لَهُمُ الْأَصْنَامُ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا، وَتَرُدُّ الرُّوحَ^(٤) إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَتْ [فِيهِ]^(٥)﴾ فَإِذَا لَمْ تَمْلِكْ ذَلِكَ فَكَيْفَ عِبَدْتُمُوهَا؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨٥

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْ أَرْبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْعَثُونَ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿وَيَسْتَنْ أَرْبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أَيِ ملائكتي ورُسلي في ذلك الوقت أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ لَا تُبْعَثُونَ الْمَلَائِكَةُ ٥٤٧ - ب/ لكن أضاف إلى نفسه لما أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بِأَمْرِهِ وَتَسْلِيطِهِ يَعْمَلُونَ.

وقيل: ﴿وَيَسْتَنْ أَرْبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أَيِ أَوْلَى بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لِمَا يَعْلَمُ هُوَ خَطَأَهُ، وَيَتَبَيَّنُ لَهُ الْحَقُّ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنَ الْبَاطِلِ ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْعَثُونَ﴾ أَنْتُمْ، أَيِ لَا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيتان ٨٦ و ٨٧

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ ﴿تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ مَسِيْقِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أَيِ لَوْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَمْلُوكِينَ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى [مَا]^(٦) زَعَمْتُمْ تَرْجِعُونَ الْأَرْوَاحَ، وَتَرْدُّونَهَا إِلَى الْأَجْسَادِ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا. إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ أَنْكُمْ غَيْرَ مَمْلُوكِينَ. فَإِذَا كُنْتُمْ عِنْدَكُمْ غَيْرَ مَمْلُوكِينَ تَكُونُونَ مَالِكِينَ؛ إِذْ لَيْسَ إِلَّا الْمَمْلُوكُ وَالْمَالِكُ. فَإِذَا لَمْ تَكُونُوا مَمْلُوكِينَ تَكُونُونَ مَالِكِينَ، فَتَمْلِكُونَ رَدَّهَا إِلَى مَا [كَانَتْ]^(٧) فِيهَا. فَإِذَا لَمْ تَمْلِكُوا كُنْتُمْ مَمْلُوكِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقال بعضهم: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أَيِ غَيْرَ مُحَاسِبِينَ وَلَا مُجْزِيَيْنَ، فَرُدُّوا النُّشْأَةَ الْأُولَى، وَاجْعَلُوهَا بِأَنْفُسِكُمْ حَتَّى تَكُونَ النُّشْأَةُ الْأُولَى حِكْمَةً إِذْ لَمْ تَمْلِكُوا رَدَّ هَذِهِ الْأَرْوَاحِ إِلَى الْأَنْفُسِ، أَوْ اجْعَلُوا النُّشْأَةَ الْأُولَى لِلْغَيْرِ الَّذِي يَكُونُ النُّشْأَةُ الْآخِرَى حَتَّى تَكُونَ النُّشْأَةُ الْأُولَى^(٨) حِكْمَةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيات ٨٨ - ٩٤

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَحَنَّتْ نَيْبٍ﴾ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَمْعَابِ آلِيَيْنِ﴾ ﴿سَلَكْتُ لَكَ مِنْ أَمْعَابِ آلِيَيْنِ﴾ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿فَنَزَّلُ مِنْ جِيمٍ﴾ ﴿وَنَصْلِيَةُ جِيمٍ﴾^(٩) اخْتَلَفَ فِي وَقْتِ مَا ذَكَرَ لِمَنْ ذَكَرَ ذَلِكَ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ ذَلِكَ: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَحَنَّتْ نَيْبٍ﴾ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَمْعَابِ آلِيَيْنِ﴾ ﴿سَلَكْتُ لَكَ مِنْ أَمْعَابِ آلِيَيْنِ﴾^(١٠) [الآيات: ٨٨ - ٩١] يُقَالُ لِلْمُؤْمِنِينَ^(١١) عِنْدَ الْمَوْتِ بِشَارَةً لَهُمْ بِمَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّمَا يُقَالُ ذَلِكَ إِذَا دَخَلَ هَؤُلَاءِ الْجَنَّةَ وَأُولَئِكَ النَّارَ؛ أَعْنِي الْكَافِرِينَ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿فَنَزَّلُ مِنْ جِيمٍ﴾ ﴿وَنَصْلِيَةُ جِيمٍ﴾ [الآيات: ٩٢ إلى ٩٤].

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ يُقَالُ ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ^(١٢) عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْجَنَّةِ [وَهُوَ]^(١٣) وَصَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [وَمِنْ]^(١٤) عِنْدَهُ فِي الْجَنَّةِ وَمَكَانُهُمْ لَدَيْهِ مَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا: الْمُقَرَّبُونَ عِنْدَهُ وَمَكَانُهُمْ لَدَيْهِ أَقْرَبُ مِنْ مَكَانِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَعَلَى ذَلِكَ يُخْبِرُ أَنَّ السَّابِقِينَ فِي الْإِجَابَةِ يَكُونُونَ فِي الْآخِرَةِ عِنْدَهُ أَقْرَبَ. وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ أَيِ يَسْتَأْنِسُ هُوَ بِهِمْ، وَيَسْتَأْنِسُونَ بِهِ، لَا يُفَارِقُونَهُ، وَلَا يُفَارِقُهُمْ، عَلَى مَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا.

وَسَائِرُ الْمُؤْمِنِينَ يُسَلَّمُونَ عَلَيْهِ فِي أَوَاقَاتٍ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ: ﴿سَلَكْتُ لَكَ مِنْ أَمْعَابِ آلِيَيْنِ﴾ [الآية: ٩١] عَلَى مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ أَقْرَبُ مِنَ الْوَجْهِينِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا.

وَيَحْتَمِلُ مَا ذَكَرُوا مِنَ الْبَشَارَةِ عِنْدَ الْمَوْتِ؛ أَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ:

فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ [قَوْلُهُ تَعَالَى]^(١٥): ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَحَنَّتْ نَيْبٍ﴾ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَمْعَابِ آلِيَيْنِ﴾ [﴿سَلَكْتُ لَكَ مِنْ أَمْعَابِ آلِيَيْنِ﴾]^(١٦) [الآيات: ٨٨ - ٩١].

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) الْوَارِ ساقطة من الأصل وم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الْأَرْوَاح. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، ساقطة من الأصل وم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَى آخِرِهِ. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُمْ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُمْ. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: كَلَّا.

وفي حق الكفرة [قوله تعالى] ^(١): ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿فَنَزَّلْنَا مِنْ جَبَرٍ﴾ ﴿وَنَعْلِيَّ جَبَرٍ﴾ [الآيات: ٩٢-٩٤].
ويَحْتَمِلُ [ما] ^(٢) ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ ذَلِكَ يَقَالُ لَهُمْ بَعْدَ مَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَصْحَابُ النَّارِ النَّارَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وقوله تعالى: ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَحَنَّتْ نَيْبِي﴾ اخْتَلَفَ فِي تِلَاوَتِهِ [وتأويله] ^(٣).

أَمَّا تِلَاوَتُهُ [فقد] ^(٤) رُويَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا [أنها] ^(٥) قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ هَذَا الْحَرْفَ: فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ؛ يَعْنِي بِضَمِّ الرَّاءِ، وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَرَأَهَا بِالضَّمِّ أَيْضاً، وَعَنِ الضَّحَّاكِ بِفَتْحِ الرَّاءِ، وَعَلَيْهِ جَمِيعُ الْقُرَّاءِ.
وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: لَوْلَا كَرَاهَةُ الْأُمَّةِ وَالْأَ مَا قَرَأْتُهَا إِلَّا بِالضَّمِّ، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ عَلَيْهَا أَحَدًا، فَاسْتَوْجِشْتُ مِنْ مُفَارَقَةِ النَّاسِ، وَلَا يَجْمَعُ اللَّهُ تَعَالَى أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى الضَّلَالَةِ.

وَأَمَّا تَأْوِيلُهُ فَعَلَى قِرَاءَةِ الرَّفْعِ عَنِ الْحَسَنِ [أنه] ^(٦) قَالَ: الرُّوحُ الرَّحْمَةُ، وَالرَّيْحَانُ رِيحَانُهَا، وَعَنْ أَبِي عُبَيْدٍ [أنه] ^(٧) قَالَ: بِالرَّفْعِ هِيَ ^(٨) الْحَيَاءُ وَالْبَقَاءُ، وَعَنِ الضَّحَّاكِ بِالْفَتْحِ: الرُّوحُ الْإِسْتِرَاحَةُ، وَالرَّيْحَانُ الرِّزْقُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الرُّوحُ كِنَايَةٌ عَنْ دَوَامِ النُّعْمَةِ وَالسَّعَةِ؛ يَقَالُ: فَلَانٌ فِي رَوْحٍ إِذَا كَانَ فِي سَعَةٍ وَنُعْمَةٍ، وَالرَّيْحَانُ كِنَايَةٌ عَنِ الشَّرَفِ وَالْمَنْزِلَةِ؛ يَقَالُ: فَلَانٌ رِيحَانِي، وَذَلِكَ لِشَرَفِهِ وَمَنْزِلَتِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الرُّوحُ الرَّاحَةُ، وَالرَّيْحَانُ الرِّزْقُ فِي الْجَنَّةِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الرُّوحُ بِالرَّفْعِ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَبِالنَّصْبِ الرَّاحَةُ، وَنَحْنُ نَقُولُ: جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ جَمِيعاً بِالنَّصْبِ وَالرَّفْعِ مِنَ الرَّحْمَةِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يَأْنِسُونَ رَوْحَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ ^(٩) [يوسف: ٨٧] أَيْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَقَوْلِهِ ^(١٠) فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ يَنْفُثُ﴾ [المجادلة: ٢٢] يُخَيِّرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ الْمُقَرَّبِينَ يَكُونُونَ فِي الْجَنَّةِ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ وَنُعْمَتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ﴿فَسَلَّمَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الآيتان: ٩٠ و ٩١] يَحْتَمِلُ مَا وَصَفْنَا أَنَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ يُسَلِّمُونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَيُخَيِّ بِبَعْضِهِمْ بَعْضاً بِالسَّلَامِ.

وَيَحْتَمِلُ ﴿فَسَلَّمَ اللَّهُ﴾ [أَي السَّلَامَةُ لَكَ] ^(١١) مِنْهُمْ مِنْ جَمِيعِ الْآفَاتِ وَالْأَذَى.

وَذَكَرَ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: فَسَلَامٌ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. فَهَذَا إِنْ ثَبَّتَ فَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى الْبِشَارَةِ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقيل: يُسَلِّمُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٥ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ يَقُولُ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا لِلْمُقَرَّبِينَ وَأَصْحَابِ الْيَمِينِ وَالْمُكَذِّبِينَ، هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ أَيْ كَائِنٌ، لَا مُحَالَةَ، لَا شَكَّ فِيهِ. مِثْلُ هَذَا يَقَالُ عَلَى التَّأَكُّيدِ وَتَحْقِيقِ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ وَوَضْفُهُ.

الآية ٩٦ وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: فَسَبِّحْ رَبَّكَ بِاسْمِ لَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ، أَيْ نَزْهَهُ عَنْ جَمِيعِ مَا قَالَتِ الْمُلْحَدَةُ فِيهِ مِنَ الْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ وَتَسْمِيَةِ مَنْ دُونَهُ إِلَهًا وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ.



(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٧٥. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: هو. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ١٨٩. (١١) في الأصل وم: وقال. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

[سورة الحديد^(١)]

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يجوز أن يُقرأ ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ﴾ و: سَبِّحَ اللهُ كما يُقال في الكلام: شَكَرَ اللهُ، وشَكَرَ اللهُ، ونَصَحَ اللهُ، ونَصَحَ اللهُ.

ويجوز أن يكون مَعْنَاهُما في الظاهر مُخْتَلِفًا، وَيَتَّفَقُ في الحقيقة والباطن، لأنَّ التَّنْبِيحَ، هو التَّخْلِيسُ والتَّنْزِيهِ والتَّيْبَةُ. فَمَتَى أَضِيفَ الْفِعْلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَوَقَعَ عَلَيْهِ، قِيلَ: سَبِّحَ اللهُ، فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ نَزَّاهُ، وَبَرَّاهُ عَنْ جَمِيعِ مَعَانِي الْخَلْقِ، وَخَلَّصَهُ مِنْ شَبِّهِ الْمَخْلُوقِينَ.

وإذا قيل: سَبِّحَ اللهُ فَقَدْ رَفَعَ الْفِعْلَ عَنِ الْأَشْيَاءِ الْمَخْلُوقَةِ، أَيِ خَلَّصَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا [لَهُ، وَبَرَّاهُ صُدُورَهَا]^(٢) عَنْ غَيْرِهِ.

وإذا وُصِفَ^(٣) بِأَنَّ كُلَّ الْأَشْيَاءِ لَهُ، وَهُوَ الْمَالِكُ لَهَا، وَهُنَّ عِبِيدُهُ، وَمَمَالِكُهُ خَاضِعُونَ أَذْلَاءُ، فَقَدْ وَصِفَ بِالْغِنَى وَتَمَيُّزِ الْحَاجَةِ عَنْهُ وَأَنَّهُ مُتَبَرِّئٌ عَنِ الشَّبِّهِ بِمَمَالِكِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، فَهُمَا جَمِيعًا مِنْ هَذَا الرَّجْوِ يَنْتَظِمَانِ مَعْنَى وَاحِدًا.

وإنَّ [كَانَا مُخْتَلِفَيْنِ فِي الظَّاهِرِ]^(٤) وَفِي الْبَاطِنِ مُؤْتَلِفَيْنِ^(٥)، وَإِنَّ الْإِسْلَامَ، هُوَ ٥٤٨ - أ / أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْخَلْقِ لِلَّهِ تَعَالَى خَالصًا سَالِمًا لَهُ، وَالْإِيمَانُ، هُوَ التَّصَدِيقُ بِالرُّبُوبِيَّةِ لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَمَتَى صَدَّقَ اللهُ تَعَالَى بِالرُّبُوبِيَّةِ فِي الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، فَقَدْ جَعَلَ الْخَلْقَ^(٦) سَالِمًا لَهُ. فَمَتَى جَعَلَهُ سَالِمًا لَهُ فَقَدْ صَدَّقَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، فَقَدْ اتَّفَقَا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، وَإِنْ اخْتَلَفَا مِنْ حَيْثُ الظَّاهِرُ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، وَاللَّهُ الْمُؤْتَق.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ مَا ذَكَرَ مِنَ التَّنْبِيحِ، هُوَ تَنْبِيحُ الْخَلْقَةِ؛ تَشْهَدُ لَهُ خَلْقَةُ كُلِّ شَيْءٍ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالْأَلُوْهِيَّةِ. فَهَذَا عَلَى خِلَافَةِ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ جَمِيعًا وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ الْمُتَمَتِّحِينَ الَّذِينَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَرْجِعَ إِلَى تَنْبِيحٍ خَاصٍّ، وَهُوَ تَنْبِيحُ النُّطْقِ وَاللِّسَانِ عَنْ اخْتِيَارِهِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى كُلِّ ذِي رُوحٍ، يَجْعَلُ اللهُ تَعَالَى فِي سِرِّيَّةِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مِنَ التَّنْبِيحِ لَهُ مَا يَعْلَمُهُ هُوَ، لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ إِلَّا بِإِعْلَامِ اللهِ تَعَالَى إِيَّاهُ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَنِيُّ الْكَافِرُ﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِ:

أَحْلَاهَا: ﴿الْغَنِيُّ﴾ هُوَ الَّذِي أَفْقَرَ الْخَلْقِ، وَأَخَوَجَهُمْ إِلَيْهِ، وَ﴿الْكَافِرُ﴾ هُوَ الْمُحَكِّمُ لِلْأَشْيَاءِ الْمُتَقَرِّقِ لَهَا.

[وَالثَّانِي]^(٧): ﴿الْغَنِيُّ﴾ الْقَاهِرُ الْغَالِبُ ﴿الْكَافِرُ﴾ هُوَ الْعَالِمُ بِالْأَشْيَاءِ عَلَى حَقِيقَتِهَا.

[وَالثَّالِثُ]^(٨): ﴿الْغَنِيُّ﴾ هُوَ الْمَالِكُ كُلِّ مَلِكٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ أَلُمُوتُ﴾ [آل عمران: ٢٦] ﴿الْكَافِرُ﴾ الْوَاضِعُ كُلِّ

شَيْءٍ مَوْضِعَهُ.

(١) في الأصل: ذكر أن سورة الحديد وهي، في م: سورة الحديد وهي. (٢) في الأصل وم: ويرأها. (٣) في الأصل وم: أضيف. (٤) في الأصل وم: كان مختلفان. (٥) في الأصل وم: مؤتلفان. (٦) من م، في الأصل: خلق. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: أو.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جائز أن يكون: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تفسيراً لقوله: ﴿الْمَرْبُؤُا لَكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي يملك أن يحيي هذا، ويميت غيره، أو يحيي من شاء، ويميت من شاء، أي^(١) يملك إحياء من شاء وإماتة من شاء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الإحياء والإماتة وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ قالت الباطنية: ﴿الْأَوَّلُ﴾ معناه المبدع الأول و﴿الْآخِرُ﴾ هو المبدع الثاني، و﴿الظَّاهِرُ﴾ هو الناطق، وهو الرسول ﷺ و﴿الْبَاطِنُ﴾ هو صاحب التأويل.

يقولون: إن [﴿الْأَوَّلُ﴾]^(٢) المبدع الأول، ثم للمبدع الثاني المعونة، فيستعين بها المبدع الأول^(٣) على خلق هذا العالم وإنشائهم لأنهم يقولون: إن المبدع الثاني، هو الذي دبر هذا العالم، وأنشأهم بإعانيه^(٤) المبدع الأول، والناطق هو الذي دبر الشرائع، و﴿الْبَاطِنُ﴾ هو صاحب التأويل؛ هو الذي يبين الشرائع التي دبرها الناطق، وهو الرسول ﷺ.

ولا يصفون الله تعالى أنه^(٥) ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ ويقولون: لا يجوز أن يوصف بهذه الأشياء لأن الأوليّة تنفي الآخرية، والظاهر ينفي الباطن، كل حرف من هذه الحروف يبطال الآخر في الشاهد.

وجوابنا: أن ما قلتم من المبدع الأول والثاني والناطق ليس بشيء له معنى على ما ذكرنا في موضعه.

وأما عندنا فإن قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ هي حروف التوحيد: هو الأول بذاته والآخر بذاته والظاهر بذاته والباطن بذاته. قال هذا لئلا يعلم ولا يفهم من أوليته أولية غيره، ولا يفهم من آخريته آخرية غيره. وكذلك لا يفهم من ظاهريته ظاهريته غيره ولا من باطنيته باطنية غيره؛ لأن في الشاهد من كان له أولية لا يكون له آخرية، ومن كان له آخرية لا يكون له أولية، وكذلك من كان له ظاهريته لا يكون له باطنية، ومن كان له باطنية لا يكون له ظاهريته.

فكل حرف من هذه الحروف مما ينقض الحرف الآخر، وينفيه في الشاهد؛ فإنما ذكر هذه الأحرف لنفسه ليعلم ألا يفهم من أوليته أولية الأشياء، ولا يفهم من آخريته ما يفهم من آخرية الأشياء. وكذلك ما ذكرنا من ظاهريته وباطنيته.

وهذا كما ذكر أنه ﴿الْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤ و...] و﴿اللطيف﴾ [الأنعام: ١٠٣ و...] وكل واحد في الشاهد مما يناقض الآخر، وينفيه؛ ما عظم منه لم يلفظ، وما لطف لم يعظم، لئلا يفهم من عظمته ما يفهم من عظمه غيره ولا من لطافته [ما يفهم]^(٦) من لطافة غيره، والله الموفق.

وقال بعضهم: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الذي لا ابتداء له ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي لا انتهاء له ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ هو الغالب القاهر الذي لا يغلبه شيء و﴿الْبَاطِنُ﴾ الذي لا تدركه الأوهام.

وقال بعضهم: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الذي له أولية الأشياء ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي له آخريتها^(٧) ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ الحجب والآيات و﴿الْبَاطِنُ﴾ الذي لا تدركه الأوهام، والله الموفق.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثِيِّ﴾ فإن كان خلق ما ذكر من السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام في^(٨) الأيام التي تدور عليها أيام الدنيا، وهي أيام الجمعة، فإنما خلق في هذه الأيام كيان الأشياء وأصولها، لا إنه خلق كلية الأشياء فيها وما يكون أبد الأبدان.

فعلى هذا التأويل يكون قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثِيِّ﴾ أي استوى أمره، فخلق الممتحنين^(٩)، وهم البشر؛ إذ المقصود بخلق هذه الأشياء كلها، هم البشر، ولهم أنشأ هذه الأشياء.

وإن كان المراد من قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثِيِّ﴾ أيام الدنيا التي كل يوم

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم: (٣) في الأصل وم: الثاني. (٤) في الأصل وم: بإعانة. (٥) في الأصل وم: أن مدرجة بعد: ولا يصفون. (٦) ساقطة من الأصل وم: (٧) في الأصل وم: أخرى. (٨) في الأصل وم: ستة. (٩) في الأصل وم: الممتحن.

مقداره ألف سنة على ما ذكره في آية أخرى ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] ^(١) فيكون ما ذكر من خلق السموات والأرض وما بينهما خلق أصول الأشياء وكيانها وما يتولد منها، بل يقع ذلك على الكل، فيكون على هذا تأويل قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْوَرْدِ﴾ البعث أي استوى خلق ما خلق وإنشاء ما أنشأ من العالم بالبعث ما لولا ذلك البعث لم يكن إنشاء هذا العالم الأول حكمة، والمقصود من إنشاء هذا العالم البعث. وبه يصير إنشاء حكمة، فيكون به استواء الأمر.

ثم تأويل العرش يَحْتَمِلُ الملك [أي] ^(٢) استوى ملئكه بخلق الممتحنين ^(٣) أو بالبعث الذي ذكرنا أولاً تفسيراً ^(٤) ما أراد بقوله: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْوَرْدِ﴾ لأنه لا يعلم ما أراد به إذ قال في ذلك: ﴿فَنَسَلْ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] أمر أن يسأل [الممتحن] ^(٥) به خيراً، ولم ير في ذلك أن يسأل به الخبير عنه، فلا يسع تفسيره، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ]:

أحدهما: ^(٦) أي كثرة ذلك وازدحامه لا يلتبس عليه، ولا يستتر عنه شيء.

والثاني: يُخْبِرُ أَنَّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ مَعَ ثِقَلَيْهِمَا وَكَثَافَتَيْهِمَا لَا يَسْتُرَانِ، وَلَا يُخْجِبَانِ عَلَيْهِ الْوَالِجَ فِيهِمَا وَالْخَارِجَ مِنْهُمَا وَالنَّازِلَ مِنْهُمَا، وَلَا يُحِيطَانِ ^(٧) بذلك، لِيَعْلَمَ أَنَّ لَا شَيْءَ يُخْجِبُ عَنْهُ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ هذا الحرف يُخْرِجُ على وجهين:

أحدهما: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أي عالم بكم وبأفعالكم، ومُحِيط بكم، وحافظ عليكم.

والثاني: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يتوجه المعنى فيه لاختلاف الأحوال؛ يقول: إِنْ كُنْتُمْ مُحِيطِينَ خَاضِعِينَ مُطِيعِينَ فَهُوَ مَعَكُمْ بِالضَّرِّ وَالْمَعُونَةِ عَلَى أَعْدَائِكُمْ، وَإِنْ كُنْتُمْ مُغْرَضِينَ عَنْهُ مُعَايِدِينَ فَهُوَ مَعَكُمْ بِالسُّلْطَانِ عَلَيْكُمْ وَالْإِنْتِقَامِ مِنْكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قال أهل التأويل: إِنَّ عِلْمَهُ وَسُلْطَانَهُ وَقُدْرَتَهُ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ.

وأصله ما ذكر، أي ما تقدّم أنه إذا ذكر، جلّ، وعلا، بلا ذكر الخلق معه، ولا ضم إليه أحد سواه يوصف بالأزل / ٥٤٨ - ب/ فيقال: لم يزل عالماً قادراً خالقاً بلا ذكر وقت ولا حد ولا شيء من المكان وغيره. وإذا ذكر معه شيء من الخلق يذكّر على ما عليه أحوال الخلق من الوقت والمكان والأحوال للخلق دون الله تعالى، فيقال: لم يزل عالماً للخلق وقت كونه، لم يزل خالقاً للعالم وقت كونه حتى لا يتوهم قَدَمُ المخلوق.

وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿حَقَّ قَوْلُ الْمُجَاهِدِينَ بَيْنَكُمْ وَالْقَائِدِينَ﴾ الآية [محمد: ٣١] وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ مَنْ يَفَادِلُ بِالْقَيْسِ﴾ [المائدة: ٩٤] وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَفْعَلُ وَرَسُولُهُ الْقَيْسِ﴾ [الحديد: ٢٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْكُوفِ وَالْجُجُوجِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١] ونحوه مما كثر ذكره كذلك على ما عليه أحوال الخلق. فعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ولا قوة إلا بالله.

الآية ٥

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الملوك إنما ينسب بحق نفاذ المشيئة والأمر والولاية. فجائز أن يكون قوله تعالى: ﴿لَكُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له نفاذ المشيئة، وله الولاية في السموات والأرض [أي على أهلها له الأمر والسلطان] ^(٨).

وجائز أن يكون قوله تعالى: ﴿لَكُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له خزائن السموات والأرض، يُعْطَى مَنْ يَشَاءُ، وَيُخْرَمُ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: الممتحن. (٤) في الأصل: نفس أنه. (٥) و (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل و م: الإحاطة. (٨) في الأصل و م: وعلى أهلها له السلطان عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ أي إلى الله يَرْجِعُ تدبيرُ الأمورِ مِنْ إحدَاثِ وتكوينِ وإعطاءِ وبَذلِ ومنعِ وجرمانِ، ليسَ ذلكَ إلى الخَلْقِ، واللهُ أَعْلَمُ.

وجائزُ أن يكونَ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ أي إلى الله تَرْجِعُ أمورُ الْمُنتَحِينَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْحِسَابِ والسؤالِ والثوابِ والعقابِ وغيرِ ذلكَ.

الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿يُرِيحُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُرِيحُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ إيلاجُ الشيءِ إنما هو إدخالُهُ فيه على إبقاءِ المُدْخَلِ فيه. هذا هو المعروفُ. لكن ما ذَكَرَ ههنا ممن إيلاجِ هذا في هذا وهذا [في هذا] ^(١) أَنْ جَعَلَ ما كَانَ فِي حَالِ الْإِسْتِوَاءِ فِي حَدِّ اللَّيْلِ نَهَارًا، وَجَعَلَ ما كَانَ فِي حَالِ الْإِسْتِوَاءِ فِي حَدِّ النَّهَارِ لَيْلًا عَلَى إِتْلَافِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْآخَرِ لَا عَلَى الْإِبْقَاءِ. وَفِي ذَلِكَ وَجْهَانِ ^(٢) مِنَ الدَّلَالَةِ:

أَحَدُهُمَا ^(٣): يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ فَعْلٌ وَاحِدٌ عَلَيْهِ، لَهُ تَذْيِيرٌ، لَا فَعْلٌ عَدْوٍ، لَا ^(٤) تَذْيِيرٌ لَهُ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ فَعْلٌ عَدْوٍ لَكَانَ لَا يَجْرِي عَلَى سَنَنِ وَاحِدٍ وَتَذْيِيرٍ وَاحِدٍ مُنْذُ كَانَ إِلَى أَبَدِ الْأَيَّامِ، بَلْ يَقَعُ فِي ذَلِكَ تَمَانُّعٌ وَتَغَالُبٌ، يَمْنَعُ كُلُّ وَاحِدٍ [مِنْهُمَا مَا] ^(٥) لِيُغَيِّرَهُ، وَيُغْلِبُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يُؤَافِقُهُ فِي تَدْيِيرِهِ عَلَى مَا يَكُونُ فِي عَادَةِ الْمُلُوكِ عَلَى مَا قَالَ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وَقَالَ: ﴿إِنَّا لَنَدَّبُ كُلَّ لَدُنَّا بِمَا خَلَقْنَا وَلَقَدْ بَعَثْنَاهُمْ عَلَى بَيِّنَاتٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] وَاللَّهُ الْمُؤَقِّفُ.

[وَالثَّانِي] ^(٦): دَلَالَةُ الْبَعْثِ، وَهُوَ ^(٧) إِتْيَانُ اللَّيْلِ بَعْدَ ذَهَابِ أَثَرِ النَّهَارِ وَإِتْيَانُ النَّهَارِ بَعْدَ ذَهَابِ أَثَرِ اللَّيْلِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِدٌ بِأَنَّ الصُّدُورَ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: أَيِ عَلَيْهِ بِمَا فِي الصُّدُورِ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُهُ: هُوَ عَلَيْهِ بِمَا فِي صُدُورِ أَرْبَابِ الصُّدُورِ، وَهُمْ الْبَشَرُ الَّذِينَ لَهُمُ الصُّدُورُ وَالتَّذْيِيرُ، لِأَنَّ الصُّدُورَ إِنَّمَا يَقَالُ لِلَّذِينَ لَهُمْ تَذْيِيرٌ وَتَمْيِيزٌ، وَهُمْ الْبَشَرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧ وقوله تعالى: ﴿وَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ: هُوَ أَنْ يُجْعَلَ ^(٨) رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ لَهُ الْخَلْقَ وَالْأَمْرَ، وَالْإِيمَانُ بِرَسُولِهِ هُوَ أَنْ يُصَدَّقَ ^(٩) فِي كُلِّ مَا يُخْبِرُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَفِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ، وَأَنَّهُ مُحِقٌّ، وَيُغْلَمُ أَنَّهُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَهْيِهِ بِأَمْرٍ، وَيَنْهَى، وَيَقْعَلُ، لَا مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ. هَذَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَلِّفِينَ فِيهِ﴾ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: وَأَنْفِقُوا مِنَ الْمَالِ الَّذِي جَعَلَكُمْ فِيهِ خُلَفَاءَ مَنْ تَقَدَّمَكُمْ لِأَنَّ النَّاسَ يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي هَذِهِ الْأَمْوَالِ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: أَنْفِقُوا مِنَ الْمَالِ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مَنْ تَقَدَّمَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَخْلُفَكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ كَمَا تَرَكَ الْإِنْفَاقَ مَنْ تَقَدَّمَكُمْ؛ إِذْ هِيَ إِنَّمَا أَنْشِئَتْ لِلْإِنْفَاقِ وَالْإِنْفَاقُ بِهَا لَا لِلتَّرْكِ كَمَا هِيَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أَنَّ مَنْ كَانَ آمِنًا بِهِ، وَأَنْفَقَ، فَلَهُ أَجْرٌ كَبِيرٌ: مَا وَعَدَ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ عَلَى جِهَةِ الْإِنْعَامِ مِنْهُ وَالْإِفْضَالِ فَوْقَ الْإِسْتِحْقَاقِ؛ إِذِ الْمَالُ مَالُهُ، وَهُوَ عِبِيدُهُ، وَلَا يَلْزَمُ لِلْعَبِيدِ أَجْرٌ عَلَى سَيِّدِهِ، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّفُ.

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ فِي ظَاهِرِهِ مُتَنَاقِضٌ، لِأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ وَلَوْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ كَيْفَ يُقَرِّونَ بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ؟ وَيُصَدِّقُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ؟ إِذِ التَّصْدِيقُ بِالرَّسُولِ تَصْدِيقٌ بِالرَّسْلِ، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ فَكَيْفَ يُصَدِّقُونَ الرَّسُولَ؟ لَكِنَّهُ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَيِ مَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى بَعْثِكُمْ وَإِحْيَائِكُمْ بَعْدَ [مَوْتِكُمْ]، وَقَدْ أَتَاكُمْ الرَّسُولُ ^(١٠) وَدَعَاكُمْ، وَأَنْبَأَكُمْ بِمَا يَبِينُ لَكُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ عَلَى الْبَعْثِ، فَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِقُدْرَتِهِ؟

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل: دلالة وجوه. (٣) في الأصل و م: أحدهما. (٤) في الأصل و م: ولا. (٥) في الأصل و م: ما له مما. (٦) في الأصل و م: وفيه. (٧) الواو ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل و م: يجعله. (٩) في الأصل و م: يصدق. (١٠) في الأصل و م: موتها قد أتاكم.

على هذا جائز أن يُخَرَّجَ لأنَّ أهلَ مكة كانوا أصنافاً: منهم من يذهبُ مذهبَ الدهريَّة^(١)، ومنهم من يذهبُ مذهبَ الشُّرك، ومنهم من يُقِرُّ بالتوحيد، ويُكِرُّ البعث، والله أعلم.

والثاني: يقول: أيُّ عُذْرٍ لكم في تركِكُمْ^(٢) الإيمانَ بالله تعالى؟ والرسولُ دعاكم، وقد أتاكم من الآياتِ والحُججِ ما يذْفَعُ عنكم العُذْرَ، ويُزِيحُ عنكم الشُّبُهَةَ، فأيُّ عُذْرٍ لكم في تركِكُمْ الإيمانَ به؟ فما لكم لا تؤمنون؟

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ﴾ قد ذَكَرَ في ما تَقَدَّمَ أنَّ أَخَذَ الميثاقِ مِنَ اللَّهِ تعالى يُخَرِّجُ على وجوه:

أحدها: على السُّنَنِ الرِّسَالِ ﷺ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ [المائدة: ١٢] إلى آخرِ ما ذَكَرَ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أمثَالِهِ.

والثاني: أَخَذَ الميثاقِ ما جَعَلَ في خِلْقَةِ كُلِّ أَحَدٍ مِنْ شَهَادَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ.

والثالث: [ما]^(٣) عَهْدَ إِلَيْهِمْ حِينَ^(٤) رَكِبَ فِيهِمُ الْعُقُولَ وَالْأَفْهَامَ، وَجَعَلَهُمْ بَحِثٌ يُعَيِّزُونَ مَا لَهُمْ مِمَّا عَلَيْهِمْ فِي مَا لَا يُحْتَمَلُ إِمَالًا وَمِنْهُمْ وَتَرَكَهُمْ سُدًى.

[والرابع]^(٥): ما ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ مِنْ إِخْرَاجِهِمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ ﷺ وَالْوُجُوهُ الْأُولَى أَقْرَبُ.

وجائز أن يكونَ قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِقَوْمُوا بِرَبِّكُمْ﴾ في أهلِ الكتابِ الذين كانوا مؤمنين بالله ورسوله محمد ﷺ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ [فلَمَّا بُعِثَ]^(٦) كَفَرُوا به؛ يقول، والله أعلم ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الذي كُنْتُمْ مؤمنين به [قد أَخَذَ ميثاقَكُمْ] يَدْعُوكُمْ لِقَوْمُوا بِرَبِّكُمْ^(٧).

وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ في أهلِ التَّفَاقِي الَّذِينَ كَانُوا يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ به، وَلَا يُحَقِّقُونَهُ؛ يقول: مَا لَكُمْ لَا تُحَقِّقُونَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ، وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُحَقِّقُوا الْإِيمَانَ بِرَبِّكُمْ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠١] أَي لَا عُذْرَ لَكُمْ فِي الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَرْكِ الْإِيمَانِ بِهِمَا. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ بِالْآيَاتِ وَالْحُجَجِ. أَوْ يَذْكُرُ هَذَا لَا عَلَى الشَّرْطِ بَلْ عَلَى التَّأَكِيدِ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لِمَنْ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْفُسِهِمْ إِنْ كُنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] لَأَنَّهُمْ إِذَا كُنْ أَدْعَى لِلْإِيمَانِ لَمْ يَحِلَّ لَهُمْ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْفُسِهِمْ كِتْمَانًا^(٨) مَا فِي أَرْحَامِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكَ عَلَى عَذِيبِهِ أَنْتَ يَنْتَ﴾ الْآيَاتِ فِي الْحَقِيقَةِ هِيَ الْأَعْلَامُ. لَكِنْ فَسَّرَتْ الْآيَاتُ بِالْحُجَجِ / ٥٤٩ - أ / لِأَنَّ الْآيَاتِ حُجَجٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى جَاءَتْ، لَا أَنَّهَا مُعْتَقَدَاتٌ^(٩) مِنَ الْخَلْقِ.

وقوله تعالى: ﴿يَنْتَ﴾ مُوَضِّحَاتٍ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ جَاءَتْ لَا مِنْ عِنْدِ الْخَلْقِ، أَوْ ﴿يَنْتَ﴾ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ وَمَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ وَمَا يُؤْتَى وَمَا يُنْقَى.

وقوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ مَا أُضِيفَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْإِخْرَاجِ فَهُوَ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: عَلَى حَقِيقَةِ الْإِخْرَاجِ، وَهُوَ أَنْ [يُوقَفَهُمْ لِلْإِيمَانِ]^(١٠) وَيُعْطِيَهُمُ الْمَعُونَةَ وَالْعِصْمَةَ، فَيُخْرِجُوا^(١١) مِمَّا ذَكَرَ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ.

والثاني: يُخَرِّجُ عَلَى الْأَمْرِ بِهِ وَالِدَعَاءِ إِلَى الْإِيمَانِ، لَيْسَ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِخْرَاجِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الدَّهْر. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: تَرَكَ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيُحْتَمَلُ. (٦) م: م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَيْضًا. (٩) م: فِي الْأَصْلِ: مُتَعَلِّقَات. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: يَوْفَقُ لَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيُخْرِجُونَ.

وَنَظِيرُ حَقِيقَةِ الإِخْرَاجِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وعلى هذا تَخَرُّجُ إِضَافَةُ الْهُدَايَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى [على وجهين: أَحَدُهُمَا: (١) على التوفيق وإنشاء فعل الهداية منهم.

والثاني: على الدعاء والبيان مِن اللَّهِ تَعَالَى، واللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ يَكْرِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ جائزٌ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: وَإِنَّ اللَّهَ بِمَنْ خَرَجَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ، وهو يرجع إلى المؤمنين خاصة.

وجائزٌ أيضاً أَنْ يوصفَ بِالرَّحْمَةِ وَالرَّافَةِ عَلَى الْكُلِّ أَيْ: ﴿يَكْرِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بما أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ الرِّسَالَ وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمْ الْكِتَابَ، وَإِنْ كَانَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَعَقُولِكُمْ كَفَايَةٌ عَلَى مَعْرِفَةِ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَرُبُوبِيَّتِهِ بِدُونِ أَنْزَالِ الْكِتَابِ وَإِرْسَالِ الرِّسَالِ. لَكِنْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ أَرْسَلَ الرِّسَالَ، وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَدْعَى لَهُمْ وَأَوْصَلَ إِلَى إِدْرَاكِ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ وَأَقْرَبَ فِي دَفْعِ الشُّبُهَةِ وَالْعُدْرِ، واللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٠ وقوله تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُؤْمِنُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَبْرِكُ أَسْمَوتَ وَالْأَرْضِ﴾ هذا يُخْرَجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَا قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: إِنَّ الْخَلْقَ يَقْنُونَ كُلَّهُمْ، وَيَتَّقَى اللَّهُ تَعَالَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] فَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُؤْمِنُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيْ مَا لَكُمْ لَا تُتَّقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يَزُولَ مُلْكُكُمْ، وَيَصِيرَ (٢) مِيرَاثًا لِلَّهِ تَعَالَى.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَبْرِكُ أَسْمَوتَ وَالْأَرْضِ﴾ إِضَافَةً وَإِرَائَةً بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ إِلَيْهِ لِمَا أَنَّهُمْ عِبِيدُهُ وَإِمَاؤُهُ، وَمَالُ الْعَبْدِ يَكُونُ لِسَيِّدِهِ، فَيَصِيرُ كَأَنَّهُ يَقُولُ: مَا لَكُمْ أَلَّا تُتَّقُوا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَا يَرْجِعُ إِلَى مَنَافِعِكُمْ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ مِيرَاثًا لِفَرِيقِكُمْ، واللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي سِنْكُ مَنْ أَتَقَّ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَبْلَ الْفَتْحِ أَغْظَمَ دَرَجَةً﴾ الآية. قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَا يَسْتَوِي سِنْكُ مَنْ أَتَقَّ﴾ أَيْ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ آمَنَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ، لِأَنَّهُ قَبْلَ الْفَتْحِ كَانَ عَلَى مَنْ آمَنَ الْهَلَاكُ وَأَنْوَاعُ الْعُقُوبَاتِ، لِأَنَّ الْعَلَبَةَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَتْ لِأَهْلِ الْكُفْرِ. لِذَلِكَ لَمْ يَسْتَوِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ قَبْلَ الْفَتْحِ وَمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بَعْدَ الْفَتْحِ.

وعلى ذَلِكَ يُخْرَجُ مَا رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ وَزَنَ إِيْمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيْمَانِهِمْ لَرَجَحَ» [ابن عُدَيٍّ فِي الْكَامِلِ ٣٣٥/٥] لِأَنَّ إِيْمَانَهُ ﷺ فِي وَقْتِ الْخَوْفِ عَلَى [أَنْ] (٣) يَبْقَى الْإِسْلَامُ، أَوْ لِمَا يَكُونُ بِإِيْمَانِهِ نَفَرٌ كَثِيرٌ لِأَنَّهُ كَانَ رَئِيسَهُمْ.

وَكذلك الْإِنْفَاقُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَفْضَلُ وَأَعْظَمُ لِمَا فِي الْإِنْفَاقِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مَعُونَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلِمَنْ تَابَعَهُ، أَوْ لِمَا أَنَّ الْإِنْفَاقَ مِنْ بَعْدِ الْفَتْحِ يَقَعُ بِهِ طَمَعُ الْوُصُولِ إِلَى الْمَنَافِعِ وَالْأَبْدَالِ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْمَغَانِمِ. وَقَبْلَ الْفَتْحِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى، فَهُوَ كُلُّهُ خَالِصٌ بِلَا بَدَلٍ وَلَا طَمَعٍ كَانَ مَعَهُ، واللَّهُ أَعْلَمُ.

وقيل: لَا يَسْتَوِي مَنْ هَاجَرَ وَمَنْ لَمْ يَهَاجِرْ، وَلَا هِجْرَةٌ بَعْدَ الْفَتْحِ، فَلِذَلِكَ رَوَى عَنْهُ ﷺ [أَنَّهُ قَالَ: (٤)] «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْيَوْمِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ» [البخاري ١٨٣٤].

وقوله تَعَالَى: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أَيْ وَعَدَ اللَّهُ لِكُلِّ الْفَرِيقَيْنِ: مَنْ أَتَقَّ قَبْلَ الْفَتْحِ وَبَعْدَهُ الْجَنَّةُ وَالثَّوَابُ الْحَسَنُ. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي فَتْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفْتَحَ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ فَتَحَ عَظِيمٌ» [ابن جرير الطبري فِي تَفْسِيرِهِ: ٢٧/٢٢٠].

وعَنْ قَتَادَةَ [أَنَّهُ قَالَ: (٥)]: هُوَ فَتَحَ مَكَّةَ، واللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. وصار. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيه ترغيب وترهيب في ما يُرْعَبُ فيه ويُرْعَبُ عنه.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً يضاعفه لَهُ وَلَكِنَّ أَجْرَ كَرِيمٍ﴾ قد ذكرنا في ما تقدم أنه، جلّ وعلا، عامل عبادة بكمومه وجوده مُعاملَةٌ مَنْ لا حقّ لَهُ ولا مُلك في أنفسهم وأموالهم لا مُعاملَةٌ مَنْ^(١) حقيقة أملاكهم وأموالهم وأنفسهم لَهُ مِنْ نَحْوِ ما ذَكَرَ مِنَ الإقراضِ لَهُ وما ذَكَرَ مِنْ شرايِهِ أَنْفُسَهُمْ وأموالَهُمْ منهم بَأَنْ لَهُمُ الجنةَ وما ذَكَرَ لِأعمالِهِمْ مِنَ الأجرِ، وَهُمْ عبيدُهُ، وأعمالُهُمُ التي يَعْمَلُونَ لأنفسِهِمْ كأنهم عاملون لَهُ، وما يُمَسِّكون لأنفسِهِمْ يَدخِرُونَهَا في وقت الحاجة لَهُمْ سَمَاءً قَرْضاً، وما يَكْتَسِبُونَ به للحياة الدائمة والنعم الباقية فهم المُنتَفِعُونَ بها. ولا أحد في الشاهد يَسْتَفْرِضُ مالَ نَفْسِهِ مِنْ آخَرٍ، يَبْذُلُ، ثم يُعْطَى لَهُ الأجرُ على ذلك. هذا كُلُّهُ خارجٌ عن عادة الخَلْقِ وطَبِيعِهِمْ وصنيعِهِمْ بعضهم مع بعض.

لكن عاملَهُمْ بِما يليقُ بكمومه وجوده، وَعَدَ لَهُمْ بما أَمْسَكُوا لأنفسِهِمْ أضعافاً مُضاعفةً. ثم جائزُ تسمية ما يُمَسِّكونَ لوقت حاجتهم قَرْضاً لئلا يَمُتُوا على الفقراء وأهل الحاجة بما أعطوهم منه لِمَا عُرِفَ مِنْ طَبِيعِهِمُ الإِمْتِنَانُ عليهم أو لِمَا يدفَعُ عنهم مَوْنَةٌ حِفْظُ ذلك إلى وقت حاجتهم مِنَ السَّرِقَةِ والغَصَبِ وغير ذلك مِنْ أنواع ما يُخَافُ التَّلَفُ منها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَجْرَ كَرِيمٍ﴾ قال أهل التاويل: أي أَجْرٌ حَسَنٌ، والله أعلم. وجائزُ تسميته كريماً لِمَا أَنَّ مَنْ نالَهُ يصيرُ كريماً، أو لِمَا يُؤْمَلُ، ويُرجى أن يكون لَهُمْ ذلك. والكرِيمُ في الشاهد هو الذي يُرجى منه كلُّ خيرٍ، ويُؤْمَلُ، والله أعلم.

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ جائز أن يكون قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾ أي كُتِبَهُمُ التي يُعْطَوْنَ في الآخرة؛ فإنه يُعْطَى كتاب المُقَرَّبِينَ أو السابقين من أُمَمِهِمْ وَقُدَامِيهِمْ، وكتاب سائر المؤمنين من أيمانِهِمْ، وكتاب أهل الشُّركِ^(٢) مِنْ وراء ظهورِهِمْ. يُؤَيِّدُهُ حرفُ حَفْصَةٍ^(٣): نورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وفي أيمانِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْفَ بَيِّنَةٍ﴾ الآية [الحاقة: ١٩] وجائز أن يكون نورُ إيمانِهِمْ ودينِهِمْ الذي كانوا عليه في الدنيا.

وجائز أن يكون نورُهُمُ الذي ذَكَرَ كِنَايَةً عَنِ الطريقِ الذي يَسْلُكُ فِيهِ السابقون يَرَوْنَ ما أَمَامَهُمْ، وسائر المؤمنين عن إيمانِهِمْ على ما سَلَكَوا في الدنيا، وأهل الشُّركِ بِشمالِهِمْ، وأهل النِّفاقِ مِنْ وراءِهِمْ. وجائز أن يكونَ قولُهُ: ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ كِنَايَةً عَنِ اليَمَنِ^(٤) والبركة لأنَّ^(٥) الأيمانَ تَنَالُ اليَمَنَ والبركاتِ، فَسَمَّاهَا بذلك. وَيَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ أهل التاويل أَنَّهُ يُرْفَعُ لَهُمْ نورٌ، فَيَمْشُونَ بذلك.

وقوله تعالى: ﴿بِشْرِكِكُمُ الْيَوْمَ جَحَّتْ فِجْرِي مِنْ بَيْنِهَا الْأَنْهَارُ خَلِّدِينَ فِيهَا﴾ إنما يُقالُ ذلك [قَبْلَ]^(٦) دخول أهل الجنة [الجنة]^(٧) وأهل النار النار.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه لا هلاكَ بَعْدَهُ، ولا تَبِعَهُ، ولا انْقِطَاعَ؛ ذلك لذلك.

ثم قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ليس أن يَرَاهُ هو خاصَّةً، لا يَرَى غَيْرُهُ ذلك، ولكن يَرَى ذلك جميعُ المؤمنين، فَيَبْطُلُ به قول مَنْ جَعَلَ التَّنْصِيفَ على الشيء دالاً على التَّخْصِيفِ ونَفْيِ غَيْرِهِ.

وعن قتادة أنه قال: ذُكِرَ لنا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٥٤٩ - ب/ مَنْ يُضِيءُ نورَهُ مِنَ المدينة إلى عَدَنِ أو إلى صنعاء ودون ذلك حتى إِنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لا يُضِيءُ نورَهُ إِلَّا مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ، وللناسِ مَنَازِلُ بأعمالِهِمْ» [السيوطي في الدر المنثور ٥٢/٨].

(١) من م، في الأصل: في. (٢) من م، في الأصل: المشركين. (٣) من م، في الأصل: اليمين. (٤) في الأصل: وم: فإن. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

رُويَ في بعض الأخبار عن رسول الله ﷺ [أنه^(١)] قَالَ: ﴿يَسْتَعِزُّوهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مَا أَفْرَطُوا مِنْ أَوْلَادِهِمْ.

الآية ١٣ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُوا نَفْسَ مِن نُّفُسِكُمْ﴾ مِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُوا نَفْسَ مِن نُّفُسِكُمْ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ قَرَأَهَا^(٢) مَقْطُوعَةً مِنْ أَنْظَرْتُ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: فَلَا تَصَالُ أَحَبُّ إِلَيْنَا لِأَنَّ تَأْوِيلَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَنْتَظَرُونَا؛ يُقَالُ مِنْهُ: نَظَرْتُ فَلَنَّا أَنْظَرُهُ. وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ الْآخَرَى فَنَظَرْتُ مِنْ التَّأخِيرِ؛ يُقَالُ مِنْهُ: أَنْظَرْتُ فَلَنَّا أَنْظَرُهُ إِذَا أَخَّرْتَهُ، وَلَا أَعْرِفُ لِلتَّأخِيرِ هَهُنَا مَوْضِعًا.

وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: أَنْظَرْتُهُ، وَنَظَرْتُهُ، أَيِ أَنْظَرْتُهُ؛ يُقَالُ مِنْهُ: نَظَرْتُ نَظْرَةً.

ثُمَّ الْآيَةُ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ أَهْلَ النَّفَاقِ يَكُونُونَ يُعْذِرُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا^(٣) يَنْتَفِعُونَ بِنُورِ الْمُؤْمِنِينَ. وَلَكِنْ يَرَوْنَ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ بُعْدٍ فَيَقُولُونَ^(٤): ﴿انظُرُوا نَفْسَ مِن نُّفُسِكُمْ﴾ وَلَوْ كَانُوا يَقْرُبُ مِنْهُمْ، أَوْ يَنْتَفِعُونَ بِنُورِهِمْ لَكَانُوا لَا يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ الْإِنْتِظَارَ لَهُمْ وَالْإِقْبَاسَ مِنْ نُورِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورَكُمْ﴾ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا هُوَ الْإِسْتِهْزَاءُ الَّذِي ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ يَسْتِهْزِئُ بِهِمْ حِينَ^(٥) قَالَ: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِكُمْ﴾ [البقرة: ١٥] بِقَوْلِهِ: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورَكُمْ﴾ هُوَ ذَلِكَ الْإِسْتِهْزَاءُ.

وَقُلْنَا نَحْنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِكُمْ﴾ أَيِ يَنْجِزُهُمْ جَزَاءَ اسْتِهْزَائِهِمْ الَّذِي اسْتَهْزَوْا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِالْمُؤْمِنِينَ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَمْرِ بِالرَّجُوعِ إِلَى وَرَاءِ وَالتَّمَسُّكِ بِالنُّورِ، وَلَكِنْ عَلَى التَّوْبِخِ وَالتَّعْيِيرِ، أَيِ النُّورُ إِنَّمَا يُطْلَبُ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْيَوْمِ، أَيِ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْيَوْمِ لَا يُطْلَبُ فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَضَرَبَ بِسُورٍ لَهُمُ بَابُ الْبَابِ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَلَمَهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾.

جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ السُّورُ الَّذِي ذَكَرَ الَّذِي ضَرَبَ بَيْنَهُمْ مَا ذَكَرَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ حِينَ^(٦) قَالَ: ﴿وَبَيْنَهُمَا جَبَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الآية: ٤٦] السُّورُ هُوَ الْأَعْرَافُ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ^(٧) يَكُونُ جِجَابًا بَيْنَ أَهْلِ النَّارِ وَأَهْلِ الْجَنَّةِ. يُرْفَعُ ذَلِكَ السُّورُ بَيْنَهُمْ لئَلَّا يَنْتَفِعُوا بِنُورِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُمُ بَابُ الْبَابِ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَلَمَهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لَهُمُ بَابُ الْبَابِ﴾ لَيْسَ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَابِ [وَلَكِنْ^(٨)] كِنَايَةً عَنِ الطَّرِيقِ وَالتَّسْبِيلِ؛ يَقُولُ: هُوَ طَرِيقٌ وَسَبِيلٌ مَنْ يَأْخُذُ ذَلِكَ السَّبِيلَ أَفْضَاهُ إِلَى الرَّحْمَةِ. وَمَنْ سَلَكَ ظَاهِرَهُ أَفْضَاهُ إِلَى الْعَذَابِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يُفْتَحَ مِنَ النَّارِ إِلَى الْجَنَّةِ بَابٌ، فَيَرَوْنَ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَيَرَى^(٩) أَهْلُ النَّارِ أَهْلَ الْجَنَّةِ عَلَى [مَا هُمْ]^(١٠) عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ لِيَزِدَادُوا^(١١) حَسْرَةً وَنَدَامَةً، أَوْ يَكُونَ أَطْلَاعًا لَا مِنْ بَابٍ وَلَكِنْ مِنَ السُّورِ وَالْأَعْرَافِ الَّذِي ذَكَرَ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿فَأَطَّلَعَ قَوْنَهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥].

وَالْإِطْلَاعُ فِي الظَّاهِرِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ مَكَانٍ عَالٍ مُرْتَفِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ مُنْخَلِصٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَنَادُوهُمْ آتْكُمْ نَعْنَكُمْ﴾ أَيِ يُنَادِي أَهْلُ النَّفَاقِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿آتْكُمْ نَعْنَكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُمْ: ﴿آتْكُمْ نَعْنَكُمْ﴾ تَغْرِيرٌ مِنْهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ كَمَا كَانُوا يُغْرِوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ مَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ [أَنَّهُمْ]^(١٢) يَكْذِبُونَ فِي الْآخِرَةِ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا حِينَ^(١٣) قَالَ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنْظَرُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْفَلُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى نِعْمَةٍ آلَا لَمْ يَكُونُوا﴾ [المجادلة: ١٨] فِي حَلْفِهِمْ.

فَعَلَى ذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ: ﴿آتْكُمْ نَعْنَكُمْ﴾ يُخْرِجُ عَلَى تَغْرِيرِهِمْ إِيَّاهُمْ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قرا، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٨٣. (٣) في الأصل وم: وأن لا. (٤) في الأصل وم: حيث قالوا. (٥) و(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: أنها. (٨) في م: ولكن الباب، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: يرون. (١٠) في الأصل: هو، في م: ما هو. (١١) في الأصل وم: ليزداد لهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: حيث.

ثم الإشكال والكلام قول المؤمنين: ﴿بَلَىٰ﴾ وقد علموا أنهم لم يكونوا معهم، فكيف ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾؟
فَقُولُ: جائز أن يكون جوابهم خَرَجَ لأولئك على ما عَرَفُوا مِنْ خَطِّهِمْ وَمُرَادِهِمْ، فأجابهم على ذلك، أو أن يكون
قولهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي كُنْتُمْ تقولون: إنا معكم، ولكن لم تكونوا معنا، أو أن يَخْرُجَ جوابهم على ظاهر ما يَرَوْنَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ
الموافقة دون الحقيقة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْتَفِرُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يُخْرِجُ على وجوه:

أحدها: ائْتَحِثُّمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الرَّجُوعِ إِلَى مَنْ جَعَلَ لَكُمْ الْمَنَافِعَ وَالْعَاقِبَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ
إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ [الحج: ١١] أي شدة.

وقال القتيبي: ﴿تَنْتَفِرُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي اتَّيْتُمُوهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَرَتَّبْنَا﴾ يُخْرِجُ على وجهين:

يَحْتَمِلُ ﴿وَرَتَّبْنَا﴾ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سَيَمُوتُ عَنْ قَرِيبٍ، أو أَنَّهُ يَرْجِعُ عَنِ الْإِسْلَامِ إِلَى دِينِ أُولَئِكَ الْكُفَرَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْبَتْنَا﴾ أي شَكَّكُنْهُمْ، وَإِنْ قَامَ لَكُمْ مَا يَدْفَعُ الْإِزْتِيَابَ وَالشَّكَّ عَنْكُمْ وَالشُّبْهَةَ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَزَّزْنَا الْأَمَانَةَ﴾ تَحْتَمِلُ الْأَمَانَةَ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: مَا ذَكَّرْنَا مِنْ اتِّبَاعِهِمُ الْمَنَافِعَ الَّتِي كَانُوا يَتَوَقَّعُونَهَا، فَيَكْفُ مَا كَانُوا يَتَّبِعُونَ غَرَضَهُمْ فِي ذَلِكَ.

والثاني: مَا تَمَنَّتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْ مَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهَلَاكِهِ أَوْ عَوْدِهِ إِلَى دِينِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿حَقَّ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي الْأَمْرُ بِالْهَلَاكِ أَوْ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَزَّزْنَا بِاللَّهِ الْغُرُورَ﴾ أي غَرَّكُمُ عَنْ دِينِ اللَّهِ الشَّيْطَانُ.

الآية ١٥ وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ بِكُمْ بَذِيَّةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قُرِئَ بِالْيَاءِ وَالنَّوْءِ^(١)، وَكَثُرَتْ عَلَى الْيَاءِ، وَمَعْنَاهُمَا
وَاحِدٌ، أَيْ لَا يَكُونُ لَهُمْ فِذْيَةٌ يَوْمَئِذٍ، لَيْسَ أَنَّهُ تَكُونُ لَهُمْ فِذْيَةٌ، وَلَا تُؤْخَذُ، أَوْ يَقُولُ عَلَى التَّمْثِيلِ أَيْ لَوْ كَانَ لَهُمْ فِذْيَةٌ لَكَانَتْ لَا تُقْبَلُ
مِنْهُمْ. يُخْبِرُ أَنَّ أَمْرَ الْآخِرَةِ عَلَى خِلَافِ مَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا؛ إِذْ فِي الدُّنْيَا رُبَّمَا يُحْتَالُ لِدَفْعِ الْبَلَاءِ بِالْفِدَاءِ مَرَّةً وَبِالْشَّفَاعَةِ ثَانِيًا.

وقوله تعالى: ﴿مَأْوَانَكُمْ أَنَارَ﴾ أي تَأَوَّنَ إِلَيْهَا.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ مَوْلَانَكُمْ﴾ أي أَوْلَىٰ بِكُمْ وَآحَقُّ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسِّرَ الْيُسْرَىٰ﴾ أي بَسَّ مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهَا.

ثم فِي الْآيَةِ نَقَضُ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ فِي تَخْلِيدِ أَصْحَابِ الْكِبَائِرِ فِي النَّارِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ النَّاسَ عَلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ، وَأَنْزَلَ لَهُمْ
مَنَازِلَ ثَلَاثَةً: الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ كُفَرُ تَضْرِيحَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَجَعَلَ النَّارَ لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَأَهْلِ الثُّفَاقِ، وَلَمْ يَجْعَلْهَا لِغَيْرِهِمَا،
وَصَاحِبُ الْكِبِيرَةِ، لَيْسَ هُوَ بِمُنَافِقٍ وَلَا كَافِرٍ عِنْدَهُمْ.

وكَذَلِكَ مَا قَسَمَ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ أَقْسَامًا ثَلَاثَةً: السَّابِقِينَ وَأَصْحَابَ الْيَمِينِ وَأَصْحَابَ الشَّامِلِ [وَأَصْحَابَ الشَّامِلِ]^(٢)
هُمْ الْمُكَذِّبُونَ، وَأَصْحَابُ الْكِبَائِرِ لَيْسُوا بِمُكَذِّبِينَ عِنْدَهُمْ. وَهُوَ مَا جَعَلَ النَّارَ إِلَّا لِلْمُكَذِّبِينَ:

أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهِ: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَيْمٍ﴾ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾
﴿سَلَكَ لَكَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الْمَكَالِينَ﴾ ﴿مَنْزِلٌ مِنْ جَمِيمٍ﴾ ﴿وَنَصِيلَةٌ جِيمٍ﴾؟ [الواقعة: ٨٨ - ٩٤].

جَعَلَ الْجَنَّةَ لِلْمُقَرَّبِينَ وَأَصْحَابِ الْيَمِينِ وَالنَّارَ لِلْمُكَذِّبِينَ خَاصَّةً، لَمْ يَجْعَلْهَا لِغَيْرِهِمْ. فَمَنْ جَعَلَهَا لِغَيْرِهِمْ فَهُوَ مُخَالِفٌ
لظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي ذَكَّرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٨٤. (٢) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٦

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ وما نَزَلَ قَرِئَ مُحَقَّفًا ومُثَقَّلًا^(١)؛ فَمَنْ شَدَّدَ شَدَّدَ لِمَا سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تعالى، وَمَنْ حَقَّفَ جَعَلَ الْفِعْلَ لِلْحَقِّ.

ثم الآية تَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدها: ما قال بعض أهل التأويل: إنها نزلت في المنافقين الذين أظهروا الإيمان، وأضَمَرُوا الكُفْرَ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي قد أتى للذين آمنوا ظاهراً، وأظهروا الموافقة للمؤمنين ﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي إذا ذُكِرَ الله ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي القرآن إذا يَنْتَلَى عليهم أن تَرِقَ قلوبهم، وتؤمن به، لأنهم كانوا يَتَرَبَّصُونَ برسول الله ﷺ الدوائر / ٥٥٠ - ١/ وَيَطْمَعُونَ بهلاكه.

أمَّن الله تعالى المؤمنين من ذلك، وأخوف، وأيسر أولئك مما تَرَبَّصُوا فيه من نزول الدوائر، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ظاهراً ﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ والقرآن، وتَرِقَ لذلك، وتؤمن به؟ والله أعلم.

وقال^(٢) تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ على هذا التأويل؛ أي لا تكونوا كأولئك الذين تمادوا في الضلال وقساوة القلوب لما طال عليهم الوقت، وتركوا النَّظَرَ في الكتب.

[والثاني]^(٣): أن تكون الآية في أهل الكتاب الذين كانوا مؤمنين برسول الله ﷺ قبل أن يبعث.

فيقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ به من قبل أن يبعث ﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي كتابهم ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ وهو القرآن أن يؤمنوا به كما كانوا آمنوا به لما وجدوا بعثه في كتابهم.

ويقول^(٤) تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي لا تكونوا كالذين كانوا من قبلكم من أهل الكتاب ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ أي طال عليهم أن ينظروا في كتبهم ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بطول ترك نظرهم فيها، والله أعلم.

[والثالث]^(٥): أن تكون الآية في المؤمنين الذين حققوا الإيمان بالله ورسوله، وهو مُخْرَج على وجهين:

أحدهما: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي قد أتى ﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ بالنظر والتأمل^(٦) في ذلك، فيَحْمِلُهُمْ ذلك على خُشوع قلوبهم [كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] جَعَلَ وصف المؤمنين أن تَوَجَّلَ قلوبهم]^(٧) عند ذِكْرِ الله، ويزداد لهم الإيمان واليقين بالنظر فيه والتفكير وفهم ما فيه، والله أعلم.

والثاني: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي قد أتى ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ﴾ تُقَطَّعَ شَهَوَاتُهُمْ وأمانيتُهُمْ في الدنيا، وتَخْشَعَ قلوبهم لِذِكْرِ الله ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي لا تَغْفَلُوا عن كتاب الله وذِكْرِهِ، ولا تَتْرَكُوا النَّظَرَ فيه والتفكير، فَتَغْفَلُوا عما فيه ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فلا تكونوا أنتم كهَم، فَتَقَسُّ قلوبكم كما قَسَتْ قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَبِيرٌ بَيْنَهُمْ فِسْقٌ﴾ أي كثير من أولئك الذين أوتوا الكتاب فاسقون لِتَرْكِهِمُ النَّظَرَ في الكتاب.

وجائز: ﴿وَكَبِيرٌ بَيْنَهُمْ فِسْقٌ﴾ أي المُعَانِدُونَ، والقليل منهم المُقَلِّدُونَ، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠ والزخرف: ٧٨] أي مُعَانِدُونَ، وهُمُ الرُّؤَسَاءُ والقادة الذين كَابَرُوا رُسُلَ الله، وعاندوهم إلا قليلاً^(٨) منهم اتَّبَعُوهُمْ، وَقَلَّدُوهُمْ.

الآية ١٧

وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ذَكَرَ هذا، ليس على أنهم لم يكونوا عَلِمُوا أَنَّ الله هو يُحْيِي الأرض بعد موتها، بل كانوا عالمين بذلك، لكنه ذَكَرَ كما ذَكَرَ لرسول الله ﷺ حين^(٩) قال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] أي أشعِرْ قلبك في كلِّ وقت وساعة الربوبية لله تعالى والوَخْدَانِيَّةَ لَهُ.

فَعَلَى هذا يَحْتَمِلُ قوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي أشعِرُوا قلوبكم في كلِّ وقت وجعل الألوهية والربوبية

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٨٦. (٢) في الأصل وم: ثم وقوله. (٣) في الأصل وم: ويحتمل. (٤) في الأصل وم: ثم وقوله. (٥) في الأصل وم: ويحتمل. (٦) من م، في الأصل: والتأويل. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: قليل. (٩) في الأصل وم: حيث.

لله تعالى وصرفت العباد إلى التَّزَيُّة والتَّزَيُّة لَهُ مِمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ [مِمَّا يُوصَفُ بِهِ] ^(١) الْخَلْقُ؛ إِذْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ يُخَيِّي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَمْنَحُكُمْ بِأَنْوَاعِ الْحَيَاةِ؛ إِذْ لَا يُحْتَمَلُ أَحْيَاءُ مَا ذَكَرَ بَعِيرٌ فَائِدَةٌ وَتَرْكُهُمْ سُدَى.

أَوْ يَقُولُ: قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ، هُوَ يُخَيِّي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَأَنْتُمْ تَرْغَبُونَ فِي مَا أَحْيَاهُ اللَّهُ، وَتُصِيبُونَ مِنْهُ، وَتَجْتَهِدُونَ فِي نَيْلِ ذَلِكَ وَإِصَابَتِهِ، فَاجْتَهِدُوا فِي إِصَابَةِ الْبَرَكَاتِ الدَّائِمَةِ فِي الْحَيَاةِ الْبَاقِيَةِ.

أَوْ يَقُولُ: لَمَّا عَلِمْتُمْ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْبَعْثِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَمَّا كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ قَدْ ذَكَّرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ أَنَّ حَرْفَ: لَعَلَّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يُخْرِجُ عَلَى الْإِيجَابِ. لَكِنْ يُخْرِجُ هُنَا عَلَى التَّرْجِيهِ وَإِطْمَاعِ الْعَقْلِ لِلآيَاتِ وَالْفَهْمِ لَهَا إِذَا نَظَرُوا فِيهَا، وَتَأَمَّلُوا أَنَّهَا آيَاتٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ أَنْ يَرْجِعَ ذَلِكَ إِلَى خَاصٍّ مِنَ النَّاسِ لَوْ خَرَجَ حَرْفٌ: لَعَلَّ لِلْإِيجَابِ دُونَ التَّرْجِيهِ، وَهُمْ الَّذِينَ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَغْفُلُونَ أَنَّهَا آيَاتٌ، وَيُؤْمِنُونَ بِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٨

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ قُرِئَ مُشَدَّدَ الصَّادِ وَالِدَالِ وَمُخَفَّفَ الصَّادِ ^(٢). فَمَنْ شَدَّدَهُ جَعَلَهُ مِنَ التَّصَدِّقِ: أَيِ الْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ، فَأَذْهَمَ النَّاءَ فِي الصَّادِ، فَصَارَ ^(٣) مِثْلَ الْمُزْمَلِ وَالْمُدَّتْرِ. يُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا ذَكَرَ فِي حَرْفِ أَتَمَّ بِنِ كَغِبٍ ﷻ أَنَّهُ قَرَأَهُ بِالنَّاءِ: إِنَّ الْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ. وَمَنْ خَفَّفَهُ جَعَلَهُ ^(٤) مِنَ التَّصَدِّقِ وَالْإِيمَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهِمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ قَدْ ذَكَّرْنَا تَأْوِيلَهُ فِي مَا تَقَدَّمَ.

الآية ١٩

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ سَمَّى الْمُؤْمِنِينَ صَادِقِينَ [وَالصَّادِقِينَ] ^(٥) لَا يَقَالُ إِلَّا لِمَنْ يَكْثُرُ مِنْهُ التَّصَدِّقُ، وَقَدْ يَكْثُرُ مِنْ كُلِّ مُؤْمِنٍ التَّصَدِّقُ، وَإِنْ كَانَ مَا يَأْتِي بِهِ، إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ، نَحْوُ أَنَّهُ إِذَا صَدَّقَ اللَّهُ صَدَّقَ رُسُلَهُ ^(٦) فِي مَا أَخْبَرُوا عَنْ اللَّهِ تَعَالَى وَفِي مَا دَعَا ^(٧) إِلَى مَا دَعَا، وَبَلَّغُوا عَنْ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ، وَصَدَّقَ الْخَلَائِقُ جَمِيعاً فِي مَا شَهِدُوا عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْوَحْدِيَّةِ مِنْ حَيْثُ شَهَادَةُ الْخَلْقَةِ وَشَهَادَةُ الْأَخْبَارِ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ. فَتَّصَدَّقَهُ يَكْثُرُ، وَإِنْ كَانَ الْكَلَامُ فِي نَفْسِهِ يَقِلُّ، وَهُوَ كَمَا قُلْنَا لَا بِي حَقِيقَةً، رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي جَوَازِ الْخُطْبَةِ بِتَسْيِيحِهِ أَوْ تَهْلِيلِهِ: إِنَّهَا كَلِمَةٌ وَجِيزَةٌ، لَوْ قُسِّرَتْ، وَبُسِطَتْ صَارَتْ خُطْبَةً طَوِيلَةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺ فَضَّلَ بِاسْمِ الصَّادِقِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَمْةِ، فَإِذَا اسْتَحَقَّ غَيْرُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا الْإِسْمَ لَمْ يَخْتَصَّ هُوَ بِتِلْكَ الْفَضِيلَةِ.

قِيلَ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺ سَمِيَ صَادِقاً، وَخُصَّ بِهِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الصَّحَابَةِ وَالْمُؤْمِنِينَ لِمَعْنَى اخْتِصَّ بِهِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [مَا] ^(٨) سُمُوا صَادِقِينَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ جَمِيعاً إِلَّا فِي [مُقَابَلَتِهِمْ كَهُوَ مَا] ^(٩) اخْتِصَّ بِهِدَا الْإِسْمَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِهِمْ إِلَّا فِي مُقَابَلَةِ النَّبِيِّ وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ هَذَا هُوَ مَعْنَى تَفْضِيلِهِ. وَالْفَضْلُ عِنْدَ الْمُقَابَلَةِ يَكُونُ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْإِخْتِصَاصُ لَهُ لِلْإِغْتِقَادِ وَالْمُعَامَلَةِ جَمِيعاً، وَسَائِرُ الْمُؤْمِنِينَ سُمُوا صَادِقِينَ لِلْإِغْتِقَادِ خَاصَّةً، وَمَنْ وَفَّى الْأَمْرَيْنِ جَمِيعاً كَانَ أَفْضَلَ مِنْ وَفَى أَمْرًا وَاحِدًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ مِنَ النَّاسِ مَنْ جَعَلَ قَوْلُهُ: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ مَقْطُوعاً مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ وَصَلَهُ بِهِ.

فَمَنْ قَطَعَهُ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَقُولُ: الشُّهَدَاءُ هُمُ الرُّسُلُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ إِذَا يَحْشَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ وَجَعَلْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾؟ [النساء: ٤١] وَإِخْبَارِهِ ^(١٠) أَنْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٨٧. (٣) في الأصل وم: فيصير. (٤) في الأصل وم: جعلها. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: رسوله. (٧) في الأصل وم: دعواهم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: مقابلته كهر. (١٠) في الأصل وم: ثم أخير.

وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ [موصول بالأول]^(١) ذهب إلى أَنَّ المؤمنين شهداء على الناس كقولهِ تعالى: ﴿لَيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ الآية [البقرة: ١٤٣] سَمَاهُمْ شهداء على غيرهم من الأمم، والله أعلم.

ولأهل الإغترال أدنى تعلقي بظاهر هذه الآية؛ وذلك أنهم يقولون: إن الله تعالى إذا ذَكَرَ المؤمنين على الإطلاق ذَكَرَ على إثر ذلك ما وَعَدَ لهم من الكرامات والثواب الجزيل، وإذا ذَكَرَهُمْ مع جريمتهم ذَكَرَ الوعيد لهم؛ يَسْتَدِلُّونَ بِذِكْرِ الوعيد على إثر ذلك على أنهم قد خَرَجُوا مِنَ الإيمان.

لكن ليس لهم بذلك دليل لأنه ذَكَرَ مُقَابِلَ ما ذَكَرَ للمؤمنين من الكرامات لِلْكَفَّارِ الْجَحِيمِ، والله أعلم.

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لُبٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَزْوَاجِ ۖ ۝٥٠ ب/ ففي ظاهر ما ذَكَرَ من هذه الآية ونحوها من الآيات لأهل الإلحاد طعن عظيم؛ فإنهم يقولون: إن كانت الحياة لعباً ولَهْوَاً فَلِمَ أنشأها الله لعباً ولَهْوَاً، ولا مُشِئاً سِوَاهُ؟

فَلَهُمْ مَوْضِعُ الطَّعْنِ على هذا الوجه، ولهم دَعْوَى التَّنَاقُضِ أيضاً فيه لما ذَكَرَ في بعض الآيات، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَئِبِبَكُمُ﴾ [الدخان: ٣٨] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِبُلَآءِكُمْ﴾ [ص: ٢٧] وقال في هذه الآية وغيرها: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لُبٌّ وَزِينَةٌ﴾.

فَنَقُولُ: إن الآية تُخَرِّجُ على وجوه:

أخذها: على التَّجْدِيمِ والتَّأخِيرِ مع الإضمار؛ كأنه قال: اعْلَمُوا أَنَّ مَثَلَ الحياة الدنيا وزينتها وتفاخرها وتكاثرها ولعبها ولَهْوَها، أي [ما]^(٢) تَتَزَيَّنُونَ بِهِ^(٣)، وتَتَفَاخَرُونَ بالأولاد والأموال، وتَتَلَهَّوْنَ بِهِ^(٤)، وتَلْعَبُونَ ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَالَهُ﴾ ثم يصير ما ذَكَرَ حتى لا يَنْتَفِعَ بِهِ. فعلى ذلك الحياة الدنيا.

والثاني: أنما الحياة على ما هي عندكم وعلى ما اتَّخَذْتُمُوهَا وعلى ما ظَنَنْتُمْ أنه لا بَعَثَ ولا حياة بَعْدَهُ، كان إنشاؤها عَبَثاً ولَهْوَاً؛ إذ لو كان على ما ظنُّوا لم يكن إنشاؤها إلا للإفناء والإهلاك خاصة، وبناء البناء المُخْتَمِّمِ للإفناء خاصة عَبَثَ وَسَفَهَ، ليس بِحِكْمَةٍ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِبُلَآءِكُمْ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧] وكان ظَنُّهم أن لا بَعَثَ ولا حياة بَعْدَهُ.

فعلى ما كان ظَنُّهم كان إنشاؤها لعباً ولَهْوَاً [وعلى^(٥) ما كان عند أهل الإلحاد، هو^(٦) سَفَهٌ وباطل]^(٧).

فأما الحياة الدنيا على ما هي عند أهل التوحيد [فهي]^(٨) حِكْمَةٌ وَحَقٌّ وَصَوَابٌ وَقُدْرَةُ اللَّهِ تعالى عليهم بقوله تعالى: ﴿الْمُحْسِنِينَ أَنَّمَا خَلَقْتُمْ عَبِيدًا وَأَنْتُمْ إِلَٰهُنَا لَا تُرْمَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

[والثالث]^(٩): جائز أن يكون معنى قوله: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لُبٌّ وَزِينَةٌ﴾ أي لو قولت بالحياة الآخرة لكان عبثاً ولَهْوَاً، لأن الدنيا بُنِيَتْ على الفناء والإنقطاع والزوال عن قريب، والآخرة على الدوام والبقاء، وهو ما ذَكَرَ: ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ الْقُلُوبُ﴾ [النساء: ٧٧] لأنها باقية. أو يقول: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ للدنيا خاصة [لِعبٍ ولَهْوَ، أي مَنْ جَعَلَ الحياة الدنيا للدنيا خاصة]^(١٠) فتكون لعباً ولَهْوَاً، وَمَنْ جَعَلَ الحياة الدنيا زاداً للآخرة وبلغة إليها، فهي^(١١) لَيْسَتْ بِلَعِبٍ، وهي^(١٢) ما قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ مَرْجَافًا حَرَّتْ فَوَارَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٧].

أخبر أن الإنفاق للدنيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ [وقال]^(١٣) في التَّفَقُّة التي تكون في الدنيا لحياة الآخرة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَكْبَتْتَ نَبْعًا سَكَابِلَ﴾ الآية [البقرة: ٢٦١] والله أعلم.

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: موصولة. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بها. (٤) في الأصل وم: بها. (٥) في الأصل وم: فعلى. (٦) في الأصل وم: وهو. (٧) أدرجت هذه العبارة في الأصل وم بعد: وصواب. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: وهي. (١٢) في الأصل وم: وهو. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿كَشَلْ غَيْثَ آعَجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ الإشكال أنه كيف حصَّ الكُفَّارَ بإعجابهم بالنبات؟ وقد أعجب النبات أهل الإيمان؟

فنقول: لأن الكفار يُعجبهم ظاهر ذلك النبات وما يرون من الثروة، لا يرون إلى ما ضُمّن في ذلك النبات، وجعل فيه من المنفعة في العاقبة، لكن ينظرون إلى ظاهره.

وأما المؤمنون فإنما^(١) يُعجبهم ما في ذلك النبات من المنفعة في العاقبة، وإلى ذلك يكون نظرهم لا إلى ظاهره، وهو كما شبه إنفاق الكثرة بالريح التي فيها صرٌّ، يُصيب حرَّ قوم لما لا يقصدون بإنفاقهم سوى نفس الإنفاق، وشبه نفقة أهل الإيمان بالحبّة التي تُنبث ﴿سَبْعَ سَبَائِلَ فِي كُلِّ سَبْكَةٍ مِائَةِ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١] لما كان مقصدهم في الإنفاق عاقبته لا عين الإنفاق.

ويختل أن يكون المراد من الكفار الزّراع، وبه فسر بعض أهل الأدب، وهو كقوله: ﴿يَتَجَبَّ الزُّرَّاعُ﴾ [الفتح: ٢٩]. فعلى هذا التأويل يرجع إلى الكل، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي لهؤلاء الذين اتَّخذوا الدنيا لعباً ولهُوًّا، وصيروها تفاخراً وتكاثراً دون أن يتَّخذوها زاداً وبلغة إلى الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَقْفَرَةٌ مِّنْ أَلَلٍّ وَرِضْوَانٍ﴾ فهو للمؤمنين الذين اتَّخذوا الدنيا للآخرة، وعقلوا الآيات التي بينها لهم للنظر فيها والتفكير والتأمل [فتأملوها، ووضعوها مواضعها]^(٢) والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ هو يُخرِّج على الوجوه التي ذكرنا في قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَبِثٌ وَفُورٌ﴾ قال إمام الهدى عليه السلام في قوله: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾: إن الحياة الدنيا وحُبها لنفسه وعلى ما أنشئت، وجعلت له، حكمة وحق وشرور، ليست بفرور، وأما اختيارها وحُبها لغيره واستعمالها لغير الذي أنشئت، وجعلت [فهو]^(٣) فرور ولعب ولهُو، لأن من أحب شيئاً استكثر منه، وحسبه لنفسه^(٤)، وحفظه من تلفه وضايعه، واستبقاه لوقت حاجته ويوم فقره. فعلى ذلك من جمَعَ الدنيا لنفسه، وأحبها، واستعملها في ما أدن له، وأمر، وهو أن يجعلها زاداً للآخرة وبلغة إليها. فإذا علم ذلك استكثر منها عند الله ليوم فاقته.

فمن أحبها واختارها لهذا فهو ليس بفرور ولا لعب، بل سرور وبهجة، ومن طلبها لغيره، واستعملها في غير ما أنشئت كان غروراً ولعباً على ما ذكر. فخرّج قوله: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ على ما يتخارونها، وحُبونها.

وذلك أن الله تعالى أنشأ لنا هذه النعم حين^(٥) قال: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] يجب أن ينظر إلى ذلك بالتعظيم لها والإجلال لا بعين الاستخفاف والهوان.

الآ ترى أن ملكاً من ملوك الأرض لو أكرم أحداً بكرامة، وأهدى هديّة، ثم علم منه الاستخفاف بهديّته، يسلب منه هديّته، ويستحقّره؟

فعلى ذلك يجب أن يتلقّى نعم الله تعالى بالتعظيم والتبجيل والقبول الحسن لا على الاستخفاف بها والإهانة.

ثم الناس بعد هذا رجلان: رجل يزعم في نعم الدنيا وجمعها وجعلها عند الله ذخراً وزاداً ليوم فقره وحاجته، ورجل زهد فيها خوفاً للتقصير في عبادة الله تعالى في حقوقه أن يشتغل بها، ويمتنع ذلك عن أداء ما عليه والإقتداء برسول الله ﷺ في ما أمره، وله أسوة حسنة بنبينا ﷺ.

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: فتأملوها ووضعوها. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) اللام ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حيث.

مَنْ تَرَكَ الدُّنْيَا وَمَا أَنْشَأَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا مِنَ النِّعَمِ اسْتَخَفَّافًا بِهَا وَهَوَانًا فَهُوَ الْجَاهِلُ الْمُسْتَخِفُّ بِنِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى الْغَافِلُ عَمَّا أَنْشَأَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

فهذا والذي طَلَبَ الدنيا للدنيا مذمومان^(١)، والذي طَلَبَهَا لِنَفْسِهِ زَادًا لِلْآخِرَةِ والذي زَهَدَ فِيهَا مَحْمُودَانِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وعلى ذلك يُخْرِجُ مَا ذَكَرَ أَنَّ حُبَّ الدنيا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ وَأَنَّ مَنْ أَحَبَّهَا لِغَيْرِهِ أَيْ^(٢) لِغَيْرِ الَّذِي جُعِلَتْ لَهُ فَيَكُونُ رَأْسَ كُلِّ خَطِيئَةٍ. وَمَنْ أَحَبَّهَا لِنَفْسِهِ، وَاتَّخَذَهَا زَادًا لِلْآخِرَةِ فَهُوَ^(٣) رَأْسُ كُلِّ حَسَنَةٍ وَطَاعَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢١

وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يقول: اجعلوا المسابقة في ما يبتكم في مَغْفِرَةِ رَبِّكُمْ إِلَى جَنَّةٍ لَا إِلَى جَمِيعِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ. وَكَانَ أَهْلُ الْكُفْرِ جَعَلُوا الْمُسَابَقَةَ فِي الدُّنْيَا فِي جَمِيعِ الْأَمْوَالِ وَالتَّفَاخُرِ وَالتَّكَاثُرِ بِهَا، فَيَقُولُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ: اجعلوا أنتم المسابقة في طَلَبِ مَغْفِرَةِ اللَّهِ وَجَنَّتِهِ^(٤)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَيَخْتَمِلُ: سَابِقُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ الَّتِي تُوجِبُ لَكُمْ الْمَغْفِرَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية ذَكَرَ سَعَةَ الْجَنَّةِ لِأَنَّ الْعَرْضَ إِنَّمَا يُذَكِّرُ لِسَعَةِ تَكُونُ لِلشَّيْءِ، وَقَدْ ذَكَرَ سَعَةَ [لَهَا حِينَ]^(٥) قَالَ: ﴿فِي مِثْرِ تَخْضُوبٍ﴾ وَ﴿فِي مِثْرِ تَنْضُوبٍ﴾ وَ﴿فِي مِثْرِ تَمْدِيرٍ﴾ وَ﴿وَمِثْرًا مَّسْكُوبٍ﴾ وَ﴿وَفِي كَهْمٍ كَبِيرٍ﴾ وَلَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ وَ﴿وَفِي مِثْرِ مَرْوَةٍ﴾ [الواقعة: ٢٨ - ٣٤] وَقَالَ أَيْضًا: ﴿وَفِيهَا ٥٥١ - ١/ مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] وَنَحْوُ ذَلِكَ؛ ذَكَرَ مَا فِيهَا مِنَ السَّعَةِ وَسَعَتِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم ذَكَرَ عَرْضَهَا ﴿كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لَيْسَ يُخْرِجُ عَلَى التَّحْدِيدِ وَالتَّقْدِيرِ أَنَّ عَرْضَهَا مِثْلُ عَرْضِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَكِنْ لِمَا لَا شَيْءَ أَوْسَعُ فِي أَوْهَامِ الْخَلْقِ مِمَّا ذَكَرَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿خَلْقَ الْبَرِّ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧] ذَكَرَ دَوَامَهَا: لَا شَيْءَ أَبْقَى وَأَدْوَمَ مِنْهَا فِي الْأَذْهَانِ، وَإِلَّا كَانَتَا تَقْنِيَانِ.

وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَقُولَ: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَنْ تَصِيرَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا جَنَّةً لَهُنَّ.

ثم وَصَفَ الْجَنَّةَ بِالسَّعَةِ وَوَصَفَ النَّارَ بِالضُّيقِ حَيْثُ [قَوْلُهُ تَعَالَى]^(٦): ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي فَضْلِ النَّارِ عَلَى قَدْرِ الْمَجْعُولِ عَذَابًا لَمْ يَصِلْ إِلَى الْمُعَذَّبِ بِهَا فَائِدَةٌ، فَضَيِّقَتْ، وَفَضْلُ الْجَنَّةِ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ لَذَّةٌ وَسُرُورٌ وَمُنَفَعَةٌ، فَوَسَّعَتْ لِلذَّكَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم أَخْبَرَ أَنَّهَا ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَى، هُوَ أَنْ تُصَدِّقَ كُلَّ شَيْءٍ يَشْهَدُ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَالْوَهْدِيَّةِ، وَالْإِيمَانُ بِرُسُلِهِ، هُوَ أَنْ تُصَدِّقَهُمْ فِي مَا أَخْبَرُوا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى. وَكُلُّ صَاحِبِ كَبِيرَةٍ مُصَدِّقٌ بِالَّذِي ذَكَرْنَا، هُوَ^(٧) مُؤْمِنٌ، وَذَلِكَ عَلَى الْمَعْتَزِلَةِ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ دَلَّتِ الْآيَةُ أَنَّ مَا يُعْطَى مِنَ الثَّوَابِ لِعَبِيدِهِ فَضْلٌ مِنْهُ، وَأَنَّ مَا سَمَاءُ جَزَاءٍ وَأَجْرًا لِسَابِقِ مَنْ إِلَيْهِمْ مِنَ الْإِحْسَانِ وَالتَّعَمُّقِ مَا يُصِيرُ تِلْكَ الْأَفْعَالِ، وَإِنْ كَثُرَتْ، شُكْرًا لِأَذْنَى نِعْمَةٍ، وَإِنْ طَالَ عُمُرُهُ، فَكَيْفَ يَسْتَوْجِبُ الْجَزَاءَ وَالثَّوَابَ عَلَى تِلْكَ الْأَعْمَالِ؟ وَلَكِنْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ يَجْعَلُ لَتِلْكَ الْأَعْمَالِ^(٨) ثَوَابًا وَجَزَاءً، وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ.

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ أَيْ ذَكَرَهَا فِي كِتَابٍ، كَانَ ذَلِكَ الْكِتَابُ قَبْلَ أَنْ [نَبْرَأَ تِلْكَ]^(٩) الْمَصَائِبَ، أَيْ نَخْلُقَهَا؛ إِذْ لَا يَخْتَمِلُ كَوْنُ أَنْفُسِ تِلْكَ الْمَصَائِبِ فِي الْكِتَابِ قَبْلَ خَلْقِهَا، فَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَى كَوْنِ ذِكْرِ الْمَصَائِبِ فِيهِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمُلَوَّنَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠] [لَيْسَتْ عَيْنُ تِلْكَ الشَّجَرَةِ فِي الْقُرْآنِ]^(١٠) وَلَكِنْ ذَكَرَهَا فِيهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مَأْمُونَانِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهِيَ. (٤) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهَا حَيْثُ. (٦) مِّن مَّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهُوَ. (٨) مِّن نَّسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ: نَبْرَأَهَا تِلْكَ. (١٠) مِّن نَّسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وعلى ذلك ما روي في الخبر أنه نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، أي نهى أن يسافر بالذي كُتِبَ فيه القرآن، وإلا لم يكن عين القرآن في ذلك المصحف. فعلى ذلك ما ذكر من المصائب، وذلك يخرج على المجاز دون الحقيقة، والله أعلم.

ثم اختلف في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَبْرَأَ﴾ منهم من قال: من قبل أن تخلق تلك المصائب، ومنه من قال: من قبل أن تبرا تلك الأنفس والأرض، والأول أظهر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يخرج على وجهين:

[أحدهما: أن] ^(١) كثرة ما يصيب الخلق في أنفسهم وأموالهم يسير على الله غير شديد، ليس كملوك الأرض لأن ما يصيب حشمتهم وخدمتهم من المصائب يشتد عليهم لما أن قوامهم بحشمتهم وخدمتهم، ولهم منافع. فيخير الله تعالى بهذا أن ليس له في بقاء الخلق منفعة، ولا في ذهابهم وفنائهم ضرر، فذلك يكون عليه يسير.

والثاني: أن كتابة ما لم يكن بعد، ولم يخلق، وعلمه قبل كونه، على الله يسير هين؛ فيخير أنه عالم في الأزل بكون الأشياء في أوقاتها، لا يضر عليه شيء، ولا يشتد عليه العلم بها قبل كونهها وقبل ظهورها كما يشتد على الخلق، ويضر عليهم، والله أعلم.

وفي الآية دلالة خلق أفعال العباد لأن اسم المصائب، يقع على ما للخلق فيه صنع كما يقع على ما لا صنع لهم فيها.

ثم إضافة ^(٢) الله تعالى خلقها إلى أنفسها مطلقاً بقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَبْرَأَ﴾ ذلك أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى.

الا ترى أن الله تعالى سمي ما يصيب بأيدي الخلق مصيبة، فقال: ﴿قُلْ هَلْ تَرْضَوْنَ إِنَّا لَا نَحْدِيَ الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْضَىٰ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ بِإِذِينَا فَتَرْضَوْا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرِضُونَ﴾ [التوبة: ٥٢] وقال في آية أخرى: ﴿فَتَتْلَوْهُم بِعَذَابِنَا اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ؟﴾

قالت المعتزلة: يقال: أصابنا كذا [في ما] ^(٣) لا صنع للخلق [في ذلك]. فأمّا في ما [فيه] ^(٤) صنع للخلق ^(٥) فيقال ^(٦): أصبنا بكم.

هذا فاسد؛ فإنه جائز أن يقال في كل ما أصابك: أصبته، وما [أصابتك إصابته] ^(٧) لأنه إذا أصابك شيء فقد أصبته، وذلك جائز في اللغة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ جعل الله تعالى في طباع الخلق الحزن والأسى على ما فاتهم من النعمة، وينزل بهم [من] ^(٨) البلاء والشدة، والفرح والسرور بما ينالون من النعمة. هذا هو المنشأ والمجموع في طباعهم.

ثم يخرج تأويل الآية بالنهي عن الأسى والحزن بقوت النعمة وعن الفرح والسرور عند إصابتها على وجوه:

أحدها: يقول، والله أعلم: لئلا تستكثروا من الأسى والحزن على ما فاتكم، فيحملكم ذلك على الشكوى من الله تعالى ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي لا تستكثروا الفرح والسرور حتى يحملكم ذلك على الطغيان والعُدوان.

ومثله ذكر في الخبر: «أعوذ بالله من الفقر والنسيء والغنى المظفي» [بمعناه الترمذي ٢٣٠٦] والله أعلم.

والثاني: يقول: لئلا يشغلكم الأسى والحزن على ما فاتكم من النعمة حتى يفوتكم أضعاف ذلك، وهو ما وعد لهم من الثواب إذا صبروا كقوله تعالى: ﴿وَلَتَبْلُغُنَّ إِلَىٰ مَنْ تَنَافَعْنَ وَالْمُجْرِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُنِيرُ الصُّدُورَ﴾ [البقرة: ١٥٥] وقوله ^(٩) تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

(١) في الأصل وم: أي. (٢) في الأصل وم: أضاف. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من م. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: يقال. (٧) في الأصل وم: أصبته أصابك. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ثم قال.

يقول: لَا يَشْغَلْكُمْ الْجَزَعُ وَتَرَكُ الصَّبْرَ عَمَّا^(١) وَعَدَ لَكُمْ مِنَ الصَّلَاةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِهْتِدَاءِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ: الْجَزَعُ فِي الْمُصِيبَةِ اعْظَمُ الْمُصِيبَتَيْنِ، وَيَقُولُ أَيْضاً: وَلَا يَشْغَلْكُمْ شِدَّةُ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ بِمَا آتَاكُمْ مِنَ الشُّكْرِ حَتَّى تَفُوتَكُمْ الزِّيَادَةُ عَلَى ذَلِكَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ الزِّيَادَةَ عَلَى النُّعْمَةِ إِذَا شُكِرَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالثَّالِثُ: يَقُولُ: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ وَلَكِنْ انْظُرُوا إِلَى مَا كَانَ مِنْكُمْ مِنَ الْجَرِيمَةِ حَتَّى فَاتَكُمْ ذَلِكَ حِينَ^(٢) قَالَ: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ تُدِيرُكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] يَقُولُ: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ وَلَكِنْ انْظُرُوا إِلَى تَفْرِيطِكُمْ فِي جَنْبِ اللَّهِ، وَارْجِعُوا عَنْ ذَلِكَ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَقْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ وَلَكِنْ انْظُرُوا إِلَى إِحْسَانِ اللَّهِ الَّذِي كَانَ إِلَيْكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَقُولَ: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَقْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ وَلَكِنْ انْظُرُوا إِلَى مَا امْتَحَنَكُمْ بِهِ وَابْتَلَاكُمْ؛ إِذْ هُوَ امْتَحَنَ بَعْضاً بِالشَّدَائِدِ وَالْبَلَايَا، وَأَمَرَهُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ، وَبَعْضاً بِالسَّعَةِ وَالرَّخَاءِ، وَأَمَرَهُمْ بِالشُّكْرِ عَلَى ذَلِكَ، فَاصْبِرُوا، وَلَا تَجْزَعُوا إِنْ فَاتَكُمْ النُّعْمُ، وَأَصَابَتْكُمْ الْمَصَائِبُ، وَاشْكُرُوا لَهُ، وَلَا تَقْرَحُوا عِنْدَ النُّعْمِ فَرَحاً، يَكُونُ بَطْراً وَاشْتِراً. أَوْ يَقُولُ: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ فَإِنَّ الَّذِي أُخِذَ مِنْكُمْ لَمْ يَكُنْ فِي الْحَقِيقَةِ لَكُمْ، إِنَّمَا هُوَ لِغَيْرِكُمْ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مَالٌ لآخر، فَيَأْخُذْهُ، فَلَا يَجِبُ أَنْ يَحْزَنَ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَلَا تَقْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ قُرِئَ مَمْدُوداً وَمَقْصُوراً^(٣). فَمَنْ مَدَّهُ رَدَّ الْفِعْلَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَمَنْ قَصَرَهُ جَعَلَ الْفِعْلَ لِذَلِكَ الشَّيْءِ لِمُوافَقَةِ قَوْلِهِ ﴿عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ أَفَاتَكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وَلَكِنْ يُحِبُّ ضِدَّ ذَلِكَ وَخِلَافَ^(٤) الْمُخْتَالِ الْمُتَكَبِّرِ، فَيُحِبُّ الْمُتَوَاضِعَ الْخَاضِعَ؛ وَالْفَخُورُ، هُوَ الَّذِي يَفْتَخِرُ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى النَّاسِ، وَيُحِبُّ الشُّكُورَ الَّذِي يَشْكُرُ عَلَى نِعْمِهِ بِالتَّوَسُّعِ عَلَى عِبَادِهِ.

وجائز أن يكون هذا كله وَصَفَ الْكُفَّارِ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ لِقَوْلِهِ^(٥) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] أَيْ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ، يَكُونُ صَبَّاراً عَلَى الْمَصَائِبِ / ٥٥١ - ب / شُكُوراً لِنِعْمَاتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٤ وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْتَلُونَ النَّاسَ بِالْبَنِيِّ﴾ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وَتَفْسِيراً^(٦) لَهُ.

وجائز أن يكون على الْإِبْتِدَاءِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [الَّذِينَ يَبْتَلُونَ النَّاسَ بِالْبَنِيِّ وَمَنْ حَوْلَهُ] [غافر: ٦ و ٧] كَأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: الَّذِينَ يَبْتَلُونَ الْعَرْشَ مَفْصُلاً مِنَ الْأَوَّلِ. وَكَذَلِكَ هَذَا.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَبْتَلُونَ النَّاسَ بِالْبَنِيِّ﴾ يَحْتَمِلُ مَا ذَكَرَ مِنْ بُخْلِهِمْ فِي آيَةٍ أُخْرَى، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذَيْنِ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطِيعُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَطَعَمْنَاهُ﴾ [يس: ٤٧] بِخُلُوعِهِم بِالْإِنْفَاقِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ بِخُلُوعِهِم بِالْإِنْفَاقِ عَلَى أَتْبَاعِهِمْ لِيَتَقَى الْكَرَمُ وَالرَّائِسَةُ عَلَيْهِمْ.

وجائز أنه يكون ما ذَكَرَهُ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ أَنَّ ذَلِكَ نَزَلَ فِي الرُّؤَسَاءِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ بِخُلُوعِهِمْ بَيَّانٍ بَعْدَ^(٧) مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي كَانَ فِي كُتُبِهِمْ، وَأَمَرُوا أَمَنَاتِهِمْ وَاشْكَلَتْهُمْ بِكَيْفَانِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْفَقِيرُ الْغَنِيُّ﴾ أَيْ وَمَنْ يُعْرِضُ عَنْ ذَلِكَ فَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ؛ الْغَنِيُّ عَنْ عِبَادَتِكُمْ وَعَمَّا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ؛ إِذْ لَمْ يَدْعُكُمْ إِلَى مَا دَعَاكُمْ لِحَاجَةِ نَفْسِهِ؛ إِذْ هُوَ الْغَنِيُّ بِدَائِهِ، الْحَمِيدُ بِفِعَالِهِ، أَيْ بِمَا عَلِمَ مِنْكُمْ مِنَ الرَّدِّ لِرِسَالَتِهِ، لَا يَخْرُجُ فِعْلُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَخْمُوداً، وَلَا يَصِيرُ لِفِعْلِهِ إِلَى أَعْدَائِهِ بِمَا صَنَعَ غَيْرَ حَمِيدٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ وَجُوهٌ أَيْضاً:

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: على ما. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨٨/٧. (٤) في الأصل وم: وخلافه. (٥) في الأصل وم: كقوله يجب. (٦) الوار ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: صفة.

أخذها: أَنَّ المصائب ربما تَجْرِي على أيدي الناس، وتُصِيبُهُمْ منهم، فقال: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ ما جَرَى على أيدي الناس لئلا يزول، فيَحْمِلُهُمْ ذلك على العداوة والبغضاء، ولكن يَزُولَ ذلك مكتوباً عليهم مِنَ اللَّهِ تعالى وكذلك ما ذَكَرَ في ما يُؤْتِيهِمْ مِنَ النِّعَمِ على أيدي الخلق، فلا يُزَالُ ذلك منهم فيَسْتَغْلَهُمْ عَنِ الْقِيَامِ بِشُكْرِ الرَّبِّ، جَلَّ، وعلا، ولكن يَزُولُ مِنَ فَضْلِ اللَّهِ تعالى وَمَنْهُ، فيَشْكُرُونَهُ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ النُّهْيُ عَنِ الْحُزَنِ أمراً بالفرح، أي لا تأسوا على ما فاتكم، ولكن افرحوا بما لَعَلَّ الذي فاتكم لو لم يَفُتْكُمْ لَكَانَ يَشْفَلُكُمْ^(١) عَنِ الْقِيَامِ بِحَقُوقِ اللَّهِ تعالى وأداء ما عليكم^(٢) مِنَ الْفَرَائِضِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ﴾ أمرٌ بالحُزَنِ، وقد يُذَكَّرُ [نَفْي] ^(٣) الشيء، ويرادُ بِهِ إِبْثَابُ ضِدِّهِ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَمَا يَحْتَفِظُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦] أي خَسِرَتْ تِجَارَتُهُمْ. وَيَتَّبِعِي أَنْ تُتْلَقَ نِعَمُ اللَّهِ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: بِحُسْنِ الْقَبُولِ لَهَا وَالتَّعْظِيمِ وَالشُّكْرِ لِلنِّعَمِ إِذْ أَغْنَاهُ بِذَلِكَ عَنِ النَّظَرِ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَدَفْعِ الْحَاجَةِ، وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ [النِّعَمِ]^(٤).

والثاني: بِالْخَوْفِ^(٥) لِمَا لَعَلَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ اسْتِزْجَاجاً وَامْتِحَاناً، إِذِ الْأَمْوَالُ رَبُّمَا تَكُونُ فِتْنَةً وَبِلَاءً، أَوْ تَشْغَلُهُ عَنْ آدَاءِ مَا عَلَيْهِ، إِذْ كَانَ سَبَبَ اسْتِزْجَاجِهِ وَبِلَائِهِ، فَأُخِذَ مِنْهُ، أَوْ لَمَّا يَحْصُلُ^(٦) بِذَهَابِهِ إِلَى آدَاءِ الْفَرَائِضِ مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَكَانَ ذَلِكَ يَمْنَعُهُ، وَيُخْرِجُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ أَيْضاً:

أحدهما: لِمَا لَعَلَّ قُوَّتَهُ يَحْجُجُهُ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَكَانَ غَنِيّاً عَنْهُمْ.

والثاني^(٧): لِمَا لَعَلَّ ذَلِكَ عَقُوبَةً لِقَرْيُوطِ كَانَ مِنْهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِنْ مُصِيبِكُمْ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم أضاف ما نالوا مِنَ النِّعَمِ إِلَى نَفْسِهِ حِينَ^(٨) قَالَ: ﴿وَلَا تَقْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ﴾ ولم يُضِفْ ما فاتهم إِلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وهو ما ذَكَرْنَا أَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَا يَقُوتُهُمْ مِنَ النِّعَمِ بِاِحْتِسَابٍ وَبِسَبَبِ كَانِ مِنْهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَي أَرْسَلْنَا مَا يُبَيِّنُ، وَيُوضِّحُ أَنَّهُمْ رُسُلُ اللَّهِ، وَأَنَّ تِلْكَ الْآيَاتِ الَّتِي أَتَوْا بِهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَا بِاخْتِرَاعٍ مِنْ عِنْدِهِمْ لِمَا هِيَ خَارِجَةٌ عَنْ وَسْعِ الْبَشَرِ.

والثاني: مَا يُبَيِّنُ صِدْقَ الرُّسُلِ فِي خَبَرِهِمْ وَعَذْلِهِمْ فِي حُكْمِهِمْ، أَوْ يُبَيِّنُ مَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ كَقَوْلِهِ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧].

ثم يَحْتَمِلُ ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ الْمَوَازِينَ الْمَعْرُوفَةَ الَّتِي بِهَا تُسْتَوَفَى الْحَقُوقُ فِي مَا بَيْنَ النَّاسِ وَبِهَا تُحَفَظُ حُقُوقُ الْأَمْوَالِ الَّتِي بَيْنَهُمْ وَحُدُودُهَا. فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ هَذَا فَكَانَهُ قَالَ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ الَّذِي بِهِ يُحَفَظُ الدِّينُ وَحُدُودُهُ ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ الَّذِي بِهِ تُحَفَظُ حُدُودُ الْأَمْوَالِ، لَا يُزَادُ عَلَى الْحَقِّ، وَلَا يُنْقُصُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وجائزٌ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْمِيزَانِ الْحِكْمَةُ إِذْ ذَكَرَهُ عَلَى إِفْرِ الْكِتَابِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ٤٨] كَأَنَّهُ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وَالْحِكْمَةَ؛ فَيَكُونُ الْكِتَابُ بِهِ^(٩) تُحَفَظُ حُدُودُ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ، وَتَكُونُ الْحِكْمَةُ مَا يَقُومُ النَّاسُ بِهَا بِالْقِسْطِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَاتَهُمْ لَوْ لَمْ يَفْتَهُمْ لَكَانَ يَشْفَلُهُمْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهِمْ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَخَاف. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَصِل. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهَا.

أو^(١) أَنْ تَكُونَ الْحِكْمَةُ مَا أودَعَ فِي الْكِتَابِ مِنَ الْمَعَانِي.

وقَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَعْلَمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: إنها^(٢) واحد.

وقوله تعالى: ﴿لَيَقُومَنَّ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنْزَلَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْكِتَابِ وَالْمِيزَانَ لِيُزَنَ النَّاسُ بِالْقِيَامِ بِالْعَدْلِ، وَقَدْ أَلْزَمَهُمْ ذَلِكَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْمِيزَانِ، وَبَيَّنَ الْحُدُودَ.

والثاني: أَنْزَلَ مَا ذَكَرَ ﴿لَيَقُومَنَّ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ عَلَى وَجُودِ الْقِيَامِ بِالْعَدْلِ.

فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ الْوُجُودَ فَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى خَاصٍّ مِنَ النَّاسِ. وَإِنْ كَانَ عَلَى الْإِلْزَامِ فَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْكُلِّ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ [الذاريات: ٥٦].

وَإِنْ كَانَ [المراد]^(٣) عَلَى وَجُودِ الْعِبَادَةِ فَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى خَاصٍّ مِنَ النَّاسِ.

وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ أَي لَأَمْرَهُمْ، وَأَلْزَمَهُمْ، هُوَ لِلْكُلِّ؛ فَإِنَّهُ قَدْ خَلَقَهُمْ لِيَأْمُرَهُمْ، وَيُلْزِمَهُمْ، وَقَدْ أَمَرَهُمْ، وَأَلْزَمَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ خَصَّ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرَ الْحَدِيدِ بِمَا جَعَلَ فِيهِ مِنَ الْبَأْسِ مِنْ بَيْنِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَإِنْ كَانَ يُشَارِكُهُ غَيْرُهُ فِي اخْتِمَالِ الْأَذَى وَالضَّرَرِ بِهِ، مَا يُطْعَنُ بِهِ، فَيَنْفُذُ، وَيُضْرَبُ بِهِ، وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ [بوجهين: (٤)].

أحدهما: أَنَّهُ هُوَ الْكَافِلُ^(٥) فِي الظَّفَرِ وَالْتِفَافِ وَالْجُرْحِ، وَإِنْ كَانَ يَتَحَقَّقُ مِنْ غَيْرِهِ. وَلِذَلِكَ اعْتَادَهُ النَّاسُ آلَةً لِلْقِتَالِ وَالْحَرْبِ فَيَكُونُ الْبَأْسُ فِيهِ أَشَدَّ.

والثاني: لِمَا يُخَصَّصُ بِهِ بِاتِّخَاذِ الدَّرَجِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّنَاهُ صَنْعَةً لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَصِّصَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠] لِهَذَا خَصَّ الْحَدِيدَ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيدِ مَنَافِعَ، لَيْسَتْ تِلْكَ فِي غَيْرِهِ، وَهُوَ مَا يُتَّخَذُ مِنْهُ مَا يُخْرَزُ بِهِ، وَيُخَاطُ مِنَ الْخِفَافِ وَغَيْرِهِ مِمَّا لَا يُحْتَمَلُ هَذَا النَّوعُ لِغَيْرِهِ.

وكذلك حوائج الخلق، لا تقوم في سائر أنواع الجرف والأعمال من التجارة والزراعة والبناء وغيرها.

وفيه خصوصية في حق الموحن، وهو ما يظهر عند فرض القتال [ومن]^(٦) صِدْقِ إِيْمَانِ الْمُحَقِّقِ وَنِفَاقِ فِي الْمُرْتَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا كَيْبَ عَلَيْهِمْ أَقْوَالُ إِذَا فُيِقَتْ مِنْهُمْ يَبْشُرُونَ النَّاسَ كَبْشِيَةَ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فَظْهَرُ^(٧) الصَّادِقِ مِنَ الْكَاذِبِ فِي الْحَرْبِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِالْحَدِيدِ، فَصَارَ مَخْصُوصاً فِي حَقِّ الْمُوَحِّنِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَنَافِعِ حَقٌّ لَا يُلْتَأَمُ أَمْرٌ مِنْ أُمُورِ الْمَعَاشِ إِلَّا بِهِ. فَلِذَلِكَ^(٨) خُصَّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقال أهل التأويل: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ الْمِطْرَاقَةَ وَالْعَلَاةَ وَالْكَلْبَتِينَ.

وعندنا ليس على حقيقة الإنزال من السماء كذلك، ومعنى^(٩) قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ أَي خَلَقْنَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْتَارِ ثَمِينَةَ أَرْبَاحٍ﴾ [الزمر: ٦] أَي خَلَقَهَا وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لُبَاسًا / ٥٥٢ - أ / يَوْرَى سَوَاءَكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦] وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَنْزِلِ اللَّبَاسُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِمْ وَلَكِنْ مَعْنَاهُ خَلَقَهُ لِبَاساً لَكُمْ. كَذَلِكَ هَذَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ أَي دِينَهُ، أَوْ أَرَادَ بِإِضَافَةِ النَّصْرِ إِلَى نَفْسِهِ نَصْرَ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَسَائِرِ رَسُولِهِ ﷺ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: إِنَّهَا. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: الْكَامِل. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: فَظْهَر. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: فَذَلِكَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَمَعْنَاهُ.

ثم نَضَرَ الرُّسُلَ مَرَّةً يَكُونُ بِتَبْلِيغِ مَا أُمِرُوا إِلَى قَوْمِهِمْ؛ يَنْضُرُونَهُمْ. هَذَا يُخْتَمَلُ، وَعَلَى هَذَا يُخْرَجُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَشُرُوا اللَّهُ يُضَرِّكُمْ﴾ [محمد: ٧] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ إِضَافَةِ النَّضْرِ إِلَيْهِ نَضَرَ أَنْفُسِهِمْ وَدِينَهُمْ؛ إِذْ هُمْ الْمُتَنَفِّعُونَ بِذَلِكَ، وَلَهُمْ يَحْصُلُ ذَلِكَ النَّفْعُ وَتِلْكَ الْمَعُونَةُ، لَكِنَّهُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ سَمَّى ذَلِكَ نَضْرَهُ، وَإِضَافَةً إِلَى نَفْسِهِ عَلَى مَا جَعَلَ لِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا لِأَنْفُسِهِمْ ثَوَابًا، وَذَكَرَ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا؛ كَانَهُمْ عَامِلُونَ لَهُ، وَهُمْ الْمُتَنَفِّعُونَ بِهَا الْمُخْتَاجُونَ إِلَيْهَا.

فَعَلَى ذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَا عَمِلُوا لِأَنْفُسِهِمْ سَمَاءً نَضْرًا، وَإِنْ كَانَ النَّضْرُ لَهُمْ، وَإِنَّهُ نَاصِرٌ الْكُلِّ حِينَ^(١) قَالَ: ﴿إِنْ يَنْضُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] أَخْبَرَ أَنَّهُ إِذَا نَضَرَ هُمْ لَا غَالِبَ لَهُمْ سِوَاهُ، وَإِذَا خَذَلَهُمْ لَا نَاصِرَ لَهُمْ دُونَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ مَنْ يَنْضُرُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ يُخْرَجُ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: لِيَعْلَمْ مَنْ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ يَنْضُرُ نَاصِرًا، وَلِيَعْلَمْ مَنْ قَدْ عَلِمَ بِالْغَيْبِ أَنَّهُ يَكُونُ كَانَتْ شَاهِدًا، وَالتَّغْيِيبُ عَلَى الْمَعْلُومِ لَا عَلَى الْعِلْمِ.

وَالثَّانِي: يُرِيدُ بِالْمَعْلُومِ الْعِلْمَ، وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي اللُّغَةِ: ذَكَرَ الْعِلْمَ وَالْفِعْلَ عَلَى إِرَادَةِ الْمَعْلُومِ وَالْمَفْعُولِ نَحْوُ مَا يُقَالُ: الصَّلَاةُ [أَمْرُ اللَّهِ]^(٢) أَيُ بِأَمْرِ اللَّهِ، لِأَنَّ الصَّلَاةَ، لَا تَكُونُ أَمْرًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ذَكَرَ هَذَا لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ فِي مَا أَمَرَهُمْ مِنَ الْقِتَالِ وَالنَّضْرِ لِحَاجَةِ نَفْسِهِ، وَلَا اسْتَعْمَلَهُمْ فِي مَا اسْتَعْمَلَ مِنَ النَّضْرِ وَالْمَعُونَةِ لِنَفْسِهِ، وَلَا أَنَّهُ^(٣) يَكْتَسِبُ بِذَلِكَ الْعِزَّ لِنَفْسِهِ.

أَخْبَرَ أَنَّهُ قَوِيٌّ بِنَفْسِهِ، عَزِيزٌ بِذَاتِهِ. وَلَكِنْ إِنَّمَا أَمَرَهُمْ بِمَا أَمَرَ، وَاسْتَعْمَلَ لَهُمْ فِي مَا اسْتَعْمَلَ لِنَضْرِ أَنْفُسِهِمْ وَلِقَوَاتِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ وَإِنَّمَا ذَكَرَ نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِمَا أَخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، وَإِلَّا فَقَدْ أَرْسَلَ الرُّسُلَ بِجُمْلَتِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الآية: ٢٥] فَدَخَلَ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ اهْتَدَى أَي مِنْ قَوْمِهِمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسَقُوا بِقَوْلِهِ: ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مَضَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْهُمْ مُنْتَفِعٌ﴾ يُخْبِرُ رَسُولَهُ ﷺ أَنَّهُ قَدْ كَانَ فِي قَوْمِهِمْ مَنْ اتَّبَعَهُمْ، فَصَارُوا مُهْتَدِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَ أَتْبَاعَهُمْ، وَخَرَجُوا عَنْ أَمْرِ اللَّهِ، فَصَارُوا فَاسِقِينَ؛ يُضَبِّرُهُ، وَيُسَكِّنُ قَلْبُهُ عَلَى مَا كَانَ فِي قَوْمٍ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الرُّسُلِ مِنَ الْمُجِيبِينَ لِرُسُلِهِ وَالتَّارِكِينَ لِلْإِجَابَةِ كَقَوْلِكَ، أَي لَسْتُ أَنْتَ بِأَوَّلٍ مَنْ كَذَبَ، وَرَدَّ قَوْلُهُ تَعْتَأَ وَعِنَادًا، وَاللَّهُ الْهَادِي.

الآية ٢٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آدَمَ نَسْلَهُمُ بِرُسُلِنَا﴾ أَخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، وَبَعَثَ مِنْهُمْ رُسُلًا؛ ذَكَرَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى أَنَّهُ جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، وَلَمْ يَذْكُرِ الرِّسَالَ، وَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الرِّسَالَ فِيهِمْ وَفِي ذُرِّيَّتِهِمْ، أَي أَرْسَلْنَا رَسُولًا عَلَى إِنْشَاءِ رُسُلٍ، وَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا، مِنْ قَفَا يَقْفُو، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ قَفَّى بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، لِأَنَّ عِيسَى ﷺ مِنْ أَوْلَادِ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَبَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أَي اتَّبَعْنَا، وَيُقَالُ: قَفَّيْتُ فَلَانًا، أَي عَيَّنْتُهُ، وَسَمَّيْتُهُ، وَقَفَّوْتُهُ أَفْقُوهُ قَفَّوًا ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ وَاقْتَفَيْتُ بِهِ، أَي لَزِمْتُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِينَ اتَّبَعُوا الرُّسُلَ، وَأَمَنُوا بِهِمْ بِالرَّحْمَةِ وَالرَّأْفَةِ فِي مَا بَيْنَهُمْ، وَهُوَ كَمَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعدَاءً قَاتِلٌ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِرَبِّعَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: حَيْث. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ رَم: أَنْ.

وقال [في آية أخرى: ^(١)] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ ذُرِّيَّةً﴾ [مريم: ٩٦] وقال في آية أخرى: ﴿أَيُّدَاءُ عَلَى الْكَافِرِ رَحْمَةٌ يَنْتَهُمُ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال [في آية أخرى: ^(٢)] ﴿أَذَلُّوْا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزُّوْا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ونحو ذلك؛ وذلك لأن السبب الذي جمَعَهُم واحد، وهو التوحيد والإسلام.

فإن قيل: كيف وقع بينهم من العداوة والبغضاء ما وقع، وسبب الجمع قائم، حتى استحل بعضهم قتال بعض من نحو الخوارج والمعتزلة؟

قيل: إنما وقع ذلك في ما بينهم، وإن كان سبب الجمع قائماً، لما كانت الألفة والرافة يلطف من الله تعالى، وقد زال ذلك اللطف، وارتفع، وحدث بينهم ما حدث.

أو نقول: إن الخوارج قد أخذوا من أنفسهم أشياء حتى سموا المسلمين كفرة بما ارتكبوا من الكبائر حتى نصبوا القتال والحرب معهم، وكذلك المعتزلة سموا أصحاب الكبائر فسقة وفجرة، وأنزلوهم بين الكفر والإيمان. ومن سعى آخر كافراً أو فاسقاً فلا شك أن يحدث بينهما عداوة وتباغض. فما حدث بيننا وبينهم من العداوة بتسميتهم إيانا فسقة وفجرة وكفرة بارتكاب الكبائر، وإن كان السبب الذي جمَعَهُم قائماً عندنا، والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا﴾ الآية؛ ذكر في القصة أن الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد ﷺ، كان على بني إسرائيل ملوك غيروا التوراة والإنجيل، وبقي منهم أناس مؤمنون بعيسى ﷺ ويعملون بما في الكتب، فهم أولئك الملوك أن يقتلوهم لإبائهم اتباعهم والعود إلى مذهبهم، فخرجوا من بغيهم، فترهبوا رجاء أن يتخلصوا منهم.

فذلك قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا﴾ أي [ما] ^(٣) فرضنا عليهم تلك الرهبانية، ولم نأمرهم بها، ولكن فرض عليهم وكتب في الجملة اتباعاً لرضوان الله تعالى، فابتدعوا تلك الرهبانية رجاء أن يكون فيها رضوان الله تعالى، والله أعلم.

قال: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا﴾ أخبر أنهم ابتدعوا شيئاً لم يكتب عليهم، ثم ذكر أنهم لم يرعوه ^(٤) حق رعايته؛ ذمهم لتركيهم الرعاية لما ابتدعوه؛ ففيه دلالة أن من افتتح قربة، لم تفرض عليه من صلة أو صوم أو نحو ذلك ^(٥) ثم لم يقم [بوفائها وإتمامها] ^(٦) لحقه ذم كما لحق هؤلاء.

وقوله تعالى: ﴿فَكَاتَبْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَنَسِوْنَ﴾ أخبر أن الذين آمنوا، وثبتوا على الإيمان، يؤتيهم أجرهم، أي يوجب لهم ﴿أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَنَسِوْنَ﴾ أي كفرون. كذلك ذكر في حرف ابن مسعود ﷺ وكثير منهم كفرون. وذكر أن بعضاً منهم بعدما ترهبوا اشتد عليهم الترهيب، فعادوا، ورجعوا، ودخلوا في دين أولئك الملوك، والله أعلم.

قال الفتي: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ أي العبادة، يعني الخوف، و﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ الابتداء أن تفعل شيئاً، لم يفعل قبلك، يقال منه: ابتدعت، وابتدعت أيضاً. وقيل: الرهبانية: اسم مبني من الرهبة لما [فُضِّلَ عَنِ الْمَقْدَارِ، وَأَفْرِطَ] ^(٧) فيه، وهو ما نهى الله تعالى عنه بقوله تعالى: ﴿لَا تَقْلُوا فِي وَبَيْعِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١ والمائدة: ٧٧] ويقال: دين الله بين المقصّر والغالي، وقوله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي ما أمرناهم بها، والله أعلم.

الآية ٢٨

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ يقول بعض أهل التأويل: يا أيها الذين آمنوا بعيسى ﷺ / ٥٥٢ - ب/ ابن مريم: آمِنُوا بمحمد ﷺ ولكن هذا ضعيف، لأن الإيمان برسول من ^(٨) الرسل إيمان بجميع الرسل ﷺ.

وتأويل الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالرسول جُمْلَةً على غير الإشارة. والتفسير آمِنُوا برسول الله محمد ﷺ على

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: بوفائه وإتمامه. (٦) من تفسير غريب القرآن ص: ٤٥٤. (٧) من م، في الأصل: الله.

الإشارة به، لأن الإيمان بالرسول على غير الإشارة أمر سهل، وإنما يضعب الإيمان به، وتشتد بالإشارة إلى واحد لأنه لما آمن بالمشار إليه لزمته اتباع أمره ونهي، ولزمته موالاته من والاه، واتباعه، ولزمته معاداة من عاداه، وخالفه في أمره ونهيه وترك اتباعه، وإن كان له ابناً أو ابناً أو جدّاً، وكان يجب أن يكون أحب الناس إليه وأقرب^(١) وأبوه.

فهذه معاملة الرسول الذي آمن به على الإشارة إليه، وإنها تشتد، وتضعب. وأما عند الإجمال والإرسال فأمراً سهلاً، إنما فيه تصديق كل صادق وتكذيب كل كاذب. وكل الناس قد اعتقدوا في الأصل تصديق الصادق وتكذيب الكاذب، وليس في الإجمال والإرسال إلا ذلك.

وأما عند التبيين فيوجب الإمتحان، وبه يظهر نفاق المنافقين وتحقيق المؤمنين المحققين. وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَسْفَلَتَهُمْ﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرْسَلْنَاكَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩ و ٣٠] ظهر نفاقهم لما أمروا بالجهاد والخروج معه على الإشارة إليه، وقوله^(٢) تعالى: ﴿وَمَنْ مِّنْ عِندِ اللَّهِ لَئِنْ أَتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَتَصَّدَّقَنَّ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة ٧٥ و ٧٦] وقد وعدوا في الجملة أنه لو أعطاهم كذا من فضله لصدقوا، فلما أتوا ذلك، وأمروا بإخراجه أبوا إخراج ذلك عند الإشارة إليه.

فعلى ذلك جاز أن يكون قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالرسول جملة آمنا بهذا الرسول المشار إليه لما يضعب الأمر ولما يلزم في ذلك معاداة من خالفه، وترك اتباعه، وإن كان أقرب الخلاق إليه.

وكذلك عامل أصحاب رسول الله ﷺ أقاربهم وأرحامهم لما آمنوا برسول الله ﷺ وصار عندهم رسول الله ﷺ أحب إليهم من أنفسهم وأبائهم وأولادهم، وعادوا جميع أقاربهم الذين خالفوا رسول الله ﷺ وتركوا اتباعه.

وفي ذلك آية عظيمة، ولذلك فضل إيمان من آمن في أول خروجه على إيمان من تأخر منهم عن ذلك الوقت، ولا قوة إلا بالله.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كُفَلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ أي يوجب لكم ﴿كُفَلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي أجرين أجر الإيمان بالرسول كلهم على الإجمال وأجر الإيمان بالرسول على الإشارة والتفصيل.

ذكر ههنا ﴿كُفَلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصاص: ٥٤].

ويحتمل قوله: ﴿كُفَلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ وقوله: ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ كُفَلَيْنِ، فيكون أحدهما تفسيراً للآخر.

ثم ذكر ههنا الأجر لهم من رحمته، وذكر هنالك الأجر مطلقاً ليُعلم أن ما ذكر لأعمالهم من الأجر، إنما هو فضل منه ورحمة لا استحقاق^(٣) على ما ذكرنا، والله الموفق.

ثم يحتمل ما ذكر من الأجر مرتين: يكون مرة في الدنيا وأخرى^(٤) في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ الآية [النحل: ٣٠] أي^(٥) لهم في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، والله أعلم.

ويحتمل أن يكون ما ذكر من الأجر مرتين وعداً^(٦) في الآخرة، ويكون قوله: ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ أي كُفَلَيْنِ أي ضعفين كقوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨].

ثم قوله: ﴿كُفَلَيْنِ﴾ قال أكثر أهل التأويل: أي أجرين. وقال بعضهم: حَظَيْنِ ونصيبين.

وجائز أن يكون سماء كَفَلًا لأنه كَفَلَهُ. ألا ترى أن ذا الكفل ذكر أنه^(٧) سَمِيَ به لأنه كان يكفل لفلان؟ فعلى ذلك جائز تسمية هذا كَفَلًا لأنه يكفل به، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ هذا يخرج على وجهين:

(١) في الأصل وم: وأقرب. (٢) في الأصل وم: وكقوله. (٣) في الأصل وم: استحقاقاً. (٤) في الأصل وم: والآخرة. (٥) في الأصل وم: وقوله. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: يكون. (٧) في الأصل وم: أنما.

أحدهما: النور كناية عما يُبصر به، ويُتضح، والمشي كناية عن الأمور؛ يقول، والله أعلم: يجعل ما تُبصرون به السبيل، وتُتضح لكم الأمور، وتزول عنكم الشبهة، فيكون المشي كناية عن الأمور، والنور كناية عن البصر. وهو كقولهِ تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي لا سواء، وهو كناية عما ذكرنا، ليس بتصريح.

والثاني: على حقيقة إرادة المشي وحقيقة النور؛ وذلك يكون في الآخرة، كقولهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْنَا لَكَ نُورًا﴾ الآية [التحریم: ٨].

وقال أهل التأويل: النور ههنا القرآن، أي أعطاكم قرآنًا يفضي بكم إلى سبيل الخير، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَنَنْفِرَ لَكُمْ﴾ الغفران من الشر، كأنه يقول: يستر عليكم مساوئكم بينكم، لأن ذكر المساوئ يَنفُضُهُمُ النَّعَمَ، ويَحْمِلُهُمُ عَلَى الْحَيَاءِ مِنْ رَبِّهِمْ. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي يَرْحَمُهُمْ، وَيُحْلِلُهُمْ فِي جَنَّتِهِ.

الآية ٢٩

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أجمع أهل التأويل واللغة أن حرف: لا زيادة ههنا وصلة، أي ليتعلم أهل الكتاب. وقد يَزيدُ في الكلام حرف: لا، وَيَسْقُطُ^(١) بِحَقِّ الصَّلَةِ، يَعْرِفُ ذَلِكَ أَهْلُ الْحِكْمَةِ وَالْفِقْهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [النساء: ١٧٦] ليس يُبَيِّنُ لَنَا أَنْ نُفْضِلَ، وَلَكِنْ يُبَيِّنُ لَنَا لِنَتَعَلَّمَ، وَنَهْتَدِي، فَعَرَفَ الْحُكَمَاءُ وَالْفُقَهَاءُ أَنَّ كَلِمَةَ: لَا اسْقَطَتْ ههنا. فَعَلَى ذَلِكَ عَرَفُوا أَنَّ حَرْفَ: لَا ههنا في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ زيادة، مَغْنَاهُ: لِيَتَعَلَّمَ ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ تَقَدُّمِ كَانٍ مِنْهُمْ حَتَّى خَرَجَ هَذَا جَوَابًا لَهُمْ عَنْ ذَلِكَ.

ولكن يَذْكُرُ شَيْئًا، يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ الَّذِي ذَكَرَ، هُوَ جَوَابُ ذَلِكَ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ، وَهُوَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَأَهْلَ عِلْمٍ بِالْكِتَابِ، يَزُونَ لِأَنْفُسِهِمْ فَضْلًا عَلَى غَيْرِهِمْ وَخُصُوصِيَّةً لَيْسَتْ لِغَيْرِهِمْ عِنْدَهُمْ.

فلما بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولًا إِلَيْهِمْ وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا، وَهُوَ أَمِينٌ عِنْدَهُمْ، وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مَا كَانَ فِي كُتُبِهِمْ، وَأَمَرَهُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِقْبَادَ لَهُ وَالطَّاعَةَ، وَأَخَوَجَهُمْ جَمِيعًا إِلَيْهِ وَإِلَى مَا فِي كِتَابِهِ أَنْكَرُوا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِحْسَانَهُ إِلَيْهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ أَيُّ يُفْضِلُ مَنْ يَشَاءُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ.

ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ دلالةٌ تَقْضِي قَوْلَ الْمُعْتَزِلَةِ فِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَغْطَى كُلَّ إِنْسَانٍ^(٢) مَا يَقْدِرُ عَلَى الْوَصُولِ إِلَى جَمِيعِ فَضَائِلِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ لِيَتَعَلَّمُوا أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، وَالْمُعْتَزِلَةُ يَقُولُونَ: بَلْ يَقْدِرُونَ؛ فَهَذَا خِلَافٌ لظَاهِرِ الْآيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيْضًا دَلَالَةٌ تَقْضِي قَوْلَ الْمُعْتَزِلَةِ مِنْ جِهَةِ أُخْرَى، وَهُوَ أَنَّهُ ذَكَرَ الْمَشِيتَةَ فِي مَا هُوَ حَقُّهُ فَضْلًا، وَمَا هُوَ حَقُّهُ عَذَابٌ حِينَ^(٣) قَالَ: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وَلَمْ يَذْكُرِ الْمَشِيتَةَ فِي مَا هُوَ حَقُّهُ عَذَابٌ وَمَا هُوَ حَقُّهُ ظُلْمٌ وَجَوْرٌ، بَلْ أَطْلَقَ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] وَقَالَ: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١] وَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لِدَرَجَةٍ﴾ [النساء: ٤٠] وَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْبَاطِلَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ؛ نَفَى أَنْ يُلْحِقَ أَحَدًا^(٤) مِنَ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ لِيُعْلِمَ أَنَّ فِعْلَ الْهُدَى مِنْهُ يُصِلُ إِلَى مَنْ هَدَاهُ، وَأَرْشَدَهُ، وَالْإِضْلَالُ مِنْهُ / ٥٥٣ - ١ عَذَابٌ. وَكَذَلِكَ قَالَ: ﴿يُسَبِّحُ مَنْ يَشَاءُ وَهَيِّئْ مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨] أَيْ [مَنْ]^(٥) نَالَ الْهُدَى وَالرُّشْدَ إِنَّمَا نَالَهُ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَذَلِكَ عَذَابٌ مِنْهُ؛ وَلِلَّذَلِكَ قَالَ: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلدِّينِ﴾ [الحجرات: ١٧] وَاللَّهُ الْهَادِي [وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ]^(٦).

(١) من م، في الأصل: ولا يسقط. (٢) في الأصل: شيء. (٣) في الأصل: وم: حيث. (٤) في الأصل: وم: أحد. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من م.

سورة المجادلة

[وهي مكية^(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ قَالَ جماعةٌ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ: إنها نَزَلَتْ فِي أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ أَخِي عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَأَمْرَاتِهِ، غَيَّرَ أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي اسْمِ امْرَأَتِهِ. وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: كَانَ اسْمُهَا خَوْلَةَ. وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا كَانَتْ خَوْلَةَ.

وقال بعضهم: إنها كَانَتْ تُسَمَّى خَوْلَةَ عَلَى تَضْغِيرِ خَوْلَةَ. وَرَوَى فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ كَانَ سَبَبُ هَذَا الْقَوْلِ مِنْ أَوْسٍ لَزُوجَتِهِ لَمَّا دَعَاها لَيْلَةً إِلَى فِرَاشِهِ، وَكَانَتْ امْرَأَتُهُ بِحَيْثُ لَا يَحِلُّ لَهُ التَّمَتُّعُ بِهَا، فَأَبَتْ عَلَيْهِ، وَأَرَادَتْ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْبَيْتِ [فَقَالَ لَهَا: إِنَّ خَرَجْتَ مِنَ الْبَيْتِ]^(٢) فَأَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي، فَخَرَجَتْ، فَلَمَّا أَصْبَحَتْ قَالَ لَهَا زَوْجُهَا: مَا أَرَاكِ إِلَّا حَرُمْتَ عَلَيَّ، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا ذَكَرْتُ لِي إِلَّا طَلَاقًا، قَالَ: فَأَتَيْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَاسْأَلِيهِ، فَلَمَّا اسْتَحْيَيْ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْ هَذَا، فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَخْبَرَتْهُ، فَتَزَلَّتْ فِيهَا هَذِهِ الْآيَةُ.

وَرَوَى فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ ظَاهَرَ امْرَأَتَهُ أَوْسٌ، وَكَانَ بِهِ لَمَمٌ، فَقَالَ فِي بَعْضِ هَجَرَاتِهِ ذَلِكَ الْقَوْلَ. وَهَذَا يَرَوِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ، لَكِنَّهُ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِاللَّمَمِ الْجُنُونَ، لِأَنَّ الْمَجْنُونَ لَوْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ لَا يَقَعُ الطَّلَاقُ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ ظَهَارُهُ ظَهَارًا.

وتأويلُ قوله: كَانَ بِهِ لَمَمٌ، أَيِ فَضْلٍ غَضَبٍ وَشِدَّةٍ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ حِلْمٌ.

ثم اخْتَلَفَتْ الرِّوَايَاتُ فِي شَأْنِهَا وَشَأْنِ زَوْجِهَا؛ مِنْهُمْ مَنْ رَوَى، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ^(٣) أَنَّهَا أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَالَتْ: إِنَّ أَوْسًا أَبَا وَلَدِي وَابْنَ عَمِّي وَأَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ قَدْ قَالَ كَلِمَةً، وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مَا ذَكَرَ طَلَاقًا، قَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَرَاكِ إِلَّا وَقَدْ حَرُمْتَ عَلَيْهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَقُلْ ذَلِكَ، مَا ذَكَرَ طَلَاقًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَرَاكِ إِلَّا وَقَدْ حَرُمْتَ عَلَيْهِ، وَكَرَّرَتْ الْمَرْأَةُ ذَلِكَ، وَرَأَتْ^(٤) رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ شِدَّةَ وَجْدِي بِهِ وَمَا يَشُقُّ عَلَيَّ مِنْ فِرَاقِهِ، اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيَّ نَبِيَّكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَطْمَئِنَّ سَتَيْنِ سَتَكَيْنَا﴾ [الآية: ٤]، [أَبُو دَاوُدَ: ٢٢١٤ وَابْنُ جُرَيْرٍ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: ٤/٢٨ وَالسِّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَشْهُورِ: ٧٢/٨].

وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ [الَّتِي]^(٥) رَوَاهَا الْكَلْبِيُّ «أَنَّهَا أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ زَوْجِي أَوْسَ بْنَ الصَّامِتِ تَزَوَّجَنِي يَوْمَ تَزَوَّجَنِي، وَأَنَا شَابَةٌ ذَاتُ أَهْلِ كَثِيرٍ وَمَالٍ كَثِيرٍ، فَأَكُلُ شَبَابِي حَتَّى إِذَا كَبُرَتْ عِنْدَهُ سِنِّي، وَذَهَبَ أَهْلِي، وَتَفَرَّقَ مَالِي، وَضَعُفْتُ، جَعَلَنِي عَلَيْهِ كَظْهَرِ أُمِّي، ثُمَّ تَرَكَنِي إِلَى غَيْرِ شَيْءٍ، وَقَدْ نَدِمْتُ، وَنَدِمْتُ، فَهَلْ مِنْ شَيْءٍ، يَجْمَعُنِي وَلِيَاءَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ ﷺ: أَطَلَّقَكَ؟ قَالَتْ: لَا، قَالَ: مَا أَمُرْتُ فِي شَأْنِكَ بِشَيْءٍ، أُبَيِّنُهُ لَكَ، فَرَفَعَتْ يَدَيْهَا إِلَى السَّمَاءِ، تَدْعُوهُ، وَتَقْضِرُغُ إِلَيْهِ أَنْ يَنْزِلَ إِلَيْهِ بَيَانُ أَمْرِهَا، ثُمَّ خَرَجَتْ مِنْ عِنْدِهِ، وَأَتَتْ زَوْجَهَا، فَتَزَلَّتْ جَبْرِيلُ ﷺ بِهَذِهِ الْآيَةِ [السِّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَشْهُورِ: ٧٢/٨ وَ٧٣].

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَرَدَّدَ. (٤) ساقطة من الأصل وم.

وَرَوَى فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّهَا أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّ زَوْجِي أَوْسَ بْنَ الصَّامِتِ، تَزَوَّجَنِي، وَإِنِّي شَابَّةٌ ذَاتُ مَالٍ وَأَهْلٍ حَتَّى إِذَا أَكَلَ مَالِي، وَأَفْتَى شَبَابِي، وَكَبِرَتْ سِنِّي، وَرَقَّ عَظْمِي، وَبَاءَ أَهْلِي، جَعَلَنِي عَلَيْهِ كَظْهَرِ أُمِّهِ، وَلِي مِنْهُ صِبَانٌ، إِنْ أَنَا وَكُلْتُهِمْ إِلَيْهِ ضَاعُوا، وَإِنْ ضَمَمْتُهُمْ إِلَى نَفْسِي جَاعُوا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَغْرَبِي، فَلَعَلَّكَ الظَّالِمَةُ لَزَوْجِكَ، فَقَالَتْ: يَا أَمِينَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ إِنَّهُ لَظَالِمٌ لِي، فَقَالَ: أَذْهَبِي فَإِنَّ فِيكَ الضَّعْفَ وَالْعَجْزَ، قِيلَ^(١): فَجَعَلْتَ تُجَادِلُهُ، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ لَا يَرْفَعُ بِهَا رَأْسًا، وَلَا تَجِدُ عِنْدَهُ مَخْرَجًا خَرَجَتْ، وَرَفَعَتْ طَرَفَهَا إِلَى السَّمَاءِ، تَشْكُو إِلَى اللَّهِ صُنْعَ زَوْجِهَا بِهَا، وَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَيْتُ أَمِينَكَ فِي أَرْضِكَ، فَلَمْ يَرْفَعْ بِي رَأْسًا، فَتَوَلَّى الْيَوْمَ حَاجَتِي، وَارْحَمْ ضَعْفِي وَقِلَّةَ حِيلَتِي، فَلَمْ تَصِلْ إِلَى مَنْزِلِهَا حَتَّى هَبَطَ جِبْرِيلُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، بِالْوَحْيِ: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْكِي إِلَى اللَّهِ» قَدَعَا أَوْسًا زَوْجَهَا، فَقَالَ: مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى [مَا]^(٢) صَنَعْتَ بِخَوْلَةٍ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا مَا أَنْزَلَ؟ وَيَعَتِّ إِلَيْهَا، وَرَحَّبَ بِهَا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَمَلُ الشَّيْطَانِ، فَهَلْ مِنْ أَمْرٍ يَجْمَعُنِي اللَّهُ وَإِيَّاهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِمْ آيَةَ الظَّهَارِ^(٣) إِلَى آخِرِهَا.

ثُمَّ بَيَّنَ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ اخْتِلَافًا: ذَكَرَ فِي رِوَايَةِ الْقُرْطُبِيِّ: أَنَّهُ قَالَ ﷺ: «مَا أَرَاكَ إِلَّا وَقَدْ حُرِّمْتَ عَلَيْهِ»، وَفِي رِوَايَةِ رُوَيْدِ بْنِ أَبِي رَافٍ: «مَا أَمِرْتُ فِي شَأْنِكَ مِنْ شَيْءٍ».

لَكِنَّهُ يُمَكِّنُ التَّوْفِيقَ بَيْنَ الْخَبَرَيْنِ [بِوَجْهَيْنِ]:

أَحَدُهُمَا: هُوَ^(٤) أَنْ قَوْلَهُ: «مَا أَرَاكَ إِلَّا وَقَدْ حُرِّمْتَ عَلَيْهِ» عَلَى مَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَرَوْنَهُ مُحَرَّمًا، وَقَالَ: «مَا أَرَاكَ إِلَّا وَقَدْ حُرِّمْتَ عَلَيْهِ مِنْ ذَا الْوَجْهِ». لَكِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي بَيَانِ هَذَا، فَإِنْ يَنْزِلُ شَيْءٌ فِي بَيَانِ هَذَا أُيِّنَتْ لَكَ. وَالثَّانِي: أَنْ لَيْسَ فِي قَوْلِهِ: «مَا أَرَاكَ» إِثْبَاتُ حُرْمَةٍ، بَلْ هُوَ قَوْلٌ عَلَى الظَّنِّ بِمَا قَدْ كَانَ النَّاسُ يَغْرِفُونَهُ بَيْنَهُمْ، لِذَلِكَ حُرْمَةٌ.

فِيجُوزُ أَنْ يُرَادَ التَّقْرِيرُ عَلَى ذَلِكَ أَوْ تُرَدُّ لِهَذِهِ الْحَادِثَةِ الْحُرْمَةُ بِالْوَحْيِ، فَتَوَقَّفَ فِي الْجَوَابِ مَعَ الْإِشَارَةِ لَهَا بِالْإِمْتِنَاعِ عَنِ الزَّوْجِ اخْتِطَاطًا لِבَابِ الْحُرْمَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ إِنَّ بَعْضَ الْفُقَهَاءِ ذَكَرَ الْإِخْتِلَافَ بَيْنَ السَّلَفِ فِي حُكْمِ الظَّهَارِ قَبْلَ نَزُولِ الْآيَةِ:

عَنْ عِكْرَمَةَ أَنَّهُ قَالَ: كَانَتْ النِّسَاءُ تُحَرِّمُ بِالظَّهَارِ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ، وَكَانَ طَلَاقًا قَبْلَ نَزُولِ الْآيَةِ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْآيَةِ ظَهَارًا.

وَعَنْ أَبِي قِلَابَةَ وَغَيْرِهِ [أَنَّهُمَا قَالَا]:^(٥) كَانَ طَلَاقُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْإِبْلَاءَ وَالظَّهَارَ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ طَلَاقُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ الظَّهَارَ.

ثُمَّ جَعَلَ [هَذِهِ الْحُرْمَةَ]^(٦) تَرْفِيعًا، وَتَزْوِيلًا، بِالْكَفَّارَةِ الَّتِي أَوْجَبَ.

وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ الظَّهَارُ أَشَدَّ الطَّلَاقِ وَأَحْرَمَ الْحَرَامِ، إِذَا ظَاهَرَ مِنْ امْرَأَتِهِ لَمْ تَرْجِعْ إِلَيْهِ أَبَدًا.

وَالْأَشْبَهُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ طَلَاقًا فِي الْإِسْلَامِ، لَوْ كَانَ يَكُونُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَنَّهُ يَكُونُ مُوجِبًا حُرْمَةٍ، لَا تَرْفِيعُ أَبَدًا، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِي حَدِيثِ خَوْلَةَ أَنَّ زَوْجَهَا لَمَّا قَالَ لَهَا: مَا أَرَاكَ إِلَّا وَقَدْ حُرِّمْتَ عَلَيَّ، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا ذَكَرَ لِي طَلَاقًا، وَلَوْ كَانَ الظَّهَارُ طَلَاقًا لَعَرَفْتُهُ، وَكَذَلِكَ لَمَّا أَخْبَرَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي، فَقَالَ ﷺ: «مَا أَرَاكَ / ٥٥٣ - ب / إِلَّا وَقَدْ حُرِّمْتَ عَلَيْهِ» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَا تَقُلْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَ طَلَاقًا، وَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهَا اخْتِطَادًا فِي أَنَّ الظَّهَارَ طَلَاقٌ.

وَكَذَلِكَ مَا رَوَى فِي رِوَايَةِ أُخْرَى فِي حَدِيثِ طَوِيلٍ: جَعَلَنِي عَلَيْهِ كَظْهَرِ أُمِّهِ، ثُمَّ تَرَكَنِي إِلَى غَيْرِ شَيْءٍ، فَهَلْ مِنْ شَيْءٍ يَجْمَعُنِي وَإِيَّاهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ ﷺ: «أَطْلُقْكَ؟» قَالَتْ: لَا، قَالَ: «مَا أَمِرْتُ فِي شَأْنِكَ مِنْ شَيْءٍ» وَلَوْ كَانَ الظَّهَارُ طَلَاقًا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الْكَفَّار. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لِهَذِهِ الْأَمَةِ.

بعد الإسلام قبل نزول هذه الآية لما قال لها: «اطْلُقِي»؟ بعد ما قالت: جَعَلَنِي عَلَيْهِ كَظْهَرِ أُمِّي. ولما قال: «ما أُمِرْتُ فِي شَأْنِكَ مِنْ شَيْءٍ» وَحُكْمٌ شَرِيعَتِهِ أَنَّهُ طَلَاقٌ مَزِيلٌ لِلْمُلْكِ، دَلٌّ [أَنَّهُ الْأَشْبَهُ، وَهُوَ] ^(١) يُقَرَّرُ مَا قُلْنَا: إِنَّهُ ذِكْرٌ فِي حَدِيثِ خَوْلَةَ وَأَوْسٍ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ ظَاهَرَ فِي الْإِسْلَامِ، فَكَيْفَ يَكُونُ طَلَاقًا؟

فإن قيل: [اليس] ^(٢) النَّبِيُّ ﷺ قال: «ما أَرَاكِ إِلَّا وَقَدْ حُرِّمْتَ عَلَيْهِ» وَالْحُرْمَةُ الَّتِي لَا تَرْفَعُ النِّكَاحَ بِالظَّهَارِ إِنَّمَا تَثْبُتُ بَعْدَ نَزُولِ الْآيَةِ، وَالْآيَةُ نَزَلَتْ بَعْدَ هَذَا الْقَوْلِ فِي أَوْسٍ بْنِ الصَّامِتِ، فَذَلَّ أَنْ مُرَادَهُ تَحْرِيمُ الطَّلَاقِ. فِهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ كَانَ ثَابِتًا فِي شَرِيعَتِهِ قَبْلَ نَزُولِ آيَةِ الظَّهَارِ بِوَحْيٍ غَيْرِ مَثَلُوٍّ، [وَأَنَّهُ] ^(٣) كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي حُكْمِ الْجَاهِلِيَّةِ.

فكَذَلِكَ ذَلِكَ الزَّوْجُ لَمَّا قَالَ لِلْمَرْأَةِ أَيْضًا: مَا أَرَاكِ إِلَّا وَقَدْ حُرِّمْتَ عَلَيَّ، دَلٌّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ طَلَاقًا قَبْلَ نَزُولِ الْآيَةِ.

هَذَا حُجَّةٌ عَلَيْكُمْ؛ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ ﷺ: «ما أَرَاكِ إِلَّا وَقَدْ حُرِّمْتَ عَلَيْهِ» إِبْثَاتُ الْحُرْمَةِ فِيهِ بِالظَّهَارِ بِكَوْنِهِ طَلَاقًا، فَكَيْفَ يَحْكُمُ عَلَيْهَا بِالْحُرْمَةِ بِالظَّهَارِ بَعْدَ حُكْمِهِ بِالطَّلَاقِ بِذَلِكَ الْقَوْلِ بَعِيْنُهُ فِي شَخْصٍ بَعِيْنُهُ؟ وَقَدْ صَحَّ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا أَوْسًا وَأَمَرَأَتَهُ لِلْكَفَّارَةِ، وَأَبْقَى النِّكَاحَ بَيْنَهُمَا.

لَوْ كَانَ ذَلِكَ طَلَاقًا، وَابْتِثَ حُكْمُهُ [لَمَّا نَسَخَ] ^(٤) بِالْآيَةِ حُكْمَهُ إِلَى حُكْمٍ آخَرَ، فَظَهَرَ ذَلِكَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لَا فِي الْمَاضِي، دَلٌّ أَنَّ هَذَا حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ ^(٥)، وَلَكِنْ إِنَّمَا قَالَ: «ما أَرَاكِ إِلَّا وَقَدْ حُرِّمْتَ عَلَيْهِ» لِلْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فإن قيل: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَحْكَمْ بِالطَّلَاقِ فِي حَقِّهَا مَعَ أَنَّ الظَّهَارَ كَانَ طَلَاقًا بِطَرِيقِ الْقَطْعِ، بَلْ قَالَ: «ما أَرَاكِ إِلَّا وَقَدْ حُرِّمْتَ عَلَيْهِ» عَلَى طَرِيقِ الظَّنِّ، لِأَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَغْلَمَهُ أَنَّهُ سَيَنْسَخُ ^(٦) حُكْمَ هَذَا الْقَوْلِ، وَيَنْقُلُهُ مِنَ الطَّلَاقِ إِلَى تَحْرِيمِ الْمُتَعَمَّةِ، فَلَمْ يَقْطَعْ الْقَوْلَ فِيهِ حَتَّى نَزَلَتْ الْآيَةُ.

قِيلَ: لَوْ كَانَ ذَلِكَ حُكْمًا ثَابِتًا مُقَرَّرًا فِي حُكْمِ شَرِيعَتِهِ لَمْ يَمْتَنِعِ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْعَمَلِ وَالْحُكْمِ بِذَلِكَ مَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ النَّاسَخُ، وَإِنْ أُغْلِمَ أَنَّهُ سَيَنْسَخُ لِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ الْعَمَلُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَايَ أَعْمَكُم بِبَيْنِهِمْ يَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] وَقَوْلِهِ: ﴿يَلْفُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وَإِذَا وَرَدَ النَّاسَخُ بِخِلَافِهِ يَكُونُ عَمَلُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لَا فِي مَا مَضَى، وَإِنَّمَا يَسْتَقِيمُ هَذَا عَلَى مَا قُلْنَا: إِنَّ الظَّهَارَ قَبْلَ الْآيَةِ لَا حُكْمَ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَكَانَ مُحَرَّمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَمَتَى وَجَدَ هَذَا السَّبَبَ، وَوَقَعَتْ هَذِهِ الْحَادِثَةُ، أَمَرَهَا بِالْإِجْتِنَابِ عَنِ الزَّوْجِ اخْتِيَابًا حَتَّى تَنْزِلَ الْآيَةُ، فَيُظْهَرُ أَنَّ حُكْمَهُ مَا هُوَ مِنْ حِينِ وَجُودِهِ؛ إِذْ يَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذَا هَذَا الْحُكْمَ، وَإِنْ كَانَ لَا عِلْمَ لِلْمُظَاهِرِ بِهِ، إِذَا كَانَ بَحِيثٌ يُمْكِنُهُ الْوُصُولُ إِلَى الْعِلْمِ بِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الْعَمَلِ بِهِ. وَالْحُكْمُ كَالنَّصِّ الَّذِي وَرَدَ مُجْمَلًا فِي إِيْجَابِ [حُكْمٍ] ^(٧).

ثُمَّ وَرَدَ الْبَيَانُ مُتَأَخِّرًا، وَالنَّصُّ الْعَامُّ الَّذِي يَتَأَخَّرُ بَيَانُهُ عَلَى خِلَافِ ظَاهِرِهِ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أَيِ سَمِعَ قَوْلَهَا وَمُجَادَلَتَهَا فِي زَوْجِهَا وَمُجَادَلَتَهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فِي سَوَالِهَا لِإِيَّاهُ عَمَّا ابْتَلَيْتَ بِقَوْلِ زَوْجِهَا لَهَا: أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي. الْمُجَادِلَةُ هِيَ الْمُخَاصِمَةُ، وَهِيَ الْمُحَاوِرَةُ، وَكَانَتْ مُجَادَلَتُهَا فِي زَوْجِهَا أَنَّ قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا ذَكَرْتَ طَلَاقًا حِينَ قَالَ لَهَا بَعْدَ مَا قَالَ لَهَا إِنَّ خَرَجْتَ مِنَ الدَّارِ فَأَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي، وَخَرَجْتَ: مَا أَرَاكِ إِلَّا وَقَدْ حُرِّمْتَ عَلَيَّ.

وَأَمَّا مُجَادَلَتُهَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَمُحَاوَرَتُهَا، فَهِيَ ^(٨) قَوْلُهَا: لَا تَقُلْ ذَلِكَ، وَقَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «ما أَرَاكِ إِلَّا وَقَدْ حُرِّمْتَ عَلَيْهِ» فَهَذِهِ مُحَاوَرَتُهُمَا.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: الْمُحَاوَرَةُ هِيَ الْمُرَاجَعَةُ فِي الْكَلَامِ، وَهِيَ إِذَا دَانَ ^(٩) الْكَلَامَ، وَإِرَاجَعَانِي، وَيُكْرَرَانِي، وَهُوَ مَا ذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُكْرَرُ قَوْلُهُ: «ما أَرَاكِ إِلَّا وَقَدْ حُرِّمْتَ عَلَيْهِ» وَهِيَ تُرَدُّ، وَتُكْرَرُ قَوْلُهَا: لَا تَقُلْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّهُ مَا ذَكَرَ طَلَاقًا. وَلَكِنْ هَذَا قَرِيبٌ مِنَ الْأَوَّلِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْأَشْبَهُ هَذَا. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: إِنَّمَا يَنْسَخُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَنْسَخُ. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرْدَدَانِي.

وقال بعض أهل اللغة: ﴿تَحَاوَرَكُمَا﴾ أي كلامكما، والتَّحَاوَرُ الكلامُ بَيْنَ اثْنَيْنِ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوَرَكُمَا﴾ قيل فيه بوجهين:

أحدهما: أَنْ تَشْتَكِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَضَافَ [الشُّكْرَى] ^(١) إِلَى نَفْسِهِ، لِأَنَّهُ مُرَادَهَا أَنْ تَنْزِلَ آيَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ بِالْفَرَجِ عَنْهَا.

والثاني: أَنْ شَكَرَها إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَتَضَرَّعَها، قَدْ كَانَ حِينَ ^(٢) لَمْ تَجِدِ الْفَرَجَ وَالْمَخْرَجَ فِي مَا قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ: «مَا أَرَاكَ إِلَّا وَقَدْ حَرُمْتَ عَلَيْهِ» فَاشْتَكَيْتَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى [وَدَعَيْتَ، وَتَضَرَّعْتَ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى] ^(٣) عَلَى رَسُولِهِ الْآيَةَ فِيهَا، وَجَاءَتْ الرُّخْصَةُ لَهَا بِالْاجْتِمَاعِ بَعْدَ التَّكْفِيرِ عَلَى مَا ذُكِرَ فِي الْخَبَرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوَرَكُمَا﴾ أَيِ يَسْمَعُ لَهَا بِمَا أَجَابَ، وَأَعَاثَ بِالْفَرَجِ وَالْمَخْرَجِ عَمَّا اشْتَكَيْتَ إِلَيْهِ، وَيَسْمَعُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا أَبَانَ مَا ظَهَرَ لَهُ مِنَ الْحُكْمِ فِي الْحَادِثَةِ الَّتِي اشْتَبَهَتْ عَلَيْهِ، وَأَشْكَلَ وَجْهَ الْحُكْمِ [عَلَيْهِ] ^(٤) فِي ذَلِكَ.

ثُمَّ اخْتَلَفَتْ الْأَخْبَارُ فِي أَمْرِهِمَا أَيْضاً [حِينَ دَعَا زَوْجَهَا] ^(٥) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَخْبَرَهُ بِالْآيَةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي أَمْرِهِمَا.

ذُكِرَ فِي حَدِيثِ الْقُرْظِيِّ: «لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ دَعَا زَوْجَهَا أَوْسًا، فَقَالَ لَهُ: اغْتِنِقِ رَقَبَةً، قَالَ: مَا عِنْدِي رَقَبَةٌ أُغْنِيهَا، قَالَ: فَصُمُّ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، قَالَ: مَا اسْتَطِيعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَأَصُومُ يَوْماً وَاحِداً، فَيَشُقُّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَكَيْفَ أَصُومُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟ قَالَ: فَاطْعِمِ سِتِينَ مِسْكِيناً، قَالَ: [أَمَّا هَذَا فَتَنَعَمْ، قَالَ: فَاطْعِمِ سِتِينَ مِسْكِيناً، قَالَ: ^(٦) فَاْمَسْكُهَا».

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى ذَكَرَهَا الْكَلْبِيُّ: «لَمَّا نَزَلَتْ رُخْصَتُهُمَا أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى زَوْجِهَا أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ، فَاتَاهُ، فَقَالَ: وَيَحَكَ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ، وَقُلْتَ؟ قَالَ: الشَّيْطَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَهَلْ مِنْ رُخْصَةٍ تَجْمَعُنِي وَلِيَّاهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، وَقُرْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْأَرْبَعَةَ، وَقَالَ لَهُ: هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُغْنِيَ رَقَبَةً؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْمَالَ لَقَلِيلٌ، وَإِنَّ الْعِيَالَ لَكَثِيرَةٌ، وَإِنَّ الرُّقَابَ لَعَالِيَةً، قَالَ: فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْلَا أَنِّي أَكُلُ فِي الْيَوْمِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ لَكُلُّ بَصْرِي، وَلَقَنْتُنْتُ أَنِّي سَامُوثٌ، قَالَ: فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْعِمَ سِتِينَ مِسْكِيناً؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا أَنْ تُعِينَنِي بِصَدَقَةٍ، فَأَعَانَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخَمْسَةِ عَشَرَ صَاعاً، وَأَخْرَجَ أَوْسٌ مِنْ عِنْدِهِ خَمْسَةَ عَشَرَ صَاعاً، تَصَدَّقَ بِهِ عَلَى سِتِينَ مِسْكِيناً، فَجَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ» [أَبُو دَاوُدَ: ٢٢١٤ وَابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ: ٤/٢٨ وَالسَّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَثُورِ: ٧٢/٨].

وَذُكِرَ فِي خَبَرٍ آخَرَ أَنَّ رَجُلًا كَانَ ظَاهِرًا مِنْ أَمْرَاتِهِ، وَكَانَ هُوَ بِصَوْمٍ، فَوَاقَعَ امْرَأَتَهُ فِي وَقْتِ الصَّوْمِ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَاخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَعَابَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ / ٥٥٤ - / عَلَى فِعْلِهِ ثُمَّ أَمَرَهُ بِأَنْ يَكْفُرَ بِمَا وَصَفْنَا مِنَ الْكُفَّارَاتِ، فَقَالَ [فِي] ^(٧) كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا: لَا اسْتَطِيعُ، قَالَ: فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ [إِلَى] ^(٨) مَوْضِعِ كَذَا إِلَى أَبِي زُرَيْقٍ، وَيَأْخُذَ مِنْهُ وَسْقًا مِنَ التَّمْرِ، فَيُعْطِيَ سِتِينَ مِسْكِيناً كُلَّ مِسْكِينٍ صَاعاً، وَالْبَاقِي يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ» [أَبُو دَاوُدَ ٢٢١٣].

وَذُكِرَ ^(٩) فِي الْإِطْعَامِ فِي خَبَرٍ: لَا اسْتَطِيعُ، وَفِي خَبَرٍ أَنَّهُ قَالَ: أَمَّا هَذَا فَتَنَعَمْ، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: لَا إِلَّا أَنْ تُعِينَنِي بِصَدَقَةٍ؛ فَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُ: أَمَّا هَذَا فَتَنَعَمْ بَعْدَ مَا وَعَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْإِعَانَةِ أَوْ بِإِعْطَاءِ الْكُلِّ، فَخُذْ مِنَ الْأَخْبَارِ عَلَى الْوَفَاقِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَةَ إِذَا لَزِمَ فِيهَا طَعَامٌ فَمِنْ الْجَنْطَةِ نِصْفُ صَاعٍ، وَفِيهِ وَدَلِيلٌ أَنَّ نِصْفَ صَاعٍ مِنَ الْجَنْطَةِ طَعَامٌ مِسْكِينٍ، وَأَنَّهُ يَجُوزُ مِنْ صَدَقَةِ الْفِطْرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ قُرِئَ يَظَاهِرُونَ مُشَدَّدَةً بِغَيْرِ أَلِفٍ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث دعا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم.

يَتَظَاهَرُونَ، فَأُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الظَّاءِ، وَشُدُّدَتْ، وَقُرِئَ يَظَاهَرُونَ^(١) يَفْتَحِ الْيَاءُ وَتَشْدِيدُ الظَّاءِ بِالْفِ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ: يَتَظَاهَرُونَ، فَأُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الظَّاءِ، وَشُدُّدَتْ، وَقُرِئَ أَيْضاً يَظَاهَرُونَ بِضَمِّ الْيَاءِ وَتَخْفِيفِ الظَّاءِ بِالْفِ مِنْ ظَاهَرٍ يَظَاهِرُ مُظَاهَرَةً، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ فِي مَا اخْتَلَفَ مِنْ قِرَاءَاتِهِمْ؛ يُقَالُ: ظَاهَرُ الرَّجُلِ مِنْ أَمْرَاتِهِ، وَيُظَاهِرُ مِنْهَا، وَتَظَاهَرُ، وَتَظَاهَرُ مِنْهَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ لَهَا: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهَرِ أُمِّي.

وَقَالَ الْقَتِيبِيُّ: يَظَاهِرُونَ، أَيُّ يُحَرِّمُونَ تَحْرِيمَ ظُهُورِ الْأَمْهَاتِ.

وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: يَظَاهِرُونَ هَذَا يَمِينٌ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِأَمْرَاتِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهَرِ أُمِّي، وَأَمَّا يَظَاهَرُونَ فَمِنْ^(٢) التَّظَاهَرِ، وَهُوَ التَّعَاوُنُ، أَيُّ تَعَاوَنُوا، وَلَكِنْ هُوَ خِلَافٌ مَا تَضَمَّنَتْهُ الْآيَةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ الظَّاهَرُ كَانَ عِنْدَ ذَلِكَ الْقَوْمِ ظَاهِراً، وَهُوَ مَا رَوَيْنَا فِي الْأَخْبَارِ أَنَّ أُمْرَأَةً أَوْسَى ابْنَ الصَّامِتِ لَمَّا هَمَّتْ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الدَّارِ قَالَتْ لَهَا: إِنْ خَرَجْتَ مِنَ الدَّارِ فَأَنْتِ عَلَيَّ كَظَهَرِ أُمِّي، وَكَذَلِكَ هَذِهِ الدَّلَالَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾، وَالظَّاهَرُ أُخِذَ اسْمُهُ مِنَ الظَّهْرِ، وَكَذَلِكَ فِي مَا عَرَفَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي مَا يَبْتَنُّ هَذَا اللَّفْظُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهَرِ أُمِّي.

أَمَّا ظَاهِرُ الْآيَةِ فَيُوجِبُ أَنْ يَكُونَ الظَّاهَرُ فِي مَا يَقُولُ: أَنْتِ عَلَيَّ كَأُمِّي، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿مَا هُنَّ أَهْنِيهِنَّ إِنْ أَهْنَيْتُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ وَلَئِنْ هُنَّ أَهْنِيهِنَّ﴾ دَكَرَ الْأَمْهَاتِ، وَلَمْ يَذْكُرْ ظَهَرَ الْأَمْهَاتِ، فَصَارَ ظَاهِرُ الْآيَةِ يُوجِبُ هَذَا.

وَبِهَذَا اخْتَجَّ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ لِمَذْهَبِهِ فِي مَنْ قَالَ لِأَمْرَاتِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَأُمِّي؛ قَالَ يَكُونُ ظَاهِراً مِنْ غَيْرِ نِيَّةٍ.

وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ قَالَ: لَا يَكُونُ مُظَاهِراً إِلَّا [أَنْ]^(٣) يَنْوِي بِذَلِكَ الْحُرْمَةَ، فَإِنْ نَوَى بِهِ كَانَ؛ وَذَهَبَ فِي ذَلِكَ إِلَى مَا رَوِيَ فِي الْأَخْبَارِ ذَلِكَ الْحَرْفُ؛ أَعْنِي قَوْلُهُ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهَرِ أُمِّي، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي مَنْ قَالَ ذَلِكَ الْقَوْلَ، فَلَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نَضَرِّفَهُ إِلَى غَيْرِهِ إِلَّا بِدَلِيلٍ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أَهْنِيهِنَّ﴾ أَيُّ مَا هُنَّ لَهُمْ كَأُمَمَاتِهِمْ لِأَنَّهُ تَعَالَى [قَالَ: (٤)] ﴿مَا هُنَّ أَهْنِيهِنَّ﴾ عَلَى سَبِيلِ الرَّدِّ لِمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أَيُّ قَالُوا لِنِسَائِهِمْ: أَتُنَّ عَلَيْنَا كَظُهُورِ أُمَمَاتِنَا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا هُنَّ أَهْنِيهِنَّ﴾ فِي الظَّاهَرِ يَكُونُ رَدّاً لِقَوْلِ مَنْ قَالُوا لِنِسَائِهِمْ: أَتُنَّ (٥) كَأُمَمَاتِنَا لَا لِمَنْ قَالُوا: أَتُنَّ (٦) كَأُمَمَاتِنَا أَوْ كَظُهُورِ أُمَمَاتِنَا، فَيُخْتَلِ بِذَلِكَ الْقَوْلِ أَنْ مُرَادَ اللَّهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿مَا هُنَّ أَهْنِيهِنَّ﴾ أَيُّ كَأُمَمَاتِهِمْ.

وَلَكِنْ الْإِشْكَالُ أَنَّهُ إِذَا صَارَ تَقْدِيرُ الْآيَةِ: مَا هُنَّ كَأُمَمَاتِهِمْ؛ فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَهْنَيْتُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ وَلَئِنْ هُنَّ أَهْنِيهِنَّ﴾: أَنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَ التَّشْبِيهَ بِالْأُمَمَاتِ، وَاللَّهُ تَعَالَى نَفَى مَا ادَّعَوْا مِنَ التَّشْبِيهِ فِي مَا مَضَى لِبَيَانِ حَقِيقَةِ الْأُمَمَاتِ، وَهِنَّ اللَّائِي وَلَئِنْ هُنَّ، وَهُنَّ يَغْرِفُونَ ذَلِكَ، وَلَا يُنْكِرُونَهُ، وَلَا يَدْعُونَ فِي نِسَائِهِمْ أَنَّهُنَّ أُمَمَاتُهُنَّ حَقِيقَةً حَتَّى يَرُدَّ عَلَيْهِمْ (٧) دَعْوَاهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَهْنَيْتُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ وَلَئِنْ هُنَّ أَهْنِيهِنَّ﴾.

وَإِشْكَالٌ آخَرُ: أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَا يَنْهَيْتُمْ لِقَوْلِهِمْ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً﴾ وَظَاهِرُ هَذَا الْقَوْلِ مِنْهُمْ لَيْسَ بِقَوْلِ الزُّورِ وَلَا الْمُنْكَرِ، إِذْ لَيْسَ [قَوْلُهُمْ ذَلِكَ] (٨): ظَهَرُكَ كَظَهَرِ أُمِّي، أَوْ أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهَرِ أُمِّي أَوْ كَأُمِّي إِلَّا التَّشْبِيهَ، وَهِيَ [تَعْلَمُ أَنْ] (٩) ظَهَرَهَا كَظَهَرِ أُمَمَاتٍ فِي الْهَيْئَةِ وَالْخَلْقَةِ، وَالتَّشْبِيهَ لَا يَقْتَضِي الْعُمُومَ، فَمَا مَعْنَى تَسْمِيَّتِهِمْ تَشْبِيهَ الْمَرَأَةِ بِالْأُمِّ مُنْكَراً وَزُوراً.

وَإِشْكَالٌ آخَرُ: أَنَّهُ قَدْ سَمَى اللَّهُ تَعَالَى غَيْرَ الْأُمَمَاتِ اللَّائِي وَلَئِنْ هُنَّ أُمَمَاتٍ لَهُمْ؛ فَإِنَّهُ قَالَ فِي نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَرَضِيَ عَنْهُمْ: ﴿وَأَزْوَاجَهُنَّ أَهْنِيهِنَّ﴾ [الْأَحْزَابُ: ٦]. وَقَالَ فِي النِّسَاءِ اللَّائِي يَرْضَعْنَ أَوْلَادَ الْغَيْرِ: ﴿وَأَهْنِيكُمْ إِلَيْهِ أَرْضَعْتَكُمْ﴾ [النِّسَاءُ: ٢٣] وَلَمْ يَلِدْنَهُنَّ.

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧ / ٩٧ و ٩٨. (٢) الغاء ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) و (٦) في الأصل وم: إنهن. (٧) في الأصل وم: عليه. (٨) في الأصل وم: ذلك قولهم. (٩) في الأصل وم: لعلها فإن.

فنقول، وبالله التوفيق: إنهم كانوا يريدون أن يُوجِبوا في نِسائِهِمْ حقوقاً وأحكاماً ما كانت في أمهاتِهِمْ، لم يكن لهم إيجاب ذلك؛ فإنهم كانوا يُشَبِّهون النساء بالأمهات، ولم يريدوا بذلك التشبيه من حيث الصورة أو الخلقة، ولكن يُريدون^(١) بذلك التشبيه [التشبيه]^(٢) في الحرمة.

وحُرْمَةُ النساء في الأصل غير حرمة الأمهات؛ فإن الأم حرام الاستمتاع بها على التأييد، لكن يُباح للرجل أن يدخل على أمِّه، ويخدمها، ويسافر بها، ويُباح [له]^(٣) النظر والمَسُّ والإركاب والإنزال والخلوة بها والمقام معها. والمرأة متى حُرِّمت بالطلاق بالثلاث أو بالبينونة لا يثبت شيء من هذه الحقوق.

والمُشَابَهَةُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، إن كانت لا تقتضي التساوي بينهما من كل وجه، ولكن تقتضي المساواة بينهما في وجه من الوجوه على الكمال، فإن الذات في الشاهد إذا قام به العلم يُسمى عالماً، والله تعالى يُسمى عالماً، ولا يوجب التشبيه لانعدام الثماني بين العالمين والتساوي من كل وجه، فلم يعد مُشابهاً، تعالى الله عن ذلك. فدل أن هؤلاء يشبههم النساء بأمهاتِهِمْ أرادوا أن يجعلوا حرمة نِسائِهِمْ كحرمة أمهاتِهِمْ، ويوجبون فيهن حقوقاً وأحكاماً كحقوقهن وأحكامهن حتى يُباح لهن المعاملة مع نِسائِهِمْ ما يُباح مع أمهاتِهِمْ، ويحرم ما يحرم معهن، ويكون اختيارهن كاختيارهن، والله تعالى لم يجعل ذلك، ونهاهن عن ذلك، فقال: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي كأمهاتِهِمْ في هذه الحرمة التي يريدون إثباتها.

وإنه لم يجعل لنِسائِهِمْ حرمة أمهاتِهِمْ اللاتي وَلَدْنَهُمْ، فما بالهن يختارن من أنفسهن شيئاً لم أجعله، ولم أشرعه؟ فردَّ صَنِيعَهُمْ بهذا.

وعلى هذا يُخرِّج تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَيْتُمْ لَيَقُولُنَّ مَنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ إنما كذبهم بما قالوا من إيجاب تلك الحقوق والأحكام على أنفسهم في نِسائِهِمْ من غير أن جعل الله تعالى ذلك؛ أي ﴿وَلَيْتُمْ لَيَقُولُنَّ مَنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ في إيجاب الحقوق فيهن كما في الأمهات وتشبيههم أياهن بالأمهات في الأحكام والحقوق والحرمة، وإن كان كلامهم وقولهم من حيث ظاهر التشبيه ليس بمُنْكَرٍ ولا يزور.

وهذا كقوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وهؤلاء المنافقون في ما قالوا في الظاهر كانوا صدقة، ولكن لما كان قصدهم غير ذلك، وكان في قلوبهم إيجاب شيء غير ما أظهروا / ٥٥٤ - ب/ أسماهم كذبة، فكذلك هؤلاء المظاهرون لما أرادوا إيجاب حكم لم يجعل لهم ذلك سَمَّى قولهم مُنْكَرًا وَزُورًا.

والمُنْكَرُ هو الذي لا يُعرف في الشريعة، والزور هو الكذب، فنهاهم الله تعالى عن ذلك.

وأما قولهم: إن الله تعالى قد سَمَّى غير اللاتي يلدنهن أمهات من نساء النبي ﷺ والمُرضعات، منهم من قال: جائز أن تكون هذه الآية مُتَقَدِّمة على قوله: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] وقوله^(٤): ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فلم يكن في ذلك الوقت أمهات من رضاع، ثم كانت من بعد، فيكون الإخبار بهذا مُقَيِّداً بذلك الوقت، وهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَعْلَمُ فِي مَا أَوْحَى إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ [الأنعام: ١٤٥] لم يجد في ذلك الوقت، ثم وجد من بعد ذلك غيره مُحَرَّمًا. فعلى ذلك هذا.

وقيل: يَحْتَمِلُ أن يكون قال ذلك في قوم خاص وقبيلة خاصة، لم يكن لهم أمهات من إرضاع، فيكون الإخبار أن أمهاتِهِمْ ليست إلا اللاتي يلدنهن صِدْقًا.

ولكن هذا تكلف لأن قوله: ﴿إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ إِلَّا اللَّاتِي وَلَدْنَهُنَّ﴾ أي إن هذه الحقوق والأحكام التي يوجبون ليست تثبت إلا في الأمهات اللاتي يلدنهن، أو من كانت في معنهن، وصرح أمثالهن شرعاً، يجعلهن^(٥) الله تعالى كأزواج النبي ﷺ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ومن قوله. (٤) في الأصل وم: يجعلهن. (٥) في الأصل وم: يجعل.

والأُمّهات بسبب الرضاع، والله تعالى لم يجعلَ لِنِسائِهِم تلكَ الحقوقَ، ولا الحَقُّهُنَّ بالأُمّهاتِ، فيكونَ تشبيهُهُنَّ بهُنَّ في هذه الحقوقِ مُنْكَرًا مِنَ القولِ وزُورًا، والله أعلمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ اللَّهُ لِمَنُّوْهُ عَفُوْرٌ﴾.

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ يُظَاهِرُوْنَ مِنْ نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُوْدُوْنَ لِمَا قَالُوْا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾ اخْتَلَفَ فِي حُكْمِ الظَّهَارِ مَا هُوَ؟ وَفِي تَأْوِيلِ الْعَوْدِ:

عَنْ طَاوُوسٍ قَوْلَانِ: فِي قَوْلِ: قَالَ: ﴿ثُمَّ يَعُوْدُوْنَ لِمَا قَالُوْا﴾ الْوَطْءُ، فَإِذَا خِيفَ عَلَيْهِ الْكُفَّارَةُ، وَهَذَا تَأْوِيلٌ بَعِيدٌ مُخَالَفٌ لِلنَّصِّ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾ وَإِنَّمَا الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ حُكْمُ الْإِبْلَاءِ أَنَّهُ إِذَا وَطِئَ تَجِبَ الْكُفَّارَةُ، فَأَمَّا فِي الظَّهَارِ فَتَجِبُ الْكُفَّارَةُ قَبْلَ الْوَطْءِ. وَفِي [قَوْلِ: قَالَ^(١)] إِذَا تَكَلَّمَ بِالظَّهَارِ، تَجِبُ عَلَيْهِ الْكُفَّارَةُ، وَلَمْ يُشْتَرَطْ مَعَهَا^(٢) عَلَيْهِ شَيْءٌ آخَرُ.

وَعَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ إِذَا ظَاهَرَ مِنْ أَمْرَاتِهِ، ثُمَّ أَجْمَعَ، وَعَزَمَ عَلَى إِمْسَاكِهَا وَإِصَابَتِهَا، وَخِيفَ، عَلَيْهِ الْكُفَّارَةُ، حَتَّى إِذَا طَلَّقَهَا، أَوْ مَاتَتِ الْمَرْأَةُ بَعْدَ الْعَزْمِ عَلَى الْإِمْسَاكِ وَالْإِصَابَةِ أَوْ بَعْدَ الْإِصَابَةِ بَقِيَ وَجُوبُ الْكُفَّارَةِ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يُجْمَعْ عَلَى إِمْسَاكِهَا حَتَّى مَاتَتْ، تَسْقُطُ الْكُفَّارَةُ، وَكَذَلِكَ إِذَا طَلَّقَهَا.

لَكِنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَهَا بَعْدَ ذَلِكَ، لَمْ يُنْسِكُهَا حَتَّى يُكْفَرَ، فَيَكُونُ الْعَوْدُ، هُوَ إِمْسَاكُهَا^(٣) لِيَطَّأَهَا.

وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّ الْعَوْدَ، هُوَ الْعَزْمُ عَلَى الْجَمَاعِ، حَتَّى إِذَا عَزَمَ عَلَى جَمَاعِهَا تَجِبُ الْكُفَّارَةُ، وَإِنْ أَرَادَ تَرْكَهَا بَعْدَ ذَلِكَ. وَقَالَ عِثْمَانُ النَّبِيُّ فِي مَنْ ظَاهَرَ مِنْ أَمْرَاتِهِ، ثُمَّ طَلَّقَهَا قَبْلَ أَنْ يَطَّأَهَا، قَالَ: أَرَى عَلَيْهِ الْكُفَّارَةَ، رَاجِعَهَا، أَوْ لَمْ يَرَا جَمْعَهَا، وَإِنْ مَاتَتْ لَمْ يَرْتَفِعِ الظَّهَارُ وَالْكَفَّارَةُ، وَلَا يَرِثُ حَتَّى يُكْفَرَ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: الْعَوْدُ، هُوَ الْإِمْسَاكُ، وَالْكَفَّارَةُ تَجِبُ بِهِ، وَحُكْمُ الظَّهَارِ، وَهُوَ تَحْرِيمُ الْمُتَعَةِ، حَتَّى إِذَا أَمْسَكَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا بَعْدَ الظَّهَارِ، وَلَمْ يُطَلِّقْ، وَأَمْسَكَهَا سَاعَةً لِيَطَّأَهَا فَقَدْ وَجِبَتْ عَلَيْهِ الْكُفَّارَةُ، عَاشَتْ [أَوْ مَاتَتْ، وَإِذَا عَاشَتْ^(٤)] طَلَّقَهَا، أَوْ لَمْ يُطَلِّقَهَا، رَاجِعَهَا أَوْ لَمْ^(٥) وَإِذَا طَلَّقَهَا عَقِيبَ الظَّهَارِ بِلَا فَضْلِ، يُبْطِلُ الظَّهَارَ، وَلَا تَجِبُ الْكُفَّارَةُ إِلَّا بِعَزْمِ إِمْسَاكِ الْمَرْأَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَعُوْدُوْنَ لِمَا قَالُوْا﴾ أَيَّ يَعُوْدُونَ إِلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ، فَيُكْرَرُونَ ذَلِكَ الْقَوْلَ، وَعِنْدَهُمْ لَا يَكُونُ الرَّجُلُ مُظَاهِرًا حَتَّى يَقُولَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهَرِ أُمِّي مَرَّتَيْنِ.

وَأَمَّا عِنْدَنَا فَحُكْمُ الظَّهَارِ، هُوَ تَحْرِيمُ مُؤَقَّتٍ بِالْكَفَّارَةِ، وَلَا يَرْفَعُهُ^(٦) إِلَّا الْكُفَّارَةُ. هَكَذَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: إِذَا قَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهَرِ أُمِّي لَا^(٧) تَحِلُّ لَهُ حَتَّى يُكْفَرَ.

وَعِنْدَنَا لَا تَجِبُ الْكُفَّارَةُ بِنَفْسِ الظَّهَارِ، وَإِنَّمَا الظَّهَارُ يُوجِبُ الْحُرْمَةَ، لَا غَيْرُ، وَإِنَّمَا تَجِبُ [الْكَفَّارَةُ]^(٨) بِالْعَوْدِ، حَتَّى إِنَّمَا إِذَا مَاتَتْ لَا تَجِبُ عَلَيْهِ الْكُفَّارَةُ إِذْ ارْتَفَعَ الْمَعْنَى الَّذِي يُوجِبُ^(٩)، وَهُوَ اسْتِیَاحَةُ الْوَطْءِ، وَكَذَلِكَ إِذَا طَلَّقَهَا بَاتِنًا أَوْ ثَلَاثًا لَا تَجِبُ الْكُفَّارَةُ لِهَذَا. حَتَّى إِذَا عَادَتْ إِلَيْهِ بِالتَّزْوِجِ، وَأَقْدَمَ عَلَى اسْتِیَاحَةِ الْوَطْءِ، تَجِبُ الْكُفَّارَةُ.

وَهُوَ عِنْدَ أَصْحَابِنَا أَنْ يَجْعَلَ الْمَرْأَةَ عَلَى الْحَالَةِ الْأَوَّلَى، وَيُحِلِّلَهَا عَلَى نَفْسِهِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، وَيَسْتَبِيحُ وَطَّاءَهَا. فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُحِلِّلَهَا عَلَى نَفْسِهِ، وَيَسْتَبِيحَهَا، وَيُقَدِّمُ عَلَيْهِ [يَجِبُ عَلَيْهِ]^(١٠) أَنْ يُكْفَرَ.

وَلَا تَزُولُ الْحُرْمَةُ عِنْدَنَا إِلَّا بِالْكَفَّارَةِ؛ فَالتَّكْفِيرُ سَبَبُ الْحِلِّ. كَذَا ذَكَرَ الْعَمِّيُّ فِي تَأْوِيلِ ﴿ثُمَّ يَعُوْدُوْنَ لِمَا قَالُوْا﴾ أَيَّ يَعُوْدُونَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مَعَهُ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْإِصَابَةُ بَقِيَ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: لَا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرْفَعُهَا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمْ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَجِبُ. (١٠) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

يَفْسُخَ مَا قَالُوا وَتَقْضِ ذَلِكَ، وَاسْتَدَلَّ بِمَا ذُكِرَ عَنِ الْأَصْمَعِيِّ أَنَّ أَعْرَابِيًّا تَكَلَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِأَنَّهُ كَانَ شَيْءٌ بَيْنَنَا^(١)، ثُمَّ نَعُودُ إِلَيْهِ، قَالَ لَهُ الْأَصْمَعِيُّ: مَا أَرَدْتَ بِهَذَا؟ فَقَالَ: أَنْ^(٢) أَنْقَضَهُ، وَأَفْسَحَهُ.

فهذا يدل على أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ [أَنْ يَعُودُوا]^(٣) إِلَى اسْتِحْلَالِ مَا حَرَّمَوا [وَيَنْقُضُوا ذَلِكَ، وَيَرُدُّوا]^(٤) الْجُلَّ إِلَى الْحَالَةِ الْأُولَى، إِلَّا أَنَّ ظَاهِرَهُ الْعَوْدُ إِلَى الْقَوْلِ بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾.

ولكن أَرَادَ بِهِ الْمَقُولَ بِهِ وَالثَّابِتُ بِهِ، وَهُوَ الْحَرَمَةُ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا حَرَّمَوا بِالْقَوْلِ، فَيَسْتَبِيحُونَهُ. وَيَجُوزُ أَنْ يُذَكَّرَ الْفِعْلُ، وَيُرَادَ بِهِ الْمَقْعُولُ كَقَوْلِهِ ﷺ: «الْعَائِدُ فِي هَيْبَةِ كَالْكَلْبِ يَعُودُ فِي هَيْبِهِ» [البخاري ٢٦٢١]. وَإِنَّمَا هُوَ عَائِدٌ فِي الْمَوْهَبِ وَقَوْلِ^(٥) اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أَيِ الْمَوْقِفِ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فإن قيل: الْعَوْدُ الَّذِي تَجِبُ [بِهِ]^(٦) الْكُفَّارَةُ، هُوَ الْعَزْمُ عَلَى اسْتِباحَةِ الْوُطْءِ وَالْقَضْدِ عَلَى تَحْلِيلِهَا عَلَى نَفْسِهِ وَإِعَادَةُ الْجُلَّ إِلَى الْحَالَةِ الْأُولَى، ثُمَّ الْإِقْدَامُ عَلَى الْوُطْءِ أَوْ مُبَاشَرَةُ نَفْسِ الْوُطْءِ.

فإن كَانَ الْمُرَادُ، هُوَ الْأَوَّلُ، فَيَجِبُ أَنْ يَقُولُوا: تَوَجَّبَ الْكُفَّارَةُ بِنَفْسِ الْعَزْمِ عَلَى الْإِسْتِباحَةِ وَالتَّحْلِيلِ كَمَا قَالَ مَالِكٌ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَالْحَسَنُ: رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ.

وإن كَانَ الْمُرَادُ لِيَقَاعِ الْوُطْءِ فَيَجِبُ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّهُ لَا تَجِبُ الْكُفَّارَةُ إِلَّا بَعْدَ الْوُطْءِ كَمَا قَالَهُ قَوْمٌ، وَهُوَ خِلَافُ الْآيَةِ وَخِلَافُ قَوْلِكُمْ.

قيل: يعني بذلك أَنَّهُ^(٧) الْإِقْدَامُ عَلَى اسْتِباحَةِ الْوُطْءِ وَالْإِسْتِغَالِ بِإِقَامَتِهِ، فَيَقْدَمُ التَّكْفِيرُ، ثُمَّ يَفْعَلُهُ. أَمَّا لَا يَجِبُ بِمُجَرَّدِ الْعَزْمِ وَلَا بَعْدَ تَحَقُّقِ الْفِعْلِ، وَهَذَا لِأَنَّهُ إِذَا ظَاهَرَ حُرْمَتِ الْمَرَأَةِ عَلَيْهِ بِسَبَبٍ فَعَلِهِ يَجِبُ عَلَيْهِ تَوْفِيرُ حَقِّهَا فِي الْجَمَاعِ إِنْ كَانَتْ يَكْرَأُ فِي الْحُكْمِ حَتَّى يُجَبَّرَ عَلَيْهِ^(٨).

وإن كَانَتْ نِكَبًا، وَقَدْ وَطَّئَهَا مَرَّةً، فَيَجِبُ عَلَيْهِ فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى لِيَصَالَ ذَلِكَ إِلَيْهَا.

وعند بعض أصحابنا يُجَبَّرُ فِي الْحُكْمِ أَيْضًا عَلَى ذَلِكَ. فإِذَا أَقْدَمَ عَلَى ذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْهِ تَخْصِيلُ الْكُفَّارَةِ لِيَتَوَصَّلَ إِلَى إِقَامَةِ ذَلِكَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ مِنَ الْجَمَاعِ؛ إِذْ لَا يَجِلُّ ذَلِكَ بِدُونِ الْكُفَّارَةِ.

وهذا كالوضوء فِي بَابِ الصَّلَاةِ؛ لَيْسَ بِفَرْضٍ مَقْصُودٍ بِنَفْسِهِ. لَكِنْ يَجِبُ لِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ؛ إِذْ لَا تَجُوزُ الصَّلَاةُ بِدُونِ الطَّهَارَةِ. فإِذَا أَقْدَمَ عَلَى الصَّلَاةِ يَجِبُ / ٥٥٥ - أ / عَلَيْهِ تَخْصِيلُ الْوُضُوءِ لِيَتِمَّكَنَ مِنْ أَدَاءِ مَا عَلَيْهِ، وَلَا يَجِبُ بِنَفْسِ الْإِرَادَةِ، وَلَا يَجِبُ بِنَفْسِ الْحَدِيثِ، حَتَّى يَجِبَ الْوُضُوءُ مَا لَمْ يَدْخُلْ وَقْتُ الصَّلَاةِ، وَيَقُمُ^(٩) إِلَيْهَا.

وكذلك الْمَرَأَةُ إِذَا حَاضَتْ بَعْدَ الْوَقْتِ حَتَّى سَقَطَتْ عَنْهَا الصَّلَاةُ يَسْقُطُ الْوُضُوءُ.

فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا يَجِبُ عِنْدَ الْإِقْدَامِ عَلَى إِقَامَةِ هَذَا الْوَاجِبِ، وَهُوَ الْوُطْءُ، وَالظَّهَارُ شَرْطٌ. وَلِهَذَا إِذَا مَاتَتِ الْمَرَأَةُ تَسْقُطُ الْكُفَّارَةُ لِانْقِضَائِهِ مَا هُوَ الْمَقْصُودُ بِالْإِقَامَةِ، وَهُوَ الْوُطْءُ. وَكَذَلِكَ إِذَا طَلَّقَهَا ثَلَاثًا أَوْ بَاطِنًا. لَكِنْ إِذَا عَادَتْ إِلَيْهِ تَلَزَمَتْ الْكُفَّارَةُ إِذَا أَقْدَمَ عَلَى الْوُطْءِ، وَلَمْ يَبْطُلِ الظَّهَارُ لِإِحْتِمَالِ حُصُولِ الْعَوْدِ^(١٠)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ الْآيَةُ هَذَا خَبَرٌ عَنْ ظَهَارِ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا يُظَاهِرُونَ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ، أَيِ ظَاهَرُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أَيِ لَوْ قَالُوا ذَلِكَ الْقَوْلَ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ فَعَلَيْهِمْ مَا ذَكَرَ، إِذِ الظَّهَارُ كَانَ ظَاهِرًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، مَنْ عَادَ إِلَى ذَلِكَ الْقَوْلِ، وَرَجَعَ إِلَيْهِ وَقْتُ إِسْلَامِهِ، فَعَلَيْهِ مَا ذَكَرَ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِنَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَي. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَي يَعُودُونَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَنْقُضُونَ ذَلِكَ وَيَرُدُّونَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (٨) أُدْرِجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: وَهَذَا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَقُومُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: الْعَرَضُ.

فهذا يَرْجِعُ إلى فِعْلٍ ذَلِكَ مَرَّةً وإلى اسْتِخْلَالٍ ما حَرَّمَ اللهُ ثانياً، وإنَّ عادَ إلى الفِعْلِ الأوَّلِ لا مِنْ وَجْهِ الاسْتِخْلَالِ، فَيَتَّقِمُ اللهُ مِنْهُ بِالْغَرَامَةِ عَلَيْهِ. وإنَّ عادَ إلى الاسْتِخْلَالِ فَيَتَّقِمُ اللهُ مِنْهُ بِالْعَذَابِ.

وكذلك ومثْلُ هذا في آيَةِ الرَّبَا حِينَ^(١) قَالَ: ﴿وَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] أي عادَ إلى ما كَانَ يَفْعَلُهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، فكذلك هذا العَوْدُ إلى الظَّهَارِ.

على هذا التَّفْهِيمِ يُخَرِّجُ تَأْوِيلُ الْآيَةِ عِنْدَنَا^(٢)، وهو كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَمُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٨] أي كانوا يَتَنَاجَوْنَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَهَاهُمْ اللهُ تَعَالَى عَنِ الْعَوْدِ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ. فَعَلَى ذَلِكَ يَحْتَمِلُ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

لكن على هذا التَّأْوِيلِ الْإِقْدَامُ عَلَى الْوِطْءِ سَبَبٌ لِيُوجِبَ الْكَفَّارَةَ لَمْ يَبْثُ بِهَذَا النَّصِّ. إِنَّمَا فِيهِ أَنَّ الظَّهَارَ يُوْجِبُ تَحْرِيمًا مُؤَقَّتًا بِالْكَفَّارَةِ. وكذلك الأحاديثُ الَّتِي ذَكَرْنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ أَوْسًا بِالْكَفَّارَةِ حِينَ ظَاهَرَ مِنْ زَوْجِهِ^(٣)، وَإِنَّمَا يُعْرَفُ مِنْ حَيْثُ الدَّلَالَةُ، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ التَّحْرِيمُ مُؤَقَّتًا بِالْكَفَّارَةِ، وَتَكُونُ رَافِعَةً لَهُ، فَإِنَّمَا يَجِبُ الرُّفْعُ بِالْإِقْدَامِ عَلَيْهِ لَا بِسَبَبٍ سَابِقٍ مُوجِبٍ لِلتَّحْرِيمِ، لِأَنَّ رَافِعَ الْحُرْمَةِ [لَا يَجِبُ]^(٤) فِي مَا يُوْجِبُ الْحُرْمَةَ كَمَا ذَكَرْنَا فِي الرُّضْوَةِ أَنَّهُ لَا يَجِبُ مَا يَخْدُثُ الَّذِي هُوَ رَافِعٌ لِلطَّهَارَةِ، وَلَكِنْ لِمَا يُوجِبُ عَلَى الْمُكَلِّفِ الصَّلَاةَ بِالطَّهَارَةِ، وَيَجِبُ عَلَيْهِ الرُّضْوَةُ بِالْإِقْدَامِ عَلَى الصَّلَاةِ الَّتِي لَا تَجُوزُ بِدُونِهِ. فَكَذَلِكَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقَوْلُ مَنْ جَعَلَ الْعَوْدَ، هُوَ الْعَزْمُ عَلَى إِمْسَاكِ النِّكَاحِ وَالْبَقَاءِ عَلَيْهِ، فَاسِدٌ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْجَبَ الْكَفَّارَةَ عَلَى أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ حِينَ ظَاهَرَ مِنْ زَوْجِهِ^(٥)، وَلَمْ يَسْأَلْهُ الْإِمْسَاكُ وَالْبَقَاءُ عَلَى النِّكَاحِ، وَلِأَنَّ تَفْسِيرَ الْعَوْدِ الْإِمْسَاكُ لَا يَسْتَقِيمُ، لِأَنَّهُ لَمْ يُعْرَفْ فِي الْأَصْلِ إِمْسَاكُ الْمَرْأَةِ عَوْدًا عَلَيْهَا وَلَا إِمْسَاكُ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ يَتَكَلَّمُ بِالْعَوْدِ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ هَذَا خِلَافَ اللَّغَةِ.

وَلِمَا ذَكَرْنَا [أَنَّ الْعَوْدَ]^(٦) إِلَى الشَّيْءِ، هُوَ الرَّجُوعُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فَيَقْتَضِي انْعِدَامَهُ وَزَوَالَهُ حَتَّى يَتَحَقَّقَ الْعَوْدُ؛ إِذِ الْعَوْدُ، هُوَ وَجُودُ ثَانٍ. وَهَذَا إِنَّمَا يَتَحَقَّقُ فِي مَا قُلْنَا مِنَ الْجَزَاءِ لِأَنَّهُ قَدْ يُبْدَلُ بِالْحُرْمَةِ.

فَأَمَّا الْعَقْدُ [فَإِنَّهُ]^(٧) قَائِمٌ، لَمْ يَزَلْ بِالظَّهَارِ، فَكَيْفَ يَعُودُ إِلَى الْعَقْدِ، فَلَا يَكُونُ الْبَقَاءُ عَلَى الْعَقْدِ وَإِمْسَاكُ الْمَرْأَةِ بِالنِّكَاحِ عَوْدًا؟ وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ وَ﴿ثُمَّ يَتَرَاجِعُونَ﴾. فَيَقْتَضِي التَّرَاجُعُ.

وَمَنْ جَعَلَ الْعَوْدَ، هُوَ الْإِمْسَاكُ وَالْبَقَاءُ عَلَى النِّكَاحِ، فَقَدْ جَعَلَهُ عَائِدًا عَقِيبَ الْقَوْلِ بِلَا تَرَاخٍ، وَذَلِكَ خِلَافُ ظَاهِرِ الْآيَةِ.

وقَوْلُ مَنْ جَعَلَ الْعَوْدَ، هُوَ الْعَزِيمَةُ عَلَى الْوِطْءِ، فَلَا مَعْنَى لَهُ، لِأَنَّ مُوجِبَ الظَّهَارِ، هُوَ تَحْرِيمُ الْوِطْءِ لَا تَحْرِيمُ الْعَزْمِ عَلَى الْوِطْءِ، وَإِنْ كَانَتْ الْعَزِيمَةُ عَلَى الْمَحْظُورِ مَحْظُورَةً لِكُونِهِ وَسِيلَةً إِلَى الْمَحْظُورِ، فَيَكُونُ الْعَوْدُ، هُوَ الرَّجُوعُ إِلَى مَا يَقْوَى بِهِ مَقْصُودًا لَا وَسِيلَةً إِلَى حَسَبِ الْأَوَّلِ، وَلِأَنَّهُ لَا حَظَّ لِلْعَزِيمَةِ فِي حَقِّ تَعَلُّقِ الْأَحْكَامِ فِي سَائِرِ الْأَصُولِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ سَائِرَ الْعُقُودِ وَالتَّحْرِيمِ لَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَزِيمَةِ، فَلَا اغْتِيَابَ بِهَا، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَفَا عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ نَفْسَهَا: مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا بِهِ، وَيَتَعَمَّلُوا؟» [الطحاوي في شرح مشكل الآثار ١٦٣٦].

وقَوْلُ مَنْ جَعَلَ الْعَوْدَ تَكَرُّرَ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ فَاسِدٌ أَيْضًا، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ يَحْتَمِلُ، وَهُوَ الْعَوْدُ إِلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ لِأَنَّهُ خِلَافُ الْإِجْمَاعِ وَخِلَافُ أَصُولِ الشَّرْعِ.

أَمَّا خِلَافُ الْإِجْمَاعِ فَإِنَّ السَّلَفَ وَالْخَلَفَ أَجْمَعُوا أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِوَارِدٍ^(٨) عَنِ الْأئِمَّةِ، فَيَكُونُ قَائِلُهُ خَارِجًا عَنِ الْإِجْمَاعِ. وَأَمَّا مُخَالَفَةُ الْأَصُولِ فَلِأَنَّ الْجِلَّ وَالْحُرْمَةَ إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ وَجُوبُهُمَا بِإِبْدَاءِ الْقَوْلِ [لَا]^(٩) بِتَكَرُّرِهِ فِي جَمِيعِ الْأَصُولِ مِنَ الْبَيَانِ عِدَا النِّكَاحِ وَالطَّلَاقِ وَالْعِتَاقِ وَالْإِجَارَاتِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ: عِنْدَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ: زَوْجِهَا. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ: زَوْجِهَا.

(٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْ: (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْ: (٨) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ: بِمَرَادٍ. (٩) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْ:

فلما كَانَ الْأَصْلُ هَذَا فِي سَائِرِ الْأَسْبَابِ، وَالْمُظَاهِرُ يوجبُ الْحَرَمَةَ بِقَوْلِهِ، دَلٌّ أَنَّ الْمَوْجِبَ هُوَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ دُونَ الثَّانِي، فَيَكُونُ تَعْلِيلُ الْحَرَمَةِ بِتَكَرُّارِ الْمَوْجِبِ مُخَالَفَةً لِسَائِرِ الْأَصُولِ.

وبهذا يَبْطُلُ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ فِي أَنَّهُ يُعْلَقُ الْحَرَمَةُ بِتَكَرُّارِ الرُّضْعَاتِ لَا بِرُضْعَةٍ وَاحِدَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَلَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِالْكَفَّارَةِ فِي حَقِّ أَوْسٍ، وَلَمْ يَسْأَلْهُ عَنْ تَكَرُّارِ الْقَوْلِ، وَلَمَّا لَمْ يَسْأَلْ ذَلِكَ أَنَّ الْحُكْمَ غَيْرُ مُتَعَلِّقٍ بِالتَّكَرُّارِ.

وَمَا قَالَهُ الشَّافِعِيُّ: إِنَّهُ إِذَا طَلَّقَهَا بَعْدَ الظَّهَارِ بِلَا فَضْلِ فَلَا كَفَّارَةَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَبِثَ سَاعَةً، ثُمَّ طَلَّقَهَا، كَفَّرَ؛ رَاجِعَهَا، أَوْ لَمْ يُرَاجِعَهَا، أَوْ مَاتَتْ، قَوْلٌ تَفَرَّدَ بِهِ، لِأَنَّ طَاوُوساً أَوْجَبَ عَلَيْهِ الْكَفَّارَةَ طَلَّقَهَا، أَوْ أَمْسَكَهَا، وَسَائِرُ التَّابِعِينَ قَالُوا: إِنْ مَاتَتْ، أَوْ طَلَّقَهَا، وَلَمْ يُرَاجِعَهَا، فَلَا كَفَّارَةَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَفْصِلُوا بَيْنَ أَنْ يُطَلِّقَهَا عَلَى إِثْرِ [الظَّهَارِ بَائٍ] ^(١) فَضْلٍ أَوْ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَاعَةٍ، فَيَكُونُ الشَّافِعِيُّ بِهَذَا الْقَوْلِ مُخَالَفًا لِلْسَّلَفِ فَلَا يُعْتَبَرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿مَنْحَرِيذٌ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَأَ﴾ ظَاهِرُهُ أَنْ يَكُونَ الْوِطْءُ مَخْطُوراً عَلَيْهِ قَبْلَ الْكَفَّارَةِ لِأَنَّهُ جَعَلَ الْحَرَمَةَ مُؤَقَّتَةً بِالْكَفَّارَةِ، وَإِذَا وَطِئَ يَسْفُطُ الظَّهَارَ وَالْكَفَّارَةَ لِأَنَّ كِلَاهُمَا تَعَلَّقَ بِشَرْطٍ أَوْ بِوَقْتٍ، فَمَتَى فَاتَ الْوَقْتُ، أَوْ عُدِمَ الشَّرْطُ، لَمْ تَجِبْ لَذَلِكَ النَّصُّ، وَاجْتِيَاجٌ إِلَى دَلَالَةٍ أُخْرَى فِي إِيْجَابِ مِثْلِهِ فِي الْوَقْتِ الثَّانِي.

إِلَّا أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَجُلًا ظَاهَرَ مِنْ أَمْرَاتِهِ، فَوَطَّئَهَا، ثُمَّ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لَهُ: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ، وَلَا تَعُدْ حَتَّى تُكْفَرَ، فَصَارَ التَّحْرِيمُ الَّذِي بَعْدَ الْوِطْءِ، عَرَفْنَاهُ بِالسَّفْوِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿مَنْحَرِيذٌ رَقَبَةٍ﴾ يَرْجِعُ إِلَى وَجْهَيْنِ: مَرَّةً إِلَى اسْمِ الرَّقَبَةِ وَمَرَّةً بِمَا يَسْتَحِقُّ حُكْمَ الرَّقَبَةِ؛ فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ ذِكْرِ الرَّقَبَةِ اسْمُ الرَّقَبَةِ نَفْسِهَا. فَيَجِيءُ أَنْ يَجُوزَ كُلُّ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الرَّقَبَةِ صَغِيراً كَانَ، أَوْ كَبِيراً، كَافِراً أَوْ مُسْلِماً، مَقْطُوعَ الرَّجْلَيْنِ، أَوْ أَعْمَى، أَوْ كَيْفَ مَا كَانَ.

وَيُشِيرُ الْمُرْسِيُّ يَذْهَبُ إِلَى هَذَا، وَيُخْبِرُ: كَيْفَ مَا كَانَتْ الرَّقَبَةُ.

وَأِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ ذِكْرِ الرَّقَبَةِ / ٥٥٥ - ب/ مَا يَسْتَحِقُّ حُكْمَ الرَّقَبَةِ، فَيَجِيءُ أَلَّا يَجُوزَ إِعْتَاقُ رَقَبَةٍ، فِيهَا أَذْنَى نُقْصَانٍ؛ إِذِ الْأَصْلُ فِي الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ فِي مَا دُونَ النَّفْسِ [لَا] ^(٢) يوجبُ نُقْصَاناً فِي كُلِّ نَفْسٍ، فَيَجِيءُ أَلَّا يَجُوزَ أَنْ يَصِيرَ مُعْتَقاً بَعْضُ الرَّقَبَةِ لَا كُلُّهَا.

ثُمَّ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ النُّقْصَانَ الْحَالَّ فِي مَا دُونَ النَّفْسِ فِي الرِّقَابِ جُعِلَ كَالنُّقْصَانِ الْحَالِّ فِي النَّفْسِ؛ إِذِ الْعَبْدُ إِذَا قُطِعَتْ يَدُهُ، أَوْ فُتِنَتْ عَيْنُهُ، يُشْتَرَى بِنِصْفِ مَا كَانَ يُشْتَرَى وَفَتْ [قِيَام] ^(٣) الْقِيَمَةِ، فَصَارَ النُّقْصَانُ فِي مَا دُونَ النَّفْسِ كَتَلْفٍ يَصِيفُ الْقِيَمَةَ عَلَى الْعَبْدِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ النُّصْفَ، فَتَجِيءُ عَلَى هَذَا أَلَّا يَجُوزَ، إِذَا كَانَ فِيهِ أَذْنَى النُّقْصَانِ؛ إِذِ الْحُكْمُ فِي مَا دُونَ النَّفْسِ فِي الْعَبِيدِ حُكْمٌ لَا نَفْسٍ، وَحُكْمُ الْجَنَائِيَةِ عَلَيْهِمْ مَحْمُولٌ عَلَى حُكْمِ كَمَالِ النَّفْسِ.

لَكِنْ هَذَانِ التَّأْوِيلَانِ فِي الْآيَةِ لَا يَصِحَّانِ..

وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ الْفَضْلِ الثَّانِي [فَهُوَ] ^(٤) أَنَّ النُّقْصَانَ الْحَالَّ فِي بَعْضِ الرَّقَبَةِ كَالْحَالِّ فِي كُلِّهَا [وَأَنَّ] ^(٥) ذَلِكَ النُّقْصَانَ يَرْتَفِعُ بِالْعِتْقِ، وَإِنْ كَانَ وَفَتْ قِيَامُ الرِّقِّ بِحُكْمِ النُّقْصَانِ لِمَا يَصِيرُ رَقَبَةً لَهُ حُكْمُ الْكَمَالِ بِالْعِتْقِ؛ إِذَا صَارَ هُوَ مُتَّعِماً بِالْعِتْقِ، إِذِ الْعِتْقُ؛ إِذَا صَارَ هُوَ مُتَّعِماً بِالْعِتْقِ؛ إِذِ الْعِتْقُ جَبَرُ النُّقْصَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ، فَتَسَلَّمَ لَهُ الرَّقَبَةُ كَامِلَةٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، فَيَجُوزُ كَمَا إِذَا أُعْتِقَ الرَّقَبَةُ السَّليمة.

وَالدَّلِيلُ أَنَّهُ لَوْ جِيءَ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا عَتَقَ لَمْ يَنْقُصْ مِنْ دِينِهِ شَيْءٌ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ النُّقْصَانُ فِي نَفْسِهِ وَفَتْ الْعُبُودِيَّةُ وَالرِّقُّ، وَثَبَتَ بِهَذَا أَنَّهُ فِي حَقِّ نَفْسِهِ كَامِلُ النَّفْسِ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ النِّقْصُ لِحَقِّ الْمَوْلَى فِي قِيَمَتِهِ وَفَتْ الْعُبُودَةِ؛ إِذْ هُوَ لَوْ كَانَ مَنقُوصاً فِي حَقِّ نَفْسِهِ لَارْتَفَعَ عَنْهُ ذَلِكَ النُّقْصَانُ فِي حُكْمِ الرَّقَبَةِ. دَلٌّ أَنَّ إِعْتَاقَهُ جَائِزٌ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الطَّلَاقُ بِلَا. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ فِي.

والأصل في ما أوجب الله تعالى من هذه الكفارة ليُكَفَّرَ بها ما ارتكب من المآثم ولما ارتكب من الشهوات التي حُظِرَ عليه ارتكابها لِيَتَأَلَّمَ بهذه الكفارة زَجْراً عن العود إليها، أن ينظر في هذه الكفارة. فإن كَفَرَ بشيء، لا تتألم به نفسه، ولا تَفْجَعُ عندها، فلا تجوز تلك الكفارة، وإن كان بالذي يَفْجَعُهُ^(١)، ويؤلمه، فيجوز.

ثم ما يصل إليه من الألم في إعتاق وجهان:

أحدهما: أنه إذا تأمل ذهاب منافع ذلك المملوك عنه بما كان، هو يصلح لخدمته، يتألم لذلك، ويتفجع.

والثاني: لما تأمل منه النفع في العاقبة، وإن لم يكن للحال يتفجع به، فيتألم أيضاً بذهاب تلك المنفعة المؤقتة.

فكل من كان بسبيل^(٢) من هذين الوجهين جاز عتقه عن الكفارة، وإلا فلا، والله أعلم.

ثم لا يجوز إعتاق الأعمى والمقعّد ومقطوع اليدين ونحو ذلك عن الكفارة، ويُخْرِجُ على الكلامين:

أما على الأول فإنه^(٣)، وإن ارتفع النقص الحاصل في نفسه بسبب العبودية عند وجود الإعتاق قائماً لا يجوز لا للتقصان، ولكن لأنه يصير معتقاً يبدل، والإعتاق يبدل لا يجوز عن الكفارة، وإن كانت الرقبة بصفة الكمال.

ومعنى قولنا: إنه يصير معتقاً يبدل أنه ما دام في ملكه على تلك الحال فإن مؤنته تلحقه، وبالإعتاق تسقط مؤنته عن نفسه، وتلحق تلك المؤنة المسلمين، فلم تجز عن الكفارة لهذا.

وأما على الثاني فلا يلزم على الوجهين جميعاً.

أما على الأول فلأنه لا يفجع، ولا تتألم له نفسه بإعتاق مثله لما ليس له منفعة للخدمة، فيتألم لقوته. وعلى الثاني فلما^(٤) ليس له منفعة تؤمل في الحال، فيتألم بذلك أيضاً.

ولا يلزم الصغير على هذا العذر أنه ليس له منفعة الخدمة، ونفقته عليه أيضاً، ومع ذلك يجوز إعتاقه عن التكفير؛ لأننا نقول: إنما ينفق على الصغير لما تؤمل منفعته في العاقبة، والناس إنما يرثون الصغار والصغار؛ وينفقون عليهم لينتفعوا بإيمانها وإعتاقها في العواقب، فلم يصير عتقه من هذا الوجه يبدل، والتألم بعينه موجود.

وحسب ما كان في الكبير أو الأكبر^(٥) والأغور ومقطوع إحدى اليدين أو إحدى الرجلين يجوز عن الكفارة، فإنه يمكنه الإكتساب، فيتألم مولاه بإعتاقه لما فيه ذهاب منفعته، فيصلح أن يكون كفارة لما ارتكب من الشهوة ولما وصفنا من غير ذلك التقصان، وارتفاعه بالعتق، والله أعلم.

وذكر عن الشافعي أنه لا يجزئ عتق الرقبة الكافرة عن الكفارة؛ واحتج بما ذكر الله تعالى في كفارة قتل الرقبة المؤمنة، فكذلك في كفارة الظهار؛ إذ هما كفارتان.

ولكن نحن نقول: هذا على أصل مذهبه [خطأ لأن مذهبه]^(٦) يعم كل رقبة في دار الدنيا.

والأصل في ذلك عندنا أن الله تعالى لم يذكر في كفارة الظهار الرقبة المؤمنة، فلا يجوز أن نوجب ما ذكره في كفارة الضد ههنا.

والدليل عليه أنه ذكر في تلك الآية الأشياء، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٩٢] وذكر الدية، ثم ذكر الدية في آية القتل لم يوجب على المظاهر إذا ترك ذكرها في آية الظهار، ومثله في القرآن كثير.

وأيضاً إن أحق ما يجوز في الكفارة إعتاق الرقبة الكافرة، وذلك لما أن المسلم قد يتألم بإعتاق الرقبة الكافرة ولا

(١) في الأصل وم: يلحقه. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يسأل. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أكثر. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

يَتَأْتُمْ بِإِعْتَاقِ الْمُسْلِمَةِ لِمَا يَأْتِي طَبْعُهُ الْإِحْسَانَ إِلَى الْكَافِرِ، وَلَا يَتَأْتِي بِمَثَلِهِ إِلَى الْمُسْلِمِ، وَقَدْ وَصَفْنَا أَنَّ الْكَفَّارَةَ لِلتَّائِمِ بِإِخْرَاجِ مَا أَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ عَنْ مَلِكِهِ مَعَ مَا فِي الْقُرْآنِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ اضْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ إِلَيْهِمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الْمَعْدَنَاتِ فَنَحْنُ بِهِنَّ وَإِنْ تَخَفْتُمْهَا وَتَوَلَّوْهَا الْفَقْرَةَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَكَفَرٌ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفِقَكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾^(١) وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٠ و ٢٧١].

وَذَكَرَ فِي الْقِصَّةِ أَنَّ بَعْضَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانُوا قَدْ امْتَنَعُوا عَنِ الْإِنْفَاقِ عَلَى أَقْرَبَائِهِمْ، لَمَّا أَبَوْا الْإِسْلَامَ، فَتَزَلَّتْ [فِيهِمْ]^(٢) هَذِهِ الْآيَةُ، فَهَذَا يُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ فِي الْإِضْطِنَاعِ إِلَيْهِمْ وَإِعْتَاقِهِمْ تَكْفِيرًا.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَمَاسَّ﴾ فَتَأْوِيلُهُ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، عِتْقٌ^(٣)، لَا مَسِيسَ فِيهِ، لِأَنَّ عِنْدَهُ الْإِعْتَاقَ يَحْتَمِلُ التَّجْزِيءَ: أَنَّهُ يُعْتَقُ نِصْفُهُ ثُمَّ النِّصْفُ الْآخَرُ، فَيَسْتَرْطِ أَنْ يُعْتَقَ النِّصْفَيْنِ جَمِيعًا قَبْلَ الْمَسِيسِ. حَتَّى لَوْ مَسَّهَا فِي مَا بَيْنَ ذَلِكَ يَلْزَمُهُ اسْتِثْنَاءُ الْعِتْقِ.

الآية ٤ وعلى هذا التأويل قولُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ لَمْ يَجِدْ فَمِيسَامَ شَهْرَيْنِ مُتَابَعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمَاسَّ﴾ أَي صَوْمُ شَهْرَيْنِ، لَا مَسِيسَ فِيهِ، حَتَّى لَوْ وَقَعَهَا فِي وَقْتٍ لَمْ يُتِمَّ صَوْمُ شَهْرَيْنِ بَعْدَ، يَلْزَمُهُ الْإِسْتِثْنَاءُ، وَكَانَ مَعْنَاهُ: لَا مَسِيسَ فِي خِلَالِ الْكَفَّارَةِ. فَتَمَّى وَجَدَ الْمَسِيسَ فِي وَقْتٍ لَمْ يُتِمَّ الْكَفَّارَةَ بَعْدَ يَلْزَمُهُ الْإِسْتِثْنَاءُ.

وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَمَاسَّ﴾ عِنْدَ أَبِي يَوْسَفَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّ يُعْتَقَ قَبْلَ وَقْتِ الْمَسِيسِ، وَيَصُومُ كَذَلِكَ، وَيَقُولُ: إِنَّ الْآيَةَ خَرَجَتْ لِبَيَانِ وَقْتِ التَّكْفِيرِ فِيهِ، حَتَّى إِذَا جَامَعَ امْرَأَتُهُ فِي صَوْمِ الظَّهَارِ أَنَّهُ لَا يَسْتَأْنِفُ الصَّوْمَ، بَلْ يَصُومُ الْبَاقِي، إِذْ قَدْ فَاتَ عَنْ وَقْتِهِ، فَصَارَ قَاضِيًا عَمَّا عَلَيْهِ، وَلَيْسَ بَعْدَ الْجَمَاعِ وَقْتُ لَذَلِكَ الصَّوْمِ، بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ عَلَى الْقَضَاءِ، فَيَجُوزُ مُتَّفَقًا وَمُتَابَعًا ٥٥٦ - ١ / كَصَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ لِمَا تَعَيَّنَ لَهُ وَقْتُ الْأَدَاءِ، ثُمَّ فَاتَ الْوَقْتُ لَا يَجِبُ مُتَابَعًا، بَلْ يَجُوزُ مُتَّفَقًا كَذَا.

هَذَا، وَلَا يَتَصَوَّرُ الْمَسْأَلَةَ فِي الْإِعْتَاقِ لِأَنَّهُ لَا يَتَجَزَّأُ عِنْدَهُ، وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ إِذَا جَامَعَ بَعْدَمَا أَطْعَمَ ثَلَاثِينَ مَسْكِينًا أَنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ اسْتِثْنَاءُ الطَّعَامِ، وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ إِذَا جَامَعَ امْرَأَتَهُ قَبْلَ الْكَفَّارَةِ لَا يَلْزَمُهُ شَيْءٌ سِوَى التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ فِي قَوْلِهِ [عِنْدًا]^(٤) عَامَّةُ الْفُقَهَاءِ، وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ يَلْزَمُهُ كَفَّارَتَانِ [وعند أبي] ^(٥) يَوْسَفَ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، مَا ذَكَرْنَا: قَدْ رَأَى بَعْضُهَا فِي الْوَقْتِ، وَبَعْضُهَا فِي غَيْرِ الْوَقْتِ أَوَّلَى مِنْ أَدَاءِ الْكُلِّ بَعْدَ الْوَقْتِ، وَلِهَذَا الْمَعْنَى فِي الطَّعَامِ كَذَلِكَ.

وَلِأَبِي حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، أَنَّ الظَّهَارَ لَيْسَ يُوجِبُ الْكَفَّارَةَ، وَلَكِنْ يُوجِبُ حُرْمَةً، لَا تَرْتَفِعُ إِلَّا بِالْكَفَّارَةِ، وَلَا يُؤْمَرُ هُوَ بِالْكَفَّارَةِ مَقْصُودًا، وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ الْإِسْتِمْتَاعَ بِهَا يَقَالُ لَهُ: لَيْسَ لَكَ ذَلِكَ إِلَّا بِالْكَفَّارَةِ. فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَإِذَا أَدَّى بَعْضُهَا، ثُمَّ [مَاسَّهَا، ثُمَّ]^(٦) أَدَّى الْبَقِيَّةَ، لَمْ يَضُرَّ مَا أَدَّى بَعْدَ الْمَاسَّةِ، فَضَاعَفَ الْوَقْتُ الَّذِي قَبْلَ الْمَاسَّةِ.

فَإِذَا لَمْ يَضُرَّ قِضَاءُ عَنْ ذَلِكَ جُعِلَ كَالنَّصِّ؛ إِنَّمَا جَاءَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ «أَنْ حَرَّرُوا رَقَبَةً قَبْلَ أَنْ تَمَاسُّوا ثَانِيًا، وَصُومُوا شَهْرَيْنِ مُتَابَعَيْنِ إِذَا أَرَدْتُمْ الْعَوْدَ إِلَيْهَا» [بنحوه أبو داود ٢٢١٣] وَلِلَّذَلِكَ قَالَ ﷺ لِلْمُظَاهِرِ الَّذِي جَامَعَ امْرَأَتَهُ: «اسْتَغْفِرِ اللَّهَ، وَلَا تَعُدَّ حَتَّى تُكْفَرَ» [الزمخشري في الكشاف ٦ / ٦٠].

لَكِنْ يَدْخُلُ عَلَى هَذَا أَمْرُ الطَّعَامِ: أَنَّهُ إِذَا أَطْعَمَ بَعْضَ الطَّعَامِ، ثُمَّ مَاسَّهَا، لَمْ يَلْزَمُهُ الْإِسْتِثْنَاءُ^(٧)، وَالْعِبَارَةُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا تَوْجِبُ الْإِسْتِثْنَاءَ. وَلَكِنْ يُسْتَحْسَنُ فِي الطَّعَامِ لِأَنَّ الطَّعَامَ وَقَعَ فِي الْأَصْلِ مُتَّفَقًا؛ إِذْ لَوْ أَطْعَمَ بَعْضُهُ لِلْحَالِ وَبَعْضُهُ بَعْدَ سَنَةٍ فَإِنَّهُ جَائِزٌ مِنْ ذِي الْجِهَةِ، لَكِنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْإِعْتَاقُ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، فَإِنَّهُ إِذَا أَعْتَقَ بَعْضُهُ لِلْحَالِ وَبَعْضُهُ بَعْدَ سَنَةٍ يَجُوزُ أَيْضًا، وَمَعَ ذَلِكَ إِذَا وَجَدَ فِي مَا بَيْنَ ذَلِكَ يَلْزَمُهُ الْإِسْتِثْنَاءُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ قَالَ أَيْضًا بَعْدَ ذَلِكَ. (٢) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَي عِتْقًا. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: لِأَبِي. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: الْاسْتِثْنَاءُ.

وما ذهب إليه أبو يوسف، رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ، مِنْ حُجْلِ الْآيَةِ عَلَى بَيَانِ الْوَقْتِ لَا يَصِحُّ، لَأَنَّا [لَوْ] ^(١) حَمَلْنَا تَأْوِيلَ الْآيَةِ نَفْسَهَا ^(٢) عَلَى الْوَقْتِ لَا فَائِدَةَ تَقَعُ فِي الْآيَةِ لِأَنَّ مَعْرِفَةَ وَقْتِ ذَلِكَ ثَابِتَةٌ بِدَلَالَةِ الْعَقْلِ، وَذَلِكَ أَنَّ قَدْ عَلِمْنَا إِيْجَابَ [الْحُرْمَةِ] ^(٣) بِالْظَّاهِرِ، وَعَلِمْنَا أَنَّ تِلْكَ الْحُرْمَةَ لَا تَرْتَفِعُ [إِلَّا] ^(٤) بِالْكَفَّارَةِ، فَصَارَ وَقْتُ الْجَلِّ يُذَكِّرُ لِلْحُرْمَةِ مَعْلُومًا، وَلِلذَلِكَ هَذَا فِي جَمِيعِ الْحُرْمَاتِ مِنَ الطَّلَاقِ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ لَا يَرْتَفِعُ إِلَّا بِسَبَبٍ رَفَعِهِ.

فَلَوْ حُمِلَ تَأْوِيلُ الْآيَةِ عَلَى بَيَانِ الْوَقْتِ لَمْ يُفِضْ شَيْئًا، وَلَوْ حُمِلَ عَلَى بَيَانِ إِخْلَاءِ الْكَفَّارَةِ عَلَى الْمَسِيْسِ وَعَلَى نَفْيِ الْمَسِيْسِ فِي خِلَالِ الْكَفَّارَةِ يُفِيدُ فَائِدَةً جَدِيدَةً. فَيَكُونُ هَذَا التَّأْوِيلُ أَحَقَّ وَأَوْلَى.

ثُمَّ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ بِأَنَّ لَيْسَ ذَلِكَ عَلَى بَيَانِ الْوَقْتِ، هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فِلْطَعَامٍ سِتِينَ مِسْكِيْنًا﴾ ثُمَّ ذَكَرَ فِي الْعِثْقِ وَالصَّوْمِ تَرْكَ الْمُمَاسَةِ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ فِي الْإِطْعَامِ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى جَعْلِ الْوَقْتِ لَهُ لَكَانَ يُذَكِّرُ فِيهِ الْمُمَاسَةَ، إِذِ الْكَفَّارَةُ إِذَا كَانَتْ عَنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ، لَا تَخْتَلِفُ فِيهِ أَوْقَاتُهَا، بَلْ يَكُونُ وَقْتُهَا وَاحِدًا. وَلَا يَقَالُ: إِنَّمَا لَمْ يَذْكُرِ الْوَقْتُ فِي الْإِطْعَامِ لِأَنَّ ذِكْرَهُ فِي الْعِثْقِ وَالصَّوْمِ ذِكْرُهُ فِي الْإِطْعَامِ، لِأَنَّهُ مِنْ أَنْوَاعِ هَذِهِ الْكَفَّارَةِ، فَذِكْرُ الْوَقْتِ فِي بَعْضٍ يَكُونُ ذِكْرُهُ فِي الْبَاقِي.

فَإِذَا أَدَّى بَعْضُهُ فِي الْوَقْتِ وَبَعْضُهُ فِي غَيْرِ الْوَقْتِ كَانَ أَوْلَى مِنْ أَنْ يُؤَدِّيَ الْكُلُّ فِي غَيْرِ الْوَقْتِ، لَأَنَّا نَقُولُ: ذِكْرُهُ فِي الْعِثْقِ وَالصَّوْمِ لَا يَضْلُحُ أَنْ يَكُونَ بَيَانًا فِي الْإِطْعَامِ، لِأَنَّ الْبَيَانَ عَلَى وَجْهِ ثَلَاثَةِ بَيَانَ نِهَائِيَّةٍ وَبَيَانَ كِفَايَةٍ وَبَيَانَ تَفْصِيلٍ.

فَأَمَّا بَيَانَ الْكِفَايَةِ فَهُوَ ^(٥) أَنْ يَكْتَفِيَ بَيَانُ الْوَاحِدِ وَالْقَلِيلِ عَنِ الْكُلِّ لِيُعْرِفَ ذَلِكَ بِالِاجْتِهَادِ وَالْقِيَاسِ عَلَى نِظَائِرِهِ، فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى مَعْنَى مُوَدَّعٍ ^(٦) فِيهِ، وَأَنَّهُ مَحَلُّ الْاجْتِهَادِ وَالتَّعْلِيلِ.

وَأَمَّا بَيَانَ النِّهَائِيَّةِ فَهُوَ أَنْ يُبَيِّنَ الْكُلُّ عَلَى الْمُبَالَغَةِ حَتَّى لَا يَبْقَى لِلِاجْتِهَادِ فِيهِ مَوْضِعٌ.

وَأَمَّا بَيَانَ التَّفْصِيلِ فَهُوَ ^(٧) الَّذِي يُبَيِّنُ فِي أَكْثَرِهِ، وَلَا يَبْلُغُ بِهِ نِهَائِيَّتَهُ. فَهُوَ فِي مَا يُبَيِّنُ لَا يَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِهِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ فِيهِ مَعْنَى مُوَدَّعٍ ^(٨) يَجْمَعُ الْكُلُّ لَمْ يَكُنْ لِيَذْكُرِ الزَّائِدَ عَلَيْهِ وَتَرْكُ بَعْضِهِ مَعْنَى.

وَهُنَا بَيَانَ تَفْصِيلٍ دُونَ كِفَايَةٍ، إِذْ لَمْ ^(٩) يَكْتَفِ بِذِكْرِهِ فِي وَاحِدٍ، وَلَا هُوَ بَيَانَ نِهَائِيَّةٍ، إِذْ لَمْ يَتَّهِ الْبَيَانَ فِي الْكُلِّ، فَهُوَ بَيَانَ التَّفْصِيلِ الَّذِي ذَكَرْنَا أَنَّهُ يُقَرَّرُ ^(١٠) فِي الْمَذْكُورِ، وَلَا يَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِهِ، وَلَوْ كَانَ ذَكَرَ ذَلِكَ لِبَيَانِ الْوَقْتِ لَأَكْتَفَى بِذِكْرِهِ فِي الْوَاحِدِ عَنِ الْكُلِّ عَلَى الْمُبَالَغَةِ.

فَلَمَّا ذَكَرَ عَلَى بَيَانِ التَّفْصِيلِ دَلَّ أَنَّهُ لَيْسَ لِبَيَانِ الْوَقْتِ، وَلَكِنْ لِنَفْيِ الْمَسِيْسِ خِلَالَ الصَّوْمِ وَالْعِثْقِ الْمَذْكُورِينَ دُونَ الطَّعَامِ الَّذِي لَمْ يَذْكُرْ فِيهِ، وَيُبَيِّنُ أَنَّ إِخْلَاءَ الصَّوْمِ وَالْعِثْقِ مِنَ الْمَسِيْسِ حُكْمٌ عَرَفْنَاهُ بِالنَّصِّ غَيْرِ مَقُولِ الْمَعْنَى، فَلَا يَتَعَدَّى عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ.

وَيَكُونُ مِثَالُهُ مَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا﴾ الْآيَةُ [النِّسَاءُ: ٩٢] عَلَى مَا عُرِفَ فِي مَوْضِعِهِ.

وَالْحَاصِلُ فِي الْمَسْأَلَةِ طَرِيقَانِ: أَحَدُهُمَا: بِحَقِّ الْقِيَاسِ، وَالْآخَرُ بِحَقِّ الْإِخْتِيَاظِ.

أَمَّا الْقِيَاسُ فَمَا ^(١١) ذَكَرْنَا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَّكِفَ﴾ لِإِخْلَاءِ الصَّوْمِ مِنَ الْمَسِيْسِ [وَنَفْيِ الْمَسِيْسِ] ^(١٢) عَنْ خِلَالِ الْكَفَّارَةِ. لَكِنْ إِنَّمَا ذَكَرَهُ فِي الْإِعْتِقَادِ وَالصَّوْمِ دُونَ الْإِطْعَامِ. فَذَلَّلْنَا ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ بَيَانَ تَفْصِيلٍ، فَيَكُونُ دَلِيلًا عَلَى قَضَرِ

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) أدرجت في الأصل وم: بعد الوقت. (٣) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٤) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٥) فِي الأصل وم: وهو. (٦) فِي الأصل وم: مودع. (٧) الْفَاء ساقطة من الأصل وم. (٨) فِي الأصل وم: مودعا. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: لو. (١٠) مِنْ م، فِي الأصل: يقرأ. (١١) الْفَاء ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من م.

الحُكْمُ عَلَى الْمَنْصُوصِ وَمَنْعُ التَّغْيِيَةِ إِلَى غَيْرِهِ لِمَا هُوَ عَلِيمٌ أَنَّ الْعَقُولَ تَقْصُرُ عَنْ إدْرَاكِ ذَلِكَ الْمَعْنَى، فَجَعَلَ^(١) نَفْيَ الْمَسِيْسِ عَنْ خِلَالِ الصَّوْمِ وَالْعِتْقِ وَاجِباً بِالنَّصِّ حَتَّى لَا تَكُونَ كَفَّارَةً بِدَوِيهِ، وَلَمْ يَجْعَلْ فِي بَابِ الْإِطْعَامِ شَرْطاً.

وَأَمَّا طَرِيقُ الْإِخْتِيَاظِ، وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا اخْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ لِبَيَانِ الْوَقْتِ وَلِنَفْيِ الْمَسِيْسِ عَنْ خِلَالِ الصَّوْمِ فَأُخِذَ فِيهِ بِالْإِخْتِيَاظِ، وَفِي الْإِطْعَامِ أُخِذَ بِالْقِيَاسِ لِمَا أَنَّهُ لَمْ يُذَكَّرْ فِيهِ الْمَسِيْسُ، وَذُكِّرَ فِي الصَّوْمِ وَالْعِتْقِ لَمْ يَكُنْ بَيَانٌ كِفَايَةً حَتَّى يَكُونَ ذِكْرُهُ ذِكْراً فِي الطَّعَامِ، بَلْ هُوَ بَيَانٌ تَفْصِيلِي، وَأَنَّ حُكْمَهُ الْقَضْرُ عَلَى الْمَنْصُوصِ دُونَ التَّغْيِيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ لِصِحَّةِ مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فِي أَنَّ الْعِتْقَ يَحْتَوِلُ التَّجَرُّةَ، وَهُوَ أَنْ يُعْتِقَ بَعْضُهُ، وَيَبْقِيَ الْبَاقِي بِحَالِهِ، ثُمَّ يُعْتِقَهُ بِأَوَقَاتٍ بَعْدَهُ؛ إِذْ قَالَ ﴿مَنْعَرُ رَقَبَةٍ يَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَأَنَّ﴾ أَيِ تَخْرِيرِ رَقَبَةٍ لَا مُمَاسَّةَ فِي التَّكْفِيرِ.

وَلَوْ كَانَ بَعْضُ الْعِتْقِ يَوْجِبُ عِتْقَ الْكُلِّ لَكَانَ لَا يُفِيدُ قَوْلُهُ: ﴿يَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَأَنَّ﴾ إِلَّا يَقَعُ الْعِتْقُ إِلَّا قَبْلَ الْمُمَاسَّةِ. فَلَمَّا قَالَ دَلَّ أَنَّهُ أَرَادَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِلَّا تَمَسُّوهُمْ عِنْدَمَا اغْتَفَنُكُمْ بَعْضُهُ، وَلَمْ تُغْفَقُوا الْكُلَّ حَتَّى يَكْمُلَ، وَيَتِمَّ فِيهِ الْإِعْتَاقُ، وَلِهَذَا قَالَ: إِنَّهُ يَلْزَمُهُ الْإِسْتِثْنَاءُ فِي الْعِتْقِ كَمَا فِي الصَّوْمِ.

فَدَلَّ أَنَّ الْإِعْتَاقَ مَتَجَزئ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ جَعَلَ الْكُفَّارَةَ فِيهِ مَا ذَكَّرْنَا، وَلَمْ يَجْعَلِ الْكُفَّارَةَ فِيهِ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ فَقَطْ لِيُوجِهَيْنِ

أَحَدَهُمَا: أَنَّهُ لَوْ جَعَلَ تَوْبَتَهُ بِهِ لَكَانَ لَا يَظْهَرُ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ أَمْرٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَرَاةِ، فَلَا يُذَرَى أَنْ تَابَ، أَوْ لَمْ يَتُبْ، وَرُبَّمَا يَظْهَرُ التَّوْبَةُ بِالْقَوْلِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَتُبْ حَقِيقَةً بَقَلْبِهِ، فَتَتَّهِمُهُ الْمَرَاةُ. فَجَعَلَ التَّوْبَةَ فِيهِ أَمراً ظاهراً تُعْرَفُ بِهِ تَوْبَتُهُ دَفْعاً لِلتَّهْمَةِ عَنْهُ وَتَشْكِيناً لِقَلْبِ الْمَرَاةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْإِسْتِثْنَاءَ ٥٥٦ - ب/ فِي النِّكَاحِ نِعْمَةً عَظِيمَةً، فَتَشْبِيْهُهَا بِالْمُحْرَمِ الَّذِي تَتَابَدَّ حُرْمَتُهُ أَمْرٌ قَطْعِي، فَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ الْخُرُوجَ مِنْهُ شَيْئاً^(٢) لَا يَنْقُلُ عَلَيْهِ، فَيَقْدِمُ ثَانِياً وَثَالِثاً لِخِفَةِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ، بَلْ جَعَلَ مَا يُتَأَلَّمُ عَلَيْهِ، وَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ زَجْراً لَهُ عَنْ مِثْلِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَلِغَيْرِهِ كَمَا فِي الزَّئْنِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَجْرَامِ.

ثُمَّ لَمْ يَجْعَلْ تِلْكَ الْيَمِينَ لِلِاسْتِثْنَاءِ خَاصَّةً، وَلَا^(٣) أُبِيحَ لَهُمْ ذَلِكَ، وَلَا جَعَلَ لَهُنَّ قَبْلَ السَّادَاتِ حَقٌّ الْإِسْتِثْنَاءِ، فَلَمْ يَصِرْ تَشْبِيْهُنَّ بِمَنْ ذَكَرَ كُفْرَانِ نِعْمَةٍ وَلَا إِبْطَالِ حَقِّ لَهُنَّ قَبْلَ مَوَالِيَهُنَّ، لِذَلِكَ افْتَرَقَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقِيلَ: إِنَّ الظَّهَارَ كَانَ طَلَاقَ قَوْمٍ، فَأُبْدِلَ إِلَى تَحْرِيمِ الْمُتَعَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْإِمَاءِ حَظٌّ مِنَ الظَّهَارِ^(٤)، وَهُوَ الطَّلَاقُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُنَّ مِنَ الَّذِي صَارُوا^(٥) إِلَيْهِ، وَلَكِنْ إِنْ تَبَتَ هَذَا كَانَ طَلَاقاً، يُوجِبُ حُرْمَةً، لَا تَرْتَفِعُ أَبَداً، لَا طَلَاقاً يُوجِبُ حُرْمَةً تَرْتَفِعُ بِالنِّكَاحِ [عَلَى]^(٦) مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

وَالْإِمَاءُ^(٧) لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ حَظٌّ مِنْ هَذَا التَّحْرِيمِ لِعدمِ قُصُورِ مُلْكِ النِّكَاحِ مَعَ مُلْكِ الْيَمِينِ، فَإِنَّمَا لَهُنَّ حَظٌّ مِنَ الْحُرْمَةِ الْمُؤَبَّدَةِ بِالْمُحْرِمَةِ؛ فَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الْحُرْمَةُ، هِيَ الْأَصْلُ، وَهِيَ أَصْلُ لَهَا مَعَ قِيَامِ مُلْكِ الْيَمِينِ، يَكُنْ أَهْلاً لِمَا يَنْتَقِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْحُرْمَةِ الْمُؤَبَّدَةِ. دَلَّ أَنَّ الطَّرِيقَ مَا قُلْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفِي الْآيَةِ جَوَازُ تَأْخِيرِ الْبَيَانِ لِأَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ لَمَّا ظَاهَرَ مِنْ أَمْرَائِهِ [اشْتَدَّتْ بِهِ]^(٨) الْحَاجَةُ إِلَى مَعْرِفَةٍ مَا يَجِبُ مِنَ الْأَحْكَامِ، ثُمَّ تَأَخَّرَ تَزْوُلُ بَيَانٍ مَا يَجِبُ بَعْدَ طَلْبِهِ^(٩) مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيَانِ الْحُكْمِ. فَدَلَّ أَنَّ الْبَيَانَ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَتَأَخَّرَ عَنْ وَقْتِ قَرْعِ الْخِطَابِ السَّنْعِ.

وَهَذَا أَوَّلَى لِأَنَّ فِي الْأَوَّلِ قَدْ ظَهَرَتِ الْحَاجَةُ، وَاشْتَدَّتْ لِيُوقِعِ النَّازِلَةَ، وَفِي تَزْوُلِ الْعَامِّ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ الْمَخْصُوصُ لَا. وَكَذَلِكَ عَلَى هَذَا مَا نَزَلَ مِنْ أَحْكَامِ الْإِبْلَاءِ وَالْقَافِزِ زَوْجَتَهُ بَعْدَ وَقْعِ النَّازِلَةِ بِأَوَقَاتٍ دَلِيلٌ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَجَعَلْنَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: شَيْء. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَإِنْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: الطَّلَاق. (٥) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: يَنْقُل. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْأَمَةِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: اشْتَدَّتْ بِهِمْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: طَلِبَهُمْ.

ثم جعلَ صِيَامَ شَهْرَيْنِ بَدَلًا عَنِ الْعِتْقِ فِي كَفَّارَةِ الظَّهَارِ وَالْقَتْلِ وَكَفَّارَةِ الْإِفْطَارِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَجَعَلَ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ صَوْمَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ بَدَلًا عَنِ الْعِتْقِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا الرُّجْعَ فِي ذَلِكَ فِي مَا تَقَدَّمَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ذَكَرَ صَاحِبُ الْوَاظِحِ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ذَلِكَ﴾ أَيُّ بَذْلِكَ أَمَرْتُمْ، وَنَهَيْتُمْ لِتُؤْمِنُوا؟

ولكن عندنا تأويلُ قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هو صَلَوةُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زُجُجِهَا﴾ الآية [المجادلة: ١] يقول: أَخْبَرَكُمْ بِمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فِي السَّرِّ، وَأُظْلَعَكُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَيُّ لِيُصَدِّقُوا، وَتَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْءٌ.

ومنهم مَنْ قَالَ: ﴿ذَلِكَ﴾ رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَخَاوُعَكُمْ﴾ أَيُّ الْفَرْجِ وَالْمَخْرَجِ عَمَّا امْتَحَنْتُمْ^(١) بِهِ مِنَ الْحُرْمَةِ وَمَا اشْتَدَّ عَلَيْكُمْ ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لِمَا فَرَّجَ عَنْكُمْ بِالْخُرُوجِ بِمَا ذَكَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ومنهم مَنْ قَالَ: ﴿ذَلِكَ﴾ الْقَوْلُ الْمُنْكَرُ وَالزُّورُ الَّذِي قُلْتُمْ، وَأَعْلَمَكُمْ أَنَّهُ مُنْكَرٌ وَزُورٌ ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فَيُخْرِجُ ﴿ذَلِكَ﴾ عَلَى الْأَمْرِ بِالشُّكْرِ لَهُ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَ لَهُمْ مِنَ الْفَرْجِ وَالْمَخْرَجِ عَمَّا امْتَحَنُوا بِأَدَائِهِ.

وهكذا العبادات التي أمروا بها، أمروا لِإِخْدَى ثَلَاثِ خِلَالٍ: إِمَّا لِحَقِّ الشُّكْرِ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، وَإِمَّا^(٢) لِتَسْلِيمِ الْأَمْرِ لَهُ وَالْخُضُوعِ، وَإِمَّا^(٣) لِحَقِّ الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّكْفِيرِ بِمَا سَبَقَ مِنَ التَّقْرِيطِ وَالتَّقْصِيرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وجائزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ عَلَى غَيْرِ هَذَا، أَيُّ أَنْزَلَ ذَلِكَ الَّذِي أَنْزَلَ لِتُؤْمِنُوا، أَيُّ لِتُجَدِّدُوا الْإِيمَانَ بِاللَّهِ تعالى وَرَسُولِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَكُلِّ سَاعَةٍ؛ إِذْ يَلْزَمُ النَّاسَ إِحْدَاثُ الْإِيمَانِ وَتَجْدِيدُهُ لِإِحْدَاثِ الرُّخْصِ وَالْعَزَائِمِ الَّتِي تَجَدَّدَتْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ قِيلَ: أَيُّ الَّذِي افْتَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَحْكَامِ.

وقال الرَّجَّاجُ: ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ أَيُّ مَوَانِعِ اللَّهِ وَحُجُجِهِ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْحَاجِبُ حَدَادًا لِأَنَّهُ يَمْنَعُ النَّاسَ مِنْهُ.

وعندنا قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أَيُّ زَوَاجِرِ اللَّهِ وَمَوَانِعِهِ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ يَمْنَعُ هَذَا عَنِ الدَّخُولِ فِي حَدِّ الْآخَرِ؛ يَمْنَعُ الْبَاطِلَ عَنِ الدَّخُولِ فِي حَدِّ الْحَقِّ وَالِاخْتِلَاطِ [بِهِ]^(٤).

وفي الآية دلالةٌ لَخَلْقِ أَعْمَالِ الْعَبْدِ لِأَنَّهُ أَضَافَ الْحُدُودَ، وَهِيَ الطَّاعَاتُ، إِلَى نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ وَإِنَّمَا أَعْمَالُ الْعَبَادِ؛ دَلٌّ [أَنَّ]^(٥) أَعْمَالُ الْعَبَادِ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ تعالى، وَإِنَّمَا خَصَّ الطَّاعَاتِ [بِإِضَافَتِهَا إِلَى نَفْسِهِ]^(٦) مَعَ أَنَّ جَمِيعَ الْأَعْمَالِ: خَلَقَهُ إِيَّاهَا [تَبْجِيلٌ وَتَعْظِيمٌ]^(٧) لَهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّكِينَةَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] أَضَافَهَا إِلَى نَفْسِهِ تَبْجِيلًا وَتَعْظِيمًا لَهَا.

وعلى هَذَا يُخْرِجُ تَأْوِيلُ مَنْ قَالَ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] مِنْ نَفْسِي، وَكَيْفَ أَظْهَرَهَا لَكُمْ^(٨)؟ إِنَّهُ أَرَادَ بِهِذِهِ الْإِضَافَةَ تَبْجِيلًا وَتَعْظِيمًا لِأَمْرِ السَّاعَةِ [فَكَانَهُ يَقُولُ: إِنَّمَا لَمْ أَظْهَرِ أَمْرَ السَّاعَةِ]^(٩) لِذَلِكَ الْخَلْقِ الَّذِي هُوَ بِهِذِهِ الْمَنْزِلَةُ، فَكَيْفَ أَغْلِيظُ لَكُمْ؟ أَيُّ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيُّ لِلْكَافِرِينَ بِاللَّهِ وَيُحْدِثُ عَذَابَ أَلِيمٍ فِي الْآخِرَةِ، لِأَنَّ عَذَابَ الْكُفْرِ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ عَذَابًا دَائِمًا، لَا انْقِضَاءَ لَهُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْأَدَبِ: الْمُحَادُّ، هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ نَفْسَهُ فِي حَدِّ

الآية ٥

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: امْتَحَنَهُمْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: بِالْإِضَافَةِ إِلَى نَفْسِهَا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: تَبْجِيلًا وَتَعْظِيمًا. (٨) هَذَا الْقَوْلُ: مِنْ نَفْسِي، وَكَيْفَ أَظْهَرَهَا؟ هُوَ قِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٤ / ٧٥. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

غَيْرِ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاتُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣] أي يكونونَ في شِقِّ غَيْرِ الشِّقِّ الَّذِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أو كلامٌ نحوه.

ومنهم مَنْ قَالَ: حَدَّثَهُ عَنْ طَرِيقِهِ، أي عَدَلْتُهُ عَنْهُ، وَبَعْضُهُ قَرِيبٌ مِنْ بَعْضٍ.

وَأَصْلُهُ مَا ذَكَرَ ﴿يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يُمَازِحُونَ النَّاسَ، وَيُزْجِرُونَهُمْ عَنِ الطَّرِيقِ لِثَلَا يَأْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ وَيَتَّبِعُوهُ.

وقوله تَعَالَى: ﴿كُنُوا كَمَا كُنْتُمُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قِيلَ: غُلِبُوا، وَرُدُّوا بِغَيْرِ حَاجَتِهِمْ كَمَا غُلِبَ، وَرُدُّ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ. وَقِيلَ: أَهْلِكُوا كَمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. وَقِيلَ: أَخْرَوْا كَمَا أَخْرَأَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. وَكُلُّهُ قَرِيبٌ مِنْ بَعْضِهِ مِنْ بَعْضٍ. ثُمَّ يُخْرِجُ تَأْوِيلَهُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَيِ كُنْتُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مَنَعُوا النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ كَمَا كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ.

[وَالثَّانِي: أَيِ] كُنْتُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مَنَعُوا النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ كَمَا كُنْتُمْ الَّذِينَ مَنَعُوهُمْ عَنْهُ بِمَكَّةَ لِأَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَدَنِيَّةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْنِكَ الْكِتَابَ بِتِبْيَانٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أَيِ آيَاتٍ تُبَيِّنُ حُدُودَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ حُدُودِهِ، أَوْ آيَاتٍ ^(٢) تُبَيِّنُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ وَالرَّسُولَ مِنْ غَيْرِهِ وَالْمُحَادَّ مِنْ غَيْرِ الْمُحَادِّ.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أَيِ لِلْكَافِرِينَ [بِذَلِكَ كُلُّهُ] ^(٣) عَذَابٌ يُهَيِّئُهُمْ كَمَا أَهَانُوا الْمُؤْمِنِينَ.

[وقوله ﷻ: ^(٤)] ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أَيِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَالْمُحَادِّثِينَ وَالْمُؤَافِقِينَ.

وقوله تَعَالَى: ﴿فَيَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَمْخَصَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أَيِ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا، فَيَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، أَحْصَى اللَّهُ مَا عَمِلُوا، وَإِنْ طَالَ ذَلِكَ، أَوْ كَثُرَ، وَسَوَّاهُمْ تِلْكَ الْأَعْمَالُ. خَرَجَ هَذَا عَلَى الْوَعِيدِ.

وفيه دلالة رسالته؛ إِذْ أَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى، يُخْصِي ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُمْ [إِنْ] ^(٥) نَسُوا، فَلَمْ يَنْهَيْلًا لَهُمْ أَنْ يُنْكِرُوا عَلَيْهِ أَنَّهُمْ لَمْ يَنْسُوا. دَلَّ أَنَّهُ بِاللَّهِ عِلْمَ ذَلِكَ.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَيِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْإِحْصَاءِ وَالْحِفْظِ وَغَيْرِ ذَلِكَ شَهِيدٌ.

[وقوله تَعَالَى: ^(٦)] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكْثُرُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِمُهُمْ﴾ فَإِنْ كَانَ هَذَا الْخُطَابُ / ٥٥٧ - لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَكُونُ فِيهِ [وَجْهَانِ]:

أَحَدُهُمَا: ^(٦) دَلَالَةُ رِسَالَتِهِ، إِذْ أَظْلَعَهُ عَلَى مَا أَسْرُوا فِي مَا يَبْعَثُهُمُ مِنَ الْمَكْرِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَتَنَاجَوْا بَيْنَهُمْ مِنَ الْكَيْدِ وَالْخِدَاعِ؛ أَظْلَعَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ [لِيَعْلَمَ أَنَّهُ بِاللَّهِ تَعَالَى عِلْمَ ذَلِكَ] ^(٧).

وَالثَّانِي ^(٨): بِشَارَةُ لَهُ بِالنُّصْرَةِ وَالْمَعُونَةِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ ﷺ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] أَيِ أَسْمَعُ مَا يَقُولُ لَكُمَا، وَمَا يُجِبُ [وَأَرَى مَاذَا] ^(٩) قَصْدَ بَكْمَا، وَادْفَعَ عَنْكُمَا مَا قَصَدَ بَكُمَا، فَعَلَى ذَلِكَ مَا ذَكَرَ لَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكْثُرُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِمُهُمْ﴾ فَيُظْلِعُكَ عَلَى مَا هَمُّوا بِكَ، وَأَسْرُوا فِيكَ، فَيَنْصُرَكَ، وَيُدْفَعُ عَنْكَ كَيْدَهُمْ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْخُطَابُ لَيْسَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً، وَلَكِنْ لِكُلِّ فِي نَفْسِهِ، فَيَصِيرُ كَأَنَّهُ قَالَ: أَلَمْ تَرَ إِلَى عَجَائِبِ مَا أَنْشَأَ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَبْلَ إِنْشَاءِ أَهْلِيهِمَا؟ فَإِذَا رَأَيْتَ عَجَائِبَ مَا أَنْشَأَ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَهْلِيهِمَا، وَعَلِمْتَ ذَلِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ بِمَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَاهُمْ فِي مَا ذَكَرَ عَالِمٌ، فَيُخْرِجُ عَلَى التَّنْبِيهِ وَالزُّجْرِ عَنِ الْإِسْرَارِ وَالنَّجْوَى.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا هُوَ رَاسِمُهُمْ وَلَا تَحْمِصُ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ وَنَحْوُهُ، يَجِبُ أَنْ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (٣) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ: كُلُّهُ، فِي م: كُلُّهُمْ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

(٥) وَ(٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَالثَّلَاثُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذَا أَرَى إِذَا.

يُنْظَرُ إِلَى الْمُقَدَّمِ مِنَ الْكَلَامِ، فَيُضَرَفُ قَوْلُهُ: ﴿هُوَ مَعَهُمْ﴾ إِلَى ذَلِكَ نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [النحل: ١٢٨] وقوله^(١): ﴿وَاللَّهُ مَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ونَحْوُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ فِي التَّوْفِيقِ وَالْمَعُونَةِ وَالنَّصْرِ.

فَعَلَى ذَلِكَ مَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿هُوَ مَعَهُمْ﴾ فِي النَّجْوَى وَمَا أَسْرَوْا فِي مَا بَيْنَهُمْ، أَي شَاهِدٌ مَعَهُمْ حَافِظٌ عَلَيْهِمْ، يَدْفَعُ عَنْكُمْ كَيْدَهُمْ وَمَكْرَهُمْ، وَيَنْصُرُكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَنْتَهِمُ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَي يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا، وَأَسْرَوْا مِنَ الْكَيْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ هَذَا الْخَطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: اغْلَمْ أَنْ الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى، ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ. . الآية:

فيه^(٢) دلالة إثبات الرسالة لأنه أخبر أنهم عادوا إلى ما نُهُوا عنه، وهو النَّجْوَى. ومعلوم أنهم لا يَعُودُونَ إِلَى مَا نُهُوا عَنْهُ بِخُضْرَةِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَكِنْ عِنْدَ غِيَةِ مِنْهُمْ، دَلَّ أَنْهُ بِاللَّهِ عَلِيمٌ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي سَبَبِ تِلْكَ النَّجْوَى؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنَ الْيَهُودِ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ مُوَادَعَةٌ، فَإِذَا [رَأَوْا رَجُلًا]^(٣) مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَخَدَهُ، يَتَنَاجَوْنَ بَيْنَهُمْ^(٤)، يَطْلُنُ الْمُسْلِمُ أَنَّهُمْ يَتَنَاجَوْنَ بِقَتْلِهِ أَوْ بِمَا يَكْرَهُ، فَيَتَرَكُ الطَّرِيقَ مِنَ الْمَخَافَةِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَتَنَاهَاهُمْ عَنِ النَّجْوَى، فَلَمْ يَنْتَهُوا، وَعَادُوا إِلَى النَّجْوَى، فَتَرَلَّ مَا ذَكَرَ.

ومِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانُوا إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَامَ أَنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ وَأَنَاسٌ مِنَ الْمَنَافِقِينَ يَتَنَاجَوْنَ فِي مَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَنْظُرُونَ نَحْوَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، فَإِذَا رَأَوْهُمْ يَنْظُرُونَ نَحْوَهُ، قَالَ: مَا أَظُنُّ هَؤُلَاءِ إِلَّا وَقَدْ بَلَغَهُمْ خَبَرُ أَقْرَبَائِي الَّذِينَ بَعَثَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي السَّرَايَا مِنْ قَتْلِ أَوْ مَوْتِ، فَيَقْعُ فِي قَلْبِهِ مِنْ ذَلِكَ مَا يُخْزِنُهُ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى تَقْدُمَ جَمْعَةٌ مِنْ تِلْكَ السَّرِيَّةِ.

لَكِنْ الْأَوَّلَى عِنْدَنَا السَّكُوتُ عَنْ ذِكْرِ هَذَا وَأَمثَالِهِ، لِأَنَّهُ خَرَجَ مُخْرَجَ الْإِخْتِجَاجِ، وَجَعَلَهُ آيَةً عَلَيْهِمْ. فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى خِلَافِ مَا ذَكَرَ، فَيُوجِبُ الْكَذِبَ فِي الْخَبَرِ، فَإِلْمَاكَ عَنْهُ أَحَقُّ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ خِيَرَتَا بَنِي إِسْرَءِيلَ يَدْعُونَكَ بِنِيبَتِكَ بِمَا كَرِهْتَ لِيُخْرِجَكَ مِنْهَا أَوْ يَكْفُلُوكَ رَهْبًا﴾ فَقَالَ: ﴿وَقَالُوا لَا نَفْعُ لَنَا مِنْكَ يَا مُحَمَّدُ، فَيَجِيبُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ، وَيَقُولُ: «وَعَلَيْكُمْ».

ففيه دلالة رسالته لأنهم حيَّوه سِرًّا مِنْهُ، فَاطْلَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَا أَسْرَوْا، وَكَذَلِكَ مَا قَالَ: ﴿وَقَالُوا لَا نَفْعُ لَنَا مِنْكَ يَا مُحَمَّدُ، فَيَجِيبُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ، وَيَقُولُ: «وَعَلَيْكُمْ».

وقوله تعالى خَبَرًا عَنْهُمْ: ﴿لَوْلَا يَدْعُبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهُمْ وَعَيْدٌ بِالتَّعْذِيبِ لِأَجْلِ التَّنَاجِي الَّذِي [كَانَ]^(٥) مِنْهُمْ. فَلَمَّا تَأَخَّرَ ذَلِكَ عَنْهُمْ قَالُوا عِنْدَ ذَلِكَ: إِنَّهُ لَوْ كَانَ رَسُولًا عَلَى مَا يَقُولُ لَعَذَّبَنَا عَلَى مَا قَالَ، وَوَعَدَ. لَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِنْ كَانَ لَهُمُ الْعَذَابُ، لَمْ يُبَيِّنْ مَتَى يُعَذَّبُونَ، فَعَذَابُهُمْ مَا ذَكَرَ حِينَ^(٦) قَالَ: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ: ﴿لَوْلَا يَدْعُبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ عِنْدَ رَدِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا حَيَّوه حِينَ قَالَ: وَعَلَيْكُمْ. يَقُولُونَ: إِنَّهُ دَعَا عَلَيْنَا بِقَوْلِهِ: «وَعَلَيْكُمْ». فَإِنْ كَانَ رَسُولًا لِأَجِبَ دَعَاؤُهُ الَّذِي دَعَا عَلَيْنَا. لَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَذَعْ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا رَدَّ قَوْلَهُمْ عَلَيْهِمْ رَدًّا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعْتُمْ فَلَاسَ تَتْلُوا بِآيَاتِ الْمُرْسَلِينَ وَالْمُرْسَلُونَ وَمَعَهُمْ الرُّسُلُ وَمَعَهُمْ الرُّسُلُ وَاللَّعْنَةُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ إِنَّ أَهْلَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: و. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وفيه. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: رَجُل. (٤) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: بِقَتْلِهِ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث.

التأويل صَرَفُوا الآيةَ إلى المتنافقين. وعندنا يَحْتَمِلُ صَرَفُ النَّهْيِ إلى المؤمنين عن التَّنَاجِي بِمِثْلِ مَا تَنَاجَى أَوْلَئِكَ، أي لا تَتَنَاجَوْا أَنْتُمْ يَا أَهْلَ الْإِيمَانِ فِيهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ كَمَا يَتَنَاجَوْنَ فِيكُمْ.

يقول: لا تُجَاوِزُهُمْ بِالَّذِي فَعَلُوا هُمْ بِكُمْ، ولكن تَنَاجَوْا فِيهِمْ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وهو كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢] نَهَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُجَاوِزُوهُمْ جِزَاءَ الْإِعْتِدَاءِ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ مِنْ صَدْوِهِمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، بَلْ أَمَرَهُمْ [بِالتَّعَاوُنِ] ^(١) عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] فَعَلَى ذَلِكَ يَحْتَمِلُ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وجائز أن يكون في المؤمنين حقيقة على الابتداء نَهْيٌ مِنْهُمْ؛ يقول ﴿إِنَّا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا﴾ في ما يُؤْمِنُكُمْ، وَيَحْمِلُكُمْ عَلَى الْعُدْوَانِ عَلَى الْمَجَاوِزَةِ عَنِ الْحُدِّ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ فِي مَا يَأْمُرُكُمْ، وَيَنْهَاكُمْ، ﴿وَتَتَجَبَّوْا إِلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾.

[البر] ^(٢) يَحْتَمِلُ كُلُّ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ. وَأَمَّا التَّقْوَى فَهُوَ كُلُّ مَا يَقُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ النَّارِ، [وقد] ^(٣) تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ. وقوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الْغَيْثَ إِلَيْهِ تَخَسَّرُونَ﴾ جائز أن يكون هذا الخطابُ لَهُمْ؛ أعني المؤمنين والكافرين الذين يُقَرُّونَ بِالْحَشْرِ لِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ وَبَعْضَ الْمُشْرِكِينَ يُقَرُّونَ بِالْبَعْثِ، وَبَعْضَ الْمُشْرِكِينَ يُكْبِرُونَ مَعَ الذَّهْرِيَّةِ.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي نَجْوَى الَّذِينَ كَانُوا يَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ؛ لَيْسَ كُلُّ نَجْوَى عَلَى ظَاهِرٍ مَا يَخْرُجُ الْخَطَابُ عَامًّا، وَلَكِنْ يَرْجِعُ إِلَى [أَمْرِ] ^(٤) النَّجْوَى الَّذِي نَهَى عَنْهُ.

ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ جائز أن يكون معناه ابتداء النجوى في الشر من الشيطان، وهو ما ذَكَرَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ آدَمَ ﷺ قَالَ إِبْلِيسَ لِلْمَلَائِكَةِ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ فَضَّلَ هُوَ عَلَيْكُمْ مَا تُصِفُونَ؟ فَجَابُوهُ بِمَا أَجَابُوا. ٥٥٧ - ب/ فقال هو: إِنْ فَضَّلْتُ عَلَيْهِ لِأَهْلِكْتُهُ، وَإِنْ فَضَّلَ هُوَ عَلَيَّ لَأُعَادِيَّتُهُ، فَقَدْ جَاءَهُمْ فِي أَمْرِ آدَمَ ﷺ بِالْشَّرِّ فَكَانَ أَوَّلُ النَّجْوَى فِي الشَّرِّ مِنَ الشَّيْطَانِ.

وقوله تعالى: ﴿لِيَعَزَّزْتُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لَوْلَا أَنَّ الشَّيْطَانَ فِي حَالِ الْحُزْنِ ^(٥)، يَكُونُ أَمْلَكَ عَلَى قَسَادِهِمْ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِدْخَالِهِمْ فِي نَهْيِهِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَعَزَّزْتُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مَعْنَى.

فَدَلَّ أَنَّهُ - لَعَنَهُ اللَّهُ - فِي حَالِ الْحُزْنِ وَالْغَضَبِ أَمْلَكَ وَأَقْدَرُ مِنْ حَالِ السُّرُورِ وَالسَّعَةِ. لَكِنَّهُ بِمَا يَدْعُوهُ إِلَى اللَّذَاتِ، وَيُمَيِّهِ أَشْيَاءَ، كَانَ قَضْدُهُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُوقِعَهُ فِي الضِّيقِ وَالشَّدْوَةِ لِمَا هُوَ عَلَيْهِ أَقْدَرُ فِي تِلْكَ الْحَالِ.

وَلِلَّذَلِكَ قَالَ لَأَدَمَ وَحَوَّاءَ ﷺ: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ خَالِدٍ وَمَلِكٍ لَا يَبُلُ﴾ [طه: ١٢٠] تَلَقَّاهُمَا ^(٦) بِالْعُرُورِ الَّذِي ذَكَرَ، وَمَتَّاهُمَا ^(٧) بِمَا ذَكَرَ، وَكَانَ قَضْدُهُ مِنْ ذَلِكَ إِدْخَالُهُمَا فِي الضِّيقِ وَالْبَلَاءِ حِينَ ^(٨) قَالَ: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [طه: ١٢١] مَكَّنَ اللَّهُ تَعَالَى إِبْلِيسَ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي ذَكَرْنَا، وَلَمْ يُمَكِّنْ لَهُ مِنْ إِفْسَادِ الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ وَالْأَشْرِيَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهُوَ دُونَ الْأَوَّلِ، وَذَاكَ أَكْثَرُ. لَكِنَّ هَذَا فِي الضَّرْرِ الدُّنْيَاوِيِّ أَكْثَرُ، فَلَمْ يُمَكِّنْهُ مِنْ إِفْسَادِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ تَفْضُلًا مِنْهُ وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ بِضَارِرِينَ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي لَيْسُوا بِضَارِرِينَ فِي مَا يَتَنَاجَوْنَ مِنَ الْكَيْدِ بِهِمْ وَالْمَكْرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثم قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلَئِنْ تَوَكَّلَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فِي دَفْعِ مَنْ قَصَدَ الْكَيْدَ بِهِمْ وَالْمَكْرَ وَالْهَلَكَ. وَعَلَيْهِ يَتَوَكَّلُونَ فِي النَّصْرِ لَهُمْ وَالْمَعُونَةِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَالتَّوْفِيقِ لَهُمْ فِي كُلِّ خَيْرٍ. وَكُلُّ هَذَا وَصِفُ الْمُؤْمِنِينَ.

وَأَمَّا الْمُعْتَزَلَةُ فَهُمْ بِمَعْرُوفٍ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى قَوْلِهِمْ غَيْرُ مُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَغْطَى كُلًّا مِنَ النَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ مَا يَنْتَصِرُ عَلَى أَعْدَائِهِ، وَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ حَتَّى [لَمْ يَبْقَ] ^(٩) عِنْدَهُ مَزِيدٌ لِمَا يَنْصُرُهُمْ، وَيُعِينُهُمْ عَلَى شَيْءٍ.

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يحزن. (٦) في الأصل وم: تلقاهم. (٧) في الأصل وم: وناهم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: لا يبقى.

فعلى قولهم: لا يَقَعُ للمؤمنين في التوكل على الله تعالى شيء فليس عنده ما ينصرهم ولا ما يعينهم، فعلى ماذا يتوكلون عليه على قولهم إذ لم [يُعْطِهِمْ] ^(١) ما ذكرنا؟

ومن قولهم: أن على الله تعالى أن يُعْطِيَ مِنَ المعونة والتوفيق حتى لا يَبْقَى عنده مزيد حتى لو منَعَ شيئاً من ذلك لم يُعْطِهِمْ يكون جائراً. ثم إذا أعطاهم ما ذكروا لا يَهْتَدُونَ، ولا يَتَصَرَّوْنَ.

والله تعالى قال: ﴿إِنْ يَصْرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] وقال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى﴾ [الأعراف: ١٧٨] قَدْ لَ أَنْ مَا قَالُوا مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ.

ثم اختلفوا في اشتقاق النجوى: منهم من قال: هو مِنَ النجوة، وهو المكان العالي المرتفع؛ وذلك أنهم كانوا يقومون في مكان مرتفع، فيَتَحَدَّثُونَ فيه، ليرى مَنْ قَصَدَهُمْ، فيَتَفَرَّقُوا، أو كلام هذا معناه.

ومنهم من قال: الشاجي التحاكي بما ذكروا، فيكون معنى قوله: ﴿إِنَّا تَتَجَنَّيْكُمْ﴾ إذا تحاكيتكم ﴿فَلَا تَتَحَاكُوا﴾ بما ذكر.

وقال القتيبي: الشاجي مِنَ الشاور، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَبَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَاسْبَحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ لَكُمْ﴾ الآية: يُخْرِجُ على وجهين:

أحدهما: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَبَّحُوا﴾ أي إذا قيل لكم: تأخروا في المجالس فتأخروا ﴿وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا﴾ أي ارتفعوا، وتقدموا، فيكون قوله: ﴿تَسَبَّحُوا﴾ إذا كان الحضور أولاً هم الذين همهم السماع والعمل به دون أخليه والتفقه فيه، قيل لهم: تأخروا حتى يقرب من يصير إماماً للناس وفقهاً لهم.

وإذا كان الحضور هم الذين همهم التفقه، وهم الأئمة، ثم جاء بعد ذلك من كان همهم السماع والعمل به، قيل للذين تقدموا أولاً: ارتفعوا، أو تقدموا، حتى يسمع من حضر بعدكم قول النبي ﷺ والله أعلم.

والثاني: أنه إذا كان في المجلس أذن سعة أو فسحة ما يمكن تمكين غيره من التحريك والتفسيح دون القيام يقال لهم: تفسحوا، وإذا لم يمكن ذلك إلا بالقيام قيل لهم: قوموا، وارتفعوا، وتقدموا.

وقوله تعالى: ﴿يَسَّحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً.

أحدها: ﴿يَسَّحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ في القبر.

[والثاني] ^(٢): في الآخرة في الجنة.

[والثالث] ^(٣): ﴿يَسَّحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ في المجلس، وهو فسحة للقلب وتوسعة للعلم والحكم، والله أعلم.

وقال الحسن: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَبَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ أي في القتال والحرب ﴿وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا﴾ أي إذا قيل: انهروا إلى العدو، فانهروا. قال قتادة: أي إذا دُعِيتُمْ إلى خير أو صلاة فاجيبوا. وقال غيره: إلى كل خير من قتال عدو أو أمر بمغروف أو نهْي عن المنكر أو حق كائن ما كان، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ أخبر أنه يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم درجات لفضل العلم على سائر العبادات من الجهاد وغيره.

ألا ترى أنه قال في آية الجهاد: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥] جعل للمجاهدين على القاعدين فضل درجة، وللذين أوتوا العلم على الذين لم يؤتوا درجات لفضل العلم على غيره.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. (٣) في الأصل وم. أو.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا﴾ [التوبة: ١٢٢] قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُجْلِسُ قَوْمًا عِنْدَ مَجْلِسِهِ^(١) لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ، وَيُبَيِّنَ قَوْمًا سَرَايَا حَتَّى إِذَا رَجَعَتِ السَّرَايَا أَنْذَرَهُمُ الدِّينَ تَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ، وَتَعَلَّمُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَإِذَا كَانَ التَّأْوِيلُ هَذَا فَفِيهِ دَلَالَةٌ فَضِيلَةُ الْعِلْمِ عَلَى الْجِهَادِ حَتَّى أَخْرَجَ أَوْلَئِكَ إِلَيْهِمْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ يَنْفَرُ مِنْ كُلِّ قَوْمٍ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ، فَإِذَا رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْذَرُوا قَوْمَهُمْ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ بِالْعِلْمِ لَاهِلُهُ فَضِيلَةٌ، وَإِنَّ لَهُ عَلَى أَهْلِهِ حَقًّا، وَلَعَمْرِي الْحَقُّ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْعَالِمُ أَفْضَلُ، وَاللَّهُ يُعْطِي كَلًّا مِنْ فَضْلِ فَضْلِهِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُم تَنَافَسُوا﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا رَأَوْا أَخًا لَهُمْ مُقْبِلًا يَضُنُّونَ بِمَجَالِسِهِمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُفَسَّحَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ.

وَقَالَ مُقَاتِلٌ: أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا، فَسَلَّمُوا عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ وَمِنْ حَوْلِهِ، فَرَدُّوا السَّلَامَ، وَضُنُّوا بِمَجَالِسِهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يُوسَّعُوا لَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قُمْ يَا فُلَانُ [وَيَا فُلَانُ]^(٢) مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَشْهَدُوا بَدْرًا، [مِنَ الْمُنَافِقِينَ]^(٣) فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٢ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْهِ بِمَنَاقِبِكُمْ مَّدَقَّةً﴾ يُشِيرُ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ مِنْ مُنَاجَاةِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى وَجْهِهِ، وَالنَّاسُ فِي مُنَاجَاةٍ طَبَقَاتٍ:

أَحَدُهُمْ: يُنَاجِيهِ مُسْتَرَشِدًا فِي أَمْرِ الدِّينِ وَمَا يَنْزِلُ بِهِ مِنَ النَّوَازِلِ.

وَالْآخَرُ: يُنَاجِيهِ افْتِخَارًا بِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ وَمُبَاهَاةً مِنْهُ لِيُعْلِمَ أَنَّ لَهُ خُصُوصِيَّةً عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفَضْلًا لَهُ عِنْدَهُ، وَهُوَ صَنِيعُ الْمُنَافِقِينَ.

وَالْفَرِيقُ الثَّلَاثُ: يُنَاجِيهِ لِيَسْمَعُوا النَّاسَ الْكَذِبَ، وَيُسْمِعُوهُمْ غَيْرَ الَّذِي سَمِعُوا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَتَكُونُ لِلْكَذِبِ سَمْعًا لِّقَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾ [المائدة: ٤١] وَهُمْ الْيَهُودُ، وَصَنِيعُهُمْ مَا ذَكَرَ.

فَجَائِزٌ أَنْ تُخْرَجَ الْمُنَاجَاةُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الرَّجَاءِ / ٥٥٨ - أ / الَّتِي ذَكَرْنَا.

ثُمَّ مَا ذَكَرَ مِنْ تَقْدِيمِ الصَّدَقَةِ عَلَى الْمُنَاجَاةِ تُخْرَجُ عَلَى وَجْهِهِ:

أَحَدُهَا: أَمَرَ بِتَقْدِيمِ الصَّدَقَةِ لِعِظَمِ قَدْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْخُصُوصِيَّةِ لَهُ تَطَهَّرُ بِتِلْكَ الصَّدَقَةِ، وَيَصِيرُ أَهْلًا لِلْمُنَاجَاةِ بِهَا، وَهُوَ كَالطَّهَارَةِ الَّتِي جَعَلَهَا سَبِيلًا لِلْوُضُوءِ إِلَى مُنَاجَاةِ الرَّبِّ ﷻ.

وَالثَّانِي: لَمَّا خَصَّهُمْ بِمُنَاجَاةِ الرَّسُولِ ﷺ وَجَعَلَهُمْ أَهْلًا لَهَا أَمَرَهُمْ بِتَقْدِيمِ الصَّدَقَةِ شُكْرًا لَهُ مِنْهُ بِذَلِكَ.

وَالثَّلَاثُ: جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ أَمَرُهُمْ بِتَقْدِيمِ الصَّدَقَةِ امْتِحَانًا مِنْهُ لِيَأْمُرَ لِيُظْهِرَ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ، وَهُوَ مَا جَعَلَ الْأَمْرَ بِالْجِهَادِ سَبِيلًا لِيُظْهِرَ نِفَاقَهُمْ وَازْتِيَابَهُمْ فِي الْأَمْرِ، فَكَذَلِكَ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ بِالصَّدَقَةِ لِأَهْلِ الْمُنَاجَاةِ عَلَى الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ حَوَائِجُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَمْنَعُوهُ عَنْ قَضَائِ حَاجَاتِهِمْ بِالْمُنَاجَاةِ؛ أَمَرَهُمْ بِالصَّلَاةِ لِأُولَئِكَ تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أَيُّ إِنْ تَقْدِيمَ الصَّدَقَةِ أَظْهَرَ لِقُلُوبِهِمْ مِنْ تَرْكِ الصَّدَقَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْأَمْرُ لِأَهْلِ الْغِنَى دُونَ الْفَقْرِ حَتَّى قَالَ: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَجِدُوا﴾ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: نَفْسُهُ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: قَبْلَكُمْ فِي ذَلِكَ الْمُنَافِقُونَ.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ جَبْرَتِكُمْ صَلَاتَكُمْ﴾ قَالَ عَامَةُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: أَيِ ابْتِخِلْتُمْ بِهَا أَهْلَ الْمَيْسِرَةِ ﴿أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ جَبْرَتِكُمْ صَلَاتَكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا لَكُمْ مِنَ الْبُخْلِ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ جَبْرَتِكُمْ﴾ أَيِ تَجَاوَزَ عَنْكُمْ إِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أَيِ إِذَا لَمْ تَصُدَّقُوا تِلْكَ الصَّدَقَةَ فَأَتُوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ. قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: نَسَخَ مَا أَمَرُوا بِهِ مِنَ الصَّدَقَةِ عِنْدَ الْمُنَاجَاةِ بِمَا ذَكَرَ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِتَاءِ الزَّكَاةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ خَيْرٌ بِمَا قَمَلْتُمْ﴾ هَذَا وَعِيدٌ.

ثم فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ الرُّسُولَ﴾ دَلَالَةٌ قَبُولِ خَبَرِ الْوَاحِدِ لِأَنَّهُ يُنَاجِيهِ، وَلَا يَعْلَمُ بِهِ غَيْرُهُ، ذَلِكَ أَنَّهُ يَقْبَلُ إِذَا أُخْبِرَ بِهِ غَيْرُهُ.

وفيه أَنَّ لَا كُلَّ مُنَاجَاةٍ تَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَاجَى مَنْ ذَكَرَ، فَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ [الآية: ١٠] مَضْرُوفٌ إِلَى مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ.

وفيه أَلَا يُفْهَمُ مِنْ ذِكْرِ الْيَدِ الْجَارِحَةِ، لَا مُحَالَةً؛ فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿بَيْنَ يَدَيِ جَبْرَتِكُمْ﴾ وَلَيْسَ لِلنَّجْوَى يَدٌ، وَلَا لِ: بَيْنَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [فصلت: ٤٢] وَلَمْ يُشْكَكْ عَلَى أَحَدٍ أَنَّهُ لَمْ يَرُدْ بِالْيَدِ الْجَارِحَةِ هَهُنَا، فَكَيْفَ فُهِمَ فِي مَا أُضِيفَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] وَقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «الْصَّدَقَةُ تَقَعُ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ الْجَارِحَةِ» لَوْلَا فَسَادُ اغْتِنَادِهِمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى وَتَشْبِيهِهُمْ إِيَّاهُ بِالْحَلْقِ؟

وَقَالَ قَتَادَةُ: أَكْثَرُوا النَّجْوَى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَنْعَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ الرُّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ جَبْرَتِكُمْ صَدَقَتَكُمْ﴾ الْآيَةُ.

وَعَنْ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: أَنَا أَوَّلُ مَنْ عَمِلَ بِهَا، تَصَدَّقْتُ بِكَذَا، ثُمَّ نَزَلَتْ الرُّخْصَةُ.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ يَذْكُرُ سَفَهَ الْمُنَافِقِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَوَلِّيَهُمْ قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَلَى مَا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ غَضِبَ عَلَيْهِمْ، لَكِنَّهُمْ تَوَلَّوْهُمْ ظَمَعًا مِنْهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَفِي مَا كَانَ عَنْدهُمْ مِنَ السَّعَةِ وَفَضْلِ الدُّنْيَا.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْكُمْ، وَلَا أَنْتُمْ مِنْهُمْ، أَيِ عَلَى دِينِهِمْ، أَيِ أَوْلَئِكَ الْيَهُودُ، لَكِنَّهُمْ يَتَوَلَّوْنَهُمْ^(١) ظَمَعًا فِي مَا عَنْدهُمْ مِنْ فَضْلِ الدُّنْيَا ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذْبِ وَمَنْ يَمْلِكُونَ﴾ كَأَنَّهُ قِيلَ لَهُمْ: لِمَ تَوَلَّيْتُمْ قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؟ فَحَلَفُوا أَنَّهُمْ^(٢) لَمْ يَتَوَلَّوْهُمْ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِي حَلْفِهِمْ.

وفيه دَلَالَةٌ إِبْرَاطِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّهُمْ تَوَلَّوْا الْيَهُودَ سِرًّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَلَفُوا كَذِبًا، فَأَخْبَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوَلِّيهِمْ وَكَذِبِهِمْ فِي الْحَلْفِ. ذَلِكَ أَنَّهُ ﷺ عَرَفَ ذَلِكَ بِالرُّوحِ.

الآية ١٥ ثُمَّ أَخْبَرَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِتَوَلِّيهِمْ أَوْلَئِكَ وَحَلْفِهِمْ بِالْكَذِبِ، فَقَالَ: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيِ سَاوُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ بِعَمَلِهِمْ الَّذِي عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا.

الآية ١٦ وقوله تعالى: ﴿أَتَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أَيِ حَلْفُهُمُ الَّذِي حَلَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَتَوَلَّوْا أَوْلَئِكَ الْيَهُودَ جُنَّةً ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ صَدُّوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ صَدُّوا النَّاسَ عَنْ سَبِيلِهِ بِمَا ذَكَرَ ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ ثَمِينٌ﴾ أَيِ يُهَانُونَ فِي ذَلِكَ الْعَذَابِ.

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنفَيْ عَنْهُمْ أَتْرَافَهُمْ وَلَا أَوَّلَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ يُخْبِرُ أَنَّ أَمْوَالَهُمُ الَّتِي لِأَجْلِهَا تَوَلَّوْا الْيَهُودَ، وَعَانَدُوا الْمُؤْمِنِينَ، لَا تُغْنِيهِمْ تِلْكَ الْأَمْوَالُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْئًا إِذَا نَزَلَ بِهِمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَتَوَلَّوْنَهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ.

الآية ١٨ ثم اخبر عن شدة سفيهم أنهم يخلفون في الآخرة كما يخلفون لكم في الدنيا بقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا يَخْلِفُونَ لَكُمْ مَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ﴾.

ثم فيه أن الآية لا تضطر أحداً إلى الإيمان به والتوحيد، لأنه [لا آية^(١)] أعظم من قيام الساعة. ثم لم يمنعهم ذلك عن الكذب والكفر به، ولا اضطرتهم إلى الإيمان به.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَوْ كُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] في الدنيا.

فإذا كان ما ذكرنا كان تأويل قوله تعالى: ﴿إِنْ لَمْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لِمَا كُفِرُوا بِهِ﴾ [الشعراء: ٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَتَكَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْكُوفَ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ فَبَلَوا مَا كَانُوا يُؤْمِنُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١] أنهم يؤمنون إذا شاء الله، ولا يؤمنون وإن نزلنا عليهم الآيات التي ذكر، ولا آية أعظم مما ذكر من إنزال الملائكة وإحياء الموتى وتكليمهم أنهم على الباطل، وأن الحق هو الذي دعا رسول الله ﷺ إليه.

دل هذا كله أن الآية لا تضطر أحداً^(٢) إلى الإيمان، والله أعلم.

الآية ١٩ وقوله تعالى: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ﴾ قال ابن عباس عليه السلام: ﴿اسْتَوَىٰ﴾ [أي غلبهم^(٣)] الشيطان. وقال مقاتل: أي أحاط بهم. وقال الزجاج والفقي: أي استولى عليهم؛ وذلك كله راجع إلى معنى واحد.

وفيه أن الشيطان قد تسلط عليهم حتى تغلب عليهم بإجابتهم إلى ما دعاهم إليه من معاداة الله ورسوله والمؤمنين. ولكن سلطانه على ما ذكر، وهو قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ﴾ [النحل: ١٠٠] فعليهم إذا عملوا بما أراد، وأجابوه إلى ما دعا.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنسَهُمُ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ يَحْمِلُ أي أنساهم عظمة الله أو نعم الله وإحسانه أو شكر نعيمه.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ الحزب هو جنح الفرقي، تحزبوا أي تفرقوا، فحزبه هو جنده كما قال أهل التأويل لأنهم يصيرون فرقا، ثم يجتمعون، فيكونون^(٤) جنداً له، وجند الرجل، هم الذين يستعملهم في ما شاء من القتال وغيره، ويصدرون^(٥) ليرأيه. فعلى ذلك أولئك الكفرة، هم جنده.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِنْ حِزْبَ الشَّيْطَانِ مُمْلِكِينَ﴾ لأنه مناهم في الدنيا، وأملهم تأملاً في ما اتبعوه، فلم يصلوا / ٥٥٨ - ب/ إلى شيء من ذلك. وفي الآخرة بقوله: ﴿أَنْ لَا يَغْتَنَ﴾ ولا جنة، ولا نار، فلهم فيها عذاب، فحسروا الدارين جميعاً.

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْآذِينَ﴾ قيل: في الأسفلين، وقيل: في المهزومين، وقيل: في الآخرين كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وأما في الدنيا فربما يكونون هم الغالبين، ومنهم من يقول: ذلك في الدارين جميعاً هم الأذلاء، والله أعلم.

الآية ٢١ وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي قضى الله لأغلبن. ثم قال بعضهم: ليغلبن محمد ﷺ كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] وقيل ذلك.

وجائز أن يكون المراد منه جملة رسوله كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا لِمَادَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [إِنَّهُمْ لَكُمُ الْمَکْرُورُونَ] ﴿وَلَقَدْ جَاءَنَا لَمُ الْكَافِرِينَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١].

ثم الغلبة قد تكون من وجهين:

أحدهما: بالحجج والبراهين، وما من رسول إلا وقد غلب على خصمائه بالحجة.

والثاني: بالقتال والحرب، وكانت العاقبة للرسول ﷺ لما لم يذكر أنه قتل رسول الله ﷺ والله أعلم.

(١) في الأصل وم: الآية. (٢) في الأصل وم: أهلها. (٣) من م، في الأصل: عليهم. (٤) في الأصل وم: ويكون. (٥) في الأصل وم: ويصدرون.

وإضافة الغلبة إلى نفسه على إرادة الرسل أولياءه على [ما] ^(١) ذكرنا في غير موضع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قوي بذاته، لأنه تكون قوة ^(٢) من دونه [به] ^(٣) وكذلك كل من دونه يتكويبه، أو تكون فيه بشاره لأوليائه أنه قوي عزيز بذاته، أنه ينصرهم على أعدائهم، ويقرهم ^(٤).

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحِجُّ قَوْمًا يَزُونَهُ بِاللهِ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية: قال عامة أهل التأويل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة لأنه كان كتب إلى أهل مكة أن رسول الله، يقصد إليكم، فخذوا حذركم، وكان له بمكة أهل، فأراد أن يكون له عندهم يد، فشعر بذلك رسول الله ﷺ فقال: ما حملك على هذا؟ فقال ما ذكرنا، فنزلت الآية.

إذا كان نزلها فيه على ما ذكرنا فهي في براءته من وجهين:

أحدهما: أنه لم يرجع عن الإيمان والتضديق لرسول الله ﷺ وأنه لا يعود إلى مثله بعد ذلك أبداً.

والثاني: أنه لم يقصد بصنيعه موادتهم، ولكن قصد إلقاء المودة إليهم ليقع عندهم أنه وادهم، وهو في الحقيقة يلقي المودة، وقد يكون ذلك كقوله تعالى: ﴿تَلَقَّوْنَهُمْ بِالْمَوْدَةِ﴾ [الممتحنة: ١] والله أعلم.

وإن كانت الآية في غير حاطب فهي بالمؤمنين الذين حققوا الإيمان بالله تعالى، وثبتوا عليه، لأن أهل الإيمان كانوا أصنافاً ثلاثة:

صنف محققون الإيمان مظهرين القتال مع أعدائهم، وصنف منهم، لا يقدرون على إظهار ذلك والمناصبه معهم، ولكن يتبعون الأقوياء منهم، والصنف الثالث ^(٥) مترددون، يؤادون الكفرة في السر، ويظهرون الموافقة للمؤمنين.

فجائز أن يكون قوله تعالى: ﴿لَا يَحِجُّ قَوْمًا يَزُونَهُ بِاللهِ﴾ أي الذين يحققون الإيمان بالله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ولكن إنما يؤادون من لم يحقق الإيمان، فيكون فيه إخبار عن إثبات الإيمان في قلوبهم كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي أثبت في قلوبهم الإيمان، فلا يرجعون عنه.

وفيه أن الإيمان، موضعه القلب.

وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان للقوم يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يؤادوا من حاد الله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ قيل: أيدهم بنور الإيمان الذي أثبت في قلوبهم. وأخبر أنه أثبت المؤمنين على الإيمان، فقال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وقال: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

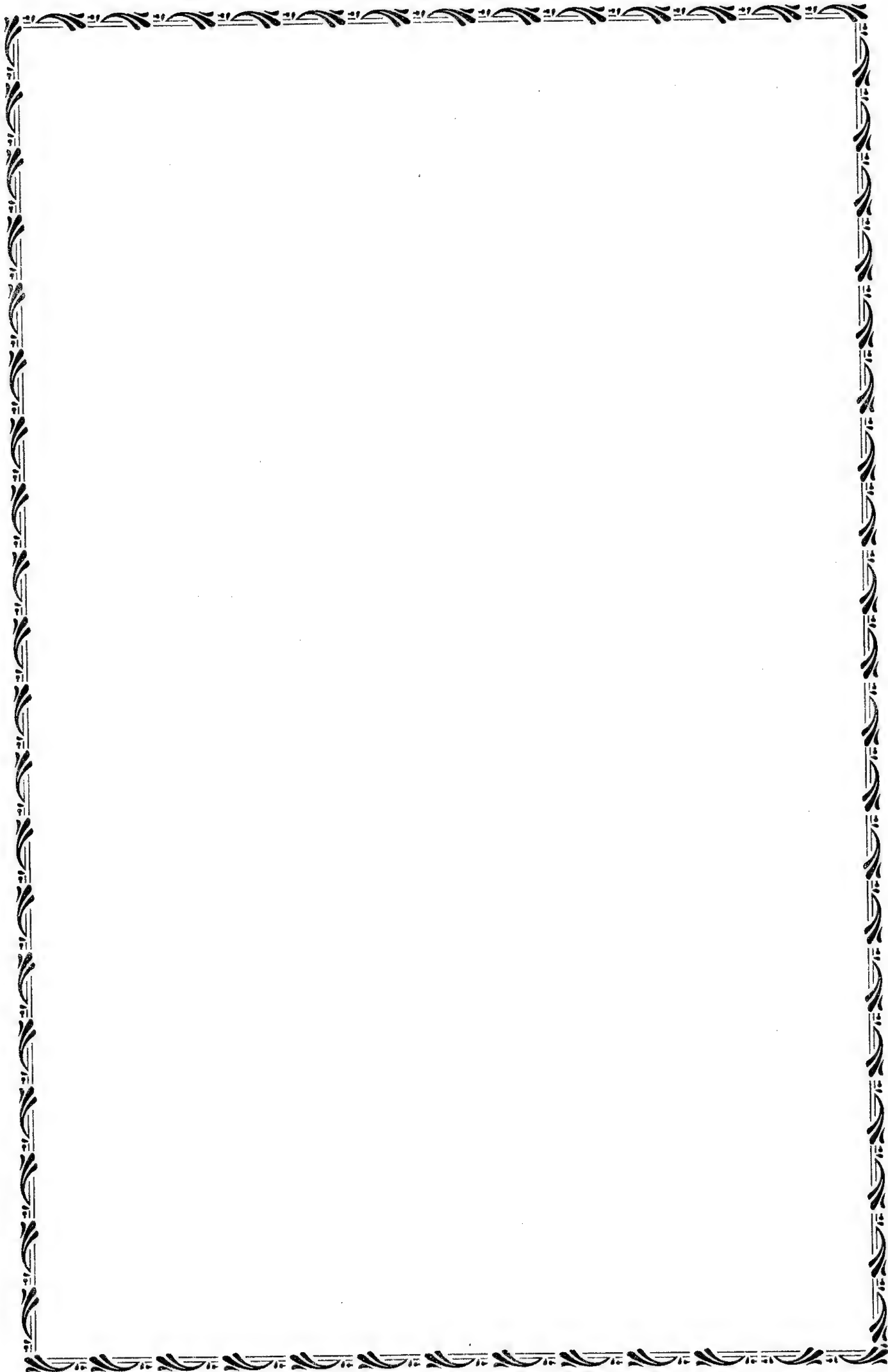
وقيل: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي برحمته منه.

ثم وصف حالهم وثوابهم في الآخرة، فقال: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ أي جند الله على ما ذكرنا أنهم يأتيمرون بأمره، ويقايلون أعداءه، ويوالون أولياءه، فهم جند الله.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قيل: هم الناجون، وقيل: الباقون في نعم الله تعالى [والله أعلم بالصواب] ^(٦).



(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: قوته. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: ويقرهم، في م: ويقرهم. (٥) من م، في الأصل: الثاني. (٦) من م، ساقطة من الأصل.



سورة الحشر

[وهي مكية^(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

وقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قد سبق تأويلُ التسييح وبيانُ وجوهِهِ. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيزُ، هو الغالبُ القاهرُ، وقيل: هو العزيزُ حينَ^(٢) جَعَلَ في كُلِّ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ أَثَرَ الذَّلِّ والحاجةِ.

وقوله تعالى: ﴿الْحَكِيمُ﴾ لَهُ مَعْنَيَانِ^(٣): مَعْنَى الإِحْكَامِ وَمَعْنَى الْحِكْمَةِ: فَاثَمَا مَعْنَى الإِحْكَامِ، فَهُوَ أَنَّهُ أَخْكَمَ الْأَشْيَاءَ عَلَى اخْتِلَافِهَا وَتَضَادِّهَا حِينَ^(٤) تَشْهَدُ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ. [وَأَمَّا مَعْنَى الْحِكْمَةِ، فَهُوَ أَنَّهُ]^(٥) وَضَعَ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَخَلَقَ لِلْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَ. ثُمَّ الْأَصُولُ الَّتِي تَتَوَلَّدُ مِنْهَا هَذِهِ الْأَشْيَاءُ وَالْأَفْعَالُ ثَلَاثَةٌ: الْكِيَانَاتُ وَالطَّبَائِعُ وَالْعُقُولُ: أَمَّا الْكِيَانَاتُ فَتَنَحَوُ النَّظْفَةَ [إِنَّهُ خَلَقَهَا]^(٦) بَحِيثٌ تَضَلُّعٌ أَنْ يَكُونَ مِنْهَا الْبَشَرُ، إِذَا اتَّصَلَتْ بِهَا مَوَادُّهَا، وَتَنَحَوُ الْمَاءُ؛ إِنَّهُ جَعَلَهُ بَحِيثٌ يَخْبَى بِكُلِّ شَيْءٍ، وَبَحِيثٌ يَضْلُعُ بِكُلِّ شَيْءٍ. وَالطَّبَائِعُ خَلَقَهَا^(٧) فِي الْبَشَرِ، وَهِيَ مَا يَمِيلُونَ بِهَا إِلَى الْمَحَاسِنِ وَالْمَنَافِعِ، وَيَحْذَرُونَ مِنَ الْمَسَاوِي وَالْمَضَارِّ. وَالْعُقُولُ خَلَقَهَا لِيُذَكِّرُوا بِهَا^(٨) الْعَوَاقِبَ. ثُمَّ إِنَّهُ عَلَّمَهُمُ الْوَجْهَ الَّتِي تَتَوَلَّدُ مِنْهَا الْأَشْيَاءُ، فَهُوَ حَكِيمٌ حِينَ^(٩) خَلَقَ الْأَصُولَ الَّتِي وَصَفْنَا، وَعَلَّمَ عِبَادَهُ الْأَسْبَابَ الَّتِي بِهَا يُوَلَّدُونَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [قِيلَ: ^(١٠) هُمْ بَنُو قُرَيْظَةَ، وَقَالَ جَمَاعَةٌ^(١١) مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: هُمْ بَنُو النَّضِيرِ، وَهُوَ أَقْرَبُ.

ثُمَّ الْمَعْنَى / ٥٥٩ - / فِي إِضَافَةِ الْإِخْرَاجِ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَخَذَهُمَا: أَنَّهُ اضْطَرَّ لَهُمُ إِلَى الْخُرُوجِ، فَتَسَبَّبَ الْإِخْرَاجُ إِلَيْهِمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخْرَجْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الآية: التوبة: ٤٠]. وَالثَّانِي: أَنَّهُ خَلَقَ الْخُرُوجَ مِنْ دِيَارِهِمْ مِنْهُمْ، فَأَضِيفَ إِلَيْهِ بِحُكْمِ الْخَلْقِ. ثُمَّ الْأَصْلُ فِي إِضَافَةِ الْفِعْلِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ عَلَى التَّحْقِيقِ وَعَلَى التَّشْبِيهِ. فَاثَمَا [إِضَافَةُ الْفِعْلِ إِلَى]^(١٢) الْخَلْقِ قَلِمَا يُضَافُ الْفِعْلُ إِلَيْهِمْ عَلَى جِهَةِ التَّشْبِيهِ لَا عَلَى التَّمْكِينِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ اخْتَلَفُوا فِيهِ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَوَّلُ الْحَشْرِ الْجَلَاءُ إِلَى الشَّامِ، وَالْحَشْرُ الثَّانِي: حَشْرُ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَوَّلُ الْحَشْرِ، هُوَ حَشْرُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَجَلَاؤُهُمْ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَالْحَشْرُ الثَّانِي حِينَ أَجْلَاهُمْ عُمُرُ ﷺ إِلَى الشَّامِ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: معنيين. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وحكيم وم: وحكيم حيث. (٦) في الأصل وم: أنها. (٧) في الأصل وم: خلق. (٨) من م، في الأصل: به. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: غيره. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ أي ما ظننتم أيها المؤمنون أن تنصروا منهم فضلاً عن أن يخرجوا من ديارهم، ولكن ذلك من لطف الله وميثاق عليكم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ظَنَّنَا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ ولا يحتسب أن يتوهم أحد هذا. والمعنى في ذلك عندنا وجهان، والله أعلم.

أحدهما: أنهم ظنوا أن الله تعالى حين^(١) آتاهم القوة والحصون لا يبلغ بهم حكمه المبلغ الذي يخرجون من ديارهم لأنهم كانوا أهل الكتاب، وكانوا يزعمون أنهم أولى بالله من غيرهم كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَأَبْنَىٰ مِنَ اللَّهِ وَأَجْبَرُ﴾ [المائدة: ١٨] ويكون قوله: ﴿يَنْ أَلَّهِ﴾ أي بالله وبأمره كقوله تعالى: ﴿لَمْ تُمْكِنْتَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي بأمر الله. فعلى ذلك [﴿مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ﴾]^(٢) يَنْ أَلَّهِ أي بأمر الله. فعلى ذلك الأول.

والثاني: أنهم^(٣) ظنوا أن حصونهم وقوتهم تمنعهم من أولياء الله أن يظهر عليهم أو من دين الله أن يظهر فيهم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ يعني أنه قدف في قلوبهم الرعب من حيث لم يحتسب المؤمن ولا الكافر، لأن المسلمين لم يظنوا أن يظهروهم، ويغلبوهم مع قلة عددهم وكثرة عدو أولئك.

وكذا لم يحتسب الكفرة أنهم مع قوتهم وقوة حصونهم يظهرون، ويغلبون، حتى من الله تعالى على المؤمنين. فإن قدف الرعب في قلوب الكفرة، ذلك لطف عظيم من الله تعالى إلى المؤمنين، والله أعلم.

ثم الأصل في ما خرج هذا المخرج من نحو قوله ﷺ ﴿قَالَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦] ومن نحو قوله تعالى: ﴿وَبِأَيِّ رَيْكَ وَالْمَلِكِ صَفَا﴾ [الفجر: ٢٢] ومن نحو قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُمٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْكَلْبُكَّةِ﴾ [البقرة: ٢١٠] وما يشاكله أن يحمله على إحدى معاني ثلاثة:

أحدها: أن يكون^(٤) المراد إتيان آثار فعل الله تعالى؛ ويجوز أن يضاف إليه سبيل إضافة حقيقة العمل كما يقال: الصلاة أمر الله، ونحن نعلم أنها ليست بعين أمر الله، لكنها أثر أمر الله تعالى، وكذلك يقال: المطر رحمة الله تعالى؛ يعني أثر رحمته. فكذا إذا نزل بهم آثار حكم الله تعالى وتدبيره وفعله، وهي العذاب جاز أن تضاف [إليه آثار]^(٥) حقيقة الفعل، والله أعلم.

والثاني: أن يقال: إن ما كان من هذه الأفعال موصولاً بصلته فإنه يجوز أن يراد منه تلك الصلة، وإنما نتكلم بإضافة^(٦) هذا الفعل إليه مجازاً على ما اعتاد الناس من أفعالهم إذا أرادوا^(٧) أن يأتوها بأنفسهم.

وشرح ذلك وبيانه أنه قال: ﴿قَالَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ الشَّقَقُ مِنْ قَرْبِهِمْ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وكذلك ما أشبهه من نحو قوله تعالى: ﴿وَبِأَيِّ رَيْكَ وَالْمَلِكِ صَفَا﴾ [الفجر: ٢٢] ومن [نحو]^(٨) قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] وفصلت: ١١] أي استوى تدبيره من حيث وصل منافع الأرض بمنافع السماء، وكذلك ما أشبه هذا، والله أعلم.

والثالث: يقول: إن هذه أسماء مشتركة المعنى. وما كان سبيله هذا السبيل جاز أن يضاف إلى الله تعالى على معنى ليس يقع فيه الاشتراك بالمخلوقين.

ألا ترى أنه يقال: جاء الليل، وذهب النهار ونحو ذلك على معنى الظهور ونحوه؟

وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ بِيَوْمِهِمْ وَيَأْتِيهِمُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا يدل على أن الملك للمسلمين في أموال أهل الحرب، ليس

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يحفظونه. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: يقول. (٥) من نسخة الحرم المكي، في م: إضافة، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: بالإضافة. (٧) في الأصل وم: أردوها. (٨) ساقطة من الأصل وم.

يَقَعُ بِمُجَرَّدِ الْعَلْبَةِ مَا لَمْ يَكُنْ ثُمَّ أَسْرَ لَأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يُخْرِبُونَ بِيُوتَهُمْ؛ أَضَافَ الْمُلْكَ إِلَى الْكَفَرَةِ مَعَ أَنَّ الْعَلْبَةَ لِلْمُسْلِمِينَ. فَإِنَّكُمْ إِذَا اغْتَبَرْتُمْ عَلِمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ مَنَّ عَلَيْكُمْ حِينَ^(١) أَخْرَجَ الْكَفَارَ مِنْ دِيَارِهِمْ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِقَوَّيْكُمْ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى فِيهِ ﴿فَاعْتَرِضُوا بِأُتَالَى الْأَبْصَرِ﴾ مِنْ أَهْلِ الْكُفَارِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَذُلُّكُمْ، وَيَعْرِفُكُمْ، أَنَّ اتِّفَاقَكُمْ عَلَى النَّفَرَةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لَا يُغْنِيكُمْ كَمَا لَمْ يُغْنِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ خَرَجُوا إِلَى مَكَّةَ، وَاتَّفَقُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ لَمْ يُغْنِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ في اللُّوحِ الْمُحْفُوظِ ﴿لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا﴾ بِالْقَتْلِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قَالَ هَذَا فِي قَوْمٍ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ عَلَى الْكُفْرِ، وَمَا رُويَ أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ مَاتَ عَلَى الْإِسْلَامِ فَيَكُونُ فِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُخْبِرُ ذَلِكَ بِالْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يَحْتَمِلُ أَوْجَهًا ثَلَاثَةً^(٢):

أَحَدُهَا: أَنْ يَكُونَ^(٣) هَذَا الْعَذَابُ فِي الْآخِرَةِ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. ثُمَّ الْمُشَاقَّةُ وَالْمُعَادَاةُ وَالْمُحَادَّةُ وَالْمُضَادَّةُ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَذَلِكَ كُلُّهُ بِمَعْنَى الْمُعَادَاةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ؛ وَوَجْهُهُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَكُونُ فِيهِ إِضْمَارٌ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ عَقوبَتَهُ لِمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ شَدِيدَةٌ.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَسَنَةٍ أَوْ تَرَكَتُمْهَا قَلْبًا عَلَى أُمُورِهَا فَيَافِكُنَّ﴾ وَمَا ذَكَرَ أَنَّ الْيَهُودَ نَادَوْا الْمُسْلِمِينَ أَنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ، وَأَنْتُمْ تُفْسِدُونَ بِقَطْعِ النَّخِيلِ، لَا يَحْتَمِلُ هَذَا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى قَبْلَ [ذَلِكَ]^(٤): ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فَإِذَا كَانَتْ أَنْفُسُهُمْ تَسْخَى بِتَخْرِيبِ الْبُيُوتِ فَمَا بِأُفْعَا لَا تَسْخَى بِقَطْعِ الْأَشْجَارِ؟

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يُؤْمَلُ فِي الْبُيُوتِ مَنْفَعَةٌ بَعْدَ تَخْرِيبِهَا، وَقَدْ يُؤْمَلُ فِي النَّخِيلِ مَنَافِعٌ بَعْدَ قَطْعِهَا. وَلَكِنْ إِنْ كَانَ يَصِحُّ ذَلِكَ الْخَبَرُ فَتَأْوِيلُهُ عِنْدَنَا أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُونَ خَوْفُهُمْ بِالْقَتْلِ، فَقَالُوا عَلَى إِنْ ذَلِكَ: إِنَّكُمْ إِذَا قَتَلْتُمُونَا صَارَتْ هَذِهِ النُّخْلُ مُلْكًا لَكُمْ، فَكَيْفَ تُفْسِدُونَ أَمْلَاكُمْ؟

ثُمَّ فِي إِذْنِ اللَّهِ بِقَطْعِ النَّخِيلِ أَوْجَهُ^(٥) مِنْ التَّأْوِيلِ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَكُونَ فِيهِ بَيَانٌ أَنَّ مُقَاتَلَةَ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهُمْ لَمْ تَكُنْ لِرَغْبَةٍ فِي أَمْوَالِهِمْ بَلْ لِيَسْتَسْلِمُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَيَخْضَعُوا لِدِينِهِ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ حُرْمَةَ هَذِهِ الْأَمْوَالِ إِنَّمَا هِيَ لِحُرْمَةِ أَرْبَابِهَا، وَأَبْيَحُ قَتْلُهُمْ وَإِتْلَافُهُمْ، فَمَا ظَنُّكَ بِأَمْوَالِهِمْ؟

وَالْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّ اللَّهَ ﷻ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَنْفُسَهُمْ بِالْجَلَاءِ إِذَا خَرَّبَتْ بِيُوتَهُمْ، وَقُطِعَتْ أَشْجَارُهُمْ أَسْخَى مِنْهُ إِذَا بَقِيَتْ؛ لِيُقَطَعَ ظَمْعٌ مِنْ أَجْلِ عَيْنِ الْمَقَامِ. فَأُذِنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَطْعِ النَّخِيلِ إِيَّاهُمْ / ٥٥٩ - ب/ لِمَا كَتَبَ عَلَيْهِمُ مِنَ الْجَلَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[وَالْوَجْهُ^(٦) الرَّابِعُ: أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا أُمَّةَ الْيَهُودِ وَالتَّخْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ لِلتَّوْرَةِ، إِنَّمَا وَقَعَ مِنْهُمْ رَغْبَةٌ فِي الدُّنْيَا وَسَهْوَةٌ، فَأُذِنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَطْعِ النَّخِيلِ عِقَابًا لَهُمْ وَخِزْيًا مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي وَقَعَ لَهُ التَّبْدِيلُ مِنْهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَيَافِكُنَّ﴾ إِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ الْعِلْمُ فَوَجْهُهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِالْقَطْعِ وَالتَّرْكِ جَمِيعًا، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ الْمَشِينَةُ فَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ شَاءَ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) لَمْ يَذْكُرِ الْمُؤَلِّفُ أَبُو مَنْصُورٍ إِلَّا وَجْهًا وَاحِدًا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقُولُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْجَهًا. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وَاللَّيْنَةُ اللَّوْنُ مِنَ النَخِيلِ كَمَا تَقُولُ: قُوْتُ وَقِيْتَةُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي ليكون كنبأً وغيظاً للفاسقين، والله أعلم.

الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ قال: حق هذه الآية أن تكون مؤخره، وأن يكون قوله ﷺ: ﴿وَمَا آتَاهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ متقدماً^(١) لوجهين:

أحدهما: أنه ذكر فيه الواو، والواو لا يبتدأ بها إلا في القسم.

والثاني: أن قوله: ﴿وَمَا آتَاهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ [الواو]^(٢) حرف كناية، والكناية لا بُدَّ لها من معرفة، تُعطف عليها، فيرجع إليها. فلذلك قلنا: إن حقه التأخير، وحق الثانية التقديم. وعلى ذلك قراءة عبد الله بن مسعود ﷺ.

وإذا كان كذلك فوجهه أن الذي وجب صرفه إلى الأصناف إنما هو الخمس، وأوجب ههنا من كل الغنيمة، فأبان بقوله: ﴿وَمَا آتَاهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أنه إنما تُصرف هذه أربعة^(٣) الأخماس إلى النبي ﷺ دونهم لهذا المعنى أنهم لم يؤجفوا عليه من خيل ولا رِكَابٍ؛ أشار إلى أن استحقاقهم أربعة^(٤) الأخماس بسبب إيجاب الخيل والركاب.

وإن كانت القراءة على ما يتلى للحال، ليست على التقديم والتأخير فإنه يحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ صلة قوله: ﴿يُخْرِجُونَ يَتُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَمَا آتَاهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾.

وإن كان بناءً على ذلك استقام أن يُذكر بحرف الواو [وهو]^(٥) حرف الكناية.

قال ﷺ: المنافقون^(٦) وأهل الضعف من المؤمنين الذين آمنوا بالتقليد يظنون في هذا الموضع أن كيف خص هذه الغنيمة قرابته والمهاجرين الذين هاجروا إليه؟ وكيف أثر بها نفسه؟ والجواب عن هذا أن هؤلاء الأصناف قوم عامة المسلمين، تحمل مؤنتهم لولا هذه الغنيمة.

ومعلوم أن أنفس المسلمين يبدل ما عليهم من تلك الأمانة أسخى منه لو صرف إلى كل واحد منهم على الإشارة إليه من مذكرو الخاص.

وعلى هذه العبارة تجري مسائل لنا:

أحدها: ما روي عن عمر ﷺ أنه جعل العقل على أهل الديوان لأن ذلك يُخرج مُخرج المؤونة.

ومعلوم أن المؤونة على عامتهم، فيدل ما رجع من هذا الحق إلى تلك العامة أسهل عليهم، لو صرف إلى خاصتهم. وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ إِلَى الْكَفَّارِ فَقَاتِلُوا الَّذِينَ دَخَلُوا أَرْبَاعَهُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفِ أَلْفٍ﴾ [الممتحنة: ١١].

ومعلوم أن منع تلك الزوجة عن أن يذهب إلى الحرب بشيء من مال زوجها كان واجباً على العامة، وكذلك المسلمون إذا أصابوا غنيمة، وفيها مال مسلم، قد غلب عليها المشركون^(٧)، أنه ما دام الملك للعامة، ولم يقسم، يرد عليه من غير بدل. وإذا قسموا، واختص كل واحد بملكه لم يأخذه إلا يبدل، فذلك الأول، والله أعلم.

قال الفقيه، رخصة الله عليه: والذي يجب من جهة العرف والشرعية أن يكون تحمّل مؤنة رسول الله ﷺ على أمته. أما من جهة العرف فهو أن من عمل لغيره كانت مؤنته على ذلك القول له، وكذلك من جهة الشرعية.

ومعلوم أن رسول الله ﷺ كان يقوم بأمور أمته في أمور دنياهم وآخرتهم. وإذا كان الأمر على ما ذكرنا [كان]^(٨) أولى ما يُجعل لرسول الله ﷺ هو مال العامة، وذلك هو القيء. هذا لو اختصه النبي ﷺ لنفسه. فكيف وقد قسمه بين الفقراء وأهل الحاجة، ولم يؤجده لنفسه؟

(١) في الأصل وم: متقدمة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الأربعة. (٤) في الأصل وم: الأربعة. (٥) في الأصل وم: و.

(٦) في الأصل وم: المنافقين. (٧) من م، في الأصل: المشركين. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

ووجه آخر في هذا ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أجلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي» [البخاري ٣٣٥] وقال: «نصرت بالرعب مسيرة شهرين» [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦] فلو اقتص ذلك رسول الله ﷺ جاز له بما قال، ولكن الله جعل الفية له بين من كان تحمل مؤنتهم على المسلمين لولا هذا الفية كي تكون المنة له على أمته ولئلا يكون لأحد من أمته عنده ﷺ يد ولا صنعة، والله أعلم.

ووجه آخر: أنه لم يؤذن لرسول الله ﷺ في كسب شيء من الدنيا وقضولها حتى يضطلع من فضولها بالمعروف، فجعل الله له الفية ليكتسب به الفضائل والمعروف، والله أعلم.

وفي قوله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهرين» دلالة أن ما آفاه الله على رسوله، وأعطاه، فهو له خاصة، يضنح به ما شاء، ويقرقه في من شاء.

والقول عند أصحابنا في الإمام إذا أعطاه أهل الحرب أن يشرك^(١) فيه قومه لأن هبة الأئمة إنما هي لقومهم، وكانت هبة رسول الله ﷺ بما نصير بالرعب، فجاز أن يختص لنفسه، والله أعلم.

ثم قوله تعالى: ﴿مَّا آفَاةَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ يعني رد الله على رسوله من ملك الكفرة، أو ما أعطى الله رسوله من ملك الكفرة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ يجوز أن يكون [أهل]^(٢) القرى قد أعطوه، أو يكون هذا^(٣) إشارة لرسول الله ﷺ في فتح القرى.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْقُرَىٰ﴾ يجوز أن يقال: إن الظاهر من هذه الآية أن يكون المراد منها قرابة رسول الله ﷺ. وأما في قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْقُرَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١] فقرابة رسول الله ﷺ إنما تدخل في هذه الآية بالتأويل. وذلك أن المفهوم من ذكر القرابة إنما هو قرابة المخاطبين في الآية.

ومعلوم أن الخطاب في القسمة إنما هو للمؤمنين، وفي قوله ﷺ: ﴿مَّا آفَاةَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ إنما هو يفهم منه قرابة الرسول ﷺ وأما سهم ذي القرى فإن أصحابنا يسلكون في ذلك مذهبين:

منهم من يقول: إن هذا الحق في الأصل للمحتاجين من القرابة لوجهين: أحدهما: قوله تعالى: ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْأَنْفُسَ الَّتِي فِي الْبُيُوتِ﴾. كان المراد منه منصرفاً إلى المحتاجين، فكذلك في القرابة^(٤).

ومنهم من قال: إن الخمس كان لرسول الله ﷺ يصل به قرابته. فلما قبض ﷺ انقطع ذلك الحق لوجهين: أحدهما: قوله ﷺ: «إنا معاشر/ ٥٦٠-أ/ الأنبياء لا نورث» ما تركنا صدقة [بنحوه النسائي ١٣٢/٧ والتمهيد ٨/ ١٧٥]. والثاني: أنهم إنما كانوا يستوجبونه برسول الله ﷺ فإذا قبض انقطع ذلك الحق على سبيل انقطاع الحق عن أصحابها^(٥) عند وفاتهم.

ثم الفائدة في منع ما كان لرسول الله ﷺ عن الورثة وجهان: أحدهما: أن رسول الله ﷺ كان لا يستعمل نفسه في شيء من لذات الدنيا وشهواتها، وكان قائماً لله تعالى خالصاً. فإذا كان كذلك جاز أن تكون حقيقة الملك فيه ليموله، وإن كان في الظاهر له، والله أعلم.

فإن قيل: اليس^(٦) الأملأ كلها لله تعالى؟ قيل لهم: نعم غير أن الإضافة قد تكون خصوصية حال كقوله تعالى: ﴿نَافَاةَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] وقوله تعالى: ﴿أَن طَهَرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ [البقرة: ١٦] ^(٧).

(١) في الأصل وم: يشترك. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هذه. (٤) لم يذكر المؤلف الوجه الثاني. (٥) في الأصل وم: أصحابنا. (٦) الهمزة ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وبيت الله.

ووجه آخر ما كان لرسول الله ﷺ محبوباً عليه إلى يوم القيامة. ألا ترى أن زوجاته محبوسات عليه، لا يخللن لأحد بعده؟ ونبوته عليه لم تتحول بعده إلى غيره؟ جاز أيضاً أن توفقت عليه الصلاة والسلام.

ومعلوم أن ما كان موقوفاً فسيله التصديق، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ لَا يَكُنْ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ له معنيان:

أحدهما: أنه لو لم يبين هذه المواضع لكان ذلك الخمس الذي كان لرسول الله ﷺ يخلفه فيه الخلفاء من بعده، فيتداوله الأغنياء بينهم.

ومعنى آخر: لو فرق هذا بين الفقير والغني لكان حين يقع هذا في [يد الغني] ^(١) كان يكسب ^(٢) به فضول الدنيا، وأما الفقير فأول [ما] ^(٣) يقع في يده يستمتع به في منافع [نفسه] ^(٤) فلذلك فرق في الفقراء، والله أعلم.

وقال بعضهم: الدولة، هي اسم للذي يدول بين الناس، والدولة واحدة، وهي قنلة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَاكُمْ الرِّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ يعني ما أعطاكم رسول الله ﷺ من هذه العنيفة فخذوه، ولا تظنوا به ظناً مكروهاً ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ ليس [نهى] ^(٥) زجر وشريعة، ولكن نهى منع، وما منع منكم من هذا الفبي فانتهاوا عنه.

وعلى قراءة ابن مسعود ﷺ ﴿وَمَا أَلَاكُمْ الرِّسُولَ فَخُذُوهُ﴾ يتحمل معنى الأمر ومعنى الإعطاء، أي ما آتاكم من الدنيا فخذوه، وما نهاكم من الدنيا عنه؛ يعني زجركم عنه.

قال، رحمه الله: ويروى ^(٦) عامة الفقهاء [ما يحتجون] ^(٧) بهذه الآية في موضع مع لفظ الإتياء، وليس يوجب ظاهره هذا؛ إذ الإتياء هو الإعطاء والتعليك كقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣ و. . .] ولكن وجه الاحتجاج به أن الله تعالى لما أمرنا بأخذ معروفه ﷺ وإن كان في أخذ المعروف من غيره ﷺ خياراً، فلأن إلزامنا ^(٨) الأخذ بأمره والإتياء له أخرى وأولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَلَاكُمْ إِنْ أَلَّاكُمْ سَيِّدُ الْعَقَابِ﴾ هذا يؤكد ما ذكر من اتباع أمره، والله أعلم.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الآية، وما ينسق عليه من قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الآية: ٩] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَدِينِهِمْ﴾ [الآية: ١٠] الآيات. ظاهر هذا يقتضي إيجاب حق لهم، لأنه إذا قيل لفلان، لم يكن بد من أن يقال: كذا وكذا. وإذا كان كذلك لم يكن بد من حق يذكر لهم، ولا يتحمل أيضاً أن يخفي الله تعالى علم ذلك الحق الذي أوجب لهذه الأصناف عن خلقه، فالسبيل في ذلك من جهة التأويل عندنا، والله أعلم.

ثم يتحمل أن يكون رسول الله ﷺ سئل عن جواب: لمن؟ فقال ^(٩): ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾.

ويحمل أن يكون الرسول ﷺ سأل ربه، جل، وعلا، [عن] ^(١٠) جوابه: لمن؟ فأخبر ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾.

ثم إنه يجوز أن يكون ذلك الحق ما وُظف من الخراج على أهل القرية إذا فتحت، وهو ما روي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال لعلي وابن مسعود ﷺ حين فتح سواد الكوفة: إني [كنت سائس شيركم] ^(١١) في أمر قد أغنانني الله تعالى عن مشورتكم حين تلوث هذه الآية، ثم تلا قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ ثم قال: لهؤلاء خاصة، وتلا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ثم قال: ليس هؤلاء خاصة، وتلا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَدِينِهِمْ﴾.

وروي أن بلالاً قال له: أقسم بيننا كما قسم رسول الله ﷺ خير بين أهل العسكر، وقال: اللهم اكفني بلالاً وأهله.

ثم قال عمر ﷺ: لو قسمتها بينكم لتركت آخر عصاية في الإسلام لم تُصب من هذه.

(١) في الأصل وم: بيده. (٢) في الأصل وم: يكتب. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: ويرى. (٧) في الأصل: يجتمعون، في م: يحتجون. (٨) في الأصل وم: يلزمنا. (٩) في الأصل وم: قال. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: استشيركم.

وَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى [رَسُولَهُ] ^(١) بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ هَؤُلَاءِ.

فجائزُ أَنْ يَكُونَ عَمَرُ ﷺ حِينَ تَلَا هَذِهِ الْآيَاتِ تَذَكَّرَ خَيْرًا أَخْبَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُعْلِمَ ^(٢) أَنَّ الْحَقَّ الَّذِي أَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُؤُلَاءِ ذَلِكَ.

أَوْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى يُلْقِيهِ الْهَمَّةُ وَعَلِيًّا وَابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ لِأَنَّهُ رَوَى أَنَّهُمَا أَشَارَا عَلَيْهِ بِذَلِكَ.

وَلِذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا: إِنَّ الْإِمَامَ إِذَا فَتَحَ قَرْيَةً مِنْ قُرَى أَهْلِ الْحَرْبِ، فَهُوَ فِيهَا بِالْخِيَارِ؛ إِنْ شَاءَ قَسَمَهَا بَيْنَ أَهْلِهَا، وَوَلَّفَ عَلَيْهِمُ الْخَرَاجَ، وَإِنْ شَاءَ قَسَمَهَا بَيْنَ أَهْلِ الْعَسْكَرِ. وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْمُقَاتَلَةِ أَحَدُ مَعْنَيْنِ.

إِمَّا تَوْسِيعُ امْكِنَةِ الْإِسْلَامِ [خَوْفًا] ^(٣) أَنْ تُضَيَّقَ [وَأَمَّا تَضْيِيقُ] ^(٤) الْمَكَانِ بِهِمْ [لِيَسْتَسْلِمَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ] ^(٥) لِدِينِ اللَّهِ، وَيَتَقَادُوا لِأَمْرِهِ ^(٦)، وَيَنْظُرُوا فِي حُجَجِهِ [فَلَا تُصِيرُ] ^(٧) مُقَاتَلَتَهُمْ غَفْوَةً لِكُفْرِهِمْ ^(٨)، بَلْ لِمَا وَصَفْنَا مِنَ الْمَعْنَى، وَهَذَا الْمَعْنَى قَدْ يُسْتَفَادُ إِذَا وُلَّفَ ^(٩) عَلَيْهِمُ الْخَرَاجُ.

وَلَوْ فَهِمَ بِلَالٌ ﷺ الْمَعْنَى الَّذِي لِأَجْلِهِ ^(١٠) قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرَ بَيْنَهُمْ لَمْ يَقْسُ أَمْرَ سَوَادِ الْكُوفَةِ عَلَيْهِ.

وَالْمَعْنَى مِنْ قِسْمَتِهِ ﷺ خَيْرَ بَيْنَهُمْ عِنْدَنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، هُوَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا صُدُّوا عَنِ الْحُدُودِ بِشَرِّهِمْ اللَّهُ يَفْتَحُ قَرِيبَ عَوَضًا عَمَّا نَالَهُمْ فِي مَا أَصَابَهُمْ.

وَأَمَّا سَوَادُ الْكُوفَةِ فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى، فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَكُونَ أَمْرُهُ مَقِيسًا عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلْفَقَرَةِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ الْمُجَاهِدِينَ الْمُقَاتِلِينَ لِأَسْبَابِ عَيْشِهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْدْيَارِ، أَيْ لَهُمْ هَذَا الْحَقُّ الَّذِي سَبَقَ وَصْفُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ لَمْ يُخْرِجُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ فِي الْحَقِيقَةِ، وَلَكِنْهُمْ ضَيِّقُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى خَرَجُوا، فَإِذَا أُضِيفَ الْإِخْرَاجُ [إِلَيْهِمْ إِذَا] ^(١١) كَانُوا أَسْبَابًا فِي خُرُوجِهِمْ. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

فإِبْلِيسُ لَمْ يَقُولْ إِخْرَاجَهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَكِنَّهُ خَرَّضَهُمَا عَلَى سَبَبِ خُرُوجِهِمَا ^(١٢)، فَلَمْ يَسْتَقِرَّا بَعْدَهُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، فَأُضِيفَ الْفِعْلُ إِلَيْهِ.

وَقَدْ وَصَفْنَا هَذِهِ الْأَفْعَالَ إِذَا أُضِيفَتْ إِلَى الْعِبَادِ فَإِنَّمَا الْمَعْنَى: ذَلِكَ بِأَسْبَابِ ^(١٣) تَكُونُ مِنْهُمْ، لَا حَقِيقَةُ تِلْكَ الْأَفْعَالِ. وَمَا أُضِيفَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ يَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا: الْحَقِيقَةُ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ؛ لِأَجْلِ أَنَّ الْعَبْدَ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَقْدِرَ آخَرَ عَلَى فِعْلٍ فِي وَقْتِ فِعْلِهِ إِلَّا عَلَى السَّبَبِ. فَأَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِقْدَارِ الْعَبْدِ عَلَى فِعْلٍ وَتَقْتِ فِعْلِهِ. فَلِذَلِكَ قُلْنَا: إِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ تُرَادَ حَقِيقَةُ الْفِعْلِ فِي مَا يُضَافُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ الْمُؤَقَّتُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ لَهُمْ بِمَكَّةَ دِيَارًا وَأَمْوَالًا ثُمَّ مَعَ هَذَا لَمْ يُزَوَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ٥٦٠ / ب / رَدُّ شَيْءٍ مِنْ دِيَارِهِمْ عَلَيْهِمْ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَلَا تَضْمِينُ أَوْلَئِكَ شَيْئًا مِنْ أَمْوَالِهِمْ لِيُعْلَمَ أَنَّ أَهْلَ الْحَرْبِ إِذَا غَلَبُوا عَلَى أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ مَلَكَوْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ أَلْفٍ﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ هَاجَرُوا لِدِينِهِمْ، وَانْقَطَعُوا عَنْ أَسْبَابِ عَيْشِهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ يَتَّبِعُونَ الرِّزْقَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَتَّبِعُونَ أَمْرًا مِنْ أَلْفٍ﴾ دَلٌّ أَنَّ هَذَا الْحَقَّ لِلْمُجَاهِدِينَ مِنْهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَتَّبِعُونَ أَمْرًا مِنْ أَلْفٍ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فيعلم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أو يضيق. (٥) في الأصل وم: ليسلّموا. (٦) في الأصل وم: الأمر. (٧) في الأصل وم: وليست. (٨) في الأصل وم: كفرهم. (٩) في الأصل وم: وظفت. (١٠) في الأصل وم: لأجل. (١١) في الأصل وم: إذا. (١٢) في الأصل وم: إتيانه. (١٣) الباء ساقطة من الأصل وم.

أَحْلَهُمَا: يَنْصُرُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَذَكَرُ ﴿اللَّهُ﴾ صَلََّةً.

والثاني: يَنْصُرُونَ دِينَ اللَّهِ، وَيُطِيعُونَ رَسُولَهُ ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ أَظْهَرُوا صِدْقَ الْإِيمَانِ مِنْ قُلُوبِهِمْ بِهَجْرَتِهِمْ وَسَعِيهِمْ إِلَى مَا يُزِلُّهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَيَقْرَبُهُمْ^(١) إِلَيْهِ.

الآية ٩

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ يعني الذين اتَّخَذُوا دياراً واسعة تَسَعُّهُمْ والمُهَاجِرِينَ، وَهُمْ الْأَنْصَارُ.

وقوله تعالى: ﴿وَالْإِيمَنَ﴾ أي آمَنُوا قَبْلَ هَجْرَةِ هَؤُلَاءِ لَكِي يَأْمَنَ هَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَحِبَّتِهِمْ، وَلَا يَخَافُونَ شَرَّهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يَعْنِي مِنْ قَبْلِ الْهَجْرَةِ.

وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَلْقَى مَحَبَّتَهُ [فِي قُلُوبِهِمْ]^(٢) حَتَّى أَنْزَلُوا الْمُهَاجِرِينَ دِيَارَهُمْ، وَأَنْفَقُوا عَلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿وَلَا يَحْذَرُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ يعني أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَسَمَ خَيْبَرَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَتَرَكَ الْأَنْصَارَ، وَلَمْ يَقْسِمْ بَيْنَهُمْ، لَمْ يَجِدِ الْأَنْصَارُ فِي قُلُوبِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُعْطِيَ الْمُهَاجِرِينَ؛ يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَغْنَى قُلُوبَهُمْ حَتَّى لَا يَتَفَكَّرُوا فِي حَاجَةٍ وَلَا فَقْرٍ الْبَتَّةَ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى مِنَ الْحَاجَةِ ههنا الْغُلُّ وَالْحَسَدُ؛ يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَهَّرَ قُلُوبَهُمْ حَتَّى لَمْ يَجِدُوا فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي أَمْلَاقِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ بِمَا يَبْذُلُونَ مِنْ حَاجَةٍ مِمَّا يَمْلِكُونَ، وَيُؤْثِرُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَوْ كَانَ بِهِمْ حَاجَةٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ فِي طَبْعِ الْبَشَرِ مَحَبَّةَ الْمَحَامِينِ وَالْمَنَافِعِ وَالطَّلَبِ لَهَا وَيُبْغِضُ الْمَسَاوِيَّ وَالْمَضَارَّ وَالْهَرَبَ عَنْهَا. ثُمَّ إِنَّهُ ائْتَمَحَنَهُمْ بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا يُحِبُّونَ وَحَمَلَ النَّفْسَ عَلَى مَا يَكْرَهُونَ طَلَباً لِنَجَاتِهِمْ وَتَوْصِلاً إِلَى ثَوَابِهِمْ. ثُمَّ تَكُونُ وَقَايَةُ الْأَنْفُسِ مِنَ الشُّحِّ بِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَمُنَّ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ لِيَصِيرَ مَا هُوَ غَائِبٌ عَنْهُ مِنَ الثَّوَابِ فِي الْأَجْلِ كَالشَّاهِدِ، فَيُحَقِّقَ عَلَيْهِ الْإِنْفَاقَ مِمَّا يُحِبُّ، وَيَصِيرَ ذَلِكَ كَالطَّلَبِ لَهُ.

والثاني: يُوقَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَيُعْصِمُهُ، وَلِيُحْمِلَهُ تَعْظِيمَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ حَتَّى يَقْهَرَ نَفْسَهُ، وَيَحْمِلَهَا عَلَى الْإِثْمَارِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِنْتِهَاءِ عَمَّا نَهَى عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ طَلَبُهَا عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ.

ثُمَّ إِضَافَةُ الْوَقَايَةِ إِلَى نَفْسِهِ تَذَلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ فِي خَزَائِنِهِ شَيْءٌ، لَمْ يُؤْتِهِ عَبْدُهُ حَتَّى يَصِفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ بَقِيَ عِنْدَهُ شُحُّ نَفْسِهِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِيُغْدِيهِ بِوَقَايَةِ نَفْسِهِ عَنْ شُحِّهَا مَعْنَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني الْبَاقُونَ فِي النَّعِيمِ، وَالْفَلَاحُ فِي الْحَقِيقَةِ، هُوَ الْبَقَاءُ فِي النَّعِيمِ.

الآية ١٠

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ الْآيَةُ؛ قَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ يَلْعَنُ سَلَفَهُ حَتَّى أَمَرَهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ.

وفيه دلالة على فَسَادِ قَوْلِ الرَّاغِبِ وَالْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ:

لَأَنَّ الرَّاغِبِ مِنْ قَوْلِهِمْ: إِنَّ الْقَوْمَ لَمَّا وَلَّوْا الْخِلَافَةَ أَبَا بَكْرٍ ﷺ كَفَرُوا، وَمِنْ قَوْلِ الْخَوَارِجِ: إِنَّ عَلِيّاً ﷺ كَفَرَ بِقِتَالِهِ مُعَاوِيَةَ وَأَصْحَابَهُ. فَقَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ: إِنَّ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْحَقِّ فِي الْقِتَالِ خَرَجَ عَنِ الْإِيمَانِ.

وَلَوْ كَانَ مَا ارْتَكَبُوا مِنَ الزَّلَّاتِ، يُكْفَرُهُمْ، وَيُخْرِجُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ لَمْ يَكُنْ لِلِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ مَعْنَى، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَى

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَقْرَبُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

عن الاستغفار للمشركين. فَإِذَا أَذِنَ ههنا بالاستغفار لِيُسَيَّرَ^(١) بهذا أن ما ارتكبوا من الذنوب لم يُخْرِجْهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ، ولأنه انبغى الأخوة في ما بينهم مع علمنا أنه لم يكن بين الآخرين والأولين أخوة إلا في الدين، فلو أنهم كانوا مؤمنين لم يكن لإبقاء الأخوة معنى، والله أعلم، ولأنه قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْمِلْ فِي قُلُوبِكُمْ غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولو كان ذلك يُخْرِجْهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ لم يكن لهذا الدعاء معنى، لأن الواجب أن يكون في قلوب المؤمنين عداوة للكفار ومقتهم.

فلما نَدَبَ، جَلَّ ثَنَاؤُهُ، في هذه الآية إلى نفي الغِلِّ والحسد عن قلوبهم بتلك الدعوة ثبت أنهم كانوا مؤمنين، والله أعلم.

ثم في الأمر بالاستغفار دلالة أنهم كانت منهم ذنوب يستوجبون بها العقوبة لولا فضل الله ومغفرته، وإن كانوا في ما يتعاطونه مُجْتَهِدِينَ لَيُعْلَمَ أنه ليس كل مجتهد مُصِيباً^(٢).

ثم قوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ فِي قُلُوبِكُمْ غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني عداوة؛ يَحْتَمِلُ أن يكون المراد منه المؤمنين الذين سبقوهم، وَيَحْتَمِلُ أن يكون هذا في كل المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الرحمة من الله تعالى فَضَّلَ منه على عبادِهِ وإحسان إليهم.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُفِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] [إذ أخبر]^(٣) أن رَحْمَتَهُ هِبَةٌ مِنْهُ وإحسان إلى عبده؟ والله أعلم.

ثم الاستغفار في حال الحياة له مغنيان:

أحدهما: طَلَبُ السَّبَبِ الذي إن جاءه استوجب المغفرة.

والثاني: حَقِيقَةُ الْمَغْفِرَةِ.

وفي حال الوفاة ليس إلا طَلَبُ عَيْنِ الْمَغْفِرَةِ.

فلما نَدَبَ، جَلَّ، وعلا، إلى الاستغفار لهم بعد وفاتهم، وحال الاستغفار بعد الوفاة على ما وصفتنا لا يتوجه إلا على حقيقة المغفرة، ثبت أن ذنوبهم لم تُخْرِجْهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ^(٤) لأنه لو كان من حُكْمِهِ، جَلَّ ثَنَاؤُهُ، أَلَا تَحِلُّ مَغْفِرَتُهُمْ، إذا ارتكبوا الكبيرة، لم يكن في الأمر بالاستغفار لهم حكمة، والله أعلم.

وقال جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ: إنه ليس في قوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ فِي قُلُوبِكُمْ غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ما يدل على أنه يجعل في قلوبهم [غلاً]^(٥) لأنه إذا قيل: لا تفعل بفلان^(٦) شيئاً لم يفهم به أنه يفعله إذا أحب.

ولكن يُجَابُ عن هذا أنه ذكر الله تعالى نصاً في آية أخرى ما يدل على جعل العداوة. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿فَاغْرِبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

فإن قال: تأويله أنه أغرى^(٧) بينهم العداوة^(٨) لا أنه جعلها، قلنا: غير مُحْتَمِلٍ أن يَخْلُقَ اللهُ تعالى العداوة في قلوبهم مِنْ غَيْرِ فِعْلٍ، يكون منهم بها. وإن كان كذلك ثبت أنه يَخْلُقُ هذه الأشياء وقت فعل العبد لها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَأْفِكُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ هَٰذِهِ الْآيَةُ تُدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تعالى جعل حُجَّةَ رسالة محمد ﷺ على المنافقين في أنفسهم، لأنهم قالوا هذا القول سراً منهم إلى أهل الكتاب، لأنه لا يَحْتَمِلُ أن يُظْهِرُوا ومثل هذا القول بين يدي المؤمنين، ولا كان الكفار يُخْبِرُونَ بهذا أحداً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

فلما أخبر ما قال المنافقون ثبت أنه ما علمه إلا عن الرُخِي والتَّزِيلِ / ٥٦١ - / وذلك عِلْمٌ بُيِّنَ عَلَيْهِمْ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهين:

(١) اللام ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: مصيب. (٣) في الأصل وم: فأكبر. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فلاناً. (٧) في الأصل وم: إلى. (٨) في الأصل وم: وبينها.

أخذهما: أنه يجوز أن يكونوا قالوا لهم هذا على أن يكونوا^(١) أتباعهم في القتال.

والثاني: أنهم قالوا ذلك لأهل الكتاب على حُسابٍ منهم أن الرسول ﷺ إذا عَلِمَ بِحَالِ هَؤُلَاءِ لَمْ يُخْرِجْهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ خَوْفًا أَنْ يُقَالَ: أَخْرَجَ أَصْحَابَهُ، وَإِذَا لَمْ يُخْرِجْ أُولَئِكَ لَمْ يُخْرِجْ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلَمْ يُقَاتِلُوا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا طَئِيفٌ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ يعني لا تُنْظَرُ أَحَدًا فِيكُمْ أَبَدًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَوَلَّتْ لِنَصْرِكَ﴾ يجوز^(٢) أن يكونوا وَعَدُوا نَصْرَهُمْ وَهُمْ^(٣) فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ، وَإِنْ نَصَرُوهُمْ، ثُمَّ انْهَزَمُوا، مَرَبُوا، وَانْصَرَفُوا^(٤) وَتَوَلَّوْا، وَلَمْ يَنْصُرُوهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَبَدًا.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ولِقَائِلُ أَنْ يَقُولَ: كَيْفَ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِالْكَذِبِ، وَالْكَذِبُ إِنَّمَا يَدْخُلُ فِي الْأَخْبَارِ؟ وَقَوْلُهُمُ الَّذِي قَالُوا إِنَّمَا هُوَ وَعْدٌ مِنْهُمْ، فَحَقُّهُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُمْ لَمُخْلِفُو الْوَعْدِ.

وَيُمَثِّلُ هَذِهِ الْآيَةَ يَخْتِجُ الْخَوَارِجُ فِي تَكْفِيرِ مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنْ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ تَعَالَى فَقَدْ اغْتَفَقَ الْإِلَٰهَ بِغَيْبِهِ، فَإِذَا عَصَاهُ تَبَيَّنَ بَعْضِيَّاهُ كَذِبٌ فِي اغْتِفَاقِهِ، فَكَفَرَ لِهَذَا الْمَعْنَى.

وَمِنْ جَوَابِنَا عَنْ هَذَا: أَنَّ قَوْلَ الْمُنَافِقِينَ لِأَهْلِ الْكِتَابِ إِخْبَارٌ مِنْهُمْ عَنْ مُوَالَاتِهِمْ لِإِيَّاهُمْ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِي مَا أَخْبَرُوا عَنِ الْمُوَالَاةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿لَنْ أَخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَنْ تَوَلُّوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَكِنْ نَصْرُهُمْ لِيَوْمِ الْآزِمِ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ حُجَّةٌ رَسَالَتِهِ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا؛ وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا خَبَرٌ عَنِ الْغَائِبِ؛ وَذَلِكَ لَا يُوَصِّلُ إِلَى عِلْمِهِ إِلَّا بِالْتَّعْلِيمِ، وَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ اخْتَلَفَ إِلَى أَحَدٍ يُخْبِرُهُ، وَلَمْ^(٥) يَلْتَمِسْ شَيْئًا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ. فَإِذَا أَخْبَرَ عَمَّا يَخْدُثُ وَعَمَّا هُوَ غَائِبٌ ثَبَّتَ أَنَّهُ مَا قَالَ إِلَّا عَنِ الرِّسَالَةِ وَالْوَحْيِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ عَلَى مَا لَقِيَ الرَّسُولَ ﷺ وَمَنْ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَتْ عَادَتُهُمُ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ الْمَعُونَةُ وَالنُّصْرَةُ لِمَنْ قَارَبَهُمْ فِي النِّسَبِ وَالْقَبِيلَةِ، وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ، فَأَظْهَرُوا لَهُ مِنَ الْعَدَاوَةِ مَا أَظْهَرُوا حَتَّى هَمُّوا بِقَتْلِهِ، وَجَعَلَ مُحَمَّدًا ﷺ حِينَ أَرْسَلَهُ حُجَّةً يُظْهِرُ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَجَمِيعِ أَهْلِ مَا ذَكَرَ فِي كِتَابِهِمْ مِنْ بَغْيِهِ وَصِفَتِهِ، فَقَابَلُوهُ بِذَلِكَ مَا قَابَلُوا مِنْ سُوءِ الصَّنِيعِ وَإِظْهَارِ الْعَدَاوَةِ. وَكَانَ هَذَا كُلُّهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، حُجَّةً وَعَلَامَةً يُعْلِمُ بِهَا أَنَّ رِسَالَتَهُ ﷺ [لَمْ]^(٦) تَظْهَرْ بِمُعَاوَنَةِ أَحَدٍ بَلْ يَنْصُرِ اللَّهُ وَفَضْلِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الآية ١٣

وقوله تعالى: ﴿لَأَنْتَ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ رَهْبَةٌ هَؤُلَاءِ فِي صُدُورِهِمْ عَلَى الْحَقِيقِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى التَّمَثِيلِ.

فَأَمَّا وَجْهُ التَّمَثِيلِ فَهُوَ مَا قَالَ: ﴿وَيَتَخَلَّفُونَ بِاللَّهِ إِلَهُكُمْ لَيْسَ لَكُم مِمَّا هُمْ يَنْكُرُونَ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٥٦] فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَتَخَلَّفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْحَلْفِ، فَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَعَامَلَتُهُمْ هَذِهِ [فِي]^(٧) التَّمَثِيلِ مَعَامَلَةً مِنْ يَرْهَبُهَا. فَسَمِيَ ذَلِكَ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ^(٨). وَهَذَا نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدُوهُ﴾ [يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدُوا]^(٩) فَكَذَلِكَ الْأَوَّلُ. [جَمَعَ مَنْ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ]^(١٠) أَخْلَدُوا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى التَّحْقِيقِ، وَلِذَلِكَ أَوْجُهُ^(١١) مِنَ التَّوَابِلِ:

أَخَذَهَا: أَنَّهُمْ كَانُوا يُظْهِرُونَ الْمُوَالَاةَ لِكُلِّ فَرِيقٍ، وَكَانَ عِنْدَهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَلِيُّ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ لَا مَحَالَةَ، وَإِذَا نَجَا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَتَكَبَّرُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: هَذَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: نَصَرُوا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَا. (٦) م: سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: قُلُوبِهِمْ. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْجَهَا.

أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ نَجَوْا هُمْ. فَكَانَهُمْ عَلَى هَذَا التَّوَابِلِ كَانُوا يَرْهَبُونَ الْخَلْقَ جَمِيعًا، لَا [يَخْصُصُ بِهَا] ^(١) الْمُؤْمِنُونَ، وَكَانُوا لَا يَرْهَبُونَ اللَّهَ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا نَاجِيَّةً مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي وَصَفْنَا.

[وَالثَّانِي] ^(٢): يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ رَهْبَتُهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ النِّفَاقِ إِنَّمَا كَانُوا مِنْ أَحَدِ الصَّنَفَيْنِ:

إِمَّا إِنْ كَانُوا دَهْرِيَّةً، فَتَأَقَّقُوا، وَإِمَّا إِنْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ، فَتَأَقَّقُوا.

فَإِذَا كَانُوا دَهْرِيَّةً فَكَانُوا لَا يَرْهَبُونَ اللَّهَ تَعَالَى لِمَا كَانُوا غَيْرَ مُقَرَّرِينَ بِالصَّانِعِ، وَإِنْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ فَلَانَهُمْ قَدْ آمَنُوا أَيْضًا لِمَا كَانُوا يُصَيِّفُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ١٨].

وَإِذَا سَقَطَتِ الرَّهْبَةُ مِنْ كِلَا الْجَانِبَيْنِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى حَصَلَتِ الرَّهْبَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[وَالثَّالِثُ] ^(٣) يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَتَّقُونَ﴾ وَذَلِكَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ لَا يَتَّقَهُونَ أَنَّ الْبَلَايَا الَّتِي فِي الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا تَذَكِيرٌ بِبَلَايَا الْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا، وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا جُعِلَتْ لَأَنْفُسِهِمْ، وَإِذَا كَانَ هَذَا وَهَمُّهُمْ وَحُسْبَانُهُمْ لَمْ يَرْهَبُوا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالثَّانِي: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَتَّقُونَ﴾ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، بَلْ كَانَتْ رَهْبَتُهُمْ مِنْ كَانُوا يَأْمُلُونَ مِنْهُمْ الْمَنَافِعَ، وَيَتَخَذَرُونَ مَضَارَّهُمْ، فَلَا يَرْهَبُونَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَلِقَائِلِ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ لَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِلَّا وَرَهْبَتُهُ مِنَ النَّاسِ أَشَدُّ مِنْ رَهْبَتِهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّكَ تَرَى الرَّجُلَ يَمْتَنِعُ عَنِ الزُّلَّةِ عِنْدَ أَطْلَاعِ النَّاسِ عَلَيْهِ مَا لَا يَمْتَنِعُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الزُّلَّاتِ فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا [فِي وَجْهَيْنِ] ^(٤):

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَيْسَ بِإِزَاءِ الْخَوْفِ مِنَ الْإِنْسَانِ رَجَاءٌ يَرْجُوهُ، وَإِزَاءِ رَهْبَتِهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى رَجَاءٌ يَرْجُوهُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ. فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الرَّجَاءُ مِنَ رَهْبَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ [لَا] ^(٥) يَغْلِبُ عَلَيْهِ، فَيَقْتَرِفُ الذُّنُوبَ، وَيَرْتَكِبُهَا ^(٦).

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: إِذَا كَانَ فِي مَا يَرْتَكِبُهُ مِنَ الذُّنُوبِ شِرْكٌ ^(٧) فَلَيْسَ بِهَا بُهْمٌ، وَإِنَّمَا خَوْفُهُ مِنْ قَوْمٍ، فِيهِمْ بَسْمَةُ الصَّلَاحِ وَأَمَارَةُ النَّصْرِ لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، لَيْسَ مِنْ نَفْسِ الْمَخْلُوقِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَنْتَلِزِعُكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ﴾ قَوْلُهُ: ﴿جَمِيعًا﴾ أَيِ لَا يُقَاتِلُكُمْ أَهْلُ النِّفَاقِ وَأَهْلُ الْكِتَابِ جَمِيعًا مَعًا، وَلَانَهُمْ لَيْسُوا بِفَاعِلِينَ مَا وَعَدُوا لِأَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ النَّصْرِ وَالْقِتَالِ.

[وَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ هَذَا اسْتِثْنَاءً عَنِ الْقِتَالِ] ^(٨) وَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ اسْتِثْنَاءً عَنِ الْوَعْدِ الَّذِي وَعَدُوا لِأَهْلِ الْكِتَابِ. فَإِنْ كَانَ عَنِ الْقِتَالِ فَهُوَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ لَا يُقَاتِلُونَ إِلَّا أَنْ يَكُونُوا فِي قُرَى وَخُصُوفٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ، لَا يَعْلَمُ بِهِمْ أَهْلُ الْإِسْلَامِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَإِنْ كَانَ مِنَ الْوَجْهِ الثَّانِي فَهُوَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ أَيْضًا:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ لَا يُوقِفُونَ مَا وَعَدُوا مِنَ النَّصْرِ فِي الْقِتَالِ لِأَهْلِ الْكِتَابِ، وَلَكِنَّهُمْ يَلْتَجِنُونَ إِلَى قُرَى مُحَصَّنَةٍ.

أَلَا تَرَى مَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ فِي نَاحِيَةِ الْمُسْلِمِينَ: ﴿وَلَنْ يَأْتِيَ الْآخَرَاتُ بِوَدَّوْا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوكَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُوكَ عَنْ آبَائِكُمْ؟﴾ [الأحزاب: ٢٠] فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ قَدْ أَظْهَرُوا الْمُوَالَاةَ لِلْمُسْلِمِينَ كَمَا أَظْهَرُوا لِأَهْلِ الْكِتَابِ إِلَى أَنْ جَاءَ الْقِتَالُ: التَّجَوُّوا إِلَى مَكَانٍ، يَسْتَمِعُونَ مِنْ أَخْبَارِهِمْ. فَعَلَى ذَلِكَ التَّخَوُّ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ الْكِتَابِ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُمْ لَا يُقَاتِلُونَ، وَلَكِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ، يَتَرَبَّصُونَ لِمَنْ يَكُونُ الظُّفْرُ وَالْعَاقِبَةُ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ يَخْتَصَّ بِهِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجْهَانِ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَرْتَكِبُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: شَرَكًا. (٧) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

في آية أخرى، وهو قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَدَّبَعُونَكُمْ فَأَنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ ٥٦١ - ب/ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ تَسْتَحِذْ عَلَيْنَا وَتَمْنَعْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١] فأخبر الله تعالى أنهم يترصصون العاقبة، فالتجوا هم إلى قري مُحصّنة؛ يجوز أن يكون بهذا التأويل، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿بِأَسْهُرَ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أن يقول: ﴿بِأَسْهُرَ﴾ يعني قوتهم ﴿بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ ما لم يروا [عداء ظاهراً] ^(١).

[والثاني] ^(٢): يقول: ﴿بِأَسْهُرَ﴾ شديد ما دام القتال بينهم، لأنه ليس فيهم من أكرم [بالنضير] ^(٣) بالرغب مسيرة شهرين ^(٤). فإذا أكرم بالرغب هذا المقدار من المسير فلا يُحرم ذلك في أهل قريته.

وإذا كان كذلك ثبت أن التأويل ما وصّفنا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ لأن همة المنافقين سلامة الأنفس وراحة الأبدان، وهمة أهل الكتاب الذب عن المذهب والسعي في إقامته.

فإذا اختلفت همّتهم ومقاصدُهم تشتت قلوبهم؛ وذلك معنى قوله: ﴿تُدْبِذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣] يعني في الهمم والقلوب.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ثَلَاثَةً أَوْجُوهَ.

أحدها: أنهم لا يعقلون حق الوعد والوعيد.

والثاني: أنهم لا يتفكرون بما يعقلون.

والثالث: أنهم لا يعقلون لمن تكون له العاقبة.

وقد وصّفنا أن عادتهم التريص لمن يكون الظفر والعاقبة؛ فإذا شُبّهت عليهم العاقبة، ولم يفعلوها، لم يوالوا واحداً من الفريقين في الظاهر والباطن جميعاً، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ الآية. يجوز أن يكون في هذا إضمارٌ مثل آخر؛ كأنه يقول: مثل هؤلاء الكفار ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وكذلك في قوله: ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ﴾ [البقرة: ١٧١]. يعني مثل محمد ﷺ كمثال هؤلاء الكفار على إضمارٍ مثل آخر.

ثم التمثيل وكيفيته يَحْتَمِلُ أَرْجَاءَ ثَلَاثَةً:

أحدها: أن يقول: مثل هؤلاء الكفار الذين أسأوا [صُحْبَةً] ^(٥) رسوله كمثال الكفار الذين أسأوا [صُحْبَةً] ^(٦) الرسل من قبله؛ كان قريباً أن ذاقوا وبَالَ أَمْرِهِمْ.

والوجه الثاني: أن يقول: مثل أهل المدينة من الكفار حين هموا بإخراج الرسول من المدينة كمثال أهل مكة حين أخرجوا الرسول ﷺ من مكة، وكان قريباً حين ذاقوا وبَالَ أَمْرِهِمْ من الأسر والقتل.

والدليل على أن كفار المدينة هموا بإخراج الرسول ﷺ قوله ^(٧) تعالى: ﴿وَأَنْ كَادُوا لَيَسْفُرُ ذَٰلِكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآية [الإسراء: ٧٦].

[والوجه الثالث: ^(٨) يَحْتَمِلُ أن يكون تخصيصاً لقريّة أو قبيلة؛ وجه ذلك أن يقول: مثل بني قريظة كمثال الذين من قبلهم، وهم بنو ^(٩) النضير، وإن كانوا قريباً أن ذاقوا وبَالَ أَمْرِهِمْ، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: أعداء ظاهرة. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) إشارة إلى قوله «نصرت بالرغب مسيرة شهرين» [الطبراني في الكبير: ١١٠٥٦]. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: وقوله. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: بني.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذا إخبار أنهم يموتون على الكفر، وفيه دلالة رساليه ﷺ حين^(١) أخبر عن الغيب.

الآية ١٦

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ فكذلك المنافقون يُظهرون الموالاة والنصر، فإذا جاء القتال امتنعوا، وتبرؤوا منهم.

ثم قوله تعالى: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ يجوز أن يكون في الآخرة حين^(٢) يقول: ﴿مَا أَنَا بِمُضِرِّكُمْ وَمَا أَنْتَ بِمُضِرِّهِمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا لَتَرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وجوز أن يكون في الدنيا، وهو قوله: ﴿وَرَأَى زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآءِ الْفِتْنَانَ تَكَمَّ عَلَى عَيْبِهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية [الأنفال: ٤٨].

الآية ١٧

وقوله تعالى: ﴿كَانَ عَقِبَهُمَا أَنهَامَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ ظاهر.

الآية ١٨

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَانْتَظِرْ نَفْسَ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ الأصل إذا ذُكِرَتْ حَالٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ سَيِّدِهِ لَمْ يَكُنْ بَدْ مِنْ إِضْمَارٍ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ.

مثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [النحل: ١٢٨] يعني أنه معهم في النصير والمعونة، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] في التوفيق والولاية. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ لأنه لا يَحْتَمِلُ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ حَتَّى يَكُونَ مَعَهُمُ فِي التَّقْوَى؛ إِذْ ظَاهِرُ اللَّفْظِ يَقْتَضِي هَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] أَي فِي الصِّدْقِ. وَإِذَا ثَبَتَ فِيهِ الْإِضْمَارُ كَانَ الْوَجْهُ فِي ذَلِكَ أَحَدَ مَعَانٍ:

إِمَّا أَنْ يَقُولَ: اتَّقُوا حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى: أَنْ تُضَيِّعُوهُ، أَوْ: اتَّقُوا حَذَّهْ أَنْ تَعُدُّوهُ، وَتُبْطِلُوهُ، أَوْ: اتَّقُوا سُخْطَهُ، أَوْ اتَّقُوا الْأَسْبَابَ الَّتِي تَسْتَوْجِبُونَ بِهَا مَقَّتَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ مِنَ التَّقْوَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ عَلَى مَا وَصَفْنَا أَنَّ التَّقْوَى إِذَا أُطْلِقَ جَارَ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي، وَإِذَا ذُكِرَ مُقَابَلَةً أَمْرٍ كَانَ الْمَعْنَى مِنْهُ أَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَنْتَظِرْ نَفْسَ مَا قَدَّمْتَ لِغَدٍ﴾ قَالَ: مَنْ عَمِلَ بِمَا أَمَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ سَلِمَ مِنْ تَبِعَاتِ الْآخِرَةِ، لِأَنَّهُ إِذَا شَعَرَ قَلْبُهُ وَقْتُ فِعْلِهِ أَنَّ الَّذِي يَفْعَلُهُ تَقْدِمَةٌ لِغَدٍ امْتَنَعَ عَنِ ارْتِكَابِ مَا يَجِبُ أَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْهُ، أَوْ يَحْزَنَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَأَتَى بِمَا يُسَرُّ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْآيَةِ عَلَى النَّظَرِ لِمَا قَدَّمَتْهُ نَفْسُهُ لِلْغَدِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَذَكَّرَ، فَتَنَظَّرَ فِي مَا قَدَّمَتْ نَفْسُهُ لِلْغَدِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ دَعَاهُ إِلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا إِلَى التَّوْبَةِ عَنِ السَّيِّئَةِ الَّتِي قَدَّمَهَا، وَإِمَّا^(٣) إِلَى الشُّكْرِ عَلَى الْحَسَنَةِ الَّتِي يَتَعَاطَاهَا. وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْهُ زِيَادَةٌ فِي الْحَيْرِ، فَكَانَ الْوَاجِبُ أَلَّا يَغْفَلَ الْمُرَّةَ عَنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا عَلَى الْمُسْتَأْنَفِ مِنَ الْأَفْعَالِ أَنَّهُ يَنْتَظِرُ فِي مَا يُرِيدُ أَنْ يَقْدِمَهُ لِغَدٍ؛ فَإِنْ كَانَتْ عَاقِبَتُهُ الْهَلَاكُ انْتَهَى عَنْهُ، وَإِنْ كَانَتْ عَاقِبَتُهُ النِّجَاةُ مَضَى إِلَيْهِ، وَأَتَى بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَانْتَظِرْ نَفْسَ مَا قَدَّمْتَ لِغَدٍ﴾ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ الْإِتْقَاءُ عَنْ تَرْكِ النَّظَرِ لِمَا تَقْدِمُهُ نَفْسُ لِغَدٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ذَكَرُ قَوْلِهِ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ مَرَّةً أُخْرَى، وَالْآيَةُ وَاحِدَةٌ، يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الْأَوَّلِ: إِنْ اتَّقُوا مُخَالَفَةَ اللَّهِ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَمِنْ^(٤) الثَّانِي: [أَنْ]^(٥) اتَّقُوا سُخْطَ اللَّهِ وَعُقُوبَتَهُ.

(١) وَ (٢) فِي الْأَصْلِ رَمَ: حَيْثُ. (٣) فِي الْأَصْلِ رَمَ: أَوْ. (٤) فِي الْأَصْلِ رَمَ: وَفِي. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيه تحريض على المراقبة والتبليغ وقت فعله^(٢)، لأن من علم وقت فعله أن الله تعالى مطلع على ما يزكبه من الذنوب، ويقرئه من الشرور، امتنع عنها، [وَزَجَرَ نَفْسَهُ]^(٣).

وقالوا: في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَسْطُمْ نَافِلُونَ﴾ إِنَّا اللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٤﴾ وَعِيدٌ فِي (٤) أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وَالثَّانِي: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنَنْظُرَنَّ نَفْسًا مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ وَالثَّلَاثُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [وَالرَّابِعُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:]^(٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ثم ذكّر هذه المواعيد [في الكفرة خرّج بعداً^(٦)] ما خاطب المؤمنين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فكان الوعيد في المؤمنين أكثر من الوعيد في الكفرة. لكن المؤمنين توعدّهم عن ما هي مُعدّة للكافرين لئلا يعمّلوا عملاً / ٥٦٢ - / يستوجبون به^(٧) ما أعدّ للكافرين، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

ثم إن الله تعالى سَمَّى الآخِرَةَ بِاسْمِ الْعَدِّ لِشُرْعَةِ مَجِيئِهِ، وَسَمَّى الدُّنْيَا بِالْأَمْسِ لِشُرْعَةِ فَنَائِهَا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَاصِلًا كَانَ أَمْ تَقْتِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤] فَيَذْكُرُهُمْ، وَيَعْظُمُهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ لِتَتَفَكَّرَ كُلُّ أَحَدٍ فِي نَفْسِهِ مَا بِهِ خُلِقَ: لِلْعَبَثِ؟ أَمْ خُلِقَ لِأَمْرِ عَظِيمٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

الآية ١٩ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أَي نَسُوا الْعَمَلَ
لِلَّهِ، وَالنِّسْيَانُ، هُوَ التَّرْكَ، أَي تَرَكُوا الْعَمَلَ الْوَاجِبَ لِلَّهِ تَعَالَى ﴿فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ أَي خَذَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا نَسُوا.

ثم الوجه عندنا في الآية أن^(٨) ليس أحدٌ من البشر يعمل عملاً إلا، وهو يأمل بذلك نفعاً لنفسه؛ إذ من لا يعمل للنفع فهو غائب في الشاهد في ذلك العمل.

فهؤلاء لما لم ياتمروا بأمر الله تعالى، ولم يطيعوا، وتركوا العمل لله، صاروا^(٩) تركهم العمل لله، والعمل لله، عملاً^(١٠) لأنفسهم؛ فكانه قال: نسوا [أنفسهم، فصاروا]^(١١) متيسرين.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنسَأْنَهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي خَلَقَ فِعْلُ التَّسْيَانِ والتَّرْكِ فيهم، أَضَافَ اخْتِيَارَ التَّسْيَانِ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَضَافَ الْإِنْسَاءَ إِلَى نَفْسِهِ، وَاثْبَتَ فِعْلَهُ فِيهِ، وَلَيْسَ هَذَا عَلَى أَنَّ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ فِعْلُ التَّسْيَانِ، ثُمَّ هُوَ أَنْسَأَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، لَكِنْ عَلَى خَلْقِ ذَلِكَ فِيهِمْ وَقْتُ مَا اخْتَارُوا ذَلِكَ الْفِعْلَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِمْ: هَذَا اللَّهُ تَعَالَى، فَاهْتَدَى، وَاهْتَدَى، فَهَذَا اللَّهُ. فَذَلِكَ كُلُّهُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ.

فكذلك هذا في الخذلان والنسيان لما اختار هو ففعل النسيان خلق الله تعالى ذلك النسيان فيه كما خلق الهداية والكفر [فيه]^(١٢) عند اختياره. ولا يجوز أن يُحمل ذلك على تقدم بعض على بعض.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ كقولهِ تعالى: ﴿سُئِلَ اللَّهُ﴾ إِذْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ فِي قَوْلِهِ ﴿سُئِلَ اللَّهُ﴾ إِذِ
الْعَمَلُ لِلَّهِ، هُوَ الْعَمَلُ لَأَنفُسِهِمْ [وَالْعَمَلُ لَأَنفُسِهِمْ] ^(١٣) هُوَ الْعَمَلُ لِلَّذِي أُرِيدُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ.

فَلِذَلِكَ قُلْنَا: إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِمَا فِي الْآخِرَةِ.

(١) من م، في الأصل: عن. (٢) من م، في الأصل: فعل. (٣) في الأصل وم: وازدجر. (٤) في الأصل وم: من. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: خرج، في م: خرج يعد. (٧) في الأصل وم: بذلك. (٨) من م، في الأصل: أي. (٩) من م، في الأصل: لصار. (١٠) في الأصل وم: عمل. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ، وهو أنهم لما تركوا طاعة الله، خَذَلَهُمْ^(١) الله تعالى بِتَرْكِهِمْ أَمْرَ اللَّهِ وَتَرْكِهِمْ^(٢) أَنْفُسَهُمْ لَهُمْ، ولم يُوقِفْهُمْ للخيرات والطاعات، وهذا مِنْ أَشَدِّ الْعُقُوبَاتِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ أَنْ يُجَازِيَهُمْ فِي الْآخِرَةِ جَزَاءَ مَا عَمِلُوا بِأَنْ تَرَكَهُمْ فِي الْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ الدَّائِمِ، فيكون ذلك جَزَاءَ لَهُمْ بِمَا عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا وَمِمَّا تَرَكَوا [مِنْ الْإِيمَانِ]^(٣) بِاللَّهِ تَعَالَى.

وهذان التأويلان يَرْجِعَانِ إِلَى مَا ذَكَرَ مِنَ الْخِذْلَانِ فِي مَا فَعَلُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فالْفِسْقُ، هو الخُرُوجُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي الناجون، والفَوْزُ هو الظَّفَرُ بِالْحَاجَةِ.

ثم قوله ﷻ: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَلَا يَسْتَوُوا فِي الدُّنْيَا، أَوْ أَلَا يَسْتَوُوا فِي الْآخِرَةِ.

فإن كَانَ عَلَى الْأَوَّلِ فَمَعْنَاهُ: لَا يَسْتَوِي عَمَلُ أَهْلِ الْجَنَّةِ [فِي الدُّنْيَا]^(٤) فِي الْعُقُولِ وَعَمَلُ^(٥) أَهْلِ [النَّارِ]^(٦) بِالَّذِي تَسْتَشْبِهُهُ الْعُقُولُ.

وأما أفعال أهل الجنة [فهي]^(٧) الداعية إليها والتي تَسْتَحْسِنُهَا الْعُقُولُ، لَأَنَّ عَمَلَ هَؤُلَاءِ بِالَّذِي ظَهَرَ بِالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ، وَلَيْسَ لِعَمَلِ أُولَئِكَ بَرَاهِينٌ. وما أَقِيمَ بِالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ فهو فِي الْعُقُولِ أَحْسَنُ مِنَ الَّذِي لَا بُرْهَانَ عَلَيْهِ، وكذلك كُلُّ عَمَلٍ يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ الثَّوَابَ فهو فِي الْعُقُولِ مُسْتَحْسَنٌ، وما يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ الْعِقَابَ فهو فِي الْعُقُولِ مُسْتَقْبَحٌ، فلم يَسْتَوِيا.

وأما الوجه الثاني: فلا يَسْتَوِي جَزَاءُ أَهْلِ النَّارِ وَجَزَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ إِذْ فِي الْجَنَّةِ النِّعَمُ الدَّائِمُ، وَفِي النَّارِ الشَّدَّةُ وَالتَّعَذُّبُ الدَّائِمَةُ فلم يَسْتَوِيا؛ يُذَكِّرُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا لِيَنْتَهَوْا عَنْ غَفْلَتِهِمْ، وَيَعْمَلُوا لِلَّهِ تَعَالَى، حَتَّى يَسْتَوْجِبُوا بِهِ^(٨) الثَّوَابَ فِي الْآخِرَةِ.

الآية ٢١ وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَضْبًا مُّصَدَقًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الآية: اِخْتَلَفَ النَّاسُ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى التَّمْثِيلِ، وَهِيَ عَلَى التَّنْبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ، وَذَهَبُوا فِي ذَلِكَ إِلَى أَنَّ الْعَرَبَ إِذَا اسْتَقْبَلَهُمْ أَمْرٌ، وَأَرَادُوا أَنْ يَصِفُوهُ بِالْعَظَمِ وَالشَّدَّةِ، كَانُوا يَضْرِبُونَ الْأَمْثَالَ بِمَا يُعْظَمُ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ وَضَفُّهُ، لَمْ يَكُونُوا^(٩) يُرِيدُونَ بِهِ الْحَقِيقَةَ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِمْ عِنْدَ شِدَّةِ الْأَمْرِ: أَظْلَمَ عَلَيَّ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكَقَوْلِهِمْ: ضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِرُخْبِهَا، وَكَمَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَمْرِ لُوطٍ ﷺ: ﴿وَصَاقَ يَمَِّ دَرَعًا﴾ [هود: ٧٧].

فهذا القولُ مِنَ الْعَرَبِ إِنَّمَا كَانَ عَلَى التَّمْثِيلِ فِي مَا يُرِيدُونَ أَنْ يَصِفُوا الشَّيْءَ [بِهِ]^(١٠) فَعَابَتُهُ لَا عَلَى الْحَقِيقَةِ، لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ الدُّنْيَا عَلَيْهِ كَمَا كَانَتْ لَمْ تَتَغَيَّرْ، وَكَذَلِكَ لَمْ يُظْلَمْ عَلَيْهِ ذَلِكَ. لكنهم تَكَلَّمُوا عَلَى التَّمْثِيلِ مِنْ شِدَّةِ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْأَمْرِ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَضْبًا مُّصَدَقًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يقول: لو كَانَتْ هَذِهِ الْحُجَجُ أَنْزَلْتُ عَلَى جَبَلٍ مَعَ صَلَابَتِهِ وَشِدَّتِهِ لَخَضَعَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَنْصَدَعَ مِنْ خَشْيَتِهِ عَلَى وَجْهِ التَّمْثِيلِ. لكن قُلُوبَ هَؤُلَاءِ أَقْسَى مِنْهُ حِينَ^(١١) لَمْ تَخْضَعْ، وَلَمْ تَخْشَعْ.

وهو كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ٧٤] إِذِ الْحِجَارَةُ قَدْ تَكُونُ فِيهَا مَنَافِعُ نَحْوُ خُرُوجِ الْمَاءِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَخَذَلَهُمْ. (٢) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) (٢) مِنَ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) (٤) مِنَ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) (٦) مِنَ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهَا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُنْ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

وغيره. فاما قلوب هؤلاء الكفرة فليس فيها شيء من المنافع، بل هي قاسية، لا تخشع، ولا تتصدع. وعلى ذلك حملوا قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِعْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] على التمثيل ليس على حقيقة ذلك.

وقال قائلون: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ [إنه على^(١)] حقيقة ذلك الفعل منه، وهو الانصداع والخشوع، وكذلك تأويل قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِعْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠].

فمعناه: لو كان نزول هذا القرآن وما فيه من الأحكام والأمانات التي أوجب على البشر على الجبل، وكان هو بحيث يملك قبول ذلك باختياره لقيام شرائطه لكان هو يفرغ، ويخضع، ويتصدع، من خشية الله تعالى، وكان لا يقبل مخافة ألا يملكه أداء ما لزم ينزوله، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ الآية [الأحزاب: ٧٢] فيقول: معناه: لو أنزلنا هذه الأمانات التي في هذا القرآن ﴿وَعَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَهُ خَشِعًا مُتَصَدِّعًا﴾ إذ الأمانات التي في هذا القرآن مما قد تلزم المرة [ولا يملكه^(٢)] أداؤها كلها، لأن الأمانات مما يكثر عدها فضلاً عن [ألا يملكه^(٣)] أداؤها.

فعلى هذا التأويل يخرج على حقيقة التصدع: أن لو أنزل عليه مع عظمتيه وصلابتيه [لأنصدع]. فعلى هذا تنبيه للخلق وتذكير لهم.

وقال بعضهم: في هذه الآية يُذكر الرسول ﷺ مِنْتُهُ عليه وعلى جميع الرسل: لولا فضل الله ومِنْتُهُ على الرسل لكان لا يطيق^(٤) أحد من الرسل حمل ما في الكتب ولا أداء ما فرض [الله عليهم من أداء الرسالة، لكنه من عليهم أن يسر عليهم ذلك حتى قاموا بذلك كله، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَتَلِفْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا قِيلًا﴾ [المزمل: ٥] [وقوله في مواضع آخر^(٥)] ﴿وَلَقَدْ بَرَأْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧ و...]. فيسر عليهم، ونقل العمل بما فيه؛ فيقولون: كذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَهُ خَشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [يحمل ما فيه^(٦)]. لكنه [من^(٧)] عليك، ويسر ذكره عليك، ووفقك بتبليغ ما فيه إلى أهله.

وقال قائلون: إن الله تعالى لما أراد أن ينزل التوراة على موسى ﷺ وكانت في لوح من زبرجد حمراء أمر الملائكة أن يحملوها، فلم يطيقوا حملها، ثم أمرهم أن يحملوها كل حרב منها، فلم يطيقوا ذلك، فحفظ الله تعالى على موسى ﷺ حتى حمل ذلك.

فكذلك ذكر ذلك في عيسى وداود ﷺ ثم حفظ الله تعالى ذلك على الأنبياء/ ٥٦٢ - ب/ ﷺ.

فكانه يقول لرسوله ﷺ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَهُ خَشِعًا﴾ كذا، لكنه حفظ ذلك عليك كما حفظ على الأنبياء من قبلك. وإليه يذهب الكلبي.

ولكن إن صح هذا الخبر فإن ذلك الثقل لم يكن في تلك الكتابة التي في الألواح، لكن ذلك في ما يلزمهم من العمل بذلك من أداء الأمانات وغيرها، لأنه تعالى أخبر أنه لو كان أنزل ﴿هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَهُ خَشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ الآية [الأحزاب: ٧٢].

ثم كانت هذه الألواح التي اختلصها الأرض، وأمكن لموسى ﷺ [حملها^(٨)] فكذلك هذا القرآن كله والتوراة والإنجيل والزبور مما قد يتحمل [ذلك^(٩)] حقيقة، ويمكن كتابته في [قلب تلك^(١٠)] الألواح ثبت أن المراد من ذكره، ليس هو الحروف إن كان على ما فيه من الأمر والنهي وأداء الأمانات واتقاء الله حق ثقافته لا على نفس تلك الألواح.

وهذا الذي ذكرنا هو تأويل القوة في نزول هذه الآية.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: لا يمكن. (٣) في الأصل وم: إن. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في نسخة الحرم المكي: وقال في موضع آخر. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فيها. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قلبك.

فأما إني لا أعلم لي بحقيقة تأويل هذه الآية، ولولا أن في الآية تذكيراً وتنبهاً، لكنا نقول: هي من التشابه المكتوم الذي لا يفسر. لكنه لما خرج مخرج التذكير واستيداء شكر ما سهل علينا قراءته اختجنا إلى تأويله.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَشْخَالُ فَتَرِيهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هو ظاهر.

الآية ٢٢ وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ من الناس من يقول: إن قوله: ﴿هُوَ﴾ من أرفع أسماء الله تعالى، وذكر بعض أهل بيت رسول الله ﷺ أنه كان يدعو بقوله: يا هُوَ يا مَنْ لا هُوَ إلا هُوَ، وتأويل هذا الكلام أن كل شيء، بهويته كان.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ﴾ قيل فيه بوجوه ثلاثة:

أخذها: أنه عالم بما غاب عن الخلق وبما شهدوا.

والثاني: [أنه عالم]^(١) بما قد كان وبما يكون.

والثالث: أنه عليم بما قد كان وبكيفية أن كيف يكون إذا كان.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ فيها اسمان مشتقان من الرحمة.

وفي هذه الآية بيان وجوه أربعة:

أخذها: فيه بيان التوحيد، وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ اسم المعبود أن كل معبود دونه باطل.

والثاني: أن فيه تنبيهاً وتحذيراً بأن يتذكر الإنسان في جميع أحواله اطلاع الله تعالى عليه وعلمه فيه، وذلك من قوله تعالى: ﴿هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ﴾.

والثالث: فيه ترغيب في رحمته وإخبار لهم أن كل نعمة لهم في الدنيا والآخرة من الله تعالى؛ إذ في قوله ﷻ ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

الآية ٢٣ والرابع: ما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ الآية: ﴿الْمَلِكُ﴾ من الملك، أي ملك كل شيء له، ليس لأحد سواه حقيقة الملك.

[وقوله تعالى]^(٢): ﴿الْقُدُّوسُ﴾ قيل فيه بوجهين:

[أحدهما: ما]^(٣) قال بعضهم: ﴿الْقُدُّوسُ﴾ هو المبارك، والبركة اسم كل خير، أي منه جميع الخيرات. لكن لا يجوز أن يقال لله تعالى: يا مبارك، وإن كان المعنى منه يؤدي إلى أن يوتي منه كل خير، لأنه لا يعرف في أسمائه هذا بالثقل. وعلينا أن نسكت عن تسميته بما لم يسم نفسه بذلك. لذلك قلنا: إنه لا يجوز التسمي بالمبارك، والله الموفق.

والثاني: ﴿الْقُدُّوسُ﴾ هو الظاهر؛ يعني هو مقدس عما قالت الملائكة والكفرة فيه من الولد والشريك.

وقوله تعالى: ﴿الْسَّلَامُ﴾ اختلف في تأويله؛ منهم من قال: سمي نفسه سلاماً لما هو سالم من الآفات، وغيره من المخلوقين لا يسلمون من حلول الآفات بهم.

وقال آخرون: سمي نفسه سلاماً لما سلم المؤمنون من عذابه، والتأويل الأول أقرب.

وقوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ اختلف الناس في تأويله؛ قال قائلون: هو الأمان؛ أي يؤمن المؤمنون من العذاب، ولا يمكن لأحد أن يؤمن أحداً من عذابه.

وقال قائلون: أضله من الإيمان، وهو التصديق. ثم ذلك يتوجه إلى وجهين:

أحدهما: أي مصدق القول بما وعد المؤمنين الجنة.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ هو المصدق لما قال المؤمنون المصدقون من تصديقهم، فيصدقهم بما قالوا.

ومن الناس من قال سمي نفسه بما أخبر أن هذا القرآن لما بين يديه مصدق.

وقوله تعالى: ﴿الْمُهَيِّمُونَ﴾ اختلف فيه أيضاً؛ قال قائلون: هو المسلط. وقال قائلون: ﴿الْمُهَيِّمُونَ﴾ هو الشاهد.

فمن قال بالاول فإنه يذهب إلى أن أصل ذلك من المؤمنين، وهو من الأمانة، وإلى هذا التأويل يذهب القتيبي، أي أمين^(١) في كل ما يقول وفي كل ما يفعل، أي لا يجوز.

ومن قال بأنه، هو المسلط [فإنه يذهب إلى أن^(٢) أصله من هيمن يهيمن، أي سَلَطَ يَسْلُطُ، وسئل^(٣) عن تأويل المسلط، فقال: هو كالظاهر؛ إذ قهر العباد كلهم، وهم ملك له.

ومن فسره بالشاهد فإنه يَحْتَمِلُ تأويلين:

أحدهما: أي شاهد على أفعال العباد من حيث لا يغيب عنه شيء.

والثاني: أي شاهد بما أنزل على رسوله بالصدق، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] أي شاهداً عليه.

وقوله تعالى: ﴿الْمُرِيزُونَ﴾ أي ما من عزيز دونه إلا وهو ذليل.

وقوله تعالى: ﴿الْجَبَّارُونَ﴾ قيل فيه بوجهين:

أحدهما: سمي نفسه الجبار لأنه هو المجبر لكل كبير.

[والثاني: ما قال] قائلون: سمي نفسه [﴿الْجَبَّارُونَ﴾]^(٤) لجبروته وعظمته، ولا يجوز لأحد أن يتسمى بذلك الاسم إلا هو، أي الله تعالى، وتجبر عن أن يكون له أمثال وأشكال.

وقوله تعالى: ﴿التَّكْوِينُ﴾ من الكبرياء والعظمة، هذا الاسم لا يليق لغيره، لأن الخلق، بعضهم لبعض أكفاء في الخلق، فلا فضل لأحد على آخر. فلما استوتوا لم يجز لأحد على آخر التكبر، فصار الحق في ذلك لله تعالى.

والتكبر على الآخر هو الارتفاع. والأصل فيه واحد؛ وهو ألا يرى لنفسه شكلاً، والله أعلم.

إنما سمي نفسه متكبراً؛ إذ هو المتكبر بذاته، لم يكن تكبره بغيره. فلذلك قلنا: إنه لا يستحق أحد من الخلائق التكبر إلا الله تعالى؛ إذ لم يكن أحد شكلاً ولا ضداً ولا ندّاً. وأما غيره من الخلائق فكل واحد منهم بالذي له شكل.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيه تنزيه لله تعالى عما قالت فيه الملحدة، فهذا اسم سمي به نفسه، وأمر الملائكة والأنبياء والمؤمنين أن يقولوا ذلك.

ومعنى قوله: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ﴾ أي معاذ الله أن يكون ذلك على ما قالت الكفرة.

وسمي نفسه جباراً لما أنه يجبر الأشياء، فيجعلها على ما يشاء، وهو كقوله: ﴿يَسْخَرُهُمْ فِي الْأَرْصَادِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦] [فيخلق الأشياء على ما يريد^(٥)] لا على ما يريد غيره.

قال، رحمه الله تعالى: إن الله تعالى يتعالى بمعان خمسة^(٦):

أحدها: تعاليه عن الظلم والجور وجميع ما لا يليق [به]^(٧).

والثاني: تعاليه على الأشياء كلها بقهره وإياها وتضريفه إياها على ما يشاء، أي ليس أحد، يقهره، بل يقهر الخلائق.

والثالث: تعاليه عن [أن]^(٨) تمسه الحاجة والآفة. وكل من دونه، لا يخلو عن ذلك.

(١) في الأصل وم: أميناً. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي،

في الأصل وم: على ما يريد الأشياء. (٦) في الأصل وم: أربعة. (٧) و(٨) ساقطة من الأصل وم.

والرابع: تعالى عما قال الظالمون فيه من الولد والأضداد والأشكال والأنداد.

[والخامس]^(١): تعالى عن جميع السوء الذي يصيب الخلق، والله المستعان.

الآية ٢٤

وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ فالخالق والبارئ واحد، ويقال: برأ أي خلق، والبرئة هي الخلق، ويقال: سُميت البرئة برئة [لأنها خلقت]^(٢) من التراب؛ إذ البرى، هو التراب.

وقوله تعالى: ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ / ٥٦٣ - أ/ هو الذي يعطي كل شيء صورته، فيصوره على ما هو، فالتصوير، هو بيان المحدود، وهو قول الناس: صوّرت الأمر عند فلان، أي بيّنته.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي الأمثال العلاء، وهي الصفات، إذ المثل^(٣) يرجع إلى وجهين:

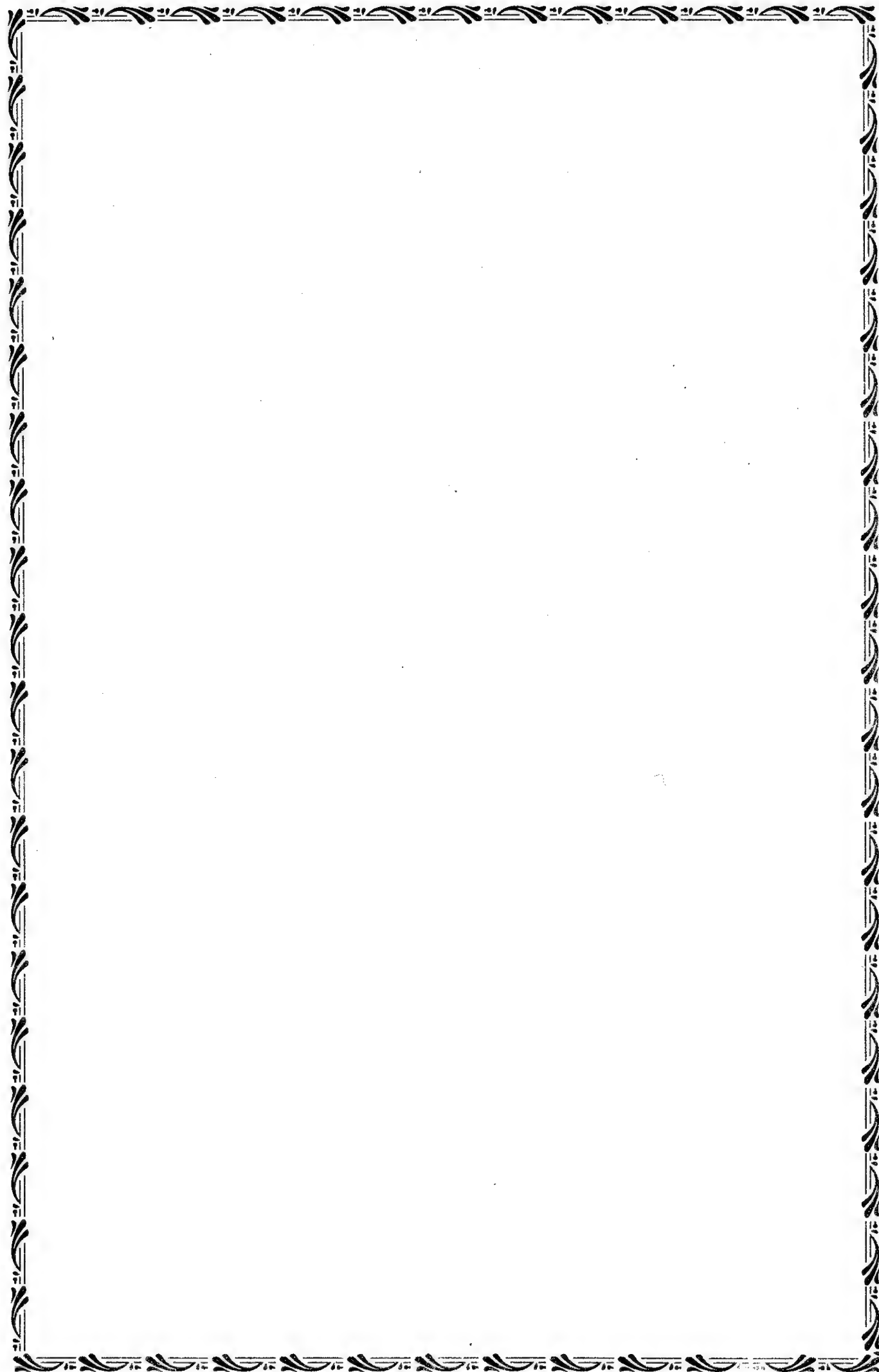
إلى الصفة مرة، وإلى التشبيه ثانياً. فإذا رجع إلى [الصفة فإنه يرجع إلى]^(٤) حقيقة ذلك [المثل]^(٥) وإن رجع إلى التشبيه فإنه لا يرجع إلى حقيقة ذلك.

ثم قوله تعالى: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي الصفات العلاء، أي لا يسمى بذلك إلا هو؛ إذ يقال لغيره: الرب لا^(٦) الرحمن ولا المالك إلا أن يضاف ذلك إلى الشيء. فاما التصريح فلا يطلق ذلك إلا له، جلّ، وعلا.

ويحتمل وجهاً آخر، أي لا شبيه له في أسمائه، ولا يشركه أحد في تلك الأسماء، بل هي خاصته. والله المستعان.



(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: لأنه خلق. (٣) في الأصل وم: الصفة. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ولا.



سورة الممتحنة

[مدنية^(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ هذه الآية وما أشبهها من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَرَأُوا نُفُسَكُمْ﴾ [التحریم: ٦] وفي كل ما ذكر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤ و...]. دلالة واضحة أن الإيمان ذو حد، وأنه ليس كما قالت الحشوية^(٢) والمعتزلة وأصحاب الحديث: إن الطاعات كلها إيمان. ووجه ذلك أن كلاً في نفسه قد فهم من هذه الآية أنه مُحْتَمَلٌ لهذا الخطاب وأنه لازم له، فثبت أنه ذو حد في نفسه، وهو التصديق في القلب، وغيره من الطاعات شرائعاً، والله أعلم.

وفي ما ذكر من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] وما أشبهه^(٣) من الآي دلالة على أن الإنسان ما يشاهد، وليس كما قال النظم: إن الإنسان إنما هو جسم آخر لطيف في هذا الإنسان، ولا كما قال الناشي: إن الإنسان إنما هو جوهر بسيط في هذا الإنسان.

ووجه ذلك أنه ليس كل أحد، يعلم أن في نفسه جوهراً بسيطاً أو جسماً آخر، فيه لطف. وقد فهم الكل من هذه الآيات أنه مُحْتَمَلٌ للخطاب بها. فثبت بما وصفنا أن الإنسان هو ما يشاهد، والله أعلم. وفيه دلالة أن ما يفهم من هذه الآيات من عموم أو خصوص ليس يفهم بظاهر الخطاب ولكن بما توجبه الحكمة؛ فإن أوجبته عمومها أجزوها على عمومها، وإن أوجبته تخصيصها أجزوها على ذلك.

والذي يدل على ما وصفنا أنه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وهذا مخرج في الظاهر على العموم، ولكنه لما قال: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ ومعلوم أن الذي كان يلقي بالمودة خاص^(٤) لا كل المؤمنين، فكان يجب أن يكون مخرجها على الخصوص لما بين إليهم في سياق هذه الآية. ولكن الحكمة توجب تعميم هذه الآية، لأنه لو قال لواحد: لا تتخذ عدوي وعدوك^(٥) أولياء كان هذا الخطاب لازماً للكل بما توجبه الحكمة من أنه إذا علم من أحد عداوته ألا يتخذ ولياً^(٦).

وكذلك قوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ خرج مخرج العموم في الظاهر، ولكن الذين أخرجوه إنما كانوا^(٧) أهل مكة خاصة دون سائر الكفرة.

فهذا يبين أن^(٨) ما أجري مجرى العموم، لم يجز بظاهر اللفظ، ولكن لما توجب الحكمة والدليل. وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّعَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ قَامُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية [الجمعة: ٩] ليس أن السعي إنما فرض يوم الجمعة لتخصيصه بالذكر، ولكن لما أن النداء في يوم الجمعة إلى ذكرين وفي غيره من الأيام إلى ذكر واحد ولأجل أن النداء المصيق في يوم الجمعة، هو النداء الأول وفي غيره من الأيام هو النداء الثاني.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: الحشوية بالراء. وقد أدرجت كلمة الحشوية في تفسير الآية ٨٦ من سورة الإسراء في الورقة ٣٠٨ ب من الأصل. انظر ١٩٠/٣. (٣) في الأصل وم: أشبهها. (٤) في الأصل وم: خاصاً. (٥) في الأصل وم: عدوكم. (٦) من م، في الأصل أولياء. (٧) في الأصل وم: كان. (٨) من م: في الأصل: أول.

فإذا جازَ أَنْ يَكُونَ قَرْضُ السَّعْيِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ إِنَّمَا هُوَ لِهَذَيْنِ الْمَعْنَيْنِ ثَبَتَ أَنَّ التَّخْصِيصَ لَيْسَ بِظَاهِرِ اللَّفْظِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفي هذه الآية دلالةُ رسالته ﷺ وذلك أَنَّ قَوْلَهُ ﴿يُثِرُونَ لَهُمُ بِالْمَوَدَّةِ﴾ أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ، لَمْ يُظْلِعْ عَلَى سِرِّهِ أَحَدًا، وَقَدْ أَظْلَعَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ حِينَ^(١) أَخْبَرَهُمْ بِالكِتَابِ، ثَبَتَ أَنَّ عِلْمَهُ بِالْوَحْيِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي مَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ؛ فَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الثُّغَايِ، وَقَالَ غَيْرُهُ مِنْ عَامَّةِ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي حَاطِبِ بْنِ بَلْتَعَةَ، وَهَذَا أَشْبَهُ التَّأْوِيلَيْنِ^(٢) بِالصَّوَابِ، وَأَقْرَبُ إِلَى الْحَقِّ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ الْكُفْرَةَ عَدُوٌّ لَهُمْ. وَلَوْ كَانَتْ الْآيَةُ فِي أَهْلِ الثُّغَايِ لَمْ يَكُنِ الْكُفْرَةُ عَدُوًّا لَهُمْ، بَلْ كَانُوا أَوْلِيَاءَ، ثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ الْمُؤْمِنُونَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفي هذه الآية دلالةُ أَنَّ ذَلِكَ الذَّنْبَ الَّذِي ارْتَكَبَ ذَلِكَ الرَّجُلُ لَمْ يُخْرِجْهُ مِنَ الْوِلَايَةِ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ الذَّنْبُ يُكْفِرُهُ، وَيُخْرِجْهُ مِنَ الْإِيمَانِ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْكَافِرُ عَدُوًّا لَهُ، بَلْ يَكُونُ وَلِيًّا لَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِلَّا لَطَلَّيْنِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الجنابة: ١٩]. وَلَا جُلَّ أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ سَمَاءُ مُؤْمِنًا.

وَالدَّلِيلُ أَنَّ ذَلِكَ الذَّنْبَ كَانَ كَبِيرَةً أَنَّهُ أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَهَّزَهُمْ لِلْقِتَالِ، وَفِي مَا أَخْبَرَ أَمْرًا بِأَنْ يَسْتَعِدُّوا لِقِتَالَ النَّبِيِّ ﷺ وَحَرْبِهِ، وَلَا شَكَّ^(٣) أَنَّ مَنْ أَمَرَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ مُرْتَكِبَ كَبِيرَةٍ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، وَقَدْ أَدْخَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي جُمْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي﴾ وَبِمَا وَصَفْنَاهُ مِنَ الدَّلِيلِ ثَبَتَ أَنَّ الْكَبِيرَةَ، لَا تُكْفِرُهُ، وَلَا تُغَيِّرُ اسْمَهُ الْإِيمَانَ عَنْهُ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.

ثُمَّ فِي مَا نَهَانَا أَنْ نَتَّخِذَ عَدُوَّنَا وَعَدُوَّهُ أَوْلِيَاءَ دَلَالَةٌ أَنَّ لَيْسَ فِي الْحِكْمَةِ اتِّخَاذُ الْوِلَايَةِ مَعَ الْأَعْدَاءِ.

ثُمَّ مِنْ قَوْلِ الْمَعْتَزِلَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ مِنْ جَمِيعِ عِبَادِهِ أَنْ يُؤْمِنُوا، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُؤْمِنُوا، فَقَدْ أَرَادَ أَنْ يُؤَالِيَهُمْ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَخْتَارُونَ عِدَاؤَهُ، فَكَانَهُمْ وَصَفُوا اللَّهَ بِمَا يُخْرِجُهُ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَيُدْخِلُهُ فِي السُّفْهِ وَالْجَهْلِ بِالْعَوَاقِبِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مُنْفِيٌّ عَنِ اللَّهِ ﷻ وَالْمَعْتَزِلَةِ فِي مَا وَصَفُوا فَجَرَةً فَسَقَةً، وَيُخْشَى أَنْ يَكُونُوا كُفْرَةً، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وقوله تعالى: ﴿تَلْفُوتَ لَهُمُ بِالْمَوَدَّةِ﴾ أَيِ بِمَا كُتِبَ فِي الْكِتَابِ. / ٥٦٣ - ب/

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَرُّوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِنَّا لَمُبْتَلُونَ﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِي مَرْضًا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي مَنْ هَاجَرَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَهُوَ أَقْرَبُ التَّأْوِيلَيْنِ، لِأَنَّ حَاطِبًا، إِنَّمَا كَانَ هَاجِرًا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَفِيهِ نَزَلَتْ الْآيَةُ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حِينَ أَرَادُوا الْجِهَادَ إِلَى مَكَّةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَيِ ذَلِكَ كَانَ.

وقوله تعالى: ﴿يُثِرُونَ لَهُمُ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أَيِ هُوَ ﴿أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ مِنْ كِتَابَةِ الْكِتَابِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ ﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ بِمَا أَظْهَرْتُمْ مِنَ الْعُدْرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ أَيِ مِنْ اتِّخَاذِ الْوِلَايَةِ مَعَ أَعْدَائِهِ ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ فِي الْإِغْتِقَادِ، أَيِ مَنْ اغْتَقَدَ ذَلِكَ، وَفِي الْفِعْلِ أَيِ لَمْ يَتَّقِذْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿يُثِرُونَ لَهُمُ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ التَّزَامُ مُرَاقَبَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَتَحْذِيرُ مِنْهُ^(٤) لِيَجْمَعُوا بَيْنَ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَتَخْوِيفُ لَهُمْ مِنْ أَنْ يُظْلِعَ رَسُولُهُ ﷺ عَلَى سَرَائِرِهِمْ كَمَا أَظْلَعَهُ عَلَى أَمْرِ الْكِتَابِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ.

ثُمَّ فِي الْآيَةِ أَعْظَمُ شَيْءٍ فِي زَجْرِهِمْ وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمَعَاصِي، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَظْلَعَهُ عَلَى جَمِيعِ مَا يَتَعَاطَوْنَهُ مِنَ الذُّنُوبِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٢) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ وَم: التَّأْوِيل. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بِشَكْل. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: لَه.

سِرّاً وَعَلَانِيَةً، فَإِذَا عَلِمُوا أَنَّ الرِّسُولَ ﷺ يَغْلَبُ مِنْ سِرِّهِمْ مَا يَغْلَبُ مِنْ عَلَانِيَتِهِمْ بِمَا يُظْلَعُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ يَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ عَلَى الْإِنْتِهَاءِ عَنِ الْمَعَاصِي فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَعَلَى الْإِجَابَةِ إِلَى مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ فَوَجْهُ ذَلِكَ وَتَأْوِيلُهُ عِنْدَنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ لَمَّا رَأَوْهُمْ رَغِبُوا فِي أَمْوَالِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ رَغْبَةً مِنْهُمْ فِي الْكُفْرِ أَنْ يَحْفَظُوا أَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ كَيْفَ يَرْغَبُونَ فِي حِفْظِهِمْ، وَهُمْ لَوْ قَدَرُوا عَلَيْهِمْ، وَظَفَرُوا بِكُمْ، قَتَلُوكُمْ، وَأَذَوْكُمْ بِالسَّيِّئَاتِ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: كَيْفَ تَوَالُوهُمْ مِنْ حَيْثُ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ، وَهُمْ لَوْ ظَفَرُوا بِكُمْ قَتَلُوكُمْ، وَكَانُوا لَكُمْ أَعْدَاءً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُودُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ يُودُّونَ أَنْ تَكْفُرُوا، وَمَعَ مَا يُودُّونَ أَنْ تَكْفُرُوا، لَوْ قَدَرُوا عَلَيْهِمْ قَتَلُوكُمْ. فَمَنْ كَانَتْ حَالُهُمْ مِنْكُمْ مِثْلَ هَذَا فَكَيْفَ تَظْمَعُونَ أَنْ يَحْفَظُوا أَوْلَادَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ؟

الآية ٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَقُولُ يَتَنَبَّأُ﴾ لَهُ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ كَيْفَ تَوَالُونَ الْكُفْرَةَ لِمَكَانِ أَوْلَادِكُمْ وَأَرْحَامِكُمْ، وَهُمْ لَا يَنْفَعُونَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

وَالثَّانِي: أَنْ أَرْحَامَكُمْ لَا تَنْفَعُكُمْ، وَلَا تَنْفَعُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقُولُ يَتَنَبَّأُ﴾ لَهُ وَجْهَانِ أَيْضاً:

أَحَدُهُمَا: [١] أَيِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَرْحَامِكُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَرَى الَّذِينَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَأَيْدِيهِمْ﴾ [عبس: ٣٤ و ٣٥].

وَالثَّانِي: أَيِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَرْحَامِكُمْ لِاخْتِلَافِ أَعْمَالِكُمْ، فَتَزُولُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمْ مُنْزَلُ عَمَلِهَا.

الآية ٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُشْرُؤُا حَسَنَةً فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤَا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الْآيَةِ. الْأَصْلُ فِي أَنْبَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ أَنَّهَا عِبْرٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ. فَمَا ذَكَرَ مِنْهَا فِي الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأُمَّةِ الْمَاضِيَةِ فَهُوَ تَخْوِيفٌ لِكُفْرَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ لِئَلَّا يَصْنَعُوا مِثْلَ صَنِيعِهِمْ، فَيَسْتَوْجِبُوا مِنَ النَّقْمَةِ مِثْلَ مَا اسْتَوْجَبَ أُولَئِكَ. وَمَا كَانَ مِنْهَا فِي حَقِّ الرِّسُولِ ﷺ فَهُوَ فِي حَقِّ التَّسْلِي لِرِسُولِنَا وَسَيِّدِنَا ﷺ عَنْ بَعْضِ مَا سَأَهُ.

وَاصِلٌ آخَرُ: أَنَّ الْخِطَابَ قَدْ يَلْزَمُ الْمُخَاطَبَ مَرَّةً بِمَا يُخَاطَبُ فِي نَفْسِهِ وَمَرَّةً بِمَا يُؤْمَرُ بِالْإِفْتِدَاءِ بِغَيْرِهِ، إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْغَيْرُ، لَمْ يَفْعَلْ مَا فَعَلَهُ إِلَّا عَنْ أَمْرِ.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْإِفْتِدَاءَ بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ مَعَامَلَتِهِمْ لِيَأْمُرُوا بِتَرْكِهِمْ مُوَالَاتِهِمْ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: أَتَرَكُوا مُوَالَاةَ الْكُفْرَةِ وَالْإِسْرَارَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ مَا دَامُوا عَلَى كُفْرِهِمْ كَمَا فَعَلَهُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤَا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ فَنَابَذُوهُمْ، وَلَمْ يُوَالُوهُمْ. فَافْعَلُوا كِفْلَهُمْ ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَفِيرُنَّ﴾ لَكَ.

فَكَأَنَّهُ قَالَ: [٢] افْتَدُوا بِهِمْ إِلَّا بِمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ: ﴿لَا اسْتَفِيرُنَّ لَكَ﴾ يَعْنِي لَا تَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَمِثْلَ مَا اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ لِأَبِيهِ الْمُشْرِكِ، لِأَنكُمْ لَا تَعْلَمُونَ الْمَعْنَى الَّتِي لَهُ اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ لِأَبِيهِ.

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي الْمَعْنَى الَّتِي لَهُ اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ لِأَبِيهِ؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّهُ كَانَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَعَدَّ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِأَبِيهِ، وَرَأَى أَنَّ لِإِجَابِ الْوَعْدِ لَازِمٌ عَلَيْهِ، فَاسْتَغْفَرَ لِهَذَا الْمَعْنَى.

[وَقَالَ] [٣] الْحَسَنُ: إِنَّهُ إِنَّمَا اسْتَغْفَرَ لَهُ لَوْ قَتَلَ تَوْبَتَهُ لَا فِي حَالِ الشَّرِّ، لِأَنَّهُ لَا يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ [لَمْ يَغْلَبْ أَنَّهُ] [٤] لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِلْمُشْرِكِينَ. وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَحِلُّ لَهُ لَمْ يَكُنْ مُسْلِمًا مُؤْمِنًا. فَكَبَتْ أَنَّهُ إِنَّمَا اسْتَغْفَرَ لَوْ قَتَلَ إِسْلَامِيهِ.

وعندنا الاستغفار طلب المغفرة من الله تعالى على وجهين:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قالوا. (٣) من م، في الأصل: و. (٤) من م، ساقطة من الأصل.

أَحْلُهُمَا: مَغْفِرَةٌ رَحْمَةٌ وَقَضِيٌّ وَكَرَمٌ.

والثاني: أَنْ يُؤَفَّقَهُ لِلْسَّبَبِ الَّذِي إِذَا جَاءَ بِهِ غَفَرَ لَهُ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَسْتَغْفِرُكَ رَبِّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾؟ [نوح: ١٠] أي السبب الذي إذا جِئْتُمْ بِهِ غَفَرَ لَكُمْ. وإذا كَانَ كَذَلِكَ جَازَ أَنْ يَكُونَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ عَلَى هَذَا الرَّجْوِ: أَنْ يَكُونَ ظَلَبَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقَ لَهُ بِالسَّبَبِ الَّذِي إِذَا جَاءَ بِهِ غَفَرَ لَهُ؛ وَكَذَلِكَ مُسْتَقِيمٌ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا يُؤَفَّقُهُ لِلذِّكْرِ السَّبَبِ تَبَيَّنَ أَنَّهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي لَا أَمْلِكُ أَنْ أَدْفَعَ عَنْكَ عَذَابَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، أَوْ لَا أَمْلِكُ أَنْ أَهْدِيكَ دُونَ أَنْ يَهْدِيكَ اللَّهُ.

[أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾؟ [القصص: ٥٦]]^(١).

وكانه قَالَ: سَوَاءٌ أَنْ أَدْعُوَ لَكَ بِالتَّوْفِيقِ لِلْهُدَايَةِ [أَمْ أَلَا أَدْعُوَ لَكَ]^(٢) لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبَا﴾ يجوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا عِنْدَ الْمُنَابَذَةِ وَاطِّهَارِ الْعِدَاوَةِ مَعَ الْكُفْرَةِ؛ يَعْنِي عَلَيْكَ مُتَعَمِّدُنَا فِي النَّصْرِ عَلَى أَعْدَائِنَا عِنْدَ قِلَّةِ عَدَدِنَا وَكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ، وَإِلَيْكَ مَرْجِعُنَا وَمَقَرُّعُنَا، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ إِذَا قُضِنَا.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ذَكَرَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ أَنَّ تَأْوِيلَ هَذِهِ الْآيَةِ يُخْرَجُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أَيْ [لَا]^(٣) تُسَلِّطْ عَلَيْنَا أَعْدَاءَنَا، فَيُظَنُّوا أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، وَنَحْنُ عَلَى بَاطِلٍ.

[وَالثَّانِي:]^(٤) لَا تُتْرَكْ عَلَيْنَا الْعَذَابُ دُونَهُمْ، فَيُظَنُّوا أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، وَنَحْنُ عَلَى بَاطِلٍ.

[وَالثَّالِثُ:]^(٥) لَا تُوسَّعْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، وَتُضَيِّقْهَا^(٦) عَلَيْنَا، فَيُظَنُّوا أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، وَنَحْنُ عَلَى بَاطِلٍ.

وَلَوْ كَانَ التَّأْوِيلُ هُوَ الثَّانِي لَكَانَ يَجِبُ عَلَى هَذَا أَنْ يَكُونَ الْوَاجِبُ عَلَى الْعُدُولِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ يَسْأَلُوا اللَّهَ تَعَالَى الْعَافِيَةَ لثَلَا يَتَوَهَّمُ فَسَادُهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ.

وَلَكِنْ الْجَوَابُ عَنْ هَذَا أَنَّ الْفُسَاقَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ عَلِمُوا أَنَّ الَّذِي هُمْ فِيهِ مِنَ الْفُسْقِ مَخْظُورٌ.

وَأَمَّا الْكُفْرَةُ فَإِنَّ عِنْدَهُمْ أَنَّ مَا يَدِينُونَ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ حَقٌّ، فَإِذَا سَلَطُوا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ تَوَهَّمُوا أَنَّ الَّذِي حَسِبُوهُ حَقًّا حَقٌّ.

وَأَمَّا الْفَسَقَةُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِذَا عَلِمُوا أَنَّ الْفُسْقَ مَنَهِيٌّ عَنْهُ مَخْظُورٌ فَلَا يَقَعُ لَهُمْ هَذَا الْحُسْبَانُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ يَعْنِي عَذَابًا أَيْ سَبَبًا يُعَذِّبُ بِهِ الْكُفْرَةَ كَمَا قَالَ: ﴿رَبَّنَا وَآلِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٤٩] وَكَانَ تَأْوِيلُهُ أَنْ يُبْنَى السَّبَبُ الَّذِي يَسْتَوْجِبُ ﴿مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ فَكَذَلِكَ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ﴾ يَعْنِي الْمُتَوَكِّلُ مِنْ أَعْدَائِهِ.

الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ ٥٦٤ - / الْآخِرَةَ﴾ يَعْنِي لَقَدْ كَانَتْ لَكُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ قُدْوَةٌ حَسَنَةٌ تَحْسُنُونَ بِهَا إِذَا اقْتَدَيْتُمْ بِهِمْ، وَاطَّعْتُمُوهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ ٥٦٤ - / الْآخِرَةَ﴾ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَيْ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالثَّانِي: [أَيْ لِمَنْ]^(٧) يَوْمُنُ بِالْبَعْثِ؛ وَكَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَ أَمْرَ الْبَيْتِ فِي كِتَابِهِ بِصِفَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ:

مَرَّةً أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ١١٠] وَكَانَ الْمَعْنَى مِنْهُ الْبَعْثُ، وَمَرَّةً وَصَفَهُ بِصِفَةٍ

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: وتضييق. (٧) في الأصل وم: أن.

أخرى، وإن كان المراد الثواب، ففيه أن الراجي في الحقيقة، هو الطالب لما يزجوه بالأسباب التي يَرْجُو الوصول بها إلى ما دُعِيَ، وأرجي. والخائف في الحقيقة، هو الهارب عما حُدِّرَ، والمتَّهِي عما نُهي عنه، وحُظِرَ.

فإن من اعتمد على مجرّد الرجاء والخوف دون التمسك بسببها فهو مُتَمَنٍّ على الله تعالى:

والدليل على تأييد ما نقول قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجْهَهُدَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَوَلَّيْكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] أفلا تراه كيف حَقَّقَ مَعْنَى الرجاء بالمجاهدة في سبيل الله والعمل بطاعته، والله أعلم.

وإن كان [مُعْتَمِداً]^(١) على البعث فكذلك أيضاً لأنه إذا هَرَبَ عما نُهي عنه، وطلَّبَ لما أُمِرَ به، فقد تبيَّن أنه يُوالي من يقضي مولاته إلى ثواب الله ورحمته وأنه يُعادي من يقضي عاقبة مولاته إلى نقمة الله وعذابه.

ومعلوم أنه لا يفعل ذلك إلا من يؤمن بالبعث فإنما يُوالي من رجا منه منفعة الدنيا، ويهرب عن ضرره في هذه الدنيا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَزَلْ﴾ يعني من يتول عن طاعة الله في ما أمره من الإقدياء بهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ يعني ﴿الْفَقِيرُ﴾ عن طاعة الخلق ليُعلم أنه^(٢) ما أمرهم به لم يأمرهم لحاجة له في طاعتهم أو لِمَنْفَعَةٍ ترجع إليه، بل هو ﴿الْفَقِيرُ﴾ عن كل ذلك. وإنما أمرهم لحاجتهم إلى ذلك ولما علم أن منافع طاعتهم ترجع إليهم خاصة.

وقوله تعالى: ﴿لِكَيْدٍ﴾ له معنيان... معنى الحامد ومعنى المحمود.

فإن كان المراد منه المَحْمُود ففيه أن الله تعالى يستحق الحمد من خلقه بما أنعم عليهم.

وإن كان المراد الحامد فمعناه أن الله يَحْمَدُ الخلق، ويشكرهم حين^(٣) يجزيهم بالكثير من الثواب عن القليل من الأعمال، أو يُثني عليهم بأعمالهم، فهو حميد من هذين المعنيين.

الآية ٧ وقوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا كُفَّارًا﴾، ثم وعد أن يجعل بيننا وبينهم مودة إذا آمنوا، فكان هذا من أعظم الدلائل^(٤) على أن الخلق عند الله تعالى في كل حال على ما هم عليه في أحوالهم، وليس كما قال بعض الجهال: [إن من]^(٥) يؤمن في وقت من الأوقات فهو عند الله مؤمن في حال كُفْرِهِ، وهذا خلاف وصف الله تعالى في هذه الآية، والله أعلم.

ثم المعتزلة قد خالفوا هذه الآيات، وعاندوها، على قولهم؛ وذلك أن الله تعالى قال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ من قولهم: إن كان على خلاف مذهبهم، فهو عدوهم، ولا شك أنهم يُوالونهُ، ويصافونهُ، وقد نهى الله تعالى عن هذا، فهذا [أحد الخلافات]^(٦).

والثاني: أن الله تعالى وعد أن يجعل بيننا وبينهم مودة. ومن قولهم: أنه لا يُقدِّرُ على شيء من أفعال الخلق، فكان الله تعالى على قولهم وعد ما لا يُقدِّرُ عليه، وهذا لا يليق بأشفع الخلق، فكيف برَّب العالمين؟ فثبت أنهم عاندوا هذه الآيات، والله أعلم.

وخلاف ثالث: أن الله ﷻ وصفت نفسه بالقُدْرَةِ [بقوله]^(٧) ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ ومن قولهم: أنه ليس يُقدِّرُ على شيء من أفعال الخلق. فأي خلاف أشهر من هذا وأظهر؟ والله الموفق.

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَنَبَّأُكَ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُنْزِلْوْكَ فِي الَّذِينَ وَلَّوْا بِمَرْجُوكُمْ أَنْ تَرْجُوهُمْ وَتَقْطِعُوا إِلَيْهِمْ﴾ لا يَحْتَمِلُ أن يكون النهي في الإقساط لأن الإقساط، هو العدل، وليس ينهى عن العدل إلى من^(٨) كان ولياً أو عدواً.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. أن. (٣) في الأصل وم. حتى. (٤) في الأصل وم. الدليل. (٥) في الأصل وم. إنه. (٦) في الأصل وم. إحدى الخلافين. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم. ما.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَجْرِيَنَّكُمْ شَتَاؤُنَا قَوْمَ عَلَا أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾؟ [المائدة: ٨] فقد أُخْبِرَ أَنَّهُ لَا يُجِلُّ لَهُمْ^(١) تَرْكُ الْعَدْلِ لِمَكَانِ الْعَدَاوَةِ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ ثَبَتَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا النَّهْيِ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَنْ تَبْرَهُمْ﴾.

ثُمَّ الَّذِي لَمْ يَنْتَهِ عَنْهُ خِلَافٌ مَا نَهَى فِي الظَّاهِرِ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَا يَتَنَكَّرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِيلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبْرَهُمْ﴾.

الآية ٩

وَقَالَ فِي مَا نَهَى: ﴿إِنَّمَا يَتَنَكَّرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَلَمُوا عَلَى إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَوْلَوْهُمْ﴾.

[الآية ٩]

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ تَبْرَ مَنْ لَا يَجُوزُ إِلَّا تَوَلَّاهُ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾؟ [لقمان: ١٥].

ثُمَّ نَهَى عَنْ تَوَلِّيِ الْكُفَّارِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾. وَلَكِنَّهُ لَمَّا جَازَ أَنْ يَجْتَمِعَ فِي نَفْسٍ وَاحِدَةٍ الْبِرُّ وَتَرْكُ التَّوَلِّيِ، فَكَذَلِكَ جَازَ أَنْ تُؤْمَرَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَى^(٢) عَنِ التَّوَلِّيَةِ^(٣) مَعَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَنَكَّرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِيلُواكُمْ فِي الدِّينِ﴾. يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ ﴿لَا يَتَنَكَّرُ﴾. بَلْ يَأْمُرُكُمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: يُرَخِّصُ لَكُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿كَمَا رَخَّصْتُ لَكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ١٦] وَمَعْنَاهُ بَلْ خَسِرْتُ، وَإِنْ كَانَ، قَدْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ التَّجَارَةُ إِذَا لَمْ تَرْتَبِخْ، لَا تُخْسِرْ، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَنَكَّرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِيلُواكُمْ فِي الدِّينِ﴾. بَلْ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَبْرَهُمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بَلْ يُرَخِّصُ لَكُمْ أَنْ تَبْرَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي مَنْ أَمَرَ بِبِرِّهِمْ، وَنَهَى [عَنْ تَرْكِهِمْ]^(٤) فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ الْمُسْتَضْعَفُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي السَّرِّ، وَخَشُوا [إِظْهَارَ إِيْمَانِهِمْ]^(٥) مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْمَدِينَةِ أَنْ يَبْرَهُمْ بِالْكِتَابِ إِلَيْهِمْ، لِيُخَالُوا فِي قِيَادِ أَنْفُسِهِمْ، لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ إِذَا عَلِمُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ظَهَرَ لِقِتَالِهِمْ كَانَ يَجُوزُ أَنْ يُخْشَى عَلَى أَوْلَئِكَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، فَأَمَرَ هَؤُلَاءِ أَنْ يَبْرَهُمْ بِالْكِتَابِ إِلَيْهِمْ، لِيَتَأَقَّبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ، وَيُخَالُوا لِمَا يُخْشَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا فِي الَّذِينَ كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ وَذِمَّةٌ، فَأَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَبْرُوا أَوْلَئِكَ فِي إِبْقَاءِ عَهْدِهِمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَنْ يَتَوَلَّوْا مَنْ قَاتَلَهُمْ، وَنَقَضَ عَهْدَهُمْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: [هَذَا]^(٦) فِي النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَبْرَهُمْ بِتَرْكِ الْقِتَالِ وَالْأَنْ يَتَوَلَّوْا مَنْ قَاتَلَهُمْ. مِنْ جُمْلَةِ الرِّجَالِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ فَآوَلَيْكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أَيِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فِي الْإِعْتِقَادِ ﴿فَآوَلَيْكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فِي حَقِّ الْإِعْتِقَادِ، أَوْ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فِي الْأَفْعَالِ ﴿فَآوَلَيْكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فِي حَقِّ الْأَفْعَالِ كَمَا وَصَفْنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

الآية ١٠

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ التَّوْبَتُ مَنِجْرَتِ الْمَعْنَى عِنْدَنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: إِذَا جَاءَكُمْ

الْمُؤْمِنَاتُ يَعْنِي قَاتِلَاتٍ: إِنَّهُنَّ مُؤْمِنَاتٌ، فَامْتَحِنُوهُنَّ، لِأَنَّهُ لَوْ [مَا]^(٧) كَانَ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ مَعْنَى. فَلَمَّا أَمَرَ بِالْإِمْتِحَانِ ثَبَتَ أَنَّ تَأْوِيلَ قَوْلِهِ: ﴿إِذَا جَاءَكُمْ التَّوْبَتُ﴾ مَا وَصَفْنَا بِدَيْتٍ. وَمِثْلُ هَذَا مَا قَالَ: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] وَكَانَ الْمَعْنَى مِنْهُ: مَنْ تَكَلَّمَ بِالْكَفْرِ ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فَكَذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى مِنَ الْأَوَّلِ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ إِنَّ الْمُفَسِّرِينَ ذَكَرُوا وَصَفَ امْتِحَانِيَّ: يَخْلِفَنَّ بِاللَّهِ مَا أَخْرَجَهُنَّ مِنْ دَارِهِنَّ يُغْضُ أَرْوَاجَهُنَّ، أَوْ يَخْلِفَنَّ أَنَّهُنَّ مَا أَرَدْنَ / ٥٦٤ - ب/ بِخُرُوجِهِنَّ أَرْضاً سِوَى أَرْضِهِنَّ، وَإِنَّمَا أَرَدْنَ بِذَلِكَ الْإِسْلَامَ، وَهَذَا تَأْوِيلٌ فَاسِدٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا أَسْلَمَتْ كَانَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مِمَّنْ تَنْهَى. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: التَّوَلَّى. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: تَوَلَّيَهُمْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: إِظْهَارُهُ.

(٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الحَقُّ عليها في دينها أَنْ تَبْغُضَ زَوْجَهَا الْكَافِرَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَدَايِنَا وَيَنَاصُكَمُ الْمَدَاوِرُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الممتحنة: ٤].

فكيف يجوز أن تكون صفة امتحانهم ما ذكروا، وحكم الشريعة والدين يُوجب ما كُنْ يُفَعِّلُهُ؟ فكذلك قلنا: إن هذا التأويل الذي ذكره بعض المُفسِّرين في وصف الإمتحان غير مُستقيم.

ويجوز أن يكون تأويل امتحانهم على وجهين:

أحدهما: أن يُستَوْصَفَ عن الإيمان ما هو؟ فإذا أُخْبِرَ عن حقيقة الإيمان عَلِمَ أنهم مؤمنات.

والثاني: [أن] ^(١) يُعْرَضَ عليهن ما على المؤمنات في إيمانهم كما قال تعالى: ﴿أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَتَرَفَّنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهْتَنٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَلَا يَقُولُوا لَوْلَا دُونُ اللَّهِ قُلْنَا: [الممتحنة: ١٢] فَإِذَا قِيلَ ذَلِكَ كُلُّهُ [كَانَ] ^(٢) ذَلِكَ امْتِحَانَهُنَّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَهْلُ عِلْمٍ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ هذا يدلُّ على أن الذي كُلف به المؤمنون من امتحانهم في الظاهر، وأن الحقيقة إنما يَعْلَمُها ربُّ العالمين.

وهذا يبيِّن أن العِلْمَ علمان: عِلْمُ العمل، وعِلْمُ الشهادة.

فَعِلْمُ العمل ما يَعْلَمُهُ الْخَلْقُ فِي الظَّاهِرِ، فَيَعْمَلُونَ ^(٣) به. وعِلْمُ الشهادة ما يجوز أن يُشْهَدَ على الله به؛ وذلك إنما يوصل إليه، وذلك بما يُظَاهِرُهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ نَصًّا: إما بكتاب أو بِسُنَّةٍ مُتَوَاتِرَةٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وعِلْمُ العمل هو الذي يَنْشَأُ فِيهِ الْاجْتِهَادُ نَحْوُ خَبَرِ الْأَحَادِ وَجِهَةِ الْقِيَاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ ذَكَرَ فِي الْقِصَّةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَالَحَ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ مُشْرِكِي أَهْلِ مَكَّةَ عَلَى أَنْ مَنْ أَنَاهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَهُوَ عَلَيْهِ ^(٤) رَدُّهُ، وَمَنْ أَتَى مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ لَهُمْ، وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَكُتِبَ بِذَلِكَ كِتَابًا، وَهُوَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ.

فلما فَرَعَ مِنَ الْكِتَابِ إِذْ أَتَتْ سُبَيْعَةُ [بِنْتُ الْحَارِثِ الْأَسْلَمِيَّةُ] ^(٥) مُسْلِمَةً، فَجَاءَ زَوْجُهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ رُدَّ عَلَيَّ امْرَأَتِي، فَإِنَّكَ قَدْ شَرَطْتَ لَنَا ذَلِكَ، وَهَذِهِ طِينَةُ كِتَابِكَ، لَمْ تَجِفْ بَعْدُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِنَ الْكُفَرِ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ يَقُولُ: لَا تَرُدُّوهُنَّ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ ﴿لَا مَنْ جِلَّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَكُمْ﴾ يَقُولُ: لَا يَحِلُّ نِكَاحُ مُؤْمِنَةٍ لِكَافِرٍ وَلَا نِكَاحُ كَافِرٍ لِمُؤْمِنَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنفَرُوا مَّا أَنفَرُوا﴾ يَقُولُ: أَغْطَوْا زَوْجَهَا الْكَافِرَ مَا أَنْفَقَ عَلَيْهَا عَلَى مَا كَانَ جَرَى مِنَ الصَّلَاحِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ [مَنْ خَرَجَ] ^(٦) مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ مُؤْمِنَاتٍ ^(٧) لَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ، وَأَغْطَوْا أَزْوَاجَهُنَّ ^(٨) مَا أَنفَقُوا.

ثم معلوم أنه كَانَ يُوَخِّدُ بِإِعْطَاءِ الصَّدَاقِ وَإِتْيَاءِ مَا أَنْفَقَ غَيْرَ الَّذِي أَخَذَ الصَّدَاقَ. وَلَكِنْ كَانَ يُوَخِّدُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْ جَنْبِهِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا نَظَائِرَهُ فِي مَا تَقَدَّمَ.

ولذلك قَالَ أَصْحَابُنَا: إِنَّ أَهْلَ الْإِسْلَامِ يَأْخُذُونَ مِنْ تُجَارِ أَهْلِ الْحَرْبِ مُجَازَاةً لِمَا يَأْخُذُهُ أَهْلُ الْحَرْبِ مِنْ تُجَارِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا يُوَخِّدُ ذَلِكَ مِمَّنْ كَانَ مِنْ جَنْبِهِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ غَيْرَ الَّذِي أُخِذَ مِنْهُ.

وعلى ذلك يَقُولُ: إِنَّ الْمِخْنَةَ قَدْ يَجُوزُ أَنْ تَسْتَوِيَ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَأَنْ مَا يَنْزِلُ بِالْأَدَمِيِّ مِنَ الْمَحْنِ يَجُوزُ أَلَّا يَكُونَ حَقًّا لِمَا تَعَاطَى مِنَ الذُّنُوبِ وَالسَّيِّئَاتِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَمْتَحِنَ عَبْدَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مُبْتَدَأً. وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلَا يُوَاخِذُ فِيهَا أَحَدٌ بِذَنْبٍ آخَرَ، بَلْ يُجْزَى كُلٌّ بِعَمَلِهِ: إِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَإِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ^(٩)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فيعلمون. (٤) في الأصل وم: عليهم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

(٦) في الأصل وم: ما خرج. (٧) في الأصل وم: لم. (٨) في الأصل وم: أزواجهن. (٩) من م، في الأصل: فخيراً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوا إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾ يقول: لا إثم عليكم؛ يعني المسلمين أن تتزوجوهن إذا آتيتوهن مهرهن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِعِصْمِ الْكَافِرِ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه أن زينب بنت رسول الله ﷺ أسلمت قبل زوجها، ثم أسلم بعد ذلك زوجها، فردّها رسول الله ﷺ بالنكاح الأول قبل أن ينزل [قوله: ^(١) ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِعِصْمِ الْكَافِرِ﴾ فلما نزل ^(٢)] كان إذا أسلم الزوج، وخرج إلى دار الإسلام، انقطعت العصمة بينه وبين امرأته. وكذلك المرأة إذا خرجت وبقي الزوج.

ثم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِعِصْمِ الْكَافِرِ﴾ قال بعضهم: أي يعقد الكافر؛ فمن كانت له امرأة بمكة كافرة فلا يعيدن المرأة الكافرة، فإنها ليست بامرأة له، وقد انقطعت العصمة بينهما.

قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَا تُنكِحُوا يَتِيمَ الْكُوفَرِ﴾ حَظَرَ عَلَيْنَا الْإِمْتِنَاعَ وَالْكَفَّ وَالْإِمْسَاكَ عَنْ نِكَاحِ الْمُهَاجِرَةِ لِأَجْلِ زَوْجِهَا الْحَرِيِّ وَعِصْمَتِهِ، وَالْعِصْمَةُ الْمَنْعُ، وَالْكُوفَرُ يَجُوزُ أَنْ يَتَنَاوَلَ الرِّجَالُ، وَظَاهِرُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لِلرِّجَالِ لِأَنَّهُ فِي ذِكْرِ الْمُهَاجِرَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْعُوا مَا اتَّفَعْتُمْ وَلَسْتُمْلَا مَا اتَّفَعْتُمْ﴾ يقول: إذا لحقت امرأة المسلم بكفار مكة فاسألوا مهرها من أهل مكة، وردوه^(٣) إلى زوجها ﴿وَلَسْتُمْلَا مَا اتَّفَعْتُمْ﴾ يقول: إن جاءت امرأة من أهل مكة مهاجرة إليكم فرددوا على زوجها المشرك ما أعطاها من المهر، وذلك من أجل العهد الذي كان بين أهل مكة مهاجرة إليكم فرددوا على زوجها المشرك ما أعطاها من المهر، وذلك من أجل العهد الذي كان بين أهل مكة وبين النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَنْحَكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يقول: هذا هو حُكْمُ اللَّهِ يَنْحَكُمُ بَيْنَكُمْ، يقول: هذا هو حُكْمُ اللَّهِ بَيْنَ
المُسْلِمِينَ وَالْكَافِرِينَ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فِي أَنْ يَرُدَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضِ النَّفَقَةِ، أَيِ الْمَهْرِ.
وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي في مَا حَكَمَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْعَهْدِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحُكْمِ.

﴿الآية ١١﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ فَانَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكَثَارِ فَعَابَقْتُمْ﴾ يقول: إِنْ لَحِقَتْ امْرَأَةٌ مُّؤْمِنَةٌ بِكَفَارٍ مَّكَةَ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ مِمَّنْ لَيْسَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ، وَلَهَا زَوْجٌ عِنْدَكُمْ مُسْلِمٌ ﴿فَعَابَقْتُمْ﴾ أَيِ فَاغْتَبَكُم مَّالًا مِنَ الْغَنِيمَةِ ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ دَفَعَتْ أَزْوَاجَهُمْ بِثَلَاثَةِ مِائَةِ نَفْسٍ مِّنَ الْمَهْرِ مِمَّا أَصَبْتُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ قَبْلَ الْقِسْمَةِ﴾ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي مَا قَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ هَذَا ﴿الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُزَيَّنُونَ﴾ أَيِ مُصَدِّقُونَ، فَلَا تَنْقُصُوهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وهكذا رُوِيَ [عن^(٤)] مسروق، رحمه الله عليه، وعنه الزُّهري أنه قال: مِنْ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَسْأَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْكَفَّارِ مَهْرَ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ إِذَا صَارَتْ إِلَيْهِمْ، وَيَسْأَلُ الْكَفَّارُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَهْرَ مَنْ صَارَتْ إِلَيْنَا مِنْ نِسَائِهِمْ مُسْلِمَةً، فَأَقَرَّ الْمُؤْمِنُونَ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَبَى الْمُشْرِكُونَ أَنْ يُقِرُّوا بِذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ نِسَاءٌ مِنْ الَّذِينَ أَتَيْتُمْ مِنْ دُونِ آبَائِكُمُ الْأُولَىٰ فَمَا اسْتَفْتَأْتُمْهُنَّ فَلْيَمْسِكُوا بِهِنَّ فِي أَدْنَىٰ مَا اسْتَفْتَأْتُمْ﴾ فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ إِذَا ذَهَبَتِ امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ، وَلَهَا زَوْجٌ إِلَى الْكَفَّارِ أَنْ يَرُدُّوهُ إِلَى زَوْجِهَا مَا عَطَاهَا مِنَ الْمَهْرِ مِنْ صَدَاقٍ كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ مِمَّا يُرِيدُونَ أَنْ يَرُدُّوهُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ بِمُهَاجَرَةِ امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ إِلَيْهِمْ^(٥)، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي أَيْدِيهِمْ صَدَاقٌ، وَجِبَ رَدُّهُ عَلَى أَهْلِ الْحَرْبِ [وتعويضُهُ مِنْ غَنِيمَةِ أَصَابِهَا]^(٦). وَأَصْلُ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ نِسَاءٌ مِنْ الَّذِينَ أَتَيْتُمْ مِنْ دُونِ آبَائِكُمُ الْأُولَىٰ فَمَا اسْتَفْتَأْتُمْهُنَّ فَلْيَمْسِكُوا بِهِنَّ فِي أَدْنَىٰ مَا اسْتَفْتَأْتُمْ﴾ ثُمَّ ظَفَّرْتُمُ عَلَى أَزْوَاجِكُمْ، وَغَنِمْتُمْ فَمَاتَ عَنْهُمْ ﴿مَا اسْتَفْتَأْتُمْ﴾ فَكَانَهُ يَقُولُ: وَاسْأَلُوا أَوْلَادَكَ الَّذِينَ ذَهَبَتْ نِسَاؤُكُمْ إِلَيْهِمْ مَا اسْتَفْتَضْتُمْ. فَإِنْ سَأَلْتُمْ، وَلَمْ يُعْطَوْكُم شَيْئًا، وَفَاتَكُمْ ذَلِكَ مِنَ ذَلِكَ الرَّجُلِ، ثُمَّ قَاتِلْتُمُوهُمْ، وَغَنِمْتُمْ، فَاعْطُوا الَّذِينَ فَاتَ عَنْهُمْ أَزْوَاجَهُمْ مَا اسْتَفْتَضُوا.

قَالَ، رَحِمَهُ اللَّهُ: إِعْلَمَنَّ بَانَ هَذِهِ الْآيَاتِ^(٧)، تَنْتَظِمُ أَحْكَامًا:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: نزلت. (٣) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: إلينا. (٦) في الأصل: فوضوهم من غييمته أصبموها، في م: فعوضوهم من غييمة أصبموها. (٧) في الأصل وم: الآية.

أخذنا: جواز الاجتهاد والعمل بالعلم الظاهر، فإنه قال: ﴿فَاتَّخِذُوا اللَّهَ أَعْلَمَ بِإِسْنِيقٍ فَإِنْ عَمِلْتُمْ مَوْثِقًا﴾ أي بالاجتهاد والامتحان ﴿فَلَا تَرْجِعُوا إِلَى الْكُفَّارِ﴾ وهذا حكم مبني على العلم الظاهر، دل أن العمل به جائز.

[والوجه^(١)]: الثاني: أن أحد الزوجين إذا أسلم في دار واحدة: إما دار الإسلام [وإما^(٢)] دار الحرب، هل تقع الفرقة بنفس الإسلام أو بانضمام شيء آخر إليه؟

قال بشر المريسي: إن الفرقة تقع للحال من غير انضمام شيء آخر إليه.

وقال الشافعي: إن كانت المرأة مدخولاً بها لم تقع الفرقة حتى تحيض ثلاث حيض، وإذا كانت غير مدخول بها وقعت الفرقة للحال.

وقال أصحابنا: إذا كانا في دار الحرب، فأسلم أحدهما لم تقع الفرقة حتى تحيض ثلاث [حيض^(٣)]، وإذا كانا في دار الإسلام، فأسلم أحدهما، لم تقع الفرقة حتى يعرض السلطان الإسلام على الآخر؛ فإذا عرض عليه الإسلام، فأبى، فرق بينهما.

فأما بشر [فقد^(٤)] احتج بظاهر قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فقد أخبر أنه لا يحل منهما لصاحبه، ولم يذكر شيئاً آخر، فلا يقرن به شيء آخر.

وأما أصحابنا، رحمهم الله، فإنهم اجتنبوا، وقالوا: إن الفرقة لا تقع بنفس الإسلام بقوله: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاتَّخِذُوا﴾ فلو كانت الفرقة واقعة بمجرد الإيمان لم يكن للامتحان معنى. فلما لم يذكر الحرمة إلا بالامتحان ثبت أن الفرقة لا تقع بمجرد الإيمان.

ويجوز أن يكون مثال هذا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَكُنْ لَهُ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةٌ﴾ [النور: ٣] وحرم ذلك على المؤمنين، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ [النور: ٦] فلو كان الزنى يوجب الحرمة لم يكن هو رامياً للزوجة، بل إذا قال لها: زني، فكانه قال: لم يكن بيني وبينك نكاح.

فلما ثبت رمي الزوجات بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ ثبت أن الزنى لا يوجب حرمتها عليه. فكذلك الإيمان بمجرد لو كان يحرمها على الأزواج لم يكن للأمر بالامتحان معنى.

فلما أمر بالامتحان على إيمانها بعد أن أظهرت في نفسها الإيمان ثبت أن الحرمة لا تقع بنفس الإيمان حتى ينضم إليه شيء آخر، وتبين أن العمل بظاهر الآية غير ممكن؛ إذ لا يجزى على إطلاقها، والله أعلم.

ودليل ثان أن أصحاب رسول الله ﷺ حين أسلموا، ثم أسلم نساؤهم من بعدهم لم يزوا عن أحد منهم أنه جدد النكاح. ولو كانت الفرقة تقع بنفس الإسلام من أحد الزوجين لكان أصحاب رسول الله ﷺ أولى بتجديد النكاح. ثبت أن الفرقة لا تقع بمجرد الإسلام، والله أعلم.

والوجه الثالث: ما روي عن الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، على اختلاف الأسباب باختلاف الدارين ونحوه: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهما على النكاح حتى تحيض المرأة ثلاث حيض إذا كانا في دار الحرب.

وعن علي رضي الله عنه أنهما على النكاح مادام في الهجرة.

وعن عمر رضي الله عنه أنهما إذا كانا في دار الإسلام، فأسلم أحدهما فهما على النكاح حتى يعرض السلطان الإسلام على الآخر.

فهؤلاء قد ثبت عنهم أن الفرقة لا تقع بنفس الإسلام إلا^(٥) أن يضاف شيء آخر.

ولم يثبت عن غيرهم خلاف ذلك، فيكون إجماعاً. فلذلك أخذ أصحابنا، رحمهم الله تعالى، بقولهم، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: والثاني. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: إلى.

[والوجه الرابع^(١)]: أن أحد الزوجين إذا خرج إلى دار الإسلام مهاجراً، وبقي الآخر في دار الحرب، تقع الفُرقة بينهما عندنا.

وعند الشافعي لا تقع الفُرقة بتباین الدارين؛ قال: لأنَّ المسلم إذا دخل بأمان لم يتطلَّ نكاح امرأته، وكذلك لو دخل حربي إلينا بأمان لم تقع الفُرقة بينه وبين زوجته. وكذلك لو أسلم الزوجان في دار الحرب، ثم خرج أحدهما إلى دار الإسلام، لم تقع الفُرقة، فعلم أنه لا يعتبر باختلاف الدارين في إيجاب الفُرقة.

ولكن عندنا ليس معنى اختلاف الدارين ما ذكر، إنما معناه أن يكون أحدهما من أهل دار الإسلام: إما بالإسلام [وإما^(٢)] بالذمة، والآخر من أهل دار الحرب، فيكون حربيّاً كافراً.

فأما إذا كانا مسلمين فهما من أهل دار واحدة، وإن كان أحدهما مقيماً في دار الحرب والآخر في دار الإسلام. وفي هذه الآية دلالات^(٣) على ما قلنا من وجوه:

أحدها: أنه قال: ﴿إِن عَسْتَرَوْهُمُ مَّوْتًا فَلَا رَحْمَةً لَّكَ الْكَافِرِينَ﴾ ولو كانت الزوجية باقية بعد التباين لكان الزوج أولى [بها] وبأن^(٤) تكون معه، فلا معنى للنهي عن الرجوع إلى الزوج الكافر. وكذا قال رحمه الله: ﴿لَا مَنَ حِلَّ لَّكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَكُمْ﴾ أثبت الحرمة بين المهاجرات وأزواجهن، ولا يتصور بقاء النكاح في غير محلِّ الحِلِّ، وكان معناه تحريم الاستمتاع.

ولكن النكاح لمالم يكن المقصود به إلا الاستمتاع، وما هذا من آثاره، فكان في تحريم الاستمتاع تحريم النكاح. وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَنفُسُهُمْ تَآءَنَقُوا﴾ دليل عليه أيضاً، فإنه أمر بردة مهران إلى الزوج، ولو كانت الزوجية باقية لما استحق الزوج استرداد المهر لأنه لا يجوز أن يستحق البضع وبذله.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ لُجُومَهُنَّ﴾ ولو كان نكاح الأول باقياً لما جاز للمسلم في دار الإسلام أن يتزوجها.

وكذا قوله^(٥) تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْكَافِرِينَ﴾ نهانا عن الإمساك والإمتناع عن تزويجها لأجل عصمة الزوج الكافر وحرمة. دل أن الحرمة تقع بالتباين.

ودليل آخر من جهة المعقول على ما ذكرنا، وهو أنهم أجمعوا أنها إذا سببت وقت الفُرقة حتى يحلَّ للسباي وظء المسبية بعد الاستبراء، فإما أن تقع الفُرقة بإسلامها، وقد اتفق الجمهور من الفقهاء، رحمهم الله، على ألا تقع الفُرقة بنفس الإسلام، إذا كان بعد الدخول ما لم ينضم إليه شيء آخر، ويحدوث الملك للسباي، ومعلوم أن الملك لا يمنع النكاح.

ألا ترى أنه يجوز ابتداء العقد على المملوك؟ ولهذا إذا بيعت الجارية لم تقع الفُرقة، وإن وجدت الملك فيها للمشتري، وكذلك إذا مات رجل، وخلفت أمة منكوحة ثبتت الملك فيها للوارث، ولا يتطلَّ النكاح.

وإذا لم تثبت الفُرقة بهذين الوجهين لم يبق إلا تباين الدارين.

فدل أن سبب الفُرقة هو تباين الدارين في المسبية، والتباين موجود في المهاجرة، والله أعلم.

فإن احتجوا بما روي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: رد النبي ﷺ بنته زينب على أبي العاص بن الربيع بالنكاح الأول بعد سنين، وقد كانت زينب هاجرت إلى المدينة، وبقي زوجها / ٥٦٥ - ب/ مشركاً بمكة، ثم ردها عليه بالنكاح الأول.

فدل أن اختلاف الدارين لا يوجب الفُرقة.

(١) في الأصل وم: والثالث. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: دلالة. (٤) من م، في الأصل: بهما أو بان. (٥) في الأصل وم: قال.

فَقُولْ لَهُمْ^(١): لَا يَصِحُّ الْإِخْتِجَاجُ بِهِ مِنْ وَجْهِ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ رَدُّهَا بَعْدَ سِتِّ سِنِينَ بِالنِّكَاحِ الْأَوَّلِ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ [أَنَّهَا]^(٢) لَا تُرَدُّ إِلَى الزَّوْجِ بِالْعَقْدِ الْأَوَّلِ بَعْدَ انْقِضَاءِ ثَلَاثِ حَيْضٍ. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْعَادَةِ إِلَّا يَكُونُ ثَلَاثُ حَيْضٍ فِي سِتِّ سِنِينَ، فَسَقَطَ الْإِخْتِجَاجُ بِهِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ رُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ فِي الْيَهُودِيَّةِ، تُسَلِّمُ قَبْلَ زَوْجِهَا: إِنَّهَا أَمْلَكَ لِنَفْسِهَا، فَكَانَ مِنْ مَذْهَبِهِ: أَنَّ الْفُرْقَةَ وَقَعَتْ بِإِسْلَامِهَا، وَالرَّائِي مَتَى عَمِلَ بِخِلَافِ مَا رَوَى دَلَّ عَلَى انْتِسَاحِ ذَلِكَ، إِذْ لَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ خَالَفَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

وَالثَّلَاثُ: أَنَّ عَمْرُو بْنَ شُعَيْبٍ رَوَى عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَدَّ بِنْتَهُ زَيْنَبَ رضي الله عنها عَلَى أَبِي الْعَاصِ بْنِكَاحِ ثَانٍ، فَوَقَعَ التَّعَارُضُ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ، فَبُظِّلَ اخْتِجَاجُهُمْ^(٣) بِالْحَدِيثِ.

ثُمَّ التَّرْجِيحُ لِمَا رَوَيْنَا لِأَنَّ فِي مَا رَوَاهُ إِخْبَارٌ عَنْ كُوزِنَا زَوْجَةً لَهُ بَعْدَ مَا أَسْلَمَ الزَّوْجُ، وَلَمْ يُغْلَمْ حَدُوثُ عَقْدِ ثَانٍ.

وَفِي حَدِيثِ عَمْرُو بْنِ شُعَيْبٍ [أَمْرَانِ]:

أَحَدُهُمَا: [٤] إِخْبَارٌ عَنْ حَدُوثِ عَقْدِ ثَانٍ بَعْدَ إِسْلَامِهِ [فَيَكُونُ أَوَّلَى مِنَ الْأَوَّلِ لِأَنَّ الْأَوَّلَ إِخْبَارٌ عَنْ حَدُوثِ عَقْدِ ثَانٍ بَعْدَ إِسْلَامِهِ]^(٥).

وَالثَّانِي: إِخْبَارٌ عَنْ مَعْنَى حَدِيثٍ عَلِمَهُ، وَهَذَا كَمَا رَجَّحْنَا حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَزَوَّجَ مَيْمُونَةَ، وَهُوَ مُحْرِمٌ عَلَى حَدِيثِ يَزِيدِ [بْنِ] ^(٦) الْأَصَمِّ أَنَّهُ تَزَوَّجَهَا وَهُوَ حَلَالٌ، لِأَنَّ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه إِخْبَاراً عَنْ حَالِهِ حَادِثَةً، وَأَخْبَرَ الْآخَرَ عَنْ ظَاهِرِ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ.

وَبِحَدِيثِ بُرَيْدَةَ أَنَّهُ كَانَ زَوْجُهَا حُرّاً حَتَّى أُغْتِقَتْ^(٧).

وَبِرِوَايَةٍ^(٨) مَنْ رَوَى أَنَّهُ كَانَ عَبْدًا يَكُونُ^(٩) الْأَوَّلُ أَوَّلَى لِإِخْبَارِهِ عَنْ حَالِ حَادِثَةٍ، وَفِي [الثاني]^(١٠) إِخْبَارٌ عَنْ ظَاهِرِ الْحَالِ، وَيَكُونُ^(١١) الْأَوَّلُ أَوَّلَى، فَكَذَلِكَ هَذَا.

وَالرَّابِعُ: أَنَّ الْمُهَاجِرَةَ، لَا عِدَّةَ عَلَيْهَا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَعَلَى قَوْلِهِمَا: عَلَيْهَا الْعِدَّةُ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلُ أَبِي حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، مِنْ وَجْهِ؟ فَإِنَّهُ ﷺ قَالَ: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ نَهَى عَنِ الرُّدِّ إِلَى الزَّوْجِ الْأَوَّلِ، وَلَوْ كَانَتْ عَلَيْهَا الْعِدَّةُ لَكَانَ لِلزَّوْجِ أَنْ يَرُدَّهَا إِلَى مَسْكَنِهِ الْبَعِيدِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ [الطلاق: ٦] كَيْفَ أَمَرَ الْأَزْوَاجَ بِإِسْكَانِهِنَّ فِي بُيُوتِهِنَّ مَا دُمْنَ فِي عِدَّتِهِنَّ؟

فَأَمَّا مَا قَالَ هَهُنَا: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [فَقَدْ] ^(١٢) دَلَّ عَلَى [أَنَّهُ] ^(١٣) لَا عِدَّةَ عَلَيْهَا، وَكَذَا [مَا] ^(١٤) قَالَ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ فَأَبَاحَ نِكَاحَهَا مُطْلَقاً مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ الْعِدَّةِ وَمَا ^(١٥) قَالَ: ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ﴾.

وَلَوْ كَانَتْ الْعِدَّةُ عَلَيْهَا وَاجِبَةً لَكَانَتْ [الْعِصْمَةُ] ^(١٦) بَاقِيَةً لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَمُدُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

أَلَا تَرَاهُ كَيْفَ جَعَلَ الْعِدَّةَ فِي حَقِّهِ؟ وَإِذَا كَانَ لِلزَّوْجِ عَلَيْهَا حَقٌّ كَانَتْ هِيَ فِي عِصْمَتِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ﴾ يُوجِبُ قَطْعَ الْعِصْمَةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَه. (٢) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: اِخْتِجَاجُهُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: اِعْتَقَدَ. (٨) فِي الْأَصْلِ: وَرِوَايَتُهُ، فِي م: وَرِوَايَةٌ. (٩) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَجُوزُ. (١٠) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ وَم: وَكَانَ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَكَذَا. (١٥) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

فلما كان في إيجاب العدة إبقاء العضمة بينهما، ونهى الله تعالى عن ذلك، فقطعناها^(١)، وأسقطنا العدة عنها، والله أعلم. ولأنهم أجمعوا أنها إذا سببت وقعت الفرقة، وسقطت العدة، والمُلك ليس بسبب لإسقاط العدة، ولكنه سبب لِنَقْضِ العدة، فلما سقطت العدة عند السبي والمهاجرة، والسبي لا يوجب الإسقاط، دل سقوط العدة لاختلاف الدارين، والله أعلم.

والخامس: فيه دليل على أن الكتاب يجوز أن ينسخ حكمه بترك الناس العمل؛ فإن [في]^(٢) قوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مَا أَتَقُوا﴾ وقوله: ﴿وَسَقَلُوا مَا أَتَقُوا﴾ الحُكْمُ مَثْرُوكٌ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ فِي تَرْكِهِ كِتَابٌ أَوْ سُنَّةٌ.

ولكن الناس لما أجمعوا على تركه، وهذا وامثاله في حكم غريب، ثبوته على المخصوص لِمَعْنَى، ثم ينعقد المعنى؛ فاما ما لا يغفل [معناه، فيجب]^(٣) العمل بالكتاب، ولا يترك بترك الناس، ولا يجوز لهم الإجماع على تركه، ولا يتحقق الإجماع على ذلك، وبعض أصحابنا قالوا: إنه صار منسوخاً بقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْكَرَةً عَنْ رَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] وبقره ﷺ: ﴿لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُّسْلِمٍ إِلَّا مِنْ طِبْعِهِ مِنْ نَفْسِهِ﴾ [أحمد ٥/ ٧٧] والله أعلم.

والسادس: في قوله تعالى: ﴿وَسَقَلُوا مَا أَتَقُوا﴾ دلالة على أنه سوى في الحكم بين أموالنا وأموالهم. ثم الإجماع جرى على أن إذا غلبنا على أموال أهل الحرب ملكناها، فكذلك إذا غلبوا على أموالنا يجب أن يملكوها. وفي ما أوجب من الحرمة إذا جاءت النسوة إلينا مؤمنات مهاجرات دلالة على أن الأحكام في الأنفس مختلفة. وعلى هذا ما خلف كل واحد منهم من المال في الدار التي هاجر منها إلى أخرى أنه يصير شيئاً لما لم يرو عن أصحاب رسول الله ﷺ أنه لما فتح مكة أن يكون تفحص عن شيء من تلك الأموال التي كانت مختلفة حين هاجروا إلى المدينة، فلا بد أن يكون ذلك للتوارث، أو لما ذكرنا أنها تكون شيئاً لهم.

ومعلوم أن التوارث بين أهل الإسلام وأهل الكفر منقطع. وإذا بطل وجه التوارث ثبت الوجه الآخر، والله أعلم. والسابع: في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَنْتَكُمُ﴾ دلالة على وجوب العذل بين الأعداء، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَقُولُوا أَعَدِلُوا﴾ [المائدة: ٨] وقوله^(٤) تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ مَدُّوْكُمْ عَنِ السَّجْدِ فَآرَأَيْتُمْ أَنْ تَقْتُلُوا﴾ [المائدة: ٢] وقوله^(٥) تعالى مهنا: ﴿وَسَقَلُوا مَا أَتَقُوا﴾ سوى بين أموالنا وأموالهم، وهو العذل؛ فكانه يقول: ذلك أمر في العذل بينكم وبين أعدائكم ﴿حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ لكي إذا علموا أن العداوة لا تحملهم على ترك العذل حملهم ذلك على التألف والتعطف، واعلموا إذا تركتم شهواتكم، وانفقت العذل والتسوية فليس ذلك من عندكم، ولكن من عند الله تعالى؛ فكانه قال: ذلك الذي أمر من العذل، وجعله سبباً يرغب أعداءكم في الإسلام، ويحملهم على التألف ﴿حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾.

[وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾] يعني بما أمر من العذل والتسوية ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يلحقه الخطأ في التذبير. فدل أن العذل واجب بينهم، والله الموفق.

والثامن: في الآية دلالة على أن النساء إذا ارتدذن لم يقتلن، فإنه قال: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ وثبت أنهم إذا لم يعلموهن مؤمنات أرجعهن إلى الكفار لما كان جرى بينهم من الصلح.

ومعلوم أنهم إذا رجعن إلى الكفار بعدما أظهرن الإيمان كن مرتدات، ولو كانت المرتدة تقتل لكان إذا ظهر ذلك عندهم قتلها، ولم يرجعوها إلى الكفار، فلما ثبت بما وصفنا أنهم كانوا يضربون النساء إليهم مع علمهم أنهم مرتدات، ثبت أن المرتدة لا تقتل، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: فقطعناها. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: معنا ويجب، في م: معنا ويجب. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبْتَغِينَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يَشْرَكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ الآية: المُبَايَعَةُ والهجرة كانتا واجبتين في عهد النبي ﷺ ومغناهما اليوم واجب أيضاً:

وذلك أنَّ الهجرة إنما كانت من مكة إلى المدينة: إما كان أحدُهم إذا أسلم يخاف على نفسه من فساد الدين بالكفرة أن لو أقام بين [أظهريهم] (١) وكان أيضاً يحتاج إلى عِلْمِ الشرائع والأحكام، وإنما ارتفعت الهجرة اليوم من مكة إلى المدينة. فأما واحد من أهل الحرب إذا أسلم / ٥٦٦ - أ/ وخشي على نفسه فساد الدين بالكفرة أن لو أقام بين أظهرهم، فالواجب عليه أن يهاجر منها إلى دار الإسلام ليأمن من فساد دينه، ويحصل على عِلْمِ الشرائع.

وأما المُبَايَعَةُ فإنَّ مغناها في النساء تزغيب الكفرة في الإسلام، وفي الرجال حمل الكفرة على الإسلام؛ وذلك أنَّ الذي أمر به النساء من المُبَايَعَةِ من مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال. والكفرة إذا علموا أنَّ هذا يؤمر فيه بمحاسن الأمور رغبهم ذلك في الإسلام

والذي أمر به الرجال إنما هو من جهة النصر والمجاهدة مع النبي ﷺ وهذا يظهر الإسلام، وبيته (٢).

وهذان المغنيان على كل في نفسه في زماننا هذا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغِينَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يَشْرَكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ يتوجه إلى الإغتراف والمعاملة جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ يتضمن النهي عن الخيانة في الأموال كافة والثقصان عن العبادة جملة لأنه يقال: أسرف السارق: من سرق من صلاته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ يحتمل أن يكون على حقيقة الزنى وعلى دواعيه على ما روي من قوله ﷺ: «اليدان تزنيان والعينان تزنيان والرجلان تزنيان والفرج يصدق ذلك» [مسلم ٢٦٥٧/٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِنْتَيْنِ يَفْتَرِيَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِ وَأَرْجُلَيْهِ﴾ يحتمل أن يكون نهياً عن التهمة [ويجوز أن يكون نهياً] (٣) عن إلحاق الولد بأزواجهن، وهنَّ يغلطن أنه من الزنى. وهكذا روي عن ابن عباس ؓ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصْنَعَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾؟ كانه (٤) أمرهن أن يتتهين عن هذه المناهي وأن يتبعن أمره.

الآ ترى إلى قوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ١٠٤ و...]. يجوز أن يكون هذا كناية عن الأمر لأنه بين النواهي والمناكير، ثم قال: ﴿وَلَا يَصْنَعَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾؟

وقوله تعالى: ﴿فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ﴾ لم يقل ههنا: امتحنوهن كما قال في المهاجرات.

ومعنى ذلك عندنا [في وجهين] (٥):

أحدهما: أنه قد تبين ههنا وجه الامتحان بقوله: ﴿عَلَىٰ أَنْ لَا يَشْرَكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ فاستغنى عن ذكر الامتحان.

والوجه الثاني: أنَّ المهاجرات إنما كنَّ يأتين من دار الحرب، ولم يكن عِلْمُ الشرائع، فاحتجج إلى الامتحان.

وأما هؤلاء فكنَّ (٦) في دار الإسلام، وقد عِلْمُ شرائعها، فلم يذكر الامتحان لذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ﴾ هذا يدل على أنَّ الكبائر لا تخرج (٧) من الإيمان لأنه يعلم أنَّ الاستغفار لما يجيء منهنَّ من تضييع هذه الحدود، ولو خرجن بتضييعها من الإيمان لم يأمر النبي ﷺ بالاستغفار لهنَّ، لأنَّ الاستغفار طلب المغفرة، ويستحيل أن يطلب منه مغفرة من ليس له عُفْرَانُهُ. فدلَّ ما وصفنا أنَّ ارتكاب الكبائر لا يخرج صاحبه من الإيمان، والله أعلم.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وبين. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فكانه.

(٥) في الأصل وم: وجهان. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: تخرجن.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ كان^(١) الله ﷻ آمراً أن نَغْضِبَ على مَنْ غَضِبَ هو عليه، وأن تُعَادِيَ مَنْ عَادَاهُ، وتُوَالِيَ مَنْ وَالاه.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَيْتِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَيْتَسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ له^(٢) تاوريلان:

أحدهما: أن اليهود غَيَّرُوا بَعَثَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَحَرَّفُوهُ فِي التَّوْرَةِ، وَكَانَ فِي التَّوْرَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى آيَسَهُمْ مِنْ ثَوَابِهِ فِي الْآخِرَةِ ﴿كَمَا يَيْتَسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أَنْ يَيْتَعُوا.

[والثاني]^(٣): يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: يَيْتَاسُ هَؤُلَاءِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ كَمَا يَيْتَسُ الْكُفَّارُ الَّذِينَ هُمْ فِي الْقُبُورِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَكَانَ. (٢) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ وَم: الْآيَةِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ.

سورة الصف

[وهي مكية^(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قال مهنا: ﴿سَبِّحْ﴾ وقال في مواضع^(٢) آخر: ﴿يُسَبِّحْ﴾ [الجمعة: ١ والتغابن: ١ و...]. لِيُعْلِمَ أَنَّ ﴿يُسَبِّحْ﴾ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ، وَأَنَّهُ قَدْ سَبَّحَ حِينَ كَانَ، وَيُسَبِّحُ إِلَى أَنْ يَكُونَ.

وفيه تَسْفِيَةٌ أولئك الكُفْرَةُ الْمُتَمَرِّدَةُ؛ وذلك أَنَّ التَّسْبِيحَ والثناءَ فِي الشَّاهِدِ إِنَّمَا يَرْجِعَانِ إِلَى الْمُسَبِّحِ والمُتَنَبِّهِ لِأَنَّهُ لَا يَنْتَبِهُ إِلَّا عَلَى مَنْ اسْتَحَقَّ الثَّناءَ، وَلَا يُسَبِّحُ إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّهُ. فَإِنَّمَا تَسْبِيحُ الْمُسَبِّحِ وَثَنًا وَهُوَ خُضُوعٌ لَهُ، وَتَقَرُّبٌ إِلَيْهِ؛ وذلك يَزِيدُهُ شَرَفًا وَتَبْلَاً. فَكَأَنَّ اللَّهَ ﷻ أَخْبَرَ أَنَّهُ خَضَعَ لَهُ^(٣) تَعَالَى، وَاسْتَسَلَّمَ لَهُ، وَأَتَى بِمَا فِيهِ شَرَفٌ لَهُ، وَزَيْنٌ، وَتَقَرَّبَ إِلَى رُبُّوهُ، إِلَّا الْكُفْرَةُ فَإِنَّهُمْ تَرَكُوا التَّسْبِيحَ لِلَّهِ تَعَالَى مَعَ مَا فِيهِ مِنْ تَبْلِيهِمْ وَشَرَفِهِمْ وَزَيْنِهِمْ، وَاللَّهُ الْمَوْفُقُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَكَرَ سَفَهُهُمْ أَيْضاً مِنْ وَجْهِ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِلَّهِ تَعَالَى بِتَسْبِيحِ شَيْءٍ مِنَ الْخَلَائِقِ حَاجَةٌ لَكَانَ فِي تَسْبِيحِ مَنْ ذَكَرَ كِفَايَةً وَغْنَى عَنْ تَسْبِيحِ الْكُفْرَةِ، وَلَكِنَّهُمْ تَرَكُوا التَّسْبِيحَ، وَاللَّهُ تَعَالَى غَنِيَ عَنْهُمْ وَعَنْ تَسْبِيحِهِمْ، فَمَا تَرَكُوهُ إِلَّا لِسَفَهُهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: ﴿الْعَزِيزُ﴾ يَذُلُّ عَلَى أَنَّهُ عَزِيزٌ فِي ذَاتِهِ، وَإِنْ تَرَكَ [الْكُفْرَةُ التَّسْبِيحَ]^(٤) لِيَاءَهُ لَا يَذُلُّهُ، بَلْ هُوَ عَزِيزٌ مُنِيعٌ.

وقوله تعالى: ﴿الْحَكِيمُ﴾ يَعْنِي حَكِيمٌ حِينَ^(٥) جَعَلَ فِي الْأَشْيَاءِ الْمُتَضَادَّةِ عِلْمَ رُبُوبِيَّتِهِ وَآيَةً وَحْدَانِيَّتِهِ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَهْلِ النِّفَاقِ فِي الْقِتَالِ، [لَأَنَّهُمْ تَمَنَّوْا الْقِتَالَ]^(٦) فَلَمَّا أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقِتَالِهِمْ قَالُوا ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ لَنَا فِي الْأَنْفَالِ﴾ [النساء: ٧٧] فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أَي لِمَ تَعِدُونَ مَا لَا تَقُومُونَ بِهِ؟

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا فِي بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْقِتَالِ أَيْضاً، وَإِنَّمَا عَلَى التَّغْلِيظِ والتَّأخِيرِ، وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَحَبُّوا أَنْ يَغْمَلُوا أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، [فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَجٍ يُجِيبُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾] الْآيَةُ [الصف: ١٠] وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ [الصف: ٤] فَلَمْ يَقُومُوا بِمَا وَعَدُوا، فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ فِي كُلِّ مُؤْمِنٍ لِأَنَّهُ قَدْ اخْتَقَدَ كُلُّ مَنْ آمَنَ بِإِيمَانِهِ الْوَفَاءَ بِمَا وَعَدَهُ مِنَ الطَّاعَةِ لِلَّهِ تَعَالَى وَالِاسْتِسْلَامِ لَهُ وَالْخُضُوعِ. فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ بِمَا وَعَدَ خِيفَ عَلَيْهِ ٥٦٦ - ب/ فِي كُلِّ زَلَّةٍ أَنْ يَدْخُلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ وَفَّى بِمَا وَعَدَ كُلُّهُ، وَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتُوبَ مِنْ ذَلِكَ تَوْبَةً بَلِيغَةً.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ الْمَقْتُ الْبُغْضُ، وَمَنْ اسْتَوْجَبَ مَقَّتَ اللَّهِ لَزِمَتْهُ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: موضع. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: التسبيح من الكفرة. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

العقاب، لا محالة. ولكنه يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هذا في مَنْ [اغْتَقَدَ تَرْكَ الْوَفَاءِ بِمَا وَعَدَ، وَاسْتَحْلَلَ مَا نَهَاهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَيَسْتَوْجِبُ مَقْتِ اللَّهِ تَعَالَى وَنِقْمَتَهُ، لَا مَحَالَةَ] (١) وَإِنْ كَانَ فِي مَنْ ثَبِتَ عَلَى اغْتِقَادِهِ، وَزَلَّ فِي أَعْمَالِهِ، فَالْوَاجِبُ أَنْ يَقِيمَ الذُّنُوبَ، فَيَلْزِمَهُ الْخَوْفُ عَلَى مَرَاتِبِهَا وَدَرَجَاتِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ يُكِنُّ مَرْضُوسًا﴾ ليس فيه أَنَّ اللَّهَ، لَا يُحِبُّ الْمُبَارَزَةَ لِأَنَّ الْجِهَادَ وَالْقِتَالَ عَلَى الْمُبَارِزِ أَشَدُّ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي الصَّفِّ أَعَانَةُ عَلَى الْقِتَالِ غَيْرُهُ، فَكَانَ أَنَّهُ عَلَى نَفْسِهِ فِي الصَّفِّ أَكْثَرُ. وَأَمَّا الْمُبَارِزُ، فَإِنَّهُ وَخْدَهُ، لَيْسَ لَهُ مُعِينٌ، فَإِنْ ظَفِرَ عَلَى صَاحِبِهِ، وَإِلَّا هَلَكَ، وَالْخَوْفُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ أَشَدُّ، فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْمِحْنَةُ فِيهِ أَكْثَرُ.

ولكنه يجوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى، عَلَّمَهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ كَيْفِيَّةَ الْقِتَالِ لِيَسْتَعِينَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَلِتَكُونَ كَلِمَتُهُمْ وَاحِدَةً لِأَنَّهُمْ إِذَا تَفَرَّقُوا اخْتَلَفَتْ آرَاؤُهُمْ، فَيُخْشَى عَلَيْهِمُ الْهَزِيمَةُ وَالْإِدْبَارُ، وَإِذَا كَانَتْ آرَاؤُهُمْ مُتَّفِقَةً وَكَلِمَتُهُمْ وَاحِدَةً وَشَوْكَتُهُمْ وَاحِدَةً، وَذَلِكَ فِي الْقِتَالِ زِيَادَةُ نُصْرَةِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم قوله تعالى: ﴿كَانَهُمْ يُكِنُّ مَرْضُوسًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ضَرَبَ هَذَا الْمَثَلَ لِلثَّبَاتِ، يَغْنِي: إِذَا اضْطَفُّوا ثَبَتُوا كَالْبُنْيَانِ الْمَرْضُوسِ الَّذِي (٢) تَكُونُ ثَابِتَةً مُسْتَقَرَّةً، لَا يَنْقُصُ بِأَذَى شَيْءٍ.

ومنه مَنْ ضَرَبَ هَذَا الْمَثَلَ لِأَنَّ تَكُونَ كَلِمَتُهُمْ وَاحِدَةً، وَيُعِينُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ لِلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، لِأَنَّهُمْ إِذَا ثَبَتُوا أَعَانَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَكَانَتْ كَلِمَتُهُمْ وَاحِدَةً، وَإِذَا كَانَتْ كَلِمَتُهُمْ وَاحِدَةً كَانَ ذَلِكَ أَذْعَى إِلَى الثَّبَاتِ وَأَقْرَبَ إِلَيْهِ. فَلِذَلِكَ قُلْنَا: إِنَّهُ يَجُوزُ لِلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم المحبةُ تَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: [الرِّضَا] (٣) عَنِ الْخَلْقِ، وَالثَّانِي: الشَّاءُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَقْعَلُونَ.

الآية ٥

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقْوِمُوا بَعْدِي فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ دَابِغٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وَقَدْ تَعَلَّمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَحْتَمِلُ

وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: تَنْبِيهُ لَهُمْ وَإِعْلَامٌ عَنْ مُعَامَلَةٍ اغْتَادُوهَا فِي مَا بَيْنَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمُوا فِيهَا أَدَى لِمُوسَى ﷺ نَحْوُ أَنْ قَالَ فِي حَقِّ رَسُولِنَا ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]

فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا، لَا يُعْدُونَ تِلْكَ الْمُعَامَلَةَ أَدَى لِمُوسَى ﷺ وَلَا يَعْلَمُونَهَا، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهَا تُؤْذِيهِ لِيَتَنَبَّهُوا عَنْ ذَلِكَ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ يُؤْذِيهِ، وَلَكِنَّهُمْ عَانَدُوهُ، وَكَابَرُوهُ، فَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ كَيْفَ ﴿تُؤْذُونِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷻ إِذَا كَانَ مِنْ دَابِغٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ حَقَّ رُسُلِ الْمُلُوكِ التَّعْظِيمُ وَالتَّجْبِيلُ، فَكَيْفَ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ يُؤْذُونَهُ شِكَايَةً مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ.

ثم اخْتَلَفُوا فِي الْأَدَى؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ مُوسَى ﷺ كَانَ لَا يَكْشِفُ عَنْ نَفْسِهِ، فَأَذُوهُ بَأْنَ قَالُوا: إِنَّ فِي بَدَنِهِ آفَةً وَمَكْرُوهًا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ مُوسَى ﷺ ذَهَبَ مَعَ هَارُونَ ﷺ إِلَى جَبَلٍ، فَقَبِضَ هَارُونَ فِي ذَلِكَ الْجَبَلِ، فَأَذُوهُ بَأْنَ قَالُوا: قَتَلَ مُوسَى أَخَاهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: كَانُوا يُؤْذُونَهُ بِالسَّتَنِجَةِ حِينَ (٤) قَالُوا: ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وَقَالُوا (٥): ﴿يَسْأَلُكَ أَجَلَ لَنَا إِنَّهَا كَمَا لَمْ يَلَهُ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وَقَالُوا (٦): ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَجِلٍ﴾ [البقرة: ٦١].

وَلَكِنْ الرَّجْحُ الْآيُشَارُ إِلَى شَيْءٍ بَعِينٍ.

فَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ، هُوَ الرَّجْحُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ آذَوْهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ يُؤْذِيهِ فَلَا (٧) يُضَرَفُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأَوْجُوهِ الثَّلَاثَةِ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: التَّي. (٣) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، ساقطة من الأصل وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَقُولُهُمْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: فِي الْأَصْلِ وَم: أَلَا.

وإن كانَ على الرَّجُلِ الثاني فَكذلكَ، وإن كانَ على الرَّجُلِ الثالثِ فَجائزٌ^(١) أن يُضَرَفَ إليه أيُّ الوجوه منها، واللهُ أعلمُ.
ثم حَقُّ هذِهِ في رَسولِ اللهِ ﷺ يُخَرِّجُ على وَجْهينِ:

أحدهما: أَنَّهُ يجوزُ أن يكونَ بنو إِسرائيلَ آذَوْا رَسولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرَهُ اللهُ تعالى أَمْرَ موسى ﷺ وإِذْائِهِمْ إِيَّاهُ لِيَكُونَ فِيهِ تَصْيِيرٌ^(٢) لِرَسولِ اللهِ ﷺ وَتَسْكِينٌ^(٣) لِقَلْبِهِ.

[والثاني: أَنَّهُ]^(٤) يجوزُ أن يكونَ هَذَا تَحْذِيرًا لِأَصْحَابِهِ عَنِ أَنْ يَرْتَكِبُوا مَا يُخَافُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ أَذَاهُ ﷺ واللهُ أعلمُ.
وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ يَغْنِي خَلْقَ فِعْلِ الزَّيْغِ فِي قُلُوبِهِمْ، يَغْنِي خَذَلَهُمُ اللهُ، وَوَكَّلَهُمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ.
قَالَتِ الْمُعْتَزَلَةُ مُخْتَجِبِينَ عَلَيْنَا^(٥): إِنَّ اللَّهَ تعالى قَالَ: ﴿وَمَا يُنْزِلُ بِهِ إِلَّا الْفُتُورَ﴾ [البقرة: ٢٦] ذَكَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُضِلُّهُ بَعْدَ مَا فَسَقَ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ: إِنَّهُ يُضِلُّهُ، وَهُوَ يَهْدِي.

قُلْنَا: إِنَّ هَذَا تَعْوِيَةٌ عَلَيْنَا؛ وَذَلِكَ أَنَا نَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّهُ لَوْ قَتِ اخْتِيَارُهُ الضَّلَالَةَ، وَيُزِيغُهُ لَوْ قَتِ اخْتِيَارُهُ الزَّيْغَ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَلْزَمْ مَا قَالَتِ الْمُعْتَزَلَةُ مَعَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ تعالى يُضِلُّهُ بَعْدَ ضَلَالَتِهِ بِنَفْسِهِ عَقُوبَةً لَهُ، وَيُزِيغُهُ هُدًى بَعْدَ اهْتِدَائِهِ ثَوَابًا لَهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ ذَلِكَ^(٦)، لِأَنَّهُ قَدْ نَرَاهُ فِي الشَّاهِدِ يَكْفُرُ بَعْدَ إِيمَانِهِ، وَيُؤْمِنُ بَعْدَ كُفْرِهِ. وَإِذَا كَفَرَ بَعْدَ مَا كَانَ مُؤْمِنًا؛ وَذَلِكَ وَقْتُ يَزِيدُهُ اللهُ تعالى ثَوَابًا لِإِيمَانِهِ الْمُتَقَدِّمِ.

فَإِذَا كَفَرَ، فَكَانَتْ هِدَايَةُ اللهِ تعالى سَبَبًا لِكُفْرِهِ [الْمُتَقَدِّمِ]^(٧) أَوْ إِذَا آمَنَ مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ كَافِرًا وَقَتَّ عَقُوبَتِهِ بِالْكَفْرِ، فَكَانَتْ عَقُوبَةُ اللهِ تعالى بِالْكَفْرِ عَلَى الْكَفْرِ الْمُتَقَدِّمِ، كَانَ سَبَبًا لِلْإِيمَانِ، وَهَذَا كَلَامٌ مُسْتَقْبَحٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يَغْنِي الدِّينَ عَلِيمُ اللهُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَخْتَارُونَ الظُّلْمَ وَالْكَفْرَ، فَلَا يَتَوَبُّونَ مِنْهُ، وَلَا يَنْقَلِعُونَ، فَلَا يَهْدِي أُولَئِكَ.

وَأَمَّا مَنْ عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُ يَتُوبُ، وَيُسْلِمُ، فَإِنَّهُ يَهْدِيهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعُوا آلِيَّكُمْ ذِكْرًا لِمَنْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ قوله: ﴿تُصَدِّقًا﴾ يَخْتَمِلُ وَجْهًا.

أَحَدُهَا: أَنْ يَقُولَ: جِئْتُ إِلَيْكُمْ بِالْبَعْثِ [الَّذِي وَصَفَ]^(٨) فِي التَّوْرَةِ أَوْ ﴿تُصَدِّقًا﴾ [مَا]^(٩) فِي التَّوْرَةِ وَيَكْتُبُ اللهُ تعالى لِيُعْلِمَ أَنَّ الرُّسُلَ كَانَ يَلْزَمُهُمْ بِالْكِتَابِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَالرُّسُلِ جَمِيعًا كَمَا يَلْزَمُ ذَلِكَ أَمَّتُهُمْ، أَوْ يَقُولَ: ﴿تُصَدِّقًا﴾ يَغْنِي أَمْرُكُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَتَوْحِيدِهِ كَمَا أَمَرْتُمْ بِهِ فِي التَّوْرَةِ لِيُعْلِمَ أَنَّ الرُّسُلَ كَانَ دِينُهُمْ وَاحِدًا، وَأَنَّهُمْ كُلُّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَعِبَادَةِ الرَّحْمَنِ.

وَأَمَّا الشَّرَائِعُ فَقَدْ جَوَزَ اخْتِلَافُهَا، وَلَا يَدُلُّ عَلَى اخْتِلَافٍ فِي الدِّينِ، لِأَنَّ الشَّرَائِعَ قَدْ تَخَلَّفَتْ فِي رَسولٍ وَاحِدٍ، وَلَا تَخَلَّفَتْ فِي دِينِهِ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ، وَاللهُ الْمُؤَقِّدُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا رَسولًا يَأْتِي مِنْ بَدَى أَمَمَةٍ أَحَدٌ﴾ يَغْنِي مُبَشِّرًا بِرَسولٍ، يُصَدِّقُ بِالتَّوْرَةِ عَلَى مِثْلِ تَصْدِيقِي، فَكَانَهُ قِيلَ لَهُ: [مَا]^(١٠) اسْمُهُ؟ فَقَالَ: اسْمُهُ أَحْمَدُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الَّذِي جَاءَهُمْ عِيسَى ﷺ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَقَدْ جَاؤَا جَمِيعًا. وقولُهُ: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي تَبَيَّنَ أَنَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أَوْ سَاحِرٌ^(١١) مُبِينٌ. وَاخْتَلَفُوا فِي مَنْ قِيلَ لَهُ: هَذَا؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عِيسَى ﷺ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَقَدْ قَالُوا: لِهَما جَمِيعًا.

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تصييرًا. (٣) في الأصل وم: وتسكينًا. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من م، في الأصل: عليها. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: كذلك. (٧) من نسخة الحرم المكي: ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: التي وصفت. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ١٣٨/٧.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا قَوْلُ أَكَابِرِ الْكُفَرَةِ لِلضُّعْفَاءِ مِنْهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا سَبَبًا لِلتَّمْوِيهِ سِوَى أَنْ نَسْبُوهُ إِلَى السَّحْرِ، وَهَذَا يَدُلُّ أَنَّهُ جَاءَهُمْ بِالْآيَاتِ الْمُعْجِزَةِ حِينَ^(١) نَسْبُوهُ إِلَى السَّحْرِ، وَقَالُوا: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وَإِنَّا / ٥٦٧ - أ / لَا نَعْلَمُ السَّحَرَ.

وَلَوْ كَانَ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ سِحْرًا كَانَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا أَنَّ الرُّسُلَ لَمْ يَخْتَلِفُوا إِلَى السَّحَرَةِ، وَلَمْ يَتَعَلَّمُوا مِنْهُمْ، وَكَانَ لَا يَتَهَيَّأُ لَهُمْ اخْتِرَاعُهُ مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ؛ فَلَوْ كَانَ سِحْرًا كَانَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا مَا ذَكَّرْنَا، وَأَنَّ^(٢) اللَّهَ تَعَالَى بَرُّهُ، وَنَزْهَةٌ، مِنَ السَّحْرِ يَقُولُ^(٣) تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ يَتْلُوَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُبِينٌ تِوَارِيقِهِ﴾ [الآية: ٨] نَوْرُ اللَّهِ، يَعْنِي دِينَ اللَّهِ وَكِتَابَ اللَّهِ وَرُسُلَ اللَّهِ، وَقَوْلُهُ ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أَي لَيْسَتْ عِنْدَهُمْ حُجَّةٌ وَلَا مَعْنَى، يَذْفَعُونَ بِهِ هَذَا النُّورَ سِوَى أَنْ يَقُولُوا بِالسَّحَرَةِ: هَذَا سِحْرٌ، وَاللَّهُ الْمَوْفُقُ.

الآية ٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أَي وَمَنْ أَوْحَشَ ظُلْمًا أَوْ أَفْبَحَ وَمِمَّنْ بَلَغَ افْتِرَاؤُهُ الْمَبْلَغَ الَّذِي يَقْتَرِي عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ؟ لِأَنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا أَنَّ الَّذِي نَالُوهُ بِاللَّهِ، ثُمَّ كَفَرُوا بِهِ، وَكَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ. أَوْ يَقُولُ: لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنْ يَقْتَرِي عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ كَلَامٌ اسْتِفْهَامٌ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَسْتَفْهِمُ أَحَدًا، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ حَقُّ كُلِّ مَا خَرَجَ مُخْرَجَ اسْتِفْهَامٍ أَنْ يَنْظَرَ إِلَى جَوَابِهِ لَوْ كَانَ يَسْتَفْهِمُ لِيُفْهَمَ مِنْهُ مَعْنَى قَوْلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَأَمَّا الْمَفْهُومُ مِنْ جَوَابِ مَنْ يُسْتَفْهَمُ عَنْ مِثْلِ هَذَا أَنْ يَقُولَ: لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ، وَهُوَ أَنْ يَجْعَلَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا سَالِمَةً لَهُ؛ فَهُوَ إِذْ عَلِمَ أَنَّ مَا نَالَهُ مِنْ نِعْمَةٍ فَإِنَّمَا نَالَهُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَعِلْمُ الْأَشْيَاءِ كُلَّهَا لِلَّهِ تَعَالَى، فَكَيْفَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، وَهُوَ يَعْلَمُ [ذَلِكَ كُلَّهُ]^(٤)؟ فَإِذَا عَلِمَ هَذَا فَلَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِنْهُ حِينَ^(٥) افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، وَاللَّهُ الْمَوْفُقُ.

الآية ٨

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ مُبِينٌ تِوَارِيقِهِ﴾ لَهُ أَوْجُهٌ:

أَحَدُهَا: بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ.

وَالثَّانِي: بِنَصْرِ أَهْلِهِ وَغَلَبَتِهِمْ^(٦).

وَالثَّالِثُ: بِإِظْهَارِهِ فِي الْأَمَاكِنِ كُلَّهَا.

فَإِنْ كَانَ عَلَى النَّصْرِ وَالْغَلَبَةِ فَقَدْ كَانَ حَتَّى كَانَ الْمُشْرِكُونَ^(٧) فِي خَوْفٍ، وَالْمُسْلِمُونَ فِي أَمْنٍ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾؟ [الرعد: ٣١] وَإِلَى مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «تُصِيبُ الرُّعْبُ مَسْرَةً شَهْرِينَ»؟ [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦].

وَأَنَّ كَانَ بِالْحُجَجِ فَقَدْ [كَانَ]^(٨) أَيْضًا لِأَنَّهُمْ عَجِزُوا عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمَا يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مَثَلًا لَهُ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ. فَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ أَتَمَّ نَوْرَهُ بِالنَّصْرِ وَالْغَلَبَةِ وَالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ.

وَأَنَّ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ إِظْهَارُهُ فَإِنَّهُ يُرْجَى أَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى مَا رُوِيَ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ عِيسَى، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا دِينُ الْإِسْلَامِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ مُبِينٌ تِوَارِيقِهِ﴾ لَيْسَ فِيهِ أَنَّهُ كَانَ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الْكَذِبِ، فَضْفَاءٌ، وَلَكِنْ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا مِنَ التَّأْوِيلِ، فَكَذَلِكَ: لَا يَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] أَنَّهُ كَانَ نَاقِصًا، فَأَكْمَلَهُ بِالشَّرَائِعِ، وَلَكِنَّهُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ؛ يَعْنِي أَظْهَرَ الدِّينَ بِالشَّرَائِعِ الَّتِي وَصَفْنَاهَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ مُبِينٌ تِوَارِيقِهِ﴾، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَكِنْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَغَلَبَتِهِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمُشْرِكِينَ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ وقال حين ذكر الإظهار ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الآية: ٩] لأن هؤلاء كفروا بالرسول والكتاب [وكذلك بنعم^(١)] الله تعالى فقال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ وأولئك أشركوا به في التوحيد، فقال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ والله أعلم.

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَهُدًى﴾ يعني بما أتبعوه اهتدوا به.

وقوله تعالى: ﴿وَدِينَ الْغَيْبِ﴾ له أوجه ثلاثة.

أحدها: أن يجعل الحق كناية عن الله تعالى؛ فكانه قال: ودِين الله^(٢).

والثاني: أن يجعل الحق نعتاً للدين؛ فكانه قال: [ودِين الله]^(٣) الذي هو الحق من سائر الأديان.

والثالث: أن يقول: [ودِين الله]^(٤) الذي يحق على كل أحد قبوله والإتياء له، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يُظهِرُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ له وجهان:

أحدهما: أن يقول: ﴿يُظهِرُ﴾ يعني يظهر رسوله ﷺ على كل ما يحتاج في هذا الدين من التوازل، فيكون فيه بيان أن ما جاء عنه ﷺ في هذه التوازل إنما هو بالوحي وبما أظهره الله تعالى عليه.

ويختصم إظهار هذا الدين في الأماكن كلها^(٥)، والدين، هو الخضوع والاستسلام لله تعالى. فحقيقته أن يجعل الأشياء كلها سالمة له.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ قال الشيخ، رحمه الله: ويقتضي هذا ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [قول]^(٦) المعتزلة، لأن إتمام نوره إن كان بالحجج أو بالنضر والعلية أو بإظهاره في الأماكن كلها فإنما يكون بأفعال العباد، ثم أضافه^(٧) الله تعالى إلى نفسه، فثبت أن الله تعالى في أفعال العباد صنفاً وتديراً.

وإن كانت أفعالهم كلها مخلوقة لله فلا^(٨) تخرج عن تديره ومشيئته، والله المستعان.

الآيتان ١٠ و ١١ وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ مَكْرَرٍ تُنَجِّكَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الإيمان بالله:

أن يؤمن بأنه الواحد الأحد الصمد الفرد الذي ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدٌ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣ و ٤] ويؤمن بأن له الخلق والأمر، وأنه قادر، لا يعجزه شيء، وعليم، لا يخفى عليه شيء، وحكيم، لا يخرج خلقه الأشياء المختلقة من السراء والضراء والظلمة والنور والمرض والصحة عن الحكمة^(٩)، وأنه ليس كما قالت الثنوية: إنه خالق الظلمة والشر والقيح غير خالق النور، بل يعلمهم^(١٠) أنه خالق كل شيء، سواء من ظلمة ونور وشر وخير وسقم وصحة، لا على شبيه [كما]^(١١) قالت المجوس: إن الله تعالى غفل غفلة، فتولد منه الشيطان، بل هو لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء، ولا على ما قالت التصاري حين^(١٢) شبهوه بالخلق حتى أجازوا أن يكون له ولد، ولا على ما قالت القدريّة: إنه لا يقدر شيئاً من الشر والسقم ولا الوجع، ولا على ما قالت المعتزلة: إنه ليس له في أفعال [العباد]^(١٣) صنع وتدير، بل يعلمه علماً بكل شيء قديراً^(١٤) على كل شيء متعالياً على كل شيء من معاني الخلق منتزهاً عن كل آفة وحاجة وعيب. فهذا هو الإيمان بالله تعالى عندنا، والله أعلم.

والإيمان بالرسول: أن يؤمن بأن ما جاء به ﷺ هو حق وصدق.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤَيِّدُونِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذا على وجهين:

أحدهما: أن ثقاتلوا أعداء الله تعالى.

(١) في الأصل وم: وذلك نعم. (٢) من م، في الأصل: الحق. (٣) في الأصل وم: والدين. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: قال. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أضاف. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل حكمه، في م: حكمته. (١٠) في الأصل وم: وذلك نعم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، في الأصل: قدير.

والثاني: أن تُجاهِدوا في طاعة الله وفي ما دَعَا إليه من عبادته.

والجهاد، يَنْصَرَفُ إلى أنواع أربعة: جهاد في سبيل الله بِمُقَابِلَةِ أَعْدَائِهِ وَالِاسْتِقْضَاءِ فِي طَاعَتِهِ، وَجِهَادٌ فِي مَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَبَيْنَ نَفْسِهِ؛ أَنْ يُجَاهِدَ [العبد]^(١) فِي قَهْرِهَا وَمَنْعِهَا عَنْ لَذَائِهَا وَشَهَوَاتِهَا وَعَمَّا يَعْلَمُ أَنَّهُ يَهْلِكُهَا، وَيُزِيدُهَا، وَجِهَادٌ فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ، وَهُوَ الْآلِ^(٢) يَدْعُ الطَّمَعُ فِيهِمْ، وَلَا^(٣) يَشْفِقُ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَرْحَمُهُمْ، وَلَا يَرْجُوهُمْ، وَلَا يَخَافُهُمْ^(٤)، وَجِهَادٌ فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الدُّنْيَا، وَهُوَ أَنْ يَتَّخِذَهُ زَادًا لِمَعَادِهِ أَوْ مَرَمَةً لِمَعَايِهِ، وَلَا يَأْخُذَ مِنْهَا مَا يَضُرُّهُ فِي عَقْبَاهُ. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ تَسْتَقِيمُ أَنْ تُسَمِّيَهَا جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

ثم إنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَنْتَظِمُ مَسَائِلَ ثَلَاثَةً^(٥):

أحداها^(٦): أَنْ كَيْفَ أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا؟﴾

والثانية^(٧): أَنْ كَيْفَ تُرْجَى لَهُ النِّجَاةُ إِذَا آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَمْ يُجَاهِدْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَدْ عُلِقَ بِالْكُلِّ؟

والثالثة^(٨): أَنْ كَيْفَ يُخَافُ عَلَيْهِ الْعَذَابُ إِذَا آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَتَى بِالْكَبِيرَةِ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿شَيْعِرٌ مِّنْ عِلَاقٍ أَلِيمٍ؟﴾

أَمَّا الْجَوَابُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ الْأُولَى فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ / ٥٦٧ - ب/ الْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَهْلُ التَّفَاقٍ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فِي الظَّاهِرِ ﴿هَلْ أَذَلَّكُمْ عَلَىٰ مَقَرٍّ شَيْعِرٌ مِّنْ عِلَاقٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿تَوَسَّوْنَ بِاللَّهِ﴾ أَيِ تَصَدَّقُونَ بِقُلُوبِكُمْ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ أَيْضًا؛ فَكَأَنَّهُ قَالَ ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِالْكِتَابِ الْمُتَقَدِّمَةِ آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ وَبِهَذَا الْكِتَابِ إِذَا كَانَ فِي الْكُفَّارِ.

فَأَمَّا إِذَا كَانَ فِي الْمُؤْمِنِينَ فَيَجُوزُ^(٩) أَنْ يَكُونَ أَمْرُهُ^(١٠) بِالْإِيمَانِ بَعْدَ مَا آمَنُوا بِمَعْنَى الثَّبَاتِ عَلَيْهِ أَوْ الزِّيَادَةِ وَيَحَقُّ التَّجَدُّدُ، لِأَنَّ^(١١) الْإِيمَانَ فِي حَادِثِ الْأَوْقَاتِ لَهُ أَسْمَاءُ ثَلَاثَةٌ: الزِّيَادَةُ وَالثَّبَاتُ وَالتَّجَدُّدُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ هَذَا النَّوعَ فِي كِتَابِهِ مَرَّةً بِاسْمِ الزِّيَادَةِ حِينَ^(١٢) قَالَ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَأَدْتُهُمْ لِيَمَّا وَهُمْ يَشْتَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤] وَمَرَّةً بِاسْمِ الثَّبَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: ٢٧] وَمَرَّةً بِاسْمِ^(١٣) الْإِيمَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦].

فَإِذَا كَانَ عَلَى الزِّيَادَةِ وَالثَّبَاتِ فَذَلِكَ لُطْفٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَذَلِكَ أَنَّ الزِّيَادَةَ وَالثَّبَاتَ، هُمَا اسْمَانِ، يُطْلَقَانِ عَلَى فِعْلٍ دَائِمٍ، وَفِعْلُ الْإِيمَانِ مُتَقَضٍ.

وَلَكِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى يُلْطِفُهُ جَعَلَ الْمُتَقَضِيَ كَالدَائِمِ، فَيُخْرِجُ هَذَا الْفِعْلَ مَخْرَجَ الزِّيَادَةِ وَالثَّبَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَإِذَا كَانَ عَلَى التَّجَدُّدِ فِي الْأَوْقَاتِ الْحَادِثَةِ [فَذَلِكَ]^(١٤) مُسْتَقِيمٌ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَرَّةَ مِنْهُيٌّ عَنِ الْكُفْرِ فِي كُلِّ وَقْتٍ يَأْتِي عَلَيْهِ [فَهُوَ]^(١٥) إِذَا أَتَى بِالْإِيمَانِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ انْتَهَى عَنِ الْكُفْرِ، فَصَارَ لِإِيمَانِهِ حُكْمُ التَّجَدُّدِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿تَوَسَّوْنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُؤْمِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الْإِعْتِقَادَ.

وَإِذَا كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ ذَلِكَ، وَأَتَى بِمَا أَمَرَ مِنَ الْإِعْتِقَادِ بِهَذِهِ الْأُمُورِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفِ بِالْفِعْلِ، فَهُوَ فِي رَجَاءٍ مِنَ النِّجَاةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يَعْني ذَلِكَ الَّذِي أَمَرَكُم بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِنْ أَنْ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَكُمْ ﴿إِنَّ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ عَيَانًا؛ يُعْلِمُهُمْ أَنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَهُمْ﴾^(١٦).

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: وأن. (٤) في الأصل وم: يخافوهم. (٥) في الأصل وم: ثلاثاً. (٦) في الأصل وم: أحدها. (٧) في الأصل وم: والثاني. (٨) في الأصل وم: والثالث. (٩) الغاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل: أن، في م: وأن. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: لكم.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ لَكُمْ دُؤُوبَكُمْ﴾ يعني ﴿يَتَذَكَّرُ لَكُمْ﴾ بتلك النجاة ﴿دُؤُوبَكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَلُّكُمْ بِمَفَارِقِهِمْ وَإِنْفَاقِ أَمْوَالِهِمْ وَالْجِهَادِ^(١) بَأَنْفُسِهِمْ.﴾ وذلك أنه أمرهم بمفارقة مساكنهم وإنفاق أموالهم والجهاد^(١) بأنفسهم.

ثم أخبر أنهم إذا فعلوا ذلك آتاهم مكان كل ما فات عنهم خيراً^(٢) منها مكان ما أفنوا من حياتهم وأنفسهم يؤتيهم حياة دائمة باقية، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْقَرَارُ الْعَظِيمُ﴾ يعني ذلك الثواب الدائم، هو القَرَارُ العَظِيمُ.

الآية ١٣

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَرْىُنَّ عُثْرَتَنَا نَضَرٌ مِّنَ اللَّهِ وَنَفْعٌ قَرِيبٌ﴾ فكأنه يقول: يُعْطِيكُمُ اللَّهُ بتلك التجارة التي دَلَّكُمْ عليها ما ذَكَرَ مِنَ الثَّوَابِ فِي الْآجِلِ ﴿وَلَتَرْىُنَّ عُثْرَتَنَا نَضَرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ على أعدائكم وفتح البلاد ﴿وَلَتَرْىُنَّ الثَّمَرَاتِ﴾ بهما. وقد فعل الله تعالى ذلك لهم^(٣).

الآية ١٤

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَصَارَ اللَّهِ﴾ هذا كلام، يُورِثُ شُبُهَةً فِي الْقَلْبِ: أَنْ كَيْفَ قَالَ: ﴿كُونُوا أَصَارَ اللَّهِ﴾ والله تعالى، لَا يُخَافُ حَتَّى يَسْتَنْصِرَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ؟ وَلَكِنَّ السَّبِيلَ فِي كَشْفِ هَذِهِ الْعُمَّةِ عَنِ الْقُلُوبِ، هُوَ أَنَّ الْمَعْنَى فِي هَذَا وَفِي قَوْلِهِ ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] وَقَدْ وَصَفْنَا فِي ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ مَا يَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَهُمْ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ، كَانَهُمْ أَقْرَضُوا اللَّهَ كَرَمًا مِنْهُ وَفَضْلًا وَلُطْفًا. فَكَذَلِكَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ جَعَلَ مَا يَنْصُرُونَ بِهِ دِينَهُ أَوْ رَسُولَهُ نَصْرَ اللَّهِ تَعَالَى.

وذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وَالْمَعْنَى فِي هَذَا: إِنْ تَنْصُرُوا دِينَ اللَّهِ يَنْصُرْكُمْ، أَوْ إِنْ تَنْصُرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَوْ إِنْ تَنْصُرُوا الْحَقَّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ كَانَ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ كُلُّهُ: أَيِ اجْعَلُوا مَا تَنْصُرُونَ بِهِ دِينَكُمْ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِوَجْهِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [آي] اجْعَلُوا ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ.

وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِضْمَارٌ: إِمَّا فِي الْإِيتِدَاءِ [وَأَمَّا]^(٥) فِي الْإِنْتِهَاءِ حَتَّى تَسْتَقِيمَ عَلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿كَكَأَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾ كَأَنَّهُ يَقُولُ: قُلْ لِلَّذِينَ ﴿آمَنُوا كُونُوا أَصَارَ اللَّهِ﴾ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَصَارَةٍ إِلَى اللَّهِ؟ أَوْ يَكُونُ مَعْنَاهُ وَإِضْمَارُهُ فِي حَقِّ الْإِجَابَةِ: أَيِ أَجِيبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَكُونُوا أَصَارًا لَهُ كَمَا أَجَابَ قَوْمُ عِيسَى بِقَوْلِهِمْ: ﴿مَنْ أَصَارُ اللَّهِ؟﴾.

[وَالْحَوَارِيُّونَ: النَّاصِرُونَ الْوَاقِفُونَ]^(٦) دِينَهُمْ عَنِ الشُّبُهَةِ، وَهُمْ قَوْمٌ كَانُوا خَيْرَةَ عِيسَى ﷺ وَخَاصَّتَهُ حِينَ^(٧) دَعَاهُمْ إِلَى دِينِهِ، فَأَجَابُوهُ، وَآمَنُوا بِهِ، وَوَقَّوْا^(٨) دِينَهُمْ عَنْ كُلِّ شُبُهَةٍ وَأَفَّوْا وَعَيبَ.

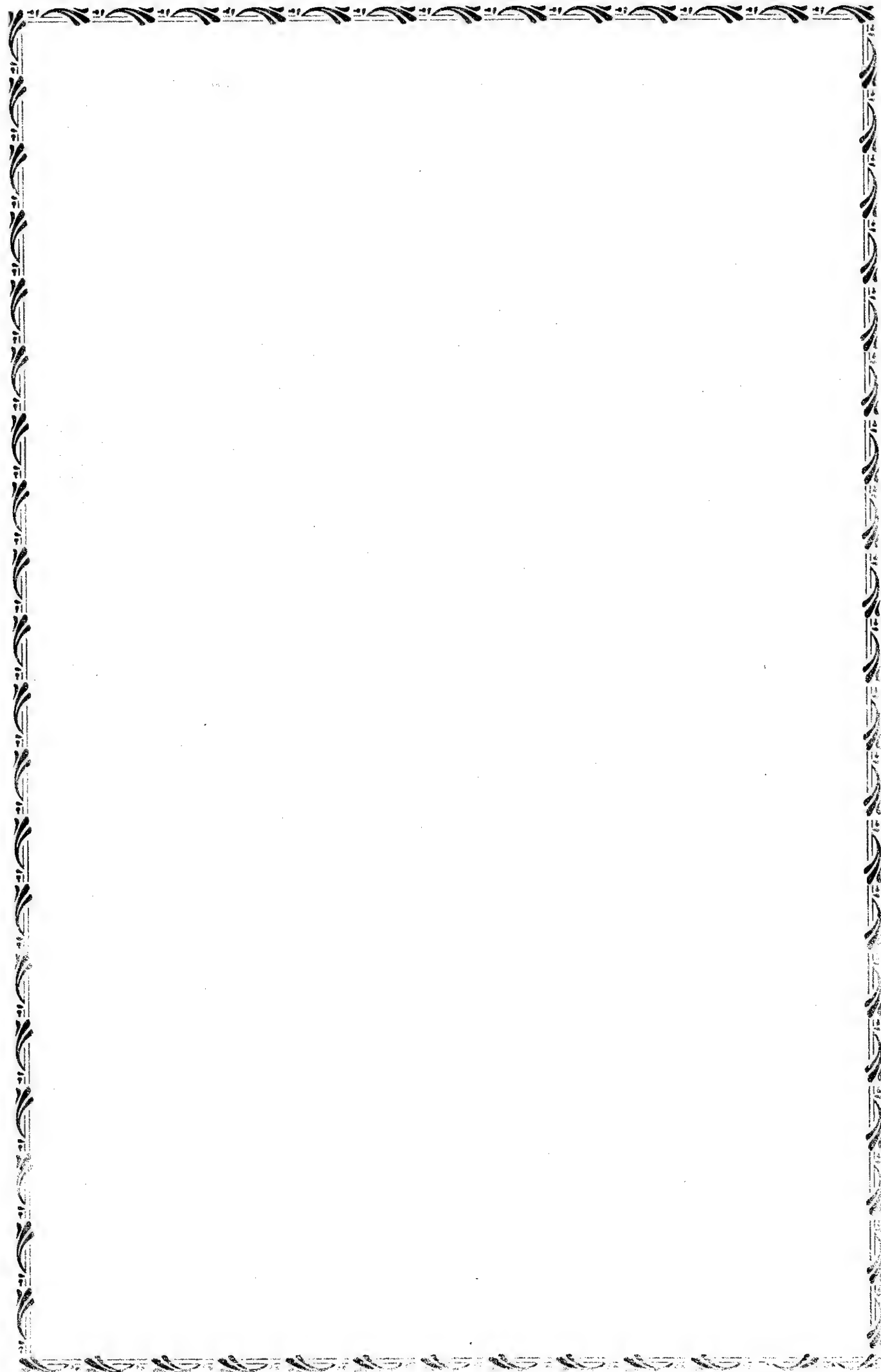
وقوله تعالى: ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنَاتِ إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي حَيَاةِ عِيسَى ﷺ حِينَ اتَّبَعَهُ الْحَوَارِيُّونَ، ثُمَّ دَعَا بَعْدَ ذَلِكَ قَوْمَهُ إِلَى دِينِهِ، فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ ﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ﴾ بِالْبَرَامِينَ وَالْحُجَّجِ عَلَى الطَّائِفَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَاضْبَحُوا ظَاهِرِينَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ بِالْحُجَّجِ وَالْبَرَامِينَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ [ذَلِكَ]^(٩) بَعْدَ وَفَاةِ عِيسَى ﷺ حِينَ اخْتَلَفُوا فِي مَا هِيَ:

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هُوَ اللَّهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هُوَ ابْنُ اللَّهِ، فَكَفَرَتْ بِهِ هَذِهِ الطَّائِفَةُ، وَآمَنَتْ بِهِ طَائِفَةٌ أُخْرَى ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ﴾ عَلَى عَذْرَائِهِمْ حِينَ وَقَعَ لَهُمْ قِتَالٌ، فَتَصَرُّوا عَلَيْهِمْ، وَظَفَرُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

تَمَّتِ السُّورَةُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

(١) من م، في الأصل: بالجهاد. (٢) في الأصل وم: خير. (٣) في الأصل وم: بهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: والحواريون المنصورون المقتون. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: وتقوا. (٩) ساقطة من الأصل وم.



سورة الجمعة

وهي كلها مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ ولم يقل: يُسَبِّحُ الله؛ وقد جَرَتْ [العادة]^(١) في الناس التَّسْبِيحَ بِالْأَلِفِ كَقَوْلِهِمْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَسُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ. فكانَ حَقُّ هذا القولِ على ما جَرَتْ بِهِ العادةُ في اللسانِ أَنْ يَقُولَ: يُسَبِّحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ.

ولكنه يجوزُ أَنْ يَكُونَ هذا مِنْ نَوْعٍ مَا يَجْرِي فِيهِ اللَّفْظَانِ جَمِيعاً كَمَا يُقَالُ: شَكَرَهُ، وَشَكَرَ لَهُ، وَنَصَحَهُ، وَنَصَحَ لَهُ وَالتَّسْبِيحُ يَخْتَلِفُ أَوْجَهاً ثَلَاثَةً:

أَحَدُهَا: تَسْبِيحُ الْخَلْقَةِ: أَنْكَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ عَلَى الْإِشَارَةِ إِلَيْهِ وَالتَّغْيِينِ ذَلِكَ جَوْهَرُهُ وَخَلَقَتُهُ عَلَى / ٥٦٨ - ١ / وَخِدَائِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى تَعَالِيهِ عَنِ الْأَشْيَاءِ وَبِرَأْيِهِ مِنْ جَمِيعِ الْعُيُوبِ وَالْآفَاتِ، فَذَلِكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ تَسْبِيحُهُ.

وَالثَّانِي: تَسْبِيحُ الْمَعْرِفَةِ؛ وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِلَطْفِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةَ الْمَعْرِفَةِ لِيُعْرِفَ اللَّهُ، وَيُنْزَهُ^(٢) وَإِنْ كَانَ لَا تَبْلُغُهُ عَقُولُنَا.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؟ [الإسراء: ٤٤].

ولكن عندنا بواسطة إحداثِ نَوْعٍ حَيَاةٍ فِيهِ؛ إِذِ الْمَعْرِفَةُ بِدُونِ الْحَيَاةِ، لَا تَتَحَقَّقُ.

وَالْوَجْهُ الثَّلَاثُ: هُوَ أَنْ يَكُونَ التَّسْبِيحُ تَسْبِيحَ ضَرُورَةٍ وَتَلْقِينِ؛ وَوَجْهُهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُجْرِي التَّسْبِيحَ عَلَى ذَلِكَ الْجَوْهَرِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ لَهُ حَقِيقَةُ الْمَعْرِفَةِ كَمَا أَظْهَرَ مِنْ آيَاتِهِ وَأَعْلَامِهِ عَلَى عَصَا مُوسَى، وَكَمَا أَجْرَى السَّفِينَةَ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِهَما حَقِيقَةُ الْمَعْرِفَةِ، وَذَلِكَ تَسْبِيحُ كُلِّ شَيْءٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَغْنِي الْمَلِكُ الَّذِي لَهُ مُلْكُ الْمُلُوكِ﴾، وَالَّذِي لَهُ الْمُلْكُ فِي الْحَقِيقَةِ.

وقوله تعالى: ﴿الْقُدُّوسُ﴾ لَهُ تَأْوِيلَانِ:

أَحَدُهُمَا: الطَّاهِرُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَآفَةٍ وَحَاجَةٍ، وَالطَّاهِرُ مِمَّا يَخْتَلِمُهُ غَيْرُهُ.

وَالثَّانِي: الْمُبَارِكُ؛ يَغْنِي بِهِ ثَنَالُ كُلِّ بَرَكَةٍ وَخَيْرٍ، وَيَجُوزُ أَنْ يُجْمَعَ فِي الْمُبَارِكِ مَعْنَى التَّزْيِينِ مِنَ الْعُيُوبِ وَمَعْنَى الْبَرَكَةِ، لِأَنَّكَ إِذَا [وَصَفْتَهُ بِالْبَرَكَةِ فَقَدْ]^(٣) وَصَفْتَهُ بِالْبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، وَأَضَفْتَ إِلَيْهِ كُلَّ بَرَكَةٍ وَيُغْنِي.

كَمَا رَوَى فِي الْحَبَرِ أَنَّ قَوْلَهُ [سُبْحَانَ اللَّهِ]^(٤): «سُبْحَانَ اللَّهِ نِصْفُ الْمِيزَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِلْءُ الْمِيزَانِ...» [أحمد ٤ / ٢٦٠].

وَكَانَ مَعْنَاهُمَا عِنْدَنَا: أَنَّ قَوْلَهُ: «سُبْحَانَ اللَّهِ» يَخْتَصُّ بِتَزْيِينِهِ مِنَ الْعُيُوبِ، «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ» يَنْتَظِمُ مَعْنَى التَّزْيِينِ مِنَ الْعُيُوبِ وَمَعْنَى إِضَافَةِ النِّعَمِ كُلِّهَا إِلَيْهِ. فَإِذَا كَانَ فِيهِ هَذَانِ الْمَعْنَيَانِ جَمِيعاً جَازَ أَنْ يَمْتَلِئَ بِهِ الْمِيزَانُ. وَلَمَّا اخْتَصَّ: «سُبْحَانَ اللَّهِ» بِتَظْهِيرِهِ مِنَ الْعُيُوبِ، وَلَمْ يَتَّعَدَهُ إِلَى غَيْرِهِ أَخَذَ نِصْفَ الْمِيزَانِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيُنْزَهُ. (٣) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم.

وكذلك هذا الاختلاف في تأويل قوله: ﴿يَقُولُوا أَذْهَبَ الْآلَافُ الْمَقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ لِلْكَبِيرِ﴾: ﴿الْعَزِيزُ﴾ يعني الغالب القاهر، لا يُعْجِزُهُ شيء، أو يجوز أن يكون ﴿الْعَزِيزُ﴾ مقابل الدليل [والدليل] ^(١) يَنْتَظِمُ كُلُّ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ وَضَعْفٍ، فالواجب أن يَنْتَظِمَ العزير، إذا كان ضِدًّا لَهُ وَمُقَابِلًا كُلَّ شَرَفٍ وَمَكْرَمَةٍ وَغَنَى وَقُوَّةٍ، والله الموفق.

و﴿لِلْكَبِيرِ﴾ قالوا: هو الذي يَضَعُ الأشياء مواضعها؛ فالله تعالى حكيم حين ^(٢) وَضَعَ الأشياء مواضعها التي جعلها الله مواضع لها، أو ﴿لِلْكَبِيرِ﴾ هو الذي لا يُلْحَقُهُ الْخَطَأُ في التذبير، وهو معنى المصيب أيضاً، والله أعلم.

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ احتج أهل الكتاب علينا أن الله تعالى إنما بعث محمداً رسولاً إلى الأميين خاصة بهذه الآية، وفهموا منها تخصيص الأميين بإرسال الرسول إليهم، فيقتضي نفيه عن غيرهم.

ولكن نقول: لا يجب أن يفهم من الآية نفي ما ذكر في ظاهرها بل يفهم منها ظاهرها دون النفي، والتخصيص بالذكر لا يُخْتَمَلُ لأنه إذا حُوِّلَ التخصيص بالذكر على نفي غيره أدى إلى ما لا يستقيم، ولا يحل.

الآ ترى إلى قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّونَ بِيَمِينِكُمْ﴾؟ [العنكبوت: ٤٨] حين ^(٣) لم يفهم أنه لم يخطه يمينه إن كان خطه بشماله، ولا من قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا﴾ أنه كان يتلى عليه.

ولكن المعنى من ذلك كله، والله أعلم، أن الله بعث رسوله أمياً في قوم أميين، لا يعلمون الحكمة وماهيتها، وجعل ذلك آية لرسالاته وحجة لبُتُوته، لأنه إذا كان أمياً، لا يكتب، ولا يقرأ الكتب، ثم أتاهم [بالكتاب مؤلفاً منظوماً] ^(٤) يوافق كتب أهل الكتاب، دل أنه إنما علم ذلك بالوحي، وأنه لم يخلفه من عند نفسه، والله أعلم.

ثم الدليل على أنه كان رسولاً إليهم جميعاً قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَفَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨] وما روي عنه ﷺ أنه قال: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ» [مسلم/ ٥٢٠١] يعني إلى الإنس والجن، ولأجل أنه لما بُعِثَ إلى طائفة لِيُذَوِّعَهُمْ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ عَلِمَ أَنَّهُ رَسُولٌ إِلَى غَيْرِهِمْ؛ إذ لم يكن لهم رسول آخر، لأن الطائفة الأخرى إن لم يكن رسول آخر، واحتاجوا إلى معرفة الأمر والنهي وإلى طاعة الرحمن حاجة الطائفة التي بُعِثَ إليهم، دل أنه رسول إليهم جميعاً، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ معناه أنه بعث ﷺ في قوم أميين، لا يعرفون عبادة الله، ولا يقرؤون الكتاب، بل كانت عبادتهم عبادة الأصنام.

وقيل في تأويل الأميين: هم الذين لم يؤمنوا بالكتب. ولكن هذا فساد، لأن الله تعالى سَمَّى نَبِيَّ ﷺ أمياً بقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي الْوَوْدِيِّ وَالْإِجْلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقيل: سمّاهم أميين لأنهم لا يقرؤون عن الكتاب، ولا يكتبون على الأعم الأغلب، وإن كان فيهم القليل ممن يقرأ، ويكتب، ومن هذا سَمَّى النَّبِيَّ ﷺ أمياً لأنه كان لا يكتب، ولا يقرأ عن كتاب، ولم يعلم ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّونَ بِيَمِينِكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وعلى ذلك روي عن النبي ﷺ [أنه قال: ^(٥) «الشهر كذا، وأشار بأصابعه»] [مسلم ١٠٨٠/١٣] وقال: «إنما نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب» [البخاري ١٩١٣].

وقال الزجاج: الأمي، هو الذي لا يُحَسِّنُ القراءة والكتابة، ولم يتعلم، ويكون على ما سقط من أمه، فنُسِبَ إلى حال ولادته التي سقط من أمه، لأن ذلك إنما يكون بالتعليم دون الحال التي يجري عليها المولود.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) وفي الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: الكتاب مؤلف منظوم. (٤) ساقطة من الأصل وم.

ثم وجه الحكمة في جعل النبوة في الأمي أن يكون ذلك سبب معرفة نبوته وعلامة رسالته بحيث يعلم أنه ما اخترع من ذات نفسه، إذ لم يعرف الكتابة والقراءة، ولا اختلف إلى أحد ليتعلم منه.

ثم أحوج جميع الحكماء إلى حكمته، وجميع أهل الكتاب إلى معرفة كتابه لحسن نظمه وتأليفه ليعلم أنه إنما ناله بالوحي والرسالة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾ الآيات الأعلام؛ فكانه يقول: يتلو عليهم في كتابه أعلاماً تبين رسالته، وتظهر نبوته. أو يجوز أن تكون الآيات الحلال والحرام وما أشبههما^(١) أو الآيات: الحجج التي يستظهر بها الحق، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ﴾ قال بعضهم: يضلحهم؛ يعني يدعوهم إلى اتباع ما يصيرون أذكاء أنقياء.

ويجوز [أن يكون]^(٢) معنى قوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ﴾ أي يطهرهم من خبث الشرك وخبث الأخلاق وخبث الأقوال والأفعال^(٣)، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّلَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ اختلفوا فيه: قال الحسن: هذا كلام: مثنى الكتاب والحكمة، واحد. وقال أبو بكر: الكتاب ما يتلى من الآيات، والحكمة هي الفرائض.

وقال بعضهم: الحكمة، هي السنة، لأنه كان يتلو عليهم آياته، ويعلمهم سنته إما بلفظ^(٤) من الله تعالى وإلهامه إياه [وإما]^(٥) بالوحي.

ومنهم من قال: الكتاب ما يتلى من الآيات نصاً، والحكمة ما أودع فيها من المعاني: أي ذلك كان.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن كَانُوا مِن قَبْلُ لَنى سَلَاقٍ مُّبِينٍ﴾ أي إنهم كانوا عن الكتاب والحكمة لفي ضلال بين ظاهر، لأنهم كانوا مشركين عبدة الأصنام، ليس عندهم كتاب، ولا يعرفون الحكمة.

ويختل أن يكون معنى قوله: ﴿وَأَن كَانُوا مِن قَبْلُ لَنى سَلَاقٍ مُّبِينٍ﴾ أي في الشرك وعبادة الأصنام، فدعاهم الرسول ﷺ إلى توحيد وتترك ما هم فيه من عبادة الأصنام.

قال الفقيه، رحمه الله عليه: وفي قوله تعالى: ﴿وَرَبِّلَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أن الله تعالى إذ جعلهم أنقياء أذكاء علماء بعد ٥٦٨ - ب/ ما كانوا أميين جهالاً سفهاء، آية ودلالة على حقية دينه ﷺ على سائر الأديان حين^(٦) لم يكن أهلها كذلك، ويكون فيه ترغيب^(٧) للآخرين ليصيروا علماء حكماء.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّلَهُمُ﴾ يجوز أن يكون هذا تعليماً من الله تعالى، أنه جعلهم علماء بعد ما كانوا جهلاء وحكماء بعد ما كانوا سفهاء وأذكاء بعد ما كانوا أنجاساً وأقذاراً عبدة الأوثان، وذلك من لطف الله تعالى.

ثم الأصل أن ما أضيف من هذه الأفعال إلى الله تعالى، فهو على حقيقة الوجود، وما أضيف إلى الرسول ﷺ فهو على الأسباب؛ وذلك أنه لا يجوز أن يعلم الله تعالى أحداً، فلا يصير عالماً، لأن تعليمه خلق العلم في المحل الذي أراد، وخلق^(٨)، يكون لا محالة.

فأما [ما]^(٩) يجوز أن يعلمه البشر، فلا يتعلمه، لأن تعليمه بسبب، لأنه ليس له قدرة الخلق والإيجاد، فثبت أنه على جهة السبب، والله الموفق.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَنَّا بَلِّغُهُمْ﴾ فإن كان معناه الخفض، فهو منسوق على قوله: ﴿مَرَّ الذِّى بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ وفي الآخرين: ﴿لَنَّا بَلِّغُهُمْ﴾ فيكون فيه إخبار أن رسالته تبقى إلى آخر الدهر، وإن كان معناه النصب فهو منسوق على قوله: ﴿وَرَبِّلَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فيكون فيه إشارة أنه يكون في الآخرين علماء أنقياء حكماء كما كان في هؤلاء.

(١) في الأصل وم: أشبهه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: بلطفه. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: ترغيباً. (٧) أدرج قبلها في م: وما أراد. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وقال بعضهم: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي [أَهْلِ] ^(١) التَّفَاقِي، فيكونُ معناه: هو الذي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا، فَيَصِيرُونَ علماء حُكَمَاءَ مُؤْمِنِينَ عَلَى الْحَقِيقَةِ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَآخَرِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأُمِّيِّينَ فِي الظَّاهِرِ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ فِي الْبَاطِنِ. وَالتَّأْوِيلُ الْأَوَّلُ أَصَحُّ وَأَقْرَبُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةُ الْعَزِيزِ﴾ حِينَ ^(٢) جَعَلَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْبَشَرِ آثَرَ الدُّلِّ بِهِ وَالْفَقْرِ بِهِ.

وقوله تعالى: ﴿الْحَكِيمِ﴾ فِي أَمْرِهِ حِينَ ^(٣) أَمَرَهُمْ بِالْحِكْمَةِ، أَوْ ﴿الْحَكِيمِ﴾ فِي تَدْبِيرِهِ حِينَ ^(٤) خَلَقَ الْأَشْيَاءَ الْمُتَضَادَّةَ مِنْ نَحْوِ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِأَنَّهُ وَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ، لَمْ يَخْلُطْ ظُلْمَةً بِنُورٍ وَلَا نُورًا بِظُلْمَةٍ وَلَا لَيْلًا بِنَهَارٍ وَلَا نَهَارًا بِلَيْلٍ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يَعْنِي ذَلِكَ الْفَضْلُ النَّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يَعْنِي يَخْلُقُ مِنَ الْبَشَرِ مَنْ يَصْلُحُ لِلنَّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، أَوْ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ تَعْلِيمِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

وفيه دلالة على كَذِبِ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ، لِأَنَّ مَنْ قَوْلِهِمْ: أَنَّ اللَّهَ لَا يُؤْتِي أَحَدًا بِفَضْلٍ، بَلْ حَقٌّ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ. فَإِنْ كَانَ هَذَا عَلَى اللَّهِ فَعَلَهُ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا يَقْضِيهِ، وَمَنْ قَضَى حَقًّا فَلَيْسَ يُوصَفُ ^(٥) بِالْفَضْلِ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ بِالْفَضْلِ، فَتَبَيَّنَ بِهَذَا كَذِبُ قَوْلِهِمْ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أَيِ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ فِي الدُّنْيَا حِينَ ^(٦) تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِالْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ بَعْدَ مَا كَانُوا جُهَالًا. أَوْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي الْآخِرَةِ: أَنَّ اللَّهَ يَجْزِيهِمْ عَنْ أَعْمَالِهِمُ الْجَنَّةَ فَضْلًا مِنْهُ عَلَيْهِمْ. [وقوله تعالى: ^(٧) ﴿الْعَظِيمِ﴾] هُوَ الدَّائِمُ الْبَاقِي، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الصَّالِاتُ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ لَهُ أَوْجُهُ مِنَ التَّأْوِيلِ:

أَحَدُهَا: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا كِنَايَةً عَنِ الْعَمَلِ؛ يَعْنِي حُمِلُوا الْعَمَلُ بِمَا فِي التَّوْرَةِ، فَلَمْ يَحْمِلُوهَا ^(٨) بِهِ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَقُولَ: ﴿لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ يَعْنِي لَمْ يَحْمِلُوهَا إِلَى مَنْ أَمَرُوا بِحَمْلِهَا إِلَيْهِمْ عَلَى مَا أَمَرُوا، لِأَنَّهُمْ حَرَّفُوا، وَبَدَّلُوا.

[وَالثَّالِثُ] ^(٩): يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِالتَّوْرَةِ، وَتَلَقَّوْهَا بِالْعِنَادِ وَالتَّكْذِيبِ، فَلَمْ يَتَّقِعُوا بِهَا، فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الْجِمَارِ، يَحْمِلُ كُتْبًا، لَا يَعْلَمُ قَدْرَهَا وَخَطَرَهَا كَمَا قَالَ ﴿كَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ لِأَنَّهُمْ، وَإِنْ عَرَفُوا التَّوْرَةَ، فَحِينَ لَمْ يُعَظِّمُوهَا حَقَّ تَعْظِيمِهَا، وَكَذَّبُوا بِمَا فِيهَا، كَانُوا كَأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ قَدْرَهَا وَخَطَرَهَا، فَصَارَ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ الْكُتُبَ، لَا يَعْلَمُ قَدْرَهَا وَخَطَرَهَا.

وهذا التأويل أقرب، لِأَنَّهُ قَالَ فِي سِيَاقِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿يَسْأَلُ مَثَلُ الْقَوْرِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْمَعْنَى مِنَ الْأَوَّلِ التَّكْذِيبُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: ثُمَّ مَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا التَّكْذِيبَ وَالتَّخْرِيفَ إِنَّمَا كَانَ مِنْ عَمَلِ كُتْبَائِهِمْ وَرُؤَسَائِهِمْ، فَاخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا، وَلَمْ يَعْرِفُوا قَدْرَهَا حِينَ كَذَّبُوا لِيُزَجُّوا مَنَافِعَهُمْ عَنْ أَتْبَاعِهِمْ، وَيَبَيَّنَ أَنَّ رُؤَسَاءَهُمْ لَيْسُوا بِمَنْ يَسْتَحِقُّونَ الْأَتْبَاعَ.

وفيه أيضًا زَجْرٌ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَحِقُّوا كِتَابَ اللَّهِ [وَأَلَّا يَحْمِلُوا] ^(١٠) بِمَا فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُ مَثَلُ الْقَوْرِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَقُولَ: يَسْأَلُ النَّعْتُ وَالصِّفَةُ صِفَةُ الدِّينِ بَلَّغَ كَذِبُهُمْ مَبْلَغًا كَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ، لِأَنَّ الْكَاذِبَ فِي الْمِيعَادِ مَوْصُوفٌ بِالشَّرِّ. إِذَا بَلَّغَ كَذِبُهُ مَبْلَغًا، يُكَذِّبُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، عَلِمَ أَنَّهُ فِي النِّهَايَةِ فِي الشَّرِّ؛ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: صِفَةُ الدِّينِ كَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ فِي الْغَايَةِ مِنَ الشَّرِّ وَالْقُبْحِ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٥) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: فَكَيْف. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٧) ساقطة من الأصل وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهَا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْعَمَل.

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: به المكذبين. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) من م، في الأصل: فلا. (٦) في الأصل وم: كان. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لكاذبون. (٩) في الأصل وم: أنه.

تُحْرِيفُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يُلَاقِيَهُمْ، لَا مَحَالَةَ، وَإِنْ فَرَزْتُمْ مِنْهُ، فَيَكُونُ فِيهِ تَذْكِيرُهُمْ، إِنْ رَجَعُوا عَمَّا يَهْرَبُونَ مِنْهُ، يَعْنِي الْمَوْتَ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُدْرَأُ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ وَالشَّهَادَةُ﴾ يعني إلى عالم ما أشهدتُمُ الْخَلْقَ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَعَالِمِ مَا غَيَّبْتُمْ مِنَ الْخَلْقِ مِنْ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَغَيْرِ ذَلِكَ، أَوْ إِلَىٰ عَالِمِ مَا غَيَّبْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَأَسْرَزْتُمْ مِنْ تَكْذِيبِكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَمَا أَشْهَدْتُمْ عَلَيْهِ ضَعْفَتَكُمْ وَأَتْبَاعَكُمْ مِنْ نَهْيِكُمْ لِإِتَائِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِهِ.

وقوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إِمَّا عَيَانًا تَقْرَؤُونَهُ فِي كِتَابِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَوْ يُنَبِّئُكُمْ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بِالْجَزَاءِ: إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ثَوَدْتُمُ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ هَذَا السَّغْيُ يَحْتَمِلُ الْوَجْهَيْنِ [التَّالِيَيْنِ] ^(١):

أَحَدُهُمَا: أَنْ أَقْبِلُوا عَلَى الْعَمَلِ الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ، وَامْضُوا فِيهِ.

وَالثَّانِي: أَنْ ^(٢) اسْعَوْا فِي الْمَشْيِ، وَأَسْرِعُوا، لِأَنَّ السَّغْيَ فِي الْمَشْيِ، هُوَ السَّرْعَةُ فِيهِ، وَالسَّغْيُ فِي الْأَعْمَالِ، هُوَ الْإِقْبَالُ عَلَيْهَا وَالْمُبَادَرَةُ إِلَيْهَا.

فَإِذَا كَانَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا السَّغْيِ فِي الْمَشْيِ فَخُرُوجُ الْآيَةِ مَخْرَجَ التَّزْهِيبِ وَالتَّضْيِيقِ؛ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَذُرُّوا الْبَيْعَ﴾ كَيْفَ أَمَرَكَ بِتَرْكِ الْبَيْعِ، وَقَدْ يُمَكِّنُ الْبَيْعُ فِي حَالِ الْمَشْيِ؟ وَإِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ كَيْفَ أَمَرَ بِالِانْتِشَارِ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الْفَرِيضَةِ دُونَ أَنْ يَذْكُرَ هُنَاكَ شَيْئًا مِنْ أَدَائِهَا؟ وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ التَّزْهِيبُ لَكَانَ يَأْمُرُهُ بِالْعَذْرِ ^(٣) إِلَيْهَا.

فَدَلَّتْ هَذِهِ الْمَعْنَى أَنْ تُخْرَجَ الْآيَةُ عَلَى التَّزْهِيبِ وَالتَّضْيِيقِ، وَإِنْ كَانَ السَّغْيُ فِي سَائِرِ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ غَيْرَ مَنْدُوبٍ إِلَيْهِ عَلَى مَا رَوَىٰ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَأَتَوْهَا وَأَنْتُمْ تَمْشُونَ، وَلَا تَأْتَوْهَا، وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، وَمَا أَذْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَقْضُوا» [النسائي: ١١٥/٢] فَاخْتَصَّ بِالْجُمُعَةِ بِوَلَمَّا ذَكَرْنَا مِنَ التَّضْيِيقِ هَهُنَا وَالتَّوَسُّعِ فِي سَائِرِ الصَّلَوَاتِ.

وَلَكِنْ الْأَشْبَهُ أَنْ الْمُرَادُ مِنَ السَّغْيِ، هُوَ الْإِقْبَالُ عَلَى أَدَائِهَا وَالتَّأَمُّبُ لَهَا وَالْمُبَادَرَةُ إِلَيْهَا، وَالسَّغْيُ مُسْتَعْمَلٌ فِي هَذَا؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩] وَقَالَ ^(٤): «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ» ﴿وَأَنْ سَعَيْتُمْ سَوَاقٍ يَرْيَ﴾ [النجم: ٣٩ و ٤٠] وَإِنَّمَا أَرَادَ الْعَمَلُ، وَكَذَلِكَ رَوَىٰ عَنْ عُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي وَابْنِ الزُّبَيْرِ ﷺ أَنَّهُمْ قَرَأُوا: فَأَمْضُوا ^(٥) إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ، حَتَّىٰ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ [بْنُ مَسْعُودٍ] ^(٦): لَوْ كَانَتِ الْقِرَاءَةُ «فَاسْعَوْا» لَسَعَيْتُمْ، وَلَوْ سَقَطَ رَدَائِي، لَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهِ خَوْفًا مِنْ تَضْيِيعِ حَقِّهَا.

فَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّأْوِيلَ الْأَوَّلَ عِنْدَهُمْ عَلَى الْإِقْبَالِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا دُونَ السَّرْعَةِ وَالْمَشْيِ؛ وَلِأَنَّ هَذَا مُوَافِقٌ لِسَائِرِ الصَّلَوَاتِ فِي أَنَّ الْعَذْرَ غَيْرُ مُسْتَحَبٍّ، وَالْحَدِيثُ الْوَاردُ فِي السَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ مُطْلَقٌ، لَيْسَ فِيهِ فَضْلٌ بَيْنَ الْجُمُعَةِ وَغَيْرِهَا، وَعَلَيْهِ إِجْمَاعُ الْفُقَهَاءِ أَنَّهُ يَنْشِي إِلَى الْجُمُعَةِ عَلَى هَيْئَتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَذُرُّوا الْبَيْعَ﴾ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: إِنَّهُ إِذَا بَاعَ فِي وَقْتِ الْجُمُعَةِ لَمْ يَجْزُ بَيْعُهُ لِهَذِهِ الْآيَةِ. وَعِنْدَنَا أَنَّ الْبَيْعَ جَائِزٌ، لَكِنَّهُ مَكْرُوهٌ، وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى جَوَازِهِ أَنَّ النُّهْيَ عَنِ الْبَيْعِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَيْسَ لِمَكَانِ الْبَيْعِ، وَلَكِنْ لِمَكَانِ الْجُمُعَةِ. فَالْفَسَادُ إِذَا وَرَدَ فَإِنَّمَا يَرُدُّ فِي الْجُمُعَةِ لَا فِي الْبَيْعِ، لِأَنَّهُ إِذَا بَاعَ فِي الصَّلَاةِ، فَالْبَيْعُ يَقْسِدُ الصَّلَاةَ، لِأَنَّ الصَّلَاةَ تُقْسِدُ الْبَيْعَ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. و. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بالعدل. (٤) في الأصل وم: وقوله. (٥) انظر إلى معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ١٤٧. (٦) ساقطة من الأصل وم.

ولأن الأصل عندنا أن كل عقد نُهي عنه^(١) لأجل غيره، فالتقصان إذا ورد من النهي وإنما يرد في ذلك الغير لا في العقد.

وعلى هذا ما روي عنه عليه السلام أنه قال: «المُحْرَمُ لَا يَنْكِحُ وَلَا يُنْكَحُ» [مسلم ١٤٠٩] لأن النهي عن النكاح إنما هو لمكان الإحرام لا لمكان النكاح، ولذلك يقول بجواز نكاح المُحْرَمِ وبفساد الحج إذا جامع بذلك النكاح، لأن النهي إذا لم يكن لنفس العقد لم يستقيم فساد العقد، والنهي ليس من أجله، والله أعلم.

ثم قال: «فَاسْتَوْأَمَّا ذِكْرَ اللَّهِ» ولم يقل: إلى الجمعة ولا لها. دل أن قبل الجمعة ذكراً^(٢)، يجب الاستماع إليه والسني إليه. فدل هذا على قرينة الخطبة. ولما ثبت أن المعنى من قوله: «إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ» أن المراد من الذكر الخطبة، ثم أمر بتزك البيع للسني إلى هذا الذكر والاستماع له، ثبت أن الكلام في وقت الخطبة مكروه، وفي وقت خروج الإمام للخطبة مكروه أيضاً لأن البيع في ذلك الوقت مكروه، والبيع كلام، فيدل على كراهية كل كلام، فتدل صحة مذهب أبي حنيفة، رحمه الله، في أن يلزم السكوت إذا خرج الإمام حتى يفرغ من الصلاة.

وعلى ذلك ورد الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِنْ مِنْ أَتَى الْجُمُعَةَ، ثُمَّ صَلَّى مَا شَاءَ أَنْ يُصَلِّيَ، ثُمَّ إِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ سَكَتَ إِلَى أَنْ يَفْرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ، كَانَ ذَلِكَ كَفَّارَةً لَهُ مِنَ الْجُمُعَةِ إِلَى الْجُمُعَةِ وَزِيَادَةً ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بَعْدَهُ» [بنحوه أحمد ٣٩/٣] فلما ألزمه السكوت من حين يخرج الإمام إلى أن يفرغ من الصلاة، ثبت أن الكلام في ذلك الوقت مكروه، والله أعلم.

قال: وفي هذه الآية دلالة على كذب من قال: إن الصلاة إنما تفترض في آخر الوقت، وإن من أدى قرصاً في أول الوقت وإنما يؤذي تظوعاً، لأنه أمره بالسني، وقرصه عليه «إِذَا تَوَدَّ».

ومعلوم أنه إذا تهيأ للإمام تأخير الصلاة في ذلك الوقت، وقد فرض عليه مع ذلك، فدل هذا على كذب مقالتيهم، والله أعلم.

وأقبح من هذا أنهم قالوا: إن الصلوات مفروضات على الكفرة في حال كفرهم وعلى المسلمين تظوع، مع أنه يجيء على قولهم: إنه ليس أحد من الأمة أدى قرصاً البتة، لأنه لم يذكر عن أحد منهم أنه قرط في أداء الصلاة حين خاف خروج وقتها. فهذا قول قبيح، يجب أن يستتاب عنه صاحبه وعن أمثاله، والله أعلم.

وفي هذه الآية دلالة على أن الجمعة، لا تجب على من بعد من الإمام بفرسخين، لأنه أمر بالسني بعد النداء. ومن بعد فرسخين، فقد يخرج وقت الجمعة، ولا يذركها، فثبت أنه على ما دونه، وهو أن يكون في أحد الأمصار، والله أعلم. ثم الوقت الذي نهي عن البيع فيه يوم الجمعة عن مسروقي وجماعة: هو وقت الزوال إلى أن يفرغ الإمام من الجمعة.

وعن مجاهد والزهرري أنه ينهي عن البيع بعد النداء عملاً بظاهر الآية «إِذَا تَوَدَّ» للصلاة من يوم الجمعة والأول أشبه، لأنه إنما يجب الحضور إلى الجمعة عند دخول الوقت، وهو زوال الشمس، وإن تأخر النداء، ولأن النداء قبل الزوال غير معتبر فكان وجوده / ٥٦٩ - ب/ وعدمه سواء.

الآية ١٠ وقوله تعالى: «وَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ» قال، رحمه الله: خرج هذا في الظاهر مخرج الأمر، ولكنه في حكم الإباحة عندنا، لأن هذا أمر خرج على إثر الحظر، والأصل الجمع عليه عندهم أن كل أمر خرج على إثر الحظر فهو في حكم الإباحة، وما خرج مخرج الإباحة فإن الحكم فيه ينصرف على تصرف الأحوال.

فإن كانت الحالة توجب قرصاً^(٣) كان قرصاً، وإن كانت توجب واجباً فواجب، وإن أدباً فأدب.

والدليل على أن كل أمر خرج على إثر حظر، فهو في حق الإباحة قوله تعالى: «وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا» [المائدة: ٢]

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ذكر. (٣) في الأصل وم: قرصه.

وقوله: ﴿فَإِذَا تَقَهَّرَ فَأَوْفِرْ﴾ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمُ اللَّهُ ﴿[البقرة: ٢٢٢] ولم يكن ذلك محمولاً على الأمرِ الحَثْمِ الذي لا يجوزُ تركه، ولكن على إباحة الإضطهاد، أي اضطادوا إن شئتم، وأتوهن إن أردتم. فكذاك يجوزُ أن يكونَ المعنى من قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إن أردتم أو إن شئتم، والله المستعان.

وقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ يعني التجارة والكسب؛ كان البيعُ كأنه ينتظم ابتغاء فضل الله، لكن قال في ما خرَجَ [مخرَج] (١) الإذن والإطلاق: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ وقال في ما نهى عن ذلك: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ وإن كان المراد منهما جميعاً البيع، لأنه كان يقبح أن يقول: وذروا ابتغاء فضل الله، ولأن ابتغاء الفضل يتضمن البيع وغيره، فلا يستقيم أن يقال: وذروا ابتغاء فضل الله، فقال ههنا: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ ليلحقه النهي خاصة.

وأما الإطلاق والإذن فإنه يستقيم في البيع وغيره، فقال: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ والله المستعان.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: اذكروا الله كثيراً بالسِّكِّمِ وقلوبكم.

والثاني: اذكروا الله بالإقبال على الطاعات التي فيها تحقق ذكر الله.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتْلُوهُنَّ﴾ له أوجه:

أحدها: على رجاء الفلاح. والثاني: أي لكي تفلحوا. والثالث: على قطع وجوب الفلاح إذا فعل ذلك بما قالوا: إن لعل وعسى من الله واجب.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ مَكْرًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَوُكُمُ قَائِمًا﴾ التَّجَارَةُ واللَّهُوُ لا يُرَيَانِ في الحقيقة، وإنما يرى اللّاهي والتاجر، ولكنه ذكر فيه الرؤية لقرب اللّهُوِ مِنَ اللّاهي والتجارة مِنَ التاجر كما قال تعالى: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وكما يقال: سمعتُ كلام فلان، والكلام، ليس بمسموع في الحقيقة، وإنما المسموع في ذلك الصوت الذي يفهم به كلامه، ولكن أطلق لفظ السماع في ذلك لتقاربهما، والله أعلم.

ويعد فإن المعنى من هذا، والله أعلم، ليس الرؤية، وإنما المعنى منه عندنا كأنه قال: وإذا علموا، وذلك أنهم كانوا لا يرون التجارة، ولكن ينهي إليهم خبرها، فيعلمون بها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ ولم يقل إليهما، وقد ذكر شيئين، ولم يلحق ما بعدهما من الكناية بهما، بل بأحدهما، ويجوز مثل ذلك كقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفقونها﴾ [التوبة: ٣٤] ولم يقل: ولا ينفقونها لرجع الكناية إلى جميع ما سبق ذكره، وكما قال: ﴿وَأَسْمِعُوا بِالنَّصْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وقد رجعت الكناية إلى أحد المذكورين لا إليهما. وكذلك هذا.

وهذا لأن المقصود من خروجهم إنما كان، هو التجارة دون اللّهُوِ، ولكنهم إنما يعلمون ما يجلب إليهم بذلك اللّهُوِ؛ فجاز أن يكون ذكر اللّهُوِ لهذا المعنى، وإنما المقصود من ذلك التجارة، وكذلك قوله: ﴿وَلَا ينفقونها﴾ فذكر حق الإنفاق في ما كان الإنفاق منه أيسر وأسهل في المتعارف، وكذلك الفضة، وإن كان الحق واجباً فيها جميعاً لِمَا (٢) المقصود، وهو الصرف إلى الفقراء. فعلى ذلك ههنا.

وأما المعنى منه عندنا إنما خص الصلاة برجوع الكناية إليها لأنها ثقلت على اليهود، لأن القبلة كانت أولاً إلى بيت المقدس، فلما حولت إلى الكعبة ثقلت الصلاة إلى الكعبة على الكفار، فقال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ يعني الصلاة إلى الكعبة، والله أعلم.

فإن قيل: كيف جاز أن ينفر أصحاب رسول الله ﷺ وهو في الخطبة إلى اللّهُوِ والتجارة مع جلال قدرهم وتعظيمهم للنبي ﷺ؟ وكذلك السؤال عن دخول الأعمى المسجد، فوقع في يتر؟

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: لما أن.

والجواب عن هذا أن القوم كانوا حُدِيثِي عَهْدٍ بالإسلام، وكانوا من سَوَاقِ القومِ ومن سِفَلَتِهَا، ولم يكونوا عَرَفُوا حَقَّ الخطابِ وَحَقَّ الحُطْبَةِ عليهم، فكانت تلك تجارة يأملون منها منافع، لو لم يُبادروا إليها ذهبت منهم. فإنما^(١) نَقَرُوا مِنَ الْمَسْجِدِ جَهْلًا مِنْهُمْ بِحَقِّ الحُطْبَةِ والخطابِ.

وبعد فإنهم لم يكونوا من أَجَلَةِ القومِ، ولا صَحِبُوا أَجَلَتَهُمْ، لَيَعْرِفُوا حَقَّ الحُطْبَةِ والمخاطِبِ، فانْقَلَبَتْ مِنْهُمْ الرُّؤْيُةُ وَمِنْ مِثْلِهِمْ^(٢).

فأما الذين كانوا من أَجَلَةِ الصحابة، رضوانُ الله تعالى عليهم أجمعين، ومن عُلَمَائِهِمْ، فلم يَنْقُرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وكذلك أَمْرُ الضَّحِكِ أيضاً يجوزُ أَنْ يَكُونَ مَنْ ضَحِكَ مِنْ أَتْبَاعِ القومِ وَمِنْ سِفَلَتِهِمْ، ولم يكونوا مِنَ الأَجَلَةِ والنُّجَبَاءِ، ولا يُسْتَنْكَرُ مِنْ مِثْلِ أَوْلَئِكَ هَذَا الصَّنِيعُ، والله أَعْلَمُ.

قال: والمعنى من تَرْكِ النَّبِيِّ ﷺ نَهْيُهُمْ عَنِ الخُرُوجِ وَجِهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْكَلَامَ كَانَ مُحَرَّمًا وَقَدْ خُطِبَ، فلم يَنْهَهُمُ لِلنَّهْيِ عَنِ الْكَلَامِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ.

والثاني: يجوزُ أَنْ يَكُونُوا أَسْرَعُوا الْخُرُوجَ، فلم يَنْهَهُمُ نَهْيًا، أو لم يَنْهَهُمُ لِمَا عَلِمَ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا، والله أَعْلَمُ.

وفي الخبر أنه «عَدَّ الَّذِينَ تَبَتُّوا مَعَهُ بَعْدَ مَا قَرَعَ مِنَ الصَّلَاةِ، فَوَجَدَهُمْ اثْنِي عَشَرَ رَجُلًا، فقال: لَوْ لِحَقَّ أَخْرَجُكُمْ بِأَوَّلِكُمْ لَأَضْطَرَمَّ الْوَادِي نَارًا، أَيْ الْمَدِينَةُ [السيوطي في الدر المنثور ٨/ ١٦٥].

ففي هذا دلالة على أَنَّ الْجُمُعَةَ، تَقَامُ بِدُونِ الْأَرْبَعِينَ، لَأَنَّهُ ﷺ جَمَعَ بِاثْنِي عَشَرَ رَجُلًا، والله أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَّكَ قَالِمًا﴾ هذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْخُطْبَةَ^(٣)، إِنَّمَا يَكُونُ قَائِمًا.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ الْآخِرَةِ﴾ قال إمامُ الْهُدَى: ولولا هذا لَكَانَ^(٤) يُعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التَّجَارَةِ. وَلَكِنَّ الْمَعْنَى مِنْ ذَلِكَ، وَاللهُ أَعْلَمُ، أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا مَشْجَرٌ، وَأَنَّ أَهْلَهَا فِيهَا تَجَارٌ: إِمَّا تِجَارَةَ الدُّنْيَا [وَأَمَّا]^(٥) تِجَارَةَ الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّ الطَّاعَةَ وَالْعِبَادَةَ فِي الْإِغْتِيَابِ كَانَهَا تِجَارَةً، لِأَنَّهَا^(٦) تُكْتَسَبُ بِهَا مَنَافِعُ الْآخِرَةِ، وَتِجَارَةُ الدُّنْيَا [تُكْتَسَبُ بِهَا]^(٧) مَنَافِعُ الدُّنْيَا.

فقال: التَّجَارَةُ الَّتِي عِنْدَ اللَّهِ فِي طَاعَتِهِ وَاتِّسَابِ مَنَافِعِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التَّجَارَةِ الَّتِي تُكْتَسَبُ بِهَا مَنَافِعُ الدُّنْيَا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وجائزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: كَأَنَّهُ قَالَ: اتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّكُمْ إِذَا اتَّقَيْتُمُوهُ اكْتَسَبْتُمْ بِهِ الْمَنَافِعَ فِي الرِّزْقِ وَغَيْرِهِ، وَالتَّجَارَةُ الدُّنْيَوِيَّةُ لَا يُكْتَسَبُ بِهَا إِلَّا مَنَافِعُ [الدُّنْيَا]^(٨).

أَلَا تَرَى إِلَى [قَوْلِهِ تَعَالَى]^(٩): ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ﴿وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾؟ [الطلاق: ٢ و ٣] وقوله^(١٠) تعالى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾؟ [الطلاق: ٥].

فإذا كَانَ التَّقْوَى يُسْتَفَادُ بِهِ الرِّزْقُ وَالْبِرُّ فِي الْأُمُورِ وَكَفَّارَةُ الذُّنُوبِ، وَالتَّجَارَةُ لَا يُكْتَسَبُ بِهَا إِلَّا مَنَافِعُ الدُّنْيَا، فَزَعَبَهُمْ فِي مَا فِيهِ جُمْلَةُ الْمَنَافِعِ، وَهُوَ التَّقْوَى لِيَمْكُنُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيَقُولَ: رَغَبْتُكُمْ فِي مَا يُكْسِبُكُمْ جُمْلَةَ الْمَنَافِعِ، إِنْ اتَّقَيْتُمْ، وَمَكْتَسَبُكُمْ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ [فَهُوَ]^(١١) خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التَّجَارَةِ الَّتِي تُكْسِبُكُمْ مَنَفَعَةً وَاحِدَةً، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الرَّزِيقِينَ﴾ لَيْسَ يَقْتَضِي ذِكْرُ هَذَا أَنَّ هُنَاكَ رَازِقًا آخَرَ لِيَكُونَ هُوَ / ٥٧٠ - خَيْرُهُمْ. وَلَكِنَّ الْمَعْنَى مِنْ هَذَا فِي قَوْلِهِ: ﴿مَتَّابَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْمَوْلُوقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وقوله^(١٢): ﴿وَأَنْتَ أَكْثَرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]. لِأَنَّهُ

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فَلَمَّا. (٢) أُدْرِجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: هَذِهِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الْخُطْبَةُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: قَدْ كَانَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لِأَنَّهُ. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: تَكْتَسِبُهُ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ.

كَانَ هُوَ خَيْرَ الرَّازِقِينَ، وَأَحْسَنَ الْخَالِقِينَ، وَأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ، لَأَنَّهُ لَا يَخْكُمُ إِلَّا عَدْلًا، وَلَا يَخْلُقُ إِلَّا مَا فِيهِ حِكْمَةٌ. فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

وَجَائِزٌ أَنْ يُضَافَ الرِّزْقُ وَالْخَلْقُ وَالْحُكْمُ إِلَى الْعَبِيدِ مَجَازًا، فَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ، لِأَنَّ غَيْرَهُ مِنَ الْخَلْقِ إِنَّمَا يَرْزُقُ غَيْرَهُ مِنْ رِزْقِهِ، وَيَعْدِلُ بِحُكْمِهِ، وَيَفْعَلُ بِتَوْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ، فَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ الَّذِينَ يَرْزُقُونَ مِنْ رِزْقِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



سورة (١) المنافقون

مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ اختلفوا في تأويل قوله تعالى: ﴿نَشْهَدُ﴾:

قال بعضهم: ﴿نَشْهَدُ﴾ يعني نُقْسِمُ، ونُحْلِفُ، وقال بعضهم: ﴿نَشْهَدُ﴾ على ابتداء الشهادة.

فَمَنْ حَمَلَهُ عَلَى الْقَسَمِ قَرَأَ ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [الآية: ٢] يعني حَلَفَهُمْ، وَمَنْ حَمَلَهُ عَلَى الشَّهَادَةِ ابْتِدَاءً قَرَأَ اتَّخَذُوا إِيْمَانَهُمْ جُنَّةً، يعني تَصْدِيقَهُمْ، ليس أنها قراءة واحدة، فقرأت بلفظين، ولكنها كانا جميعاً، فقرأت بالمعنيين جميعاً، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ والإشكال أن كيف قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ وهم إنما قالوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ؟ ومعلوم أن هذا القول منهم صدق، ولكن المعنى من هذا، والله أعلم، أنهم طعنوا في ما أظهروا من الخلاف والتكذيب عند غير رسول الله، فحسبوا أن رسول الله ﷺ اطلع على صنيعهم، فأتوا رسول الله ﷺ يَعتَذِرُونَ إليه، ويقولون: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ وإن ما بلغك منا من القول كذب، وما قلناه. فأخبر الله تعالى أنهم كاذبون في ما أخبروا أنهم ما قالوه.

ألا ترى إلى قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾؟ [التوبة: ٧٤].

ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: إِنَّا نَشْهَدُ فِي قُلُوبِنَا إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ كَمَا نُظَاهِرُهُ بِالسَّيِّئَةِ، فأخبر الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ في ما يشهدون بالإيمان في قلوبهم.

ويَحْتَمِلُ^(١) أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى مِنْ قَوْلِهِ: ﴿نَشْهَدُ﴾ أَي نَعْلَمُ بِرِسَالَتِكَ فِي قُلُوبِنَا ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فِي مَا أَخْبَرُوا أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ رِسَالَتَهُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَقَدْ كَانَ لِرِمَّهُمُ الْعِلْمُ بِرِسَالَتِهِ مِنْ جِهَةِ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ، وَلَكِنْ تَعَامَرُوا عَنْ ذَلِكَ الْعِلْمِ اسْتِخْفَافاً مِنْهُمْ وَتَعَثُّاً، فَصَارَ ذَلِكَ الْعِلْمُ كَالْجَهْلِ الْحَقِيقِيِّ.

ثم أَخْبَرَهُمُ اللَّهُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ، وَأَخْبَرَ رَسُولَهُ^(٢) أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ: أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ بِرِسَالَتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم الْوَاجِبُ أَنْ يُعْلَمَ مَا الَّذِي أَخَوَجَّهُمْ إِلَى أَنْ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ؟ وَقَدْ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَلْقَوْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَلَا يَقُولُونَ^(٣) ذَلِكَ، فَكَيْفَ قَالَ الْمُتَنَفِقُونَ ذَلِكَ؟

فَمَعْنَاهُ عِنْدَنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُمْ حِينَ^(٤) اغْتَادُوا مُخَادَعَةَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ اسْتَحَنَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ.

ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا جَرَوْا عَلَى عَادَتِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا لَقُوا الْمُسْلِمِينَ قَالُوا آمَنَّا بِمَنْ مَّا آمَنَتْمْ ﴿وَإِذَا خَلَوْا بِكُنُوفِهِمْ﴾^(٥) قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. وَإِذَا لَقُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي كُلِّ مَجْلِسٍ^(٦) بِمَا يَلِيقُ بِهِ وَيَمْدَحُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر أن. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ١٥١. (٣) في الأصل وم: ويعلم. (٤) في الأصل وم: رسول الله.

(٥) من م، في الأصل: يقول. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: لقوا المشركين. (٨) في الأصل وم: جنس.

ويجوز أن يكونوا يخافون أن قد بلغ رسول الله ﷺ خلافهم وتكذيبهم، فكانوا إذا لقوه ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ اعتذاراً من ذلك الخلاف لو بلغه.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾؟ [المنافقون: ٤] كانوا يحسبون من سوء ما يضيرون في قلوبهم من النفاق أن كل من كلم رسول الله ﷺ فإنما يكلمه^(١) بسببهم، فذلك الأول، والله أعلم.

ثم قال ههنا: ﴿نَشْهَدُ﴾ ولم يقل نشهد بالله، لأن المعنى من هذا الحلف، والحلف من المؤمنين في المتعارف إنما يكون بالله تعالى. فلذلك أجزأ بقوله: ﴿نَشْهَدُ﴾ عن قوله: بالله؛ فيكون هذا دليلاً لقول أصحابنا: إن قوله ﴿نَشْهَدُ﴾ يكون يميناً حين^(٢) ذكر ههنا بطريق القسم، والمعنى ما أشير إليه، والله أعلم.

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَيْمَانَهُمْ جُتَّةً فَمَصُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ له تاويلان:

أحدهما: صدوا أي أغرضوا بأنفسهم عن طاعة الله والإيمان برسوله.

والثاني: صدوا^(٣) الضعفة عن اتباع رسول الله ﷺ وعن الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بش ما كانوا يعملون من الإعراض عن الآيات والحجج حين^(٤) آثروا الكفر على الإيمان.

ويختل: بش ما كانوا يضمنون من صد الضعفة والاتباع عن الإيمان برسول الله ﷺ.

الآية ٣ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ له تاويلان:

أحدهما: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ بلسانهم ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بقلوبهم.

والثاني: على حقيقة الإيمان والكفر؛ وذلك أنهم لما رأوا قلة المسلمين وضعفهم في أنفسهم يوم بدر، ثم رأوهم مع هذه القلة والضعف غلبوا على الكفار مع كثرتهم آمنوا برسول الله ﷺ ورأوا أنهم لا يغلبون أبداً.

ثم إن المسلمين لما غلبوا يوم أحد، وأصابهم ما أصابهم^(٥) اضطربوا في إيمانهم، وشكوا، وكفروا؛ وذلك معنى قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْذِي اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ امْتَنَاهُ وَإِنْ أَصَابَهُ شَيْءٌ مِّنْهُ أَفْلَحَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ [الحج: ١١]. فذلك تاويل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى أن السبب الذي تولد منه نفاقهم وحلفهم وقولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [وقوله]^(٦) ﴿بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾.

وجائز أنه لم يكن منهم حقيقة إيمان ولا كفر، ولكنهم كانوا أقواماً همتهم الدنيا وسعتها، وكانوا يكونون مع من تكون معه الدنيا: إن رأوها^(٧) مع المؤمنين أظهروا من أنفسهم أنهم مؤمنون، وإن رأوها^(٨) مع الكفار أظهروا أنهم كفار، لا أن يكون منهم حقيقة إيمان أو كفر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَطَبَعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمُ الطَّبَعُ﴾ يجوز أن يكون كناية عن ستر وظلمة على قلوبهم، فلا يرون به الحق وحججه.

قال: ويجوز أن يجعل الله الكفر ظلمة في القلب لا يبصرون به الحجج والآيات، أو يجعل الكفر كناية على القلب الفرد^(٩) ليضيق، فلا يرى من بعد ذلك منافع ومضارة إلا من ذلك الوجه، فيكفر وبما كان. فذلك معنى الطبع؛ يعني أن اشتغالهم بالكفر وكسبهم إياه غطى قلوبهم، وسترها عن أن يبصروا الحق وحججه، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: يكلمهم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: رأوا. (٨) في الأصل وم: رأوا. (٩) في الأصل وم: قلبه.

قَالَ الْفَقِيهُ رحمه الله فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِّثُونَ قَالُوا نَتَشَدَّدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَمْ يَجِيبُوا بِأَجْمَعِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّمَا جَاءَ بَعْضُهُمْ / ٥٧٠ - ب/ وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَتَشَدَّدُ﴾ فِي بَعْضِ التَّأْوِيلَاتِ: نَقْسِمُ، وَالْقَسَمُ لَيْسَ مِنْ فِعْلِ الْإِتْبَاعِ وَالسَّفَلَةِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الْأَجَلَةِ وَالرُّوسَاءِ. فَذَلَّ أَنَّهُ إِنَّمَا تَعَاطَى هَذَا الْفِعْلَ بَعْضُ الْمُنَافِقِينَ. ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ الْبَعْضَ بِلَفْظِ الْكُلِّ، فَقُلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَا خَرَجَ فِي الظَّاهِرِ مَخْرَجَ الْعُمُومِ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَنْ دَخَلَ تَحْتَ ذَلِكَ الْإِسْمِ، وَلَكِنَّهُ يُنْظَرُ فِي مَعْنَى اللَّفْظِ وَحَقِيقَتِهِ.

فَإِنْ كَانَ الدَّلِيلُ يُوجِبُ تَعْنِيْمَهُ أَجْرِي عَلَى عُمُومِهِ، وَإِنْ كَانَ يُوجِبُ تَخْصِيصَهُ أَجْرِي عَلَى خُصُوصِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَهُرَ لَا يَقْفَهُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: أَي لَا يَقْفَهُونَ، لَأَنَّهُمْ ^(١) طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَإِلَّا لَمْ يُغْرِضُوا عَنِ الْحَقِّ وَالْآيَاتِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُظَنُّونَ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ، وَجَعَلُوا جَمِيعَ هِمَّتِهِمْ فِي الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَإِلَّا لَوْ فَقَهُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى دَاراً أُخْرَى يُجَازُونَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ لَعَلِمُوا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ دِينٍ يَدِينُونَ بِهِ، وَلَمْ يُنْظَرُوا إِلَى مَنَافِعِهِمْ وَمَضَارِّهِمْ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَيَحْتَمِلُ أَي لَا يَقْفَهُونَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ تَعَبَّدَهُمْ، وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِهِ. وَيَحْتَمِلُ أَي لَا يَقْفَهُونَ أَنَّهُمْ يَتَعَبَّدُونَ، وَأَنَّ اللَّهَ دَاراً أُخْرَى، يَسْأَلُهُمْ عَمَّا فَعَلُوا، وَيُجَازِيهِمْ عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ هَهُنَا: ﴿لَا يَقْفَهُونَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: لَا يَعْلَمُونَ، لِأَنَّ الْفِقْهَ إِنَّمَا هُوَ الَّذِي يُعْرِفُ بِالشَّيْءِ بِالشَّيْءِ فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْآخِرَةَ بِالدُّنْيَا.

وَقَالَ ابْنُ سُرَيْجٍ: الْفِقْهَ، هُوَ مَعْرِفَةُ الشَّيْءِ بِمَعْنَاهُ الدَّالُّ عَلَى تَطْيِيرِهِ. وَعِنْدَنَا: أَنَّ الْفِقْهَ، هُوَ مَعْرِفَةُ الشَّيْءِ بِمَعْنَاهُ الدَّالُّ عَلَى غَيْرِهِ؛ كَانَ ذَلِكَ تَطْيِيراً لَهُ أَوْ لَمْ يَكُنْ، لِأَنَّ مَنْ عَرَفَ الْخَلْقَ بِمَعْنَاهُمْ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى مَعْرِفَةِ الصَّانِعِ. وَمَنْ عَرَفَ الدُّنْيَا دَلَّ ذَلِكَ عَلَى مَعْرِفَةِ الْآخِرَةِ، وَلَيْسَا بِتَطْيِيرَيْنِ. ثُمَّ بَيَّنَّ الْفِقْهَ وَالْعِلْمَ فَضَّلَ مِنْ وَجْهِ، وَإِنْ كَانَ ^(٢) جَمِيعاً فِي الْحَقِيقَةِ، يَرْجِعَانِ إِلَى مَعْنَى وَاحِدَةٍ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ إِنَّمَا يُجَلِّي الشَّيْءَ لَهُ، وَظَهْوَرُهُ بِنَفْسِهِ، وَالْفِقْهَ يُعْرِفُ بِغَيْرِهِ اسْتِدْلَالاً. وَلِلذَلِكَ جَازَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَالِمٌ بِتَجَلِّي الْأَشْيَاءِ لَهُ، وَلَمْ يَجْزَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ فَاقِيهٌ، لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ الْأَشْيَاءَ إِلَّا اسْتِدْلَالاً، وَاللَّهُ الْمَوْفَّقُ. وَالْحِكْمَةُ وَضَعُ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا، وَالْإِيقَانُ إِنَّمَا هُوَ يَتَوَلَّدُ عَنْ ظَهْوَرِ الْأَسْبَابِ، وَلِلذَلِكَ جَازَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكِيمٌ، وَلَمْ يَجْزَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ مَوْفَّقٌ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الآية ٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَانُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ فِي هَذَا بَيَانٌ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَانَ أَتَاهُمْ حُسْنَ الصُّورَةِ وَحُسْنَ الْبَيَانِ، وَأَنَّهُ قَدْ أَتَاهُمُ الْعِلْمُ لِأَنَّ حُسْنَ الْبَيَانِ، لَا يَكَادُ يَكُونُ إِلَّا عَنْ عِلْمٍ. فَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ نِعْمَتِهِ الَّتِي أَتَاهُمْ؛ وَإِنَّهُمْ لَمْ يَشْكُرُوا نِعْمَتَهُ، وَأَسَاؤُوا صُحْبَتَهَا؛ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: كَيْفَ تَرْجُو مِنْهُمْ حُسْنَ الصُّحْبَةِ لَكَ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُحْسِنُوا صُحْبَةَ نِعْمِهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟

فَيَكُونُ بَعْضُ التَّسْلِي لِمَا أَهَمَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ سُوءِ صَنِيعِهِمْ بِهِ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِهِ وَطَاعَتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ يَعْنِي وَإِنْ يَقُولُوا تَحْسَبُ قَوْلَهُمْ حَقّاً، فَتَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ لِتَقْبَلَهُ. وَيَحْتَمِلُ أَي ^(٣) تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ لِمَا يُعْجِبُكَ قَوْلُهُمْ، أَوْ تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ عَلَى مَا كَانَتْ عَادَتُهُ ﷺ فِي كُلِّ مَنْ كَلَّمَهُ أَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ عَلَيْهِ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَيْهِ كَلَامَهُ حَتَّى يَقْرَعَ مِنْهُ، ثُمَّ يَقْبَلَهُ ^(٤) إِنْ كَانَ مِمَّا يَجِبُ قَبُولُهُ [أَوْ يُغَيِّرُهُ] ^(٥) عَلَى صَاحِبِهِ [أَوْ يَرُدُّهُ] ^(٦) إِنْ كَانَ مُسْتَحَقّاً لِلتَّغْيِيرِ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لِأَنَّهُ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: كَانَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: قَبْلَهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَغَيْرِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَرَدَهُ.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ لَهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ يقول: إنهم في ما يكون من جانبيهم وناجيتهم من حُسن الصورة والبيان بحيث يُعجبُكَ، وفي ما تُلقِي إليهم من الحق والدين والحكمة ﴿كَانَ لَهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ لا يَنْجَعُ فيهمُ الحق، ولا يَقْبَلُونَهُ كَالْخُشْبِ الْمُسْنَدَةِ.

وَيَحْتَمِلُ [أَنْ يَكُونَ] ^(١) هذا تَمْثِيلًا بِالْخُشْبِ مِنْ حَيْثُ [أَنَّ الْخُشْبَ الْمُسْنَدَةَ] ^(٢) فِي الظَّاهِرِ، هِيَ الْخُشْبُ الْيَابِسَةُ الَّتِي لَا أَجَوَاتَ لَهَا، فَيُوضَعُ فِيهَا شَيْءٌ، فَكَذَلِكَ الْمُنَافِقُونَ، كَانَهُمْ لَا أَجَوَاتَ [لَهُمْ تَوْضَعُ فِيهَا] ^(٣) الْحِكْمَةُ وَالِدِينُ وَالْحَقُّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وجائز أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: ﴿كَانَ لَهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ مِنْ حَيْثُ أَنَّ الْخُشْبَ الْمُسْنَدَةَ، لَيْسَ لَهَا أَسْمَاعٌ وَلَا أَبْصَارٌ وَلَا قُلُوبٌ، فَكَذَلِكَ الْمُنَافِقُونَ، كَانَهُمْ صُمٌّ بِكُمْ عُمِّيٍّ مِنْ نَاحِيَةِ الْحَقِّ وَقَبُولِهِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ [وَجُوهًا]:

أَحَدُهَا: ^(٤) يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ سَمِعُوهَا كَلِمَةً تَهْتِكُ عَلَيْهِمْ سِرَّهُمْ، وَيَقْضَحُهُمْ ^(٥).

الْآخَرُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَحْذَرُ الْمُتَلَفِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤] [حَيْثُ أَخْبَرَ] ^(٦) أَنَّهُمْ كَانُوا يَحْسَبُونَ فَضِيحَتَهُمْ وَهَتَكَ أَسْرَارِهِمُ الْإِطْلَاعَ ^(٧) عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِمْ؟ فَكَذَلِكَ يَحْسَبُونَ أَنَّ مَنْ كَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّمَا يَكْلَمُهُ ^(٨) بِمَا يَهْتِكُ أَسْرَارَهُمْ، وَيَقْضَحُهُمْ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَالثَّانِي ^(٩): أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي الْحَرْبِ؛ أَنَّهُمْ كُلَّمَا سَمِعُوا صَيْحَةً، خَافُوا أَنْ يَكُونَ فِيهَا ^(١٠) هَلَاكُهُمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُظْهِرُونَ الْمُوَافَقَةَ لِكُلِّ فَرِيقٍ عَلَى جِدَّةٍ؛ وَإِذَا وَافَقُوا هَذَا الْفَرِيقَ صَارُوا حَرْبًا لِلْفَرِيقِ الْآخَرِ، وَإِذَا وَافَقُوا الْآخَرَ صَارُوا حَرْبًا لِهَؤُلَاءِ. فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ مِنْ كُلِّ صَيْحَةٍ، سَمِعُوهَا، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِهَلَاكِهِمْ.

وَالثَّالِثُ: ^(١١) أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى عَاقِبَتُهُمْ بِالْخَوْفِ الدَّائِمِ لِتَأْمِيلِهِمُ الْأَمْنَ مِنْ وَجْهِ، لَمْ يُؤْذَنُوا فِيهِ؛ وَذَلِكَ لِمَا وَصَفْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يُظْهِرُونَ الْمُوَافَقَةَ لِكُلِّ رَجَاءٍ أَمَّنَّهُمْ، وَكَانَتْ جَمِيعُ مَقَاصِدِهِمْ فِي ذَلِكَ تَحْصِيلُ مَنَافِعِ الدُّنْيَا دُونَ الدِّينَانِ بَدِينٍ مِنَ الْأَدْيَانِ، وَذَلِكَ غَيْرُ مَأْذُونٍ فِيهِ. فَلَمَّا أَثَرُوا ذَلِكَ، وَاخْتَارُوهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُمْ عَاقِبَتُهُمْ بِالْخَوْفِ الدَّائِمِ إِمَّا مِنَ الْإِفْتِضَاحِ وَالْإِطْلَاعِ عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِمْ [وَأَمَّا] ^(١٢) مِنَ الْهَلَاكِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿هُرُّ الدُّرِّ فَاحْذَرُوهُ﴾ لَهُ أَوْجُهُ مِنَ التَّأْوِيلِ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَقُولَ: ﴿هُرُّ الدُّرِّ﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ أَذْنَى عَدُوٍّ لَكُمْ ﴿فَاحْذَرُوهُمُ تَلَاوُذَهُمُ اللَّهُ﴾ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ فِي [الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَغَيْرِهِ] لِأَنَّ الْحَذَرَ مِمَّنْ قُرْبٌ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَذَنَا، أَوْجَبَ وَمِمَّنْ بَعْدُ.

[وَالثَّانِي: ^(١٣) اخْذَرُوهُمْ أَنْ تُظْلِعَهُمْ عَلَى سِرِّ فِي مَا يَزَوْن، وَتَضْمِيرُهُ مِنَ الْجِهَادِ وَالْحَرْبِ، فَيَحْثَلُونَ عَلَى إِهْلَاكِكَ] ^(١٤) أَوْ يُظْلِعُونَ الْكُفْرَةَ عَلَى سِرِّكَ.

[وَالثَّالِثُ: ^(١٥) اخْذَرُوهُمْ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ قَوْلًا، يَقُولُونَ عَنْ أَصْحَابِكَ لَأَنَّهُمْ يُغَرُّونَ أَصْحَابَكَ عَلَيْكَ، فَاخْذَرُوهُمْ أَنْ تَقْبَلَ قَوْلَهُمْ عَلَى أَصْحَابِكَ.

وقوله تعالى: ﴿تَلَاوُذَهُمُ اللَّهُ﴾ يَعْنِي لَعْنَتَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَكُونُوا﴾ لَهُ تَأْوِيلَانِ:

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: لها يوضع فيهم. (٤) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٥) الراو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فأخبر. (٧) في الأصل وم: والاطلاع. (٨) في الأصل وم: يكلم. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: يحتمل. (١٠) في الأصل وم: فيه. (١١) في الأصل وم: ويحتمل. (١٢) في الأصل وم: أو. (١٣) في م: أو. (١٤) من م، في الأصل: المطمع. (١٥) في الأصل وم: أو.

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَقُولَ: أَيُّ سَبَبٍ يَمْنَعُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِكَ وَطَاعَتِكَ، وَقَدْ آتَيْتَهُمْ بِالْآيَاتِ وَالْحُجَجِ فِي أَطْلَاجِكَ عَلَى سَرَائِرِهِمْ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنِ الْوَحْيِ.

[وَالثَّانِي: أَنْ] ^(١) يَقُولَ: ﴿أَلَمْ يَكُونُوا﴾ يعني أَنِّي يُكَذِّبُونَ تَقْلِيداً أَوَّلَكَ الْكُفْرَةَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَظْهَرَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ آيَةٌ وَحُجَّةٌ، وَلَا يَقْلُدُونَ الْبِرّهَانَ وَالْحُجَّةَ، فَيَتَّبِعُونَكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُؤُوسَهُمْ﴾ ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنْهُ إِنَّمَا كَانَ لِجُمْلَةِ الْمُنَافِقِينَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

وَرُويَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَنِ سَلُولِ الْمُنَافِقِ لِأَنَّهُ رُويَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ كَلَّمَا قَامَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَنِ سَلُولٍ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ، وَقَالَ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ، فَوَقَرُوهُ، وَعَظَّمُوهُ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ، فَقَالَ بِمِثْلِ مَقَالَتِهِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اجْلِسْ يَا كَافِرُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ فَضَحَكَ، قَالَ: فَخَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ الْجُمُعَةَ، فَاسْتَقْبَلَهُ بَعْضُ الْقَوْمِ، فَسَالُوهُ عَنْ خُرُوجِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ قَبْلَ آدَاءِ الْجُمُعَةِ، فَالْخَبَرُ عَنْ الْقِصَّةِ، فَقَالُوا: ارْجِعْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَسَلَّهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ، فَلَوَّى رَأْسَهُ، وَقَالَ: مَا لِي إِلَى اسْتِغْفَارِهِ حَاجَةٌ.

وَرُويَ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعْرَضُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [الآية: ٨] ثُمَّ أَرَادَ دُخُولَ الْمَدِينَةِ مِنْ بَعْدِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ، فَحَبَسَهُ ابْنُهُ، وَقَالَ: لَا أَدْعُكَ تَدْخُلُهَا مَا لَمْ تُقِرَّ أَنَّكَ الْأَذَلُّ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ الْأَعْرَضُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ / ٥٧١- فَامَرَّهُ أَنْ يُخْلِيَ عَنْ أَبِيهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِنَّكَ أَوْلَى لَكَ أَنْ تُسَمَّى عَبْدَ اللَّهِ مِنْ أَبِيكَ، فَسَمِيَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ، وَكَانَ يُسَمَّى حُبَاباً. فَهَذَا الْخَبَرَانِ يَدُلُّانِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ، إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا ^(٢)، وَظَاهِرُهَا يَدُلُّ عَلَى [أَنَّ] ^(٣) ذَلِكَ كَانَ فِي جُمْلَةِ الْمُنَافِقِينَ.

وَلَكِنَّ الْوَجْهَ فِي ذَلِكَ، كَانَ عِنْدَنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اغْتِقَادُ جُمْلَتِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، فَذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى [جُمْلَةً] ^(٤) لِإِعْتِقَادِهِمْ عَلَيْهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَقْوَاماً، لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ. وَالِاسْتِغْفَارُ إِنَّمَا هُوَ طَلَبُ الْمَغْفِرَةِ؛ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَتَحَقَّقُ فِي الْآخِرَةِ. فَإِذَا كَانَ عَلَى هَذَا أَصْلُ اغْتِقَادِهِمْ جُمْلَةً ذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [الآية: ٨] كَانَ عِنْدَهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا آتَاهُمُ الْعِزَّ وَالْغِنَى وَالشَّرَفَ وَالْفَضِيلَةَ لَهُمْ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَكَانُوا يُتَكَبَّرُونَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِمَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنبَأَ أَنَّهُ قَدْ كَانَ آتَاهُمْ جَمِيعَ مَا بِهِ الْعِزُّ وَالشَّرَفُ فِي الدُّنْيَا لِيَمْتَحِنَتْهُمْ بِحَقْقِ هَذِهِ النِّعَمِ وَتَعْظِيمِهَا وَشُكْرُهَا، وَأَنَّهُمْ بَلَّغُوا فِي ذَلِكَ غَايَةَ مَا عَلَيْهِ عَمَلُ الْكُفْرَةِ فِي سُوءِ الصَّنْعِ بِالنِّعَمِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿وَإِذَا رَأَتْهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [الآية: ٤] دَلَّ أَنَّهُ كَانَ آتَاهُمْ حُسْنَ الصُّورَةِ وَحُسْنَ الْبَيَانِ، وَلَمَّا قَالَ: ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُبْدِعُوا عَلَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ [الآية: ٧] دَلَّ أَنَّهُ قَدْ كَانَ آتَاهُمُ الْغِنَى، وَلَمَّا قَالَ: ﴿لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [الآية: ٨] دَلَّ أَنَّهُ قَدْ كَانَ آتَاهُمُ الْعِزَّ وَالشَّرَفَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الْأَسْبَابَ الَّتِي وَصَفْنَا، هِيَ أَسْبَابُ الْعِزِّ وَالشَّرَفِ فِي الظَّاهِرِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ تَرَكَوا شُكْرَ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ فِي تَعْظِيمِ الْحَقِّ وَأَدَاءِ شُكْرِهِ، وَأَنَّهُمْ بَلَّغُوا فِي الْبَاطِنِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ غَايَتَهُ فِي سُوءِ الصَّنْعِ، لِأَنَّهُ دَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُبْدِعُوا﴾ [الآية: ٧] عَلَى غَايَةِ الْبَخْلِ حِينَ ^(٥) امْتَنَعَ عَنِ الْإِنْفَاقِ بِنَفْسِهِ، وَأَمَرَ ^(٦) غَرَّهُ لَا يُتَّقَى أَيْضاً؛ وَذَلِكَ فِي غَايَةِ الْبَخْلِ، وَلَمَّا قَالَ: ﴿كَانَتْهُمْ حُشْبٌ مُسَدَّدَةٌ﴾ [الآية: ٤] دَلَّ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْغَفْلَةِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَقَبُولِ الْمَوْعِظَةِ غَايَتَهُ، وَلَمَّا قَالَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُؤُوسَهُمْ﴾ دَلَّ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْاسْتِخْفَافِ بِهِ حِينَ ^(٧) تَرَكَوا الْإِنصَافَ، وَأَخَذُوا سَبِيلَ الْإِغْتِسَافِ وَالِاسْتِكْبَارِ عَلَيْهِ غَايَتَهُ، وَلَمَّا قَالَ: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤] دَلَّ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي سُوءِ السَّرِيرَةِ غَايَتَهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْهُمْ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَمَرَهُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث.

قَالَ: وَيَجُوزُ أَنْ يَقَعَ كُلُّ ذَلِكَ مِنْهُمْ لِيُجَاهِي:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ رَأَوْا ذَلِكَ حَقًّا لَهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُمْ.

[والثاني: أَنَّهُمْ رَأَوْا] (١) أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنَّهُمْ ذَلِكَ تَفْضِيلًا لَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَكَانُوا يَتَكَبَّرُونَ، وَيَتَعَظَّمُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَيَسْتَحْقُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِذَلِكَ الْوَجْهِ، وَلَمْ يَتَأَمَّلُوا، وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا، لِيَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنَّهُمْ جَمِيعَ تِلْكَ النِّعَمِ مِخْنَةً عَلَيْهِمْ، تَعَبَّدَهُمْ بِأَدَاءِ شُكْرِهَا وَتَعْظِيمِ حَقِّهَا. وَذَلِكَ مَعْنَى، لَا يَقْفَهُونَ، أَيْ لَا يَتَأَمَّلُونَ النَّظَرَ فِي هَذِهِ النِّعَمِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُلْزِمُهُمْ أَنْ يَتَأَمَّلُوا فِي مَا أُوتُوا مِنَ النِّعَمِ، وَيَنْظُرُوا، فَإِذَا تَفَكَّرُوا فِي ذَلِكَ، وَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ صُنْعًا اسْتَوْجَبُوا بِهِ عِنْدَهُ مَكَافَاتٍ لِذَلِكَ، وَلَا لَهُمْ فَضْلٌ يُفْضَلُهُمُ اللَّهُ بِهِ (٢) عَلَى غَيْرِهِمْ، فَكَانَ يَتَبَيَّنُ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا أَعْطَاهُمْ هَذِهِ النِّعَمَ مِخْنَةً لِيَتَعَبَّدَهُمْ بِأَدَاءِ شُكْرِهَا.

وِلِذَلِكَ وَقَعَ الْفَضْلُ فِي مَا بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ أَنْ مَا كَانَ حَقُّهُ التَّامُّلَ وَالنَّظَرَ فَحَقُّ اللَّفْظِ فِيهِ أَنْ يُقَالَ: يَقْفَهُونَ، وَلَا يَقْفَهُونَ، وَمَا كَانَ حَقُّ الْعِلْمِ السَّمَاعِ وَالْخَبَرِ أَطْلُقَ فِيهِ لَفْظُ الْعِلْمِ.

وِلِذَلِكَ قَالَ عِنْدَ الْعِزَّةِ وَالْعَلْبَةِ وَالنُّصْرِ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الآية: ٨] لَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ النَّصْرَ وَالْعَلْبَةَ، لَوْ لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ لَهُ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ طَاعَتِكَ وَاتِّبَاعِكَ.

وَالثَّانِي: يَصُدُّونَ صَعَفَتَهُمْ عَنِ اتِّبَاعِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [فيه وجهان]:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ (٣) لَمْ يَعْدُوا ذَلِكَ زَلَّةً وَذَنْبًا لِأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ.

وَالثَّانِي: مَا قُلْنَا: إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَالْمَغْفِرَةُ إِنَّمَا تُطْلَبُ مِنَ اللَّهِ، وَيَتَحَقَّقُ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا؛ إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ أَسْتَغْفَرْتَ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ.

قَالَ، رَحِمَهُ اللَّهُ: وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ لَا يَسْتَغْفِرُ لِلْمُنَافِقِينَ بَعْدَ مَا ظَهَرَ عِنْدَهُ نِفَاقُهُمْ، وَلَكِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا قَبْلَ نِفَاقِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ يَحْتَوِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: يَقُولُ: ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ مَا دَامُوا عَلَى النِّفَاقِ، وَلَمْ يَتُوبُوا عَنْهُ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَقُولَ: ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فِي قَوْمٍ، عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا، فَقَالَ فِي أَوَّلِكَ: ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ وَكَذَلِكَ هَذَا فِي قَوْلِهِ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٦ ويس: ١٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ فِيهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى، يَمْلِكُ هِدَايَةَ وَرَاءَ هِدَايَةِ الْبَيَانِ، لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَمْلِكْ شَيْئًا لَمْ يَسْتَغْفِرْ أَنْ يُوصَفَ بِالْعَظِيمِ: أَنَّهُ، لَا يَفْعَلُ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ، وَلَمْ يَمْلِكْ، لَا يَفْعَلُ. وَإِنَّمَا يُوصَفُ بِهَذَا مَنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ، وَلَكِنْ لَا يَفْعَلُ.

فَلَوْ لَمْ يَقْدِرْ خَلَقَ فَعَلِ الْإِهْتِدَاءِ فِي مَنْ أَرَادَ لَمْ يُوصَفْ بِأَنَّهُ لَا يَهْدِي الْفَاسِقِينَ. فَذَلِكَ أَنَّهُ يَمْلِكُ هِدَايَةَ الْبَيَانِ، وَهُوَ خَلَقَ الْإِهْتِدَاءِ فِي مَنْ عَلِمَ مِنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أَيْ لَا يَهْدِيهِمْ لِنِسْوَتِهِمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: لَأَنَّهُمْ.

وقالت المعتزلة: أي لا يُسميهم مُهتدين، إذا فسقوا، أو ضلّوا.

وأيهما كان، فهو مُحال، لأنّ مَنْ مَدَى ضالّاً لِضلالَيْهِ فهو سفيه؛ فكانه يقول: لا يَسْفَهُ، وَمَنْ سَمَى الضالَّ مُهتدياً فهو كاذب؛ فكانه قال: لا يَكْذِبُ، وهما جميعاً غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ، لانا نَعْلَمُ أنه لا يَسْفَهُ، ولا يَكْذِبُ. فَكَيْتَبَتْ أَنْ فِي مُلْكِهِ هِدَايَةٌ، يَهْدِي بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ سِوَى هِدَايَةِ الْبَيَانِ. وإذا ثَبَتَ مَا وَصَفْنَا أَنَّ فِي مُلْكِهِ هِدَايَةَ الْبَيَانِ ثَبَتَ أَنَّ لَهُ فِيهَا مَشِيئَةً؛ لأنّ مَنْ مَلَكَ شَيْئاً، لم يَجْزُ أَنْ تُقَطَّعَ عَنْهُ مَشِيئَتُهُ. فلذلك قلنا: إِنَّ اللَّهَ تعالى، يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ^(١) عِلِمَ أَنَّهُ يُؤْزِرُ الْكُفْرَ، وَيَخْتَارُهُ عَلَى الْهُدَى، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ مَنْ^(٢) عِلِمَ أَنَّهُ يُؤْزِرُ الْهُدَى عَلَى الضَّلَالَةِ، فَيَهْدِيهِ لِذَلِكَ، وَيُوقِّعُهُ، وَيُسَدِّدُهُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُبْعَثُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ قد وَصَفْنَا أَنَّ هَذَا مِنْ غَايَةِ بُخْلِهِمْ. وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ دلالة أنهم أرادوا إطفاء هذا النور وإخفاءه، فأبى الله تعالى إِلَّا إظهاره.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَرَّائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يَسْطُهَا عَلَى الْمُنَافِقِينَ لِيَمْتَحِنَهُمْ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

أو ﴿وَاللَّهُ خَرَّائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يُضَيِّقُهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ لِيَمْتَحِنَهُمْ بِالصَّبْرِ فِي حَالِ الضِّيقِ.

أو يجوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا بِشَارَةً لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اللَّهَ تعالى، يُوسِّعُ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا بَعْدَ مَا ضَاغَتْ، وَقَدْ جَعَلَ حِينَ فَتَحَ لَهُمُ الْفَتْوحَ، وَأَتَاهُمُ الْغَلْبَةُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ الْأَعْرَابُ: قَدْ يَخْتَلِفُ مَعَانِي:

أَحَدُهَا: الْأَغْلَبُ الْأَقْهَرُ عَلَى مِثَالِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَعَزَّزْنَا فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣] أَيِ غَلَبَنِي فِي الْخُصُومَةِ.

وَالثَّانِي: الْأَقْوَى وَالْأَشَدُّ عَلَى مِثَالِ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿أَعَزَّنَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وَالثَّالِثُ: الْأَعْلَى وَالْأَجَلُّ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعَزُّ وَلِرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾.

فَإِنْ كَانَ عَلَى الْأَعْلَى وَالْأَجَلِّ فَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْلَى وَأَجَلُّ / ٥٧١ - ب/ لَأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا الْحِكْمَةَ بِالْحُجْبِ، وَالْكَفَّارَ اتَّبَعُوا أَمْوَاءَهُمْ. وَإِنْ كَانَ عَلَى الْأَغْلَبِ وَالْأَقْهَرِ فَذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْغَلْبَةِ وَالنُّصْرَةِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ.

وَأِنْ كَانَ عَلَى الْقُوَّةِ وَالشَّدَّةِ فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يُوجَدْ ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَكُنْ أَهْلُ النِّفَاقِ يُظْهِرُونَ الرِّفَاقَ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا الْقُوَّةَ وَالشَّدَّةَ لِلْمُؤْمِنِينَ مَرَّةً وَلِلْكَفَّارِ أُخْرَى أَظْهَرُوا الْمُوَافَقَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ جَمِيعاً. وَلِذَلِكَ قَالَ ذَلِكَ الْمُنَافِقُ: ﴿لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ لِأَنَّهُ لَمَّا رَأَى الْعِزَّةَ وَالشَّدَّةَ لِلْكَافِرِينَ يَوْمَ أَحُدٍ تَوَهَّمُ أَنَّهُمْ يَغْلِبُونَهُمْ أَبَدًا، فَأَظْهَرَ النِّفَاقَ، وَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا لِيُكْذَّبُوا عَنْكُمُ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ:

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْمُنَافِقِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: فِي الْمُؤْمِنِينَ.

فَإِنْ كَانَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أَظْهَرْتُمْ بِلِسَانِكُمْ الْإِيمَانَ ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا لِيُكْذَّبُوا عَنْكُمُ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ وَإِنْ كَانَتْ فِي الْمُؤْمِنِينَ فَكَأَنَّهُ قَالَ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ حَقَّقُوا الْإِيمَانَ ﴿لَا لِيُكْذَّبُوا عَنْكُمُ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾.

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الذِّكْرِ: فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: مَعْنَاهُ الْقُرْآنُ عَلَى مِثَالِ قَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَىكَ رَسُولًا﴾ ﴿رَسُولًا يَتْلُو﴾ [الطلاق: ١٠ و ١١] يَعْنِي قُرْآنًا وَرَسُولًا، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: مَعْنَى الذِّكْرِ التَّوْحِيدُ.

فَإِنْ كَانَ تَأْوِيلُهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتَوَجَّهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ جَمِيعاً.

فَإِنْ كَانَ فِي الْمُنَافِقِينَ فِكَانُهُ قَالَ: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ عَنِ النَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ فِي الْقُرْآنِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَيَّنَّ أُمُورًا، تُظْهِرُ [سَرَائِرَكُمْ وَمَا يَظْهَرُ عِنْدَكُمْ] ^(١) أَنَّ الرِّسُولَ، لَا يَخْتَلِفُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَقُولُهُ بِالْوَحْيِ. فَكَانَهُ يَقُولُ: إِذَا تَأَمَّلْتُمْ النَّظَرَ فِي الْقُرْآنِ حَمَلَكُمْ ذَلِكَ عَلَى التَّحْقِيقِ فِي الْإِيمَانِ، فَلَا يَحْمِلُكُمْ حُبُّ الْمَالِ وَالْوَلَدِ عَلَى تَرْكِ التَّأَمُّلِ فِي الْقُرْآنِ لِأَنَّكُمْ إِذَا نَظَرْتُمْ فِيهِ، وَتَأَمَّلْتُمْ، حَصَلْتُمْ مِنْهُ عَلَى تَحْقِيقِ الْإِيمَانِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأِنْ كَانَ فِي الْمُؤْمِنِينَ فَمَعْنَاهُ ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ عَنِ النَّظَرِ فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّكُمْ إِذَا نَظَرْتُمْ فِيهِ صِرْتُمْ مِنْ أَهْلِهِ، وَجَلَّ قَدْرُكُمْ.

وَأِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الذِّكْرِ التَّوْحِيدَ فَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى النَّاسِ كَأَنَّهُ.

فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَكَانَهُ حَذَرُهُمْ مِنْ حُبِّ الْمَالِ وَالْوَلَدِ أَنْ تَحْمِلَهُمْ غَايَةُ حُبِّهِمَا عَلَى أَنْ يَنْسُوا وَخِدَائِيَّةَ اللَّهِ وَالْإِيمَانَ بِالرُّسُلِ وَالبَغْيِ فَكَانَهُ يَقُولُ: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ كَمَا أَلْهَتْ ^(٢) الْكُفْرَةَ، فَيَحَذَرُهُمْ عَنْ أَنْ يَقَعُوا فِي الْهَلَاكِ مِنْ حُبِّهِمَا ^(٣) كَمَا قَالَ ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُهِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] يَعْنِي اتَّقُوا الَّذِي يُفْضِي بِكُمْ إِلَى النَّارِ الْمُعَذَّةِ لِلْكَافِرِينَ. فَكَذَلِكَ الْأَوَّلُ.

[وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ] ^(٤) فَكَانَهُ قَالَ: لَا يَحْمِلُكُمْ حُبُّ الْمَالِ وَالْوَلَدِ أَنْ تَتْرَكُوا حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدَ لَهُ وَالطَّاعَةَ لِرَسُولِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فَقَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنَ التَّأْوِيلَيْنِ فِي انْكَارِ الْبَغْيِ وَالتَّوْحِيدِ ظَاهِرًا، وَأَنَّ كَانَ فِي الْمُؤْمِنِينَ فَمَعْنَى الْخَسَارِ ^(٥) الْخَوْفُ مِنْ أَنْ يَقَعَ بِهِ الْوَعْدُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فَيَمْنَعُكُمْ ذَلِكَ عَنِ الْإِنْفَاقِ؛ فَإِنَّكُمْ إِذَا امْتَنَعْتُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ إِذَا دَادَ حُبُّكُمْ، فَتَنْسُونَ وَخِدَائِيَّةَ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَةَ رَسُولِهِ ﷺ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَلْتَرْتَنِي إِلَهَ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾

قَالَ بَعْضُهُمْ: تَمَنَّى الرَّجْعَةَ لِمَا رَأَى مِنَ الْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ حِينَ ^(٦) تَرَكَ الْحَقِيقَ.

وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: لَوْ كَانَ ثُمَّ خَيْرٌ لَمْ يَتَمَنَّ الرَّجْعَةَ ^(٧).

وَلَكِنْ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُ يَتَمَنَّى الرَّجُوعَ لِيَتَصَدَّقَ، لَيْسَ الْإِنْفَاقُ خَاصَّةً، وَلَكِنْ لِيَتَصَدَّقَ، وَلِيَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ أَيْ الْمُوَحِّدِينَ. وَذَلِكَ مُسْتَقِيمٌ أَنْ يُعَالَ: إِذَا تَرَكَ التَّوْحِيدَ، فَتَزَلَّ بِهِ الْمَوْتُ فَإِنَّهُ ^(٨) يَتَمَنَّى الرَّجُوعَ لِمَا يَرَى مِنَ الْهَلَاكِ وَالْعُقُوبَةِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى فِي هَذَا إِنْ كَانَتِ الْآيَةُ فِي الْمُؤْمِنِينَ الْمُوَحِّدِينَ أَنَّهُمْ يَتَمَنُّونَ الرَّجُوعَ حَيَاءً مِنْ رَبِّهِمْ لِمَا ارْتَكَبُوا مِنَ الزَّلَّاتِ، وَتَرَكُوا مَا اسْتَوْجَبُوا ^(٩) مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَقَصَّروا فِي مَا قَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْعِبَادَاتِ؛ وَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْ رَبِّهِ إِذَا لَقِيَهِ بِمَا تَرَكَ مِنْ حَقَّقِهِ الَّتِي أَلَزَمَهَا عَلَيْهِ وَالْأَسْبَابِ الْوَاجِبَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ لَيْسَ يَخْتَمِلُ تَأْخِيرُ اللَّهِ تَعَالَى أَجَلَهُ إِذَا جَاءَ، لِأَنَّهُ لَوْ أَخَّرَهُ دَلَّ أَنَّهُ مَدَّلَهُ فِي أَجَلِهِ، وَمَنْ مَدَّلَهُ فِي أَمْرِ فَذَلِكَ دَلِيلُ الْجَهْلِ بِالْعَوَاقِبِ، وَلَا يُوصَفُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ سِرُّكُمْ وَعَلَانِيَتِكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ مَا أَرَادَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: سَرَائِرُهُمْ مَا يَظْهَرُ عَنْهُمْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَلْهَى. (٣) فِي الْأَصْلِ: أَحْبَبَهُ، فِي م: حَبَّهُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَإِنْ كَانَ فِي الْمُنَافِقِينَ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْحَسَاب. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: الْكُفْرَةَ. (٨) الْقَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَسْتَوْجِبُوا.

سورة (١) التخابر

مدنية (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. والتسبيحُ يَحْتَمِلُ أوجهًا ثلاثة، وقد سَبَقَ

ذِكْرُهُ (٣).

وقوله تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ يَحْتَمِلُ وجهين:

[أحدهما] (٤): يَحْتَمِلُ ﴿الْمُلْكُ﴾ الولاية والسلطان.

والثاني: يقول: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ يَغْنِي مُلْكُ كُلِّ الملوِك كما قال في آية أخرى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ الآية [آل عمران: ٢٦] فاخبر أن مُلْكَ الملوِك كُلِّها له، وأن من استغاثَ المُلْكُ فإنما يَسْتَعِيْذُ بالله تعالى ويأمنُناؤه عليه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ يَحْتَمِلُ أوجهًا ثلاثة من التأويل:

أحدها: أن يقول: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ يَغْنِي له الثناء الحسنُ بِصِفَاتِهِ الْعُلَا وبِسمائِهِ الْحُسْنَى.

والوجه الثاني: أن يقول ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ يَغْنِي حَمْدُ كُلِّ مَنْ يَحْمَدُ؛ فَحَقِيقَةُ ذَلِكَ الْحَمْدُ له بما أَحْسَنَ إلى عبادِهِ، وأنعمَ عليهم؛ وذلك مَعْنَى قولِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١ و...]. أي الحمدُ والثناءُ الْحَسَنُ لله تعالى على إِحْسَانِهِ إلينا وإِنْعَامِهِ علينا.

والثالث: أن يجعلَ مَعْنَى الْحَمْدِ مَعْنَى الشُّكْرِ، لأنَّ الْحَمْدَ قد يُسْتَعْمَلُ في مَوْضِعِ الشُّكْرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكونَ مَعْنَى (٥) ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ حُجَّةٌ (٦) على المعتزلة، لأنَّ الله تعالى، لا يزالُ يَمْدَحُ نَفْسَهُ بأنه بصيرٌ عَلِيمٌ، وأنه على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وأقرَّتِ المعتزلةُ بأنه بصيرٌ عَلِيمٌ، وأبَتِ الإقرارَ (٧) بأنه قَدِيرٌ على فِعْلِ العبادِ أو على إِصْلَاحِ أَحَدٍ مِنَ العبادِ، وهذا خلافُ ما مَدَّحَ اللهُ تعالى نَفْسَهُ بِهِ، والله المَوْفَّقُ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كُفْرًا وَتُؤْمِنُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكونَ تأويلُهُ: فَمِنْكُمْ مَنْ يَدِينُ بِدِينِ الْكُفْرِ، وَمِنْكُمْ مَنْ يَدِينُ بِدِينِ الْإِيمَانِ. ودَلَّ هذا على أنَّ الْمَعْصِيَةَ والطاعةَ يَجْتَمِعَانِ في دينٍ واحدٍ، وأنَّ الْمَعْصِيَةَ [لا تُخْرِجُهُ مِنْ دِينِهِ، لأنَّ الْمَعْصِيَةَ] (٨) لم يَرْتَكِبْهَا تَدِينًا بها ولكنْ لِغَلَبَةِ شَهْوَةِ أو غَضَبٍ عليه.

وأما الْكُفْرُ والإيمانُ فإنه يأتي بهما المرَّةُ اختيَارًا، وَيَتَدَيَّنُ / ٥٧٢ - ١ / بِالْكَفْرِ والإيمانِ لِمَا عِنْدَهُ أَنَّهُ حَقٌّ.

وفي هذه الآية دلالة أن ليسَ بَيْنَ الْكُفْرِ والإيمانِ مَنزِلَةٌ ثالثة، وليسَ كما قالَتِ المعتزلة: إنَّ صاحبَ الكِبيرةِ بَيْنَ مَنزِلَتَيْنِ بَيْنَ الْكُفْرِ والإيمانِ، والله تعالى قَسَمَ النَّاسَ نِصْفَيْنِ: فَمِنْهُمْ مَنْ خَلَقَهُ كَافِرًا، وَمِنْهُمْ مَنْ خَلَقَهُ مُؤْمِنًا، ولم يَجْعَلْ في ما بَيْنَهُمَا مَنزِلَةً ثالثة، فلا يَجِبُ أنْ تُجْعَلَ، والله المَوْفَّقُ.

وفيه أيضًا وجهٌ لطيفٌ سيؤي ما ذَكَرْنَا، وهو أنْ كُلَّ واحدٍ في الدنيا مؤمنٌ وكافرٌ في الْحَقِيقَةِ، لأنَّ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا فهو

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر. (٢) أدرج قبلها في الأصل: وهي. (٣) من م، في الأصل: ذكر. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: معناه. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: وهو. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: عن. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

كافر بالطاغوت، ومن كان كافراً بالله فهو مؤمن بالطاغوت. فإذا كان كذلك وجب أن يُبحث عن معنى قوله: ﴿فَنَكِرْ كَافِرٌ وَنَكِرَ مُؤْمِنٌ﴾.

ومعناه عندنا أن الحقيقة، وإن كانت كذلك، فالإيمان إذا دُكر مطلقاً لم يفهم منه [إلا] (١) الإيمان بالله تعالى، والكفر إذا أُطلق أيضاً لم يفهم منه إلا الكفر بالله تعالى. وإذا كان كذلك جاز أن يكون لفظ الكتاب خارجاً على ما عليه المَعهود من المتعارف المعتاد، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَمَلُّونَ بَصِيرٌ﴾ في الأزل بما يَعْمَلُهُ العباد، وإنه ليس كما قال بعض الناس: إنه (٢) لا يَعْلَمُ فعل العبد إلا وقت فعله، واحتجوا في ذلك أنا لو قلنا: إن الله تعالى بصير في الأزل بما يَعْمَلُهُ لكان قولاً بما لا يستقيم في المغقول. ألا ترى أنا لا نرى في الشاهد من بنى بناء، يَعْلَمُ أنه يضره، أو يشتري عبداً، يَعْلَمُ أنه يعاديه؟ فكذا لا يستقيم أن يقال: إن الله خلق عبداً، قد كان يَعْلَمُ من قبل أنه إذا خلقه عاداه.

والجواب عن هذا الذي وصفه غير مستقيم في الشاهد لأن منافع ما يَعْمَلُهُ العباد ومضارهم ترجع إلى أنفسهم، وليس من العقل أن يفعل المرء فعلاً، يَعْلَمُ أنه يضره.

وأما رب العالمين فإنه لا يرجع شيء من المنافع والمضار إليه، فجاز أن يخلق خلقاً، يَعْلَمُ أنه يختار عداوته ليظهر عند الخلق أنه لا يرجع شيء من المنافع والمضار إليه بعد أن يكون في الحكمة ذلك، والله أعلم.

ثم في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَمَلُّونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥ و...]. [وقوله] (٣): ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَمَلُّونَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٨٣ و...]. [وقوله] (٤): ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢ و...]. [وقوله] (٥): ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبا: ٢١ و...]. [الزام المراقبة والتحفيز والتيقظ ويان الترغيب والترهيب، لأنه إذا علم المرء أن عليه في كل ما يَعْمَلُهُ رقيباً (٦) يَتَّقِظُ، ولا (٧) يفعل إلا ما يرضى به ربه، والله المستعان.

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَلْقَى﴾ قد وصفنا أن الحق إذا جرى ذكره، يضرَف في كل شيء إلى [ما] (٨) هو ألقى به، فإذا دُكر في الأخبار أريد [به] (٩) الصدق، وإذا دُكر في الأحكام أريد به العدل، وإذا دُكر في الأقوال أريد به الإصابة.

فلما قال: ﴿يَلْقَى﴾ هنا أراد (١٠) به الحكمة؛ كأنه يقول ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بالحكمة. وقال بعضهم: ﴿يَلْقَى﴾ يغني للحق، وهو البعث، فكانهم عَنوا به أن الله تعالى لم يخلقها عبثاً، بل [خلقها للمعاد] (١١).

وقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكَ فَأَخْسَنَ سُوْرَكَ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يختل هذا وجهين: أحدهما: أحسن أي اتقن، وأحكم، ومعنى ذلك أن الله تعالى خص صور بني آدم في الاستدلال بوحدانيته وربوبيته في أن جعل في أنفسهم حقيقة المعرفة والاستدلال بأنفسهم على وحدانية الله تعالى. وأما غيرهم من الصور فإنما يقع الاستدلال لغيرها بها، ليس لنفس تلك الصور حقيقة المعرفة والاستدلال بوحدانية. ولذلك كان خلق صور بني آدم اتقن وأحكم، والله أعلم.

والثاني: أن يضرَف الحسن إلى حسن المنظر؛ ومعنى ذلك أن الله تعالى خلق بني آدم على صورة، لا بد من أن تكون صورتهُم مثل صورة غيرهم من الخلائق، فثبت أن صورتهُم في المنظر أحسن صورة.

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إن. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: رقيب. (٧) في الأصل وم: ولم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: فكان. (١١) في الأصل وم: خلق للعباد.

فذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَلَيْلِيَ الْمَمِيرُ﴾^(١) يعني البعث. وأضافت ذلك إلى نفسه لأنه هو النهاية والمقصود في خلقهم. ولما لم يفهم أحد من قوله: ﴿وَلَيْلِيَ الْمَمِيرُ﴾ معنى الانتقال والتحول من مكان إلى مكان، من حيث أنه يضاف إلى الله تعالى، لأن هذا فعل يكون باثنين، فإن من صار إلى شيء صار ذلك إليه مثل الملاقاة والإتيان ونحو ذلك، فلما لم يفهم منه الانتقال لم يتنج من قوله ﴿وَجَاءَ رُكُوكُ الْمَلِكِ صَفَا﴾ [الفجر: ٢٢] معنى الانتقال، والله أعلم.

الآية ٤: وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُنْجُونَ﴾ في إخباره عن علمه بذلك كله إيجاب المراقبة والتيقظ والتبصر والمحافظة على ما أمره الله تعالى، ونهاه. وفي هذا إخبار أن الله تعالى مطلع على ما تضيرون مخفٍ عليكم جميع ما تظفرون، فاحذروا أن تتركبوا ما فيه سُخْطُهُ في الحالين جميعاً، والله المستعان.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ قال أهل التفسير: أي بما في الصدور. ويحتمل أن يكون المراد منه بالانفس التي لها الصدور، وكل من كان ذا فِكْرَةٍ وتديرة^(٢) فإنه يُسَمَّى [من]^(٣) ذات الصدور.

ومعناه أن التذبير إنما يصدر عن ذلك الموضح، ويرجع إليه، وكل بني آدم خُصوا بهذا المعنى. فليذلك ذُكر هذا فيهم، والله أعلم.

الآية ٥: وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ فتأويله عندنا، والله أعلم، أي قد أتاكم نبأ الذين كفروا من قبل وما نزل بهم حين كفروا، وعاندوا. ومعنى ذلك أن الله تعالى قد حذرهم بما يكون في الآخرة من ألوان العذاب، فلم يتعظوا لِمَا لم يكونوا يؤمنون بالبعث. فلما لم يتنج فيهم ذلك حذرهم بعقوبات تنزل بهم لو لم ينتهوا عما هم فيه من الطغيان.

وقوله تعالى: ﴿فَذَاقُوا وَاَلْأَمْرَ﴾ [أي شدة أمرهم]^(٤) ويحتمل أن يكون عاقبة أمرهم. وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه إخبار أن ما نزل بهم من العذاب في الدنيا، لم يكفر عنهم ذنب الكفر، وأن عذاب الدنيا إنما كان جزاء شريكهم^(٥) في الكفر، وأنه يُعَذِّبُهُمْ في الآخرة عذاب الكفر والشرك، والله أعلم.

الآية ٦: وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ فكانه يريد بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ أي تلك العقوبات التي نزلت بالأمم الماضية إنما كان سببها أن رسلهم^(٦) كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا وكان قولهم: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ تلقين إبليس حين^(٧) لقنهم مخالفة الرسول وتكذيبه، وأنكم لو اختبئتم إلى طاعته فبيكم من هو أعظم فبيكم من هو أعظم منه درجة وأكبر منزلة.

فإذا لم تطيعوه، فكيف تطيعون بشراً مثلكم؟ وهذا كله عناد وخطأ؛ وذلك أنهم قد كانوا يعبدون الأصنام تقليداً منهم البشر.

الآ ترى إلى قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مَنَاقِبٍ عَلِيَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ مَا كَانُوا يُفَعِّلُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. ومعلوم أن جعل الصنم^(٨) معبوداً بقوله: ﴿أَبَشَرٌ﴾ تقليداً له أكبر وأعظم من تضديق البشر أنه رسول من عند الله عند قيام الدليل المعجز.

فإذا استجازوا تقليد البشر في ذلك، فكيف لا استجازوا تضديق الرسول في ما يدعوهم إلى ترشيد الله وطاعته في ما يرجع إليهم من المنافع والمضار؟ ولكنهم كانوا قوماً سفهاء، فاتبعوا سفههم وعنادهم، والله أعلم.

وكذلك قولهم: ﴿إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتٍ﴾ [المائدة: ١١٠ و...] وكيف يكون سحراً، وقد أتاهم بآيات أعجزتهم، وأعجزت السحرة أن يأتوا بمثلها؟ ولكنهم عاندوا، فلم يجدوا حيلة سوى أن قالوا: ﴿إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتٍ﴾.

(١) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: شرم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا/ ٥٧٢ - ب/ وَذُكِّرُوا﴾ أي كَفَرُوا بالرسول ﴿وَوَلَّوْا﴾ أَعْرَضُوا عَنْ طاعةِ رسوله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ لم يُسَمَّعْ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ، يقول: ﴿وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ على الْإِنْبِدَاءِ إِلَّا مَا ذَكَرَ فِي ظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَةِ.

والقولُ فِي الْإِسْتِغْنَاءِ فِي مَا يُرِيدُ بِهِ الْإِخْبَارَ جَائِزٌ نَحْوُ قَوْلِكَ: اللَّهُ مُسْتَغْنٍ، فَأَمَّا أَنْ تَبْدِيءَ، فتقول: اسْتَغْنَى اللَّهُ فِي مَا فِيهِ شَكٌّ وَرَيْبٌ فَإِنَّهُ (١) لَا يَجُوزُ الْبِدَايَةُ بِهِ.

وقد غَلَطَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ حِينَ (٢) قالوا: اسْتَغْنَى اللَّهُ بِطَاعَةِ مَنْ أَطَاعَهُ عَنْ مَعْصِيَةِ مَنْ عَصَاهُ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَمْتَحِنْ عِبَادَةً بِالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ لِمَنَافِعَ يَأْمُلُهَا، أَوْ مَضَرَّةَ، يَخْشَاهَا، وَيَخَافُهَا، بَلْ هُوَ مُسْتَغْنٍ بِذَاتِهِ عَنْ ذَلِكَ مِنَ الْأَزَلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ويجوزُ أَنْ يَكُونَ فِي هَذَا الْإِضْمَارِ، يَعْنِي: وَاسْتَغْنَى الرَّسُولُ عَنْ طَاعَتِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى، أَوْ يُضَرَّفَ الْإِسْتِغْنَاءُ إِلَى الْإِخْبَارِ عَنْ ذَاتِهِ أَنَّهُ مُسْتَغْنٍ بِذَاتِهِ مِنَ الْأَزَلِ، لَا تَمَسُّهُ حَاجَةٌ، وَأَنَّهُ لَا يَنْصُرُهُ كُفْرُ مَنْ كَفَرَ، وَلَا يَنْقَعُهُ إِيْمَانُ مَنْ آمَنَ، بَلْ إِنَّمَا يَحْصُلُ ذَلِكَ كُلُّهُ لِلْمُمْتَحَنِ بِهِمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴾ قد وَصَفْنَا مَعْنَى الْعَزَّ. وَأَمَّا الْحَمِيدُ فَيَحْتَمِلُ (٣) وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: يَعْنِي الْمَحْمُودَ أَيْ الْمُسْتَحَقَّ لِلْحَمْدِ بِذَاتِهِ؛ إِذْ يَسْتَحِقُّ كُلُّ أَحَدٍ الْحَمْدَ عَلَى مَا يُحْسِنُ (٤).

[وَالثَّانِي] (٥): يَحْتَمِلُ مَعْنَى الْحَمِيدِ مَعْنَى (٦) الْحَامِدِ؛ وَوَجْهٌ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْمَدُ مُحَاسِنَ الْخَلْقِ وَأَثَارَ أَعْمَالِهِمْ، وَأَنَّ حَقِيقَةَ تِلْكَ الْأَعْمَالِ مِنْ جِهَةِ التَّوْفِيقِ وَالتَّشْدِيدِ إِنَّمَا كَانَتْ بِهِ، وَذَلِكَ غَايَةُ [الكرم] (٧).

وقوله تعالى: ﴿زَمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْمَرُ قَلْبُ بَلَى وَرَبِّي لَلْبَعَثِ﴾ قوله: ﴿بَلَى وَرَبِّي﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا تَعْلِيماً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَعْلَمَهُ الْقَسَمُ تَأْكِيداً لِمَا كَانَ يُخْبِرُ عَنِ الْبَعْثِ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ مَا ذَكَرَ مِنَ الْقَسَمِ فِي الْقُرْآنِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، لِأَنَّ الْقَسَمَ إِنَّمَا يَكُونُ لِنَفْيِ تَهْمَةٍ تَمَكَّنَتْ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَتَّهَمُ فِي خَبَرِهِ، وَالرَّسُولُ، هُوَ الَّذِي كَانُوا يَتَّهَمُونَهُ (٨) فِي مَا يُخْبِرُ لِمَا لَمْ تَثْبُتْ عِنْدَهُمْ رِسَالَتُهُ لِعَدَمِ تَأْمُلِهِمْ فِي دَلَالَتِهِ. فَعَلِمَهُ الْقَسَمُ تَأْكِيداً لِمَا يُخْبِرُ، وَنَفْياً لِلتَّهْمَةِ عَمَّا يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[وَالثَّانِي: أَنَّهُ] (٩) يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا قَسَماً مُقَابِلاً لِمَا أَقْسَمَ بِهِ الْكُفَرَةُ فِي أَمْرِ الْبَعْثِ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٢٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ أَمْرَ الْبَعْثِ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ هَيِّنٌ، لِأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ بَعْدَ مَا صَارُوا ثُرَاباً، وَأُخْبِرَ أَنَّ بَعْثَهُمْ وَإِعَادَتَهُمْ بَعْدَ أَنْ صَارُوا ثُرَاباً، فَأَخْبِرَ، جَلٌّ، وَعَلَا، أَنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: مِنَ التَّأْوِيلِ: أَنْ يَذْكَرَ مَا عَمِلُوا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَأَخْصَى (١٠) عَلَيْهِمْ كُلَّ سِرٍّ وَعَلَانِيَةٍ وَكُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ لِيُعَايِنُوا ذَلِكَ فِي كُتُبِهِمْ، وَيَتَعَلَّمُوا تَحْقِيقَهَا ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا صِلَةً مَا تَقَدَّمَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ مَا نَزَلَ مِنَ الْعُقُوبَةِ بِالْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا نَزَلَ بِهِمْ لِكُفْرِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ، فَأَمِنُوا أَنْتُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لِثَلَاثٍ يَنْزِلُ بِكُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْبَاسِ وَالْعُقُوبَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم. حَيْثُ. (٣) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) أُدْرِجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم. إِلَيْهِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم. أَوْ. (٦) أُدْرِجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم. عَلَى. (٧) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) أُدْرِجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ: لَا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم. وَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم. وَأَحْصَا.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النور هو^(١)] القرآن، ويجوز أن يكون سماء نوراً لأنه يُبَصَّرُ [يو^(٢)] حقيقة المذهب في الطاعة والمعصية والإحسان والإساءة والإيمان والكفر كما يُبَصَّرُ بنور النهار حقيقة الأشياء من جودها وزودها، كذلك يُبَصَّرُ بهذا منافع الطاعة ومضار المعصية، فسماء^(٣) نوراً من هذا الوجه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَمْلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي إن الله خير بما تُسِرُّون وما تُعلنون، فراقبوه، وحافظوه في الحالين جميعاً. وفي هذا بيان أن الله تعالى عالم بما يعملُّه العباد من الأزل وبما يكون منهم، وأنه ليس كما وصفه بعض الجهال، والله المستعان.

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ رَبُّكَ لِلْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُرِ﴾ [ذلك اليوم^(٤)] في الحقيقة يومُ جمع وتفريق^(٥)، وهو أيضاً في الحقيقة يومُ تغابن وترايح، وإن ذكر أحدهما: [دليل^(٦)] ذلك ما ذكر في غيرها من الآيات. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾؟ [الشورى: ٧] وإلى ما ذكر في عقيب قوله ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُرِ﴾ [وهو^(٧)] قوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمَلْ سَالِحًا لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَلَنُعْطِيَهُ جَنَّاتٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهذا هو معنى الترايح، ولكنه، جل ثناؤه، يجوز أنه اكتفى بذكر أحدهما عن الآخر. ثم الغبن يُذكر في التجارات.

والأصل في ذلك عندنا أن كل سليم طبعه، لا يخلو من عمل، وعمله لا يخلو من إحدى ثلاثة أوجه: إما أن يكون في مباح [واما^(٨)] أمر [واما^(٩)] نهي.

ومعلوم أن من استعمل المباح فهو يستعين به في إقامة الأمر؛ إذ لا بُدَّ من البقاء لإقامة الأمر، وذلك باستعمال المباح والاشتغال بأسبابه، فكانه في إقامة ذلك الأمر، فحقيقته ترجع إلى [أن^(١٠)] الأعمال في الحقيقة تنصرف إلى نوعين: إلى أمر ونهي.

ومعلوم أن من كان في أمر فهو تارك لما نهي عنه، ومن كان في نهي فهو تارك لما أمر به. والتجارة في الحقيقة هي أن [يؤخذ شيء^(١١)] يترك شيء آخر. وإذا تحقق معنى التجارة في أعمال بني آدم أطلق لها لفظ التجارة.

قال: والدنيا لها ثلاثة أسماء: المتجر، والمزرع، والمسلك. وقد وصفنا معنى التجارة. وأما معنى المزرع فلاجل أن كل من يعمل في الدنيا فإنما يعمل لعاقبة، ولا بُدَّ أن تكون عاقبته خيراً أو شراً؛ فكل من كانت عاقبته الخير فهو زارع للخير، ومن كانت عاقبته الشر فهو زارع للشر^(١٢)، والله أعلم.

وأما معنى المسلك والطريق فلاجل أن الخلق لم يخلقوا في هذه الدنيا ليقرؤ فيها، وإنما خلِقوا لأحد أمرين: إما للثواب [واما^(١٣)] للعقاب؛ فكل من عمل عملاً، يفضي به إلى الثواب والجنة [فكانه يسلك طريق الجنة^(١٤)] وكل من عمل عملاً يفضي به إلى النار فكانه يسلك طريق النار، ولذلك سُميت^(١٥) مسلكاً وطريقاً، والله أعلم.

ثم التغابن عندنا يجوز أن يكون مغناه أن أهل الكفر يُغْتَبُونَ في أهلهم وأموالهم في الآخرة، لأنهم كانوا يتعاونون بهم في الدنيا، فحسبوا أنهم يكونون كذلك في الآخرة. فإذا لم يجدوا، وصار^(١٦) بعضهم يلعن بعضاً، غبنوا ما كانوا يأملون منهم.

وقال بعضهم: إن لكل كافر في الجنة قصرًا وبيتًا وأهلاً، فإذا صاروا إلى النار ورث المؤمن أهلَه وقصره الذي كان له في الجنة، فهذا هو التغابن.

(١) من م، في الأصل: التوراة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فسمى. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: والفريق. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: من. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: ياخذ شيئاً. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: أو. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم: سمي. (١٦) في الأصل وم: وصاروا.

ولكن هذا غير صحيح عندنا لأنه لا يتحمل أن ينهي الله تعالى للكافر في الجنة بيتاً مع عليمه أنه لا يأتيه، لأن هذا فعل من لا يعلم العواقب ومن هو عابث في فعله، جل الله تعالى عن مثل هذا الوصف، إلا أن يُحمل على الوعيد إن ثبت الخبر، أي إن أسلم الكافر كان له ذلك المنزل في الجنة. وإن ارتد المسلم عن الإسلام كان له ذلك المنزل في النار، وهو عالم أن عاقبة أمره إزاء^(١) الكفر أو الإسلام وأن مأواه النار أو الجنة، وحكمه على ما علم، وأراد.

ولكن الله تعالى عالم بما كان وما يكون وبما لا يكون: أي لو كان، أي لو كان كيف يكون، فآخبر على ذلك، وإلا لم يصح لما ذكرنا من المعنى، والله الموفق.

ويتحمل أنه إنما سماء يوم التغابن لأن الدنيا جعلت أسواقاً، والأحوال التي تكون لهم رؤوس الأموال، والأعمال التي يعملون فيها، ويكتسبون، وتجارة، قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَخْرَجٍ تُجَرِّبُونَ عَلَيْهِمُ الْآيَاتِ﴾ [الصف: ١٠] ثم قال: ﴿تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَاسْلُبْهُ وَيُجْهِدَنَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [الصف: ١١] وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمُ﴾ الآية [التوبة: ١١١] وقال [في موضعين آخرين]^(٢): ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٦ و ١٧٥] وقال [في آية أخرى]^(٣): ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٨٦].

فلذا كانت الدنيا متجربة، والآخرة هي التي تُقسَّم فيها الأرباح، ففي^(٤) ذلك يقع الربح / ٥٧٣ - / [والخسران، ويظهر الغنى والفضل والثقلان والزيادة، والله أعلم.

وسماء يوم التغابن لما يظهر لهم في ذلك أنهم خسروا، أو ربحوا، فلا يظهر لهم ذلك في الدنيا، ثم بين العمل الذي يُرتج^(٥) عليه والعمل الذي يُخسر به والتجارة التي يوصل بها إلى الأرباح والتي يلحق بها الخسران، وهو ما قال: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمَلْ سَلَامًا يَكُنْ مِنْ عِندِ اللَّهِ فِي دَرَجَاتٍ جَدَّتْ تَحْتِهَا مِنَ الْآفَاقِ﴾ الآية، وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الآية [المائدة: ١٠ و... والتغابن: ١٠].

وقوله تعالى: تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمَلْ سَلَامًا﴾ يعني ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [على ما جاء في^(٦)] به الرسل وأن له الخلق والأمر، ويؤمن بالرسول والبعث، فذلك هو الإيمان بالله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَعَمَلْ سَلَامًا﴾ يعني ويعمل في إيمانه صالحاً إلى أن يموت^(٧).

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الآية؛ يعني كفروا بوحداية الله تعالى وبقدرته، وكذبوا بآياته أي بحججه، أو كذبوا بالبعث ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني بأمر الله، وهو قول الحسن. وقال بعضهم: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني بعلم الله. وقال بعضهم: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني بمشيئة الله. ولكل من ذلك وجه. فأمّا من قال: بأمر الله، فمعناه وحجته أن هذه المصائب كلها عقوبات. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؟ [الشورى: ٣٠].

ومعلوم أن جزاء ما كسبت يده عقوبة له؛ والتعذيب والعقوبة إنما يكون بأمر الله، فلذلك قال: معنى قوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بأمر الله.

ولكن عندنا هذا يرجع إلى ما يصيبهم من أيدي الخلق كقوله تعالى: ﴿فَتَلَوَّمَتْهُمُ يَدُ اللَّهِ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ٥٢] ونحو ذلك، وهذه المصائب لا تتحمل الأمر من الله تعالى.

ومن قال: بعلم الله فوجه ذلك أن هذه المصائب فيها إهلاك العبيد، وفي الشاهد أنه لا يجب أحد أن يعلم بما فيه

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بماذا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وفي. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: ويعمل صالحاً وت. (٧) من م، في الأصل: يكون.

هَلَاكُ عِبِيدِهِ وَخَدَمِهِ، فَأَخْبَرَ ﷻ أَنَّ هَذِهِ الْمَصَائِبَ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا ^(١) هَلَاكُ عِبِيدِهِ، فَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِعِلْمِهِ، وَأَنْ هَلَاكَهُمْ، لَا يَضُرُّهُ، وَلَا يُنْقِصُ مُلْكُهُ، لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ أَنشَأَ مَا أَنشَأَ مِنَ الْخَلَائِقِ لِحَاجَةٍ لَهُمْ وَلِيَمْتَنِعُوا تَرْجِعَ إِلَيْهِمْ وَمَضَرَّةٌ تُلْحَقُهُمْ. فَحُلُولُ مَا يَحُلُّ بِهِمْ مِنَ الْمَصَائِبِ لَا يَضُرُّهُ، وَلَا يَنْقُصُهُ، لِذَلِكَ كَانَ مَا ذَكَرَ.

وَمَنْ قَالَ: بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ فَوَجَّهَ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ، وَأَوْعَدَ، وَلَا مَحَالَةَ، يَرِيدُ مِنْ عِبِيدِهِ مَا يَكُونُ بِوَعِيدِهِ عَادِلًا، وَأَنْ يَضَعَ وَغَدَهُ مَوْضِعَهُ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ ثَبَتَ أَنَّهُ يَرِيدُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ يَكُونُ مِنْهُ، لِأَنَّهُ إِذَا خَلَقَ النَّارَ، وَأَوْعَدَ عَلَيْهَا، فَلَوْ أَرَادَ مِنْ كُلِّ مِنْهُمْ الطَّاعَةَ لَكَانَ إِذَا أَحْرَقَ بِالنَّارِ أَحْرَقَ مَنْ أَرَادَ مِنْهُ الطَّاعَةَ، فَدَخَلَ فِي حَدِّ الْجَوْرِ، وَلَوْ كَانَ يَرِيدُ مِنْ كُلِّ مِنْهُمْ الْمَعْصِيَةَ لَكَانَ إِذَا أَنْجَزَ وَغَدَهُ، وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، كَانَ يَضَعُ ثَوَابَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَيَخْرُجُ عَنْ حَدِّ الْحِكْمَةِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ ثَبَتَ أَنَّهُ أَرَادَ مِنْ كُلِّ مَا عَلِمَ أَنَّهُ يَخْتَارُهُ، وَيَكُونُ مِنْهُ، لِيَخْرُجَ فِعْلُهُ عَنِ الْحِكْمَةِ، وَاللَّهُ الْمَوْفُقُ.

وَنَحْنُ نَقُولُ: قَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْإِذْنَ فِي مَوَاضِعَ مُخْتَلِفَةٍ، وَلِكُلِّ مِنْ ذَلِكَ وَجْهٌ غَيْرُ وَجْهِ صَاحِبِهِ، فَالْوَاجِبُ أَنْ يَضَرَفَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ إِلَى مَا يَلِيقُ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [يُخْتَمِلُ وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: مَا] ^(٢) قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَيُّ مَنْ آمَنَ بِمَا شَاهَدَ مِنَ التَّذْيِيرِ يَهْدِيهِ اللَّهُ تَعَالَى لِيَعْلَمَ أَنَّ مَنْ دَبَّرَ هَذَا التَّذْيِيرَ هُوَ الَّذِي ابْتَلَاهُ بِهَذِهِ الْمَصِيبَةِ.

[وَالثَّانِي] ^(٣): يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُهُ عَلَى وَجْهِ آخَرَ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ أَنْ لَهُ الْخَلْقَ وَالْأَمْرَ يَهْدِي قَلْبَهُ لِيَسْكُنَ، وَيَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِهِ، فَيَسْتَرْجِعُ عِنْدَ ذَلِكَ. وَذَلِكَ تَأْوِيلُ مَنْ قَرَأَ: يَهْدِي قَلْبَهُ ^(٤)، أَيُّ يَسْكُنُ، مِنَ الْهَدْيِ، وَهُوَ السُّكُونُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالثَّالِثُ ^(٥): يَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ^(٦) الْهَدَايَةِ، وَإِنْ خَرَجَتْ عَلَى لَفْظِ الْإِحْدَاثِ [فَلَيْسَ عَلَى الْإِحْدَاثِ] ^(٧) وَلَكِنْ مَعْنَاهُ: أَنْ إِيْمَانَهُ [بِاللَّهِ تَعَالَى] إِنَّمَا كَانَ بِهَدَايَةِ مَنْ، لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْإِيْمَانُ ^(٨) مُتَقَدِّمًا وَالْهَدَايَةُ مُتَأَخِّرَةً. وَلَكِنْ حِينَ هَذَا آمَنَ بِمَا هَدَاهُ، وَهَذَا عَلَى مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فَهَذَا خَرَجَ فِي الظَّاهِرِ عَلَى لَفْظِ [الْهَدَايَةِ] ^(٩) وَلَكِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُمْ لَمَّا آمَنُوا أَخْرَجَهُم بِالْإِيْمَانِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بَعْدَ الْإِيْمَانِ، فَكَذَلِكَ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[وَالرَّابِعُ] ^(١٠): يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَهْدِي قَلْبَهُ، أَيُّ يَتَوَبُّ عَلَيْهِ مِنَ الزَّلَّاتِ عِنْدَ الْمَوْتِ عَلَى مَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَتَوَبُّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الاحزاب: ٧٣].

وَقِيلَ: فِيهِ لُغَاتُ أَرْبَعَةٍ: يَنْضَبُ الْبَاءُ وَالْبَاءُ جَمِيعًا: ﴿يَهْدِي قَلْبَهُ﴾ بِرَفْعِ الْبَاءِ وَالْبَاءِ، وَيَهْدِي قَلْبَهُ، أَيُّ يَهْتَدِي، وَيَهْدِي قَلْبَهُ مِنَ السُّكُونِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ الْأَصْلُ فِي الْأَسْمَاءِ الْمُشْتَرَكَةِ إِذَا أَضِيفَ شَيْءٌ مِنْهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَحَقُّ التَّخْصِصِ فِي الْإِضَافَةِ إِلَيْهِ أَنْ يُضَافَ بِحَقِّ الْكُلِّيَّاتِ لِيَكُونَ قَرَفًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَقَالُ: ﴿وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ وَيَقَالُ فِي الْخَلْقِ: فَلَاَنْ عَلِيمٌ بِكَذَا عَلَى الْخُصُوصِ، وَلِيُعْلَمَ أَنَّ الْعَبِيدَ إِنَّمَا يَعْلَمُونَ بِعِلْمِهِ. وَكَذَلِكَ ^(١١) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التَّغَايِبِ: ١].

وَهَذَا عَلَى الْمَعْتَزِلَةِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَيْسَ بِقَدِيرٍ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، فَكَانَهُمْ أَشْرَكُوا فِي اسْمِ الْقُدْرَةِ غَيْرَهُ لِأَنَّهُ لَا أَحَدَ مِنَ الْخَلْقِ إِلَّا وَلَهُ جُزْءٌ مِنَ الْقُدْرَةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهِ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٤) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنَةِ ج ٧ / ١٦١. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالثَّانِي. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: هَذِهِ. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١١) أُدْرِجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: هَذَا.

فلو قلنا: إن الله تعالى يَقْدِرُ على بعض، ولا يَقْدِرُ على بعض، لَسَوَّيْنَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، وَشَبَّهْنَاهُ بِهِمْ، وَجَلَّ اللهُ عَنْ يَثَلِ هَذَا الْوَصْفِ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ يعني أطيعوا الله في ما تَعَبَّدُكُمْ، وأطيعوا الرسول في ما أَخْبَرَ عَنْهُ، أو أطيعوا الله في ما أَمَرَكُمْ، وأطيعوا الرسول في ما دَعَاكُمْ إِلَيْهِ، وهذا كُلُّهُ واحدٌ إِلَّا التَّعَبُّدَ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُضَافَ إِلَى الرَّسُولِ، وما سِوَاهُ مِنَ الْأَمْرِ وَالِدَعَاءِ وَالْإِخْبَارِ فَهُوَ جَائِزٌ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ ﷺ وإلى الرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَلَّيْتُمْ﴾ يعني تَوَلَّيْتُمْ عَنْ إجابة الرسول إلى ما دَعَاكُمْ إِلَيْهِ وَعَنْ طَاعَتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَلَنَ رَسُولُنَا الْبَلْعُ الْمَيِّنُ﴾ فيه بَيَانٌ أَنَّ تَوَلَّيْتُمْ عَنْ إجابَتِكُمْ وَكُفْرَتُمْ بِهِ لَا يُوجِبُ تَفْصِيْرًا فِي

التَّبْلِيغِ.

الآية ١٣

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يجوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا صِلَةً مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [التَّحَابِثِ: ١] وقَوْلِهِ تعالى: ﴿بَصِيرٌ﴾ [الآية: ٢] وقَوْلِهِ تعالى: ﴿رَبُّكُمْ مَا تُدْرِكُونَ وَمَا تُحِيطُونَ﴾ [الآية: ٤].

ثم قوله تعالى: ﴿اللَّهُ﴾ الذي لَهُ الْأَوْصَافُ الَّتِي تَقَدَّمَتْ هُوَ الَّذِي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَي لَا مَعْبُودَ إِلَّا هُوَ، وَأَنْ مَعْبُودُهُمْ لَيْسَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْبُودًا لِتَعْرِيفِهِ عَنْ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّ اللَّهُ فَلَئِنْ تَوَلَّيْتُمْ لَأُزِيدَنَّ الْكُفْرَ وَالشُّرْكَ﴾ فيه بَيَانٌ أَنَّ مُعْتَمِدَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اللَّهِ تعالى، وَإِنْ قُلْتُ أَعْوَانُهُمْ وَأَنْصَارُهُمْ، وَأَنْهُمْ لَيْسُوا كَالْمُتَافِقِينَ وَالْكَفَرَةَ حِينَ تَرَكُوا اتِّبَاعَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا رَأَوْا مِنْ قِلَّةِ الْإِتِّبَاعِ وَالْأَعْوَانِ لَهُمْ.

وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِخِلَافِ تِلْكَ الصِّفَةِ، وَأَنْ يَقْتَتِلَهُمْ وَاعْتِمَادَهُمْ عَلَى اللَّهِ تعالى [لَيْسَ عَلَى] كَثْرَةِ الْأَنْصَارِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٤

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ آلَ لَيْكٍ مِمَّنْ أَرْزَأْتُمْ وَأَرْزَأْتُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَامْحَرُوهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى تَحْقِيقِ الْعَدَاوَةِ [وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى فِعْلِ الْعَدَاوَةِ. فَإِنْ كَانَ عَلَى تَحْقِيقِ الْعَدَاوَةِ] ^(٥) فَهُوَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: عَدَاوَةٌ ظَاهِرَةٌ، وَهِيَ عَدَاوَةُ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ يُسَلِّمُ الرَّجُلُ، وَيَنْقَى وَلَدُهُ وَزَوْجَتُهُ عَلَى الْكُفْرِ، فَعَلَّمَهُمُ اللَّهُ تعالى صُحْبَةَ الْأَوْلَادِ وَالزَّوْجَاتِ أَنَّهُمْ ^(٦) إِذَا دَعَوْكُمْ إِلَى الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ فَاحْذَرُوهُمْ أَنْ تُطِيعُوهُمْ ﴿وَإِنْ تَعَفَّوْا﴾ عَنْ عُقُوبَتِهِمْ عَلَى مَا دَعَوْكُمْ إِلَيْهِ ﴿وَتَغْفِرُوا﴾ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

ثم ذَكَرَ اللهُ ﷻ فِي صُحْبَةِ الْأَوْلَادِ وَالزَّوْجَاتِ، إِذَا كَانُوا كُفَّارًا، الْعَفْوَ وَالصَّفْحَ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ فِي الْوَالِدَيْنِ / ٥٧٣ - ب / الْمُشْرِكِينَ، وَلَكِنَّهُ أَمَرَهُ أَنْ يُصَاحِبَهُمَا ﴿فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [القمان: ١٥].

فَوَجَّهَ ذَلِكَ عِنْدَنَا، وَاللهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُ يُجْرِي سُلْطَانَهُ وَعَلَبَتَهُ وَقَهْرَهُ عَلَى زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ.

فَأَمَرَهُ هَهُنَا بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ، وَأَمَّا فِي الْوَالِدَيْنِ فَلَيْسَ يُجْرِي لَهُ عَلَيْهِمَا السُّلْطَانُ وَالْقَهْرُ وَالْعَلَبَةُ، فَلَا مَعْنَى لِلْأَمْرِ بِالْعَفْوِ عَنْهُمَا، لَكِنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُصَاحِبَهُمَا ﴿فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ وَلَا يُطِيعُهُمَا فِي مَا أَمَرَهُ مِنَ الْمُتَكَبَّرِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

[وَالثَّانِي:] ^(٧) يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْعَدَاوَةُ عَدَاوَةً مُسْتَوْرَةً، وَهِيَ عَدَاوَةُ النِّفَاقِ، فَكَانَهُ قَالَ: ﴿لِمَنْ مِنْ أَرْزَأْتُمْ وَأَرْزَأْتُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿وَإِنْ تَعَفَّوْا﴾ عَنْ جَنَائِبِهِمْ، وَلَمْ تُؤْذَوْهُمْ عَلَيْهَا ﴿وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا﴾ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أَلَا تَرَى إِلَى مَا حَدَّرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ مَعَ أَنَّهُمْ مِنَ الضَّعِيفِ وَالْفَسَلِ كَمَا أَخْبَرَ ﷻ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ

(١) فِي الْأَصْلِ رَمَ: وَهِيَ (٢) فِي الْأَصْلِ رَمَ: قَالَ. (٢) فِي الْأَصْلِ رَمَ: حَيْثُ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَ. (٦) فِي الْأَصْلِ رَمَ: أَنَّهُ. (٧) فِي الْأَصْلِ رَمَ: وَ.

سَيَمُوتُ عَلَيْهِمْ هَرُّ الْمَدُونِ فَالْمَدُونُ قَالَتْ لَهُمْ؟ [المنافقون: ٤] فكَذَلِكَ الْأَزْوَاجُ وَالْأَوْلَادُ، وَإِنْ كَانُوا تَحْتَ قَهْرِهِ وَعَلَبَتِيهِ، أَمَرَهُ بِالْحَذَرِ مِنْهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى فِعْلِ الْعَدَاوَةِ، لَيْسَ أَنَّهُمْ أَعْدَاءُ فِي الْحَقِيقَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ فِي الْمُتَعَارَفِ وَالْمُعْتَادِ يَذْهَبُونَ إِلَى الْبُخْلِ وَالْمَنِّعِ عَنِ الْإِنْفَاقِ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَيَشْتَدُّ عَلَيْهِمْ صُنْعُ أَبِيهِمْ مِنَ الْإِحْسَانِ وَالْبِرِّ فِي حَقِّ النَّاسِ، وَيَكْرَهُونَ ذَلِكَ [وهذا] ^(١) فِي الظَّاهِرِ فِعْلُ الْعَدَاوَةِ ^(٢)، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَّمَ صُحْبَةَ هَؤُلَاءِ أَنْ «يَنْزِيحَكُمْ وَأُولَدَكُمْ» مَنْ يُظْهِرُ فِعْلَ الْعَدَاوَةِ «فَالْمَدُونُ» أَنْ يَمْتَنِعُوا عَنْ وُجُوهِ الْإِحْسَانِ وَالتَّبَرُّعِ بِقَوْلِهِمْ «وَلَا تَقْفُوا» عَنْ صَنِيعِهِمْ بِكُمْ «وَتَقْفُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

الآية ١٥ وقوله تعالى: «إِنَّمَا أَمْرُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَةٌ» الْمَفْتُونُ، هُوَ الْمَوْلَعُ بِالشَّيْءِ الْعَاشِقُ لَهُ، فَكَانَهُ قَالَ: إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ مَغْشُوقُكُمْ، فَلَا يَحْمِلُكُمْ حُبُّهُمْ عَلَى أَنْ تَتْرَكُوا ابْتِغَاءَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَخْلُقِ الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ لَكُمْ مَجَانًا، بَلْ إِنَّمَا خَلَقَهُمْ لِيَتَّبِعُكُمْ، وَيَمْتَحِنَكُمْ أَنْ كَيْفَ تُعَابِلُونَ اللَّهَ تَعَالَى فِي مَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَنَهَاكُمْ عَنْ حُبِّهِمْ.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ «عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» لِيَتَحَمَّلُوا الْمَوْتَةَ الْعَظِيمَةَ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ عِنْدَ حُبِّهِمْ الْأَوْلَادَ وَالْأَمْوَالَ. وَهَذَا مَعْنَى مَا قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ كَانُوا يَتَعَلَّقُونَ بِهِمْ، وَيَقُولُونَ: نُشِيدُكَ بِاللَّهِ الْآلِ ^(٣) تَذَرْنَا، وَتَضَيِّعْنَا إِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ.

وَالْأَشْبَهُ الْآلَ يَكُونُ هَذَا، لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ، وَأَفْعَالُهُمْ هَذِهِ إِنَّمَا كَانَتْ بِمَكَّةَ إِلَّا أَنْ يَكُونُوا كَتَبُوا إِلَيْهِمْ بِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٦ وقوله تعالى: «فَالْتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» قَالَ بَعْضُهُمْ: نَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَوْلَهُ تَعَالَى: «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتُلِهِ» [آل عمران: ١٠٢] حِينَ ^(٤) أَمَرَ هَهُنَا بِالِاتِّقَاءِ عَلَى قَدْرِ الْإِسْطَاعَةِ، وَتَمَّ بِخِلَافِهِ.

وَلَكِنْ هَذَا لَا يَسْتَقِيمُ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتُلِهِ» لَا يُرَادُ بِهِ الْإِتْقَاءُ فِي مَا لَا يَسْتَطِيعُونَ لَا قَوْقُ الطَّاقَةِ وَالِاسْطِطَاعَةِ. لَكِنَّهُ إِنْ كَانَ [فَوَجْهُهُ أَنْ] ^(٥) «فَالْتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتُلِهِ» وَإِنْ هَلَكْتَ فِيهِ طَاقَتُكُمْ، لِأَنَّهُ أَمَرَهُمْ بِتَقْوَى، تَهْلِكُ بِهَا ^(٦) طَاقَتُهُمْ عَلَى مَا قَالَ: «وَلَوْ أَنَّ كُتِبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ» [النساء: ٦٦] وَلَوْ كَتَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ جَازًا، وَلَكِنَّهُ [أَمْرٌ أَنْ] ^(٧) تَهْلِكُ طَاقَتُهُمْ فِيهِ. فَكَذَلِكَ الْأَوَّلُ. ثُمَّ قَالَ: «فَالْتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» تَخْفِيفًا عَلَيْهِمْ وَتَبْسِيرًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَلَكِنْ الْكَلَامُ فِي أَنْ كَيْفَ قَالَ: «فَالْتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» وَلَمْ يَكُنْ يَتَقَى لَوْلَا هَذِهِ الْآيَةُ إِلَّا مَا يُسْتَطَاعُ ^(٨).

وَلَكِنْ مَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، عَلَى جِهَةِ الْبِشَارَةِ أَنْكُمْ إِذَا قَصَدْتُمْ قَصْدَ التَّقْوَى آتَاكُمْ اللَّهُ الْإِسْطَاعَةَ فِي تَقْوَاهُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا» [العنكبوت: ٦٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَالَّذِينَ أَقْبَلُوا الْقُرْآنَ» «وَمَدَدَ يَدَهُمْ» «فَسَيَرْزُقُهُمْ» [الليل: ٥ و ٦ و ٧].

وهذه الآية على المعتزلة، لأنهم يقولون: إِنَّ الْإِسْطَاعَةَ تَتَقَدَّمُ الْفِعْلَ، وَهِيَ تَزُولُ عَنِ الْفَاعِلِ، وَتَتَقَدَّمُ عَلَى الْفِعْلِ. وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ يَجْعَلُ قَوْلَهُ: «فَالْتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» اسْطِطَاعَةً، زَالَتْ عَنْهُمْ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ، جَلَّ ثَنَاهُ: «فَمَنْعَا يَتَّقُوا» [الأعراف: ١٤٥] وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ» [البقرة: ٦٣ و...]. زَالَتْ عَنْهُمْ. وَهَذَا ^(٩) مُسْتَحِيلٌ.

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فوجهان. (٥) في الأصل وم: به. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: استطننا. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم.

والذي يُؤَيِّدُ قَوْلَنَا قَوْلَهُ، جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿مَنْ لَوْ يَسْتَطِيعُ فَلِطَعَامٍ سِتِينَ سِتِينَ﴾ [المجادلة: ٤] والحاجة إلى هذه الاستطاعة تَقَعُ عند أداءِ البَدَلِ عن الأصل.

فَمَا قِيلَ ذَلِكَ، إِنْ كَانَ مُسْتَطِيعاً أَوْ غَيْرَ مُسْتَطِيعٍ، فهو سَوَاءٌ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ أي^(١) اسْمَعُوا إِلَى مَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَرَسُولُهُ، وَ(٢) قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا﴾ بِمَعْنَى أَجِيبُوا لِمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَإِلَى مَا دَعَاكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ لِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ﴾ [أبو داود ١١٨٠] أي أَجَابَهُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي وَأَنِفِقُوا مِمَّا رَزَقْتُمْ [يَكُنْ] (٤) خَيْرًا لَكُمْ مِنْ أَنْ تُدْعَوْا لِلْإِجَابَةِ لِمَا أَمَرَكُمُ، وَالْإِنْفَاقُ مِمَّا رَزَقَكُمُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: أَيِ وَمَنْ يُوقِ ظُلْمَ نَفْسِهِ، وَالشُّحُّ: الظُّلْمُ؛ أَضَافَ الْوِقَايَةَ إِلَى نَفْسِهِ لِيُعْلَمَ أَنَّ مَنِ اتَّقَاهُ فَإِنَّمَا اتَّقَاهُ بِمَا وَقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِظُلْمِهِ وَكَرَمِهِ.

أَلَا تَرَى إِلَى [قَوْلِهِ تَعَالَى] (٥): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَتْلُكُمُ نَارًا؟﴾ [التحریم: ٦] كَيْفَ عَلَّمَهُمْ ذَلِكَ التَّقْوَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١ و...]. لِيُعْلَمَ أَنَّ جَمِيعَ أَعْمَالِ الْعِبَادِ إِنَّمَا تَقُومُ، وَتَصِحُّ بِتَذْوِيرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَرْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ وَتَقْدِيرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ فَأَوَّلُ ذَلِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ فِيهِ أَوْجُهُ مِنَ الدَّلَالَةِ:

أَحَدُهَا: أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ لَمْ يَبَيِّنْ فَاعِلَهُ، فَفِيهِ بَيَانٌ أَنَّ فِي سُلْطَانِ اللَّهِ وَمُلْكِهِ مَا يَبْقَى بِهِ شُحُّ عَبْدِهِ، وَأَنَّهُ إِذَا وَقَاهُ شُحَّ نَفْسِهِ أَفْلَحَ. وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَصْرَفْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] إِخْبَارٌ أَنَّ مَنْ يَنْصُرُهُ اللَّهُ فَلَا يُغْلَبُ.

وَقَدْ يُرَى فِي الشَّاهِدِ مَنْ لَا يُوقِي شُحَّ نَفْسِهِ الْبَيْتَةَ، وَمَنْ قَدْ يُوقِي شُحَّ نَفْسِهِ، وَلَا يُفْلِحُ، وَيُرَى مَنْ يُجَاهِدُ أَعْدَاءَهُ، فَيُغْلَبُ مَعَ مَا وَعَدَهُ، وَأَخْبَرَهُ (٦) أَنَّهُ هُوَ الْغَالِبُ وَأَنَّهُ لَا يُغْلَبُ؛ فَلَا بُدَّ [فِي] (٧) ذَلِكَ مِنْ أَحَدٍ وَجُوهٍ (٨):

إِمَّا أَنْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ تَعَالَى النُّصْرَةُ فِي مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ كَمَا ادَّعَى فَهُوَ كَاذِبٌ فِي مَا ادَّعَى.

وَأَمَّا أَنْ آتَاهُ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَبْقَى بِهِ شُحَّ نَفْسِهِ، فَلَمْ يُفْلِحْ، فَصَارَ كَاذِباً فِي خَبَرِهِ.

وَأَمَّا أَنْ كَانَتْ الْمَعْتَزَةُ فِي مَا زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى، قَدْ آتَى عَبْدَهُ جَمِيعَ مَا يَبْقَى بِهِ شُحَّ نَفْسِهِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي خَزَائِنِهِ شَيْءٌ، يُؤْتِيهِ لِيَبْقَى بِهِ شُحَّ نَفْسِهِ، كَذَبَتْ.

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ نِسْبَةِ الْكَذِبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَوْ إِلَى الْمَعْتَزَةِ كَانَتْ الْمَعْتَزَةُ أَوَّلَى أَنْ يُنْسَبُوا إِلَى الْكَذِبِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي مَا أَخْبَرُوا، وَإِنْ (٩) اللَّهُ تَعَالَى فِي مَا أَخْبَرَ صَادِقٌ، وَإِنْ (١٠) فِي مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ مَا لَمْ يُؤْتِ عَبْدَهُ لِيَبْقَى بِهِ شُحَّ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

[وَالثَّانِي] (١١): دَلَالَةٌ عَلَى إِبْطَالِ قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ عَلَى الْكَفَرَةِ آدَاءَ هَذِهِ الْعِبَادَاتِ وَالْحَقُوقِ وَاجِبَةً؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ (١٢) فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مَنْ وَقَّى شُحَّ نَفْسِهِ، وَأَدَّى مَا وَجَبَ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْحَقُوقِ، فَقَدْ أَفْلَحَ.

وَقَدْ نَرَى الْكَافِرَ فِي الشَّاهِدِ يُوقِي شُحَّ نَفْسِهِ، وَيُؤَدِّي حَقُوقَ أَمْوَالِهِ، وَيَسْخُو بِمَالِهِ عَلَى النَّاسِ، وَلَا يُفْلِحُ، وَلَوْ كَانَ [يَرَى أَنَّ] (١٣) عَلَيْهِ هَذِهِ الْحَقُوقُ وَاجِبَةً لَكَانَ يَنْخَصِلُ لَهُ الْفَلَاحُ.

فَتَبَّتْ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِ آدَاؤُهَا، وَإِنَّمَا عَلَيْهِ قَبُولُهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ إِذْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ يَكُون. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَخْبَر. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجْهَيْن. (٩) الْوَائِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) الْوَائِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفِيهِ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْعَد. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

[والثالث: دلالة^(١)] أن صاحب الكبيرة، قد يُرَجى له الفلاح، وإن لم يُثَبَّ على الكبيرة [حتى^(٢)] مات، لأننا قد نرى صاحب الكبيرة قد يُوقى شُحَّ نفسه، وقد وَعَدَ الله ﷻ أن مَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فهو مِنَ الْمُفْلِحِينَ / ٥٧٤ - أ / فإذا كَانَ صاحب الكبيرة قد يُوقى شُحَّ نفسه، فقد ثَبَتَ أَنَّهُ يُرَجى [له^(٣)] الفلاح.

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَقْرَئُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ﴾ يتوَلَّدُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ ظَنُونٌ فَاسِدَةٌ:

أَحَدُهَا: ظَنُّ الْيَهُودِ حِينَ^(٤) ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨١] وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] وَالِاسْتِفْرَاضُ فِي الشَّاهِدِ يَدُلُّ عَلَى الْحَاجَةِ إِلَى مَا يُسْتَفْرَضُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: ١١] وَالشَّراءُ يَدُلُّ عَلَى حَاجَةٍ فِي الْمُشْتَرَى.

[والثاني: حين^(٥)] اسْتَعْمَلَ عِبْدَهُ فِي الْأَعْمَالِ ثُمَّ قَالَ: ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩] وَرَأَوْا أَنَّ مَنْ يَسْتَعْمِلُ آخَرَ، فَإِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ فِي عَمَلٍ، تَرْجِعُ مَنْفَعَتُهُ عَلَيْهِ، وَيَحْتَاجُ إِلَى عَمَلِهِ، ظَنُّوا بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ، وَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ.

[والثالث: ظَنُّ الْمُعْتَزِلَةِ أَنَّ أَنْفُسَ الْعَبِيدِ وَأَمْوَالَهُمْ مُلْكٌ لَهُمْ حَقِيقَةٌ، لَيْسَ لِلَّهِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مُلْكٌ وَلَا تَذْيِيرٌ، قَالُوا: وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اسْتَفْرَضَ مِنْ عِبْدِهِ، وَالْمَرْءُ فِي الشَّاهِدِ لَا يُسْتَفْرَضُ [مِنْ^(٦)] مُلْكٍ نَفْسِهِ، فَلَمَّا اسْتَفْرَضَ، وَاسْتَبَاعَ، دَلَّ أَنَّ هَذِهِ الْأَمْوَالُ^(٧)، كَانَتْ مُلْكًا لَهُمْ حَقِيقَةً.

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَ الْمُعْتَزِلَةِ عَلَى مَا وَصَفْنَا أَنَّ قَوْلَهُمْ: أَنَّ لَيْسَ لِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يُعْرِضَ أَحَدًا، وَلَا يُؤْلِمَ دَابَّةً إِلَّا بِعَوَضٍ، وَلَمْ يَمْلِكْ شَيْئًا إِلَّا بِعَوَضٍ وَبَدَلٍ، يُبَيِّنُ^(٨) أَنَّهُ لَا يَمْلِكُهُ، فَثَبَّتَ عَلَى أَنَّ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ حَقِيقَةً، وَأَنَّ حَقِيقَةَ الْمُلْكِ فِيهِ لِلْعَبِيدِ.

وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ ظَنُّ الْيَهُودِ وَالْمُعْتَزِلَةِ جَمِيعًا إِنَّمَا تَوَلَّدَ مِنْ قَوْلِهِمْ: أَنَّ لَيْسَ لِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يَفْعَلَ بِعَبِيدِهِ إِلَّا مَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُمْ فِي دِينِهِمْ، فَذَهَبَتِ الْيَهُودُ إِلَى أَنَّ هَذَا لَمَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَفْعَلَهُ، لَا مَحَالَةَ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَفْعَلَهُ، يَكُونَ جَائِزًا^(٩). وَمَنْ كَانَ مَاجُورًا بِحَقٍّ أَوْ بِشَيْءٍ يَفْعَلُهُ، فَبِهِ بَيَانٌ أَنَّ حَقِيقَةَ ذَلِكَ الْفِعْلِ لِعَبِيدِهِ حَتَّى أُخِذَ بِهِ، لَا مَحَالَةَ.

لِذَلِكَ قُلْنَا: إِنَّ ظُنُونَهُمْ تَوَلَّدَتْ عَنِ الْقَوْلِ بِالْأَصْلَحِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَأَمَّا الْحُكَمَاءُ وَأَهْلُ الْعَقْلِ وَمَنْ انْتَفَعَ بِعَقْلِهِ حَمَلَ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِهَايَةِ الْكَرَمِ وَغَايَةِ الْغِنَى، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَغْنَى عَبْدَهُ، ثُمَّ اسْتَفْرَضَ مِنْهُ ذَلِكَ الَّذِي أَعْطَاهُ لِيَصِيرَ ذَلِكَ الْعَطَاءُ بِبَدَلِهِ الدَّائِمِ، وَهُوَ النَّعِيمُ فِي الْآخِرَةِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ أَرَادَ دَوَامَ إِعْطَاءٍ مِنْ أَعْطَاهُ فَهُوَ فِي غَايَةِ الْكَرَمِ، وَكَذَا اشْتَرَى مِنْهُ حَيَاةً فَانِيَةً لِيُعْطِيَ لَهُ حَيَاةً دَائِمَةً، وَهَذَا مِنْ غَايَةِ الْجُودِ.

وَمِنْ اسْتَعْمَلَ عِبْدَهُ فِي عَمَلٍ، يُوصَفُ بِأَنَّهُ جَوَادٌ سَخِيٌّ، وَيُسْرَفُ بِهِ، وَيَكْرُمُ، ثُمَّ وَعَدَ لَهُ عَلَى [مَا]^(١٠) فِيهِ أَجْرًا دَائِمًا، دَلَّ عَلَى غِنَاهُ، فَثَبَّتَ أَنَّهُ أَرَادَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ أَنْ يُعْلَمَنَا غَايَةَ كَرَمِهِ وَغَايَةَ جُودِهِ وَنِهَايَةَ غِنَاهُ، وَأَنَّ جُودَهُ وَكَرَمَهُ مِمَّا لَا تُذَرِّكُهُ عَقُولُنَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى غَايَةِ كَرَمِهِ وَغَايَةِ جُودِهِ أَنْ جَعَلَ مَا نَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى فَقَرَانَا وَمَا نَصِلُ بِهِ أَرْحَامَنَا قَرْضًا عَلَى نَفْسِهِ، وَوَعَدَ الْأَجْرَ بِعَمَلٍ يَعْمَلُهُ الْعَبْدُ لِنَفْسِهِ، وَعَلَى عَمَلٍ، عَلَى الْعَبْدِ فِعْلُهُ، لَا مَحَالَةَ. وَلَا شَكَّ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ غَايَةِ الْجُودِ وَالْكَرَمِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَقْرَئُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْقَرْضُ: هُوَ الْقَطْعُ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: اقْطَعُوا شَيْئًا مِنْ أَمْوَالِكُمْ لِلَّهِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفِيهِ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَحَيْث. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: الْآيَاتِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: بِعَوَضٍ اثْنَيْنِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ: جَائِزًا. (١١) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

قَطْعاً حَسَنًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَفَرَضُوا اللَّهَ؛ أَيِ اجْعَلُوا مَا تَتَصَدَّقُونَ بِوَمَا فَضَّلَ عَنْ حَاجَاتِكُمْ عَلَى فُقْرَانِكُمْ قَرْضاً حَسَنًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يُؤْتِيَكُمْ أَجْرَهُ عِنْدَ حَاجَتِكُمْ إِلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿يُضَاعِفْ لَكُمْ﴾ يعني يضاعف^(١) ما يُعْطِيكُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الثَّوَابِ الَّذِي تُكْرَمُونَ بِهِ بِمَا شَرَقْتُمْ بِهِ، وَتَزَيَّيْتُمْ فِي الدُّنْيَا بِالتَّصَدُّقِ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ يعني ﴿شَكُورٌ﴾ حين^(٢) شَكَرَ لَكُمْ عَلَى مَا أُعْطِيْتُمُوهُ شَيْئاً، هُوَ أَعْطَاكُمْ [إِيَّاهُ]^(٣) وقوله: ﴿حَلِيمٌ﴾ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْحِلْمِ.

وعلى قول المعتزلة: لَا يَتَحَقَّقُ هَذَا الْوَصْفُ لَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ إِذَا أُوجِبَتِ الْعُقُوبَةُ فَلَيْسَ لِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يُؤَخِّرَهَا تَفَضُّلاً مِنْهُ، وَإِنَّهُ فِي مَا أَخَّرَهَا كَانَ ذَلِكَ حَقّاً عَلَيْهِ حين^(٤) رَأَى الْأَصْلَحَ فِي تَأْخِيرِهَا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ [مَنْ]^(٥) أَذَى حَقّاً عَلَيْهِ لَمْ يُوصَفْ بِالْحِلْمِ، وَلَكِنَّهُ يُقَالُ: إِنَّهُ يَتَّقِي الْجَوْرَ، وَالْحَلِيمُ مَنْ يَحْلُمُ عَنْ عُقُوبَةِ لَزِمَتْ، فَيُؤَخِّرُهَا، وَيَتْرُكُهَا، وَيَغْفِرُ عَنْ صَاحِبِهَا، فَيُوصَفُ بِالْحِلْمِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يعني: عَالِمٌ مَا غَابَ مِنْ أَعْمَالِ الْخَلْقِ عَنِ الْمَلَائِكَةِ، وَعَالِمٌ مَا شَهِدُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَعَالِمٌ بِمَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ بِمَا شَهِدَهُ الْعِبَادُ.

وقوله تعالى: ﴿الْمُزِيرُ﴾ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَ﴿الْعَكِيمُ﴾ الَّذِي لَا يَلْحَقُهُ الْخَطَأُ فِي تَذْيِيرِهِ.

ثُمَّ الْمُعْتَادُ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ يَذْكُرُ ﴿الْمُزِيرَ لِّلْكَيْدِ﴾ بَعْدَ ذِكْرِ خُلُقِ الْكَفَرَةِ لِيُعْلَمَ أَنَّ قَسَادَهُمْ، لَا يُوجِبُ وَهْناً فِي حِكْمَتِهِ وَتَذْيِيرِهِ، وَلَا يَبْطِلُ عِزُّهُ وَسُلْطَانُهُ، لِأَنَّ مَنْ صَنَعَ إِلَى آخِرِ شَيْءٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ يُقْسِدُهُ^(٦) دَلَّ ذَلِكَ عَلَى جَهْلِهِ بِالتَّذْيِيرِ، وَإِذَا اسْتَعْمَلَ عَبْدَهُ بِمَا يَهْلِكُهُ دَلَّ عَلَى ذُلِّهِ.

فَأَخْبَرَ بَعْدَ [ذِكْرِهِ]^(٧) خُلُقَ الْكَفَرَةِ أَنَّهُ عَزِيزٌ لِيُعْلَمَ أَنَّ كُفْرَهُمْ، لَا يُوجِبُ نَقْصاً فِي عِزِّهِ، وَلَا يُدْخِلُ ذُلّاً عَلَيْهِ، وَأَنَّ قَسَادَهُمْ لَا يُخْرِجُهُ عَنِ الْحِكْمَةِ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.



(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَضَاعِفُهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَفْسِدُ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

سورة الطلاق

وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ فإنه يُخْرَجُ على الإضمار، والله أعلم، كأنه يقول: يا أيها النبي قل لأمتك: إذا أردتم أن تطلقوا نساءكم فطلقوهن لِعَدَّتِهِنَّ.

والدليل على أنه هكذا فإنه يُخْرَجُ الخطاب بعده للجماعة حين^(١) قال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أو خاطب به النبي ﷺ والمراد أُمَّتُهُ، وذلك كثير في القرآن.

ثم قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أمرٌ بالطلاق للعدّة، ولم يُبيّن أن الطلاق للعدّة كيف يكون، وذكر في بعض القراءات: فَطَلِّقُوهُنَّ لِقُبْلِ عَدَّتِهِنَّ^(٢).

ثم ترك بيان ذلك لا يخلو: إما أن يكون الرسول ﷺ قد بيّن ذلك لهم، فعرفوا ذلك، فلم يُبيّن ذلك في الآية. وإما أن^(٣) جعل بيان معرفة ذلك إليهم ليُعرفوا بالاجتهاد.

ثم قوله: لِقُبْلِ عَدَّتِهِنَّ يَحْتَمِلُ أَوَّلَ عَدَّتِهِنَّ، وهو الحيض، من المُقابَلَةِ: فمن يقول: الإعتداد بالإطهار يجعل القبل كناية عن أول الطهر، ومن يقولها بالحيض يجعل القبل ما يُقابل العِدّة، وهو الحيض.

ثم لنا أن ننظر أي التأويلين أقرب، وقد أجمعوا أن له أن يُطلقها في آخر الطهر إذا لم يُجاوِها / ٥٧٤ - ب/ فيه. دل أن تأويل القبل ما يُقابل العِدّة أحق، وهو الحيض، والإعتداد به أولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْصُوا أَلْيَدَهُ﴾ يُخْرَجُ على هذين الوجهين:

أحدهما: احفظوا الحقوق والأحكام التي تجب في العِدّة، فأدوها.

والثاني: احفظوا نفس ما تعتدون به، وهو عدد الحيض الذي به^(٤) تعتدون، لا أن يُزاد، ولا يُنقص.

ثم جعل الإحصاء إلى الأزواج يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: أنهم هم الذين يلزمهم الحقوق والمؤن.

والثاني: لهم نفع تخصين الأولاد في العِدّة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِغِلْظٍ مُبِينٍ﴾ دل قوله: ﴿مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ على صحة مسألة لأصحابنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، في مَنْ حَلَفَ: لَا يَدْخُلُ بَيْتَ فُلَانٍ، فَدَخَلَ [بَيْتاً]^(٥) هو فيه بإعارة أو إجارة: إنه يَخْنَثُ، وَوَجْهٌ ذَلِكَ أَنَّ الله تعالى أضاف البيوت إليهن، وإن كانت حقيقة المُلْكِ للأزواج.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ١٦٥. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: بها. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَتَكُونُ مِنْ حَيْثُ سَكَتَ مِنْ وَبَيْتِكُمْ﴾: [الطلاق: ٦] ثم قوله^(١): ﴿لَا تَخْرِجُوهُمْ مِنْ بُيُوتِهِمْ﴾؟ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مِنْ بُيُوتِهِمْ﴾ أَنَّهُ أَرَادَ بِهَذَا الْبَيْتِ الَّتِي اسْتَكْنَهُنَّ الْأَزْوَاجُ فِيهَا. وَإِذَا صَحَّتْ هَذِهِ الْإِضَافَةُ دَلَّ عَلَى صَحَّةِ الْمَذْهَبِ. وَقَالَ الشَّافِعِيُّ فِي مَنْ حَلَفَ: لَا يَدْخُلُ مَسْكَنَ فُلَانٍ، فَدَخَلَ مَسْكَنًا [هُوَ]^(٢) فِيهِ بِإِعَارَةٍ: إِنَّهُ يَخْنُثُ. وَقَالَ فِي مَنْ حَلَفَ: لَا يَدْخُلُ بَيْتَ فُلَانٍ [فَدَخَلَ]^(٣): إِنَّهُ لَا يَخْنُثُ، وَاحْتِجَّ فِي الْمَسْكَنِ أَنَّهُ إِنَّمَا حَيْثُ لَأَنَّهُ وَجَدَ حَقِيقَةَ السُّكْنَى مِنَ الْمَخْلُوفِ عَلَيْهِ.

فَإِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى الْجَنْثِ فَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَخْنُثَ [فِي الْبَيْتِ]^(٤) لَوْجُودِ الْبَيْتِوتَةِ عَلَى حَيْثِهِ^(٥) فِي الْمَسْكَنِ لَوْجُودِ السُّكْنَى.

وَبَعْدُ فَإِنَّ الْجَنْثَ أَقْرَبُ فِي الْبَيْتِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَضَافَ الْبُيُوتَ إِلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِ، وَإِنْ كُنَّ يَتَنَّنَ فِيهَا بِإِعَارَةٍ، وَلَمْ يَوْجَدْ فِي السُّكْنَى ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ وَمُبَيَّنَةٍ، قُرْنَا^(٦) جَمِيعًا. فَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَ الْإِسْتِثْنَاءَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا﴾ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا تَخْرِجُوهُمْ مِنْ بُيُوتِهِمْ﴾ وَصَرَفَهُ [إِلَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَرَفَهُ]^(٧) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَخْرُجَنَّ﴾ وَلِكُلِّ مِنْ ذَلِكَ وَجْهَانِ: فَأَمَّا مَنْ حَمَلَهُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا تَخْرِجُوهُمْ﴾ فَإِنَّهُ جَعَلَهُ اسْتِثْنَاءً، وَلِلْإِسْتِثْنَاءِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: ﴿لَا تَخْرِجُوهُمْ مِنْ بُيُوتِهِمْ وَلَا يَخْرُجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ أَيِ بَرْنَى يَزْنِيَنَّ، فَتَخْرِجُوهُمْ لِإِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِمْ. [وَالثَّانِي]^(٨): ﴿وَلَا يَخْرُجَنَّ إِلَّا أَنْ﴾ يَظْهَرُ مِنْهُمْ بَدَاءَةُ اللَّسَانِ عَلَى أَهْلِ أَزْوَاجِهِمْ، فَتَخْرِجُوهُمْ لِمَكَانِ الْبَدَاءَةِ الَّتِي فِي السُّكْنَى^(٩).

وَمَنْ حَمَلَهُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَخْرُجَنَّ﴾ فَإِنَّهُ يَجْعَلُ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا﴾ عَلَى مَعْنَى: لَكِنْ كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً إِلَّا سَلَامًا﴾ [مَرْيَم: ٦٢] أَيْ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً لَكِنْ سَلَامًا، إِذْ لَا يَحْتَمِلُ اسْتِثْنَاءَ السَّلَامِ مِنَ اللَّغْوِ لِمَا لَيْسَ فِي جُمْلَةِ اللَّغْوِ سَلَامٌ، فَيُسْتَثْنَى مِنْهُ، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: ﴿وَلَا يَخْرُجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ فَكَانَهُ قَالَ: ﴿وَلَا يَخْرُجَنَّ﴾ وَلَكِنْ إِذَا خَرَجَنَّ فَمُخْرَجُهُنَّ فَاحِشَةٌ.

وَيَذُلُّ هَذَا عَلَى أَنَّ النَّهْيَ لِنَفْسِ الْخُرُوجِ لَا لِلْإِنْتِقَالِ.

وَوَجْهٌ آخَرُ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ أَلَّا يَخْرُجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ، فَإِنَّهُمْ إِذَا خَرَجَنَّ يُخْشَى عَلَيْهِمْ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ كَمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّمَا عَبْدٌ تَزَوَّجَ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوْلَاهُ فَهُوَ عَاهِرٌ» [التِّرْمِذِيُّ ١١١١] لِمَا^(١٠) كَانَ الْمَعْنَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَ، فَطَوَّعَ، فَهُوَ عَاهِرٌ، وَلَكِنْ نَهَى عَنِ النِّكَاحِ لِأَنَّهُ يُخْشَى عَلَيْهِ فِي النِّكَاحِ أَنْ يَطَّأَهَا، فَيَصِيرَ عَاهِرًا، لَا أَنْ يَكُونَ نَفْسُ التَّزْوِجِ مِنْهُ زَنًى.

فَكَذَلِكَ: ﴿وَلَا يَخْرُجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ فَيَكُونُ النَّهْيُ لَا عَنْ نَفْسِ الْخُرُوجِ، وَلَكِنْ لِكُونِهِ سَبَبًا لِلْفَاحِشَةِ فِي الْجُمْلَةِ وَطَرِيقًا إِلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ^(١١) ﷺ: ﴿مَنْ قَرَأَ﴾ مُبَيَّنَةٍ ﴿بِالْخَفْضِ فَمَعْنَاهُ أَنْ نَفْسَ الْفَاحِشَةِ إِذَا تَفَكَّرَ فِيهَا الْمَرْءُ، وَنَظَرَ، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهَا فَاحِشَةٌ. وَمَنْ قَرَأَ: مُبَيَّنَةٍ بِالْفَتْحِ عَنَى بِهَ أَنْهَا مُبَيَّنَةٌ بِالْبَرَاهِينِ وَالْمُحْجِجِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْخَادِعِينَ﴾ الْحُدُودُ الْمَوَانِعُ وَالتَّوَاهِي، لَا تَحِلُّ مُجَاوَزَتُهَا، وَمِنْ ذَلِكَ سُمِّيَ الْحَدَّادُ حَدَّادًا لِأَنَّهُ يَمْنَعُ تَحْدِيدُهُ كُلَّ أَنْوَاعٍ أَمْتَعَةٍ أَنْ تُجَاوَزَ حَدَّهَا الَّذِي جَعَلَهُ لَهَا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) أُدْرِجَ قَبْلُهَا فِي م: مَا.

(٦) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ الْقُرْآنِيَّةِ ج ١٦٥/٧. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٩) فِي الْأَصْلِ: نَسَانَهُنَّ، فِي م: لَسَانَهُنَّ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: ثُمَّ قَالَ.

والحد في الحقيقة، هو النهاية التي ينتهي إليها، فلا تُجاوَز. وإذا كان كذلك كان الخيار إلى صاحب التأويل؛ فإن شاء حمله على الحد بين الطاعة والمعصية أو ما بين الحلال والحرام حين^(١) ذكر في هذه الآية أنواعاً من النهي، فسُمي ذلك كله حدوداً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي ضرر نفسه. ويجوز أن يكون المعنى منه: أي إن جاوز هذا الحد الذي جعله الله تعالى فقد وضع نفسه مكاناً لم يضعه فيه ربه. والظلم في الحقيقة وضع الشيء في غير موضعه.

والتأويل الآخر أن من جاوز موانع الله ونواهيته فقد ظلم نفسه؛ دل بهذا على أن منافع هذه النواهي ومضارها، لا ترجع إلى الله بل [ترجع إلى] نفس الممتنعين.^(٢)

وقوله تعالى: ﴿لَا تَذَرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ أي لا يطلقي، فإنه إذا طلق لا يذري، لعل الله يحدث بعد ذلك ندامة على [ما]^(٣) سبق من فعله أو رغبة فيها، فيكون فيه دلالة النهي عن نفس الطلاق. وقد بينا كراهة نفس الطلاق في الحكمة في أنه ليس من نوع ما يقترب به، فيكون فيه زيادة في القرية ولا مما يستمتع به، فيكون فيه زيادة في الاستمتاع. بل المقصود منه التأديب والمخلص.

وفي الواحدة كفاية عما زاد عليها، فكان في هذه الآية دلالة النهي عن نفس الطلاق وعن الزيادة على الواحدة، والله أعلم. قال: فإن كان تأويل قوله: ﴿لَا تَذَرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ هو الرغبة فيها أو الندامة على ما سبق فإنه دلالة على إبطال قول المعتزلة، لأن الرغبة والندامة جميعاً من فعل العباد، والله تعالى قد أضاف ذلك إلى نفسه بقوله: ﴿لَا تَذَرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾.

وإذا كان كذلك ثبت أن الله تعالى في إحداث أفعال العباد صنفاً وتذبيراً، والله أعلم. وقال أصحاب الشافعي: إن قوله: ﴿فَلْيَقْضُوا الْوُقُوتَ فِي الطَّلَاقِ دُونَ الْعَدْوِ﴾ قلله أن يطلّقها في الوقت أي عدو كان.

ولا يستقيم ذلك لأن التأويل إنما يستقيم على أحد وجهين: إما على ما جرى به التفاهم في العبادات بين العباد، وإما [على]^(٤) ما جرى به التفاهم في حق الحكمة. وليس يُفهم من قوله: ﴿فَلْيَقْضُوا الْوُقُوتَ﴾ بالعدو الثلاث على واحد من الوجهين اللذين وصفناهما. ألا ترى أن من قال لآخر: طَلَّقْتُ^(٥) أمرأتي لم يجز له أن يطلّقها ثلاثاً إلا أن يكون نوى ثلاثاً؟ فثبت أنه لا يفهم به في عبارة اللفظ الثلاث.

وأما وجه الحكمة فلما ذكرنا أن الطلاق ليس مما يقترب به، فيرتب^(٦) في الاستكثار زيادة في القرية، ولا مما يستمتع به^(٧) فيستكثر منه زيادة في الانتفاع. وإنما المراد منه التأديب والمخلص. وما كان مخرجاً هذا المخرج كان في حد الرخصة، وما خرج مخرج الرخص لم يتعد^(٨) به عما وقعت به الرخصة. وإذا ثبت ما وصفنا ثبت أنه لا يجوز الفهم من قوله تعالى: ﴿فَلْيَقْضُوا الْوُقُوتَ لِبَدَنَيْنِ﴾ الثلاث، والتعليم^(٩) في العدو النقي به من الوقت، لأنه لا ضرر، يلحقه في تعديده عن الوقت المجعول فيه الطلاق، ولا شك أنه يلحقه الضرر في تعديده في العدو والزيادة منه، والله أعلم.

ومما يدل على أن المراد من قوله: ﴿فَلْيَقْضُوا الْوُقُوتَ﴾ ليس عدد الثلاث قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٥٧٥ - ١ / أَطْلَقَ فَاتَّسَكُوا بِمَعْرُوفٍ﴾ [الآية: ٢] ولا شك أنه إذا وقع عليها ثلاثاً لم يملك إمساكها.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، في الأصل: رجع. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: طلق. (٦) في الأصل وم: فرغ. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يعتد. (٩) في الأصل وم: في التعليم.

ومعلوم أن قوله: ﴿إِذَا بَلَغَ الْبُغْلُ فَاتِّسَكُوهُ بِمَعْرُوفٍ﴾ الطلاق المُتَقَدِّمُ مِنْ قَوْلِهِ ﴿تَطْلِقُونَهَا﴾ ولو كان المراد عَدَّة الثلاث لم يَكُنْ لقوله: ﴿فَاتِّسَكُوهُ بِمَعْرُوفٍ﴾ مَعْنَى، والله أعلم.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿إِذَا بَلَغَ الْبُغْلُ فَاتِّسَكُوهُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُونَهَا بِمَعْرُوفٍ﴾ فيه فوائد شتى، وأدلة مُتَفَرِّقة مِنَ الْفِقْهِ والأحكام.

أحدها: أن الله تعالى قال: ﴿فَاتِّسَكُوهُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُونَهَا بِمَعْرُوفٍ﴾ والمعروف إليها في المتعارف من نوع الفعل أظهر من نوع القول، لأنه إنما يُخَيَّرُ إليها استمتاعاً وإنفاقاً ونحو ذلك، فذلك نوعه نوع الفعل، فثبت أن حقيقة الإمساك بالمعروف في الأفعال. فلذلك قلنا: إنه إذا راجعها [بالفعل] يكون مراجعاً^(١).

فإن قيل: أليس قال الله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ والإشهاد على الفعل غير صحيح؟ فجوابه أن يقال: إن الله تعالى قال: ﴿وَأَشْهَدُوا﴾ ومعلوم أن هذا لو كان يحضره الشهود لم يَكُنْ للإشهاد معنى، بل إذا سمعوا ذلك صاروا شهوداً شهدوا، أو لم يشهدوا.

وإذا كان كذلك ثبت أن المعنى من هذا الإشهاد على الإمساك المُتَقَدِّم، وذلك في الأفعال مُسْتَقِيمٌ، والله أعلم. ووجه آخر، وهو أن كلَّ عهد استقام بغير شهود، جرى فيه الأمر بالإشهاد نحو قوله: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وكلُّ ما جُورِلَ فيه الشهود شرطاً ليقوم العقد، جرى الذكر فيه [لا يثبت] ^(٢) إلا بشهود نحو قوله ^(٣): ﴿وَلَا يَحَاجُّ إِلَّا بِشُهودٍ﴾ [نصب الراية ١٦٧/٣] فلما جرى الذكر في هذه الآية بالأمر بالإشهاد بقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ ثبت أنه [لا] ^(٤) يَسْتَقِيمُ من غير شهود، والله أعلم.

ثم في قوله: ﴿إِذَا بَلَغَ الْبُغْلُ فَاتِّسَكُوهُ بِمَعْرُوفٍ﴾ دليل على أن المراد من الأقراء ^(٥) الحيض، فإنه ذكر نوع هذا في كتاب الله في مواضع:

قال الله تعالى في موضع: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْبُغْلُ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ فِيمَا فَعَلْتَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣٤] وقال في آية أخرى: ﴿فَلَنْ أَجْلُهُنَّ فَلَا تَسْأَلُونَهُنَّ أَنْ يَكُنَّ أَرْوَاحَهُنَّ إِذَا تَرَاسَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢] وقال في هذا الموضع: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْبُغْلُ فَاتِّسَكُوهُ بِمَعْرُوفٍ﴾.

ومعلوم أن المعاني بهذه الألفاظ مُخْتَلِفَةٌ، وإن اتفقت مخارجها، واختلافها أن يكون المراد البلوغ الأجل في أحد النوعين على التمام وانقضاء الأجل، والثاني على الإشراف عليه.

وأحق ما يكون في حق الإشراف على البلوغ، هو ما يرجع إلى الأزواج، لأنه قد كان لهم حق الإمساك قبل انقضاء الأجل، وهم أحق بهن ^(٦) ما لم يتم بلوغ الأجل لا بعده.

وإذا ثبت أن المعنى من قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْبُغْلُ﴾ في هذا الموضع، هو الإشراف على البلوغ والقرب من انقضاء الأجل دون التمام ثبت الأقراء أنه ^(٧) الحيض، لأنه لو كان المراد منه الأطهار لم يُعْرَفْ إشراف الأجل على البلوغ، لأنه لا نهاية لأكثر الظهور.

وأما الحيض فإنه له غاية معلومة، لأن أيامها، لا تخلو: إما أن تكون عشرة أو دون عشرة. فإن كانت عشرة فتعترف بالعد، وإن كانت دون عشرة فإن دمها إذا انقطع راجعها قبل أن تفتسل، وذلك وقت إشراف أجلها على البلوغ. والأطهار لا يتحقق فيها المعنى الذي وصفنا، والله أعلم.

ثم قال ههنا ﴿فَاتِّسَكُوهُ بِمَعْرُوفٍ﴾ فدل الأمر بالإمساك في الظاهر أنها مادامت في العدة فهي على ملكه. وقال في

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: لا، ساقطة من م. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: في. (٦) في الأصل وم: بهم. (٧) في الأصل وم: هو.

مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَيُؤَلِّهِنَّ أَحَقُّ بِرَّيْنٍ فِي ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨] قَدْ عَلِيَ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ شَيْءٌ مِنَ الزَّوَالِ حَتَّى أَمَرَهُ بِرَدِّهَا، فَيَكُونُ حُجَّةً لِلشَّافِعِيِّ فِي أَنَّ الطَّلَاقَ الرَّجْعِيَّ يُحَرِّمُ الْوَطْءَ.

وَلَكِنَّ الْمَعْنَى عِنْدَنَا فِي هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَا قَدْ عَرَفْنَا بِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ فَايْقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بَعْدَ وَجُودِ الطَّلَاقِ الْمُتَقَدِّمِ أَنَّهُ لَمْ يُرَدْ بِهِ الْفُرْقَةُ لِلْحَالِ، وَلَكِنَّ مَعْنَاهُ: أَتْرُكُوهُنَّ حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهُنَّ، فَتَقَارِبُوهُنَّ.

فَتَبَيَّنَ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ شَيْءٌ مِنْ شُبْهَةِ الْفِرَاقِ بِالطَّلَاقِ، وَهُوَ أَنَّ صَارَ الْفِرَاقُ مُسْتَحَقًّا لَازِمًا حَالِ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ، فَيَكُونُ لَهُ عَرَضُ الْوُجُودِ لِلْحَالِ، فَقَالَ: ﴿فَأَنْسِكُوهُنَّ﴾ عَلَى إِبْقَائِهِنَّ عَلَى أَصْلِ الْمُلْكِ، وَقَالَ: ﴿وَيُؤَلِّهِنَّ أَحَقُّ بِرَّيْنٍ فِي ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨] لِرَفْعِ تِلْكَ الشُّبْهَةِ الْوَاقِعَةِ بِالطَّلَاقِ.

وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ مَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ لَيْسَاتِهِمْ رِزْقٌ أَزْبَعٌ أَشْهَرُ إِنْ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿وَإِنْ عَزَّوْا الطَّلَاقُ فَإِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦ و ٢٢٧] وَكَانَ الْقِيَمُ هُوَ الرَّجْعُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ^(١) بِالْإِبْلَاءِ شَيْءٌ مِنَ الْفُرْقَةِ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ الْإِبْلَاءُ مُوجِبًا لِلْيَسُونَةِ فِي الْمُقْبَى أَوْجَبَ فِي الْحَالِ شُبْهَةَ الْفُرْقَةِ، وَهُوَ: اسْتِخْقَاقُ الزَّوَالِ، فَذَكَرَ الْقِيَمَ لِرَفْعِ تِلْكَ الشُّبْهَةِ، فَكَانَ تَرْكُهَا مِنْهُ لَا يُفِيءُ إِلَيْهَا عَزْمٌ مِنْهُ عَلَى الطَّلَاقِ، فَكَذَلِكَ الْأَوَّلُ.

وَالْمَعْرُوفُ إِذَا صَنَعَ لَكَ إِنْسَانٌ صَنِيعَةً، فَعَرَفْتَهَا، وَاسْتَحْسَنْتَهَا، فَهُوَ مَعْرُوفٌ، وَمَا دَفَعْتَهُ، وَانْكُرْتَهُ فَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ هُوَ الَّذِي عَرَفْنَا اللَّهَ تَعَالَى مِنَ الْمُرَاجَعَةِ وَالْمُقَارِقَةِ.

ثُمَّ الْمَعْرُوفُ فِي الْحَقِيقَةِ مَا تَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ الْقُلُوبُ، وَتَسْكُنُ^(٢) عِنْدَهُ الْأَنْفُسُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ بَيْنَكُمْ﴾ ذَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَوَى عَدْلٍ بَيْنَكُمْ﴾ أَنَّ قَدْ يَكُونُ مِتَا فُسَاقٍ، وَأَنَّ الْفُسْقَ لَا يُخْرِجُ^(٣)، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ رَضِيَ عَنْكَ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فَتَبَيَّنَ أَنَّ قَدْ يَكُونُ مِتَا مَنْ لَا يُرَضَى، وَأَنَّ خُرُوجَهُ مِنْ يَرْضَى لَا يُخْرِجُهُ مِنَ الْإِيمَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ حِينَ^(٤) أَضَافَهَا إِلَى نَفْسِهِ؛ هُوَ أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنَ الشَّهَادَةِ مِنْ نَفْعٍ يَقَعُ لِأَحَدِ الْخَصْمَيْنِ وَضَرَرٍ يَرْجِعُ إِلَى الْآخَرِ، فَكَانَهُ قَالَ: لَا يَنْظُرُ أَحَدٌ إِلَى رِضَا مَنْ تَنَفَّعَهُ الشَّهَادَةُ وَإِلَى سُخْطِ مَنْ تَضَرَّرَ، وَلَكِنْ اجْعَلُوهَا لِلَّهِ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ كُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الْمَوْعِظَةُ، وَإِنْ كَانَتْ لِمَنْ يُؤْمِنُ، فَالْمَعْنَى فِي هَذَا: ذَلِكُمْ يَتَوَعَّظُ بِمَا يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، كَمَا كَانَ الْمَعْنَى مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تُذَكِّرُ مَنْ أَتْبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] أَيْ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِالْإِنْذَارِ مَنْ يَتَّبِعُ الذِّكْرَ، وَكَمَا كَانَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتْلُوهُنَّ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١] أَيْ يَتَّبِعُونَ تِلَاوَتَهُ، فَكَذَلِكَ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوعِظُ بِهِ﴾ أَيْ بِمَا أَمَرَ فِي مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ لِلْعِدَّةِ وَالنَّهْيِ عَنْ إِخْرَاجِهِنَّ مِنَ الْبُيُوتِ وَالْإِنْفَاقِ وَنَحْوِهِ، أَيْ يَأْخُذُ بِمَا أَمَرَ بِهِ، وَنَهَى عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ﴿مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ﴿وَنَزِدْ لَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ التَّقْوَى إِذَا ذُكِرَ مُفْرَدًا انْتِظَمَ الْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي، وَإِذَا ذُكِرَ مَعَ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ صُرِفَ التَّقْوَى إِلَى مَعْنَى، وَالْبِرُّ إِلَى مَعْنَى.

وَذُكِرَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مُفْرَدًا، فَجَازَ أَنْ يَنْتَظِمَ الْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي. ثُمَّ جَازَ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ فِي مَا بَيَّنَّ لَهُ مِنَ الْحُدُودِ، فَلَمْ يُضَيِّعْهُ ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ فِي مَا لَمْ يَبَيِّنْ لَهُ وَفِي مَا اشْتَبَهَ مِنَ الْحَدِّ، أَوْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ أَيْ جَاهَدَ فِي مَا أَمَرَهُ، وَنَهَاهُ ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ فِي أَنْ يَهْدِيَهُ، وَيَبَيِّنَ لَهُ السَّبِيلَ.

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: شيء. (٢) في الأصل وم: وتشكر. (٣) في الأصل وم: يخرج. (٤) في الأصل وم: حيث.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾؟ [العنكبوت: ٦٩].

قَالَ: ويجوزُ أَنْ يَنَالَ مَنْ يَلْزَمُ التَّقْوَى خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ التَّقْوَى وَمَا يَلِيهِ بِالْفَاظِ مُخْتَلِفَةً، فَقَالَ فِي مَوْضِعٍ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ إِسْرًا﴾ [الطلاق: ٤] وفي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ [الطلاق: ٥] وفي مَوْضِعٍ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] أَيْ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [في] ^(١) النُّصْرَةَ / ٥٧٥ - ب / وَالْمَعُونَةَ وَالتَّوْفِيقَ وَالْعِصْمَةَ. وَمَنْ نَصَرَهُ اللَّهُ فَلَا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ، وَمَنْ يَعْصِمَهُ اللَّهُ فَلَا يُضِلُّهُ أَحَدٌ. وَإِذَا نَالَ هَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ فَقَدْ نَالَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. أَوْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ يَعْنِي يَتَّقِ عِقَابَهُ ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ مِنَ الشَّدَةِ فِي الدُّنْيَا وَمِنْ سَكْرَاتِ الْمَوْتِ وَغَمَرَاتِهِ وَمِنْ شِدَائِدِ الْآخِرَةِ وَأَهْوَالِهَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ فِي مَكَاسِيهِ ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ مِنَ الشُّبُهَةِ وَالْحُرْمَاتِ، فَيَسْلَمَ مِنْهَا. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ فِي مَا يَبَيِّنُ لَهُ مِنَ الْحُدُودِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَحَفِظَهَا فِي صُحْبَةِ النِّسَاءِ عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ مِمَّا أَهَمَّهُ مِنْ نَاجِيَتِهِنَّ ^(٢) وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ. يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي مَا يَبَيِّنُ لَهُ مِنَ الْحُدُودِ إِذَا حَفِظَهَا أَنْ يَزُرُقَهُ مَا وَصَفْنَا مِنَ الْمَرْأَةِ وَالْمَالِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ مِنَ الْمَكَاتِبِ وَالتَّجَارَاتِ لِأَنَّ التَّجَارَ يَطْنُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يُزْرَقُونَ الْفَضْلَ وَالرِّيحَ لِمَا يُدْخِلُونَ فِيهَا مِنَ الشُّبُهَةِ وَالْحُرْمَاتِ وَأَنَّهَا إِذَا تَفَيَّتْ مِنْ تِجَارَتِهِمْ تِلْكَ الشُّبُهَةُ وَالْحُرْمَاتُ رَزَقَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا. أَوْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ^(٣) هَذَا خِطَابًا لِلْكَافِرَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَخَافُونَ أَنَّهُمْ إِذَا آمَنُوا بِالرَّسُولِ ﷺ حَرِمُوا مِنَ الرِّزْقِ، وَابْتَلُوا بِالضِّيقِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا إِن تُلَاحِظْ إِلَيْنَا مَكَاتِلَ الْأَرْضِ﴾ الآية؟ [القصص: ٥٧] فَكَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمْتَهُمْ مِمَّا يَخَافُونَ بِسَبَبِ الْإِسْلَامِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا وَحَدُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَآمَنُوا بِرَسُولِهِ، رَزَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا، وَوَسَّعَ عَلَيْهِمُ الرِّزْقَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ يجوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: أَيْ مَنْ يَتَعَمَّدهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ، وَيُقَوِّضُ إِلَيْهِ كُلَّ نَازِلَةٍ. وَالْوَكِيلُ، هُوَ الْمُوَكَّلُ إِلَيْهِ الْأُمُورُ. وَقِيلَ: الْوَكِيلُ، هُوَ الْحَافِظُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: وَمَنْ يَتَعَمَّدهُ عَلَى اللَّهِ فِي مَا نَابَهُ كَفَى بِهِ وَكِيلًا مُوَكَّلًا إِلَيْهِ أَمْرُهُ، وَكَفَى بِهِ حَافِظًا وَنَاصِرًا وَمُعِينًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْلُغُ أَمْرَهُ﴾ أَيْ فِي مَا أَخْبَرَ مِنْ حُكْمِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿يَبْلُغُ أَمْرَهُ﴾ أَيْ مَبْلُغٌ مَا أَمَرَ رَسُولُهُ بِتَبْلِيغِهِ إِلَى آخِرِ عِصْيَانِهِ، يَكُونُ مِنْ أَمْرِهِ فِي [تَسْخِيرِهِمْ لِيَصِيرَ مَا] ^(٤) كَانَ الرَّسُولُ بَلَّغَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ قَالَ الْحَسَنُ: ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ ﴿قَدْرًا﴾ ثَوَابًا فِي الْآخِرَةِ. وَالرَّجْعَةُ عِنْدَنَا ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مِمَّا كَانَ، وَيَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ حَسَنٍ وَقَبِيحٍ فِي الْحِكْمَةِ ﴿قَدْرًا﴾. أَلَا تَرَى إِلَى أَعْمَالِ الْعِبَادِ أَنَّهُ كَيْفَ تَخْرُجُ عَنْ تَدْبِيرِهِمْ مِنْ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ لِيُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى، هُوَ الَّذِي قَدَّرَ ذَلِكَ الْمَكَانَ وَالزَّمَانَ وَالْفِعْلَ حَتَّى خَرَجَ فِعْلُ هَذَا الْعَبْدِ عَنْ تَقْدِيرِهِ الَّذِي قَدَّرَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وَجْهٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنَّهُ لَوْ جَعَلَ جَمِيعَ الرِّزْقِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ جَارًا، لِأَنَّ الرِّزْقَ فِي الْحَقِيقَةِ، هُوَ الَّذِي يُتَقَوَّى بِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي عَيْنِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَلَكِنْ فِي مَا يَتَفَرَّقُ مِنْ قُوَّةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فِي الْأَعْضَاءِ؛ وَذَلِكَ بِاللُّطْفِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. فَتَبَّتْ أَنَّ قُوَّةَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ إِنَّمَا تَصِلُ إِلَى الْأَعْضَاءِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُهُ الْإِنْسَانُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُونُوا. (٣) فِي الْأَصْلِ: تَسْخِرُ لِيَصِيرُوا، فِي م: تَسْخِيرُهُمْ لِيَصِيرُوا.

ثم ليس في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ له تخصيص، أي من لا يتقوه لا يرزقوه من حيث لا يحتسب، لأننا قد نرى في الشاهد من يرزقوه من حيث لا يحتسب، اتقاه، أو لم يتقوه. فثبت أن فائدة التخصيص ليست تعني غير المقصود، ولكن فائدة تخصيص المتقي بالذكر، هي ^(١) أنه يرزقوه من حيث يطيب له، ولا يلام عليه، وليس ذلك في غير المتقي، والله المستعان.

ثم ليس في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ما يدل على ترك الأسباب. ولكن لما رأى الناس يفرغ بعضهم إلى بعض، ويستغيث بعضهم ببعض، أمرهم أن يجعلوا المقصد والمفرغ إلى الله تعالى، وأن يصيروا هذه الأسباب كلها ومحنة عليهم، لا أن يروا أرزاقهم مقصودة متعلقة بها.

الآن نرى إلى قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] كيف أمر بإدراك فضله من تلك التجارة، فثبت أن هذه المكاسب كلها أسباب، بها يتوصلون إلى فضل الله تعالى، وأن المقصد والمفرغ فيها إلى الله تعالى، والله أعلم.

ثم اختلفوا في العدة: فمنهم من قال: هي استبراء الرجيم، ومنهم من قال: هي عبادة تتبع النكاح الذي استوفى فيه المقصود بالنكاح. وهذا القول عندنا أصوب [لوجيهين]:

أحدهما ^(٢): أن الاستبراء واجب في حق السنة والأدب قبل الطلاق؛ فإن من أراد أن يطلق امرأته فالواجب عليه أن يستبرئها بحيضة، ثم يطلقها. وأما العدة فإنها لا تجب إلا بعد الطلاق. فثبت أنها على ما ذكرنا من العبادة التي تتبع النكاح الذي استوفى فيه المقصود أن الاستبراء واجب، والله أعلم.

[والثاني] ^(٣): أن العدة لو كانت استبراء لكانت تكتفي بالحيضة الواحدة، فلما قرئت بالعدو، وفي الواحدة مندوحة إلى سواها في حق الاستبراء، ثبت أنها على الوجه الأول، والله أعلم.

الآية ٤ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يَسْتَمِعُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ سَائِكُمْ﴾ هذا يدل على أن المراد من الأقراء الحيض؛ وذلك لأن الأصل عندنا في الأصول أن الشيء متى ذكر باسم مشترك، ثم جرى البيان له عند ذكر البدل باسم خاص دل على أن المراد من الاسم المشترك هذا الاسم الخاص المذكور عند البدل.

الآن نرى إلى قوله تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وكان اسم الغسل مشتركاً يتناول الماء وكل مائع. فلما قال عند ذكر البدل: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً﴾ [المائدة: ٦] تبين أن المراد من ذلك الاسم المشترك هو هذا الاسم الخاص المذكور عند البدل، فذلك الأول، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ فَلَدْتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ﴾ اختلفوا في قوله: ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ أنه أريد به إن اربتتم في حيضهن أو في عدتهن.

وعندنا الإرتباب في عدتهن لأنه لو كان المراد منه الإرتباب في حيضهن لكان من حق الكلام أن يقول: إن اربتن، أو يقول: واللائي اربتن ليكون منسوقاً على قوله: ﴿وَالَّذِي يَسْتَمِعُ﴾ فلما قال: ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ ثبت أن المراد إن اربتتم في عدتهن ^(٤) الآيسات والصغيرات، فهي ثلاثة أشهر، والله أعلم.

ولأن المرتابة إذا رأت الحيض ارتفع ربهها، وصارت عدتها بالحيض، وخرجت من العدة بالشهور.

وأما الآيسة والصغيرة فإنه لا يتوهم عليهما ارتفاع الرهب ^(٥) فتكون عدتهما بالأشهر.

فلذلك قلنا إن هذا الإرتباب في عدة الآيسات والصغيرات.

ثم قول أصحابنا: إن الرجل إذا طلق امرأته الآيسة أو الصغيرة أو الحامل للسنة يطلقها متى شاء، وليس له وقت معين في طلاقها للسنة، وإنما كان كذلك لأننا قد وصفنا في قوله: ﴿تَطْلُقُونَهَا لِعَدَّتِهَا﴾ أن المراد منه لقبيل عدتهن.

(١) في الأصل وم: هو. (٢) في الأصل وم: لأوجه أحدها. (٣) في الأصل وم: ومعنى آخر. (٤) في الأصل وم: هذه. (٥) في الأصل وم: عليها ارتفاع الإياس والصغيرة فإنه لا يتوهم عليها.

ومعلوم أن عِدَّةَ التي تَرَى الحيضَ أخذَ شَيْئَيْنِ: إما الدَّمُ ولم تَغْتَبِرْ ما يُقَابِلُها، وهو الطَّهْرُ، مِنَ الْعِدَّةِ [وَأَمَّا الْأَطْهَارُ، ولم^(١) تَغْتَبِرْ ما يُقَابِلُها، وهو الْحَيْضُ، مِنَ الْعِدَّةِ.

وإذا كَانَ كَذَلِكَ لم يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ يَكُونَ ههنا شَيْءٌ، يُقَابِلُ عِدَّتِها، فَبَيَّنَّ فِيهِ مَعْنَى قُبُلِ عِدَّتِها، فَيَجْعَلُ ذَلِكَ الطَّهْرُ.

وَأَمَّا الْآيَةُ وَالصَّغِيرَةُ وَالْحَامِلُ فَجَمِيعُ أَيَّامِها مِنْ عِدَّتِها، وهو ثَلَاثَةٌ / ٥٧٦ - ١ / أَشْهُرٍ، وَلَيْسَ فِي أَيَّامِها شَيْءٌ [مِنْ]^(٢) عِدَّتِها، فَلِذَلِكَ قُلْنَا: إِنَّ لَهُ أَنْ يُطَلَّقَها فِي أَيِّ وَقْتٍ شَاءَ، وَكَذَلِكَ أَنْ يُطَلَّقَ الْحَامِلُ الَّتِي مِنْ ذَوَاتِ الْأَقْرَاءِ، وَكَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِنَّمَا نُهَيَّ عِنْدَنَا عَنِ الطَّلَاقِ عَلَى إِثْرِ الْجَمَاعِ فِي الَّتِي تَحِيضُ لِقَوِّهِمْ أَنْ يَكُونَ الْجَمَاعُ أَحْبَلَهَا، فَإِذَا طَلَّقَهَا، ثُمَّ أَرَادَ نَفْيَ الْحَبْلِ فِي الْعِدَّةِ لَمْ يَنْهَيْهَا لَهُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الْآيَةُ وَالصَّغِيرَةُ وَالْحَامِلُ فَلَيْسَ فِيهِمْ هَذَا التَّوَهُُّمُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ هَذِهِ الْعِدَّةُ، وَإِنْ ذُكِرَتْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى إِثْرِ الطَّلَاقِ الْوَاحِدِ، فَكَأَنَّهَا فِي التَّطْلِيقَاتِ الثَّلَاثِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْعِدَّةَ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [الآية: ٢٢٨] وَلِأَنَّهُ ذَكَرَهَا ههنا ﴿وَأَحْصُرُوا الْعِدَّةَ﴾ [الآية: ١] عَلَى الْإِجْمَالِ، وَذَكَرَهَا ثُمَّ عَلَى التَّفْسِيرِ. فَإِذَا أُلْحِقَ^(٣) التَّفْسِيرُ بِالْمُجْمَلِ يَصِيرُ فِي الْمَعْنَى وَالْحُكْمِ كَأَنَّهُ وَاحِدٌ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ تِلْكَ فِي الْوَاحِدَةِ وَالثَّلَاثِ؛ أَلَّا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾ هِيَ التَّطْلِيقَةُ الثَّلَاثَةُ؟ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا وَصَفْنَا ثَبَتَ أَنَّ لِلْمَرْءِ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ الْحَامِلَ لِلثَّلَاثَةِ ثَلَاثًا.

قَالَ، رَحِمَهُ اللَّهُ: ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ [فيهِ]^(٤) أَوْجُهُ مِنَ الْفَقْهِ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ دَلَّ أَنَّهُ أَلْزَمَهُنَّ السُّكُونَ فِي بُيُوتِهِنَّ الَّتِي كُنَّ فِيهَا فِي حَالِ قِيَامِ النِّكَاحِ، فَيَكُونُ دَلِيلًا فِي قَوْلِ أَصْحَابِنَا: إِنَّهُ لَيْسَ لِلزَّوْجِ أَنْ يُسْكِنَهَا مَعَهُ فِي بَيْتِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، بَلْ يَتْرُكُهَا فِي ذَلِكَ الْمَسْكَنِ، وَيَتَنَقَّلُ هُوَ بِنَفْسِهِ، إِنْ كَانَ يُرِيدُ الْإِنْتِقَالَ. يُصَحِّحُ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿أَتَكُونُونَ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ [الطلاق: ٦] فَلَمَّا دَخَلَ حَرْفُ ﴿مِنْ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ دَلَّ أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الزَّوْجِ أَنْ يُسْكِنَهَا فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِهِ، وَلَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ إِلَى أَنْ تَنْقَضِيَ الْعِدَّةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[وَالثَّانِي: أَنَّ]^(٥) الْمَعْنَى عِنْدَنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ لِتَخْصِيصِ مَا نَكُنَّ، وَلَا يَخْرُجْنَ خَوْفًا مِنْ وَطْءٍ غَيْرِ الْأَزْوَاجِ وَاشْتِئَاءِ النَّسَبِ لَوْ حَبِلْنَ. وَإِذَا كَانَ نَهْيٌ عَنْ إِخْرَاجِهَا وَخُرُوجِهَا مِنَ الْبَيْتِ لِهَذَا الْمَعْنَى لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ إِيْجَابِ التَّقْفَةِ عَلَيْهَا لِأَنَّهُمَا تَكْتَسِبُ نَفَقَتَهَا بِالْخُرُوجِ [فَإِذَا نُهِيتْ عَنِ الْخُرُوجِ]^(٦) لِتَخْصِيصِ مَا يُوْجِبُ لَمْ يُحْتَمَلْ أَنْ تَكُونَ النَّفَقَةُ عَلَى غَيْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُزْلِتِ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ رُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: مَنْ شَاءَ بِأَهْلَتِهِ؛ إِنْ قَوْلُهُ: ﴿وَأُزْلِتِ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ نَزَلَ بَعْدَ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [الآية: ٢٣٤] وَجَعَلَ عِدَّةَ الْحَامِلِ بِوَضْعِ الْحَمْلِ، وَلَا يُقْتَبَرُ أَبْعَدُ الْأَجَلَيْنِ.

لَكِنْ إِنْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه لَا يُبَاهِلُ، وَيَقُولُ: إِنْ قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ لَا يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأُزْلِتِ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وَكَذَلِكَ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأُزْلِتِ الْأَحْمَالُ﴾ إِنَّمَا ذَكَرَهُ فِي عِدَّةِ الطَّلَاقِ، وَعِدَّةُ الطَّلَاقِ لَا تَنْتَضِي عِدَّةُ الْوَفَاةِ، إِذَا كَانَتْ فِي الْحَيْضِ لَمْ تَدْخُلْ عِدَّةُ الطَّلَاقِ فِي عِدَّةِ الْوَفَاةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَكَذَلِكَ مِنْ جَعَلَ عِدَّتِهَا بِالْإِظْهَارِ لَمْ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: التَّحَقُّقُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ، وَهِيَ حَامِلٌ وَمِنْ تَحِيضٍ، ثُمَّ مَاتَ عَنْهَا زَوْجُهَا قَبْلَ انْقِضَاءِ عِدَّتِهَا لَمْ تَدْخُلْ عِدَّةُ الْوَفَاةِ فِي الْحَيْضِ الثَّلَاثِ، بَلِ الْحَيْضُ [هِيَ] ^(١) الَّتِي تَدْخُلُ فِي عِدَّةِ الْوَفَاةِ، وَتُؤَمَّرُ بِأَنْ تَعْتَدَّ بِأَعْدِ الْأَجَلَيْنِ؟ فَكَذَلِكَ أَمْرُ الْحَامِلِ.

وَإِذَا اشْتَبَهَ ^(٢) الْحَالُ أَمْرَتْ فِي الْإِخْتِيَاظِ أَنْ تَعْتَدَّ بِأَعْدِ الْأَجَلَيْنِ وَلِأَنَّ عِدَّةَ الْوَفَاةِ لَمْ تُلْزَمْ لَوْطِهِ مُتَقَدِّمٌ. أَلَا تَرَى أَنَّهَا قَدْ تُلْزَمُ مَنْ لَمْ يَكُنْ زَوْجُهَا مِنْ أَهْلِ الْوُطْدِ؟ وَأَمَّا عِدَّةُ الْحَبْلِ وَالْحَيْضِ إِنَّمَا لَزِمَتْ لَوْطِهِ مُتَقَدِّمٌ. وَإِذَا [لَمْ] ^(٣) تَكُنْ عِدَّةُ الْوَفَاةِ مِنْ جِنْسِ الْعِدَّةِ بِالْحَبْلِ، لَمْ تَدْخُلْ عِدَّةُ الْحَبْلِ، فَلَا يُوجِبُ فِيهِ الْإِخْتِيَاظُ؛ وَذَلِكَ فِي الْإِعْتِدَادِ بِأَعْدِ الْأَجَلَيْنِ.

ثُمَّ التَّخْصِيصُ بِذِكْرِ الْإِنْفَاقِ عَلَى الْحَوَائِلِ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى أَنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ لَا تَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ لِأَنَّا قَدْ وَصَفْنَا أَنَّهَا نُهِيتُ [عَنِ الْخُرُوجِ] ^(٤) لِتَخْصِيصِ مَاءِ الزَّوْجِ، وَإِذَا بَصُطَتْ تِسْعَةُ أَشْهُرٍ فَقَدْ خَرَجَتْ عَنِ التَّخْصِيصِ، فَكَانَ الْوَجْهُ أَنْ تَسْقُطَ التَّقَهُ بَعْدَ التَّسْعَةِ.

لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَثَّ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي جَمِيعِ الْمَدَّةِ لِأَنَّهَا، لَا مَحَالَةَ، إِنَّمَا أُبَيِّنَتْ فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ لَوْطِهِ الْمُتَقَدِّمِ. فَلِذَلِكَ حَثَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْإِنْفَاقِ عَلَى الْحَوَائِلِ فِي مَا يَقَعُ عِنْدَنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فَإِنَّهُ يُجَوِّزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْوَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ عِنْدَهُ مُبْتَدَأُ خِطَابٍ، لَيْسَ بِمَنْطُوفٍ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّتِي يَنْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ سَائِكُرٍ إِنْ أَرْتَبْتُمْ﴾ لِأَنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُجَوِّزُ أَنْ يَقَعَ الْإِرْتِيَابُ فِي مَنْ تَحْتَمِلُ الْقُرْءَ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَشْهُرَ فِي الْإِسَابِ إِنَّمَا أُقِيمَتْ مُقَامَ الْأَقْرَاءِ فِي ذَاتِ الْحَيْضِ، وَإِذَا كَانَتِ الْحَامِلُ مِمَّنْ تَحْتَمِلُ الْقُرْءَ لَمْ يُجَزَّ أَنْ يَقَعَ لَهُمْ شَكٌّ فِي عِدَّتِهَا لِيَسْأَلُوا عَنْ عِدَّتِهَا. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ ثَبَّتَ أَنَّهُ خِطَابٌ مُبْتَدَأٌ، وَإِذَا كَانَ خِطَاباً مُبْتَدَأً تَنَاوَلَتِ الْعِدَّةُ كُلُّهَا.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُبْتَدَأُ خِطَابٍ مَا رَوَى فِي خَبَرِ سُبَيْعَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ الْأَسْلَمِيَّةِ: أَنَّهَا وَضَعَتْ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِهَا بِخَمْسَةِ وَعَشْرِينَ لَيْلَةً، فَأَمَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَتَزَوَّجَ. فَذَلَّتْ إِبَاحَتَهُ النِّكَاحَ قَبْلَ مُضِيِّ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةٍ عَلَى أَنَّ عِدَّةَ الْحَامِلِ تَنْقُضِي بَوَاضِعَ الْحَمْلِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ الْحَامِلَ إِذَا وَضَعَتْ أَحَدَ الْوَلَدَيْنِ انْقَضَتْ عِدَّتُهَا، وَاحْتَجَّ بِقَوْلِهِ: ﴿أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وَلَمْ يَقُلْ أَحْمَالُهُنَّ. وَلَكِنْ لَا يَسْتَحْسِنُ مَا قَالَهُ لَوْجِهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ قُرِئَ فِي بَعْضِ الْقِرَاءَاتِ أَنْ يَضَعْنَ أَحْمَالَهُنَّ ^(٥).

وَالثَّانِي: أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: يَلِدْنَ، بَلْ عُلِّقَ بِوَضْعِ حَمْلِهِنَّ، وَالْحَمْلُ اسْمٌ لِجَمِيعِ مَا فِي بَطْنِهِنَّ، وَلَوْ كَانَ كَمَا قَالَهُ لَكَانَتْ عِدَّتُهُنَّ بِوَضْعِ بَعْضِ حَمْلِهِنَّ، وَاللَّهُ تَعَالَى جَعَلَ أَجْلَهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ فَقَدْ وَصَفْنَا أَنَّ التَّقْوَى إِذَا ذُكِرَ مُطْلَقاً مُفْرَداً يَتَنَاوَلُ الْأُمُورَ وَالنَّوَاحِي؛ فَكَأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ فِي أَمْرِهِ [خَوْفاً مِنْ] ^(٦) أَنْ يُضَيِّعَهَا أَوْ فِي نَوَاحِيهِ أَنْ يَزْنِكِبَهَا ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ لَهُ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ فِي نَفْسِ التَّقْوَى أَنْ يُيسِّرَهُ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَطَاعَ أَمْرًا﴾ وَصَدَّقَ بِالتَّقِيَّةِ ﴿تَسْبِيحُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥ و ٦ و ٧] يَغْنِي يُيسِّرُ عَلَيْهِ فِعْلَ التَّقْوَى وَالطَّاعَةِ. فَكَذَلِكَ الْأَوَّلُ.

[وَالثَّانِي] ^(٧): يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ: فِي الْمَكَاسِبِ وَالتَّجَارَاتِ وَغَيْرِهَا: أَنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ مِنَ الْحَرَامِ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْحَلَالَ، وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ فِي الشُّبُهَةِ يَسِّرَ اللَّهُ فِي الْمُبَاحِ، وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ فِي تَجَارَتِهِ [رَزَقَهُ] ^(٨) مَا يَرْجُو مِنَ الرِّيحِ، وَيَأْتِلُهُ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأُمُورِ عَلَى هَذَا السَّبِيلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: أثبت. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج ١٦٧/٧. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٥

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أَي ذَلِكَ التَّقْوَى ﴿أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾.

[والثاني] (١): يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ﴾ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ فِي الْمُرَاجَعَةِ وَالْإِشْهَادِ وَالطَّلَاقِ وَالْعِدَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ أَنهَا، وَإِنْ خَرَجَتْ فِي الظَّاهِرِ مَخْرَجَ الْخَبَرِ، فَإِنهَا كُلُّهَا أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى، أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ، فَاتَّبِعُوهَا، وَخُذُوا بِأَمْرِ فِيهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ. وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ هَذَا يَدُلُّ عَلَى مَا وَصَفْنَا أَنَّ التَّقْوَى إِذَا ذُكِرَ مُفْرَدًا انْتَضَمَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ جَمِيعًا.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا الْحَسَنَاتُ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] وَقَالَ ههنا: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ فَجَعَلَ التَّقْوَى مُكَفِّرَةً لِلْسَّيِّئَاتِ. فَلَوْلَا أَنَّ فِي التَّقْوَى اعْظَمَ الْحَسَنَاتِ لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ: ﴿يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ مَعْنَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ كُفْرًا مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ (٢): ﴿أَنْتُمْ كُفْرًا مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾، وَأَنْفَقُوا عَلَيْهِمْ ﴿مِنْ وَجْدِكُمْ﴾. وَيجوزُ أَنْ تَكُونَ قِرَاءَةُ عُمَرَ / ٥٧٦ - ب / ﴿هَذَا أَيْضًا﴾.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: لَا نَدْعُ كِتَابَ رَبِّنَا وَسُنَّةَ نَبِيِّنَا لِقَوْلِ امْرَأَةٍ لَا تَدْرِي أَصَدَقْتُ، أَمْ كَذَبْتُ؟ فَالْكِتَابُ هَذَا، وَالسُّنَّةُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ سَمِعَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ. أَوْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ عِنْدَ عُمَرَ ﷺ فِي هَذَا تِلَاوَةً، قَدْ رُفِعَتْ عَيْنُهَا، وَبَقِيَ حُكْمُهَا، لِذَلِكَ قَالَ: لَا نَدْعُ كِتَابَ رَبِّنَا.

أَلَا تَرَى [إِلَى مَا] (٣) قَالَ عُمَرُ ﷺ فِي أَمْرِ الزَّئِنِيِّ: سَيِّئَاتِي [عَلَى النَّاسِ] (٤) زَمَانٌ يَقُولُونَ: لَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَإِنَّا كُنَّا نَتْلُو مِنْ قَبْلُ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ: إِنَّ الشَّيْخَ وَالشَّيْخَةَ إِذَا زَانَا فَاَرْجُمُوهُمَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، فَقَدْ رُفِعَتْ التِّلَاوَةُ، وَبَقِيَ حُكْمُهَا؟

فكَذَلِكَ فِي أَمْرِ النُّفْقَةِ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ التِّلَاوَةُ مَرْفُوعَةً، وَحُكْمُهَا بَاقِيًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ [ﷺ] (٥): لَا نَدْعُ كِتَابَ رَبِّنَا: [فِي] (٦) الْخَبَرِ دَلَالَةٌ أَنَّ الْكِتَابَ قَدْ يُنْسَخُ بِالسُّنَّةِ، لِأَنَّ عُمَرَ ﷺ إِنَّمَا اخْتَجَعَ فِي امْتِنَاعِهِ عَنْ تَرْكِ كِتَابِ رَبِّهِ لِقَوْلِ امْرَأَةٍ، لَمْ تَدْرِ أَصَدَقْتُ أَمْ كَذَبْتُ. وَلَوْلَا أَنَّ الْكِتَابَ قَدْ يُنْسَخُ بِالسُّنَّةِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ لَاحْتِجَاجِهِ (٧) بِقَوْلِهِ: لَا نَدْعُ كِتَابَ رَبِّنَا لِقَوْلِ امْرَأَةٍ، لَا تَدْرِي أَصَدَقْتُ، أَمْ كَذَبْتُ، مَعْنَى: بَلْ كَانَ يَقُولُ: لَا نَدْعُ كِتَابَ رَبِّنَا بِالسُّنَّةِ. فَلَمَّا قَالَ: لَا نَدْعُ كِتَابَ رَبِّنَا لِقَوْلِ امْرَأَةٍ، لَا تَدْرِي أَصَدَقْتُ، أَمْ كَذَبْتُ، دَلَّ أَنَّ السُّنَّةَ قَدْ تُنْسَخُ بِالْكِتَابِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَرَوَى أَبُو بَكْرِ الْأَصَمُّ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ لَمَّا أَنْكَرَ عَلَيْهَا عُمَرُ ﷺ حَدِيثَهَا، تَرَكَّتْ رَوَايَتَهَا إِلَى زَمَنِ مَرْوَانَ، فَلَمَّا اسْتُخْلِفَ مَرْوَانُ جَعَلَتْ تَرَوِي حَدِيثَهَا، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ مَرْوَانُ، فَدَعَاَهَا، فَزَوَّتْ هَذَا الْحَدِيثَ، فَقَالَ لَهَا مَرْوَانُ عَلَى مَا كَانَ يَقُولُ لَهَا عُمَرُ ﷺ وَقَالَتْ لَهُ: أَيْنَ كِتَابُ رَبِّنَا؟ فَتَلَا عَلَيْهَا قَوْلَهُ: ﴿أَنْتُمْ كُفْرًا مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ وَأَنْفَقُوا عَلَيْهِمْ ﴿مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ فَقَالَتْ: كَيْفَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي الْمُطَلَّاقَةِ ثَلَاثًا؟ وَاللَّهُ يَقُولُ فِي هَذَا: ﴿فَأَنْتُمْ كُفْرًا مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ أَوْ فَأَنْتُمْ كُفْرًا مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ [الطلاق: ٢] وَمَعْنَى الْإِمْسَاكِ فِي الْمُطَلَّاقَةِ مَغْدُومٌ، فَأَفْجَحَ مَرْوَانُ. وَلَوْ فَهِمَ مَرْوَانُ مَا فَهِمَهُ غَيْرُهُ لَمْ يُفْهَمْ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْعِدَّةَ الْمَذْكُورَةَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ إِنَّمَا هِيَ مَكَانٌ قَوْلِهِ: ﴿وَالْمُطَلَّاقَةُ يَرْبِضُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وَلَا فَرْقَ هُنَاكَ بَيْنَ التَّطْلِيقِ الْوَاحِدَةِ وَالثَّلَاثِ.

وَإِذَا كَانَ الْمَذْكُورُ فِي هَذِهِ الْعِدَّةِ مَكَانَ تِلْكَ، فَالْمَذْكُورُ فِي التَّقْفَةِ فِي هَذِهِ كَالْمَذْكُورَةِ فِي تِلْكَ الْآيَاتِ [وَلَيْسَ فِي تِلْكَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: و. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية: ج/ ١٦٨. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: احتجاجة.

الآية^(١) [فَرَّقَ بَيْنَ الثَّلَاثِ وَالوَاحِدَةِ، فَلِذَلِكَ قُلْنَا: فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى دَلَالَةٌ لِإِجَابِ الثَّقَّةِ فِي الْمَبْتَوَّةِ وَالْمُطَلَّقةِ ثَلَاثًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَيَكُونُ حُجَّةً عَلَى الشَّافِعِيِّ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَنَّهُ لِمَا اسْتَدِلَّ بِذِكْرِ الْإِنْفَاقِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ عَلَى وَجوبِ الإسْكَانِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْإِخْرَاجِ مَعَ تَوْهَمِ الْإِنْفَاقِ دُونَ الإسْكَانِ، فَلَا أَنْ يَسْتَدِلَّ بِذِكْرِ الإسْكَانِ عَلَى الْإِنْفَاقِ، وَلَا يَكُونُ الإسْكَانُ إِلَّا بِالْإِنْفَاقِ لِاتِّصَالِهِ بِهِ، أُخْرَى، فَصَارَ قَوْلُهُ: ﴿أَتَكُونُونَ﴾ دَلِيلًا عَلَى وَجوبِ الْإِنْفَاقِ. وَإِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّ الْإِنْفَاقَ مُتَّصِلٌ بِالْإِسْكَانِ لِأَنَّهُ نَهَى عَنْ إِخْرَاجِهَا مِنْ بَيْتِهِ، وَأَمَرَ بِإِسْكَانِهَا، فَلَا يَحْتَمِلُ إِلَّا يُؤْمَرُ بِالْإِنْفَاقِ لِأَنَّهُ فِي ذَلِكَ [تَضْيِيقًا عَلَيْهَا وَتَفْسِيرًا]^(٢).

أَلَا تَرَى أَنَّهُ إِنَّمَا تَكْتَسِبُ الثَّقَّةَ بِالْخُرُوجِ، فَإِذَا نَهَى الزَّوْجَ عَنْ إِخْرَاجِهَا، وَنَهَيْتُ هِيَ عَنِ الْخُرُوجِ، لَمْ تَصِلْ إِلَى نَفَقَتِهَا إِلَّا بِالزَّوْجِ ضَرُورَةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؟

وَلِأَجْلِ أَنَّا نَنْظُرُ أَنَّ الثَّقَّةَ فِي الْحَامِلِ لِلْحَمْلِ أَوْ الْعِدَّةِ، فَوَجَدْنَا أَنَّهَا لَوْ كَانَتْ وَاجِبَةً لِلْحَمْلِ، لَمْ يَجِبْ إِذَا كَانَ حَمْلُهَا بِحَيْثُ لَوْ وَضَعَتْهُ لَمْ يُلْزَمَ نَفَقَتُهُ عَلَيْهِ. وَقَدْ وَجَدْنَا هَذَا الْحُكْمَ نَحْوَ حُرِّ يَتَزَوَّجُ أَمَةً رَجُلٌ بِإِذْنِ سَيِّدِهَا، فَقُلِدَتْ وَلَدًا: أَنَّ نَفَقَةَ الْوَلَدِ عَلَى السَّيِّدِ، وَكَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، فَلَمَّا اسْتَقَامَ وَجوبُ الثَّقَّةِ عَلَى الزَّوْجِ مَا دَامَتْ حَامِلًا، وَإِنْ كَانَ بِحَيْثُ لَوْ وَضَعَتْهُ لَمْ تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ. ثَبَتَ أَنَّ الثَّقَّةَ فِي الْحَامِلِ لِمَكَانِ الْعِدَّةِ لَا لِلْحَمْلِ. وَالْعِدَّةُ فِي الْحَائِلِ وَالْحَامِلِ وَاحِدَةٌ، فَكَذَلِكَ كَانَ حُكْمُهَا وَاحِدًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ الْأَصْلُ عِنْدَنَا مَا وَصَفْنَا أَنَّ الثَّقَّةَ إِنَّمَا وَجِبَتْ لِاسْتِغْنَائِهِ الْمُتَقَدِّمِ. فَإِذَا كَانَتْ مَحْبُوسَةً لِاسْتِغْنَائِهِ السَّابِقِ أَوْجِبَتْ الثَّقَّةُ عَلَيْهِ. وَإِذَا كَانَتْ مَحْبُوسَةً لَا بِهَذَا الْحَقِّ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ الثَّقَّةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَلَا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَتَكُونُونَ مِنْ حَيْثُ سَكَنَتْ بَيْنَ وَبَيْنِكُمْ﴾ إِضْمَارَ الثَّقَّةِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿أَتَكُونُونَ مِنْ حَيْثُ سَكَنَتْ﴾ وَأَنْفَقُوا عَلَيْهِنَّ ﴿بَيْنَ وَبَيْنِكُمْ﴾ لِأَنَّهُ لَوْلَا هَذَا الْإِضْمَارُ لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ ﴿بَيْنَ وَبَيْنِكُمْ﴾ عَلَى الظَّاهِرِ مَعْنَى، لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿أَتَكُونُونَ﴾ عَلِمَ أَنَّهُ جَعَلَ الإسْكَانَ عَلَيْهِمْ. وَمَنْ كَانَ عَلَيْهِ الإسْكَانُ فَإِنَّمَا يَكُونُ مِنْ وَجْدِهِ. فَلَمْ يَكُنْ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَيْنَ وَبَيْنِكُمْ﴾ إِلَّا إِعْلَامٌ مَا عَلِمْنَاهُ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ ثَبَتَ أَنَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَيْنَ وَبَيْنِكُمْ﴾ [إِضْمَارًا]^(٣) يَسْتَقِيمُ عَلَيْهِ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: ﴿بَيْنَ وَبَيْنِكُمْ﴾^(٤) وَلَيْسَ بَيْنَ الْقَرَأَتَيْنِ اخْتِلَافٌ، وَلَكِنْ إِحْدَاهُمَا خَرَجَتْ عَلَى الْإِجْمَالِ، وَالثَّانِيَةُ عَلَى التَّفْسِيرِ عَلَى مَا قُرِئَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] [فَاقْطَعُوا أَيْمَانَهُمَا]^(٥) وَلَمْ يُحْمَلْ ذَلِكَ عَلَى الْإِخْتِلَافِ، بَلْ حُمِلَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْإِجْمَالِ، وَالثَّانِيَةُ عَلَى التَّفْسِيرِ، فَكَذَلِكَ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، مَعَ مَا إِنَّ لَمْ يَثْبُتِ اللَّفْظُ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَلَيْهِ فَتَاوِيلُهُ^(٦) أَنْ يَكُونَ مِنْ خَبَرِ الْآحَادِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ خَبَرَ ابْنِ مَسْعُودٍ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ مِنْ خَبَرِ الْآحَادِ فِي مَا يُسْنَدُهُ إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ مَقْبُولٌ. أَوْ لَمَّا وَجِبَ قَبُولُ خَبَرِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَلَيْهِ مَعَ مَا قِيلَ فِيهِ مِنَ الضَّعْفِ، فَلَا أَنْ يَقْبَلَ خَبَرُ ابْنِ مَسْعُودٍ عَلَيْهِ مَعَ فَضْلِهِ وَوَرَعِهِ وَكَثْرَةِ مُصَاحِبِيهِ^(٧) مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ وَتَبَحُّرِهِ فِي الْفِقْهِ أَوَّلَى. وَمَنْ هَجَرَ قِرَاءَةَ ابْنِ مَسْعُودٍ عَلَيْهِ خِيفَ عَلَيْهِ الزُّلَّةُ.

أَلَا تَرَى إِلَى مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَيْهِ أَنَّهُ سَأَلَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ فَقَالَ: مَا تَعْدُونَ آخِرَ الْقِرَاءَةِ؟ قَالُوا: قِرَاءَةُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ عَلَيْهِ قَالَ: كَلَّا، كَانَ يُغَرِّضُ الْقُرْآنَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، وَغَرَضَ عَلَيْهِ فِي الْعَامِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَّتَيْنِ، وَقَدْ شَهِدَهُمَا جَمِيعًا ابْنُ مَسْعُودٍ عَلَيْهِ وَإِذَا كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ، قِرَاءَتُهُ آخِرُ الْقِرَاءَاتِ، وَهُوَ الَّذِي شَهِدَ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ آخِرَ مَرَّةٍ لَمْ يَنْبَغِ أَنْ يُغَرِّضَ عَنْ قِرَاءَتِهِ، وَتُهَجَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿أَتَكُونُونَ مِنْ حَيْثُ سَكَنَتْ﴾ دَلَالَةٌ أَنَّهُ إِنَّمَا يُسَكِّنُهَا فِي جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ مَسْكَنِهِ لَا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُسَكِّنُهُ، هُوَ، لِأَنَّهُ حَرَفَ ﴿بَيْنَ﴾ لِلتَّجْزِئَةِ وَالتَّبْعِيضِ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: تَضْيِيقٌ عَلَيْهَا وَتَفْسِيرُهُ. (٣) فِي م: إِضْمَارٌ. (٤) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٥) مِنْ نَسَخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ وَم: فَلِإِمَانِهِمَا، وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٢/ ٢٠٨. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: فَأُولَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: صَحْبَتُهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَعْفِهِنَّ عَلَيْهِنَّ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ مِنَ التَّأْوِيلِ:
أحدهما: أي لا تُضَارُّوهُنَّ في الإنفاق، فَتَضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ التَّفَقُّةَ، فَيَخْرُجْنَ.

[والثاني:]^(١) لا تُضَارُّوهُنَّ في المَسْكَنِ، فَتَدْخُلُوا عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ، فَيَضَيِّقُ عَلَيْهِنَّ الْمَسْكَنُ، فَيَخْرُجْنَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ كُنْ أَزْلَكَ حَتَّى تُلَاقِيَهُنَّ﴾ حَقٌّ يَقْضِي حَقَّهُنَّ دَلَّ الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى النَّهْيِ عَنِ الْإِخْرَاجِ كَمَا دَلَّ النَّهْيُ عَنِ الْإِخْرَاجِ عَلَى وَجوبِ الْإِنْفَاقِ.

ثم التَّخْصِصُ بِذِكْرِ الْإِنْفَاقِ عَلَى الْحَامِلِ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِمَعْنَى أَنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ لَمْ تَدْخُلْ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ لِأَنَّا قَدْ وَصَفْنَا أَنَّهَا نَهَيْتُ [عَنِ الْخُرُوجِ]^(٢) لِتَحْصَنَ مَاءَ الزَّوْجِ، وَإِذَا مَضَتْ تِسْعَةُ أَشْهُرٍ فَقَدْ خَرَجَتْ عَنِ التَّخْصِصِ، فَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ تَسْقُطَ التَّفَقُّةُ / ٥٧٧ - أ / بَعْدَ التَّسْعَةِ، قَدْ ذَكَرْنَا هَذَا الْمَعْنَى فِي مَا تَقَدَّمَ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْفَائِدَةُ فِي تَخْصِصِ الْحَوَامِلِ بِالْإِنْفَاقِ عِنْدَنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُ لَوْلَا هَذِهِ الْآيَةُ لَكَانَتْ الْحَوَامِلُ يَخْرُجْنَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ وَعَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، لِأَنَّ الْأَزْوَاجَ لَهُمْ أَنْ يَخْتَرِجُوا عَلَيْهِنَّ أَنْ حَرَمَ النِّكَاحِ فِي ذَوَاتِ الْأَحْمَالِ لَيْسَتْ لِحَقِّ الْأَزْوَاجِ، وَلَكِنْ لِحَقِّ مَا فِي بَطْنِهَا مِنَ الْوَلَدِ^(٣).

أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَيْهَا النِّكَاحُ مِنْ غَيْرِهِ، وَقَدْ قُلْنَا: إِنَّ التَّفَقُّةَ إِنَّمَا أُوجِبَتْ فِي غَيْرِ الْحَوَامِلِ لِأَنَّهُنَّ يُحْبَسْنَ عَنْ نِكَاحِ الْأَجَانِبِ بِحَقِّ الْأَزْوَاجِ؟ فَإِذَا كَانَ الْحَبْسُ فِي الْحَوَامِلِ لَا لِحَقِّ الْأَزْوَاجِ جَازٍ أَنْ يَكُونَ حُجَّةً لَهُمْ فِي إِسْقَاطِ التَّفَقُّةِ عَنْهُمْ. وَإِذَا كَانَتْ كَذَلِكَ حَثَّ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْإِنْفَاقِ عَلَى الْحَوَامِلِ مَا لَمْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ، لِأَنَّ ذَلِكَ الْحَمْلَ مِنْ أَقْرَبِ اسْتِئْذَانِهِنَّ الْمُتَقَدِّمِ. فَفَائِدَةُ تَخْصِصِ ذِكْرِ الْحَوَامِلِ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْزُقُوهُنَّ مِنْ أَجْرِكُنَّ﴾ هَذَا يَنْصَرِفُ أَوْجُهًا مِنْ أَدْلَةِ الْفَقْه:

أحدها: أَنَّهُ قَالَ: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْزُقُوهُنَّ مِنْ أَجْرِكُنَّ﴾ يُثَبِّتُ أَنَّ الْإِرْضَاعَ كَانَ بِإِجَارَةٍ، وَأَنَّهُ إِذَا اسْتَأْجَرَهَا لِتَرْضِعَ وَلَدَهُ مِنْهَا بَعْدَ الْمُفَارَقَةِ جَازَتْ الْإِجَارَةُ، وَحَلَّ لَهَا أَخْذُ الْأَجْرِ، وَأَنَّهُ [لَوْ]^(٤) اسْتَأْجَرَتْ امْرَأَتَهُ فِي صُلْبِ النِّكَاحِ عَلَى إِرْضَاعِ وَلَدِهِ مِنْهَا لَمْ يَجُزْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا أَخْذُ الْأَجْرِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ بَدَلَ الرِّضَاعِ فِي صُلْبِ النِّكَاحِ بِلَفْظِ الرِّزْقِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فَإِذَا سُمِّيَ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى رِزْقًا أَجْرًا لَمْ يَكُنْ أَجْرًا، وَكَانَ بِحَقِّ الرِّزْقِ وَالْكِسْوَةِ، فَلِلَّذَلِكَ لَمْ تَجُزِ الْإِجَارَةُ فِي صُلْبِ النِّكَاحِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[والثاني:]^(٥) قَوْلُهُ ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْزُقُوهُنَّ مِنْ أَجْرِكُنَّ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّبْنَ، وَإِنْ خُلِقَ لِمَكَانِ الْوَلَدِ، فَهُوَ مِلْكٌ لَهَا، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهَا أَنْ تَأْخُذَ الْأَجْرَ عَلَى لَبَنِ لَيْسَ لَهَا فِيهِ مِلْكٌ.

[والثالث:]^(٦) فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ حَقَّ الْإِرْضَاعِ وَالتَّفَقُّةَ عَلَى الْأَزْوَاجِ فِي حَقِّ الْأَوْلَادِ، وَحَقَّ الْإِمْسَاكِ وَالْحِصَانَةِ وَالْكِفَالَةِ عَلَى الزَّوْجَاتِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ لَهَا بَعْضُ الْأَجْرِ، ثَبَتَ أَنَّ حَقَّ الْإِرْضَاعِ عَلَى الْأَزْوَاجِ، وَعَلَى الزَّوْجَاتِ الْكِفَالَةُ وَالْإِمْسَاكُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[والرابع:]^(٧) لِأَجْلِ أَنَّا لَوْ جَعَلْنَا اللَّبْنَ مِلْكًا لِلْوَلَدِ مَخْلُوقًا لَهُ، وَجَعَلْنَا التَّفَقُّةَ عَلَى الْأُمِّ مِنْ مَالِ نَفْسِهَا لَكَانَتْ تَفَقُّتُهَا تَغْنِي، وَلَا يَتَهَيَّأُ لَهَا كَسْبُ النِّفَقَةِ لِاشْتِغَالِهَا بِالْإِرْضَاعِ لِتَجُوعٍ، وَتَهْلُكُ، وَيَذْهَبُ لَبْنُهَا، فَيَبْطُلُ الرِّضَاعُ^(٨) وَإِذَا كَانَ إِجْبَابُ الرِّضَاعِ عَلَيْهَا يُسْقِطُ [عَنْهُ]^(٩) مِنْ حَيْثُ يُرَادُ جَعْلُ التَّفَقُّةِ اسْقَاطًا^(١٠) عَنْهَا، وَجَعَلْنَا مِلْكَ اللَّبَنِ [لَهَا]^(١١) لِتَأْخُذَ الْأَجْرَ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) م، فِي الْأَصْلِ: الْوَلَدَانِ. (٤) م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: نَم.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٨) م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: فَاسْقَطْنَاهَا.

(١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

[والغاسل]^(١): في هذه الآية دلالة على أن الأجر إنما يجب بعد استيفاء المنافع، فإنه قال: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآوَهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾ إنما أوجب الإتياء بعد الإرضاع.

[والسادم]^(٢): في قوله: ﴿أَجْرَهُنَّ﴾ دلالة على أن الإرضاع إنما هو بإجارة قد سبقت. لذلك قال أصحابنا: إن الأجرة إنما تجب عند استيفاء العمل.

وقوله تعالى: ﴿وَأْتِيرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ له وجهان:

أحدهما: أن يقول: ﴿وَأْتِيرُوا﴾ يعني تشاوروا في إرضاعه إذا تعاسرت هي.

والثاني: ﴿وَأْتِيرُوا﴾ أي اعملوا بأمر من جعل الله تعالى إليه الأمر بالمعروف.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَايَرْتُمْ فَسْتَخِرْ لَّهِ أُخْرَى﴾ يعني إذا تنازعتم في الرضاع، وأبى الأم أن ترضعه، فاطلبوا أخرى ترضعه عندها.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ أي من وسع عليه في الرزق فلينفق نفقة واسعة ﴿وَمَن لَّدَى عَلَيْهِ يَنْفِقْ﴾ يعني ضيق عليه، و﴿لَّدَى عَلَيْهِ﴾ هنا بمعنى ضيق عليه، وهو كما قال: ﴿فَقُلْ أَن لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أي فقل أن لن نصيق عليه، وكذلك: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦ و...]. يعني ويضيق عليه؛ أي من ضيق عليه فلينفق نفقة صغيرة. فذلك قوله: ﴿فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا أَتَاهَا﴾ فهو يدل على أن العباد ما اكتسبوا من الأموال، فهي كلها مما آتاهم الله تعالى، وأن الله تعالى في أفعال العباد وفي ما يكتسبونه من الأموال صنعا وتذبيرا، لأنه لولا ذلك لكان يجوز أن يكلفهم^(٣) الله تعالى [بالنفقة]^(٤) وإن لم يؤتوا لهم إذا كان في قدرتهم^(٥) أن يكتسبوا^(٦) مما لم يؤتوا^(٧) الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ هذا دليل على أنه إذا عجز عن نفقة امرأته لم يفرق بينها وبينه، لأنه إذا فرق بينهما لم تصل إلى زوج ينفق عليها للحال، بل تحتاج فيه إلى انقضاء العدة.

وقد يتوهم في خلال ذلك أن يؤسر الزوج لأن إنجاز وعده الله تعالى في اليسار بعد العسر أقرب من قدرتها [على الحصول]^(٨) على زوج، ينفق عليها. وليس هذه كالأمة، لأنه إذا باع الأمة دخلت في ملك الآخر، ينفق عليها، والله أعلم.

ثم يجوز أن يكون قوله: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وعدا لجميع الأمة: أن من ابتلي بالعسر يتبعه اليسر. ويجوز أن يكون خطابا لأصحاب رسول الله ﷺ حين كانوا في عسر وضيق عيش، فوعدهم الله بعد ذلك العسر الذي كانوا فيه يسرا.

وقد أنجز الله تعالى الوعد حيث فتح لهم الفتوح، ونصرهم على أعدائهم، وغنموا أموالهم، والله أعلم.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿وَكَايَ مَن قَرَّبَهُ بَغْتَةً ذِي فَتْرَةٍ﴾ وصف الله تعالى القرية بالفتور. ومعلوم أنها لا تغتر، ولكن المراد منه أن عتا أهلها عن أمر ربهم.

وقد يجوز أن يكتفى بالمكان عن الأهل كما قال في آية أخرى: ﴿وَسَلَّى الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] يعني أسأل أهل القرية. وفي هذا دلالة أن ما خرج مخرج الكناية في الحقيقة لم يكن كذبا، وإن كان في ظاهره تراعى أنه كذب. ألا ترى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَةً﴾؟ [ص: ٢٣] ومعلوم أنه لم يكن هناك نجات^(٩)، ولكن كناية عن النساء، فخرج على الصديق في الحقيقة كناية أن هذا أخي له تسع وتسعون امرأة، فذلك الأول، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: يكلفه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: قدرته. (٦) في الأصل وم: يكتسب. (٧) في الأصل وم: يؤته. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: نجعة.

وَالْعُتُوِّ النَّهْيَةُ فِي الْإِسْتِكْبَارِ؛ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا سَبِّتْنَاهَا إِلَّا جِسَابًا شَدِيدًا﴾ لَهُ أَوْجُهُ مِنَ التَّأْوِيلِ:

أَحَدُهَا: يَقُولُ: ﴿فَمَا سَبِّتْنَاهَا﴾ أَي بَلَّغُوا فِي الْكُفْرِ وَالْعُتُوِّ وَالْإِسْتِكْبَارِ مَبْلَغًا صَارُوا مِنْ أَهْلِ الْحِسَابِ الشَّدِيدِ وَالْعَذَابِ الْمُنْكَرِ.

[والثاني] ^(١): يَجْعَلُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نُزُولِ النَّقْمَةِ بِالْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ لِعُتُوِّهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ حِسَابًا شَدِيدًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ لِيَتَذَكَّرُوا، وَيَتَعَطَّوْا.

[والثالث] ^(٢): يَكُونُ مَعْنَاهُ: ﴿فَمَا سَبِّتْنَاهَا﴾ أَي سَبَّحْنَا حِسَابًا شَدِيدًا فِي الْآخِرَةِ كَمَا كَانَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَاذَ قَالَ اللَّهُ يَبْعَثُ آيْنَ مَرْيَمَ ءَأَتَتْ فَلَتْ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] بِمَعْنَى: وَإِذْ يَقُولُ اللَّهُ، فَكَذَلِكَ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَوَجْهُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَعْنِيَانِ:

أَحَدُهُمَا: تَخْوِيفُ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالْكَفَرَةِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ بِمَا نَزَلَ بِالْأَمَمِ الْخَالِيَةِ حِينَ تَزَكُّوا أَتْبَاعُ رُسُلِهِمْ وَالْإِيمَانُ بِهِمْ، وَاسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ، وَعَتَوْا، لَكِي يَنْتَهِيَ أَهْلُ قَرْيَتِهِ ﷺ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعُتُوِّ، وَيَحْذَرُوا الْوُقُوعَ فِيهِ فِي حَادِثِ الْأَوْقَاتِ.

[والثاني] ^(٣): يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ تَسْكِينًا لِقَلْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَهْوِينًا عَلَيْهِ فِي مَا يَلْقَى مِنْ أَمْرِ قَوْمِهِ وَعُضْيَانِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ، وَلِيُغْلَمَ مَا لَقِيَ الرِّسْلَ الْمُتَقَدِّمَةَ مِنْ أَمَمِهِمْ حَتَّى بَلَغَ كُفْرُهُمْ وَاسْتِكْبَارُهُمُ الْمَبْلَغَ الَّذِي وَقَعَ الْيَأْسُ مِنْ إِيْمَانِهِمْ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمْ مَا أَنْزَلَ مِنَ النَّقْمِ وَالْعُقُوبَةِ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ [الآيات] ^(٤) مِخْنَةً امْتَحَنَ بِهَا رَسُولَهُ لِيُغْلَمَ شَفَقَتُهُ عَلَى أُمَّتِهِ فِي تَرْكِ الدَّعَاءِ / ٥٧٧ - ب / عَلَيْهِمْ بِالْإِهْلَاكِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿فَنَاقَتْ رَبَّهَا أَنَّهَا كُفِّرَتْ﴾ أَي شِلَّةٌ أَمْرُهَا أَوْ نِقْمَةٌ أَمْرُهَا أَوْ عُقُوبَةٌ كُفِّرَهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَقِبُهَا خُرَابًا﴾ أَي عَاقِبَةُ عُتُوِّهَا خَسَارًا فِي الْآخِرَةِ.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَهْلَ الْآلِيبِ﴾ أَي فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا مَنْ تَدْعُونَ أَنْ [لَكُمْ الْبَابَ] ^(٥) فَاتَّقُوهُ عَنْ أَنْ تَكْفُرُوا بِهِ وَبِرَسُولِهِ.

وفيه دلالة أَنَّ خِطَابَ اللَّهِ إِنَّمَا يَتَنَاوَلُ الْعُقَلَاءَ مِنْهُمْ، وَأَنَّ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ فَلَا خِطَابَ عَلَيْهِ.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿رَسُولًا﴾ لَهُ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَجْعَلَ الذِّكْرَ وَالرَّسُولَ [كَلِمَةً وَاحِدَةً] ^(٦)، فَيَقُولُ ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ وَهُوَ الرَّسُولُ. وَإِنَّمَا سَمَّاهُ ذِكْرًا لِوُجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ مَنْ اتَّبَعَهُ شَرَفَتْ، وَصَارَ مَذْكُورًا.

[والثاني] ^(٧): سَمَّاهُ ذِكْرًا لِأَنَّهُ يُذَكِّرُهُمُ الصَّالِحَ وَالضَّارَّ وَمَا يَرْجِعُ إِلَى دِينِهِمْ وَعُقُوبَاتِهِمْ.

[والثاني] ^(٨): يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ إِضْمَارٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: أَنْ يَقُولَ: أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ رَسُولًا.

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ﴾ [بِالْخَفْضِ وَالنَّصْبِ] ^(٩).

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُمْ لِبَاءً. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَهُ وَاحِدًا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٩) أُدْرِجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: فَمَعْنَاهُ أَنَّهَا تَبَيَّنَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَأُدْرِجَ بَعْدَ: وَالنَّصْبِ: الْآيَاتُ الْأَعْلَامُ وَالْحَجِجُ، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ١٧٠ / ٧.

فَمَنْ قَرَأَ ﴿مَيِّتٌ﴾ بِالْخَفْضِ فَمَعْنَاهُ أَنَّهَا تَبَيَّنَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ.

وَمَنْ قَرَأَ بِالنُّصْبِ فَكَأَنَّهُ يَرِيدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْضَحَ آيَاتِهِ، وَيَبَيَّنَهَا، حَتَّى إِذَا مَنْ تَفَكَّرَ فِيهَا وَفِي جَوهرِهَا عَلِمَ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ وَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فَحَقُّ هَذَا الْكَلَامِ أَنْ يَقُولَ: لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا^(١) مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَلَكِنْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا جَارَ أَنْ يُرَادَ مِنَ الْمَاضِي الْمُسْتَقْبَلُ. كَقَوْلِهِ^(٢) تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦] أَيْ وَإِذْ يَقُولُ اللَّهُ: يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ جَارَ، أَنْ يُرَادَ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ الْمَاضِي. وَهَذَا سَائِفٌ فِي اللُّغَةِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَقُولَ: لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ ظُلُمَاتٍ، تَخْدُثُ لَهُمْ بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ، إِلَى النُّورِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقِيلَ: قَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يَعْنِي الَّذِينَ وَخَدُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَعَظَّمُوهُ، وَجَلَّلُوهُ [وَنَزَّهُوهُ]^(٣) مِنْ مَعَانِي الشُّبُهَةِ، وَوَصَفُوهُ بِالتَّعَالَى عَنِ السُّبُوبِ وَالْآفَاتِ، وَعَمِلُوا فِي إِيْمَانِهِمْ صَالِحًا، إِذْ^(٤) خَافُوهُ، وَرَجَّوهُ بِإِيْمَانِهِمْ؛ وَذَلِكَ عَمَلُهُمُ الصَّالِحُ فِي الْإِيْمَانِ، وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] وَمَعْنَى ذَلِكَ الْكَسْبِ مِنَ التَّعْظِيمِ وَالتَّجْبِيلِ وَالرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ فِي نَفْسِ الْإِيْمَانِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فِي آدَاءِ الْفَرَائِضِ الَّتِي افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَتَى اللَّهَ لِلرِّقَاقِ﴾ أَيْ طَاعَةً فِي الدُّنْيَا وَثَوَابًا فِي الْآخِرَةِ. وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷻ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّ مَنْ نَالَ الْإِيْمَانَ فَإِنَّمَا نَالَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، لِأَنَّهُ لَوْلَا ذَلِكَ^(٥) لَمْ يَكُنْ لِيُؤْمِنَنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِذَلِكَ.

الآية ١٢

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَسْلُكُنَّ﴾ اخْتَلَفُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ﴾: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ﴿يَسْلُكُنَّ﴾ أَيْ طِبَاقًا مِثْلَ السَّمَوَاتِ: بَعْضُهَا طَبَقًا فَوْقَ بَعْضٍ. وَبَعْضُهُمْ مَنْ قَالَ: ﴿يَسْلُكُنَّ﴾ يَعْنِي سَبْعَ جَزَائِرٍ عَلَى مِثْلِ مَا قَالَ: ﴿سَبْعَةَ أَبْحُرٍ﴾ [القمان: ٢٧] فَكَذَلِكَ خَلَقَ سَبْعَ جَزَائِرٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: خَلَقَ هَذِهِ الْأَرْضَ الَّتِي تُشَاهِدُهَا عَلَى حَدِّ السَّمَاءِ وَمِقْدَارِهَا، وَالسَّيِّئُ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ السَّمَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَلَيْسَ بِنَا إِلَى تَعَرُّفِ مَا هِيَ بِهَا وَكَيْفِيَّتِهَا وَعَدِّدُهَا حَاجَةً لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي تَعْرِيفِهَا حُكْمٌ يَتَعَلَّقُ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ لَهُ تَأْوِيلَانِ:

أَحَدُهُمَا: يَنْزِلُ الْوَحْيُ بَيْنَهُنَّ، وَمَا يَنْزِلُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْكِتَابِ وَالرَّسْلِ بَيْنَهُنَّ. وَمَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُمْ لَمْ يُخْصُوا بِوَحْيَةِ الرِّسْلِ وَالْكِتَابِ وَالْوَحْيِ، بَلْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مُمْتَحَنٌ بِذَلِكَ.

وَالثَّانِي: ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ يَعْنِي التَّكْوِينَ. وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْلُو مَكَانٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ كَوْنٍ، يُكُونُهُ اللَّهُ تَعَالَى، أَوْ مُحَدِّثٌ يُحْدِثُهُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أَمْرُ تَكْوِينَ. وَمَعْنَاهُ مَا وَصَفْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيْ لِكَيْ تَعْلَمُوا إِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا جَرَى مِنْ التَّدْبِيرِ فِيهِمَا أَنَّ مَنْ بَلَغَتْ قُدْرَتُهُ هَذَا الْمَبْلَغَ كَانَتْ قُدْرَتُهُ ذَاتِيَّةً، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ عَمَّا أَرَادَهُ. أَوْ يَدُلُّ هَذَا التَّدْبِيرُ أَنَّهُ خَرَجَ عَنْ عَالِمٍ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يَحْتَمِلُ أَوْجُهًا:

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: كَفَرُوا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذَا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: هَكَذَا.

أَخَذَهَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى خَلْقِ فِعْلٍ كُلِّ فَاعِلٍ مِنْ خَلْقِهِ قَدِيرٌ. وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَانَ أَعْلَمَهُمْ بِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ فَلَمَّا قَالَ: ﴿لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لَمْ يَكُنْ يُدِّ مِنْ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي غَيْرِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ. فَتَبَيَّنَ أَنَّ فِيهِ دَلَالَةً قُدْرَتِهِ عَلَى خَلْقِ فِعْلٍ كُلِّ مَخْلُوقٍ، لِأَنَّهُ لَمَّا بَلَغَتْ قُدْرَتُهُ وَتَذْيِيرُهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ مَعَ عَظَمِ أَمْرِهِمَا وَشَانِهِمَا وَمَعَ عَجْزِ الْبَشَرِ عَنْ تَذْيِيرِ مِثْلِهِمَا، فَلَأَنَّ تَبْلُغُ قُدْرَتُهُ فِي مَا يَقَعُ فِيهِ تَذْيِيرُ الْبَشَرِ، وَهُوَ أَفْعَالُهُمْ أَحَقُّ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَوَجْهُ آخَرُ أَنْ يَقُولَ: ﴿لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بِمَا وَعَدَ، وَأَوْعَدَ، قَدِيرٌ، أَوْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْ مَنَافِعِ الْعِبَادِ وَمَضَارِهِمْ قَدِيرٌ.

وَعَلَى قَوْلِ [الْمَعْتَزِلَةِ]^(١): إِنَّ اللَّهَ، لَا يَقْدِرُ عَلَى فِعْلٍ بَعُوضَةٍ فَمَا فَوْقَهَا، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى إِصْلَاحِ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِنْ نَقَدَ جَمِيعَ خَزَائِنِهِ، وَإِنْ مَنْ صَلَحَ فَإِنَّمَا يَصْلُحُ بِنَفْسِهِ وَمَنْ فَسَدَ [فَإِنَّمَا يَفْسُدُ]^(٢) بِنَفْسِهِ.

وَهَذَا اخْتِلَافٌ مَا وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِوَيْفِ نَفْسِهِ مِنْ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ يَغْنِي أَنْ عِلْمَهُ، لَا يَشُدُّ عَنْ شَيْءٍ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْفِعْلِ وَالْأَمْرِ وَغَيْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



سورة التحريم

وهي مدنية^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ هذا في الظاهر قطع بأن يحرم رسول الله ﷺ ما أحل الله له.

ومن قال بأنه حرم ما أحل الله له فقد قال أمراً منكراً، ولو اعتقد ذلك كان كفراً منه؛ إذ من حرم ما أحل الله تعالى كان كافراً، ومن كان اغتياده في رسول الله ﷺ هذا، فهو كافراً.

وقال أبو بكر الأصم: دلّت هذه الآية / ٥٧٨ - أ / على أن ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله تعالى، لأن الله تعالى منع رسوله عن ذلك.

لكن الأمر عندنا ليس على ما ظنّه أبو بكر ولا على [ما]^(٢) سبق إليه وهم بعض الجهال أن رسول الله ﷺ حرم شيئاً، أحله الله تعالى. ومن توهم هذا برسول الله ﷺ فقد حكم على رسول الله ﷺ بالكفر.

وتأويله عندنا، والله أعلم، على وجهين:

أحدهما: أن تحريم ما أحل الله تعالى، هو أن يعتد بتحريم المحلل وتحليل المحرم في ما حرم الله تعالى مطلقاً. فمن اعتد بتحريمه حكم عليه بالكفر، ورسول الله ﷺ لم يعتد بتحريم ما أحل الله؛ إذ لم ير جماعة عليه محرماً، بل امتنع عن الإنقياع بها باليمين. والجزئة التي تثبت بسبب اليمين، لم تكن من فعل الآدمي، وإن ثبتت بمباشرة السبب منه كالتحريم بالطلاق وبغيره من الأسباب؛ فإنما تثبت من الله تعالى عقيب مباشرة الأسباب من العباد وكسائر الأحكام كيف وإنه باليمين لا تثبت حرمة نفس الفعل، وإنما المحرم من ترك تعظيم الله تعالى الواجب بسبب اليمين. وهذا لا يعدّ تحريم الحلال وتحليل الحرام، [لو أراد]^(٣) بالتحريم منع النفس عن ذلك مع اغتياده بكونه حلالاً أن يكون قصد به قصد تحريم عينه.

وقد يمنع المرء عن تناول الحلال لغرض له في ذلك، وهو كقوله تعالى: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلَ﴾ [القصص: ١٢] ولم [يرد] به^(٤) تحريم عينه ولا التحريم الشرعي؛ إذ الصبي ليس من أهله، وإنما أريد به امتناعه من الإرضاع إلا من نذّي أمه. فعلى ذلك هنا، والله أعلم.

والثاني: أن رسول الله ﷺ كان نذّب إلى حسن العشرة مع أزواجه إلى الشفقة عليهن، فبلغ في حسن العشرة والصحبة مبلغاً، امتنع^(٥) عن الإنقياع بما أحل الله له، وأباح له التلذذ به، يبتغي به حسن عشرتهن، ويطلب به مرضاتهن.

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ أي لا تبلغن بك الشفقة عليهن وحسن العشرة معهن مبلغاً، تمتنع عن الإنقياع بما أحل الله لك، فيخرج هذا مخرج تخفيف المؤونة على رسول الله ﷺ في حسن العشرة معهن لا مخرج النهي

(١) من م، في الأصل: مكية. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: أو أريد. (٤) في الأصل وم: ير. (٥) من م، في الأصل: ما أحل الله لك أي لا يلغن بك الشفقة عليهن وحسن العشرة معهن مبلغ يمتنع.

والعتاب عن الزَّوْجَةِ. وهو كقولهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾ [فاطر: ٨] [فَرسولُ اللهِ ﷺ كَانَ بَلَغَ مِنْ شَفَقَتِهِ عَلَى أَوْلَئِكَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْإِيمَانِ مَبْلَغًا كَادَتْ نَفْسُهُ تَهْلِكُ فِيهَا، فَكَانَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾^(١) تَخْفِيفُ الْأَمْرِ عَلَيْهِ.

وكذلك قوله^(٢): ﴿وَلَا يَسْتَطِيعَا كُلُّ السَّبْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] ليس في الحقيقة نَهْيٌ عَنِ السَّخَاءِ عَلَى النِّهَايَةِ، وَلَكِنْ تَخْفِيفُ الْأَمْرِ عَلَيْهِ أَنْ لَيْسَ عَلَيْكَ الْإِسْرَافُ فِي السَّخَاءِ وَالنِّهَايَةِ فِي ذَلِكَ بِحَيْثُ لَمْ تَبْقِ لِنَفْسِكَ وَعِيَالِكَ شَيْئًا، وَتُؤْذِرُ غَيْرَكَ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا مَا آتَى اللَّهُ لَكُمْ﴾ خَارِجٌ مَخْرَجٌ تَخْفِيفٍ عَلَيْهِ فِي حُسْنِ الْعِشْرَةِ لَا مَخْرَجَ النَّهْيِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم اخْتَلَفَ فِي سَبَبِ التَّحْرِيمِ: [فَمِنْهُمْ]^(٣) مَنْ ذَكَرَ أَنَّ حَفْصَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَارَتْ أَهْلَهَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ فِي بَيْتِ حَفْصَةَ، فَجَاءَتْ أُمُّ إِبْرَاهِيمَ مَارِيَةَ الْفَيْطِيَّةَ حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَاقَعَهَا، فَجَاءَتْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا [وَهُمَا]^(٤) نَائِمَانِ، فَرَجَعَتْ إِلَى بَيْتِ أَهْلِهَا، فَتَكَلَّمَتْ عَامَّةَ اللَّيْلِ. وَقَالَتْ حَفْصَةُ فِي آخِرِ هَذَا الْخَبَرِ: مَا رَأَيْتُ لِي حُرْمَةً، وَعَرَفْتُ لِي حَقًّا، فَقَالَ لَهَا ﷺ: اكْتُمِي عَلَيَّ هَذَا، وَهِيَ عَلَيَّ حَرَامٌ. فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَذْكُرُ [أَنَّهُ]^(٥) كَانَ يَوْمَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا [فَانْطَلَقَتْ حَفْصَةُ إِلَى عَائِشَةَ، وَأَظْلَعَتْهَا عَلَى مَا رَأَتْ]^(٦) فَغَضِبَتْ عَائِشَةُ، فَلَمْ تَزَلْ يَنْهِي اللهُ حَتَّى حَرَّمَهَا، فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

[وَقَالَ عِكْرِمَةُ: تَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ]^(٧) فِي امْرَأَةٍ يُقَالُ لَهَا: أُمُّ شَرِيكِ ﴿وَوَبَّتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الاحزاب: ٥٠] ﷺ فَلَمْ يَقْبَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَلِبًا مَرْضَاةً أَزْوَاجِهِ، فَتَرَلَّتْ الْآيَةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الَّذِي حَرَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَانَ عَسَلًا، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَشْرِبُهُ عِنْدَ بَعْضِ النِّسَاءِ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَائِهِ لَصَاحِبَتِهَا: إِذَا جَاءَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَقُولِي لَهُ: مَا رِيحُ الْمَغَافِرِ فِيكَ؟ فَقَالَتْ لِلنَّبِيِّ، فَحَرَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ. وَلَيْسَ لَنَا إِلَى تَعْرِيفِ السَّبَبِ الَّذِي وَقَعَ التَّحْرِيمُ بِهِ وَلَا إِلَى تَغْيِينِ الشَّيْءِ الَّذِي حَرَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ حَاجَةٌ. وَلَكِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي كَانَ؛ فَهُوَ جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ غَفُورٍ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، لَوْ كَانَ، أَوْ يَكُونُ، ﴿رَحِيمٌ﴾ حِينَ^(٨) لَمْ يُعَاقِبْكَ بِمَا اجْتَرَأْتَ مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى الْيَمِينِ لَا بِإِذْنِ سَبَقٍ مِنَ اللَّهِ لَكَ فِيهِ، أَوْ ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ عَلَيْكَ وَعَلَى لَزَوْجَتِكَ إِنْ تُبْتُمْ، وَلَمْ تَعُودُوا إِلَى صَنِيعِكُمْ^(٩) أَوْ ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بِمَا خَفَّفَ عَلَيْكَ مِنْ مَوْنَةِ الْعِشْرَةِ، وَلَمْ يَخْلُ عَلَيْكَ مَا حَمَلَتْ عَلَى نَفْسِكَ.

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿قَدْ رَضِيَ اللَّهُ لَكُمْ لِحْظَةَ أَيْتِنَاكُمْ﴾ [اخْتَلَفَ فِيهِ أَيْضًا]^(١٠): فَمِنْهُمْ مَنْ يَحْمِلُ هَذَا عَلَى ابْتِدَاءِ الْخُطَابِ، وَيُضَرِّفُ الْمُرَادَ إِلَى غَيْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ كَانَ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَلَمْ يَكُنْ يَخْتَاجُ إِلَى التَّكْفِيرِ لِإِزَالَةِ الْمَآثِمِ.

ولكن نحن نقول: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَإِنْ كَانَ هَذَا تَحْلَةً، فَهُوَ وَأَمْتُهُ فِي أَحْكَامِ الشَّرَائِعِ مَأْخُودُونَ، وَيَكُونُ عَلَى هَذَا مَغْفِرَةٌ زَلَّاتِهِ: مَا تَقَدَّمَ [مِنْهَا]^(١١) وَمَا تَأَخَّرَ بِمُبَاشَرَةِ أَسْبَابِهَا مِنَ التَّوْبَةِ وَالْكَفَّارَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَيَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ رَضِيَ اللَّهُ لَكُمْ لِحْظَةَ أَيْتِنَاكُمْ﴾ مُنْصَرَفًا إِلَى النَّبِيِّ وَأَمْتِهِ.

ثم يجوز أن يكونَ رَسُولُ [اللَّهِ قَصْدًا]^(١٢) إِلَى التَّحْرِيمِ؛ أَعْنِي مَنَعَ نَفْسَهُ عَنِ الْإِنْتِفَاعِ بِهَذَا مَعَ اغْتِقَادِ الْجُلِّ لَا إِلَى الْيَمِينِ، فَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ مِنْهُ يَمِينًا، فَيَكُونُ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ التَّحْرِيمَ يَمِينٌ.

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فاطمت حنيفة على رسول الله ﷺ وجارته مارية فأمرها رسول الله أن تكتم عليه فأخبرت حنيفة بما رأت عائشة. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: زوجتك إن تابنا، ولم تعودا إلى صنيعهم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

ولهذا قال أصحابنا، رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِنَّ مَنْ قَالَ لِامْرَأَتِهِ: أَنْتِ حَرَامٌ عَلَيَّ، وَلَا نِيَّةَ لَهُ، فَهُوَ يَمِينٌ.
وجائز أن يكونَ أَفْصَحَ بِالْحَلْفِ، فَكُنِيَ عَنْهُ بِالْيَمِينِ.

ثم قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ على قراءة العامة. وفي بعض القراءات: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ﴾ كَقَارَةِ^(١) ﴿أَيْمَانِكُمْ﴾.

وَوَجْهُ الْفَرْضِ فِيهِ أَنَّ الْأَمْرَ مِنْ قَبْلُ، لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ بِالْحِنْثِ فِي الْيَمِينِ، وَلَا أَنْ يَحْلُوا مِنْهَا بِالْكَفَّارَةِ.
أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتُحْذِرُ يَدَكَ يُنْتَفِئًا فَتُصِيبُ بِهَا وَنَا بَعْدَ نَفْسِكَ قُلْتُمْ لَا يَنْتَفِئُ﴾ [ص: ٤٤] فَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ بِالْحِنْثِ، وَأَبَاحَ لَهُ الضَّرْبَ،
ثُمَّ أَبَاحَ بِهَذِهِ الْآيَةِ حِلَّ الْيَمِينِ بِالْحِنْثِ وَالْكَفَّارَةِ، فَتَنَسَّبَ الْحِلُّ إِلَى الْكَفَّارَةِ [مَرَّةً]^(٢) وَمَرَّةً إِلَى إِخْلَالِهَا بِنَفْسِهَا مِنْ جِهَةِ
الْحِنْثِ.

ثم قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أَي وَسَّعَ عَلَيْكُمْ، وَأَحْلَلَ لَكُمْ ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾.

ففي هذا أن كلَّ مَا ذُكِرَ فِيهِ: ﴿كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١] أَي فُرِضَ لَكُمْ فَهُوَ مَوْضِعُ الْإِبَاحَةِ وَالتَّوَسُّعِ وَمَا
ذُكِرَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فَهُوَ عَلَى الْإِجَابِ وَالْإِلْزَامِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] وَقَالَ: ﴿كُتِبَ
عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٨٠] وَذَلِكَ كُلُّهُ فِي مَوْضِعِ الرُّجُوبِ.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١] مَعْنَاهُ أَبَاحَ لَكُمْ الدَّخُولَ فِيهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ أَي أَوْلَى بِكُمْ فِي مَا امْتَحَنَكُمْ مِنَ الْكَفَّارَةِ وَغَيْرِهَا، أَوْ أَوْلَى بِكُمْ فِي نَصْرِكُمْ ٥٧٨ - ب/
وَالدَّفْعِ عَنْكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَلَّيْمٌ لِلْكَيْمِ﴾ أَي الْعَلِيمُ بِمَصَالِحِكُمْ أَوْ مَقَاصِدِكُمْ، أَوْ بِمَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، أَوْ بِمَا كَانَ
وَيَكُونُ، الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي لَا يَلْحَقُهُ الْخَطَأُ فِي التَّذْيِيرِ، أَوْ حَكِيمٌ بِمَا حَكَّمَ عَلَيْكُمْ مِنْ تَحِلَّةِ الْإِيمَانِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم في قوله: ﴿أَلَّيْمٌ﴾ إلزامُ الْمُرَاقِبَةِ وَالْمُحَافَظَةِ وَدَعَائِهِ إِلَى التَّبَصُّرِ وَالتَّيَقُّظِ فِي كُلِّ مَا يَتَعَاطَاهُ الْمَرْءُ مِنَ الْأَفْعَالِ،
وَيَأْتِي بِهِ مِنَ الْأَقْوَالِ.

وفي قوله: ﴿لِلْكَيْمِ﴾ دعاءٌ إِلَى التَّسْلِيمِ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى؛ إِذِ الْحَكِيمُ لَا يَخُكُّكُمْ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِمَا فِيهِ حِكْمَةٌ وَفَائِدَةٌ،
فَالزَّمَهُ^(٣) تَسْلِيمَ النَّفْسِ بِعِلْمِهِ^(٤) عَلَى وَجْهِ الْحِكْمَةِ فِيهِ أَوْ جَهْلِهِ.

ثم الأصلُ بَعْدَ هَذَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيْبَحَ لَهُ نِكَاحُ النَّسْعِ، وَأَمَرَ أَنْ يُخَيَّنَ صُحْبَتُهُنَّ، وَيَتَغَيَّرَ مَرْضَاتُهُنَّ. وَالْمَرْءُ يَغْسُرُ
عَلَيْهِ صُحْبَةُ الْأَرْبَعِ بِحُسْنِ الْعِشْرَةِ، وَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ الْقِيَامُ بِمَرْضَاتِيهِنَّ جَمِيعاً، فَيَكْفُ إِذَا امْتَحِنَ بِصُحْبَةِ النَّسْعِ؟

فَكَانَتْ الْمِخْنَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَمْرِ النِّسَاءِ أَعْسَرَ مِنْهُ عَلَى غَيْرِهِ، وَأَمَرَ مَعَ هَذَا أَيْضاً بِمُعَامَلَةِ الْخَلْقِ مَعَ اخْتِلَافِ
مَقَامِهِمْ وَأَطْوَارِهِمْ بِأَحْسَنِ الْمُعَامَلَةِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا امْتَحَنَهُ بِمَا ذَكَرْنَا^(٥) آتَاهُ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالشَّمَائِلِ الْمَرْضِيَّةِ مَا خَفَّتْ
بِهَا عَلَيْهِ هَذِهِ الْمِخْنَةُ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ الْمُعَامَلَةَ مَعَ الْجُمْلَةِ، وَآتَاهُ مِنَ الْقُوَّةِ مَا مَلَكَ بِهَا حِفْظَ حَقُوقِهِمْ وَإِرْضَاءَ جُمْلَتِهِمْ حَتَّى بَلَغَ
فِي حُسْنِ الْعِشْرَةِ وَابْتِغَاءِ الْمَرْضَاةِ مَا عَوَّتَبَ عَلَيْهِ، وَبَلَغَ مِنْ جَهْدِهِ فِي الْإِسْلَامِ إِلَى أَنْ [قَالَ ﷺ]: ﴿عَسَى وَتَوَكَّلْ﴾
[عبس: ١] وَبَلَغَ فِي الشَّفَقَةِ وَالرَّحْمَةِ عَلَى الْأُمَّةِ حَتَّى [قَالَ لَهُ ﷺ]: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨] وَقَالَ:
﴿وَأِنَّكَ لَعَلَّ خُلُقِي عَظِيمٌ﴾ [القلم: ٤].

وَكَانَ مِنْ عَظِيمِ خُلُقِهِ بِمَا جَاوَزَ خُلُقَهُ قُوَّةُ نَفْسِهِ [حَتَّى كَادَتْ]^(٦) نَفْسُهُ تَهْلِكُ فِيهِ، ثُمَّ فِي قِيَامِهِ ﷺ بِوَفَاءِ حَقُوقِ النَّسْعِ
وَإِرْضَائِيهِنَّ دَلَالَةٌ تُبَيِّنُ وَرِسَالَتِهِ، لِأَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يَقْوُونَ عَلَى الْجَمَاعِ بِمَا يُصَيِّبُونَ مِنَ الْأَطْعَمَةِ وَالْأَعْدِيَةِ، ثُمَّ هُمْ مَعَ إِصَابَتِهِمْ

(١) انظر معجم القراءات ج ٧/ ١٧٥. (٢) في الأصل وم: فلزمه. (٣) في الأصل وم: فلزمه. (٤) في الأصل وم: بحكمه. (٥) من م، في
الأصل: ذكره. (٦) في الأصل وم: قيل. (٧) في الأصل وم: قيل له. (٨) في الأصل وم: فكادت.

فضول الأطعمة والأشياء اللذيذة يفتشون عن إيفاء حقوقهن. وقد كان رسول الله ﷺ أثر الزهد في الدنيا وقلة رغبته في مطاعها ومشاربها، وكان مع ذلك يفي بحقوقهن. فعلم بهذا أنه إنما وصل إلى ما ذكرنا بما قواه الله عليه، وأقدره، لا بالجبل والأسباب.

ثم أزواج رسول الله ﷺ امتحنن بالقيام بوفاء حق رسول الله ﷺ وأن ينظرن إليه بعين التبجيل والتعظيم، فكانت المحنة عليهن أشد من المحنة على غيرهن من النساء مع أزواجهن، لأن المرأة قلما تسلم من رفع صوتها على صوت زوجها، إذا لم تكن له امرأة سواها. فكيف إذا كانت معها أخرى؟

ثم من لو رَفَعْنَ أصواتهن على صوت رسول الله ﷺ أوجب ذلك إحباط عملهن على ما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] فلا يجوز أن يمتحنن بهذه الكلفة الشديدة والمحنة العظيمة إلا بما شرع الله صدورهن وبفسح قلوبهن لإختمال ذلك.

ثم المحنة علينا بعد هذا أشد من المحنتين اللتين ذكرناهما لأننا امتحننا بمعرفة ما تضمنته الآية والإغتراف بذلك، وهي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١] فالذي علينا من المحنة أن نصرف الأمر على وجوه لا يلحق برسول الله ﷺ تنقص، فنسلم من المواخذة.

فجائز أن يصرف إلى ما ذكرنا من تخفيف الأمر على رسول الله ﷺ فتكون الآية في موضع تخفيف الأمر عليه، ليس في موضع النهي، وإن خرجت مخرج النهي في الظاهر.

وجائز أن يكون العتاب لِمَكَانٍ مَرِيَّةٍ [إن كانت] ^(١) قصة التحريم من أجلها، لأن رسول الله ﷺ لما أذن له بإمساك مارية، ولم يندب إلى تزويجها لتصل إلى قضاء شهوتها من قبل الأزواج، فإنما يتوصل إلى تسكين شهوتها برسول الله ﷺ ثم بتحريمها على نفسه لم يمنع عنها الحق، إذ الأمة، لا حظ لها في القسم، فيلحق العتاب من هذه الجهة.

ولكن لما كان لها فيه مظنة، وهو بالتحريم قطع ظمعتها [قال له ﷺ] ^(٢): ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١] أي لم تمنع نفسك عن قضاء شهوة أباح الله لها قضاء تلك الشهوة، فيكون في العتاب دعاء له إلى أن يعمل بأخير الوجهين. وأخيرهما أن يوصلها إلى ما طمعت منه لا أن يقطع ظمعتها عنه، وإن لم يكن لها في ما طمعت حق، والله أعلم.

والمحنة الثانية علينا ألا تنسب إلى أزواج رسول الله ﷺ ما تكره أنفسنا نسبةً مثله إلى الأمهات، لأن لأزواجه علينا حق الأمهات. فإن أمكننا أن نخرج من أمرهن وجهاً، نسلم [من] ^(٣) تنقصهن، فعلننا، وإلا أمسكنا عن ذكره خشية التنقص وترك التبجيل والتعظيم.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾؟ [النور: ١٢] وهكذا الواجب على كل مؤمن ألا ينظر بأزواج رسول الله ﷺ [والأيرضى] ^(٤) عنهن إلا خيراً، وألا ينظر إليهن ^(٥) إلا بعين التعظيم، وقوله ^(٦) أيضاً: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُتْنٌ عَظِيمٌ﴾؟ [النور: ١٦].

وإذا كان هذا حقهن علينا فلا يجب أن نذكر زلتن: كانت كيت وكيت بما يتوهم أن تكون زلتن دون الذي خطر على بالنا، فنكون قد أعظمنا القول فيهن، فيصيننا من ذلك عذاب عظيم كما قال ﷺ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَنَسَكَّرَ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١].

ولقائل أن يقول في قوله: ﴿هَذَا بُتْنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] من أي وجه صار بُهتاناً عظيماً، ونساء رسول الله ﷺ لم يكنن مغصومات، بل كان يتوهم منهن الصنع الذي رُمي به؟

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: فليل لها، في م: فليل له. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ويرضى. (٥) من م، في الأصل: ينظرون. (٦) في الأصل وم: وقال.

فَجَوَابُهُ أَنْ أَزْوَاجَهُ كُنَّ بِالْمَحَلِّ الَّذِي كُنَّ ابْتِلَيْنَ بِزَلَّةٍ سِرّاً وَجَهراً، أظْلَعَ اللهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ نَبِيَّهُ ﷺ.

أَلَا تَرَى أَنْ إِحْدَاهُنَّ لَمَّا أَفْشَتْ سِرَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى أُخْرَى أظْلَعَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَلَى ذَلِكَ؟ وَإِذَا كَانَ لَا يَسْتُرُ عَلَيْهِنَّ هَذَا الْقَدْرَ مِنَ الزَّلَّةِ فَكَيْفَ يَسْتُرُ عَلَيْهِنَّ فِعْلَ الزَّنى مِنْهُنَّ؟ فَلَوْ وَجَدَ مِنَ التِّي رُمِيَتْ فِعْلُ الزَّنى لَكَانَ يَسْبِقُ الإِطْلَاعَ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَجْزِيَ بِهِ التَّحَادُثُ عَلَى أَلْسِنِ الْخَلْقِ. فَإِذَا لَمْ يَسْبِقْ أَوْجَبَ ذَلِكَ الْمَعْنَى بَرَاءةَ سَاحِبَتِهَا عَمَّا رُمِيَتْ بِهِ، وَصَارَ الرَّامِي لَهَا بِهِ قَاتِلاً بِالْبُهْتَانِ وَالزُّورِ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ جَوَازِ الْعَمَلِ بِالْإِجْتِهَادِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا بِإِذْنِ سَبَقٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى: إِذْ لَوْ كَانَ الْإِذْنُ سَابِقاً لَمَّا عُوتِبَ عَلَيْهِ.

ثُمَّ قَدْ ذَكَرْنَا [أَنَّهُ^(١)] لَمْ يُعَاتَبْ لِزَلَّةٍ أَرْتَكَبَهَا حَتَّى يَكُونَ فِيهِ مَنَعٌ عَنِ الْعَمَلِ بِالْإِجْتِهَادِ، وَإِنَّمَا عُوتِبَ لِإِمْكَانِ مَا حَمَلَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ فَضْلِ الْمُؤَنَةِ فِي الْعِشْرَةِ.

ثُمَّ الْأَصْلُ أَنَّ الْإِمَاءَ، لَا حَظَّ لَهُنَّ فِي الْقَسَمِ، وَلَيْسَ لَهُنَّ مِنَ الْأَثَامِ مَا يَكُونُ مِثْلُهُ فِي الْحَرَائِرِ حَتَّى كَانَ يُقْسِمُ لَهَا، فَيُؤَدِّي فِي حَقِّهَا. وَقَدْ أَذِنَ لَهُ فِي إِسْكَانِهَا وَالْأَيَّامَ بِزَوْجِهَا، فَلَا يَجُوزُ إِلَّا يُؤَمَّرَ بِزَوْجِهَا ثُمَّ هُوَ لَا يُسْكِنُ شَهْوَتَهَا، ثُمَّ هُوَ إِنَّمَا يَصِلُ إِلَى قَضَاءِ وَطَرِهَا وَتُسْكِنُ / ٥٧٩ - أ / شَهْوَتِهَا فِي نَوْبَةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ لِزَوْجِهَا.

فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ اللهُ تَعَالَى أَكْرَمَهُ أَنْ يُسْكِنَ شَهْوَتَهَا، وَيَأْتِيَهَا مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ أَزْوَاجُهُ بِذَلِكَ، ثُمَّ أَظْلَعَ بَعْضُ نَسَائِهِ عَلَى فِعْلِهِ لِيَعْلَمَنَّ أَنَّ الْمَخَنَةَ عَلَيْهِنَّ بَعْدَ^(٢) الْعِلْمِ وَقَبْلَ الْعِلْمِ وَاحِدَةٌ، وَأَنَّ عَلَيْهِنَّ أَنْ يُعْظَمَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْأَيَّامَ يَحْمِلُنَّ الْعَنَتَ عَلَى الْإِسْتِغْبَالِ لَهُ بِالْمَكْرُوهِ وَالتَّنْظُرِ إِلَيْهِ بِالتَّنْقِصِ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِنَّ فِي مَا يَأْتِي تِلْكَ الْأَمَّةَ فِي أَيَّامِهِنَّ تَقْصِيرٌ فِي حَقِّهِنَّ؛ إِذْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أُعْطِيَ مِنَ الْقُوَّةِ فِي الْجَمَاعِ مَا يَطُوفُ عَلَى جُمْلَةِ نَسَائِهِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَأَمَّا مَا ذُكِرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ كَفَّ نَفْسَهُ عَنْ شُرْبِ الْعَسَلِ، فَذَلِكَ يَحْتَمِلُ أَيْضاً، وَلَكِنْ مَا ذُكِرَ مِنْ تَحْرِيمِ مَارِيَةِ أَنْتَكُنَّ؛ لِأَنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي شُرْبِ الْعَسَلِ مِنَ الرِّغْبَةِ مَا يَدْخُلُ عَلَى نَسَائِهِ الْمَكْرُوهَ لِأَجْلِهِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَلْحَقَهُنَّ فِي اسْتِمْنَاعِهِ بِأَمْرِهِ مَكْرُوهٌ، فَيَحْمِلُهُنَّ ذَلِكَ عَلَى مَا ذُكِرَ ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التَّحْرِيمُ: ٤].

الآيَةُ ٣ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَسَرَ النُّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَوْلاً فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ﴾ [ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ﴾]^(٣) أَنَّهُ قَدْ طَلَبَ مِنْهَا إِسْرَارَ ذَلِكَ الْحَدِيثِ الَّذِي أَسَرَ إِلَيْهَا. وَلَيْسَ بِنَا حَاجَةً إِلَى تَعَرُّفِ الْحَدِيثِ الَّذِي أَسَرَ إِلَيْهَا.

وَفِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِنَّمَا عَلِمَ بِإِفْشَائِهَا سِرَّهُ إِلَى صَاحِبَتِهَا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُمْ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ فَقَوْلُهُ: ﴿عَرَفَ﴾ قُرِئَ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ^(٤).

فَمَنْ قَرَأَ بِالتَّشْدِيدِ فَهُوَ عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَرَفَهَا بَعْضَ مَا أَنْبَأَتْ مِنَ الْقِصَّةِ الَّتِي أَسَرَ إِلَيْهَا، وَلَمْ يُعْرِفْهَا الْبَعْضُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الْقَصْدُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ يُخْبِرَهَا بِذَلِكَ النَّبِيِّ الَّذِي أَسَرَتْ [بِهِ]^(٥) إِلَيْهَا، وَإِنَّمَا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْهُ تَنْبِيْهَا بِمَا أَظْهَرَتْ مِنَ السَّرِّ، وَأَفْشَتْ إِلَى صَاحِبَتِهَا لِتَنْتَرِجَ عَنِ الْمُعَاوَذَةِ إِلَى مِثْلِهِ، وَبِالْبَعْضِ مِنْ ذَلِكَ، يُعْلِمُهَا [بِهِ عَمَّا]^(٦) يَعْلَمُ الْكُلَّ، فَلَمْ يَكُنْ إِلَى إِظْهَارِ الْكُلِّ حَاجَةً.

وَذُكِرَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهَا: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ، وَسَكَتَ عَلَيْهِ، وَفِي هَذَا آيَةُ رِسَالَتِهِ وَمَنْعِهِ عَنْ إِسْرَارِ مَا يَحْتَشِنُ عَنْ إِيدَاءِ مِثْلِهِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِنَّهُنَّ، إِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ، أَظْهَرَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ ذَلِكَ، فَيَعْلَمُ مَا يُسْرَرْنَ.

وَمَنْ قَرَأَ: عَرَفَ بِالتَّخْفِيفِ فَهُوَ يَحْمِلُهُ عَلَى الْجَزَاءِ، فَيَقُولُ: عَرَفَ بَعْضُهُ أَنْ يَجْزِيَ عَنْ بَعْضٍ مَا اسْتَوْجَبَهُ بِإِفْشَاءِ السَّرِّ،

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج قبلها في الأصل: من. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ١٧٥. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ما.

وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضِ الْجَزَاءِ؛ يَقُولُ الرَّجُلُ لِأَخْرَى: عَرَفْتُ حَقِّي، فَعَرَفْتُ لَهُ حَقَّهُ، أَوْ عَرَفْتُ حَقِّي، فَسَأَعْرِفُ حَقَّكَ، أَيْ أَقُومُ بِجَزَاءِ ذَلِكَ.

وَذُكِرَ فِي الْأَخْبَارِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَلَّقَ حَفْصَةَ تَطْلِيقَةً، ثُمَّ نَزَلَ جِبْرَائِيلُ ﷺ فَقَالَ لَهُ: رَاجِعْهَا، فَإِنَّهَا صَوَامَةٌ، وَإِنِهَا لَزَوْجَتُكَ فِي الْجَنَّةِ. فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ طَلَاؤُهُ لِيَاهَا جَزَاءً لِيَتَغَضَّ صَنِيعُهَا.

ثُمَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَخْتَارُ إِحْدَى الْقِرَاءَتَيْنِ عَلَى الْأُخْرَى، فَيَقْرَأُ إِحْدَاهُمَا، وَيَرْغَبُ عَنِ الْأُخْرَى، وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَجِلُّ لِأَنَّ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، قَدْ وَجِدَا، وَهُوَ الْجَزَاءُ وَالتَّعْرِيفُ، فَجَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ، وَقَصَلَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ بِالْإِعْرَابِ. فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُؤْثِرَ إِحْدَى الْقِرَاءَتَيْنِ عَلَى الْأُخْرَى.

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي قِصَّةِ مُوسَى ﷺ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَذِهِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاطِرٍ﴾ وَ: عَلِمْتُ^(١) [الإسراء: ١٠٢] وَقَدْ عَلِمَ مُوسَى ﷺ وَعَلِمَ فِرْعَوْنُ، فَقَدْ كَانَ الْأَمْرَانِ جَمِيعًا، فَجَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ، فَلَا يَجِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَقْرَأَ بِأَحَدِ الرَّجْهَيْنِ، وَيَمْتَنِعَ عَنِ الرَّجْهِ الْأُخْرَى.

فكَذَلِكَ هَذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وَ: رَبَّنَا بَاعِدْ^(٢) بَيْنَ أَسْفَارِنَا [سبأ: ١٩] فَمَنْ قَرَأَ: ﴿بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ حَمَلَهُ عَلَى الدَّعَاءِ، وَمَنْ قَرَأَ: ﴿بَاعِدْ حَمَلَهُ عَلَى الْإِخْبَارِ، وَقَدْ كَانَ الْأَمْرَانِ جَمِيعًا: الدَّعَاءُ وَالْإِخْبَارُ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُؤْثِرَ أَحَدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى، فَعَلَى ذَلِكَ الْحُكْمُ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَرَفْتُ بِصَاطِرٍ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ وَصَفْنَا تَأْوِيلَ قَوْلِهِ ﴿الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ثُمَّ فِيهِمَا مَا يَدْعُو الْإِنْسَانَ إِلَى الْمُرَاقَبَةِ وَالتَّقِيطِ.

الآية ٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّ الْحَدِيثَ الَّذِي أَفْشَيْهِ كَانَ بَيْنَ زَوْجَتَيْنِ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ كَانَ أَسْرَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى إِحْدَاهُمَا، وَمَنْعَهَا أَنْ تُفْشِيَ إِلَى الْأُخْرَى، فَأَفْشَتْ.

لَكِنَّا لَا نَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ الْحَدِيثَ كَانَ [مَاذَا؟ لَكِنَّا كَانُ] ^(٣) مِنْهُمَا مَا يُجَوِّزُ أَنْ تُعَاتِبَا، وَتُدْعِيَا إِلَى التَّوْبَةِ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ﴾ وَإِنْ خَفِيَ عَلَيْنَا.

ثُمَّ إِنْ عَرَفْنَا أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ عَقُوبَتَهُنَّ وَتَأْدِيبَهُنَّ أَشَدَّ مِنَ الْعُقُوبَةِ عَلَى غَيْرِهِنَّ بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ يَأْتِ سِكِّينَ يَفْجَحْهُنَّ فَيُنَبِّئُهُنَّ بِمَا كُنَّ يَفْعَلْنَ﴾ [الاحزاب: ٣٠] فَيَجُوزُ أَنْ يُنْذِرَ إِلَى التَّوْبَةِ بِأَذْنَى زَلَّةٍ، حَقُّهَا التَّجَاوُزُ عَنْ غَيْرِهِنَّ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ﴾ زِيَادَةً فِي الْكَلَامِ، وَحَقُّهُ الْحَذْفُ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا، وَيُوقَفُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُبْدَأُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تَطْلَهَا عَلَيْهِ﴾.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ حَقُّهُ الْإِبْتَاتُ، فَلَا يَكُونُ حَرْفُ ﴿إِنْ﴾ زِيَادَةً، وَيَكُونُ مَعْنَاهُ: إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ، وَإِلَّا ﴿وَإِنْ تَطْلَهَا عَلَيْهِ﴾ وَجَبَرِيلُ وَصَلَّى الْمُرْسَلِينَ، فَيَكُونُ الْجَزَاءُ فِيهِ مَضْمَرًا.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ جَزَاءً صَنِيعِهِنَّ أَنْ يُطْلَقَهُنَّ، فَكَانَهُ قَالَ: إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ وَإِلَّا طُلِّقْكُنَّ، فَيَكُونُ فِي هَذَا أَنَّهُ حَبَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِنَّ حَتَّى اسْتَدَّ عَلَيْهِنَّ الطَّلَاقَ، وَخَرَجَ الطَّلَاقُ مَخْرَجَ الْعُقُوبَةِ لَهُنَّ عَلَى صَنِيعِهِنَّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أَيْ مَالَتْ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَيْكُمَا، وَحَقُّ الرُّسُولِ ﷺ حَقٌّ عَظِيمٌ، يَرُدُّ فِيهِ الْعِتَابُ بِأَذْنَى تَقْصِيرٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَطْلَهَا عَلَيْهِ﴾ هَذَا فِي الظَّاهِرِ مُعَاتِبَةٌ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُذَكَّرَ عَلَى الْمُخَاطَبَةِ، فَيَقَالُ: إِنْ تَطَاهَرْتُمَا عَلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ﴾ قِيلَ: جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ﴾ تَابَتَا، وَرَجَعْتَا عَلَى إِرَادَةِ الْمُعَاتِبَةِ، وَإِنْ كَانَ اللَّفْظُ لَفْظَ الْمُخَاطَبَةِ.

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٣٤٠. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ١٥٥. (٣) من م، ساقطة من الأصل.

ولكن الصحيح أن قوله: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ على المخاطبة، مغناه: وإن تظاهرا، والله أعلم.
وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاكَ﴾ حق هذا أن نقيف عليه، ثم نقول: ﴿وَجِبْرِيلُ وَمَسْلُحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ حتى لا يتوهم أن غير الله مولا.

ثم ذكر هذا أبلغ^(١) في التهويل، وإلا كان^(٢) من هؤلاء المذكورين يكفي لأزواج رسول الله ﷺ وكذلك في ذكر عقوبتهن، إذا وجدَ منهنّ الخلاف بقوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

والأصل أن المبالغة في التأديب مما يعين المؤدّب على حفظ الحدود. وكذلك المجاوزة في حدّ العقوبة معونة له في تأديب النفس حتى يملك حفظ نفسه عما تدعو إليه نفسه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَسْلُحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: أبو بكر وعمر ﷺ وذكر أن رسول الله ﷺ لما طلق حفصة دخل عليها عمر ﷺ فقال: لو علم الله تعالى في آل عمر خيراً ما طلقك رسول الله ﷺ فنزل جبريل ﷺ ٥٧٩ - ب/ على رسول الله ﷺ يأمره بمراجعتها، وذكر أنها صوامئة قوامئة. فجاز أن تكون حفصة ﷺ تصوم النهار، وتقوم الليل في غير نوبتها، فلا يعلم بذلك رسول الله ﷺ فاطلعه جبريل ﷺ على ذلك.

وروي عن أبي أمامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ﴿وَمَسْلُحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أبو بكر وعمر ﷺ وقيل: هم الأنبياء والرسل ﷺ.

وذكر عن الحسن أنه قال: ﴿وَمَسْلُحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من لم يسر نفاقاً، ولا أظهر فسقاً، ثم خص من المؤمنين الصالحين منهم، ولم يعم جملة المؤمنين.

فهذا، والله أعلم، لأنه لو ذكر المؤمنين على الإجمال لدخلت فيه الزوجتان اللتان تظاهرتا، لأن إصغاء القلب، لا يخرجهما عن أن تكونا من جملة المؤمنين، ولأنه ذكر هذا في موضع المعونة في أمر الدين ﴿وَمَسْلُحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هم الذين يقومون بالمعونات في أمر الدين.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يَبْدُلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّمَّا كَانَ﴾ وعلى قول المعتزلة: لا يملك أن يبدل خيراً منهم؛ إذ لا يقدر على أن يجعل في أحد خيراً على قولهم، ولا يملك أن يبدل أزواجاً لأنه لا يقدر على زعيمهم على أن يجعل واحدة^(٣) من النسوان زوجة لأحد [من الرجال]^(٤) وإنما المشيئة والاختيار إلى المتزوج والمتزوجة، والفعل منهما. وعلى قولنا: يملك أن يجعل الخير لمن شاء، وله أن يجعل من النسوان زوجة لمن شاء من الرجال.

فهذه الآية تشهد بالصدق لمقالتنا، وترد على المعتزلة قولهم لأنه جعل الإبدال إلى نفسه بقوله: ﴿يَبْدُلَهُ﴾ وعلى قولهم: لا يملك أن يقي بما وعد.

ثم في هذه الآية إباحة الإبدال وإباحة الطلاق لرسول الله ﷺ.

وفي قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ مِنْ يَئِنْ مِنْ أَرْبَعٍ﴾ [الأحزاب: ٥٢] حظر الإبدال. فجاز أن يكون قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ مقدماً، وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ﴾ متأخراً، فيصير ما تقدّم منسوخاً بهذه الآية، والذي^(٥) يدل على صحته هذا ما روي عن عائشة ﷺ أنها قالت: ما خرج رسول الله ﷺ من الدنيا حتى أحلت له النساء، فثبت أن الحظر، كان متقدماً.

ثم وردت الإباحة من بعد، فحمل الإبدال^(٦) على التناسخ ليرتفع التناقض من بينهما.

وجائز أن يكون حظر عليه الإبدال إذا قصد بالطلاق قصد الإبدال بما أعجبته من الحسني كما قال: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ

(١) في الأصل وم: إبلاغ. (٢) في الأصل وم: قالوا. (٣) في الأصل وم: أحداً. (٤) في الأصل: من، ساقطة من الأصل. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: الإيثار.

حُسْنُهُنَّ ﴿الآية [الأحزاب: ٥٢] فإذا كَانَ قَصْدُهُ مِنَ الطَّلَاقِ الْإِبْدَالُ كَانَ ذَلِكَ مُحْظُورًا عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَقْصِدْ بِالطَّلَاقِ قَصْدَ الْإِبْدَالِ، وَلَكِنْ يَقْصِدُ بِهِ قَصْدَ الْمَجَازَاةِ لِلْخِلَافِ الَّذِي ظَهَرَ، أُبِيحَ لَهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ^(١) تعالى: ﴿أَنْ يَدْلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْ الْمُطَلَّقَةِ، وَهُوَ لَيْسَ يَقْصِدُ بِالطَّلَاقِ فِي قَوْلِهِ ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ قَصْدَ الْإِبْدَالِ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ سَلِمَتِ الْآيَاتُ مِنَ التَّنَاقُضِ.

وَذَكَرَ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رضي الله عنه أَنَّهُ سُئِلَ، فَقِيلَ: أَكَانَ يُحِلُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِبْدَالَ امْرَأَةٍ بِامْرَأَةٍ؟ فَقَالَ: بَلَى، فَسُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَا يُحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَ مِنْ أُنْفُسِكَ وَلَوْ أَجْنَحَتْ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: ٢] فَقَالَ: هَذَا مُنْصَرِفٌ إِلَى مَنْ هُنَّ مِنْ وَرَاءِ الْمُسْتَمِيَّاتِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَنَكَاتِ عَمَّكَ وَنَكَاتِ عَمَّتِكَ وَنَكَاتِ خَالَكِ وَنَكَاتِ خَالَاتِكَ﴾ [النبي: ٢٢] وَأَمَّا مُؤَمَّةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ [الأحزاب: ٥٠] ذَكَرَ بَنَاتِ الْعَمِّ وَبَنَاتِ الْخَالِ وَالْأَجْنِيَّاتِ، وَحُظِرَ عَلَيْهِ مِنْ سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَحَارِمِ، فَيَكُونُ فِيهِ إِبَانَةٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ كَانَ حُظِرَ عَلَيْهِ تَزْوُجُ ^(٢) مَحَارِمِهِ مِنْ دَوَى الرَّجْمِ كَمَا حُظِرَ عَلَى غَيْرِهِ؛ إِذْ هُوَ مَوْضِعُ الْإِشْكَالِ: أَنَّهُ لَمَّا حَلَّ لَهُ زِيَادَةُ عَلَى الْأَرْبَعِ يُحِلُّ لَهُ ذَوَاتِ الْأَرْحَامِ مِنَ الْمَحَارِمِ، فَأَزَالَ الْإِشْكَالَ بِهِ.

وقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ يَنْكِحُ﴾ جَائِزٌ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ لِلرَّسُولِ ﷺ لَا أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا فِي أَنْفُسِهِنَّ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿مُسْلِمَتٌ مُؤْمِنَةٌ قُتِلَتْ بَيْنَ يَدَيْ عِيْدَتِ سَبْعِينَ نِسْتًا وَأَنْكَرًا﴾.

أَلَا تَرَى إِلَى مَا ذَكَرَ أَنَّ جَبْرِيلَ عليه السلام قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: رَاجِعْ حَفْصَةَ فَإِنَّهَا صَوَامَةٌ قَوَامَةٌ؟ وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى هَذَا أَيْضًا قَوْلُهُ تعالى: فِي آخِرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَنَسِيتُ وَأَنْكَرًا﴾ وَقَدْ وَجَدْتُ هَاتَانِ الصَّفَتَانِ فِي أَزْوَاجِهِ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ مَعْنَاهُ مَا ذَكَرْنَا.

وجائزٌ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ أَيْضًا فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ حَيْثُ الْجَمَالُ أَوْ النَّسَبُ وَنَحْوُ ذَلِكَ، أَوْ يَصِرْنَ خَيْرًا مِنْهُنَّ لِمَا يَتَرَكْنَ الْخِلَافَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا يَتَّظَاهَرْنَ عَلَيْهِ، وَيَكُنَّ هَؤُلَاءِ دُونَهُنَّ إِذَا تَزَوَّجْنَ الْخِلَافَ، وَدُمْنَ عَلَى التَّظَاهَرِ. فَأَمَّا إِذَا أَمْسَكْنَ عَنِ الْخِلَافِ، وَتَبَيَّنَ عَمَّا سَبَقَ مِنَ الْخِلَافِ فَهِنَّ وَغَيْرُهُنَّ بِمَحَلٍّ وَاحِدٍ.

وقوله تعالى: ﴿مُسْلِمَتٌ مُؤْمِنَةٌ﴾ قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ مُؤْمِنٍ فِي التَّخْصِيلِ، لِأَنَّ مَعْنَى الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَاحِدٌ؛ إِذِ الْإِسْلَامُ هُوَ أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ تعالى الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا خَالِصَةً سَالِمَةً، لَا تُشْرِكُ فِيهَا غَيْرَهُ. وَالْإِيمَانُ التَّصَدِيقُ، وَهُوَ أَنْ تُصَدِّقَ أَنَّ اللَّهَ تعالى رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَإِذَا صَدَّقْتَ أَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ فَقَدْ جَعَلْتَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا لَهُ سَالِمَةً، أَوْ تُصَدِّقُ كُلَّ مَا يَشْهَدُ اللَّهُ تعالى بِالرُّبُوبِيَّةِ بِجَوهرِهِ. فَتَبَيَّنَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِمَّنْ يَقْتَضِي مَا يَقْتَضِيهِ الْآخَرُ مِنَ الْمَعْنَى. فَإِذَا ذَكَرَ أَحَدُهُمَا بِالْأَفْرَادِ فِي ذِكْرِ ذِكْرِهِ الْآخَرِ، وَإِذَا جُمِعَا فِي الذِّكْرِ صُرِفَ هَذَا إِلَى وَجْهِ [وهذا إلى وَجْهِ] ^(٣) وهكذا كَمَا ذَكَرْنَا فِي التَّقْوَى أَنَّهُ يَقْتَضِي مَعْنَى الْإِحْسَانِ إِذَا ذُكِرَ مُفْرَدًا، لِأَنَّ التَّقْوَى هُوَ أَنْ يُتَّقَى مِنَ الْمَهَالِكِ، وَالْإِتْقَاءُ مِنَ الْمَهَالِكِ يَقَعُ بِإِحْسَابِ الْمَحَاسِنِ، وَإِذَا ذُكِرَا مَعًا صُرِفَ التَّقْوَى [إِلَى الْإِتْقَاءِ مِنَ الْكُفْرِ] ^(٤) وَالْإِحْسَانُ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ.

ورَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَمْ يَأْمَنْ جَارُهُ بِوَأَفْقُهُ» [البخاري ٦٠١٦] وَقَالَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» [البخاري ١٠] فَصُرِفَ هَذَا إِلَى وَجْهِ [وهذا إلى وَجْهِ] ^(٥) وَهُمَا فِي التَّخْصِيلِ وَاحِدٌ، لِأَنَّهُمْ إِذَا أَمِنُوا بِوَأَفْقِهِ فَقَدْ سَلِمُوا مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ.

وقوله تعالى: ﴿نَسِيتُ﴾ قِيلَ: مُطِيعَاتٍ، وَقِيلَ: الْقَائِمَاتُ بِاللَّيَالِي لِلصَّلَاةِ، وَهَذَا أَشْبَهُ، لِأَنَّهُ ذَكَرَ السَّائِحَاتِ بَعْدَ هَذَا، وَالسَّائِحَاتُ الصَّائِمَاتُ، وَذَكَرَ الصِّيَامَ بِالنَّهَارِ، فَيَكُونُ تَأْوِيلُ الْقَائِمَاتِ رَاجِعًا إِلَى قِيَامِ اللَّيْلِ لِيَكُونَ فِيهِ إِحْيَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِالْعِبَادَةِ. وَلِذَلِكَ قَالَ جَبْرِيلُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ تعالى عَلَيْهِ، وَسَلَّمْ، فِي وَصْفِ حَفْصَةَ رضي الله عنها: إِنَّهَا صَوَامَةٌ قَوَامَةٌ، أَيَّ صَوَامَةٌ بِالنَّهَارِ وَقَوَامَةٌ بِاللَّيْلِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ اللَّهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَى قَوْلِهِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: تَزْوِيج. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْإِتْقَاءُ الْكُفْر. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

وذكر عن رسول الله ﷺ أنه سُئِلَ عَنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، فَقَالَ: «طَوَّلُ الْقُنُوتِ» [مسلم ٧٥٦/١٦٥] وهو القيام بالليل. وقوله تعالى: «تَبَيَّنَتْ» هذه اللاتي لا يُضْرِزْنَ عَلَى الدُّنْبِ، بل يَفْرُغْنَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّوْبَةِ وَالتَّضَرُّعِ إِذَا ابْتَلَيْنَ بِالْخَطِيئَةِ. وقوله تعالى: «عِيْدَاتٍ» ذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ أَنَّ الْعَابِدَ لَا يُسَمَّى عَابِداً حَتَّى يَنْطَوِّعَ. فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا فَبِهِ أَنَّهُمْ يَقْمَنُ بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَيَنْطَوِّعْنَ مَعَ ذَلِكَ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كُلُّ عِبَادَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ تَوْحِيدٌ، وَالْعِبَادَاتُ الْمُوَحَّدَاتُ. فَالْمَوْحَدُ هُوَ الَّذِي يُصَدِّقُ أَنَّ خَالِقَ الْخَلْقِ كُلِّهِ وَاحِدٌ، لَا شَرِيكَ لَهُ. فَجَائِزُ أَنْ يَكُونَ الْعَابِدُ مُوَحَّداً لِأَنَّهُ يَعْمَلُ لِلَّهِ خَالِصاً، لَا يُشْرِكُ فِي عِبَادَتِهِ أَحَدًا، فَيَكُونُ فِيهَا مَعْنَى التَّوْحِيدِ / ٥٨٠ - أ / لَكِنْ مِنْ حَيْثُ الْفِعْلُ. فَيَكُونُ أَحَدُ التَّوْحِيدِينَ: بِالْقَبُولِ، وَالثَّانِي: بِالْمُعَامَلَةِ وَالْفِعْلِ. وَقِيلَ: الْعَابِدُ هُوَ الَّذِي يُؤَدِّي الْفَرَائِضَ.

وقوله تعالى: «سَيِّئَاتٍ» هُوَ الَّذِي يَسِيحُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ زَادٍ، فَسَمِيَ الصَّائِمَ سَائِحاً لِمَا كَفَتْ نَفْسُهُ عَنِ التَّنَاوُلِ مِنَ الزَّادِ. فَقَوْلُهُ: «سَيِّئَاتٍ» أَيِ صَائِمَاتٍ.

وقوله تعالى: «نَيْبَاتٍ وَأَبْكَارٍ» لَمْ يُرَدْ بِهَذَا أَنْ يُنْشِئَ نِسْوَةً أَبْكَاراً وَنَيْبَاتٍ، وَلَكِنْ مَعْنَاهُ أَنْ يُبْدِلَهُ مَنْ كُنَّ بِهَذَا الْوَضْفِ. ثُمَّ جَمَعَ بَيْنَ النَّيْبَاتِ وَالْأَبْكَارِ لِأَنَّ النَّيْبَاتِ مِمَّا تَقِلُّ رَغْبَةُ الْخَلْقِ فِيهِنَّ، وَيَنْفَرُ عَنْهُ الطَّنِيعُ، فَجَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي مَوْضِعِ الْإِمْتِنَانِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ لِثَلَا يَضْرِبُوا كُلَّ الرَّغْبَةِ إِلَى الْأَبْكَارِ، بَلْ يَتَزَوَّجُوا النَّيْبَاتِ كَمَا يَتَزَوَّجُونَ الْأَبْكَارَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١ وقوله تعالى: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَرَأُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا» بِخَتْمِ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: قَرَأُوا أَنْفُسَكُمْ فِي مَا تَذَعُوا أَنْفُسَكُمْ إِلَيْهِ، لِأَنَّ الْأَنْفُسَ تَأْمُرُهُمْ بِالسُّوءِ، وَتَذَعُوهُمْ إِلَيْهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَزِدْكُمْ رَأْسًا» [التغابن: ١٤].

وجائز أن يكون قوله تعالى: «قَرَأُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا» أَيِ قُوهَا عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي إِذَا سَلَكْتُمُوهُ أَفْضَى بِكُمْ إِلَى النَّارِ، وَقُوهَا أَهْلِيكُمْ أَيْضاً عَنْ ذَلِكَ الطَّرِيقِ، وَذَلِكَ يَكُونُ بِالْعَمَلِ لِأَنَّ الْعَمَلَ عَلَى ضَرَرَيْنِ: عَمَلٌ يَقْضِي بِصَاحِبِهِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَعَمَلٌ يَقْضِي بِهِ إِلَى النَّارِ، فَيَكُونُ التَّقْوَى فِي هَذَا الْوَجْهِ رَاجِعاً إِلَى الْأَعْمَالِ، وَفِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ إِلَى الْأَنْفُسِ.

وَيَخْتَمِلُ «قَرَأُوا أَنْفُسَكُمْ» بِاِحْتِسَابِ الْأَسْبَابِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ النِّجَاةِ مِنَ الْعَقَابِ وَالْهَلَاكِ «وَأَهْلِيكُمْ» فِي أَنْ تُعَلِّمُوهُمْ الْأَسْبَابَ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ الْخَلَاصِ مِنَ النَّارِ.

وقال مجاهد: تَأْوِيلُهُ «قَرَأُوا أَنْفُسَكُمْ» وَلَيْتِي أَهْلُكُمْ، النَّارَ.

ثُمَّ عَلَّمَنَا وَجْهَ الْإِتْقَاءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آتَيْنَاكَ الْنَّارَ» [البقرة: ٢٠١] قَالَ: مِمَّا التَّضَرُّعُ إِلَيْهِ وَالْفَرَجُ لَدَيْهِ لِيَكُونَ هُوَ بِفَضْلِهِ يَبْقَى عَنِ النَّارِ لِمَا عَلِمَ أَنَّهَا لَا تَصِلُ إِلَيْنَا بِقُوَى أَنْفُسِنَا وَجِيلِنَا.

وقوله تعالى: «نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» فَبِهَذَا عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي وَصْفِ شِدَّةِ النَّارِ.

وَاجْتَبَرَ أَنْ شِدَّتِهَا، تَنْتَهِي إِلَى هَذَا، فِي أَنْ صَيَّرَ النَّاسَ وَقُوداً، وَكَذَلِكَ الْحِجَارَةُ، وَالنَّاسُ وَالْحِجَارَةُ لَا يَنْفَدَانِ فِي النَّارِ، لِأَنَّ النَّارَ إِذَا عَمِلَتْ فِي الْإِنْسَانِ حَرَّتُهُ، وَلَمْ تُنْفِذْهُ، فَلَا يَصِيرُ وَقُوداً، وَكَذَلِكَ إِذَا أَصَابَتْ الْحِجَارَةَ رَضَّتُهَا، وَلَشَّتُهَا، فَيَكُونُ فِيهِ تَبَيُّنٌ شِدَّتِهَا إِبْلَغاً فِي الرَّجْرِ.

وجائز أن يكون أريد بالحجارة التي اتَّخَذُوهَا أَصْنَاماً، يَغْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَكَانُوا يَغْبُدُونَهَا لِتَنْصُرَهُمْ، وَتَذْفَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا» «كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا» [مريم: ٨١ و ٨٢] أَيِ يَصِيرُ عَذَاباً عَلَيْهِمْ، وَهُمْ رَجَا أَنْ يَكُونَ سَبَباً لِحَلَاصِهِمْ، فَصَارَتْ عَلَيْهِمْ ضِدًّا.

وقوله تعالى: «عَلَيْنَا مَلَكُوتُهُ غَلَظٌ شَدِيدٌ» جَائِزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا وَصْفُهُمْ أَنَّهُمْ خُلِقُوا غَلَظاً شَدِيداً، وَجَائِزُ أَنْ يَكُونُوا أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ وَأَعْدَاءَ اللَّهِ تَعَالَى رُحَمَاءَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾؟ [النحل: ٥٠ والتحريم: ٦] تَبَيَّنَ^(١) أَنَّ اشْتِدَادَهُمْ بِمَكَانِ الْأَمْرِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّةٌ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَةً بَيْنَهُمْ تُرْهَبُهُمْ رُكْحًا سَجْدًا﴾ [الفتح: ٢٩]. وَصَفَهُمْ بِالشَّدَّةِ عَلَى الْكُفَّارِ وَبِالرَّحْمَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

فَجَانِزُ أَنْ يَكُونَ الْمَلَائِكَةُ كَذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ، وَهَذَا دَلَالَةٌ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ امْتُنِحُوا بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فِي الْآخِرَةِ، لِأَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَةِ امْتُنِحُوا بِإِتْيَاءِ التَّحْفِ وَالْكَرَامَاتِ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ امْتُنِحُوا بِتَغْذِيبِ أَهْلِ النَّارِ بِالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ وَالشَّدَّةِ، وَإِذَا أَمَرَ كُلٌّ مِنَ الْقَرِيقَيْنِ بِمَا ذَكَّرْنَا فَقَدْ نُبِّهَ عَنْ تَرْكِهِ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصْمُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا قُرْآنَ أَنْفُسِكُمْ وَأَتْلَوْهُ تَارًا﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْحِيدًا﴾ لَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الصَّلَاةِ وَلَا الْحَقَّ بِهِمُ الْوَعِيدِ؛ فَهَمْ يَقْطَعُونَ الْوَعِيدَ عَمَّنْ الْحَقَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمُ الْوَعِيدِ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ، وَيُزِمُونَ عَلَى مَنْ لَمْ يَجِرْ ذِكْرُهُ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا الْحَقَّ بِهِ الْوَعِيدِ. وَهَذَا تَحْرِيفُ الْكِتَابِ وَقَلْبُ الْقِصَّةِ.

وَلأنَّهُ صَارَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ بِإِيمَانِهِ، إِذْ لَوْلَا إِيْمَانُهُ لَمَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ. [وَلَمَّا أَلْحَقُوا الْوَعِيدَ بِأَهْلِ الصَّلَاةِ]^(٢) فَقَدْ أَلْحَقُوهُ بِأَهْلِ الْإِيمَانِ، فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ إِلَّا سُوءُ الْخُلُقِ، وَإِلَّا فَلَا مَعْنَى لِقَائِهِ عَنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْحَاقِ بِأَهْلِ الصَّلَاةِ، وَأَهْلُ الصَّلَاةِ، هُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ.

ثُمَّ الْوَعِيدُ عَلَى قَوْلِهِمْ إِنَّمَا يَلْزَمُ أَهْلَ الْإِيمَانِ فِي وَقْتِ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ، وَنَحْنُ نَقُولُ فِي الْوَعِيدِ الْمَذْكُورِ فِي أَهْلِ الْإِيمَانِ: إِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُلْحَقَهُمْ وَقْتُ إِيْمَانِهِمْ، بَلْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِإِجْرَائِهِمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَقَعَ لَهُمُ الْوَعِيدُ إِذَا خَرَجُوا مِنَ الْإِيمَانِ، وَهُمْ يَقْطَعُونَ الْوَعِيدَ مِنْ أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ، وَيَجْعَلُونَهُ عَلَى الْوَجْهِ الْآخِرِ. وَنَحْنُ نُلْزِمُهُمُ الْوَعِيدَ إِذَا خَرَجُوا مِنَ الْإِيمَانِ، وَلَا يَبْقَى الْوَعِيدُ عَلَى مَنْ لَمْ يَخْرُجْ بَعْدَ مِنْ إِيْمَانِهِ. فَصَرْنَا نَحْنُ أَشَدَّ اسْتِعْمَالًا لِمَا يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُ الْآيَاتِ مِنْهُمْ، فَصَارَ الْعُمُومُ حُجَّةً عَلَيْهِمْ، لَا عَلَيْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَنْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ لَيْسَ فِي هَذَا نَفْيُ قَبُولِ الْعُذْرِ، لَوْ كَانَ لَهُمْ عُذْرٌ. وَلَكِنْ اغْتِذَارَهُمْ، هُوَ النَّدَمُ عَمَّا كَانُوا فِيهِ وَالْإِنَابَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّوْبَةُ إِلَيْهِ. وَلَيْسَ ذَلِكَ وَقْتُ قَبُولِ التَّوْبَةِ، لِأَنَّ ذَلِكَ الْوَقْتُ هُوَ وَقْتُ خُرُوجِ مُلْكِ أَنْفُسِهِمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، فَلَا يَقْبَلُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ إِيْمَانًا وَلَا عَمَلًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يَغْنِي أَنَّ عَمَلَكُمْ السُّوءَ هُوَ الَّذِي أَلْزَمَكُمُ الْعَذَابَ فِي الْحِكْمَةِ، فَتُجْزَوْنَ بِعَمَلِكُمْ، وَلَسْتُمْ تُجْزَوْنَ لِمَنْفَعَةٍ تَرْجِعُ إِلَيْنَا أَوْ بِمَا حَمَلْتُمْ مِنْ أَوْزَارِ الْغَيْرِ، وَلَكِنْ بِأَعْمَالِكُمْ الْحَبِيثَةِ الَّتِي فِي الْحِكْمَةِ التَّعْذِيبُ عَلَيْهَا. وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ نَفْيِ الْعَذَابِ عَنْ أَطْفَالِ الْمُشْرِكِينَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَوْجَدْ مِنْهُمْ عَمَلٌ، فَيُجْزَوْنَ بِعَمَلِهِمْ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعَذَّبُوا بِذُنُوبِ آبَائِهِمْ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ كُلًّا يُجْزَى بِعَمَلِهِ لَا بِعَمَلِ غَيْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْحِيدًا﴾ إِلَى اللَّهِ تَوْحِيدًا تَصَرُّفًا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْإِزَامُ التَّوْبَةِ عَلَى بَقَاءِ اسْمِ الْإِيمَانِ، لِأَنَّهُ أَلْزَمَهُمُ التَّوْبَةَ بَعْدَ أَنْ سَمَّاهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ بِالتَّوْبَةِ.

وَمَذْعَبُ الْإِغْتِرَالِ أَنَّ الصَّغَائِرَ مَغْفُورَةً لِأَرْبَابِهَا إِذَا اجْتَنَبُوا الْكِبَائِرَ، فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى التَّوْبَةِ عَنْهَا. فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَالْآيَةُ فِي الْكِبَائِرِ عِنْدَهُمْ، وَالْكِبَائِرُ يُخْرِجُ أَهْلَهَا عَلَى قَوْلِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ، وَاللَّهُ تَعَالَى^(٣) قَدْ أَبْقَى لَهُمْ اسْمَ الْإِيمَانِ. فَمَنْ أزال عَنْهُمْ الْإِسْمَ فَقَدْ خَالَفتْ نَصَّ الْقُرْآنِ، وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّ الْآيَةَ فِي الصَّغَائِرِ ففِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُعَذَّبَ عَلَى الصَّغَائِرِ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مَغْفُورَةٍ حَتَّى وَقَعَتْ لَهُمُ الْحَاجَةُ إِلَى التَّوْبَةِ وَطَلَبُ الْمَغْفُورَةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَبَيْنَ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَعْلَمُ.

وقال أيضاً في آية أخرى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] فأتانا أن يكونوا أمروا بالتوبة عن الصغائر فيكون فيه دلالة بقائهم على الإيمان، وكذلك قال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَلِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩/ ٥٨٠ - ب/ وإن كان استغفاره هذا على الصغائر ففيه دلالة أنها مغفورة لإحاجته إلى طلب المغفرة.

ولو كان الأمر على ما ظننت المعتبرة لكان سؤاله المغفرة يخرج مخرج الاستهزاء برؤ العالمين لأنه يطلب منه ما لا يملك، وذلك في الشاهد ههنا به واستخفاف بالمسؤول.

وإن كان في الكبائر ففيه دلالة بقائهم وتبائهم على الإيمان لأنه قال: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿تَوْبَةَ نَسُوا﴾ قرئ ينصب النون وضمها^(١) نصحاً، والضم يخرج مخرج المصدر والنصح بالفتح يخرج مخرج البحث للتوبة، والقول من الأفعال هو اسم للمبالغة في الأمر، فكانه يقول: توبوا توبة، تناهت في نصحها، والمبالغة في النصح أن يكون صادقاً في توبته.

وعلمة الصديق أن يكون نادماً بقلبه عما فعل عازماً على ألا يرجع إليه، وأن يقلع يديه عما كانت فيه من المعاصي، وأن يستغفر الله بلسانه، فيستعمل كل جسده في الندم والانقلاع كما استعمل سائرته في التلذذ في المآثم. فذلك هو المبالغة في النصح.

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ بالتوبة. ففي هذا إيابة أن من السيئات سيئات لا تكفر إلا بالتوبة، ومنها ما يكفر باجتناب الكبائر بقوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] لا أن تكفر كلها بالاجتناب عن الكبائر كما زعمت المعتبرة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْلُبْكُمْ جَنَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وقد مر بيان هذا.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ وللمعتبرة بهذا الآية تعلق، وهو أن قالوا: إن الله تعالى أخبر أنه لا يخزي النبي والمؤمنين، والإخزاء بالعذاب؛ فقد وعد ألا يعذب الدين آمنوا. ولو كان أصحاب الكبائر مؤمنين لم يخف عليهم العذاب، إذ قد وعد ألا يخزي المؤمنين. ومن قولهم^(٢): أنه يخاف عليهم العقاب، ثبت^(٣) أنهم ليسوا بمؤمنين.

ولكن نقول: إنه بهذا السؤال يلزمهم من الوجوه الذي أرادوا إلزام خصومهم لأن في الآية وعداً بالآ لا يخزي الدين آمنوا معه، وهم مقررون أن أهل الكبائر ممن قد آمنوا. ولكنهم بعد از تكايبهم الكبائر ليسوا بمؤمنين.

والآية لم تنطق بنفي الإخزاء عن المؤمنين، لأنه لم يقل: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾ والمؤمنين، وإنما قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ وهم يقطعون القول بإخزاء من قد آمن، فصاروا هم المخجوجين بهذا الآية [ثم حق هذه الآية]^(٤) عندنا أن نقف على قوله ﴿النبي﴾ أي لا يخزيه الله تعالى في أن يرد شفاعته، أو يعذبه.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ ابتداء كلام وخبره: ﴿تُورِثُهُمْ يَسَىٰ بَيْتِ آبَائِهِمْ وَبِأَتَمَنِيهِمْ﴾ وهو كقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧].

أو لا يخزي الذين آمنوا بعد شفاعته النبي ﷺ.

ويحتمل أن الإخزاء، هو الفضيحة، أي لا يفضحهم يوم القيامة بين أيدي الكفار.

ويجوز أن يعذبهم على وجه لا يقف عليه^(٥) الكفرة، والخزي هو الفضيحة وهناك السخر، ولا يفعل ذلك بالمؤمنين بفضلهم، والله أعلم.

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ١٧٨. (٢) في الأصل وم: قولكم. (٣) في الأصل وم: ثبت. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: عليهم.

وقوله تعالى: ﴿تُورِثُهُمْ ذِيَّ الْقُرْبَىٰ وَيَرْثُهُمْ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي ﴿يَتَرَكُونَهُمْ﴾ إذا مَشَوْا ﴿وَيَرْثُهُمْ﴾ عند الحساب، لأنهم يُورَثُونَ الكتاب بآيمانهم، وفيه نورٌ وخيرٌ، أو يَسْعَى النور ﴿يَتَرَكُونَهُمْ﴾ في موضعٍ وَضَعَ الأقدام ﴿وَيَرْثُهُمْ﴾ لأن ذلك طريقهم، وشمالهم طريق الكفرة.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا دِينَنَا﴾ فجاءوا أن يقولوا^(١) هذا عند انطفاء نور المنافقين، فيخافون انقطاع ذلك النور عنهم أيضاً، أو يقولوا هذا عند ضعف النور، فيسألونه الإتمام، والله أعلم.

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قيل: ﴿جَاهِدُوا الْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بإقامة الحدود عليهم؛ وذلك أن المنافقين، هم الذين كانوا يرتكبون المآثم التي أوجب فيها الحدود، ففيهم نزلت الحدود. وأما أصحاب رسول الله ﷺ فقد عصموا عن المآثم التي لها الحدود.

وقالت الباطنية في قوله: ﴿جَاهِدُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي جاهد الكفار والمنافقين بالقتال، فكان مأموراً بالقتال مع الفريقين جميعاً، ولكنه اشتغل بقتال أهل الكفر، ولم يترك قتال أهل النفاق، فقاتلهم علي بن أبي طالب عليه السلام. وما ذكر أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه حين رأى علياً عليه السلام يَخْصِفُ نَعْلَهُ: إِنَّ خَاصِفَ نَعْلِهِ يَقَاتِلُ عَلَى التَّوِيلِ كما يُقَاتِلُ نَحْنُ عَلَى التَّزِيلِ، وقتاله على التَّوِيلِ قتال أهل النفاق.

فإن كان الأمر على ما ذكروا من القتال فأبو بكر عليه السلام هو الذي تَوَلَّى قتال أهل النفاق لا علي عليه السلام لأنه ذكر أن العرب ازْدَبَتْ بعد ما قبض رسول الله ﷺ فقاتلهم أبو بكر عليه السلام. وازْدَبَتْهُمْ يَدُلُّ على أنهم لم يكونوا مُحَقِّقِينَ في إيمانهم، إذ لو كانوا كذلك لم يرجعوا، بل كانوا منافقين.

وأما الذين قاتلهم علي عليه السلام فلم يكونوا منافقين، بل كانوا يَدْعُونَ عَلِيّاً عليه السلام إلى أن يَحْكُمَ بكتاب الله تعالى. والمنافق هو الذي يظهر في نفسه أنه يعمل بحكم الله تعالى، ثم يسره بخلاف حكمه، لا أن يدعو إلى العمل بحكم الله تعالى. وهذه السمة ظهرت في الذين قاتلهم أبو بكر عليه السلام دون الذين قاتلهم علي عليه السلام.

ثم مجاهدته ﷺ في تقرير الحجة في قلوب الكفرة والمنافقين والزوايا عليهم، وذلك يكون مرة بالسيف ومرة باللسان.

ووجه إلزام الحجة بالسيف ما ذكرنا أن غلبته على الأعداء مع [كفرتهم وقوة شوكتهم]^(٢) وقلة أنصار رسول الله ﷺ تُظهِرُ لَهُمْ نَصْرَ اللَّهِ إِيَّاهُ وَكَوْنَهُ عَلَى الْحَقِّ، فيحولهم ذلك على الإيمان بالله تعالى.

فإذا كان كذلك فقوله تعالى: ﴿جَاهِدُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ في إلزام الحجة، وإن كانوا في موضع آمن فمجاهدتهم في إلزام الحجة عليهم من جهة القول، وإن كانوا في موضع المحاربة والقتال فمجاهدتهم في قتالهم، وقد كان من المنافقين [مَنْ]^(٣) قد لحق بالكفرة، ودب عنهم.

الآن نرى إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ؟﴾ [النساء: ٨٨] فَمَنْ لَحِقَ بِهِمْ قَاتَلَهُمْ مَعَ الْكُفَرَةِ، وَمَنْ لَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ الزَّمَهُمُ الْحُجَّةَ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ﴾ أي اشدُّد عليهم، والشديد عليهم أن يُسَفَّهُ أعلامهم، ويَهْتِكَ أسرارهم، وهو أن يبين لهم ما هم عليه من النفاق.

وقوله تعالى: ﴿وَمَارَيْنَهُمْ جَهَنَّمَ دَرَجَتَيْنِ﴾ قد تقدَّم ذكر هذا.

ثم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهِدُوا الْكُفَّارَ﴾ دلالة فضيلة نبينا ﷺ على مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الأنبياء والرسل ﷺ لأنه ذكر موسى عليه السلام في التوراة: ﴿يَسْمُوكَ﴾ [طه: ١١ و...] [وعيسى]^(٤) في الإنجيل: ﴿يَعِيسَى﴾ [آل عمران: ٥٥ والمائدة: ١٠٦].

(١) من م، في الأصل: يقول. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: كثرة شوكتهم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و.

[١١٦] وفي مخاطبات آدم ﴿يَا آدَمُ﴾ [البقرة: ٣٣ و...]. قَسَمِي كُلَّ نَبِيٍّ بِاسْمِهِ سِوَى نَبِيِّنَا ﷺ فَإِنَّهُ ذَكَرَهُ، وَخَاطَبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤ و...]. [وقوله^(١)]: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١ و٦٧].

وبالنَّبُوَّةِ والرسالة اسْتَحَقَّ الْفَضِيلَةَ، فَذَكَرَهُ بِاسْمِ فَضْلِهِ، وَخَاطَبَهُ بِهِ، وَذَكَرَ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ بِاسْمِ شَخْصِهِ.

الآية ١٠

وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَجَانِزُوا أَمْ كَانَ لِهَذَا الْمَثَلِ لِمَكَانٍ الْكَفَرَةُ الَّذِينَ لَهُمْ بِرَسُولٍ / ٥٨١ - أ / اللَّهُ ﷻ اتِّصَالَ مِنْ حُرْمَةِ الْقَرَابَةِ، فَكَانُوا يَظْمَعُونَ مِنْهُ الشَّفَاعَةَ فِي الْآخِرَةِ، إِنْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا ذَكَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوهُ بِالشَّفَقَةِ وَالرَّحْمَةِ عَلَى الْخَلْقِ جُمْلَةً. فَكَيْفَ يَدْعُ شَفَقَتَهُ وَرَحْمَتَهُ عَلَى قَرَابَتِهِ، وَهُوَ يَرَاهُمْ يَتَرَدَّدُونَ فِي الْهَلَاكِ؟ فَبَيَّنَ لَهُمْ شَأْنَ امْرَأَةِ نُوحٍ وَامْرَأَةِ لُوطٍ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ نُوحٍ وَلُوطٍ ﷺ مِنَ الْإِتِّصَالِ لئَلَّا يَغْتَرَّوْا بِاتِّصَالِهِمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ.

وجائز أن يكون هذا في بدء الإسلام في الوقت الذي ينفرد الآباء بالإسلام دون الأبناء، والأبناء دون الآباء، فيكون المثل لمكان أولئك الذين التزموا، وداموا عليه، ولم يتبعوا آباءهم أو أبناءهم، فيقول: لا ينفع من دام على الكفر إسلام [مَنْ أَسْلَمَ]^(٢) منهم، وإن كان بينهما قرب من جهة الأبوة والنبوَّة لأنَّ رحمة الإنسان وشَفَقَتَهُ على زوجِهِ أَكْثَرُ مِنْ شَفَقَتِهِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا. وكذلك الإِصْطِلَاقُ.

فإذا لم ينفعهما إسلام زوجيهما، فكذلك لا ينفع أولئك الذين داموا على الكفر إسلام من أسلم من آبايهم. وجائز أن يكون هذا المثل لمكان أهل التفاني في ما أظهروا موافقة المؤمنين، وأسرروا الخلاف لهُ، فيُخْبِرُ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمْ إظهارُ موافقتِهِمْ فِي الدِّينِ إِذَا كَانُوا عَلَى خِلَافِهِ فِي التَّحْقِيقِ كَمَا لَا يَنْفَعُ زَوْجَتِي نُوحٍ وَلُوطٍ ﷺ إظهارُ المُوَافَقَةِ مِنْهُمَا لِزَوْجِيهِمَا^(٣) إِذَا كَانَا عَلَى خِلَافِهِمَا فِي السِّرِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال أبو بكر الأصم: في هذه الآية دلالة أن صلاح الصالح، لا ينفع الطالح كما لا ينفع صلاح نوح ولوط ﷺ الزوجيتين إذا كانتا في نفسيهما فاسدتين. وأراد بهذا التقي الشفاعة لأهل الكبار. وليس كما ذكر، لأنَّ هذا المثل ضربهُ لِلْكَافِرِ لَا لِلْعَصَاةِ؛ إِذْ لَمْ يَقُلْ: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ عَصَوْا، فَلَيْسَ لَهُ تَعَلُّقٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

ثم قد نجد^(٤) صلاح الصالح في الشاهد ينفع الطالح، وإن لم ينفع الكافر، لأنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَكُونُ لَهُ زَوْجَةٌ طَالِحَةٌ، تَمْتَنِعُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الشَّرِّ لِمَكَانِ زَوْجِهَا مِنْ أَهْلِ الصَّلَاحِ وَالْبِرِّ. وكذلك الولد، ينفعه صلاح والديه في الدنيا، إِذْ يَحْشِيَتُهُمَا يَنْتَهِي عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمُنَاهِي بِصَلَاحِهِمَا، فَقَدْ نَفَعَهُ صِلَا حُ الْوَالِدِيْنِ، وَنَفَعَهَا صِلَا حُ زَوْجِهَا. فَجَائِزٌ أَنْ يَنْتَفِعَ الطَّالِحُ أَيْضًا فِي الْآخِرَةِ بِصَلَاحِ الصَّالِحِيْنِ.

وأما الكافر فهو لم يمتنع عن الخلاف بمكان^(٥) أبويه ولا بمكان أحد من الخلق، فلم ينفعه إسلام أبويه ولا صلاحهما في الدنيا، فكذلك لا ينفعه في الآخرة، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنَّا نَاهَا فَلَئِنْ يَفْتُنَا عَنْهَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِيَيْنِ﴾ أَي فَمَنَّا نَاهَا فِي الدِّينِ. ومنهم مَنْ يَذْكُرُ أَنَّ خِيَانَةَ امْرَأَةِ نُوحٍ، هِيَ^(٦) أَنْ أَخْبَرَتْ قَوْمَهُ بِجُنُونِ زَوْجِهَا، وَكَانَتْ خِيَانَةَ امْرَأَةِ لُوطٍ، هِيَ أَنْ أَخْبَرَتْ قَوْمَ لُوطٍ بِشَأْنِ أَصْيَافِهِ.

ولكن إن كان هذا صحيحاً فهو يرجع إلى الأول، لأنَّ الَّذِي حَمَلَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى الْإِخْبَارِ بِمَا أَخْبَرَتْ مُوَافَقَتُهَا أُولَئِكَ الْقَوْمَ وَخِلَافُهَا لِزَوْجِهَا فِي الدِّينِ، فَلَا يَجِبُ أَنْ يُشْهَدَ بِهَذَا إِلَّا بِتَوَاتُرٍ [إِنْ]^(٧) جَاءَ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم. لزوجه. (٤) من م، في الأصل: يحذف. (٥) في الأصل وم. بما كان. (٦) في الأصل وم. هو. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُمَا زَنَّا، فَخِيَانَتُهُمَا زَنَا، وَذَا غَيْرُ ثَابِتٍ، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ ﷺ عُصِمُوا عَمَّا يُرْجَعُ الْعَارَ وَالشَّيْنُ إِلَيْهِمْ، وَالزَّوْجُ يُعَيَّرُ بِزِنَاءِ زَوْجَتِهِ وَفَرَاثِهِ، وَفِيهِ ^(١) تَوْهُمُ التَّهْمَةِ فِي أَوْلَادِهِمْ. فَذَلَّ أَنْ هَذَا ^(٢) التَّأْوِيلُ غَيْرُ صَحِيحٍ، وَحَاجَتُنَا إِلَى وَجُودِ الْخِيَانَةِ مِنْهُمَا دُونَ التَّفْسِيرِ، وَلَا يَجِبُ أَنْ يُشْهَدَ بِهَذَا إِلَّا بِتَوَاتُرٍ جَاءَ مِنْ يَدَيِ الْحُجَّةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ رَعَوْنَ﴾ [فيه وجهان]:

(الآية ١١)

أَخَذَهُمَا: ^(٣) وَجْهٌ ضَرَبَ الْمَثَلَ بِهَا، هُوَ أَنْ يُعْلِمَ الْمَقْهُورَ تَحْتَ أَيْدِي الْكَفَرَةِ أَنْ لَا عُدْرَةَ لَهُ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ إِذْ كَانَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ مَقْهُورَةً تَحْتَ يَدَيْهِ، وَكَانَتْ بَيْنَ ظَهْرَانِي الظَّلْمَةِ، وَلَمْ يَمْنَعْهَا ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَمِنَ التَّصَدِيقِ بِرَسُولِهِ ﷺ

وَالثَّانِي: أَنَّهُ لَمْ تُشَاهِدْ مِنْ زَوْجِهَا وَمِنَ الْقَوْمِ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ سِوَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ تَعَالَى.

ثُمَّ اللَّهُ تَعَالَى يُلْطِفُهُ إِلَهُمَهَا الْإِيمَانُ بِهِ، فَأَمِنَتْ.

وَكَانَتْ امْرَأَةُ نُوحٍ ﷺ تَحْتَ نُوحٍ ^(٤) وَلَمْ تُشَاهِدْ مِنْهُ سِوَى الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ لِرَبِّهِ، جَلٍّ، وَعَلَا، ثُمَّ لَمْ يَنْفَعَهَا إِيْمَانُهُ وَعِبَادَتُهُ، لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ أَحَدًا إِلَّا بِإِسْلَامٍ أَحَدٍ، وَلَا يَضُرُّهُ كُفْرُ غَيْرِهِ، إِنَّمَا يَصِيرُ مُؤْمِنًا بِفِعْلٍ نَفْسِهِ [وَيَصِيرُ] ^(٥) كَافِرًا بِفِعْلٍ نَفْسِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿آيِنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ وَهِيَ لَمْ تُرِدْ بِقَوْلِهَا: ﴿رَبِّ آيِنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ بِقِيَامِ الْوَجْهِ الَّذِي عَرَفَتْ بِنَاءِ زَوْجِهَا وَغَيْرِهِ مِنَ الْخَلَائِقِ، وَإِنَّمَا أَرَادَتْ بِقَوْلِهَا: ﴿رَبِّ آيِنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ أَيِ اخْلُقْ لِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ.

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْهَمُ أَحَدٌ [مِنَ الْمُشَبَّهَةِ] ^(٦) مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَقَفَخْنَا فِيهِ مِنْ زَوْجِنَا﴾ [التحريم: ١٢] مَا قَهَمَ الْخَلْقُ مِنَ التَّفَخُّعِ فِي الْأَشْيَاءِ، وَإِنَّمَا قَهَمُوا مِنْهُ ^(٧) الْخَلْقُ وَالْإِنْشَاءُ.

فَمَا بَالُ الْمُشَبَّهَةِ قَهَمُوا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْوَرْدِ﴾ [الأعراف: ٥٤ و...] ^(٨) مَا قَهَمُوا مِنَ الْإِسْتِوَاءِ الْمُضَافِ إِلَى الْخَلْقِ؟ لَوْلَا ضَعْفُ اغْتِنَادِهِمْ وَجَهْلُهُمْ بِصَاحِبِهِمْ فِي التَّحْقِيقِ.

ثُمَّ الْأَصْلُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى الْأَسْمَاءِ الَّتِي هِيَ أَسْمَاءُ الْأَفْعَالِ الْمُشْتَرَكَةِ فِي مَا بَيْنَ الْخَلْقِ، إِذَا أُضِيفَ شَيْءٌ مِنْهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَتَقَرَّبَ عَلَيْهَا عَلَى الْأَسْمَاءِ الَّتِي هِيَ أَسْمَاءُ الْأَفْعَالِ الْمَخْصُوصَةِ لِلَّهِ تَعَالَى، فَمَا أَرِيدَ بِالْإِسْمِ الْمَخْصُوصِ مِنْ ذَلِكَ، فَذَلِكَ الْمَعْنَى هُوَ الْمُرَادُ بِالْإِسْمِ الْمُشْتَرَكِ.

فَالْإِسْمُ الْمَخْصُوصُ بِفِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْخَلْقُ؛ إِذْ لَا أَحَدٌ يُسَمِّي أَحَدًا مِنَ الْخَلَائِقِ خَالِقًا [وَإِنَّمَا يَقْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ] ^(٩): ﴿رَبِّ آيِنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ أَيِ اخْلُقْ لِي، وَيَقْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَتَقَفَخْنَا فِيهِ مِنْ زَوْجِنَا﴾ الْخَلْقُ وَالْإِنْشَاءُ.

وَالَّذِي يُبَيِّنُ أَنَّ الْأَسْمَاءَ الْمَخْصُوصَةَ [لَا] ^(١٠) يَقْهَمُ مِنْهَا مَا يَقْهَمُ [مِنَ الْأُخْرَى] ^(١١) قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّدُ فِي اللَّيْلِ وَالْبَحْرَ﴾ [يونس: ٢٢] وَمَعْنَاهُ: هُوَ الَّذِي خَلَقَ سَبْرَكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَقَوْلُهُ ^(١٢) تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [المؤمنون: ٨٠] أَيِ يَخْلُقُ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ، وَقَوْلُهُ ^(١٣): ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيِ يَخْلُقُ الضَّلَالَ وَبِهَيْدٍ مَنْ يَشَاءُ [فاطر: ٨] أَيِ يَخْلُقُ هِدَايَتَهُ.

وَمَنْ حَمَلَ الْأَمْرَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا سَلِمَ مِنَ الشُّبُهَاتِ كُلِّهَا وَوَسْوَاسِ الشَّيْطَانِ، وَسَلِمَ مِنَ التَّشْبِيهِ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.

(١) من م، في الأصل: وفي. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: صلاح. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: به. (٨) في م: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] وفصلت: [١١]. (٩) في الأصل وم: فيفهم بقوله. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: بالأخرى. (١٢) في الأصل وم: وقال. (١٣) في الأصل وم: وقال.

وفي هذا دلالة إيمانها بالبغث والحساب.

ثم من الجائز أن تكون وصلت إلى علم البغث والحساب بالتلقي أو بنظرها وتفكيرها في الحجاج والبراهين. وذكر أهل التفسير أنها قالت ذلك عندما عذبها فرعون، واختلفوا في صفة العذاب من أوجع؛ وحق مثله الإمساك عنه [وَأَلَّا نَشْتِغَلَ بِتَفْسِيرِهِ] ^(١) لما يتوهم من وقوع زيادة فيه ^(٢) أو نقصان على العدد الذي بين في الكتب المتقدمة.

وهذه الأشياء جعلت حجة لرسالة نبينا محمد ﷺ على أهل الكتاب [لِإِذَا وَجِدُوهَا مُوَافِقَةً لِلْأَنْبَاءِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي كُتُبِهِمْ، وَإِذَا وَقَعَ فِيهَا زِيَادَةٌ أَوْ نُقْصَانٌ وَجَدُوا فِيهِ مَوْضِعَ الطُّغْيَانِ فِي رَسُولِهِ]. فلهذا المعنى ما يجب ترك الخوض فيها ^(٣) والإعراض عن ذكرها.

وذكر عن الحسن وغيره أنه ما من مؤمن ولا كافر إلا ويُنَبِّئُ له بيت في الجنة. فإن مات على الإسلام سكن البيت، وإن قبض كافراً [أَوْرَثَهُ غَيْرُهُ] ^(٤).

وهذا لا يُحْتَمَلُ لأن الله تعالى إذا علم أنه يموت على الكفر فكيف ^(٥) ينبئ له ذلك كيلا يسكنه؟ ومن بنى لتفسيره في الشاهد، وهو يعلم أنه لا يسكنه صار عابثاً في فعله، وجل الله تعالى عن أن يوصف بالعيب.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَيَجْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي تجني من شر فرعون وجنوده ومن عمله أي من كفره؛ فيكون قولها ﴿وَيَجْنِي مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ راجعاً إلى نفسه، والآخر [راجعاً] ^(٦) إلى عمله ﴿وَيَجْنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَيَجْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ راجعاً إلى قومه.

فسالت النجاة منهم جملة / ٥٨١ - ب/ لما كانوا يمتنعونها عن عبادة الله تعالى، فكانت تخاف ناحيتهم، ولا تأمن، وتخاف منهم، فسالت النجاة منهم لتصل إلى عبادة ربها.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿وَمَرِّمَ أَبْتَ عَمْرَنَ أَلَّى أَحَصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ فأخبر عنها بإحصائها فرجها، وذلك بالأسباب، وهي ما اتخذت بين نفسها وبين الناس جميعاً حجاباً لئلا يقع بصر الناس عليها، ولا يقع بصرها عليهم، فتصل به إلى تخصيص فرجها.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] وهم إذا غَضُّوا أبصارهم وصلوا إلى حفظ الفروج؛ ففي الحجاب غَضُّ البصر [وفي غَضُّ البصر] ^(٧) وصول إلى حفظ الفرج وإحصائه، وقال في آية أخرى: ﴿يَمَرِّمُ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاكَ وَطَهَّرَكَ وَأَمْطَلَكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

وتطهيره إياها في أنه ظهرها من الفواحش والزنى. فأضاف الإحصان إليها في الآية الأولى، وأضاف التطهير ههنا إلى نفسه؛ فوجه إضافة الإحصان إليها ما ذكرنا أنها تكلفت الأسباب التي هي أسباب الموانع للزنى الدواعي إلى الإحصان، وأضاف إلى نفسه التطهير لأن وقوع ذلك وحصوله ^(٨) كان به؛ ففيه دلالة أن كل فعل من أفعال العباد لا يخلو من أن يكون لله تعالى فيه صنع وتدير.

[وقوله تعالى] ^(٩): ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ أي خلقنا فيه ما به تحيى الصور والأبدان. وقوله: ﴿فِيهِ﴾ أي في فرجها، كقولهم ^(١٠) في آية أخرى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] أي في نفسها ^(١١) عيسى عليه السلام والنفس مؤنث.

(١) في الأصل وم: ولا نشغل بتفسيرها. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عيسى وقال. (١١) في الأصل وم: نفس.

ثم تشبيهه [الخلق] ^(١) بالنفخ لأن الروح إذا خلقت [في الجسد انتشر فيه] ^(٢) كالريح إذا نفخت في شيء انتشرت فيه ^(٣)، أو [تشبيهه الخلق] ^(٤) بالنفخ لسرعة دخوله [في ما] ^(٥) نفخ فيه كالريح، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ جائز ^(٦) أن تكون الكلمات التي بشرت بها مريم هي ^(٧) قوله تعالى: ﴿يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْهَتْكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ [آل عمران: ٤٥] وقوله تعالى: ﴿يَمْرَيْمُ اقْنِصِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاسْلَمَكِ عَلَى فِرْسَةِ الْغُلَامِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] وقوله تعالى: ﴿وَهَزَيْتِ لِيكَ الْخَلَّةَ فَسَوَّيْتُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنَيْنًا﴾ [مريم: ٢٥] فصَدَقْتَ بِجَمَلَتِهَا [وانها] ^(٨) من عند الله، لا شيء، ألقى إليها الشيطان.

أو ﴿وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ أي بحجج ربها وبراهينه [كقوله تعالى] ^(٩): ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [يونس: ٨٢] أي بحججه وأدليته.

ثم تكون الحُجَجُ حُجَجُ البعث أو حُجَجُ الرسالة أو الوُحْدَانِيَّة، أي يكون قوله: ﴿وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ أي بالكلمات التي يستعاد بها من الشرور؛ فصَدَقْتَ أنها تُعِيدُ مَنْ تَعَوَّذَ بِهَا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَكُتِبَ﴾ وقرأى وكتابه ^(١٠)؛ وفي تصديقها بالكتاب تصديق منها بالكتاب لأن مَنْ آمَنَ بكتاب من كتب الله فقد آمَنَ بسائر كتبه لأنها يوافق بعضها بعضاً، وَمَنْ آمَنَ بكتبه فقد آمَنَ بكل كتاب له على الإشارة إليه، فثبت أن في الإيمان بكتاب إيماناً ^(١١) بسائر الكتب فكل واحد ^(١٢) من القراءتين تقتضي معنى القراءة الأخرى؛ فإن قوله: بكتابه أي بالإنجيل، وقوله: ﴿وَكُتِبَ﴾ أي بالإنجيل وسائر الكتب المتقدمة المنزل من عند الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنْتِ مِنَ الْقَانِنِينَ﴾ قيل: مِنَ الْمُصَلِّينَ، لأنه قال في آية أخرى: ﴿يَمْرَيْمُ اقْنِصِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] وإذا وُصِفَتْ ^(١٣) وَصِفَتِ الصَّلَاةُ، فَالْتَزَمَتْ هَذَا الْأَمْرُ، صَارَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ. وقيل: أي مِنَ الْمُطِيعِينَ لربها، والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ.



(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فيه انتشر في الجسد. (٣) في الأصل وم: فيها. (٤) في الأصل وم: والتشبيه. (٥) من م، في الأصل: فيها. (٦) في الأصل وم: فجائز. (٧) في الأصل وم: من. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ١٨٠. (١١) في الأصل وم: إيمان. (١٢) من م، في الأصل: واحد. (١٣) في الأصل وم: وصف.

سورة الملك

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿بَتَرَكُ الَّذِي يَدُّهُ الْمُلْكُ﴾ قيل: تعالى، وتعاظم، وتبارك: تفاعل، من البركة كناية عن نفى كل عيب. قال ﴿وَزَكَرَكَا مِنْ أَسْمَاءَ مَاءَ مُبَرَّكَ﴾ [ق: ٩] أي ماء، لا كدورة فيه، ولا قَدَر، بل هو ماء مُطَهَّرٌ مِنْ كُلِّ آفَةٍ وَغَيْرَةٍ. فَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿بَتَرَكُ﴾ أي تعالى عن أن يكون له شبيه وعديل، وتعاظم عنا قالت فيه المُلْجِدَةُ وَعَنْ أَنْ تُلْحَقَهُ الْمَعَايِبُ وَالْآفَاتُ.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَدُّهُ الْمُلْكُ﴾ أي الذي له مُلْكُ الْمُلْكِ، لأنه قال في موضع آخر: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] أي الذي له الْمُلْكُ. فَذَكَرَ الْيَدَ ههنا مكانَ الْمَالِكِ هناك، فامْتِدَحَ، جَلَّ، وَعَلَا، بِمُلْكِ الْمُلْكِ وَكَوْنِهِ مَالِكاً لَهُ.

والمعتزلة يقولون: إن مُلْكَ الْمُلْكِ الْكَفَرَةُ لَيْسَ لَهُ، وإنه لا يُؤْتَى الْمُلْكُ لِلْكَافِرِ، ويقولون في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] إن الذي آتاه الله الْمُلْكُ، هو إبراهيم عليه السلام والهاء تُنْصَرِفُ إِلَيْهِ، لَا إِلَى الَّذِي حَاجَّهُ.

وإذا لم يجعلوا مُلْكَ الْمُلْكِ الْكَفَرَةُ في يده لم يصير مُتَمَدِّحاً بِمَا ذَكَرْنَا لَأَنَّهُ يَكُونُ فِي يَدِهِ بَعْضُ الْمُلْكِ لَا كُلُّهُ. وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿تَوَفَّى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَهُمْ سَائِدُونَ﴾ [آل عمران: ٢٦] وعلى قولهم يصير الْمُلْكُ فِي يَدِ مَنْ لَا يَشَاءُ لَأَنَّهُ لَا يَشَاءُ الْمُلْكُ لِلْكَافِرِ، وَمَعَ ذَلِكَ يُوْجَدُ فِيهِمُ الْمُلْكُ.

ثم ما ينبغي لهم أن يقطعوا القول بأن الله تعالى لا يُؤْتِي الْمُلْكُ لِلْكَافِرِ، بل عليهم [أن يقولوا: ^(١)] إِنْ كَانَ إِيْتَاءُ الْمُلْكِ أَصْلَحَ لَهُمْ أَتَاهُمْ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا لَمْ يُؤْتِهِمْ؛ إِذْ مِنْ مَذْهَبِهِمْ أَنَّ [الله تعالى] ^(٢) لَا يَقْعَلُ بَعْدِيهِ إِلَّا مَا هُوَ الْأَصْلَحُ لَهُ فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا فِي حَقِّهِ.

فهذا جملة اعتقادهم، ثم هم لا يعرفون الوجه الذي له صار أصلح في كل شيء على الإشارة إليه، لأنهم يقولون: في إبقاء إبليس اللعين إلى اليوم المعلوم صلاح، وإن كنا لا نعرف الوجه الذي له صار أصلح؛ وإفناء الأنبياء والرسل عليه السلام كان أصلح، وإن لم نعرف من أي وجه صار أصلح.

فليقولوا ههنا: إِنْ كَانَ إِيْتَاءُ الْمُلْكِ، إِنْ كَانَ أَصْلَحَ لَهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا يُؤْتِيهِمْ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَعَلَيْهِ إِلَّا يُؤْتِيهِمْ، لَا أَنْ يَجْعَلُوا الْأَمْرَ عَلَى النَّفْيِ.

ثم الْمُلْكُ اسْمٌ عَامٌّ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ نَفَازِ التَّدْبِيرِ وَالسُّلْطَانِ وَالْوِلَايَةِ. وَالْمُلْكُ هُوَ أَنْ يَكُونَ لِلْمَالِكِ خَاصَّةٌ فِي الشَّيْءِ، لَا يُتَنَاولُ مِنْ ذَلِكَ الشَّيْءِ إِلَّا بِإِذْنِهِ. وَقَدْ يَكُونُ الْمَرْءُ مَالِكاً، وَلَيْسَ بِمَلِكٍ، وَقَدْ يَكُونُ الْمَرْءُ مَلِكاً، وَلَيْسَ بِمَالِكٍ. فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْوَجْهَيْنِ يَقْتَضِي مَعْنَى غَيْرَ مَا يَقْتَضِيهِ الْآخَرُ.

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الملك.

وجائز أن يكون تأويل قوله: ﴿يَبْدُو إِلَهُكَ﴾ أي مُلْكُ كُلِّ مَلِكٍ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ بِيَدِهِ، لَأَنَّهُ إِنْ شَاءَ أَبْقَى لَهُ الْمُلْكَ، وَإِنْ شَاءَ نَزَعَهُ. فَمَا مِنْ مَلِكٍ فِي دَارِ الدُّنْيَا إِلَّا وَمُلْكُهُ فِي الْحَقِيقَةِ لِلَّهِ تَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ امتدح^(١) نفسه، تعالى، بأنه على ما يشاء قديرٌ وذلك مِنْ أوصافِ ربوبيته أيضاً. ومن قول المعتزلة أنه على أكثر الأشياء غير قدير، لأنهم يجعلون المعدوم شيئاً، فشيئاً الأشياء [كانت بأنفسها]^(٢) لا بإنشاء الله تعالى، ويجعلون ظهورها بالله تعالى فقط.

وإذا كان كذلك فهو لم يصِرْ قادراً على شئيته الأشياء. وكذلك يتفون الخلق والقدرة على أفعال العباد.

ومن قولهم أيضاً أن أقدار / ٥٨٢ - أ / العبد بيد الله تعالى، وإذا أقدَر عبداً مِنْ عبيده على الهداية خرجت القدرة [من يده، فتصير هذه القدرة]^(٣) مستفادة لا ذاتية. وإذا كان كذلك فقد نفوا عنه القدرة عن أكثر الأشياء، فلا يصير هو قادراً على شيء، وإنما هو قادرٌ على البعض ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال أبو بكر الأصم: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ﴾ أي خَلَقَكُمْ أَمْوَاتًا: نُظْفَةً وَعَلَقَةً وَمُضْغَةً، ثم أحياكم ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾.

وقال غيره: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ﴾ لِيَجْزِيَكُمْ بَعْدَهُ ﴿وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ بها، واستدل بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِمَن لَبِثُوهَا أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] فَصَرَفَ الْمِخْنَةَ إِلَى الْحَالَةِ الَّتِي أَنشَأَهُمْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَهِيَ حَالَةُ الْحَيَاةِ. ثُمَّ أَخْبَرَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ يَجْعَلُهُمْ صَعِيداً جُرُزاً بَعْدَ الْإِنْتِلَاءِ بقوله: ﴿وَأِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨].

وعندنا أنه خلقهما جميعاً للإنتلاء لأن الله تعالى خلق الموت على غاية ما تكررهُه النفس، وتنفّر عنه، وخلق الحياة على غاية ما تتلذذ به النفس، وترغب فيها، والمِخْنَةُ^(٤) في التَّغْيِبِ والتَّهْيِيبِ. فثبت أن خلق الموت [مِخْنَةٌ]^(٥) فيكون قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ كأنه يقول: خلق الموت مُرْهِباً، وخلق الحياة مُرْغِبَةً ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَرْهَبُ مِنَ الشَّرِّ وَأَرْغَبُ فِي الْخَيْرِ.

ثم الموت مما لا مهرب منه لأحد ولا مخلص لمخلوق، وكذلك الحياة، وإن كانت من أرغب الأشياء إلى النفس، فليست هي بحيث يتهيأ للمرء أن يزيد منها بالطلب ولا مما يوجد بالكد والسعي، فصارت هي مُرْغِبَةً فِي الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ، وَهِيَ نَعِيمُ الْآخِرَةِ [وصار الموت]^(٦) مُرْهِباً مِنَ الْمَوْتِ الدَّائِمِ، وَالْمَوْتُ الدَّائِمُ هُوَ الْعَذَابُ الدَّائِمُ الَّذِي لَا يَنْقُطُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمُحْسَرَةٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] أي لَا تَنْقُضِي عَنْهُ الْأَلَامُ وَالْأَوْجَاعُ، بَلْ يَبْقَى فِيهَا أَبَداً.

وإذا ثبت أن الموت صار مُرْهِباً مِنَ الْعَذَابِ الدَّائِمِ، وَالْحَيَاةُ صَارَتْ مُرْغِبَةً فِي مِثْلِهَا، فيقوم يطلبها^(٧).

ووجب القول بالبعث أيضاً؛ إذ الراغب إنما يصل إلى ما يرغب فيه بالبعث، والآخر إنما يصير إلى العذاب الدائم بالبعث.

وفيه إيجاب القول بالرسالة، لأنه إذا ثبتت الرغبة في الموعود من الثواب والرغبة من العذاب، وهما جميعاً غائبان، فاحتيج إلى من يظهرهما، ويخبر عنهما، فلم يكن بد من رسول، يخبرهم، ويحضر علمه لهم.

ثم الأصل في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أنه يحسن عمله بحسن رغبته، ويسوء عمله بسوء رغبته ورهبته. فخلق الحياة والموت لِيَتَفَكَّرَ^(٨) فيهما المرء، ويتغير بهما. فمن حسنت رغبته ورهبته حسن عمله، ومن لم يتفكر فيهما، ولم يتغير بهما ساء عمله.

(١) في الأصل: فامتحن، في م: فامتدح. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) الوار ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وصارت. (٧) في الأصل وم: يطلبه. (٨) من نسخة الحرم المكي، في وم: ليلوكم.

فالموت والحياة أنشأنا مَرَّغَيْنِ وَمُرَّهَيْنِ، وكذلك الدنيا وما فيها أنشئت دلالة على طريق الآخرة: فالسَّمْعُ يدلُّ على السَّنْعِ، والبَصَرُ على البَصْرِ، والآمُها تدلُّ على آلام الآخرة، ونعيمها دليلٌ على نعيم الآخرة، والله أعلم.

ثم قوله تعالى: ﴿يَلْبِسُكُمْ إِبْرَاقًا لَمْ تَحْسُبُوا﴾ فيه دليلٌ على إضمار قوله: وإيُّكم أسوءُ عملاً على مُقابلة الأول، إلا أنه اكتفى بذكر أحد المتقابلين عن الآخر، والله أعلم.

فإن قال قائلٌ كيف أضاف الإبتلاء إلى نفسه بقوله: ﴿يَلْبِسُكُمْ﴾ والإبتلاء في الشاهد لا يظهر ما خفي ولا يستحضر ما غاب، والله تعالى لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه أمر، فكيف أضيف إليه الإبتلاء؟

فجوابه [في وجهين]:

أحدهما: [١] أن يقول: إن الإبتلاء في الحقيقة كناية عما به ظهر الشيء وبروزه، فاستعمل الإبتلاء في كل ما [فيه] ظهور الأمر، وإن كان الذي ظهر من الأمر عند المُبتلى ظاهراً، وهذا كما أضيف الاستدراج والمكر إلى الله تعالى لوجود معنى المكر والاستدراج فيه، وإن [لم يكن] [٢] المقصود من ذلك المكر والاستدراج.

وفي الشاهد أن نُحسن إلى عدوٍ ليقع عنده أنك تركت عداوته، فيفتّر بإحسانك إليه، ثم تأخذه من وجوه أمية ومن حيث لا يشعر. هذا هو معنى المكر في الشاهد، وقد وجد الإحسان من الله تعالى إلى أعدائه، ووجد منهم الإغترار بالنعم، ووقع عندهم أنهم من جملة أوليائه، ثم أتاها العذاب من حيث لا يشعرون، فوجد معنى المكر، وإن لم يقصد بإحسانه إليهم المكر بهم.

والثاني: من أمر في الشاهد فإنما يأمر لمنفعة تصل إليه، وإذا نهى عن شيء فإنما ينهى لمنفعة تصل إليه. والله تعالى لم يأمر الخلق، ولم ينههم لمنفعة يجلبها إلى نفسه أو لمنفعة يدفعها عن نفسه، وإنما أمرهم، ونهاهم لمنافع ترجع إليهم ومضار تلحقهم. ثم أضيف [الأمر] [٣] والنهي، وإن كان لا منفعة له ولا مضرة عليه. فلذلك ابتلى خلقه ليظهر للمبتلى عداوته وولايته، وأضاف الإبتلاء إلى نفسه، وإن كان هو مستغنياً عن الإبتلاء، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فيه إبانة أنه لم يبتلنا لمنفعة أو أمر يرجع إليه أو لذل يدفع عنه، ولكن ليعز يحرره الممتحن إذا أحسن العمل وذنوب تَغْفِرُ لَهُ، وتُسْتَرُ عليه؛ وهو عزيزٌ بذاته.

وجائز أن يكون قوله ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي القوي على الإنقياد ومن ساء عمله، واختار عداوته ﴿الرَّحِيمُ﴾ السور على من حسن عمله، يستر عليه ذنبه، ويجزيه بحسن عمله [٤] والله أعلم.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ إيجاب القول بتضديق ما يأتي به الرسل من الخبر، وقد ثبت وجود هذا القول على ألسن الرسل، فلزمنا القول في السموات: إنها سبع، وإن لم تُشاهد.

ثم يحتمل قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ ليبتلى أهلها أيهم أحسن عملاً، لأنه بَيَّن أنه لم يخلق السموات والأرضين باطلاً.

ثم السموات بأنفسها لا تمتحن، وإنما يمتحن أهلها، لكنه اقتضى ذكر السموات وذكر أهلها، واقتضى ذكر الأرضين وذكر أهلها، فأخبر بذكر الأرض عن ذكر أهلها وبذكر السموات عن ذكر أهلها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ أي انظر في خلق الرحمن هل ترى فيه من تفاوت أو فطور؛ فإنك إن رأيت فيه فطوراً ظننت في مديرو عدداً، وإن رأيت فيه تفاوتاً ظننت في منشيئو سقفاً؛ فإنك إذا رأيت فيه فطوراً أو شقوقاً

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة

من الأصل وم. (٥) م، ساقطة من الأصل.

رَأَيْتَ فِيهِ تَمَانِعًا وَتَدَانِعًا، وَفِي حُصُولِ التَّمَانِعِ وَالتَّدَانِعِ [حُصُولُ الْعَدَدِ، لِأَنَّ التَّدَانِعَ وَالتَّمَانِعَ^(١)] إِنَّمَا يَقَعُ عِنْدَ ثَبَاتِ الْعَدَدِ، لِأَنَّ مَا بَيْنِي هَذَا يَهْدُمُهُ الْآخَرُ، وَيَنْقُضُهُ. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقَعُ التَّدَانِعُ.

وَإِذَا لَمْ تَرَفِهِ فُطُورًا أَوْ شُقُورًا، بَلْ تَرَاهُ مُتَّصِفًا مُجْتَمِعًا دَلَّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَذَلِكَ التَّفَاوُتُ يَدُلُّ عَلَى السُّفُوِّ وَنَقْيِ الْحِكْمَةِ، وَارْتِفَاعِ التَّفَاوُتِ يَدُلُّ عَلَى حِكْمَتِهِ وَعَجِيبِ تَدْبِيرِهِ، فَيَكُونُ فِي ارْتِفَاعِ الْفُطُورِ وَالتَّفَاوُتِ إِثْبَاتُ الْقَوْلِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَإِجَابُ الْقَوْلِ بِالْبُعْثِ مِنْ حَيْثُ ثَبَّتَ حِكْمَتُهُ، وَفِي نَقْيِ الْقَوْلِ بِالْبُعْثِ زَوَالُ الْحِكْمَةِ.

وَفِيهِ إِجَابُ الْمِخْنَةِ وَالْإِبْتِلَاءِ، لِأَنَّ الْعَدَدَ إِذَا ثَبَّتَ كَانَ لِلْمُتَمَتِّحِينَ أَلَّا يَغْمَلَ حَتَّى يَتَيَّنَّ لَهُ الْغَالِبُ مِنَ الْمَغْلُوبِ، فَلَا يَضِيعُ عَمَلُهُ، أَوْ يَشْتَغِلَ كُلُّ بِأَقَامَةِ سُلْطَانِهِ وَنَفَازِ تَدْبِيرِهِ، فَلَا يَتَضَرَّعُ لِلْأَلَمِ بِالْمِخْنَةِ.

الْأَتَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا مَعَهُ مِنْ شَيْءٍ إِذَا دُخِلَ عَلَيْهِ لَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ﴾؟ [المؤمنون: ٩١] قِيلَ: يَذْهَبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِالْجِزَاءِ الَّذِي خَلَقَهُ، فَتُظْهِرُ [فُطُورًا]^(٢) وَشُقُورًا، لِأَنَّ مَا خَلَقَ هَذَا يَمْتَنَزِعُ عَنِ الَّذِي خَلَقَهُ الْآخَرُ. فَارْتِفَاعُ الْفُطُورِ يَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الصَّانِعِ، جَلُّ جَلَالِهِ.

وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ ٥٨٢ - ب/ أَي مِنْ حَيْثُ الدَّلَالَةُ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الرَّبِّ تَعَالَى أَوْ مِنْ حَيْثُ الْحِكْمَةُ وَالْمُضْلَحَةُ.

فَالْخَلَاقُ كُلُّهَا فِي الْمَعْنَى الَّتِي ذَكَرْنَاهَا غَيْرُ مُتَّفَاوِتَةٍ، لَا أَنْ تَكُونَ الْأَشْيَاءُ الْمُخَدَّنَةُ غَيْرَ مُتَّفَاوِتَةٍ فِي أَنْفُسِهَا، لِأَنَّ بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ تَفَاوُتٌ، وَكَذَلِكَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ تَفَاوُتٌ، وَلَكِنْ مَنَافِعُ السَّمَاءِ مُتَّصِلَةٌ بِمَنَافِعِ الْأَرْضِ، وَمَنَافِعُ أَهْلِ الْأَرْضِ مُتَّصِلَةٌ بِالْأَرْضِ، وَقَوَائِمُهُمْ وَمَعَاشُهُمْ بِمَا يَخْرُجُ مِنْهَا. وَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَعَلَى حِكْمَتِهِ وَلَطَائِفِ تَدْبِيرِهِ.

الآية ٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّبِعِ الْبَصَرَ هَلْ يَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ ثُمَّ اتَّبِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ غَايَةً وَهُوَ حَسْبٌ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا عَلَى رُجُوعِ بَصَرِ الرَّجُلِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عَلَى رُجُوعِ بَصَرِ الْقَلْبِ، أَوْ يَكُونَ [رُجُوعًا]^(٣) أَحَدُهُمَا عَلَى بَصَرِ الْوَجْهِ، وَالثَّانِي عَلَى بَصَرِ الْقَلْبِ.

وَالْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى بَصَرِ الْقَلْبِ، لِأَنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنْهُ النَّظَرُ إِلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ بِبَصَرِ الْوَجْهِ، وَسَبَقَ مِنْهُ الْعِلْمُ مِنْ حَيْثُ النَّظَرُ أَنَّهُ لَا تَفَاوُتَ فِيهَا وَلَا فُطُورَ، فَدَعَا إِلَى أَنْ يَنْظُرَ بِبَصَرِ الْقَلْبِ، لِيَدُلَّهُ ذَلِكَ عَلَى الْمَعْنَى، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١] وَقَوْلِهِ^(٤) تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الروم: ٩] وَلَمْ يَرَوْا بِالسَّيْرِ بِالْأَقْدَامِ؛ إِذْ قَدْ سَبَقَ مِنْهُمْ السَّيْرُ فِيهَا، وَلَكِنْ مَغْنَاهُ: أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي عَوَاقِبِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ مِنْ مُكَذِّبِي الرُّسُلِ: أَنَّهُمْ بَأَيِّ سَبَبٍ أَهْلِكُوا، وَلَا يَزَالُ ذَنْبُ عَوِقِيَّوَا، وَاسْتَوْصِلُوا؟

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّبِعِ الْبَصَرَ هَلْ يَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ ثُمَّ اتَّبِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ الْآيَةُ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْكَرَّةَ هُنَا كِنَايَةٌ عَنْ مَرَّةٍ بَعْدَ مَرَّةٍ، لَيْسَتْ عَلَى تَثْبِيتِ الْعَدَدِ؛ فَكَأَنَّهُ يَكُونُ أَبَدًا مُغْتَبِرًا نَاطِرًا فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ. وَإِلَى هَذَا يَذْهَبُ الْحَسَنُ وَالْأَصَمُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ مَرَّتَيْنِ، وَلَكِنْ [عَلَى]^(٥) اخْتِلَافِ الْوَقْتَيْنِ، فَتَكُونُ إِحْدَى التَّنْظَرَتَيْنِ بِاللَّيْلِ [وَالثَّانِيَّتُهُمَا] بِالنَّهَارِ، لِأَنَّهُ بِاللَّيْلِ آيَاتٌ، وَبِالنَّهَارِ^(٦) آيَاتٌ سِوَاهَا، وَثُبُوتُ كُلِّ شَيْءٍ يَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَعَجِيبِ حِكْمَتِهِ وَنَفَازِ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، أَوْ تَكُونُ النَّظَرَةُ الْأُولَى بِبَصَرِ الْوَجْهِ، وَالنَّظَرَةُ الثَّانِيَةُ بِبَصَرِ الْقَلْبِ، لِأَنَّهُ إِذَا نَظَرَ النَّظَرَةَ الْأُولَى بِبَصَرِ وَجْهِهِ، قَرَأَ مَا فِيهِ مِنَ الْعَجَائِبِ أَشْعَرَ قَلْبَهُ مَا رَأَى، فَيَنْظُرُ فِيهِ مَرَّةً أُخْرَى بِبَصَرِ الْقَلْبِ لِيَتَأَكَّدَ ذَلِكَ، وَيَتَقَرَّرَ

(١) فِي م: وَالتَّنَاقُضُ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَالتَّنَاقُضُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) مِنْ نَسَخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، فِي م: وَالثَّانِيَّتُهُمَا بِالنَّهَارِ لِأَنَّهُ لَا يَرَى بِاللَّيْلِ آيَاتٍ وَبِالنَّهَارِ، فِي الْأَصْلِ: بِالنَّهَارِ.

ويجوز أن تكون النظرتان جميعاً ينصّر الوجه لأنه [لا] ^(١) يستوعب النظر بالجملة في المرة الأولى، فينظر مرة أخرى ليدرك ما غاب عنه في المرة الأولى.

وقوله تعالى: ﴿حَاسِبًا﴾ أي صاغراً مستسلماً مغترفاً بالقصور عن ذلك كنهه سلطانوه والإحاطة بعظمته وجلاله ﴿وَهُوَ حَكِيمٌ﴾ أي منقطع عن ذلك ببلوغ حكمته ونفاذ أمره.

ثم الاشبه أن يكون المراد بهذا الخطاب المكذبين بالبعث، لأن رسول الله ﷺ وإن كان الخطاب متوجهاً إليه في الظاهر، لأنه إنما أراد بالنظر في خلق الله تعالى ليتقرر عنده عظمته الله تعالى وسلطانه وعجيب حكمته ونفاذ تدبيره، ورسول الله ﷺ قد كان تقرر عنده علم ذلك كله، فلم يكن يحتاج إلى النظر في ما ذكر ليتقرر، فصرفت إلى المكذبين بالبعث، فأمروا بالنظر في ما ذكر ليتقرر عندهم سلطانه ونفاذ تدبيره وأنه ليس بالذي يعجزه أمر، وأن قدرته ليست بمقدرة بقوى البشر، وهم كانوا ينكرون البعث والإحياء على تقدير الأمور بقوى أنفسهم. فإذا نظروا في هذه الأشياء، وعرفوا فيها لطائف وحكماء، لا تدرِكها عقولهم، وقوة، لا تبلغها حيلهم، أدى ذلك إلى رفع الإشكال عنهم وإزاحة الريب الذي اغترأهم في أمر البعث، فيحملهم على الإيمان.

الآية ٥

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ سماها السماء الدنيا ليدنوها إلى المخاطبين الممتحنين لا أن تكون السماء الثانية سماء الآخرة. والذي يدل على صحة ما ذكرنا أن مقابل الدنيا ليست هي الآخرة، بل مقابلها الأولى، ومقابل الدنيا القسوى، فثبت أن ليس فيها تبييت أن السماء الثانية هي سماء الآخرة.

والمصابيح هي النجوم، فذكر عباده عظيم ما أودع من النعم في النجوم عليهم، فجعل فيها ثلاثة أوجه من النعم:

إحداها: أنه جعلها زينة للناظرين كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦].

ثم هذه الزينة إنما تظهر عندما تخفى على الناظرين زينة الأرض، وذلك في ظلمة الليالي، فابذل الله لهم زينة في السماء مكان الزينة التي أنشأها في الأرض، وفصل هذه الزينة على سايرها، لأن سايرها لا يظهر إلا بالذنو إليها والقرب منها، ثم جعل هذه الزينة بحيث تظهر، فتري من البعد، فثبت أن لها فضلاً وشرفاً على زينة الأرض.

والنعمة الثانية: ما ذكر في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] فجعلها هدى من ظلمات أحوال تقع، فيسلم بها المرء من الوقوع في المهالك.

والنعمة الثالثة: ما ذكر من قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥] وفي جعلها رجوماً للشياطين رفع الأشياء عن الخلق وإخراجهم من ظلمات الأفعال إلى النور؛ وذلك أن الشياطين كانوا يصعدون إلى السماء، فيستمعون إلى الأخبار التي يتحدث بها أهل السماء في ما بينهم مما يراود بأهل الأرض، فيسترقون السمع منهم، فيأتون بها أهل الأرض، ويلقونها إلى أهل الأرض بعد ما يخلطونها بأكاذيب من عند أنفسهم، فيشبهون على الخلائق، ويضلونهم بذلك عن سبيل الله تعالى، فملاً السماء بالحرس والشهب ليدفعوا الشياطين عن استراق السمع ليكون تبليغ الأخبار إلى أهل الأرض بمن يؤمن عليه [من] ^(٢) الكذب، وهو الرسول ﷺ، فسلم تلك الأخبار من التخليط والشبه، فيسلم الناس من الوقوع في الظلمات.

ثم يكون في جعل النجوم زينة السماء أن أهل السماء قد ابتلوا أنهم أحسن عملاً كما ابتلي به أهل الأرض. ألا ترى إلى ما ذكر في أهل الأرض في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوهُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا؟﴾ [الكهف: ٧] فأخبر أن الزينة للإمتحان.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ فيه أنهم، وإن عذبوا بالنيران التي جعلت في النجوم الرجوم لا تدفع عنهم ما استوجبوا من العذاب الدائم، بل قد أعد لهم عذاب السعير كما أعد لغيرهم من الشياطين وأهل الكفر.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسَاءَ الْمَصِيرُ﴾ فالمَصِيرُ هو الطريق، أي فبيش الطريق طريق مَنْ سَلَكَهُ أَفْضَى بِهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ.

الآية ٧ وقوله تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ والشهيق الصوت المُنْكَرُ. مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ أي لجهنم، ومنهم مَنْ جَعَلَ الشَّهيقَ مِنْ أَهْلِهَا. وقد يجوزُ أَنْ يُذَكَّرَ الْمَكَانُ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ الْأَهْلُ كَمَا قَالَ: ﴿وَكَايْنِ بْنِ قَرِيْبَةٍ مَتَّ عَنْ أَبِي رَبِيعٍ﴾ [الطلاق: ٨] وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ يَحْتَمِلُ عِنْدَنَا.

ولا يُحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ لِأَنَّ الصَّوْتِ الْمُنْكَرَ أَمْرٌ ظَاهِرٌ وَمَنْ لَا يَعْقِلُ الصَّوْتِ [كَهُوَ وَمَنْ يَعْقِلُ، فَلَيْسَ الَّذِي يَعْقِلُ الصَّوْتِ] ^(١) أَوَّلَى أَنْ يُجْعَلَ الْفِعْلُ لَهُ مِنَ الَّذِي لَا يَعْقِلُ.

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي تَغْلِي ^(٢). ثُمَّ النَّارُ بِنَفْسِهَا لَا تَغْلِي، وَإِنَّمَا تَغْلِي بِالَّذِي يُجْعَلُ فِيهَا، فَفِيهِ أَنَّ طَعَامَهُمْ وَشَرَابَهُمْ فِي النَّارِ، فَتَغْلِي النَّارُ بِطَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ فجائزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا كِنَايَةً عَنِ الْحَزَنَةِ. وَجَائِزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا وَصْفَ النَّارِ، وَاللَّهُ ^(٣) تَعَالَى أَنْ يُجْعَلَ فِي جَهَنَّمَ وَفِي مَا شَاءَ مِنَ الْأَصْوَاتِ / ٥٨٣ - أ/ مَا تُعْرِفُ فِيهِ عَظَمَتُهُ وَجَلَالُهُ، فَيَغْضَبُ لَهُ عَلَى أَعْدَائِهِ غَضَبًا، يَكَادُ يَنْقَطِعُ فِي نَفْسِهِ، وَيَسْلَمُ لِأَوْلِيَائِهِ ^(٤).

ثُمَّ فِي ذِكْرِ غَضَبِهَا تَذَكِيرٌ أَنَّ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَوْلِيَائِهِ أَنْ يَغْضَبُوا لَهُ عَلَى أَعْدَائِهِ غَضَبَ جَهَنَّمَ، بَلْ جَهَنَّمَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ تُنْتَحَنَ بِذَلِكَ مِتًا.

ثُمَّ هِيَ بَلَّغَتْ مِنَ الْغَضَبِ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ مَبْلَغًا كَادَتْ تَنْقَطِعُ [فِي نَفْسِهَا] ^(٥).

فَالأَوْلِيَاءُ أَحَقُّ أَنْ يَوْجَدَ مِنْهُمْ مِنَ الشَّدَةِ عَلَى الْأَعْدَاءِ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُحْمَدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩] وَقَوْلُهُ ^(٦) تَعَالَى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وهكذا الْحَقُّ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَكُونَ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ.

وفِيهِ حِكْمَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ ^(٧) أَنَّهُ ذَكَرَ شِدَّةَ النَّارِ عَلَى أَهْلِهَا لِثَلَا يَقُولُوا ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقوله تعالى: ﴿كَلَّمَ اللَّهُ فِيهَا نَوَاحٍ سَالِمَةً خَرَتْهَا آلُ يُوسُفَ بْنِ مَرْيَمَ﴾ يُنْذِرُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا.

الآية ٩ [وقوله تعالى] ^(٨): ﴿قَالُوا لَنْ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ وهذا هو إخبارٌ عَنْ نَهَايَةِ أَمْرِهِمْ وَآخِرِ شَأْنِهِمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ فَرَعُوا فِي الْآخِرَةِ إِلَى الْيَمِينِ بِالْكَذِبِ، فَقَالُوا: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] رَجَاءُ أَنْ يَنْقَعَهُمْ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ كَمَا كَانَتْ تَنْقَعُهُمْ فِي الدُّنْيَا، فَلَمَّا أُلْقُوا فِيهَا أَيْقَنُوا أَنَّ أَيْمَانَهُمْ لَا تَنْقَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ، وَفَرَعُوا إِلَى الْإِغْتِرَافِ وَالصَّدَقِ رَجَاءُ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنَ الْعَذَابِ، فَقَالُوا: ﴿بَلْ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ يُنْذِرُنَا بِلِقَاءِ هَذَا الْيَوْمِ ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ بِالَّذِي كَانَ يُنْذِرُنَا النَّذِيرُ ﴿وَقُلْنَا مَا تَزَلَّ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ مِمَّا يُنْذِرُونَا بِهِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ فجائزُ أَنْ يَكُونَ الْقَائِلُ لَهُمْ بِهَذَا هُمُ الْحَزَنَةُ، وَهَذَا خِطَابٌ فِي الدُّنْيَا ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ اغْتِرَافٌ مِنْهُمْ بِأَنَّهُمْ قَدْ سَمِعُوا، وَعَقَلُوا، وَقَوْلُهُ ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ لَيْسَ هُوَ عَلَى نَفْيِ السَّمْعِ وَالْعَقْلِ، إِذْ قَدْ أَقْرَأُوا أَنَّهُمْ سَمِعُوا، وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: تَغَالَى. (٣) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ أَوْلِيَائِهِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: بِنَفْسِهَا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

نَفِي الْإِنْتِفَاعِ بِمَا سَمِعُوا، أَوْ عَقَلُوا؛ لَأَنَّ الْإِنْتِفَاعَ بِالسَّمْعِ، هُوَ الْإِجَابَةُ لِمَا سُمِعَ، وَالْإِنْتِفَاعُ بِالْعَقْلِ أَنْ يُقَامَ^(١) بِوَفَاءِ مَا عَقِلَ. وَهُمْ لَمْ يُجِيبُوا لِمَا سَمِعُوا، وَلَمْ يَقُومُوا بِوَفَاءِ مَا عَقَلُوا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ فِي الدُّنْيَا كَمَا نَسْمَعُ الْآنَ، أَوْ كُنَّا نَعْقِلُ [كَمَا نَعْقِلُ]^(٢) الْآنَ ﴿مَا كُنَّا فِي أَحْصَى السَّعِيرِ﴾ وَهَذَا غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ لِأَنَّ تِلْكَ الدَّارَ، لَيْسَتْ بِدَارِ إِسْمَاعٍ وَإِفْهَامٍ، وَلِنِإِنَّمَا الْمَعْنَى مَا ذَكَّرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أَيُّ بَعْدًا عَلَى مَعْنَى الدَّعَاءِ عَلَيْهِمْ، وَقِيلَ: السُّحْقُ: وَادٍ فِي جَهَنَّمَ.

الآية ١١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [يَخْتَمِلُ]^(٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ عَذَابَ رَبِّهِمْ، وَالْعَذَابُ عَنْهُمْ غَائِبٌ؛ فَاهْلُ الْإِسْلَامِ يَخْشَوْنَ عَذَابَ اللَّهِ، وَهُوَ غَائِبٌ عَنْهُمْ، وَالْكَفَرَةُ لَا يَخْشَوْنَهُ إِلَّا أَنْ يُعَايِنُوهُ^(٤).

الآية ١٢

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أَيُّ يَخْشَوْنَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُعَذِّبَهُمْ، أَوْ يَخْشَوْنَهُ^(٥) فِي مَا أَوْعَدَهُمْ.

ثُمَّ الْأَصْلُ أَنَّ مَا مِنْ مُؤْمِنٍ بِالْبَعْثِ سِوَى الْمَعْتَزِلَةِ إِلَّا وَهُوَ يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى. لَكِنَّهُمْ يَتَفَاوَتُونَ فِي الْخَشْيَةِ.

ثُمَّ الْخَشْيَةُ تَقْتَضِي الرُّجَاءَ، وَالْخَوْفُ لَيْسَ كَالْآخَرِ، وَالْإِيَّاسُ الَّذِي لَا يَقْتَضِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَّا وَجْهًا وَاحِدًا.

وَإِذَا كَانَتِ الْخَشْيَةُ تَقْتَضِي مَا ذَكَّرْنَا فَكُلُّ مُؤْمِنٍ يَخَافُ عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى لِمَا رَأَى مِنْ كَثْرَةِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظَمَتِهِ عَنْ حَقَّقِ تِلْكَ النِّعَمِ، لِأَنَّ مِنْ حَقِّهَا أَنْ يَشْكُرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهَا، وَقَدْ عَرَفَ كُلُّ مُؤْمِنٍ تَقْصِيرَهُ فِي آدَاءِ الشُّكْرِ وَتَقْرِيطَهُ فِي قَضَاءِ الْحَقِّ فَيَرْجُو رَحْمَتَهُ لِمَا عَرَفَ مِنْ سَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَعَرَفَهُ مُضِلًّا عَفْوًا غَفُورًا. لَكِنْ فِيهِمْ تَفَاوُتٌ فِي الْخَشْيَةِ وَالرَّهْبَةِ.

فَمَنْ كَانَ أَذْكَرَ^(٦) لِعَفْلَتِهِ فَهُوَ لِعَقُوبَتِهِ أَكْثَرُ خَشْيَةً، وَمَنْ كَانَ أَقْلَ ذِكْرًا لِعَفْلَتِهِ فَهُوَ أَقْلُ خَشْيَةً، فَيَتَفَاوَتُونَ عَلَى تَفَاوُتِهِمْ فِي الذِّكْرِ، وَهُوَ كَالْمَوْتِ الَّذِي يَرْهَبُهُ النَّاسُ جَمِيعًا، وَيَتَّقُونَ بِحُلُولِهِ، لَكِنَّهُمْ يَتَفَاوَتُونَ فِي ذَلِكَ؛ فَمَنْ كَانَ لَهُ أَكْثَرُ ذِكْرًا كَانَ أَبْلَغَ فِي التَّقِيُّطِ وَأَكْثَرَ رَهْبَةً، وَمَنْ كَانَ أَغْفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ فَهُوَ أَقْلُ رَهْبَةً.

وَلِقَاتِلِي أَنْ يَقُولَ: كَيْفَ جَعَلْتُمْ كُلَّ مُؤْمِنٍ خَائِفًا رَاجِيًا، وَالرَّاجِي، هُوَ الَّذِي يَطْلُبُ، وَالْخَائِفُ، هُوَ الَّذِي يَهْرُبُ؟ فَكُلُّ مَنْ رَجَا شَيْئًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا وُصُولَ إِلَيْهِ إِلَّا بِأَعْمَالٍ وَأَسْبَابٍ، فَهُوَ يَقُومُ بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ بِغَايَةٍ مَا يَحْمِلُهُ وَسُعَةُ لِيَصِلَ إِلَى مَا مَوَّلُوهُ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ رَاجِيًا فِي الْحَقِيقَةِ، بَلْ كَانَ مُتَمَنِّيًا. وَكَذَلِكَ مَنْ خَافَ حَقِيقَةَ الْخَوْفِ، وَعَلِمَ أَنَّ الْمَخَوْفَ نَازِلٌ بِهِ إِنْ لَمْ يَهْرُبْ مِمَّا يَخَافُهُ أَشَدَّ الْهَرَبِ.

ثُمَّ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَرَاهُمْ مُقْصِرِينَ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى بُلُوغِ الْأَمَالِ، وَلَا يَهْرُبُونَ مِمَّا يَخَافُ مِنْهُ أَشَدَّ الْهَرَبِ وَغَايَةَ الْخَوْفِ، فَكَيْفَ وَصَفْتُمْ كُلَّ مُؤْمِنٍ بِالْخَوْفِ وَالرُّجَاءِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَتَحَقَّقُ فِيهِمْ هَذَا الْوَصْفُ؟

وَاسْتَدِلَّ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَنَّهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَزْوَاجٌ يَرْضَوْنَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] فَالرَّاجِي رَحْمَةً اللَّهِ مَنْ ذَابَ فِي طَاعَتِهِ، وَقَوْلِهِ^(٧) تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَهُمْ الَّذِينَ يَزْنُونَ، وَيَسْرِقُونَ؟ فَقَالَ: بَلْ هُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ، وَيُصَلُّونَ ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ وَقَوْلِهِ^(٨) تَعَالَى: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فَجَوَابُهُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَيْسَ يَرَى كُلَّ خَلَاصِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَأَمْنَهُ مِنَ الْعِقَابِ بِعَمَلِهِ حَتَّى إِذَا وَجَدَ التَّقْصِيرَ فِي الْعَمَلِ أَظْهَرَ ذَلِكَ الْمَعْنَى فَسَادُ الرُّجَاءِ وَالْخَوْفِ، وَإِنَّمَا يَتَوَقَّعُ خَلَاصَهُ بِعَفْوِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَرْجُو رَحْمَتَهُ بِكُرْمِهِ وَجُودِهِ؛ لِذَلِكَ لَمْ يُوجِبِ التَّقْصِيرُ فِي الْعَمَلِ إِبْطَالَ الرُّجَاءِ وَالْخَوْفِ. هَذَا إِذَا كَانَ غَيْرَ مُعْتَزِّلٍ الْمَذْهَبِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْخَوَارِجِ.

أَمَّا إِذَا كَانَ الرَّاجِي وَالْخَائِفُ أَحَدَ هَذَيْنِ تَقْصِيرُهُ فِي الْعَمَلِ يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ الرُّجَاءِ وَالْخَوْفِ، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، لَيْسَ يَرَى لِنَفْسِهِ شَفِيعًا إِلَّا عَمَلَهُ، بِهِ يَنْجُو، وَبِهِ يَهْلِكُ. فَإِذَا لَمْ يُبَالِغْ فِي الطَّلَبِ مِنْ جِهَةِ الْعَمَلِ، وَلَمْ يُبَالِغْ فِي الْهَرَبِ مِنَ الْخَوْفِ بِالْعَمَلِ فَظَهَرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِرَاجٍ، وَلَكِنَّهُ مُتَمَنِّ، وَيَتَبَيَّنُ أَنَّهُ غَيْرُ خَائِفٍ فِي الْحَقِيقَةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقُومُ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) الْهَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ يَخْشَوْهُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذَا ذَكَرَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ.

ثم المعتزلة، لا يخافون الله تعالى، ولا يزجون رحمته في الحقيقة، لأنهم يزعمون أن العبد إذا ارتكب الكبيرة ليس لله تعالى ألا يعذبه عليها وأن يغفرها له، وإذا اجتنبت الكبيرة استوجب المغفرة. وإن ارتكب الصغائر ليس لله تعالى أن يعذبه عليها.

والقائل بهذا غير راجح رحمة الله تعالى ولا خائف من عذابه، وإنما يقع الخوف والرجاء من عند نفسه لأن الرلة التي استوجب بها العذاب، هو الذي اكتسبها، ولو لم يعملها لم يعذب، وفاز بالنجاة، فصار رجاؤه وخلاضه بعمله لا برحمته الله تعالى وقضيه، ولا بذلك وصف الله تعالى وقضيه، ولا بذلك وصف الله تعالى المؤمنين في كتابه. ولأن الله تعالى أثنى على الذين يذعنون خوفاً ورعباً ورحباً.

وعلى قول أهل الإغترال لا يدعو أحد ربه على الرغبة والرغبة والخوف والطمع، لأن الداعي إن كان صاحب كبيرة فهو في ما يدعو الله تعالى ليغفر له إنما يدعو ليجور عليه، إذ لا يسعه أن يغفر له، ولا [أن] ^(١) يعذب عليه. فدعاؤه بالمغفرة معناه يقتضي [أن يجور عليه] ^(٢) وذلك عظيم.

وإن كان صاحب صغيرة فهو في ما يطلب المغفرة منه تعالى يسأله ألا يجور عليه لأنه ليس له أن يعذب على الصغائر على مذهبه / ٥٨٣ - ب/ ولو عذب صار به جائراً.

لذا خاف عذابه حتى إذا فرغ إلى الدماء خاف جوره، ومن لم يأمن من ربه الجور، بل خاف ذلك منه، فهو لم يعرف ربه حقيقة المعرفة.

وكذلك من دعا الله تعالى ليجور عليه فقد دعا إلى أن يسفه، والسفيه لا يصلح أن يكون إلهاً. فثبت أن الداعي على الرغبة والرغبة غير مندوح عندهم ولا هو ممن يستحق الثناء عليه.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ كَبِيرَةٌ﴾ أي من يزجو الله تعالى، ويخافه، فله مغفرة للذنوب وأجر كبير، وهو الجنة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنبِئُوا قَوْمَكُم بِأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهِمْ صَدُورُهُمْ﴾ فلهذا الآية، كانها في إلزام الوعيد، يقول: إنه عالم بالأنفس التي فيها الصدور بما يفسدون فيها، ويودعون، ويكثمون، وبما يخبرون عما أودعوا، ويظهرون.

والصدر، هو ساحة القلب سمي صدرًا لأن الأراء تضد بعضها، فهو عالم بالأنفس التي لها الصدور بما تضد عن آرائهم، وعالم بما يفسد فيها من الأسرار.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ تأويله عند أهل الإسلام: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ وما أسروا، وجهروا؟ ومن راجع إلى الله تعالى دون الخلق، كأنه يقول: ألا يعلم الخالق وهو اللطيف الخبير.

وفيه إثبات خلقي الأفعال والأقوال وخلق الشر، فيكون حجة لنا على المعتزلة في خلقي أفعال العباد.

وقال جعفر بن حرب وأبو بكر الأصم: إن حرف ﴿مَنْ﴾ لا يرجع إلى الله تعالى، وإنما يرجع إلى الخلق، فكانه يقول: ألا يعلم الله من خلق على إضمار اسم الله تعالى؟ فاختالا بهذه الحيلة لنفي الخلق عن الأفعال لأن حرف ﴿مَنْ﴾ يرجع إلى الأنفس دون الأفعال والأقوال.

وذلك فاسد لأن الآية في موضع الوعيد. ولو كان قوله: ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ راجعاً إلى الأنفس لزال موضع الوعيد، إذ ليس في خلقي الأنفس وعلم الله بها إثبات العلم بأفعال وحدث منهم، ولا في خلقي الأنفس إيجاب الوعيد بالأفعال.

ولأنه لو لم يكن الله تعالى خالقاً لما يجهز به العبد ولما يخفيه لم يكن ليحتج به على عمله، إذ قد يجور جوار الجهل لغير الذي يفعله، فلا يجوز أن يحتج عليهم بفعل غيره.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أن جر على.

ولأنه ليس في إثبات العلم بخلق النفس إثبات العلم بما أسروا، وجهروا، كما لم يكن عند المعتزلة في إيجاب الخلق لنفس الإنسان إيجاب الخلق لأفعالهم.

ومعلوم بأن الآية في تحقيق العلم بما أسروا، وجهروا، لأن قوله: ﴿أَلَا بَلَّمْ مَنْ خَلَقَ﴾ مذكور على إثر قوله: ﴿وَأَيُّهَا قَوْلُكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلَيْهِ يَدَاتُ الشُّدْرِ﴾ أي عليهم بما تُسرون وما تُجهرون، فثبت أن الخلق راجع إلى ما أسروا، وجهروا.

ثم إن الناس على اختلافهم اتفقوا أن كل واقع بالطبع والضرورة مخلوق الله تعالى. وإنما اختلفوا في الواقع ينسب العبد؛ فمنهم من أثبت فيه الخلق، وهو قول أهل الهدى، ومنهم من أبى القول بخلقهم.

ثم المرء لا يتجهى له استعمال اليد إلا في الوجود^(١) الذي جعل في طبع اليد احتمال ذلك المعنى^(٢) ولا يتجهى له أن يستعملها^(٣) في الوجود الذي لم يجعل في طبعها احتمال ذلك؛ لأنه لو أراد أن يرى يديه، أو يسمع بهما، لم يملك ذلك. فثبت أنه ملك استعمالها في القبض والأخذ والتسليم بما جعل في طبعها استعمال ذلك، وإذا كان كذلك فقد ثبت الخلق في ما يعمل بيديه، وفي ما يرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ في تذييره؛ إذ دبر لسان الإنسان على ما إذا استعمله يخرج منه الكلام. ولو أراد أحد أن يتعرف المعنى الذي به صلح النطق لم يقف عليه.

ودبر قلبه على أن يصور ما وقع فيه من الخيال، فيؤديه بلسانه، ودبره على وجوه يصلح أن يوعى الأسرار والودائع من وجوه لو أراد الخلاق أن يتعرفوا الوجه الذي صلح القلب أن يكون مصوراً وحافظاً ومغدياً للأسرار لم يقفوا عليه.

وقيل: ﴿اللَّطِيفُ﴾ هو الذي لا يغرب عنه علم ما جل، ودق. وقيل: ﴿اللَّطِيفُ﴾ بعبادته في الإحسان إليهم والإنعام عليهم ﴿الْخَبِيرُ﴾ بما فيه مصالحهم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَاسْكُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ الآية؛ وإذا ذلل لكم الأرض لتمشوا في مناكبها، وتاكلوا من رزقه، فلا يجوز أن يكون خلقه عبثاً باطلاً، فلا بد من الرجوع إليه ليسألكم هم له خلق؟ أو فيم خلق؟ أو لم تقولوا^(٤)؟

وذلك أن المرء في الشاهد إذا أعطى إنساناً مالا يستعمله في وجه من الجهات فلا بد من أن يرجع إليه، فيسأله هل استعمله في الذي أذن له فيه، أم لا؟

وإذا ثبت أنه لم يخلقها عبثاً باطلاً، وإنما خلقت للمعنة فلا بد من أن ينشروا إليه، ليخبروه عما بلائهم به، واشتدعتهم.

ثم احتمال أن يكون هذا صلة قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الآية: ٢] وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [الآية: ٣].

فخلق [تلك السموات]^(٥) كلها ليمتحن أهلها بها. فعلى ذلك خلق الأرض ذلولاً ليبْلُوكم بها. ويختل أن يكون هذا صلة قوله: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ [الآية: ٣].

فأمر هناك بالنظر مرة بعد مرة: هل ترى فيه تفاوتاً أو فطوراً؟ ليتبين عنده إذا لم يَر فيه تفاوتاً ولا فطوراً وخداية الرب وقدرته وسلطانه وحكمته، فأمرهم أيضاً بالمسير في الأرض والمشي في مناكبها، وهي أطرافها، هل يرون فيها فطوراً وتفاوتاً؟ فإذا لم يروا فيها شيئاً من ذلك تقرر عندهم جميع ما ذكرنا من الحكمة هناك.

(١) في الأصل وم: العمل. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: العمل. (٣) في الأصل وم: يستعمله. (٤) في الأصل وم: تقوا. (٥) في الأصل وم: ذلك.

فهو في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ موجود، ولأنه ذكّرهم لطيف تدبيره في خلق الأرض وما له على الخلق من عظيم النعمة في حقّه، وهو أنه قدّر لهم فيها أرزاقهم إلى حيث يمشون فيها، وهياً لهم الرزق هناك، لا^(١) يَحْتَمِلُ أَنْ يَذَلَّ لَهُمُ الْأَرْضُ، فيضربوا^(٢) فيها حين^(٣) شاؤوا، ويستخرجوا^(٤) منها أقواتهم^(٥) أينما تصرّفوا، عبثاً باطلاً. بل لا بُدَّ أَنْ يَسْتَأْذِنَكُمْ شُكْرًا^(٦) أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ.

الآية ١٦

وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ إِذَا هِيَ تَعُورُ﴾ هذه الآية في موضع الحاجة على منكري البعث في وجوه:

أحدها: أنه^(٧) يقول، والله أعلم: إذا أنكرتم البعث، وقد عرفتكم الفرق بين العدو والولي وبين المطيع والعاصي، فكيف أمنتهم عذابه في الدنيا أن ينزل بكم من فوق رؤوسكم ومن تحت أرجلكم؟ أو قد عصيتموه، وعاديتهم بتكذيبكم رسوله واختياركم عبادة غيره، فكيف أمنتهم نزول عذابه عليكم في حالتكم هذه، وأنتم لا تقرّون بالآخرة ليتأخّر عنكم العذاب؟

ثم قوله: ﴿ءَأَمِنْتُمْ﴾ أي قد أمنتهم.

والثاني: أنكم كيف أمنتهم عذاب الله تعالى، وأنتم تُنكرون البعث لتكون المحنة في الدنيا للجزاء في الآخرة؟ وهم يرون المحنة في الدنيا لأنهم كانوا يزعمون أن من وسّع عليه النعيم في الدنيا فإنما وسّع جزاء لعمّله، ومن ضيق عليه العيش فإنما ضيق عقوبة له بما أساء من عمّله كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْلَغَهُ رَبُّهُ فَكْرَهُ وَسِعَهُ يَقُولُ وَيَتَذَكَّرُ إِذَا مَا ابْلَغَهُ فَقَدَرٌ عَلَيْهِ يَقُولُ يَذْكُرْ أَهْلِي﴾ [الفجر: ١٥ و ١٦].

فكانوا يُعدّون التضييق والثومسح في الدنيا جزاء لصنيعهم، وكانوا يقرّون بالمحنة في الدنيا.

والمحنة تكون من الرجاء والخوف، وقد رجوتهم إنزال الرزق عليكم من السماء، ورجوتهم أن يخرج لكم من الأرض ما تتعيشون به، وترزقون منه، فكيف لا تحذرون نزول العذاب عليكم من السماء أو إثباته من الأرض كما رجوتهم النفع منهما / ٥٨٤ - أ / جميعاً.

والثالث: أنكم إذا أنكرتم الرسول، وجحدتموه، وقد انتهى إليكم حال من سبقكم من مكذبي الرسل، كيف عذبوا، واستوصلوا؟ فمَنهم من أهلك بامطار الحجارة عليه من السماء، ومنهم من أهلك بالحسف بالأرض، فكيف أمنتهم أن ينزل عليكم ما نزل بهم، وقد أوجدتم أنتم، وتعاطيتم ما تعاطاه الذين أهلكوا من التكذيب؟

ثم قوله تعالى: ﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أراد [بـ ﴿فِي السَّمَاءِ﴾]^(٨) نفسه؛ أخبر أنه إله السماء لا على تثبيت أنه في الأرض سواءً وعلى النفي أن يكون [هو]^(٩) إله الأرض، بل هو في السماء إله وفي الأرض إله. هذا كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] ليس فيه أن النجوى إذا كانت بين اثنين فهو لا يكون ثالثهم.

وجائز أن يكون قوله: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أي أمنتهم من في السماء ملكه وسلطانه؟ ولم يروا أحداً انتهى ملكه إلى السماء، فكيف تأمنون من بلغ ملكه السماء في معاداتكم إياه، وأنتم لا تجترئون على معاداة ملك من ملوك الأرض الذي يجاوز ملكه الأرض [تثبيهاً منه وتخويفاً]^(١٠) من سلطانيه، فكيف تأمنون عذاب من بلغ ملكه ما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا هِيَ تَعُورُ﴾ قيل: تهوي في الأرض أبداً إلى أسفل السافلين. وقيل: تمور بأهلها بقعرها على ما كانت من قبل تمور على ظهرها قبل أن تؤثد بالجبال.

(١) في الأصل وم: ولا. (٢) في الأصل وم: فيضربون. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: ويستخرجون. (٥) في الأصل وم: أقواتها. (٦) من م، في الأصل: الدين. (٧) في الأصل: منكر البعث كأنه، في م: منكري البعث كأنه. (٨) في الأصل وم: بعل. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: تنبيه منه وخوفاً.

الآية ١٧ [وقوله تعالى: ﴿أَمْ أُنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾^(١) والحاصِبُ الحجارة:

وقوله تعالى: ﴿فَسَتَلَوْنَ كَيْفَ تَذِيرُ﴾ أي ستعلمون حال نُذري الذين أنذروكم بالعذاب أنهم كانوا مُحَقِّقِينَ فيه، ولم يكونوا كاذِبِينَ كما زعمتم. أو ستعلمون ما أنذرتكم به إذا وَقَعَ العذاب.

الآية ١٨ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيفَ كَانَ تَكْوِيرُ﴾ يُذَكِّرُهُمْ حَالِ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ وَمَا حَلَّ بِهِمْ لِيَرْتَدَّعُوا عَنِ التَّكْذِيبِ، فلا يحلَّ بهم ما حلَّ بأولئك.

ثم قوله تعالى: ﴿فَكَيفَ كَانَ تَكْوِيرُ﴾ أي كيف كان إنكاري عليهم؟ أليس وجدوه شديداً وحققاً؟

الآية ١٩ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُتَّبَعِينَ وَمَا يُنْصَبُ لَهُمَا الْوُجُوهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْحَالِّ جَمِيعًا﴾ أغني القَبْضُ والبَسْطُ، كقولهِ^(٢) في آية أخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُتَّبَعِينَ فِي سَمَوَاتِهِمْ مَا يُنْصَبُ لَهُمَا الْوُجُوهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى﴾ [النحل: ٧٩] أي لا يات للمؤمنين على الكفِّرة.

وهكذا شأن الآيات: أنها جعلت آيات للمؤمنين والأولياء على الكفِّرة والأعداء، لأن الكفِّرة تُصِلُ إِلَيْهِمُ الآيات على السبيل الرُّسُلِ والأنبياء والأولياء، فجعلت الآيات آيات للمؤمنين ليختجوا بها على أهل الكُفْرِ.

ثم الهواء ليس بمكان يُنْصَبُ ما عليه مِنَ الأشياءِ مثل السماء والأرض في ما أنشئت على حَدِّ يُنْصَبُ الأشياء، وتقرُّ عليهما الخلائق. وإذا كان كذلك فإنَّ الله تعالى بظفهِ أمسَكَ الطيرَ وَقْتَ طَيْرَانِهَا وَقْتَ قَبْضِهَا فِي الْهَوَاءِ. وَمَنْ قَدَّرَ عَلَى إِسْكَائِ الطَّيْرِ مَعَ وَقْفِهِ وَتَقْرِيرِهِ فِي مَكَانٍ، لَا يَقَرُّ فِيهِ الْأَشْيَاءُ، قَادَرَ عَلَى مَا يَشَاءُ.

ثم في هذه الآية أَنَّ اللَّهَ تعالى في أفعال الطَّيْرِ ضَمْعاً وتذكيراً على ما يَشَاءُ لِأَنَّ الْفِعْلَ الَّذِي يُوجَدُ مِنَ الطَّائِرِ الطَّيْرَانُ، إِذَا طَارَ، وَالْوُقُوفُ، إِذَا قَبْضَ، ثُمَّ أَضَافَ فِعْلَ الْإِسْكَائِ وَكُلَّ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِ.

وَذَكَرَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا يُنْصَبُ لَهُمَا الْوُجُوهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ﴾ [النحل: ٧٩] أَنَّ الْإِسْكَائَ كُنَايَةً عَنِ التَّعْلِيمِ وَعِبَارَةً عَنْهُ، لِأَنَّهُ قَدْ يُعْبَرُ بِالْإِسْكَائِ عَنِ التَّعْلِيمِ؛ يَقُولُ الرَّجُلُ لآخر في ما يَعْلَمُهُ الرَّامِي: أَمْسَكْتُ عَلَى يَدِهِ حَتَّى رَمَى، فَيُرِيدُ بِهِ أَي تَوَلَّيْتُ تَعْلِيمَهُ الرَّامِي. فَقَوْلُهُ: ﴿مَا يُنْصَبُ لَهُمَا الْوُجُوهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ﴾ أَي مَا يَعْلَمُ إِسْكَائَهُمْ وَقْتَ الطَّيْرَانِ إِلَّا اللَّهُ تعالى، وَكَذَلِكَ وَقْتَ الْقَبْضِ.

وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا أَنَّ الْقَائِلَ يَقُولُ: أَمْسَكْتُ عَلَى يَدِهِ حَتَّى رَمَى؛ إِنَّمَا يُسْتَحَبُّ^(٣) إِطْلَاقُ اللَّفْظِ^(٤) نَفْسِهِ إِذَا وَجَدَ مِنْهُ فِعْلُ الْإِسْكَائِ فِي وَقْتِ مَا هَمَّ الرَّامِي بِالرَّمْيِ، وَإِذَا لَمْ يَوْجَدْ مِنْهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِعْلُ الْإِسْكَائِ لَمْ يَسْتَقِمَّ أَنْ يَقُولَ: أَمْسَكْتُ عَلَى يَدِهِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي عَلَّمَهُ الرَّمْيَ.

أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ عَلَّمَ آخرَ الْخِيَاطَةَ حَتَّى اهْتَدَى الْخِيَاطَةُ إِذَا خَاطَ ثَوْباً لَمْ [يُسْتَحَبَّ مِنْ]^(٥) أَسْتَاذِهِ أَنْ يَقُولَ: أَنَا الَّذِي خَطَّيْتُهُ؟ وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي عَلَّمَهُ الْخِيَاطَةَ، وَكَذَلِكَ مَنْ بَنَى بِنَاءً لَمْ يَسْتَقِمَّ مِنْ أَسْتَاذِهِ أَنْ يُضَيِّفَ فِعْلَ الْبِنَاءِ إِلَى نَفْسِهِ، فَيَقُولَ: أَنَا الَّذِي بَنَيْتُهُ، وَيُرِيدُ بِهِ أَنَا الَّذِي عَلَّمْتُهُ، وَإِذَا لَمْ يَسْتَقِمَّ هَذَا بَطْلَ أَنْ يُضَافَ فِعْلُ الْإِسْكَائِ إِلَى اللَّهِ تعالى، وَلَا فِعْلُ لَهُ فِي ذَلِكَ سِوَى التَّعْلِيمِ.

فَلَوْ كَانَتْ الْإِضَافَةُ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ التَّعْلِيمُ لَجَازَ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ فِعْلُ الْخِيَاطَةِ وَفِعْلُ الْبِنَاءِ وَالْحِيَاكَةِ، فَيُقَالُ: خَاطَطَ وَبَانَ وَحَانَتْ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي عَلَّمَ. فَإِذَا بَطَلَ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْأَفْعَالِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي عَلَّمَ الْخَلْقَ، بَطَلَ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ فِعْلُ الْإِسْكَائِ، مِنْ حَيْثُ التَّعْلِيمُ، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ.

وَاخْتَجَّ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ أَيْضاً فِي نَفْيِ الْفِعْلِ عَنِ اللَّهِ تعالى، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تعالى لَمْ يَقُلْ: مَا خَلَقَ طَيْرَانَهُنَّ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: يستخير. (٤) أدرج بعدد في الأصل وم: من. (٥) في الأصل وم: يستخير.

خَلَقَ الْقَبَضَ إِلَّا اللَّهَ، وإنما قال: ﴿مَا يَتَسَكَّنُ إِلَّا اللَّهُ﴾ فثبت أن لا صُنْعَ لَهُ في الإمساك، وبأن أن الذي أضيف إليه من الإمساك هو على الوجه الذي ذكرنا.

فالجواب عن هذا أن الأمة قَهَمَتْ من قوله تعالى: ﴿مَا يَتَسَكَّنُ إِلَّا اللَّهُ﴾ ما يُفهم من قوله: ما خَلَقَ ظِيْرَانَهُنَّ وَقَبَضَهُنَّ إِلَّا اللَّهُ؛ إذ هو يقتضي ما يقتضيه ذِكْرُ الْخَلْقِ. وإذا كان كذلك فلا فرق بين أن يُضيف الخلق [إلى] نفسه وبين أن يُضيف فعل الإمساك.

ثم لو ذُكِرَ الْخَلْقُ مكانَ الإمساك أمكن جَعْلَهُ أَنْ يَتَأَوَّلَ في الخلق ما تأوَّلَ في الإمساك، فيقول: معنى قوله: خَلَقَ ظِيْرَانَهُنَّ، أي عَلَّمَ ظِيْرَانَهُنَّ، وقَوَّاهُنَّ على الأسباب التي [بها] تطير، فلا (٣) يَهَيِّئُ اللَّهُ تعالى على قوله: أَنْ يثبت لخلقهن، ويقرر عندهم خلق شيء من الأشياء.

ثم الأصل أن الآيات المذكورة في القرآن إنما دُكِرت (٤) لإثبات أوجه خمسة:

أحدها: في تثبيت القدرة على البعث، وهي لا تثبت القدرة، ولا تُوجب القول بالبعث على قول المعتزلة؛ وذلك أن الله تعالى احتج في تثبيت القدرة على البعث بقدرته على ابتداء الخلق، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [يس: ٧٧] وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَالِيهِ﴾ [الروم: ٢٧] فاحتج بالابتداء على الإعادة عندهم لأنهم نفوا خلق الأفعال عن الله تعالى مع إقرارهم أن الله تعالى، هو الذي ابتداء الخلق، وهو الذي أنشأهم، ولم يكن في إثبات القدرة على خلق الأفعال إثبات قدرة منه على خلق الأفعال، وإن كان خلق الأفعال دون خلق النفس، فكيف ذُكِرَ قدرته على ابتداء الخلق [في أفعال العباد] (٥) على تثبيت القدرة على الإعادة، وإن كان أمر الإعادة أيسر من الابتداء مع أن آثار الخلق في أفعال العباد وإثبات التدبير فيها أوجد منه في أمر البعث؛ وذلك أنك تجد من الأفعال أفعالا، هي مؤدبة لاهلها متبعة لمعلمة؟ ومعلوم بأن قصد أربابها أن يتلذذوا، ويتمتعوا بها، فثبت أن يغيرهم تديرا وصنعا حتى صار ذلك.

ولأنه يوجد في أفعالهم أحوال، لا تبلغها أوهامهم، ولا تُقدرها عقولهم، لأن الفعل يأخذ من الجو والمكان والوقت ما لا تُقدره الأوهام، ولا تبلغها العقول، فثبت أن يغير فيه صنعا وتديرا.

ولأن فِعْلَهُ يُخْرِجُ على قبيح وحسن لا يتلغ / ٥٨٤ - ب/ علِمَ فاعِلِهِ أَنَّهُ يَتَلُغُ في الحُسْنِ والقُبْحِ ذلك المبلغ، ويتنهي في الحُسْنِ مبلغا، لو أراد أن يخرج على ذلك الحد في المرة الثانية لم يخرج كذلك.

فكل ما ذكرنا يبين أن جميع أفعالهم على ما هي عليها، ليست لهم، ثم مع ذلك أنكروا أن تكون الأفعال من جهة الخلق لله تعالى، ولم يظهر شيء من أمارات البعث، ولا وَجِدَ فيه التدبير، فصارت الكفرة في إنكارهم أمر البعث أعدل من المعتزلة في إنكارهم خلق الأفعال.

ولم يوجبوا (٦) القول بالقدرة على ابتداء الخلق قولا بالقدرة على إنشاء البعث والإعادة بعد الإناء. فثبت أن ليس في الآيات التي جعلها الله تعالى دالة لإثبات البعث على قولهم.

والوجه الثاني: تثبيت التوحيدي وجعل دليل وحدانيته توحيد بخلق الأشياء وتقريره بإنشائها.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ [الرعد: ١٦] وقوله (٧): ﴿وَمَا كُنَّا بِمَعَكُمْ مِنَ الْإِلَهِ إِذَا لَدَعَبَ كُلُّ لَكُمْ بِمَا خَلَقَ؟﴾ [المؤمنون: ٩١].

وعلى المعتزلة هو غير متوحد بخلق الأشياء، بل أكثر خلق الأشياء كان بالعباد لا بالله تعالى. وإذا لم يوجد منه التوحيد والتفرد بخلق الأشياء ارتفع وجه الاستدلال من هذا الوجه على معرفة الصانع وحدانيته الرب.

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فلان. (٤) من م، في الأصل: ذكر. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يوجب. (٧) في الأصل وم: وقال.

وإذا كَانَ كَذَلِكَ لم تَبُثْ وَخَدَانِيَّةُ اللَّهِ تعالى على قولِهِمْ مِنَ الرُّجُوعِ الذي جَعَلَهُ دَلِيلَ الْإِثْبَاتِ.

والوجه الثالث، وهو أَنَّ الآياتِ ذُكِرَتْ في إثباتِ حكمةِ اللَّهِ تعالى وجعلِ دَلِيلٍ لِحُكْمِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ بما شَاهَدْنَا وَغَيْرَهَا^(١) مِنَ الْأَشْيَاءِ. ونحنُ إِنَّمَا عَرَفْنَا خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ [شَاهَدْنَا مُجْتَمِعَةً]^(٢) وَالْإِجْتِمَاعُ حَادِثٌ فِيهَا^(٣)، وما لَا يَنْفَكُ عَنِ الْحَادِثِ فَهُوَ حَادِثٌ، وَالْحَادِثُ لَا يَدُلُّهُ مِنْ مُخْبِثٍ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ نَعْرِفْهُ، وَلَا يَبُثُّ لَنَا خَلْقُهَا^(٤). وعلى قولِ الْمُعْتَزَلَةِ الْجَمْعُ وَالتَّفْرِيقُ لَا يَدُلُّ عَلَى الْخَلْقِ، لِأَنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ الْقُوَّةُ يَقْدِرُ عَلَى جَمْعِ الْأَشْيَاءِ وَتَفْرِيقِهَا، وَالْإِجْتِمَاعُ وَالتَّفْرِيقُ فِعْلُ الْجَامِعِ وَالْمُفَرِّقِ لِقَوْلِهِمْ بِالْمُتَوَلَّدَاتِ؛ فَمَنْ اسْتَخَرَكُم قُوَّتُهُ أَمَكَّتُهُ جَمْعُ الْأَشْيَاءِ الْقَوِيَّةِ، وَمَنْ ضَعَفَتْ قُوَّتُهُ جَمَعَ عَلَى قَدْرِ مَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ قُوَّتُهُ.

وإذا كَانَ كَذَلِكَ لم يَتَّبِعْ عِنْدَ الْخَلَائِقِ عَلَى قولِهِمْ أَنَّ اللَّهَ تعالى، هو الذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ؛ إِذْ خَلَقَهَا^(٥) لَا يُعْرَفُ إِلَّا مِنَ الرُّجُوعِ الذي ذَكَّرْنَا، وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَجُوزُ إِلَّا بِاللَّهِ تعالى [بُوجْهِينِ]:

أَحَدُهُمَا^(٦) أَنَّ يَكُونَ اللَّهُ تعالى أَفْذَرُ مَلَكًا مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَقَوَاهُ عَلَى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ. وإذا كَانَ كَذَلِكَ لم يَظْهَرْ بِمَا ذَكَّرْنَا أَنَّ اللَّهَ تعالى هو الْخَالِقُ لَهَا^(٧)، فَبَطَلَ أَنَّ يَكُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَفِي خَلْقِ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ دَلَالَةٌ لِحُكْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تعالى خَلْقَهَا^(٨) دَلَالَةً لِهَيْدِ الْأَوْجُوعِ الَّتِي ذَكَّرْنَاها.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ جَعَلَ إِنْقَانِ الْأَشْيَاءِ وَإِحْكَامَهَا عِلْمًا لِحُكْمِهِ، وَقَدْ يَفْقَهُ الْإِتِّفَاقُ وَالْإِحْكَامُ لِلْأَشْيَاءِ لَا بُو، ثُمَّ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لشيءٍ مِمَّا أَتَقَّنَ، وَأَحْكَمَ عِلْمًا يَتَمَيَّزُ مِنْ بَيْنِ مَا أَتَقَّنَهُ غَيْرُهُ، وَأَحْكَمُهُ، فَصَارَ الْإِتِّفَاقُ وَالْإِحْكَامُ غَيْرَ دَالٍّ عَلَى حُكْمِهِ، بَلْ صَارَ دَلِيلًا عَلَى عَجْزِهِ وَضَعْفِهِ حِينَ^(٩) لَمْ يَتَّهَبَأْ لَهُ تَمَيُّزٌ مَا صَارَ بُو مُتَقَنَّأ وَمَا يَتَّهَبَأُ صَارَ كَذَلِكَ.

وَلِأَنَّ الْحِكْمَةَ، هِيَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ وَتَبْيِينُ مَالِهِ مِمَّا لَيْسَ لَهُ. وَمِنْ قولِهِمْ أَنَّ اللَّهَ تعالى أَغْطَى الْكَافِرَ قُوَّةَ الْإِيمَانِ، وَلَمْ يَبْقَ فِي خَزَائِنِهِ مَا جَعَلَ سَبَبًا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْإِيمَانِ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَاهُ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بُو. وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْجَهْلِ وَأَتَمِّ السَّفْوَةِ فِي الشَّاهِدِ، لِأَنَّ الْمَرْءَ إِذَا قَامَ يَسْتَقِي أَرْضٍ وَبَنَى عَلَيْهَا الْبُيُوتَ وَالْأَنْبِيَاءَ، وَأَلْقَى الْبَذَرَ فِيهَا، مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهَا لَا تُنْبِتُ شَيْئًا عَدَّ ذَلِكَ مِنْهُ سَفَهًا وَجَهْلًا، وَالسَّفِيهَ لَا يَضْلَعُ أَنَّ يَكُونَ إِلَهًا حَكِيمًا، وَقَالَ تعالى: ﴿أَلَيْسَ خَلْقَ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ بِبَلَدٍ﴾ [الملك: ٢].

وعلى قولِ الْمُعْتَزَلَةِ قَدْ خَلَقَ غَيْرُهُ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ جَمِيعًا، لِأَنَّ الْقَتِيلَ مَيِّتٌ بِالْإِتِّفَاقِ. ثُمَّ لَا يَجْعَلُ أَهْلُ الْإِعْزَالِ اللَّهُ تعالى فِي مَوْتِهِ ضَنْعًا، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ مَاتَ قَبْلَ أَجَلِهِ، فَإِذَا قَدَّرَ غَيْرُهُ عَلَى الْإِمَاتَةِ، وَيَقْدِرُ أَيْضًا عَلَى الْإِحْيَاءِ بِالْأَسْبَابِ، لِأَنَّهُ يَسْقِي الْأَرْضَ وَالزَّرْعَ، وَيَكُونُ فِي سَفْوَةِ أَحْيَائِهَا، فَلَمْ يَنْقَرِذْهُ بِخَلْقِ الْمَوْتِ وَلَا بِالْحَيَاةِ عَلَى قولِهِمْ، بَلْ يَشْرُكُهُ غَيْرُهُ فِي خَلْقِ الْأَشْيَاءِ، فَيَبْطُلُ امْتِدَاخُهُ عَلَى قولِهِمْ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ.

وَالْوَجْهُ الرَّابِعُ: أَنَّهُ اخْتَجَّ بِعِلْمِهِمْ بِأَفْعَالِ الْخَلْقِ بِخَلْقِهِ تِلْكَ الْأَفْعَالِ، وَذَلِكَ بِقولِهِ: ﴿أَلَا يَتْلُمَنَّ خَلْقُ﴾ [الملك: ١٤] وَمَنْ قَدْ نَفَّوْا الْخَلْقَ عَنِ الْأَفْعَالِ، وَإِذَا انْتَفَى لَمْ يَفْقَهُ لَهَا عِلْمٌ، وَصَارَتْ الْآيَاتُ الَّتِي فِيهَا إِثْبَاتُ الْعِلْمِ لَا تُثَبِّتُ عِلْمًا عَلَى قولِهِمْ، وَيَكُونُ [فِيهَا كَذِبٌ]^(١٠) فِي الْخَبَرِ. تعالى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ.

وَالْوَجْهُ الْخَامِسُ: أَنَّهُ سَمَّى نَفْسَهُ مُخْسِنًا مُنْعِمًا، وَأَثَبَتْ إِحْسَانَهُ وَإِنْعَامَهُ بِآيَاتٍ اخْتَجَّ بِهَا عَلَى خَلْقِهِ؛ مَا مِنْ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ بِهَا [عَلَى]^(١١) الْعِبَادِ إِلَّا وَقَدْ كَانُوا مُسْتَرْجِعِينَ عَلَى اللَّهِ تعالى، فَيَصِيرُ اللَّهُ تعالى بِإِعْطَائِهِمْ ذَلِكَ قَاضِيًا مَا عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ بِالنِّعْمَةِ. وَمَنْ قَضَى آخَرَ حَقًّا^(١٢) كَانَ عَلَيْهِ لَمْ يَصِرْ بُو مُنْعِمًا مُفْضِلًا، وَإِنَّمَا صَارَ قَاضِيًا حَقًّا، فَصَارَتْ الْآيَاتُ الَّتِي فِيهَا إِثْبَاتُ النِّعَمِ غَيْرَ مُبَيِّنَةٍ عَلَى قولِهِمْ ﴿سُبْحَنَكَ وَقَتْلَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

(١) في الأصل وم: وغيرهما. (٢) في الأصل وم: شاهداها مجتمعين. (٣) في الأصل وم: لهما. (٤) في الأصل وم: خلقهما. (٥) في الأصل وم: خلقهما. (٦) في الأصل وم: وجائز. (٧) في الأصل وم: لهما. (٨) في الأصل وم: خلقهما. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: وجائز. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ما.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ سَمِيرًا﴾ أي بكل شيء، لطف، أو جل، أو استتر، أو ظهر، أو اختلط بغيره، أو تميز، فهو بصير؛ يبلغه إلى أجله الذي ضرب له، ويأتيه بالرزق الذي قدر له، أو بصير بأفعال الخلق ما كان، وما يكون، لأنه ذكره^(١) على إثر ذكر الأفعال، وهو قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا قُرْآنَكَمُ الْوَحْيَ الْكَافِرُ﴾ أو أمهروا به^(٢) إله عليه بذات الصدور^(٣) ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الآيتان: ١٣ و ١٤].

ثم في قوله تعالى: ﴿يَكُلُّ شَيْءٍ سَمِيرًا﴾ تزهيب وترغيب والزام المراقبة والتيقظ والتبصير، وكذلك في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ [هود: ٥٧] وقوله^(٤): ﴿وَهُوَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩ و...]. لأن من علم أن عليه حافظاً ورقياً يعلم بكل شيء يتعاطى، فهو لا يتعاطى إلا المحمود من الأفعال والمريض عنها.

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿أَتَنَزَّلَ الْإِلَهِ هُوَ جُنْدٌ لِّكُلِّ نَصْرٍ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ فهذا صلة قوله: ﴿أَتَنَزَّلُ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْإِغْصَارُ﴾ وقوله: ﴿أَمْ أَنَزَلْنَا مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الآيتان: ١٦ و ١٧] يقول^(٥): ﴿أَتَنَزَّلَ الْإِلَهِ هُوَ جُنْدٌ لِّكُلِّ نَصْرٍ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ إذا خسف بكم الأرض، وأرسل عليكم حاصباً من السماء.

وجائز أن يكون على التقديم والتأخير، فيكون معناه: ﴿أَتَنَزَّلَ الْإِلَهِ هُوَ جُنْدٌ لِّكُلِّ﴾ من دون الرحمن ينصركم من عذاب الله إن حل بكم، أو يكون قوله: ﴿أَتَنَزَّلَ الْإِلَهِ هُوَ جُنْدٌ لِّكُلِّ﴾ يدفع عنكم العذاب من دون الله إذا حل بكم.

وجائز أن يكون أريد بالجند الهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، فكانوا يعبدونها لتنصرتهم، ويعزوا بها، كقوله^(٦) تعالى: ﴿وَأَنذَرُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهاتٍ لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١] وقوله^(٧) تعالى: ﴿وَأَنذَرُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهاتٍ لِّمَنَّهُمْ يُنصرون﴾ [يس: ٧٤].

ثم هم قد علموا أنها لا تقوم بنصرتهم، ولا تدفع الدل عنهم، فيعزوا بها، لأنهم كانوا يقرعون إلى الله تعالى عندما تجل بهم الشدائد والدل كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨] ويتركون القرع إلى الهتهم ليعلمهم أنها لا تنصرتهم، ولا تنصرتهم. فذكرهم في حالة الأمن [ما^(٨)] قد عرفوا وقوعه في حالة الخوف لينقلعوا عن عبادة الأصنام، ويقبلوا على رب الأنام ليندفع / ٥٨٥ - عنهم الشدائد والأحوال والآلام إذا حلت بهم من خاص أو عام، ويقوم بعزهم إذا لحقتهم الدل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ لَا فِي عَذَابٍ أَيِّ غَرَابٍ﴾ أي اغترأوا في عبادتهم الهتهم لتقوم بنصرتهم وعزهم مع ما علموا أنها لا تدفع عنهم شدة، ولا تحصل لهم عزاً.

الآية ٢١ وقوله تعالى: ﴿أَتَنَزَّلَ الْإِلَهِ يَزُكُّوهُ إِنْ أَنَسَكَ يَنْفَعُ﴾ هم كانوا يرجون رزقهم من السماء والأرض، فيقول: من الذي يزركم إن لم يرسل عليكم من السماء مطراً، ولا دال لكم الأرض للنبت؟ وقد علموا أيضاً أن لا رازق لهم غير الله تعالى، لأنهم يقرعون إليه بالسؤال للرزق عندما يبلون بالخط والجذبة، فذكرهم في حال السعة ما له عليهم من عظيم النعمة في توسيع الرزق عليهم ليذكروه، ولا ينكفروا.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ لَّجُوا فِي غَوٍّْ وَقَوْرٍ﴾ فالعاني هو المارد الشديد السوء؛ فكانه يقول: لجوا، وعتوا عن قبول الحق، وتمادوا في طغيانهم، ولم يتذكروا، ولم يراقبوا الله تعالى، ولم يشكروا له، بعدوا عن قبول ذلك كله.

وقوله تعالى: ﴿أَتَنَزَّلَ الْإِلَهِ هُوَ جُنْدٌ لِّكُلِّ﴾ وقوله: ﴿أَتَنَزَّلَ الْإِلَهِ يَزُكُّوهُ يُخْرِجَانِ﴾^(٩) على أوجه ثلاثة:

أحدها: على التثوير والتحويل.

والثاني: على التثبيد والتذكير وتسفيه أحلامهم.

(١) في الأصل وم: ذكر. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: ثم قال. (٤) في الأصل وم: قال الله. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: يخرج.

والثالث: على الإشارة لرسول الله ﷺ بالنضر له وإجابة دعوته أهل الكفر.

فوجه التنبية والتذكير وتسفيه الاحلام ما ذكرنا أنهم قوم كانوا يعبدون الاصنام لتضرهم، وتضرهم في الدنيا، وليستقوا الرزق من عندها، إذ هم كانوا لا يؤمنون بالبعث ليطلبوا بعبادتها عِزَّ الآخرة والنضر فيها، وإنما كانوا يطمعون بذلك منها في الدنيا.

ثم هم في الدنيا [كانوا] إذ نزلت بهم الشدة والفرغ تضرعوا إلى الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَانَا﴾ [الإسراء: ٦٧] ولم يكونوا يفرعون إلى أصنامهم، فكيف اتخذوها جنداً لتضرهم عند النوائب، وقد أحاط علمهم أنها لا تضرهم، ولا تغني عنهم من عذاب الدنيا شيئاً؟

فيكون فيه تسفيه أحلامهم، وتنبيه من عذاب الله، ليمنعهم ذلك عن عبادة غير الله تعالى، ويدعوهم إلى عبادة من يملك دفع الشدائد عنهم إذا حلت بهم.

وأما وجه التخويف فهو أنه يجوز أن يكون قيل لهم هذا عندما ابتلوا بالشدائد وضيق العيش، فيقول لهم: استنصروا من آلهيتكم، واسألوا الرزق من عندهم^(٢)، هل يملكون لكم رزقاً، أو يذفون عنكم دلاً، وهل يقوون على نصركم؟ وجائز أن يكون فيه إشارة لرسول الله ﷺ بالنضر له وإجابة دعوته. وقد وجد النضر لأنه غلب عليهم يوم فتح مكة، ولم يتهيأ لأهلها أن يتنصروا، بل غلبوا، وقهروا، وفاز رسول الله ﷺ بالغلبة والقهر حتى استكانوا، ولانوا، وتضرعوا إلى رسول الله ﷺ في ذلك حتى دعا لهم.

وابتلوا أيضاً بالقحط والسنين [فدعا لهم]^(٣) رسول الله ﷺ بالسعة حتى رفع الله عنهم القحط.

وقوله تعالى: ﴿أَفَنْ يَتَّبِعُوا مِثْلَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢]؟ [يختلج وجوهاً:

أحدها: (٤) في هذه الآية تذكير وتنبيه وتخويف وتهويل وتعريف حال، هي خلاف ما هم عليها في الحال.

[والثاني] (٥) ذكر الصراط في الذي يمشي مكباً، هو على الإضمار؛ كأنه يقول: ﴿أَفَنْ يَتَّبِعُوا مِثْلَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ غير الصراط ﴿أَفَنْ يَتَّبِعُوا مِثْلَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فيكون هذا تذكيراً وتنبيهاً وتسفيهاً^(٦) لأحلامهم، لأن الذين آثروا الإيمان، وسلوكوا طريقه، فإنما سلكوه^(٧) بالحجج والبراهين. والذين آثروا الكفر آثروا من غير حجة، بل خيائهم وسفههم هما^(٨) اللذان دعواهم إلى التزام الكفر والتدين به. ومن أثر الحيرة والعمى على الهدى والرشاد فهو سفيه.

[والثالث] (٩) أن يكون قوله: ﴿أَفَنْ يَتَّبِعُوا مِثْلَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي أهدى طريقاً ﴿أَفَنْ يَتَّبِعُوا مِثْلَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؟ وحق هذا الكلام أن يقال: بل الذي مشى على صراط مستقيم، هو الأهدى من الذي يختار الطريق المعوج الزائغ عن الرشاد.

فيكون في الوجه الأول معنى التخويف والتنبيه جميعاً، وفي الوجه الثاني تذكير وتنبيه، وقولنا بأن فيه تعريف حال خلاف الحال التي هم عليها: إن كل واحد من الفريقين، أعني به أهل الإسلام وأهل الكفر، يزعم أنه^(١٠) على الهدى، والفريق الآخر على الضلال.

وإذا اتفقت الدعاوى على تضليل أحد الفريقين، فلا^(١١) بُدَّ أن يكون جزاء الضال^(١٢) غير جزاء المهتدي، وجزاء الولي غير جزاء العدو.

ثم الدنيا^(١٣) على الفريقين على جهة واحدة فلا بُدَّ من تثبيت دار أخرى والقول بها للجزاء، فيكون فيما ذكرنا إيجاب القول بالبعث والإقرار به.

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: عندنا، في م: عندها. (٣) في الأصل وم: بدعاء. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ثم. (٦) في الأصل وم: تذكير وتنبيه وتسفيه. (٧) في الأصل وم: وسلوكوا. (٨) في الأصل وم: ههنا. (٩) في الأصل وم: وجائز. (١٠) في الأصل وم: أنهم. (١١) في الأصل وم: ثم لا. (١٢) في الأصل وم: الضلال. (١٣) أدرج بعدها في الأصل وم: ثم.

فهذا الذي ذُكرنا يُعرَفُهُما حالٌ بخلافِ الحالة التي هم عليها لأن الذي يمشي مُكبّاً على غير الطريق، هو الأعمى الذي لا يَبيصرُ، والمُقعَّد الذي لا يَتَوَرَّى على المشي، والذي يمشي سَوِيّاً على صِراطٍ مستقيم، هو الذي ليسَتْ بِهِ زَمَانَةٌ، ولا بِهِ عَمَى، يَمْنَعُهُ مِنَ الصُّرَاطِ.

فيكونُ قوله: ﴿يَتَّبِعُ مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ﴾ هو الأعمى، والذي ﴿يَتَّبِعُ سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو السَّمِيعُ البَصِيرُ، فيكونُ معناه ما قال في سورة هود: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَغْنَى وَالْأَسْفَى وَالْأَعْيُ وَالْأَعْيُ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الآية: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَوْ أَلَيْسَ أَنْشَأْتُ وَجَعَلَ لَكَ الشَّعْ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ هذه الآية صلةٌ قوله: ﴿أَلَيْسَ خَلَقَ النَّوْتَ وَالْمَيُوتَ﴾ [الآية: ٢] وصلةٌ قوله: ﴿أَلَيْسَ خَلَقَ سَبْعَ سَوَاتِرَ يَبَاطُهَا﴾ [الآية: ٣] وقوله: ﴿مَوْ أَلَيْسَ جَعَلَ لَكَ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ [الآية: ١٥]

ثم ذُكرَ الإنشاءُ وجعلُ السَّمْعِ والأبصارِ والأفئدةِ تذكيرٌ بِقُوَّتِهِ ^(١) وَسُلْطَانِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَأَلَايِهِ وتعالِيهِ عَنِ الْأَشْيَاءِ وَالْأَمْثَالِ.

فَوَجْهُ تذكيرِ القُوَّةِ والسُّلْطَانِ والعِلْمِ والحِكْمَةِ ما يوصَفُ بَعْدَ هذا، ويُذَكَّرُ فِي سورة المرسلات وفي سورة: ﴿وَاللَّهُ وَالطَّائِرُ﴾ وَسَنَذَكُرُ طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ هُنَا ^(٢) بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ، فنقول: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْشَأَ فِي أَظْلَمِ مَكَانٍ وَأَضْيَقِ مَوْضِعٍ بَحِيثٌ لَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ تَدْبِيرُ الْبَشَرِ وَعُلُومُهُمْ وَحِكْمَتُهُمْ وَقَوَاهُمْ لِأَنَّهُ عِلْمُ الْخَلْقِ لَا يَجِدُ نَفَادًا فِي الظُّلُمَاتِ، وَكَذَلِكَ حِكْمَتُهُمْ.

ثم إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْشَأَ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ كَيْفَ شَاءَ، وَأَجْرَى سُلْطَانَهُ وَتَدْبِيرَهُ عَلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ لِيُعْلَمَ بِهِ أَنَّ عِلْمَهُ بِالْحَقَائِقِ مِنَ الْأُمُورِ كَعِلْمِهِ بِمَا ظَهَرَ مِنْهَا، وَتَغَرَّبَ الْخَلَائِقُ أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَيَذْهَبُ ذَلِكَ إِلَى الْمُرَاقَبَةِ فِي كُلِّ مَا يُسِرُّونَ، وَمَا يُعْلِنُونَ، وَيُوجِبُ مَا ذُكِّرْنَا مِنْ تَقْدِيرِ قُوَّتِهِ وَعِلْمِهِ وَسُلْطَانِهِ بِقُوَّةِ الْبَشَرِ وَعُلُومِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ، فَيَكُونُ فِيهِ انْفِتَاحٌ عَنِ الشُّبُهَةِ الَّتِي أَغْفَرَتْ مُنْكَرِي الْبَحْثِ فِي أَمْرِ الْبَحْثِ، وَيَحْمِلُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ إِذَا أَمْعَنُوا النَّظَرَ فِيهِ، وَيَعْلَمُونَ ^(٣) أَنَّ مَنْ بَلَغَتْ حِكْمَتُهُ مَا ذُكِّرْنَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَخْلُقَهُمْ سُدًى، لَا يُخَاطِبُهُمْ، وَلَا يَنْهَاهُمْ، بَلْ يَتَرَكُهُمْ هَمَلًا.

وَأَمَّا وَجْهُ تَعَالِيهِ عَنِ الْأَشْيَاءِ وَالْأَشْكَالِ [فَهُوَ أَنَّ] ^(٤) إِنْشَاءَ الْخَلْقِ فِي أَظْلَمِ مَكَانٍ وَأَضْيَقِ مَكَانٍ، فَيُؤَيِّدُ أَنَّهُ لَا يُوصَفُ بِالْكَوْنِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الَّذِي ظَهَرَ فِيهِ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ لَأَنَّهُ فِي وَقْتٍ مَا خَلَقَ عَمْرًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ فَقَدْ خَلَقَ زَيْدًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ [وَخَلَقَ الْخَلَائِقَ] ^(٥) فِي بَطْنِ الْأَنْعَامِ وَالسَّبَاعِ وَبَطْنِ بَنَاتِ آدَمَ، وَأَنْشَأَ الثَّبْتَ فِي الْأَرْضِينَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. / ٥٨٥ - ب /
ولو كَانَ يَوْصَفُ بِالْكَوْنِ فِي مَكَانِ الْفِعْلِ لَكَانَ إِذَا أَخَذَ فِي خَلْقِهِ هَذَا لَا يَخْلُقُ فِي ذَلِكَ [الْوَقْتِ] ^(٦) فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ أَمْثَالَهُ مِنَ الْخَلَائِقِ. فَذَلِكَ أَنَّ الْفِعْلَ لَيْسَ بِتَخْصِيلٍ مِنْهُ بِشَهْوَةِ الْمَكَانِ الَّذِي ظَهَرَ فِيهِ فِعْلُهُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ بِمَا ذُكِّرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا قَوْلًا لَشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتَهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وَأَمَّا سَائِرُ الْفَعْلَةِ فَهِيَ لَا يَتِمُّ كَوْنُهَا مِنَ الْفِعْلِ إِلَّا بِشَهْوَةِ مَكَانِ الْفِعْلِ.

فهذا الذي ذُكِّرْنَا يَنْفِي عَنْهُ شَبَهَ الْخَلْقِ، وَيُوجِبُ تَعَالِيَهُ عَنِ الْأَشْكَالِ، وَفِيهِ تَذَكِيرٌ نَعِيمٍ وَمِنْهُ عَلَى خَلْقِهِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ عَلَى إِنْ هَذَا: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؟ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مُنْعِمًا لَمْ يَكُنْ يَسْتَأْذِي مِنْهُمْ الشُّكْرُ.

وَوَجْهُ التَّعَمُّدِ، هُوَ أَنَّهُ قَدَّرَهُ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَصَانَهُ مِنَ الْآفَاتِ وَمِنْ كُلِّ أَنْوَاعِ الْأَذَى، وَغَذَّاهُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ بِمَا شَاءَ مِنَ الْأَغْذِيَةِ، وَسَتَرَهُ عَنِ أَبْصَارِ النَّاطِرِينَ، وَعَيَّبَهُ عَنْ أَعْيُنِهِمْ، لِأَنَّهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُسْتَعَاثُ، وَيُسْتَفْذَرُ مِنْهُ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَذْفَعَ عَنْهُ الْمَغْنَى الَّذِي وَقَعَتْ بِهِ الْإِسْتِعَاثَةُ وَالْإِسْتِفْذَارُ بِالْتَّظْهِيرِ، وَأَنْشَأَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفَوَادِ لِيَصِلَ بِهَا إِلَى أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمَصَالِحِ، فَلَزِمَهُمْ أَنْ يَقُومُوا بِشُكْرِ ذَلِكَ.

(١) الباء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ههنا. (٣) في الأصل وم: وليعلموا. (٤) في الأصل وم: هو أنه. (٥) في الأصل وم: وخلائق. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

وفي ما ذكرنا نفص قول المعتزلة لأنهم يزعمون أن الله تعالى لو جعلهم على غير الوجه الذي ظهر لكان جائراً، لأن من مذهبهم أنه لا يفعل إلا ما هو أصلي لهم. وإذا كان خلقهم، هو الأصلح، ومن شره فعل الأصلح، فإذا هو صار قاضي حق، وليس لقاضي الحق على المفضى موضع ميتة، ولا ميتة بمكانه، ولا نعمة يلزمها شكرها له.

ثم قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي جعل لكم السمع لتسمعوا ما غاب عنكم، ونأى، فتعرفوه بالسمع، وأنشأ لكم الإبصار لتبصروا به ما حصر من الأشياء، وتعرفوا منها ما ينفعكم وما يضركم وما خبت منها وما طاب، وأنشأ لكم أفئدة، تذكرون بها حقائق الأشياء ومبادئ الأمور ومآلها وما حل منها وما حرم.

ثم خص هذه الأشياء الثلاثة بالذكر لما فيها يتوصل إلى العلوم ومعرفة الأشياء.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] ومعناه: أنه أنشأ لكم هذه الأشياء لتتبدوا بها، وتصلوا بها إلى أنواع العلوم. فثبت أن هذه الأشياء هي التي يتوصل بها إلى العلم والحكمة وإلى ما به المصلحة والمنفعة. ولذلك قال: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْفُوراً﴾ [الإسراء: ٣٦].

[فلو لم] ^(١) يقع بها الوصول إلى علم الأشياء [لكانت لا تختص] ^(٢) بالسؤال عنها.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ جمع في هذه الآية خبرين:

أحدهما: مما قد تنوع فيه، وهو قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فإن بعض الكفرة يذكرون الحشر والبيت.

والثاني: مما لم يقع فيه التنوع، وهو قوله: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

ثم إن الله تعالى جعل ابتداء الخلق دلالة القُدرة على الإعادة بقوله ^(٣): ﴿قَالَ مَنْ بَنِيَ الْوَعْدَ وَهِيَ رَبِّي﴾ [قل ينجيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل شيء عليم] ^(٤) [يس: ٧٨ و٧٩].

وإذا جعل الابتداء دليل الإعادة لزمهم أن يستدلوا به، فهو وإن ذكره على وجه الاحتجاج ففيه موضع الاحتجاج عليهم.

وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فيه إخبار أنه خلقهم في الأرض ليُشاهد بعضهم خلق بعض في الابتداء، فيعلموا أنهم لم يكونوا على الحالة التي هم عليها للحال، بل كانوا نطفاً وعلقاً وأطفاً إلى أن انتهوا إلى الحالة التي هم ^(٥) عليها.

لماذا تقرر عندهم أمر الابتداء أوجب لهم ذلك علماً بالقُدرة على الإعادة. ويكون قوله ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي أنشأكم، وجعل لكم مساكن في الأرض، بسطها لكم، لتتفعلوا بها، وجعلها لكم كفاية ^(٦)، فيكون فيه تذكيره النعمة والقُدرة والسلطان.

وقوله تعالى: ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ أي كثركم من أصل واحد كما قال تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا ذَكَرًا وَنَافِلًا﴾ [النساء: ١].

ومعلوم أن الخلق على كثرتهم لم يكونوا في نفس واحدة، ومن قدر على [خلق] ^(٧) الأنفس من نفس واحدة قادر على إعادة ما سبق كونه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فقولهم هذا خارج مخرج الاستهزاء والاستخفاف برسول الله ﷺ فأمَرَ الله ﷻ أن يجيبهم بالجواب الذي يليق [صدوره] ^(٨) من الحكماء، ولم يَأْذَنَ لَهُ أَنْ يُجَاوِزَهُمْ باستخفافهم إياه استخفافاً مثله.

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل رم: فلم. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل رم: لكن لا يخص. (٣) في الأصل رم: وقال.

(٤) ساقطة من الأصل رم. (٥) ساقطة من الأصل رم. (٦) في الأصل رم: كفاً. (٧) ساقطة من الأصل رم. (٨) ساقطة من الأصل رم.

الآية ٢٦ فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ لَا يَنْذِرُهُمْ إِلَّا بِالَّذِي أَمَرَهُ بِهِ، وَلَا يُبَلِّغُ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَا قَدْ أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وَأَمَرَهُ بِتَبْلِيغِهِ.

وفي هذه الآية دلالةٌ تُبَيِّنُ آيَةً رَسَالَتِهِ، لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ رَسُولًا كَمَا زَعَمُوا، وَكَانَ مُخْتَلِقًا مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ لَكَانَ يُنَكِّتُهُ أَنْ يُحِيلَ ذَلِكَ إِلَى وَقْتٍ، لَا يَظْهَرُ غَلْظُهُ فِيهِ وَلَا كَذِبُهُ لَدَيْهِمْ، وَهُوَ أَنْ يُحِيلَهُ إِلَى وَقْتٍ لَا يَعِيشُ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَإِذَا لَمْ يَفْعَلْ، بَلْ قَالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ دَلَّهْمُ ذَلِكَ عَلَى رَسَالَتِهِ، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ رَسُولًا لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَزِيدَ فِي الرِّسَالَةِ وَلَا أَنْ يَتَكَلَّفَ مِنْ عِنْدِهِ فِيهَا زِيَادَةً كَمَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١] أَنْ فِيهِ مَا يَقْدُرُ رَسَالَتُهُ عَنْدهُمْ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي يَذْكُرُ فِي تِلْكَ السُّورَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أَي لَا أَزِيدُ فِي الْإِنذَارِ عَلَى الْقَدْرِ الَّذِي أُمِرْتُ بِهِ.

الآية ٢٧ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أَي رَأَوْا الَّذِي وَعَدُوا.

وقوله تعالى: ﴿زُلْفَةً﴾ أَي قَرِيبَةً. ثُمَّ أَنْتَ الزُّلْفَةُ لِمَا أَرِيدُ بِهَا الْأَحْوَالُ الَّتِي تَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالشَّدَائِدِ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿رَأَوْهُ﴾ كِنَايَةً عَنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ فَذَكَرَ الْيَوْمَ لِأَنَّ الْيَوْمَ مُذَكَّرٌ، وَجَعَلَ الزُّلْفَةَ بِلَفْظِ التَّانِيثِ لِأَنَّهَا كِنَايَةٌ عَنِ الْأَمْوَالِ الَّتِي تَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

وجائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿زُلْفَةً﴾ رَأَوْا تِلْكَ الْأَمْوَالِ وَالشَّدَائِدَ قَرِيبَةً مِنَ الْأَوْقَاتِ الَّتِي وَعَدُوا فِيهَا، فَعَلِمُوا أَنَّهَا كَانَتْ قَرِيبَةً مِنْهُمْ، وَإِنْ كَانُوا يَسْتَنْبِغُونَهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوَّحْنَا لُزُومَتَنَا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦] وقوله^(١): ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوَى الْعَذَابُ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥].

وكذلك إِذَا رَأَوْا شِدَائِدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَمْوَالَهُ عِلِمُوا أَنَّ الْوَقْتَ الَّذِي كَانَ يُوعِدُهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ قَرِيبًا مِنْهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فَ **سَيِّئَتْ** مِنْ سَاءَتْ، أَي سَاءَتْ وَجُوهُهُمْ، وَقَبِحَتْ وَجُوهُهُمْ بِتَغْيِيرِ الْوَانِهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِكُمْ تَدْعُونَ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: مَعْنَاهُ تَمْنَعُونَ، وَتَدْفَعُونَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذَلِكِ الَّذِي يَدْعُ الْآلِيَةَ﴾ [الماعون: ٢] وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى تَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاءً﴾ [الطور: ١٣] أَي دَفْعًا.

وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرَهُ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنَ الدَّفْعِ أَوْ الْمَنْعِ لَكَانَ حَقُّهُ أَنْ يُشَدَّ الْعَيْنُ لَا الدَّالُ كَمَا شُدِّدَتْ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَدْعُ الْآلِيَةَ﴾ فَإِذَا شُدِّدَتْ الدَّالُ دُونَ الْعَيْنِ ثَبَتَ أَنَّ اسْتِغْنَاءَهُ / ٥٨٦ - لَيْسَ مِنَ الدَّعْ وَلَكِنَّهُ مِنَ الْإِدْعَاءِ؛ إِذِ الدَّالُ هِيَ الْمُسْتَدَّةُ.

فَتَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِكُمْ تَدْعُونَ﴾ أَي هَذَا الْوَقْتُ الَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَتَدْعُونَ عَلَيْهِ أَنَّهُ كَاذِبٌ فِي الْأَخْبَارِ.

وجائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿تَدْعُونَ﴾ أَي تَدْعُونَ^(٢)، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ الْإِدْعَاءُ مَكَانَ الدَّعْوَةِ كَمَا يَقَالُ: ذَكَرَ وَادَّكَرَ وَخَبَرَ وَاخْتَبَرَ.

الآية ٢٨ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُعِظِرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ إِلَهِمْ﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّ فِي حُكْمَةِ اللَّهِ مَشِيئَةَ الْمَغْفِرَةِ وَالْعَفْوِ^(٣) لِمَنْ ارْتَكَبَ غَيْرَ الْكُفْرِ مِنَ الزَّلَّاتِ، وَإِجَابَ الْعِقَابِ عَلَى مَنْ اغْتَفَكَ الْكُفْرَ، وَالتَّزَمَهُ، وَأَنْ لَيْسَ فِي الْحُكْمَةِ عَفْوٌ مِثْلُهُ مِنَ الْعُقُوبَةِ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ فَأَثْبَتَ فِيهِ إِخْبَارَ الْإِهْلَاكِ وَمَشِيئَةَ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٢) وَهِيَ قِرَاءَةٌ، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ج ٧/ ١٩١. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْعِقَابُ.

وَمَعْلُومٌ بِأَنَّهُ يُهْلِكُ وَمَنْ مَعَهُ، أَوْ يَرْحَمُ، عِنْدَمَا يَتَكَلَّمُ بِالزَّلَّاتِ، وَكَذَلِكَ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨ و ١١٦] فَجَعَلَ لِنَفْسِهِ مَشِيئَةَ الْمَغْفِرَةِ لِمَنْ يَتَوَقَّى الْكُفْرَ، وَحَكَمَ بِإِيجَابِ الْعِقَابِ عَلَى مَنْ أَشْرَكَ بِهِ.

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحِكْمَةَ تُوجِبُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْكُفْرَ لِنَفْسِهِ قَبِيحٌ لَا يَخْتَمِلُ الْإِطْلَاقَ وَرَفَعَ الْحُرْمَةَ لِمَا فِيهِ مِنَ السَّفْوَةِ، لِأَنَّ مَنْ رَضِيَ بِشَيْءٍ نَفْسِهِ فَهُوَ سَفِيهٌ، فَقَلَى ذَلِكَ عَقُوبَتُهُ، لَا تَخْتَمِلُ فِي الْحِكْمَةِ رَفْعُهَا وَالْعَفْوُ عَنْهَا، أَوْ لِمَا كَانَ الْكُفْرُ لَا يَخْتَمِلُ الْإِبَاحَةَ وَرَفَعَ الْمُقَابِلَةَ؛ وَالْإِفْضَالُ بِالْمَغْفِرَةِ يُخْرِجُ مُخْرَجَ الْإِبَاحَةِ، كَذَلِكَ لَمْ يَجْزِ الْقَوْلُ فِيهِ بِالْمَغْفِرَةِ وَالْعَفْوِ، وَسَائِرُ الْمَائِمِ جَائِزٌ رَفَعَ الْحُرْمَةَ عَنْهَا.

وَلِأَنَّ الْكَافِرَ اخْتَارَ عِدَاوَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَكُفْرَانَ نَعِيمِهِ، وَالَّذِي اغْتَفَدَ الْإِسْلَامَ اخْتَارَ وَلَايَتَهُ، وَالْحِكْمَةُ تُوجِبُ التَّفَرُّقَ بَيْنَ الْعَدُوِّ وَالْوَلِيِّ، وَفِي الْعَفْوِ عَنْهُ وَإِكْرَامِهِ بِالْإِحْسَانِ تَسْوِيَةٌ بَيْنَ الْوَلِيِّ وَالْعَدُوِّ، وَفِي ذَلِكَ تَضْيِيعُ الْحِكْمَةِ، وَلِأَنَّ الْكَافِرَ فِي نَفْسِهِ [يُظَنُّ أَنَّهُ] ^(١) عَلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَغَيْرُهُ عَلَى الْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَوْجِبٍ الْعَذَابِ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ حِكَايَةُ عَنْ أَهْلِ الْكُفْرِ إِذْ ^(٢) قَالُوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥].

فَاللَّهُ تَعَالَى إِذَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالْعَفْوِ، وَتَطَوَّلَ عَلَيْهِ بِالْإِحْسَانِ لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ عِنْدَهُ مَوْقِعَ التَّجَاوُزِ وَالْعُفْرَانِ، بَلْ يَقَعُ عِنْدَهُ أَنَّهُ إِنَّمَا أَحْسَنَ إِلَيْهِ لِاسْتِجَابَةِ الْإِحْسَانِ، وَعَفَا عَنْهُ لِمَا يَسْبِقُ مِنْهُ مَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ الْعِقَابَ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى تَضْيِيعِ الْإِحْسَانِ وَتَضْيِيعِ الْعَفْوِ وَإِبْطَالِ النِّعْمَةِ. فَثَبَّتَ أَنَّ الْحِكْمَةَ لَا تُوجِبُ الْعَفْوَ عَنِ الْكَافِرِ، إِذْ يَخْصُلُ الْعَفْوُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

وَأَمَّا أَهْلُ الْإِسْلَامِ الَّذِينَ سَبَقَتْ مِنْهُمْ الْأَجْرَاءُ فَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ الَّذِي سَبَقَ مِنْهُمْ زَلَّاتٌ وَمَائِمٌ، وَأَنَّ الْعَذَابَ قَدْ لَزِمَهُمْ، وَأَنَّهُمْ مُسْتَوْجِبُونَ الْعِقَابِ. فَلِذَا عَفَا عَنْهُمْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا نَالُوا الْعَفْوَ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَقَعُ الْإِحْسَانُ مَوْقِعَهُ. وَلِأَنَّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَى عَدُوِّهِ فِي الشَّاهِدِ، لَمْ يَقْصِدْ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِ قَصْدًا اسْتِزْجَارِيًّا وَالْمَكْرِ بِهٖ، فَهُوَ إِنَّمَا يُحْسِنُ إِلَيْهِ لِمَا يَخَافُ نَاجِيَتَهُ، وَيُخْرِجُ فِعْلَهُ مُخْرَجَ التَّذَلُّلِ لَهُ.

فَلَوْ لَمْ يُوَاجِهِ اللَّهُ الْكَافِرَ بِمَا تَعَاطَى مِنَ الْكُفْرِ، بَلْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَبَعَةٍ عَلَيْهِ، خَرَجَ عَفْوُهُ وَإِحْسَانُهُ إِلَيْهِ مُخْرَجَ الْخَوْفِ وَإِظْهَارِ التَّذَلُّلِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَجِلُّ عَنْ هَذَيْنِ الرَّجَحَيْنِ. فَثَبَّتَ أَنَّ الْحِكْمَةَ تُوجِبُ الْقَوْلَ بِالتَّخْلِيدِ، وَتَمْنَعُ الْقَوْلَ بِالْعَفْوِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَهُكُمْ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ دَلَالَةٌ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يُعَذِّبَ عَلَى الصَّغَائِرِ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ قَدْ عَصَمُوا عَنِ ارْتِكَابِ الْكِبَائِرِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَرْتَكِبُوا الْكِبَائِرَ، فَيُهْلَكُوا لِأَجْلِهَا.

فَثَبَّتَ أَنَّهُمْ لَوْ أَهْلِكُوا [لَأَهْلِكُوا] ^(٣) بِالصَّغَائِرِ. فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يُعَذِّبَ أَهْلَ الصَّغَائِرِ لَصَارَ هُوَ بِإِهْلَاكِهٖ إِيَّاهُ بِمَنْ مَعَهُ جَائِزًا ظَالِمًا، وَجَلَّ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْوَصْفِ بِالْجَوْرِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

ثُمَّ الْحَقُّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ جَمِيعَ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ بِارْتِكَابِهِمُ الْكِبَائِرَ [وَأَمَّا هُوَ الرَّجَاءُ الَّذِي] ^(٤) ذَكَرْنَا لِغَيْرِهِمْ مِنْ مُتَّجِلِي الْإِسْلَامِ، لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَا يَجُوزُ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ، وَلَا أَنْ يَطَوَّلَ عَلَيْهِمْ بِالْعَفْوِ، بَلْ حَقٌّ أَمْثَالُهُمْ أَنْ يَخْلُدُوا فِي النَّارِ أَبَدَ الْأَبَدِينَ.

وَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ الْحُكْمُ فِيهِمْ، وَلِلَّهِ تَعَالَى أَنْ عَفَرَ لَهُمْ، وَمَنْ عَلَيْهِمُ بِالْعَفْوِ، وَقَعَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا عَفَا عَنْهُمْ لِأَنَّ الَّذِي ارْتَكَبُوا مِنَ الْمَائِمِ لَمْ تُكُنْ كِبَائِرًا، بَلْ كَانَتْ صَغَائِرًا؛ إِذْ لَا تَجُوزُ الْمَغْفِرَةُ عَنِ الْكِبَائِرِ، فَيَخْصُلُ الْعَفْوُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَالْإِحْسَانُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: إِنَّهُ يُظَنُّ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وَأَمَّا خَيْرُهُمْ مِنْ مُتَّبِعِي الْإِسْلَامِ فَهُمْ يَرْجُونَ عَفْوَ وَسَعَةً رَحْمَتِهِ فِي كُلِّ أَيَّامِهِمْ. فَإِذَا تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَقَعَ الْعَفْوُ عِنْدَهُمْ مَوْقِعَهُ، فَلَا يَكُونُ فِيهِ تَضْيِيقُ الْإِحْسَانِ ﴿سُبْحَنَكَ وَقَتْلَى مَا يَقُولُونَ عَلَوكَ كَيْدًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

ثم قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَهُ مِنْ نَجْوَى﴾ بما سبق من الأجرام والزلات ﴿أَوْ رَحِمَنَّا﴾ بما سبق من الإيمان به والإنقياد لأمره والخضوع لطاعته ﴿كَفَنَ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ﴾ من عذابه، ولم يسبق منهم إلى ربهم حسنة يزحمون لأجلها ولا طاعة يستوجبون الثمران بها؟ أو فَمَنْ يُجِيرُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى إِنْ حَلَّ بِهِمْ؟ فكانه قيل له: قُلْ لَهُمْ هَذَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَغْبِدُونَ الْأَصْنَامَ رَجَاءً أَنْ تَنْصُرَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ. فيقول: لَا تُجِيرُهُمْ تِلْكَ الْأَصْنَامُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٨ وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ﴾ فجائز أن يكون مغناه: إِنْ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ وَسَبَّحَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا، وَجَعَلَ الْأَرْضَ ذُلُولًا، وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَالْجَهْرَ، هُوَ الرَّحْمَنُ. فيكون فيه إنباء أن خالق السموات والأرض وخالق الموت والحياة وخالق أفعال العباد وأفعال الطير، هُوَ الرَّحْمَنُ، جَلَّ جَلَالُهُ.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّا بِهِ﴾ أي أَمَّا أَنَّهُ خَالِقُ مَا ذَكَرْنَا، وَأَنَّهُ الْمُتَعَالِي عَنِ الْأَشْيَاءِ وَالْأَمْثَالِ، وَالْبَرِيءُ مِنْ كُلِّ الْغُيُوبِ. وجائز أن يكون ﴿هُوَ﴾ اسم من أسماء الله تعالى على ما ذكر في سورة الإخلاص، فيكون ﴿هُوَ﴾ و﴿الرَّحْمَنُ﴾ اسمين من أسماءه.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ جائز أن يكون رسول الله ﷺ حَوْفَهُ الْمُشْرِكُونَ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْمَخَاوِفِ، فَقِيلَ لَهُ: قُلْ ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أَيِ اعْتَمَدْنَا؛ هُوَ الَّذِي يَدْفَعُ عَنَّا شُرُكُنَا، وَيَنْصُرُنَا عَلَيْكُم.

وقوله تعالى: ﴿فَسَتَقْلِقُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ جائز أن يكونوا نسبوه أيضاً إلى الضلال، وأدعوا أنهم على الهدى، ولم ينظروا في آيات الله تعالى ليتبينوا بها من المهتدي منهم؟ ومن الضال؟ فقال: ﴿فَسَتَقْلِقُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ إِذَا جَاءَكُمْ بِأَسْنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ عِنْدَ الْمَوْتِ أَوْ فِي الْآخِرَةِ.

الآية ٢٩ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ هَذَا صِلَةُ قَوْلِهِ: ﴿أَتَنْتَظِرُونَ أَنْ آتِيَكُمُ الْمَاءُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ﴾ فيقول أيضاً: ﴿كَفَنَ يَأْتِيَكُمُ الْمَاءُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ﴾ إِذَا أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا. وَالْمَعِينُ هُوَ الْمَاءُ الَّذِي تَقَعُ عَلَيْهِ الْعَيْنُ، وَيَرَاهُ الْبَصَرُ لِوَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ [١] ٥٨٦ - ب.



٥٨٦/ ب - سورة (١) هـ وَالْقَلَمِ

ولهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية الأولى قوله تعالى: ﴿هـ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ اختلِف في تأويل ﴿هـ﴾ فمنهم من يقول: هو الحوث كقولهِ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلُوبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] فَتَسَبَّه إلى النون، وهو الحوث، ألا تَرَى إلى قولهِ: ﴿وَالْقَلَمَ الْحَوْتَ وَفَوَ مِلِّمٍ﴾؟ [الصافات: ١٤٢].

ومنهم من يقول: النون هو الدواة، فتأويله هذا على جهة الموافقة لأنه ذَكَرَ الْقَلَمَ وما يُسَطَّرُ به، فلم يبقَ ههنا سِوَى الدواة، فَحَمَلَهُ على الدواة على الموافقة لا أن يكون فيه معنى يَدُلُّ على إرادة الدواة منه، والله أعلم.

ومنهم من يقول: هي فارسيَّة مُعَرَّبَةٌ: النون كُنْ أي اصْنَعْ ما شِئْتَ؛ يُقَالُ هذا عند الإياس؛ إذ المرء إذا أيس من آخر قال له: اصْنَعْ ما شِئْتَ إِذْنٌ^(٢).

ومنهم من يقول: هو مِنَ الحروف الْمُقَطَّعة. وَيُشَبَّه أن يكون، هو المراد، لأنه ذَكَرَ الْقَلَمَ ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ على إثَرِهِ، وإنما يُكْتَبُ بِالْقَلَمِ، وتُسَطَّرُ الحروف الْمُعْجَمَةُ. فَأَحْبَبَ تعالى عَظِيمَ صُنْعِهِ وَلُطْفِهِ بِإِنْشَائِهِ هَذِهِ الحروف وَخَلَقَهُ الْقَلَمَ وما يُسَطَّرُ [به حين]^(٣) يُوَصِّلُ بها إلى تَعَرُّفِ الْحِكْمَةِ وكلِّ ما تكون به الْمَصْلَحَةُ مِنَ الدِّينِ والدُّنْيَا. بل جَعَلَ قِوَامَ الدِّينِ والدُّنْيَا بها.

ومنهم من يَجْعَلُ كلَّ حرفٍ مِنَ الحروف الْمُعْجَمَةِ اسماً مِنَ أسماءِ الله تعالى، أو افْتِتَاحَ اسمٍ مِنَ أسماءِهِ. وكذلك يُرَوَى عن بعضِ الصحابة رضي الله عنهم أنه قال ذلك.

فإن كَانَ النون اسماً مِنَ أسماءِ الله تعالى، فالقَسَمُ بِهِ قَسَمَ بالله تعالى. وإن كَانَ على غَيْرِهِ مِنَ الوجوه التي ذَكَرْنَاهَا، فالقَسَمُ جَارٍ بِمَا بِهِ قِوَامُ سَائِرِ الْخَلْقِ وَمَصَالِحُهُمْ. وقد ذَكَرْنَا أن الْقَسَمَ تأكيدٌ ما يَقْصُدُ مِنَ الأمرِ، والله أعلم.

الآية الثانية وقوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِغَفْلٍ رَّبِّكَ يَسْجُدُونَ﴾ فَمَوْضِعُ الْقَسَمِ هذا: أَقْسَمَ بما ذَكَرَ: ﴿مَا أَنْتَ بِغَفْلٍ رَّبِّكَ يَسْجُدُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أَوْجُهًا:

أَحَدُهَا: أَنْ نِعْمَةً رَبِّكَ حَفِظْتَنكَ مِنَ الْجُنُونِ؛ نَقَى عَنْهُ الْجُنُونَ بقولِهِ: ﴿مَا أَنْتَ﴾ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكَ ﴿يَسْجُدُونَ﴾ وهذا كما يُقَالُ: ما أَنْتَ يا مُحَمَّدٌ بِمُجْنُونٍ، يُرَادُ بِهِ نَقَى الْجُنُونَ.

والثاني: أَنْكَ لَسْتَ مِنْ خَلْقَةِ النُّعْمَةِ، وَاعْتَرَّ بها، حَتَّى شَعَلَتْهُ عَنِ الْعَمَلِ بِمَالَةٍ [وما]^(٤) عَلَيْهِ.

وَالْمَجْنُونُ بِالنُّعْمَةِ هو الَّذِي غَرَّتْهُ النُّعْمُ، وَالْهَيْئَةُ عَنِ التَّوَدُّدِ لِلْمَعَادِ.

[وَالثَّالِثُ]^(٥) مَا أَنْتَ بِغَافِلٍ عَنِ نِعْمَةِ رَبِّكَ، بَلْ تَذْكُرُهَا، وَتَشْكُرُ اللهَ عَلَيْهَا.

وَالْمَجْنُونُ مَنْ غَفَلَ عَنِ النُّعْمَةِ، وَاعْتَزَّ عَنْ شُكْرِهَا.

(١) أدرج قبلها في الأصل رم: ذكر. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل رم: عليه حيث. (٤) في الأصل رم: و. (٥) في الأصل رم: أو.

[والرابع: أن^(١)] الكفرة كانوا ينسبونه إلى الجنون: [إما لما كان [يغشاه بثقل^(٢)] الوحي، فكانوا ينسبونه بهذا [إلى الجنون^(٣)] وإما لما رأوا أنه خاطر بنفسه وروجوه حين^(٤) خالفت أهل الأرض، وفيها الجبابرة والفراعنة، وانتصب لمعاداتهم. ومن قام بخلاف من لا طاقة له معه، وانتصب لمعاداته، فذلك منه في الشاهد جنون. فاجاب الله تعالى للفرقيين جميعاً:

أما الأول فبقوله^(٥): ﴿قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيَكُمْ بِوَحْدَةِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفٍ أَنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [سبأ: ٤٦] أي كيف تنسبونه إلى الجنون، وعند الإفاقة من تلك الغشية يأتيكم^(٦) بحكمة وموعظة، ينجز حُكماء الجن والإنس عن إتيان مثلها^(٧)، وليس ذلك من علم المجانين ولا مما يمكن تحصيله في حال الجنون، لأن المجنون إذا أفاق من غشيته تكلم بكلام، لا يغبأ بمثله، ولا يكثرث.

واجاب لمن كان نسبته إلى الجنون لما [رأوه^(٨)] خاطر بروجوه ونفسه بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

فاخبر أن الذي حمّله على المخاطرة بروجوه وجسده، هو أنه مأمور بالتبليغ والندارة؛ فهو يقوم بما أمر، وإن أدى ذلك إلى إتلاف النفس.

ثم يحمد الله لم يتهياً للفراعنة أن يقتلوه، ولا تمكنوا من المكر به، بل أظفروا الله تعالى عليهم حتى قتلهم، ورد كيدهم في نحورهم، فصار الوجه الذي استدلوا به على جنونه آية رساليه ودلالة نبوته، والله الهادي.

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿وَلَا لَكَ لَآخِرُ عَذْرٍ مِثْنُونَ﴾ قال الحسن: أي لا يمن عليك المنة التي تؤذك، ولكن يمن عليك منة رحمة وكرامة، والمن المؤذي كما ذكر^(٩): ﴿لَا يَبْطُلُوا صِدْقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال بعضهم: ﴿عَذْرٍ مِثْنُونَ﴾ أي غير مقطوع، أي أجرك غير مُقَدَّر بالأعمال حتى تُجْزَى بِقَدْرِ الأَعْمَالِ، فإذا انقطعت الأعمال انقطع الأجر، وانقرض، بل يتتابع عليك، ويدر. يقال في الكلام: مننت الحبل، أي قطعت. وقال بعضهم: ﴿عَذْرٍ مِثْنُونَ﴾ أي غير محسوب، أي لا تحسب عليك النعم، فتقضى نفى الحساب.

الآية ٤ وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ لَمَلٌ عَظِيمٌ﴾ خلقه العظيم القرآن، ومعناه: أدبه القرآن، وذلك كقوله تعالى: ﴿خُذِ الْقُرْآنَ وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وكقوله تعالى: ﴿وَأَدْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦] وفصلت: ٣٤] وكقوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ [الحجر: ٨٨].

فاخذ العفو، وأمره بالعرف، وإعراضه عن الجاهلين، ودفعه السيئة بالتي هي أحسن، وخفضه الجناح للمؤمنين من أعظم الخلق. وتخلق بهذا كله بما أدبه القرآن، والله أعلم.

وقال بعضهم: الخلق العظيم هو الإسلام، والإسلام، هو الاستسلام والإنقياد لأمر الله تعالى وقد استسلم لذلك، وسلم الناس من لسانه ويده ومن كل أنواع الأدى، وذلك من أعظم الخلق.

والأصل أن رسول الله ﷺ كُلفت مُعاملة أعداء الله تعالى ومُعاملة أولياء الله وأنصاره، وكُلف أن يرفض الدنيا، ويتزهد فيها، وكُلف مُعاملة الصغير والكبير والعالم والجاهل والجن والإنس، وكُلف مُعاملة نساؤه.

ومن كُلف المُعاملة مع هؤلاء لم يقم لها إلا بخلق عظيم، فَرَزَقَهُ اللهُ تعالى خُلُقاً عظيماً حتى احتمل المُعاملة، وقام معهم بِحُسْنِ العشرة، وحتى عوتب على عظيم خلقه بقوله: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحریم: ١].

(١) في الأصل وم: ثم. (٢) في الأصل وم: يغشي الثقل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يأتيهم. (٧) في الأصل وم: مثله. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وَقَالَ: ﴿فَلَمَّا كَلَبَتْ قَلْبَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ [الكهف: ٦] وَقَالَ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨].

فالذي حَمَلَهُ عَلَىٰ هَذِهِ الْمَشَقَّةِ وَالْكُلْفَةِ الْعَظِيمَةِ حُسْنُ خُلُقِهِ وَقَضْلُ شَفَقَتِهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَعِظَمُ خُلُقِهِ أَنْ خُلِقَهُ جَاوَزَ قُوَىٰ نَفْسِهِ حَتَّىٰ ضَعُفَتْ نَفْسُهُ عَنِ اخْتِمَالِهِ، وَكَادَتْ تَهْلِكُ فِيهِ. وَغَيْرُهُ مِنَ الْخَلَائِقِ تَقْصُرُ أَخْلَاقُهُمْ عَنِ قُوَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَيَخْتَمِلُ إِضَاعَاتُ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْخُلُقِ، وَتَضَيِّقُ أَخْلَاقُهُمْ عَنْ ذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا هُوَ النِّهَايَةُ فِي الْعِظَمِ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

الآيتان ٥ و ٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحْهُ وَبِحَمْدِهِ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قَالَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ: الْمَفْتُونُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هُوَ الْمَفْتُونُ بِضَلَالَتِهِ الْمُعْجَبُ بِخَطِيئَةِ الْمَشْغُوفِ بِجَهْلِهِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: الْمَفْتُونُ هُوَ الَّذِي مَتَّعَهُ الشَّيْطَانُ، وَقِيلَ: الْمَفْتُونُ مَنْ بِهِ الْفِتْنَةُ كَمَا يُقَالُ: فَلَانٌ لَا مَقُولَ لَهُ، أَيْ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ. وَقِيلَ: الْمَفْتُونُ الْمُعَذِّبُ كَقَوْلِهِ ﷺ: ﴿يَوْمَ تَمُوتُ كُلُّ النَّارِ يَمُوتُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] أَيْ يُعَذِّبُونَ، فَكَانَهُ يَقُولُ: أَيُّكُمْ الْمُعَذِّبُ، وَأَيُّكُمْ الضَّالُّ إِنْ حُمِلَ عَلَىٰ مَا ذَكَرَ الْحَسَنُ، وَأَيُّكُمْ الْمُعْتَرِّ إِنْ كَانَ مَعْنَاهُ عَلَىٰ مَا ذَكَرُوا أَنَّ الْمَفْتُونُ مِنَ الْفِتْنَةِ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ نَسْبُهُ عَلَى الْإِغْتِرَارِ فِي مَا كَانَ يَدَّعِي مِنَ الرِّسَالَةِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ مُعْتَرِّ بِهَا، وَيَعْتَرُّ بِهَا غَيْرُهُ كَمَا قَالَ الْمُنَافِقُونَ: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرُسُلُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وَحَقُّ هَذَا عِنْدَنَا إِلَّا تَنَكَّلْتَ تَفْسِيرَهُ، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَسَبِّحْهُ وَبِحَمْدِهِ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَذَكَرَ هَذَا جَوَاباً عَمَّا وَقَعَتْ فِيهِ الْخُصُومَةُ، فَكَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْمَفْتُونُ، وَرَسُولُ / ٥٨٧ - / أَلِلَّهِ ﷺ يَذْكُرُ أَنَّهُمْ هُمُ الْمَفْتُونُونَ، فَخَرَجَ هَذَا جَوَاباً عَنْ تِلْكَ الْخُصُومَةِ أَنَّهُمْ وَأَنْتَ سَتَبْصِرُونَ.

وَقَدْ وَقَعَتْ الْخُصُومَاتُ مِنْ أَوْجُهٍ: فَمَرَّةٌ كَانُوا يَدَّعُونَ بَأَنَّهُ سَاحِرٌ، وَمَرَّةٌ يَدَّعُونَ بَأَنَّهُ مَجْنُونٌ، وَمَرَّةٌ [يَدَّعُونَ] ^(١) بَأَنَّهُ ضَالٌّ، وَمَرَّةٌ [يَدَّعُونَ] ^(٢) بَأَنَّهُ مُعْتَرِّ، وَغَيْرَهَا مِنَ الْوُجُوهِ.

فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي حَقِّ الْجَوَابِ؛ فَمَنْ ^(٣) لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الْخُصُومَةَ فِيهِمُ كَانَتْ لَمْ يَعْلَمْ إِلَىٰ مَاذَا يَصْرِفُ الْجَوَابَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيُشِيرُ أَنْ تَكُونَ الْخُصُومَةُ [هِيَ] ^(٤) الْوَاقِعَةُ فِي الضَّلَالِ وَالْهُدَى، فَكَانُوا يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ عَلَى الْهُدَى وَأَنَّهُمْ بِاللَّهِ أَحَقُّ وَإِلَيْهِ أَقْرَبُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَدَّعِي أَنَّهُمْ عَلَى الضَّلَالِ وَأَنَّهُ عَلَى دِينِ الْحَقِّ وَالْهُدَى.

يَذُلُّ عَلَى ذَلِكَ ذِكْرُ الضَّلَالِ وَالْهُدَى بَعْدَ ذِكْرِ الْمَفْتُونِ:

الآية ٧ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ سَلَ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

ثُمَّ هَذِهِ الْآيَاتُ كَانَهَا نَزَلَتْ جَوَاباً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا كَانَ يَحِقُّ لِيُثْبِتَ الْجَوَابَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا امْتَحَنَ رَسُولَهُ ﷺ بِالْعَفْوِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمُكَافَاةِ بِالْجَوَابِ تَوَلَّى اللَّهُ تَعَالَى الْجَوَابَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ أَيْ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّكُمْ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ سَلَ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وَسَنَبِّينُ لَكُمْ ذَلِكَ.

الآية ٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ كَقَوْلِهِ ^(٥) فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ﴿وَلَا تُطِيعِ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَرْكَرُكُمْ﴾ [الإنسان: ٢٤].

لَيْسَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنْ يُطِيعَ الْمُصْذِقِينَ: فَمَنْ صَدَّقَهُ، وَأَمَرَ بِهِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيَأْمُرُهُ، أَوْ يَنْهَاهُ عَنْ أَمْرٍ، وَيَدْعُوهُ إِلَى الطَّاعَةِ، بَلْ يَنْظُرُ إِلَى أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَهْيِهِ، فَيَأْتِيهِمْ بِأَمْرِهِ، وَيُطِيعُهُ فِي مَا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ.

وَأَمَّا مَنْ كَذَّبَهُ فَقَدْ يَدْعُوهُ إِلَى طَاعَتِهِ، فَخَصَّ ذِكْرَ الْمُكَذِّبِ عِنْدَمَا نَهَاهُ عَنْ طَاعَتِهِ، لِأَنَّ الدَّعَاءَ إِلَى الطَّاعَةِ يَوْجَدُ لَا مِنْ الْمُصْذِقِ دُونَ أَنْ يَتَضَمَّنَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أَمراً بِطَاعَةِ الْمُصْذِقِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَ إِلَهُكُمُ﴾

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم. وقال.

[الإسراء: ٣١] فليس فيه أنه إذا لم يخشَ الإملاقَ يَسْهُهُ قَتْلُهُ، ولكنه خَصَّ تلك الحالةَ لأنَّ تلك الحالةَ هي التي كانتْ تَحْمِلُهُمْ إلى القتلِ، ولم يكونوا يُقَدِّمُونَ على القتلِ عندَ الأمنِ مِنَ الإملاقِ.

وفي هذا دلالَةٌ إبطالِ قولِ مَنْ قال: إِنَّ تَخْصِيصَ الشيءِ بالدُّخْرِ يَدُلُّ على أَنَّ الحُكْمَ في ما غايَرَهُ بِخِلَافِهِ واللهُ أَعْلَمُ. وقوله تعالى: ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ همُ المكذِبُونَ بآياتِ الله تعالى أو بِوَحْدَانِيَّتِهِ أو بِرُسُلِهِ أو بِالْبَعْثِ.

ثم يجوزُ أَنْ يكونَ هذا الأمرُ منهم في أَوَّلِ الأحوالِ، فكانوا يَظْلَمُونَ مِنْ رِسُولِ الله الإجابةَ لَهُمْ في ما يَدْعُونَ إِلَيْهِ؛ إِذْ كانوا يَزْجُونَ منه الموافقةَ لَهُمْ بما يَبْذُلُونَ لَهُ مِنَ المالِ، فيكونُ النَّهْيُ راجعاً إلى ذلك الوقتِ.

فأما بَعْدَ ما ظَهَرَتْ منه الصَّلابَةُ والتَّشْيِيرُ لِأَمْرِ الله تعالى فلا يَحْتَمِلُ أَنْ يُطِيعَهُمْ، أو يَخَافَ مِنْهُمْ^(١) ذلك، فَيَنْتَهِي عَنْهُ. وجائزُ أَنْ يكونَ دعاؤُهُمْ رِسُولَ الله ﷺ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾، والمُدَاهَنَةُ هي المُلَاطَفَةُ والمُلايَنَةُ في القولِ.

ثم رِسُولُ الله ﷺ كَانَ يَذْكُرُ كَهْتَهُمْ بِسُوءٍ، وَسُقُفُهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ لِبَاهَا، وَيُسَفِّهُهُ أَحْلَامَهُمْ، وَيُجْهَلُهُمْ، وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَجِدُونَ في رِسُولِ الله ﷺ مَظْلَعاً، فكانوا يَنْسُبُونَهُ إلى الكَذِبِ مَرَّةً وإلى الجُنُونِ ثَانِيًا وإلى السُّخْرِ ثَالِثًا، وكانوا يَتَّخِذُونَهُ هُزُوءًا إِذَا رَأَوْهُ، فكانوا يَظْعَنُونَ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الْأَوْجُهِ بِإِزاءِ ما كَانَ رِسُولُ الله ﷺ يُسَفِّهُهُمْ، وَيَذْكُرُ كَهْتَهُمْ بِسُوءٍ مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهُ لَيْسَ بِكَذَّابٍ وَلَا سَاحِرٍ وَلَا كَاهِنٍ.

أَلَا تَرَى إِلَى قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ تَلَمَّ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ أَلْوِي يَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَكَ﴾ [الأنعام: ٣٣] فَاخْبَرَ تعالى أَنَّهُمْ لَيْسُوا يَكْذِبُونَهُ لِمَا وَقَعُوا مِنْهُ عَلَى الكَذِبِ، بَلْ كانوا عَرَفُوهُ بِالْأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ، وَلَمْ يَكُونُوا وَقَعُوا مِنْهُ عَلَى كَذِبٍ فَقَطْ، وَإِنَّمَا الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ وَاتِّخَاذِهِمْ إِيَّاهُ هُزُوءًا ذِكْرُهُ^(٢) كَهْتَهُمْ بِسُوءٍ، وَلِلَّذَلِكَ^(٣) قَالَ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الْآيَةَ كَفَرُوا بِهَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْلًا لِلَّيْلِ يَذْكُرُوا إِلَهُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦] فَكَانَتْ مُعَامَلَتُهُمْ هَذِهِ مُجَازاةً لِرِسُولِ الله ﷺ.

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ يُخْرِجُ على هذا، إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى، هُوَ أَنَّكَ لَوْ تَرَكْتَ ذِكْرَ كَهْتِهِمْ بِسُوءٍ، وَلَمْ تُسَفِّهُهُ أَحْلَامَهُمْ، لَأَمْتَنَعُوا أَيْضًا عَنْما عَلَيْهِ مِنْ نِسْبَتِهِمْ إِيَّاكَ إِلَى الجُنُونِ وَالسُّخْرِ وَالكَذِبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَلَكِنَّهُ كَانَ يَذْكُرُهُمْ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ بِحَقٍّ، وَهُمْ كانوا يَذْكُرُونَهُ بِمَا قالُوا بِالْبَاطِلِ وَالزُّورِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿وَلَا تُطِيعُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ في ما يَدْعُونَكَ إِلَى المُدَاهَنَةِ.

ثم هُمْ لَوْ دَاهَنُوا كانوا في مُدَاهَنَتِهِمْ مُحَقِّقِينَ، فَإِنْ تَرَكُوا ذَلِكَ فَقَدْ تَرَكُوا الْحَقَّ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِمْ. وَرِسُولُ الله ﷺ لَوْ دَاهَنَهُمْ لَمْ يَكُنْ في مُدَاهَنَتِهِمْ مُحَقِّقًا. فَلِلَّذَلِكَ نُبِيَ عَنِ المُدَاهَنَةِ. وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أَي لَوْ تَرَفُّضَ ما أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ. وَهَذَا لَا يَسْتَقِيمُ لِأَنَّهُ إِذَا رَفَضَ ما هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ كَفَرَ، وَهُمْ لَوْ تَرَكُوا ما هُمْ عَلَيْهِ صَارُوا مُسْلِمِينَ، فَيَبْقَى بَيْنَهُمُ الْإِخْتِلَافُ الَّذِي لِإِجْلَالِهِ^(٤) دَعَا إِلَى المُدَاهَنَةِ، وَوَدُّوا.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَائِشٍ مِمِّينَ﴾ قيل: إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ في وَاحِدٍ، يُشَارُ إِلَيْهِ، وَهُوَ الرِّبِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِي. وَفِي ما يُشَارُ إِلَى وَاحِدٍ لَا يُطْلَقُ فِيهِ لَفْظَةُ «كُلِّ» فَيَقَالُ: ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَائِشٍ مِمِّينَ﴾ وَالْحَلَائِشُ الْمِمِّينُ لَيْسَ إِلَّا الْوَاحِدُ. وَلَكِنْ مَغْنَاهُ: لَا تُطِيعُ هَذَا وَكُلَّ مَنْ يُوْجَدُ فِيهِ هَذِهِ الصِّفَةُ.

ثم ذَكَرَ الْمَرْءَ بِقولِهِ: ﴿حَلَائِشٍ مِمِّينَ﴾ «مَتَارِ شَتَمٍ بِتَيْبِيرٍ» «شَتَمٌ لِلتَّيْبِيرِ مُتَعَدٍّ أَتَيْبٍ» [الآيات: ١٠ و ١١ و ١٢]. يُخْرِجُ مُخْرِجَ الْهَجَاءِ وَالشَّتَمِ فِي الشَّاهِدِ، لِأَنَّ ذِكْرَ الْمَرْءِ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ اِزْتِكَابِ الْقَوَاحِشِ وَالْمَسَاوِي تَهْجِينٌ لَهُ وَشَّتَمٌ. وَجَلَّ اللهُ رِسُولَهُ أَنْ يَقْصِدُوا إِلَى شَّتَمِ إِنْسَانٍ.

فَالْآيَةُ لَيْسَتْ فِي تَثْبِيهِ فَوَاحِشِهِ، وَإِنَّمَا هِيَ فِي مَوْضِعِ التَّوْبِيخِ وَالزُّجْرِ عَنِ اتِّبَاعِ مِثْلِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ رُؤَسَاءِ الْكُفَرَةِ

(١) في الأصل وم: منه. (٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وكذلك. (٤) زيد بعد ما في الأصل وم: ما.

وَمِنْ بُسْطَتِ عَلَيْهِ الدُّنْيَا، فَكَانَ الْقَوْمُ يَتَّبِعُونَهُ، وَيَتَقَادُونَ لَهُ فِي مَا يَدْعُوهُمْ إِلَى الصِّدْقِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ، وَأَظْهَرَهَا لِلْخَلْقِ لِيُرْهِدَهُمْ عَنْ اتِّبَاعِهِ، إِذْ كُلُّ مَنْ كَانَتْ فِيهِ هَذِهِ الْأَحْوَالُ لَمْ تَسْتَعِزْ نَفْسٌ عَاقِلٌ لَا يُتْبَعُوهُ، وَلَا اخْتَمَلَ طَبْعُهُ طَاعَةَ مِثْلِهِ، فَلَا يَتَمَكَّنُ مِنْ صَدِّ النَّاسِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَانَ فِي ذِكْرِ الْعُيُوبِ الَّتِي ذَكَرَهَا [رَجَرُ النَّاسِ عَنْ طَاعَتِهِ] ^(١) فَذَكَرَهَا لِإِبْرَاهِيمَ هَذَا الرَّجُو لَا أَنْ تَكُونَ فَادَتْهَا عَلَى تَحْصِيلِ الشُّمِّ وَالْهَجَاءِ.

وَكَذَلِكَ ذَكَرَ أَبَا لَهَبٍ بِالنَّبِّ وَالْخَسَارِ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْفَوَاحِشِ لِيُرْجَرَ النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِهِ.

وَفِي هَذِهِ دَلَالَةٌ بَيِّنَةٌ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الرَّجُو الَّذِي يُذَكَّرُ فِي سُورَةِ: «تَبَّتْ» إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ثُمَّ قِيلَ: الْمَهِينُ مِنَ الْمَهَانَةِ، وَمِنْ الْهَيْئَةِ، وَمِنْ الْوَهْنِ، وَهُوَ الضَّعْفُ.

الآية ١١ ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: «هَٰذَا مَثَلٌ ذِي قَبِيحٍ» «مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ» جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ اسْتَوْجَبَ الْمَهَانَةَ لِكُونِهِ «هَٰذَا مَثَلٌ» ^(٢) بِالنَّمِيمِ وَيَمْنَعُوهُ الْخَيْرَ وَاعْتِدَائِهِ، فَيَكُونُ هَذَا كُلُّهُ تَفْسِيرَ الْمَهِينِ. فَإِنْ كَانَ هَكَذَا فَقَوْلُهُ: «مَهِينٌ» مِنَ الْمَهَانَةِ هُنَا.

ثُمَّ [لَا] ^(٣) يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يُخْشَى عَلَيْهِ طَاعَتُهُ وَمَنْ، هَذَا وَضَعُهُ، وَأَنْ يَمِيلَ إِلَيْهِ قَلْبُهُ، وَلَكِنْ النِّهْيُ لِمَكَانٍ غَيْرِهِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الْمَثَلُ ٥٨٧ - ب/ إِلَيْهِ بِالذِّكْرِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: «كُلُّ حَلَالٍ مَهِينٌ» نَمَامَ الْكَلَامِ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ «هَٰذَا مَثَلٌ ذِي قَبِيحٍ» عَلَى الْإِبْدَاءِ. فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَالٍ مَهِينٍ هَٰذَا مَثَلٌ ذِي قَبِيحٍ وَكُلُّ مُعْتَدٍ أَيْمٍ وَكُلُّ عُتْلٍ زَنِيمٍ.

وَتَفْسِيرُ الْهَمْزَةِ يُذَكِّرُ فِي سُورَةِ الْهَمْزَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَالْمَثَلُ بِالنَّمِيمِ هُوَ الَّذِي يَنْسَى فِي الْفُرْقَةِ بَيْنَ الْإِخْوَانِ، وَيَقُومُ فِي مَا يَبْنِيهِمْ بِالْقَطِيعَةِ.

وَالْمَتَاعُ لِلْخَيْرِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ كَانَ يَمْنَعُ أَهْلَ الْأَفَاقِ مَنْ كَانَ يَحْضُرُونَهُ مِنْ اتِّبَاعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَقُولُ: إِنَّهُ ضَالٌّ مُضِلٌّ، فَقِيلَ: «مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ» لِهَذَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ يَمْنَعُ وَلَدَهُ مِنَ الْإِحْتِلَافِ إِلَى مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ، هُوَ امْتِنَاعُهُ عَنْ آدَاءِ حَقْقِ اللَّهِ تَعَالَى الْوَاجِبِ فِي مَالِهِ.

وقوله تعالى: «مُعْتَدٍ» أَيُّ مُعْتَدٍ حُدُودَ اللَّهِ، أَوْ ظَالِمٍ لِنَفْسِهِ.

وقوله تعالى: «أَيْمٍ» الْأَيْمُ، هُوَ الْمُزْتَكِبُ لِمَا يَأْتِي بِهِ.

الآية ١٢ وقوله تعالى: «عُتْلٌ يَمْدُ ذَلِكَ زَنِيمٌ» الْعُتْلُ: الْقَطْعُ الْغَلِيظُ وَالشَّدِيدُ الظُّلُومُ، وَقِيلَ: هُوَ الْفَاحِشُ اللَّئِيمُ الضَّرِيءُ.

وقال مجاهد: الْعُتْلُ الشَّدِيدُ الْأَشِيرُ أَبِي الْخُلُقِ، قَدْ رُوِيَ فِي الْحَبَرِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ جَوَاطٌ وَلَا جَعْفَرِيٌّ وَلَا الْعُتْلُ الزَّنِيمُ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْجَوَاطُ وَالْجَعْفَرِيُّ وَالْعُتْلُ الزَّنِيمُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا الْجَوَاطُ فَالَّذِي جَمَعَ، وَمَنَعَ، تَذَعَّرَهُ «فَلَقْنِ» «نَزَاعَةُ لِلشَّوْءِ» [المعارج: ١٥ و ١٦] وَأَمَّا الْجَعْفَرِيُّ فَالْقَطْعُ الْغَلِيظُ، قَالَ تَعَالَى: «فِيمَا رَحِمُوا مِنْ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ ظَقًّا غَلِيظًا لَقَلْبًا لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» [آل عمران: ١٥٩] وَأَمَّا الْعُتْلُ الزَّنِيمُ فَهُوَ الشَّدِيدُ الْخُلُقِ الرَّحِيْبُ الْجَوْفُ الْمُصَفَّحُ الْأَكُولُ الشُّرُوبُ الْوَاجِدُ لِلطَّعَامِ وَالشَّرَابِ الظُّلُومُ لِلنَّاسِ. وَأَمَّا الزَّنِيمُ فَهُوَ الذَّهِيُّ الْمُتَصَيِّقُ بِالْقَوْمِ الْمُلْحَقُ فِي النَّسَبِ، [أبو داود: ٤٨٠١].

وَاسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: هَٰذَا هُنَا. (٣) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، ساقطة من الأصل وم.

زَنِيمٌ لَيْسَ يُغْفَرُ مَنْ أَبَوْهُ بِإِسْفِ الْأَمِّ ذُو حَسَبٍ لَنِيمٍ
ويقول آخر:

زَنِيمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَةً [كما زيداً^(١)] فِي حَرْضِ الْأَدِيمِ الْأَكَارُغِ

ومنه من قال: إنه كان به زَنَمَةٌ في أصله أَدْوِيه يُعَرَفُ بها. ومنهم من يقول: الزَنِيمُ، هو العَلَمُ في الشرِّ. ولقائل أن يقول: إذا كان تأويلُ العُتْلُ ما ذُكِرَ في الخبرِ، ومعنى الزَنِيمِ الدَّعِي، أو ما ذُكِرَ مِنَ العلامة، فكيف عُرِّ بهذه الأشياء، ولم يكن له في ذلك صُنْعٌ، والمرء إنما يُعَيَّرُ بِمَا لَهُ فيه صُنْعٌ لا بِمَا صُنِعَ لَهُ فيه؟ فيجَابُ عن هذا من وجهين: أحدهما: ما ذُكِرْنَا أَنَّ ذِكْرَهُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْعُيُوبِ، ليس لمكان المذكور نفسه، ولكن لِزَجْرِ النَّاسِ عَنْ اتِّبَاعِهِ، لأنَّ مَنْ اشْتَمَلَ عَلَى الْعُيُوبِ الَّتِي ذَكَرَهَا، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ عَتَلًا زَنِيمًا، فَانْفُسُ الْخَلْقِ تَأْبَى عَنْ اتِّبَاعِهِ فَفَائِدَةُ تَعْيِيرِهِ [بِمَا أَضْفَى عَلَيْهَا مَا ذُكِرْنَا مِنَ الْحِكْمَةِ لَا تَخْيِيرِهِ^(٢)].

والثاني: أَنَّ ذِكْرَ أَصْلِهِ كِنَايَةً عَنْ سُوءِ فِعْلِهِ لِيُعْلَمَ أَنَّ خُبْتَ الْأَصْلِ يَدْعُو الْإِنْسَانَ إِلَى تَعَاطِي الْأَفْعَالِ الذَّمِّمَةِ، وَصِحَّةِ الْأَصْلِ وَحَسَبِهِ وَنَقَاوَتِهِ تَدْعُو صَاحِبَهُ إِلَى مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ وَإِلَى الْأَفْعَالِ الْمَرْضِيَّةِ.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَبِينَ﴾ يُخْبِرُ أَنَّ مَنْ يَتَّبِعُهُ يَتَّبِعُهُ لِكثَرَةِ أَمْوَالِهِ وَبَنِيهِ، وَذَلِكَ أَنَّ كَثْرَةَ الْمَالِ لِلْإِنْسَانِ مِنْ أَحَدٍ مَا يَسْتَدْعِي قُلُوبَ الْخَلْقِ عَلَى تَعْظِيمِهِ، فَذَكَرَ مَا فِيهِ مِنَ الْعُيُوبِ وَالْمَسَاوِي لِئَلَّا يَسْتَوِيلَ قُلُوبَ الضَّعْفَةِ إِلَى نَفْسِهِ بِمَالِهِ، فيقول: كيف يتبعونه، وهو بهذا الوصف الذي وَصَفَهُ اللَّهُ تعالى.

الآية ١٥ ثم أَخْبَرَ عَنْ مُعَامَلَتِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بقوله: ﴿إِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِمَا إِتْنَا قَالَ أَسْطِغِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وَإِنْ كَانَ عَامًا بَظَاهِرِهِ، لَكِنْ لَمْ يُرَدْ بِهِ الْعُمُومُ لِأَنَّ قَوْلَهُ تعالى: ﴿أَسْطِغِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ليس في كل الآيات، وإنما هو في الآيات التي هي في حق الإخبار عن الأمم السالفة.

وأما إذا تُلِيَتْ عَلَيْهِ الآياتُ الَّتِي فِيهَا دَلَالَةٌ إِبْتِاطِ الرِّسَالَةِ وَدَلَالَةُ التَّوْحِيدِ وَدَلَالَةُ الْبَعْثِ، فَقَوْلُهُ فِيهَا مَا قَالَ فِي سُورَةِ الْمَدَنِيِّ: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا نَبْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ] [الآيتان: ٢٤ و ٢٥] وهذا دليل على أَلَّا يَجِبُ اعْتِقَادُ ظَاهِرِ الْعُمُومِ مَا لَمْ يُعْلَمَ بَيِّنٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٦ وقوله تعالى: ﴿سَتِيسُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ قيل: سيماء^(٣) لا تُفَارِقُهُ. فجائز أن يكون جعلَ هذا في الدنيا لكي يَعْلَمَهُ، وَيَذْكُرَهُ مَنْ رَأَاهُ، فَيَجْتَنِبَ ضَحْبَتَهُ، فهو سيماء^(٤) مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، فَيُخْرِجُ هَذَا مُخْرَجَ الْعُقُوبَةِ لِشِدَّةِ تَعْتِيهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَظِيمِ لَوَاهُ لَهُ.

وجائز أن يكونَ هذا في الآخِرَةِ، فَيَجْعَلَ اللَّهُ تعالى عَلَمًا فِي أَنْفِهِ عَلَمًا، يَبَيِّنُ بِهِ، وَيَمْتَنِزُ مِنْ غَيْرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ زِيَادَةً لَهُ فِي الْعُقُوبَةِ كَمَا جَعَلَ لِأَكْلِي ﴿الزُّبُرِ﴾ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وجائز أن يكونَ حُرْطُومُهُ خُصُومًا مِنْ بَيْنِ الْكُفَرَةِ، فَتُخَشَّرُهُ، وَلَا أَنْفَ لَهُ، لِأَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ سَائِرَ الْكُفَرَةِ يُخَشَّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِكَمٍّ وَعُمِيٍّ وَضَمٍّ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِي أَنْوْفِهِمْ شَيْئًا.

فجائز أن يكونَ يُخَشَّرُ، وَلَا أَنْفَ لَهُ^(٥) وذلك هو النِّهَايَةُ فِي الْفُجْحِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَهْبَابَ لَبَنَ﴾ فهو يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أن يكونَ أَهْلُ مَكَّةَ ابْتَلَوْا بِالْإِحْسَانِ إِلَى أَتْبَاعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا ابْتَلَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْمَسَاكِينِ، فَحَلَّ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ مَا ذَكَرَ لَامْتِنَاعِهِمْ عَنِ الْإِثْمَارِ؛ فَذَكَرَ أَهْلُ مَكَّةَ أَنَّهُمْ إِنْ امْتَنَعُوا عَنِ الْإِحْسَانِ إِلَى أَتْبَاعِ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: شيئا. (٤) في الأصل وم: شيئا. (٥) ساقطة من الأصل وم.

محمد ﷺ، حل بهم ما حل بأولئك، وقد وجد منهم الإمتناع، فابتلوا بسنين كسني يوسف حتى اضطروا إلى أكل الحنظل والأقدار. ثم إن أصحاب الجنة لما مسهم العذاب، وأيقنوا به أنابوا إلى الله، وأنقلعوا عن مساوئهم، فتاب الله عليهم، ورفق البلاء عنهم، وأهل مكة تعادوا في غيهم، ولم يتوبوا، فانتقم الله منهم بالقتل يوم يذري الدنيا، وسيوردهم^(١) إلى العذاب في الآخرة.

[والثاني]^(٢): جائز أن يكون الله تعالى لما أعزهم، وشرقهم، وصرف وجوه الخلق إليهم، امتحنهم بتبجيل رسول الله ﷺ وتعظيمه. فلما أسأوا صحتهم عاقبهم بما ذكرنا، ووسع على أصحاب الجنة، فامتنحهم بما وسع عليهم بأن يسعوا على غيرهم، فلما امتنعوا عن ذلك عوقبوا بزوال النعمة عنهم، وعوقب هؤلاء بزوال العز عنهم، وأذاقهم ﷻ لئاس الجوع والخوف [النحل: ١١٢] والله اعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَتَمُوا بِعِمَّتِنَا مُنِيرِينَ﴾ فقولهُ: ﴿مُنِيرِينَ﴾ أي لأي وقت ينسب إلى الصباح، وذلك يكون في آخر الليل كما يقال: مُنِيرِينَ لَأَوَّلِ وَقْتٍ يُنسب إلى المساء.

وإذا كان كذلك فلا نصراً يقع بالليل. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَن لَّا يَسْأَلَنَّ إِلَيمَ عَلَيْكَ يَسْكِينُ﴾؟ [الآية: ٢٤] وهم لا يملكون بعد مضي الليل منع المساكين من الدخول.

الآية ١٨ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَفْتُونَ﴾ قيل: أي لا يقولون: إن شاء الله، وقيل: لا يقولون: سبحانه الله.

فإن كان على هذا ففيه أن التسييح كان مستعملاً في موضع الاستثناء، وقد يجوز أن يؤدي معنى الاستثناء، لأن في تسييح^(٣) الرب تعالى وفي الاستثناء معنى التزيو، ولأن فيه إقراراً أن الله تعالى هو المعير للأشياء والمعدل لها.

ثم أصحاب الجنة بقسومهم قصدوا قسداً يلحقهم العصيان فيه، وكان عهدهم الذي عاهدوا عليه مغصية، وعوتبوا بتركهم الاستثناء.

ففيه دلالة أن الله تعالى يوصف بالمشيئة لفعل العاصي ممن يعلم أنه يختارها / ٥٨٨ - / لأنه لو لم يوصف به لم يكن لمعاتبته إياهم بتركهم الاستثناء معنى؛ إذ لا يجوز استعمال الاستثناء في ما لا يجوز أن يوصف به الرب ﷻ.

ألا ترى [أنه]^(٤) لا يستقيم أن يقال: إن شاء الله جاز، وإن لم يشأ لم يجز، وإن شاء ضل، وإن يشأ لم يضل، وإن شاء أكل، وإن شاء لم يأكل.

فلو لم يوصف أيضاً بإضلال من يعلم منه أنه يؤثر الضلال لم يجز أن يلاموا على ترك الاستثناء، ولا مذخل للاستثناء فيه.

والذي فيه يدل على صحة ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿مَنْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩] فتبين أنه يشاء إضلال من ذكرنا.

وفيه [دلالة]^(٥) أن خلق الشيء غير ذلك الشيء، لأنه يستقيم أن يوصف الله تعالى بالإضلال ولا يجوز أن يوصف بالضلال. وإن كان الإضلال خلقاً له، ويوصف أنه المحيي والمميت، فلا يستقيم أن يقال: إن شاء حيي، وإن شاء مات، وإن كان هو الذي خلقهما.

ثم ليس في قوله: ﴿إِذْ أَتَمُوا بِعِمَّتِنَا مُنِيرِينَ﴾ إبانة أن قسمهم كان بماذا.

فإذا كان يغير الله تعالى ففيه إبانة أن القسم قد يكون بغير الله تعالى، وإن كان قسمهم بالله تعالى ففيه حجة لأبي يوسف على أبي حنيفة، رجمهما الله تعالى، أن اليمين إذا كانت موقفة فإن هلاك الشيء المحلوف بها قبل مضي وقتها، لا

(١) في الأصل وك: وسيردهم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: تنزيه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

يُسْقِطُ اليمِين، بل تَبْقَى بِحَالِهَا، وتُلْزَمُ على صاحبها حُكْمُ الْجَنَّةِ إِذَا مَضَى وَقْتُهَا، لَأَنَّ الثَّمَرَ الَّذِي حَلَفُوا عَلَى صَرْوِهِ قَدْ هَلَكَ قَبْلَ الْوَقْتِ الَّذِي أُرِجِبَ فِيهِ الصَّرْمُ.

فَلَوْ كَانَتْ اليمِينُ تَسْقِطُ عَنْهُمْ بِهَلَاكِ الثَّمَرِ لَمْ يَكُونُوا يَخْتَاجُونَ إِلَى الْإِسْتِثْنَاءِ، لِأَنَّ الْحَاجَةَ لِإِسْقَاطِ الْمُؤَنَةِ الَّتِي تُلْزَمُهُمْ بِالْجَنَّةِ فِي الْيَمِينِ.

فَلَوْ كَانَ هَلَاكُ الثَّمَرِ مُسْقِطاً لِلْيَمِينِ وَمُؤَنَةُ الْجَنَّةِ لَا اسْتِثْنَاءَ.

فَلَمَّا لَحِقَتْهُمْ اللَّامَةُ بِتَرْكِهِمُ الْإِسْتِثْنَاءَ دَلَّ أَنَّ الْمُؤَنَةَ تَبْقَى عَلَيْهِمْ إِذَا عَرَبَتْ عَنِ الْإِسْتِثْنَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ مُؤَقَّتَةً.

وَلَكِنْ أَبُو حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، يُسْقِطُ عَنْهُ الْيَمِينُ بِهَلَاكِ الشَّيْءِ الْمَحْلُوفِ عَلَيْهِ، إِذَا كَانَتْ يَمِينُهُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يُسْقِطُهَا إِذَا كَانَتْ بِشَيْءٍ مِنَ الْقُرْبِ وَالطَّاعَاتِ، أَعْنِي التَّذَبُّبَ. وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ إِبَانَةٌ أَنَّ يَمِينَهُمْ كَانَتْ بِاللَّهِ تَعَالَى، فَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ يَمِينُهُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْقُرْبِ، فَبَيِّنَتْ عَلَيْهِمْ، وَلِأَنَّهُ عَاتَبَهُمْ عَلَى تَرْكِ الْإِسْتِثْنَاءِ لِعَزِيمِهِمْ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَالْإِسْتِثْنَاءُ يُسْقِطُ الْعَزِيمَةَ، لِأَنَّ مَنْ عَزَمَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَقَالَ فِيهِ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَمْ يَعْصِرْ أَيْمَاناً بِمَقَالَتِهِ، وَلَا صَارَ عَازِماً عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَأَبُو حَنِيفَةَ لَيْسَ يُخْرِجُهُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ فِي الْيَمِينِ الْمُؤَقَّتَةِ إِذَا عَقِدَتْ عَلَى أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الْمَعْصِيَةِ.

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِتَابَ فِي تَرْكِ الْإِسْتِثْنَاءِ لِلْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا أَنَّهُ لَمْ يُذَكَّرْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَخْبَارِ، وَلَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ أَمَرَ بِالتَّكْفِيرِ.

وَلَوْ كَانَ الْجَنَّةُ لَازِماً لَكَانُوا يُلَامُونَ عَلَى تَرْكِ التَّكْفِيرِ أَيْضاً كَمَا لَحِقَتْهُمْ اللَّامَةُ بِتَرْكِ الْإِسْتِثْنَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٩ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَلَكَ حَتِّيًا مَّا تُكَلِّمُ﴾ وَفِي تَلَاوُفٍ: ﴿مَّا تَكَلَّمَ بَيْنَ يَدَيْكَ﴾ قِيلَ: عَذَابٌ مِنْ رَبِّكَ، وَسُمِّيَ طَائِفاً لِأَنَّهُ أَتَاهُمْ بِاللَّيْلِ، وَكُلُّ آتٍ بِاللَّيْلِ فَهُوَ طَائِفٌ.

الآية ٢٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَانَتْ بَعَثَ كَافِرِينَ﴾ قِيلَ: أَيِ الْجَنَّةِ كَانَهَا صَرِمَتْ، وَهُمْ أَصْبَحُوا لِيَصْرِمُوهَا.

الآيات ٢١-٢٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَادَا مُصْرَبِينَ﴾ ﴿أَنْ أَقْدُوا عَلَى حَرْوٍ لَكُمْ سَكِينٌ﴾ ^(١) ﴿فَاسْأَلُوا وَهُمْ يَنْخَفِتُونَ﴾ قِيلَ: يَتَسَارَوْنَ فِي مَا بَيْنَهُمْ. فَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُسَارَتُهُمْ كَانَتْ فِي الْأَمْرِ بِالإِسْرَاعِ فِي الْمَشْيِ، لَثَلَا يَشْعُرُ بِهِمُ الْمَسَاكِينُ، أَوْ [أَنْ] يَتَعَجَّلُوا فِي الْخُرُوجِ وَالْمَشْيِ قَبْلَ الْوَقْتِ الَّذِي يُضْبَحُ فِيهِ الْمَسَاكِينُ.

الآيات ٢٥-٢٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ لَا يَسْأَلُوا الْيَمَّ عَلَيْهِمْ وَتَكِينٌ﴾ ^(٢) ﴿وَقَدْ عَلِمَ حَرْوٌ قَدِيرٌ﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّ اسْمَ جَنَّتِهِمْ كَانَ حَرْداً، وَقِيلَ: عَدُوا عَلَى أَمْرٍ قَدْ اسْتَنْتَوْهُ فِي مَا بَيْنَهُمْ.

وَقَالَ الرَّجَاجُ: الْحَرْدُ لَهُ أَوْجَةٌ ثَلَاثَةٌ:

أَحَدُهَا: الْقَضْدُ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَجَاءَ سَبِيلٌ كَانَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ يَخْرُدُ حَرْدُ [الْجَنَّةِ الْمُنْبِلَةِ] ^(٣)

أَيِ يَقْصِدُ قَضْدَهَا.

وَالثَّانِي: هُوَ الْمَنْعُ، يُقَالُ: حَارَدَتِ السَّنَةُ أَيِ قَحَطَتْ، وَذَهَبَتْ بَرَكَتُهَا.

وَالثَّلَاثُ: الْقَضْبُ: ﴿وَقَدْ عَلِمَ حَرْوٌ قَدِيرٌ﴾ أَيِ عَضَبٍ عَلَى الْفَقَرِ. وَقَوْلُهُ ﴿قَدِيرٌ﴾ عَلَيْهَا فِي أَنْفُسِهِمْ.

وَلِقَائِلِي أَنْ يَقُولَ: إِنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالََةً تَقْدِيمِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْفِعْلِ لِأَنَّهُ أَثْبَتَ لَهُمُ الْقُدْرَةَ قَبْلَ الْفِعْلِ. وَلَكِنْ هَذِهِ الْقُدْرَةُ لَيْسَتْ فِي قُدْرَةِ الْأَفْعَالِ، وَإِنَّمَا هِيَ قُدْرَةُ الْأَسْبَابِ وَالْأَحْوَالِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الحجة المعتلة. انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ج ٢٠٧/٥ لم انظر للسان.

الآية ٢٦ وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٢٦] فَمَا أَقْبَلُوا بِإِلَاسِيكَانَةِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَتَابَ عَلَيْهِمْ. وَلِلَّهِ الَّذِي قَالَ [إِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى] (٣): ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ، فَتَدَّرُّوا، فَرَفَعَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ، وَلَمْ يَتَذَكَّرْ أَهْلُ مَكَّةَ، فَحَلَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ يَوْمَ بَذَرٍ، كَمَا قَالَ: ﴿فَلَمَّا اسْتَكَاثُوا إِلَيْهِمْ وَبَايَعُوا لَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

الآية ٢٧ وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرْسَلْتُكُمْ أَنِي أَغْدِلُكُمْ﴾ أي أَغْدِلُهُمْ ﴿أَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ آيَةً﴾.

جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: لَوْلَا تُصَلُّونَ الْفَجَرَ، ثُمَّ تُخْرَجُونَ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ (٤) لَوْلَا تَسْتَنْتُونَ، وَقَدْ ذَكَّرْنَا أَنْ فِي الْإِسْتِثْنَاءِ مَعْنَى التَّسْيِيحِ لِأَنَّهُ فِيهِ إِقْرَارٌ أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا تَنْفَعُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ هُوَ الْمُغَيِّرُ وَالْمُبَدِّلُ دُونَ أَحَدٍ سِوَاهُ.

الآية ٢٨ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فهذا منهم توحيد وتبوية.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعْتِرَافٌ بِمَا ارْتَكَبُوا مِنَ الذُّنُوبِ وَإِنَابَةٌ إِلَى اللَّهِ.

الآية ٢٩ وتَمَامُ التَّوْبَةِ مِنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتْلُونَ﴾ ﴿قَالُوا يٰرَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

وَذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتْلُونَ﴾ أي أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ بِاللُّومِ؛ يَقُولُ: أَنْتَ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضَرَّهَا لِيلاً، وَقَالَ هَذَا لِهَذَا: بَلْ هُوَ عَمَلُكَ أَنْتَ.

وهذا لا مَعْنَى لَهُ لِأَنَّ هَذَا يُوجِبُ تَبَرُّقَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ ارْتِكَابِ الذُّنُوبِ، وَقَدْ سَبَقَ مِنْهُمْ الْإِقْرَارُ بِالذَّنْبِ بِقَوْلِهِمْ (٥): ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ وَبِقَوْلِهِمْ: ﴿قَالُوا يٰرَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ كَيْفَ يُبَرِّتُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ، وَقَدْ اعْتَرَفُوا، فَهَذَا تَأْوِيلٌ لَا مَعْنَى لَهُ.

بَلْ مَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتْلُونَ﴾ عَلَى إِدْخَالِ كُلِّ مِنْهُمْ نَفْسُهُ فِي ذَلِكَ اللَّوَمِ، أَوْ أَقْبَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِاللَّامَةِ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ هَذَا مُوَافِقاً لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فِي هَذَا تَمَامُ التَّوْبَةِ؛ فَفِيهِ أَنْهُمْ أَظْهَرُوا النَّدَامَةَ عَلَى نَسَقِي مِنْهُمْ مِنْ أَوْجِهِ ثَلَاثَةٍ: مَرَّةً بِمَا وَصَفُوا أَنْفُسَهُمْ بِالظُّلْمِ، وَمَرَّةً بِمَا لَامُوا أَنْفُسَهُمْ، وَمَرَّةً بِمَا وَصَفُوا [أَنْفُسَهُمْ] (٦) بِالطُّغْيَانِ.

الآية ٣٠ وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبَّنَا أَن يُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا بُدِّلْنَا بِهَا خَيْرًا مِنْهَا﴾ وَأَنْبَأَنَا إِلَى رَبِّنَا، لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَقُولُوا خَيْرًا مِنْهَا، وَهُمْ مُصِرُّونَ عَلَى ذُنُوبِهِمْ؛ إِذْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا حُرِّمُوا بِرَكَّةِ الشَّامِ بِمَا ارْتَكَبُوا مِنَ الذُّنُوبِ، فَكُنْتُ أَنْ مَعْنَاهُ مَا ذَكَّرْنَا.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي الْآخِرَةِ؛ يَقُولُونَ: ﴿عَسَىٰ رَبَّنَا أَن يُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهَا﴾ فِي الْآخِرَةِ إِذَا تُبْنَا، وَأَنْبَأَنَا إِلَى رَبِّنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ إِلَى مَا عِنْدَ رَبِّنَا مِنَ الْعَطَايَا وَالْمَنَنِ لِرَاغِبِينَ، أَوْ إِلَى مَا وَعَدَ رَبَّنَا لِلتَّائِبِينَ مِنَ الذُّنُوبِ لِرَاغِبِينَ / ٥٨٨ - ب.

الآية ٣١ وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَلْقَيْنَا﴾ كَأَنَّهُ يُخَاطَبُ أَهْلَ مَكَّةَ أَنَّ كَذَلِكَ الْعَذَابُ فِي الدُّنْيَا فِي أَنْ يَأْخُذَ أَهْلَهُ مَنْ كَانُوا أَوْ كَمَا أَخَذَ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ عِنْدَ الْأَمْنِ إِذْ كَانَ عَنْدهُمْ أَنَّهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى صَرْمِ تِلْكَ الشَّامِ، وَلَا يَقْوَاهُمْ.

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: بمعناه. (٤) في الأصل وم: بقوله. (٥) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ففي هذا إيجابُ العذابِ على مَنْ^(١) لم يَعْلَمْ بالعذابِ، ولم يُؤْمِنْ به، لأنهم لم يُؤْمِنُوا بعذابِ الآخرة، ولا عَلِمُوا به.

ثم أوجِبَ لَهُمُ العذابَ، وإنْ لم يَعْلَمُوا، ولم يُعَذِّبُوا بالجهلِ لأنهم قد وَقَفُوا على السببِ الذي لو تَفَكَّرُوا لَعَلِمُوا بالعذابِ ولَا يَقْنُوا به.

وفي هذا حُجَّةٌ أَنْ لَا عُدْرَ لِمَنْ تَخَلَّفَ عَنِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ جَهِلَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ جَهِلُهُ جَهِلَ خَلْقِهِ لِأَنَّ الذي [أَفْضَى]^(٢) بِهِ إِلَى الْجَهْلِ هُوَ التَّقْصِيرُ فِي الطَّلَبِ، وَإِلَّا لَوْ لَمْ يُقْصَرْ فِي الطَّلَبِ لَوَجَدَ مَنْ يَدُلُّهُ عَلَى مَعْرِفَةِ الصَّانِعِ وَوَحْدَانِيَةِ الرَّبِّ تَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ وفيه تَرْغِيبٌ لِمَنْ لَزِمَ التَّقْوَى، وهو الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ السَّالِفِينَ كَالْآخِرِينَ﴾ أَتَجْعَلُ مَنْ جَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى لِلَّهِ سَالِمًا، لَا يُشْرِكُ فِيهِ أَحَدًا كَالَّذِي أَجْرَمَ، فَجَعَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ سَالِمٍ لَهُ شِرْكَاءَ فِي الْعِبَادَةِ وَالتَّسْمِيَةِ، وَيَبِينُ^(٣) اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَعَدُوُّ الْمُجْرِمِينَ؟

نفقُولُ: أَفَيَنْ زَعَمَ أَعْدَائِي أَنْ أَسْوَِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَحْبَاءِ وَالْجَمْعِ بَيْنَهُمْ فَلَا^(٤) نَفْعُ ذَلِكَ لِأَنَّ [فِيهِ]^(٥) تَضْيِيعَ الْحِكْمَةِ، لِأَنَّ الْحِكْمَةَ تَوْجِبُ التَّفَرُّقَ بَيْنَ الْعَدُوِّ وَالْوَلِيِّ، وَفِي الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا تَضْيِيعُهَا.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ فِي أَنْ أَجْعَلَ عَدُوِّي بِمَنْزِلَةِ وَلِيِّي وَوَلِيِّي بِمَنْزِلَةِ عَدُوِّي؟

أَوْ أَيْ شَيْءٍ حَمَلَكُمُ عَلَى حُكْمِكُمْ [هَذَا، وَلَمْ يَأْتِكُمْ]^(٦) بِهَذَا الْحُكْمِ كِتَابًا، وَلَا مَقْعُولٌ يُوجِبُ ذَلِكَ؟ فَكَيْفَ تَقْلَمُونَ ذَلِكَ؟ أَوْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ بِالْجَوْرِ عَلَى رَبِّكُمْ؟ لِأَنَّ مِنَ الْجَوْرِ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ الْوَلِيِّ وَالْعَدُوِّ فِي دَارِ الْكِرَامَةِ.

ثم قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ السَّالِفِينَ كَالْآخِرِينَ﴾ يَسْتَقِيمُ إِنْ يَجْعَلَ هَذَا جَوَابًا لِلْفَرِيقَيْنِ: لِمَنْ^(٧) يَنْكَرُ الْبَعْثَ وَلِمَنْ^(٨) يَزْعُمُ أَنَّهُ شَرِيكُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي الْآخِرَةِ فِي مَا يُكْرَمُونَ مِنَ النَّعِيمِ.

فَمَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ فَلَا خِتَاجَ عَلَيْهِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَهُوَ^(٩) أَنْ [فَعَلَ التَّسْوِيَةَ]^(١٠) يُوجِبُ التَّفَرُّقَ بَيْنَ الْوَلِيِّ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ [وَبَيْنَ الشُّكُورِ وَبَيْنَ الْكُفُورِ]^(١١) فَانْتَمَ إِذَا أَنْكَرْتُمُ الْبَعْثَ فَقَدْ زَعَمْتُمْ عَلَى اللَّهِ أَنَّهُ يَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ وَالْكَافِرِينَ كَالشُّكُورِ وَالْعَدُوِّ كَالْوَلِيِّ. وَمَنْ قَلَّ هَذَا فَهُوَ سَفِيهٌ، لَا يَضْلُحُ أَنْ يَكُونَ حَكِيمًا.

فَفِي انْتِكَارِ الْبَعْثِ تَحْقِيقُ السَّفَهِ وَإِثْبَاتُ الْجَوْرِ، وَمِنْ^(١٢) الْجَوْرِ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ الْوَلِيِّ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ فِي الْجَزَاءِ، وَمِنْ ادَّعَى الْوَجْهَ الْآخَرَ، وَهُوَ التَّسْوِيَةُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ لِمَا تَسَاوَا فِي مَنَافِعِ الدُّنْيَا وَمَضَارِّهَا وَفِي لَذَائِهَا وَشَدَائِدِهَا وَبَلِيَّاتِهَا [فَهُوَ سَفِيهٌ فَجَائِزٌ]^(١٣) فَعَلَى ذَلِكَ يَكُونُ أَمْرُهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

فَجَوَائِزُهُمْ فِي ذَلِكَ أَنَّ الدُّنْيَا، هِيَ دَارٌ يَظْهَرُ فِيهَا الْعَدُوُّ مِنَ الْوَلِيِّ وَالشُّكُورُ مِنَ الْكُفُورِ، وَالْآخِرَةُ دَارُ جَزَاءِ الْعَدَاوَةِ وَالْوِلَايَةِ.

فَجَائِزٌ أَنْ يَقَعَ فِي مَا فِيهِ ظُهُورُ الْوِلَايَةِ وَالْعَدَاوَةِ اتِّفَاقٌ، وَلَا يَجُوزُ وَقُوعُ الْإِتِّفَاقِ فِي مَا فِيهِ الْجَزَاءُ لِعَدَاوَةِ سَبَقَتْ وَلِوِلَايَةِ سَبَقَتْ، وَالْحِكْمَةُ تَوْجِبُ التَّفَرُّقَ بَيْنَ الْجَزَائِينَ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُجْعَلَ الْمُسْلِمُ فِيهِ كَالْمُجْرِمِ لِمَا فِيهِ مِنْ تَضْيِيعِ الْحِكْمَةِ، وَلَيْسَ قِبَلَ الْمِخْنَةِ مَعْنَى يُوجِبُ التَّفَرُّقَ بَيْنَهُمَا [فِي دَارِ الْمِخْنَةِ، فَجَائِزٌ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهُمَا]^(١٤) الْإِتِّفَاقُ فِي ذَلِكَ.

(١) مَنْ م، فِي الْأَصْلِ: مَا. (٢) مَنْ نَسَخَةُ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ بَيْن. (٤) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) مَنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَمْ. (٩) الْوَارِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: الْفَعْلُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالشُّكُورُ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لِأَنَّ مَنْ. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٤) فِي م: فِي الْمِخْنَةِ.

فَجَائِزٌ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهُمَا، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

ولأنه لو كان تُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا فِي الدُّنْيَا لَكَانَتِ الْمِخْنَةُ تَخْرُجُ عَنْ حَدِّهَا، والدُّنْيَا هِيَ دَارُ الْمِخْنَةِ، وَإِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّ فِيهِ إِخْرَاجَ الْمِخْنَةِ عَنْ حَدِّهَا لِأَنَّ الْمِخْنَةَ تَكُونُ عَلَى الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ.

فَلَوْ فُرِّقَ بَيْنَ الْعَدُوِّ وَالْوَلِيِّ فِي الدُّنْيَا، فَوُسِّعَ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ، وَضِيقَ عَلَى الْأَعْدَاءِ، لَوَقَّعَ اخْتِيَارُ وَجْهِ الْوَلَايَةِ عَلَى الْضَّرُورَةِ، لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يُضَيَّقُ عَلَيْهِ إِذَا اخْتَارَ وَجْهَ الْعَدَاوَةِ، وَتَعَجَّلَ عَلَيْهِ الْعَذَابُ، تَرَكَ ذَلِكَ الْوَجْهَ، وَمَالَ إِلَى الْوَلَايَةِ، فَبَرَزَتْ وَجْهَ الْمِخْنَةِ.

فَلِذَلِكَ جَازَ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ الْوَلِيِّ وَالْعَدُوِّ فِي دَارِ الْمِخْنَةِ لِيُنْقَى وَجْهُ الْحِكْمَةِ، بِحَالِهِ، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَهُمَا فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّهَا دَارُ جَزَاءٍ. وَالْعَقْلُ يُوْجِبُ تَفْرِقَةَ جَزَائِهِمَا، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّ.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ فِي أَحْكَمِ الْحُكَمَاءِ بِالسَّفَوِّ حِينَ ^(١) تَزْعُمُونَ، أَنَّهُ يُجْمَعُ بَيْنَ الْوَلِيِّ وَالْعَدُوِّ فِي الْجَزَاءِ، وَذَلِكَ مِنْ أَعْلَامِ السَّفَوِّ؟ أَوْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ فِي أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ وَأَعْدِلِ الْعَادِلِينَ بِالْجَوْرِ، إِذْ تَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُجْمَعُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي دَارِ الْكِرَامَةِ، وَمِنْ الْجَوْرِ أَنْ يُجْمَعَ ^(٢) بَيْنَهُمَا؟ وَهُمْ كَانُوا يَقْرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ.

الآية ٣٧ وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ فَحَاجَّتُهُمْ أَوَّلًا بِمَا تُوجِبُهُ الْحِكْمَةُ، وَهِيَ أَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْحِكْمَةَ تُوجِبُ التَّفْرِقَةَ بَيْنَهُمَا، فَإِنْ كُنْتُمْ تَدْعُونَ الْجَمْعَ فِي مَا بَيْنَهُمَا بِالْحِكْمَةِ، فَانْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْحِكْمَةَ تُوجِبُ التَّفْرِقَةَ بَيْنَهُمَا، وَإِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ^(٣) ذَلِكَ مِنْ كِتَابٍ، فَأَيُّ كِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ جَاءَكُمْ، يُوجِبُ التَّسْوِيَةَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْأَوْلِيَاءِ؟ وَأَيُّ رَسُولٍ أَخْبَرَكُمْ أَنْكُمْ تُسَاوُونَ الْأَوْلِيَاءَ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ؟

ثُمَّ وَجْهَ الْمُحَاجَّةِ بِالْكِتَابِ، هُوَ أَنَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ لَمْ يَكُونُوا يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَلَا بِالرُّسُلِ، وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِهِمَا لَكَانُوا يَقْدِرُونَ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّ لَنَا كِتَابًا دَرَسْنَاهُ، فَوَجَدْنَا فِيهِ مَا نَذْكُرُ، وَنَدْعِي، وَرَسُولُنَا ^(٤) قَدْ أَخْبَرَنَا بِذَلِكَ. وَلَكِنَّهُمْ إِذَا كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِهِمَا صَارَ هَذَا الْوَجْهَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى حُجَّةً لَازِمَةً عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٨ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَا تَحْزَنُونَ﴾ أَيُّ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ تَجِدُونَ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ مَا ^(٥) تَحْزِرُونَ.

الآية ٣٩ وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا بِمَا نَكْفُرُ لَكُمْ لَمَّْا تَكْفُرُونَ﴾ وَهَذَا أَيْضًا صَلَوةُ الْأَوَّلِ أَيُّ هَلْ شَهِدْتُمْ اللَّهَ تَعَالَى أَقْسَمَ لَكُمْ أَنَّهُ هَكَذَا كَمَا تَحْكُمُونَ. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْنَاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾ [الأنعام: ١٤٤] فَأَخَذَهُمْ بِالْمُقَاسَةِ أَوَّلًا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّهِ كُفْرُكُمْ أَوْ لَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٣] فَلَمَّا لَمْ يَنْهَيْتُمْ لَهُمْ تَثْبِيثَ ذَلِكَ بِالْقِيَاسِ وَالْمَعْقُولِ اخْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْنَاكُمْ اللَّهُ﴾ وَقَدْ عَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَشْهَدُوا، وَمَا ادَّعَوْهُ ^(٦)، لِأَيَّاتٍ لَهُ إِلَّا مِنْ الْوَجْهِ الَّتِي ذَكَرَهَا.

وَإِذَا لَمْ يَثْبِتُوا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ تَبَيَّنَ عِنْدَهُمْ فَسَادُ دَعْوَاهُمْ.

فَهَذَا أَيْضًا مِثْلُهُ، وَهُوَ أَنَّهُ سَأَلَهُمْ عَنْ إِيْرَادِ الْحُجَّةِ إِمَّا مِنْ جِهَةِ الْحِكْمَةِ [وَأَمَّا مِنْ] ^(٧) جِهَةِ الْكِتَابِ [وَأَمَّا] ^(٨) مِنْ جِهَةِ الشَّهَادَةِ. فَإِذَا لَمْ يَثْبِتْ لَهُمْ وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ الْأَوْجُوهِ قَبَائِي وَجْهٌ يَشْهَدُونَ عَلَى اللَّهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ؟

وقوله تعالى: ﴿بَلِغْنَهُ﴾ أَيُّ وَكِيدَةً، أَوْ بَلَّغْتَ إِلَيْكُمْ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى؟

الآية ٤٠ وقوله تعالى: ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِإِلَهِكُمْ﴾ يَقُولُ: إِنَّهُمْ تَعَتَّوْا مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ يُدَاوِمُوا عَلَى دَعْوَاهُمْ مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ، تَشْهَدُ لَهُمْ، فَسَلِّمُوا، أَيُّ طَالِبِيهِمْ ^(٩) بِالرَّعِيمِ، أَيُّ مَنْ يَكْفُلُ لَهُمْ أَنَّ الْأَمْرَ كَمَا يَزْعُمُونَ؟

الآية ٤١ وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ تُنْزِلْهُمُ الْبُيُوتَ بَيْنَهُمْ لِيَذُكِّرُوا﴾ أَيُّ شُرَكَاءَ يَشْفَعُونَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمْ لَهُمْ شُهَدَاءُ وَمَنْ عِنْدَهُمْ كِتَابٌ، يَشْهَدُونَ لَهُمْ بِمَا يَذْكُرُونَ؟

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقَعُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: تَدْعُونَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَرَسُولُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمَّا. (٦) م، فِي الْأَصْلِ: ادَّعَوْهُمْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَطْلَبَهُمْ.

الآية ٤٢: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ أَي يُكْشَفُ عَنْ مَوْضِعِ الرَّعِيدِ بِالشَّدَائِدِ وَالْأَهْوَالِ. وَالسَّاقُ الشَّدَّةُ، وَسُمِّيَتْ السَّاقُ سَاقًا لِأَنَّ النَّاسَ شَبَّهَتْهُمْ فِي سَوْفِهِمْ؛ إِذْ بِهَا يَخْمَلُونَ الْأَحْمَالَ، فَكُنِيَ بِالسَّاقِ عَنِ الشَّدَّةِ.

وقيل أيضاً: إنهم كانوا إذا ابتُلُوا / ٥٨٩ - أ / بِشِدَّةٍ وَبِلَاءٍ كَشَفُوا عَنْ سَوْفِهِمْ، فَكُنِيَ بِذِكْرِ عَنِ الشَّدَّةِ، لَا أَنْ يُرَادَ بِذِكْرِ السَّاقِ تَحْقِيقُ السَّاقِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَّوْنُ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا عَلَى دُعَاءِ الْحَالِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى دُعَاءِ الْأَمْرِ. فَأَمَّا دُعَاءُ الْحَالِ فَهُوَ أَنَّ [مِنْ] ^(١) عَادَاتِ الْخَلْقِ أَنَّهُ إِذَا اشْتَدَّ بِهِمُ الْأَمْرُ، وَضَاقَ، قَرَعُوا إِلَى السُّجُودِ.

فجائز أن يكون ما حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْأَهْوَالِ وَالشَّدَائِدِ يَذْعُرُهُمْ إِلَى السُّجُودِ، فَيُهَيِّمُونَ بِذَلِكَ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَيَذَّوْنُ إِلَى الشُّجُورِ﴾ [أَي يَذْعُرُهُمُ الْحَالُ إِلَى السُّجُودِ] ^(٢) فَبِهذا دُعَاءُ الْحَالِ.

وجائز أن يُؤْمَرُوا ^(٣) بِالسُّجُودِ، وَيُنتَحَنُوا بِهِ.

ثم أن كان التَّأْوِيلُ عَلَى الْأَمْرِ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَجائز أن يكون ^(٤) وَقْتُ الْمَوْتِ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دُعَاءِ الْحَالِ فَلِذَلِكَ يَكُونُ عِنْدَ الْمَوْتِ.

ثم الأمر بالسُّجُودِ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنْ يَكُونَ عَلَى حَقِيقَةِ الْفِعْلِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْإِسْتِسْلَامِ وَالْخُضُوعِ؛ إِذِ السُّجُودُ فِي الْحَقِيقَةِ، هُوَ الْخُضُوعُ وَالْإِسْتِسْلَامُ، وَكُلُّ سُجُودٍ ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ، وَأَرِيدَ بِهِ عَيْنُ السُّجُودِ، فَلَيْسَ يَجِبُ بِتِلَاوَتِهِ السُّجُودُ. وَكُلُّ مَا أَرِيدَ بِهِ الْإِسْتِسْلَامُ وَالْخُضُوعُ فَهُوَ الَّذِي يَجِبُ بِتِلَاوَتِهِ السُّجُودُ.

ثم إن ذُكِرَ فِي أَهْلِ الْكُفْرِ فَإِنَّمَا يُرَادُ مِنْهُمْ الْإِسْتِسْلَامُ بِالْإِغْتِقَادِ لَيْسَ بِعَيْنِ الْفِعْلِ.

وأهل الإسلام قد وَجَدَ مِنْهُمْ الْإِسْتِسْلَامُ بِالْإِغْتِقَادِ، فَيَلْزَمُهُمْ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا مِنْ جِهَةِ الْفِعْلِ.

فجائز أن يكون هذا لَمَّا عَايَنَ الشَّدَائِدَ وَالْأَفْزَاعَ، اسْتَسْلَمَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَخَضَعَ لَهُ، فَلَمْ يَقْبَلْ ذَلِكَ مِنْهُ، لِأَنَّ تِلْكَ الدَّارَ دَارُ جَزَاءٍ وَلَيْسَتْ بِدَارٍ مَغْنَى.

والثاني: أَنَّ السُّجُودَ، هُوَ بَذْلُ النَّفْسِ لِمَا طَلِبَ مِنْهُ طَائِعاً. وَإِذَا أَشْرَفَ الْمَرْءُ عَلَى الْمَوْتِ طَلِبَ مِنْهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بَذْلُ رُوحِهِ لِمَا يُغْلَمُ أَنْ مَصِيرَهُ إِذَا قُبِضَ إِلَى الْعَذَابِ كَمَا قَالَ ﷺ: «مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ» [البخاري: ٦٥٠٧ و٦٥٠٨].

فَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: ذَلِكَ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَهُوَ لِمَا يَرَى مِنَ الْمَكْرُوهِ [الذي] ^(٥) يَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ يَكْرَهُ قَبْضَ رُوحِهِ.

فيكون قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَذَّوْنُ إِلَى الشُّجُورِ﴾ عِنْدَ الْمَوْتِ عَلَى ذَلِكَ.

وَالْمُؤْمِنُ إِذَا رَأَى مَا أَهْدَى لَهُ مِنَ الْكَرَامَاتِ وَدَّ لَوْ تَقَبَّضَ رُوحُهُ سَرِيعاً لِيَصِلَ إِلَى الْكَرَامَاتِ.

وإن كان هذا بَعْدَ الْبَعْثِ، وَأَرِيدَ مِنَ السُّجُودِ تَحْقِيقُهُ، فَفِيهِ تَذَكِيرٌ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُنْتَحَنُونَ فِي الدُّنْيَا بِالسُّجُودِ لِمَنْفَعَةٍ، تَصِلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ لِحَاجَةٍ لَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَإِنَّمَا امْتَحَنُوا بِالسُّجُودِ لِمَكَانِهِمْ أَنْفُسِهِمْ؛ إِذْ لَوْ كَانَ الْإِمْتِحَانُ لِمَنْفَعَةٍ، يَنَالُهَا ^(٦) اللَّهُ تَعَالَى لَمَا كَانُوا يُنْتَحَنُونَ عَنْهُ فِي الْقِيَامَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، في الأصل: يؤمر. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ينال.

وقال كثير من أهل الكلام: لا يجوز أن يمتحنهم الله تعالى بعد البعث بالسجود؛ إذ تلك الدار ليست بدار محنة، وإنما الأمر بالسجود يخرج مخرج التوبيخ.

وكذلك زعم جعفر بن حرب أن هذا على التوبيخ، يقال للرجل إذا كان مكثراً، فذهب ماله، ولم يؤد الزكاة، ولم يحج في حال يسر^(١) حُج [وايئذٍ الآن. وذلك]^(٢) الآن، ليس يُراد به أن أوجد الفعل، ولكن يُراد به تذكيره وتوبيخه. فهذا الذي قالوه مُحتمَل.

ويُحتمَل أن يُمتحنوا بالسجود للوجوه التي ذكرنا، وهو أن يظهر عند المُمتَحَنين أن منافع سُجودهم راجعة إليهم لا إلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَلِيمُونَ﴾ للأشغال التي حلت بهم والأفراح التي ابتلوا^(٣) بها.

وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ أَعْيُنُهُمْ تَوَفَّيْتُمْ وَلَهُ وَدَّ كَانُوا يَتَعَرَّوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَمَا سَلَاحُكُمْ﴾ ففيه أن الفرائض إنما تجب عند سلامة الأسباب، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَذَلِكُمْ وَمَنْ يَكْذِبْ يَدْعُ الْمَلِئِكَةَ﴾ فجاء أن يكون الحديث، هو القرآن، وجاء أن يكون أريد به البعث، وهو الغالب أن يكون، هو المراد.

وقوله تعالى: ﴿سَتَسْتَبِهُهُمْ مِنْ حَتَّى لَا يَتْلُوهُمْ﴾ قال القتيبي: الاستدراج، هو الأدنى من المهلكة درجة قدرجة حتى يهلك. وقيل: ﴿سَتَسْتَبِهُهُمْ﴾ أي تنويع عليهم، ونسيهم شكرها بالإملاء، ونزل بهم العذاب والهلاك أمر ما كان^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَمْ إِذْ كُيُودِي مَتِينٌ﴾ والأصل أن الكيد والمكر والاستدراج، يقتضي معنى واحداً، وهو أن يأخذ من وجوه أموه، ويراقب وجوه هلاكه، وهو يستعمل في الخلق على وجوه يذم أهله.

فهو يضاف إلى الله تعالى، ليس على جعل ذلك اسماً له، إذ لا يجوز له أن يسمى ما كراً كأيدي مستندرجاً، وإنما يضاف إليه في حق الجزاء باسم ماله الجزاء كما يسمى جزاء السيئة سيئة، وإن لم يكن الجزاء سيئة وكما سمي جزاء الإعتداء اغتداء، فكذلك سمي جزاء الكيد كيداً على هذا المعنى، لا أن يكون ذلك منه كيداً في الحقيقة.

أو يقول: إن اللزم إنما يلحق الماكر والكاذب إذا استعمله في وليه وصفيه. فاما إذا مكر بعدوه، وكاذبه، فذلك مما لا بأس به، ولا يذم عليه فاعله.

وما أضيف من الكيد إلى الله تعالى فذلك حالاً بأعدائه ليس بأوليائه، فلم يكن فيه إلحاق معنى مكروهم بالله تعالى.

ثم الأصل أن يُنظر في الفعل لماذا؟ أضيف إلى الله تعالى بحقيقة أم بمجاز؟

فإن كانت الإضافة بحق المجاز فلا يُجعل ذلك اسماً له، لأنه لا يجوز أن يقال: هو كاتب نافخ روح، ولا كاذب، ولا ماكر، إذ لا يتحقق ذلك منه.

وما كانت إضافته لأجل التحقيق فإنه يستقيم أن يسمى به، لأنه يستقيم أن نسميه مُنعماً مفضلاً خالقاً رحماً، إذ الإنعام والإفضال في الخلق موجود منه.

وقوله تعالى: ﴿مَتِينٌ﴾ أي قوي ثابت. فقوله تعالى: ﴿إِنْ كُيُودِي مَتِينٌ﴾ أي كيدي لأوليائي على أعدائي ثابت، ليس ككيد الأعداء، لأن كيد الأعداء يكيد الشيطان، وكيد ﴿الَّذِينَ كَانُوا ضَالِّينَ﴾ [النساء: ٧٦].

والأصل أن الكيد الذي أضيف إلى الله تعالى حق، والحق قوي ثابت، لا مدفع له، وكيد الشيطان باطل، وليس للباطل قرار، بل هو كما قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَيْفِ خَيْبَتِهِ كَتَبَتْهُ مِنْ قَبْلُ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

(١) في م: يجمع في حال يسر، ساقطة من الأصل. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل زل.، في م وزل. (٣) في الأصل وم: ابتلى. (٤) في الأصل وم: كانوا.

الآية ٤٦ وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَتْلُوهُمْ أُجْرًا فَهُمْ يَنْفَرُونَ﴾ الأصل أن الرسل ﷺ لم يكونوا يدعون الخلق إلى ما يستنقله عقل أو طبع، بل كانوا يدعون إلى ما يخف، ويسهل على الطبع والعقل الإجابة له لأنهم يدعونهم إلى التوحيد، وهم كانوا يعبدون غير واحد من الآلهة وعبادة الواحد أيسر من عبادة عدد، وكانوا يدعونهم إلى الصديق وإلى مكارم الأخلاق [والإجابة^(١)] بمثل أمر يسير. فيقول: أحملت عليهم ذلك حتى تركوا الإجابة مع تيسيره عليهم، فيخرج ذكر هذا مخرج تنفيه أحلامهم.

الآية ٤٧ وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ هذا يختل أوجهاً:

أحدها: أن عندهم علم الغيب بالذي^(٢) ادعوا أنا نجعل المسلمين كالمجرمين؛ وذلك مكتوب عندهم، أو عند سلفهم علم الغيب، فوجدوه في كتبهم، ويعلم به خلقهم، فيخاصمونك به.
[والثاني^(٣)]: هم قوم لم يكونوا يؤمنون بالكتب ولا بالرسول، فكيف يخاصمونك، ويكذبونك في ما تُخبرهم، وإنما يوصل إلى التكذيب بما يثبت من العلم بخلافه، ويتأيد بأحد الوجهين اللذين ذكرناهما.
[والثالث^(٤)]: يكون هذا في موضع الاحتجاج عليهم حين زعموا أنا نعبد الأصنام ﴿لِيَقْرَأُوا إِلَى اللَّهِ إِلَهُ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٢٣] ويكونوا لنا شفعاء.

فما الذي حملهم على هذه^(٥) الدعوى؟ ٥٨٩ - ب/ ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾.

[والرابع^(٦)]: أن يكون القوم قد ألزموا أنفسهم الدنيوية بدين الله، وأقروا له بالألوهية، وذلك يلزمهم العمل بما فيه تبجيل الله تعالى وما به يشكر الخلائق، وذلك لا يعرف إلا بالرسول ﷺ فقد عرفوا حاجة أنفسهم إلى من يعلمهم علم الغيب. فما لهم امتنعوا عن الإجابة لرسول الله ﷺ مع حاجتهم إليه؟ أم^(٧) عندهم علم الغيب، فيستغنون به عن الرسول ﷺ؟

الآية ٤٨ وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا لِكُلِّ رَيْكَ﴾ إن حكم الله تعالى في الرسل ثلاث:

أحدها: ألا يدعوا على قومهم بالهلاك، وإن اشتد آذاهم من ناحيتهم حتى يؤذن لهم.

والثاني: ألا يفارقوا قومهم، وإن اشتد بهم البلاء، إلا بإذن من الله تعالى.

والثالث: ألا يقصروا في التبليغ، وإن خافوا على أنفسهم.

ثم وراء هذا عليهم أمران:

أحدهما: أبروا ألا يغضبوا إلا لله تعالى.

والثاني: ألا يخزنوا لِمَكَانٍ أَنفُسِهِمْ إذا آذاهم قومهم، بل يخزنوا لِمَكَانٍ أولئك القوم إشفاقاً عليهم منه ورحمة بما يحل من العذاب بتكذيبهم الرسل فهذا هو حكم ربهم.

ويختل أن يكون قوله: ﴿فَأَمَّا لِكُلِّ رَيْكَ﴾ أي لا تجازهم بصنيعهم، وتستعجل^(٨) عليهم، بل اضبر لحكم ربك بما حكم عليهم من العذاب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ اللَّوْنِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [يختل وجهين:

أحدهما: ما^(٩) قيل: نادى على قومه بالدعاء عليهم بالهلاك. لكنه لم يظهر دعاؤه على قومه عندنا، وإنما ظهرت منه المفارقة والمغاضبة على قومه بقوله: ﴿وَذَا اللَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] ولم يكن له أن يفارقهم، فيقول: اضبر بما حكم عليك ربك من ترك المفارقة عن قومك ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ اللَّوْنِ﴾ الذي فارق قومه قبل مجيء الإذن له من الله تعالى.

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل بالدعاء. (٣) في الأصل وم: ثم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: هذا. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: إنما. (٨) في الأصل وم: واستعمل. (٩) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: أن يونس عليه السلام لم يضرب على أذى قومه، بل فارقهم حتى ابتلي بظن الحوت، ثم فرغ بالدعاء إلى الله تعالى ليخلصه من بطنه.

فيقول: عليك الصبر مع قومك ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْمَثِيِّ﴾ حين^(١) لم يضرب مع قومه، فابتلي بما ذكر حتى احتاج إلى أن ينادي ﴿وَالظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فتبلى أنت أيضاً بمثل ما ابتلي هو به.

ثم لا يجوز أن تلحقه اللائمة، وتُعائب على ما دعا في بطن الحوت، لأن ذلك عذاب ابتلي به، ولا ينبغي للمرء أن يضرب على العذاب بل عليه أن يتהל إلى الله تعالى ليكشف عنه.

وإنما لحقته اللائمة بمفارقة قومه ولتركة الصبر معهم.

الآية ٤٩ وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ تَذَكَّرُ نِعْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ لَيْدَ بِالْمَرَّةِ وَهُوَ مَذْمُومٌ نعمة من ربك هي^(٢) ما وفقه للتوبة والإنابة وما قبل منه توبته، وكان له ألا يقبلها؛ إذ هو إنما أتى ربه بالتوبة بعد أن صار إلى تلك المضائق، وابتلي بالشدائد، وجاءه بأس الله.

ومن حكيمة أنه لا يقبل التوبة بعد نزول العذاب والشدة. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّوا﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا يَكُنْفُخُ فِيهِمُ يُخْبِرُهُمْ إِنْهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤ و ٨٥] فإذا قبل توبته كان فيه عظيم نعمة من الله تعالى عليه.

وقوله تعالى: ﴿لَيْدَ بِالْمَرَّةِ﴾ هو المكان الخالي. فلو لم يثب إلى الله تعالى لكان يلبث ﴿فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٤].

ثم نُبذَ بعد ذلك ﴿بِالْمَرَّةِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ لكن الله تعالى تفضل عليه بقبول توبته ﴿فَبَدَّلَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥] مخموم.

فقوله تعالى: ﴿لَيْدَ بِالْمَرَّةِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ لو عاقبه بالنبل. ولكن إنما نُبذَ بالعراء بعد قبول التوبة، فلم يصير مذموماً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ تَذَكَّرُ نِعْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ فينعمته عليه كانت من ثلاثة أوجه:

أحدها: في تذكير الزلة، وذلك كان بإيقام الحوت إياء، وكان عنده مفارقتة قومه لم تكن زلة، لأنه إنما فارقهم لأن قومه كانوا^(٣) له أعداء في الدين، ففارقهم لينجو منهم، وليسلم له دينه، ولا يسمع المكروه في الله تعالى.

والثاني: أن في مفارقة إيائهم [تخويفاً منه]^(٤) لهم وتهويلاً^(٥) لأن القوم كان لا يفارقهم نبيهم من بين أظهرهم إلا عندما يريد [الله]^(٦) أن ينزل بهم العذاب، وذلك مما يدعوهم إلى الانقياد عما هم فيه، ويدعوهم إلى الفرار إلى الله تعالى.

[والثالث]^(٧): من خوف آخر بأمر، فيكون فيه دعاؤه إلى الهدى، كان مخموداً مصيباً.

ولأن مفارقة إيائهم هي التي دعته إلى الإسلام، فأسلموا، قال^(٨): ﴿وَتَقَنَّنُمْ إِلَيْ جَنِّينَ﴾ [يونس: ٩٨].

ومن كانت مفارقة لهذه الأوجه التي ذكرنا لم تعد مفارقة زلة، بل عذت من أفضل شوائبه ولكن لحقته اللائمة مع هذا كله لما ذكرنا أن الرسل لا يسعهم أن يفارقوا قومهم، وإن اشتد عليهم الأذى من جهتهم إلا بعد وجود الإذن من الله تعالى، وكانت مفارقة تلك بغير إذن، والله أعلم.

ثم كان في ظنه أن ليست تلك المفارقة زلة. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَطَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] قيل

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) أدرج قبلها في الأصل: ما. (٤) في الأصل وم: تخويف منهم. (٥) في الأصل وم: وتهويل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: لقوله.

في التأويل: أن لن نُصَيِّقَ عليه. وقيل: أن لن نُعاقِبَهُ. فلولا أن عنده أن تلك المفارقة ليست بزلّة، وإلا كان لا يظن، فتبين عنده بالتقام الحوت لئاء وبما أفضى إليه من الشدايد أن تلك زلّة منه. وتذكير الزلّة من إحدَى النعم.

والنعم الثانية والثالثة: ما ذكرناهما من توفيق الله تعالى لئاء بالتوبة وإكرايمه عليه بقبولها. ومن جكميو ألا يقبل التوبة بمن جاءه بأس الله، وأحاط به العذاب، وهو إنما فرغ إلى التوبة بغد ما عاين العذاب، وجاءه بأس الله.

وجائز أن يكون حكمه هذا في الكفرة، ليس في المؤمنين، لأنه قال في آية أخرى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أُولَئِكَ لَا يَنْفَعُ نَسَاءَ إِيْسَاهُمَا لَوْ كُنَّ عَامَتَيْنِ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ إِيْسَاهُمَا خَيْرًا﴾. [الأنعام: ١٥٨] ففيه إشارة إلى أن من سبق منه الإيمان قبل أن تأتيه آيات ربّه، أو سبق منه كسب الخير من بغد الإيمان فإن إيمانه في ذلك الوقت ينفعه، وقال في أهل الكفر: ﴿كَلِمَاتٍ بِلَا آثَارٍ بِلَا أَثَرٍ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسَكَرْنَا بِمَا كُنَّا يَوْمَ شُرِكِينَ﴾. ﴿كَلِمَاتٍ يَكْفِي عَنْهُمْ إِيْسَاهُمْ﴾. [خافر: ٨٤ و ٨٥]، فهذا حكمه في أهل الشرك وقوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾. [النساء: ١٨].

وقال في المؤمنين: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ بِحَدِّكَ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾. [النساء: ١٧]. فثبت أن ما ذكرنا من الحكم هو حكمه في أهل الكفر ليس في أهل الإيمان. والعقل يدل على هذا. وذلك أن المؤمن قد علم أن الذي سبق منه زلّة وارتكاب معصية، فهو ليس يحتاج على إثبات آيات، فينبه على أن الذي فعله زلّة. فجائز أن تقبل منه التوبة في ذلك الوقت كما تقبل منه [قبل] (١) تلك الحالة.

وأما الكافر فعنده أن ما سبق منه لم يكن زلّة ومعصية، فيحتاج إلى آيات تنبّه [إلى الرجوع] (٢) عن غفليته، وتذكّره أن الذي فعله معصية، فأنزل به البأساء والشدة. فذلك يمنعه عن [النظر] (٣) والتدبر، فلا يكون إيمانه عن تحقّق وتبين، فلا ينفعه.

[وأما المؤمن فإنه] (٤) يفرغ إلى التوبة والإيمان ليدفع عن نفسه البأساء، لا ليدوم عليه لو كثفت عنه العذاب كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾. [الأنعام: ٢٨] فلهذا لا ينفعه إيمانه.

فإن قيل: إن قوم يؤنس بالله / ٥٩٠ - أ / قد نفعهم إيمانهم، وهم آمنوا بغد ما أيقنوا بالعذاب فجوابه من [وجوه]: أحدها: (٥) أنه يجوز أن يكون عذابهم موهوداً، ولم يكن مشاهداً مرئياً.

[والثاني:] (٦) جائز أن يكون الله عليهم صدقهم في إيمانهم، لو مكّنوا، فكشفت عنهم العذاب لما كانوا متحققين، وغيرهم كان يفرغ إلى الإيمان ليكشف عنه العذاب، ثم يعود إلى كفره فلم يقبل منه.

[والثالث:] (٧): جائز أن يكون من حكم الله تعالى ألا يقبل من أحد التوبة إذا حلّ به العذاب، ولكنه يقبلها من المؤمنين إفضالاً وإنعاماً، ولا يتفضل على الكافرين الذين آثروا الدنيا على الدين.

وعلى قول المعتزلة: ليست لله تعالى [على العبد] (٨) نعمة، ولا على أحد من أهل الإسلام، لأن من قولهم:

إن الله تعالى إذا علم من كافر أنه يسلم يوماً من الدهر، وإن كان بغد ألف سنة، فليس له أن يميته قبل أن يسلم، وعليه أن يؤفقه للتوبة، وعليه أن يقبل منه التوبة.

فإذا كان هذا كله حقاً عليه للعبد لم يكن له موضع نعمة عليه في قبول التوبة، لأن من قضى حقاً عليه، وأوصله إلى حقّه، لم يعد ذلك منه إنعاماً، فلا يكون لقوله: ﴿وَلَا أَنْ تَذَكَّرَهُ فَنَسَّ عَنْ رَبِّهِ﴾ مغنى، وقد قال الله تعالى: ﴿يَسْتَوْفُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَى إِيْسَانِكُمْ بَلَى اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلدِّينِ﴾. [الحجرات: ١٧] ولو كانت الهداية واجبة عليه لم يكن له عليهم موضع امتنان.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: والثاني أنه. (٥) في الأصل وم: وجوب أحدهما. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٥٠ وقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبْهُمْ﴾ أي اجتنابهم، واضطفاؤه للرسالة. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِنَّا يَأْتِيهِ الْقِطْرُ بِزُبدٍ كَذِبٍ﴾؟ [الصفات: ١٤٧].

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ السَّالِفِينَ﴾ فهذا وصف كل نبي مرسل في الآخرة.

الآية ٥١ وقوله تعالى: ﴿وَأَن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُنَّهُ بِخُيْبَةٍ﴾ فمنهم من يقول: هذا على التحقيق، وصرف ذلك إلى قوم بأعيانهم قد عرفوا بخيبت الأعين وحلول الآفات بمن يعينونه^(١) من أهل الشرف والتبجيل.

ثم الله تعالى يفضله عصم رسوله ﷺ فلم ينتهأ لهم أن يعينوه، فكان فيه تقرير رساليه وآية نبوته عند أولئك الكفرة. فإن قال قائل: إنهم كانوا يعدون رسول الله ﷺ من المجانين، ويقولون: إنه لمجنون، والمجنون لا يعان، وإنما يعان أهل الشرف والحبى وذوو الأحلام والنهي، فما أنكرت أنه سليم من الآفات حتى يقصد إليه بالعين.

فجوابه أنهم وإن كانوا يعدونه من جملة المجانين فإنهم سمعوا منه ذكراً عجباً، وهو القرآن. ومن أعطي مثل ذلك الذكر والشرف فهو مما يقصد إليه بالحسد، فكانوا يعينونه لذلك المعنى. ثم لم يضره كيدهم، ولا نفذت فيه خيلهم، فأوجب فيه ذلك: يثبتهم أنه رسول من الله تعالى.

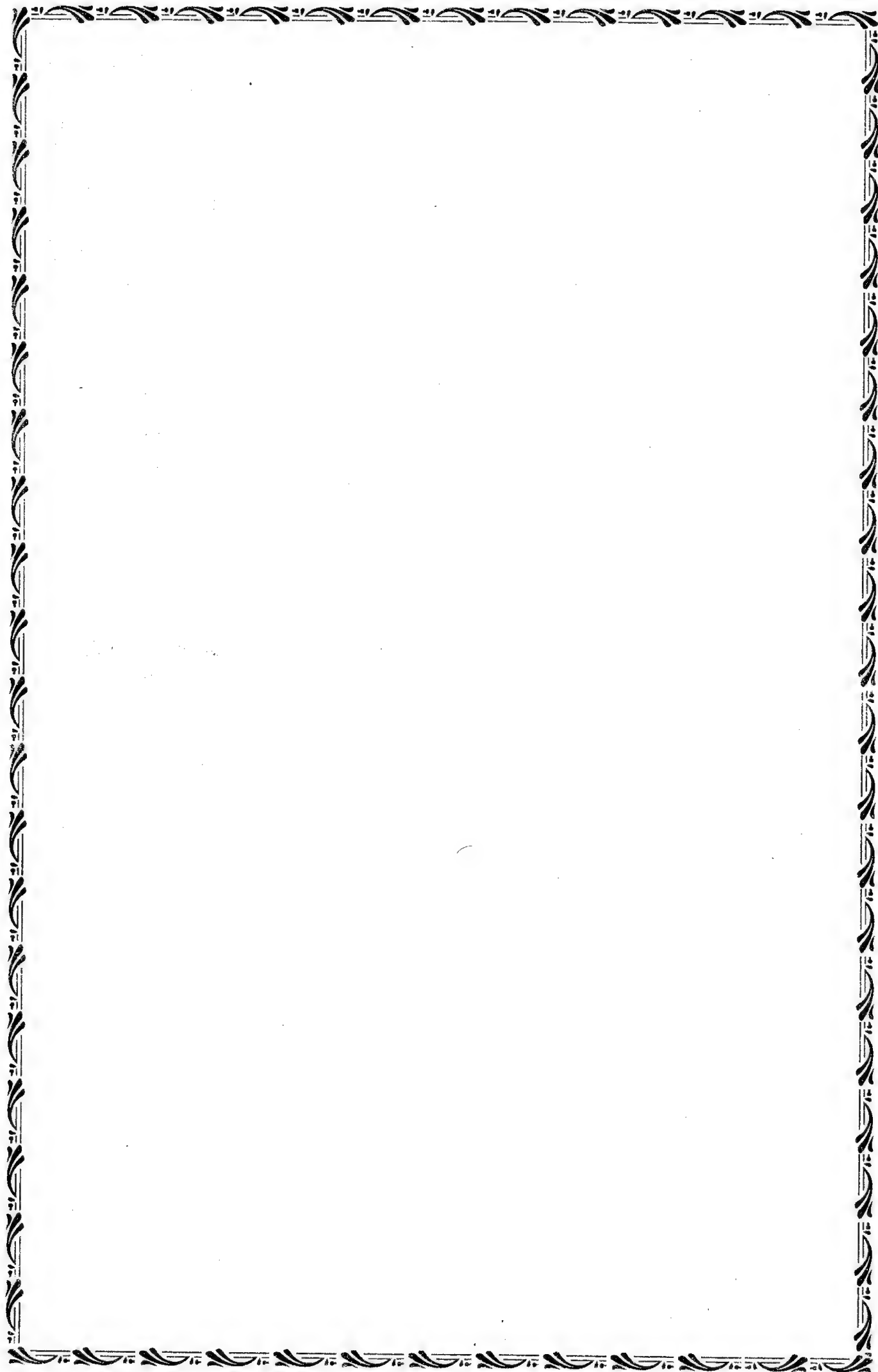
ومنهم من حملة على التمثيل لا على التحقيق، فيقول: ﴿وَأَن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ليشذو بغضهم وعداوتهم إياك ﴿لَيُزْلِقُنَّهُ بِخُيْبَةٍ﴾ كما يقال: نظر إلي فلان نظراً، وكاد يقتلني، فيقوله على التمثيل.

ثم قوله تعالى: ﴿لَيُزْلِقُنَّهُ﴾ أي يسقطونك، ويضرعونك. وقوله تعالى: ﴿لَنَّا سِمْوَالُ الْكُرْ﴾ وهو القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ قد وصفنا أنهم لأي معنى كانوا ينسبونه إلى الجنون، وذكرنا ما يرد عليهم، وينفي عنهم الريب والإشكال.

الآية ٥٢ وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَرَّ إِلَّا ذِكْرٌ لِلنَّاسِ﴾ جائز أن يكون، هو القرآن، وجائز أن يكون أريد به رسول الله ﷺ إذ تقدم ذكرهما جميعاً، إذ كل واحد منهما ذكر يذكر ما للخلق وما على الخلق، وما تنتهي إليه خواقيبهم، ويدلج ما يؤتى وما ينقى، والله أعلم.





سورة الحاقة

[وهي مكية^(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و ٢

﴿الْمَآئَةِ﴾ ﴿مَا لَمَّآئَةٍ﴾؟ قد ذَكَّرْنَا أَنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُمِّيَ بِأَسْمَاءِ النَّوَازِلِ الَّتِي تَكُونُ مِنَ الْبَلَايَا وَالشَّدَائِدِ لِيَقَعَ بِهَا التَّخْوِيفُ وَالتَّهْوِيلُ، وَلَيْسَ فِي تَبْيِينِ وَقْتِهِ وَلَا فِي ذِكْرِ عَيْنِهِ تَرْهيبٌ وَلَا تَرْغِيبٌ.

فَذَكَّرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ الرَّجْزِ وَالرُّدْعِ: فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْمَآئَةِ﴾ أَيِ حَقَّتْ لِكُلِّ عَامِلٍ عَمَلُهُ، وَيَحِقُّ لِكُلِّ ذِي حَقٍّ حَقُّهُ؛ فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ اسْتَوْجِبَهَا، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ دَخَلَهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿الْمَآئَةِ﴾ هِيَ النَّازِلَةُ الَّتِي لَا تُرْفَعُ أَبَدًا، وَهِيَ^(٢) مَا يَنْزِلُ بِالْخَلْقِ مِنَ الْجَزَاءِ وَأَنْوَاعِ مَا يُعْدَوْنَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقِيلَ: هِيَ الْوَاجِبَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وَحَافٍ يَبِمْ﴾ [هود: ٨] أَيِ وَجَبَ، وَنَزَلَ بِهِمْ.

وَالْأَصْلُ أَنَّ الْقِيَامَةَ سُمِّيَتْ بِالْأَحْوَالِ الَّتِي يُبْتَلَى الْخَلْقُ بِهَا مِنْ نَحْوِ: ﴿الْقَارِعَةِ﴾ [القارعة: ١] و: ﴿الْوَارِقَةِ﴾ [الواقعة: ١] و: ﴿النَّادِ﴾ [غافر: ٣٢] و: ﴿الْمَلَكَةِ﴾ [عبس: ٣٣] وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ أُخِذَتْ أَسْمَاؤُهَا مِنْ أَحْوَالِ مَا يُبْتَلَى الْخَلْقُ بِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا لَمَّآئَةٍ﴾؟ فَهُوَ تَعْظِيمٌ أَمْرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ كَمَا يُقَالُ: قُلَانٌ، مَا قُلَانٌ؟ إِذَا وُصِفَ بِالْغَايَةِ فِي الْقُوَّةِ وَالسَّخَاوَةِ أَوْ نَحْوِهِ.

الآية ٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَذْرَبَكَ مَا لَمَّآئَةٍ﴾؟ فَهُوَ تَعْظِيمٌ أَمْرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَيْضًا، أَوْ ﴿وَمَا أَذْرَبَكَ مَا لَمَّآئَةٍ﴾؟ أَيِ لَمْ تَكُنْ تَدْرِي، فَادْرَاكَ اللَّهُ تَعَالَى، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ خَبَرُ الْقِيَامَةِ [فِي] ^(٣) عِلْمِكَ وَلَا عِلْمِ قَوْمِكَ. لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَطْلَعَكَ عَلَيْهِ لِأَنَّ قَوْمَكَ^(٤) كَانُوا مُنْكَرِي الْبَعْثِ، وَلَمْ يَكُنْ عَنْدهُمْ مِنْ خَبَرِهِ شَيْءٌ؛ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ لَمَّا ذَكَرَ لَهُمْ مِنْ دَلَائِلِ الْبَعْثِ الَّتِي حُجِّجُهَا تَذَرِكُهَا الْعُقُولُ وَالْحِكْمَةُ مِنْ إِحَالَةِ التَّشْوِيعِ بَيْنَ الْفَاجِرِ وَالْبَرِّ وَالْمُطِيعِ وَالْعَاصِي، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ كَوْنُ هَذَا الْعَالَمِ عَبَثًا بَاطِلًا، وَالدَّلَائِلُ الْآخِرُ الَّتِي لَا يَأْتِي عَلَيْهَا الْإِحْصَاءُ، فَلَمَّا لَمْ يَقْنَعْنَاهُمْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَا اغْتَبَرُوا بِالْآيَاتِ، اخْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا لَقِيَ مِنْ سَلَفِهِمْ مِنْ مُكَذِّبِي الْبَعْثِ وَمُنْكَرِي الرِّسْلِ حِينَ^(٥) اسْتَأْصَلَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ سَلَفٌ وَلَا خَلَفٌ عَنْهُمْ خَلَفٌ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي الْإِنذَارِ:

الآية ٤

وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِوَاعَدِ الْقَارِعَةِ﴾ ذَكَرَهُمْ بِمَا حَلَّ بِثَمُودَ وَعَادَ وَمَا أَصَابَهُمْ بِتَكْذِيبِهِمُ الرِّسْلَ. يَقُولُ: سَيُصِيبُكُمْ بِتَكْذِيبِكُمْ مُحَمَّدًا ﷺ فِي مَا يُخْبِرُكُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا أَصَابَ^(٦) ثَمُودًا وَعَادًا بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ، لِيَسْتَهْوُوا عَنْ تَكْذِيبِهِ.

أَوْ يُخْبِرُهُمْ أَنَّ ثَمُودًا وَعَادًا كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ حَتَّى صَارُوا إِلَى الْهَلَاكِ، فَتَدِمُوا^(٧) عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ، فَسَتَنْدَمُونَ أَيْضًا إِنْ دُمْتُمْ عَلَى تَكْذِيبِكُمْ مُحَمَّدًا ﷺ فِي مَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ بَعْدَ / ٥٩٠ - ب / مَوْتِكُمْ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٣) ساقطة من الأصل وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْمِهِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَصِيبُهُمْ مَا. (٧) الْفَاءُ ساقطة من الأصل وَم.

ثم ذَكَرَ لَهُمْ نَبَأَ عادٍ وثمودَ وما ^(١) كانوا مُكذِّبِينَ بتلكِ الأنباءِ لِئَلَّا يَتَّقِيَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُجَّةٌ، فيقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ولأنهم لو بَخَحُوا عَنْ عِلْمِ ذَلِكَ لَكَانَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ وَالْأَنْبَاءُ تُحَقِّقُ لَهُمْ ذَلِكَ. فقد وَقَعَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ مَوْقِعَ الْحِجَابِ؛ لولا إِغْفَالُهُمْ وَإِعْرَاضُهُمْ عَنْهَا، فَانْقَطَعَ عُذْرُهُمْ، وَلَزِمَتْهُمْ الْحُجَّةُ لِأَنَّ ^(٢) تَرَكُوا الْإِيمَانَ بِهَا.

ثم قَوْلُهُ ﴿مَّا لَكُم مِّنَ الْآفَاقَةِ﴾؟ ﴿مَّا لَكُم مِّنَ الْآفَاقَةِ﴾؟ ﴿وَمَا أَذْرَبَكُمْ مِّنَ الْقَارِعَةِ﴾؟ ﴿وَمَا أَذْرَبَكُمْ مِّنَ الْقَارِعَةِ﴾؟ [القارعة: ١ و ٢ و ٣] يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مُخَاطَبَةً كُلِّ مُكَذِّبٍ بِالْبَغْثِ، لَا مُخَاطَبَةً الرَّسُولِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾؟ [الإنفطار: ٦] الذي إِنَّهُ خِطَابٌ لِمَنْ يَغْتَرِّبُ بِالدُّنْيَا لَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَعَالَى، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ يُخَاطَبُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ، فَإِنْ صُرِفَ الْخِطَابُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اقْتَضَى مَعْنَى غَيْرَ مَا يَقْتَضِيهِ لَوْ أُريدَ بِالْخِطَابِ الْمُكَذِّبُونَ.

وَالْأَصْلُ أَنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ: فَلَنْ وَمَا فَلان؟ يُوجِبُ اجْتِنَابَ الْأَسْمَاعِ، وَيَسْتَدْعِي السَّامِعَ لِلْبَحْثِ فِي الشَّاهِدِ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُذَكِّرُ فَلانَ بِهَذَا لِأَعْجُوبَةٍ فِيهِ أَوْ لِعَظَمِ أَمْرِهِ، فَيَسْتَبْحِثُ عَنْ ذَلِكَ لِيُوقِعَهُ عَلَى تِلْكَ الْأَعْجُوبَةِ الَّتِي فِيهِ.

فَإِنْ كَانَ الْخِطَابُ لِلْمُكَذِّبِينَ دَعَاهُمْ ذَلِكَ إِلَى تَعَرُّفٍ مَا فِيهِ مِنَ الْأَعْجُوبَةِ وَالتَّعْظِيمِ. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَذْرَبَكُمْ مِّنَ الْقَارِعَةِ﴾ مُبَالِغَةٌ فِي التَّعْجُبِ، وَإِذَا نَظَرُوا فِيهِ، وَفَهِمُوهُ، دَعَاهُمْ ذَلِكَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، فَصَارَتِ الْآيَةُ فِي مَوْضِعِ الْإِعْرَاضِ وَاجْتِنَابِ الْأَسْمَاعِ.

وَأِنْ كَانَ الْخِطَابُ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَأْوِيلُهُ أَنَّ الْمُكَذِّبِينَ يُؤْذِنُهُ، وَيَمْكُرُونَ بِهِ، فَيَتَأَذَى بِهِمْ، وَيَسْتَدْذِئُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَذَكَرَ مَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَيَحِقُّ عَلَيْهِمْ، فَيَكُونُ فِيهِ بَعْضُ التَّسْلِيِّ عَمَّا أَصَابَهُ [مِنْ] ^(٣) الْأَذَى مِنْ نَاجِيَتِهِمْ، أَوْ ذِكْرُهُ، أَنَّ الْعَذَابَ يَحِقُّ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَحْزَنُ بِصَنِيعِهِمْ، بَلْ يَحْمِلُهُ ذَلِكَ عَلَى الشُّفَقَةِ عَلَيْهِمْ وَالرَّحْمَةِ لَهُمْ.

وَقِيلَ: إِنْ كَانَ الْخِطَابُ فِي الْمُكَذِّبِينَ فَفِيهِ تَخْوِيفٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ وَتَهْوِيلٌ أَنَّهُمْ إِنْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ فِي مَا يُخْبِرُهُمْ مِنْ أَمْرِ الْبَعْثِ نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ مَا نَزَلَ بِعَادٍ وَثَمُودَ بِتَكْذِيبِهِمُ الرِّسَالَ، وَقَدْ عَرَفَ أَهْلُ مَكَّةَ مَا نَزَلَ بِأُولَئِكَ.

وَأِنْ كَانَ الْخِطَابُ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَفِي ذِكْرِ نَبِيِّ عَادٍ وَثَمُودَ مَا يَدْعُوهُ إِلَى الصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ، وَيَكُونُ؛ لَهُ بَعْضُ التَّسْلِيِّ [بِأَنَّهُ يُخْبِرُهُ] ^(٤) أَنْكَ لَسْتَ بِأَوَّلَ رَسُولٍ كُذِّبَ، بَلْ شَرَكَكَ الرِّسَالُ مِنْ قَبْلُ، وَابْتَئُوا بِالتَّكْذِيبِ.

الآيات ٥ و ٦

ثم يَبَيِّنُ مَا نَزَلَ بِعَادٍ وَثَمُودَ بِالتَّكْذِيبِ بِالْقَارِعَةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَنَّا نَسُودُ تَأْتِيكُمُ الْبَلَائُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [وَمَا عَادُ تَأْتِيكُمُ الْبَرَاجِمُ سَرَّارٍ عَلَيْهِ] ^(٥) فَالْبَلَائُ وَالْعَائِيَةُ وَالرَّابِيَةُ [الآية: ١٠] يُمَكِّنُ أَنْ تَجْعَلَ هَذَا كُلُّهُ صِفَةً لِلْعَذَابِ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ صِفَةً لِأَحْوَالِ الَّتِي سَبَقَتْ مِنْهُمْ، وَكَانُوا عَلَيْهَا. فَإِنْ كَانَ هَذَا صِفَةً الْعَذَابِ فَالطَّغْيَانُ عِبَارَةٌ عَنِ الشَّدْوَةِ، وَالطَّاعِي، هُوَ الْعَائِي الشَّدِيدُ، لَا يُرَاقِبُ، وَلَا يَتَّقِي. فَوَصَفَ الْعَذَابَ الَّذِي أَرْسَلَهُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ لَمْ يَبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا، بَلْ اسْتَأْصَلَهُمْ، وَأَهْلَكَهُمْ بِجُمْلَتِهِمْ.

وَقِيلَ: ذَلِكَ الْعَذَابُ، هُوَ «الطَّبَقَةُ» ^(٦) وَقِيلَ: «الطَّبَقَةُ» ^(٧) وَسُمِّيَ طَاعِيَةً، وَلَمْ يَقُلْ: طَاعٍ لِهَذَا. وَقِيلَ: اشْتَقُّ هَذَا الْإِسْمُ لِلْعَذَابِ مِنْ أَعْمَالٍ مَنْ عَذَّبَ بِهِ، لَيْسَ أَنَّهَا طَاعِيَةٌ، لَكِنْ أُخِذَ اسْمُهُ مِنْ فِعْلِ الْقَوْمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَزَّوْنَا سِجِّينَ بِئِنَّهَا﴾ [الشورى: ٤٠] وَقَوْلِهِ ^(٨) تَعَالَى: ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٩٤] وَإِنَّمَا ذَكَرَ كُلَّهُ جَزَاءً سَيِّئَاتِهِمْ.

وَقِيلَ: «الطَّاعِيَةُ» أَيِ طَغْيَانِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ الَّتِي سَلَفَتْ مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَانِهَا﴾ [الشمس: ١١]. وَيَحْتَمِلُ: أَنْ يَكُونَ هَذَا صِفَةً لِأَحْوَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا مِنْ شِدَّةِ التَّمَرُّدِ وَالْعُتُوِّ؛ وَمِنْ طَغْيَانِهِمُ التَّكْذِيبَ بِالْحَاقَةِ وَالْقَارِعَةِ. فَفِيهِ تَخْوِيفٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ أَنَّهُ سَيُهْلِكُهُمْ إِنْ لَمْ يَهْتَدُوا عَنِ التَّكْذِيبِ كَمَا أَهْلَكَ أُولَئِكَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَنْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَإِنْ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: لِأَنَّهُ نَحْوُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (٥) [البقرة: ٥٥ و ٥٦]. (٦) هُود: ٦٧ و... (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا عَادَ فَاصِلُهُمْ رَبِّيعٌ شَدِيدٌ غَائِيَةٌ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: الرِّيحُ الصَّارِصُ هِيَ الصَّيْثَةُ، وَهِيَ الَّتِي لَهَا صَوْتُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ الرِّيحُ الْبَارِدَةُ الشَّدِيدَةُ الْبَرْدِ كَقَوْلِهِ: ﴿رَبِّيعٌ فِيهَا مَرٌّ أَصَابَتْ﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ١١٧] وَالصَّارِصُ الْبَرْدُ^(١)، وَالصَّارِصُ الْمَكْرُورُ مِنْهُ، فَوَصَفَهَا لِدَوَامِهَا وَتَكَرُّرِهَا.

وقوله تعالى: ﴿غَائِيَةٌ﴾ فَتَأْوِيلُهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي الطَّاعِيَةِ. وَذَكَرَ الْكَلْبِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهَا سُمِّيَتْ غَائِيَةً لِأَنَّهَا عَثَتْ عَلَى الْحُزَانِ فَلَمْ يُطِيقُوا. وَهَذَا لَا يُسْتَقِيمُ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُوَكَّلَ الْحُزَانُ عَلَى حِفْظِهَا، ثُمَّ لَا يَتِمَكَّنُونَ مِنَ الْحِفْظِ حَتَّى تَعْتَرِ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُمْ لَمْ^(٢) يُوَكَّلُوا بِحِفْظِهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. فَأَمَّا إِذَا أُوْكِلُوا بِحِفْظِهَا، ثُمَّ لَا يُجْعَلُ لَهُمْ إِلَى حِفْظِهَا سَبِيلٌ، فَهَذَا مُسْتَحِيلٌ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿سَخَّرَ مَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَكْنِيَةَ آيَاتٍ حُسُومًا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿سَخَّرَ مَا﴾ قِيلَ: أَرْسَلَهَا، وَقِيلَ: أَدَامَهَا عَلَيْهِمْ، وَقِيلَ: التَّسْخِيرُ التَّذْلِيلُ، أَيْ ذَلَّلَهَا، فَصَيَّرَهَا، بَحِيثٌ لَا تَمْتَنِعُ عَنِ الْمُرُورِ عَلَيْهِمْ فِي الْوَجْهِ الَّذِي جَعَلَهَا عَلَيْهِمْ، وَأَطَاعَتْهُ فِي الْوَجْهِ الَّذِي أَرْسَلَهَا.

وَأَمَّا أَرْسَلَ الرِّيحَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ خَاصَّةً، لَمْ^(٣) تَهْلِكْ شَيْئاً مِنْ مَسَاكِينِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الاحقاف: ٢٥] وَالرِّيحُ إِذَا عُمِلَتْ عَلَى الْأَبْدَانِ [فَهِيَ عَلَى الْبَنِيَانِ]^(٤) أَكْثَرُ. لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَأْمُرْهَا بِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَتَكْنِيَةَ آيَاتٍ حُسُومًا﴾ فِيهِ تَبَيَّنَ أَنَّ الْأَيَّامَ لَمْ تَكُنْ عَلَى عَدَدِ اللَّيَالِي، وَلَوْ كَانَتْ^(٥) عَلَى عَدَدِ وَاحِدٍ لَكَانَ فِي ذِكْرِ أَحَدِ الْعَدَدَيْنِ ذِكْرُ الْعَدَدِ الْآخَرِ، لِأَنَّ تَسْمِيَةَ اللَّيَالِي تَسْمِيَةُ الْأَيَّامِ، وَتَسْمِيَةُ الْأَيَّامِ تَسْمِيَةُ اللَّيَالِي.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ فِي قِصَّةِ زَكَرِيَّا: ﴿هَآئِكَ أَتُكَلِّمُ النَّاسَ تِلْكَ لَيَالٍ سَوءَاتٍ﴾؟ [مريم: ١٠] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿حُسُومًا﴾ قِيلَ: مُتَابِعَةٌ دَائِمَةٌ، وَقِيلَ: قِطْعًا قِطْعًا مِنَ الْحُسَمِ؛ يُقَالُ: حَسَمَتِ الرِّيحُ كُلَّ شَيْءٍ مَرَّتَ بِهِ حَسْمًا، أَيْ قَطَعَتْهُ، وَقِيلَ: مَشْؤُمَاتٍ حِينَ^(٦) انْقَطَعَتْ بَرَكَتُهَا عَنْهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا مَرْعًى﴾ أَيْ إِنَّكَ لَوْ أَدْرَكْتَهُمْ، وَشَهِدْتَهُمْ، وَعَاشَيْتَهُمْ. لَرَأَيْتَهُمْ ﴿مَرْعًى﴾ كَأَنَّهُمْ أَصْبَارٌ تَحِلُّ خَاوِيَةٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَلَا تَرَى الْأَعْضَاءَ الْمُتَفَرِّقَةَ: كُلُّ قِطْعَةٍ مِنْهَا كَأَنَّهَا عَجَزٌ نَحْلَةٌ؟ إِذَا كَانُوا هُمْ أَعْظَمَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَعْجَازِ النَّحْلِ [فَيُضَرَفُ تَأْوِيلُهُ]^(٧) إِلَى الْأَعْضَاءِ الْمُتَبَايِنَةِ.

ثُمَّ ذَكَرَ النَّحْلَ هُنَا بِالتَّائِيثِ، فَقَالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَصْبَارٌ تَحِلُّ خَاوِيَةٌ﴾ وَوَصَفَهُ^(٨) فِي سُورَةِ ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ بِصِفَةِ التَّذْكِيرِ، فَقَالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَصْبَارٌ تَحِلُّ شَفَعَرٌ﴾ [القمر: ٢٠] لِأَنَّ النَّحْلَ يُذَكَّرُ، وَيُؤُنَّثُ. كَذَا قَالَ الرَّجَاجُ.

وقيل: النَّحْلُ يُذَكَّرُ عَلَى كُلِّ حَالٍ. لَكِنَّ قَوْلَهُ: ﴿خَاوِيَةٌ﴾ صِفَةٌ لِلْأَعْجَازِ لَا صِفَةٌ لِلنَّحْلِ، وَالْأَعْجَازُ جَمَاعَةٌ، وَالْجَمَاعَةُ مُؤَنَّثَةٌ، وَالنَّحْلُ وَاحِدٌ، فَيُذَكَّرُ. وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْخَاوِيَةَ صِفَةُ النَّحْلِ.

أَلَا تَرَى عِنْدَ الْوَضَلِ يُذَكَّرُ بِالْحَفْصِ لَا بِالرُّقْعِ؟ وَلِأَنَّ النَّحْلَ اسْمٌ جَمْعٌ، يُقَالُ: نَحْلَةٌ وَنَحْلٌ كَمَا يُقَالُ: شَجَرَةٌ وَشَجَرٌ، وَتَمْرَةٌ وَتَمَرٌ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿خَاوِيَةٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيْ بِالْيَةِ، وَقِيلَ: خَاوِيَةٌ^(٩) أَيْ سَاقِطَةٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] أَيْ سَاقِطَةٌ عَلَى قَوَائِمِهَا. وَقِيلَ: أَيْ خَالِيَةٌ، فَوَصَفَهَا بِالْخَلَاءِ لِأَنَّهَا اقْتَلَعَتْ مِنْ أَصْلِهَا حَتَّى خَلَا ذَلِكَ الْمَكَانُ مِنْهَا. وَأَعْجَازُ النَّحْلِ أَصُولُهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْبَارِد. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لَوْ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَمْ. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فَهُوَ عَلَى الْإِلْتِيَانِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فَيُضَرَبُ تَأْوِيلُ. (٨) فِي الْأَصْلِ: وَصَفَ، فِي م: وَوَصَفَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: الْخَاوِيَةُ.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿فَبَلِّغْ رَأْيَهُمْ مِنْ بَاقِيهِ﴾ فيه أنه لم يَبْقَ لَهُمْ نَسْلٌ يُذَكِّرُونَ / ٥٩١ - أ/ بهم، بل أَهْلِكُوا بِأَجْمَعِهِمْ، وانْقَطَعَ عَنْهُمْ الذِّكْرُ إِلَّا بِالسُّوءِ، وَإِلَّا كَانَ يُرَى لَهُمْ بَاقِيَةٌ.

ففيه أنهم استؤصلوا، وعَمَّ العذاب الكبير والصغير، يُخَوِّفُ أَهْلَ مَكَّةَ بِمَا يُخْبِرُهُمْ عَمَّا فَعَلَ بِأَوْلَئِكَ. وفيه إخبار أنهم عَذَّبُوا بِعَذَابٍ، لَا رَحْمَةَ فِيهِ، وَهَكَذَا سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي مُكَذِّبِي الرِّسَالِ مِنْ قَبْلُ؛ وَجَعَلَ تَعْدِيبَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ يُجَاهِدُوا، وَيُقَاتِلُوا، وَالنِّسَاءَ لَا يُقَاتِلْنَ، بَلْ يُسَبِّحْنَ رَجَاءً أَنْ يُسَلِّمْنَ. فَعَلَى ذَلِكَ يُخْرِجُ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وُثِبَ أَنْ يَكُونَ هَذَا جَوَابَ قَوْلِهِمْ: إِنَّ مُحَمَّدًا ضَبُورٌ، أَيْ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ، يَبْقَى نَسْلُهُ أَوْ ذِكْرُهُ، وَاخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ كَثْرَةَ الْأَوْلَادِ، لَا تُغْنِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، إِذْ قَدْ كَانَتْ لَهُمْ أَهَالِي وَأَوْلَادٌ، فَأَهْلِكُوا عَنْ آخِرِهِمْ، وَانْقَطَعَ النَّسْلُ مِنْهُمْ، لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ ذِكْرُ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، كَانَ ثُمَّ أَوْلَادٌ أَوْ لَمْ يَكُنْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩

وقوله تعالى: ﴿رَبِّمَا فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ قَرِئَ بِكَسْرِ الْقَافِ وَقَتَحِ الْبَاءِ، وَقُرِئَ بِنَضْبِ الْقَافِ وَجَزَمِ الْبَاءِ. فتأويل القراءة الأولى: أَيْ جَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ جُنْدِهِ وَأَتَابِعِهِ، وَقِيلَ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْقَرَى الَّتِي يَقْرِبُ الْقَرَى. وَقَدْ رُوِيَ فِي الشَّاذِّ فِي بَعْضِ الْحُرُوفِ: وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ دُونَهُ^(١). وَجَائِزٌ [أَنْ يَكُونُوا]^(٢) مِنْ أَتْبَاعِ فِرْعَوْنُ، وَجَائِزٌ أَلَا يَكُونُوا^(٣). وتأويل القراءة الثانية: أَيْ جَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ كَانَ مُقَدِّمًا عَلَيْهِ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكْتُ بِالْغَايَةِ﴾ قِيلَ: قَرِيَّاتٌ لَوِطَ التَّفَكُّتُ عَلَى أَهْلِهَا، أَيْ انْقَلَبَتْ عَلَيْهِمْ بِمَا عَصَتْ رُسُلَهَا، وَقِيلَ: الْمُؤْتَفِكُ الَّذِي يَأْتِفُكَ مِنَ الصَّدِّقِ إِلَى الْكَذِبِ وَمِنَ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ وَمِنَ الْعَدْلِ إِلَى الْجَوْرِ.

فَمَنْ قَرَأَ: وَمَنْ قَبْلَهُ بِخَفْضِ الْقَافِ، كَانَ قَوْلُهُ: جَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ: ﴿وَالْمُؤْتَفِكْتُ بِالْغَايَةِ﴾ ﴿نَمَسُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ﴾ واقعاً كُلُّهُ عَلَى الْعِضْيَانِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمَرَادُ مِنَ ﴿وَالْمُؤْتَفِكْتُ﴾ كُلُّ مَنْ التَّفَكُّتَ مِنَ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ دُونَ أَهْلِ قَرِيَّاتٍ لَوِطَ لَأَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ زَمَانٍ مُوسَى بِكَثِيرٍ.

وَمَنْ قَرَأَ: وَمَنْ قَبْلَهُ بِنَضْبِ الْقَافِ، كَانَ قَوْلُهُ: ﴿نَمَسُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ﴾ واقعاً عَلَى رَسُولٍ كُلِّ فَرِيقٍ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: أَيْ عَصَتْ كُلُّ أُمَّةٍ رَسُولَهَا. وَعَلَى هَذَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ ﴿وَالْمُؤْتَفِكْتُ﴾ قَوْمٌ لَوِطَ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِالْغَايَةِ﴾ أَيْ بِالْخَطَايَا وَالشُّرُكِ. وَذَكَرَ أَبُو مُعَاوِذٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي تَفْسِيرِ الْخَاطِفَةِ الشُّرُكِ وَالْكُفْرِ، وَأَنْكَرَ ذَلِكَ، وَاحْتَجَّ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَذْكُرْ مِنْ قَوْمٍ لَوِطَ كُفْرًا وَشُرْكَاءَ فِي كِتَابِهِ إِنَّمَا ذَكَرَ رُكُونَهُمْ إِلَى الْفَاحِشَةِ، وَبِهَا أَهْلِكُوا؛ إِذْ^(٤) لَمْ يَنْتَرَعُوا، وَلَمْ يَتُوبُوا.

قَالَ: وَلَوْ كَانُوا مُشْرِكِينَ لَمْ يَقُلْ لَهُمْ لَوِطَ. ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] أَرَادَ بِذَلِكَ الْإِنْكَاحَ، وَالْكَافِرُ لَا يَصِحُّ لَهُ نِكَاحُ الْمُسْلِمَةِ.

وَلَيْسَ كَمَا زَعَمَ، بَلْ كَانُوا أَهْلَ شُرْكَ وَكُفْرٍ بِاللَّهِ تَعَالَى. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ فِي مَا حَكَى عَنْ قَوْمٍ لَوِطَ مِنْ قَوْلِهِمْ^(٥) ﴿لَنْ نَرَى نَسْلَهُ يَلُوطُ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾؟ [الشعراء: ١٦٧] فإِخْرَاجُ الرِّسَالِ مِنْ أَمَاكِيزِهَا مِنْ صَنِيعِ أَهْلِ الْكُفْرِ، وَقَوْلِهِمْ^(٦) فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦] فَطَابَتْ أَنْفُسُهُمْ بِإِخْرَاجِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَرَاهِمِهِمْ. وَمَنْ فَعَلَ هَذَا لَمْ يُشْكُ فِي كُفْرِهِ.

وَقَالَ فِي قِصَّةِ لُوطٍ أَيْضاً: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ و ٣٦] فَتَبَّتْ أَنَّهُمْ كَانُوا كُفَّاراً.

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ح ٢٠٦/٧. (٢) في م: يكون. (٣) من م، في الأصل: ألا يكون. (٤) في الأصل وم: إذا. (٥) في الأصل وم: قوله. (٦) في الأصل وم: وقال.

ثم لِقَائِهِ أَنْ يَقُولَ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبِّهِمْ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤَيَّدَاتُكُم بِالْحَاقَّةِ﴾ ﴿فَمَعَا رُسُلُ رَبِّهِمْ﴾ أَخْبَرَ أَنَّهُ جَاءَ فِرْعَوْنَ إِلَى مُوسَى، وَعَصَاهُ: كَيْفَ ذَكَرَ مَجِيءَ فِرْعَوْنَ إِلَى مُوسَى، وَلَمْ يَوْجِدْ مِنْهُ الْمَجِيءُ إِلَى الرُّسُولِ، بَلِ الرُّسُولُ هُوَ الَّذِي جَاءَهُ، فَمَعَا فِرْعَوْنَ، لَا أَنَّ فِرْعَوْنَ أَنَا، فَاسْتَقْبَلَهُ بِالْعِصْيَانِ؟ قِيلَ: [فِيهِ وَجْهَانِ:]

أَحَدُهُمَا^(١): أَنْ كُلَّ مَنْ أَتَى آخَرَ، وَجَاءَهُ، فَقَدْ أَنَاهُ الْآخَرُ، وَمَنْ قَرَّبَ [إِلَى آخَرَ فَقَدْ قَرَّبَ] ^(٢) الْآخَرَ إِلَيْهِ، لِأَنَّ الْمَجِيءَ فِعْلٌ مُشْتَرَكٌ، لِأَنَّهُ اسْمُ الْإِلْتِقَاءِ، وَإِنَّمَا يَقَعُ الْإِلْتِقَاءُ بِهِمَا جَمِيعاً، لَيْسَ بِأَحَدِهِمَا، فَلِذَلِكَ اسْتَقَامَ مِنْ إِضَافَةِ الْمَجِيءِ إِلَى فِرْعَوْنَ.

وَعَلَى هَذَا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَاهُ لِبَنَةِ الْمُتَنَفِّينَ﴾ أَيِ قُرَيْشٍ، وَأَهْلُهَا الَّذِينَ يَقْرُبُونَ إِلَيْهَا فِي الْحَقِيقَةِ. وَلَكِنَّهُمْ إِذَا قَرَّبُوا إِلَيْهَا، فَقَدْ قَرَّبَتْ هِيَ إِلَيْهِمْ، فَأُضِيفَ إِلَيْهَا التَّقْرِيبُ.

لهذه العبارة يمكن أن يتأول قوله تعالى: ﴿وَبِنَاءَ رَبِّكَ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا﴾ [الفجر: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] أي أَنَاهُ الْخَلْقُ لَا أَنْ يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَأْتِيهِمْ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَيَوْمَ يَرْجِعُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [النور: ٦٤] وَقَالَ: ﴿وَلِلَّهِ اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨ و...].

وقال^(٣): ﴿وَلِلَّهِ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠ و...]. فَأَخْبَرَ أَنَّ الْخَلْقَ هُمُ الَّذِينَ يَأْتُونَهُ، وَيَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ يُنْسَبُ^(٤) الْمَجِيءُ وَالْإِتْيَانُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّهُمْ إِذَا أَتَوْهُ فَكَانَهُ قَدْ أَتَاهُمْ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا دُونَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ إِبْثَاتُ الْإِتْيَالِ فِي اللَّهِ تَعَالَى.

والثاني: أَنَّ اسْمَ الْمَجِيءِ، وَإِنْ أَطْلِقَ، وَاسْتَعْمِلَ فِي الْمَجِيءِ إِلَى مَكَانٍ، فَقَدْ يُسْتَعْمَلُ أَيْضاً فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ حَرَكَةٌ وَلَا انْتِقَالٌ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمِنْ غَايَةِ ظَهَرِ الْحَقِّ، لَيْسَ أَنَّ الْحَقَّ كَانَ فِي مَوْضِعٍ، فَانْتَقَلَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، فَامْتَكَنَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿رَبِّهِمْ فِرْعَوْنُ﴾ أَيِ كَذَّبَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى ﷺ وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿رَبِّهِمْ فِرْعَوْنُ﴾ بِالْخَاطِئَةِ، فَيَكُونَ الْمَجِيءُ مَضْرُوباً إِلَى الْخَطَايَا، وَهَذَا التَّأْوِيلُ أَمْلَكُ بِظَاهِرِ الْآيَةِ، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿رَبِّهِمْ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤَيَّدَاتُ بِالْحَاقَّةِ﴾ أَيِ جَاؤُوا بِالْخَطَايَا.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ أَخَذَةً رَابِيَةً﴾ أَيِ عَالِيَةٍ أَيِ^(٥) عَلَتْ أَبْدَانَهُمْ.

وجائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ أَنَّ عَقُوبَتَهُمْ رَبَّتْ عَلَى الْأَخْذِ، أَيِ زَادَتْ عَلَى الْأَخْذِ، لِأَنَّهُ أَخَذَتْ أَبْدَانَهُمْ، وَأَهْلَكَنَّهَا، ثُمَّ رَدَّتْ أَرْوَاحَهُمْ إِلَى جَهَنَّمَ، فَتَعَرَّضَ عَلَيْهَا عُذُوبٌ وَعَشِيَّتٌ. فَذَلِكَ هُوَ الزِّيَادَةُ عَلَى الْأَخْذِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَّا طَمَأَنَّاتُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيِ طَمَأَنَّ عَلَى الْخُزَانِ، لِأَنَّ الْخُزَانَ يُرْسِلُونَ الْقَطَرِ بِالْكَيْلِ وَالْوَزْنِ وَالْقَدْرِ الْمَعْلُومِ [وقد]^(٦) ذَكَرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿فَقَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاوُ مُنْهَرِينَ﴾ [القمر: ١١] أَيِ مُنْصَبِّ، فَيَكُونُ تَأْوِيلُهُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُمَكِّنْهُمْ حِفْظَ الْقَطَرِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَطَمَأَنَّ عَلَيْهِمْ لِهَذَا الْمَعْنَى. وَإِلَّا لَوْ لَزِمُوا حِفْظَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَكَانَ الْمَاءُ لَا يَطْمَأَنَّ عَلَيْهِمْ عَلَى مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُؤْمَرُوا بِحِفْظِهِ، وَلَا يَمْلِكُونَ حِفْظَهُ.

وجائِزٌ أَنْ يَكُونَ طَمَأَنَّ أَيِ طَمَأَنَّ عَلَى الَّذِينَ أَهْلِكُوا مِنْ مُكَذِّبِي نُوحٍ ﷺ وَقَدْ وَصَفْنَا تَأْوِيلَ الطَّاعِي، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿حَمَلْنَاكَ فِي الْبَارِيَةِ﴾ [قد ذَكَرَ]^(٧) أَنَّهُ ﴿حَمَلْنَاكَ﴾ وَلَمْ نَكُنْ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ فَتَحْمَلْ، وَالْخَطَابُ لِلَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَإِنَّمَا كَانَ؛ لِأَنَّ بِنَاجَاةِ أَوْلَئِكَ الْمَحْمُولِينَ نَجَاةَ ذُرِّيَّتِهِمْ، وَبِهَلَاكِ أَوْلَئِكَ فَنَاءَ ذُرِّيَّتِهِمْ، فَكَانَهُ قَدْ حَمَلَهُمْ بِحَمْلِ أَوْلَئِكَ لَمَّا حَصَلَ لَهُمُ النِّجَاةُ بِحَمْلِهِمْ، أَوْ أَضَافَ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُ قَدَّرَ كَوْنَهُمْ مِنْ آبَائِهِمْ، فَكَانَتْهُمْ حُمُلُوا تَقْدِيرًا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَبْنَؤُا دَامَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُوَازِي سَوَاءَ نِكَاحٍ﴾ [الأعراف: ٢٦] وَمَعْنَاهُ: أُنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ مَا قَدَّرْنَا كَوْنَ اللَّبَاسِ مِنْهُ، وَهُوَ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. و. (٤) في الأصل وم: يسبب. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: ثم. (٧) في الأصل وم: فذكر.

المطر، فإذا أنزَلَ الْمَطَرُ الَّذِي قَدَّرَ كَوْنَ اللَّبَاسِ مِنْهُ، وهو المطر، فكانه أنزَلَ اللَّبَاسَ، وكقولِهِ^(١) ﴿وَلَا تَاَنَّا خَلَقْنَا مِنْ تَرَابٍ﴾ [الحج: ٥] ونحن لم نُخْلَقْ مِنْ التَّرَابِ الَّذِي أَصْلُنَا مِنْهُ، فَكَأَنَّا خُلِقْنَا مِنْهُ. فَعَلَى ذَلِكَ [هذا]^(٢):

وإن لم نَكُنْ مَحْمُولِينَ فِي السَّفِينَةِ، فَقَدْ حُمِلَ أَصْلُنَا لِئَن كَوْنَ نَحْنُ مِنْ ذَلِكَ الْأَصْلِ، فَكَأَنَّا قَدْ حُمِلْنَا فِيهَا، إِذْ كُنَّا فِي إِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْكَائِنِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أَوْ ذَكَرَ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَى الْأَبْنَاءِ بِصَنِيعِهِ بِالْأَبَاءِ لِيَعْلَمَ أَنَّ عَلَى الْأَبْنَاءِ شُكْرَ مَا أَحْسَنَ إِلَى آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَنَعْيًا أَدْنَىٰ رَّحِمَةٍ﴾ فوجه التذكير فيه أن أهل مكة أبوا إجابة الرسول، وقالوا: ٥٩١ - ب/ ﴿وَلَا تَجِدُنَا إِلَّا عَلَىٰ أَمْتٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] فَذَكَرَهُمْ أَنَّهُمْ أَوْلَادُ مَنْ حُمِلُوا مَعَ نُوحٍ ﷺ فِي السَّفِينَةِ، وَهُمْ إِنَّمَا اسْتَوْجَبُوا النِّجَاةَ، وَشَرُفُوا فِي الدَّارَيْنِ جَمِيعًا بِاتِّبَاعِهِمُ الرِّسْلَ. فَمَا لَكُمْ لَا تَتَّبِعُونَهُمْ فِي تَصْدِيقِ الرِّسْلِ دُونَ أَنْ تَتَّبِعُوا الْمُكَذِّبِينَ لِلرِّسْلِ؛ يُذَكِّرُهُمْ كَذِبَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿وَلَا تَجِدُنَا إِلَّا عَلَىٰ أَمْتٍ﴾ [الزخرف: ٢٢ و ٢٣] بَلْ قَدْ وَجَدْتُمْ آبَاءَكُمْ عَلَىٰ خِلَافِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَتَعْلَمُونَ^(٣) أَنَّ آبَاءَكُمْ هُمُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا نُوحًا، فَنَجَّوْا، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ دُونَ الْكَافِرَةِ.

ووجه آخر: أَنَّهُ ذَكَرَهُمْ أَحْوَالَ الْمُكَذِّبِينَ وَإِلَىٰ مَاذَا آلَ أَمْرُهُمْ مِنَ الْغَرَقِ وَالْهَلَاكِ، فَيَكُونُ فِيهِ تَخْوِيفٌ مَنْ كَذَّبَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَصَارَتْ تِلْكَ الْجَارِيَةُ.

وفي السَّفِينَةِ مَوْعِظَةٌ، وَتَذْكِرَةٌ، تُذَكِّرُهُمْ عَوَاقِبَ الْمُصْذِقِينَ بِالرِّسْلِ وَالْمُكَذِّبِينَ بِهِمْ، أَوْ تُذَكِّرُهُمْ^(٤) عَظِيمَ نَعِيمِهِ عَلَى آبَائِهِمُ الَّذِينَ حُمِلُوا فِي السَّفِينَةِ لِيَسْتَأْذِي مِنْهُمْ شُكْرَ ذَلِكَ.

وقال بعضهم: كَمَ مِنْ سَفِينَةٍ قَدْ هَلَكَتْ مِنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَهِيَ قَائِمَةٌ فِي مَوْضِعٍ كَذَا عِبْرَةٌ وَتَذْكِرَةٌ، ثُمَّ التَّذْكِرَةُ تُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُرَادَ بِهَا الْآيَةُ وَالْعِبْرَةُ، أَيِ جَعَلْنَا لَكُمْ ذَلِكَ لِتَتَّعَبُوا، وَتَكُونَ آيَةٌ لَكُمْ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَلْبَسْتُهُ وَأَصْحَبْتُ السَّيْفَ وَجَعَلْتُهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

والثَّانِي: أَيِ جَعَلْنَا تِلْكَ الْأَنْبَاءَ تَذْكِرَةً لَكُمْ، أَيِ جَعَلْنَاهَا قِرَاءَةً تَقْرَؤُونَهَا، وَتَذَكَّرُونَهَا إِلَى آخِرِ الْأَبَدِ، فَتَشْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى مَا صَنَعَ إِلَيْكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَنَعْيًا أَدْنَىٰ رَّحِمَةٍ﴾ يُقَالُ: وَعَى الشَّيْءَ إِذَا حَفِظَهُ، وَأَوْعَاهُ إِذَا حَفِظَهُ بِنَاءٍ أَوْ غَيْرِهِ، أَيِ تَحْفَظُهَا أَدْنَىٰ حَافِظَةً، فَأَصَابَتِ الْوَعْيَ وَالْحِفْظَ إِلَى الْأَذُنِّ، وَالْأَذُنُ لَا تَعِي، بَلْ تَسْمَعُ، ثُمَّ يَعْيِي الْقَلْبُ، وَلَكِنْ نُسِبَ الْوَعْيُ إِلَى الْأَذُنِّ لِأَنَّهُ يَوْصَلُ إِلَى الْوَعْيِ مِنْ جِهَةِ الْأَذُنِّ؛ إِذْ بِالسَّمْعِ يَوْعَى، وَالسَّمْعُ مِنْ عَمَلِ الْأَذُنِّ، ثُمَّ يَقَعُ الْمَسْمُوعُ فِي مَا فِيهِ يَوْعَى، وَهُوَ الْقَلْبُ، فَتُسَبِّبُ الْوَعْيُ إِلَى السَّمْعِ لِمَا يَنْتَظِرُ بِوَيْهِ الْوَعْيُ كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ إِضَافَةِ اللَّبَاسِ إِلَى [مَا]^(٥) مِنْهُ قَدَّرَ اللَّبَاسَ، وَهُوَ الْمَطَرُ، وَأَضِيفَ خَلَقْنَا إِلَى التَّرَابِ لِأَنَّ أَصْلَ مَا مِنْهُ قَدَّرَ خَلَقْنَا، هُوَ التَّرَابُ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ لِلْقُلُوبِ آذَانًا بِهَا تَعِي، وَابْصَارًا بِهَا تُبْصِرُ، فَيُضِيفُ الْوَعْيَ إِلَى آذَانِ الْقُلُوبِ، لَيْسَ إِلَى آذَانِ الرُّؤُوسِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقيل: ﴿أَذُنٌ رَّحِمَةٍ﴾ أَيِ عَقَلْتُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَانْتَقَعْتُ بِمَا سَمِعْتُ مِنْ كِتَابِهِ، وَهِيَ أَذُنُ الْمُؤْمِنِ. فَمَا أَذُنُ الْكَافِرِ فَإِنَّهَا تَسْمَعُ، وَتَقْلُذُ، وَلَا تَعِي لِمَا يَخْصُلُ لَهُمُ الْإِنْتِفَاعُ بِهِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ وَصَفَ آذَانَهُمُ بِالصَّمِّ لِمَا لَمْ يَتَّبِعُوا بِالْمَسْمُوعِ؟ وَكَذَلِكَ قَالَ: ﴿فَتَبَدُّوهُ وَرَأَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧] جَعَلَ تَرْكَهُمُ الْإِنْتِفَاعَ بِهِ نَبْذًا. فَعَلَى ذَلِكَ جَعَلَ الْإِنْتِفَاعَ بِهِ وَغِيًّا، وَكَذَلِكَ الْمُتَعَارَفُ فِي الْخَلْقِ أَنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا الْإِنْتِفَاعَ بِعَلَمٍ أَوْ بِشَيْءٍ اجْتَهِدُوا فِي [وَعْيِهِ وَحِفْظِهِ]^(٦).

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٢) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ فِي الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَدْ تَعْلَمُونَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَرَهُمْ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَعْيًا وَحِفْظًا.

فأما أن يكون معنى تبديل الأرض تغييرها عن الحالة التي هي عليها اليوم من انهدام البنيان واستواء الأودية وإزالة الجبال على ما جاء في الأخبار، فسمي لذلك تبديلاً كما يقال لمن تغير عن الحالة الحسنة إلى غيرها: تبدلت، يراد أي تغيرت عن حالته.

فعلى ذلك معنى الآية؛ أي تنكسر^(١) الجبال، وتتغير حالة الأرض في دفعة واحدة. أو يكون في الآية إخبار عن شدة الفزع في ذلك اليوم: أن يدكوه واحدة تفتى الجبال، وإن كان إثناء الجبال قبل إثناء الأرض، ليس أنهما تفتيان جميعاً ب دفعة واحدة / ٥٩٢ - ١/ لكن بالدغة الواحدة تهلك الجبال والأرض، فيكون المراد بيان شدة اليوم وهوله لا بيان ترتيب فناء الأرض [البعض]^(٢) على البعض، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَذُوقُ أَهْلُهَا أَثَمَ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وهو على الحساب والجزاء كقولهم: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [الذاريات: ٦] وأدخلت الهاء في أسماء القيامة تعظيماً لشأنها.

الآية ١٦ وقوله تعالى: ﴿وَأَنشَقَّتْ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهٍ﴾ قال بعضهم: تفرقت، وهكذا الشيء إذا انشقق، تفرق، وتناثر، وبه يظهر الشق. ويحتمل أن يكون الشق كناية عن اللين، أي تلين بعد [صلابتها، وتصير]^(٣) ذليلة.

وقوله تعالى: ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهٍ﴾ أي ضعيفة بعدما كانت تنسب إلى الصلابة. ويدل على ذلك قوله: ﴿يَوْمَ تَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكَتُوبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وإنما تطوى الشيء في الشاهد بعد ما كان يلين في نفسه.

وجائز أن تشق السماء لينزل أهلها، فلا يبقى فيها إلا الملائكة الذين على أطرافها، ثم تنضم، فيبين الطي، والله أعلم. وجائز أن يكون ذكر انشقاقها وانفطارها وانفتاحها تهويلاً للخلق من الوجوه الذي ذكرنا في ما قبل.

وجائز أن يكون للسموات أبواب^(٤)، فتفتح أبوابها، فيكون انشقاقها وانفطارها فتح أبوابها.

وجائز أن يكون الشق ليس فتح الأبواب لأنه ذكر هذا في موضع التهويل، وليس في فتح أبوابها كثير تهويل.

وقوله تعالى: ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهٍ﴾ أي ضعيفة مسترخية. وقيل: الوهي الحرق، وهو يحتمل لأنها إذا انشقت انخرقت.

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ الأرجاء التواحي والأطراف، وهي أطراف السموات وتواحيها، واحد الأرجاء رجا مقصور، أريد بها الملائكة؛ أخبر أنهم على أطراف السموات وتواحيها، فيحتمل أنهم وكلوا، وامتنحوا بحفظها بعد الشق لئلا تسقط على أهل الأرض.

وجائز أن يجعل أطرافها وجوانبها لبعض الملائكة، فتفتح أبواب السماء، فينزل الملائكة، كان مسكنهم عندها إلى الأرض كما قال تعالى: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ تَزْيِلاً﴾ [الفرقان: ٢٥] ويبقى الملائكة الذين كان مسكنهم في أرجائها أمر ربهم.

ثم الملك ليس يحتاج إلى مكان يقر فيه، وإن جعلت السماء مسكناً لهم، لأن الملائكة ينزلون من السماء إلى الأرض ويقرون على الهواء من غير أن يكون في الهواء مقر.

[وجائز أنه]^(٥) يبين أنها لا تفرق كل الفرق، ولكن وسطها ينشق لما ذكرنا، [ويبقى]^(٦) الباقي بحاله.

ويحتمل ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ على ما يمر به في السماء، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَلَاثَةٌ﴾ فيحتمل أن يكون الملائكة بالشفعة الأولى يضعقون إلا الثمانية الذين يحملون العرش كما قال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُوتَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] فيكون هؤلاء الثمانية من الذين امتنوا، فلا يضعقون، فهم يحملون العرش، فتكون أمكتهم على أرجاء السموات، وهو قوله: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾.

(١) في الأصل وم: انكسرت. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: صعبتها. (٤) في الأصل وم: أبواباً.

(٥) في الأصل وم: والثالث. (٦) في الأصل وم: و.

وقوله تعالى: ﴿ثَنِيَّةٌ﴾ جائز أن يكون أراد به ثمانية أملاك، وجائز أن يكون ثمانية أصناف من الملائكة كما ذكر في التفسير، وجائز أن يكون هؤلاء الثمانية يهلكون، ثم يخيون قبل أن يخيا سائر الخلق، فيحملون ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشٌ﴾^(١) على أكتافهم، وإذا بعث الله تعالى الخلائق رأوا العرش على أكتافهم.

والعرش، هو سرير الملك. وجائز أن يكون ذلك من نور كما ذكر في الخبر: «أن عين الشمس إذا أرادت أن تطلع فإن جبريل عليه السلام يأتي العرش، فيأخذ كفاً من ضيائه، ثم يلبس الشمس كما يلبس أحدكم قميصه، وإذا أراد القمر أن يطلع أخذ جبريل عليه السلام كفاً من نور العرش، فيلبس القمر كما يلبس أحدكم قميصه».

فجائز أن يكون العرش من الضياء والنور. ثم أجل الأشياء وأعظمها في أغني الخلق الضياء والنور، واليهما ينتهي الرغب، فيكون في ذكر العرش ذكر عظيم ملك الرب، جل جلاله.

ثم إن كل ملك في الشاهد يتخذ لنفسه عرشاً، يتفاوت ذلك على مقدار ملكهم وسلطانهم، لا يجعل ذلك مسكناً لنفسه. فإذا لم يتوهم من الخلق أنهم يتخذون ذلك لمقاعدهم ومجالسهم، فلأن لا يتوهم ذلك من الله أولى.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي تعرضون على أعمالكم، فلا تخفى عليكم خافية، أي تظهر لكم في ذلك اليوم، وتصير بارزة^(٢) في ذلك اليوم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلُغُ النَّارُ﴾ [الطارق: ٩] أي تظهر لهم سرائهم، حتى يعرفوها، ولا تخفى عليهم شيء منها.

وجائز أن يكون قوله: ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي على الله تعالى. ولكن كل من ادعى إخفاء شيء من أمره على الله [وظن أن الله تعالى] لا يطلع عليه، فسئل في ذلك اليوم أنه لا تخفى عليه خافية، وهو كقوله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] ليس فيه أن الملك كان لغيره.

ولكن بعض الناس كانوا يدعون الإشراف في الملك في الدنيا، فيشركون في ذلك اليوم دغواهم، ويتيقنون أنه هو المنفرد بالملك، وعلى [ذلك]^(٣) قوله تعالى: ﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ حَمِيماً﴾ [إبراهيم: ٢١].

ولم يكونوا بمخترفين عنه قبل ذلك، بل كانوا له في كل وقت بارزين. ولكن من أنكر ادعاء الإخفاء في الدنيا يدع في ذلك اليوم، ويؤثر بالبروز، والله المستعان.

ثم روي في الخبر «أن العرصات ثلاث: عرستان فيهما خصومات ومعاذير» أي يختصمون، ويتنازعون، فإذا ظهر ذلك جعلوا يعتدرون، ويسألون ربهم العفو والصفح عن خصومهم، «والعرصة الثالثة عند تطاير الصحف» [الترمذي: ٢٤٢٥].

ومعنى قوله: ﴿تَعْرَضُونَ﴾، أي تعرض الخلق بعضهم على بعض حتى لا يخفى على أحد خصمه، أو تعرض أعمالهم حتى يذكر [كل]^(٤) واحد صنيعة، وكل خصم خصومته، فكانهم قد نسوا ذلك من كثرة الفرع وشدة الأهوال. لكن الله تعالى يطلعهم على ذلك حتى يذكروا ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَرَفَ كَلِمَةَ بَِيْبِيَةٍ﴾ ظاهر ما جرى به الخطاب في القرآن يوجب أن يرحم المؤمنون جميعاً، فلا يعدبوا^(٥) في الآخرة، ويعذب الكافرون، ولا يرحموا^(٦)، لأنه قسم الخلق يوم القيامة صنفين: فجعل صنفاً منهم أهل اليمن، وصنفاً أهل الشمال، ثم وصف كل واحد من الصنفين بأعلام ثلاثة:

فذكر مرة أنه يخف ميزانهم بقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٩]. وذكر مرة أن وجوههم تسود، وذكر مرة أنهم يعطون كتابهم بشمالهم. فهذه الأعلام ذكرها في أحد الصنفين.

(١) في الأصل وم: رها. (٢) في الأصل وم: بارز. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.

(٦) في الأصل وم: يعدبون. (٧) في الأصل وم: يرحمون.

وَذَكَرَ^(١) الصَّنْفَ الثَّانِي، وَوَصَفَهُمْ بِأَعْلَامٍ ثَلَاثَةٍ: بَيَاضِ الْوُجُوهِ وَيَثْقُلِ الْمِيزَانِ وَإِعْطَاءِ الْكِتَابِ بِإِيمَانِهِمْ. ثُمَّ فِي مَا فِيهِ سَوَادُ الْوُجُوهِ ذَكَرَ فِيهِ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وكذلك حِينَ ذَكَرَ خِفَةَ الْمِيزَانِ ذَكَرَ فِي آخِرِهِ مَا يَبَيِّنُ أَنَّ الَّذِينَ خَفَّتْ مَوَازِينُهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تَتْلُو عَلَيْنَا فَكُنْتُ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥].

وَذَكَرَ فِي إِعْطَاءِ الْكِتَابِ بِشِمَالِهِ^(٢) مَا يَبَيِّنُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿وَلَا يَحْضُرُونَ عَلَى مَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٣ و ٣٤].

فَنَبَّهَتْ أَنَّ الْوَعِيدَ الْمُطْلَقَ ذَكَرَ فِي أَهْلِ الْكُفْرِ، وَكَذَلِكَ قَالَ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ/ ٥٩٢ - ب/ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وَلَمْ يَقُلْ أُعِدَّتْ لِلْخَلْقِ، وَقَالَ: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] نَبَّهَتْ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ هُمُ الْكُفَّارُ.

ثُمَّ الْمُؤْمِنُونَ قَدْ يَغْتَرِضُ مِنْهُمْ زَلَّاتٌ وَمَاتِمٌ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَالْكَافَرُ تَوَخَّذَ مِنْهُمْ الْمَحَاسِنُ فِيهَا، وَلَكِنْ أَهْلُ الْكُفْرِ يُجْزَوْنَ جَزَاءَ حَسَنَاتِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ. وَإِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا لَمْ يَقَعْ سَعْيُهُمْ لَهَا، وَأَمَكُنَّ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُ يُجْعَلُ لَهُ الْعِقَابُ بِسَيِّئَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، فَتَخَلَّصَ لَهُ الْحَسَنَاتُ فِي الْآخِرَةِ، فَيُجْزَى بِهَا، وَجَائِزٌ أَنْ تُكْفَرَ سَيِّئَاتُهُ بِالْحَسَنَاتِ الَّتِي تَوَخَّذَ مِنْهَا لِأَنَّ الْمَحَاسِنَ جُعِلَتْ سَبَبًا لِتَكْفِيرِ الْمَسَاوِي؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] وَإِذَا كُفِّرَتْ سَيِّئَاتُهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يُعَذَّبْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى يُعَذِّبُهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ، ثُمَّ يَغْفِرَ عَنْهُمْ بِحَسَنَاتِهِمْ الَّتِي سَبَقَتْ مِنْهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. فَكُلُّ مُؤْمِنٍ فِي الْحَقِيقَةِ آخِرُهُ الْجَنَّةُ، وَيَثْقُلُ مِيزَانُهُ، وَيَبْيَضُّ وَجْهُهُ، وَيُعْطَى كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ. [ثُمَّ^(٣) يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الَّذِي يُعَاقَبُ بِذُنُوبِهِ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، يُعَاقَبُ بِهَا^(٤) قَبْلَ أَنْ يُعْطَى كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ، وَيَثْقُلُ مِيزَانُهُ، وَقَبْلَ أَنْ يَبْيَضُّ وَجْهُهُ لَمْ يَكُنْ مُسَوِّدَ الْوَجْهِ^(٥)، وَلَكِنْ عَلَى مَا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا.

ثُمَّ مَتَى غُفِيَ عَنْهُ فِي الْخَبَرِ أَنَّ النَّاسَ يُغْرَضُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرْضَاتٍ فَأَمَّا عَرْضَتَانِ فِيهِمَا خُصُومَاتٌ وَمَعَادِيرُ، وَأَمَّا الْعَرْضَةُ الثَّلَاثَةُ فَتُظَايَرُ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي [الترمذي: ٢٤٢٥].

فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَعْدِيئُهُ قَبْلَ الْعَرْضَةِ الثَّلَاثَةِ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابُهُ فِي الْعَرْضَةِ الثَّلَاثَةِ بِيَمِينِهِ، فَتُظْهَرُ لَهُ أَعْلَامُ السَّعَادَةِ إِذَا ذَاكَ. فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ الْوَعِيدَ الْمُطْلَقَ إِنَّمَا جَاءَ فِي أَهْلِ الْكُفْرِ لَمْ يَلْحَقْ أَهْلَ الْكِبَائِرِ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِهِمْ فِي الْحُكْمِ، بَلْ وَجَبَ الْوَقْفُ فِي حَالِهِمْ كَمَا قَالَ أَصْحَابُنَا، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقُولُ مَاؤُمِ اقْرَؤُوا كِتَابِي﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَاؤُمُ﴾ تَعَالَوْا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ بِمَعْنَى هَاكُمُ، أَيِ اخْدُوا، فَأُبَيِّدَتِ الْهَمْزَةُ مَكَانَ الْكَافِ.

فَظَاهَرُ الْآيَةِ أَنَّ الْمُعْطَى لَهُ الْكِتَابُ يَقُولُ: هَذَا؛ يَدْعُو الْخَلْقَ، وَيُنَادِي لَهُمُ الْكِتَابَ اسْتِيشَارًا وَخُبْرًا، فَبَشَّرَهُمْ بِغُفْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُ وَرَحْمَتِهِ عَلَيْهِ.

وَلَكِنْ أَهْلُ التَّوَابِلِ صَرَفُوا التَّوَابِلَ إِلَى الْمُعْطَى، فَقَالُوا: هُوَ الَّذِي يَقُولُ هَذَا، فَكَانَ الَّذِي يَقُولُ: كُتِبَ الْكِتَابُ فِي الدُّنْيَا، مِنَ الْمَلِكِ، وَهُوَ الَّذِي يُعْطَى الْكِتَابَ إِلَى الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ، وَيَقُولُ: ﴿مَاؤُمِ اقْرَؤُوا كِتَابِي﴾ أَيِ اخْدُوا وَاقْرَؤُوا مَا كُتِبَتْ لَكُمْ وَعَلَيْكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فَإِنْ حَمَلْتُهُ عَلَى حَقِيقَةِ الظَّنِّ فَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُو:

الآية ٢٠

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: وذكر فيه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: به. (٥) في الأصل وم: الوجوه.

أخذها: **أني ظننتُ في الدنيا أني أُلَاقِي الحسابَ الشديدَ في ما سَبَقَ مِن سَيِّئَاتِي، وَأأْخُذُ بِهَا، وَأَجَازِي عَلَيْهَا، وَظَنَنْتُ السَّاعَةَ أَلَّا أَنْجُوَ مِن ذُنُوبِي لَفَزَعِ هَذَا الْيَوْمِ، فَوَجَدْتُ سَيِّئَاتِي قَدْ غُفِرَتْ، وَخَطَايَايَ كُفِّرَتْ عَنِّي، فَيَكُونُ قَوْلُهُ مِنْهُ هَذَا شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى وَإِظْهَارًا لِمُنَّتِهِ.**

والثاني: **أني تَرَكْتُ [دار الدنيا، وقد^(١) عَرَضْتُ لِي الْحوادثُ مِنَ الرِّلَاةِ وَالْهَفَوَاتِ، وَظَنَنْتُ^(٢) أَنِّي أُلَاقِي اللَّهَ تَعَالَى بِهَا، فَأَمْسَكْتُ عَنْهَا، وَانْتَرَجَرْتُ عَنْ إِتْيَانِهَا، فَيَكُونُ إِخْبَارًا عَنْ بَيَانِ سَبَبِ ذَلِكَ.**

والثالث: **أني تَفَكَّرْتُ في أمري، فَظَنَنْتُ أَنَّ مِثْلِي لَا يَتْرَكَ سُدَى هَمَلًا، فَأَدَّى ظَنِّي إِلَى الْيَقِينِ، فَأَمَنْتُ، وَصَدَّقْتُ الرِّسْلَ، فَإِنَّمَا نَجَوْتُ بِأَوَّلِ ظَنِّي وَفِكْرَتِي.**

ومنهم مَنْ صَرَفَ الظَّنَّ إِلَى الْيَقِينِ وَالْعِلْمِ، فَقَالَ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ظَنَنْتُ﴾ أَي تَيَقَّنْتُ، وَعَلِمْتُ.

والأصلُ أَنَّ كُلَّ يَقِينٍ حَدَثَ فِي الْأُمُورِ الْمُسْتَتِرَةِ وَالْعُلُومِ الْخَفِيَّةِ فَإِنَّمَا يَتَوَلَّدُ ذَلِكَ عَنْ ظَنٍّ، يَسْبِقُ، فَيَحْمِلُهُ ذَلِكَ الظَّنُّ عَلَى النَّظَرِ فِيهِ وَالبَحْثِ عَنْ حَالِهِ حَتَّى يُفْضِيَ بِهِ إِلَى الْوُقُوفِ عَلَى مَا اسْتَتَرَ مِنْهُ، فَيَصِيرُ الْخَفِيُّ جَلِيًّا، فَيَكُونُ سَبَبٌ بُلُوغِهِ إِلَى الْيَقِينِ وَالْإِحَاطَةِ [ذَلِكَ الظَّنُّ]^(٣) الَّذِي سَبَقَ مِنْهُ.

فجاءتْ أَنَّ يُسَمَّى ذَلِكَ يَقِينًا مَرَّةً عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَظَنًّا ثَانِيًا عَلَى الْمَجَازِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقِيَّهَا أَذُنٌ رَعِيَّةٌ﴾ [الآية: ١٢] أَنَّ الْأَذُنَّ لَا تَعِي شَيْئًا، بَلْ تَسْمَعُ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا يُوَصَّلُ إِلَى الْوَعْيِ بِالْأَذُنِّ صَارَتْ الْأَذُنُّ سَبَبًا لِلْإِيصَالِ إِلَى الْوَعْيِ، وَأَضَافَ الْوَعْيَ إِلَيْهَا.

فَعَلَى ذَلِكَ ظَنُّونُهُمْ فِي الْإِبْتِدَاءِ إِذَا بَلَغَتْهُمْ إِلَى الْيَقِينِ وَالْعِلْمِ سَمَّوْا يَقِينَهُمْ وَعِلْمَهُمْ ظَنًّا مَرَّةً وَيَقِينًا ثَانِيًا. أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦] وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]؟ فَجَعَلَهُمْ مَرَّةً ظَانِّينَ وَمَرَّةً مُوقِنِينَ فِي مَا كَانَ طَرِيقَهُ الْبَحْثَ وَإِعْمَالَ الْفِكْرِ.

وبهذا لَا يَجُوزُ أَنَّ يَوْصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِيْقَانِ فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ، لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ لَهُ بَارِزَةٌ ظَاهِرَةٌ؛ إِذْ هُوَ مُنْشِئُهَا وَخَالِقُهَا، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا، فَيَخْتِاجُ إِلَى الْبَحْثِ عَنْهَا وَالنَّظَرِ فِيهَا، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ.

ويقول: إِنَّ الْأُمُورَ الَّتِي سَبِيلُ دَرْكِهَا الْاجْتِهَادُ، لَا يَخْلُو شَيْءٌ مِنْهَا مِنْ اغْتِرَاضِ وَسَاوِسٍ وَخَوَاطِرٍ فِيهَا، فَتَلِكِ الْوَسَاوِسُ وَالْخَوَاطِرُ تُفْضِي بِصَاحِبِهَا إِلَى الْجَنُونِ، فَاسْتَجَازُوا إِطْلَاقَ الظَّنِّ فِيهَا لِمَا لَا يَخْلُو مِنْهُ، وَاسْتَجَازُوا إِطْلَاقَ الْيَقِينِ لِمَا غَلَبَ عَلَيْهَا دَلَالَتُ الْيَقِينِ وَالْإِحَاطَةِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ [مَنْ]^(٤) يَهْدُّ بِالْوَعْدِ الشَّدِيدِ أَوْ بِالْقَتْلِ عَلَى أَنْ يَكْفُرَ بِاللَّهِ تَعَالَى أَيْسَحَ لَهُ أَنْ يُجْرِيَ كَلِمَةَ الْكُفْرِ عَلَى لِسَانِهِ، وَجَمِيلَ كَالْمُؤْمِنِ^(٥) بِإِحْلَالِ الْعَذَابِ مِنَ الْمُكْرِهِ، لَوْ^(٦) ائْتَنَعَ عَنِ الْإِجَابَةِ إِلَى مَا دَعَاهُ، وَإِنْ لَمْ يَتَيَقَّنْ بِأَنَّهُ يُفْعَلُ بِهِ، لَا مَحَالَةَ، مَا أَوْعَدَ بِهِ، لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَلَّا يُمْكِنَ مِنْ ذَلِكَ، وَيَجُوزُ أَلَّا يَبْقَى إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ؟

ثُمَّ وَسَّعَ لَهُ فِعْلُ ذَلِكَ بِأَكْبَرِ الرَّأْيِ وَغَلَبَةِ الظَّنِّ، وَحُلَّ ذَلِكَ مَحَلَّ الْإِحَاطَةِ وَالْيَقِينِ. فَعَلَى ذَلِكَ هُنَا لَمَّا غَلَبَتْ دَلَالَتُ الْيَقِينِ وَالصَّدَقِ جَازَ إِطْلَاقُ لَفْظَةِ الْيَقِينِ عَلَيْهِ.

فَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي تُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ وَالْمُشَاهَدَاتِ فَلَا سَبِيلَ إِلَى تَسْمِيَةِ مِثْلِهِ ظَنًّا لِمَا يَحْتَمِلُ اغْتِرَاضَ الشُّبْهَةِ فِيهَا، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ.

الآية ٢١

وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أَي فِي حَيَاةٍ رَاضِيَةٍ؛ يُقَالُ: عَاشَ، وَحَيَّيْ، بِمَعْنَى وَاحِدٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَاضِيَةٍ﴾ بِمَعْنَى مَرْضِيَةٍ، مَعْنَاهُ أَنَّ نَفْسَهُ فِي حَيَاةٍ تَرْضَى بِهَا كَقَوْلِهِ: ﴿مِنْ مَّاؤٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] أَي مَدْفُوقٍ، وَمِثْلُهُ فِي الْكَلَامِ كَثِيرٌ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فِي دَارِ الدُّنْيَا إِذَا. (٢) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) مِنْ نَسَخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ وَم: كَالْمُوقِنِ. (٦) فِي الْأَصْلِ: وَلَوْ.

ويجوز أن يكون المراد نفس الجنة قد رخصت بأهلها، وأظهرت رضاها بهم كما وصف الجحيم بالسخط والتعظيم على أهلها. وجائز مثله في الجنة رضا واستيشاراً؛ إذ على معنى أن الجنة تظهر لهم من أنواع الكرامات والخيرات ما لو كان ذلك من ذي العقل يكون ذلك دليل الرضا كما يضاف الغرور إلى الدنيا، وهي أنها تظهر من نفسها ما لو كان ذلك بمن يملك التغير يكون ذلك غروراً من نفسها.

الآية ٢٢ وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ قال بعضهم: مرتفعة على ما يستحب في الدنيا من الجنان: في ربوة من الأرض مرتفعة.

وقال بعضهم: الجنة اسم لروضة ذات أشجار، فكأنه يصف أشجارها بالارتفاع والطول والمنظر، وذلك أشهى إلى أربابها، وهذا ما قال: ﴿تُكُونُ دَانِيَةً﴾ [الآية: ٢٣] من غير ذكر الأشجار، لأن ذكر الجنة اقتضى ذكر الأشجار. [وقال بعضهم^(١)]: يكون معنى العالية عظمة القدر والخطر: مرتفعة. وقد يوصف الشيء الرفيع بالعلو/ ٥٩٣ - ١/ والله أعلم.

الآية ٢٣ ثم قوله تعالى: ﴿تُكُونُ دَانِيَةً﴾ أي في القُطُوفِ مُتَدَانِيَةً من أهلها لمن يريد قطفها وبعيدة لمن لا يريد قطفها. وقيل: دانية ينالها القاعد كما ينالها القائم. وقيل: ثمارها دانية أي لا يرد أيديهم بعد ولا شك.

الآية ٢٤ وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الدَّانِيَةِ﴾ تأويله أن يقال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الدَّانِيَةِ﴾: إنما جعلتم أيامكم الخالية سلفاً [في أيام الدنيا^(٢)]، وسلف الرجل^(٣) آخر، هو أن يعطيه قرصاً ليأخذ مثله وقت الحاجة إليه، أو يسلم الرجل رأس ماله في الأشياء التي يأمل منها الربح؛ فكأنه يماري نفسه بجعلها سلفاً ورأس مالٍ ليأخذ ربح ما باع في الآخرة، فذلك هو الإسلاف، أو يجعل عمله للآخرة رأس ماله وما رزق من الأموال، ينفقها في سبيل الله، ويجعل ذلك رأس ماله.

وذكر عن وكيع أنه قال: بلغنا أن الذين أسلفوا الصوم أي أنهم صاموا في الدنيا، وتركوا الطعام والشراب، فأنابهم الله في الآخرة، فقال^(٤): ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾.

الآية ٢٥ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْقَ كَيْتَبٌ بِسْمَلِهِ يَقُولُ إِنَّ النَّارَ أُرِيتُ كَيْتَبٌ﴾ الإيتاء بالشمال أحد أعلام الشقاء؛ يتمنى ألا يؤتى بما فيه علم شقاؤه.

الآية ٢٦ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُ أَدْرَاكَ مَا حَسَابُهَا﴾ يقول هذا في الوقت الذي قرأ، ورأى فيه^(٥) خلاف ما كان يظن في الدنيا، ويحسب، لأنه كان يحسب أنه في الدنيا أحسن صنعا من الدين آمنوا، وأنه أقرب منزلة إلى الله تعالى كما قال: ﴿وَمَنْ يَسْأَلْهُمْ عَنْهَا يَسْأَلْهُمْ عَنْهَا﴾ [الكهف: ١٠٤] فظهر له إقراءه الكتاب أنه لم يكن على [ما]^(٦) حسب، بل قد أساء صنعه، فود عند ذلك ألا يعرف ما حسابه لئلا تظهر مساوئه.

ويحتول أنه يتمنى أنه ترك ميتاً، ولم يخى حتى كان لا يرى الحساب؛ ولا يعرفه.

الآية ٢٧ وقوله تعالى: ﴿يَلْتَمِسُ كَاتِبُ الْقَاضِيَةِ﴾ أي ياليت الميتة الأولى كانت دائمة عليّ. وقال بعضهم: ياليت النعمة الأخيرة، كانت تقضي بالموت والهلاك، لم تكن محنة باعثة، والله أعلم.

وقال قتادة: تمتوا الموت، ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليهم منه، ثم الموت عليهم مقضي، وليس يقاض، فحقه أن يقول: ياليتها كانت مقضية. ولكن هذه اللفظة يذكرها الناس في كل مكروه من الأمور.

ألا ترى أن الناس يذعنون الله تعالى بأن يصرف عنهم قضاء السوء؟ وليس بقضاء الله، بل هو مقضية. فخرج القول على ما تعارفوا. وهذا كما يقال: الصلاة أمر الله، وليس هي بأمره، ولكن تأويله أنها بأمره ما تقام، فسمي أيضاً قضاء الله، وهو في الحقيقة مقضية، والله أعلم.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، في م: الآخرة. (٣) من نسخة الحرم المكي وم، في الأصل: لرجل. (٤) في الأصل وم: فقلوا. (٥) في الأصل وم: فيها. (٦) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢٨ وقوله تعالى: ﴿مَا أَفْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ في الأصل أن الكفرة كانوا يفتخرون بكثرة أموالهم [وأولادهم]^(١) فيقولون: ﴿عَنَّا أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] فيزعمون أن الله تعالى بما آتاهم من الأموال يدفعون عن أنفسهم العذاب بأموالهم، إن^(٢) حل بهم، فيتبين لهم في ذلك الوقت أنها لا تُغني عنهم شيئاً، فيقول كل واحد منهم: ﴿مَا أَفْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾.

الآية ٢٩ وقوله تعالى: ﴿هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ ذكر عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: كل سلطان في القرآن فهو حجة. والأصل أن كل كافر كان يحتج في الدنيا لنفسه بحجج باطلة: فمرة يقول: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤ و ١٨٦]، ويقول مرة: ﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧] ومرة يقول: ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾ [النمل: ١٣ و ١٤] ومرة يقول: ﴿نَجْتُونَ﴾ [الدخان: ١٤] وغير ذلك، فيصير يقول: ﴿هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ أي هلكت تلك الحجج التي كنا نتشبث بها، واضمحلت، وظلنا أنها حجج.

ومنهم من يقول: السلطان هو القدر والشرف، أي ذهب ذلك كله. وقيل: أي هلكت عني تكبري وسلطاني على الأنبياء في الدنيا وترك الإختراث إليهم.

وجائز أن يكون أراد به أن السلطان الذي كان لي على نفسي في الدنيا قد انقطع لأنه كان يملك استعماله^(٣) في أمر مرضاة الله، فيقول: قد انقطع ذلك السلطان لأنني لا أملك استعماله^(٤) في ما أسترغب به مرضاة الرب، لأنه يُسلم، فلا يقبل منه إسلامه. ثم يجوز أن تكون الهاء في هذه الخطابات^(٥) على معنى الإشارات إلى النفس أو على تأكيد الأمر والمبالغة كالمتشابه، أو كأنهم ينادون أنفسهم بذلك. وقد تدخل الهاء في النداء كقوله: يا رباه، ويا سيّداه. وجائز أن يكون [للتوقف وإتمام]^(٦) الكلام، وأهل النحو يسمونها^(٧) هاء الإستراحة.

الآية ٣٠ وقوله تعالى: ﴿حُذِرُوا قُلُوبُكُمْ﴾ كقول^(٨) في موضع آخر: ﴿حُذِرُوا قُلُوبُكُمْ إِنَّ سَوَاءَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٤٧] وهو السوق إلى الحنف وكقول^(٩) في موضع آخر: ﴿وَسَوْفَ الْمُتَمَرِّينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَذَٰكَ﴾ [مریم: ٨٦] فكانهم، والله أعلم، معلون بذه الأمر بالأغلال لأن الناس في الدنيا يجتهدون كل الجهد في دفع^(١٠) العذاب بأيديهم.

فاخبر أن أيديهم تغل في الآخرة؛ فلا يتهيأ لهم دفع ما يحل من العذاب، فيكون ذلك أشد عليهم، ويكون حالهم كما قال الله تعالى: ﴿أَفَنَنْتَقِي بِوُجُوهِهِمْ سَوَاءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] فتغل يدها كي لا يتقي النار بوجوه.

ثم يذخرون^(١١) في السلاسل، فيجزون، ويُسحبون، ويساقون، على وجوههم على اختلاف أحوال القيامة.

الآية ٣١ وقوله تعالى: ﴿ثَرَّ اللَّجِيمُ سُلُوكُهُ﴾ أي أدخلوه، يقال: لَحِمٌ مُصْلَى، أي مشوي؛ فجائز أن يؤمر، فيشوى في الجحيم.

الآية ٣٢ وقوله تعالى: ﴿ثَرَّ فِي سِلَاسٍ دَرَعًا سَبْعُونَ ذِكَا فَاسْلُكُوهُ﴾ فذكر أولاً أنهم يُغْلون، ثم يُصَلِّون الجحيم، ثم يُسَلِّون إزاء ذلك، وحق وفيه أن يُسَلَّل، ثم يُمد إلى جهنم.

ولكنه يشبه أن يكونوا أولاً يُخشرون، ثم يساقون إلى نار جهنم بقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١] أو إذا رزّوها هموا أن يقرؤا منها، فيُسلِّلون إزاء ذلك، ويُسحبون في النار حيثل، فلا يتهيأ لهم الهرب.

الآية ٣٣ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَزِنُونَ بِاللَّهِ عَظِيمًا﴾ فيه بيان السبب الذي لأجله أسترجموا هذا العقاب، وهو أنهم كانوا لا يؤمنون بالله العظيم.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: فيقولون. (٣) في الأصل وم: استعمالها. (٤) في الأصل وم: استعمالها. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: الخطيئات. (٦) في الأصل: الوقت واحمام، في م: الوقت وإتمام. (٧) في الأصل وم: يسمونه. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: وقال. (١٠) في الأصل: موضع، في م: منع. (١١) في الأصل وم: يدخل.

ثم قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ جائز أن يكون لا يؤمن بؤخدانيته، أو لا يؤمن بإرسال الرسل، أو كان لا يؤمن بالبعث. وإلا فهم يؤمنون بالله، ولكن من لم يكن مؤمناً بالرسل والبعث فهو غير مؤمن في الحقيقة، لأن الإله الحق هو الذي أرسل الرسل، ويقدر على البعث، والكافر لا يثبت له قدرة البعث، ولا يراه^(١) أرسل الرسل، فصار لا يؤمن بالله العظيم في الحقيقة.

الآية ٣٤ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْشُرْ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾ إخبار أنه كان لا يؤمن بالبعث، لأن المؤمنين^(٢) ليسوا يطلبون من المساكين الجزاء لما يطعمونهم، وإنما يطعمونهم لوجه الله ورجاء الثواب في الآخرة.

والكافر غير مؤمن بالجزاء ليحمله ذلك على الإطعام، وليس هو بكسب، يرغب فيه، من مكاسب الدنيا، فكانه يقول: إن الذي أفضى به إلى النار تركه الإيمان بالله تعالى أو بالبعث.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَلَا يَحْشُرْ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾ إثبات الشك في الذي ترك [حضر أهله على الإطعام]^(٣) كقوله: ﴿أَنْطَلَيْمُ مِنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَلَمَعْلَمُهُ﴾ [يس: ٤٧] يقول: كيف نطعمه^(٤)، ومن يبيد خزائن السموات والأرض، لا يطعمه؟ فلو كان أهلاً للإطعام لكان الأولى بأن^(٥) يطعمه الله تعالى.

الآية ٣٥ وقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَتَمَ هَهُنَا حِمِيمٌ﴾ أي قريب يرجو منه. وهو كقوله تعالى: / ٥٩٣ - ب / ﴿فَلَا أَنْصَابَ يَتَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فليس له قريب، يرجوه، أو يتفقه ذلك الحميم، وقد كان له في الدنيا حميم، يتفقه به، ويرجو منه.

الآية ٣٦ وقوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَنِيلٍ﴾ كقوله تعالى في موضع آخر: ﴿لَيْسَ لَكُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ﴾ [الغاشية: ٦] وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ أَنْتَارُونَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿لَا تَكُونُوا مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفَرٍ﴾ [الواقعة: ٥١ و ٥٢] والزفر غير الصريح.

فهذا، والله أعلم، أن في جهنم ذركات؛ فأهل ذركة منها، لا يجدون غير الغسلين، وأهل ذركة منها، طعامهم الزقوم، ليس لهم غيره، وإلا لو لم يحمل الأمر على [هذا]^(٦) لأوجب ما ذكرناه اختلافاً، فيخرج أن يكون من عند الله بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ثم يجوز أن يكون قدر كل أهل ذركة ما ترجبه الحكمة أن يكون طعامهم. فعلى ما كانوا يقتضون في هذه الدنيا بالاطعمة على من دونهم، ويؤمنون من لم يكن عنده ذلك الطعام، جعل الله تعالى لهم من ذلك الوجوه طعاماً في الجحيم، يهانون به.

وقال الحسن: إن القرآن كله كسورة واحدة، والسورة كأنها آية واحدة، فكانه جمع بين هذه الأشياء كلها في آية واحدة، فليس لهم طعام إلا من غسلين، وليس لهم طعام إلا من صريح ومن زقوم. وإذا حوّل على ما ذكر ارتفع توهم التناقض، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنْ غَنِيلٍ﴾ جائز أن يكون هذا^(٧) اسماً لشيء من الأشياء التي يُعَذَّبُ بها أهل النار، لم يطلع الله تعالى الخلق على علم ذلك ومعرفة، وقد ذكر أسامي في الآخرة، ليس للخلق بمعرفة عهده.

ألا ترى أن الزقوم ليس باسم لشيء يستفح، ويستفزع في الدنيا، ثم جعله الله تعالى اسماً للشيء المستفح الكريه في الآخرة، وقال: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِلًا﴾ [الإنسان: ١٨] والسلسيل غير معروف في ما بين أهل اللسان؟.

وقال بعضهم: الغسلين ما يسيل من جلود أهل النار إذا عذبوا، وذلك هو الصديد والقيح.

(١) من م، في الأصل: يراد. (٢) في الأصل وم: الناس. (٣) في الأصل وم: المحض على أهله بالإطعام. (٤) في الأصل وم: أطعمه. (٥) في الأصل وم: من. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: هذه.

وجائز أن يكون إذا اشتدَّ حرُّهم استغاثوا إلى الله تعالى، وطلبوا منه يرجون أن يرفع عنهم الحرَّ، فيصُبَّ عليهم ما يزيد في عذابهم، فيسمى ما يروى عنهم غسلين، والله أعلم.

الآية ٣٧ وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ وممَّن الذين قال [فيهم]^(١): ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْمَظْلُومِ﴾ ﴿وَلَا يَحْشُرُ عَلَىٰ لَعْنِ الْكَافِرِينَ﴾ [الآيتين: ٣٣ و ٣٤].

ثم قوله تعالى: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ لا يجوز أن تكون السلسلة تفضل عن أبدانهم، فتأخذ فضل مكان من جهنم، لأنه تعالى وعد أن يملأ ﴿جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣] ولو كانت تلك السلسلة آخذة فضل مكان لكان لا يقع الإمتلاء بالجنة والناس أجمعين فقط [وإنما]^(٢) يؤدي إلى خلف الوعد، والله لا يخلف الميعاد.

ولكن إن كانت تلك السلسلة أطول من أبدانهم فهي تذكير لأهلها^(٣) ليَقَعَ لهم بها فضل تضيق وعم. فاما أن تفضل عن أبدانهم، فلا يحتمل.

وذكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا فإنه أهون، أو قال: أيسر عليكم، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتجهزوا للعرض الأكبر يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الآية: ١٨].

وعن الحسن أنه قال: إن المؤمن قوام نفسه لله تعالى، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم، حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن ينجو الشيء، فيقول: والله لأنني اشتبهتكم، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله مالي من صلة إليك، هيات، حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء، فيرجع إلى نفسه، فيقول: ما أردت هذا، مالي ولهذا؟ والله لا أعود لهذا، إن شاء الله تعالى.

إن المؤمنين قوم أوثقهم العذاب، وحال بينهم وبين هلكتهم أن المؤمن أسير في الدنيا، يسعى في فكاك نفسه، لا يأمن شيئاً حتى يلقي الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه كلها، فمحاسبة النفس أن ينظر في كل فعل يريد أن يقدم عليه إلى عاقبته.

فإن كان رُشداً أمضاه، وأنقذه، وإن كان غيياً انتهى عنه كما قال النبي ﷺ: «إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته، فإن كان رُشداً فامضيه وإن كان غيياً فانتبه عنه» [الزبيدي في الإتحاف ٩٣/١٠ وعزاه لابن المبارك في الزهد].

وقال في خبر آخر: «إن المؤمن وقاف وزان» ووزنه ما ذكر في الخبر الأول من النظر في العواقب؛ فإذا نظر في العاقبة، ورأى الرشد في إنفاذه، فقد وزنه، وإذا رأى خلاف الرشد انتهى عنه، ولم يقدم عليه. فذلك وقفه. فهذا الذي ذكرنا محاسبة المرء نفسه في ما يروى من الأمور ومحاسبة نفسه في الأفعال التي ارتكبها، وأمضاها، أن ينظر؛ فإن كان ارتكب محرماً تاب عنه، واستغفر الله تعالى، لعله يقضيه بمن عليه بالمغفرة، وإن كان فعلاً مرضياً حمد الله تعالى، وسأله التوفيق بمثله.

فهذه هي محاسبة العبد لنفسه في ما ارتكب من الأفعال.

الآيتان ٣٨ و ٣٩ وقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ قَدْ وَصَفْنَا أَنْ تَأْوِيلَ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْفُسِكُمْ مِنَ الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ وَالْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ، أَوْ مَا تُبْصِرُونَ مِنَ الْخَلَائِقِ وَمَنْ حَضَرَكُمْ ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ مِنَ الْخَلَائِقِ إِنْ غَابَ عَنْكُمْ.

فيكون القسم بما تبصرون وما لا تبصرون قسماً^(٤) بالخلائق أجمع، لأن جملة الخلائق على هذين الوجهين: فصنفت يرى، وصنفت لا يرى. وقد ذكرنا أن القسم من الله ﷻ لتأكيد ما يقصد إليه مما يعرف بالتدبر والتأمل.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: على أهلها. (٤) في الأصل وم: قسم.

الآية ٤٠

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي الذي تسمعون منه تسمعون من رسول كريم.

ثم ذكر ههنا: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. فذكر ههنا كلام الله، وذكر في الآية الأولى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فأمّا [ما] ^(١) أضيف إلى الرسول فهو من حيث بلوغنا إليه من جهة الرسول لا بأمر غيره وصلنا إليه.

وأضيف إلى الله تعالى لأن مجيئه ومرويته [من عنده] ^(٢) وأضيف إلى الرسول لأن ظهوره في حقنا كان به.

وهذا كما أضيف ما وعاه القلب إلى الأذن بقوله: ﴿وَقَبَّحْنَا أَذُنَ رَئِصَةٍ﴾ [الآية: ١٢] لأنه إنما يوصل إلى الوعي بالأذن. فعلى ذلك أضيف القول إلى الرسول من حيث كان سماع الخلق من جهة الرسول ﷺ ثم الأصل أن الكلام والقول لا يسمعان، وإنما المسموع منهما الصوت الذي يعرف بالكلام، والقول يدل عليه، لا أن يكون كلامه في الحقيقة صوته، فينسب أيضاً هذا القرآن إلى كلام الله تعالى لما يدل على كلامه لا أن يكون المسموع في الحقيقة، هو كلامه من النبي ﷺ أتاكم به لقول تلقاه من عند الله الرسول الكريم، فيذكركم هذا ليؤمنتم من تخليط يقعون فيه من الشياطين وغيرهم من الأعداء.

ثم جائز أن يكون الرسول الكريم، هو جبريل، كما قال تعالى في سورة ﴿إِذَا الشَّشُ كُورَتْ﴾: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ و ٢٠].

ويحتمل: أن يكون الرسول الكريم، هو / ٥٩٤ - / محمد ﷺ. والأشبه أن يكون، هو المراد، لأنهم كانوا يذكرون رسالته، ولم يكونوا يقولون في جبريل ﷺ شيئاً.

الآيتان ٤١ و ٤٢

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ أي إن هذا القرآن لقول رسول كريم، ليس بقول شاعر ولا بقول كاهن.

ثم قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ وقوله ^(٣): ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ يحتمل أن يكون تأويله: فبقليل ما تؤمنون، وبقليل ما تذكرون مما جاءكم به الرسول.

والبقليل الذي آمنوا به، وتذكروا فيه، هو الذي كان راجعاً إلى منافعهم.

فأمّا الذي كان عليهم فهم لم يؤمنوا به، ولا تذكروا فيه.

وإذا كان تأويله ما ذكرنا فانتصاب البقليل لا ينزع حزن الخافض، وفي الحقيقة انتصابه لكونه مضدراً، وهو المفعول المطلق.

وجائز أن يكون أضاف البقليل إلى قول الكاهن والشاعر ^(٤)، وتأويله: أن الأمر ^(٥) لو كان على ما يزعمون بأنه قول كاهن وقول شاعر ^(٦) فما بالكم لا تصدقون بالبقليل منه؟ وتعلمون أن الشاعر ^(٧)، وإن كان الغالب عليه الكذب في ما يأتي، فقد يصدق في البقليل منه؟ وكذلك الكاهن، فما بالكم لا تصدقون بالبقليل منه؟ وأنتم تعلمون أنه صادق.

فإن كان على هذا فهو في موضع إيجاب الحق عليهم أن يصدقوه ^(٨)، وإن كان على التأويل الأول ففيه إضمار أنهم لا يؤمنون إلا بالبقليل منه، والله أعلم.

الآية ٤٣

وقوله ﷻ: ﴿نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْغَلْبِ﴾ فالتنزيل في الحقيقة لا يحتمل أن يسمع لأنه إخبار عن فعله، وإنما الذي يسمع منه المنزل على رسول الله ﷺ ثم أضاف إلى نفسه التنزيل ليعلم أن هذه الأخبار، وهي ^(٩) قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: والساحر.

(٥) في الأصل وم: الأمور. (٦) في الأصل وم: ساحر. (٧) في الأصل وم: الساحر. (٨) من م، في الأصل: يصدقون. (٩) في الأصل وم:

رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿نَزِيلٌ﴾ خَرَجَ عَلَى الْمَجَازِ لَيْسَ عَلَى التَّحْقِيقِ، لَأَنَّ التَّنْزِيلَ، هُوَ إِنزَالُهُ، فَسُمِّيَ تَنْزِيلًا لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَلَّفَهُ الْإِنزَالَ، لَا أَنْ يَكُونَ، هُوَ الَّذِي تَوَلَّى الْإِنزَالَ، وَإِنْ كَانَ، هُوَ خَالِقُهُ.

الآية ٤٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ فهذا على ما تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿رَبِّمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٍ﴾ [الآيتان: ٤٠ و ٤١] وعليه وقوع القسم، وهو مَوْضِعُهُ، فكانه يقول: إِنَّ الَّذِي تَلَقَّاهُ مِنْ عِنْدِهِ رَسُولٌ كَرِيمٌ، وَمَا هُوَ يَقُولُ، تَلَقَّاهُ مِنْ كَاهِنٍ أَوْ شَاعِرٍ^(١)، وَلَا يَقُولُ تَقَوْلَهُ عَلَيْنَا ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿لَاخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ ﴿ثُمَّ لَنَقْلَعَنَّ مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الآيتان: ٤٥ و ٤٦].

وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ الَّذِي يَسْمَعُونَ مِنْهُ رَسُولٌ كَرِيمٌ، وَلَيْسَ بِشَاعِرٍ وَلَا كَاهِنٍ وَلَا مُتَقَوِّلٍ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَرَّةً يَنْسُبُونَهُ إِلَى الْكُهَانَةِ وَمَرَّةً إِلَى السُّحْرِ وَمَرَّةً أَنَّهُ تَقَوْلُهُ عَلَى اللَّهِ ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿لَاخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ يُبَيِّنُ أَنَّ عَذَابَ اللَّهِ بِأَخْصَ عِبَادِهِ أَسْرَعُ وَقَوْعًا، إِذَا هُمْ خَالَفُوهُ، وَزَلُّوا، مِنْهُ بِأَعْدَائِهِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ ﴿لَاخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ فَتَبَيَّنَ أَنَّهُ لَوْ وَجَدَ مِنْهُ شَيْءٌ مِمَّا قَالُوا لَأَخَذَهُ^(٢) عَلَى الْمَكَانِ؟

أَلَا تَرَى إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا حَلَّ بِهِ عِنْدَمَا ابْتُلِيَ بِالزُّلَّةِ وَالْخِلَافِ؟ وَكَذَلِكَ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا عُوقِبَ بِهِ عَلَى إِثْرِ الزُّلَّةِ؟ وَهَذَا لِأَنَّ عَذَابَ الْأَوْلِيَاءِ يُخْرِجُ مُخْرَجَ التَّنْبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ وَالْإِسْتِدْعَاءِ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ قَبْلَ ارْتِكَابِهِمُ الزُّلَّةَ، وَلَا كَذَلِكَ عَذَابُ الْأَعْدَاءِ [إِذْ آخِرًا]^(٣) عَذَابُهُمْ إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي يَدُومُ عَلَيْهِمْ فِيهِ الْعَذَابُ.

وفيه وَجْهٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنَّ الَّذِي سَمِعْتُمُوهُ^(٤) مِنْهُ لَوْ كَانَ سِحْرًا أَوْ شِعْرًا أَوْ كِهَانَةً أَوْ تَقْوَلًا^(٥) لَكَانَ لَا يُمَهِّلُهُ اللَّهُ تَعَالَى، بَلْ يُؤَاخِذُهُ عَلَى [مَا كَانَ مِنْهُ]^(٦) مِنْ غَيْرِ عَجْزٍ^(٧) كَمَا قَالَ: ﴿فَمَا مَكْرُومٌ أَمْرٌ عَنْهُ حَنِيزِينَ﴾ [الآية ٤٧] فإِمَهَالُهُ دَلٌّ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَمَا قَالُوا، بَلْ هُوَ ﴿نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الآية: ٤٣].

الآية ٤٥

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَاخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ فَأَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى عَذَابَهُ وَعُقُوبَتَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاخْذَثْهُمْ بِالنَّاسِ وَالْقُرْآنِ﴾ [الأنعام: ٤٢] وَقَوْلِهِ ﴿فَاخْذَثْهُمْ بِقَنَةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِالْيَمِينِ﴾ أَيِ بِالْقُوَّةِ، أَيْ لَا يُعْجِزُنَا^(٨) مِنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَقْوُنَا عَذَابَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَوِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠ والمعارج: ٤١] أَيْ لَا يُعْجِزُنَا مَا عَنْدَهُ مِنَ الشَّرَفِ وَالْقُوَّةِ مِنْ أَنْ نُوَاخِذَهُ، وَنُنْزِلَ عَلَيْهِ الثَّقَمَةَ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْيَمِينُ صِلَةُ الْقَوْلِ لَا عَلَى تَحْقِيقِ الْيَدِ، فَذَكَرَ الْيَمِينِ لِأَنَّ التَّأْدِيبَ فِي الشَّاهِدِ وَالْأَخْذَ، يَقَعُ بِهَا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي بِنَايَ قَدَمَتِ يَدَايَ﴾ [الحج: ١٠] فَأَصَابَتْ التَّقْدِيمَ إِلَى الْيَدِ لَا عَلَى تَحْقِيقِ الْيَدِ؛ إِذْ يَجُوزُ أَلَّا يَكُونَ لِيَدَيْهِ بِمَا قَدَّمَ صُنْعٌ، لَكِنْ لِمَا كَانَ التَّقْدِيمُ فِي الشَّاهِدِ يَقَعُ بِالْأَيْدِي. فَذَكَرَتْ الْيَدَانِ عَلَى ذَلِكَ لَا عَلَى تَحْقِيقِ الْفِعْلِ بِهَمَا. فَكَذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْيَمِينُ ذِكْرٌ لِمَا بِهَا يَقَعُ الْأَخْذُ وَالتَّأْدِيبُ فِي الشَّاهِدِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ يَمِينٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالْيَمِينُ الْقُوَّةُ، وَسُمِّيَتْ الْيَمِينُ يَمِينًا لِأَنَّ قُدْرَةَ الرَّجُلِ تَكُونُ فِيهَا، وَسُمِّيَ مُلْكُ الرَّقَابِ مُلْكٌ يَمِينٌ لِأَنَّ مُلْكَ الْيَمِينِ يُكْتَسَبُ بِالْقَهْرِ وَالْعَلَبَةِ، وَإِنَّمَا يَصِلُ الْمَرْءُ إِلَى الْقَهْرِ وَالْعَلَبَةِ بِالْقُوَّةِ، فَسُمِّيَ مُلْكٌ يَمِينٌ لِهَذَا، لَا أَنْ يُرَادَ بِذِكْرِ الْيَمِينِ تَحْقِيقُ الْيَمِينِ؛ إِذْ الْيَدُ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا حَتَّى يُضَافَ إِلَيْهَا، فَكَذَلِكَ فِي مَا أُضِيفَ مِنَ الْيَمِينِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَالْمُرَادُ مِنْهُ الْقُوَّةُ.

الآية ٤٦

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَنَقْلَعَنَّ مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [قِيلَ: الْوَتِينُ]^(٩) عِرْقٌ فِي الْقَلْبِ، وَقِيلَ: حَبْلٌ فِي الْقَلْبِ، وَقِيلَ: هُوَ الْعِرْقُ الَّذِي إِذَا قُطِعَ مَاتَ صَاحِبُهُ، وَهُوَ عِرْقٌ مُتَّصِلٌ بِالظُّهْرِ، فَكَانَهُ قَالَ: نَعَذِّبُهُ عَذَابًا، لَا بَقَاءَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ الْعَذَابِ، وَهَذَا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: سَاحِر. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَأَخْذَنَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَأَخْر. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: سَمِعْتُمْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: تَقَوْلَةً. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَكَان. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ عَجَزُوا. (٨) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ وَم: يَعْجِزُهُ مَا. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

مِنْ أَعْظَمِ آيَاتِ الرِّسْلِ^(١) فِي أَنَّهُمْ مَتَى زَلُّوا أُخِذُوا عَلَى [مَا كَانَ مِنْهُمْ]^(٢)، وَيَكُونُ فِيهِ أَمَانُ الْخَلْقِ مِنْ إِحْدَاثِ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ مِنَ الرِّسْلِ لِأَنَّهُمْ لَوْ غَيَّرُوا لَعَذَّبُوا.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَذَكَّرُ أَلَيْسَ﴾ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ زِيَادَةً فِي الْكَلَامِ، وَحَقُّهُ الْإِسْقَاطُ، وَيَكُونُ مَعْنَاهُ: لَا تَحْذَرُوا بِالْيَمِينِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ لَا تَحْذَرُوا مِنْ تَقْوِيلِهِ وَسِحْرِهِ وَكِهَانَتِهِ بِالْيَمِينِ؛ فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا فَحَقُّهُ الْإِثْبَاتُ، وَلَيْسَ بِصِلَةٍ زَائِدَةٍ.

الآية ٤٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا يَنْكُرُونَ لِمَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا نَعْمَلُ لَهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فِي هَذَا يَأْسُ مِنْهُ لَأُولَئِكَ الْكَفَرَةُ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَطْعَمُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَتْبَاعَهُمْ وَمُؤَافَقَتَهُمْ عَلَى مِلَّتِهِمْ، فَخَبِرَ أَنَّهُ لَوْ أَجَابَهُمْ^(٣) لَقَطَعَ مِنْهُ وَتَبَنَّهُ، وَأَخَذَهُ، لَا يَمْلِكُونَ مَنَعَ ذَلِكَ عَنْهُ وَلَا دَفَعَهُ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَنْصُرُهُ عِنْدَ ذَلِكَ، أَوْ يَخْجِزُهُ عَنَّا. وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﷺ: ﴿لَنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الْوَلِيِّ أَوْ حِسَابًا إِلَيْكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣ و ٧٤ و ٧٥].

الآية ٤٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَلْعَلْ أَلَمٌ لِّلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ فَالْمُتَّقُونَ هُمُ الْمُؤَحِّدُونَ؛ فَسَمَاهُمْ مَرَّةً مُتَّقِينَ وَمَرَّةً صَابِرِينَ وَمَرَّةً شَاكِرِينَ كَقَوْلِهِ ﷺ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] وَهُوَ تَذَكُّرٌ لِأَنَّهُ يُذَكِّرُهُمُ الْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ وَمَا يُتَّقَى وَمَا يُؤْتَى وَغَيْرَ ذَلِكَ. فَهُوَ تَذَكُّرٌ؛ يَعْنِي الْقُرْآنَ.

الآية ٤٩ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَلْعَلْ أَنْ يَنْكُرَ مُكْذِبِينَ﴾ أَي بَيِّنَاتِي وَرُسُلِي، ثُمَّ تُمَهِّلُهُمْ^(٤)، فَهُوَ صِلَةٌ قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ نَفَرْنَا عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ آلَافًا وَيْلًا﴾ [الآية: ٤٤] فَبَيَّنَ أَنَّهُ مَعَ كَذِبِهِمْ بَيِّنَاتِي وَرُسُلِي يُمَهِّلُهُمْ، وَلَا يَعْجَلُ عَلَيْهِمْ بِالْعُقُوبَةِ، وَلَوْ وَجَدَ التَّقْوِيلَ مِنَ الرِّسْلِ لَكَانَ يَسْتَأْصِلُهُ، وَيَقْطَعُ وَتَبَنَّهُ.

فَهُوَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا أَنَّ عَذَابَهُ عَلَى خَوَاصِّ عِبَادِهِ أَسْرَعُ وَقَوْعًا، إِذَا خَالَفُوا، مِنْهُ بِأَعْدَائِهِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ [قَوْلُهُ ﷺ] ^(٥) ﴿وَلَا تَلْعَلْ أَنْ يَنْكُرَ مُكْذِبِينَ﴾ هُمُ الْمُنَافِقُونَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُظْهِرُونَ/ ٥٩٤ - ب/ الْمُؤَافَقَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالسُّتَيْبِ، وَيُخَالِفُونَهُ، وَيُكَذِّبُونَهُ، يَقْلُوبُهُمْ، فَيَكُونُ هَذَا التَّأْوِيلُ رَاجِعًا إِلَى أَهْلِ التَّفَاقِي.

وَالتَّأْوِيلُ الْأَوَّلُ إِلَى أَهْلِ الْكُفْرِ الَّذِينَ أَظْهَرُوا التَّكْذِيبَ.

الآية ٥٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَلْعَلْ لَحْسَرَةُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أَي الْقُرْآنُ^(٦) حَسْرَةٌ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفِّعٌ لِمَنْ أَتْبَعَهُ، وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، وَمَا حَلَّ مُصَدِّقٌ، وَلِمَنْ تَبَدَّهَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَهُوَ حَسْرَةٌ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُ يُخَاصِمُهُمْ، فَيُخَصِّمُهُمْ، وَيَشْهَدُ عَلَيْهِمْ، فَيَصُدِّقُ [فِي] ^(٧) شَهَادَتِهِ، وَيَذْكُرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَامِلَتَهُمْ بِالْقُرْآنِ، فَيَنْدَمُونَ عَلَيْهِ، وَيَزِيدُهُمْ حَسْرَةً لِأَنَّهُمْ إِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ فِي الدُّنْيَا أَزْدَادُوا عِنْدَ تِلَاوَتِهِ ضَلَالًا وَكُفْرًا، وَأَزْدَادُوا بِوَجْهِهِ إِلَى رَجْسِهِمْ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا أَلْبِسُ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمًى فَرَادَتْهُمْ إِلَى رَجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] وَهُوَ لَيْسَ بِسَبَبٍ لِإَزْدِيَادِ الرِّجْسِ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يُخْدِثُونَ زِيَادَةً تَكْذِيبَ وَضَلَالٍ عِنْدَ التَّلَاوَةِ، فَأَضْيَقَتْ الزِّيَادَةُ إِلَى الْقُرْآنِ، إِذْ كَانَ الْقُرْآنُ، هُوَ الَّذِي يُخْمِلُهُمْ عَلَى زِيَادَةِ التَّكْذِيبِ.

فَهَذِهِ الْمُعَامَلَةُ تَزِيدُهُمْ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَضْيَقَتْ إِلَى الْقُرْآنِ، إِذْ كَانَ الْقُرْآنُ هُوَ الَّذِي عِنْدَهُ [مَا] ^(٨) وَقَعُوا فِيهِ كَمَا أَضْيَقَ الرِّجْسُ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥١ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَلْعَلْ لَعْنُ الْآتِينَ﴾ وَالْأَصْلُ أَنَّ الْحَقَّ اسْمٌ لِمَا يُخْمَدُ عَلَيْهِ، فَحَقُّهُ أَنْ تَنْظُرَ فِي مَا تُسْتَعْمَلُ هَذِهِ اللَّفْظَةُ، فَتَضَرِّقَهَا إِلَى أَحَدِ الرَّجْوِ:

فَإِذَا اسْتُعْمِلَتْ فِي الْأَخْبَارِ أُريدَ بِهَا الصُّدُقُ نَحْوُ أَنْ يَقَالَ: هَذَا خَبَرٌ حَقٌّ أَيْ صِدْقٌ. وَإِذَا اسْتُعْمِلَتْ فِي الْحُكْمِ أُريدَ بِهَا الْعَدْلُ. وَإِذَا اسْتُعْمِلَتْ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ أُريدَ بِهَا الْإِضَافَةُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الرِّسَالَةُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَكَانَ. (٣) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ وَم: أَجَابُوهُ. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَهْلِكُهُمْ.

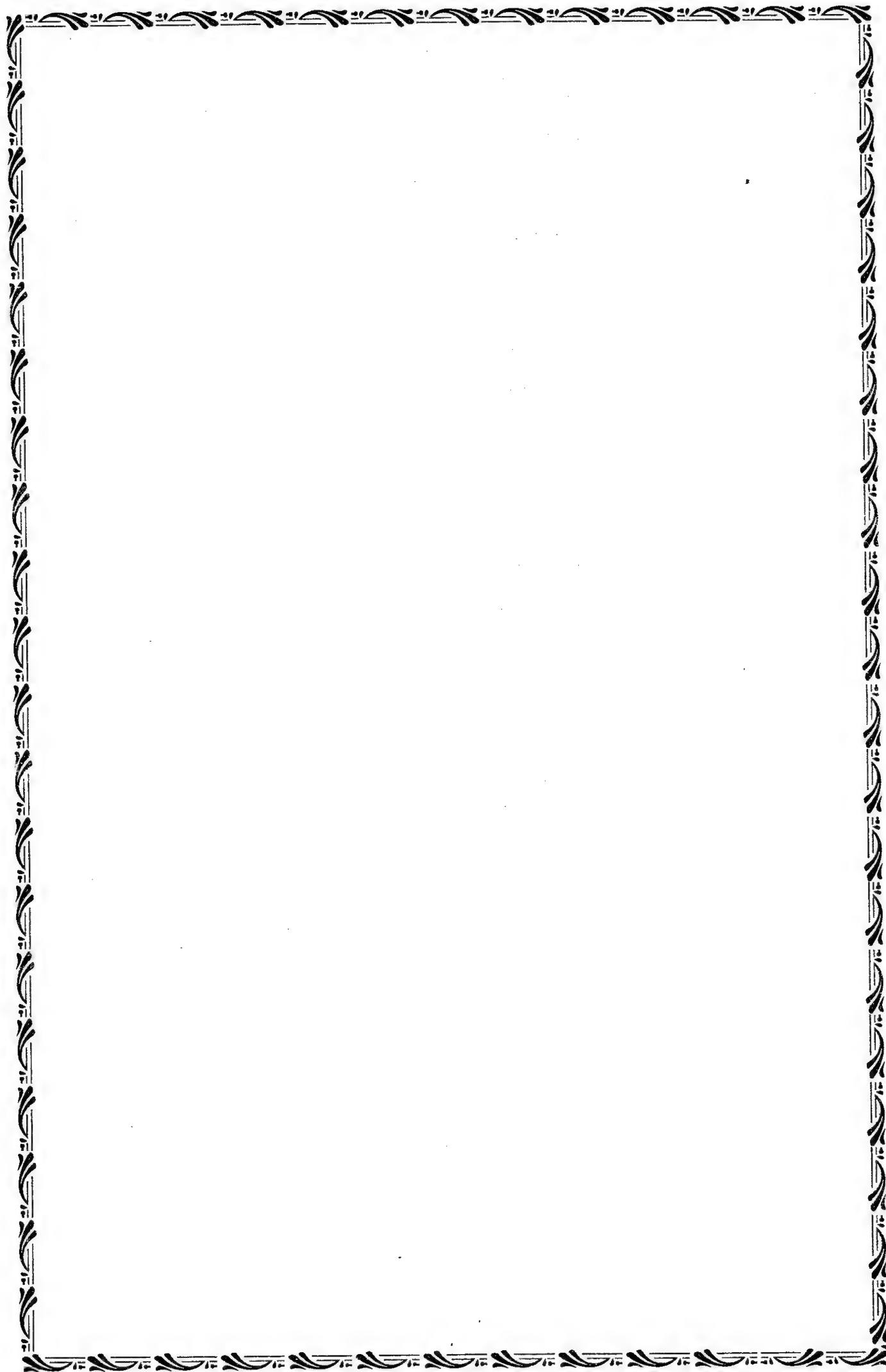
(٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: الْعَذَابُ. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

فَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَرَأَيْتُمُ اللَّيْلَ لَمَّحًا الْبَیِّنَ﴾ أَي صِدْقٌ، وَيَقِينُ أَنَّهُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَهُوَ صَلَّاهُ قَوْلُهُ ﷺ: ﴿نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْغَالِبِينَ﴾ [الآية: ٤٣].

الآية ٥٢ ﴿فَسَجَّ بِأَنفِ رِيحٍ الْغَلِيظِ﴾ قِيلَ: صَلَّ، وَقِيلَ: اذْكُرْهُ بِالْأَسْمِ الَّذِي إِذَا سَمَّيْتَ كَانَ تَسْبِيحاً أَوْ تَنْزِيهاً عَنْ كُلِّ مَا قَالَتْ فِيهِ الْمَلَاحِدَةُ، وَمَا نَسَبَتْ إِلَيْهِ، مِمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).



(١) في م: الهادي، وعليه التكلان.



سورة المحارج

[وهي مكية^(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و ٢

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [الْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ] ﴿فَرَىٰ بِتَشْكِينٍ الْأَلْفَ﴾^(٢) وَمَعْنَاهُ: سَأَلَ وَادٍ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ، أَي جَزَى وَادٍ بِعَذَابٍ وَاجِبٍ.

والقراءة العامة بالهمزة مِنَ السَّوَالِ؛ وتَأْوِيلُهُ عَلَى سَوْالِ الْقَوْمِ الْعَذَابَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْلِمْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وَقَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا عَمَلْنَا فِطْنًا﴾ [ص: ١٦].

وقيل: هُوَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ سَأَلَ ذَلِكَ، فَقُتِلَ يَوْمَ بَذْرِ بَغْدَاسِيرٍ. هَكَذَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ، وَلَكِنْ عِنْدَنَا أَنَّ هَذَا، وَإِنْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ خَارِجًا مَخْرَجَ السَّوَالِ، لَكِنْ لَمْ يَكُنْ سَوْالُهُ هَذَا لِيُنْزَلَ بِهِ الْعَذَابُ فِي التَّحْقِيقِ، وَإِنَّمَا هَذَا مِنْهُ عَلَى جِهَةِ الْإِسْتِعَادِ بِالْعَذَابِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَالَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى الْإِسْتِعَادِ وَالْإِنْكَارِ، هُوَ أَنَّهُ كَانَ [عِنْدَ]^(٣) أَهْلِ مَكَّةَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِيهِمْ نَبِيٌّ لَكَانُوا هُمْ أَحَقُّ بِالنَّبِيَِّّةِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ [بُسِطَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا، وَهُمْ الَّذِينَ]^(٤) لَهُمْ نَفَاذُ الْكَلَامِ فِي الْبِلَادِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يُبْسَطْ لَهُ الدُّنْيَا، وَلَا كَانَ لِكَلَامِهِ فِي مَا بَيْنَهُمْ نَفَاذٌ، فَيُظَنُّونَ بِهَذَا أَنَّهُمْ أَقْرَبُ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ فِي الْعَقْلِ أَنْ يَصِلَ الرَّبُّ إِلَى عَدُوِّهِ، وَيُحْسِنَ إِلَيْهِ^(٥)، وَيَدْعَ صِلَةً وَلَيْهِ، وَيُخْفِيَهَا^(٦).

فهذا الظَّنُّ الَّذِي ذَكَّرْنَا هُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى تَكْذِيبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَا يُخْبِرُهُمْ مِنْ حُلُولِ الْعَذَابِ بِالتَّكْذِيبِ، وَعَلَى الْإِسْتِهْزَاءِ بِهِ. فَكَانَ سَوْالُ السَّائِلِ عَلَى جِهَةِ [اِسْتِعَادِ إِمْكَانِ الْعَذَابِ]^(٧) لَا أَنْ كَانُوا مُقَرَّرِينَ^(٨) بِهِ، ثُمَّ اسْتَعَجَلُوهُ.

وَذَكَرَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ يَوْمَ [بَدْرٍ]^(٩): اللَّهُمَّ انْصُرْ أَبْرَثَنَا قَسَمًا وَأَوْصَلْنَا رَجَمًا وَأَقْرَأْنَا لِلصَّيْفِ.

فَكَانَ يَدْعُو بِهَذَا لِمَا عِنْدَهُ أَنَّهُ أَشْرَفُ حَالًا وَأَعْلَى مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ ﷻ [مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَاتِّبَاعِهِ. وَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُ فَهُوَ وَلِيُّ الْإِمَّةِ. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى]^(١٠): ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْلِمْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ آتِيَةٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

ولو لم يكن عندهم أنهم أقرب منزلة وأحق أن يكونوا أولياء، وإلا لم يكونوا يَجْتَرِئُونَ أَنْ يَسْأَلُوا بِهَذَا.

فهذه الشبهة التي ذَكَّرْنَاهَا [هِيَ]^(١١) الَّتِي أَوْرَثَتْ لَهُمْ مَا ذَكَّرْنَا مِنَ الظَّنِّ حَتَّى زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِالرَّسَالَةِ.

وُظِنَهُمْ هَذَا يَتَوَلَّدُ مِنْ إِبْلِيسَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ إِبْلِيسَ ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] فَظَنَّ أَنَّ أَمْرَ الْفَاضِلِ لِلْمَفْضُولِ بِالسُّجُودِ فِي الْخُضُوعِ لَهُ خَارِجٌ عَنْ حُدِّ الْحِكْمَةِ، فَصَارَ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنَ الْخِزْيِ وَاللُّغْنِ.

فكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ لَمَّا رَأَوْا [مَا رَأَوْا]^(١٢) مِنْ نَفَاذِ كَلِمَتِهِمْ وَسَعَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا ظَنُّوا أَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ إِذِ التَّوَسُّعُ عِنْدَهُمْ دَلَالَةُ الْوِلَايَةِ وَالْقُرْبِ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/٢١٦. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: عليه. (٦) في الأصل وم: ويخفوه. (٧) في الأصل وم: الاستبعاد والامكان للعذاب. (٨) من م، في الأصل: مقرنين. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

ثم سَفَّهُهُمْ، هو الذي حَمَلَهُمْ عَلَى التَّكْبِيرِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَرَكَ الْخُضُوعَ، وَإِلَّا لَوْ أَعْطَوْا النَّصْفَةَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا هُمْ أَطْوَعُ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى مَنْ كَثُرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ مِنْ آخَرٍ أَنْ يَكُونَ هُوَ أَشْكَرَ لِلنِّعَمِ وَأَطْوَعُ لَهُ فِي مَا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنَ الَّذِي قَلَّتْ نِعْمُهُ عَلَيْهِ.

فَإِذَا كَانُوا مُؤْمِرِينَ أَنْ نِعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَكْثَرُ وَإِحْسَانُهُ إِلَيْهِمْ أَوْفَرُ أَوْجَبَ مَا ذَكَرُوا أَنْ يَكُونُوا هُمْ الزَّمَّ لَطَاعِيَهُ وَأَخَذَ لِمَا يَأْمُرُ بِهِ. وَكَذَلِكَ إِبْلِيسُ اللَّعِينُ إِذَا رَأَى لِنَفْسِهِ فَضْلًا، وَاسْتَوْجَبَ^(١) ذَلِكَ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ كَانَ الْحَقُّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَسَارَعَ إِلَى طَاعِيَتِهِ، وَيَتَفَادَى لِمَا أَمَرَهُ بِهِ، لَا أَنْ يُظْهِرَ الْخِلَافَ مِنْ نَفْسِهِ وَتَرَكَ الْإِثْمَارَ بِأَمْرِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَذَابُّ وَيَقِرُّ﴾ أَيُّ هُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مُحَالَةٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ وَاقِعٌ بِمَعْنَى سَيَقَعُ كَمَا يُقَالُ: قَابِلٌ أَيْ سَيَقْبَلُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ فَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿يَذَابُّ وَيَقِرُّ﴾ فَحَقُّهُ أَنْ يَقُولَ: عَلَى الْكَافِرِينَ، وَلَكِنَّ اللَّامَ مِنْ حُرُوفِ الْإِضَافَةِ وَالْحَفْضِ، وَحُرُوفُ الْإِضَافَةِ مِمَّا يُسْتَبَدَّلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، فَجَعَلَ اللَّامَ بَدَلًا عَنْ عَلَى.

وَأِنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ فَمَعْنَاهُ أَنْ لَيْسَ عَلَى الْكَافِرِينَ دَافِعٌ لِعَذَابِ اللَّهِ ﷻ بَلْ وَاقِعٌ بِهِمْ، لَا مُحَالَةٌ، فَأَبْدَلَتِ اللَّامُ فَكَانَ عَنْ لَانَهُمَا جَمِيعًا مِنْ حُرُوفِ الْحَفْضِ. / ٥٩٥ - أ /

وَقَدْ يُدْفَعُ الْعَذَابُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَجْهِ: إِمَّا بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِمَّا^(٢) بِشَفَاعَةِ الرُّسُلِ وَالْأَخْيَارِ، وَإِمَّا بِحَسَنَاتٍ^(٣) سَبَقَتْ مِنْهُمْ، فَجَبَّ تَكْفِيرُ سَيِّئَاتِهِمْ.

فَأَمَّا الْكَافِرُ فَلَا تَنَالُهُمْ رَحْمَتُهُ، وَلَا شَفَاعَةُ أَحَدٍ مِنَ الْخَلَائِقِ، وَلَيْسَتْ لَهُمْ حَسَنَاتٌ تُكَفِّرُ سَيِّئَاتِهِمْ، فَلَيْسَ لَهُمْ مَا يَدْفَعُ الْعَذَابَ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: إِنَّ الَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُ يَنْصُرُهُمْ عِنْدَ النَّوَائِبِ وَحُلُولِ الشَّدَائِدِ، لَا يَقُومُ بِنَصْرِهِمْ وَلَا يَشْفَعُ لَهُمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَّبِدُونَ الْمَلَائِكَةَ عَلَى رَجَاءٍ أَنْ يَشْفَعُوا لَهُمْ، وَيَقْرَبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ أَيُّ ذَلِكَ الْعَذَابُ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذُو الْعَرْشِ لِلْجِدِّ أَيُّ الَّذِي لَهُ الْعَرْشُ﴾.

وَاخْتَلَفُوا فِي الْمَعَارِجِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ^(٤) الْمَصَاعِدُ، وَهِيَ السَّمَاوَاتُ، وَسَمَاهُنَّ مَصَاعِدُ، لِأَنَّ بَعْضَهَا أَصْعَدُ مِنْ بَعْضٍ وَأَرْفَعُ، وَلَوْ قَالَ: ذِي الْمَسَافِلِ كَانَ مُسْتَقِيمًا، وَاقْتَضَى [قَوْلُهُ مَا يَقْتَضِي]^(٥) ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ لِأَنَّ بَعْضَهَا إِذَا كَانَ أَصْعَدَ [فَإِنَّ]^(٦) الَّذِي تَحْتَهَا أَهْبَطَ وَأَسْفَلَ. وَلَكِنْ ذَكَرَ الْمَصَاعِدَ لِأَنَّ هَذَا أَعْلَى فِي الْوُضُفِ.

ثُمَّ فِي ذِكْرِ هَذَا عِظَمُ نِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ عَلَى خَلْقِهِ حِينَ^(٧) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ مَسْكِنًا لِأَهْلِهَا، وَخَلَقَ الْأَرْضَ مَسْكِنًا حَتَّى إِذَا عَرَفُوا هَذَا عَرَفُوا أَنَّ لَهُ أَنْ يُفْضَلَ بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ، وَلَهُ أَنْ يَضْطَفِيَ مَنْ يَشَاءُ مِنَ النَّاسِ لِلرِّسَالَةِ، وَيَخْتَصَّ بِهَا، وَذَكَرَهُمْ أَيْضًا حِكْمَتَهُ وَعِلْمَهُ وَقُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَهُ أَنَّهُ حِينَ^(٨) وَضَعَ سَمَاءَ [عَلَى سَمَاءٍ]^(٩) وَخَلَقَهُنَّ طِبَاقًا مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ تَحْتَهَا، تُنْسِكُهَا أَوْ عَلَاتِقَ مِنْ قُوَّهَا، تَرِبْطُهَا، يَبِينُ^(١٠) أَنَّهُ يُنْسِكُهَا بِحِكْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ. فَيَكُونُ فِي ذِكْرِ كُلِّ وَجْهِ فِي مَا ذَكَرْنَا إِزَالَةَ الشُّبْهَةِ الَّتِي اغْتَرَضَتْ لَهُمْ فِي أَمْرِ الْبُعْثِ وَالرِّسَالَةِ، وَلِيُضَاحَ بَانَ مَنْ قَدَرَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ بَعْدَ الْإِنْفَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ الْمَعَالِي: أَيُّ الَّذِي لَهُ الْعُلُوفُ وَالرَّفْعَةُ كَمَا قُلْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أَيُّ لَا أَحَدٌ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ فِي الْحَقِيقَةِ، وَمَا حَمِدَ أَحَدٌ إِلَّا وَذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ لِلَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ بِهِ اسْتِقَادَةُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَإِنَّمَا اسْتَوْجَب. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الْحَسَنَات. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: هِيَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا يَقْتَضِي قَوْلَهُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٧) وَ (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: ثَنِينَ.

فَعَلَىٰ ذَٰلِكَ قَوْلُنَا: لَهُ الْعُلُوُّ وَالرَّفْعَةُ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ]:

أَخَذَهُمَا: ^(١) أي ليس أحدٌ يَسْتَفِيدُ الْعُلُوَّ والكرامةَ إِلَّا وَحَقِيقَةُ ذَٰلِكَ لِلَّهِ تَعَالَى، لَأَنَّهُ اسْتَفَادَهُ بِهِ.

والثاني: أي هو الموصوف بالْعُلُوَّ وَالْجَلَالِ عَمَّا يَنْبَغُ عَلَيْهِ أَوْهَامُ الْخَلْقِ.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿تَنْزِيلُ﴾ ليس عن هبوط: يُصْعَدُ، وَيُغْرَجُ. لكنْ أَنشَأَهُمْ كَذَٰلِكَ مَعْرُوجِينَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْفَارِ﴾ [الزمر: ٦] أي أَنشَأَهُمْ كَذَٰلِكَ، وقَوْلِهِ: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧] [لَيْسَتْ أَنهَا كَانَتْ] ^(٢) فِي مَوْضِعٍ مُنْحَطٍّ، فَرَفَعَهَا، لَكِنُّهُ كَذَٰلِكَ خَلَقَهَا مَرْفُوعَةً.

فَعَلَىٰ ذَٰلِكَ قَوْلُهُ: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَكِ﴾ أي أَنشَأَهُمْ؛ كَذَٰلِكَ اسْتَعْمَلَهُمْ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

ووجهٌ آخَرُ، هو الْأَشْبَهُ بِالْآيَةِ، وهو ما قالوا: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ إِلَيْهِ أي إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي عَنْهُ أَرْسَلَهُمْ إِلَى أَنْوَاعِ الْأُمُورِ فِي يَوْمٍ، لَوْ قُدِّرَ ذَٰلِكَ الْغُرُوجُ بِغُرُوجِ الْبَشَرِ وَسِيرِهِمْ لَكَانَ مِقْدَارُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وقال في مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا تَعْدُونَ﴾ [السجدة: ٥] فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَٰذَا الْوَقْتُ وَقْتُ تَقْدِيرِ غُرُوجِ الْمَلَائِكَةِ وَصُعودِهِمْ، وهو أَنَّ الْبَعْضَ مِنْهُمْ ^(٣) يَنْزِلُ، ثُمَّ يَغْرُجُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، بِمِقْدَارِ ذَٰلِكَ الْمَسِيرِ أَلْفَ عَامٍ، وَالْبَعْضُ مِنْهُمْ يَنْزِلُ، وَيَغْرُجُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مَسِيرَةَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

فَيَكُونُ فِي هَٰذَا إِبَانَةٌ أَنَّ لَيْسَ [أَهْلُ] ^(٤) سَمَاءٍ أَحَقُّ أَنْ يَدُورَ عَلَيْهِمْ تَدْبِيرُ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ أَهْلِ سَمَاءٍ، بَلْ يَنْزِلُ أَهْلُ سَمَاءٍ إِلَى الْأَرْضِ مَرَّةً لِمَا يُرَادُ مِنْ تَدْبِيرٍ، وَيَنْزِلُ أَهْلُ سَمَاءٍ أُخْرَى بِتَدْبِيرٍ آخَرَ.

ثُمَّ أَيُّ [أَهْلِ] ^(٥) سَمَاءٍ يُرْسَلُ، فهو يَصْعَدُ إِلَى تِلْكَ السَّمَاءِ بِيَوْمٍ وَاحِدٍ، إِنَّ أُرْسِلَ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ أَوِ السَّادَةِ أَوِ الْأُولَى، فهو يَصْعَدُ إِلَيْهَا فِي ذَٰلِكَ الْيَوْمِ، فَيَكُونُ فِي هَٰذَا تَبْيِينُ قُوَّةِ بَعْضِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى بَعْضٍ: أَنَّ فِيهِمْ مَنْ يَسِيرُ مَسِيرَةَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، وَفِيهِمْ [مَنْ] ^(٦) يَسِيرُ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَمَنْ قَدَّرَ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ فِي خَلْقٍ مِنْ خَلْقِهِ مِنْ الْقُوَّةِ مَا يَقْطَعُ هَٰذِهِ الْمَسَافَةَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يُعْجِزَهُ شَيْءٌ.

فَيَكُونُ فِي ذِكْرِ هَٰذَا تَحْقِيقُ كَوْنِ مَا بِهِ هُوَلُوا مِنَ الْقِيَامَةِ وَالْبَعْثِ.

وجائزٌ ^(٧) أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ رَاجِعاً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ فَذَكَرَ فِي مَوْضِعٍ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] وَذَكَرَ هُنَا: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

فَالْأَصْلُ أَنَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمَ لَيْسَ بِذِي حَدٍّ، وَلَا لَهُ غَايَةٌ، يَنْتَهِي إِلَيْهِ، يُخْبِرُ فِيهِ عَنِ الْحَدِّ؛ فهو يُخْرِجُ مُخْرَجَ تَعْظِيمِ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ لِيَقَعَ بِهِ التَّهْوِيلُ وَالتَّفْزِيعُ، فَبِأَيِّ شَيْءٍ يَعْظُمُ ذِكْرُهُ فِي الْقُلُوبِ يُذَكَّرُ بِالْخُلُودِ، وهو قَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤] وَمَرَّةً قَالَ: ﴿لَيَبْنَينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبي: ٢٣] وَمَرَّةً قَالَ: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] وَمَرَّةً قَالَ: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] إِذْ هَٰذِهِ الْأَشْيَاءُ مِمَّا تَعْظُمُ فِي الْقُلُوبِ، وَكَذَٰلِكَ الْأَلْفُ، هِيَ عَظِيمَةٌ فِي الْقُلُوبِ.

فَإِذَا كَانَتْ هَٰذِهِ الْأَشْيَاءُ يَعْظُمُ ذِكْرُهَا فِي الْقُلُوبِ فَذِكْرُ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ مِنَ الْجُمْلَةِ، أَوْ ذِكْرُ الْأَشْيَاءِ يَقْتَضِي مَعْنَى وَاحِدًا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَصْرِفُ الْأَلْفَ إِلَى تَقْدِيرِ غُرُوجِ الْخَلَائِقِ إِلَى السَّمَاءِ فِي ذَٰلِكَ الْيَوْمِ، وَيَصْرِفُ قَوْلَهُ: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ إِلَى تَقْدِيرِ الْمَقَامِ لِلْحِسَابِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوا النَّارَ.

وجائزٌ أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُهُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ، وهو أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَوْ جَعَلَ حِسَابَ الْخَلْقِ يَوْمئِذٍ إِلَى الْخَلْقِ، فَتَكَلَّفُوا أَنْ يَفْرَغُوا مِنْ حِسَابِهِمْ لَنْ يَفْرَغُوا مِنْهُ إِلَّا فِي مِقْدَارِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُلْطَفُ بِهِ يُحَاسِبُهُمْ حِسَاباً، يَفْرَغُ ^(٨) مِنْهُ فِي أَذْنَى وَقْتٍ حَتَّى يَصِيرَ [أَهْلُ] ^(٩) الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ عَلَى مَا جَاءَ فِي الْأَخْبَارِ، وَذَٰلِكَ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ليس أنه كان. (٣) أدرجت في الأصل وم بعد ينزل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يفرغون. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

قوله ﴿: أَلَفَ مَسَكُو مَنَا تَعْدُونَ﴾ [السجدة: ٥] أن كيف قَدَّرَ ذلك بصعودنا، ونحن لم نَتَمَكَّنْ مِنَ الصُّعُودِ، ولم نُشَأْ عَلَى ما في طَبْعِنَا إنشاء الصُّعُودِ حَتَّى نَنْظُرَ أَنَّهُ أَلَفَ سَنَةً أَوْ أَقَلُّ أَوْ أَكْثَرُ؟

وجوابه أن يُقَالَ: إِنَّ تَأْوِيلَهُ، والله أعلم، أنه لو بَسَطَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَصَارَ بَحِثُ يُمَكِّنُ السَّيْرَ عَلَيْهِ، لَمْ تَقْطَعْ ذَلِكَ السَّيْرَ إِذَا اخْتَجْنَا إِلَى قَطْعِهِ إِلَّا بِأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا نَعُدُّ^(١).

وجائز أن يكون تأويله أن لو جَعَلَ إِلَى السَّمَاءِ بَابًا، وَفُتِحَ، وَظَلَّلْنَا نَعْرُجُ إِلَيْهَا، لَمْ نَتَوَصَّلْ إِلَيْهَا إِلَّا فِي أَلْفِ عَامٍ.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿قَاصِرَ صَبْرًا جَبِيلًا﴾ قيل: الصَّبْرُ الجميل، هو صَبْرٌ، لَا جَزَعَ فِيهِ. وَالصَّبْرُ الَّذِي لَا جَزَعَ فِيهِ، هُوَ أَنْ يَصْبِرَ [المرء] ^(٢) صَبْرًا، لَا تَرَى عَلَيْهِ أَثَرَ الصَّبْرِ، بَلَّا يَظْهَرُ فِي وَجْهِهِ كَرَاهَتُهُ وَعَبُوسُهُ، وَهُوَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَنْ رَأَى^(٣) بِعَيْنِ الرِّضَا وَالشَّفَقَةِ، لَيْسَ السُّخْطُ وَالْكَرَاهِيَةُ. وَالصَّبْرُ الجميلُ إِلَّا بِكَافِيَّتِهِمْ، وَلَا يَدَعُ شَفَقَتَهُ وَرَحْمَتَهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يُؤْذُونَهُ.

وقد كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَذَلِكَ مُشْفِقًا [عليهم]^(٤) رَحِيمًا بِهِمْ حَتَّى بَلَغَتْ شَفَقَتُهُ وَرَحْمَتُهُ وَخُزْنُهُ عَلَى كُفَّارِ قَوْمِهِ مَبْلَغًا، كَادَتْ نَفْسُهُ تَهْلِكُ فِيهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا﴾ [فاطر: ٨] / ٥٩٥ - ب/ وَقَالَ: ﴿فَلَمَّا كُنْتُمْ تُخْرِجُونَ النَّاسَ عَلَى آثَرِهِمْ﴾ [الكهف: ٦].

فَالرَّسُلُ ﷺ كَانُوا إِذَا أَوْذُوا لَمْ يَكُونُوا يَتَحَزَّنُونَ لِمَكَانٍ أَنْفُسِهِمْ بِمَا أَوْذُوا، بَلْ كَانُوا يَخْزَنُونَ [بِمَا كَانَ]^(٥) مِنْ ذُنُوبِهِمْ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَحُلَّ بِهِمْ الْهَلَاكُ وَالْبَوَارُ بِإِذْنِهِمْ [وَهُمْ]^(٦) رَسُلُ اللَّهِ تَعَالَى، وَاشْفَاقُهُمْ عَلَى قَوْمِهِمْ، هُوَ الَّذِي كَانَ يُخْزِنُهُمْ [لَيْسَ سَوْءًا]^(٧) ضَمِيرُهُمْ وَمُعَامَلَتُهُمْ مَعَهُمْ.

الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ أَي بَعِيدًا أَنْ يَكُونَ، فَيَكُونُ عَلَى النَّفْيِ وَالْإِنْكَارِ، وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ هَذِهِ الْحُرُوفُ فِي مَوْضِعِ النَّفْيِ؛ يَقُولُ الرَّجُلُ فِي الْمُنَاطَرَةِ لِصَاحِبِهِ: أَبْعَدْتَ فِي الْقَوْلِ، وَإِذَا أَجَابَ بِشَيْءٍ، لَا ثَبَاتَ لَهُ، وَلَا صِحَّةَ؛ فَيُرِيدُ بِقَوْلِهِ: أَبْعَدْتَ النَّفْيَ، أَي لَيْسَ كَمَا تَقُولُ. وَقَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿أَوَلَيْكَ يَأْتُونَكَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] وَمَعْنَاهُ عَلَى نَفْيِ النَّدَاءِ، أَي لَا يُنَادُونَ، أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿بَعِيدًا﴾ أَي مُسْتَبْعَدًا كَوْنُهُ، فَبُعْدَ عَنْ أَوْهَامِهِمْ حَتَّى أَنْكَرُوهُ.

الآية ٧ [وقوله تعالى]^(٨): ﴿وَرَزَّهُ قَرِيبًا﴾ أَي قَرِيبًا كَوْنُهُ إِنْ كَانَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿بَعِيدًا﴾ أَي بَعِيدًا كَوْنُهُ، وَرَزَّهُ قَرِيبًا أَي كَاتَأ، وَقَدْ قُرِبَ وَقْتُ وَقُوعِ ذَلِكَ بِهِمْ. وَكُلُّ مَا هُوَ كَاتَأ، فَهُوَ قَرِيبٌ.

الآيتان ٨ و ٩ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلِ﴾ [وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ]^(٩) فَكَانَهُمْ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي وَعَدُوا أَنْ يَقَعَ بِهِمُ الْعَذَابُ: مَتَى وَقْتُهُ؟ فَتَرَكْتُ [هَاتَانِ الْآيَتَانِ]^(١٠) ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلِ﴾ [وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ]^(١١) وَقِيلَ: الْمُهْلُ: عَكْرُ الزَّيْتِ، وَهُوَ دُرْدِيَّةٌ.

فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا عَلَى التَّحْقِيقِ، وَهُوَ أَنَّهَا تَتَغَيَّرُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ لَوْنٍ إِلَى لَوْنٍ، فَتَحْمَرُّ مَرَّةً، وَتَضْفَرُ أُخْرَى لِيَشِدَّ هَوَلُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَتَكُونُ كدُرْدِيَّةِ الزَّيْتِ لِينًا وَلَوْنًا مُتَغَيِّرًا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ.

وَجَائِزٌ أَلَّا يَحُلَّ بِهَا التَّغْيِيرُ، وَلَكِنْ شِدَّةُ مَا يَنْزِلُ بِالْمَرَّةِ مِنَ الْهَوْلِ وَالْفَزَعِ تُضْعِفُ بَصَرَهُ حَتَّى يَرَى السَّمَاءَ عَلَى خِلَافِ اللَّوْنِ الَّذِي هِيَ عَلَيْهِ، وَهُوَ كَمَا تَرَى الْمَرْءُ إِذَا حَلَّ بِهِ الضَّعْفُ وَالْمَرَضُ فِي الشَّاهِدِ، وَجَدَ^(١٢) طَعْمَ الْأَشْيَاءِ عَلَى خِلَافِ مَا هِيَ عَلَيْهَا. فَيَكُونُ فِي ذِكْرِ هَذَا تَهْوِيلٌ وَتَفْزِيعٌ.

إِنَّ هَوَلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ شَدِيدٌ، لَا تَقُومُ لَهُوْلِهِ^(١٣) السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُونَ مَعَ صَلَابَتِهَا وَغِلَظِهَا فِي نَفْسِهَا، فَكَيْفَ يَقُومُ لَهُوْلِهِ^(١٤) الْآدَمِيُّ الْمَوْصُوفُ بِالضَّعْفِ وَاللَّيْنِ؟

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: تَعْدُونَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: إِرَادَهُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: بِمَكَانٍ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ: لَيْسَ سَوَاءً، فِي م: لِسَوْءٍ. (٨) وَ(٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: هَذِهِ الْآيَةُ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجْهٌ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: لِهَوْلِهَا. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: لِهَوْلِهَا.

وجائز على ما ذكرنا [أنها تصير شبيهة^(١)] بالمهل ليليتها ورخوتها، وأنها تلين، وترخو، من هول ذلك اليوم حتى تصير السماء كالمهل والجبال كالعهن، فيكون في هذا تهويل ليرجعوا عما هم فيه، ويقبلوا على عبادة الله تعالى، ويتسارعوا إلى طاعته.

وتأويل العهن ووجه تشبيه الجبال بها، يذكر بعد هذا في قوله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ قرأ يرفع الياء ونضبها^(٢).

فمن يرفع الياء فتأويله أي لا يطلب حميم من حميم، ولا يؤخذ بمكانه كما يفعل مثله في الدنيا لأن ذلك اليوم هو يوم العدل، وليس من العدل أن يؤخذ الغير بذنب الغير.

ومن قرأه بالنصب فتأويله ألا يسأل حميم حميماً من شدة ذلك اليوم وهوله النضرة والشفاعة، ولا يسأل عن حاله بما حل به من الشغل في نفسه.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿يُصْرُؤُهُمْ﴾ يختل: يعرف بعضهم عن بعض: أن هذا أبوك وابنك وحميمك، إذ لا يعرفه إلا بالتعريف لما حل به من شدة الهول والفرع. ثم إذا عرفوا لا يسألونهم، بل يعرف بعضهم من بعض كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْآزِفَةُ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [عبس: ٣٤ و...]. الآيات^(٣). أو يكون معناه أن يصروا ما سبق منهم من الذنوب والأجرام، فيعرفوها، وتصير لهم حاضرة.

الآيات ١٢ - ١٤ وقوله تعالى: ﴿يُصْرُؤُهُمْ يَوْمَ الدِّعْوَى﴾ يفتدي من عذاب يومئذ يبيد: ﴿وَصَحَابَتِهِ وَأَخِيهِ﴾ ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ﴾ ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُجِيبُهُ﴾ ففي هذا أنه يستقبلهم في ذلك اليوم هول وفرع لم يكن بمثله عهد في الدنيا، ولا كان خطر ببالهم ذلك، لأن المرء لا يبلغ به الهول في الدنيا مبلغاً يود أن يفتدي به بنيه وصاحبه وأخيه وأقربائه وجميع من في الأرض.

فيكون فيه إخبار عن شدة هول ذلك اليوم ليحمل الناس على الإنابة إلى الله تعالى والإنتهاء^(٤) عما هم عليه. ثم بدأ بذكر البنين والأقربين، وانتهى بالابعدين. وحق هذا أن يبدأ بالابعدين، ثم يختم بذكر الأقربين^(٥)، لأن المرء قد تسخر نفسه بفداء الأبعدين. ويضم^(٦) يبدل الأقربين فداء.

فلذا سحّت أنفسهم في ذلك اليوم بفداء البنين والأقربين فلأن تسخر بفداء الأبعدين أحق وإذا كان كذلك فغايتة التهويل والتفريع: أن يبدأ بذكر الأقارب، فكيف يبدأ بذكر الأقربين؟

فجوابه من وجهين:

أحدهما: أنه إنما يتوصل إلى فداء أهل الأرض، إذا كان له عليهم ملك، وكانوا بأجمعهم له. وإذا كانوا جميعاً له ملكاً كانت شفقتة على ملكه وأولاده واحدة، أو أكثر، فكما يضم^(٧) يبدل أولاده، وأن يكونوا عنه فداء، فكذلك يضم^(٨) بالاباعد إذا كانوا جميعاً ملكاً له. فلذلك استقام أن يبدأ بذكر الأقربين قبل الأبعدين؛ إذ كل ذلك يستوي في التهويل والتفريع، والله أعلم.

[والثاني]^(٩): جائز أن يكون ذكر الأقربين وذكر أهل الأرض ليس على جهة الأولى، ولكنه ذكر الآحاد ثم ذكر الجماعة ليعلموا ألا ينفعهم الفداء في ذلك اليوم، وأن الذين [لوا]^(١٠) ودوا الفداء ليخلصوا من عذاب الله تعالى، لأشد^(١١) عليهم، ما قدوا، وإن كان ذلك ملء الأرض، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: أنه يصير شبيهة. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٢٢٠. (٣) في الأصل وم: الآية. (٤) في الأصل وم: وانتهاء.

(٥) في الأصل وم: الأبعدين. (٦) في الأصل وم: ويظن. (٧) في الأصل وم: يظن. (٨) في الأصل وم: يظن. (٩) في الأصل وم: و.

(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: لا يشتد.

ثم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجِيبُهُ﴾ ﴿كَلَّا﴾ رَدٌّ وَتَنْبِيْهُ أَلَا يُنْجِيْهِ ذَلِكَ الْيَوْمَ.

الآية ١٥

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا لَقِّنُ﴾ ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوْرِ﴾ فاللَّقِنُ^(١) اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ، وَالشَّوْرَى: قِيلَ: هِيَ مَكَارِمُ خَلْقِهِ، وَقِيلَ: هِيَ الْقَوَائِمُ وَالْأَطْرَافُ، وَقِيلَ: هِيَ الْجُلُودُ.

الآية ١٦

وَالْأَصْلُ أَنَّ نَارَ جَهَنَّمَ [تَعْمَلُ بِأَصْحَابِهَا]^(٢) كُلُّ قَبِيحٍ وَكُلُّ مُسْتَشْبَعٍ وَكُلُّ مُسْتَقْطَعٍ. فَإِنْ شِئْتَ صَرَفْتَ ذَلِكَ إِلَى الْأَرْجُلِ، وَإِنْ شِئْتَ إِلَى الْجُلُودِ، وَإِنْ شِئْتَ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، لِأَنَّ التَّقْبِيحَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَنْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] فَقِيلَ [فِي تَأْوِيلِ]^(٣) الْمُطَهَّرَةُ وَجُوهٌ:

أَخَذَهَا: أَنَّهُمْ مُطَهَّرَاتٌ مِنَ الْعُيُوبِ وَالْآفَاتِ. وَجُمِلَتْ أَنَّهُ مَا مِنْ شَيْءٍ يُسْتَحْسَنُ، وَيُسْتَفْبَحُ مِنْ خُلُقٍ أَوْ نَفْسٍ أَوْ مَعَامِلَةٍ إِلَّا وَهْنٌ مُطَهَّرَاتٌ مِنْ ذَلِكَ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ يُسْتَبْشَعُ، وَيُسْتَقْطَعُ إِلَّا وَذَلِكَ فِي أَهْلِ النَّارِ مَوْجُودٌ.

الآية ١٧

وقوله تعالى: ﴿تَتَعَوَّذُونَ مِنْ أَذْبَرٍ وَقَوْلًا﴾ فجائزٌ أَنْ يَكُونَ الدَّعَاءُ مِنْهَا عَلَى التَّحْقِيقِ، وَهُوَ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ بِطَلْفِهِ^(٤) لِسَانًا، تَدْعُو بِهِ، أَوْ يَخْلُقُ فِيهَا الْكَلَامَ مِنْ غَيْرِ لِسَانٍ، فَتَقُولُ: إِلَهِي.

وجائزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا عَلَى التَّمثِيلِ، وَهُوَ أَنَّهَا لَا تَدْعُ أَحَدًا يَوَرُّ عَنْهَا، وَيَتَخَلَّصُ مِنْ عَذَابِهَا، فَكَأَنَّهَا دَعَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا. ثم قوله تعالى: ﴿مَنْ أَذْبَرٍ وَقَوْلًا﴾ جائزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ أَذْبَرٍ﴾ أَيِ مَنْ كَانَ أَذْبَرَ فِي الدُّنْيَا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَوْلًا﴾ عَنِ الْإِجَابَةِ لِرَسُولِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩]. أَيِ أَغْرَضَ، أَوْ أَذْبَرَ عَنْ تَوْحِيدِهِ، وَتَوَلَّى عَنِ النَّظَرِ فِي حُجَّتِهِ وَفِي مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿أَذْبَرٍ﴾ أَيِ أَذْبَرَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ ﴿وَقَوْلًا﴾ أَيِ تَوَلَّى الشَّيْطَانَ، مِنَ الْوَلَايَةِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ أَذْبَرٌ فِي جَهَنَّمَ ٥٩٦ - أ / قَيْدِيرُ رَجَاءٍ أَنْ يَقَرَّ عَنْهَا، وَيَتَوَلَّى [وَكَذَا لَا]^(٥) تَدْعُهُ النَّارُ لِيَقَرَّ عَنْهَا، بَلْ تَغْشَاهُ عَنِ الْإِعْرَاضِ كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَنُكُمْ عَلَى الْآلِينَ﴾ [النحل: ١٠٠].

ولكن هذا أَقْرَبُ^(٦) مِنَ الْأَوَّلِ لِأَنَّ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فَقَدْ تَوَلَّى الشَّيْطَانَ.

الآية ١٨

وقوله تعالى: ﴿رَجَعَ فَأَرَعَى﴾ يُخْبِرُ بِقَوْلِهِ: ﴿رَجَعَ﴾ عَلَى مَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ الْجُرْصِ عَلَى الدُّنْيَا، فَيَكُونُ الْجَمْعُ كِنَايَةً عَنِ الْجُرْصِ، فَبَلَغَ بِهِ هَذَا الْجُرْصُ مَبْلَغًا أَنَسَاهُ ذِكْرَ الْآخِرَةِ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرَعَى﴾ فِيهِ بَيَانُ صِفَتِهِ فِي مَا عَلَيْهِ مِنَ النِّهَايَةِ فِي الْبَخْلِ، فَيَكُونُ الْإِعْيَاءُ كِنَايَةً عَنِ الْبَخْلِ حَتَّى لَمْ يُؤَدِّ حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَالِهِ، أَوْ لَمْ يَقُمْ بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ النِّعَمِ، أَوْ بَلَغَ بِهِ الْبَخْلُ مَبْلَغًا، مَنَعَهُ ذَلِكَ عَنْ قَبُولِ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَالِهِ.

الآية ١٩

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلِقٌ كُلُّوَعًا﴾ اخْتَلِفَ فِي تَأْوِيلِ الْهَلُوعِ مِنْ وَجْهِهِ، وَكُلُّ يَرْجِعُ إِلَى مَغْنَى وَاحِدٍ: فَقَالَ بَعْضُهُمْ: الطَّامِعُ فِي اللَّذَاتِ، الطَّالِبُ لَهَا، وَالْكَارَةُ لِلْإِنْقَالِ، الْهَارِبُ مِنْهَا. وَقِيلَ: ﴿خَلِقٌ كُلُّوَعًا﴾ أَيِ عَلَى حُبٍّ مَا يَتَلَذَّذُ بِهِ وَالْقِيَامُ^(٧) بِطَلْبِهِ وَيُعْضِ مَا يَتَأَلَّمُ بِهِ وَالْهَرَبُ عَنْهُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الْهَلُوعُ الضُّجُورُ، وَهُوَ مُوَافِقٌ لِلتَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ، لِأَنَّ الَّذِي يَخْمِلُهُ عَلَى الضُّجْرِ، هُوَ مَا يَصِيبُهُ مِنَ الْأَلَمِ، فَيَضْجُرُ لِلذَّكَاءِ، أَوْ يَضْجُرُ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى.

الآيات ٢٠ و ٢١

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: تَفْسِيرُ مَا ذَكَرَ عَلَى^(٨) إِثْرِهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ وَهَذَا أَيْضًا مِثْلُ الْأَوَّلِ لِأَنَّ الَّذِي مَنَعَهُ [عَنِ الْخَيْرِ]^(٩) شِدَّةُ حُبِّهِ لِيَأْتِ، وَالَّذِي حَمَلَهُ عَلَى الْجَزْعِ مَا مَسَّهُ مِنَ الشَّرِّ وَالشَّرُّ، فَجَزَعَتْ نَفْسُهُ لِذَلِكَ، لِأَنَّهَا أَنْشَيْتْ نَافِرَةً الشَّرِّ وَبَغِضَةً لَهُ.

(١) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: الْآيَةِ. (٢) فِي الْأَصْلِ: بِعَمَلِ أَصْحَابِهَا قَبِيحٌ، فِي م: بِعَمَلِ عَلَى أَصْحَابِهَا قَبِيحٌ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٤) فِي الْأَصْلِ: بِاللُّطْفِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: كَذَلِكَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: قَرِيبٌ. (٧) الْوَائِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: ذَلِكَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَى الْمَنَعِ.

وقَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] أَي لَا يَسْخُو عَلَى إِخْرَاجِ مَا فِي يَدَيْهِ.

فَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ أَنْبَأَ أَنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ عَلَى هَذِهِ الْأَحْوَالِ: قَتُورًا عَجُولًا هَلُوعًا. فَلَمَّا أُنْشِئَ عَلَى حُبِّ مَا يَنْفَعُهُ وَيُبْغِضُ مَا يَكْرَهُهُ، وَيَتَأَلَّمُ بِهِ، عَلِمَ أَنَّهُ ^(١) خُلِقَ عَلَى هَذِهِ لِلْمُجَنَّةِ. فَمَنْ تَفَكَّرَ ^(٢) فِي مَا وَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ النِّعَمِ لِمَنْ قَامَ بِوَفَاءِ مَا أَمَرَهُ بِهِ حَمَلَةً ذَلِكَ عَلَى التَّسَارُعِ فِي الْخَيْرَاتِ [وَتَرَكَ] ^(٣) مَا يُجِبُّهُ فِي الدُّنْيَا، يَسْأَلُ الْمَوْعُودَ فِي الْآخِرَةِ؛ إِذْ هُوَ فِي الْأَصْلِ أُنْشِئَ مُجِبًّا لِمَا يَتَلَذَّذُ [بِهِ] ^(٤). وَمَنْ تَذَكَّرَ مَا أُوْعِدَ مِنَ الْعَذَابِ بِمَا يُعْطِي نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ تَعَالَى وَبِمَا يَمْنَعُ مِنْ حَقِّقِ اللَّهِ تَعَالَى الْوَاجِبَةَ فِي مَالِهِ سَهْلٌ عَلَيْهِ تَرْكُ الشَّهَوَاتِ، وَخَفْتُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ مَا طُلِبَ مِنْهُ لئَلَّا يَحُلَّ بِهِ مَا يُنْغِصُ عَيْشَهُ مِنَ الْأَلَامِ وَالْمَكَارِهِ.

وَالْأَصْلُ أَنَّ الْإِنْسَانَ، وَإِنْ كَانَ مَطْبُوعًا عَلَى هَذِهِ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ مِنَ الْبُخْلِ وَالْإِقْتَارِ وَالْعَجَلَةِ، وَجُبِلَ عَلَيْهَا، فَقَدْ مَلَكَ رِيَاضَةً نَفْسِهِ ^(٥)، وَيُمْكِنُهُ أَنْ يَسْتَخْرِجَهَا مِنْ تِلْكَ الطَّبَاعِ الذَّمِيمَةِ إِلَى أَضْدَادِهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ وَالشَّمَالِ الْمَرْضِيَّةِ، فَلَزِمَهُ الْقِيَامُ بِذَلِكَ.

الْأَتَرَى أَنَّهُ يَهَيِّئُ لَهُ أَنْ يَقُومَ بِرِيَاضَةِ الدُّوَابِّ وَالسَّعَابِ، فَيُخْرِجَهَا بِالرِّيَاضَةِ عَنْ طَبَاعِهَا الَّتِي أُنْشِئَتْ عَلَيْهَا مِنَ النَّفَارِ عَنِ الْخَلْقِ وَالْإِمْتِنَاعِ عَنِ الْإِنْقِيَادِ حَتَّى تَصِيرَ مُتَقَادَةً لِلْخَلْقِ ذَلِيلَةً لَهُمْ، فَيَهَيِّئُ لَهُمُ الْإِسْتِمْتَاعَ وَالتَّوَصُّلَ إِلَى مَنَافِعِهَا؟ فَكَذَلِكَ الْإِنْسَانُ إِذَا قَامَ بِرِيَاضَةِ نَفْسِهِ أَمَكَّنَهُ أَنْ يُخْرِجَهَا عَنْ خِلْقَتِهَا، فَتَصِيرَ مُطِيعَةً لَهُ، فَيَخَفُ عَلَيْهَا بِذَلِكَ مَا يَطْلُبُ مِنْهَا، وَيَسْهَلُ عَلَيْهَا تَحَمُّلُ مَا كَانَ يَشْتَدُّ عَلَيْهَا.

ثُمَّ الْأَصْلُ أَنَّ الْمَرْءَ، وَإِنْ جُبِلَ عَلَى حُبِّ مَا يَتَلَذَّذُ بِهِ وَيُبْغِضُ مَا يَتَأَلَّمُ، وَيَتَوَجَّعُ، فَقَدْ جُبِلَ أَيْضًا عَلَى تَرْكِ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ اللَّذَّةِ لِلذُّوِّ هِيَ أَعْظَمُ مِنْهَا وَعَلَى التَّصَبُّرِ لِاحْتِمَالِ الْأَذَى وَالْمَكْرُوهِ لِيَتَخَلَّصَ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ الْمَكْرُوهِ وَالْأَلَمِ.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ إِذَا قَابَلَ نَعِيمَ الدُّنْيَا بِنَعِيمِ الْآخِرَةِ وَأَقْرَبَ اللَّذَّتَيْنِ بَابَعِدِهِمَا، فَرَأَى لَذَّةَ ^(٦) الْآخِرَةِ أَعْظَمَ وَأَبْقَى، خَفْتُ عَلَيْهِ تَرْكُ أَقْرَبِهِمَا لِابْتَعِدِهِمَا وَأَقْلَبَهُمَا لِأَكْثَرِهِمَا، وَإِذَا قَابَلَ مَكْرُوهَ الدُّنْيَا بِمَكْرُوهِ الْآخِرَةِ وَعَذَابُهَا ^(٧) بِعَذَابِ الْآخِرَةِ، فَرَأَى عَذَابَ الْآخِرَةِ أَشَدَّ وَأَبْقَى، خَفْتُ عَلَيْهِ تَحَمُّلُ الْمَكَارِهِ فِي الدُّنْيَا، فَهَذَا السَّبَبُ الَّذِي ذَكَّرْنَا بِمَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى رِيَاضَةِ النَّفْسِ، وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَخَفُ عَلَيْهِ تَحَمُّلُ الشَّدَائِدِ وَتَرْكُ اللَّذَاتِ الْحَاضِرَةِ لِمَا يَأْمُلُ مِنَ اللَّذَاتِ الْآجِلَةِ أَنَّكَ تَرَى الْمَرْءَ قَدْ يَهْوُو عَلَى الضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ وَقَطْعُ الْأَسْفَارِ وَتَحَمُّلُ الْمُؤْنِ وَرُكُوبُ الْأَهْوَالِ وَالْفُطَايِعِ وَالْإِنْقِطَاعِ عَنِ اللَّذَاتِ، كَالَّذِي يَخْرُجُ لِلتَّجَارَةِ مِنْ بَلَدِهِ إِلَى بِلَادٍ نَائِيَةٍ لِمَا يَرْجُو مِنَ النِّفْعِ وَالرَّيْحِ فِي ذَلِكَ، فَيَتَحَمَّلُ مَا يَمَسُّهُ مِنَ الْمَكَارِهِ وَالْمُؤْنِ لِمَا يَظْمَعُ مِنْ نَيْلِ اللَّذَاتِ الَّتِي تَرَكَهَا.

فَعَلَى ذَلِكَ إِذَا تَفَكَّرَ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ، وَتَفَكَّرَ فِي عِقَابِهَا سَهْلٌ عَلَيْهِ تَرْكُ اللَّذَاتِ الْحَاضِرَةِ، وَخَفْتُ عَلَيْهِ تَحَمُّلُ الْمَكَارِهِ فِي الدُّنْيَا.

وَوَجْهٌ آخَرُ أَنَّهُ لَمَّا جُبِلَ عَلَى حُبِّ اللَّذَاتِ وَيُبْغِضُ الْمَكَارِهِ، أَمِرَ أَنْ يَجْعَلَ مَا يُجِبُّهُ مِنَ الْعَاجِلِ آجِلًا، فَيَكُونَ شُغْلُهُ أَبَدًا فِي مَا يُوصِلُهُ إِلَى نَعِيمِ الْآجِلِ، وَأَمِرَ أَنْ يَجْعَلَ هَرَبَهُ مِنَ الْأَلَامِ الْآجِلِ [عَاجِلًا] ^(٨) فَيَجْتَهِدَ فِي مَا فِيهِ التَّخَلُّصُ وَالنَّجَاةُ مِنْ تِلْكَ الْأَلَامِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيَتَانِ ٢٢ وَ ٢٣ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ ^(١) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ مَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: لِأَنَّ الْمُصَلِّينَ يَقُومُونَ بِرِيَاضَةِ أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَضُرِفُوهَا عَنْ خِلْقَتِهَا الَّتِي أُنْشِئَتْ عَلَيْهَا، ثُمَّ يَبَيِّنُ أَنَّ الَّذِينَ [يَقُومُونَ] ^(٢) بِرِيَاضَةِ أَنْفُسِهِمْ، هُمْ الَّذِينَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: تَذَكَّرَ. (٣) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: نَفْسَهَا. (٦) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (٧) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

يقومون على صلاتهم، دون الذين يقومون على الصلاة كسالى، ولا يداومون عليها، ولا يتفقدون من أموالهم إلا عن كراهة.

ثم قوله ﷺ: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ دأبهم عليها في لزوم ما عرفوها، وهو أن يقيموها في أوقاتها، ويحافظوا عليها، دون أن يكون دأبهم أن يكونوا فيها أبداً.

ألا ترى إلى ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها، وإن قل»؟ [مسلم ٧٨٣/٢١٨] وأراد بقوله: «أدومها» لزومها في الوقت الذي أوجب.

فعل ذلك ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾^(١) لا أن يكونوا أبداً فيها، لأنهم إذا بقوا فيها أبداً كثر ذلك منهم، فلا يكون لقوله: «وإن قل» معنى فثبت أن معنى الدوام ما وصف، والله أعلم.

وجائز أن يكون المراد من المداومة، هو أن يدوم على الأحوال التي تليق بالصلاة عند كونه فيها من الإقبال على المناجاة وترك الالتفات وتفرغ القلب من الأشغال والوساوس.

وقال بعضهم: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ هو التطوع، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ يَخَافُونَ﴾ [الآية ٣٤ والأنعام: ٩٢] [هي]^(٢) الفريضة^(٣). وتصديقه أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا صلوا صلاة داموا عليها، وكان ﷺ يقول: «خير الأعمال أدومها، وإن قل» [بنيحوه مسلم: ٧٨٣/٢١٨].

وأصله: أن الله تعالى قال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٢٧٧ و...]. والإقامة على الشيء، هي الدوام عليه، لأنه إذا فعل الشيء مرة، ثم تركه، لم يوصف بالإقامة عليه.

فقوله: ﴿دَائِمُونَ﴾ و﴿يَتَمَسَّكُونَ﴾ [البقرة: ٣ و...]. يقتضي معنى واحداً، فيكون فيه إبانة أن الصلاة تلزم فعلها مرة بعد مرة، وليست كالفرائض التي إذا أدت مرة سقطت من نحو الجهاد والحج.

الآيتان ٢٤ و ٢٥ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ [الأسئلة والمترجمين]^(٤) قيل: هو الزكاة؛ ذكر ذلك عن قتادة.

وقال أبو بكر: هذا غير محتمل لأن هذه الآيات مكية، وإنما فرضت الزكاة عليهم بعد هجرتهم ولكن ليس في ما ذكره دفع هذا التأويل: لأنه يجوز/ ٥٩٦ - ب/ أن تكون الزكاة، لم تفرض عليهم لما لم يكونوا أصحاب الأموال، لأن الزكاة لم تكن مفروضة في الجملة وبين الوجوب إذا استفادوا الأموال.

ألا ترى أن الفقير^(٥) قد يعلم إتياء الزكاة من المال، وإن لم يكن له مال ليقوم بأدائها إذا صار من أهلها؟ فقوله تعالى: ﴿حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ أي أعلمه الله [أن له حقاً معلوماً]^(٦) في أموالهم، فلزمهم إخراجها. ثم بين أن خروجهم مما لزمهم من حق الله تعالى في أموالهم بالدفع إلى السائل والمحروم.

وجائز أن يكون ذلك الحق المعلوم، هو حق القرابة وغيره. ومن ذكر أن هذا الحق غير الزكاة قالوا: إنهم كانوا أعلموا أن في أموالهم حقاً، فجعله لطائفة منها للسائل وطائفة للمحروم. لذلك سماه حقاً معلوماً.

ويختل أن يكون في ذلك الوقت شيئاً معلوماً مفروضاً عليهم في أموالهم، نسخته^(٧) آية الزكاة، ولم يذكر لنا ذلك لعدم حاجتنا إلى معرفته.

ثم السائل معروف، وهو الذي يسأل، وأما المحروم فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن المحروم، فقال: «المحروم، هو الذي لا يثمر [نخله]، ويثمر^(٨) نخل الناس، ولا يزرع [زرعه]، ويترك^(٩) زرع الناس، ولا تلبس شاة، وتلبس شاة الناس» فغنى^(١٠) بالمحروم هذا: أنه حرم بركة ماله.

(١) في الأصل وم: على أنفسهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: قال. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الفقر. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: نسختها، في م: نسختها. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: له. (١٠) في الأصل وم: فغنى.

وفي هذا الخبر دليل على أن المرء، لا يصير غنياً بملك النخيل والأرض.
وجائز أن يكون المحروم، هو الذي حيل بينه وبين وجوه المكاسب. فمن كان حاله هكذا كان علينا أن نتعاهده، ونقوم بكفائته.

وقال الحسن: المحروم، هو الذي يتعفف عن السؤال، وإن هلك، والله أعلم.

الآية ٢٦ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُضِلُّونَ يَتَوَلَّوْنَ﴾ هو يوم الجزاء ويوم الحساب، فكل من^(١) عرفت الجزاء وآمن به لم يجرع بما يصيبه، ولا منع الحق الذي طلب منه، ولم يوصف بأنه هلول، وإنما الهلول، هو الذي يكذب بيوم الدين كما قال: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ﴾ ﴿فَإِذَا الْوَلَّىٰ ذَاكَ الْمَوعِدُ﴾ [الماعون: ٢١] فأخبر أن الذي يدع اليتيم ﴿وَلَا يَحْصُ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَتَامَىٰ﴾ [الماعون: ٣] هو الذي لا يؤمن بالآخرة.

الآية ٢٧ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ عَذَابٍ رَبِّهِمْ مُتَّقُونَ﴾ أي خائفون وجلون، وهم الذين قال [فيهم]^(٢) ﴿فِي آيَةِ أُخْرَىٰ﴾ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَا وَلَا يَقُولُوا لَكَ لَئِنْ كُنَّا إِلَّا لَنُؤْتِيَنَّكَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. وسئل رسول الله ﷺ وقيل له: أ هم الذين يسرقون، ويزنون، ويعملون بالمعاصي؟ فقال: لا بل هم الذين يقومون، ويصلون، ويؤتون الزكاة أو كما قال بلطفه ﷺ «وَجَلَّتْهُمُ هُوَ أَنَّهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا يُقْبَلَ مِنْهُمْ [حَسَنَاتُهُمْ]^(٣)» أو يخافون أن يكونوا قَصُرُوا عَنِ الْوَفَاءِ بِشُكْرِ النِّعَمِ، أو غفلوا عن شكر كثير منها [زاد المسير ٣٢٧/٥].

الآية ٢٨ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ فهذا هو الحق ألا يأمن أحد من عذابه، وإن دأب في عمله، واجتهد في طاعته لما [لا]^(٤) يذري على ماذا يُختم أمره، أو يخاف ألا يقبل منه، ويرد عليه، أو يخاف أن يكون قد قصّر عن شكر كثير من النعم، وغفل عنها.
والأصل أنه ما من أحد ينظر في أمره وحاله إلا وهو يرى على نفسه من الله تعالى أنعماً؛ لو أجهد نفسه ليقوم بشكر واحدة^(٥) منها لقصّر في ذلك، ولم يتهيأ له القيام بوفائها.

فمن كان هذا وصفه فأتى يقع له الأمن من عذابه؟ ويؤخذ منه الوفاء بالأسباب التي يؤمن بها؟ إلا أن يكون من الخاسرين.

الآية ٢٩ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُذُنِهِمْ يَقْظُونَ﴾ ذكر حفظ الفرج، ولم يذكر بهم يحفظ؟ وحفظه يكون بخصال: أحدها: أن يسكن في قلبه جلال الله وهيئته، ويخشى عقابه في المعاد.

والثاني: بما جعله الله ﷻ سبباً للتعفف من النكاح وملك اليمين، فيمنعه ذلك عن الزنى وحفظ الفرج.
والثالث: [بأن]^(٦) يجيع بطنه بالصيام كما قال النبي ﷺ: «مَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْبَاءِ فَلْيَصُمْ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وَجَاءٌ» [البخاري ١٩٠٥].

والرابع: بما يترك النظر إلى النساء، ولا يخلو بهن، ويدع مجالسة الفجار وأهل الرِّبَا.

الآية ٣٠ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ لكننا نعلم بقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أنهم لا يلامون، لأنهم قد أباح لهم الاستمتاع بمن مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَمَنْ كَانَ تَحْتَهُمْ بِمِلْكِ النِّكَاحِ، ولا يجوز أن تلحق اللائمة باستعمال المباح المطلق. ولكن فيه فوائد:

أحدها: أن من الناس من يحرم الاستمتاع بملك النكاح وملك اليمين، فيخبر أنهم عند من اعتقد الإيمان بالرسول غير ملومين، وإنما يلام^(٧) من أنكر الرسالة، وهم الشوئية والبراهمة.

(١) في الأصل وم: ما. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: واحد. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يلزمهم.

وجائز أن يكون معناه: وإن منعوا النساء عن الجماع بما هو خير لهن من الصيام وأنواع القرب، لم تلحقهم اللائمة كما يلام من يمنع آخر عن طاعة الله تعالى، وإذا استمتعوا بملك النكاح وملك اليمين لم يبلوا بالزنى، فتلحقهم اللائمة بذلك.

الآية ٣١ وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ابْتَنَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ مُرَّةَ الْكَادُونَ﴾ العادي: هو الظالم في الحقيقة، يقال: عدا فلان على فلان إذا ظلمه، فهم عادون حين^(١) ظلموا أنفسهم، فوضعوها في موضع، لم يؤذن لهم بالوضع فيها. وقال الحسن: هم العادون حين^(٢) عدوا من الحلال إلى الحرام.

وفي هذه الآية دلالة تخريم المثعة لأنه أخبر أن من ابتنى وراء ملك اليمين وملك النكاح فهو إذن من العادين.

الآية ٣٢ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ فالأمانات لها وجهان: أحدهما: ما اتصفت الله به عباده على ماله من الحقوق عليهم

والثاني: [ما]^(٣) اتصفت بعضهم على الحقوق والعهود التي تجري بين الخلق من الذمم والتدوير وغير ذلك، فيدخل فيه كل أمانة بين العبد وبين ربه وبينه^(٤) وبين الخلق، وكل عهد أخذ عليهم من نحو قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُوبِ﴾ [المائدة: ١] قيل في التأويل: العهود. ثم بين ذلك، فقال: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ الآية [المائدة: ١٢] والعهد الذي أعطينا للعاهدين؛ فكل ذلك داخل تحت الآية.

وقد يدخل معنى الأمانة في العهد والعهد في الأمانة، وقد يجوز أن يقع بينهما فرق، والله أعلم.

الآية ٣٣ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ أي يقيمونها لله تعالى كقولهم: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥] [أي قائمين]^(٥) بالوفاء بما عليهم من الشهادة، فيقومون لها، أحبوا^(٦) أم كرهوا، ضرهم ذلك أم^(٧) نفعهم.

الآية ٣٤ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [المحافظة على]^(٨) الصلاة إقامتها في أوقاتها بشرائطها. والذي يخلوهم على المحافظة على الصلاة ما يخشون الله تعالى، ولما جعلت تكفيراً لسيئاتهم يرغبون^(٩) في إقامتها تكفيراً عن^(١٠) سيئاتهم.

الآية ٣٥ وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّةٍ مُّكْرَمُونَ﴾ في الآية إيابة أن من يكرم بالجنان هؤلاء.

وذكر عن أبي بكر الأصم أنه قال: في هذه دلالة أن من وفى بهذه الأشياء التي ذكرها في هذه السورة من الإدامة على الصلاة وإتاء الحق المعلوم والتصديق بيوم الدين إلى آخر ما ذكر، فهو الذي يكرم بالجنة [ويكرم]^(١١) الخاطيء الذي يرجع عن خطيئته، ويتوب عنها.

فأما [غير هذين فهو لا]^(١٢) يستوجب الإكرام بالجنة. فما ذكر من الإكرام بالجنة للصنفين اللذين ذكرهما، فهو كما ذكر.

وأما الصنف الثالث فهم الذين بلوا بالخطيئات/ ٥٩٧ - أ/ من أهل الإيمان، ولم يتوبوا عنها، فقد ترجى لهم هذه الكرامة بعفو الله عنهم وكرمهم وجوده.

ومن كان هذا وصفه لم يتأس من إحسانه، بل كان العفو منه مأمولاً والإحسان منه مرجواً.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وبينهم. (٥) في الأصل وم: أو قائمون. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: محافظة. (٨) في الأصل وم: فيرجون. (٩) في الأصل وم: عنهم. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: على غير هذين فهؤلاء.

الآيتان ٣٦ و ٣٧

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُتَمَلِّجٌ﴾ ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ اختلِف في تأويل الإهطاع فمنهم من يقول: هو الإسراع في المشي، ومنهم من يقول: هو إدامة النظر.

فَمَنْ حَمَلَهُ عَلَى الْإِسْرَاعِ فَمَعْنَاهُ أَنْ أَيْمَةَ الْكُفْرِ كَانُوا يَأْتُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَيَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ مِنْهُ، ثُمَّ يُسْرِعُونَ إِلَى أَنْبَائِهِمْ، وَيَجْلِسُونَ حَلَقًا حَلَقًا، وَيُحَرِّفُونَ مَا يَسْتَمِعُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا فَتَأْوِيلُهُ: مَا لَهُمْ يُسْرِعُونَ إِلَيْكَ لِيَسْمَعُوا كَلَامَكَ، ثُمَّ يَتَفَرَّقُونَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ، وَيُكَذِّبُونَكَ نَحْوَ أَنْ يَقُولَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠] [ويقولوا] (١): ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] [ويقولوا] (٢): ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [المؤمنون: ٣٨] وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الْمُنْفَعَةُ لَهُمْ فِي طَعْنِهِمْ عَلَيْكَ [فَهُوَ اسْتِحْقَاقُهُمُ] الْمَقْتِ وَالْهَلَاكَ بِذَلِكَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَمَا يَرْجُونَ بِإِعْرَاضِهِمْ عَنْ تَصَدِيقِكَ بَعْدَ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ؟

وَمَنْ حَمَلَهُ عَلَى النَّظَرِ فَمَعْنَاهُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَجْلِسُونَ مِنْ بَعِيدٍ، فَيَنْظُرُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَيَطْعَنُونَ عَلَيْهِ بِالسَّحْرِ وَالْإِفْتِرَاءِ [وَأَنَّهُ] (٣) مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ، وَيَمْكُرُونَ بِمَنْ (٤) يَقْتَدِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ [وَبِمَنْ لَا] (٥) يُعَادِيهِ مِنَ الْكُفَرَةِ. فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا فَتَأْوِيلُهُ كَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ: [مالهم] (٦) يَجْلِسُونَ مِنَ الْبُعْدِ نَازِلِينَ إِلَيْكَ، وَلَا يَذْنُونَ مِنْكَ لِيَسْمَعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ، فَيَنْتَفِعُوا بِهِ؟ وَإِنَّهُمْ (٧) مُتَفَرِّقُونَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ، يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْ مَجْلِسِكَ، وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ لَهُمْ إِلَى مَنْ يَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ حَاجَةً؛ إِذْ لَيْسَ عَنْدهُمْ كِتَابٌ وَلَا عِلْمٌ بِالْأَنْبَاءِ الْمُتَقَدِّمَةِ لِيَعْلَمُوا أَنَّكَ جِئْتَ بِالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ دُونَ السَّحْرِ وَالْكَهَانَةِ.

فَإِنْ كَانَ هَذَا الْوَجْهَ فَالْعِتَابُ (٨) لِمَكَانِ التَّخْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٨

وقوله تعالى: ﴿يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ قوله: ﴿يَطْمَعُ﴾ حرف استيفهام، وقد ذَكَرْنَا أَنَّ حَرْفَ الْإِسْتِفْهَامِ لِمَنْ (٩) لَا يَقْنَهُمْ إِيْجَابٌ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي وَجْهِ الْإِيْجَابِ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يَطْمَعُ﴾ أَي لَا يَظْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ بِعِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ أَنْ يَدْخُلُوا جَنَّةَ نَعِيمٍ، إِذْ هُمْ مُتَكَبِّرُونَ لِلْبُعْثِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ. ثُمَّ مَعَ هَذَا يَنْصُرُونَ الْأَصْنَامَ، وَيَعْبُدُونَهَا.

وَلِنْ كَانَ لَا طَمَعَ لَهُمْ فِي نَصْرِهَا إِلَى شَيْءٍ فِي الْعَاقِبَةِ، وَلَا يَرْجُونَ مِنْهَا الْعَوَاقِبَ، فَيَكُونُ فِي هَذَا تَرْغِيبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِيَامِ بِنَصْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لِأَنَّهُمْ يَظْمَعُونَ نَيْلَ الْجَنَّةِ وَالْكَرَامَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ بِنَصْرِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَبِعِبَادَتِهِمُ اللَّهَ تَعَالَى؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا تَظْمَعُونَ نَيْلَ شَيْءٍ، وَلَا تَخَافُونَ مِنْ شَيْءٍ فِي الْعَاقِبَةِ، ثُمَّ تَقُومُونَ بِنَصْرِ الْأَصْنَامِ. فَانْتُمْ أَحَقُّ بِنَصْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ تَظْمَعُونَ نَيْلَ الْجَنَّةِ وَالْدُخُولَ فِيهَا بِنَصْرِكُمْ إِيَّاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى إِيْجَابِ الطَّمَعِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَظْمَعُونَ دُخُولَ الْجَنَّةِ وَنَيْلَ نَعِيمِهَا إِذَا رَجَعُوا إِلَى رَبِّهِمْ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا سَاوُوا الْمُسْلِمِينَ فِي نَعِيمِ الدُّنْيَا وَسَعَتِهَا، وَكَذَلِكَ يُسَاوُونَهُمْ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى خَيْرًا عَنْهُمْ: ﴿وَلَكِنْ تُحِبُّونَ لِكُلِّ رِجْلٍ إِنْ لِيَ عِنْدَكَ لِلْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٥٠] وَقَالَ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْمَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١].

هَكَذَا ظَنَّ الْكُفَرَةُ: أَنَّهُمْ إِنْ رَجَعُوا إِلَى رَبِّهِمْ فَيَجِدُونَ عِنْدَهُ خَيْرَ مُنْقَلَبٍ.

الآية ٣٩

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَمْلُكُونَ﴾ فَقَوْلُهُ: ﴿كَلَّا﴾ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ رَدٌّ لِأَعْتِقَادِهِمْ وَقَطْعٌ لِأَطْمَاعِهِمْ؛ فَقَالَ: ﴿كَلَّا﴾ أَي لَا يَدْخُلُونَهَا قَطُّ. ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْكَلَامَ، فَقَالَ ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَمْلُكُونَ﴾.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَمِنْ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: لَكُنْهُمْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْعِتَابُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ.

وعلى التأويل الأول: ﴿لَا يَمْنَعِي حَقًّا أَنَّهُمْ لَا يَظْمَعُونَ﴾ ثم استأنفت بقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَكْمُنُونَ﴾ أي [من] (١) تلك النطف، فَيَذْكُرُهُمْ بهذا عظيم نعيمه وإحسانه إليهم: بما أخرجهم منها، ونقلهم من حالٍ إلى حالٍ حتى صاروا بشراً سويّاً ليَعْلَمُوا أَنَّهُ (٢) لا يتركهم سدى، بل لِيَمْتَحِنَهُمْ، وَيَسْتَأْذِي مِنْهُمْ شُكْرَ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، فَيُوجِبُ ذَلِكَ تصديق الرسل. وفيه تذكيرٌ بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَبَيَانٌ ضَعْفِ اقْتِدَائِهِمْ (٣) لِيَعْلَمُوا أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى إِنشَائِهِمْ لِقَادَرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّبَهُمْ بَعْدَ مَا أَفْنَاهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٠ وقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ رَبِّيَ الشَّرِيقِ وَالْعَرَبِ﴾ الآية؛ ذَكَرَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ذِكْرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَفِي ذِكْرِهِمَا ذِكْرَ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْخَلَائِقِ أَجْمَعٍ. ويكون حرف: لا زائداً في الكلام تأكيداً لِلْقَسَمِ عَلَى مَا يُذَكَّرُ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: فَلَا أَقْسِمُ ثم حقُّ هذا الْقَسَمِ أَنْ يَكُونَ (٤) مَكَانَ قَوْلِهِ: ﴿رَبِّيَ الشَّرِيقِ وَالْعَرَبِ﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِئِذَا كَانَ الْقَسَمُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. هذا هو ظاهر الكلام في مُتَعَارَفِ [أهل] (٥) اللسان. ولكن يَحْتَمِلُ [وجهين]: أحدهما (٦): أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقَسَمُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ كَأَنَّهُ عَلَّمَهُ أَنْ يَقْسِمَ بِهِ، وَيَقُولُ لَهُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿فَلَا أَقْسِمُ رَبِّيَ الشَّرِيقِ وَالْعَرَبِ﴾.

[والثاني] (٧): إِنْ كَانَ هَذَا قَسَمًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ مُسْتَقِيمٌ أَيْضاً مِنْ وَجْهَيْنِ: أحدهما: عَلَى الْإِضْمَارِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: فَلَا أَقْسِمُ بِئِ، وَأَنَا رَبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ. والثاني: وَإِنْ كَانَ هَذَا الْقَسَمُ مِنَ اللَّهِ، فَيَسْتَقِيمُ (٨) بِلَفْظِ الْمُغَايَةِ كَمَا يَسْتَقِيمُ بِلَفْظِ الْحَاضِرِ، لِأَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُ، اللَّهُ شَهِودٌ، وَلَيْسَ هُوَ شَاهِدٌ لِلْخَلْقِ، فَيُخْرِجُ الْكَلَامَ بَيْنَهُمْ عَلَى مَا يُخَاطَبُ الْغَائِبُ [مرة] (٩) وَمَرَّةً عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُخَاطَبُ بِهِ الشَّاهِدُ، وَمِثْلُ هَذَا مُسْتَعْمَلٌ فِي مُتَعَارَفِ [أهل] (١٠) اللسان، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وفي الآية دلالة على أَنَّ مَلِكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَمُذَبَّرَهُمَا وَاحِدٌ، إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ [واحداً] (١١) لَكَانَ لِمَلِكِ (١٢) السَّمَاءِ أَنْ يَمْنَعَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ مِنْ إِیْصَالِ النَّفْعِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَيَكُونُ لِمَلِكِ الْأَرْضِ أَنْ يَمْنَعَ مَلِكَ السَّمَاءِ مِنَ الْإِغْرَابِ فِي الْأَرْضِ.

ثم الذي يَشْرُقُ، وَيَغْرُبُ مِنْذُ خُلِقَ يَجْرِي عَلَى مَا جَرَى عَلَيْهِ التَّذْبِيرُ جَزْئاً وَاحِداً، لَمْ يَقَعْ فِيهِ تَغْيِيرٌ وَلَا تَبْدِيلٌ. وَلَوْ كَانَ لِلَّهِ تَعَالَى شَرِيكَ لَكَانَ لَا بَدَّ مِنْ وَقُوعِ التَّغْيِيرِ فِيهِ (١٣).

فَبَيَّنَتْ أَنَّ تَذْيِيرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَتَذْيِيرَ سُلْطَانِهِمَا رَاجِعٌ إِلَى الْوَاحِدِ.

الآية ٤١ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ ﴿وَعَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا نَفْعًا﴾ هذا مَوْضِعُ [جواب] (١٤) الْقَسَمِ. فَبَازِئٌ أَنْ يَكُونَ أُرِيدَ بِهِ أَنْ يُبَدِّلَ الْخَيْرَ مِنْهُمْ، فَيَجْعَلَ مَكَانَ [الشرِّ خيراً] (١٥) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ اسْلَمُوا.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِهِ ﴿أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا نَفْعًا﴾ ثُمَّ هَذَا يُخْرِجُ عَلَى [وجوه]:

أحدها: [١٦] عَلَى تَحْقِيقِ الْقُدْرَةِ.

والثاني: أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْقُدْرَةِ إِرَادَةُ الْفِعْلِ.

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أنهم. (٣) في الأصل وم: ابتدائهم. (٤) في الأصل وم: يقول. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وجوها: أحدها. (٧) في الأصل وم: و. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم: ملك. (١٢) في الأصل وم: فيها. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل: ما كانوا من الشر والخير، في م: ما كانوا من الشر خيراً. (١٥) في الأصل وم: وجهين أحدهما.

أَمَّا الْأَوَّلُ فَعَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: على معنى تخريف أهل مكة، لأنهم إن لم ينتهوا عن ذلك ينزل الله تعالى مكانهم من هو خير لرسول الله ﷺ. والبدل لا يكون إلا بعد المبدل منه، وقد فعل الله تعالى ذلك بهم [إذ] ^(١) أفلك/ ٥٩٧ - ب/ المعاندين منهم، وأبدل لرسول الله ﷺ أولادهم والمهاجرين منهم والأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ ونصره.

والثاني: أنا كنا قادرين على أن نجعل المرسل إليهم خيراً، إذ قد علموا من قدرة الله ﷻ، أنه ^(٢)، هو الذي خلقهم، وأنشأهم. لكن إنما أرسل إليهم، وأمرهم لحاجات أنفسهم لا لنفع يرجع إليه، ليس على ما عليه ملوك الدنيا، لكنه إنما امتحنهم بالأمر ليسعوا في نجاة أنفسهم، ونهاهم ليحكموا رقابهم عن النار، فيكون فيه تسكين قلب النبي ﷺ عند وجده عليهم حين ^(٣) لم يؤمنوا.

وأما الوجه [الثالث فإن] ^(٤) يكون معنى القدرة إرادة الفعل خاصة؛ إذ يكتفى بالقدرة [عن الفعل، إذ هي] ^(٥) سبب الفعل كالأمر المعتاد بين الخلق؛ يأمر رجل آخر بفعل، فيقول: لا تستطيع، ولا أقدر، أي لا أفعل. وعلى هذا تأويل قوله ﷻ: ﴿إِنَّا لَنَنبِئُكَ أَيُّ لَفَاعِلُونَ مَا ^(٦)﴾ هو خير لرسول الله ﷺ بدلاً عن هؤلاء.

فإن كان على هذا فيكون فيه إشارة لرسول الله ﷺ أنه يجعل له أصحاباً يرضاهم، ويكون فيه إخبار الله ﷻ له بالنظر والعلم على المكذبين منهم، ويكون فيه إنباء لرسول الله ﷺ أنه لا ينفذ فيه مكرهم، وإن اجتهدوا، ويكون فيه إعلام أنه ينتقم منهم له، ويعذبهم.

وقد فعل ذلك كله بحمد الله ﷻ والله المستعان حين ^(٧) بدّل على أهل مكة أهل المدينة، وكانوا خيراً منهم لأن أهل مكة، كانوا عليه، وأهل المدينة كانوا له، فكانوا هم [خير الله] ^(٨).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْنُ بِسَبُوقِينَ﴾ والمسبوق المغلوب؛ فكأنه قال: لا يسبقنا أحد، ولا يعجزنا أحد عن ذلك، ولا يقوتنا ما نريد.

الآية ٤٢ وقوله تعالى: ﴿مَذَرُكُمْ يَخْمَرُوا وَيَخْبَرُوا﴾ قال أبو بكر: الخائض المتحير، واللاعب الخاطيء، فقوله: ﴿مَذَرُكُمْ﴾ أي دغهم في ما هم من خطاياهم وتحيرهم في دينهم؛ فكل من اشتغل بما لا يحتاج له فهو خائض لاعب. وأصله أن كل امرئ، لا عاقبة له، تحمد، فهو [في عمله] لاعب لا وكفوله تعالى: ﴿إِنَّمَا لِلدُّنْيَا لَبِثٌ وَلَهُوَ﴾ [محمد: ٣٦] أي من يعمل في الحياة الدنيا للدنيا لا للآخرة، فهو لاعب لاو.

وكان هذه الآية صلة قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَئِنْ مَطَّيْنُ﴾ [الآية: ٣٦].

أمره بالآلة يشتغل بأولئك، ويثقل على من يزجو منهم الإيمان، أو أمره بالآلة يشتغل بمكافاتهم بسوء صنيعهم، فإن الله سينصره عليهم، ويكافئهم عنه.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ قد لاقوا ذلك اليوم، وهو يوم بدر، وسيلاقون اليوم الثاني، وهو يوم الآخرة، يتركهم الإجابة، فيسارعون في ذلك اليوم إلى إجابة الداعي رجاء أن يتخلصوا من العذاب الذي حق عليهم بترك الإجابة. وذلك لا ينفعهم، وإن وجدت منهم التوبة والرجوع إلى ^(٩) تلك الإجابة؛ لأن ذلك اليوم ليس بيوم تنفع فيه الندامة والتوبة.

وإنما هو يوم تجزى فيه كل نفس بما كسبت، وهذا كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وانه. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل: الثالث أن، في م: الثاني أن. (٥) في الأصل وم: إذ هو. (٦) في الأصل وم: من. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في م: خيراً. (٩) في الأصل وم: عن.

فَاخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ يَقْرَعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى لِمَا اتَّقَنُوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا حَلَّ بِهِمُ الْبَأْسُ بِاعْرَاضِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَرَعُوا عِنْدَ إِيْقَانِهِمْ بِالْعَذَابِ إِلَى الْإِيمَانِ رَجَاءً أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنَ الْعَذَابِ، فَلَمْ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، وَلَمْ يُغْنِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْءٌ؛ إِذْ ذَلِكَ الْوَقْتُ لَيْسَ بِوَقْتِ قَبُولِ التَّوْبَةِ. فَيَكُونُ هَذَا تَحْرِيسًا [عَلَى الْإِسْرَاعِ] ^(١) إِلَى إِبْجَابَةِ الدَّاعِي وَالْإِيمَانِ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِيْمَانًا، لَا يَنْفَعُهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٢: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُونَ مِنَ الْعَذَابِ يَرَىٰ كَأَنَّهُمْ إِلَٰهٌ يُفْعَلُونَ﴾ قُرِئَ بِنَضْبِ النُّونِ وَجَزَمِ الصَّادُ؛ وَهُوَ اسْمُ الْعَلَامَةِ كَالْعَرَضِ وَأَشْبَاهِهِ. وَقُرِئَ بِضَمٍّ [فَسَكُونٍ] ^(٢) وَهُوَ اسْمٌ لِلضَّمِّ.

فَإِنْ كَانَ عَلَى الْعَلَامَةِ، فَمَعْنَاهُ أَنَّهُمْ يُسَارِعُونَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَى إِبْجَابَةِ الدَّاعِي مُسَارَعَةً مَنْ يُسْرِعُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَى الْعَرَضِ وَالْعَلَامَةِ الْمَنْصُوبَةِ. كَذَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ.

وَذُكِرَ عَنِ الْكَلْبِيِّ: ﴿إِلَٰهٌ تُصَوِّرُ يَوْمَ يُفْعَلُونَ﴾ إِلَى عِلْمٍ يَسْعَوْنَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: إِلَى عِلْمٍ يَسْتَبِقُونَ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ: إِلَى عِلْمٍ يَنْطَلِقُونَ.

فَإِنْ كَانَ عَلَى الثَّانِي فَمَعْنَاهُ أَنَّهُمْ يُسْرِعُونَ إِلَى إِبْجَابَةِ الدَّاعِي فِي ذَلِكَ كَسُرْعَتِهِمْ إِلَى عِبَادَةِ النَّضْبِ عِنْدَ خَوْفِهِمْ قَوْتَ عِبَادَتِهَا وَعِنْدَ اجْتِمَاعِ عِبَادِهَا [عِنْدَمَا يَتَذَكَّرُونَ] ^(٣) نُضْبَهُمْ حَتَّى يَسْتَلِمُوهَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّ النَّضْبَ بَرَفِجِ النُّونِ وَالصَّادِ، هِيَ الْأَعْرَاضُ الَّتِي يَسْتَبِقُونَ إِلَيْهَا. وَمَنْ تَأَوَّلَ هَذَا فَهُوَ يَجْعَلُ النَّضْبَ هُنَا جَمْعَ النَّضْبِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُفْعَلُونَ﴾ أَيِ يُسْرِعُونَ. وَقَالَ الْحَسَنُ: أَيِ يَزْمِلُونَ، وَهِيَ وَاحِدَةٌ، لِأَنَّ الْإِسْرَاعَ فِي الرَّمْلِ مَوْجُودٌ.

الآية ٤٤: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَشِيعَةً أَصْرَهُمْ﴾ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا عَلَى بَصَرِ الْوَجْهِ، وَصِفَةُ خُشُوعِهَا مَا قَالَ فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتُمْ هَوَاهُمْ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٤٣] فَتَخَشَعُ خُشُوعًا، لَا تَمْلِكُ صَرْفَ طَرْفِهِ عَنِ الدَّاعِي. فَفِيهِ أَنْ الزَّلَّةَ قَدْ أَحَاطَتْ بِهِمْ حَتَّى أَثَرَتْ فِي الْأَعْيُنِ وَالْوَجْهِ وَفِي كُلِّ عُضْوٍ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا عَلَى بَصَرِ الْقُلُوبِ، وَهُوَ أَنَّ قُلُوبَهُمْ تَشْتَغِلُ بِإِبْجَابَةِ الدَّاعِي عَنْ [أَنْ] ^(٤) تَبْصُرَ لِنَفْسِهَا حِيلَةً، تَتَخَلَّصُ [بِهَا] ^(٥) مِنْ أَهْوَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَشِدَّتِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذُلَّةٌ﴾ أَيِ تَعْلُوهُمْ. وَالذَّلَّةُ الْحَالَةُ فِي النَّفْسِ، يَبْدُو ظُهُورُهَا ^(٦) مِنَ الْأَبْصَارِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ وَحَقُّهُ أَنْ يَقُولَ: هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ، لِأَنَّهُ أَضَافَتْ إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ فِي الدُّنْيَا. وَلَكِنْ كَانُوا يُوعَدُونَ ذَلِكَ الْيَوْمَ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ الْيَوْمَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ غَيْرُ مَوْجُودٍ، فَيُعْبَرُونَ ^(٧) بِهِ عَمَّا يُعْبَرُ فِي الْغَائِبِ ^(٨)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. [وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ] ^(٩).



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِالْإِسْرَاعِ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٧/٢٢٥ و ٢٢٦. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: عِنْدَهُمَا لَوْ يَبْتَرِدُونَ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: ظُهُورُهُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيُعْبَرُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: الْغَائِبِ. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

سورة نوح [نوح] (١)

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في ذكر نبي نوح عليه السلام، دلالة رسالته وآية نبوته. إنما ذكرنا أن هذا لم يكن من علمه ولا علم قومه، ولم يخلف النبي صلى الله عليه وسلم إلى من عنده علم به، فتعلمه منه، فعلم أنه بالله تعالى علمه لا بأحد من خلقه، فيكون فيه الزام الحجة عليهم.

وفيه إعلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لقى نوح عليه السلام ٥٩٨ - ١ / من قومه، ليصبره بذلك على أدى قومه؛ إذ السورة مكية.

ثم أمره بالإنذار، ولم يذكر معه البشارة. فلذلك (٢) قال نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَفْقَرُ إِلَيَّ لَكُمُ نَذِيرٌ شَدِيدٌ﴾ [الآية: ٢] ولم يقل بشير، وقد كان بشيراً ونذيراً.

فجاء أن يكون اقتصر على ذكر النذارة لأن في ذكرها ذكر البشارة؛ وذلك أنهم إذا استوجبوا العذاب، إذا داوموا على ما هم فيه من الضلالة وعبادة غير الله تعالى، فهم إذا انتهوا عن ذلك استوجبوا العفو ووقوع البشارة.

فإذا كان ذكر أحد الوجهين يقتضي ذكر الآخر اكتمل بذكر أحدهما عن ذكر الآخر.

وجاء أن يكون خص النذارة بالذكر لأن الحال كانت حال الإنذار، لأنهم كانوا معرضين عن طاعة الله تعالى ومقبلين على عبادة غيره، فكانوا مستوجبين للنذارة، ولم يكونوا من أهل البشارة، وإنما يصيرون من أهلها إذا انتهوا عما هم عليه، فيكون قوله: ﴿أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ إن داوموا على ما هم عليه.

وفي هذا دلالة على أن المرة إذا أخذ غير طريق [الهدى] (٣) فالسبيل فيه أن يفسد مذهبه، ثم إذا ظهر فساده عنده أمره (٤) باتباع سبيل الهدى، ويبين له الحجج والدلائل لينجعه فيه ذلك، ليس أن يحتج عليه بالحجج [التي] (٥) هي حجج مذهب الحق قبل أن يبين له فساد ما هو فيه، فإن ذلك لا ينفع فيه، ولا يدعو إلى قبول الحق والتزوي. بل يبين له فساد ما هو فيه وفساد ما اعتقده.

فإذا أبان له ذلك [فإنه] (٦) يحتاج إلى أن يسأله عن سبيل الهدى فيه ليعرفه بالتعليم.

ثم الأصل أن الدنيا هي سبيل الآخرة؛ والضلال سبيل يقضي بمن سلكه إلى العذاب الدائم. والهدى سبيل يقضي إلى الثواب الدائم.

فالنذارة، هي تبين ما تنتهي إليه عاقبة من يلزم الضلالة، والبشارة هي تبين ما تنتهي إليه عاقبة من يلزم الهدى. وإن شئت قلت: النذارة، هي أن تبين عسر ما يحل به في العاقبة، والبشارة، هي أن تبينه بما يصير إليه في العاقبة من اليسر.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دلالة أن حجتهم، لا تلزم الخلق قبل أن يأتيهم النذير فلا يخافون نزول العذاب بهم قبل أن يأتيهم النذير.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: فكذلك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أمر له. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم.

دَلَّ أَنَّ الْحُجَّةَ لَازِمَةٌ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِن يُعَذِّبُهُمْ لَيَزِيدَهُمُ التَّوْحِيدَ، وَإِنْ لَمْ يُرْسِلْ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ فَيَكُونُ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] على عذابِ الإِسْتِثْصَالِ فِي الدُّنْيَا، لَيْسَ عَلَى عَذَابِ الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَقْوَرُ لِي لَكَ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي مُبِينٌ لِمَا يَقَعُ بِهِ الْإِنذَارُ وَالتَّخْوِيفُ، فَتَكُونُ الْإِبَانَةُ مُنْصَرِفَةً إِلَى النَّذَارَةِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْوَصْفُ رَاجِعاً عَلَى نَفْسِهِ خَاصَّةً، كَأَنَّهُ قَالَ: إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ مُبِينٌ أَيِّ إِنِّي لَمْ أَقُمْ فِي دَعَائِي إِيَّاكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنذَارِكُمْ مِنْ عِنْدِ نَفْسِي، وَلَكِنْ بِمَا اخْتَصَنِي اللَّهُ تَعَالَى وَوَلَّانِي ذَلِكَ. ثُمَّ الْأَصْلُ فِي الْإِنذَارِ نَهْيٌ، وَفِي النَّهْيِ أَمْرٌ، لَكِنَّ الْإِنذَارَ يَقْضِي نَهْيًا وَكِيدًا، وَالنَّهْيُ الْوَكِيدُ يَقْضِي بِالْخِلَافِ أَمْرًا وَكِيدًا.

وَأَمَّا الْبِشَارَةُ، فَهِيَ تَقْضِي الْأَمْرَ الْوَكِيدَ وَغَيْرَ الْوَكِيدِ، لِأَنَّهُ يَسْتَوْجِبُ الْبِشَارَةَ بِكُلِّ خَيْرٍ يَقَعُهُ، وَإِنْ كَانَ لِلْمَرْءِ تَرْكُ ذَلِكَ الْخَيْرِ بِخَيْرٍ آخَرَ يَأْتِي بِهِ، فَلَا يُفْهَمُ بِنَفْسِ الْبِشَارَةِ الْأَمْرُ الْوَكِيدُ، وَيُقْهَمُ بِتَضَرُّعِ النَّذَارَةِ تَاكِيدُ الْوَجْهِينِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمُطْلَقُ الْبِشَارَةِ لَا يَدُلُّ عَلَى تَحْقِيقِ النَّذَارَةِ؛ فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى الْبِشَارَةِ، لِأَنَّ النَّذَارَةَ عَلَى مَا هُوَ فِيهِ فِي الْفِعْلِ تُلْزِمُ النَّهْيَ، وَإِذَا انْتَهَيْ عَنْهُ فَقَدْ حَصَلَ الْعَفْوُ، وَفِي حُصُولِ الْعَفْوِ ارْتِفَاعُ مَا خُوفَ وَذَهَابُهُ^(١).

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ فكأنه قال: أَنْذِرُهُمْ عَلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، وَمَرْهُمْ بِعِبَادَةِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، وَهوَ^(٢) اللَّهُ تَعَالَى؛ إِذِ الْأَمْرُ بِالْإِنذَارِ يَقْضِي النَّهْيَ عَمَّا عَلَيْهِ، وَهُوَ يَدْعُو إِلَى خِلَافِهِ، وَيَبَيِّنُ لَهُمُ الْخِلَافَ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾. وَقِيلَ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أَيَّ وَحْدَهُ.

وقال [عكرمة]^(٣): كُلُّ عِبَادَةٍ جَرَى بِهَا الْأَمْرُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى الْإِرْسَالِ فَهِيَ مُنْصَرِفَةٌ إِلَى التَّوْحِيدِ، فَكَأَنَّ الَّذِي حَمَلَهُ^(٤) عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، هُوَ أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي فِيهَا أَمْرٌ بِالْعِبَادَةِ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكُفْرِ، لِأَنَّهُ خَاطَبَ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] وَلَمْ يُخَاطَبَ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا آلِ الْيَمِينِ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾. وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهَا فِي أَهْلِ الْكُفْرِ، وَالْكَافِرُ أَوَّلُ مَا يُؤْمَرُ [بِهِ التَّوْحِيدُ]^(٥) لَيْسَ يُخَاطَبُ بِعِبَادَةِ آخَرَ^(٦) سِوَاهُ، لِأَنَّهُ مَا لَمْ يَأْتِ بِالتَّوْحِيدِ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ شَيْءٌ مِنَ الْعِبَادَاتِ، فَجَعَلَ^(٧) تَأْوِيلَ الْعِبَادَةِ التَّوْحِيدَ لِهَذَا [لَا لِأَنَّ^(٨) تَكُونُ الْعِبَادَةُ [عِبَادَةً]^(٩) عَنِ التَّوْحِيدِ خَاصَّةً، بَلِ الْعِبَادَةُ: يُرَادُ بِهَا التَّوْحِيدُ مَرَّةً إِذَا ذُكِرَتْ عَقِيبَ الْكُفْرِ [وَمَرَّةً]^(١٠) إِذَا ذُكِرَتْ فِي أَهْلِ الْإِيمَانِ، فَالْعِبَادَةُ مِنْهُمْ أَنْ يَقُولُوا بِمُعَامَلَةِ مَا اعْتَقَدُوهُ بِالْقَوْلِ وَأَنْ يُنْجِزُوا مَا وَعَدُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

وهذا كما ذَكَرْنَا فِي إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِتْيَاءِ الزَّكَاةِ أَنَّهُمَا إِذَا ذُكِرَتَا فِي أَهْلِ الْكُفْرِ انْصَرَفَ الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْإِعْتِقَادِ لَا إِلَى الْفِعْلِ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الْفِعْلِ، وَإِذَا ذُكِرَتَا فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ أُريدَ بِالْإِقَامَةِ وَالْإِتْيَاءِ إِيجَادُ الْفِعْلِ.

فكَذَلِكَ الْحَكْمُ فِي الْعِبَادَةِ لِقَوْلِهِ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أَيَّ وَحْدَهُ ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أَيَّ اتَّقُوا الْإِشْرَاقَ فِي عِبَادَتِهِ ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فِي مَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْأَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

وجائزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أَيَّ اتَّقُوا الْمَهَالِكَ كُلَّهَا، وَاتَّقُوا النَّارَ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦].

(١) الواو ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: هو، في م: من يستحق العبادَةَ هو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حملهم. (٥) في الأصل وم: بالتوحيد. (٦) في الأصل وم: أخرى. (٧) في الأصل وم: فجعلوا. (٨) في الأصل: إلا أن، في م: لا أن. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: و.

[وقوله^(١)] ﴿وَأَتَّقُوا﴾ إذا ذُكِرَ على الأفراد ومُرسلاً اقتضى الإنهاء عما فيه الهلاك، واقتضى الأمر بالعبادة والطاعة. وإذا جُمِعَ بَيْنَ العبادة والتقوى كانت العبادة انصرفت إلى إتيان الأفعال، وانصرفت التقوى إلى اتقاء المهلك، وهو كما قلنا في البر والتقوى: إن كل واحد منهما إذا ذُكِرَ مفرداً اقتضى ما يقتضيه الآخر، وإذا جُمِعَا في الذكر صُرف أحدهما إلى جهة والآخر إلى جهة أخرى، وكذلك الإسلام والإيمان إذا أُفِرِدَ ذُكِرَ^(٢) أحدهما، يكون معنى كل واحد منهما، هو معنى الآخر، وإذا جُمِعَا في الذكر صُرف كل واحد منهما إلى جهته على حدة.

وقال الحسن في قوله ﴿وَأَتَّقُوا﴾ أي اتقوا الله في حقّه أن تُضيّعوه، فهو يَجْمَعُ ما يُؤْتَى وما يُتَّقَى.

ثم الأصل أن الطاعة قد تكون لِمَنْ سِوَى الله، والعبادة لا تكون إلا لله تعالى. فلذلك قال عند الأمر بالعبادة ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فاضافها إلى الله تعالى، وازدادت الطاعة إلى نفسه بقوله ﴿وَأَطِيعُوا﴾ ففيه دلالة أن ليس في الطاعة لآخر إشراك بالله تعالى في الطاعة، بل الله تعالى جعل الإشراك في الطاعة بقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وَدَمَ مَنْ يَعِدُلْ بالله تعالى في العبادة بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَرْيَبُهُمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

فالعبادة كأنها تقتضي الخشوع والتضرع على الرجاء والخوف، والله تعالى هو الذي يُرْجَى منه، ويُخَافُ مِنْ نِقْمَتِهِ. فاما الطاعة فهي تقتضي فعلاً على الأمر، لا غير.

وعلى ذلك لما صرحت الكفرة الرجاء والخوف إلى الأصنام بقولهم: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وقولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] سُمُوا عُبَادَ الأصنام. فكل مَنْ يَفْعَلُ الْفِعْلَ/٥٩٨ - ب/ على الخوف والرجاء، فذلك منه عبادة له.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿يَتَغَيَّرُ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ﴾ إن صرحت قوله: ﴿وَأَتَّقُوا﴾ إلى اتقاء الشرك يزجج قوله: ﴿يَتَغَيَّرُ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ﴾ إلى ما سلفت من الذنوب في حالة الشرك كقوله ﴿إِنْ يَنْتَهِوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وإن صرقت على سائر وجوه المهلك رجع إلى السالف وإلى الآنف جميعاً، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ يُذْهِبُ السِّيئَاتِ﴾. [هود: ١١٤] فيكون قوله: ﴿يَنْ﴾ صلة على ما ذكر أهل التفسير، ومعناه: يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ.

وجائز أن يكون قوله: ﴿يَنْ﴾ [على^(٣)] التحقيق، وليس على حق الصلوة، لأنه قد يكون من الذنوب [ذنوب^(٤)] يُؤَاخَذُ بها بعد الإسلام، وهي التي تكون بينه وبين الخلق من القصاص وغيره؛ فالمأثم بالقتل، وإن زال عنه بالتوبة، فإن القصاص لا يُرْفَعُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فجائز أن يكون أولئك القوم كانوا يخافون على أنفسهم الإهلاك من قومهم بإيمانهم وإجابتهم لنوح عليه السلام في قوله: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مُخَرَّجَ الأمان لهم: أنهم بإيمانهم يبقون إلى الأجل الذي صُرب لهم، لو لم يؤمنوا؛ إذ يكون معناه: أنكم إن أسلمتم بقيتم إلى انقضاء أجلكم^(٥) المسمى سالمي آمين، لا يَهَيِّئُ لِعَدْوِكُمْ أَنْ يَمْكُرُوا بِكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كقوله^(٦) في موضع آخر: ﴿وَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وجائز أن يكون قوله: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ أي لا يتأخرون عن آجالهم، أو لا يؤخرون بما يطلبون من التأخير، فيكون في هذا إياس لهم أنهم لا يؤخرون إذا طلبوا التأخير.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنبِئُوا مِنْ مَا رَفَعْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَقَ وَأَكُنْ

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: بذكر. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: آجالهم، في م آجالكم. (٦) في الأصل وم: وقال.

مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] فَأَخْبَرَ جَلَّ جَلَالُهُ أَنَّ الْمَوْتَ إِذَا آتَاهُ طَلَبَ التَّأْخِيرَ لِيُبَدِّلَ مَا طَلَبَ مِنْهُ الْبَدَلَ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ التَّصَدِّقِ وَالْإِيمَانِ بِهِ، فَقَطَعَ عَنْهُمْ طَمَعَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١] ويقولوه: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] ويقولوه: ﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾.

وهذه الآية تَنْقُضُ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ قَوْلَهُمْ^(١)، لَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ بَأَنَّ رَجُلًا لَوْ جَاءَ، وَقَتْلُ^(٢) آخَرَ، فَإِنَّمَا قَتَلَهُ قَبْلَ انْقِضَاءِ أَجَلِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وَالْأَصْلُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ يُقْتَلُ، فَإِنَّمَا يَجْعَلُ انْقِضَاءَ أَجَلِهِ بِالْقَتْلِ لَيْسَ بِغَيْرِهِ، لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَجْعَلَ انْقِضَاءَ أَجَلِهِ بِمَوْتِهِ خَفَتْ أَنْفِهِ، ثُمَّ يَنْقُضُ أَصْلَهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَوْ جَازَ هَذَا لَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى الْجَهْلِ.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَي لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا يُحِلُّ بِكُمْ مِنَ النَّدَامَةِ عِنْدَ انْقِضَاءِ أَجَالِكُمْ لَكُنْتُمْ تَبْدِلُونَ لِلْحَالِ مَا ارْتَدَّ مِنْكُمْ لئَلَّا يُحِلَّ بِكُمْ الْعَذَابُ، أَوْ يَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ﴾ أَي أَجَلَ الْعَذَابِ إِذَا حَلَّ وَقَعَ، لَا مَحَالَةَ، فَلَوْ عَلِمُوا بِوُقُوعِهِ لَا مَحَالَةَ لَارْتَدَّعُوا عَنْهُ.

الآية ٥

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَ: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَتَّبِعِ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

فَيَكُونُ الْقَوْلُ مِنْهُ قَوْلَ مُعَذِّرٍ: إِنَّهُ لَمْ يَقْصُرْ فِي دَعْوَةِ قَوْمِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَإِنَّهُ قَدْ دَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحَالٍ، وَإِنَّهُ قَدْ أَبْدَى عُذْرَهُ فِي ذَلِكَ، وَإِنَّمَا جَاءَ التَّعْرِيطُ وَالتَّعْدِي مِنْ جِهَةِ قَوْمِهِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْهُ عَلَى الْإِشْفَاقِ وَالرَّحْمَةِ وَالتَّعَرُّضِ لِاسْتِنزَالِ اللَّيْلِ وَالرَّحْمَةِ، لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى يُلْطِفُهُ يُلَيِّنُ قُلُوبَهُمْ، فَيَنْقَادُوا لِلْحَقِّ، وَيَرْغَبُوا فِي الْإِجَابَةِ لِيَسْتَخْلَصُوا مِنَ الْعَذَابِ، وَيَسْتَوْجِبُوا^(٣) الْمَغْفِرَةَ مِنْ رَبِّهِمْ. فَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى أَحَدِ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ: إِنْ كَانَ قَبْلَ الْإِخْبَارِ، فَهُوَ عَلَى التَّعَرُّضِ مِنْهُ لِاسْتِنزَالِ اللَّيْلِ وَالرَّحْمَةِ، وَإِنْ كَانَ بَعْدَهُ فَهُوَ عَلَى إِبْدَاءِ الْعُذْرِ لَا عَلَى الدُّعَاءِ وَالرَّجَاءِ بَأَنَّ يُلَيِّنَ قُلُوبَهُمْ يُلْطِفُهُ، فَيَنْقَادُوا لِلْحَقِّ؛ إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُخْبِرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَهُوَ يَظْمَعُ أَنْ يُؤْمِنُوا. ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أَي دَعَوْتُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَكُلِّ سَاعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ [مَا]^(٤) أَمْكَنْتَنِي فِيهِ الدُّعَاءَ.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿قَلَّمَ يَدَؤُهُمْ دَعَاؤَ لَا فِرَاقَ﴾ أَوَّلُ هَذَا أَنَّ عِدَاؤَهُمْ كَانَتْ قَدْ اسْتَبَدَّتْ بِنُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانُوا قَدْ اسْتَنْقَلَوْهُ، وَأَبْغَضُوا كَلَامَهُ، فَحَدَّثَ لَهُمْ بِبُغْضِهِمْ^(٥) كَلَامَهُ وَاسْتِنْقَالِهِمْ إِيَّاهُ مَعْنَى حَمَلَهُمْ عَلَى الْفِرَارِ، فَتَنَسَّبَ ذَلِكَ إِلَى الدُّعَاءِ؛ لِأَنَّ حَدُوثَ ذَلِكَ الْمَعْنَى كَانَ عِنْدَ وَجُودِ الدُّعَاءِ، فَتَنَسَّبَ^(٦) إِلَى الدُّعَاءِ عَلَى مَعْنَى الْمُجَاوَرَةِ وَالْقُرْبِ لَا أَنْ يَكُونَ الدُّعَاءُ فِي الْحَقِيقَةِ سَبَبًا لَزِيَادَةِ الْفِرَارِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّا الْكَاذِبُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْمَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] وَالْقُرْآنُ لَمْ يُجْعَلْ سَبَبًا لَزِيَادَةِ الرُّجْسِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا أَخَذُوا بُغْضًا عِنْدَمَا تَلَّى عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَحَدَّثَ لَهُمْ بِذَلِكَ مَعْنَى حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ، فَأَضِيفَتْ تِلْكَ الزِّيَادَةُ إِلَى الْقُرْآنِ، إِذْ عِنْدَ ذَلِكَ حَدَثَ ذَلِكَ السَّبَبُ الزَّائِدُ فِي الرُّجْسِ، فَتَنَسَّبَ إِلَيْهِ عَلَى مَعْنَى الْمُجَاوَرَةِ، وَكَقَوْلِهِ^(٧) تَعَالَى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوَكُمُ ذِكْرِي﴾ [المؤمنون: ١١٠] وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا نَاسِيِينَ^(٨)، بَلْ كَانُوا ذَاكِرِينَ^(٩)، يَذْكُرُونَهُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، لَكِنْ بُغْضُهُمْ إِيَّاهُمْ وَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا أَوْقَعَ لَهُمُ النِّسيَانَ، فَتَنَسَّبَ إِلَيْهِمُ الْإِنْسَاءُ^(١٠).

فَعَلَى ذَلِكَ لَمَّا أَبْغَضُوا، وَاسْتَنْقَلَوْا كَلَامَهُ وَدَعَاءَهُ أَحَدَتْ لَهُمْ ذَلِكَ الْبُغْضُ زِيَادَةَ نِفَارٍ وَجُحُودٍ. ثُمَّ سَبَبُ النِّفَارِ إِلَى الدُّعَاءِ الْوَجْهُ الَّذِي ذَكَرْنَا لَا^(١١) أَنْ يَكُونَ الدُّعَاءُ فِي الْحَقِيقَةِ مُنْفَرًا^(١٢).

(١) فِي الْأَصْلِ: قَوْلُهُ. (٢) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: لَيْسَ بِغَيْرِهِ. (٣) فِي م: وَيَسْتَوْجِبُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي م: بِبُغْضِهِمْ. (٦) الْهَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: مَنْسِيِينَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: مَذْكُورِينَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: الْإِشْيَاءُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَّا. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مُنْفَر.

الْمَطَرُ، وَعَقَمْتَ أَرْحَامَ نِسَائِهِمْ، وَهَلَكَتْ مَوَاشِيَهُمْ وَجَنَّتْهُمْ لِئَامُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ أَهْلَكُوا بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانُوا كُلُّهُمْ كُفَّارًا، لَيْسَ فِيهِمْ صَغِيرٌ. وَلِلَّذَلِكَ كَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعِدُّهُمْ.

[وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا خَافُوا انْقِطَاعَ النُّعْمَةِ عَنْهُمْ وَالْإِجَابَةَ وَزَوَالَ السَّعَةِ عَنْهُمْ بِالْإِسْلَامِ] ^(١) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتْرُكُ الْإِيمَانَ خَشْيَةً هَذَا، فَاحْبَرَ ۖ أَنْ الَّذِي هُمْ فِيهِ مِنْ رَغَدِ الْعَيْشِ لَا يَنْقُطُ عَنْهُمْ بِالْإِسْلَامِ، بَلْ يُرْسِلُ عَلَيْهِمُ الْمَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ يَذَرَارًا مُتَابِعًا، وَيُمِدُّهُمْ ^(٢) بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ مَا يَجْعَلُ لَهُمْ مِنَ الْجَنَانِ وَالْأَنْهَارِ.

لَكِنْ ذُو ^(٣) الْأَلْبَابِ وَالْعُقَلَاءُ يَنْظُرُونَ ^(٤) إِلَى حُسْنِ الْعَاقِبَةِ وَمَا [عَلَيْهِ مَالُ الْأَمْرِ] ^(٥) دُونَ الْحَالِ، فَذَلِكَ الَّذِي يُرَغِّبُهُمْ ^(٦) فِيهِ. وَلِلَّذَلِكَ اخْتَلَفَتْ دَعْوَةُ النَّبِيِّ ۖ لِأُمَّتِهِ [فَمِنْهُمْ] ^(٧) مَنْ بَشَّرَهُ بِكَثْرَةِ أَمْوَالِهِ وَبَيْنُو، وَمِنْهُمْ مَنْ رَغِبَ فِي آخِرَتِهِ [بِقَوْلِهِ تَعَالَى] ^(٨): ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] وَقَوْلِهِ ^(٩) تَعَالَى: ﴿قُلْ أُوْثِقُوا بِخَبَرِيْنَ ذٰلِكُمْ لِلَّذِيْنَ اٰتَقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ ثَمَرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ﴾ [آل عمران: ١٥].

وَنَظِيرُ الْأَوَّلِ كَقَوْلِهِ ۖ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَقْبَلُوا لَفَنَعْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وَالْأَصْلُ أَنَّ الرُّسُلَ ۖ بُعِثُوا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ دَاعِينَ زَاجِرِينَ مُخَوِّجِينَ مُدَحِّضِينَ؛ فَبِمَا يَنْتَلُونَ ^(١٠) عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْبَاءِ الْأَوَّلِينَ دَخَلَ فِيهِ ^(١١) جَمِيعُ الْأَوْجُوِّ الثَّلَاثَةِ، إِذِ النَّدَارَةُ وَالْبِشَارَةُ مَرَّةً تَقَعُ بِالْإِبْتِدَاءِ وَمَرَّةً بِنَزُولِ الْمُتَقَدِّمِينَ الْمُصْطَفِينَ مِنْهُمْ وَالْمُكَذِّبِينَ: أَنْ كَيْفَ كَانَتْ عَوَاقِبُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ.

وَكَذَلِكَ الدَّعَاءُ، وَالرَّحْمَةُ تَكُونُ مَرَّةً بِإِبْتِدَاءِ الدَّعَاءِ، وَالزَّجْرُ يَكُونُ ^(١٢) بِذِكْرِ الْأَمَمِ السَّالِفَةِ وَأَنَّ الرُّسُلَ كَيْفَ كَانُوا يَدْعُوهُمْ ثَانِيًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٣ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ قَالَ أَبُو بَكْرِ الْأَصَمُّ: تَأْوِيلُهُ: كَيْفَ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ ثَوَابًا، فَتَعْبُدُوهُ، فَيُثِيبَكُمْ بِهَا؟ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ فِي يَدِهِ وَأَنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ نَفْعًا، وَلَا يَذْفَعُونَ عَنْكُمْ ضَرًّا، فَجَعَلَ قَوْلَهُ: ﴿وَقَارًا﴾ مَكَانَ عِبَادَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لَأَنْفُسِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً وَشَرَفًا وَقَدْرًا؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَيُّ مَا لَكُمْ لَا تَخَافُونَ عَظَمَةَ اللَّهِ وَقُدْرَتَهُ عَلَيْكُمْ، فَتَسْتَهْوُوا ^(١٣) عَمَّا نَهَاكُمْ، وَتَاتُوا ^(١٤) مَا أَمَرَكُمْ بِهِ؟

وَحَمَلَ الرَّجَاءَ عَلَى الْخَوْفِ لِمَا ذَكَرْنَا أَنَّ الرَّجَاءَ الْمُطْلَقَ يَقْتَضِي الْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ جَمِيعًا، وَكَذَلِكَ الْخَوْفُ الْمُطْلَقُ يَقْتَضِي الرَّجَاءَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالْأَشْبَهُ بِالتَّأْوِيلِ عِنْدَنَا أَنَّ الرَّجَاءَ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا لِيَ الْغَضَبِ لِلَّهِ وَالْحُبِّ لِلَّهِ وَالبُغْضِ لِلَّهِ، أَيُّ مَا لَكُمْ لَا تَسْعَوْنَ سَعْيَ مَنْ يَرْجُو مِمَّا عِنْدَ اللَّهِ عَلَى الْوَقَارِ وَالْهَيْبَةِ بَعْدَ أَنْ شَاهَدْتُمْ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِحْسَانِهِ إِلَيْكُمْ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَتَسْخِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَمَا ذَكَرَ مِنْ مِثْلِهِ فِي الْآيَاتِ الَّتِي يَتْلُوها؟

وَذَلِكَ أَنَّ الْمَرَّةَ إِذَا سَعَى لِأَخْرَجَ عَلَى [غَيْرِ] ^(١٥) رَجَاءٍ، أَوْ لَمْ يَرْجُ أَحَدًا، اسْتَحْقِرَ بِهِ.

فَالزَّمَهُمْ نُوحٌ ۖ سَعْيَ مَنْ يَرْجُوهُ عَلَى التَّوْقِيرِ وَالْهَيْبَةِ عَلَى مَا عَلَيْهِ فِي الشَّاهِدِ أَنَّ السَّاعِيَ لِلْمُلُوكِ وَالْكَبَرَاءِ عَلَى الرَّجَاءِ كَيْفَ يَكُونُ [مِنْهُ تَوْقِيرُهُ] ^(١٦) إِيَّاهُمْ وَهَيْبَتُهُمْ لَهُ ^(١٧) وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا﴾ فَمَنْ حَمَلَ قَوْلَهُ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾؟ عَلَى حَقِيقَةِ الرَّجَاءِ فَتَأْوِيلُهُ:

(١) مَنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) مَنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَيَمْلِكُكُمْ. (٣) فِي الْأَصْلِ: ذُو، فِي م: ذُو. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَنْظُرُ. (٥) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَيْهِ مَوْدَةٌ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرْغِبُهُ. (٧) مَنْ م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: يَتْلُوا. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهِمْ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَتَسْتَهْوُونَ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَاتُونَ. (١٥) مَنْ م، ساقطة من الأصل. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْهُمْ تَوْقِيرُهُمْ. (١٧) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهِمْ.

كيف لا ترجون أن يعظم قدركم عند الله ﷻ، إذا اجبتم إلى ما دعاكم إليه، وفي ما ذكر من خلقه إياهم أطواراً تذكير لهم حسن صنيعه لهم في ما قلبهم من حال إلى حال من أول ما أنشأهم إلى حالهم التي هم فيها، وكيف لا يرجون إحسانه في حادث الأوقات إذا أقبلوا على طاعته، واشتغلوا بعبادته؟

وإن كان قوله ﷻ: ﴿مَّا لَكُم لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾؟ على الخوف ففي ما ذكر من قوله ﷻ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ تذكير العظمة والسلطان والقُدرة، وهو أنه [خَلَقَكُمْ]^(١) وبرأكم في تلك الظلمات الثلاث، ولم تخف عليه أحوالكم فيها، بل قلبكم من حال إلى حال كيف شاء، فكيف تخفى عليه أفعالكم في حال بروزكم وظهوركم؟ فيكون في ذكر هذا تنبيه أن الله تعالى، لا يخفى عليه شيء من أعمال الخلق، فيدعو ذلك إلى المراقبة، ويلزم الثيقظ والتبصرة في كل حال لئلا يتعدى [أحد]^(٢) حدود الله، ولا يضيع حقوقه، فيحل به البوار والهلاك.

فإذا حمل التأويل على الرجاء كان فيه تذكير عظيم بنعيمهم من أول ما أنشأهم إلى الوقت الذي انتهوا إليه، فيحملهم ذلك على طلب ما يشرف قدرهم عند الله تعالى، وتحمده عاقبتهم.

وإن حملته على الخوف كان فيه تذكير القُدرة والسلطان، فيحملهم على المراقبة والاتقاء في حادث الأوقات.

ومن حمل قوله ﷻ: ﴿وَقَارًا﴾ على العبادَةِ فهو يخرج على غير الوجهين اللذين ذكرناهما في الخوف والرجاء إذا صرف إليهما التأويل؛ كأنه يقول: إن الذي خلقكم أطواراً، قد تعلمون أنه حكيم [ومن هو حكيم]^(٣) لا يسه [ومن]^(٤) ترككم سدى لا يأمركم، ولا ينهاكم، ولا يستأدي منكم شكر النعم، سفة. فيكون في ذكر هذا ترغيب في العبادَةِ وإخلاص الطاعة، ويكون في ذكر هذا أيضاً تثبيت الربوبية والزام القول/ ٥٩٩ - ب/ بالوحدانية، لأنه أنشأهم من أول ما أنشأهم نطفة ثم علقه ثم مضغه إلى أن خلقهم بشراً سوياً.

فلو لم يكن المدبر والمنشئ واحداً لكان يعجز عن تقليبه من حال إلى حال، لأنه إذا أراد أن ينشئ من النطفة علقه ومن العلقه مضغه كان للأخر أن يمنعه عن تذييره، فلا يتهيأ له إنشاء علقه ولا مضغه.

فارتفاع المانع دليل على أن لا مدبر سواه، ولا خالق غيره. فإذا ثبت [انفرادُه بما ذكرنا ثبت]^(٥) أنه هو المستحق للعبادة من الخلاق.

وقال بعضهم: معنى قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي بمختلف الأَخلاق والصور والألوان والألفاظ والأصوات والنعم حتى لا ترى أحداً يشبه آخر بجميع خلقه. وهذا من عظيم ما يستدل به على قُدرة الله وحكمته، والله الموفق.

الآية ١٥

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَرَا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَوَاتِرَ طِبَاقًا﴾ قد ذكرنا أن قوله: ﴿أَلَمْ نَرَا﴾ يقتضي تذكير أمر عرفوه، فأغفلوا عنه؛ فقد يقتضي تذكير أعجوبة، لم يسبق من الخلاق العلم بها؛ يقول: قد رأوا أنه خلق سبع سموات طباقاً بغير علائق فوقها ولا أعيدة تحتها، ومن قدر على مثله قادر على خلق كل ما يريد، فيكون فيه إيجاب القبول بالبعث؛ إذ إعادتهم ليست بأعسر من خلق السموات في تقدير عقولكم. ومن قدر على خلقهن قادر على البعث، والله الموفق.

الآية ١٦

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ منهم من يذكر أنه جعله نوراً في السماء الدنيا، وأضافه إلى جملة السموات. وقد يجوز أيضاً أن يضاف الشيء إلى العَدَد، وإن لم يكن يوجد ذلك إلا في البعض؛ يقال: في سبع قبائل مسجد واحد، والمسجد إذا كان واحداً، فهو لا يكون في سبع قبائل، وإنما يكون في قبيلة واحدة، ويقال: فلان يتواري في دور قوم^(٦)، وهو لا يكون متوالياً في واحدة منهم، ثم أضيف التواري إلى الجملة فكذلك أضاف نور القمر إلى السموات السبع، وإن كان القمر في سماء واحدة.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) أدرج في الأصل بعدها: وهو لا يكون متوالياً في دور قوم.

ومنهم مَنْ ذَكَرَ أَنَّ نَوْرَ الْقَمَرِ قد أحاط بجميع السموات، وَزَعَمَ أَنَّ وَجْهَهُ إلى السموات، وظَهَرَهُ إلى أهل الأرض، ولهذا ما يَعْمَلُ عليه السَّوَاتِرُ مِنَ السَّحَابِ وَغَيْرِهَا. فَأَمَّا نَوْرُ وَجْهِهِ فَإِنَّهُ لَا يَسْتُرُهُ شَيْءٌ مِنَ السَّوَاتِرِ. لَكِنَّ هَذَا إِنَّمَا يُعْرَفُ بِالْخَبَرِ. فَإِنْ صَحَّ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ خَبَرٌ فَذَلِكَ حَقٌّ^(١)، وَإِلَّا فَالْإِمْسَاكُ عَنْ مِثْلِهِ أَحَقُّ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ بِرُكْنًا﴾ ذَكَرَ السَّرَاجَ ههنا مكانَ الضوء وفي^(٢) موضع آخر، وهو قوله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ [يونس: ٥] فَذَكَرَ فِي الْقَمَرِ النُّورَ^(٣) وفي الشمسِ الضياءَ لِأَنَّ الْقَمَرَ يَكُونُ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَى النُّورِ، وَذَلِكَ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ. ثُمَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنشَأَ اللَّيْلَ لِيُسَكِّنَ فِيهِ. لَكِنَّ قَدْ يَبْدُو لِلْخَلَائِقِ بِاللَّيْلِ حَوَائِجُ يَحْتَاجُونَ إِلَى قَضَائِهَا، فَمَنْ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِنُورِ الْقَمَرِ لِيَتَوَصَّلُوا بِنُورِهِ إِلَى قَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ، وَجَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً لِيَخْتَلِفَ صَوْرُهَا نَوْرَ اللَّيْلِ، وَيَتَلَبَّ عَلَيْهِ، وَلَا يَخْتَلِفَ نَوْرُ النَّهَارِ نَوْرَ الشَّمْسِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ فجاءتْ أَنَّ يَكُونُ أَضَافَ الْإِنْبَاتِ إِلَى الْأَرْضِ، وَيَرُدُّ ذَلِكَ إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي خَلَقَ مِنَ التُّرَابِ لِحُدُوثِهِ مِنْهُ لَا [أَنَّ] يَكُونُ خَلَقَ الْجَمْلَةَ مِنَ التُّرَابِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﷺ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢] وَالَّذِي لَنَا فِي السَّمَاءِ هُوَ الْمَطَرُ لَا الَّذِي يَرْزُقُ بِهِ، وَلَكِنَّ الَّذِي يَرْزُقُ بِهِ أَصْلُ الْمَطَرِ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْأَرْزَاقِ.

فكَذَلِكَ الْخَلْقُ لَمَّا كَانُوا مِنْ نَسْلِ آدَمَ ﷺ وَكَانَ هُوَ أَصْلًا لَهُمْ، أُضِيفَ النَّسْلُ إِلَى الَّذِي حَدَثَ مِنْهُ الْأَصْلُ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ يَرْجِعُ هَذَا إِلَى كُلِّ فِي نَفْسِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ حَيَاةَ الْأَبْدَانِ وَقَوَائِمَهَا بِالَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ، وَيَنْبُتُ مِنْهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْأَعْلِيَّةِ؛ فَإِذَا كَانَ قَوَائِمُهَا بِمَا يَنْبُتُ مِنْهَا فَكَأَنَّمَا أَنْبَتْنَا مِنْهَا، فَاسْتَقَامَ أَنْ يُضَافَ الْإِنْبَاتُ إِلَيْهَا كَمَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يُضَافَ خُرُوجُ الشَّامِ إِلَى الْأَرْضِيِّينَ، وَإِنْ كَانَ حُدُوثُهَا مِنَ الْأَشْجَارِ؛ إِذْ قَوَامُ الْأَشْجَارِ وَيَقَاوُهَا بِهَا، فَتَنْسَبُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى الْأَرْضِ عَلَى التَّقْدِيرِ الَّذِي ذَكَرْنَا.

ففي قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ عَلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ إِبْتِاثُ الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَعْثِ وَالزَّمَامِ الْحُجَّةِ عَلَى مَنْ يَجْحَدُ كَوْنَهُ أَنَّهُ يَذْكُرُهُمْ قُدْرَتُهُ أَنَّهُ أَنْشَأَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَمْ يَكُونُوا شَيْئًا.

فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى إِنْشَائِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا تُرَابًا قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعِيدَهُمْ إِلَى الْحَالَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا مِنْ كَوْنِهِمْ بَشَرًا سَوِيًّا، وَإِنْ صَارُوا عِظَامًا رَفَاتًا، لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَرْغَمُونَ أَنْ^(٥) كَيْفَ يُعَادُونَ^(٦) خَلْقًا جَدِيدًا بَعْدَ أَنْ صَارُوا تُرَابًا؟ فَاجْتَنَحَ عَلَيْهِمْ بِأَمْرِ الْإِبْتِدَاءِ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا.

وَأِنْ كَانَ عَلَى التَّأْوِيلِ الثَّانِي فَفِيهِ تَذْكِيرٌ بِنِعْمِهِ أَنْ قَدْ أَخْرَجَ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ مَا يَتَعَيَّشُونَ بِهِ، وَيُقِيمُونَ بِهِ أَوْدَهُمْ، لِيَسْتَأْدِيَ^(٧) مِنْهُمْ الشُّكْرَ. وَفِيهِ تَذْكِيرٌ بِقُوَّتِهِ وَسُلْطَانِهِ لِيُخَوِّفَهُمْ عِقَابَهُ، فَيَتَّقُوا سُخْطَهُ، وَيَطْلُبُوا مَرْضَاتَهُ.

الآية ١٨ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُبْدِئُ فِيهَا وَيَخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ فَجَمَعَ بَيْنَ الْإِعَادَةِ وَالْإِخْرَاجِ بِحَرْفِ الْجَمْعِ، وَجَعَلَ قَوْلَهُ، ﷺ: ﴿وَيَخْرِجُكُمْ﴾ فِي مَوْضِعٍ ثُمَّ، لِأَنَّ هَذَا الْإِخْرَاجَ يَكُونُ بَعْدَ الْإِعَادَةِ إِلَى الْأَرْضِ، فَيَكُونُ فِي هَذَا دَلِيلٌ أَنَّ أَحَدَ الْحَرْفَيْنِ، وَهُوَ الْوَاوُ، قَدْ يُسْتَعْمَلُ مَكَانَ: ثُمَّ.

الآية ١٩ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أَيَّ جَعَلَهَا كَالشَّيْءِ الْمَبْسُوطِ الَّذِي يُنْتَفَعُ بِبَسْطِهِ. وَلَوْ لَمْ يَجْعَلْهَا كَذَلِكَ لَمْ يَتَوَصَّلُوا إِلَى حَوَائِجِهِمْ وَلَا الْإِنْتِفَاعِ بِهَا. فَفِي ذِكْرِ هَذَا تَذْكِيرٌ بِاللَّهِ تَعَالَى [بِمَا]^(٨) عَلَيْهِمْ مِنْ عَظِيمِ الْمِنَّةِ.

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿لَتَسْلُكُنَّ مِنْهَا جُبًا مَبْلَاً﴾ قِيلَ: الْفِجَاجُ الطَّرِيقُ الْوَاسِعَةُ، وَقِيلَ: السُّبُلُ فِي السَّهْلِ، وَالْفِجَاجُ الطَّرِيقُ فِي الْجِبَالِ. وَهَذَا أَيْضًا مِنْ عَظِيمِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّرَ أَرْزَاقَ الْخَلْقِ فِي الْبِلَادِ، فَلَوْ لَمْ

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: هُوَ. (٢) الرَوَا سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٣) فِي الْأَصْلِ رَم: نَوْرًا. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَوْ. (٦) فِي الْأَصْلِ رَم: يُعَادُونَ. (٧) فِي الْأَصْلِ رَم: أَوْسَتَادِي. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم.

يَجْعَلُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ سُبُلًا لَمْ يَجِدُوا طَرِيقًا يَسْلُكُونَهُ، فَيَتَوَصَّلُونَ بِهِ إِلَى مَا بِهِ قِيَامُ أَعْيُنِهِمْ. فَصَارَتْ الطَّرِيقُ الْمُتَّخَذَةُ لِمَا يُسَلِّكُ بِهِ فِيهَا، فَتَصِلُ إِلَى حَوَائِجِنَا وَإِلَى مَعَايِشِنَا كَالدُّوَابِّ الَّتِي سَخَّرَتْ لَنَا، فَتَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى حَوَائِجِنَا.

وهذا يبين لك أَنَّ مَلَكَ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَتَدْبِيرَهَا يَرْجِعُ إِلَى الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، لِأَنَّهُ أَخْرَجَ الْخَلْقَ إِلَى الْإِنْسِيَابِ فِي الْبِلَادِ لِإِقَامَةِ أَوْدِهِمْ، وَجَعَلَ لَهُمْ سَبِيلًا، يَتَوَصَّلُونَ إِلَى ذَلِكَ. فَتَبَتْ أَنَّ مَلِكَ الْأَقْطَارِ وَاحِدٌ.

الآية ٢١

وقوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنِّي أَمْرُتُهُمْ بِمَا أَمَرْتُهُمْ بِهِ أَوْ فِي مَا دَعَوْتُهُمْ إِلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَنْ لَوْ يَزِدُّهُ مَالُهُ وَوْلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ الْمَشْبُوعُونَ، هُمُ الَّذِينَ كَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَحَوَائِشُهُمْ، وَاسْتَتَبَعُوا مَنْ دُونَهُمْ، فَتَبِعُوهُمْ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا نُوحًا ﷺ وَقَدْ كَانَ نُوحٌ يَدْعُوهُمْ إِلَى اتِّبَاعِهِ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَّبِعُوهُ، وَإِنَّمَا تَبِعُوا مَنْ كَثُرَتْ أَمْوَالُهُ وَأَوْلَادُهُ وَمَوَاضِيئُهُ/ ٦٠٠ - أ/ فَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْإِتْبَاعِ: أَنَّهُمْ اتَّبَعُوا أَجَلَّتُهُمْ رُؤُسَاءُهُمْ، لَيْسَتْ فِي رُؤُسَائِهِمْ. وَمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ فِي أَجَلَّتِهِمْ فِي دَعَاءِ نُوحٍ ﷺ لِيَأْهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَغَيْرِهِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْأَجَلِّ وَالضَّعْفِ جَمِيعًا، فَيَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبِعُوا﴾ أَيِ اتَّبِعُوا مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالْغِنَى وَالَّذِينَ وَسَّعَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، وَبُسِطَتْ لَهُمْ، فَلَمَّا مَنَعَهُمْ أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِاللَّهِ تَعَالَى وَأَقْرَبُ إِلَيْهِ فِي الْمَنْزِلَةِ.

وَالَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى هَذَا، هُوَ أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ أَحَدًا فِي الشَّاهِدِ، تَرَكَ صَلَةَ وَلِيِّهِ، وَوَصَلَ عَدُوَّهُ، فَيَرَوْنَ أَنَّهُ إِذَا بُسِطَتْ عَلَى رُؤُسَائِهِمُ الدُّنْيَا، وَسَّعَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَضَيَّقَ عَلَى هَؤُلَاءِ لَأَنَّ^(١) أَوْلَئِكَ أَقْرَبُ مَنْزِلَةً وَأَعْلَى حَالًا، وَأَنَّهُمْ هُمُ الْأَوْلِيَاءُ، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَثَوَابِهَا، فَكَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُؤْفِرُ الْجَزَاءَ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ وَالْمُحْسِنِينَ فِي الدُّنْيَا، وَزَعَمُوا أَنَّ مَنْ وَسَّعَ عَلَيْهِ الدُّنْيَا، فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا لِلَّهِ تَعَالَى حِينَ^(٢) وَصَلَ إِلَيْهِ الْجَزَاءُ فِيهَا. فَهَذَا الظَّنُّ هُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى الْإِتْبَاعِ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ أَيِ بَوَارًا وَهَلَاكًا لِذَلِكَ الْمَتَّبِعِ، فَكَانَتْ تِلْكَ النَّعْمُ الَّتِي ظَنُّوا أَنَّهُمْ أَكْرَمُوا بِهَا بِصَنِيعِهِمْ سَبِيلًا لَخَسَارَتِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَنْ لَوْ يَزِدُّهُ مَالُهُ وَوْلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَتَّبِعْ أَتْمَلُهُمْ وَلَا أَوْلَدَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥].

ثُمَّ قَدْ بَيَّنَّا تَأْوِيلَ شِكَايَتِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَوْمِهِ. فَهَذِهِ الْآيَةُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ فِي مَعْنَى تَأْوِيلِ الشُّكَايَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَاحِدٌ.

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُمْ يَمْكُرُونَ مَا يَمْكُرُونَ بِالسَّنَنِ حِينَ^(٤) كَانُوا يَدْعُونَهُمْ إِلَى الْكُفْرِ وَالضُّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَكُنَى بِالْمَكْرِ عَمَّا قَالُوهُ بِالسَّنَنِ، فَكَانَ ذَلِكَ مَكْرًا كَبِيرًا أَيِ قَوْلًا عَظِيمًا.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَقِيقَةِ الْمَكْرِ، وَهُوَ أَنَّ رُؤُسَاءَهُمْ مَكَرُوا بِاتِّبَاعِهِمْ حِينَ^(٥) قَالُوا: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَوْ كَانُوا أَحَقُّ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَّا لَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ يُوسَّعُ عَلَيْهِمْ، وَيُضَيَّقُ عَلَيْنَا، فَإِذَا وَسَّعَ عَلَيْنَا تَبَتْ أَنَّا نَحْنُ الْأَوْلِيَاءُ وَالْأَصْفِيَاءُ دُونَ غَيْرِنَا. وَهَذَا مِنْهُمْ مَكْرٌ عَظِيمٌ لِأَنَّهُ يَأْخُذُ قُلُوبَ أَوْلَئِكَ فَيَصُدُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَكْرُهُمْ مَا ذَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْتُونَ بِأَوْلَادِهِمُ الصِّغَارِ إِلَى نُوحٍ ﷺ وَيَقُولُونَ لَهُمْ: لِيَأْكُمُ^(٦) وَاتَّبَاعَ هَذَا، فَإِنَّهُ ضَالٌّ مُضِلٌّ، فَكَانَ هَذَا مَكْرَهُمْ بِصِغَارِهِمْ.

الآية ٢٣

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ الْآيَةُ؛ هَذِهِ الْمَقَالَةُ مِنْهُمْ كَانَتْ بَعْدَ أَنْ انْقَادَتْ لَهُمُ الْإِتْبَاعُ، وَاتَّبَعْتُهُمْ إِلَى مَا دَعَوْهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْأَصْنَامِ، فَقَالُوا بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ لَا يَلَا تَذَرُنَّ عِبَادَتَهَا.

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: أَنْ. (٢) فِي الْأَصْلِ رَم: حَيْث. (٣) فِي الْأَصْلِ رَم: حَيْث. (٤) فِي الْأَصْلِ رَم: حَيْث. (٥) فِي الْأَصْلِ رَم: حَيْث. (٦) فِي الْأَصْلِ رَم: لِيَأْكُمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْرُونَ مَا لَا سَوْغَا وَلَا يُعُودُ وَيَتَوَكَّرُ﴾ هي أسماء الأصنام التي كانوا يعبدونها.

ثم يَحْتَمِلُ أن يكون الذي بَعَثَهُمْ على عبادة الأصنام ما ذَكَرَهُ أهلُ التفسيرِ أن قومَ نوحٍ اتَّخَذُوا هذه الأصنامَ أوَّلَ ما اتَّخَذُوهَا على صورةِ رجالٍ عِبَادٍ، كانت هذه الأسماء أسماءَهُمْ، فَسَمَوْا الأصنامَ بأسماءِ العِبَادِ لِيُغْتَبَرُوا بِهَا، وَيَجْتَهِدُوا فِي العبادةِ إِذَا نَظَرُوا إِلَيْهَا.

فَلَمَّا مَضَى ذَلِكَ الْقَرْنُ الذي اتَّخَذُوهَا [فيه] ^(١) عِبْرَةً، وَخَلَفَهُمْ قَرْنٌ بَعْدَهُمْ، قَالَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ: إِنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ، فَاجْعِدُوهَا ^(٢).

ومِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّ جَسَدَ آدَمَ ﷺ كَانَ عِنْدَ نُوحٍ، يَتْرُكُ كُلُّ مُؤْمِنٍ فِي زَمَانِهِ يَدْخُلُ، فَيَنْظُرُ إِلَى جَسَدِ آدَمَ ﷺ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا، لَمْ يَدْعُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ. فَجَاءَ إِبْلِيسُ إِلَى الْكَفَّارِ، فَقَالَ: أَيَفْخَرُ نُوحٌ وَمَنْ آمَنَ بِهِ عَلَيْكُمْ بِجَسَدِ آدَمَ، وَأَنْتُمْ كُلُّكُمْ وَلَدُهُ، فَصَنَعَ لِكُلِّ قَوْمٍ صَنَمًا عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَكَانُوا يَعْبُدُونَ تِلْكَ الصُّورَةَ.

وَيَحْتَمِلُ ^(٣) أن يكون الذي بَعَثَهُمْ على ذلك، هو أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا أَنْفُسَهُمْ تَصْلُحُ لِعِبَادَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، كَمَا يَرَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَخْدُمُونَ الْأَجَلَّةَ فِي الشَّاهِدِ؛ لَا يَظْمَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي خِدْمَةِ الْمُلُوكِ، وَلَا يَرَى نَفْسَهُ أَهْلًا لِيَخْدُمَهُمْ، بَلْ يَشْتَفِلُ بِخِدْمَةِ مَنْ دُونَهُمْ ^(٤) أَوَّلًا عَلَى رَجَاءٍ أَنْ يُقَرَّبَهُ إِلَى الْمَلِكِ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ حَسِبُوا أَنَّهُمْ لَا يَصْلَحُونَ لِيَخْدُمَةَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَكَانُوا إِذَا رَأَوْا شَيْئًا حَسَنًا كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ حُسْنَهُ لِمَنْزِلَةٍ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ، فَكَانُوا يَقْبِلُونَ عَلَى عِبَادَتِهِ رَجَاءً أَنْ يُقَرَّبَهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَجَعَلُوا الْأَصْنَامَ عَلَى أَحْسَنِ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، ثُمَّ اشْتَغَلُوا بِخِدْمَتِهَا وَعِبَادَتِهَا رَجَاءً أَنْ تُقَرَّبَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

قَالَ ﷺ حِكَايَةً عَنْهُمْ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] وَقَالَ: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

فجائز أن يكون هذا الحُشْبَانُ، هو الذي حَمَلَهُمْ على عِبَادَتِهَا وتعظيمِ شَانِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ كَانَ؟

الآية ٢٤ وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ فجائز أن يكون أريد به الكُبراءُ أَنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا، أَي دَعَا إِلَى الضَّلَالِ، وَزَيَّنُوهُ فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَضَلُّوا سُفَهَاءَهُمْ بِذَلِكَ.

وجائز أن يكون أريد به الأصنامُ، وَلَكِنْ حَقُّهُ، إِنْ كَانَ عَلَى الْأَصْنَامِ، أَنْ يَقُولَ: وَقَدْ أَضَلَّلَنَ كَثِيرًا كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ

ﷺ: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخْلَلْتُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وَلَكِنْ الإِضْلَالُ مِنْ فِعْلِ الْمُتَمَتِّحِينَ، وَالْأَصْنَامُ لَيْسَتْ لَهَا أفعالٌ، فَلَمَّا نُسِبَ إِلَيْهَا نِسْبَةٌ مَنْ يُوجَدُ ^(٥) مِنْهُ الْفِعْلُ أُخْرِجَ الْخِطَابُ عَلَى الْوِزْنِ الذي يُخَاطَبُ بِهِ مَنْ يُوجَدُ مِنْهُ هَذَا الْفِعْلُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنِ مِنَ قَرِيْبٍ عَنَّتْ عَنْ أَهْلِهَا﴾ [الطلاق: ٨] فَأُضَافَ إِلَى الْقَرِيْبِ فِعْلُ أَهْلِهَا، وَالْفِعْلُ إِذَا أُضِيفَ [إِلَى الْأَهْلِ أُضِيفَ] ^(٦) بِلَفْظِ التَّذْكِيرِ، ثُمَّ أَتَتْ هَهُنَا لِإِضَافَةِ فِعْلِ الْأَهْلِ إِلَى الْقَرِيْبِ [وَلَوْ كَانَتْ الْقَرِيْبَةُ] ^(٧) بِحَيْثُ يَكُونُ مِنْهَا الْفِعْلُ لَكَانَ الْخِطَابُ، يَرْتَفِعُ عَنْهَا بِلَفْظِ التَّأْنِيثِ لَا بِلَفْظِ التَّذْكِيرِ. فَحِينَ ^(٨) أُضِيفَ إِلَيْهَا فِعْلُ أَهْلِهَا أَتَتْ كَمَا يُوجِبُ لَوْ كَانَ الْفِعْلُ مُتَحَقِّقًا مِنْهَا.

ثُمَّ الْأَصْنَامُ لَا يَتَحَقَّقُ مِنْهَا الإِضْلَالُ، وَلَكِنْ مَعْنَى الإِضَافَةِ هَهُنَا هُوَ أَنَّهَا أَنْشِئَتْ عَلَى هَيْئَةٍ، لَوْ كَانَتْ تِلْكَ الْهَيْئَةُ مِمَّنْ يُضِلُّ [لَا ضَلَّتْ هِيَ] ^(٩) كَمَا قُلْنَا فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ ﷺ: ﴿وَعَرَّجَتْهُمُ الْحَيَّوةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠ و.].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا سَبْكًا﴾ فهذا يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُ ﴿أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا﴾ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ

[هود: ٣٦] فَإِذَا قَدْ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ لَمْ يَدْعُ لَهُمْ بِالْهُدَى، وَلَكِنْ دَعَا اللَّهَ تَعَالَى لِيَزِيدَ فِي إِضْلَالِهِمْ، وَيَكُونَ الإِضْلَالُ عِبَارَةً عَنِ الْهَلَاكِ، وَالضَّلَالُ الْهَلَاكِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] أَي أَهْلِكُنَا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم، فعبدوها. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: دونه. (٥) في الأصل وم: يوجه. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: فحيث. (٩) في الأصل وم: لأضل هو.

الآية ٢٥ وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَطْبُنِيهِمْ أَغْرَقُوا فَاذْكُلُوا أَرْسَالَهُمْ﴾ فحذف ما ههنا [لأنه] ^(١) صلة في الكلام، ومعناه: بَخَطْبَاتِهِمْ أو مِنْ خَطْبَاتِهِمْ أَغْرَقُوا، فَاذْكُلُوا نَاراً فِي الْآخِرَةِ؛ إِذْ أَغْرَقْتَ أَبْدَانَهُمْ وَأَجْسَادَهُمْ، وَرُدَّتْ أَرْوَاحُهُمْ إِلَى النَّارِ ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ أي لم يجدوا لأنفسهم عبادتهم مَنْ عَبَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ تعالى [أَنْصَاراً مِنَ الْمُعْبُودِينَ، لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ مَنْ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لِيُقَرِّبُوهُمْ] ^(٢) إلى الله، ويكونوا لهم شُفَعَاءَ وَعِزّاً، فلم يجدوا الأَمْرَ على ما قَدَرُوا عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ.

الآية ٢٦ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْآرِثِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ قيل: تَأْوِيلُهُ: لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ سَاكِنٍ دَارٍ. وَإِذَا لَمْ يَبْقَ سَاكِنٌ دَارٍ، فَقَدْ مَاتُوا جَمِيعاً، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا تَذَرْنِي مِنْهُمْ أَحَدًا.

الآية ٢٧ وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ هذا كلامٌ شَنِيعٌ فِي الظَّاهِرِ مِنْ نُوْحٍ ﷺ لِأَنَّهُ خَارِجٌ مَخْرَجَ الْإِنْكَارِ عَلَى اللَّهِ تعالى، لَوْ تَرَكَهُمْ، وَلَمْ يُهْلِكْهُمْ. وَهَذَا يُشْبِهُ قَوْلَ ^(٤) ٦٠٠ / ب / مَنْ قَالَ: ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَرُسُفِكَ الْوَلَمَةِ﴾ [البقرة: ٣٠] وهذا أيضاً خَارِجٌ مَخْرَجَ التَّكْبِيرِ لِلَّهِ تعالى: أَنَّهُ لَوْ أَبْقَاهُمْ أَذَى ذَلِكَ إِلَى إِضْلَالِ الْعِبَادِ، وَفِيهِ تَقَدُّمٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تعالى؛ وَذَلِكَ عَظِيمٌ، وَلِأَنَّهُ لَيْسَ فِي شَرْطِ الْأَلُوهِيَّةِ إِهْلَاكُ مَنْ عَمِلَهُ الْإِضْلَالُ.

أَلَا تَرَى أَنَّ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ وَأَتْبَاعَهُ جَلَّ سَعْيُهُمَا ^(٥) فِي إِضْلَالِ بَنِي آدَمَ، ثُمَّ لَمْ يُهْلِكُوا، بَلْ أَبْقَوْا عَلَى الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ؟ وَلَكِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ دَعَا عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ أُذِنَ لَهُ بِالْدَّعَاءِ عَلَيْهِمُ بِالْهَلَاكِ وَالْبَوَارِ، فَيَكُونُ الدَّعَاءُ بِالْهَلَاكِ عَلَى تَقَدُّمِ الْأَدَبِ. وَالْأَصْلُ أَنَّ الرِّسْلَ ﷺ يُعِثُوا لِدَعَاءِ الْخَلْقِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَانُوا فِي دَعَائِهِمْ رَاجِعِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ خَائِفِينَ عَلَيْهِمْ بِدَوَائِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ. فَبِمَا قِيلَ لِنُوْحٍ ﷺ: ﴿أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مِنْ قَوْمِكُمْ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦] وَقَعَ لَهُ الْإِيَّاسُ مِنْ إِسْلَامِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنِ الْإِيمَانِ، فَارْتَفَعَ مَعْنَى الدَّعَاءِ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَجَازَى أَنْ يُرَادَ ^(٦) لَهُ الْإِذْنُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْدَّعَاءِ عَلَيْهِمُ بِالْهَلَاكِ، فَيَدْعُو إِذْ ذَاكَ. ثُمَّ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ خَارِجٌ مَخْرَجَ الْإِشْفَاقِ وَالرَّحْمَةِ عَلَى مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ أَنَّ الَّذِينَ دَامُوا عَلَى الْكُفْرِ، لَوْ أَبْقَوْا خِيفَ مِنَ الْكُفْرَةِ أَنْ يُضِلُّوا الْمُؤْمِنِينَ، وَيُعِيدُوهُمْ إِلَى مِلَّتِهِمْ، فَتَكُونُ شَفَقَتُهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ دَاعِيَةً إِلَى الدَّعَاءِ بِالْهَلَاكِ ^(٧) عَلَى الْكُفْرَةِ لئَلَّا يَتَوَصَّلُوا إِلَى الْإِضْلَالِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُلِدُوا كُفَّارًا إِلَّا فُلُجْرًا كَفَّارًا﴾ وَقَدْ بَلَّغَهُمُ الْمِحْنَةَ وَالْإِبْتِلَاءَ؛ فَحِينَئِذٍ يُوْجَدُ مِنْهُمْ الْفُجُورُ لَا [أَنْ] ^(٨) يَلِدُوا فُلُجْرًا كُفَّارًا؛ إِذْ لَا صُنْعَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢] أَي نَبْتَلِيهِ لَوَقْتِ [بَلَّوْغِهِ] ^(٩) الْمِحْنَةَ وَالْإِبْتِلَاءَ لَا أَنْ نَبْتَلِيهِ وَقْتُ مَا يَشَاءُ.

وفي هذه الآية دلالة أَنَّ الْكُفْرَ قَدْ يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الْفُجُورِ لِأَنَّهُ لَوْ خُرِجَ قَوْلُهُ ﴿كُفَّارًا﴾ مَخْرَجَ التَّنْفِيرِ لَقَوْلِهِ: ﴿فُلُجْرًا﴾ اسْتِقَامَ أَنْ يَحْمَلَ تَأْوِيلَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْفُجَارُ أَلْفٌ بِحَمِيرٍ﴾ [الانفطار: ١٤] عَلَى الْكُفْرَةِ.

الآية ٢٨ وقوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا﴾ هَكَذَا الْوَاجِبُ عَلَى الْمَرْءِ فِي الدَّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ أَنْ يَبْدَأَ بِنَفْسِهِ ثُمَّ بِوَالِدَيْهِ ثُمَّ بِالْمُؤْمِنِينَ.

ثم قوله: ﴿بَيْتِي﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَي فِي سَفِينَتِي، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿بَيْتِي﴾ أَي فِي دِينِي، فَيَكُونُ الْبَيْتُ كِنَايَةً عَنِ الدِّينِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا هُوَ بَيْتُهُ الَّذِي يَسْكُنُ فِيهِ لِمَا أَظْلَعَهُ اللَّهُ تعالى أَنَّ مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ مُؤْمِنًا لَا يَعُودُ إِلَى الْكُفْرِ.

قَالَ الشَّيْخُ، رَحِمَهُ اللَّهُ: ثُمَّ إِنَّ أَرْجَى الْأُمُورِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ دَعَاءُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ ﷺ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَدْعُونَ بَعْدَ الْإِذْنِ لَهُمْ بِالْدَّعَاءِ، وَلَا يَخْتَمَلُ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ تعالى لَهُمْ بِالْدَّعَاءِ، ثُمَّ لَا يُجِيبُ دَعْوَتَهُمْ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في نسخة الحرم المكي: ليقربهم. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فقربهم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بقول. (٥) في الأصل وم: سعيه. (٦) في الأصل وم: يرد. (٧) في الأصل وم: على الهلاك، من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: على الهلاك. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وَذَكَرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ نُوْحًا عليه السلام دَعَا دَعْوَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا: لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ. وَالثَّانِيَةُ: عَلَى الْكُفَّارِ بِالْبَوَارِ وَالتَّبَارِ.

وَقَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُهُ فِي مَا دَعَا عَلَى الْكُفْرَةِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُجَابَ فِي شَرِّ الدَّعْوَتَيْنِ، ثُمَّ لَا يُجَابَ فِي خَيْرِ الدَّعْوَتَيْنِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارُكًا﴾ قِيلَ: كَسْرًا وَذُلًّا وَصَغَارًا، فَإِنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ التَّبَرِّ، وَكُلُّ مَكْسُورٍ يُقَالُ: تَبَرَّ، فَكَانَهُ يَقُولُ: اكْسِرْ مَنَعَةَ الظَّالِمِينَ وَشَوْكَتَهُمْ.

فَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ هَذَا، فَهُوَ يَقَعُ عَلَى جَمِيعِ الظُّلْمَةِ: مَنْ كَانَ فِي وَقْتِهِ وَمَنْ بَعْدَهُ.

وَقِيلَ: التَّبَارُ الْهَلَاكُ، فَإِنْ كَانَ هَذَا مَعْنَاهُ فَهُوَ عَلَى ظَالِمِي زَمَانِهِ؛ إِذْ لَا يَجُوزُ لِلْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام أَنْ يَدْعُوا عَلَى قَوْمٍ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَهُمْ بِالِدَّعَاءِ عَلَيْهِمْ. وَإِنَّمَا جَاءَ الْإِذْنُ فِي حَقِّ قَوْمِهِ.

فَأَمَّا فِي حَقِّ غَيْرِهِمْ، لَمْ يَثْبُتْ، فَلَا يَجُوزُ الْقَوْلُ فِيهِ إِلَّا بِمَا تَوَاتَرَ الْخَبَرُ بِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، [وَاللَّهُ أَعْلَمُ] ^(١).



(١) من م، ساقطة من الأصل.

سورة الجن

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ اختلف في السبب الذي كان به مجيء الجن إلى رسول الله ﷺ. فمنهم من ذكر أن إبليس صعد إلى السماء، فوجدها قد ملئت حرساً شديداً وشهباً، فتيقن أن قد حدث في الأرض حادث، ففرق جنوده ليطلع على ذلك.

ومنهم من يقول بأن الأصنام خرَّت لِوُجُوهِها حين بُعث رسول الله ﷺ فعلم إبليس أنه حدث في الأرض خيرُ حادث حتى خرَّت له الأصنام، ففرق جنوده ليصل إلى علم ذلك. ثم من الناس من يزعم أن قصة هذه السورة وقصة قوله ﷺ: ﴿وَرَأَى صَافِقًا إِلَيْكَ تَفَرَّقَ مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] واحدة.

وقال بعضهم بأن هؤلاء النفر الذين ذكروا في هذه السورة كانوا من مشركي الجن والذين ذكروا في سورة الأحقاف كانوا من يهود الجن؛ دليله أنه قال في هذه السورة في ما حكى عن الجن: ﴿وَأَنَّهُمْ طَرَفُوا لَكَا ظَنَنَّهُمْ أَن لَّنْ يَبَعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ [الآية: ٧] واليهود يقرّون بالبغث، ولا يتكبرون، فتبّت أنهم كانوا من جن المشركين، وقال في سورة الأحقاف: ﴿قَالُوا يَقَوْمًا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الآية: ٣٠] فتبّت أنه^(١) قد كان عندهم علم بالكتاب المنزل على رسول الله ﷺ [وكانوا به مقرّين، واليهود هم الذين يؤمنون بكتاب موسى، لا بغيره.^(٢)

ثم في ما حكى الله تعالى عن الجن من تضديقهم هذا الكتاب واستماعهم ما جرى من المخاطبات في ما بينهم فوائد: أخذها^(٣): أن رسول الله ﷺ كان مبعوثاً إلى الجن والإنس حتى صرّف الجن إلى الاستماع إليه.

والثانية^(٤): أنهم لما أخذوا القرآن من لسانه قالوا في ما بين القوم بإنذارهم، وأعانوه في التبليغ على ما أخبر ﷺ: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

والثالثة^(٥): أن أولئك النفر تسارعوا إلى الإجابة إلى رسول الله ﷺ فيكون فيه تنفيه قوم رسول الله ﷺ الذين نشأ بين أظهرهم لأنهم عرفوا رسول الله ﷺ في ما بينهم بالصيانة والعدالة، ولم يقفوا منه على كذب قط^(٦).

وحق من يعرف ٦٠١/ أ- بالصدق، إن لم يصدق ألا يتسارع إلى تكذيبه في ما يأتي من الأنباء، بل يوقف في حاله إلى أن يتبين منه ما يظهر كذبه.

وقومهم استقبلوه بالتكذيب، ولم يعاملوه معاملة من كان معروفاً بالصدق والصيانة.

والجن الذين صدقوه لم يكونوا عارفين بأحواله في ما قبل أنه صدوق أو ممن يرتاب في خبره، ثم تسارعوا إلى تضديقه بما لاحظ لهم الحجة، وتبّت عندهم آية الرسالة، وتعاملوا^(٧) معه معاملة من عرف بالصدق. فدل أنهم كانوا في غاية من السعة.

(١) من م، في الأصل: و. (٢) في م: غير. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وفيه. (٥) في الأصل وم: وفيه. (٦) من م، في الأصل: فقط. (٧) في الأصل وم: وعاملوا.

والرابعة^(١): دلالة رساليه ﷺ لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قَوْلَ آتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الآيتان: ٢٠١] إلى آخر القصّة في ما يبينهم إخباراً عن عِلْمِ الْغَيْبِ، ثَبَتَ أَنَّهُ بِاللّهِ تَعَالَى عَلِيمٌ.

ثم يجوز أن يكون الذي حَمَلَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ مَا عَرَفُوا أَنَّهُ آتَى بِالْمُعْجَزِ الَّذِي يُعْجِزُ الْخَلْقَ عَنْ إِتْيَانِ مِثْلِهِ وَبِمَا وَقَفُوا عَلَى أَحْكَامِ مَعَانِيهِ وَحُسْنِ تَأْلِيْفِهِ وَنَظْمِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَشْعُرْ بِمَجِيئِهِمْ حَتَّى أَوْحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ آتَاهُ نَقَرٌ مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ إِلَى مَا أَوْحِيَ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى [فَسَادِ قَوْلِ] ^(٢) الْبَاطِنِيَّةِ حِينَ ^(٣) يَزْعُمُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ الْوَحْيِ بِالْجَسَدِ الرُّوحَانِيِّ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَمَا وَصَفُوا لَرَأَى الْجِنُّ عِنْدَمَا حَضَرُوا إِلَيْهِ؛ إِذِ الْجَسَدُ الرُّوحَانِيُّ مَتَا يُبْصَرُ الْجِنُّ، وَلَمْ يَكُنْ يُوْحَى إِلَيْهِ، فَيَعْرِفُ أَنَّ قَدْ حَضَرَهُ نَقَرٌ مِنَ الْجِنِّ.

وروي عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ سَأَلَ جَبْرِيلَ ﷺ أَنْ يَرَاهُ عَلَى صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ: إِنَّكَ لَا تُطِيقُهَا^(٤)، لِأَنَّ الْأَرْضَ لَا تَسْعُنِي، وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى أَفْقِ السَّمَاءِ. وَلَوْ كَانَ يَأْخُذُ الْوَحْيَ بِالْجَسَدِ الرُّوحَانِيِّ لَكَانَ قَدْ رَأَى جَبْرِيلَ ﷺ عَلَى صُورَتِهِ، فَتَبْطُلُ فَائِدَةُ هَذَا^(٥) السَّوَالِ. فَثَبَتَ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَمَا زَعَمُوا، بَلْ كَانَ يَقْبَلُهُ بِالصُّورَةِ الْجَسَدَانِيَّةِ وَأَنَّهُ كَمَا وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

قَالَ الْقَسْبِيُّ: الثَّقَرُ مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الثَّعْثَةِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قَوْلَ آتِنَا عَجَبًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْعَجَبُ الْغَرِيبُ، وَإِنَّمَا اسْتَعْرَبُوا ذَلِكَ مِنْهُ، لِأَنَّهُمْ سَمِعُوا مِنْ أُمِّي، لَا يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ، وَلَا يَقْرَأُ الْكِتَابَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ بَأَنَّ حُسْنَ تَأْلِيْفِهِ^(٦) وَنَظْمِهِ وَوَضْفِهِ، هُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى التَّعْجُبِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّمَا تَعَجَّبُوا مِنْ آيَاتِهِ وَحُجَجِهِ، لِأَنَّهُ جَاءَ فِي تَثْبِيْتِ التَّوْحِيدِ وَإِثْبَاتِ الرِّسَالَةِ وَإِثْبَاتِ الْبَعْثِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَعْرِفَةٌ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، بَلْ كَانُوا أَهْلَ شِرْكَ، وَلَمْ يَكُونُوا أَهْلَ مَعْرِفَةِ الْبَعْثِ وَالرِّسَالَةِ، فَكَانَتِ الْآيَاتُ عَجَبِيَّةً حِينَ^(٧) قَرَّرَتْ عِنْدَهُمْ هَذِهِ الْأَوْجَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ فِي هَذِهِ [الآيَةِ]^(٨) وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ مَرْفَعًا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] إخباراً أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَشْعُرُ بِمَجِيئِهِمْ.

وروي في الْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ لَمَّا تَلَا عَلَى أَصْحَابِهِ سُورَةَ الرَّحْمَنِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «إِنَّ الْجِنِّ كَانُوا أَحْسَنَ إِبَاجَةً مِنْكُمْ، إِنِّي تَلَوْتُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ السُّورَةَ، فَكَانُوا يَقُولُونَ: مَا بِشَيْءٍ مِنْ آتَاكَ تُكْذِبُ، رَبَّنَا، فَلَكَ الْحَمْدُ، [الترمذي ٣٢٩١].

ففي هذا الْخَبَرِ أَنَّهُ قَدْ رَأَاهُمْ، وَشَعَرَ بِمَجِيئِهِمْ، فَيَكُونُ فِيهِ إِثْبَاتُ الْوَجْهَيْنِ جَمِيعاً: أَنَّ قَدْ شَعَرَ مَرَّةً، وَلَمْ يَشْعُرْ أُخْرَى.

ثُمَّ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ رَأَاهُمْ بِمَا قَوَّى اللَّهُ ﷻ بَصَرَهُ حَتَّى اخْتَمَلَ إدْرَاكَ الْجِنِّ، وَضَعَفَ أَبْصَارَ غَيْرِهِ عَنْ رُؤْيَيْهِمْ.

أَلَا تَرَى أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ عِنْدَمَا تَأْتِيهِمْ بِالتَّحْفِ مِنْ رَبِّهِمْ، فَيَقْوِي ﷻ بَصَرُهُمْ حَتَّى يُعَايِنُوا الْمَلَائِكَةَ بِجَوْهَرِهِمْ، وَإِنْ ضَعُفَتْ أَبْصَارُهُمْ فِي الدُّنْيَا؟ ففِي ذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَوَّى بَصَرَ نَبِيِّهِ ﷺ حَتَّى رَأَى الْجِنِّ عَلَى صُورَتِهِمْ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى صَوَّرَ الْجِنِّ عَلَى صُورَةِ الْإِنْسِ حَتَّى رَأَاهُمْ، وَشَعَرَ بِمَجِيئِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ مَا ذَكَرْنَا مِنَ السَّنَدَيْنِ فِي أَمْرِ مَجِيءِ الْجِنِّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ مِنْ قَوْلِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ، لَا يَقْطَعُ الْقَوْلَ بِذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ فِي حَدِّ الْإِمْكَانِ وَالْجَوَازِ، لِأَنَّهُمْ تَكَلَّفُوا اسْتِخْرَاجَ ذَلِكَ بِالتَّدْبِيرِ وَالْإِجْتِهَادِ، وَمَا كَانَ سَبِيلَ مَعْرِفَةِ الْإِجْتِهَادِ لَمْ يَجْزُ أَنْ يَقْطَعَ الْقَوْلُ فِيهِ بِالشَّهَادَةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفِيهِ أَيْضاً. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُ فُسَادٍ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: تَطْيِيقُهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: هَذِهِ. (٦) م، فِي الْأَصْلِ: تَأْوِيلُهُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقد يجوز أن يكون الذي حملهم على المجيء غير دينك الوجهين؛ وهو أن يكون النفر من منذري الجن لأنه ذكر أن [الجن نذراً] (١) وأن الرسل من الإنس دون الجن، فتفرقوا على رجاء أن يظفروا برسول، فيتلقفوا منه ما يقومون (٢) به بالندارة في ما بين قومهم؛ إذ كانوا يصعدون إلى السماء، فيسمعون الأخبار، وينذرون (٣) قومهم بها. ثم انقطع ذلك عنهم حتى (٤) لم يجدوا مسلكاً إلى الصعود لأنها قد ملئت حرساً، وعلموا أن الله تعالى لا يتيقهم حيارى، ويقطع عنهم وجه المعرفة، فتفرقوا في الأرض رجاء أن يظفروا بمن يزيل عنهم الشبهة، ويوضح لهم الحجاج والبراهين، فوصلوا إلى مقصودهم من جهة نبينا محمد ﷺ.

ويجوز أن يكون عندهم أن لا أحد في الأرض من جنّي أو إنسي، يكذب على الله كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَأَنَّا لَمَّا كُنَّا نَقُولُ إِنَّ الْإِنسَ وَالْجِنَّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الآية: ٥] فلما تحقق عندهم الكذب خافوا على أنفسهم أن [تبتلى بو] (٥) وأن يشبه عليهم الصراط السوي، فتفرقوا في الأرض رجاء أن يظفروا بمن يدلهم على الطريقة المثلى حتى وجدوا رسول الله ﷺ.

ويجوز أن يكونوا لما صعدوا إلى السماء، قرأوها مملوءة من الحرس والشهب، أيقنوا أن ذلك لحادث خير، وخافوا حلول نعمته بأهل الأرض فتفرقوا في البلاد لما لعلهم يصلون إلى علم ذلك.

ثم الذي حقق كون هذا الخبر، هو أن السماء ﴿مِلَّتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَثِقًا﴾ [الآية: ٨] في حق الكفرة وانقطاع الكهنة بعد ذلك.

ولو كان الأمر على خلاف هذا لكانوا لا ينقطعون (٦)، لأن الشياطين كانوا يصعدون إلى السماء، فيأتون الكهنة بما يسمعون من الأخبار، ويلقونها إليهم، [فيضلون] (٧) بها الخلق.

فلو لم يمتنعوا عن السماء لكانوا لا ينقطعون. ومن ادعى الكهانة اليوم فلا يجد عنده خبراً حادثاً سوى ما تلقفوه من السنن الرسل ﷺ وكان أمر الشهاب أمراً ظاهراً عرفته الكفرة في ما بينهم، فكانت هذه حجة سماوية لرسول الله ﷺ مقررّة عند الكفرة رسالته؛ إذ لم يدع أحد منهم بكون الشهاب قبل أن يبعث النبي ﷺ فصار انقطاع الكهنة دليلاً على صدقه في مقالته، والله المستعان.

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ أي إلى الحق على ما ذكرنا بيانه في سورة الاحقاف في قوله ﷺ ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الآية: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ قال أبو بكر الأصم: إنهم كانوا مشركي العرب، فتبرؤوا من الشرك بما استمعوا، وسمِعوا القرآن بقولهم: ﴿وَلَنْ تُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾.

وقد يحتمل هذا الذي قالوا، ويحتمل أنه لم يسبق منهم الإشراك، بل كانوا من جملة الموحدين، ولكنهم أخذوا إيماناً بما سمعوا من القرآن، وأخذوا تبرأ من الشرك، وقد تبرأ المرء من الشرك عندما يحدث له زيادة إيقان، وإن لم يسبق منه / ٦٠١ - ب/ الإشراك كما قال موسى ﷺ ﴿سُبْحَنَكَ ثَبَّتْ إِلَيْكَ وَآتَا أَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ قَوْلُ جَدِّ رَبِّنَا﴾ اختلف في تأويل الجد: فمنهم من يقول بأن هذه الكلمة يتكلم بها في من يظفر بكل ما يريده، فيوصف بأنه ذو جد. فجاز أن يكونوا أرادوا بهذا أن ربنا، هو الظافر بكل ما يريده، لا يستقبله خلافة، ولا تمسه حاجة.

وعلى هذا التأويل قوله ﷺ (٨): ﴿وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ﴾ [البخاري: ٨٤٤] أي من كان له الجد في الدنيا، فإذا كان في تقدير الله تعالى خلافاً ذلك، لم يغيّر ذلك من عذاب الله شيئاً، وإن كان هذا، هو المراد، فمعناه أن من هذا

(١) في الأصل: الجن نذيراً، في م: من الجن نذيراً. (٢) في الأصل وم: يقوموا. (٣) في الأصل وم: وينذروا. (٤) في الأصل وم: حيث.

(٥) يتلوا به. (٦) في الأصل وم: ينقطعوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وَصَفُّهُ يَتَعَالَى عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ، وَيَخْتِاجُ إِلَى صَاحِبَةٍ أَوْ إِلَى اتِّخَاذِ وَلَدٍ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا أَمَارَاتُ الْحَاجَةِ. وَمَنْ ظَفَرَ بِكُلِّ مَا يُرِيدُهُ لَمْ تَقَعْ [لَهُ] ^(١) حَاجَةٌ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْجَدُّ صِلَةً؛ وَمَعْنَاهُ: تَعَالَى رَبُّنَا. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْجَدُّ عِبَارَةً عَنِ الْعِظَمَةِ وَالرَّفْعَةِ؛ يُقَالُ: فَلَانٌ جَدُّ فِي قَوْمِهِ إِذَا عَظُمَ، وَشُرِفَ فِيهِمْ.

وَقَالَ الْحَسَنُ ﴿تَمَلَّكْ جَدُّ رَبَّنَا﴾ أَي غَنَى رَبُّنَا.

أَلَا تَرَى كَيْفَ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَمَا نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَوْلَادِ بِقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس: ٦٨] وَقَدْ ذَكَرَ اتِّخَاذَ الْوَلَدِ هَهُنَا عَلَى إِثْرِ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿جَدُّ رَبَّنَا﴾. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: تَأْوِيلُهُ: مُلْكُ رَبَّنَا. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ أُرِيدَ بِهِ قُوَّةُ رَبَّنَا، فَتَعَالَى رَبُّنَا عَنْ كُلِّ مَا نُسَبِّ إِلَيْهِ، كَانَ فِيهِ أَيْ ^(٢) فِعْلٌ لِلرَّزَالَةِ وَالسُّقْلِ.

ثُمَّ الْحَقُّ أَلَّا تَتَكَلَّفَ ^(٣) تَفْسِيرَ قَوْلِهِ: ﴿جَدُّ رَبَّنَا﴾ هَهُنَا لِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ مَقَالَةِ الْجِنِّ. فَمُرَادُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ إِنَّمَا يُعْرَفُ بِأَخْبَارِ الْجِنِّ.

ثُمَّ الشُّرْكُ فِي مَا جَرَى بِهِ الْكِتَابُ عَلَى أَوْجُوْهُ أَرْبَعَةٍ:

مَرَّةً عَلَى الْعِبَادَةِ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] وَشُرْكٌ فِي الْخَلْقِ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ [الرعد: ١٦] وَشُرْكٌ فِي الْحُكْمِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦] وَشُرْكٌ فِي الْمُلْكِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١ و...].

فَبَيَّنَتْ أَنَّ الشُّرْكَ يَقَعُ مَرَّةً فِي الْعِبَادَةِ وَمَرَّةً فِي الْعِبَادِ وَمَرَّةً فِي الْمُلْكِ وَمَرَّةً فِي الْحُكْمِ.

فَهُمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ تَبَرَّؤُوا مِنَ الشُّرْكِ فِي هَذِهِ الْأَوْجُوْهُ الْأَرْبَعَةِ.

ثُمَّ إِذَا كَانَ الْجَدُّ عِبَارَةً عَنِ الَّذِي يَظْفَرُ بِكُلِّ مَا يُرِيدُهُ، فَبِهِ مَا يَنْقُضُ عَلَى الْمَعْتَزِلَةِ قَوْلَهُمْ، لِأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ مِنْ كُلِّ كَافِرٍ الْإِيمَانَ. فَلِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا فَهُوَ غَيْرُ ظَافِرٍ بِمَا يُرِيدُ عَلَى قَوْلِهِمْ، وَيَدْخُلُ عَلَيْهِمُ النَّقْضُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الشُّرْكَ قَدْ يَقَعُ مَرَّةً فِي الْخَلْقِ، وَهُمْ يَنْفُونَ خَلْقَ الْأَفْعَالِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى. وَإِذَا نَفَوْا ذَلِكَ فَقَدْ جَعَلُوا لَهُ فِي الْخَلْقِ شُرَكَاءَ، وَقَدْ أَخْبَرَ ﷻ أَنَّهُ هُوَ الْمُتَقَرِّدُ بِخَلْقِ الْخَلَائِقِ.

فَبَيَّنَتْ أَنَّ الْأَفْعَالَ مِنْ حَيْثُ الْخَلْقُ وَالْإِنْشَاءُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ جِهَةِ الْكَسْبِ وَالْفِعْلِ لِلْخَلْقِ. فَمِنْ الْوَجُوْهِ الَّتِي يُضَافُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا يَجُوزُ أَنْ يُضَافَ مِنْ ذَلِكَ الْوَجُوْهِ إِلَى الْخَلْقِ عِنْدَنَا. فَلَا يَقَعُ فِي الْخَلْقِ تَشَابُهُ، لِأَنَّهُ لَا يَتَحَقَّقُ مِنَ الْعِبَادِ الْفِعْلُ مِنَ الْوَجُوْهِ [الَّذِي] ^(٤) تَحَقَّقَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

[أَلَا تَرَى أَنَّهُ يُضَافُ الْمُلْكُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى] ^(٥) وَإِلَى الْخَلْقِ؟ ثُمَّ لَا يَقَعُ فِيهِ إِشْرَاكٌ لِأَنَّهُ مِنَ الْوَجُوْهِ الَّتِي يُضَافُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَلَى جِهَةِ التَّحْقِيقِ.

فكَذَلِكَ إِضَافَةُ الْأَفْعَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى الْخَلْقِ، لَا يَجِبُ الشُّرْكُ لِاخْتِلَافِ الْجِهَتَيْنِ، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا أَتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ لِأَنَّ اتِّخَاذَ الصَّاحِبَةِ مِنَ الْخَلْقِ لِقَلْبَةِ الشَّهْوَةِ، وَهُوَ مُنْشِئُ الشَّهَوَاتِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَغْلِبَهُ مَا هُوَ خَلَقَهُ، فَيَبْعَثُهُ ذَلِكَ عَلَى اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ.

وَبِهَذَا نَرُدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، وَالْبَنَاتُ تَحْدُثُ مِنَ الصَّاحِبَةِ، وَهُوَ مُتَعَالٍ، لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً، فَاتَى بِكَوْنِ لَهُ بَنَاتٍ؟

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا وَلَدًا﴾ فَالْأَصْلُ أَنَّ الْأَوْلَادَ يَرْغَبُ فِيهِمُ الْمَرْءُ لِإِحْدَى خِصَالِ:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إلى. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: نتكلم. (٤) من م، ساقطة من الأصل.

(٥) من م، ساقطة من الأصل.

إِذَا لِمَا يَنَالُهُ مِنَ الْوَحْشَةِ، فَيَطْلُبُ الْوَلَدَ لِيَسْتَأْنِسَ بِهِمْ، أَوْ يَرْعَبُ فِيهِمْ لِمَا حَلَّ بِهِ^(١) مِنَ الضَّعْفِ، فَيُرِيدُ أَنْ يَسْتَنْصِرَهُمْ، أَوْ لِمَا يَخَافُ زَوَالَ مَلِكِهِ، فَيَطْلُبُ الْوَلَدَ لِيَأْمَنَ مِنْ زَوَالِهِ، وَجَلَّ اللَّهُ عَنِ أَنْ تَلْحَقَهُ وَحْشَةٌ أَوْ يَصِيبَهُ ضَعْفٌ، أَوْ يَخَافُ زَوَالَ الْمَلِكِ.

فَإِذَا كَانَتِ الطَّرُقُ الَّتِي بِهَا يُرْعَبُ فِي احْتِسَابِ الْأَوْلَادِ مُنْقَطِعَةً فِي حَقِّهِ لَزِمَ تَنْزِيهَهُ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَوْلَادِ. وَلِهَذَا [فِي] (٢) مَا ذَكَرَ عِنْدَمَا يَشْتَبِهُ الْمَلَا حِدَةً فِي اتِّخَاذِ الْأَوْلَادِ: غِنَاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس: ٦٨] أَيِ غَنِيِّهِ عَنِ كُلِّ الْوَجْهِ الَّتِي تَوَجَّهَتْ إِلَى اتِّخَاذِ الْأَوْلَادِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

الآية ٤: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ تَقُولُ سَفِينًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّ سَفِينَهُمْ إِبْلِيسَ، وَلَيْسَ هَذَا يَرْجِعُ إِلَى كُلِّ مَنْ يَوْجَدُ مِنْهُ فِعْلُ السَّفَوِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ إِذَا قِيلَ: كَانَ يَقُولُ مُسِيئًا كَذَا، أَوْ كَانَ يَقُولُ فَاسِقًا كَذَا، لَمْ يُغْنِ بِهِ فَاسِقٌ وَلَا مُسِيءٌ وَاحِدٌ عَلَى الْإِسَاءَةِ، بَلْ يُرَادُ بِهِ كُلُّ مَعْرُوفٍ بِالْإِسَاءَةِ وَالْفِسْقِ؟.

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ تَقُولُ سَفِينًا﴾ لَيْسَ بِمُقْتَصَرٍ عَلَى الْوَاحِدِ، بَلْ هُوَ رَاجِعٌ إِلَى كُلِّ مَنْ يَوْجَدُ مِنْهُ ذَلِكَ. ثُمَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّ النَّفَرِ الَّذِينَ اسْتَمَعُوا كَانُوا مُؤْمِنِينَ، وَلَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ، لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا أَهْلَ شِرْكَ لَكَانُوا لَا يُضَيِّفُونَ فِعْلَ السَّفَوِ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَيُخْرِجُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْهُ، وَقَدْ وَجَدَ مِنْهُمْ فِعْلُ السَّفَوِ، وَلَوْ كَانُوا مُشْرِكِينَ أَيْضًا لَكَانُوا يَقُولُونَ مَكَانَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ: وَأَنَا كُنَّا نَقُولُ عَلَى اللَّهِ شَطَطًا لِيَكُونَ ذَلِكَ مِنْهُمْ تَوْبَةً وَرُجُوعًا عَمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الشَّرِّ وَالْكَفْرِ وَشُكْرًا بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَظِيمِ النِّعْمَةِ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَدَاهُمُ الْإِيمَانُ لَا أَنْ يُضَيِّفُوا ذَلِكَ إِلَى سَفَاهَتِهِمْ. فَتَبَيَّنَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ.

وَالشَّطَطُ الْجَوْرُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْكُذِبُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الظُّلْمُ. وَالشَّطَطُ هَهُنَا الْجَوْرُ، وَالْجَوْرُ مَا أَتَوْا بِهِ مِنَ الْفَاحِشِ، وَهُوَ الشَّرُّ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ الْجَوْرَ قَبِيحٌ فِي كُلِّ الْأَلْسِنِ وَفِي مَا بَيْنَ أَهْلِ الْأَدْيَانِ. أَلَا تَرَى كَيْفَ سَفَّهُوا مَنْ يَقُولُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالْجَوْرِ؟

الآية ٥: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ أَنَّهُمْ كَانُوا اعْتَقَدُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى صَاحِبُ وَلَدٍ لِمَا سَمِعُوا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ يَقُولُونَ ذَلِكَ، وَكَانَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُمْ فِي ذَلِكَ صَادِقُونَ. فَذَلِكَ الْمَعْنَى، هُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَلَدًا وَصَاحِبَةً.

فَلَمَّا ظَهَرَ عِنْدَهُمْ كَذِبُ مَنْ يَدَّعِي اتِّخَاذَ الْوَلَدِ وَالصَّاحِبَةَ تَبَرَّؤُوا مِنْهُ بِقَوْلِهِ ذَلِكَ. فَتَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ شِرْكَ إِلَى هَذَا الْوَقْتِ.

فَلَمَّا اسْتَمَعُوا إِلَى قِرَاءَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَلاَحَتْ لَهُمُ الْحُجَجُ، وَارْتَفَعَتْ عَنْهُمْ الشُّبُهَةُ، آمَنُوا بِهِ، وَتَبَرَّؤُوا مِنْ مَقَالَتِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ.

وَقَدْ يَحْتَمِلُ غَيْرُ مَا ذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ مِنَ التَّأْوِيلِ، وَهُوَ أَنَّ الْقَوْمَ^(٣): كَانُوا أَنْشِثُوا عَلَى الْهُدَى وَالْإِيمَانِ، فَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ عَلَى الْهُدَى وَأَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ حَتَّى ظَهَرَ عِنْدَهُمْ كَذِبُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ بِقَوْلِهِمْ: إِنَّ اللَّهَ وَلَدًا وَصَاحِبَةً. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: أَنَّا كُنَّا نَظُنُّ أَلَّا تَسْخَوْ نَفْسَ أَحَدٍ مِنَ الْمُتَحَنِّينَ بِالْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ بِمَا أَرَاهُمُ اللَّهُ قُبْحَ الْكَذِبِ، وَقَرَّرَ عِنْدَهُمْ بِالْحُجَجِ وَالْأَدِلَّةِ تَنْزِيهَهُ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَوْلَادِ وَالصَّاحِبَةِ حَتَّى ظَهَرَ عِنْدَهُمْ ذَلِكَ بِمَا أَظْهَرُوهُ بِالْبَيِّنَاتِ.

ثُمَّ الَّذِي / ٦٠٢ - أَيْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّأْوِيلَ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لَيْسَ بِمُحْكَمٍ أَنَّهُ قَدْ كَانَ فِي الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مُصَدِّقٌ، يَصِفُ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّنْزِيهِ، وَقَدْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يَقُولُ بِالْوَلَدِ أَوْ الصَّاحِبَةِ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ حِكَايَةَ عَنْهُمْ: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [الجن: ١٤] وَإِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْغَالِيُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرِيقًا وَدَدًا﴾؟ [الجن: ١١].

(١) فِي الْأَصْلِ رَمَ: بِهِمْ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَ. (٣) فِي الْأَصْلِ رَمَ: الْقَوْلُ.

ولا يَحْتَمِلُ أَنْ يَبْعَ عَنْهُمْ أَنَّ الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعاً عَلَى الصَّوَابِ، وَلَكِنْ كَانَ فِي ظُنُونِهِمْ أَنَّ الْقَوْمَ جَمِيعاً عَلَى الْهُدَى عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ. فَلَمَّا تَبَيَّنَ عَنْدهُمْ الْكَذِبُ مِنْ أَوْلَئِكَ قَالُوا هَذَا الْقَوْلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَقُولُونَ بِإِيمَانٍ أَنَّا لَنَرَاهُ فِي صَدَقَةٍ فَذُكِّرُوا فِيهَا لَمَّا جَاءُوا﴾ وَذُكِّرَ أَنَّ الْإِنسَ، وَهُمْ قَوْمٌ مِنْ^(١) الْعَرَبِ، كَانَتْ إِذَا نَزَلَتْ بِوَادِ اسْتَجَارَتْ بِسَيِّدِ الْوَادِي، وَقَالَتْ: نَعُوذُ بِسَيِّدِ هَذَا الْوَادِي مِنْ سَفَهَاءِ قَوْمِهِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ بَعْدَ هَذَا، فَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُجِيرُونَهُمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يُجِيرُونَهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي رَهَقِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَقَالُوا: الرَّهَقُ الْخَوْفُ وَالْفَرَقُ، كَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ أَبِي رَوْحٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ الدَّلَّةُ وَالضَّعْفُ، فَكَانُوا يَزِدَادُونَ [ضَعْفًا وَدَلَّةً وَخَوْفًا وَفَرَقًا]^(٢) بِامْتِنَاعِهِمْ عَنِ الْإِجَارَةِ^(٣) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُجِيرُونَ مَنْ اسْتَجَارَهُمْ. وَلَكِنْ مَعَ هَذَا كَانُوا يَفَرِّقُونَ مِنْهُمْ وَمِنْ كَيْدِهِمْ فِي الْأَمَاكِينِ الَّتِي لَمْ تَسْتَجِيرُوا فِيهَا إِلَيْهِمْ وَفِي غَيْرِ الْأَوَاقَاتِ الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا الْإِجَارَةُ. وَعَلَى اخْتِلَافِهِمْ اتَّفَقُوا أَنَّ الْجِنَّ هِيَ الَّتِي كَانَتْ تَزِيدُ الْإِنْسَ رَهَقًا.

وقيل بأنَّ هذا الفعلَ مِنَ الْإِنْسِ، وَهُوَ الْإِسْتِجَارَةُ بِهِمْ، شِرْكٌ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى، هُوَ الْمُجِيرُ، فَكَانَ الْحَقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَجِيرُوا بِاللَّهِ تَعَالَى لِيَذْفَعَ عَنْهُمْ مَكَايِدَ الْجِنَّ وَلَا يَزُوا لَأَنْفُسِهِمْ نَاصِرًا غَيْرَ اللَّهِ، جَلُّ جَلَالُهُ، فَإِذَا فَرَّعُوا فِي الْإِسْتِجَارَةِ إِلَى الْجِنَّ فَقَدْ رَأَوْا غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى، يَقُومُ عَنْهُمْ بِالذَّبِّ وَالنَّصْرِ، فَكَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ إِشْرَاكًا وَلِأَنَّ الْجِنَّ أَضْعَفُ مِنَ الْإِنْسِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ تَخْتَفِي مِنَ الْإِنْسِ^(٤)، وَتَتَصَوَّرُ بِغَيْرِ صُورَتِهَا فَرَقًا لثَلَاثًا يَشْعُرُ بِهَا، وَيَلْغُ مِنْ ضَعْفِهَا أَنَّهُ لَا تَقْدِرُ عَلَى إِتْلَافِ أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى سَلْبِ أَمْوَالِهِمْ وَلَا إِفْسَادِ طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ؟ وَاسْتِنصَارُ الْقَوِيِّ بِالضَّعِيفِ إِرَاءَةُ الدَّلَّةِ، فَيُخْرِجُ تَائِبِلٌ مَنْ قَالَ أَنَّ الرَّهَقَ، هُوَ الدَّلَّةُ وَالضَّعْفُ عَلَى هَذَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَنَّ الْإِنْسَ، هِيَ الَّتِي كَانَتْ تَزِيدُ الْجِنَّ رَهَقًا، وَقَالُوا: الرَّهَقُ التَّجْبِيرُ وَالتَّكْبِيرُ، وَقِيلَ: هُوَ السَّفَهُ وَالْجَهْلُ وَالْمَأْتَمُ^(٥).

وقال الفَتَّيْ: هُوَ الْعَبَثُ فِي الظُّلْمِ؛ يَقَالُ: فَلَانَ مُرْهَقٌ فِي دِينِهِ إِذَا كَانَ مُفْسِدًا.

وَوَجْهُ زِيَادَةِ الرَّهَقِ، هُوَ أَنَّ الرُّؤْسَاءَ مِنَ الْجِنَّ، يَرَوْنَ لَأَنْفُسِهِمْ الْفَضْلَ عَلَى أَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْجِنَّ فَيَتَدَاخِلُهُمُ الْكِبَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَزِدَادُونَ بِهِ تَجْبِيرًا وَتَعْظُمًا، فَكَانَ ذَلِكَ يَمْنَعُهُمْ عَنِ النَّظَرِ فِي حُجَجِ الرِّسَالِ.

وَكَذَلِكَ أَكْبَرُ الْكَفَرَةِ مِنَ الْإِنْسِ كَانُوا يَمْتَنِعُونَ عَنِ الْإِجَابَةِ لِلرُّسُولِ ﷺ بِمَا يَرَوْنَ لَأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْفَضْلِ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ لِيَتَذَكَّرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣].

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الرَّهَقَ الْإِثْمُ أَوِ السَّفَهُ أَوِ الْجَوْرُ أَوِ الظُّلْمُ أَوِ الْعَبَثُ يُزَجِّعُهُ^(٦) كُلُّهُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَّرْنَا لِأَنَّ سَفَهَهُمْ، هُوَ الَّذِي كَانَ يَحْمِلُهُمْ عَلَى التَّجْبِيرِ وَالتَّكْبِيرِ لِأَنَّهُ كَانَ لَا يَسْتَعِيدُ بِهِمْ إِلَّا الْجَاهِلُ السَّفِيهُ، وَلَيْسَ فِي إِعَادَةِ الْجَاهِلِ مَنَقِبَةً لِمَا يَتَكَبَّرُ لِأَجْلِهَا، وَهُمْ بِتَكْبِيرِهِمْ أَزْدَادُوا إِنَّمَا وَبُعْدًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونُوا نَفَّوْا الْقُدْرَةَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى [عَلَى الْبَعْثِ]^(٧) لِمَا لَمْ يُشَاهِدُوا الْبَعْثَ، وَرَأَوْهُ أَمْرًا خَارِجًا عَنْ طَوَقِهِمْ وَقَوَاهُمْ، فَظَنُّوا أَنَّ الْقُدْرَةَ لَا تَنْتَهِي إِلَى هَذَا، لَا أَنْ يَكُونُوا نَفَّوْا خُرُوجَ الْبَعْثِ عَنْ حَدِّ الْحِكْمَةِ لِأَنَّهُمْ لَوْ أَرَادُوا بِهِ نَفْيَ الْبَعْثِ لَكَانُوا يَقْتَصِرُونَ عَلَى قَوْلِهِمْ: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ﴾ تَعَالَى، فَلَمَّا وَصَلُوا بِهِ الْكَلَامَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ لِلتَّأْكِيدِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَهُدَا﴾ دَلَّ أَنَّهُمْ نَفَّوْا الْقُدْرَةَ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونُوا ظَنُّوا ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ لِأَنَّهُ أَمْرٌ خَارِجٌ عَنِ الْحِكْمَةِ؛ إِذْ لَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُهْلِكَ، ثُمَّ يُعَادَ، بَلْ إِنْ أُرِيدَ الْإِبْقَاءُ فَلَنْ يُفْنَى حَتَّى لَا يُحَاجَّ^(٨) إِلَى الْإِعَادَةِ.

(١) سائطة من م. (٢) في الأصل وم: الضعف والدلة والخوف. (٣) في الأصل وم: الإعادة. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الأصل. (٥) في الأصل وم: وهي المأتم. (٦) في الأصل وم: يرجع. (٧) في الأصل وم: بالبعث. (٨) في الأصل وم: يحوج.

ثم هذا الكلام ليس بحكاية عن الجن، بل الله تعالى [قال^(١)]: إِنَّ الْجِنَّ ظَنَّتْ أَنْ لَا بَعَثَ كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْتُمْ. وقوله تعالى: ﴿ظَنَنْتُمْ﴾ في الظاهر إشارة إلى الإنس جملةً مسلميهم وكافريهم. ومعلوم بأن المسلمين لم يكونوا يظنون ذلك بل قد اتقنوا بالبعث، ولكن مغناه أَنَّ الْكَفَرَةَ مِنَ الْجِنَّ ظَنَّتْ الْكَفَرَةَ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْإِنْسُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِبَانَةٌ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: لَا بَعَثَ بِالظَّنِّ، لَيْسَ بِالْعِلْمِ.

والذي حَمَلَهُمْ عَلَى الظَّنِّ إِعْرَاضُهُمْ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي يُوجِبُ الْقَوْلَ بِالْبَعثِ، وَكُلُّ مَا يَأْتِي بِالطَّبَعِ أَنْ يَلْزَمَ الظَّنُّ، ففیه دعاء وترغيب في النظر إلى حُجَجِ الْبَعثِ وَتَرْكِ الْإِعْتِمَادِ عَلَى الظَّنِّ.

ثم ذَكَرَ النَّحْوِيُّونَ أَنَّ كَانَ ابْتِدَاؤُهُ بِالْكَسْرِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَغْنَى حَرْفَ ﴿أَنَّ﴾ فَهُوَ حِكَايَةٌ عَنِ الْجِنَّ نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ وَمَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْحِكَايَةِ لَا عَنِ الْجِنَّ، فَحَقُّهُ أَنْ يُقْرَأَ بِالنُّصْبِ، فَاخْتَارُوا النَّصْبَ فِي قَوْلِهِ ﷺ: ﴿رَأَيْتُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ لِمَا لَيْسَ هُوَ بِحِكَايَةٍ عَنْ قَوْلِ الْجِنَّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَاهَا مُلْتَطَخَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَثِقَالًا﴾ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ لِمُسْهُمُ السَّمَاءِ لِيَجِدُوا أَبْوَابَهَا، فَيَدْخُلُوا فِيهَا لِلْإِسْتِمَاعِ، إِذْ أَخْبَارَهَا لَيْسَتْ فِي جُمْلَةِ آفَاقِ السَّمَاءِ وَلَا أَبْوَابُهَا مُحِيطَةٌ بِجُمْلَةِ السَّمَاءِ، فَكَانُوا يَلْمُسُونَهَا لِيُظْفَرُوا بِأَبْوَابِهَا.

وجائزٌ أَنْ يَكُونَ أُرِيدَ مِنْ لَمَسِ أَبْوَابِهَا لِيَفْتَحُوهَا^(٢)، فَيَدْخُلُوا فِيهَا، فَيَسْتَمِعُوا^(٣) إِلَى الْأَخْبَارِ.

وقوله تعالى: ﴿فَوَجدْنَاهَا مُلْتَطَخَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَثِقَالًا﴾ فَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ بَعْضُ الْأَبْوَابِ مُلْتَطَخَةً مِنَ الْحَرَسِ، وَبَعْضُهَا مِنَ الشُّهُبِ. فَإِنْ أَتَوْا إِلَى الْأَبْوَابِ الَّتِي مُلْتَطَخَتْ مِنَ الْحَرَسِ دَفَعَتْهُمْ الْحَرَسُ، وَطَرَدَتْهُمْ، وَإِنْ أَتَوْا إِلَى الْأَبْوَابِ الَّتِي مُلْتَطَخَتْ بِالشُّهُبِ تَبَعَتْهُمْ الشُّهُبُ كَمَا قَالَ ﷺ: ﴿يَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ ﴿نُحُولًا﴾ [الصفات: ٨ و ٩].

وجائزٌ أَنْ تَكُونَ الْأَبْوَابُ كُلُّهَا مَمْلُوءَةً مِنَ الْحَرَسِ وَالشُّهُبِ جَمِيعًا لِأَنَّ الْحَرَسَ لَمْ يُمْتَحَنُوا بِالْحِرَاسَةِ خَاصَّةً، بَلِ امْتَحَنُوا [بِهَا وَبِغَيْرِهَا]^(٤) مِنَ الْأَعْمَالِ.

فجائزٌ أَنْ يَكُونَ اشْتِغَالُهُمْ بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْحَرَسِ، فَإِذَا رَأَوْا [مَنْ يَسْتَرْقِي]^(٥) السَّمْعَ فِي وَقْتِ شُغْلِهِمْ تَبَعَتْهُمْ [بِالشُّهُبِ الثَّاقِبَةِ]^(٦) وَقَدَفَتْهُمْ عَنْ مُرَادِهِمْ.

وجائزٌ أَنْ يَضَعَهُ الْجِنَّ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي لَا يَرَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَيَسْمَعُ الْجِنَّ كَلَامَهُمْ، لِأَنَّ الْمَرَّةَ قَدْ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ، فَيَنْتَهِي صَوْتُهُ إِلَى حَيْثُ لَا يَرَاهُ الْبَصَرُ، فَتَكُونُ الشُّهُبُ تَحْتَ الْحَرَسِ، فَيَقْدِفُونَ عَنْهَا بِالشُّهُبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَحِذُّ لَهُمْ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ ٦٠٢ - ب/ قيل: الشُّهُابُ مِنَ الْكَوَاكِبِ، وَالرَّصْدُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْأَصْلُ^(٧) فِي ذَلِكَ أَنَّ الْجِنَّ قَدْ حَسِبُوا وَقْتُ مَبْعَثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَكَانُوا يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ قَبْلَ ذَلِكَ، حَتَّى [يَنْقَطِعَ عَنْ]^(٨) الْكَهْنَةِ؛ إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَأْتُوا بِخَبَرِ السَّمَاءِ وَقْتُ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى لَا^(٩) يَخْتَلِطَ أَمْرُ الْكَهْنَةِ بِأَمْرِ ﷺ فُحِسُوا عَنِ الصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ وَإِتْيَانِ الْخَبَرِ عَنْهَا حَتَّى يَنْقَطِعَ أَمْرُ الْكَهْنَةِ، فَجَاءَهُمُ الرُّسُولُ بَعْدَ ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِكِهَانَةٍ، وَإِنَّمَا هُوَ وَخْيٌ ثَابِتٌ مِنَ السَّمَاءِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ كِهَانَةً كَانَ غَيْرُهُ لَا يُنْمَعُ عَنْ مِثْلِهِ كَمَا فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ.

فهذه الآية كأنها^(١٠) حكاية عن قول الجن لما رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، قَالُوا هَذَا كُلُّهُ لِقَوْمِهِمْ.

الآية ١٠

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَأَمْرُ أُورِدَ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ فَهُوَ يَخْتَوِلُ وَجْهَيْنِ:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. فيفتحوا بها. (٣) في الأصل وم. فيستمعون. (٤) في الأصل وم. به وبغيره. (٥) في الأصل وم. استراق. (٦) في الأصل وم. الشهاب الثاقب. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم. انفع من. (٩) في الأصل وم. كان. (١٠) في الأصل وم. كان.

أحدهما: لا تُلْزَمِي بِمَ قُطِعَتْ؟ بِالْحَرَسِ أَمْ^(١) بالشُّهُبِ أَخْبَارُ السَّمَاءِ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ؟ وَحَسَّ الَّذِينَ يَضَعُونَ السَّمَاءَ عَنْ أَخْبَارِ السَّمَاءِ ﴿وَيَقْدُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ ﴿مُحَوَّلًا﴾ [الصفات: ٩٨] بِأَهْلِ الْأَرْضِ ﴿أَثَرٌ﴾^(٢) وهو إنزال العذاب عليهم [أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ] أَنْ يُرْسِلَ رَسُولًا^(٣) يُرْشِدُهُمْ.

[والثاني]^(٤): جَائِزٌ أَنْ يَكُونُوا أَيْقَنُوا أَنَّ أَخْبَارَ السَّمَاءِ إِنَّمَا انْقَطَعَتْ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ بِمَا يُرْسِلُ إِلَيْهِمْ مِنَ الرُّسُلِ^(٥)، فَيَكُونُ الرُّسُولُ، هُوَ الَّذِي يُخْبِرُهُمْ بِمَا لَهُمْ إِلَيْهِ مِنْ حَاجَةٍ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَذَرُوا أَنَّهُ أُريدَ بِهِمُ الرُّشْدُ بِإِرْسَالِ الرُّسُولِ أَمْ^(٦) الشَّرُّ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلِمُوا أَنَّ مَنْ آمَنَ بِالرُّسُولِ الْمَبْعُوثِ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْإِسْتِهْدَاءِ وَالْإِسْتِزْشَادِ^(٧)، فَقَدْ رَشِدَ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْإِسْتِخْفَافِ وَالْإِسْتِغْزَاءِ اسْتَوْصَلُوا، فَلَمْ يَذَرُوا ابْتِذَابَ الرُّسُولِ، فَيَحُلَّ بِهِمُ الْهَلَاكُ فِي الْعَاقِبَةِ أَمْ^(٨) يَصْدُقُونَ، فَيُرْشَدُوا بِهِ. وَهَذَا تَبَيَّنَ أَنَّ الْعَوَاقِبَ فِي الْأَشْيَاءِ هِيَ الْمَقْصُودَةُ، وَأَنَّ الْحَكِيمَ مَا يَفْعَلُ مِنَ الْأَمْرِ يَفْعَلُهُ لِلْعَوَاقِبِ.

وَفِي هَذَا إِبَانَةٌ أَنَّ الْجَنِّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، لَمْ يَكُونُوا مُعْتَزِلَةً؛ إِذْ مِنْ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَفْعَلُ بِعِبَادِهِ إِلَّا مَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُمْ فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا فِي حَقِّهِمْ، وَالْجَنُّ قَدْ أَيْقَنُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يَرِيدُ الشَّرَّ لِمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يُؤْثِرُ فِعْلَ الشَّرِّ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ، وَيُرِيدُ الْخَيْرَ لِمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يُؤْثِرُهُ عَلَى فِعْلِ الشَّرِّ.

الآية ١١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَا مَتَا الْفَالِحُونَ وَمَتَا دُونَ ذَلِكَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ هُمُ الْكَافِرُونَ. وَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ وَ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ لَيْسَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، لِأَنَّ هَذَا قَدْ ذُكِرَ فِي مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَا مَتَا الْمُسْلِمُونَ وَمَتَا الْفَاسِقُونَ﴾ [الآية: ١٤] وَلَوْ كَانَ التَّأْوِيلُ عَلَى مَا ذُكِرُوا لَكَانَ يَقَعُ التَّكَرُّارُ.

وَلَكِنْ تَأْوِيلُهُ عِنْدَنَا: ﴿وَأَنَا مَتَا الْفَالِحُونَ﴾ أَيُّ مَتَا مَنْ عُرِفَ بِالصَّلَاحِ وَالسُّرِّ ﴿وَمَتَا دُونَ ذَلِكَ﴾ وَهُمُ الْفَاسِقَةُ، فَيَكُونُ فِيهِ إِبَانَةٌ أَنَّ كُلَّ أَهْلِ دِينٍ، فِيهِمُ الصَّالِحُ الْمَرْضِي، وَفِيهِمُ الْفَاسِقُ الْمُفْسِدُ فِي دِينِهِ، كَقَوْلِ^(٩) اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَّتَنَ وَنَكَرَ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ [النور: ٣٢] وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَتَا غَيْرُ صَالِحٍ لَمْ يَكُنْ لِاشْتِرَاطِ الصَّالِحِينَ مَعْنَى، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَّتَنَ وَنَكَرَ﴾ [الطلاق: ٢] فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَتَا أَهْلُ فِسْقٍ لَمْ يَقُلْ هَذَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُنَّا طَائِفًا قَدْ دَا﴾ أَيُّ أَهْوَاءٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَلَمْ يَذْكُرُوا الْأَهْوَاءَ^(١٠) الْمُتَفَرِّقَةَ فِي الْأَصْلَحِ وَالْأَذْوَنِ، ذَكَرُوا ذَلِكَ عِنْدَ ذِكْرِ الْفَاسِقِ وَالصَّالِحِ، لِأَنَّ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ، كُلٌّ يُعْتَقَدُ^(١١) فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ، هُوَ الْمُحَقُّ، وَغَيْرُهُ عَلَى الْبَاطِلِ، وَأَمَّا الْفَاسِقُ فَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّهُ يَتَعَاطَى بِفِسْقِهِ مَا لَا يَحِلُّ لَهُ، وَيَرْتَكِبُ مَا نَهَى عَنْهُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ شَاهَدَ فِسْقَهُ يَعْرِفُ أَنَّهُ عَلَى الْبَاطِلِ. فَإِذَا^(١٢) كَانَ كَذَلِكَ ظَهَرَ الدُّوْنُ فِيهِ، وَظَهَرَ الصَّالِحُ، وَلَمْ يَظْهَرِ ذَلِكَ فِي اغْتِقَادِ الْمَذَاهِبِ، فَلَمْ يُتَكَلَّمْ فِيهِ بِالْأَذْوَنِ وَالصَّالِحِ. ثُمَّ الطَّرَائِقُ، هِيَ الْمَذَاهِبُ وَالْأَهْوَاءُ، وَالْقِدْدُ الْقِطْعُ، يَقَالُ: قَدَّةٌ^(١٣) أَيُّ قِطْعَةٍ؛ فَمَعْنَاهُ أَنَّا كُنَّا عَلَى مَذَاهِبٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَأَهْوَاءٍ مُتَسَنِّتَةٍ.

فَفِي^(١٤) الْآيَةِ أَنَّ فِي الْجَنِّ أَهْوَاءَ مُتَفَرِّقَةً كَمَا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْإِنْسِ.

وَالْأَصْلُ أَنَّ مَعْرِفَةَ الْمَذْهَبِ وَالِدِينَ بِالْفِكْرِ وَالْاجْتِهَادِ لِلتَّوَصُّلِ إِلَى الْحَقِّ، وَالْمَجْتَهِدُ قَدْ يُصِيبُ الطَّرِيقَ مَرَّةً، وَيَزِيغُ عَنْهُ أُخْرَى. فَلِهَذَا^(١٥) أَصَابَ الْبَعْضُ مِنَ الْخَلَائِقِ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ زَاغَ عَنْهُ، وَيُعْلَمُ بِهَذَا أَنَّ سَبِيلَ الْجَنِّ فِي التَّوْحِيدِ وَسَبِيلَ الْإِنْسِ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْفِكْرُ، وَلَهُ اجْتِهَادٌ، وَأَنَّ فِيهِمْ آيَاتٍ مُتَشَابِهَةً كَمَا فِي الْإِنْسِ إِذْ عَنِ الْمُتَشَابِهِ يَتَوَلَّدُ الزَّيْغُ. لِذَلِكَ تَفَرَّقُوا فِي أَهْوَاءٍ مُتَفَرِّقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ.

وَأَمَّا أَسْبَابُ الْفِسْقِ مُجْتَمِعَةً فَتُعْرِفُ بِالْمُعَايَنَةِ، فَتُظْهِرُ الْأَذْوَنَ وَالْأَرْقَعَ فِي الدِّينِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الشَّرُّ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ أُريدَ بِهِمْ أَنْ يَرْسِلَ رَسُولًا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الرُّسُولُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْإِرْشَادُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ. (١٠) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: فِي. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) الْهَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فِي. (١٤) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: مَا.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا عَلَّمْنَا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنِ تُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ ذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ أَنَّهُ عَلَى كُفْرِهِمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَا يُعْجِزُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَلَكِنْ أَكْثَرُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ ذَكَرَ أَنَّ الظَّنَّ هَهُنَا فِي مَوْضِعِ الْعِلْمِ، وَيُؤَكِّدُ تَأْوِيلَهُمْ قِرَاءَةُ حَفْصَةَ عليه السلام فَإِنِهَا كَانَتْ تَقْرَأُ: وَأَنَا عَلَّمْنَا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ قَرَرَةً، وَلَنِ نُسَبِّقَهُ هَرَبًا.

فَقَوْلُهُ: ﴿لَنِ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي لَنِ نَقْوَتُهُ، وَلَا يَتَّهِيَّا لَنَا أَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ بِأَهْلِ الْأَرْضِ عَنْ إِصْصَالِ يَقَمَّتِهِ وَعَذَابِهِ إِلَيْنَا. وَيُخْرِجُ قَوْلُهُ ﴿هَرَبًا﴾^(١) عَلَى ذَلِكَ، أَي لَوْ قَرَرْنَا مِنْ عَذَابِهِ لَنِ نُعْجِزُهُ أَلَّا يُعَذِّبَنَا.

وَالْفِرَارُ قَدْ يَكُونُ بِدُونِ الطَّلَبِ؛ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿تَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرِمتُهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]. وَلَمْ يُرَدْ بِهِ الْفِرَارُ مِنَ الطَّلَبِ.

وَأَمَّا الْهَرَبُ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ طَلَبٍ؛ فَكَانَهُمْ قَالُوا: لَا يَتَّهِيَّا لَنَا الْفِرَارُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى لِكَثْرَةِ الْأَعْوَانِ وَالْأَنْصَارِ، وَلَا يُعْجِزُهُ هَرَبُنَا عَنْ طَلَبٍ، أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿لَنِ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنِ تُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ وَإِنْ دَخَلْنَا تَحْتَ تُخُومِ الْأَرْضَيْنِ، وَلَنْ نُعْجِزَهُ بِالْهَرَبِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَكُونُ فِيهِ إِقْرَارٌ بِأَنَّا لَا نَقْدِرُ بِالْجَيْلِ وَالْأَسْبَابِ أَنْ نُخْتَرِرَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا يَتَّهِيَّا الْإِخْتِرَازُ مِنْ مَلُوكِ الْأَرْضِ بِالْجَيْلِ وَالْأَسْبَابِ.

ثُمَّ مِثْلُ هَذَا الْكَلَامِ يَصْدُرُ عَنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ إِنَّمَا يَتَكَلَّمُ بِهِ مَنْ يَخَافُ نِقْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَالَّذِي أَيْقَنَ بِالْبَعْثِ، وَيَذْكُرُ مَقَامَةَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ.

وَأَمَّا أَهْلُ الْكُفْرِ فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِالْبَعْثِ حَتَّى يَحْمِلَهُمْ خَوْفُ الْعَاقِبَةِ عَلَى النَّظَرِ فِي مِثْلِ هَذَا.

فَتَبَّتْ أَنَّ هَذِهِ الْمَقَالَةَ صَدَرَتْ عَنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، لَيْسَ عَنْ أَهْلِ الْكُفْرِ [كَمَا ذَكَرَ]^(٢) أَبُو بَكْرٍ الْأَصْمُ أَنَّ هَذِهِ الْمَقَالَةَ صَدَرَتْ [عَنْهُمْ]^(٣) وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٣

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُدَّثَ آمَنَّا بِهِ﴾ فَالْهُدَى، هُوَ الدَّعَاءُ إِلَى الْحَقِّ، فَيُخْتَلِمُ أَنْ يَكُونَ لَمَّا دُعِينَا إِلَى الْحَقِّ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، آمَنَّا بِهِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَلَئِكَ طَرِيقُ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الأحقاف: ٣٠] وَقَوْلِهِ^(٤) تَعَالَى فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾؟ [الجن: ٢].

وَيَجُوزُ^(٥) أَنْ يَكُونَ الْهُدَى، هُوَ الْإِهْتِدَاءُ، أَي لَمَّا سَمِعْنَا مَا بِهِ اهْتَدَيْنَا.

وَقَدْ أَبَوْ بَكْرٍ الْأَصْمُ أَنَّهُمْ كَانُوا كَفَرَةً إِلَى أَنْ سَمِعُوا الْهُدَى، فَأَمَنُوا بِهِ؛ لِأَنَّهُمْ^(٦) لَوْ كَانُوا / ٦٠٣ - أ/ عَلَى الْهُدَى مِنْ قَبْلُ لَكَانَ الْإِيمَانُ مِنْهُمْ سَابِقًا، فَلَا يَكُونُ لِقَوْلِهِ ﴿فَتَأْمَنَّا بِهِ﴾ وَقَدْ آمَنُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ، مَعْنَى. وَلَيْسَ يَنْبُتُ كُفْرُهُمْ بِمَا ذَكَرَ لِأَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا عَلَى الْإِيمَانِ، فَلَمَّا^(٧) سَمِعُوا الْهُدَى أَخَذُوا إِيمَانًا بِهَذَا الْهُدَى عَلَى مَا سَبَقَ مِنْهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْجُمْلَةِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] وَقَوْلِهِ^(٨): ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾؟ [الفتح: ٤] أَي زَادُوا إِيمَانًا لِتَفْسِيرِ مَعَ مَا سَبَقَ مِنْهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْجُمْلَةِ [لَا]^(٩) أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ قَبْلُ مُؤْمِنِينَ، فَأَخَذُوا لِلْحَالِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ^(١٠): ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] [وَقَدْ هُدُوا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ]^(١١) وَلَكِنَّهُمْ يُرِيدُونَ بِهَذَا الدَّعَاءِ: أَنْ أَهْدِنَا بِالْإِشَارَةِ إِلَيْهِ وَالتَّغْيِينِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ عَلَى مَا هَدَيْتَنَا فِي الْجُمْلَةِ. فَكَذَلِكَ إِحْدَاثُهُمُ الْإِيمَانَ بِمَا سَمِعُوا مِنَ الْهُدَى، لَا يَنْفِي عَنْهُمْ الْإِيمَانَ فِي مَا سَبَقَ مِنَ الْأَوَاقَاتِ، بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلُ، ثُمَّ يُحْدِثُوا^(١٢) الْإِيمَانَ بِكُلِّ أَمْرٍ يَجِيئُهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ وَلَا يَذُلُّ إِيمَانُهُمْ بِهِ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ قَبْلُ مُسْلِمِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَرَّة. (٢) فِي نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي: كَمَا ذَكَرَهُ، فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَرَهُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ اللَّهُ. (٥) الْوَارِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لِأَنَّهُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: فَلَا. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٩) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ. (١١) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْدِثُونَ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ قَالَ، رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّهُ لَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ مِنْ جَنَّتِي وَلَا إِنْسِي يَخَافُ الْبَخْسَ وَالرَّهَقَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا الْمَعْتَزِلَةَ؛ فَإِنَّهُمْ يَخَافُونَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا يُخْرِجُونَ مُزْتَكِيِي الْكِبَارِ، بَلْ^(١) يُظْلِقُونَ الْقَوْلَ فِيهِمْ: إِنَّهُمْ يُخْلَدُونَ فِي النَّارِ، وَفِي التَّخْلِيدِ تَخْوِيفُ الْبَخْسِ وَالرَّهَقِ، بَلْ فِيهِ مَا يَزِيدُ عَلَى الْبَخْسِ، وَهُوَ النُّقْصَانُ، وَفِي التَّخْلِيدِ ذَهَابُ مَنْفَعَةِ الْإِيمَانِ وَمَنْفَعَةِ الْخَيْرَاتِ الَّتِي سَبَقَتْ مِنْهُمْ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ كُنَّا نَسِينَا أَوْ نَنَسْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وَالْمَعْتَزِلَةُ تَزْعُمُ أَنَّهُ لَوْ أَخَذَهُمْ بِالْخَطِإِ وَالنَّسْيَانِ كَانَ جَائِزًا، وَقَالَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُغْ عَلُونَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَوْ أَزَاعَ قُلُوبُهُمْ بَعْدَ الْهُدَى كَانَ مِنْهُ جَوْرًا وَظُلْمًا؛ فَهُمْ أَبَدًا عَلَى خَوْفٍ مِنْ جَوْرِ رَبِّهِمْ، وَنَحْنُ نَقُولُ: إِنَّهُ لَوْ أَخَذَهُمْ بِوَيْكَانَ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْهُ عَذْلًا، وَإِذَا عَفَا عَنْهُمْ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ إِعْمَامًا وَإِفْضَالًا.

فَنَحْنُ نَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى، وَنَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ أَلَّا يُعَامِلَنَا بِعَذْلِهِ، فَتَهْلِكَ، بَلْ [نَدْعُوهُ أَنْ]^(٢) يُعَامِلَنَا بِالْإِفْضَالِ وَالْإِعْمَامِ. وَعَلَى قَوْلِ الْمَعْتَزِلَةِ: [مَنْ]^(٣) اِزْتَكَبَ كَبِيرَةً رُدَّتْ عَلَيْهِ حَسَنَاتُهُ، وَصَارَ عَذْوًا لِلَّهِ تَعَالَى [وُخْلِدَ]^(٤) فِي النَّارِ أَبَدَ الْأَبْدِينَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لَدُنَّ وَلَئِنْ تَكَّ حَسَنَةً يُعْطِهَا﴾ [النساء: ٤٠]. وَأَوَّلَى الْحَسَنَاتِ الَّتِي تُسْتَوْجَبُ عَلَيْهَا الْمُضَاعَفَةُ، هِيَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَى، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُخْلَدَ فِي النَّارِ، وَتُذْهَبَ عَنْهُ مَنْفَعَةُ الْإِيمَانِ ﴿سُبْحَنَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عَلُونَا كِبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ يَخْتَلِفُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: الْبَخْسُ النُّقْصَانُ، أَيْ لَا يُنْقُصُ مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَالرَّهَقُ الظُّلْمُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] وَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِ اِزْتِكَبَهَا غَيْرُهُ:

وَالثَّانِي: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾ أَيْ لَا تُقْبَلُ حَسَنَاتُهُ إِذَا تَابَ ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أَيْ يُظْلَمُ، فَلَا تُحَسَبُ لَهُ حَسَنَاتُهُ شَيْئًا.

الآية ١٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ فَالْقَاسِطُ الْجَائِرُ الْعَادِلُ. ثُمَّ [فِي]^(٥) الْعَذْلِ ثَلَاثُ لُغَاتٍ؛ يُقَالُ: عَذَلَ عَنْهُ إِذَا مَالَ، وَجَارَ، وَعَذَلَ بِهِ إِذَا جَعَلَ [لَهُ]^(٦) شَرِيكًا وَعَدِيلاً، وَعَذَلَ فِيهِ إِذَا حَكَمَ بِالْعَدْلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ التَّحَرَّى وَالتَّوَحَّى، هُوَ الْقَصْدُ؛ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: قَصَدَ الرُّشْدَ بِالْإِسْلَامِ.

الآية ١٥ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّا الْقَاسِطُونَ فَكَأَنَّا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ لِلْجَنِّ لَحْمًا وَدَمًا كَمَا لِلْإِنْسِ لِأَنَّهُ [قَالَ فِي الْإِنْسِ]^(٧): ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] وَالتَّحْرِيمُ: ٦٠ فَلَوْ لَمْ يَكُونُوا لَحْمًا وَدَمًا لَمْ يَصِيرُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا.

وَلَكِنْ هَذَا لَا يَدُلُّ [عَلَى ذَلِكَ]^(٨) لِأَنَّ اللَّحْمَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَخْتَرِقَ، وَيَنْتَضِجَ، وَلَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ^(٩) وَقُودًا، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِاللَّطْفِ صَبَّرَ لَحْمَانَ الْإِنْسِ وَقُودًا، لَيْسَ أَنْ صَارَ حَطَبًا بِمَا كَانَ لَحْمًا، فَلَيْسَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ مَا ذَكَرَ، بَلْ فِيهِ أَنَّ الْجِنَّ امْتَحِنُوا بِالْعِبَادَةِ كَمَا امْتَحِنَ بِهَا الْإِنْسُ، وَأَنَّهُمْ إِذَا عَصَوْا رَبَّهُمْ اسْتَوْجَبُوا الْعِقَابَ مِثْلَ مَا يَسْتَوْجِبُهُ الْإِنْسُ.

ثُمَّ ذَكَرَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ لِلْجَنِّ ثَوَابٌ [وَعَلَيْهِمْ الْعِقَابُ إِذَا عَصَوْا، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: لَيْسَ لَهُمْ ثَوَابٌ]^(١٠) عِنْدَنَا: لَيْسَ يَرِيدُ بِهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَرْضَى عَنْهُمْ إِذَا عَبَدُوهُ، وَلَا تَغْظُمُ مَنْزِلَتُهُمْ عِنْدَهُ، وَلَكِنَّهُ يَرِيدُ بِهِ أَنَّ الَّذِي وَعَدَ لِلْإِنْسِ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْأَزْوَاجِ الْحَسَنَاتِ وَالْخَوَرِ فِي الْجَنَّةِ عَلَى الْخُلُودِ، لَيْسَ لَهُمْ لِأَنَّ الْوَعْدَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِهَا جَرَى لِلْإِنْسِ، وَلَمْ يَجْرِ الْوَعْدُ لِلْجَنِّ، وَلَا ذَكَرَ ذَلِكَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُونُوا. (١٠) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

والذي وَعَدَ بِهِ الْإِنْسَ طَرِيقَةَ الْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ لَا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حَقًّا لِلْإِنْسِ قِيلَهُ.

فَإِذَا لَمْ يَجْرِ لَهُمُ الرِّغْدُ بِذَلِكَ لَمْ يَجِبِ الْقَوْلُ لَهُمْ بِالْمَوْعُودِ.

وَأَمَّا الْعِقَابُ فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تُوجِبُ التَّعْلِيلَ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ [الْحِكْمَةُ] ^(١) تُوجِبُ تَغْذِيبَ الْكَافِرَةِ، ثُمَّ لَا يُعَذِّبُ الْجَنُّ إِذَا كَفَرُوا، وَلِذَلِكَ وَجِبَ الْقَوْلُ بِعِقَابِهِمْ، وَلَمْ يَجِبِ الْقَوْلُ بِالثَّوَابِ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَفْتَوْا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْتَفْتِيَهُمْ ثَمَّ عَذَابًا﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ:

الآية ١٦

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: طَرِيقَةُ الْهُدَى، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: طَرِيقَةُ الْكُفْرِ.

فَمَنْ قَالَ: الْمُرَادُ، هُوَ طَرِيقَةُ الْهُدَى، قَالَ: إِنَّ الطَّرِيقَةَ الْمَعْرُوفَةَ الْمَعْهُودَةَ، هِيَ طَرِيقُ اللَّهِ تَعَالَى، فَعِنْدَ الْإِطْلَاقِ تَنْصَرِفُ إِلَيْهِ كَالدِّينِ مَتَى ذُكِرَ مُطْلَقًا يَنْصَرِفُ إِلَى دِينِ الْحَقِّ، وَكَذَلِكَ السَّبِيلُ الْمُطْلَقُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وهو الإسلام. ثُمَّ يُخْرِجُ هَذَا عَلَى وَجْهِ:

أَخْلَصُوا: يَنْصَرِفُ إِلَى الْكُفْرِ أَنَّهُمْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ، أَيْ لَوْ أَجَابُوا إِلَى مَا يُدْعَوْنَ إِلَيْهِ مِنَ الْهُدَى ﴿لَأَسْتَفْتِيَهُمْ ثَمَّ عَذَابًا﴾ أَيْ وَسَعْنَا عَلَيْهِمْ، وَكَثَرْنَا أَمْوَالَهُمْ، وَيَكُونُ ذِكْرُ الْمَاءِ ههنا كِنَايَةً عَنِ السَّعَةِ، لِأَنَّ سَعَةَ الدُّنْيَا كُلَّهَا، تَنْصِلُ بِالْمَاءِ، وَالْمَاءُ أَصْلُهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَّ السَّمَاءِ رِزْقُكَ وَرَبَّنَا تُرْعِدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] فَخَبَّرَ أَنَّ رِزْقَ الْخَلْقِ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ، وَهُوَ الْمَطَرُ، وَجَعَلَ ذَلِكَ رِزْقًا، إِذْ هُوَ أَضَلُّ رِزْقِ الْخَلْقِ، فَكَذَلِكَ ذِكْرُ الْمَاءِ ههنا كِنَايَةً عَنِ السَّعَةِ مِنَ الرِّجْوِ الَّذِي ذَكَّرْنَا.

فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْخِطَابُ رَاجِعًا إِلَى الْوَفَى الَّذِي كَانُوا ابْتَلَوْا فِيهِ بِالْقَحْطِ وَالسَّيْنِ، فَوَعَدَ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَوْ أَجَابُوا إِلَى مَا دُعُوا إِلَيْهِ لَرَفَعَ عَنْهُمْ الْقَحْطَ وَالسَّيْنِ، وَلَوْ سَعَّ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ، وَهُوَ كَقَوْلِ ^(٢) نُوْحٍ وَغَيْرِهِمَا وَوَعْدِهِمْ أَقْوَامَهُمْ ^(٣) بِإِرْسَالِ الْأَمْطَارِ وَتَكْثِيرِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ [وَنَحْوِ ذَلِكَ] ^(٤).

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ فِي ضَيْقِ الْحَالِ وَشِدَّةٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَكَانُوا يَتَفَرَّقُونَ فِي الشُّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ [الشِّدَّةِ] ^(٥) مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْجُوعِ لِيُصِيبُوا مِنْ عَيْشِهَا، وَعِنْدَ اسْتِدَادِ الْحَالِ تَخَافُ النَّفْسُ مِنْ هَوْلِهَا ^(٦) وَالتَّبْدِيلُ، فَوَعَدُوا السَّعَةَ فِي الْعَيْشِ ﴿وَالَّذِينَ اسْتَفْتَوْا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ الَّتِي كَانُوا هُمْ عَلَيْهَا، أَيْ دَامُوا عَلَيْهَا، وَلَمْ يَبْدُلُوا الدِّينَ الْحَقَّ وَالْهُدَى بِالْبَاطِلِ كَمَا وَعَدَ لَهُمُ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ مَعَ قِلَّةِ أَنْصَارِهِمْ، إِنْ دَامُوا عَلَى الْإِسْلَامِ.

وَيَحْتَمِلُ مَا قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ تَأْوِيلَ قَوْلِهِ ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَفْتَوْا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أَيْ لَوْ اسْلَمَ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا لَوْ سَعْنَا عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، وَكَثَرْنَا أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ، حَتَّى يُفْتَنُوا فِيهَا، فَيُفْتَنُوا بِمِحْنٍ شَدِيدَةٍ، فَيَحْتَمِلُ الْبَعْضُ مِنْهُمْ، فَيَبْقُوا مُؤْمِنِينَ، وَلَا يَحْتَمِلُ الْبَعْضُ، فَيُفْتَنُوا، وَيَعُودُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ حَتَّى لَا يَقَعَ ٦٠٣ - ب/ الْخُلْفُ فِي وَغْدِنَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ أَنْ يَمْلَأَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ فِي وَعْدِهِ خُلْفٌ، وَهُمْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَلَمْ يَبْقُوا أَدَى ذَلِكَ إِلَى خُلْفِ الْوَعْدِ [لَا أَنْ] ^(٧) يَمْلَأَ إِذَا دَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَلَمْ يَبْقُوا، وَتَكُونُ الْحِكْمَةُ فِي بَغْيِهِمْ أَنْ يَعْرِفَ الْخَلْقُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى، لَمْ يَخْلُقْهُمْ لِمَنَافِعٍ، تَحْصُلُ لَهُ، وَلَكِنْ خَلَقَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ: إِنْ أَحْسَنُوا أَحْسَنُوا لِأَنْفُسِهِمْ، وَإِنْ أَسَاءُوا فَعَلَيْهِمْ، وَلَوْ أَبْقَاهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، وَظَهَرَتِ الْمَوَالَاةُ فِي الْجَمْلَةِ لَكَانَ يَسْبِقُ إِلَى الْأَوْهَامِ أَنَّهُ إِنَّمَا خَلَقَهُمْ لِمَنَافِعٍ نَفْسِيَّةٍ.

وهذا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بَيَانُ عِلْمِهِ بِمَا لَا يَكُونُ: أَنْ لَوْ كَانَ، كَيْفَ يَكُونُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِمَ الْإِيمَانَ مِنَ الْبَعْضِ وَالْكَفَرَ مِنَ الْبَعْضِ لِلْحِكْمَةِ الَّتِي ذَكَّرْنَا وَغَيْرَهَا مِمَّا لَا يَقِفُ عَلَى بَعْضِهَا الْخَلْقُ دُونَ الْبَعْضِ، وَحَكَمَ كَذَلِكَ [الْحُكْمُ] ^(٨)؟

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ حَكَمَ بَأَنَ يَسْتَقِيمُ الْكُلُّ عَلَى طَرِيقَةِ الْحَقِّ، وَيُؤْمِنُوا، لَمْ يَخُكِّمْ عَلَى طَرِيقِ الْأَبَدِ فِي حَقِّ، بَلْ حَكَمَهُ أَنْ

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْل. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْمِهِمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَنَحْوَهُ. (٥) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَهْلِهَا. (٧) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ وَم: لِأَنَّهُ. (٨) ساقطة من الأصل وم.

يَسْتَقِيمَ عَلَيْهَا الْبَعْضُ إِلَى مَدَى، ثُمَّ يَتْرُكُ، وَيُبْدِلُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيَدُومُ الْبَعْضُ عَلَيْهَا تَحْقِيقًا لِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحُكْمِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿لَبِزَّ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِنْ مَضَىٰ جُودُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] أَيْ لَوْ [لَمْ] ^(١) يُفْرَضْ عَلَيْهِمُ الْجِهَادُ وَالْخُرُوجُ إِلَى الْقِتَالِ لَبَزَّ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ، وَمُنْتَهَىٰ أَجَالِهِمُ الْقَتْلُ، إِلَى حَوَائِجِ أَنْفُسِهِمْ، فَيَقْتُلُونَ ^(٢) مِنْهُ [بَيَانًا لِحُكْمِهِ] ^(٣) الَّذِي يَحْكُمُ أَنَّهُ لَوْ حَكَمَ كَيْفَ كَانَ؟ فَكَذَا هَذَا.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مَغْنَاهُ طَرِيقَةُ الْكُفْرِ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالِاسْتِقَامَةِ هُنَا الْإِقَامَةُ، وَلَفْظَةُ الْإِقَامَةِ يُعْبَرُ بِهَا عَنِ الْإِقَامَةِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْإِسْلَامِ جَمِيعًا، وَتَكُونُ الطَّرِيقَةُ هُنَا إِمَارَةً إِلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي كَانُوا عَرَفُوهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ الْكُفْرُ.

وَلِنْ كَانَتْ الطَّرِيقَةُ إِذَا أُطْلِقَ ذِكْرُهَا أُرِيدَ بِهَا طَرِيقَةُ الْهُدَى، لِأَنَّ طَرِيقَةَ الْكُفْرِ، هِيَ الَّتِي كَانَتْ مَعْرُوفَةً فِي مَا بَيْنَهُمْ، وَكَذَلِكَ ذَكَرَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ أَنَّ الطَّرِيقَةَ هُنَا طَرِيقَةُ الْكُفْرِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَقْنَنَهُمْ نَأَهُ عَذَابًا﴾ أَيْ وَسَّغْنَا عَلَيْهِمْ، وَكَثَرْنَا أَمْوَالَهُمْ، لِيَعْلَمُوا جُودَ رَبِّهِمْ كَيْفَ بَسَطَ عَلَيْهِمُ الرِّزْقَ مَعَ اخْتِيَارِهِمْ عِدَاوَتَهُ كَمَا بَسَطَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَلِيَعْلَمُوا جِلْمَهُ حِينَ ^(٤) لَمْ يُوَاعِدْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَلَمْ يُعْجَلْ بِإِنزَالِ النَّقْمَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَنَنْتَنَّهُمْ فِيهِ﴾ فَالْفِتْنَةُ الْمِخْنَةُ الَّتِي فِيهَا الشَّدَّةُ؛ فَإِنْ كَانَ هَذَا فِي أَهْلِ الْكُفْرِ فَفِي بَسْطِ [الرِّزْقِ] ^(٥) عَلَيْهِمْ مِخْنَةٌ شَدِيدَةٌ لِأَنَّ ذَلِكَ يَمْنَعُهُمْ عَنِ الْخُضُوعِ وَالْإِنْقِيَادِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا يَرَوْنَ ^(٦) مِنَ الْفَضْلِ عَلَى مَنْ دُونَهُمْ فِي الْمَالِ وَالسَّعَةِ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبا: ٢٤] [وَقَوْلِهِ تَعَالَى] ^(٧): ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وَلِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ مُنْصَرِفًا إِلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَفِي التَّوَسُّعِ عَلَيْهِمْ مِخْنَةٌ شَدِيدَةٌ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ مَا امْتَحَنَّا بِهِ، فِيهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَتْلُوكُمْ بِالنَّفَرِ وَالْخَيْلِ فَتَنَةً﴾ [الأنبياء: ٢٥] فَمَا مِنْ حَالٍ تَعْتَرِضُ الْإِنْسَانَ إِلَّا وَلَهُ ^(٨) فِيهَا شِدَّةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ: وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ وَعِبَادَتِهِ، أَوْ يُعْرِضْ عَنْ تَوْحِيدِهِ، أَوْ يُعْرِضْ عَنِ الْقُرْآنِ، إِذْ هُوَ الذِّكْرُ ^(٩)، وَالْإِعْرَاضُ هُنَا عِبَارَةٌ عَنِ الْإِثَارِ وَالِاخْتِيَارِ، أَيْ مَنْ يَخْتَرُ غَيْرَ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا ذَكَرَهُ أَوْ طَاعَةَ غَيْرِهِ عَلَى طَاعَتِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ عَلَى التَّحْقِيقِ كَمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ التَّفْسِيرِ أَنَّهُمْ يُكَلِّفُونَ الصُّعُودَ عَلَى جَبَلٍ مِنْ نَارٍ، لَا يَقْدِرُونَ إِلَّا بَعْدَ شِدَّةٍ عَظِيمَةٍ، ثُمَّ إِذَا بَلَغُوا أَعْلَاهَا يُهَوِّزُونَ فِيهَا. فَكَذَلِكَ دَابُّهُمْ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عَلَى التَّمْثِيلِ، وَكَذَلِكَ لِأَنَّ الصُّعُودَ أَشَدَّ مِنَ الْهَبُوطِ، فَيَكُونُ الصُّعُودُ عِبَارَةً عَنِ الْمَشَقَّةِ هُنَا: أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ مَا يَشُقُّ عَلَيْهِ.

وَقِيلَ: الْمَشَقَّةُ الَّتِي عَلَيْهِ، هِيَ ^(١٠) مَا يَحُلُّ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ مُتَتَابِعًا عَذَابًا بَعْدَ عَذَابٍ.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: الصُّعُودُ الْمَشَقَّةُ، يُقَالُ: يَصْعَدُ عَلَيَّ هَذَا الْأَمْرُ يَشُقُّ عَلَيَّ.

وَرُوي عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مَا يَصْعَدُنِي أَمْرٌ مَا يَصْعَدُنِي خُطْبَةُ النِّكَاحِ، أَيْ مَا يَشُقُّ عَلَيَّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ أَيْ مَا يُسَجَّدُ فِيهِ وَمَا يُسَجَّدُ بِهِ: فَمَا يُسَجَّدُ فِيهِ، هِيَ ^(١١) الْبِقَاعُ، وَمَا يُسَجَّدُ بِهِ، هِيَ ^(١٢) الْجَوَارِحُ؛ فَكَانَهُ يَقُولُ: إِنَّ الْبِقَاعَ الَّتِي يُسَجَّدُ فِيهَا، وَالْأَعْضَاءُ الَّتِي يُسَجَّدُ بِهَا، لِلَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهَا، وَأَنْشَأَهَا، وَالْمَسَاجِدَ الَّتِي بُنِيَتْ فَإِنَّمَا تُبْنَى لِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَلِيُدْعَى فِيهَا، فَلَا تُشْرِكُوا غَيْرَهُ فِي الْعِبَادَةِ وَالِدَعَاءِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَرَادَ بِالْمَسَاجِدِ الْمَسْجِدَ ^(١٣) الْحَرَامَ؛ رُويَ ذَلِكَ عَنِ الصُّحَاكِ وَغَيْرِهِ، فَكَانَهُ إِنَّمَا صَرَفَ التَّأْوِيلَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لِأَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، وَلَمْ يَكُنْ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْبِقَاعِ مَسَاجِدُ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَقْتُلُوا. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: بَيَانُ الْحِكْمَةِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٥) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرَوْنَ. (٧) ساقطة من الأصل وَم. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَلَهَا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَر. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مَسْجِد.

وقال بعضهم: المساجد ههنا البيع والكنائس لأن البيع والكنائس بُنيت ليعبد الله تعالى فيها، فنهأهم أن يعبدوا فيها غير الله، فيخرج هذا مخرج الإخجاج: أنكم قد علمتم أن المساجد بُنيت ليعبدوا الله فيها فلا تعبدوا فيها غيره. وإذا كان الله مُنشئها وخالقها دون غيره فكيف تُشركون معه غيره في العبادة والدعاء، وليس هو بِمُنشئ لها؟

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ فجائز أن يكون على الدعاء نفسه، فيكون مغناه ألا تدعوا مع الله أحداً لأن الإله اسم المتعبود؛ كان القوم إذا عبدوا شيئاً سموه إلهاً، فيقول: لا تدعوا معه أحداً إلهاً، فإنه هو الإله، وهو المستحق للعبادة من كل أحد.

وجائز أن يكون أريد بالدعاء العبادة؛ قال عليه السلام: «الدعاء مع العبادة» [الترمذي: ٣٣٧١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] فجعل دعاءهم إياه عبادة منهم له، فيكون قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ أي لا تشركوا غيره معه في العبادة، والله أعلم.

الآية ١٩ وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ فمنهم من يقول: إنهم ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ على جهة الرغبة فيه ومواليتهم له؛ فقوله تعالى: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ أي كاد يلتصق بعضهم ببعض^(١) ليتصلوا برسول الله ﷺ أو ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ أي على رسول الله ﷺ كادوا يلتصقون به حباً لما سمعوا من رسول الله ﷺ جزواً على حفظ ما سمعوا لأنهم كانوا من منكري الجن، فحرصوا على حفظه ووعيه لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، وتعبوا ما سمعوا لأنهم سمعوه من مكان لم يكن مكان قراءة الكتب، وسمعوه^(٢) من الأمي الذي لم يقرأ كتاباً قط، ولا عرف المكتوب، فتعجبوا منه أشد التعجب. واللبد التصاق الشيء بالشيء التصاقاً لا يفصل بعضه من بعض، وسمي اللبد ليداً من هذا لأن الصوف يلتصق بعضه ببعض^(٣) حتى لا يسرد^(٤). ومنهم من زعم أنهم فعلوا هذا ليشدة معاديتهم رسول الله ﷺ فيكون على هذا منصرفاً إلى الكفرة.

فقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ فمعناه / ٦٠٤ - أ أي لما قام محمد ﷺ يوحد الله تعالى، ويدعو الخلق إلى عبادته وطاعته، هم المشركون من الإنس والجن، وتلبدوا على هذا الأمر أن يظفوه، فأبى الله إلا أن ينصره، وينصيه.

وإن كان هذا من أهل الإسلام من الجن، والدعاء راجع إلى العبادة، فكانه يقول: لما قام بعبادة الله تعالى، وهي الصلاة ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ لشدته حرصهم في تحفظ ما سمعوا وشدته حبهم لرسول الله ﷺ ولما سمعوا.

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ففيه إخبار عن دينه أن دينه التوحيد: لا إشتراك بالله تعالى، وإخبار عما يدعو الخلق إليه؛ وذلك توحيد الله تعالى والقيام بطاعته.

وجائز أن يكون هذا على إثر سؤال منهم ودعوتهم إلى عبادة الأصنام على ما ذكر في الأخبار أنهم قالوا: إنا نعبد إلهك يوماً، وتعبد إلهتنا يوماً، وهو كقوله ﷺ: ﴿وَتَقَرُّ مَا لِحْ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ﴾ الآية [غافر: ٤١ و٤٢].

وجائز أن يكون كلاماً مبتدأ: يؤسهم، ويُظنهم، ويقطع ظمعمهم على عودهم إلى ما هم عليه.

الآية ٢١ وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي ضراً في الدين ورشداً في الدين.

والأصل في الأسماء المشتركة أن يُنظر إلى [مقابلها، فيظهر^(٥) مرادها بما يقابلها كقوله تعالى: ﴿وَأَنَا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَمِنَ الْقَلِيلِ [الجن: ١٤] والقاسم الجائر، وقد يكون غير الكافر جائراً، ثم صرف الجور إلى الكفر، فيظهر مرادها بمقابلها^(٦) وهو قوله: ﴿وَمِنَ الْقَلِيلِ﴾.

(١) في الأصل وم: إلى بعض. (٢) في الأصل وم: وسمعوا. (٣) في الأصل وم: من بعض. (٤) في الأصل وم: يسر. (٥) في م: فينظر. (٦) من م، في الأصل: مقابلة.

والضُّرُّ قد يكونُ في الدين وفي المالِ والنفسِ، ولكنه لما ذَكَرَ قوله: ﴿رَشَدًا﴾ والرُّشْدُ يُتَكَلَّمُ بِهِ فِي الدِّينِ، عَلِمَ أَنَّ قوله: ﴿ضَرًّا﴾ راجعٌ إليه أيضاً؛ فكانه يقول: لا أملكُ إضلالَكُمْ ولا رُشْدَكُمْ، إنما ذلك إلى الله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ الآية [فاطر: ٨].

والمعتزلة تزعمُ أَنَّ الله تعالى، لا يَمْلِكُ رَشْدَ أَحَدٍ وَلَا غِيَّهُ، بل ^(١) رسولُ الله ﷺ أَكْبَرُ مُلْكًا، لأنه يملكُ أن يَدْعُو الخَلْقَ إلى الهدى بنفسِهِ، والله تعالى لا يَمْلِكُ ذلكَ إِلَّا بِرَسُولِهِ. وقال ﷺ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ مَذْهَبُهُ وَلَاحِكٌ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٢] وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ولو كَانَ المرادُ مِنَ الهدايةِ المُضافةِ إلى الله تعالى الدعوة والبيانُ لَكَانَ رسولُ الله ﷺ يهديهم، لأنه داعٍ ومُبينٌ. فَنَبَتْ أَنَّ فِي الهدايةِ مِنَ الله تعالى لُفْظًا لَا يَتْلُغُهُ تَذْيِيرُ البَشَرِ.

الآية ٢٢ وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِيَ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ فكانهم طلبوا منه تركَ تبليغِ الرسالةِ إلى قومٍ أو كِثْمَانٍ شيءٍ مما أُمِرَ بإظهارِهِ أو مُحَابَاةِ أَحَدٍ مِنَ الأَجَلَةِ، فَأَمَرَهُ أَنْ يُخَيِّرَهُمْ أَنَّهُ لَا يُجِيرُهُ أَحَدٌ مِنَ اللَّهِ تعالى، لَا يَجِدُ لِنَفْسِهِ مَلْجَأً إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ سِوَى أَنْ يُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ، فَيُجِيرُهُ مِنْ عَذَابِهِ، فيكونُ لَهُ عنده مَلْجَأٌ.

الآية ٢٣ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَاغًا يَنْ أَلَّهِ بَلَاغًا يَنْ أَلَّهِ وَرِسَالَتِي﴾ استثناءً مِنْ قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ﴿إِلَّا بَلَاغًا يَنْ أَلَّهِ﴾ أي إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ هدايتَكُمْ وإضلالَكُمْ إِلَّا مَا كُفَّلْتُ لِأَجْلِكُمْ مِنْ تبليغِ الرسالةِ.

ومنهم مَنْ جَعَلَ هذا استثناءً مِنْ قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِيَ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ إِنْ عَدَلْتُ عَنْ أَمْرِهِ، ولم ^(٢) أَبْلُغِ الرسالةَ، فلا يُجِيرُنِي مِنْ عَذَابِهِ إِلَّا أَنْ أَبْلُغَ الرسالةَ. قَالَ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَمَا بَلَّغْتُمْ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧] وقال: ﴿قُلْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] لأنه لَا يجوزُ أَنْ تَقَعَ لَهُ الحاجةُ [إلى الإجارة] ^(٣) مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، ولم يَلُحْ ^(٤) مِنْهُ تَقْصِيرٌ وَلَا تَضْيِيعٌ، يَسْتَوْجِبُ بِهِ الْعِقَابَ، فلا بُدَّ مِنْ أَنْ يُمَكِّنَ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا مِنْ التَّقْصِيرِ فِي التَّبْلِيغِ والعُدُولِ عَمَّا كُفِّلَ حَتَّى يَسْتَقِيمَ ذِكْرُ الإجارةِ فِيهِ.

وَذَكَرَ أَبُو معاذٍ صاحبُ التفسيرِ أَنَّ الإِسْتِثْنَاءَ راجعٌ إلى قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١] ليسَ إلى قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِيَ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ [الجن: ٢٢] واستَدَلَّ على ذلكَ بقراءةِ عبدِ الله بنِ مسعودٍ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ: قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ غِيًّا وَلَا رَشْدًا إِلَّا بِلَاغًا مِنَ اللَّهِ.

وليسَ فِي ما ذَكَرْنَا قَطْعَ الإِسْتِثْنَاءِ على قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ لِيُؤْخِذَ الَّذِي ذَكَرَ. وَلَأنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ أَجْمَعُوا على صَرْفِ الإِسْتِثْنَاءِ إلى قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِيَ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ فلا يجوزُ أَنْ يُحْمَلَ قولُهُمْ على الحُطْلِ لِمَا ذَكَرَهُ أَبُو معاذٍ. ولِما ذهبوا إليه وَجْهَ الصَّحَّةِ والسَّدادِ.

وجائزُ أَنْ يكونَ البلاغُ والرسالةُ واحداً، فيكونُ الَّذِي يُبَلِّغُ ﴿بَلَاغًا يَنْ أَلَّهِ وَرِسَالَتِي﴾ ويكونُ ذلكَ على التكرارِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ٤٨] قيلَ: إِنهما واحدٌ.

وجائزُ أَنْ تكونَ الرسالةُ نفسَ ما أُنْزِلَ اللهُ، وهو الكتابُ، والبلاغُ ما أودَعَ فِيهِ مِنَ الحِكْمَةِ والمعاني.

وكذلكَ قيلَ فِي قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فالكتابُ هو المُنْزَلُ نفسُهُ، والحِكْمَةُ ما تَضَمَّنَ فِيهِ مِنَ المعاني.

وجائزُ أَنْ يكونَ البلاغُ مِنَ اللَّهِ تعالى مُنْصَرِفًا إلى حِكْمِهِ ورسالاتِهِ إلى خَبَرِهِ ^(٥)، أو تكونَ رسالَتُهُ حِكْمَهُ والبلاغُ خَبَرُهُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿رَقِمْتَ كَلِمَتَ رَبِّكَ صِدْقًا﴾ أَخْبَارُهُ ﴿وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أو ﴿بَلَاغًا يَنْ أَلَّهِ﴾ حَقُّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ﴿وَرِسَالَتِي﴾ بما بِهِ مَصَالِحُهُمْ، واللهُ أَعْلَمُ.

(١) مِنْ م، فِي الأصل: يا. (٢) مِنْ م، فِي الأصل رَم: وَلَنْ. (٣) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٤) فِي م: يَقَع. (٥) فِي الأصل وَم: غَيْرِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ قالوا: لا ملجأ ومآل وموضع، يُمال إليه، والإلتحاد الإمالة، سُمِّيَ اللُّحْدُ لِحْدًا مِنْ هَذِهِ لَأَنَّهُ يَمَالُ عَنْ سَنِيهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ كقولهِ^(١) في موضع آخر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وقولهِ^(٢): ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] وكلٌّ مَنْ ارْتَكَبَ الْمَأْثَمَ فَقَدْ دَخَلَ فِي حَدِّ الْعِصْيَانِ وَلِإِذَا الرُّسُولِ.

ولكن المراد ههنا: مَنْ يَتَّقِدْ عِصْيَانَ الرُّسُولِ وَأَذَاهُ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَضَافَ الْأَذَى وَالْعِصْيَانَ إِلَى نَفْسِهِ، وَلَا أَحَدٌ يَقْصِدُ قَضْدَ أَذَى اللَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ ﷻ لَا يُؤْذِي، وَلَكِنْ أَضَافَ أَذَى الرُّسُولِ وَعِصْيَانَهُ إِلَى نَفْسِهِ، وَقَدْ كَانُوا يَتَّقِدُونَ عِصْيَانَهُ وَأَذَاهُ، فَجَعَلَ عِصْيَانَهُمْ وَأَذَاهُمْ لِرَسُولِهِ أَذَى مِنْهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى وَعِصْيَانًا لَهُ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا فِي الْإِغْتِقَادِ.

وقال ﷻ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقال: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُعْكِمُوا كَافًا﴾ [النساء: ٦٥] فَجَعَلَ طَاعَةَ الرُّسُولِ طَاعَةً لَهُ وَعِصْيَانَ رَسُولِهِ عِصْيَانًا لَهُ، وَلِأَنَّهُ ذَكَرَ الْعِصْيَانَ عَلَى [إِثْرٍ]^(٣) تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ تَبَيَّنَ^(٤) أَنَّ الْعِصْيَانَ هَهُنَا فِي تَرْكِ الْقَبُولِ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى الرُّسُولِ وَفِي اغْتِقَادِ الْعِصْيَانِ لَهُ.

وروي عن أبي حنيفة، رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ قَالَ: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِرَسُولِهِ فَهُوَ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ لِأَنَّ جَهَنَّمَ بِاللَّهِ تَعَالَى، هُوَ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى تَكْذِيبِ الرُّسُولِ، لِأَنَّ الرُّسُولَ لَيْسَ يَدْعُو إِلَّا إِلَى مَا يُقَرِّبُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى مَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِهِ. فَلَوْ كَانَ يُحِبُّ اللَّهُ تَعَالَى، وَيُؤْمِنُ بِهِ، لَكَانَ يَدْعُوهُ ذَلِكَ إِلَى حُبِّ الرُّسُولِ وَإِلَى طَاعَتِهِ. فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْمُكْذِبَ لِلرُّسُولِ جَاهِلٌ بِرَبِّهِ، وَالْمُطِيعُ لَهُ مُطِيعٌ لِلَّهِ ﷻ.

الآية ٢٤ وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا/ ٦٠٤ - ب/ رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْتَعِزُّونَ مِّنْ أَعْصَفَ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ كقولهِ^(٥) في موضع آخر: ﴿فَيَسْتَعِزُّونَ مِّنْ هُوَ شَرٌّ مَّا كَانُوا وَيَسْتَعِزُّونَ مِّنْ أَعْصَفَ جُنْدًا﴾ [مريم: ٧٥].

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ جَمِيعًا، وَيَكُونُ ذَلِكَ رَاجِعًا [إِلَى]^(٦) يَوْمٍ بِدْرٍ كَمَا ذَكَرَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ، إِذْ قَدْ ظَهَرَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّهُمْ ﴿فَيَسْتَعِزُّونَ مِّنْ هُوَ شَرٌّ مَّا كَانُوا وَيَسْتَعِزُّونَ مِّنْ أَعْصَفَ جُنْدًا﴾ أَوْ أَعْصَفَ نَاصِرًا.

وَيُسَبِّحُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي الْآخِرَةِ، فَإِنَّهُمْ يَغْلِبُونَ أَنَّهُمْ أَقَلُّ عَدَدًا فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَتَّبِعُ مِنْ صَاحِبِهِ وَنَاصِرِهِ وَمُعِينِهِ فِي الدُّنْيَا، وَيَصِيرُ عَدُوًّا لَهُ، فَيَقِلُّ عَدَدُهُمْ، وَأَمَّا فِي يَوْمٍ بِدْرٍ فَقَدْ كَانُوا أَكْثَرَ عَدَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَقَلُّ فِي الْعَدَدِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ يَوْمٌ بِدْرٍ يَكُونُ الْمُسْلِمُونَ أَكْثَرَ عَدَدًا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَدُ الْمُسْلِمِينَ بِمَلَائِكَتِهِ، فَصَارَ عَدَدُهُمْ أَكْثَرَ فِي التَّحْقِيقِ، وَإِنْ كَانَتْ الْكُفْرَةُ فِي رَأْيِ [الْعَيْنِ]^(٧) أَكْثَرَ مِنْهُمْ عَدَدًا.

ثُمَّ يُشَبِّهُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ عَلَى إِثْرِ تَخْوِيفِ الْكُفْرَةِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ، فَوَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِالنَّصْرِ وَكَثْرَةِ الْعَدَدِ عِنْدَ وَقْعِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

الآية ٢٥ وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَكُمْ رَبِّي أَمَدًا﴾ فهذا ذِكْرُهُ عِنْدَ ذِكْرِ الْوَعِيدِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَيَسْتَعِزُّونَ مِّنْ أَعْصَفَ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ [الآية: ٢٤] فَكَانَ سَأَلُهُ: مَتَى تَوَقَّعْتَ هَذَا الْوَعِيدَ؟ فَأَمَرَ أَنْ يَقُولَ: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَكُمْ رَبِّي أَمَدًا﴾.

قَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ أَنْ لَيْسَ فِي بَيَانِ وَقْتِ الْوَعِيدِ فَضْلٌ يَقَعُ فِي الْوَعِيدِ، بَلْ إِذَا لَمْ يُبَيَّنْ وَقْتُ الْوَعِيدِ كَانَ فِيهِ فَضْلٌ تَخْوِيفٌ وَتَحْذِيرٌ، لَا يَرْجُو فِي مَا يُبَيَّنُّ، لِأَنَّهُ إِذَا بَيَّنَّ؛ فَإِنْ كَانَ فِيهِ أَمَدٌ سَوَّفَ النَّاسُ، وَأَخْرَجُوا التَّوْبَةَ لِمَا آمَنُوا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: نَبِيَّت. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

حُلُولِ النَّفْعَةِ بِهِمْ إِلَى مَجِيءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَإِذَا لَمْ يُنْهَلُوا صَارُوا إِلَى الْإِيَّاسِ، فَيَرْتَفِعُ الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ، وَفِيهِ ارْتِفَاعُ الْيُخْنَةِ فِي الْأَصْلِ بِالْعَمَلِ عَلَى الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ.

ولأنه إذا لم يُبَيَّنْ كانوا على الحذر والخوف، فَيَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ عَلَى التَّسَارُعِ فِي الْخَيْرَاتِ وَالْإِنْقِلَاعِ عَنِ الْمَسَاوِي، أَمْرٌ^(١) أَنْ يَقُولَ هَذَا [لأن الذي]^(٢) يَقُولُ هَذَا عَالَمٌ بِالْوَقْتِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ الْوَعْدُ.

الآيتان ٢٦ و ٢٧ وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ الْأَصْلُ [فِي مَا]^(٣) غَيَّبَ اللَّهُ عَنِ الْخَلْقِ أَنَّهُ عَلَى مَنَازِلَ ثَلَاثَةٍ:

أَحَدُهَا: قَدْ أَعْجَزَ الْخَلْقَ عَنِ اخْتِمَالِ الْوُقُوفِ عَلَيْهِ بِالْخَلْقَةِ نَحْوِ الْكَيِّنَاتِ الَّتِي هِيَ أَصُولُ الْأَشْيَاءِ؛ لَوْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَغْرِثَ الْمَعْنَى الَّتِي صَلَّحَ أَنْ يَكُونَ كَيِّنًا لَمْ يَقِفْ عَلَيْهِ، وَنَحْوِ الْمَاءِ [الذي]^(٤) جَعَلَ حَيَاةً لِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَوْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَتَعَرَّفَ الْمَعْنَى الَّتِي بِهِ يَصْلُحُ أَنْ يَجْعَلَ حَيَاةً لَمْ يَقِفْ عَلَيْهِ. وَكَذَلِكَ هَذَا فِي كُلِّ مَا جَعَلَ كَيِّنًا مَوْجُودًا.

وَالثَّانِي: مَا مَكَّنَّ مَعْرِفَتَهُ وَبُلُوغَهُ إِلَيْهِ بِالتَّأَمُّلِ وَالتَّنْظَرِ بِدُونِ مَعْرِفَةِ السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ نَحْوَ مَعْرِفَةِ الصَّانِعِ وَمَعْرِفَةِ وَحْدَانِيَّتِهِ.

وَالثَّلَاثُ: هُوَ الَّذِي لَمْ يُعْجِزْهُمْ عَنْ إدْرَاكِهِ، وَلَا مَكَّنَّهُمْ مِنَ الْوُقُوفِ عَلَيْهِ دُونَ خَبَرِ يَرُدُّ. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ فِي هَذَا وَالَّذِي مَكَّنُونَا فِيهِ. لَكِنَّهُمْ لَا يَتَلَفَّوْنَ إِلَّا بِمَعُونَةِ الْخَبَرِ؛ وَذَلِكَ نَحْوُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَرْجِعُ إِلَى مَصَالِحِ الْخَلْقِ وَالتِّي تُوصِلُ إِلَى مَصَالِحِ الْأَعْدِيَةِ مِمَّا ظَهَرَ بَيْنَ الْخَلْقِ، وَلَكِنَّهَا لَا تُعْرَفُ إِلَّا بِالسَّمْعِ وَمِمَّنْ لَهُ عِلْمٌ مِنَ الْخَلْقِ وَانْتِشَارِهِ فِيهِمْ، وَهُوَ بِحَيْثُ لَا يَحْتَمِلُ إدْرَاكُهُ بِالنَّظَرِ، فَيَبَيَّنُ أَنَّ ذَلِكَ بِالرَّسُولِ. وَمَتَى وَجَدَ ذَلِكَ مِنْ شَخْصٍ مُشَارٍ إِلَيْهِ دَلٌّ ذَلِكَ عَلَى الْإِخْتِصَاصِ لَهُ بِالرَّسَالَةِ.

ثُمَّ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةً تَكْذِيبِ الْمُتَجَمِّعَةِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ لِأَنَّ فِيهِمْ مَنْ يُصَدِّقُ خَبَرَهُ، وَيَعْرِفُ الْمَطَالِيعَ وَالْمَغَارِبَ وَالْمَشَارِقَ وَالْكَوَاكِبَ الَّتِي بِهَا يَتَوَالَّدُ الْخَلْقُ وَالتِّي يَقَعُ عِنْدَهَا التَّغْيِيرُ وَالتَّبْدِيلُ، وَذَلِكَ مِمَّا لَا يُوقَفُ عَلَى عِلْمِهِ بِالتَّأَمُّلِ وَالتَّنْظَرِ، وَكَذَلِكَ الْمُطَبِّبَةُ مِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُ طِبَاعَ النَّبَاتِ أَنَهَا تَصْلُحُ لِكَذَا، وَهَذَا يَصْلُحُ لِكَذَا، فَتَقَعُ بِهِ الْمَصَالِحُ لِلْخَلْقِ.

وَمَعْلُومٌ^(٥) أَنَّ هَذَا مِنْ نَوْعِ مَا لَا يُدْرَكُ بِالتَّأَمُّلِ وَالتَّنْظَرِ، فَعَلِمَ أَنَّهُمْ وَقَفُوا عَلَى عِلْمِهِ مِنْ جِهَةِ رَسُولٍ انْقَطَعَ أَثَرُهُ، وَيَقِفِي عِلْمُهُ فِي الْخَلْقِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ أَيِ اخْتَارَهُ، وَاضْطَفَاهُ.

وَالْأَصْلُ أَنَّ الرِّسَالَةَ تُلْزِمُ خَلْقَ الشَّهَادَةِ لَهُ بِالْصِّدْقِ فِي كُلِّ خَبَرٍ وَبِالْعَدْلِ فِي كُلِّ حَكْمٍ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] وَبِالْإِصَابَةِ فِي كُلِّ أَمْرٍ فِي مَا لَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغًا يُوجِبُ الْأَمْرَ، فَهُوَ لَا يَخْتَصُّهُ لِلرَّسَالَةِ.

وَفِي الْإِخْتِصَاصِ نِعْمَةً عَظِيمَةً عَلَى الْخَلْقِ؛ إِذْ بِهِ وَصَلَ الْخَلْقُ إِلَى تَعَرُّفِ مَا تُبْلِغُهُمْ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ فِي أَمْرِ مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ وَدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ قِيلَ: رَصَدًا مِنْ بَيْنِ يَدَيْ الرِّسُولِ وَمِنْ خَلْفِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِيَمْنَعَ الْإِنْسَ عَنِ الرِّسَالِ فِي مَنْعِهِمْ عَنِ التَّبْلِيغِ حَتَّى يُبْلَغُوا. ذُكِرَ هَذَا عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَذَلِكَ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَحَاكُم بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]. إِنَّ إِحَاطَتَهُ هِيَ أَنْ يَغْصِمَهُ مِنَ النَّاسِ [مِنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ مَنَعُ النَّاسِ]^(٦) إِنَاءً عَنِ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَأَمْر. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَإِلَّا وَالَّذِي بَانَ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فِيهَا. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

وَيُخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَلَائِكَةُ جُعِلُوا رَصَدًا لِلْجِنِّ^(١) عَنْ اسْتِزَاقِ مَا يُوحَى إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَعَنْ تَلَقُّيهِ حَتَّى يَكُونَ الرَّسُولُ هُوَ الَّذِي يُبَلِّغُ إِلَى الْخَلْقِ، وَيَشْتَهَرُ ذَلِكَ بَيْنَ الْخَلْقِ أَنَّ الرَّسُولَ، هُوَ الَّذِي قَامَ بِتَلْبِيغِهِ إِلَى الْخَلْقِ، لَأَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يُجْعَلُوا رَصَدًا [لَكَانَ لِلْجِنِّ]^(٢) أَنْ يَسْتَرْقُوهُ، وَيُبَلِّغُوهُ، فَيَاتُوا بِلَدَّةٍ، لَمْ يَتَّسِرْ عِنْدَهُمْ عِلْمُ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الرَّسُولِ، فَيَعْرِفُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ الْجِنِّ قَبْلَ أَنْ يُبَلِّغَهُمُ الرَّسُولُ، فَإِذَا بَلَغَ الرَّسُولُ مِنْ بَعْدِ التَّبَسُّسِ الْأَمْرَ عَلَى الَّذِينَ ظَهَرَ فِيهِمُ الْعِلْمُ مِنْ جِهَةِ الْجِنِّ، فَجَعَلَ عَلَيْهِمُ رَصَدًا حَتَّى يَنْتَشِرَ عِلْمُ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الرَّسُولِ، [فَتَرْتَفِعُ الشُّبُهَةُ]^(٣)، إِذْ يَكُونُ الرِّصْدُ يَمْتَنِعُ الْجِنُّ الَّذِينَ سَمِعُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُبَلِّغُوا قَوْمَهُمْ مِنَ الْجِنِّ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْخَبَرُ إِلَيْهِمْ مِنْ جِهَةِ الرَّسُولِ ﷺ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانُوا يَرْصُدُونَ النَّبِيَّ ﷺ فَإِذَا جَاءَهُ الْمَلَكُ قَالُوا: هَذَا وَخِي مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِذَا جَاءَهُ الشَّيْطَانُ أَخْبَرُوهُ بِهِ، وَلَكِنْ هَذَا بَعِيدٌ، لَا يُخْتَمِلُ أَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ وَخِي الشَّيْطَانِ مِنْ وَخِي جِبْرَائِيلَ ﷺ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ أَيِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ مَنْ يُبَلِّغُ الرِّسَالَةَ إِلَى الرَّسُولِ، وَهُوَ الْمَلَكُ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْوَحْيِ، جَعَلَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ مَلَائِكَةُ يَرْصُدُونَهُ كَيْ لَا يَسْتَلْبِشَ الشَّيْطَانُ مِنْهُ، وَيُحَدِّثُ فِيهِ حَدَثًا مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ، لِيُعْلِمَ رَسُولُ اللَّهِ أَنَّهُ إِنَّمَا يُبَلِّغُ إِلَيْهِ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَهَذَا بَعِيدٌ أَيْضًا لِأَنَّ الْمُبَلِّغَ بِالْقُوَّةِ يَذْفَعُ^(٤) أَذَى الْجِنِّ عَنْ نَفْسِهِ، وَهُوَ أَمِينٌ لَا يَخَافُ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ حَتَّى يَجْعَلَهُ مُتَمَحِّنًا بِالتَّبْلِيغِ، وَالَّذِينَ مَعَهُ مِنَ الرِّصْدِ / ٦٠٥ - أ / امْتَحَنُوا بِأُمُورٍ أُخْرَى، لَا أَنْ يُجْعَلُوا رَصَدًا مِنَ الْجِنِّ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونُوا أُرْسِلُوا لِمَكَانٍ تَعْظِيمِ الْوَحْيِ وَتَشْرِيفِ الرِّسَالَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٨ وقوله تعالى: ﴿لَيْعَلَّ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَيْبَهُمْ﴾ [يُخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَا]^(٥) قَالَ قَائِلُونَ: لِيَعْلَمَ مُحَمَّدٌ بِالرِّصْدِ أَنْ قَدْ أَبْلَغَ سَائِرَ الرُّسُلِ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَمَرُوا كَمَا أَبْلَغَ هُوَ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَعْلَمَ كُلُّ فِي نَفْسِهِ أَنْ قَدْ أَبْلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهَا وَلِيَعْلَمَ الْأَعْدَاءُ أَنْ قَدْ أَبْلَغَ مُحَمَّدٌ ﷺ رِسَالَاتِ رَبِّهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَمَرَ، لَمْ يَقَعْ فِيهِ تَغْيِيرٌ مِنْ شَيْطَانٍ وَلَا [جِنِّي وَلَا عَدُوٌّ].

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أَيِ بِمَا عِنْدَ الرَّسُولِ وَبِمَا عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ بِمَا عِنْدَ الْخَلْقِ.

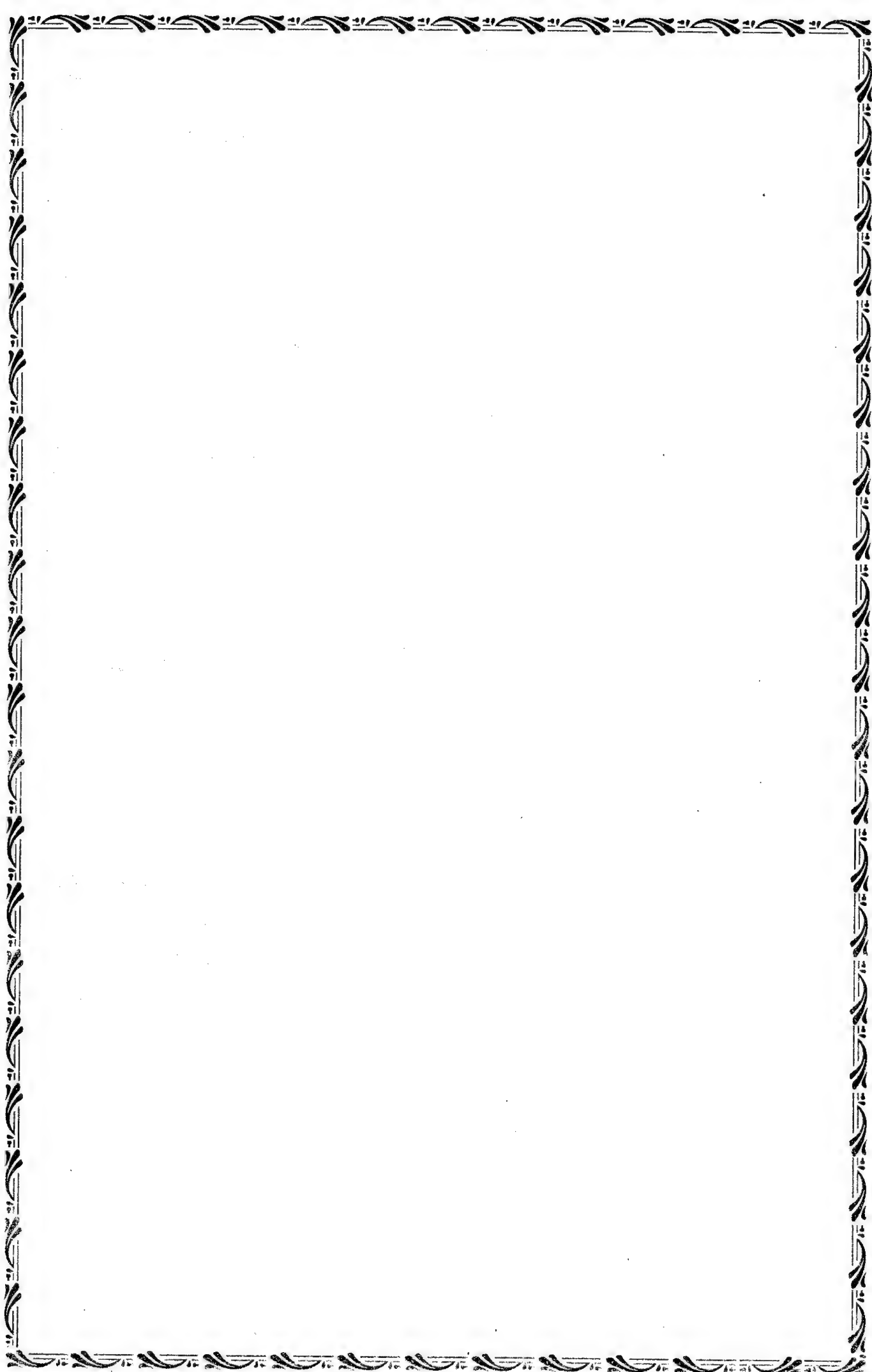
وقوله تعالى: ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أَيِ أَحَاطَ بِالْعِلْمِ الَّذِي^(٦) هُوَ مُعَدُّودٌ لَا بِالْعَدَدِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﷺ: ﴿وَأَبْشَرْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونًا﴾ [الحجر: ١٩] أَيِ مَا يُوزَنُ عِنْدَ الْخَلْقِ، أَوْ أَحَاطَ بِالْعِلْمِ بِمَا لَدَى الْكُفْرَةِ لَا بِالرِّصْدِ.

وَأَنَّ فِي نَضْبِ الرِّصْدِ مِخْنَةً وَتَكْلِيفًا عَلَى الرِّصْدِ لَا أَنْ يَقَعَ بِهِمُ الْحِفْظُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﷺ: ﴿أَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدَبِّتُمْ رَبَّكُمْ يَتَلَذَّذُوا مِنَ الْمَلَكِكَةِ مُزَلِّينَ﴾ [إلى قوله]^(٧): ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلَسَطَمَيْنَ قُلُوبِكُمْ بِدُومًا أَلْقَصَرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْمَكِيدِ﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٦] فَيَبَيِّنُ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِهِ وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَّمَا أُرْسِلَتْ لِتُظْمِنَ بِهَا قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَرْكُنَ إِلَيْهَا طِبَاعَهُمْ.

[وقوله تعالى]^(٨): ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [أَيِ كُلِّ شَيْءٍ]^(٩) عِنْدَهُ مُعَدُّودٌ وَمُخَصَّصٌ، لَا يَغْفُلُ، جَلُّ جَلَالُهُ، عَنْ مَعْرِفَةِ عَدُوِّهِ، وَلَا تَغْتَرِيهِ أَحْوَالٌ، تَغْرُبُ عَنْهُ^(١٠) فِيهَا عِلْمُ ذَلِكَ، خِلَافًا لِمَا عَلَيْهِ أَمْرُ الْخَلْقِ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ [وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ]^(١١).



(١) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ الْجِنِّ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ لَكِنِ الْجِنِّ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ: فَيَرْتَفِعُ التَّشْبِيهِ. (٤) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَمِنْ: مَا. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْ: (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: جِنٌّ وَلَا. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْ: (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْ: (٩) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْ: (١٠) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ: عَنْهَا. (١١) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.



سورة المزمل

[وهي مكية^(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّزِيقُ﴾ فالمزمل والمُذْتَرُّ يقتضيان معنى واحداً على ما يُذكرُ في سورة المُذْتَرِّ.

الآيات ٢ - ٤

قوله تعالى: ﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿يَضَعُهُ أَوْ أَقْصَ بَيْنَهُ قَلِيلًا﴾ ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ جائز أن يكون هذا الأمرُ كله مُنْصَرِفاً إلى وقت واحد. فإذا صرَفْتَ إلى وقت واحد: فإما أن يكون قوله ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿يَضَعُهُ أَوْ أَقْصَ بَيْنَهُ قَلِيلًا﴾ ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ مُنْصَرِفاً إلى قوله ﴿قُرْ أَلَيْلَ﴾ وإما^(٢) إلى قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

فإن صرَفْتَ النقصانَ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زدت في الأمر بالقيام.

وإن صرَفْتَ النقصانَ إلى قوله: ﴿قُرْ أَلَيْلَ﴾ فقد زدت في قوله: ﴿يَضَعُهُ أَوْ أَقْصَ بَيْنَهُ قَلِيلًا﴾ فإلى أيهما صرَفْتَ اقتضى الزيادة في أحدهما والنقصان في الآخر، فيُتَّفَقُ مَعْنَاهُما.

وهذا نظيرُ قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُنَبِّئُكُمْ فِي الْكَلْبَلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦].

فمنهم من جعلَ الكَلالةَ اسماً للميت الموروث عنه، ومنهم من أوقع هذا الاسمَ على الحي الذي يرث الميت، وأيهما كان فهو يقتضي معنى واحداً لأن منزلةَ الحي من مورثه ومنزلةَ الموروث من الحي واحدة، لا تختلف.

وجائز أن يكون هذا على اختلافِ الأوقات على ما ذكره أهلُ التفسير، فيكون قوله: ﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أمراً بإحياء أكثر الليالي، ثم يكون في قوله: ﴿أَوْ أَقْصَ بَيْنَهُ قَلِيلًا﴾ تخفيفُ الأمرِ عليه، فيكون فيه أن له أن ينقص عن الأكثر.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي على المقدار الذي أبيح له في النقصان^(٣). وإذا ارتفع النقص عاد الأمر إلى ما كان مأموراً به^(٤) في الإيتداء.

ثم القليل ليس باسمٍ لأغني الأشياء، ولكنه من الأسماءِ المُضافة. فإذا قيل^(٥): قليلٌ اقتضى ذكره تثبيت ما هو أكثر منه حتى [يصير]^(٦) هذا قليلاً إذا قُوبِلَ بما [هو]^(٨) أكثر منه. فلذلك قالوا بأنَّ قوله: ﴿قُرْ أَلَيْلَ﴾ يقتضي أمر القيام أكثر الليل.

ولهذا قال أصحابنا في مَنْ أقرَّ أن لفلانٍ عليه ألف درهمٍ إلّا قليلاً: إنه يلزمه أكثر من نصفِ ألفٍ لأنه استثنى القليل، فلا بُدَّ من أن يكون المُستثنى منه أكثر من المُستثنى حتى يكون المُستثنى قليلاً ممّا^(٩) استثنى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ فالترتيل هو التبيين في اللغة، أي بيّنه تبيناً. وقيل: اقراه حرفاً حرفاً على التقطيع لما ذكر أن رسول الله ﷺ كان يقطع القراءة.

ولكن جائز أن يكون قرأه على التقطيع لأنَّ التبيين كان في تقطيعه، وإنما أمر بالتبيين لأنَّ القرآن لم ينزل لتجود قراءته فقط، لكنه لِمَعَانٍ ثلاثة.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في م: أو. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: الانتقاض. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

(٦) ساقطة من م. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل

وم: كما.

أَحْلَاهَا: أَنْ يُقْرَأَ لِلْحَفِظِ وَالْبَقَاءِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لئَلَّا يَذْهَبَ، وَلَا يَنْسَى.

والثاني: أَنْ يُقْرَأَ لِتَذَكُّرِ مَا فِيهِ وَفَهْمِ مَا أُودِعَ مِنَ الْأَحْكَامِ وَمَا لِلَّهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقِّ وَمَا لِيَعْزِيهِمْ عَلَى بَعْضٍ.

والثالث: أَنْ يُقْرَأَ لِيُعْمَلَ بِمَا فِيهِ، وَيَتَعَبَّ [المرء بِمَوَاعِظِهِ، وَيَجْعَلَهُ الْمُسْلِمُونَ] ^(١) إِمَامًا يَتَّبِعُونَ أَمْرَهُ، وَيَتَّبِعُونَ عَمَّا نَهَى عَنْهُ.

فَتَنْفِذُ قِرَائَتِهِ فِي الصَّلَاةِ يُلْزِمُنَا هَذَا كُلَّهُ. وَلَا يُدْرِكُ ذَلِكَ إِلَّا بِالتَّأَمُّلِ؛ وَذَلِكَ عِنْدَ قِرَائَتِهِ عَلَى التَّرْتِيلِ.

وهذا الذي ذَكَرْنَاهُ يُوجِبُ اخْتِيَارَ مَنْ يَرَى الْوُقُوفَ فِي الْقُرْآنِ، لِأَنَّ ذَلِكَ أَذَلُّ عَلَى الْمَعْنَى وَأَقْرَبُ إِلَى الْأَفْهَامِ.

وفيه دلالة أَنَّ الْمُسْتَحَبَّ فِيهِ: تَرْكُ الْإِدْغَامِ وَتَرْكُ الْهَمْزِ الْفَاحِشِ، لِأَنَّ ذَلِكَ أَتْلَغُ فِي التَّيْسِينِ.

وَالْأَصْلُ أَنَّ [سَامِعَ الْقُرْآنِ] ^(٢) مَأْمُورٌ بِالِاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ، وَإِذَا لَزِمَهُ الْإِسْتِمَاعُ، وَفِي الْإِسْتِمَاعِ الْوُقُوفُ عَلَى حُسْنِ نَظْمِهِ

وَعَجِيبِ جُحْمِهِ وَالْوُقُوفُ عَلَى مَعَانِيهِ، لَزِمَ الْقَارِئُ تَبَيُّنَهُ لِيَصِلَ السَّمْعُ إِلَى مَعْرِفَةِ مَعَانِيهِ، وَيَقِفَ عَلَى حُسْنِ نَظْمِهِ وَعَجِيبِ تَأْلِيفِهِ؛ وَذَلِكَ يَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى أَفْهَامِ السَّمْعِ وَالْقَارِئِ لِمَا فِيهِ مِنْ لَطَائِفِ الْمَعَانِي.

ثُمَّ التَّرْتِيلُ مُنْصَرِفٌ إِلَى الْقِرَاءَةِ قُرْآنًا عَلَى جِهَةِ الْمَصْدَرِ أَنَّ مَا هُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُوصَفُ بِالتَّرْتِيلِ، وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ.

الآية ٥

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَأَلْنَاكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ولم يَقُلْ عَلَى مَنْ؟ فجائز أَنْ يَكُونَ الثَّقِيلُ رَاجِعًا إِلَى الْكُفْرَةِ، وَيَكُونَ الثَّقِيلُ الْأَمْرَ بِالْجِهَادِ لِأَنَّهُ اشْتَدَّ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا، وَأَيْسَرَ الْكُفْرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَعُودُوا إِلَى مِلَّتِهِمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ نَبِّئُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: ٣] وَتَحَلَّفَ الْمُنَافِقُونَ ^(٣) عَنِ الْقِتَالِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فجائز أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿ثَقِيلًا﴾ عَلَى الْكُفْرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَكَذَا عَلَى أَهْلِ الْكِبَائِرِ ثَقِيلٌ أَيْضًا لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَمَنَّا أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ.

وَأَمَّا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ ثَقِيلًا ^(٤)، بَلْ هُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

وجائز أَنْ يُضَرَفَ ذَلِكَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ لِأَنَّهُ أَمَرَ بِتَبْلِغِ الرِّسَالَةِ إِلَى الْفَرَاغَةِ وَالْخَلْقِ كَافَةً، وَفِي الْقِيَامِ بِالتَّبْلِغِ إِلَى الْفَرَاغَةِ مَخَاطَرَةٌ بِالرُّوحِ وَالْجَسَدِ؛ أَمْرٌ ثَقِيلٌ صَغْبٌ جَدًّا، أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ مُنْصَرِفًا إِلَى قِيَامِ اللَّيْلِ، فَيَكُونُ مَعْنَى ^(٥) ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أَيْ الْوَفَاءَ بِمَا يَوْجِبُهُ ذَلِكَ الْقَوْلُ.

وجائز أَنْ يَكُونَ مُنْصَرِفًا إِلَى أَتْبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَنْصَارِهِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿ثَقِيلًا﴾ مِنَ الرُّجُوعِ الَّذِي كُلُّفُوا الْقِيَامَ بِفَرَائِضِهِ وَحَفِظَ جُدُودِهِ وَتَحْلِيلَ حَلَالِهِ وَاجْتِنَابَ حَرَامِهِ.

وَرَعَمَتْ/ ٦٠٥ - ب/ الْبَاطِنِيَّةُ بِأَنَّ الْقَوْلَ الثَّقِيلَ هُوَ أَنْ كُلَّتِ النَّاطِقُ ^(٦)، وَهُوَ الرَّسُولُ ﷺ تَقْوِضُ الْأَمْرِ إِلَى الْأَسَاسِ، وَهُوَ الْبَابُ، وَكَذَلِكَ الْأَسَاسُ، وَالْبَابُ هُوَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ عِنْدَهُمْ، وَهُمْ يُسَمُّونَ الرَّسُلَ ^(٧) ﷺ تَقْلَقًا، وَيَقُولُونَ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ مَأْمُورًا بِتَبْلِغِ التَّنْزِيلِ إِلَى الْخَلْقِ.

فَلَمَّا بَلَغَ التَّنْزِيلَ إِلَيْهِمْ، وَاسْتَفْتَنُوا عَنْهُ، اخْتَجَوْا إِلَى مَنْ يُعَلِّمُهُمُ التَّأْوِيلَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَنْ يُسَيِّدَ أَمْرَ التَّأْوِيلِ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ لِيَكُونَ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى تَعْلِيمَ الْخَلْقِ تَأْوِيلَهُ، فَذَلِكَ ^(٨) هُوَ الْقَوْلُ الثَّقِيلُ إِذَا أَمَرَ أَنْ يُسَيِّدَ إِلَى غَيْرِهِ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ إِذْ صَارَ غَيْرُهُ وَلِيُّ الْأَمْرِ، وَبَقِيَ هُوَ سَاكِنًا لَا يَنْطِقُ.

فَيَقَالُ لَهُمْ: إِنَّ فِي الْأَمْرِ بِإِسْنَادِ الْأَمْرِ إِلَى مَنْ ذَكَرْتُمْ تَخْفِيفَ الْأَمْرِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بِزَعْمِكُمْ، لِأَنَّ مِنْ مَذْهَبِكُمْ أَنَّهُ إِذَا قُوِّضَ الْأَمْرُ إِلَى عَلِيٍّ ﷺ قَبِضَ هُوَ ﷺ وَصُورَةُ الْقَبْضِ عِنْدَكُمْ أَنَّ تُمَيَّزَ الصُّورَةُ الرُّوحَانِيَّةُ مِنَ الصُّورَةِ الْجَسَدَانِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مُخْتَبَسَةً فِي الصُّورَةِ الْجَسَدَانِيَّةِ، ثُمَّ تُتَلَفُ الصُّورَةُ الْجَسَدَانِيَّةُ، وَتُبَعَثُ الصُّورَةُ الرُّوحَانِيَّةُ الثَّوَرَانِيَّةُ إِلَى دَارِ الْكَرَامَةِ وَالْحُبُورِ. وَالْخُلَاصُ ^(٩) مِنَ الْحَبْسِ لَمْ يَشْتَدَّ ^(١٠) عَلَيْهِ، وَلَمْ يَثْقُلْ، بَلْ كَانَ فِيهِ مَا يُرَغِّبُهُ إِلَى التَّقْوِضِ، وَيَذْعُوهُ إِلَيْهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ بِمَوَاعِظِهِ وَيَجْعَلُونَهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: السَّمْعُ فِي الْقُرْآنِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمُنَافِقِينَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: ثَقِيلٌ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مَعْنَاهُ. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْبَاطِنُ. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الرَّسُولُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَكَذَلِكَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْإِخْلَاصُ. (١٠) أُدْرِجَ بَعْدَهُ فِي الْأَصْلِ وَم: ذَلِكَ.

وَمِنْ مَذْهَبِ الْبَاطِنِيَّةِ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَحَدًا مَذْهَبُهُمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُحْلَفُوهُ بِالْإِيمَانِ الْغَلِيظَةِ، بِالْأَلَّا يُخْبِرَ بِهِ أَحَدًا إِشْفَاقًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

ولو كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا قَدَّرُوا أَنْ التَّلَفْتُ يُرَدُّ إِلَى الصُّورَةِ الْجَسَدَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ سَبَبٌ لِحَبْسِ الصُّورَةِ الرُّوحَانِيَّةِ، وَإِذَا تَلَفَتْ رُذِّتِ الرُّوحَانِيَّةُ إِلَى دَارٍ فِيهَا كُلُّ أَنْوَاعِ الشُّرُورِ. فَمَا الَّذِي يُخَوِّجُهُمْ إِلَى الْإِسْتِخْلَافِ؟ وَمَا بِالْهَمِّ يُشْفِقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَيْسَ فِي إِتْلَافِ أَنْفُسِهِمْ إِلَّا الْخَلَاصُ مِنَ الْحَبْسِ وَالْوَصُولُ إِلَى الْكَرَامَاتِ. وَمَنْ هَذَا وَصَفُهُ حَقٌّ عَلَيْهِ الْمَوْتُ لِيَعْلَمَ أَنَّهُمْ يُعَايِلُونَ الْخَلْقَ عَلَى خِلَافِ مَا يُوجِبُهُ اغْتِقَادُهُمْ. وَلَوْ كَانَ مَا اغْتَقَدُوهُ حَقًّا لَمَا اسْتَجَازُوا مُخَالَفَتَهُ.

وَلَكِنَّ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَى مَا ذَكَرْنَا تَسْوِيلُ الشَّيْطَانِ وَتَزْيِينُهُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَمَا مَثَلُهُمْ إِلَّا مَثَلُ الْيَهُودِ الَّذِينَ ادَّعَوْا أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهُمْ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ، فَقِيلَ لَهُمْ: ﴿فَتَمَتَّنُوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ مَكِيدِينَ﴾ [البقرة: ٩٤] لَأَنكُمْ لَا تَصِلُونَ إِلَى الْآخِرَةِ إِلَّا بِالْمَوْتِ. فَإِنْ كُنْتُمْ مُحَقِّقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ فَتَمَتَّنُوا الْمَوْتَ لِيَصِلُوا إِلَيْهَا.

فَكَانَ فِي امْتِنَاعِهِمْ عَنِ التَّسْمِي مَا يُظْهَرُ كَذِبُهُمْ، وَيُبْطِلُ مَقَالَتَهُمْ، وَيُبَيِّنُ تَمْوِيهِمْ. فَكَذَلِكَ فِي إِشْفَاقِ هَؤُلَاءِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ إِظْهَارٌ وَإِنْبَاءٌ أَنَّهُمْ قَصَدُوا بِهِ قَصْدَ التَّمْوِيهِ عَلَى الضَّعْفَةِ لِيَصِلُوا إِلَى الْمَاكِلَةِ، وَيَتَوَسَّعُوا^(١) بِهِ فِي أَمْرِ دُنْيَاهُمْ^(٢) مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ لَهُمْ فِي ذَلِكَ.

وَبِهَذَا الْفَضْلِ الَّذِي ذَكَرْنَا يُخْتَلَجُ عَلَى التَّنَوُّيَةِ؛ فَلَيْسَ^(٣) مِنْ مَذْهَبِهِمْ تَحْرِيمُ الْقَتْلِ وَالذَّبْحِ [وَالْحَقُّ أَنَّ^(٤) يَرَى الْقَتْلُ وَالذَّبْحُ مُبَاحَيْنِ، لِأَنَّ مِنْ مَذْهَبِهِمْ أَنَّ الْعَالَمَ إِنَّمَا هُوَ بِأَوْضَاحِ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ، فَمَا مِنْ جُزْءٍ مِنَ أَجْزَاءِ النُّورِ إِلَّا وَهُوَ مَشُوبٌ بِجُزْءٍ وَاحِدٍ مِنَ أَجْزَاءِ الظُّلْمَةِ، وَكَانَا مُتَبَايِنَيْنِ، فَتَلَبَّثَتِ الظُّلْمَةُ عَلَى النُّورِ، فَامْتَزَجَتْ بِهِ، فَصَارَتِ الظُّلْمَةُ مُلَاسَةً لِلنُّورِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ فِي الْقَتْلِ تَخْلِيصَ أَجْزَاءِ [النُّورِ مِنْ أَجْزَاءِ الظُّلْمَةِ]^(٥)، لِأَنَّ فِي الْقَتْلِ إِزَالَةَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعَقْلِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ السَّمْعَ^(٦) وَالْبَصَرَ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، إِذْ بِهَا رُؤْيَا الْأَنْوَارِ. فَإِذَا امْتَاثَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ مِنَ الْجَسَدِ، وَأَبْقِيَ الْجَسَدَ الظُّلْمَاتِيَّ، لَا يُبْصِرُ شَيْئًا، فَقَدْ يَتَوَصَّلُ جَوْهَرُ النُّورِ إِلَى جَرِصِهِ وَمَقْصُودِهِ بِالْقَتْلِ، وَصَارَ إِلَى مَقْرُوءٍ.

فَإِذَا كَانَ الْقَتْلُ يُوَصِّلُهُ إِلَى جَرِصِهِ، وَيُخَلِّصُهُ مِنْ وَثَاقِ الظُّلْمَةِ وَحَبْسِهِ، فَقَدْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ بِالْقَتْلِ وَالذَّبْحِ، فَلَا يَجِبُ أَنْ يُحَرَّمَ الْقَتْلُ عَلَى مَذْهَبِهِمْ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يُمدَّحَ الْمَرْءُ عَلَى ذَلِكَ الْفِعْلِ، وَيُسْتَضَوَّبَ ذَلِكَ مِنْهُ.

وَقَالَ الْقُسَيْبِيُّ: الْقَوْلُ الثَّقِيلُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَثِقَلُهُ هُوَ تَبْجِيلُهُ وَتَعْظِيمُ حُرْمَتِهِ، لَيْسَ كَكَلَامِ^(٧) السُّفَهَاءِ الَّذِي^(٨) لَا يُكْتَرَثُ لَهُ، وَلَا يُؤَيَّزُ بِهِ.

وَقَالَ الرَّجَاجُ: الثَّقِيلُ الْوَزِينُ، أَيِ الَّذِي لَهُ وَزْنٌ وَقَدَرٌ فِي الْقُلُوبِ، الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْظَمَ، وَيُوقَّرَ، وَلَيْسَ بِالْقَوْلِ الَّذِي يُسْتَضَغَرُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْقَوْلُ الثَّقِيلُ، هُوَ الْحَقُّ عَلَى مَا رُوِيَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ «أَنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مُرٌّ، وَالْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَفَرٌّ» [طَرَفُهُ الْأَوَّلُ فِي كَشْفِ الْخُفَاءِ لِلْعَجَلُونِ ١١٥٣ وَفِي تَارِيخِ ابْنِ عَسَاكِرَ ١٣٨/٥].

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: حَقٌّ لِمِيزَانٍ، لَا يُوضَعُ فِيهِ إِلَّا الْخَيْرُ، أَنْ يَثْقُلَ، وَحَقٌّ لِمِيزَانٍ، لَا يُوزَنُ [بِهِ]^(٩) إِلَّا الْبَاطِلُ، أَنْ يَخِفَّ، فَيَكُونَ ثِقَلُهُ الْعَمَلُ بِمَا فِيهِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْقَوْلُ الثَّقِيلُ، هُوَ تَكْلِيفُ الْقِيَامِ عَامَّةَ اللَّيْلِ.

(١) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، فِي الْأَصْلِ وَم: وَهْمٌ سَعَا. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: دُنْيَاهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَإِنَّ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَحَقٌّ. (٥) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، فِي الْأَصْلِ وَم: النُّورَانِي مِنْ حَبْسِ الظُّلُمَاتِ. (٦) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، فِي الْأَصْلِ وَم: النُّورِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: كَلَامِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّذِينَ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿إِنْ نَشِئْتَ اللَّيْلَ مِنْ أَشَدُّ وَظًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ قرئ: وطاء، و: وظًا^(١).

فَمَنْ قَرَأَ: وطاء بالمد، فتأويله مِنَ المَواطَاةِ، وهي المَوافقةُ أي مُوافقةُ السَّنعِ والبَصَرِ والفُؤادِ، لأنَّ القَلْبَ يكونُ أَفْرَعًا بالليالي مِنَ الأشغالِ التي تُحوِّلُ المرءَ عَنِ الوصولِ إلى حَقِيقَةِ ذَلكَ مَعاني الأشياءِ، وكذلك السَّنعُ والبَصَرُ يكونانِ^(٢) أَخْفَظًا للقرآنِ وَأَشَدُّ اسْتِدْرَاكًا لِمَعانيه.

وَمَنْ قَرَأَ: وظًا، وهو مِنَ الوَظْءِ بالأقدام، فتأويله: أَنَّهُ أَشَدُّ عَلَى البَدَنِ وَأَضْعَبُ لَأَنَّ المَرءَ قَدْ اغْتَادَ التَّغْلُبَ والِإِنْتِشَارَ فِي الأَرْضِ بالنهارِ، وَلَمْ يَتَعَذَّ ذَلكَ بالليلِ، بَلْ اغْتَادَ الرَّاحَةَ فِيهِ، فَإِذَا^(٣) كُتِفَ القِيَامُ والِإِنْتِصَابُ بِرَجْلَيْهِ فِي الوَقْتِ الَّذِي لَمْ يَتَعَذَّ فِيهِ القِيَامُ كَانَ ذَلكَ أَشَدُّ عَلَيْهِ وَأَضْعَبُ عَلَى بَدَنِهِ. وَلَأَنَّ المَرءَ بالنهارِ، لَيْسَ يَنْتَصِبُ قَائِمًا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، فَيَمُكُّ فِيهِ، بَلْ^(٤) يَنْتَقِلُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ [ولو]^(٥) كُتِفَ الإِنْتِصَابُ فِي مَكَانٍ [واحدٍ]^(٦) أَشَدُّ عَلَيْهِ [ذَلكَ]^(٧) وَلِحَقِّهِ الكَلَالُ والعَنَاءُ مِنْهُ^(٨).

ثم أَمَرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَنْتَصِبَ قَائِمًا، يُصَلِّيَ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ أَوْ أَكْثَرَ، فَكَانَ فِي ذَلكَ مِخْنَةٌ شَدِيدَةٌ وَكُلْفَةٌ شَاقَّةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثم الأَصْلُ أَنَّ المَرءَ يَسِيرُ بالنهارِ يَطْلُبُ^(٩) مَا يَتَعَيَّشُ [بِهِ]^(١٠) وَيَصِلُ إِلَى مَا يَتَمَتَّعُ [بِهِ]^(١١) فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ، وَيَتَنَامُ اللَّيْلَ طَلِبًا لِلرَّاحَةِ وَإِثَارًا لِلتَّخْفِيفِ.

وكانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ مَمْنُوعًا عَنِ اكْتِسَابِ الأشياءِ التي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى سَعَةِ الدُّنْيَا إِلَّا القَدَرُ [الَّذِي]^(١٢) يَقِيمُ بِهِ مُهْجَتَهُ، وَكَذَلكَ مُنِعَ عَنِ الرَّاحَةِ بالليالي، وَأَمَرَ بِأَحْيَاءِ اللَّيْلِ إِلَّا القَدَرُ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَجائِزٌ أَنْ يَكُونَ فِي الأَمْرِ بَقِيَامِ اللَّيْلِ نَوْعٌ مِنَ الرَّاحَةِ والتَّخْفِيفِ؛ وَذَلكَ أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ أُلْزِمَ بِتَبْلِغِ الرِّسَالَةِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، فَحَمَلَ تَبْلِغَهَا إِلَيْهِمْ بالنهارِ، وَرَفَعَتْ عَنْهُ الكُلْفَةُ بالليلِ، وَأَمَرَ بِأَنْ يَتَفَرَّغَ لِعِبَادَةِ رَبِّهِ.

وكانَ الأَمْرُ بالتَّفَرُّغِ للعبادةِ أَيْسَرَ مِنَ الأَمْرِ بِتَبْلِغِ الرِّسَالَةِ لَأَنَّ فِي الأَمْرِ بِالتَّبْلِغِ أَمْرًا بِمَا فِيهِ المَخَاطَرَةُ بالروحِ والجَسَدِ، وَلَيْسَ فِي الأَمْرِ بِالِإِنْتِصَابِ قَائِمًا أَكْثَرَ اللَّيْلِ كَذَلكَ، وَإِنَّمَا فِيهِ إِصْصَالُ الوَجْعِ إِلَى بَعْضِ أَعْضَائِهِ، فَيَكُونُ فِيهِ بَعْضُ التَّخْفِيفِ.

فإن قيل: /٦٠٦- أ/ على التَّأْوِيلِ الأوَّلِ: كَيْفَ خُصَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَابِ النِّكَاحِ حَيْثُ أُبَيِّحَ لَهُ فَضْلُ العَدَدِ، وَلَمْ يُبَيِّحْ لِأَمَّتِهِ، وَفِي ذَلكَ تَمَتُّعٌ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا؟

وَجوابُهُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ المَعْنَى الَّذِي بِهِ حُظِرَ عَلَى غَيْرِهِ الزِّيَادَةُ عَلَى الأَرْبَعِ، وَقُصِرَ الأَمْرُ عَلَى الأَرْبَعِ هُوَ خَوْفُ الجَوْرِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ ﷺ: ﴿فَالنَّكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثَلُ ذَلكَ وَرَبِّعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَمْلِكُوا فَوَاحِدَةً﴾؟ [النساء: ٣].

وَإِذَا كَانَ التَّحْرِيمُ لِلزَّوْجِ الَّذِي ذَكَرْنَا ارْتَفَعَ الحُظْرُ عَنْ رسولِ اللَّهِ ﷺ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَصَمَهُ عَنِ الجَوْرِ، وَمَكَّنَهُ مِنَ العَدْلِ بَيْنَ نَسَائِهِ.

ثم لَيْسَ فِي إِباحَةِ زِيَادَةِ العَدَدِ سِوَى فَضْلٍ وَمِخْنَةٍ وَكُلْفَةٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَأَنَّهُ إِذَا أَمَرَ أَنْ يَقُومَ فِي مَا بَيْنَهُنَّ بِالْعَدْلِ وَأَنْ يَتَنَفَّيَ مَرْضَاتَهُنَّ بِحُسْنِ العِشْرَةِ مَعَهُنَّ، وَإِنَّمَا يَصِلُ المَرءُ إِلَى الإِرْضَاءِ بالأموالِ، وَلَمْ يَتَمَتَّعْ هُوَ مِنَ الدُّنْيَا بِمِقْدَارٍ مَا يَصِلُ إِلَى إِرْضائِهِنَّ بالأموالِ، لَمْ يَتَهَيَّأْ لَهُ أَنْ يُرْضِيَهُنَّ إِلَّا بِسَعَةِ الأخلاقِ، وَإِنْ بَيَّنَّ لَهُنَّ [ذَلكَ]^(١٣) إِلَّا لِنَقَرِ أَعْيُنَهُنَّ، وَلَا يَخْزَنَ.

فَبَيَّنَّ أَنَّهُ لَيْسَ فِي إِباحَةِ العَدَدِ فَضْلٌ تَمَتُّعٌ، بَلْ فِيهِ زِيَادَةٌ وَمِخْنَةٌ وَإِثْلَاءٌ.

وفيه أَيْضًا مَا يُحَقِّقُ رِسالَتَهُ، وَيُثَبِّتُ ثُبُوتَهُ، لَأَنَّ المَرءَ إِنَّمَا يَصِلُ إِلَى تَوْفِيرِ الحَقُوقِ الواجِبَةِ عَلَيْهِ بِالنِّكَاحِ إِذَا تَنَازَلَ مِنَ قُصُولِ الدُّنْيَا، وَطَعِمَ لَذَاتِهَا، وَأَغْطَى النَفْسَ شَهَوَاتِهَا.

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٢٥٢. (٢) في الأصل وم: يكون. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: كذلك. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: من ذلك. (٩) في الأصل وم: من ذلك. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

ثم رسول الله ﷺ كَانَ مَنُوعاً مِّنْ إعطاءِ النفسِ شهواتِها، ومع ذلك قام بإيفاءِ حقوقِ الزوجاتِ^(١)، فثبت أنه باللفظِ مِن الله تعالى وَصَلَ إلى إيفاءِ حقوقهنَّ، ليس بالأسبابِ^(٢) البشرية.

وفي هذه الآية دلالةٌ أَنَّ الصلاةَ تُشتمِلُ على الذِّكْرِ والفعلِ جميعاً لأنه قال تعالى: ﴿أَشْذُكْ عَلَى الْبَدَنِ، وَالشَّدَّةُ^(٣) تَكُونُ بالفعلِ، وقال: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ وذلك يَرْجِعُ إلى الذِّكْرِ.

ثم يجوز أن يكونَ رسولُ الله ﷺ لم يُكَلِّفْ تَبْلِيغَ الرسالةِ بالليلِ لأنَّ أعداءَهُ مِنَ الْفِرَاعَةِ، كَانَتْ هَمَّتُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوهُ، [أو يَمْكُرُوا بِهِ]^(٤). ولم يكن يَهَيِّئُ لَهُمْ إِيصَالَ الْأَذَى بِهِ لِمَكَانِ اتِّبَاعِهِ، والليلِ، هي أوقاتُ غفلةِ الاتِّباعِ. [فلو]^(٥) كُفِّفَ التَّبْلِيغُ فِيهَا لَتَمَكَّنُوا مِنْ إِيصَالِ الْمَكْرِ بِهِ، فَوُضِعَ عَنْهُ التَّبْلِيغُ، وامْتَحِنَ بِالْقِيَامِ لِعِبَادَةِ رَبِّهِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ أي ساعةَ الليلِ؛ وقيل: هو مِنْ نَشَأٍ يَنْشَأُ، أي نما، قُسِمَتِ نَاشِئَةُ، لِأَنَّ الْأَوَاقَاتِ تَخْدُثُ، وَتَتَرَادَفُ.

وجائزٌ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ نَاشِئَةِ اللَّيْلِ أَي مَا يَوْجَدُ مِنَ الْأَحْوَالِ فِي اللَّيْلِ مِنَ الْقِيَامِ لِلصَّلَاةِ وَالِاسْتِغْنَالِ بِعِبَادَةِ الرَّبِّ، جُلَّ جَلَالُهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أي أَصَوَّبُ كَلاماً، وَالْأَقْوَمُ، هُوَ الْمُبَالَغَةُ فِي الْوَصْفِ مِمَّا أُريدَ بِالْقِيَامِ. فَإِنْ أُريدَ بِهِ الْكَلَامُ، فَحَقُّهُ أَنْ يُصَرَّفَ^(٦) إِلَى الصَّدَقِ؛ إِذِ الْأَقْوَمُ مِنَ الْأَخْبَارِ أَصْدَقُهَا، وَإِنْ أُريدَ بِهِ الْقِيَامُ بِإِفَاءٍ مَا يَقْتَضِيهِ ذَلِكَ الْكَلَامُ، فَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَقْوَمُ﴾ أَي أَبْلَغُ فِي وِفَاءٍ [مَا]^(٧) يُوجِبُهُ الْقَوْلُ. وَإِنْ أُريدَ بِهِ الْقِرَاءَةَ نَفْسُهَا، فَهُوَ بِاللَّيَالِي أَقْوَمُ قِرَاءَةً.

الآية ٧ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾ [قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَالزُّجَّاجُ: السَّبْعُ السَّعَةُ؛ كَانَهُ قَالَ: إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَعَةً طَوِيلَةً فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَالْقِيَامِ بِهِ، فَتَفَرَّغَ بِاللَّيَالِي لِعِبَادَةِ رَبِّكَ.

وقيل: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾ أي فَرَاغاً وَسَعَةً وَمُتَقَلِّباً^(٨) فَالسَّبْعُ يُذَكِّرُ، رِيَادُ بِهِ الْفِرَاعُ، وَيُذَكِّرُ، وَيُرَادُ بِهِ الْمَشْيُ وَالتَّقَلُّبُ.

وهذا الذي قالوه مُحْتَمَلٌ، وَلَكِنْ لَا يَجِيءُ أَنْ يُصَرَّفَ تَأْوِيلُ الْآيَةِ إِلَى الْفِرَاعِ وَالتَّقَلُّبِ إِلَى حَوَائِجِ نَفْسِهِ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَتَنَاوَلُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا [قَدَرٌ مَا يُقِيمُ بِهِ حَاجَتَهُ]^(٩) فَلَا يَخْتَاجُ إِلَى فَضْلِ تَقَلُّبٍ وَلَا إِلَى كَثِيرٍ فِرَاعٍ لِيَتَوَسَّعَ فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ، وَلَكِنْ حَقُّهُ أَنْ يَنْصَرِفَ بِقَلْبِهِ إِلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَدَعَاءِ الْخَلْقِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى [مَا]^(١٠) يَجُوقُ عَلَيْهِمْ، فَيَكُونُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾ تَرْخِيصٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَنْ يَنْتَصِبَ بِاللَّيْلِ^(١١) لِلْقِيَامِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَاجْتِرَاءِ مَنْهُ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ بِالنَّهَارِ.

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَنَّمِ رَبِّكَ﴾ أي اذْكُرْ رَبَّكَ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ عَلَى إِفْرِهِ ﴿وَيَنْتَلِ إِلَيْهِ تَبِيلاً﴾ [وَبِالْتَّبَتِيلِ يَنْقَطِعُ]^(١٢) إِلَيْهِ لَا إِلَى اسْمِهِ.

ثم ذَكَرَ الرَّبَّ، جُلَّ جَلَالُهُ، هُوَ أَنْ يَنْظُرَ [الْمَرْءُ]^(١٣) إِلَى أَحْوَالِ نَفْسِهِ [وَيَتَسَاءَلُ]^(١٤) مَا الَّذِي يَلْزِمُهُ مِنَ الْعِبَادَةِ فِي تِلْكَ الْحَالِ، فَيَكُونُ ذِكْرُ رَبِّهِ بِإِقَامَةِ تِلْكَ الْعِبَادَةِ لَا بِأَنْ يَذْكُرَ اللَّهُ تَعَالَى بِلِسَانِهِ فَقَطْ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] وَاسْتَغْفَرُوا أَنْ يَأْتِمِرُوا بِمَا أَمَرُوا، وَيَنْتَهُوا عَمَّا نَهَوْا، لَا أَنْ يَقُولُوا بِالسِّنِّتِ: نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، لِأَنَّهُمْ وَإِنْ قَالُوا: نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، لَمْ يَقْبَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ إِذَا كَانُوا كَفَرَةً. فَثَبَّتَ أَنَّ اسْتَغْفَرُوا أَنْ يُجِيبُوا إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ نُوْحٌ.

فَلِذَلِكَ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى يَفْعُ بِوَفَاءٍ مَا تَلَزِمُهُمْ حَالُ الْقِيَامِ بِهِ، وَذَلِكَ يَكُونُ بِالْأَفْعَالِ مَرَّةً وَبِالْأَقْوَالِ ثَانِيًا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْأَزْوَاجِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: بِأَسْبَابِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَشِدَّتِهِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَمْكُرُوا. (٥) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَصْرِفُهُ. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٩) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ وَم: مَا قَدَرُ مَا يُقِيمُ بِهِ بَهْمَةٍ. (١٠) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِاللَّيَالِي. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: التَّبَتِيلُ يَقَعُ. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: قَامَرُ.

ومنهم مَنْ صَرَفَ الأمرَ إلى الإِسْمِ على ما يُؤَدِّيهِ ظاهرُ اللفظِ [إذْ أَمَرَ^(١)] بِذِكْرِ اسمِ الرَّبِّ لِمَا يَخْصُلُ لَهُ مِنَ الفوائدِ بِذِكْرِهَا؛ لأنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ أَسْمَاءَ تَرْغَبُهُ فِي اكْتِسَابِ الْخَيْرَاتِ وَالْإِقْبَالِ [على عِبَادَةِ الرَّبِّ^(٢)] ومنها ما يَدْعُو الذَّاكِرَ إِلَى الْخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ، ومنها ما يوقِّعُهُ^(٣) على عَجَائِبِ حَكَمِهِ وَأُظْفَرِ تَدْبِيرِهِ وَتَقْرِيرِ سُلْطَانِهِ وَعَظَمِيَّتِهِ فِي قَلْبِهِ، ومنها ما يُخَدِّثُ لَهُ زِيَادَةَ عِلْمٍ بِصِيرَةٍ، وَهِيَ الْأَسْمَاءُ الْمُشْتَقَّةُ مِنَ الْأَفْعَالِ، وَإِذَا تَأَمَّلَ فِيهَا عَرَفَ الْوَجْهَ الَّذِي مِنْهُ اشْتَقَّتْ تِلْكَ الْأَسْمَاءُ، فَذَكَرُ أَسْمَائِهِ يُخَدِّثُ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْعُلُومِ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ فَالتَّبْتِيلُ، هُوَ الْإِنْقِطَاعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْ يَقْطَعَ نَفْسُهُ عَنْ شَهَوَاتِهَا، وَيَضْرِبَهَا عَنْ لَذَائِهَا؛ فَكَأَنَّهُ قَالَ: وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ، وَتَبَتَّلْ نَفْسَكَ تَبْتِيلًا مِنَ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ. وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ مَرْيَمُ عليها السلام الْبَتُولَ، لِأَنَّهَا قَطَعَتْ نَفْسَهَا عَنْ مَنَافِعِ الدُّنْيَا، وَأَقْبَلَتْ إِلَى الْآخِرَةِ، وَانْقَطَعَتْ إِلَيْهِ.

الآية ٩

وقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ الْشَّرِيقُ وَالْقَرِيبُ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: تَأْوِيلُهُ: مَلِكُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ؛ فَحَقُّهُ أَنْ يُقَالَ: مَالِكُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، لِأَنَّهُ هُوَ الْمَالِكُ عَلَى التَّحْقِيقِ^(٤).

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الرَّبُّ، هُوَ الْمُضْلِحُ، ثُمَّ خَصَّ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ بِالذِّكْرِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ مَالِكَهُمَا وَمَالِكُ الْخَلَائِقِ أَجْمَعٍ، لِأَنَّ ذِكْرَ الْمَشْرِقِ يَقْضِي ذِكْرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَيْنِ [وَفِي ذِكْرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَيْنِ^(٥)] ذِكْرُ أَعْلَى الْعِلِّيَّينِ وَأَسْفَلِ السَّافِلِينَ، لِأَنَّهُ إِذَا نَظَرَ إِلَى الْمَشْرِقِ وَرَأَى مَا تَطْلُعُ فِي الْمَشْرِقِ مِنْ عَيْنِ الشَّمْسِ، ثُمَّ تَجْرِي فِي أَقْطَارِ السَّمَاءِ، وَتَقْطَعُ كُلَّ يَوْمٍ مَسِيرَةَ أَلْفِ عَامٍ، ثُمَّ ﴿تَقَرَّبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦] فَتَصِيرُ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، وَتَجْرِي كَذَلِكَ حَتَّى تَصِلَ إِلَى مَطْلَعِهَا، ثُمَّ تَطْلُعُ مِنْ أَمَّاكَ.

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مُدَبِّرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَيْنِ وَمُنْشِئَهُمَا وَاحِدٌ، وَأَنَّ سُلْطَانَهُ فِي الْأَرْضِ كَسُلْطَانِهِ فِي السَّمَاءِ. وَيَعْلَمُ أَنَّ مَنْ بَلَغَتْ قُدْرَتُهُ هَذَا الْمَبْلَغَ فِي أَنْ يُسَيِّرَ عَيْنَ الشَّمْسِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مَسِيرَةَ أَلْفِ عَامٍ مَا يَشْتَدُّ عَلَى الْخَلْقِ قَطْعُ هَذِهِ الْمَسَافَةِ فِي مُدَدٍ كَثِيرَةٍ، لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْجِزَهُ شَيْءٌ.

وَدَلَّ [ذَلِكَ أَيْضًا]^(٦) عَلَى أَنَّ مُلْكَهُ دَائِمٌ، لَا يَنْقَطِعُ، لِأَنَّ عَيْنَ الشَّمْسِ تَجْرِي فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَى مَا سُحِرَتْ، لَا تَتَبَدَّلُ، وَلَا تَتَغَيَّرُ، بِإِخْتِلَافِ الْأَزْمَنَةِ وَالْأَوْقَاتِ، وَجَعَلَ مَنَافِعَ أَهْلِ الْأَرْضِ مُتَّصِلَةً بِمَنَافِعِ السَّمَاءِ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مُدَبِّرَهُمَا وَاحِدًا لَارْتَفَعَ الْإِتِّصَالُ، وَانْقَطَعَتْ مَنَافِعُ السَّمَاءِ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ.

فَكَانَ فِي ذِكْرِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ دَلَالَةٌ / ٦٠٦ - ب/ وَحِدَانِيَّتِهِ تَعَالَى وَإِظْهَارُ قُوَّتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَالْوَقُوفُ عَلَى عَجَائِبِ حَكَمِهِ وَلَطَائِفِ تَدْبِيرِهِ.

ثُمَّ تَخْصِيصُ ذِكْرِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ دُونَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، هُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِأَنَّ هَذَا أَوْصَلَ إِلَى مَعْرِفَةِ التَّوْحِيدِ وَأَسْرَعَ إِلَى الْإِدْرَاكِ مِنْ ذِكْرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِنْ كَانَ فِي التَّدْبِيرِ فِي أَمْرِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ تَحْقِيقُ [ذَلِكَ]^(٧) وَفِي قَوْلِهِ **﴿رَبُّكَ لِلشَّرِّقِ وَالْقَرِيبِ﴾** أَيِ الَّذِي أَمَرْتُ بِذِكْرِهِ، هُوَ: **﴿رَبُّكَ لِلشَّرِّقِ وَالْقَرِيبِ﴾**.

وَفِيهِ تَعْرِيفُ الْوَجْهِ الَّذِي يَصِلُ إِلَى مَعْرِفَةِ رَبُّوبِيَّتِهِ.

[وقوله تعالى]^(٨): **﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾** أَيِ لَا مَعْبُودَ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ، لِأَنَّ الَّذِي يَخْمِلُ الْإِنْسَانَ عَلَى عِبَادَةِ الْمَعْبُودِ الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ. وَإِذَا عَرَفَهُمْ بِذِكْرِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ أَنَّ تَدْبِيرَ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا رَاجِعٌ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الْقَاهِرُ عَلَيْهِمْ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِمْ، وَبَيَدِهِ الْخَزَائِنُ وَالْمَنَافِعُ أَجْمَعُ، عَلِمُوا أَنَّهُ هُوَ الْإِلَهَ الْحَقُّ وَالرَّبُّ الْقَاهِرُ، وَأَنَّ مَنْ سِوَاهُ مَرْبُوبٌ مَقْهُورٌ، لَا يَمْلِكُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَكَيْفَ يَسْتَرْجِبُ الْعِبَادَةَ وَالْإِلَهِيَّةَ؟

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَأَمْرٌ. (٢) فِي الْأَصْلِ: عِبَادَةٌ، فِي م: عَلَى عِبَادَةٍ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَوْقِفُ. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْحَقِيقَةُ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: رَاجِعَةٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ فجائز أن يكون أراد أن كل أمورك، كلها إلى الله تعالى، حتى يكون هو الذي يُدبِّرُ، وَيَحْكُمُ، ولا ترى لنفسك فيها تدبيراً.

والوكيل في الشاهد، هو الذي يدخل في [أمر] ^(١) آخر على جهة التبضع لينصّره فيه، ويعينه، فيكون قوله تعالى: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي اطلب من عنده النصرة والمعونة. والمرء في الشاهد إنما يفرغ إلى الوكيل ليُزيح عنه عِلَلُهُ، ويقضي عنه حوائجه، ويقوم عنه في النوائب؛ والله أعلم.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ قال أهل التفسير: اصبر على تكذيبهم إياك.

ألا ترى إلى قوله في سياق الآية: ﴿وَذَرَىٰ الْكَافِرِينَ أُولَىٰ الْقَعَمَةِ﴾ [المزمل: ١١] فثبت أنه دعا إلى الصبر على التكذيب.

وجائز أن يكون منصرفاً إلى هذا وإلى غيره، لأنهم كانوا لا يقتصرون على الكذب، بل كانوا ينسبونه إلى الكذب [أولاً] ^(٢) وإلى السخر ثانياً وإلى الجنون ثالثاً وإلى أنه يتيم رابعاً، فكانوا يؤذونه بأنواع الأذى.

فجائز أن يكون قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ منصرفاً إلى كل ذلك.

ثم الأمر بالصبر يقع بخصال ثلاث:

أحدها ^(٣): ألا تجازهم على تكذيبهم إياك بتكذيبك إياهم،

[والثانية: ألا تجزع عليهم] ^(٤) وفي الجزع بعض التسلي والتسفي.

[والثالثة: ألا] ^(٥) تدعو عليهم بالهلاك والتبار، بل اصبر [على] ^(٦) ذلك.

ولقائل أن يقول: كيف كان يشتد عليه ^(٧) تكذيبهم إياه حتى كاد يتحزن لذلك. والذين ^(٨) نسبوه إلى الكذب كانوا من أعدائه، وليس يستنقل الكذب من العدو، لا يستكثر منه، لأنه بما يعاويه، يعتقد أنه يسيء إليه بجميع ما يمكنه ومنعه، وإنما يستنقل الكذب من أهل الصفوة والمودة، فكيف استنقله؟ وكيف بلغ به التكذيب مبلغاً يحزن به حتى يدعى إلى الصبر بقوله: ﴿قَدْ سَلَّمَ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ الآية [الأنعام: ٣٣] وبقوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؟ والجواب عن هذا أن الكذب والجهل مما يستنقلهما العقل والطبع جميعاً، وكذلك التكذيب أو التجهيل أمر ثقيل على الطبع والعقل جميعاً، حتى إن الكذاب إذا نسب إلى الكذب، اشتد عليه ذلك، ولم يتحمله ^(٩)، وكذلك الجهول، إذا عرف بالجهل، ثقل ذلك عليه.

فإذا كان التكذيب مستنقلاً ^(١٠) في عقول الخلق وطبايعهم، وإن كانت طبائعهم مشوبة بالآفات، وفي عقولهم نقص، فرسول الله ﷺ مع صفاء عقله وسلامة طبيعه من الآفات أحق أن يثقل عليه، ويحزن لذلك.

ثم ما من إنسان، ينسب إلى الكذب في ما يحدث عن نفسه أو عن سيواه من الخلائق ممن علت رتبته، أو انحطت، إلا وهو يجد لذلك ثقلًا، فكيف إذا أخبر عن الله تعالى، وكذب فيه، أليس هذا أحق أن يثقل على القلب، ويحزن له؟

ويجوز أن يكون حملته على الحزن شدة إشفاقه على المكذبين لأن تكذيبهم يقضي بهم إلى العطب والهلاك، فاشفق عليهم باشتغالهم بما به هلاكهم، وحزن لذلك، أو يكون حزنه غضباً لله تعالى، إذ الرسل كانوا يغضبون لله تعالى، ويستندون على أعدائه.

والجواب عن قوله ^(١١): إن المكذبين كانوا من أعدائه، فكيف اشتد عليه تكذيبهم، وذلك أمر غير مستبعد ^(١٢) من

(١) من، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أحدهما. (٤) في الأصل وم: ولا تجزع عليه. (٥) في الأصل وم: أولاً. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: عليهم. (٨) في الأصل وم: والذي. (٩) في الأصل وم: يتحاصل. (١٠) في الأصل وم: مستحقاً. (١١) الضمير عائد على ما سبق: ولقائل أن يقول. (١٢) في الأصل وم: مستبعد.

الاعداء؟ فنقول: إن رسول الله ﷺ كان يُعاملُهُمْ مُعاملةَ الوليِّ مع وَلِيِّهِ الصَّفيِّ، ولم يَكُنْ يُعاملُهُمْ بما يُعاملُ بِهِ الأعداءُ لأنه كان يَدْعُوهُمْ إلى ما فيه نجاتُهُمْ وشرْفُهُمْ في أمرِ دنيائِهِمْ وأخِرَتِهِمْ. ومَنْ عاملَ آخَرَ مُعاملةَ أَقْرَبِ الأَصْفِيَاءِ معه كان الحقُّ عليهم أن يُجازَوْهُ بالإحسانِ. فإذا تَرَكَوا ذلك، وقابلَوْهُ بالتَّكْذِيبِ، اشتَدَّ عليه، وحَزِنَ لذلك.

ثم في قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] إبطالُ قولِ مَنْ قال: إنَّ الله تعالى لا يَفْعَلُ بَعْدَ إِلا ما هو أَصْلَحُ لَهُ، لَأَنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا أَدْنَى لِنَبِيِّ مِنَ الأنبياءِ بالدعاءِ على استِعْجالِ الهلاكِ، واستُجِيبَ في ما دعا، كانَ فِيهِ ما يَحُولُ القومَ على الإيمانِ، ويَرُدُّعُهُمْ عَنِ التَّكْذِيبِ، لأنَّهُمْ يَخَافُونَ حُلُولَ النِّقْمَةِ عليهم، فَيَتَرَكُونَ التَّكْذِيبَ، وَيُثْبِتُونَ على الإجابةِ، فيكونُ فِيهِ نجاتُهُمْ مِنَ الهلاكِ وشرْفُهُمْ في أمرِ دنيائِهِمْ وأخِرَتِهِمْ. فإذا لم يُوَدَّنْ، دلَّ أَنَّهُ ليسَ مِنْ شَرَطِ الله تعالى أنْ يَفْعَلَ بِعِبَادِهِ ما هو أَصْلَحُ لَهُمْ.

فإن قال^(١): كيفَ لم يُوَدَّنْ بالدعاءِ عليهم لِيَحُولَهُمْ ذلكَ على الإسلامِ، وَيَمْنَعَهُمْ عَنِ التَّكْذِيبِ؟

قيلَ لَهُ: لأنَّ في ما ذَكَرْتَهُ رَفَعَ المِخْنَةَ والإبتلاءَ، لأنَّ الحُجَّةَ إِذْ ذَاكَ تَقَعُ مِنْ جِهَةِ الضرورةِ، لأنَّهُمْ إِذَا عَلِمَهُمْ أَنَّهُمْ يَسْتَأْصِلُونَ بالتَّكْذِيبِ امْتَنَعُوا عَنْهُ، وأجابوا إلى الإسلامِ كَرْهًا، فَتَصِيرُ الحُجُجُ اضْطِرَّارِيَّةً لا تَمَيِّزِيَّةً واختياريَّةً، وَحُجَجُ الرِّسْلِ ﷺ اختياريَّةٌ لا ضروريَّةٌ لِمَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ لو جُعِلَتِ اضْطِرَّارِيَّةٌ لَأَرْتَفَعَتِ المِخْنَةُ، فَجُعِلَتِ حُجُجُهُمْ مِنْ وَجْهِ، تَقَعُ بِهَا الشُّبُهَةُ لِيُوصَلَ إلى مَعْرِفَتِهَا بِالْفِكْرِ^(٢) لئلا تَرْتَفِعَ المِخْنَةُ.

فإن قالَ قائلٌ: إنَّ أبا حنيفةً، رَحِمَهُ اللهُ، ذَكَرَ في كتابِهِ (العالمُ والمُتَعَلِّمُ) أنَّ إيمانَ الملائكةِ وإيمانَ الرِّسْلِ وإيماننا واحداً، ثم قالَ: فإذا اسْتَوَيْنَا نحنُ والرِّسْلُ في الإيمانِ، فكيفَ صارَ الثَّوابُ لَهُمْ أَكْمَلَ، وخَوْفُهُمْ مِنَ اللهِ تعالى أَشَدَّ؟

فأجاب^(٣) عن هذا السؤالِ بأجوبةٍ، وقالَ في جُمْلَةٍ ما أجابَ: إنَّهُمْ لو ارْتَكَبُوا الزُّلَّاتِ لَحَلَّ بِهِمُ العقابُ [عَقِيبُ]^(٤) الزُّلْلِ، فَصَارَ خَوْفُهُمْ باللهِ تعالى الزَّمَّ في هذهِ الجبهةِ.

ولسائلِ أنْ يَسْأَلَ على هذا، فيقولَ: فإذا نَ إِيمانُهُمْ باللهِ تعالى وَتَرَكُهُمُ المعاصيَ ضروريَّ اختياريَّ؟ فيجيبُ عَنْهُ [بوجهين]:

أحدهما: [٥] بأنْ يُقالَ: إنَّ الأنبياءَ ﷺ لم يُثَبِّتْ لَهُمُ العِصْمَةُ، بل كانوا على خوفٍ مِنْ وَقوعِهِمْ في المَهالِكِ. ألا تَرَى إلى قولِ إبراهيمَ ﷺ ﴿وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾؟ [إبراهيم: ٣٥].

ولو كانتِ العِصْمَةُ ظاهرةً لكانَ يَسْتَعْنِي عن السؤالِ [بقوله تعالى]^(٦) في قصَةِ شُعَيْبٍ ﷺ ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الأعراف: ٨٩].

فثبتَ أَنَّهُ لم يُثَبِّتْ لَهُمُ العِصْمَةُ. ونحنُ إنما شَهِدْنَا بالعِصْمَةِ بالوجودِ، لأنَّ الحِكمةَ توجِبُ العِصْمَةَ، والرِّسْلُ ﷺ أمروا بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، ولم يُوَدَّنْ لَهُمْ بالنَّظَرِ في أمرٍ مِنْ تَقَدُّمِهِمْ [مِنْ]^(٧) الرِّسْلِ لِتَظْهَرَ لَهُمُ العِصْمَةُ بالتَّدْبِيرِ والتَّفَكُّرِ. فَيُثَبِّتُ أَنَّهُمْ كانوا على الخوفِ والرجاءِ في فِكاكِ أَنْفُسِهِمْ وفي وَقوعِها في المَهالِكِ، وأنَّ إيمانَهُمْ باللهِ تعالى لم يَكُنْ ضروريَّاً، بل وَصَلُوا إلى مَعْرِفَتِهِ تعالى بالتمييزِ. لذلكَ عَظُمَتِ دَرَجَاتُهُمْ.

والثاني: أنَّ الأنبياءَ ﷺ قد كانَ تَقَرَّرَ في قُلُوبِهِمْ هَيْبَةُ اللهِ تعالى وَعَظَمَتُهُ، فكانتِ المَعْرِفَةُ هي التي دَعَتْهُمْ إلى الإيمانِ بِهِ، لا خَوْفٌ حُلُولِ العقوبةِ بِهِمْ لو ارْتَكَبُوا الزُّلَّاتِ.

وأما الكُفْرَةُ فلم يَعرِفُوا عَظَمَةَ اللهِ ولا قُدْرَتَهُ ولا سُلْطانَتَهُ حتى يَحُولَهُمْ ذلكَ على الإيمانِ بِهِ.

فلو حَلَّتِ العقوبةُ بِهِمُ بالتَّكْذِيبِ لكانَ الخوفُ هو الذي يَحُولُهُمْ على الإيمانِ لا غَيْرُ، فَيَصِيرُ إيمانُهُمْ ضروريَّاً، فلماذا

(١) في الأصل وم: قيل. (٢) من م، في الأصل: بالكفر. (٣) لعل المجيب أبو حنيفة أو أبو منصور المؤلف. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) ساقطة من الأصل وم.

لم يُعَاقِبُوا بِالْكَذِبِ لَثَلَا تَرْفَعِ الْمِخَنَةُ، وَخُولِفَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ. وهذا كما يقول: إِنَّ أَنْبَاءَ مَنْ^(١) تَقَدَّمَ مِنَ الرِّسْلِ حُجَّةٌ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي إثباتِ نُبُوَّتِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الْأَنْبَاءُ قَدْ عَرَفَهَا أَهْلُ الْكِتَابِ، وَأُخْبِرُوا بِهَا، لِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ عَرَفُوا تِلْكَ الْأَنْبَاءَ بِالتَّعَلُّمِ وَالتَّلَقُّينِ، وَلَمْ يَخْتَلِفْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ تِلْكَ الْأَنْبَاءِ، فَعَلِمَ أَنَّهُ بِاللَّهِ تَعَالَى، عَلِمَ لَا يَتَغْلِيصُ أَحَدٌ، فَصَارَتْ الْأَنْبَاءُ حُجَجًا لِلذَّكَ، وَلَمْ تَصِرْ [بَغْيَرًا]^(٢) حُجَّةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَهْبِزْهُمْ هَاجِرًا جَمِيلًا﴾ فجائز أن يكون تأويله: اهْبِزْهُمْ وَقْتَ سَبِّهِمْ وَنَسِيَّتِهِمْ إِيَّاكَ إِلَى مَا لَا يَلِيْقُ بِكَ، وَلَا تَغْبِأَ بِهِمْ، وَلَا تَكْتَرِثْ إِلَيْهِمْ وَإِلَى مَا يَقُولُونَ عَلَيْكَ لِأَنَّ بَعْضَ مَا يَزْجُرُ الْمُتَقَرِّلَ وَالسَّابَّ عَمَّا هُوَ فِيهِ، هُوَ كَقَوْلِهِ ﷺ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُهُ: أَنْ انْقَطَعَ عَنْهُمْ انْقِطَاعًا جَمِيلًا، وَالْإِنْقِطَاعُ الْجَمِيلُ الْآ يَتْرُكُ شَفَقَتَهُ عَلَيْهِمْ وَلَا يَدْعُو عَلَيْهِمْ بِالْهَلَاكِ وَلَا يَمْتَنِعُ عَنْ دَعَائِهِمْ إِلَى مَا فِيهِ رُشْدُهُمْ وَصَلَاحُهُمْ، وَلِلذَلِكَ قَالَ فِي وَقْتِ أَذَاهُمْ: «اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»: [الزبيدي في الإتحاف ٢٥٨/٨ وينحوي البيهقي في دلائل النبوة ٢/٢١٥].

وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَجْرُهُ إِيَّاهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا، وَهُوَ الْآ يَكَاذِبُهُمْ بِالسَّيِّئَةِ، بَلْ يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون: ٩٦] إِذْ ذَلِكَ أَدْعَى لِلْخُلُقِ إِلَى إِجَابَةٍ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِهِمْ عِنْدَ الْمَعَامَلَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم [مِنْ]^(٣) النَّاسِ مَنْ يَقُولُ بَأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَسَخَتْهَا آيَةُ السَّيْفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ بِأَنَّهَا لَمْ تُنْسَخْ، وَصَرَفُوا تَأْوِيلَ الْآيَةِ إِلَى جَهَةِ لَا يَفْعَلُ عَلَيْهَا النَّسْخُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَهْبِزْهُمْ هَاجِرًا جَمِيلًا﴾ مَنَعَ الْمُكَافَاتِ لِأَجْلِ مَا أَذَوْهُ، وَلَمْ يَفْرِضْ عَلَيْهِ^(٤) الْقِتَالَ لِيُكَافِئَهُمْ بِأَذَاهُمْ، وَيَتَّقِمَ مِنْهُمْ^(٥) بِذَلِكَ، بَلْ رَجَعَ قِتَالُهُمْ إِلَى نُصْرَةِ الدِّينِ وَلِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ، هِيَ الْعُلْيَا.

لِلذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِي آيَةِ السَّيْفِ مَا يَوْجِبُ نَسْخَ هَذَا وَلَا نَسْخَ الْعَمَلِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وَالْجَوَابُ^(٦): أَنَّهُ لَيْسَ فِي قِتَالِهِمْ انْتِقَامٌ مِنْهُمْ، بَلْ فِيهِ مَا يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ.

وَإِذَا آمَنُوا بِذَلِكَ نَجَّوْا مِنَ الْعِقَابِ، وَفَازُوا بِعَظِيمِ الثَّوَابِ، فَيَصِيرُ الْقِتَالُ رَحْمَةً لَهُمْ لَا عِقَابًا.

وَوَجْهُ جَعْلِهِ رَحْمَةً، هُوَ أَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا غَلَبَةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ مَعَ قِلَّةِ عَدُوِّهِمْ وَالضَّغْفِ الَّذِي حَلَّ بِأَبْدَانِهِمْ لِاشْتِغَالِهِمْ بِعِبَادَتِهِمْ رَبَّهُمْ وَكَثْرَةِ عَدُوِّ الْمُشْرِكِينَ مَعَ قُوَّةِ أَبْدَانِهِمْ أَيْقَنُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا الْغَلَبَةَ بِالْجَلِيلِ وَالْأَسْبَابِ، بَلِ اللَّهُ تَعَالَى، هُوَ الَّذِي قَوَّاهُمْ عَلَيْهِمْ، وَقَامَ بِنَصْرِهِمْ؛ وَتَقَرَّرَ عِنْدَهُمْ كَوْنُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْحَقِّ.

وَإِذَا أَيْقَنُوا بِالْحَقِّ [التَّزَمُوا، فَيُخْرِزُونَ]^(٧) بِوَجْهِلِ الثَّوَابِ وَكَرِيمِ الْمَآبِ، فَصَارَ الْقِتَالُ رَحْمَةً لَهُمْ، لَا أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِمْ عِقَابٌ لِسُوءِ صَنِيعِهِمْ.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ بَقِيَ الْعَمَلُ بِقَوْلِهِ ﷺ: ﴿وَأَهْبِزْهُمْ هَاجِرًا جَمِيلًا﴾ ثَابِتًا بَاقِيًا.

وبهذا يُجَابُ مَنْ سَأَلَ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وَفِي الْقِتَالِ تَرْكُ الرَّحْمَةِ، فَكَيْفَ يَفْرِضُهُ^(٨) عَلَيْهِ؟ فَيَقَالُ: إِنَّ لَيْسَ فِي الْقِتَالِ تَرْكُ الرَّحْمَةِ، بَلْ هُوَ مِنْ أَبْلَغِ الرَّحْمَةِ وَتَمَامِهَا، إِذْ يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَتَرْكِ الْكَذِبِ، وَتَعْلُو مَنَزِلَتَهُمْ، وَيَشْرَفُ قَدْرُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَجَوَابُ آخَرُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْحُجَّةَ فِي الْقِتَالِ لَيْسَتْ فِي الْقَتْلِ، لِأَنَّهُمْ إِذَا خَافُوا الْقِتَالَ تَرَكُوا الْكَذِبَ، وَأَقْبَلُوا عَلَى الدَّاعِي. أَلَا تَرَى أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ الْقَوْمَ قَبْلَ أَنْ يَفْرِضَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ كَانَ يَدْخُلُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بَعْدَ الْوَاحِدِ فِي هَذَا الدِّينِ. فَلَمَّا شَرَعَ الْقِتَالُ جَعَلُوا يَدْخُلُونَ فِيهِ قَوْجًا قَوْجًا وَقَبِيلَةً قَبِيلَةً؟

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (٢) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهِمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهِمْ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ مِنْهُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجَوَابِهِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: التَّزَمُوا فَيُخْرِزُوا. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَفْرِضُ.

ثم إباحة القتل تكون بالضرورة لأنهم إذا علموا [أنهم]^(١) لا يقتلون لم يقع لهم الخوف بالقتال، وإذا لم يخافوا تركوا الإجابة، فشرع القتل^(٢) لتحقيق الخوف، فلم يكن [فيه]^(٣) ترك الرحمة، وهو كقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وفي إقامة القصاص تلقت النفس، ليس فيه إحياء، ولكن وجه^(٤) الإحياء فيه، هو أن القاتل^(٥) إذا فُكّر [أنه]^(٦) قتل نفسه يقتل صاحبه ردعه ذلك عن القتل، فيكون فيه إحياء النفس جميعاً، فيصير إيجاب القصاص سبباً للإحياء في الحقيقة، وإن كان في الظاهر سبباً للإثلاف.

فكذلك هؤلاء إذا اتقنوا بالقتل بامتناعهم عن الإجابة تركوا الامتناع، وأقبلوا على الإجابة، فيكون موضوع القتل للرحمة في التحقيق، وإن كان في الظاهر خارجاً مخرج ترك الرحمة، والله أعلم.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَيْلًا﴾ فيه أن أهل الخسبة والدعة، هم الذين اشتغلوا بالتكذيب، وهم الذين كانوا يصدون عن سبيل الله كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٢] وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرُوهُمْ﴾ [سبا: ٣٤] فخص أولي النعمة بالذكر لهذا.

ثم في قوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ إيهام بأن رسول الله ﷺ سبق منه المنع، ولم يوجز من رسول الله ﷺ حيلولة ومنع، ولكن مثل هذا الخطاب موجود في كتاب الله في غير آية^(٧) من كتابه، وهو أنه يُخرج مُخرجاً يؤهم أن هناك مقدمة، وإن لم يكن فيها مقدمة في التحقيق.

قال الله تعالى: ﴿وَالنَّعْمَةُ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧] ولم يكن فيه تحقيق الرضع، وإن كان الرفع يستعمل في الشيء الموضوع. وكان تأويل الرفع هنا بأنها خلقت مرفوعة، وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَارِ﴾ [الرحمن: ١٠] ولم تكن مرفوعة، فوضعتها، وكان معناها: أنها خلقت موضوعة.

وقال يوسف ﷺ ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧] ولم يسبق منه دخول في دين أولئك، فيكون تاركاً له بعد ما دخل فيه.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٥] ولم يقتض قوله ﷻ: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ كونهم في النور فيخرجونهم منه، وإن كان في الظاهر يؤدي ذلك.

[فعل ذلك]^(٨) قوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ وإن كان في الظاهر يقتضي حيلولة ومنعاً.

فليس في الحقيقة إثبات منع، ويذكر غير هذا في سورة المدثر^(٩).

ثم قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ ومعناها: لا تجازيهم / ٦٠٧ - ب/ بصنيعهم، ولا^(١٠) تستعجل عليهم بالدعاء ﴿أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَيْلًا﴾ ﴿تَبْكِيهِمْ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقيل في الفرق بين النعمة والنعمة: إن النعمة ما تُعطى للعبد إرادة استدراجها فيها وهلاكه كقوله ﷻ: ﴿وَنَسَمَرُ كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِينَ﴾ [الدخان: ٢٧] والنعمة هي^(١١) منه الله تعالى على عباده تفضلاً عليهم كقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَيَاطَّةُ﴾ [لقمان: ٢٠] والله أعلم.

الآيتان ١٢ و ١٣ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَكْالًا وَجِيشًا﴾ ﴿وَمَا كُنَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾ قال ابن مسعود ﷺ: الأنكأ، هي^(١٢) السلاسل والقيود.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج بعدما في الأصل وم: فيه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وجد. (٥) من م، في الأصل: القتل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أي. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) وهو قوله: ﴿وَذَرْنِي وَنَّ عَلَّمَ جِدَا﴾ [الآية: ١١]. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: هو. (١٢) في الأصل وم: هو.

وقال أبو بكر الأصم: الإنكاح ما يُنكَلُ به، ويُعَيَّرُ به غيره. قال الله تعالى: ﴿فَعَمَلَتْهَا تَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِدَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦] تأويله: ما بين يديها من قرى، وما خلفها من القرى أيضاً. فإن كان على ما ذكره أبو بكر الأصم فقد يكون في الدنيا، ويكون مُنْصَرَفًا إلى يومِ بذر، والله أعلم. وكان الأول أشبه. والجحيم، هو مُعْظَم النار.

ثم في هذه الآية دلالة نبوة نبينا محمد ﷺ وآية رسالته لأن قوله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَرَدَّيْنِ وَالْكَذِبِينَ أُولَى الثَّغَمَةِ﴾ فإن لهم لدينا أنكالا وجحيمًا، وإنما يُنْكَلُون، ويُعَذَّبُونَ بالجحيم إذا ماتوا على الكفر. ففيه إبانة أنهم يموتون، وهم كفار. وعلى ذلك ماتوا، وختم أمرهم، ولم يُسَلِّمْ منهم أحد، فيخرج ما أخبر عن غيب كما أخبر، وذلك لا يُعْلَم إلا بالله تعالى. فثبت أنه لم يخترعه من تلقاء نفسه، بل عَلِمَ بالله تعالى، وعلم الغيب من أعظم آيات رسالته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَطَمَامًا ذَا غَمَّةٍ وَعَدَايًا أَلِيًّا﴾ فالذي يُغَصُّ [به] (١) ولا يُنْذَرُ على ابتلاعه، ليس بطعام في الحقيقة. وقال: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ [يونس: ٤] فالحميم ليس بشراب في التحقيق، ولكن سُمِّيَ الأول طعاماً لأنه يُمَضَّغُ مُضْغُ الطعام. والصديد والحميم يسيلان سيل الشراب، فذكر في الأول طعاماً وفي الثاني شراباً لهذا. ولأن الطعام اسم لما يُطْعَم، فهو مطعوم، وإن كان كريهاً، والحميم مشروب، وإن كان في نفسه كريهاً.

ثم الأصل أن الكفرة يكفروهم تركوا شكر نعم الله تعالى وذكرها (٢)، وقابلوها بالكفر، فأبدل الله تعالى لهم في الآخرة مكان كل نعمة (٣) نعمة. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ رُجُومِهِمْ عَمِيَائًا وَكُنَّا وَصِيًّا؟﴾ [الإسراء: ٩٧] فأبدلهم مكان البصر عمى ومكان السمع صمماً لترجيهم شكر ما أنعموا من البصر والسمع واللسان، وأبدلهم مكان اللباس قظراناً ومكان المراكب السحب إلى النار على أقدامهم ورجلهم. فكذلك أبدلهم مكان الطعام والشراب زقوماً وحميماً لترجيهم نعم الله تعالى.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرُفُّ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَ الْجِبَالُ كَغِيٍّ مَّهِلًا﴾ أي زملاً سائلاً. ففيه إخبار عن شدة هول ذلك اليوم لأن الجبال من أصلب الأشياء وأشدّها في نفسها. ثم يبلغ هول ذلك اليوم مبلغاً لا تحمله الجبال مع شدتها وصلابتها. فإن الإنسان الضعيف المهيّن أتى يقوم لشدته وهوله، فذكرهم حال ذلك ليرتدعوا، وينتبهوا عما هم عليه من التكذيب والضلal.

الآية ١٥ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِيَّاكَ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ﴾ قال أبو بكر الأصم: تأويله: مُبَيِّنًا لكم (٤) ما الله عليكم من الحق.

وجائز أن يكون ﴿شَهِيدًا عَلَيْكَ﴾ أي لكم وعليكم جميعاً؛ فيكون على الكفرة شاهداً بقوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩] ويكون للمؤمنين شاهداً، وقد يُذكر ﴿عَلَيْكَ﴾ ويُراد به لكم كقوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصِيبِ﴾ [المائدة: ٣] أي للنصيب لأنهم كانوا يذبحون لها لا عليها، وخَصَّ ذُكْرَ موسى ﷺ وفرعون من بين الجملة.

فائدة ذُكْرِ التخصيص، هو، والله أعلم، أن رسول الله ﷺ كان منسوبة بين ظهرائي الذين كذبوه، ولم يكونوا (٥) وقفوا منه على كذبه قط، بل كانوا عرفوه بالصيانة والعدالة، وكان يحمل يروته أهلاً للشهادة، فكيف ينسبونه إلى الكذب، ولم ينعقدوا ذلك منه؟ وكذلك موسى ﷺ كان نشأ بين ظهرائي أولئك الذين أرسل إليهم وكانوا عرفوه بالصيانة والعدالة، وعرفوا أنه يصلح للشهادة.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وذكره. (٣) انظر ما ذكر أبو منصور في الفرق بين النعمة والثمرة في تفسير الآية ١١. (٤) في الأصل وم: عليكم. (٥) في الأصل وم: يكن.

ومنهم من يقول بأنهم أزرأ برسول الله ﷺ واستصغروه اغتيالاً بما شهدوا من حاله عند الصغر، إذ كان منشؤه فيهم، فكذلك أزرأ بموسى ﷺ حين^(١) بعث إليهم، واستحقوا به استخفافهم به في حالة الصغر حتى قالوا: «أَلَمْ نَرْؤُكَ فِيْنَا وَلِيدًا وَلِئْتَ فِيْنَا مِنْ عَمْرٍكَ سِينًا» [الشعراء: ١٨] فنزل بهم ما نزل بأولئك من الاستصصال بتكذيبهم إياه وإزرائهم به، فذكرهم حال مكذبي موسى ﷺ وما نزل بهم من مقت الله تعالى بتكذيبهم وإزرائهم ليغتبوا به، فينقلعوا عن الإزراء لئلا يحل بهم ما حل بأولئك ولئلا يغتروا بقواهم وكثرو عدوهم وأموالهم؛ فإن مكذبي موسى ﷺ كانوا أكثر أموالاً وأولاداً وأعداداً وأشد بطشاً فلم يغتربهم ذلك من الله شيئاً.

وجائز أن يكون حصّر ذكر موسى ﷺ وفرعون، ونبأهما، لأن خبره كان منتشرًا في ما بين أهل مكة، لأنهم كانوا خبرة اليهود والذين عندهم نبي موسى ﷺ لينتهوا عما هم عليه من التكذيب، ولأن الله تعالى إذ يختج بالحجج؛ وله أن يختج عليهم بحلها، إذ في ذلك قطع الشبهة وإزاحة العذر، أو ذكرهم نبي موسى ﷺ وقويوه لأن العهد به كان أقرب؛ إذ قومه كانوا آخر قوم استوصلوا في الدنيا.

الآية ١٦

وقوله تعالى: «فَمَعَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولُ فَلَمَّا أَخَذَتْهُ وَيْلًا» أي شديداً، ومنه المظهر الشديد، يُسمى الوابل. وقال أبو بكر: اسم لكل مفضلة.

الآية ١٧

وقوله تعالى: «كَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا» فهو يختلج أوجهاً:

أحدها: أي كيف تتقون النار في الآخرة إذا سلكتم في الدنيا سبيلها، وهو الكفر، وأنتم تعلمون أن من سلك طريقاً لشيء، ولا متقد لذلك الطريق [إلا إلى] ذلك الشيء، فإنه يرد عليه، لا محالة؟.

[والثاني]:^(٢) كيف تتقون النار في الآخرة وقد تركتم القيام بما عليكم من شكر النعم؟

[والثالث]:^(٣) كيف تتقون العذاب في الآخرة، وأنتم تدفعون إليها، وتضطرون بقوله ﷺ: «هُمْ فَضَطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غِلَظٍ» [لقمان: ٢٤] ويقول: «يَوْمَ يُنْفَخُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ» [القمر: ٤٨] ويقول: «خُذُوا قُلُوبَكُمْ إِلَىٰ سَوَاءِ الْحَجِيرِ» [الدخان: ٤٧] وقد مكثتم في الدنيا من الإيمان بالله تعالى ومكثتم الإنهاء عن الكفر، ثم لم تنقلعوا عنه؟ فأتى يتهماً لكم المخلص من عذابه، وأنتم تدفعون إليه، أو كيف تتقون بإيمانكم في الآخرة، ولم تؤمنوا في الدنيا، وقد مكثتم منه؟

والأصل أن دار الآخرة ليست بدار لاستحداث الأسباب، وإنما هي دار وقوع المسببات. فهم إذا لم يستحدثوا الأسباب التي جعلت لدفع العذاب في الدنيا، لم يمتكنوا من استحداثها في الآخرة، فينتفعوا بها / ٦٠٨ - أ / ولم يكونوا أهلاً لوقوع المسببات إما لم يستحدثوا الأسباب في الدنيا، وإنما قلنا: إنها ليست بدار مخرجة وإيتلاء لأن المخرجة لاستظهار الحفيات، والثواب والعقاب قد شوهد، وعوين.

فإذا قيل له: إذا فعلت كذا دخلت النار، وهو يعاين النار، ويراه، فهو يمتنع عن الإقدام على ذلك الفعل.

وإذا قيل له: إذا آمن بالله أكرمت بالجنة، وهو يشاهد الجنة، ويراه، فهو يؤمن، لا محالة، فلا وجه للإيتلاء في الآخرة، بل هي دار المسببات، يعني الثواب والعقاب.

والذي يدل على هذا قوله: «يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا» فأخبر أنهم يشيبون لا بسبب المشيب، والمشيب في الدنيا لا يوجد إلا بعد وجود سببه، وهو الكبر، ليعلم أن الدار الآخرة ليست بدار استحداث الأسباب في ما يستحدثون من الإيمان بالله تعالى، لا ينفعهم في ذلك اليوم، ولا يقيهم من عذاب الله تعالى.

وقوله تعالى: «يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا» جائز أن يكون هذا على التحقيق، فنسب الولدان لهول ذلك اليوم وشدة هوله، يصير الشيب سكارى لشدة هوله كما قال: «وَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ» [الحج: ٢].

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، في الأصل: الأزلي. (٣) في الأصل وم: أو.

وجائز أن يكون على التمثيل، فمثله به لعظم ذلك اليوم وشدة هوله. وقد يجوز أن يمثل الشيء بما يتعد عن الأوهام تحقيقه على تعظيم ذلك الشيء كقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنِّي وَتَلْسَأُ الْأَرْضُ وَيَخِرُّ لِيْلَالٌ مَدَامَ﴾ [مريم: ٩١ و ٩٢] فذكر هذا على التمثيل لعظيم ما قيل فيه لا على تحقيق الإفطار والإنشاق.

وجائز أن يكون معناه أنه لولا أن الله تعالى بعثهم للإبقاء والآن يتغيروا ولا يتفانوا، وإلا كان هول ذلك اليوم يتلغ مبتلغاً يشيب به الولدان.

الآية ١٨ وقوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ أي بما يجعل ولدان شيباً، وهو هول ذلك اليوم وشدة فزعوه، أو منقطر بالتمام. وقيل: منقطر بالله أي يقضاه وحكمه، والله أعلم.

ثم قال: ﴿مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ ولم يقل منقطرة، والسماء مؤنث، فذكر الرجاء أن معنى قوله: ﴿مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ أي ذات انفطار، فعبر به كما يعبر عن الذكور كما يقال: امرأة مريض، أي ذات إرضاع.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ أي الذي وقع به الوعد مفعول، لا أن يكون الوعد هو المفعول. فكذا قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ [مريم: ٦١] والوعد لا يؤتى بل الموعود هو الذي يؤتى، ولكن نسب الموعود إلى الوعد لأنه من آثاره. وهذا كما يقال: المطر رحمة الله أي برحمته الله ما أمطر لا^(١) أن يكون المطر برحمته، ويقال: الصلاة أمر الله [أي بأمر الله]^(٢) ما تقام لا أن تكون أمره الذي يوصف به، فكذلك الموعود نسب إلى الوعد؛ إذ بالوعد استوجبوا لا أن يكون الوعد، هو المفعول، وهو المأتي.

الآية ١٩ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ فجائز أن يكون قوله: ﴿هَذِهِ﴾ منصرفاً إلى الأحوال التي ذكرها [فيكون ذكرها]^(٣) تذكيرة.

ويحتمل أن ينصرف إلى الرسالة أي رسالة محمد ﷺ ويحتمل [أن تكون]^(٤) هذه السور أو الآيات كلها تذكيرة. وقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ فمن شاء اتخذ إلّا ربه سبيلاً، إلى ما دعاه إليه ربه؛ وذلك يكون بالإجابة إلى^(٥) ما دعاه إليه، أو من شاء اتخذ إلى ما وعد له ربه في الآخرة سبيلاً في أن يقبل على طاعته، ويشغل نفسه بعبادته.

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلَاثِي اللَّيْلِ نَضِيفٌ وَتَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلَاثِي اللَّيْلِ نَضِيفٌ﴾ قال أبو عبيد: الصواب أن يقرأ: ونضيفو وتلثي بالنضيف^(٦) على معنى إضافة أدنى إليهما؛ فكانه يقول: إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل وأدنى من نضيفو [وأدنى من ثلثي]^(٧) وأدنى يكون على الزيادة والنقصان جميعاً، لأن الفضل ما بين الثلث إلى النصف، هو السدس. فإذا زاد على الثلث أقل من نصف السدس، فهو إلى الثلث أدنى، وكذلك إذا نقص من الثلث شيئاً قليلاً، فهو إلى الثلث قريب، فيكون إليه أدنى.

وكذلك الفضل في ما بين النصف إلى الثلثين، هو السدس، فإذا زاد على النصف أكثر من نصف السدس، فهو إلى الثلثين^(٨) أدنى، وإذا نقص من نصف السدس، فهو إلى النصف أدنى وأقرب.

ومنهم من اختار النضيب فيهما، والوجهان جميعاً محتملان، لأن قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلَاثِي اللَّيْلِ نَضِيفٌ﴾ ليس فيه إيجاب حكم مبتدئ، وإنما فيه إخبار عن القيام الذي وجد من رسول الله ﷺ.

فجائز أن يكون وجد منه ذلك كله، وهو أن يكون قريباً من الثلثين وقريباً من النصف وأدنى من الثلث على ما ذكره أهل المقالة الأولى، ويكون قد قام أدنى من ثلثي الليل، وقام نصفه وثلثه وأدنى من نصفه وأدنى من ثلثي، فذكر في الثلثين الأدنى لما وجد منه الأدنى من جهة الزيادة والنقصان، ولم توجد موافقة الثلثين.

(١) في الأصل وم: وإلا. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أي. (٥) في الأصل وم: في. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٢٥٥. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: الاثنين.

وَاخْبَرَ بِالنُّصَبِ وَالثَّلْثِ بِالْأَمْرَيْنِ جَمِيعاً لَوْجُودِ الْمُوَافَقَةِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَقَامَ ثُلُثُهُ، وَقَامَ أَذْنَى مِنْ النُّصَبِ وَأَذْنَى مِنَ الثَّلْثِ.

وَإِذَا كَانَ هَذَا كُلُّهُ مُحْتَمَلاً، لَمْ يَجْزْ أَنْ يُذْفَعَ أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ، وَيُتَمَسَّكَ بِالْوَجْهِ الْآخِرِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] فَقُرِئَ بِرَفْعٍ^(١) النَّاءِ وَنُصِبِهِ جَمِيعاً لِمَا وَجَدَ الْأَمْرَانِ جَمِيعاً؛ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مُوسَى ﷺ وَفِرْعَوْنُ عَلِمَا [بِهَا]^(٢) أَيِ بِالْآيَاتِ جَمِيعاً.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ^(٣) فِي سُورَةِ سَبَأٍ: ﴿رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾ [الآية: ١٩] وَقُرِئَ رَبُّنَا بِاعْدٍ^(٤) لَوْجُودِ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعاً، وَهُمَا^(٥) الدُّعَاءُ وَالْإِجَابَةُ. فَقَوْلُهُ ﷺ: ﴿رَبَّنَا بَعْدَ دُعَاءٍ، وَقَوْلُهُ: رَبَّنَا بِاعْدٍ عَلَى الْإِجَابَةِ، فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا بِالْإِعْرَابِ، فَكَذَلِكَ هَهُنَا لِمَا اسْتَقَامَ وَجُودُ الْوَجْهَيْنِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اسْتِقَامَ أَنْ يُقْرَأَ بِالنُّصَبِ وَالْحَفْظِ جَمِيعاً، وَيُفَرَّقَ بَيْنَهُمَا بِالْإِعْرَابِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَفْرُوضُ مِنَ الْقِيَامِ قَدَرُ ثُلْثِ اللَّيْلِ، وَتَكُونُ الزِّيَادَةُ [بِحُكْمِ النَّافِلَةِ، وَيجوزُ أَنْ يَكُونَ^(٦) كُلُّهُ مَفْرُوضاً، وَإِنْ طَالَ، وَزَادَ عَلَى الثَّلْثِ وَالنُّصَبِ وَالثَّلْثَيْنِ^(٧). فَإِنْ كَانَ [فَإِنَّهُ]^(٨) يَجُوزُ لَهُ الْإِقْتِصَارُ عَلَى ثُلْثِ اللَّيْلِ.

أَلَا تَرَى أَنْ فَرَضَ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ يُقْضَى^(٩) بِإِدْرَاكِ جُزْءٍ مِنْهُ؟ وَكَذَلِكَ فَرَضَ الْقِيَامَ [يُقْضَى]^(١٠) بِالْجُزْءِ مِنْهُ. ثُمَّ إِنَّ الرُّكُوعَ وَإِنْ طَالَ، فَهُوَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَرَضُ حَتَّى لَوْ أَنَّ دَاخِلًا شَارَكَهُ فِي أَوَّلِ الرُّكُوعِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَشَارَكَهُ ثَلَاثًا فِي آخِرِ رُكُوعِهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مَعَ الْإِمَامِ، صَارَ [كُلُّ]^(١١) وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُدْرِكًا لِفَرَضِ الرُّكُوعِ، وَإِنْ كَانَ الْإِمَامُ، لَوْ اقْتَصَرَ عَلَى جُزْءٍ مِنْهُ، كَفَاءُ ذَلِكَ عَنْ فَرَضِهِ.

فَكَذَلِكَ الْفَرَضُ لَمَّا انْصَرَفَ إِلَى قِيَامِ اللَّيْلِ، فَصَارَ جَمِيعُ مَا يُؤْتَى مِنَ الْقِيَامِ فِي اللَّيْلِ، وَإِنْ طَالَ، فَرَضاً، وَإِنْ كَانَ قَدْ يَجُوزُ الْاجْتِرَاءُ بِبَعْضِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنَ الَّذِينَ مَكَكَ﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَفِي قَوْلِهِ ﷺ: ﴿قَاتَبَ عَلَيْكُمْ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ فَرَضَ الْقِيَامِ كَانَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَى مَنْ تَبِعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْمَخْصُوصُ بِالْخِطَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّزِيلُ﴾ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ / ٦٠٨ - ب/ الْفَرَضُ شَامِلاً عَلَيْهِمْ لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ: ﴿قَاتَبَ عَلَيْكُمْ﴾ مَعْنًى.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ إِذَا لَمْ يُفَرَضْ عَلَيْنَا قِيَامُ اللَّيْلِ فِي يَوْمِنَا هَذَا لَمْ نَحْتَجْ فِي تَرْكِ الْقِيَامِ إِلَى أَنْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْنَا؟

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى، ذَكَرَ فِي التَّوْبَةِ^(١٢) وَفِي مَا فِيهِ التَّنَسُّخُ خِطَاباً يَجْمَعُ الْجَمِيعَ بِقَوْلِهِ: ﴿قَاتَبَ عَلَيْكُمْ﴾ وَبِقَوْلِهِ: ﴿وَأَقْبِرُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [وَذَكَرَ]^(١٣) فِي مَا فِيهِ الْأَمْرُ خِطَاباً يُقْتَضَى الْآحَادَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [يَتَمَنَّى أَوْ أَقْصَى مِنْهُ قَلِيلًا] [الْآيَتَانِ ٣٢ وَ ٣٣] فَفِي هَذَا أَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يُخَاطَبَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى إِدْخَالِ غَيْرِهِ فِيهِ تَبَعاً لَهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُخَاطَبَ غَيْرَ النَّبِيِّ ﷺ وَيُرَادَ بِهِ^(١٤) النَّبِيُّ ﷺ فِي ذِكْرِ الْخِطَابِ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْمُنْتَبِغُ.

فَجَائِزٌ لِحَاقِّ غَيْرِهِ بِهِ، وَغَيْرُهُ لَا يَكُونُ مُتَّبِعاً حَتَّى يُلْحَقَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ فَفِيهِ أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، لَيْسَا يَمُضِيَانِ عَلَى الْجُزْأَيْنِ، وَلَكِنْ يَتَقَدَّرُ سَبْقُ مِنَ اللَّهِ ﷻ وَآيَةُ ذَلِكَ ظَاهِرَةٌ^(١٥) لِأَنَّهُمَا يَجْرِيَانِ مِثْلَ خُلُقَا عَلَى تَقْدِيرٍ وَاحِدٍ، لَمْ يَتَقَدَّمَا، وَلَمْ يَتَأَخَّرَا، وَلَمْ يَنْقُصَا، وَلَمْ يَزَادَا، فَيَكُونُ فِيهِ إِبَانَةٌ أَنَّ مُدَبَّرَهُمَا وَاحِدٌ وَأَنَّ^(١٦) الَّذِي قَدَّرَهُمَا هَكَذَا مَنْ لَا يَبِيدُ مُلْكُهُ، وَلَا يَنْقُذُ سُلْطَانُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُغْنِيَهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: عَلِمَ أَنْ لَنْ تُطِيقُوهُ. قَالَ أَبُو بَكْرِ الْأَصْمُ: هَذَا لَا يَسْتَقِيمُ، لِأَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٣٤٠. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل: قال. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ١٥٥. (٥) في الأصل وم. وهو. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: يقتضي. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، في الأصل: التوبة. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٤) أدرج بعدها في الأصل وم: غير. (١٥) في الأصل وم: ظاهر. (١٦) من م، في الأصل: ولأن.

يُكَلِّفُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مَا لَا يُطِيقُونَهُ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؟ [البقرة: ٢٨٦]. وَلَيْسَ فِي مَا ذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ مَا يَزْفَعُ هَذَا التَّأْوِيلَ لِأَنَّهُ يَقَالُ: الْأَمْرُ إِذَا اشْتَدَّ، وَتَعَسَّرَ، لَا يُطَاقُ هَذَا الْأَمْرُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ خَارِجًا مِنَ الْوُسْعِ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحِيزْنَا مَا لَا غَافَّةَ لَنَا بِهِ﴾؟ [البقرة: ٢٨٦] وَتَأْوِيلُهُ: لَا تُحْمَلْنَا أَمْرًا يَشْتَدُّ عَلَيْنَا عَمَلُهُ، لَيْسَ أَنَّهُمْ خَافُوا أَنْ يُحْمَلَهُمْ أَمْرًا لَا يَحْتَمِلُهُ وَتُسْعُهُمْ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿عَلَيْهِ أَنْ لَنْ تُخْصَوْهُ﴾ إِنْ كَانَ تَأْوِيلُهُ: أَنْ لَنْ تُطِيقُوهُ، عَلَى ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿مَا لَا غَافَّةَ لَنَا بِهِ﴾ أَيِ لَا تُحْمَلْنَا أَمْرًا يُهْلِكُ طَائِفَتَنَا: لَا أَنْ يُحْمَلُوا أَمْرًا لَا يُطِيقُونَهُ، أَلَا تَرَى الْإِنْسَانَ يَحْتَمِلُ الْقَتْلَ؟ وَلَكِنْ قَتْلُهُ يَهْلِكُ طَائِفَتَهُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُحِيزْنَا مَا لَا غَافَّةَ لَنَا بِهِ﴾ أَيِ اغْصِنَا مِنَ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ لِيَلَا نُؤْثِرَهَا، فَكَوْنُ مُضْئِيبِينَ بَارِئِينَ بِهَا قُوَّةَ الْفِعْلِ الَّذِي تُعْبِدُنَا بِهِ، فَلَا نَصِلَ إِلَى فِعْلِهِ. وَهَذِهِ هِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي لَا تُزَالُ^(١) الْفِعْلُ، بَلْ تُطَاقُهُ. وَأَمَّا الْفِعْلُ الَّذِي هُوَ خَارِجٌ عَنِ اخْتِمَالِ الْوُسْعِ وَالطَّاقَةِ فَذَلِكَ هُوَ الَّذِي لَا يَقَعُ بِمِثْلِهِ التَّكْلِيفُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِ أَنْ لَنْ تُخْصَوْهُ﴾ أَيِ لَنْ تُخْصَوْا حَذَّ^(٢) مَا أَمَرَكُمْ بِهِ؛ لَوْ حَذَّ^(٣) عَلَيْكُمْ فِي أَمْرِ بِتَقْدِيرِ الثَّلَاثِ وَالنُّصْفِ، لَمْ يُمَكِّنْكُمْ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ جَهْدٍ، فَفَرَضَ عَلَيْكُمْ قِيَامَ الثَّلَاثِ مِنَ اللَّيْلِ، وَجَعَلَ لَكُمْ الْإِمْكَانَ فِي أَنْ تَزِيدُوا عَلَيْهِ، فَيَحِيطُ^(٤) عَمَلَكُمْ بِقِيَامِ الثَّلَاثِ، وَلَوْ كَانَ عَلَى حَذٍّ وَاحِدٍ لَمْ يُمَكِّنْكُمْ حِفْظَهُ^(٥) إِلَّا بَعْدَ شِدَّةٍ وَجَهْدٍ، وَفِي ذَلِكَ كَلْفَةٌ عَسِيرَةٌ.

وَيُؤَيِّدُ هَذَا تَأْوِيلُ مَنْ قَالَ: ﴿عَلَيْهِ أَنْ لَنْ تُخْصَوْهُ﴾ أَيِ لَنْ تُطِيقُوهُ، وَتَكُونُ الطَّاعَةُ عِبَارَةً عَنِ التَّعْسِيرِ وَاشْتِدَادِ الْأَمْرِ.

ثُمَّ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى إِبَاحَةِ تَعْلِيلِ الْحُكْمِ بِالِاسْتِحْسَانِ لِأَنَّهُ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ قِيَامَ ثَلَاثِ اللَّيْلِ، وَلَا يُمَكِّنُهُمْ تَدَارُكُ الثَّلَاثِ بِتَقْدِيرِ الْإِحَاطَةِ. وَإِنَّمَا يُمَكِّنُهُمْ بِالتَّقْدِيرِ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى الْقَلْبِ. فَتَبَيَّنَ أَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ مُعْتَبَرًا بِمَا يَقَعُ فِي الْقُلُوبِ، وَيَغْلِبُ عَلَى الظُّنُونِ، وَالِاسْتِحْسَانُ لَيْسَ إِلَّا تَعْلِيلُ الْحُكْمِ بِمَا يَغْلِبُ عَلَى الْقُلُوبِ.

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ يُلَازِمُ بِمَا ذَكَرْنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَلَزَمَ الْحَذَّ عَلَى الْقَافِظِ وَعَلَى^(٦) الزَّانِي، وَلَمْ يَبَيِّنْ مَبْلَغَ وَقْعِ الضَّرْبِ فِيهِ وَلَا مَا يُضْرَبُ بِهِ، فَقَدَّرَ ذَلِكَ بِمَا يَقَعُ فِي الْقُلُوبِ أَنْ مِثْلَ هَذَا الضَّرْبِ يَصْلُحُ لِيُثَلِّمَ هَذِهِ الْجَنَائِةَ، وَكَذَلِكَ قِيمُ الْأَشْيَاءِ وَالْأَرْزُسِ وَالنَّفَقَاتِ وَتَسْوِيَةُ الْمَكَائِلِ وَالْمَوَازِينِ، يُعْتَبَرُ ذَلِكَ كُلُّهُ بِغَلَبَةِ الظُّنُونِ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَصْلٌ تُقَدَّرُ النَّوَازِلُ بِهِ، وَتُنْتَزَعُ مِنْهُ.

فَتَبَيَّنَ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُحْكَمَ بِالَّذِي يَغْلِبُ عَلَى الظُّنُونِ، وَأَنَّ الْمَجْتَهِدَ يَرْجِعُ إِلَى وَجْهَيْنِ: مَرَّةً يَنْظُرُ [فِي]^(٧) غَيْرِهِ، فَيَتَمَثَّلُ بِهِذَا، فَيُسَمِّي ذَلِكَ قِيَاسًا، وَمَرَّةً يُحْكَمُ فِيهَا بِمَا يَغْلِبُ عَلَى الظُّنُونِ، فَيُسَمِّي ذَلِكَ اسْتِحْسَانًا.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّ سَوَالَ مَنْ يَسْأَلُ أَبَا حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّ الْوِثْرَ لَوْ كَانَ لَهُ مُشَابَهَةٌ فِي الْفَرَضِ لَكَانَ لَا يُخْتَلَفُ بِعَدْوِهِ سَوَالَ غَيْرِ مُسْتَقِيمٍ، لِأَنَّهُ قَدْ فَرَضَ عَلَى الْقَوْمِ أَنْ يَقُومُوا ثَلَاثَ اللَّيْلِ. وَقَدْ أَخْبَرَ^(٨) أَنَّهُمْ لَا يُخْصَوْنَ حَذَّ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ. وَإِذَا لَمْ يُخْصَوْا، فَلَا بَدَّ أَنْ يَقَعَ هُنَاكَ زِيَادَةٌ أَوْ نَقْصَانٌ. فَكَذَلِكَ الْوِثْرُ، وَإِنْ كَانَ حَذَّ عَدْوِهِ غَيْرَ مَعْرُوفٍ، وَهُوَ لَا يُخْرِجُهُ عَنْ حُكْمِ الْفَرَائِضِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فِي قَوْلِهِ^(٩): ﴿عَلَيْهِ أَنْ لَنْ تُخْصَوْهُ نَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَقَّتَ مَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ عَلِيمٌ أَنَّهُمْ لَا يُخْصَوْنَ، وَلَكِنْ بَيَّنَّ هَذَا لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنْ يُكَلِّفُهُمْ إِقَامَةَ الْعِبَادَةِ إِلَى وَقْتٍ لَا يَتَّهِيًا لَهُمْ إِحَاطَةً مَبْلَغَ ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَّا بَعْدَ جَهْدٍ لِيَعْرِفُوا مِنَّةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذَا اسْقَطَ عَنْهُمْ ذَلِكَ التَّكْلِيفَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ^(١٠): ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّكُمْ مَخْمُوكٌ﴾ [الأنفال: ٦٦] وَلَكِنْ ذَكَرَ هَذَا لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ يُكَلَّفُونَ الْقِيَامَ لِلْعُسْرَةِ، وَإِنْ كَانَ بِهِمْ ضَعْفٌ، لَكِنْ إِذَا خَفَّفَ عَنْهُمْ عَرَفُوا مَا لِلَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ عَظِيمِ الْمِنَّةِ.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَزَالُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَخَذَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَخَذَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَحِيطُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَفِظَ.

(٦) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقوله تعالى: ﴿فَتَأْتِيكَ بَظَلَةٌ تَخُمْ شَدَّتْ لِكَ الْبَلَّاءُ وَيَنْصَرُّ يَوْمَئِذٍ الَّذِينَ كَانُوا مُشْرِكِينَ﴾ فتكون الثوبة راجعة إليهم. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ بِمَا أَنْتَ عَمَلٌ مُدْرِكٌ﴾ فهذا يبين أنهم جميعاً لم يقوموا معه، وإنما قامت طائفة، فتكون الثوبة راجعة إلى الطائفة التي امتنعت عن القيام.

وجائز أن تكون راجعة إليهم وإلى الذين قاموا معه، فيكون الذين قاموا معه قَصُرُوا القيام عن الحد الذي شَرَطَ عليهم، فافتقرُوا إلى الثوبة أيضاً كما افتقر إليها^(١) مَنْ تَخَلَّفَ عن القيام فتأب الله عليهم جميعاً، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَاقْرَأُوا مَا يَنْشُرُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ فمنهم مَنْ ذَكَرَ أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ صَارَ مَنْسُوحاً بهذه الآية، ومنهم مَنْ يَقُولُ بَأْوَ النَّسْخِ وَقَعَ بقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي الصلاة المفروضة، وليس بينهما فرق عندنا. وإنما نُسِخَ بها جميعاً.

وَوَجْهُ النَّسْخِ، هو بالإقتصار أن فَرَضَ القيام لو كَانَ باقياً لَكَانَ لا يجوزُ لَهُمْ أَنْ يَكْتَفُوا مِنَ الْقِرَاءَةِ بِمَا يَنْشُرُ عَلَيْهِمْ لَأَنَّهُمْ إِذَا قَامُوا إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ لَزِمَهُمْ تَبْلِيغُ الْقِرَاءَةِ إِلَى حَدِّ يَتَعَسَّرُ عَلَيْهِمْ، وَيَشْتَدُّ.

فَإِذَا أُذِنَ بِالْإِقْتِصَارِ عَلَى الْقَدْرِ الَّذِي تَيْسَّرُ، عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ سَقَطَ عَنْهُمْ أَنْ يَقُومُوا ثُلُثَ اللَّيْلِ.

ثم هو إِذَا أَقَامَ صَلَاةَ ٦٠٩ - أ / الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ قَدْ قَرَأَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا تَيْسَّرَ عَلَيْهِ، فَصَارَ قَاضِياً لِمَا افْتَضَاهُ قَوْلُهُ: ﴿فَاقْرَأُوا مَا يَنْشُرُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾.

فَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ اسْتَدَلُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى نَسْخِ حُكْمِ الْقِيَامِ بِاللَّيْلِ.

ثم هذه القراءة يُقِيمُهَا فِي الصَّلَاةِ، فَيَكُونُ النَّسْخُ واقِعاً بهما.

ثم مِنَ النَّاسِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ فَرَضَ الْقِيَامِ سَقَطَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَنْ أَتِيهِ، وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] وَإِنْ كَانَ الْقِرْضُ عَلَيْهِ قائماً لَمْ يَكُنِ التَّهَجُّدُ بِهِ نَافِلَةً.

ومنهم مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَمْ يَسْقُطْ عَنْهُ فَرَضُ الْقِيَامِ، بَلْ دَامَ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ قُبِضَ ﷺ وَاحْتَجَّ بِمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كُتِبَ عَلَيَّ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَلَمْ يُكْتَبْ عَلَيْكُمْ وَمَعْنَاهُ: بَقِيَ عَلَيَّ مَكْتُوباً، وَرُفِعَ عَنْكُمْ، إِذْ دَلَّلْنَا أَنَّ الْقِيَامَ فِي الْإِنْبَاءِ كَانَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ جَمِيعاً.

وقد قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: إِنَّ صَلَاةَ اللَّيْلِ، لَمْ تَكُنْ فَرَضاً عَلَى أَتِيهِ بِهَذَا الْحَدِيثِ، وَمَا ذَكَرْنَاهُ حُجَّةً عَلَيْهِمْ.

ثم الْجَوَابُ عَنِ التَّعْلُّقِ [بقوله: (٢)] ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ مَعْنَاهُ: غَنِيمةٌ لَكَ، لَا أَنَّ يَكُونُ الْقِيَامُ مِنْهُ تَطَوُّعاً. وَوَجْهُ صَرْفِهِ إِلَى الْغَنِيمةِ، هُوَ (٣) أَنَّ الْعِبَادَةَ مِنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُخْرِجُ مُخْرَجَ الشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى، فَيَصِيرُ بِهَا مُكْتَسِباً لِلْفَضِيلَةِ، وَلَيْسَ يَقَعُ ذَلِكَ مَوْقِعَ التَّكْفِيرِ لِلْسَّيِّئَاتِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى قَدْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَا تَأَخَّرَ، فَلَمْ يَكُنْ يَخْتِاجُ إِلَى إِتْيَانِ الْحَسَنَاتِ لِتُكَفِّرَ عَنْهُ السَّيِّئَاتِ. فَكَبِتَ أَنَّ الْفِعْلَ مِنْهُ يَقَعُ مَوْقِعَ اكْتِسَابِ الْفَضِيلَةِ، فَتَدَوَّمَ لَهُ تِلْكَ الْفَضِيلَةُ، وَيَسْتَوْجِبُ بِهَا جَزِيلَ الثَّوَابِ، وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْغَنَائِمِ.

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ يُخْرِجُ مُخْرَجَ الشُّكْرِ مَا رُوِيَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «[أَنَّهُ قَامَ]»^(٤) حَتَّى تَوَزَّعَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَمْ يَغْفِرْ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ ﷺ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟ [البخاري ١١٣٠ ومسلم ٢٨١٩ و٢٨٢٠].

وَأَمَّا غَيْرُهُ فَإِنَّ الْحَسَنَاتِ مِنْهُمْ مُكَفِّرَةٌ لِسَيِّئَاتِهِمْ وَمُطَهِّرَةٌ لِرِزَالَتِهِمْ بِقَوْلِهِ^(٥) تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ الْكَسِيرَاتِ﴾ [هود: ١١٤] فَهَمَّ بِحَسَنَاتِهِمْ لَمْ يَصِيرُوا مُكْتَسِبِينَ الْفَضِيلَةِ فِي مُسْتَأْنِفِ الْأَوَاقِ، فَيَصِيرُوا فِيهَا مُغْتَنِمِينَ، بَلْ رَفَعُوا رِزَالَتِهِمْ، وَظَهَرُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْمَائِمْ، فَلَمْ تَصِرِ الْقُرْبَةُ مِنْهُمْ [نافلة]^(٦) وَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَلِهَذَا [مَا سَمَى تَهَجُّدَهُ نَافِلَةً]^(٧) لَا أَنَّ يَكُونُ قِيَامُهُ نَفْلًا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَيْهِمْ. (٢) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ اللَّهُ. (٦) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ نَرْحَمُ وَمَا خَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَمَا خَرُونَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فمنهم مَنْ زَعَمَ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ كُلَّهَا مَكِّيَّةٌ، ومنهم مَنْ زَعَمَ [أَنَّ] ^(١) أَوَّلَهَا مَكِّيَّةٌ، وَآخِرُهَا مَدَنِيَّةٌ.

وَيَحْتَجُّ هَؤُلَاءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ويقولونه تعالى: ﴿يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وذلك لِأَنَّ ^(٢) الْجِهَادَ فَرَضَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَمْ يَوْجَدْ مِنْهُمْ الضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ فِي حَالِ كَوْنِهِمْ بِمَكَّةَ، وَفِي هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ جِهَادٍ طَافِقَةٍ وَعَنْ ضَرْبٍ بَعْضٍ فِي الْأَرْضِ؛ فَثَبَّتَ أَنَّ نَزُولَ هَذِهِ الْآيَاتِ كَانَ ^(٣) بِالْمَدِينَةِ. وَاحْتَجُّوا أَيْضاً بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وقالوا ^(٤): إِنَّ الزَّكَاةَ إِنَّمَا فُرِضَتْ عَلَيْهِمْ بَعْدَ مَا هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَفِي هَذَا أَمْرٌ بِإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ؛ فَثَبَّتَ أَنَّ نَزُولَهَا كَانَ ^(٥) بِالْمَدِينَةِ.

وَأَمَّا أَوَّلُ السُّورَةِ فَهُوَ ^(٦) فِي مَوْضِعِ الْمُحَاجَّةِ عَلَى أَهْلِ الشُّرْكِ، وَلَمْ يَكُنْ بِالْمَدِينَةِ مُشْرِكٌ، بَلْ [كَانَ أَهْلُهَا] ^(٧) أَهْلَ كِتَابٍ.

وَمَنْ ذَكَرَ أَنَّهَا كُلَّهَا مَكِّيَّةٌ، فَهُوَ يَحْمِلُ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا خَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَمَا خَرُونَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عَلَى الرَّغْدِ وَالْبِشَارَةِ، لَيْسَ عَلَى الْإِيجَابِ وَالْوُجُوبِ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ ﷺ: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ نَرْحَمُ﴾ أَخْبَرَ ^(٨) أَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْهُمْ ^(٩) مَرْضَى لَا أَنْ كَانُوا مَرْضَى ذَلِكَ الرَّقْتِ، فَلَمْ يَكُنْ فِي مَا ذَكَرَ دَلَالَةً كَوْنِهَا مَدَنِيَّةً.

ثُمَّ الْآيَةُ، إِنَّ كَانَتْ عَلَى الْوَعْدِ، فَفِيهِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي ضَيْقٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَكَانُوا مِنَ الْقَوْلِ ^(١٠) فِي خَوْفٍ، فَيَكُونُ فِيهِ بَشَارَةٌ أَنَّهُ يَرْفَعُ عَنْهُمْ الضَّيْقَ بِمَا يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ، وَيُوسِّعُ عَلَيْهِمُ الْعَيْشَ، وَأَنَّهُ يَفْتَحُ لَهُمْ ^(١١) الْفَتْحَ، وَيَكْثُرُ أَنْصَارُهُمْ حَتَّى يَقْهَرُوا الْعَدُوَّ، وَيَقَعَ لَهُمْ مِنْ نَاجِيَّتِهِمُ الْأَمْنُ، وَقَدْ آلَ الْأَمْرُ إِلَى مَا بُشِّرُوا بِهِ؛ فَفِيهِ آيَةُ رَسُولِهِ ﷺ إِذْ أَخْبَرَهُمْ عَنْ عِلْمِ الْغَيْبِ وَكَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا أَخْبَرَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ نَرْحَمُ﴾ فِي مَوْضِعِ الْإِعْتِلَالِ؛ إِنَّهُ إِنَّمَا خَفَّفَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرَ مِنَ الْإِعْتِدَارِ مِنَ الْمَرْضَى وَالضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ وَالْمُجَاهَدَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَالتَّخْفِيفُ إِذَا وَجِبَ الْعُذْرُ؛ فَمَا لَمْ يُلَاقِ الْعُذْرُ حَالَةَ الْفِعْلِ لَمْ يُخَفَّفْ، فَكَيْفَ خَفَّفَ عَنْهُمْ قَبْلَ وَقُوعِ الْأَعْدَارِ؟ وَلَكِنْ هَذِهِ الْأَعْدَارُ، وَإِنْ تَحَقَّقَتْ هِيَ، فَلَا ^(١٢) تَلَاوِي الْفِعْلِ، بَلْ تَتَقَدَّمُهُ، لِأَنَّ الْمُجَاهَدَةَ تَكُونُ بِالنَّهَارِ لَا بِاللَّيْلِ، وَكَذَلِكَ الضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ، وَقَتُّ النَّهَارِ لَا اللَّيْلُ، وَالْقِيَامُ كَانَ بِاللَّيْلِ، لَيْسَ بِالنَّهَارِ، ثُمَّ قَدْ وُضِعَ عَنْهُمْ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْعُذْرُ مُلَاقِيًا الْقِيَامَ.

فَعَلَى ذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمْ الْقِيَامَ بِاللَّيْلِ، وَإِنْ [لَمْ] ^(١٣) يَأْتِ بَعْدَ وَقْتِ الْمُجَاهَدَةِ، وَلَا كَانَ الضَّرْبُ موجوداً، إِذْ لَيْسَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَّا عَدَمُ مُلَاقَاةِ الْعُذْرِ حَالَةَ الْقِيَامِ، وَجَعَلَهُ رَفَعُ قِيَامِ اللَّيْلِ عَنْهُمْ بِالْمُجَاهَدَةِ وَالضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ، وَإِنْ كَانَ يَخْصُلَانِ بِالنَّهَارِ لَا بِاللَّيْلِ، لِأَنَّ ^(١٤) الْمُجَاهَدَةَ بِالنَّهَارِ تُضَيِّعُهُمْ، وَتُؤْهِنُ قُوَاهُمْ، فَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِمْ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَكَذَلِكَ الضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ. فَمَنْ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ رَفَعَ عَنْهُمْ قِيَامَ اللَّيْلِ، وَإِنْ لَمْ يَوْجَدْ مِنْهُمْ الْإِشْتِغَالَ بِالْجِهَادِ بِاللَّيَالِي، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ الضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ يَكُونُ لِلتَّجَارَةِ وَلِغَيْرِهَا مِنَ الْوُجُوهِ: لِطَلَبِ الْعِلْمِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَسْبَابِ، فَلَا يَخْصُلُ أَمْرُ الضَّرْبِ عَلَى التَّجَارَةِ خَاصَّةً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَقِيمُوا الزَّكَاةَ﴾ دَلَالَةٌ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَدَنِيَّةٌ لِأَنَّ الزَّكَاةَ إِنَّمَا فُرِضَتْ عَلَيْهِمُ بِالْمَدِينَةِ. فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا ذَكَرَ أَنَّ فَرَضِيَّتَهَا نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ، فَذَلِكَ عِنْدَنَا مَصْرُوفٌ إِلَى زَكَاةِ الْمَوَاشِي خَاصَّةً، لِأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِمَكَّةَ سَوَائِمٌ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَخَافُونَ الْعَدُوَّ، فَلَمْ يَتَّهَيَّأْ لَهُمْ إِسَامَةُ الْمَوَاشِي.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَتْ. (٤) الْوَائِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَتْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهِيَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانُوا. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَأَخْبِر. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْكُمْ. (١٠) فِي م: الْقَوْم. (١١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: عَلَيْهِمْ. (١٢) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ أَنْ.

وَأَمَّا مَا رَجَعَ مِنَ الزَّكَاةِ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الْأَمْوَالِ فَيُسَبِّحُ أَنْ تَكُونَ وَاجِبَةً عَلَيْهِمْ فِي حَالِ كَوْنِهِمْ بِمَكَّةَ وَبَعْدَ مُفَارَقَتِهِمْ إِيَّاهَا، وَلَا يَكُونُ فِي الْأَمْرِ بِلِيَاءِ الزَّكَاةِ دَلَالَةٌ تُزِيلُهَا بِالْمَدِينَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فالقَرْضُ في لغة العرب القَطْعُ، يُقَالُ: قَرَضَ الْفَارُ الْجِرَابَ أَيِ قَطَعَهُ، فَسُمِّيَ الْقَرْضُ قَرْضًا لِهَذَا لِأَنَّهُ يَقْطَعُ ذَلِكَ الْقَدْرَ، فَيَجْعَلُهُ لِلَّهِ خَالصًا، فَسُمِّيَ إِقْرَاضًا لِهَذَا.

ويجوز أن يكون أضاف إلى نفسه لثلاث يَمْنُ على الفقير في ما يَتَصَدَّقُ عليه؛ إذ الإقراضُ حَصَلَ في ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، فَيَصِيرُ الْفَقِيرُ مُعَاوَنًا فِي تِلْكَ الْقَرِيبَةِ، وَلِأَنَّ الْمَرْءَ فِي الشَّاهِدِ مَا يَفْضُلُ عَنْ حَاجَتِهِ يَدْفَعُهُ إِلَى مَنْ [يَتَّقُ بِهِ لَيْسَتْ رَدُّهُ] ^(١) مِنْهُ عِنْدَ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ، فَكَذَلِكَ الصَّدَقَةُ أَوْجَبَتْ فِي الْمَالِ الَّذِي يَفْضُلُ عَنْ [حَاجَاتِهِ / ٦٠٩ - ب / فَيُقْرِضُهَا] ^(٢) لِلَّهِ تَعَالَى، فَيَجِدُهَا مُهَيَّاةً عِنْدَمَا تَمَسُّهُ الْحَاجَةُ.

ثم المال الذي يدفعه إلى الفقير على جهة التَّصَدَّقِ، هو مالُ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُ إِقْرَاضًا لَهُ، جَلُّ جَلَالُهُ، وَأَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ، فَتَكُونُ الْفَائِدَةُ فِي الْإِضَافَةِ إِلَى نَفْسِهِ، هِيَ تَفْضِيلُ عَمَلِهِ لِرِعَابِهِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْفِعْلِ عَلَى جِهَةِ التَّكْرُمِ مِنْهُ، وَهُوَ كَمَا سَمِيَ الثَّوَابُ الَّذِي يَفْضُلُ عَلَى عِبَادِهِ أَجْرًا بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦ و. ٥٠]. وَمَنْ عَمِلَ لِنَفْسِهِ لَمْ يَسْتَوْجِبِ الْأَجْرَ عَلَى غَيْرِهِ، وَسُمِّيَ الَّذِي يُقْتَلُ شَهِيدًا بِأَنَّهُ نَفْسُهُ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى تَفْضِيلٍ وَتَرْغِيبٍ لِلْعِبَادِ فِي مِثْلِهِ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْدِرُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ مَعْنَاهُ: تَجِدُوهُ خَالصًا لَكُمْ، وَإِلَّا فَكُلُّ شَيْءٍ تُقْدِمُونَهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ تَجِدُونَهُ حَاضِرًا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَلَكِنَّ الشَّرَّ يَكُونُ عَلَيْهِمْ لِقَوْلِهِ ^(٣) تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْجَسًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ شَرٍّ مُدْرِكًا﴾ [آل عمران: ٣٠] وَقَوْلِهِ ^(٤) ﷻ: ﴿لَا يَأْخُذُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَثَرًا﴾ وَفِي حَقِّ الْكَلَامِ أَنْ يَقُولَ: هُوَ خَيْرٌ لِأَنَّ ﴿هُوَ﴾ يَرْفَعُ مَا بَعْدَهُ، وَلَكِنَّ ﴿هُوَ﴾ كَالْفِعْلِ هُنَا، وَحَقُّهُ الْحَذْفُ، وَإِذَا حُذِفَ انْتَصَبَ الْكَلَامُ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ: إِنَّ الَّذِي تَجِدُونَهُ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا لَكُمْ مِمَّا خَلَقْتُمْ، فَيَكُونُ ﴿هُوَ﴾ مَفْعُولًا. ثُمَّ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَثَرًا﴾ يَحْتَمِلُ أَوْجُهًا:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَعْظَمُ أَجْرًا مِمَّا خَلَقْتُمْ لَوَرَثَيْكُمْ، فَيَكُونُ فِيهِ أَنَّ الَّذِي يُخْلَقُ لَوَرَثَتِهِ، لَهُ فِيهِ خَيْرٌ.

وَلَكِنْ مَا تَقْدِّمُ، لَا خَيْرَ لَهُ. وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهُ فِي مَا يُخْلَقُ لَوَرَثَتِهِ خَيْرًا قَوْلُهُ ﷻ: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَخَّرْتَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَعَّهُمْ فَقَرَاءَ يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ﴾ [البخاري ٢٧٤٢].

وَالثَّانِي: أَنَّ الْمَرْءَ فِي الشَّاهِدِ، قَدْ تَسَخَّرَ نَفْسَهُ بِذَلِ [مَالِهِ لِلْأَجَلِ] ^(٥) لِيَمَّا يَأْمُلُ مِنْهُمْ فِي ^(٦) الْمَالِ الثَّوَابِ الْعَاجِلِ، فَيَكُونُ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَثَرًا﴾ تَرْغِيبٌ لِلْعِبَادِ فِي تَقْدِيمِ الْأَمْوَالِ لِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّهُ إِذَا رَغِبَتْ أَنْفُسُهُمْ فِي بَذْلِ الْأَمْوَالِ لِلْأَجَلِ طَمَعًا بِالْمَنَافِعِ الَّتِي تَحْصُلُ لَهُمْ، كَانَ ^(٧) بَذْلُ الْمَالِ لِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمَ فِي الْأَجْرِ؛ فَهُوَ أَنْ تَقَعَ فِيهِ الرِّغْبَةُ، وَلِأَنَّ النَّفْسَ قَدْ تَتَحَمَّلُ الْمَكْرُوهَ فِي الشَّاهِدِ لِمَنَافِعِ تَأْمُلُهَا فِي تَأْتِي الْحَالِ. فإِذَا طَمِعَتْ بِمَا تَبْذُلُ لِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى الثَّوَابَ الْجَزِيلَ وَالْأَجْرَ الْعَظِيمَ خَفَّ عَلَيْهَا تَحَمُّلُ الْمَكْرُوهِ، وَتَنَالَهُ بِالْبَذْلِ.

[وَالثَّالِثُ] ^(٨): يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَأَعْظَمُ﴾ بِمَعْنَى عَظِيمٍ؛ إِذْ قَدْ يُسْتَعْمَلُ حَرْفُ أَفْعَلٍ فِي مَوْضِعِ فَعِيلٍ كَمَا يُقَالُ: أَكْبَرُ بِمَعْنَى كَبِيرٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ فَالِاسْتِغْفَارُ، هُوَ طَلَبُ الْمَغْفِرَةِ؛ وَذَلِكَ يَكُونُ بِاللِّسَانِ مَرَّةً وَبِالْأَفْعَالِ ثَانِيًا. فَطَلَبُ

(١) فِي الْأَصْلِ: شَيْءٌ لَيْسَتْ رَدُّهُ، فِي م: يَتَّقُ لَيْسَتْ رَدُّهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ: حَاجَاتُ، فَيُقْرِضُ، فِي م: حَاجَاتُ فَيُقْرِضُهَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ اللَّهُ.

(٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ اللَّهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الْأَجَلُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: فَكَانَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ.

المَغْفِرَةَ مِنْ جِهَةِ الْفَعْلِ الَّذِي يَسْتَجِئُ عَلَيْهِ الْعِقَابُ، وَيُجِيبُ إِلَى مَا دُعِيَ إِلَيْهِ لِقَوْلِهِ ^(١) تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فَجَعَلَ انْتِهَاءَهُمْ عَنِ الْكُفْرِ وَدُخُولَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ سَبَبَ مَغْفِرَتِهِمْ، وَقَوْلِهِ ^(٢) ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْ عَنْكَ﴾ [نوح: ١٠].

وَلَيْسَ اسْتِغْفَارُهُمْ أَنْ يَقُولُوا بِاللِّسَانِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا، وَلَكِنْ مَعْنَاهُ: أَنْ انْتَهُوا عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَأَجِيبُوا رَبَّكُمْ إِلَى مَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ؛ فَهَذَا هُوَ الْإِسْتِغْفَارُ، وَطَلَبُ ^(٣) الْمَغْفِرَةِ يَكُونُ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ تَسْأَلَ رَبَّكَ التَّجَاوُزَ عَنْ سَيِّئَاتِكَ.

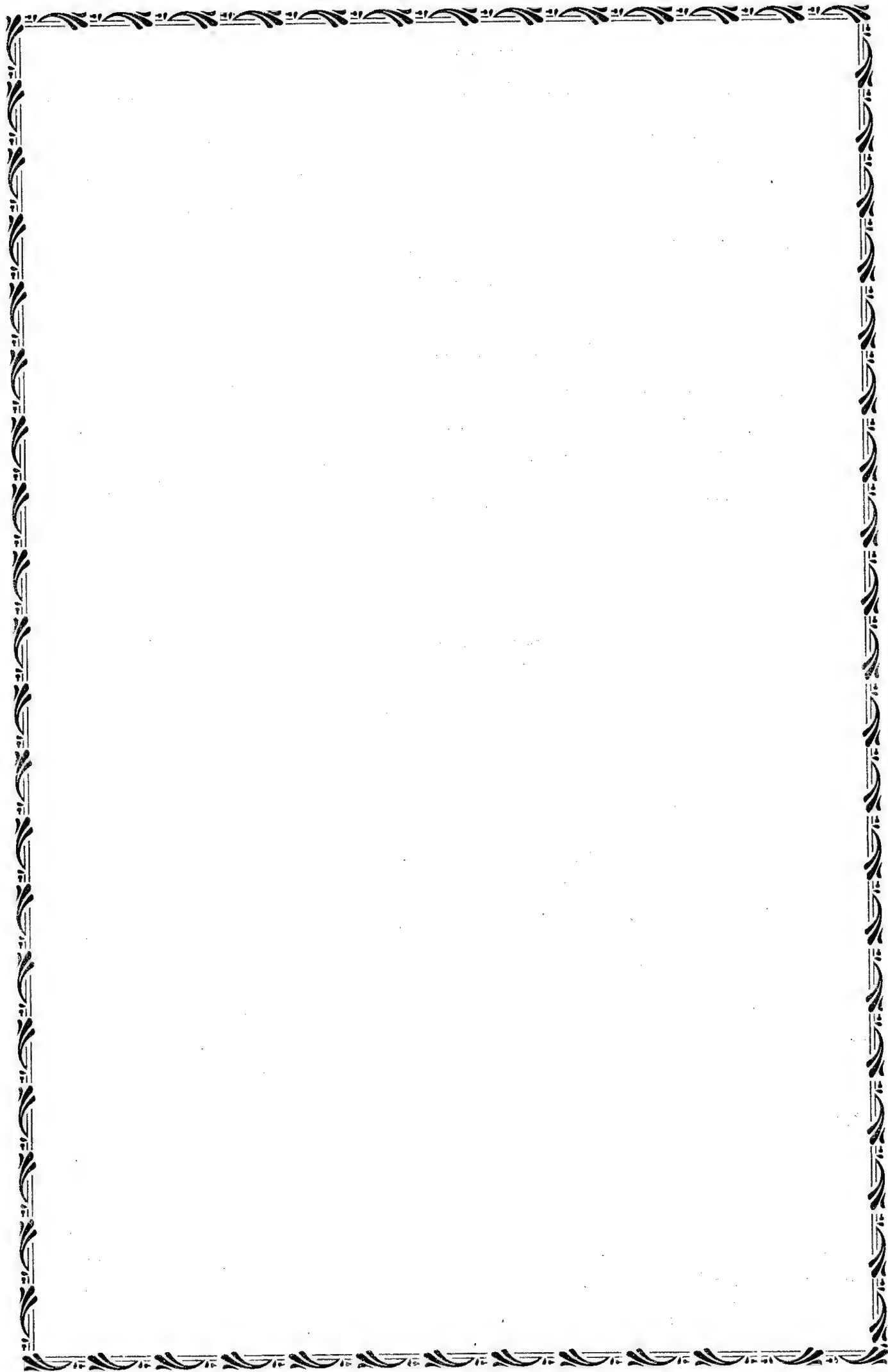
وَالثَّانِي: أَنْ [تَسْأَلَهُ تَوْفِيقَهُ] ^(٤) لِلْسَّبَبِ الَّذِي إِذَا [جِئْتُ بِهِ، اسْتَوْجِبْتَ الْمَغْفِرَةَ] ^(٥).

وَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ يُخْرِجُ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَأَبِيهِ، وَهُوَ أَنَّهُ طَلَبَ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يُوقِفَهُ لِمَا فِيهِ نَجَاتُهُ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ، لَا أَنْ يُغْفِرَ لَهُ مَعَ دَوَامِهِ عَلَى الْكُفْرِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ امْتَنَعَ عَنِ الْإِسْتِغْفَارِ لَهُ حِينَ ^(٦) تَقَرَّرَتْ عِنْدَهُ عِدَاوَتُهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُؤْفَقِ لِلْسَّبَبِ الَّذِي يَسْتَوْجِبُ بِهِ الْمَغْفِرَةَ يَقُولِهِ ^(٧) تعالى: ﴿قُلْنَا بَيْنَ لَكَ أَلَمْ تَعُدُّ لِلَّهِ تَبَرًّا﴾ [التوبة: ١١٤].

[فَتَبَّتْ أَنَّهُ لَمْ يَطْلُبْ مِنْهُ] ^(٨) الْمَغْفِرَةَ مَعَ دَوَامِهِ عَلَى الْكُفْرِ، وَلَكِنْ لِلرَّجَاءِ الَّذِي ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ ^(٩).



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ اللَّهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ اللَّهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ طَلَبُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: تَسْأَلَ حَتَّى يُوَفِّقَهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: جَاءَ بِهِ الْمَغْفِرَةَ اسْتَوْجِبَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ اللَّهُ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنْ م.



سورة المذثر

[وهي مكية^(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَذْذِرُ﴾ قيل: إن الذي حَمَلَ رسول الله ﷺ على التذُّر أنه كان في بعض طريق مكة إذ سَمِعَ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فنَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ، وَأَمَامَهُ وَخَلْفَهُ، فلم يَرِ شَيْئاً، فَفَرَّقَ مِنْهُ، فَأَتَى بَيْتَهُ، وَقَالَ: زَمِّلُونِي، فَذَثَرُوهُ.

فإن صَحَّ ما قالوا، وإلا لم يَسْغَهُمْ أَنْ يَشْهَدُوا عَلَى رسول الله ﷺ فإن الذي حَمَلَهُ عَلَى التَّذُّرِ ما ذَكَرُوا مِنَ الْفَرَقِ وَلأنَّ التَّذُّرَ لَيْسَ مِمَّا يَسْكُنُ بِهِ الرُّوعُ الَّذِي يَحُلُّ بِصَاحِبِهِ مِنَ الصَّيَاحِ، وَذَكَرُوا أَنَّ أَوَّلَ ما نَزَلَ مِنَ الْوَحْيِ قَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَذْذِرُ﴾. فإن صَحَّ ما ذَكَرُوا فَأَوَّلَ ما أُوحِيَ إِلَيْهِ، هُوَ الصَّيَاحُ الَّذِي سَمِعَهُ إِذْ كَانَ ذَلِكَ مُتَقَدِّماً عَلَى قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَذْذِرُ﴾ ﴿قُرْ فَأَنذِرْ﴾.

وقيل: إن كَفَّارَ مَكَّةَ قَذَفُوهُ بِالْسَّحَرِ، وَاجْتَمَعُوا رَأْيَهُمْ عَلَى أَنْ يَنْسُبُوهُ إِلَيْهِ، وَفَشَا هَذَا الْقَوْلُ فِيهِمْ لَهُ، فَأَخْرَجَتْهُ ذَلِكَ، فَدَخَلَ بَيْتَهُ، وَتَذَثَّرَ بِشِيبَاهُ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى ﷻ أَنْ يَقْرَأَ، فَيَنْذِرُهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَذْذِرُ﴾ ﴿قُرْ فَأَنذِرْ﴾.

وعلى هذا التأويل يكون نازلاً قَبْلَ نزول هذه السورة حتى سَمَّوْهُ سَاحِراً لِمَا رَأَوْا مِنْهُ مِنَ الْآيَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَذَكَرَ أَنَّ مُوسَى، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: أَتَانِي رَبِّي مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ، وَسَيَّاتِي مِنْ طُورٍ سَاعُورَا، وَسَيَظْلُعُ مِنْ جَبَلٍ فَارَانَ، فَإِنَّ صَاحِبَ هَذَا الْخَبَرِ، فَمَعْنَى قَوْلِهِ: أَتَانِي رَبِّي: أَوْحَى إِلَيَّ، وَقَوْلِهِ: وَسَيَّاتِي مِنْ طُورٍ سَاعُورَا، هُوَ الْوَحْيُ إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْلِهِ: وَسَيَظْلُعُ مِنْ جَبَلٍ فَارَانَ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

وفي هذا الْخَبَرِ دَلَالَةٌ أَنَّ الْأَخْبَارَ الَّتِي فِيهَا ذُكِرَ نَزُولُ الرَّبِّ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَهُوَ عَلَى نَزُولِ أَمْرِهِ إِلَى مَلَائِكَتِهِ أَنْ يَقُولُوا: هَلْ مِنْ دَاعٍ، فَيُجَابُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ، فَيُغْفَرُ لَهُ؟

فجائز أن يكون رسول الله ﷺ فِي أَوَّلِ الْوَحْيِ كَانَ بِجَبَلٍ فَارَانَ، وَهُوَ جَبَلُ [مِنْ جِبَالِ] مَكَّةَ، أَوْ كَانَ ذَلِكَ الْجَبَلُ مَنُسوباً إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ.

ثم فِي قَوْلِهِ ٦١٠ - أ / ﴿يَا أَيُّهَا الْمَذْذِرُ﴾ ثَبُتَتْ بُرْهَانُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَآيَةُ رِسالَتِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ تَعْرِيفَ الْمَرْءِ بِمَا عَلَيْهِ مِنَ الثَّيَابِ وَنَسَبِهِ إِلَيْهَا ^(٢) لَا يُخْرِجُهُ مُخْرَجَ التَّعْظِيمِ وَالتَّجْجِيلِ، وَإِنَّمَا التَّجْجِيلُ فِي مَا يَدَّعِي بِاسْمِهِ أَوْ بِكُنْيَتِهِ.

فلو كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا زَعَمَتِ الْكُفْرَةُ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَنَّ رسول الله ﷺ هُوَ الَّذِي اخْتَرَعَهُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ لَكَانَ لَا يَعْرِفُ نَفْسَهُ بِشِيبَاهُ، بَلْ يَعْرِفُهَا بِمَا فِيهِ تَجْجِيلُهَا وَتَعْظِيمُهَا، فَإِذَا لَمْ يَقْعَلْ ثَبَتَ أَنَّهُ كَانَ رَسُولاً حَقّاً؛ بَلَّغَ الرِّسَالَةَ عَلَى مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، وَأَدَّى كَمَا أَمَرَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي الْآيَاتِ الَّتِي خُرِجَتْ مُخْرَجَ الْمُعَاتَبَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ فِيهَا تَثْبِيَتْ رِسالَتِهِ نَحْوَ قَوْلِهِ: ﴿عَسَى وَتَوَلَّى﴾ ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عَبَسَ: ٢١و٢٢] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وجائز أن تكون نِسْبَتُهُ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَعْلَمَ الْخَلْقُ أَنَّ لَا بَأْسَ لِلْمَرْءِ أَنْ يَعْرِفَ أَخَاهُ بِشِيبَاهُ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَيْهِ.

وجائز أن تكون نسبتُهُ إلى الثوب الذي يتدثرُ به تُخرَجُ مُخرَجُ التعظيمِ لذلك الثوبِ لموافقته حال نزول الوحي، وهذا لما ذكرنا أن إضافة الأشياء إلى الله تعالى نحو الجزئيات تُخرَجُ مُخرَجُ تعظيم تلك الأشياء كقوله تعالى: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] و﴿مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤] و﴿رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] على تعظيم العرش وتعظيم أمر الناقة وتشريف المساجد، وإضافة الأشياء إليه نحو الكليات تُخرَجُ مُخرَجُ تعظيم^(١) الله تعالى كقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢ و...]. وقوله^(٢): ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم: ٦٥].

ثم اذن للمرء أن يسبح في ركوعه، فيقول: سبحان ربّي العظيم، فيخص نفسه بقوله: ربي، والحق في مثله أن يقول: سبحان ربنا لئلا يُخرَجَ ذلك مُخرَجَ تعظيم النفس كقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢ و...]. وقوله^(٣): ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم: ٦٥] إذ الإضافة من الجانبين على السواء في ما ذكرنا، لكن ذلك [الذكر]^(٤) إذا وافق الحالة التي فيها تعظيم الرب ووصفه بالعلو، وهو الركوع والسجود، اذن له بأن يأتي بهذا الذكر، وإن خُرجَ ذلك مُخرَجَ تعظيم النفس، فذلك الثوب الذي تدثر به النبي ﷺ إذ وافق حال نزول الوحي عظم شأنه من ذلك الوجه، فنسب إلى ذلك الثوب.

ثم المرء إنما يتدثر عندما يريد أن ينام أو عند طلب الراحة، وليست تلك الحالة حالة، يستحب [المرء]^(٥) مصاحبة الكبراء العظام في مثل تلك الحال [فضلاً عن أن يصحب الملك في مثل تلك الحال]^(٦) فيكون في هذا دلالة أن رسول الله ﷺ لم يطلع على الأوقات التي كان يأتي فيها الوحي.

وإذ لم يعلم كان الأمر عليه أصعب وأشد منه إذا بين له، لأنه إذ لم يبين له الزمة أن يصون نفسه في الحالات كلها عن أشياء يستحى مع مثلها الخلوة بالملائكة. ولهذا لم يبين لأحد منتهى عمره ليكون أبداً مستعداً للموت فرقاً أن يحل به ساعة بعد ساعة، ويكون أبداً على خوف ووجل من ذلك، والله أعلم.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿فَرَأَيْنَاهُ فَخَصَّ النَّارَ دُونَ الْبَشَارَةِ، وَقَدْ كَانَ هُوَ نَذِيرًا وَبَشِيرًا.

ففي ذكر النذارة ذكر البشارة، وإن أمسك عنها، لأن النذارة ليست ترجع إلى نفس الخلائق، وإنما النذارة هي تبين عواقب ما ينتهي إليه حال من التزم الفعل المذموم، فإذا استوجب النذارة بالتزامه ذلك الفعل فقد استوجب البشارة في تركه.

فثبت أن في النذارة بشاراً، وفي البشارة نذارة أيضاً. فاقصر بذكر إحداهما عن ذكر الأخرى، وليس في قوله: ﴿فَرَأَيْنَاهُ﴾ إلزام قيام، ولكن مغناه: ﴿فَرَأَيْنَاهُ﴾ في إندار الخلق وبشارتهم على ما ينتهي إليه وسعك.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ فَكَّرْ﴾ أي عظم. وتعظيمه أن يجيبه إلى ما دعاه إليه، ويطيعه في ما أمره، وأن يتحمل ما ألزمه عمله. فذلك تعظيمه، لا أن يقول بلسانه: يا عظيم فقط.

وجائز أن يكون تأويله: أي عظمه عن المعاني التي [قالت]^(٧) فيه الملجدة: منها^(٨) إن الله تعالى ولداً، وإن له شريكاً^(٩)، ونزعه عنها وعظم حقه، واشكر نعمه. وهذا كما يقول: إن محبة الله تعالى طاعته وإيماره وأمره، لا أن تكون، هي شيء، يغتري في القلب، فيضعق منه المرء، ويغشى عليه. فذلك تعظيم الله تعالى، يكون بالمعاني التي ذكرنا، لا أن يكون بالقول خاصة.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿وَيَاكَ نَكْفُرُ﴾ جائز أن يكون أريد بالثياب نفسه، وتجعل الثياب كناية عنها كما ذكرنا أن العرب كانت تقول: إذا كان الرجل، يثكث العهد، وليس بذي وفاء: إنه لذنس الثياب، وإذا كان له وفاء قالوا: إنه لطاهر الثياب.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: من. (٩) في الأصل وم: شريك.

فإذا كان الخطاب مُتَوَجِّهاً إلى النفسِ قَتَاوِيلُهُ، والله أعلم، أن ظَهَرَ خُلُقُكَ وأفعالك عما تُدْمُ عليه.

وجائز أن يكون أريد به^(١) الثياب، فيكون قوله: ﴿وَيَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُنَافِقَةُ﴾ مُتَوَجِّهاً إلى التَّطَهِيرِ مِنَ النَّجَاسَةِ وإلى التَّطَهِيرِ مِنَ الْإِنْسَانِ؛ وأما التَّطَهِيرُ مِنَ الْإِنْسَانِ فجائز أن يُؤَمَّرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ خاصةً لأنه كان مأموراً بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَى الْخَلْقِ، فَنُذِبَ إِلَى تَطَهِيرِ ثِيَابِهِ مِنَ الدَّنَسِ لئلا يُسْتَفْذَر، بل يُنْظَرُ إِلَيْهِ بِعَيْنِ التَّحْيِيلِ وَالْمَقْلَمَةِ. وليس هذا على تَطَهِيرِ الثِّيَابِ خاصةً، بل أَمَرَ أَنْ يُظَهَرَ جَمِيعُ مَا يَقَعُ لَهُ بِهِ التَّمَتُّعُ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَلْبَسِ وَغَيْرِهَا، والله أعلم.

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه قال: لا تلبس الثوبَ على فخرٍ ولا عذرٍ، قيل: وكان الرجل إذا كان غادراً في الجاهلية يُقال: إنه دَنَسَ الثَّيَابَ.

وقال الحسن: خُلُقُكَ فَحَسَن. وقال بعضهم: أي قَصَرَ ثِيَابَكَ، ولا تُطَوِّلُهَا، فَتَبْلُغَ أطرافها [الأرض، فتصيبها]^(٢) النجاسة، والله أعلم.

الآية ٥

وقوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فالرُّجْزُ اسْمٌ لِلْمَائِمِ، واسمٌ لِمَا يُعَذَّبُ عليه، فيكون مُنْصَرِفاً إلى ما تَنَادَى بِهِ النَّفْسُ، وَتَنَادَى بِهِ النَّفْسُ كَالسَّبَبِ فِي أَنَّهُ^(٣) اسْمٌ لِمَا تَنَادَى بِهِ النَّفْسُ وَلِمَا تَنَادَى عَلَيْهِ النَّفْسُ. قال الله تعالى: ﴿لَكُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزٍ أَلِيمٍ﴾ [سبا: ٥] فالْمَائِمُ اسْمٌ لِمَا تَنَادَى بِهِ النَّفْسُ، فهو اسْمٌ لِلْمَرَيْنِ: الْعَذَابِ وَمَا يُتَأَلَّمُ بِهِ جَمِيعاً.

وصَرَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ الرُّجْزَ إِلَى الْمَائِمِ ههنا. وَذَكَرَ قَتَادَةُ أَنَّهُ كَانَ بِمَكَّةَ صَنَمَانِ: إِسَافٌ وَنَائِلَةُ، فَكَانَ مَنْ أَتَى عَلَيْهِمَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَسَحَ وَجْهَيْهِمَا، فَأَمَرَ اللَّهُ ﷻ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُعَيِّرَهُمَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾. وقيل أيضاً: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ لَوْ مَسَحْتَ وَجْهَيْهِمَا لَكَانَ أَنْ نُؤْمِنَ لَكَ وَنَتَّبِعَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [أي فَاهْجُرْ]^(٤) عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ.

وقيل: الرُّجْزُ الْعَذَابُ. فَجُمْلَتُهُ تَرْجِعُ إِلَى مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ اسْمٌ لِلْعَذَابِ وَلِمَا يُعَذَّبُ عليه، والله أعلم.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْتَنٍ تَنْتَكِرُ﴾ قال مجاهدٌ والحسن: تأويلُهُ أَلَا تَسْتَكْبِرُ عَمَلَكَ فَتَمُنَّ بِهِ عَلَى رَبِّكَ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ. فَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ هَذَا فَالْمُرَادُ مِنَ الْخِطَابِ غَيْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَإِنْ كَانَ هُوَ الْمَذْكُورُ فِي الْخِطَابِ، إِذْ لَا يَتَوَقَّعُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمُنُّ عَلَى رَبِّهِ وَلَا أَنْ يَسْتَكْبِرَ عَمَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَنَّ هَذَا النُّوعَ مِنَ الصَّنِيعِ لَا يَقَعُ لَهُ وَاحِدٌ / ٦١٠ - ب / مِنَ الْعَوَامِّ الَّذِي خُصَّ بِأَدْنَى خَيْرٍ، فَكَيْفَ يَتَوَقَّعُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ لِأَنَّ الْإِمْتِنَانَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ فِعْلِ الْمُنَافِقِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتُورَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْكُمُوا قُلَّ لَا تَمُوتُوا عَلَى إِسْلَمِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٧].

ويسجوز أن يكون الْخِطَابُ لَهُ، وَإِنْ كَانَ هُوَ مَغْصُوماً مِنْ ذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ءَآخَرَ﴾ [القصص: ٨٨] ونحوه. وهذا كما ذَكَرْنَا أَنَّ الْعِصْمَةَ لَا تَمْنَعُ وَقُوعَ النَّهْيِ، إِذِ الْعِصْمَةُ^(٥) يَنْتَفَعُ بِهَا مَعَ ثَبَاتِ النَّهْيِ. فإذا لم يَكُنْ فَلَا فَائِدَةَ فِي الْعِصْمَةِ.

وقال بعضهم: ﴿وَلَا تَنْتَنٍ تَنْتَكِرُ﴾ أي لَا تُعْطِيهِ عَطِيَّةً، تَلْتَمِسُ بِهَا أَفْضَلَ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا مِنَ الثَّوَابِ؛ نَهَى عَنِ اخْتِسَابِ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى اسْتِكْثَارِ الْمَالِ فِي الدُّنْيَا مِنَ التَّجَارَةِ وَغَيْرِهَا إِلَّا الْقَدَرَ الَّذِي لَا بُدَّ لَهُ، وَتَقَعُ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمُدَّدَنَّ عَيْنَيْكَ إِنْ مَا سَخَعْنَا بِهِمْ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ؟﴾ [طه: ١٣١] فإذا نُهِيَ عَنْ مَدِّ عَيْنَيْهِ إِلَى مَا مَتَّعُوا فِي اخْتِسَابِ الْمَالِ الْحَقُّ ثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَى عَنِ اخْتِسَابِ ذَلِكَ وَجَمْعِهِ^(٦) وَجَعَلَ رِزْقَهُ ﷻ مِنَ الرِّجْوَةِ الَّذِي لَا تَبْلُغُهُ حِيلُ الْبَشَرِ، وَهُوَ^(٧) الْفَيْءُ وَالْغَنِيمَةُ، ثُمَّ هِيَ إِسْمَاكُهُ وَأَدْحَارُهُ لِنَفْسِهِ، بَلْ أَمَرَ أَنْ يَصْرِفَهُ فِي أُمَّتِهِ، فَقَالَ^(٨) ﷺ: «مَالِي مِنْ هَذَا الْمَالِ إِلَّا الْخُمْسُ وَالْخُمْسُ مُرَدُّهُ فِيكُمْ» [أحمد ٤/ ١٢٨] لِقَوْلِهِ^(٩) تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ

(١) في الأصل وم: بها. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: على الأرض، فتصيه. (٣) في الأصل وم: أنها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: لا. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: وذلك. (٧) في الأصل وم: وهي. (٨) في الأصل وم: بقوله. (٩) في الأصل وم: وقال الله.

وَلَدَى الْقُرْآنِ وَالْإِسْنِ ﴿الآية [الحشر: ٧] وَذَكَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ لَا يَذْخِرُ لِعَدُوِّهِ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَتْرُكُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ ﴿مَتَّعْ قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ١٩٦ و ١٩٧] فَتَبَيَّنَتْ أَنَّهُ كَانَ مَنُوبًا عَنِ اخْتِسَابِ [الأسباب التي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى اخْتِسَابِ الْأَمْوَالِ] ^(١) وَإِلَى الْجَمْعِ، فَتَوَهَّى عَنِ الْعَطَايَا الَّتِي يُلْتَمَسُ بِهَا أَفْضَلُ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصِرٌ﴾ ففي هذا دُعاء إلى إخلاص الصبر لله تعالى وإلى ^(٢) الصديق فيه، وفي قوله ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨ و .] دُعاء إلى نفس الصبر.

وجائز أن يكون هذا أيضاً على الأمر بالصبر، فيكون على التقديم والتأخير؛ كأنه يقول: فاصبر لربك، أي اصبر على ما تُؤدِّي، ولا تُجَارِهم بصنيعهم، فإن الله تعالى، يَكْفُهُمْ [عنك] ^(٣) فيكون في هذا إبانة أن رسول الله ﷺ قد امتحن بالأمور التي تَكْرَهُهَا نَفْسُهُ، وَتَشْتَدُّ عَلَيْهَا، فَدَعَاهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الصَّبْرِ عَلَى تَحْمِلِ الْمَكَارِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿إِذَا نَزَلَ فِي النَّاقُورِ﴾ يُقَرَّ أَيُ نَفْخٍ، وَالنَّاقُورُ الصُّورُ، وَهِيَ كَلِمَةٌ ^(٤) كُتِبَ الْأَوَّلِينَ، ذَكَرَهَا ههنا: ﴿إِذَا نَزَلَ فِي النَّاقُورِ﴾ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿إِذَا نَفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٣] وَقَالَ فِي مَوَاضِعَ ^(٥): ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا سَيِّئَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٢٩ و .] فَجَائِزٌ أَنْ يُحْمَلَ هَذَا كُلُّهُ عَلَى التَّحْقِيقِ، فَتَتَحَقَّقُ الصَّيْحَةُ وَالرُّجْرَةُ وَالتَّقَرُّةُ، ثُمَّ تَعْقِبُهَا السَّاعَةُ.

وجائز أن يكون هذا على التمثيل، فيكون فيه إخبار عن سهولة ذلك الأمر، وَهَوِيهِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّ اللَّحْمَةَ [وَالصَّيْحَةَ] ^(٦) وَالرُّجْرَةَ وَالتَّقَرُّةَ وَالتَّقَرُّةَ أَمْرٌ سَهْلٌ، لَا يَشْتَدُّ عَلَى أَحَدٍ، أَوْ يَكُونُ عَلَى تَقْصِيرِ الْوَقْتِ عَلَى الَّذِينَ يَنْفُخُ فِيهِمُ الرُّوحَ، أَيْ الْأَرْوَاحُ تُرَدُّ عَلَيْهِمْ فِي قَدْرِ التَّقَرُّةِ وَالرُّجْرَةِ وَالصَّيْحَةِ خِلَافاً لِأَمْرِ النَّشَاةِ الْأُولَى، لِأَنَّهُ فِي النَّشَاةِ الْأُولَى إِنَّمَا يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ بَعْدَ كَوْنِهِ نَظْفَةً فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً ثُمَّ عُلِقَتْ ثُمَّ مُضْغَةً لِذَلِكَ الْقَدْرِ مِنَ الْمَدَّةِ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ بَعْدَ مُدَّةٍ وَأَوْقَاتٍ.

وفي النَّشَاةِ الْآخَرَى يَنْفُخُ بِالْقَصْرِ مِنَ الْمُدَّةِ؛ وَذَلِكَ قَدْرُ التَّقَرُّةِ وَالرُّجْرَةِ وَالصَّيْحَةِ وَاللَّحْمَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وإنما قلنا: إِنَّ التَّأْوِيلَ قَدْ يَتَوَجَّهُ إِلَى التَّمَثِيلِ دُونَ التَّحْقِيقِ، وَإِنْ ذُكِرَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ تَثْبِيتُ الصُّورِ وَالنَّاقُورِ لِأَنَّهُمَا مِنْ أَخْبَارِ الْأَحَادِ، وَغَيْرُ الْأَحَادِ يُوجِبُ عِلْمَ الْعَمَلِ؛ وَلَا يُوجِبُ عِلْمَ الشَّهَادَةِ، وَفِي تَحْقِيقِ الصُّورِ وَالنَّاقُورِ لَيْسَ إِلَّا الشَّهَادَةُ. لِذَلِكَ لَمْ يَخْصُلِ الْأَمْرُ عَلَى التَّحْقِيقِ وَالْقَطْعِ لئلا يَقْطَعَ الْحُكْمُ عَلَى الشَّهَادَةِ.

ثم قد ذَكَرْنَا أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِذَا﴾ جَوَابُ سُؤَالٍ وَاقِعٍ عَنْ تَبَيُّنِ وَقْتٍ؛ كَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ: فَاصْبِرْ إِلَى أَنْ يَنْقَرَّ فِي النَّاقُورِ أَوْ يَكُونُ جَوَاباً لِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ نَأْذِرُ﴾ أَيْ فَنَأْذِرُهُمْ عَمَّا يَحُلُّ بِأَهْلِ الشَّرِّ مِنَ الْعَذَابِ بِنَقْرِ النَّاقُورِ، أَوْ جَوَاباً [لِقَوْلِهِ] ^(٧): ﴿سَأُعَذِّبُهُمْ مُعَذِّبَةً﴾ [المدر: ١٧] ﴿إِذَا نَزَلَ فِي النَّاقُورِ﴾ أَوْ كَانَ السُّؤَالُ وَاقِعاً عَنْ أَمْرٍ لَمْ يُشِيرْ إِلَى ذَلِكَ الْأَمْرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيتان ٩ و ١٠ وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ يَوْمَئِذٍ بِمِيزٍ﴾ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ مِيزٌ يُبَيِّرُ﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمُ رَحْمَةِ الْمُؤْمِنِينَ، إِذْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يُكْرَمُونَ، وَيُنَالُونَ عَظِيمَ الدَّرَجَاتِ مِنْ رَبِّهِمْ. وَلَكِنْ ﴿ذَكَرَ ذَلِكَ﴾ ^(٨) الْيَوْمَ فِي غَيْرِ آيَةٍ ^(٩) مِنْ كِتَابِهِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي تَكُونُ فِيهِ ^(١٠)؛ وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ تَنْزِلُ عَلَى غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَمَرَّةً سَمَاءً وَاقِعَةً، وَمَرَّةً حَاقَّةً، وَإِنَّمَا يَقَعُ الْعَذَابُ عَلَى الْكَافِرَةِ، وَيَجُوزُ عَلَيْهِمْ؛ فَلِذَلِكَ سَمَاءً عَسِيراً [وَأَنْ كَانَ هُوَ عَسِيراً] ^(١١) عَلَى فَرِيقٍ [فَهُوَ يَسِيراً] ^(١٢) عَلَى غَيْرِهِمْ.

وجائز أن يكون عَسِيراً عَلَى الْخَلَائِقِ أَجْمَعٍ بِنَفْضِ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ يَشْمَلُ الْفِرَاقَ كُلَّهَا كَمَا قَالَ: ﴿وَرَى النَّاسَ سُكْرَى﴾ [الحج: ٢].

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: أن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: كلما، في م: كلام. (٥) في الأصل وم: موضع. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: وكذلك. (٩) في الأصل وم: أي. (١٠) في الأصل وم: فيها. (١١) من م؛ ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: يسيراً.

ثم إن المؤمنين تُفَرِّجُ عنهم الأهوال بما يأتيهم من البشارات أو الكرامات عن الله تعالى، ويَبْقَى عُسْرُهَا^(١) على أصحاب النار.

الآية ١١

وقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ ذَكَرَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُعْتَزَةِ.

والأصل أَنَّ الأنبياء التي ذُكِرَتْ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي الْمَخَاطَبَاتِ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفِرَاعَةِ، فِيهَا إِبَانَةٌ أَنَّهُ جَرَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْآحَادِ مِنْهُمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ كُلَّ نَبِيٍّ، كَانَ وَاحِدًا، وَكَانَ مَنْ سِوَاهُ يَضْدُرُّ عَنْ رَأْيِهِ، وَيَنْتَهِي إِلَى تَدْبِيرِهِ، فَكَانَ يَسْتَعْنِي عَنْ مُخَاطَبَةِ مَنْ سِوَاهُ. وَقَدْ كَثُرَتْ فِرَاعَتُهُ نَبِيًّا ﷺ فَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدْعِي الرِّئَاسَةَ لِنَفْسِهِ، وَيَمْتَنِعُ عَنْ مُتَابَعَةِ غَيْرِهِ وَالصُّدُورِ عَنْ رَأْيِهِ وَالْإِثْقَادِ لَهُ. مِنْهُمْ أَبُو جَهْلٍ، وَمِنْهُمْ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، وَمِنْهُمْ أَبُو لَهَبٍ، وَغَيْرُهُمْ.

فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْتَاجُ إِلَى أَنْ يُخَاطَبَ كُلًّا فِي نَفْسِهِ، وَمِنْ اخْتِاجٍ إِلَى مُخَاطَبَةِ أَقْوَامٍ لِاجَابَةِ كُلِّ وَاحِدٍ بِحِيلِهِ، كَانَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ أَضْعَبَ مِنَ الَّذِي اخْتِاجَ إِلَى مُخَاطَبَةِ وَاحِدٍ. وَهَذَا أَنَّ الْمَخْنَةَ عَلَى رَسُولِنَا ﷺ كَانَتْ أَشَدَّ^(٢) مِمَّا امْتَحَنَ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الرُّسُلِ ﷺ.

ثم قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ فِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَمْنَعُهُ عَنْ شَيْءٍ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: ذَرْنِي. وَلَكِنْ هَذَا الْكَلَامُ مِمَّا يَتَكَلَّمُ بِهِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ عَلَى جِهَةِ إظهارِ الْقُوَّةِ؛ يَقُولُ الرَّجُلُ لِأَخْرَجَ: خَلَّ بَيْنِي وَبَيْنَ فُلَانٍ، وَدَعْنِي وَلِيَاءَهُ^(٣) مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ سَبَقَ مِنْهُ الْمَنْعُ، فَيُرِيدُ بِهِ إظهارَ الْقُوَّةِ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ كَافِيهِ وَقَادِرٌ عَلَى دَفْعِ شَرِّهِ عَنْ نَفْسِهِ.

فَيَكُونُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ دَعَاءٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ إِلَى أَلَّا تَتَعَرَّضَ لَهُ، وَلَا تُجَازِيَهُ بِصَنِيعِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَكْفُهُ^(٤)، وَيَدْفَعُ عَنْكَ شَرَّهُ، أَوْ يَكُونُ فِيهِ نَهْيٌ عَنْ أَنْ يَدْعُوَ عَلَيْهِ بِالْهَلَاكِ وَالْثُبُورِ، وَتَضْيِيقِ^(٥) إِلَى أَنْ يَأْتِيَهُ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَكُونُ فِي هَذَا مَسْلَاةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَذَلِكَ أَنَّ الْمُتَنَازِعِينَ، إِذَا تَنَازَعَا فِي شَيْءٍ، وَحَدَّثَ بَيْنَهُمَا شَرٌّ، فَانْتَضَبَ ثَالِثٌ فِي نَضْرٍ أَحَدَهُمَا، خَفَّ الْأَمْرُ عَلَى الْمَنْصُورِ، وَيَفْرَحُ لَذَلِكَ، وَيَسْلُو بِهِ.

فَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى، هُوَ الَّذِي يَقُومُ بِنَضْرِ الْمُضْطَفَى ﷺ، [وَيَكْفُ عَدُوَّهُ عَنْهُ]^(٦) كَانَ ذَلِكَ أَكْثَرَ/ ٦١١ - أ/ فِي التَّسْلِيِ وَالتَّفْرِيجِ، فَيَكُونُ فِي هَذَا تَمْكِينٌ مِنَ الصَّبْرِ الَّذِي دَعَاهُ^(٧) إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَصْبِرْ لِمَا كَرِهَ رَّبُّكَ﴾ الْآيَةُ [الطور: ٤٨].

وقوله ﷺ: ﴿خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَيِ خَلَقْتُهُ وَحْدِي، وَلَمْ يَكُنْ لِي فِي الْخَلْقِ نَاصِرٌ وَمُعِينٌ وَلَا مُشِيرٌ.

[وَالثَّانِي]^(٨): أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: أَيِ خَلَقْتُهُ وَحْدِي، لَا مَالٌ لَهُ، وَلَا وَلَدٌ. فَيَكُونُ فِي هَذَا وَعِيدٌ وَتَخْوِيفٌ لَذَلِكَ اللَّعِينِ، أَيِ كَيْفَ لَا يَخَافُ أَنْ يُعَادَ إِلَى الْحَالَةِ الَّتِي كَانَ^(٩) عَلَيْهَا يَوْمَ خُلِقَ بِلَا مَالٍ وَلَا نَاصِرٍ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدًا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَكُمْ مَالًا مَثْدُودًا﴾ قِيلَ: ﴿مَالًا مَثْدُودًا﴾ أَيِ مَالًا لَا يَنْقُطِعُ، بَلْ يَكُونُ لَهُ مَدَدٌ.

وَذُكِرَ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ كَانَ يَمْلِكُ^(١١) أَلْفَ دِينَارٍ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿مَالًا مَثْدُودًا﴾ قِيلَ: أَرَادَ بِهِ مَا جَعَلَ لَهُ مِنَ الصِّيَاعِ^(١٢) بِالطَّائِفِ، ثُمَّ [مَا تَقْتُلُ]^(١٣) فِي السَّنَةِ مَرَّتَيْنِ.

وَلَكِنْ عِنْدَنَا الْمَالُ الْمَمْدُودُ، هُوَ الْمُتَابِعُ، لَا يَنْقُطِعُ مَدَدُهُ، وَلَا يَقَعُ تَحْتَ الْإِحْصَاءِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: عُسْرُهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَكْثَرَ. (٣) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكْفِيكَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَصْبِرُهُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَكْفِيهِ عَنْ عَدُوِّهِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: دَعَى. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَيَقُولُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجَائِزٌ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَتْ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَلِكَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الصَّنَاعُ. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الآية ١٣

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْبَغُ شُهُودًا﴾ أي حضوراً، لا يغيبون، ويكون فيه وجهان من الحكمة:

أحدهما: أن ماله كثر حتى لم يحتج إلى تفريق أولاده في الجمع والاختساب، بل كان يأتيه سهماً، لا يحتاج إلى تكلف أسباب الجمع.

والثاني: أن غاية ما يُراد، ويتمنى، ويلتمس من البنين، وهو أن يستأنس بالنظر إليهم، ويستعان بهم، ويستنصر إذا احتاجوا إلى ذلك.

ففيه أنه قد نال مناه، ووصل إلى ما ترغّب إليه النفوس من كثرة الأموال والأولاد.

الآية ١٤

وقوله تعالى: ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ أي بسطت له في الدنيا بسطاً. وقيل: التمهيد، هو التمكين.

الآيتان ١٥ و ١٦

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ فجائز أن يكون طمعه منصرفاً إلى الزيادة في الآخرة كقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١] فحسبوا أنهم إذا ساووا أهل الإيمان في الدنيا يساؤونهم^(١) في الآخرة، لو كانت^(٢) الآخرة لهم^(٣) حقاً.

فكذلك هذا اللعين حسب أنه يسطّ عليه نعيم الآخرة كما بسط عليه نعيم الدنيا.

فكان قوله: ﴿كَلَّا﴾ رداً عليه. فإن كان على هذا ففيه أعظم الدلالة على إثبات رسالة محمد ﷺ لأنه أخبر أن ليس له نصيب في الآخرة، وإنما يُخرم النصيب إذا ختم على الكفر كما قال، فكان.

وهذا إخبار منه عن أمر الغيب. فصديق خبره، وخرج الأمر حقاً كما قال، فثبت أنه بالله تعالى عليم.

وجائز أن يكون طمعه الزيادة في الدنيا، فقطع عليه طمعه بقوله: ﴿كَلَّا﴾.

وذكر أن ماله بعد نزول هذه الآية أخذ في الإنقاص إلى أن أفلكه الله تعالى، ولم يزد^(٤) شيئاً، فيكون في هذا أيضاً [كما]^(٥) في الأول من إثبات الرسالة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَانْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ في هذا تضيير لرسول الله ﷺ لأن الله تعالى أكثر نعمة عليه. ثم ذلك الملعون مع كثرة نعم الله عليه وإحسانه إليه عاند، ولم يطعه^(٦) في أوامره، فكيف ترجو أنت منه في معاملتي إياك مع معاملتي إياه ما^(٧) يخالف مراده وهواه؟ فيكون فيه ما يدعو إلى الصبر.

والعناد، هو مخالفة الحق عن علم بظهور الحق، فيكون قوله: ﴿إِنَّكَ كَانْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ إنه بعد علم وإحاطة ويقين عاند آيات الله، وخالف أمر رسول الله ﷺ واستكبر.

والمكابرة، هو الذي يكابر عقله، فيخالف ما يثبت عقله بالأقوال والأفعال.

ثم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ إبطال قول من قال: إن الله تعالى لا يفعل بعباده إلا ما هو أصلح لهم، لأن قوله: ﴿أَنْ أَزِيدَ﴾ لا يخلو: إما أن تكون الزيادة التي كان يطمعها خيراً له، وفي شرط الله تعالى عندهم أن يزيده، وفي قوله: ﴿كَلَّا﴾ قطع^(٨) طمعه للزيادة، فيصير جرماني الزيادة عنه.

فكيف جعل آية رسالته من الوجه الذي هو جور عندكم، وإن كان جرماني الزيادة خيراً له وأصلح؟

فكيف جعل الجرماني أيضاً علماً لثبوته، وكان عليه أن يخرمه على رعيكم؟

وفي قراءة عبد الله ابن مسعود ﷺ: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾^(٩).

الآية ١٧

وقوله تعالى: ﴿سَأُنْفِثُ صَعُودًا﴾ فجائز أن يكون على تحقيق الصعود، وهو العقبة التي يشتد الصعود عليها

كما ذكره بعض أهل التأويل، فيكلفه^(١٠) الصعود عليها.

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٢) في الأصل وم: كان. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يزد. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: يطعم. (٧) في الأصل وم: بما. (٨) ساقطة من م. (٩) لم يذكر المؤلف قراءة ابن مسعود. (١٠) الهاء ساقطة من الأصل وم.

وجائز أن يكون على التمثيل؛ وذلك أن الصعود في الشاهد مما يشق على المرء الصعود، والهبوط مما يسهل على المرء الإنحدار عنه.

فإن كان على هذا ففيه أنه سيصيبه في الآخرة ما يشتد ويشق تحمله ذلك.

ثم يقال للمعتزلة في هذه الآية وفي قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدر: ٢٦]: إن في هذا وعيداً من الله تعالى بأن سيضليه سقر، وسيُرْهِقُهُ صُعوداً، فأراد الله تعالى أن يصدق خبره، ويُنجِز وعده، أو أراد أن يكذب خبره، ويخالف وعده.

فإن قلتم بالثاني فقد نسبتموه إلى الكذب وإلى تخلف الوعد. ومن هذا وضفه فهو سفيه جاهل، لا يصلح أن يكون إلهاً.

وإن قلتم: بلى أراد أن يصدق خبره، ويُنجِز وعده مع دوايمهم على الكفر أو عند انقلاعهم عنه. فإن زعمتم أنه إنما أراد أن يضلِّيهم سَقَرَ على الخروج من الكفر، فهذا منه جور، لأنه يضلِّيهم سَقَرَ بشيء لا إرادة له فيه، وإن سلمتم أنه أراد إصلاهم سَقَرَ إذا داموا على الكفر، واستقرروا عليه، فقد لزمكم أن تقولوا: إن الله تعالى أراد بكلٍّ^(١) أحد ما علم أنه يختاره، ويكون منه.

ويقال لهم: إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدَّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١] ولو كان الأمر على ما زعمتم أنه يريد من كل كافر أن يسلم، ويؤمن به، ويريد الكافر أن يكفر به، ويُعاديَه. فإذا قد أراد أن يكون له ولي من الدل لأنه يريد أن يواليه مع اختياره الكفر^(٢) في معاداته. ﴿سُبْحَنَهُ وَقَعْلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً﴾ [الإسراء: ٤٣].

الآية ١٨ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ قال الفقيه، رحمه الله، إن فراعنة رسول الله ﷺ اغتقدوا معاندة الحق، واغتنقوا صد الناس عن سبيل الله بأن يظفروا نوره، فأرادوا أن يجمعوا على أمر، ينسبونه إلى رسول الله ﷺ على وجوه ينفون عن أنفسهم سمة الجهل وثمة الكذب في ذلك على ما ذكروا أن الوليد جمع أصحابه، فقال: إن هذه^(٣) أيام الموسم، وإن الناس سائلوكم عن هذا الرجل، فماذا تقولون؟

فقال بعضهم: نقول: هو شاعر، فقال: إنهم قد سمعوا الشعر، وما قوله بقول شعر.

وقال بعضهم: نقول: هو كاهن، فقال: إن الكهانة معروفة عند العرب، وإذا سمعوا قوله عرفوا أنه ليس بكاهن، فيكذبونكم.

وقال بعضهم: نقول: هو كذاب، فقال: إننا قد اختبرناه فما أخذنا عليه كذبة قط.

فقال بعضهم: نقول: هو مجنون، فقال: إذا نظروا إليه علموا أنه ليس بمجنون، فأعيانهم^(٤) فكفروا في نفسه، وقدّر ﴿فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المدر: ٢٤] ما هذا الذي أتى به إلا سحر أثره عن غيره، أي يرويه، فاتفقت كلمتهم على تسميته ساحراً، وقالوا: الساحر يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، وقد وجد منه التفريق بين الآباء والأولاد وبين ذوي الأرحام [رجاء أن]^(٥) يصلوا إلى مرادهم من صد الناس عن سبيل الله تعالى وإطفاء نوره مكرراً منهم، وهو كقولهم تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ مَّجْرِمِينَ يَتَجَرَّبُونَ فِيهَا﴾ ٦١١ - ب / وَمَا يَتَكَبَّرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ [الأنعام: ١٢٣] ووجه رجوع المكر إلى أنفسهم ذكروا فيه أوجهاً:

أحدها: رجوع المكر إلى أنفسهم: أن الله تعالى أظهر سوء صنيعهم برسول الله ﷺ وجعله آية تُثَلَّى إلى يوم القيامة، فيكون فيه ظهور كذبهم والحق العار بهم إلى يوم التنادي وتواتر^(٦) اللعن.

والثاني: أن الكبراء إذا اجتمعوا في مكان للتدبير اتصل بهم أوساطهم، واختلط بهم صغارهم، فيقع بجمليتهم العلم الذي عليه التدبير، واتفقت عليه الكلمة.

(١) في الأصل وم: من كل. (٢) في الأصل وم: الكافر. (٣) في الأصل وم: هذا. (٤) في الأصل وم: فاعى عليهم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وتوارد.

[والثالث^(١)]: إذا وَقَفُوا على عِلْمِ ذَلِكَ في الآفاقِ يَقِفُ^(٢) الناسُ على كَذِبِهِمْ وافتعالِهِمْ، فَيَتَحَقَّقُ عندَ ذَلِكَ جَهْلُهُمْ بحالِ رسولِ الله ﷺ وَيَصِيرُ كَذِبُهُمْ شائعاً في الخَلْقِ مِنَ الوجهِ الذي أرادوا نَفْيَ سِمَةِ الجَهِلِ عن أنفُسِهِمْ، وَيَتَحَقَّقُ عندَ الناسِ كَذِبُهُمْ، فلا يَزْكَنُونَ إلى قولِهِمْ، ولا يَلْتَفِتُونَ إلى أخبارِهِمْ عن حالِهِ، إذ قد تَبَيَّنَ جَهْلُهُمْ بحالِهِ، فيكونُ ذَلِكَ سبباً لِتَرْغِيبِ الناسِ إلى الإسلامِ ودُعائِهِمْ إليه، ولا^(٣) يكونُ سبباً لِلصَّدِّ عن سَبِيلِ الله، فصَارَ المَكْرُ راجعاً إليهِمْ.

ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ تَكُفِّرُ﴾ أي فَكَّرَ في الأمرِ الذي أرادَ إحكامَهُ، أو فَكَّرَ في الكلماتِ التي أَلْفَوْها في ما يَبْنِيهِمْ: أيها اليَقُّ برسولِ الله ﷺ فَيَنْسُبُها^(٤) إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ﴾ يُخْرِجُ على هذا أيضاً.

الآية ١٩

وقوله تعالى: ﴿تَقِيلُ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ لُعْنٌ، واللُعْنُ، هو الإبعادُ عن رحمةِ الله تعالى، وقد ظَهَرَ الإبعادُ لَأَن مَادَّةَ مالِهِ قد انْقَطَعَتْ في الدنيا، وأَخَذَ ما كَانَ اجْتَمَعَ عندهُ في الانتِقاَصِ إلى أَن أَهْلَكَهُ اللهُ تعالى، ثم ساقَهُ إلى النارِ خالداً فيها. وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي كيفَ لم يَسْتَحْيِ مِنْ تَقْدِيرِهِ الذي قَدَّرَ مِنْ تَسْمِيَةِ رسولِ الله ﷺ ساحراً، وقد عَلِمَ أَنَّهُ في إنشائِهِ ذَلِكَ الإِسْمَ كاذبٌ؟ أو كيفَ اجْتَرَأَ على الله تعالى، وتَجَاسَرَ، وهو يَعْلَمُ أَنَّهُ رسولٌ حقٌّ، فعانَدَ آيَاتِهِ، واجْتَرَأَ على ذلك، ولم يَخَفْ نِقْمَةَ اللهِ ﷻ.

الآية ٢٠

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ لَعْنَةُ مَرَّتَيْنِ، وقد ظَهَرَ أثرُ اللعْنِ فيه في الدنيا والآخِرَةِ جميعاً، لَأَن الله تعالى فَضَحَهُ بما أَظْهَرَ كَذِبَهُ لِلخَلِيقِ، فَبَقِيَ ذَلِكَ العارُ إلى آخِرِ الأَبَدِ، وأَبْعَدُهُ مِنْ رَحْمَتِهِ حينَ^(٥) أَخَذَ مالهُ في الانتِقاَصِ، وانْقَطَعَتْ مَادَّةُ مالِهِ، فهذا أثرُ اللعْنَةِ في الدنيا، ووَعْدُهُ^(٦) أَن ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [الآية ٢٦] وَأَن ﴿سَأُزَيِّقُهُ مَجْوَدَاً﴾ [الآية ١٧] وذلك خِزْيُهُ وَلَعْنُهُ في الآخِرَةِ، فَظَهَرَتْ إحدى اللَّعْنَتَيْنِ في الدنيا، وَسَتَلْحَقُهُ الثانيةُ في الآخِرَةِ.

الآيتان ٢١ و ٢٢

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ فجاثِرُ أَنْ يَكُونَ [الذي]^(٧) حملَهُ على العُبُوسِ والبُسُورِ، هو ما أَلْفَوْا إليه مِنَ الكلماتِ، فَعَبَسَ وَجْهَهُ عليهم لما في اخْتِلَافِهِمْ ظُهُورَ كَذِبِهِمْ، أو يَكُونُ الذي دَخَلَ عليه مِنْ شِدَّةِ الغَيْظِ في أمرِ رسولِ الله ﷺ أَهْمُهُ، وأَحْزَنُهُ، حتى أَثَّرَ ذَلِكَ في وَجْهِهِ، فَعَبَسَ لِلذَّكَ وَجْهَهُ.

الآية ٢٣

ثم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَذْبَرَ عَنْ أولئك القومِ الذينَ اجْتَمَعُوا لِلتَّذْيِيرِ، واستَكْبَرُوا [عليه، أو]^(٨) أَذْبَرَ عَنْ طاعةِ الله، واستَكْبَرَ على رسولِهِ حينَ أَغْرَضَ عَنْهُ، ولم يُجِبْهُ إلى ما دَعاهُ إليه.

الآية ٢٤

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْذَرُ﴾ أي هذا الذي أتى به مُحَمَّدٌ ممَّا يُؤْذَرُ مِنْ أفعالِ السَّحْرِ، أو هذا الذي يُخْبِرُ [أَنَّهُ]^(٩) أتى به مِنْ عِنْدِ اللهِ هو سِحْرٌ يُؤْذَرُ عَنْ تَقَدُّمِهِ. ولكن قالَ هذا على عِلْمٍ مِنْهُ أَنَّهُ ليسَ بِسِحْرِ.

قالَ الفقيهُ، رَحِمَهُ اللهُ: ولو كانَ الذي أتى به مُحَمَّدٌ ﷺ سِحْراً كما قَرَفُوهُ به فهو لا يُخْرِجُ مِنْ أَنْ يَكُونَ حُجَّةً لَهُ في صِدْقِ مَقَالَتِهِ وإثباتِ رِسالَتِهِ لَأَنَّهُ لا وَجْهَ لِمَعْرِفَةِ السَّحْرِ مِنْ طَرِيقِ الرَّأْيِ والتَّذْيِيرِ، وإنما سَبِيلُ الوُصُولِ إليه التَّلَقُّيُ^(١٠) والتَّلَقُّفُ عن الغَيْرِ، وقد عَلِمُوا أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ [لم يَتَلَقَّنْ مِنْ أَحَدٍ]^(١١) ولا وَجَدَ مِنْهُ الإِخْتِلَافَ إلى مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ذَلِكَ، فَوَقَعَ لَهُمُ الإِيْقَانُ أَنَّهُ باللهِ تعالى عَلِمَ لا بِأَحَدٍ مِنَ الخَلِيقِ، فَيَصِيرُ الذي قَرَفُوهُ به مِنْ أعْظَمِ الحُجَجِ^(١٢).

ولكنَّ الله تعالى ظَهَرَهُ مِنَ السَّحْرِ، ونَزَّهَهُ عَنْ ذَلِكَ، وأَمَرَهُ بِمُعَادَاةِ السَّحَرَةِ، حتى قالَ رسولُ الله ﷺ: «اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وسَاحِرَةٍ» [الترمذي ١٤٦٠] وقالَ: «توبَةُ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ» [أحمد ١٩٠/١].

ثم الأصلُ أَنَّ السَّاحِرَ يُفَرِّقُ بَيْنَ الإِثْنَيْنِ، وَيَعْمَلُ سِحْرَهُ في التَّفْرِيقِ على وَجْهِ لا يُوقِفُ على سَبَبِ التَّفْرِيقِ، وكانَ سَبَبُ

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: فيقف. (٣) في الأصل وم: أن. (٤) في الأصل وم: فينسب. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: عليهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: الالتقان. (١١) في الأصل وم: يلتقن أحداً. (١٢) في الأصل وم: الحجة.

تفريق رسول الله ﷺ ظاهراً لأنه يأتيهم بالحجج، فيعلم من آمن النظر فيها صدقه في ما يدعي من الرسالة، فيأتيهم به، ومن ترك النظر فيها، ولم يعط من نفسه النصفة، ترك الإيمان، فينبط أن يكون التفريق كتفريق السحر، ولأن كلاً منهم لو تفكر في ما جاء به محمد ﷺ وأمعن النظر^(١) فيه حملة ذلك على الإيمان به والتضديق لرسالته، فيصير الذي جاء به محمد ﷺ سبب الاجتماع والألفة لا أن يكون سبب التفريق بين الأجيال.

ثم الأصل أن الساحر، بغية وقصده من سحره نيل الجاه عند العظماء والرؤساء واستفادة السعة في الدنيا، ورسول الله ﷺ لم يكن يطلب بما أتى به الجاه عند الرؤساء، بل عاداهم، وأظهر الخلاف، فدعا الخلق إلى الزهادة في الدنيا لا إلى الاستكبار فيها، فكيف يجوز أن ينسب إلى السحر، وقد أتى بما يضاد فعل السحرة؟

الآية ٢٥

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ قد أعلم^(٢) أنه ليس بقول البشر لما عجز البشر عن إثبات مثله، وقال: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ لَأَيْنِسًا عَيْنَكُمْ﴾ [المائدة: ١٦] فثبت أنه على العلم منه بأنها آيات، معانيد^(٣).

الآية ٢٦

وقوله تعالى: ﴿سَأُخْلِلُ سَقَرًا﴾ فالسقر لون من العذاب، وقيل: السقر، هي الدركة الخامسة، وقيل: السقر من أبواب جهنم^(٤)، ومعناه: سأدخله جهنم من [باب من]^(٥) أبواب السقر، والله أعلم.

الآيات ٢٧ و ٢٨

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَتَىكَ مَا سَقَرًا﴾ لا بقي ولا لذر^(٦) يحتمل أي لا تبقي حياة يتلذذ بها ﴿وَلَا تَذَرُهُ﴾ لا تذر^(٧)ه، فيستريح، بل تبقيه^(٨) أبداً في الهلاك كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ جَهَنَّمَ لَا يَبُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: ٧٤]. لا تبقي له جلداً ولا لحماً ولا عظماً، بل تنضج جلده، وتأكل لحمة، وتكسر عظمه، ولا تذر^(٩)ه على تلك الحال: كسر العظم وأكل اللحم ونضج الجلد، بل يعاد جلده ولحمه وعظمه، فتخرقها كذلك أبداً، لا تبقي له روحاً، ولا تذر^(١٠)ه، فيرقت فيها، فيخلص من عذابها.

الآية ٢٩

وقوله تعالى: ﴿لَوَاقِعَ النَّارِ﴾ قيل فيه بوجوه: قيل: ﴿لَوَاقِعَ النَّارِ﴾ أي محرقة للجلد، فالسقر الجلد، فجاء أن خص الجلد بالتلويح لأن الجلد، من الإنسان هو الظاهر؛ فيكون ظاهراً الإحراق مؤثراً فيه، فخصه بالذكر لهذا كما سمي الإنسان إنساناً لظهوره لكل من هو من أهل الرؤية، وسعى الجن جنّاً لاستتاره عن من ليس من جنسه، وهو كقوله ﷺ: ﴿كُلُّكُمْ نَجَسٌ جُلُودُهُمْ﴾ [النساء: ٥٦].

وقيل: ﴿لَوَاقِعَ النَّارِ﴾ أي ظاهرة للبشر كقوله تعالى: ﴿وَبَرَزَتِ الْجَنَّةُ لِلنَّارِ﴾ [الشعراء: ٩١] وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزَتِ الْجَنَّةُ لِمَنْ بَرَزَ﴾ [النازعات: ٣٦] أي تظهر لهم، وتلوح، فينظرون إليها، ويتيقنون بالعذاب.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لَوَاقِعَ النَّارِ﴾ لأن النار، تأكل جلودهم ولحومهم، فتظهر عظامهم، وتلوح عن ذلك، ثم تبدل جلوداً ولحوماً أبداً. على هذا مدار أمرهم.

الآية ٣٠

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا نِعمَةٌ عَشْرَ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم خزنة جهنم، مع كل واحد من الأعوان ما لا يحصى، وذكر أن ستة منهم يقودون الكفرة إلى النار، وستة يسوقونهم، وستة يضربونهم بمقامع الحديد والنيان، والآخر^(١١)، هو الخازن / ٦١٢ - أ / الأكبر، وهو مالك، يأمرهم بما أمر هو به.

ويحتمل أن يكون في السقر تسعة عشر ذكاً، وقد سلط على كل ذك ملك؛ وذلك أن جهنم ذات حد في نفسها لأن الله تعالى، وعد أن يملأها من الجنة والناس، ولو لم ترجع إلى حد لكان لا يتحقق امتلاؤها بالقدر الذي ذكره.

ويحتمل أن يعذب فيها بتسعة عشر لوناً من العذاب، وقد وكل كل واحد منهم أن يعذب بنوع من ذلك. والأصل أن الله تعالى حكيم، يعلم أن في كل فعل من أفعاله حكمة [عجيبة، ولكن لا كل حكمة]^(١٢) يوصل إليها بالعقل، وينتهي إلى مغربها بالتدبير.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: علم. (٣) في الأصل وم: عائد. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: بقي. (٧) في الأصل وم: والآخر. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ فِي الْمَاءِ مَعْنًى، يُخْبِي كُلَّ شَيْءٍ؟ وَلَوْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَتَكَلَّفَ اسْتِخْرَاجَ الْمَعْنَى الَّذِي بِهِ صَلَحَ أَنْ يَكُونَ طَبْعُهُ مُوَافِقاً لِأَحْيَاءِ كُلِّ شَيْءٍ، لَا يُمْكِنُهُ ذَلِكَ، وَجَعَلَ فِي الطَّعَامِ مَا يُغْذِي، وَيُنَمِّي؟ وَلَوْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَتَعَرَّفَ الْمَعْنَى الَّذِي يَقَعُ بِهِ الْإِغْتِذَاؤُ وَالْإِنْمَاءُ لَمْ يَتَدَارَكَ، وَكَذَلِكَ جَعَلَ فِي الْعَدِيدِ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ حِكْمَةً؟ وَلَكِنَّا لَا نَصِلُ إِلَى تَعْرِفِهَا بِعُقُولِنَا وَتَدْبِيرِنَا.

وَزَعَمَتِ الْبَاطِنِيَّةُ أَنَّ فِي ذِكْرِ الْأَعْدَادِ الَّتِي عَلَيْهَا تَرْكِيبُ الْعَالَمِ تَعْرِيفَ الْأَعْدَادِ الْمَجْعُولَةِ فِي الرُّوحَانِيَّاتِ.

فَيَقَالُ لَهُمْ: مَنْ جَعَلَ الْأَعْدَادَ الَّتِي [عَلَيْهَا] ^(١) تَرْكِيبُ الْعَالَمِ أَوْلَى بِأَنْ يَعْرِفَ بِهَا الْأَعْدَادَ الْمَجْعُولَةَ فِي الرُّوحَانِيَّاتِ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ الْأَعْدَادَ الَّتِي فِي الرُّوحَانِيَّاتِ عَلَى الْإِسْتِذْرَاكِ الْمَجْعُولَةِ فِي الْجَسَدَانِيَّاتِ.

ثُمَّ يُسْأَلُونَ عَنِ الْأَعْدَادِ الْمَجْعُولَةِ فِي الرُّوحَانِيَّاتِ: لَأَيِّ مَعْنَى جُعِلَتْ؟ أَوَيَّ حِكْمَةٍ فِيهَا؟ فَلَيْسَ جَوَابُهُمْ بَعْدَ هَذَا إِلَّا الْعَجْزُ وَالْإِغْتِرَافُ بِالْجَهْلِ، فَلْيَقْرِئُوا بِالْجَهْلِ مِنَ الْإِنْتِدَاءِ مِنَ [غَيْرِ] ^(٢) أَنْ يَتَكَلَّفُوا اسْتِخْرَاجَ مَا يُوجِبُ مِنْ حَقِيقَةٍ، كَانَ فِيهِ ظَهْوَرُ عَجْزِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالْأَصْلُ عِنْدَنَا مَا ذَكَّرْنَا أَنَّ أَهْلَ التَّوْحِيدِ اعْتَقَدُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكِيمٌ وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَخْرُجَ فِعْلُهُ عَنْ حَدِّ الْحِكْمَةِ، لِأَنَّ الَّذِي يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَخْرُجُ ^(٣) عَنْ حَدِّ الْحِكْمَةِ فِي الشَّاهِدِ أَحَدُ مَعَانٍ ثَلَاثَةٍ: إِمَّا الْجَهْلُ وَإِمَّا الْعَجْزُ وَإِمَّا الْحَاجَةَ، وَاللَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ لَا يَجْهَلُ، وَقَوِيٌّ لَا يَلْحَقُهُ عَجْزٌ عَنْ وِفَاءٍ مَا وَعَدَ، وَغَنِيٌّ لَا تَمَسُّهُ حَاجَةٌ، فَانْتَفَتْ عَنْهُ الْأَسْبَابُ الَّتِي لَدَيْهَا يَقَعُ الْخُرُوجُ عَنْ حَدِّ الْحِكْمَةِ.

فَتَبَّتْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَخْرُجَ فِعْلُهُ عَنْ حَدِّ الْحِكْمَةِ. لَكِنَّهُمْ إِذْ لَمْ يَعْرِفُوا الْحِكْمَةَ بِعُقُولِهِمْ، وَلَمْ يَتَدَارَكُوا بِتَدْبِيرِهِمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَا حِكْمَةَ فِيهِ، وَأَنْكَرُوا أَنْ يُضَافَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

فَأَهْلُ الدَّهْرِ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ، وَأَنْكَرُوا الصَّانِعَ لَمَّا رَأَوْا أَشْيَاءَ فِي الشَّاهِدِ، هِيَ فِي الظَّاهِرِ خَارِجَةٌ مَخْرَجَ الْعَبَثِ، وَفِعْلُ الْحِكْمَةِ لَا يَخْرُجُ مَخْرَجَ الْعَبَثِ، فَتَقَوَّا بِهَذَا أَنْ يَكُونَ لِلْأَشْيَاءِ صَانِعٌ، وَمَنْ بَنَى بِنَاءً، ثُمَّ نَقَضَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ إِلَى الْحَالَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا ^(٤) قَبْلَ النَّقْصِ، لَمْ يَكُنْ حَكِيمًا بَلْ كَانَ جَاهِلًا سَفِيهًا. فَقَاسُوا أَمْرَ الْبَعْثِ عَلَى ذَلِكَ، وَظَنُّوا أَنَّهُ خَارِجٌ مَخْرَجَ الْعَبَثِ، إِذْ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا الْإِعَادَةُ إِلَى الْحَالَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا قَبْلَ الْمَوْتِ.

وَمَا ذَكَّرْنَا مِنَ الْإِغْتِيَابِ هُوَ الَّذِي حَمَلَ الثَّنَوِيَّةَ عَلَى الْقَوْلِ بِالْهَيْبَةِ اثْنَيْنِ لِأَنَّهُمْ رَأَوْا فِي الشَّاهِدِ خَيْرًا وَشَرًّا وَصَلَحًا وَفُسَادًا وَظُلْمَةً وَنُورًا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَوْهَرُ الظُّلْمَةِ وَالنُّورِ وَاحِدًا، وَلَا يَجُوزُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ فِعْلُ الْحَكِيمِ يَخْرُجُ عَلَى الْإِخْتِلَافِ وَالْتِفَاقِ، فَقَدْ رَأَوْا ^(٥) بِهَذَا أَنَّ خَالِقَ الشَّرِّ وَالْخَيْرِ مُخْتَلِفٌ.

وبهذا ^(٦) أَنْكَرَتِ الْمَعْتَزِلَةُ خَلْقَ أَفْعَالِ الْعِبَادِ لِأَنَّ الْفِعْلَ يَكُونُ مَرَّةً خَيْرًا وَمَرَّةً شَرًّا وَمَرَّةً صِلَاحًا وَمَرَّةً فُسَادًا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الشَّرُّ مُضَافًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَلَا أَنْ يَكُونَ الْفُسَادُ مَنَسُوبًا إِلَيْهِ، فَانْكَرُوا أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي أَفْعَالِ الْعِبَادِ صُنْعًا.

وَأَهْلُ التَّوْحِيدِ سَلَّمُوا الْأَمْرَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقَوَّضُوا الْعِلْمَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَا جَاءَ عَنْهُ ۖ وَإِنْ لَمْ يَتَدَارَكُوا مَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ بِعُقُولِهِمْ لَوْجُودِهِمْ أَشْيَاءَ، هِيَ خَارِجَةٌ أَنْ يَتَدَارَكُوا بِعُقُولِهِمْ، وَيَقْفُوا عَلَيْهَا بِعِلْمِهِمْ كَمَا ذَكَّرْنَا مِنْ أَمْرِ الْمَاءِ أَنَّهُ قَدْ جَعَلَ فِيهِ مَعْنًى. ذَلِكَ الْمَعْنَى يُخْبِي الْأَشْيَاءَ، وَلَوْ أَرَادُوا أَنْ يَعْرِفُوا ذَلِكَ الْمَعْنَى بِالْعُقُولِ وَالْأَرْوَاحِ لَمْ يُمْكِنُهُمْ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ الْمَعْنَى ^(٧) فِي الطَّعَامِ وَفِي الْأَشْيَاءِ الْمَشْرُوبَةِ مَوْجُودٌ، ثُمَّ لَمْ يَجِبْ بِهَذَا إِنْكَارُ الْمِيَاهِ وَسَائِرِ الْأَطْعِمَةِ وَالْأَشْرِبَةِ، وَكَذَلِكَ لَا يَجِبُ إِنْكَارُ عَدَدِ ^(٨) الَّذِينَ سَمَّاهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَلَا إِنْكَارُ الْبَعْثِ وَلَا إِنْكَارُ كُلِّ شَيْءٍ لَا يَقْفُونَ عَلَى حِكْمَتِهِ بِعُقُولِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: على الخروج. (٤) في الأصل وم: عليه. (٥) في الأصل وم: بنوا. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: هذا. (٨) في الأصل وم: العدد.

الآية ٣١

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ فلنقاتل أن يقول في هذا أمراً^(١): لم يجعل أصحاب النار إلا ملائكة، لم يوجد فيها إنسي ولا جني، فكيف قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣] وهو لم يجعل أصحاب النار إلا ملائكة أي: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ يعذبون أهلها؟ لا أن يكون الملائكة تمسهم النار، ويتأذون بها؟

وفي هذا دلالة على أن من قرأ مكان قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [البقرة: ٨٢ و. .] أصحاب النار في صلاته لا تفسد لأنه ليس في نسبة أصحاب الجنة وأصحاب النار إيجاب عذاب عليهم كما لم يكن في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ إيجاب عذاب على الملائكة واستحقاقهم، والله أعلم.

وإنما خصهم لذلك، والله أعلم، لأنهم خلقوا يسخطون، ويغضبون لله تعالى، ولا يغضبون الله تعالى ما أمرهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠ والتحريم: ٦] لم يميلوا إلى أحد، ولم يرحموا بما رأوا عليه من العذاب في مغبة الله وخلافه. ليسوا على طباع الإنس والجن أن قلوبهم، ربما تميل، وترحم من لا يستحق الرحمة.

وذكر أهل التأويل أن قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ رد على أولئك الكفرة الذين قالوا: إنا لنكف^(٢) هؤلاء العدة حين سمعوا ﴿عَلَيْهَا نِعْمَ عَذَابٌ﴾ فتغلب عليهم، ونخرج من النار، فأخبر أنهم ليسوا برجال أمثالكم، وإنما هم ملائكة، ووصف الملائكة. وقد روي في الأخبار: من هول خلقتهم وعظمتهم وشدة بأسهم وبطشهم أن^(٣) لهب النيران يخرج من أفواههم وأن بيوتهم لا تحتمل الحرق والالام، ليست^(٤) على ما عليها^(٥) بنية البشر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الفتنه قد يتكلم بها على وجهين:

فتذكر الفتنه، ويراد بها الميخنة التي فيها الشدة، وتذكر، ويراد بها العذاب.

فإن كان يراد بها العذاب، فمعناها^(٦) أنه جعل العدة الذين ذكرهم للكفرة، وهو كقوله: ﴿يَوْمَ تَمُوتُ عَلَى النَّارِ يُقْتَلُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] أي يعذبون.

وإن كان يراد بها الميخنة فتخرج على وجوه:

أحدها: أي ما جعلنا ذكر عدوهم إلا لإفئان الذين كفروا، أي [من علم الله تعالى منهم أنه يكفر بآيات]^(٧) الله تعالى جعل ذلك سبباً لفتنته، إذ^(٨) كان في علم الله تعالى أنه ممن يبتغي الفتنه.

فإنما من علم أنه ينظر في آيات الله مسترشداً فلم يزد ذلك إلا إيماناً وتضيقاً، إذ علموا أن الله تعالى [أراد]^(٩) أن ينتج عنهم بأنواع الميخنة، فآمنوا به، وسلموا ذلك لله تعالى.

فيكون في جعل [عدة الملائكة]^(١٠): ﴿نِعْمَ عَذَابٌ﴾ شدة على الكفرة إذ كان السبب كفرهم، فذلك سمي الميخنة على هذا الوجه وفتنة.

وقوله تعالى: ﴿وَفِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بمعنى على الذين كفروا.

ثم جاز أن يكون ذلك [على]^(١١) حدوث الكفر، وهو في قوم، قد آمنوا به. فلما سمعوا هذا [زعموا]^(١٢) أن لا حكمة في هذا العدة [وليس هذا العدة]^(١٣) بأولى أن يجعلوا أصحاب النار من^(١٤) العشرين ومن الثمانية عشر، فكفروا به. وهو كقوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وذلك على حدوث / ٦١٢ - ب / إضلال، لم يكن من السامري موجوداً [وما كان]^(١٥) الإضلال متقدماً بغيرها.

(١) من م، في الأصل: أثراً. (٢) في الأصل وم: لنكفي. (٣) في الأصل وم: وأن. (٤) في الأصل وم: ليس. (٥) في الأصل وم: عليه. (٦) في الأصل وم: فمعناه. (٧) من م، في الأصل: علم. (٨) في الأصل وم: إذا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عدتهم. (١١) من م، ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: في. (١٥) في الأصل وم: لأن.

وجائز أن تكون فتنتهم، هي ^(١) أنهم ازدادوا بذكر هذا العدد كُفراً إلى كُفْرِهِمْ لأنهم نظّروا إليه بعين الاستخفاف والاستهزاء، ولم ينظروا إليه بعين التبجيل والتعظيم، فأزدادوا بذلك كُفراً.

[وقوله تعالى] ^(٢): ﴿لَيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرَوَدَ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا﴾ والإستيقانُ الزيادةُ واحدٌ، لأنَّ في الإستيقانِ زيادةَ إيمانٍ، وفي الزيادةِ استيقاناً.

فمعنى ^(٣) ﴿لَيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الذين آمنوا. وَوَجْهُ استيقانِهِمْ أنهم يجدون هذا العددَ موافقاً للعدد الذي في كتابِهِمْ. وَيَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ عَلَى الاستيقانِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا إِذَا وَجَدُوا ذَلِكَ مُوَافِقاً لِمَا فِي كُتُبِهِمْ، فَيَسْتَفِيقُوا أَنَّهُ إِنَّمَا يُخْبِرُ عَنِ اللَّهِ وَلَيَرْفَعَنَّ عَنْهُمْ الْاِزْيَابَ، لِيَكُونَ أَذْعَى لَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، إِنْ أَرَادَ مِنْهُمْ الْإِيمَانَ، وَأَقْرَبَ إِلَى إلْزَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، إِنْ لَمْ يَبْرَ مِنْهُمْ الْإِسْتِيقَانُ ^(٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَرَوَدَ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا﴾ وتصديقاً على ما سبقَ منهم مِنَ التَّصْدِيقِ بِالْجُمْلَةِ.

وكذلك رُوِيَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٤] وفي كلِّ موضعٍ ذُكِرَ فِيهِ الزِّيَادَةُ فِي الْإِيمَانِ أَنَّ مَعْنَى الزِّيَادَةِ فِيهِ أَنَّهُمْ أَزْدَادُوا بِالتَّصْدِيقِ عَلَى تَصْدِيقِهِمْ بِالْجُمْلَةِ، لِأَنَّهُمْ إِذَا وَحَّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَآمَنُوا بِهِ، فَقَدْ أَقْرَبُوا بِأَنَّ لَهُ الْخَلْقَ وَالْأَمْرَ كُلَّهُ. وَفِي الْإِقْرَارِ بِأَنَّ لَهُ الْخَلْقَ إِيْمَانٌ بِالرَّسْلِ وَتَصْدِيقٌ مِنْهُمْ ^(٥) لِإِيْمَانِهِمْ بِجَمِيعِ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

فصارَ [المرء] ^(٦) بِإِيْمَانِهِ مُعْتَقِداً لِلتَّصْدِيقِ بِكُلِّ رِسُولٍ عَلَى الْإِشَارَةِ إِلَيْهِ. فَإِذَا آمَنَ بِالرَّسُولِ وَالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ فَقَدْ آتَى بِزِيَادَةِ تَصْدِيقٍ عَلَى مَا وَجَدَ مِنْهُ مِنَ التَّصْدِيقِ بِالْجُمْلَةِ.

وجائز أن تكون الزيادة مُنْصَرِفَةً إِلَى الثَّبَاتِ وَالِاسْتِقَامَةِ لِأَنَّ الْإِيمَانَ لَهُ حُكْمُ التَّجَدُّدِ [إِذَا الْمُؤْمِنُ] ^(٧) فِي كُلِّ وَقْتٍ مَأْمُورٌ ^(٨) بِاجْتِنَابِ الْكُفْرِ؛ وَإِذَا اجْتَنَبَ الْكُفْرَ فَقَدْ آتَى بِضَدِّهِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ [تَثَبَّتَ أَنَّ الْإِيمَانَ] ^(٩) لَهُ حُكْمُ التَّجَدُّدِ فِي كُلِّ وَقْتٍ.

وإذا كَانَ كَذَلِكَ اسْتِقَامَ صَرْفُ الزِّيَادَةِ إِلَى الثَّبَاتِ وَالْقَرَارِ عَلَيْهِ. فَإِنْ شِئْتَ فَسَمِّ الدَّوَامَ عَلَى الْإِيمَانِ زِيَادَةً، وَإِنْ شِئْتَ فَسَمِّهِ اسْتِقْرَاراً ^(١٠)، وَإِنْ شِئْتَ فَسَمِّهِ ثَبَاتاً. وَفِي الْكِتَابِ مَا يُطْلَقُ جَوَازُ هَذَا كُلُّهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦] فَتَدْبِهُمُ إِلَى الْإِيمَانِ بَعْدَ مَا آمَنُوا، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا الثَّبَاتُ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَقَالَ: ﴿يُخَيِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: ٢٧] وَهُوَ الْاسْتِقْرَارُ ^(١١)، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿لَيُثَبِّتَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النحل: ١٠٢] فَجَعَلَ دَوَامَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَاسْتِقْرَارَهُمْ ^(١٢) عَلَيْهِ إِيْمَاناً.

[وقال تعالى: ﴿فَرَادَتْهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٤] وَقَالَ: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] فَأُطْلِقَ] ^(١٣) اسْمُ الزِّيَادَةِ وَاسْمُ الثَّبَاتِ وَاسْمُ الْإِيمَانِ.

وإنَّ كَانَتْ الزِّيَادَةُ مُنْصَرِفَةً إِلَى الْأَعْمَالِ فِيهِ ^(١٤) عِنْدَنَا عَلَى الزِّيَادَةِ مِنْ جِهَةِ الْفَضِيلَةِ وَالْكَمَالِ لَا عَلَى ^(١٥) الزِّيَادَةِ [مِنْ جِهَةِ الْعَدْوِ] ^(١٦) عَيْنُهُ لِأَنَّ الشَّيْءَ إِذَا اسْتَحَقَّ الزِّيَادَةَ بِغَيْرِهِ فَاسْتَحَقَّاهُ يَقَعُ مِنْ جِهَةِ الْفَضِيلَةِ وَالْكَمَالِ.

الْأَثَرُ إِلَى قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا تُعَدُّ أَلْفَ صَلَاةٍ فِي مَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» [النسائي ٢١٤/٥].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: اسْتِيقَانٌ فَمَعْنَاهُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرَوْنَ مِنْهُمْ الْإِيمَانَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْهُ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: بِأَمُور. (٩) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: اسْتِيقَاناً. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْإِيمَانَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَاسْتِقَامَتِهِمْ. (١٣) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهُوَ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَى. (١٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

ومعلوم أنه لم يُرِدْ به التفاضل من جهة العدد إذ هو يأتي بأعين الأفعال التي يَلْزَمُهُ إتيانها في غير ذلك. فكانت الزيادة مُنْصَرَفَةً [إلى] (١) الكمال والفضل [لا] (٢) إلى الزيادة من جهة العدد.

وكذلك قال [رسول الله ﷺ]: (٣) «صلاة في جماعة تفضل على صلاة المرء وحده بخمسين وعشرين درجة» [النسائي ١٠٤/٢] ولم يُرِدْ به الزيادة من جهة العدد، وإنما أراد به الزيادة من جهة الفضل والكمال.

وكذلك الزيادة التي تقع للإيمان من الأعمال الصالحة إنما هي من جهة الفضيلة والشرف؛ إذ الأعمال ليست من جنس الإيمان؛ إذ الإيمان هو التصديق، وذلك غير موجود في الأفعال. ثبت أن زيادته من الوجه الذي ذكر دون غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْآكَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُذْمُومُونَ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْكِتَابِ وَيُغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٠٤/٢] في هذا الفصل كلام بيننا وبين المعتزلة؛ فهم يزعمون أن تلك العدة، وهي عدة الملائكة، جعلت ميخنة لأهل الإسلام وأهل الكتاب وأهل الكفر وللذين في قلوبهم مرض ليؤمنوا بها، ويستسلموا لها لا ليكفروا بها من كفر، ويقول: ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟

ولكن لما وجد منهم ذلك القول نسب الجعل إليه لا أن خلقوا لذلك الوجه. وهو كقوليه تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] نسب إليهم الالتقاط، وإن كان الالتقاط لغير ذلك الوجه.

وكذلك قال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَبِّتُ لَهُمْ حَبْرٌ لَأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ لِمَ يَزَادُوكَ إِسْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] ومعلوم أن الإملاء لم يكن لازدياد الإسم، ولكنهم لما ازدادوا إسمًا نسب الإملاء إليه، وإن لم يكن الإملاء لذلك الوجه. وكذلك يقال في الكلام السائر:

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَأَنْتُمْ بِالْخِرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى ذَهَابٍ (٤)

ولا [أحد] (٥) يبني البناء للخراب، ولكن مصيره لما كان إلى الخراب نسب البناء إليه، وإن لم يكن البناء لذلك الوجه. ويقال: سرق السارق ليقطع يده. ومعلوم بأنه ليس يسرق للقطع، ولكن يسرقه [لزمه القطع] لأجلها قطعت يده، ونسب (٦) الفعل إليه، وإن كانت السرقه لغير ذلك [الوجه]. فكذلك (٧) العدة التي ذكرت في الآية جعلت فيه بجهة واحدة، وهي التي ذكرنا هنالك لما وجد من الكفرة ما ذكرنا نسب الخلق إلى ذلك الوجه لا أن كان الجعل لذلك.

ولكننا نقول: لو كان الأمر على ما زعموا أدى ذلك إلى إسقاط الربوبية؛ إذ في الحكمة: من عمل عملاً يُرِيدُ به غير الذي يكون أوجب ذلك جهلاً بالعواقب، أو جحلاً عابثاً في فعله. ومن هذا وصفه لم يصلح أن يكون إلهاً، بل يكون جاهلاً سفيهاً.

ألا ترى أن من بنى شيئاً، يعلم أنه لا يكون، كان ذلك منه عبثاً، وإذا كان غير الذي يُرِيدُهُ، كان جاهلاً به؟ فإما ثبت هذا فنقول: لو أراد الله من الكافرين غير الذي كان منه لكان فعله خارجاً مخرج الخطأ والعبث، فثبت أن الله ﷻ شاء لكل فريق ما علم أن يكون منهم.

فإذا علم من عنده أنه يؤثر الضلال على الهدى فقد شاء له الضلال، وإذا علم أنه يؤثر فعل الخير شاء له ذلك، ووقفه، وهداه إليه.

والجواب عن قوله ﷻ: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] فمعناه: ليكون لهم في علم الله عدواً وحزناً، لا أن كان الالتقاط منه لذلك الوجه. بل لو علموا أنه يصير لهم عدواً وحزناً لم يلتقطوه، ولكنهم جهلوا ما تنتهي إليه العاقبة، فالتقطوه رجاء أن يتقوا به.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) إنه قول الشاعر أبي العتاهية. انظر أبو العتاهية: أشعاره وأخباره للدكتور شكري فيصل/ ٢٧. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: إذا لزمه القطع ولأجلها ما قطع نسب. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

ولا يجوز أن يخفى على الله عواقب الأشياء، فيكون فعله في الابتداء لغير ذلك الوجه.

وقولهم: لدوا للموت وابنوا للخراب؛ فهذا يتكلم به في موضع التذكير والدعاء لتلايخ حصص المرء في بناء الأبنية، بل يزهد عنه. ويجوز أن يخفي على الله تعالى أمراً، فيخرج الأمر فيه مخرج التذكير، فثبت أنه على التحقيق، والله أعلم.

ثم قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ وَالْكَاثِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا بَلَلًا﴾ والمثل يذكر بمعنى البيان كقول القائل: أمثل لك صورة/ ٦١٣ - أ/ كذا؛ يريد: أبين لك.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْظُّلُمِ وَالنُّجُومِ﴾ فهذا كله تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ الآية، أي يفضل به من كان في علمه أنه يختار الضلال، واختياره الضلال، هو أن ينظر في آيات الله تعالى يعين الاستهزاء والاستخفاف. ومن كان نظره في آيات الله ما ذكرنا أضله الله تعالى، وزاده غواية، ومن نظر في آيات الله يعين الاستهداء والاسترشاد، واستقبلها بالتبجيل والتعظيم لها، وفقه الله تعالى، ومن عليه بالهداية، وهو كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَنُورٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] وغير ذلك، والله الموفق.

وقالت المعتزلة: قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْظُّلُمِ وَالنُّجُومِ﴾ أي يسميه ضالاً، أو يحكم عليه بالضلال إذا ضل، لا أن يكون الله تعالى يضلّه، ورياء ضلالته.

فيقال لهم: إذا كان الله يريد أن يؤمن به، وتلك إرادته في كل أحد عندكم، فتسميته إياه ضالاً وحكمه بالضلال، وهو يريد أن يهدي، جور منه، وفيه تحقيق كذبه. جل الله تعالى عن أن يلحقه وصف الجور في فعله، أو ينسب إلى الكذب.

وقال أبو بكر الأصم: تأويله: أن الله ينصب طريقاً، من سلكه أفضى به إلى الهداية، ومن زاع عنه صار إلى الضلال، ولا يتهيأ لأحد من الخلق أن ينصب مثله.

فنقول: لو كان التأويل على ما زعم لكان حقاً أن يقال: كذلك يفضل الله ما يشاء، ويهدي ما يشاء. فلما قال: ﴿وَمَنْ يَشَاءُ﴾ و: مَنْ يُعَذِّبُ بِهِ عَنِ الْأَشْخَاصِ الْعَقْلَاءِ [وما: عن الفرقة] (١) التي لا تغفل. ثبت أن الذي قاله ليس بشيء يقتضيه عليه.

ثم الأصل أن قوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْظُّلُمِ وَالنُّجُومِ﴾ من صفات الربوبية، وفيه امتداح الرب بالفعل لما يريد. فلو لم يكن مريداً منهم لما قد كان، ولم يرد كون ما علم أنه يكون سقطة الامتداح، وخرج عن أن يكون من صفات الربوبية، فثبت أن الله تعالى شاء لكل فريق ما علم أن يكون منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَلْمِزُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فالجنود، هو اسم للجماعة التي ينتقم بها، ويُنصَر بها. وجائز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَمَا يَلْمِزُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ منصرفاً إلى الملائكة الذين، هم أصحاب النار، ليس ما جعله من خزنة النار عدداً قليلاً لِقِلَّةِ جنود.

[وقوله تعالى] (٢): ﴿وَمَا يَلْمِزُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ أي [ما يعلم] (٣) مقادير قواهم وأحوالهم إلا الله؛ فمعناه لا يعلم قوة هؤلاء الجنود وينظفهم وهيئتهم إلا هو.

ثم يجوز أن يكونوا (٤) سلطوا على تغذيب أهل النار على جهة الإمتحان للملائكة كما امتحن بعضهم بإيصال التحف والكرامات إلى أهل الجنة كما امتحن بعضهم في الدنيا بقبض الأرواح واستنزال الأمطار وغير ذلك.

وجائز أن يكون تسليطهم على أهل النار على جهة الثواب والعزاء لهم، لأنهم يتلذذون بما يُعَذَّبُونَ أهل النار، ويتنعمون من أعداء الله تعالى، لأن المرء في الشاهد إذا وصل إلى الإنقيام من عدوه تلذذ به، وتنعم.

ويختل أن يكون قوله: ﴿وَمَا يَلْمِزُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ أي وما يعلم كثرة جنود ربك إلا هو.

ويختل [أن يكون قوله تعالى] (٥) ﴿وَمَا يَلْمِزُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ السبب الذي يجعل به الجنود يصلحون للإنقيام [إلا هو] إذ هو القادر

(١) في الأصل وم: عن الطريق. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: يكون. (٥) ساقطة من الأصل وم.

على أن يجعل أضعف شيء من خلقه جنداً ينتقم به من أعدائه كما في قصة البعوض في زمن نمرود وغير ذلك: من إرسال الطير إلى أصحاب القيل وإمطار الحجارة على قوم لوط ونحو ذلك.

ويحتمل أن يكون قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَلُرُ جُودَ رَبِّكَ﴾ أي لا يعلم ما الذي يتخذ الله جنداً للانتقام من الأعداء إلا هو. ألا ترى أن الله ﷻ انتقم من بعض الأعداء بالغرق، وهم قوم فرعون وقوم نوح^(١)، وأهلك بعضاً منهم بالرياح، واتخذها جنداً^(٢) عليهم، وأهلك بعضاً منهم بالحسف؟ فيكون في هذا إيجاب المراقبة من حلول النعمة والسخط. وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ جائز أن يكون منصرفاً إلى السقر أنها ذكرى للبشر أي موعظة وتذكير لهم ما إليه مرجع أمورهم.

وجائز أن يكون منصرفاً إلى عدة الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قيل: حقاً، وقيل: هو على الرذع والتنبه^(٣).

والآيتان ٣٢ و٣٤ وقوله تعالى: ﴿وَالْقَنَرِ﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَنزَلَ﴾ ﴿وَالصَّيْحِ إِذَا أَشْرَقَ﴾ فهذا في موضع القسم، وقد ذكرنا أن القسم لتأكيد ما قصد إليه بالذكر، وإدبار الليل مجيء النهار، فجائز أن يكون ذكر آخر الليل يقتضي ذكر أول النهار لودكر أول النهار يقتضي ذكر النهار^(٤) كله. فيكون القسم بها قسماً بالليل كله والنهار كله.

ثم الليل إذا أقبل عجلت ظلمته في ستر الأشياء كلها بساعة لطيفة، وكذلك النهار إذا أقبل عجل في رفع الظلمة عن الخلائق جملة بساعة لطيفة ما لو اجتهد المرء في جميع عمره، وإن طال، في عد تلك الأشياء ليحيط علماً بجملتها لم يتمكن منه.

وإذا كان لليل من السلطان ما ذكرنا، ولإقبال النهار من الأمر ما ذكرنا، وكان الذي ذكرنا أمراً مشاهداً معيناً، ولو أريد معرفة ما فيه^(٥) من الحكمة أنه لأي معنى ما صلح أن يكون الليل سائراً عن ذلك أمين الأشياء، واستقام أن يكون النهار مزيداً للستر، لم يقدّر عليه، فيكون إبانة أنه لا يجب إنكار كل ما لا يوصل إلى ذلك الحكمة فيه بالعقول والآراء، فيكون فيه إيجاب التصديق بالأنباء التي يأتي بها الرسل، وإن كان فيها ما لا يؤقت على الحكمة المجعولة فيها بالآراء.

وفيه أن منشيء الليل والنهار واحد، وأن الخلائق بجملتهم تحت سلطانه وتديره، يحكم فيهم بما يشاء، ويفعل ما يريد. وجائز أن يكون القسم منصرفاً إلى الوقتين اللذين، وقع عليهما الذكر، وهما إدبار الليل وإسفار الصبح، فيكون فيهما في الأول.

وقوله تعالى: ﴿أَشْرَقَ﴾ أي أضاء، وانتشر. وقوله: ﴿أَذْبَرَ﴾ أي ذهب.

وحكي عن الكسائي أنه قال: إن ﴿أَذْبَرَ﴾ لغة قريشية؛ يقولون: ذهب كالأمس الدابر أي الذاهب، فيقولون: دبر في الأيام والشهور والسنين، ولا يقولون في غير ذلك، لا يقولون: دبر الرجل، ودبر الأمر، ولكن يقال: أذبر.

وفي حرف ابن مسعود: إذا أذبر، وفي الحروف: إذ دبر^(٦)، والمعروف إذ أذبر كما قلنا.

والآية ٣٥ [وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَأَخَذُ الْكُفْرَ﴾ قيل: يعني السقر، ثم عذاب أهل النار ألوان، وفي جهنم ذركات، والسقر أخذ ذركاتها، إذ هي لون من ألوان العذاب، فصارت هي من إخذى الكبر^(٧).

والآية ٣٦ وقوله تعالى: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ فمنهم من صرف النذارة إلى السقر، ومنهم من صرفها إلى الرسول ﷺ وهو كقولته تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيٍّ لِّسَانُ الَّذِي يَسْمُورُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأحقاف: ١٢] فمنهم من قرأ بالتاء^(٨)، وصرفها إلى القرآن.

(١) أدرج بعدها في الأصل: عليهم السلام. (٢) في الأصل وم: جنوداً. (٣) في الأصل وم: والتنبه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فيها. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٢٦٣. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٢٦٣.

ثم الأصل أن ما خرج مخرج الأفعال مضافاً إلى الأشياء اللاتي ليست لهن أفعال، فهو يقتضي أمرين:
أحدهما: ذكر الأفعال [التي] ^(١) يقع لديها مما لو لم تكن تلك الأشياء لم تحدث تلك الأفعال ^(٢) من غير أن تكون علّة
لها، فنُسبت إليها إذ صارت شيئاً لحدوث تلك الأفعال ^(٣)، وهو كقوله ﷻ: ﴿وَعَزَّزْنَاهُمْ بِالنَّاصِيَةِ﴾ [الأنعام: ٧٠]
والحياة الدنيا لا تغر أحداً، ولكنهم اغترّوا بزيّتها، فنُسب إليها الغرور لما كانت سبباً لتغريبهم.

والثاني: أنها أنشئت على هيئة، لو كانت من أهل التغريب لكانت تغر، فنُسب إليها ^(٤) الغرور لذلك.

وقال في قصة إبراهيم، صلوات الله عليه وعلى نبيينا: ﴿رَبِّ إِنِّي نَبِيٌّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] والأصنام
ليست ممن ينسب إليها الإضلال، لأنها ^(٥) لا أفعال لها، ولكن عبادة لما ضلوا [بها] ^(٦) نُسب الإضلال إليها، وهي أيضاً
على صورة، لو كانت لها أفعال لكان يقع منها الإضلال: فنُسب إليها الإضلال للوجهين اللذين ذكرناهما.

فكذلك النذارة أضيفت إلى النذر ههنا لأنه عند ذكرها تقع النذارة، فأضيفت إليها كذلك، أو خلقت على هيئة، لو
كانت من أهل النذارة لكانت نذيرة، والله أعلم.

الآية ٣٧ وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَاءَ يَنْذِرُ أَنْ يَقْدَمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ قيل: هو على التهديد كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ
فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وذلك إنما يكون على إثر المبالغة في العظات والتذكير بعواقب الأمور / ٦١٣ - ب/ وقد بالغ
[في] ^(٧) ذلك في هذه السورة، وبين عواقب أمور العباد.

ثم قوله ﷻ: ﴿أَنْ يَقْدَمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ قيل: أن يتقدم إلى طاعة الله أو يتأخر عنها ^(٨) إلى معصية الله تعالى.

والأصل أن المرأة جعل على حب [منافع الخيرات لنفسه] ^(٩) وعلى بغض الشر والمضار. ومن أحب شيئاً طلبه، ومن
أبغض شيئاً اجتنبه، وهرب منه. وإذا طلب [شيئاً] ^(١٠) تقدم إليه، وإذا هرب من شيء تأخر عنه، فكفى عن الطلب بالتقدم
وعن الهرب بالتأخر.

فقيل في تأويل قوله ﷻ: ﴿أَنْ يَقْدَمَ﴾ إلى طاعة الله [أي تؤدي إليه المنافع في الآخرة، وتُجلب] ^(١١) إليه المحاسن
﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عن طاعته ^(١٢) إذ في الإعراض عن طاعته إيقاع النفس في المهالك وأنواع الشر.

وجائز أن يكون قوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَاءَ يَنْذِرُ أَنْ يَقْدَمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [معناه أن يتقدم، أو يتأخر] ^(١٣) بتخليق الله تعالى فعل
التقدم والتأخر منه، فيكون فعلاً له ونسباً لوجوده في حيز قدرته وخلقا لله تعالى، فيكون مثل قولنا: لا حجة علينا في
إضافة التقدم والتأخر إلينا، والله الموفق.

الآيات ٣٨ - ٤٠ وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَوِيَّةٌ﴾ [إلا أصحاب اليمين] ﴿فِي جَنَّتٍ يَنْتَعِلُونَ﴾ أصحاب اليمين، هم
الذين وصفهم الله تعالى في موضع آخر، في كتابه، وهو قوله ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَرَادَ كُنُوفُ يَسِيئِهِ﴾ [الحاقة: ١٩،
والانشقاق: ٧] فاستثنى أصحاب اليمين من جملة المرتينين لأنه ذكر الرهون بلفظ يعبر بها عن الجمع، وهو قوله تعالى:
﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَوِيَّةٌ﴾ فاستقام استثناء الجماعة من تلك الجملة أي أصحاب اليمين قد سبق منهم الأعمال التي
يستوجبون بها الإطلاق من الحبس لأن المجرمين صاروا مروهين بإجرامهم، وأصحاب اليمين قد اكتسبوا الخيرات،
وعملوا الصالحات. والأعمال الصالحة جعلها الله تعالى مكفرة للأجرام كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا كَثِيرًا﴾ [العنكبوت: ٧].

الآيتان ٤١ و ٤٢ وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّتٍ يَنْتَعِلُونَ﴾ ﴿عَنِ النَّجْوَيْنِ﴾ ﴿مَّا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ؟ فظاهر هذا يؤدي إلى أن

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: الأحوال. (٣) في الأصل وم: إليه. (٤) في الأصل وم: إليه. (٥) في الأصل وم:
لأنه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: عنه، ساقطة من م. (٩) في الأصل وم: المنافع لنفسه الخيرات.
(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) و (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

التساؤل كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وَإِذَا صَدَرَ السَّوَالُ عَنْ بَعْضِهِمْ بَعْضًا فَحَقُّهُ أَنْ يُقَالَ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَفَرٍ﴾ لَأَنَّ أَهْلَ سَفَرٍ لَمْ يَسْأَلُوا، بَلْ سَأَلَ عَنْهُمْ غَيْرُهُمْ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: يَتَسَاءَلُ الْمُجْرِمُونَ؟ فَتَبَيَّنَ أَنَّ الظَّاهِرَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْمُخَاطَبُونَ غَيْرَ الْمُجْرِمِينَ. لِذَلِكَ قُلْنَا: إِنَّ حَقَّ مِثْلِهِ أَنْ يُقَالَ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَفَرٍ﴾ لَكِنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿عَنِ﴾ زِيَادَةً فِي الْكَلَامِ، وَحَقُّهُ الْحَذْفُ وَالْإِسْقَاطُ، وَإِذَا حُذِفَ، ازْتَنَعَ الرَّيْبُ وَالْإشْكَالُ، كَأَنَّهُ قَالَ: فِي جَنَاتٍ يَسْأَلُونَ الْمُجْرِمِينَ، فَيَكُونُ فِيهِ تَثْبِيتٌ أَنَّ أَهْلَ سَفَرٍ، هُمُ الَّذِينَ خَوِطُوا بِالسَّوَالِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ الْجَنَّةِ، يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنْ مَكَانِ الْمُجْرِمِينَ: أَيْنَ مَكَانُهُمْ؟ وَأَيْنَ هُمْ؟ فَيُظَلِّعُونَ عَلَيْهِمْ، فَيَسْأَلُونَهُمْ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَفَرٍ﴾؟

الآيات ٤٢ - ٤٧

فَيَقُولُونَ إِذْ ذَاكَ: ﴿لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [وَلَوْ نَكُنْ تَطْلُعُ السَّيِّئِينَ] ﴿وَكُنَّا نَحْمُسُ مَعَ الْفَاجِينَ﴾ ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ بَيِّنَاتٍ﴾ [وَكُنَّا نَكْذِبُ بَيِّنَاتٍ] ﴿حَقِّ أَتْنَا الْيَقِينَ﴾^(١).

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَطْلَعَ قَرْنَاهُ فِي مَرْوَةِ الْحَجِيرِ﴾؟ [الصفات: ٥٥] فَتَبَيَّنَ أَنَّهُمْ يَطْلُعُونَ عَلَى أَمَاكِينِهِمْ. فَإِذَا رَأَوْهُمْ^(٢) سَأَلُوهُمْ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَفَرٍ﴾؟ فَأَجَابُوا بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ بَيِّنَاتٍ﴾ [وَكُنَّا نَكْذِبُ بَيِّنَاتٍ] ﴿حَقِّ أَتْنَا الْيَقِينَ﴾^(٣).

وَالْأَصْلُ أَنَّ الْأَفْعَالَ الَّتِي يَتَعَلَّقُ جَوَازُهَا بِالْإِيمَانِ، إِذَا أُضِيفَتْ إِلَى مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ أُرِيدَ بِهَا الْقَبُولُ، وَإِذَا أُضِيفَتْ إِلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ أُرِيدَ بِهَا أَعْيُنُ تِلْكَ الْأَفْعَالِ.

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى هَذَا، هُوَ أَنَّ الْكَافِرَ يُسَلِّكُ بِهِ إِلَى سَفَرٍ إِذَا كَانَ مُكْذِبًا بِيَوْمِ الدِّينِ، وَإِنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ، وَأَطْعَمَ الْمَسْكِينَ، لَمْ يَنْفَعَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُوجَدَ مِنْهُ الْإِيمَانُ، فَتَبَيَّنَ أَنَّهُ لَمْ يَرُدْ بِذِكْرِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ إِيَّانَ أَعْيُنِهَا، وَإِنَّمَا أُرِيدَ بِهَا الْقَبُولُ وَالْإِقْرَارُ بِهَا.

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَا قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧] فَتَبَيَّنَ أَنَّهُمْ جَحَدُوا أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِمْ إِطْعَامٌ، فَدَلَّ أَنَّهُ أُرِيدَ بِذِكْرِ الْإِقَامَةِ قَبُولُهَا لَا وَجُودَ عَيْنِهَا، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْبَلُوا إِقَامَةَ الصَّلَاةِ، وَيَقْرَءُوا بِإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ.

وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ تُذَكَّرَ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ وَإِيْتَاءُ الزَّكَاةِ، وَيُرَادُ بِهِ الْقَبُولُ كَقَوْلِهِ^(٤) تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وَلَمْ يَكُنْ لِيَجَادُ الْإِقَامَةَ وَإِيْتَاءُ الزَّكَاةِ مِنْ شَرَائِطِ التَّخْلِيَةِ، بَلْ كَانَ مَعْنَاهُ عَلَى الْقَبُولِ. فَإِذَا أَتَرُوا بِالصَّلَاةِ، وَقَبِلُوا إِقَامَتَهَا، وَأَقْرَأُوا بِالزَّكَاةِ، لَزِمَتْ تَخْلِيَةُ سَبِيلِهِمْ، وَإِنْ لَمْ يَوْجَدْ مِنْهُمْ الْفِعْلُ بَعْدُ.

فَلِلذَلِكَ صَلَحَ حَمْلُ التَّأْوِيلِ عَلَى الْقَبُولِ، وَلَمْ يُحْمَلْ عَلَى وَجُودِ حَقِيقَةِ الْفِعْلِ لِمَا ذَكَرْنَا هَذَا إِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ تَأْوِيلَ قَوْلِهِ: ﴿لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ مُنْصَرَفٌ إِلَى الصَّلَاةِ الْمَعْرُوفَةِ.

فَكَيْفَ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أُرِيدَ بِالْمُسْلِمِينَ الْمُؤَحِّدُونَ^(٥) هَهُنَا لِأَنَّ أَهْلَ الصَّلَاةِ، هُمُ الْمُسْلِمُونَ؟ يُقَالُ: أَجْمَعَ أَهْلَ الصَّلَاةِ عَلَى هَذَا، وَيُعْنَى بِهِ الْمُسْلِمُونَ.

ثُمَّ اللَّهُ ﷻ جَمَعَ فِي الذِّكْرِ بَيْنَ التَّكْذِيبِ بِيَوْمِ الدِّينِ وَبَيْنَ تَرْكِ الصَّلَاةِ وَالْإِطْعَامِ^(٦)، وَهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الَّذِي يَقْرَأُ بِالصَّلَاةِ وَالْإِطْعَامِ وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ، هُوَ الَّذِي يَقْرَأُ بِيَوْمِ [الدِّينِ]^(٧) لِأَنَّ الْمَرْءَ إِنَّمَا يَرْغَبُ فِي فِعْلِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ لِمَا يَنْطَلِعُ مِنَ الْمَنَافِعِ فِي الْعَوَاقِبِ، وَيَنْتَفِي تَرْكُهَا^(٨) مَخَافَةَ التَّبِعَةِ فِي الْعَوَاقِبِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: رَأَوْا. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ اللَّهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ: الْمُوَحِّدِينَ، سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٦) الْوَارِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: بَتَرَكَهَا.

فإذا لم يُعْرِ بِيَوْمِ [الدين] ^(١) لم يَرْجُ الْمَنَافِعَ، ولا خَافَ الْمَضَارَّ، فَيَحْمِلُهُ ذَلِكَ عَلَى تَرْكِ الْإِطْعَامِ وَتَضْيِيعِ الصَّلَاةِ وَعَلَى تَرْكِ إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ وَعَلَى جَحْدِهَا كُلِّهَا وَعَدَمِ قَبُولِهَا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾ ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ ﴿وَلَا يَحْصُ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾ [الماعون: ١-٣] لِعَدَمِ رَجَاءِ الْعَوَاقِبِ. فإذا لم يَرِ لِفَعْلِهِ عَاقِبَةً لَمْ يَقُمْ بِالْإِنْتِصَارِ لِلْيَتِيمِ، وَلَا قَامَ بِإِحْسَانِ [إِلَى] ^(٢) الْمَسْكِينِ، بَلْ تَكْذِيبُهُ بِيَوْمِ الدِّينِ يَحْمِلُهُ عَلَى الْجَوْرِ عَلَى الْيَتِيمِ وَتَرْكِ الصَّلَاةِ وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ وَتَرْكِ الْإِطْعَامِ.

[والثاني] ^(٣): أَنْ يَكُونَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ بِيَوْمِ الدِّينِ هَذِهِ الْوِظَائِفُ الَّتِي وُضِعَتْ عَلَيْهِمْ بِالْإِسْلَامِ لِأَنَّهُمْ إِذَا آمَنُوا بِيَوْمِ الدِّينِ لَزِمَهُمْ تَحْمُلُ هَذِهِ الْأَحْمَالِ مِنْ إِقَامَةِ الْأَفْعَالِ: إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ وَإِطْعَامِ الْمَسَاكِينِ وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَاتِ، فَاسْتَدَّ عَلَيْهِمْ، فَتَرَكُوا الْإِيمَانَ بِهَا لثَلَا يَلْزِمُهُمْ تَحْمُلُ هَذِهِ الْأَفْعَالِ الَّتِي حَمَلَهَا أَهْلُ الْإِيمَانِ.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْوُ رَحْمَةِ الْغَافِلِينَ﴾ فالخائض هو الذي يخوض في الباطل.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى أَتَيْنَا الْيَتِيمَ﴾ أي حتى أيقنا أننا على باطل في ما كنا نخوض فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ مغناه: أَنْ لَا شَفِيعَ لَهُمْ.

الآية ٤٨

والأصل أَنَّ الشَّفَاعَةَ إِذَا أُضِيفَتْ إِلَى أَهْلِ الْكُفْرِ، فَقِيلَ: لَيْسَ لَهُمْ شَفَعَاءُ، أَوْ لَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ، اقْتَضَى نَفْيُ الشَّفَاعَةِ، أَيْ لَا شَفِيعَ لَهُمْ.

وَإِذَا أُضِيفَتْ إِلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ اقْتَضَى ثُبُوتُ ^(٤) الْإِنْتِفَاعِ بِشَفَاعَةِ الشَّفَاعَاءِ، وَلَمْ يَقْتَضِ نَفْيُ الشَّفَاعَةِ كَمَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْأَفْعَالَ الَّتِي يَكُونُ قِوَامُهَا بِالْإِيمَانِ، إِذَا أُضِيفَتْ إِلَى الْكُفَرِ، فَهِيَ تَقْتَضِي نَفْيَ الْقَبُولِ، وَإِذَا أُضِيفَتْ إِلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ، فَهِيَ تَقْتَضِي ثُبُوتَ ^(٥) الْفِعْلِ.

وقولنا بأنه إِذَا قِيلَ: لَا شَفِيعَ لَهُ، وَأُرِيدَ بِهِ أَهْلُ الْإِسْلَامِ، فَهُوَ يَقْتَضِي ثُبُوتَ ^(٦) الشَّفَاعَةِ، فَذَلِكَ يَنْصَرِفُ عِنْدَنَا إِلَى أَهْلِ الْإِغْتِرَالِ وَالْخَوَارِجِ لِأَنَّا نَرَى أَصْحَابَ الْكِبَايِرِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ مُسْتَوْجِبِينَ / ٦١٤ - أ / لِلشَّفَاعَةِ، وَهُمْ يَقُولُونَ: لَا يَجُوزُ فِي حَكْمِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَغْفِرَ عَنْ أَصْحَابِ الْكِبَايِرِ، بَلْ يُخَلِّدُهُمْ فِي النَّارِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْعَدَ النَّارَ لِمَنْ ارْتَكَبَ الْكِبَايِرَ أَنَّهُمْ يُخَلَّدُونَ فِيهَا، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ فِي وَغْدِهِ خُلْفٌ، وَيَتَحَقَّقَ فِي خَبَرِهِ كَذِبٌ. وَلَوْ اسْتَوْجَبَ الشَّفَاعَةَ، وَنَالُوا بِهَا الْمَغْفِرَةَ مِنْ رَبِّ الْجَزَّةِ لَصَارَ فِي مَا وَعَدَ مُخْلِفًا وَفِي مَا أَخْبَرَ كَذُوبًا.

فَمِثْلُ هَؤُلَاءِ إِذَا ارْتَكَبُوا الْكِبَايِرَ لَا يُرْجَى لَهُمُ الْخَلَاصُ بِالشَّفَاعَةِ أَبَدًا، بَلْ يُحْكَمُ عَلَيْهِمْ بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ، فَيَرْتَفِعُ مَا يُنْبِئُ الْكُذِبَ، وَيَنْتَفِي مَا يوجبُ خُلْفَ وَغْدٍ. وَلأنَّهُمْ لَمَّا اغْتَدَّوْا التَّخْلِيدَ فِي النَّارِ لِمَنْ ارْتَكَبَ الْكِبَايِرَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ نَفْيُهُمُ الشَّفَاعَةَ بِزَعْمِهِمْ عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٢٩، ٣٠] فَلَا يَجُوزُ [أَنْ يَحُلَّ] ^(٧) عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، ثُمَّ لَا يَنَالُهُمُ الْعَذَابُ إِذَا بَعُثُوا.

ثُمَّ اخْتِجَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِنَفْيِ الشَّفَاعَةِ فِي الْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠] وَبِقَوْلِهِ: ﴿أَنفِقُوا وَمَا نَقُصُّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفْعَةً﴾ [البقرة: ٢٥٤] وَبِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنفِقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفْعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣].

وَزَعَمُوا أَنَّ شَفِيعَ كُلِّ امْرَأٍ مِنْهُمْ عَمَلُهُ يَوْمئِذٍ؛ فَمَنْ حَسَنَ عَمَلُهُ يُجْزَى بِهِ، وَمَنْ سَاءَ عَمَلُهُ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَافِعٌ.

وَلَوْ وَجَبَ نَفْيُ الشَّفَاعَةِ بِمَا ذَكَرَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الظَّاهِرِ لَوَجَبَ تَحْقِيقُهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وجائز. (٤) في الأصل وم: نفي. (٥) في الأصل وم: نفي. (٦) في الأصل وم: نفي. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

مِنْ خَنِيئَةٍ مُّشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٨] ويقولون: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] إذ في هاتين الآيتين أن الله تعالى قد يأذن بالشفاعة يومئذ لبعض، فثبت أن ما ذكرتم من نفي الشفاعة لم يقتض نفيًا على الإطلاق، بل النفي انصرف إلى بعض الخلائق، ووجب قبول ثبوتها لبعضهم.

ثم جاءت الأخبار مفسرة على إيجاب القبول بالشفاعة لأهل الكبائر، فثبت أن ما ذكر من قوله ﷺ: ﴿فَمَا لَنَا بِنِشْفَعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠] وقوله: ﴿وَلَا حُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] منصرف إلى أهل الكفر، وبه نقول.

ومن المعتزلة من يحقق الشفاعة، ولكنه يراها للذين يستوجبون استغفار الملائكة في الدنيا، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

وأما أصحاب الكبائر فإنهم لا تنالهم شفاعه أحد، بل يخلدون في النار.

فيقال لهم: فأي منفعة تحصل للذين تابوا، واتبعوا سبيله في الشفاعة، وهم قد استوجبوا الخلاص بتوبتهم واتباعهم سبيل الرشاد.

فإن قالوا: منفعتهم بها أنهم^(١) لعظم قدرهم عند الله يستوجبون بها الدرجات كما ترى المرة في الشاهد يذكروا أخاه عند الملوك يحسن السيرة، ويذكروا بما فيه من المناقب الجميلة والمحاسن، ويتنفي بذلك إعلاء منزلته وإعظام قدره عندهم ليعظموه، ويجلوه.

فكذلك الشفاعة في الآخرة يثنون عند الله تعالى على أوليائه خيراً ليزيد في درجاتهم، وتعلم منزلتهم عند الله تعالى.

والجواب أن هذه الزيادة في الدرجات ليست إلا إلى الوصول إلى فضول الشهوات، وفضول الشهوات والزيادة في اللذات لا تذكر في المنافع؛ إذ لا حاجة لهم إلى ما هو في حق الفضول من الشهوات، فيكون في مثالها وقع الحاجة والوصول إلى المنفعة.

ومعلوم بأنهم إنما أطلعوا في الشفاعة، وإنما تحصل لهم بها المنفعة، إذا وقعت إليها الحاجة.

وأهل الكبائر هم الذين تمسهم الحاجة إليها. فأما الذين تابوا، وأتابوا، فقد استغنوا عن الشفاعة. لذلك وجب القول بتحقيق الشفاعة في أهل الكبائر.

وأما استدلالهم بما ذكروا من أمر اليهود فليس يمتحن من القول لأن المرة إنما يذكروا أخاه بالجميل، ويظهر ما اشتمل عليه من خلال الخير لجهل الملوك بحاله في ما هو عليه من جميل الخصال ومحمود الفعال.

الآن ترى أن الملك إذا كان عالماً بحاله لم يقدم الإنسان على الثناء^(٢) الجميل منه؟ فثبت أن الذي يحوجه إلى الثناء عليه عند الملوك جهل بحاله. ولا يجوز أن يكون الله تعالى يخفى عليه حال أحد وما هو عليه من ظواهر^(٣) أموره وبواطنها حتى يحتاج إلى معرفته يعرفه.

فبطل أن تكون الشفاعة للوجه الذي ذكره^(٤)، وثبت أنها للوجه الذي ذكرناه^(٥).

ثم العفو والصفح عن إحلال العقوبة بمن هموا أن يعاقبوه بجريمة سبقت منهم، ثم الشفاعة في ما بين الخلق أمر معهود، إنما تكون عند زلات تستوجب بها العقوبة والمقت، فيغنى عن مرتكبها بشفاعة الأخيار وأهل الرضا. فلا يكثر أن يكون الله تعالى يغفو عن استوجب العقاب بشفاعة الأخيار وأهل الرضا والأبرار، والله الموفق.

الآية ٤٩ وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَمْ يَنْتَكِرْ تَعْرِينَ﴾ فجائز أن يكون تأويله: ما لهم مغرضين عن ذكر ما لهم وعليهم وعمّا إليه ما بهم ومقتلهم؟ وذلك يكون في الرسول وفي القرآن لأن كل واحد منهما يذكروا للمرء ماله وعليه، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: أنه. (٢) في الأصل وم: البشر. (٣) في الأصل وم: الظواهر. (٤) في الأصل وم: ذكروها. (٥) في الأصل وم: ذكرناها.

وجائز أن يكون تأويله: فمالهم عما به يشرف قدرهم، ويصيرون به مذكورين في الملا الأعلى معرضين؟ وذلك يكون في طاعته والإقبال على عبادته، وهو كقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] مغناه أنكم تصيرون به مذكورين، ويعظم قدركم لو اتبعتموه، ولم تضيعوا حرمة.

الآيتان ٥٠ و ٥١ وقوله تعالى: ﴿كَانَهُمْ حُمْرٌ مُتْتَبِرَةٌ﴾ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ ينصب^(١) الفاء وخفضه. ومن قرأ بخفض الفاء صرّف الفعل إليها، كأنه يقول: حُمْرٌ نافرة [ونقرأ^(٢)] واشتقّر واحد كما يقال: اشتقّد القوم أي رقدوا.

ومن قرأ ينصب الفاء فتأويله أنه فعل بها ما يحملها على الثّار، وذلك يكون بالرامي والقائض، من الأسد كما ذكره أهل التفسير في تأويل القسورة، هي الأسد والرّماء أو الصيادون، ويقال: هي الثّيرة، وكان هذا تشبيهاً بالحمر الوحشية التي في طبعها الثّار. ووجه التقريب، هو أن هؤلاء أغرضوا عما في الإقبال عليه نجاتهم وتخلصهم من العطب، ونفروا كنفار الحمر المستنفرة من العطب والهلاك.

وفي هذه الآية تبين شدة سفههم وغاية جهلهم، لأن الحمر تنفر من القائض والرامي والأسد لتسلم من الهلاك والعطب، وهؤلاء الكفرة نفروا عما فيه نجاتهم إلى ما فيه هلاكهم وعطبهم، فهم أشر من الحمير وأصل.

الآية ٥٢ وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾ قال بعض أهل التأويل: إن المشركين قالوا: يا محمد بلغنا أن الرجل في بني إسرائيل كان إذا أذنب ذنباً، فأصبح، وجد صحيفة على باب داره أو مكتوباً عند رأسه: أنك أذنبت كذا، وزاد بعضهم: أنك أذنبت كذا، وتوبت كذا، وسألوا النبي ﷺ أن يجعلهم كذلك، فأخبر الله تعالى كذلك عنهم.

الآية ٥٣ ثم آيسهم من ذلك، وقال: ﴿كَلَّا﴾ أي لا تنالون ما تأملون.

وقال قتادة: قالوا: يا محمد إن شركك أن تتبعك فأت كل واحد منا بصحيفة خاصة: إلى فلان ابن فلان، تأمرنا فيها باتباعك.

وقيل: سألوا أن يؤتوا ببراءة عمل، ولكن لا يجب قطع الأمر على واحد / ٦١٤ - ب/ من هذه التأويلات؛ بل يقال بها على جهة الإمكان والإحتمال لأن هؤلاء المفسرين لم يشاهدوا أولئك القوم الذين صدرت منهم هذه الإرادة ليُجزوهم ماذا أرادوا به حتى يثبت ما ذكروا من القصص والأخبار، ولا تواترت الأخبار عن ذي الحجة النبي ﷺ أنهم سألوه ذلك. لذلك لم يستقم قطع الأمر على ما ذكروا.

وجائز أن تكون هذه الإرادة تحققت في بعض الكفرة، وهم الرؤساء منهم والأكابر، لا أن أراد كل في ذات نفسه أن يؤتى صُحُفًا مُنشَرَةً. والإرادة هنا عبارة عن الطلب.

ثم طلبهم ما ذكر يتوجه إلى [وجهين]:

أحدهما^(٣): أن يكون كل واحد من عظمائهم ود أن يكون، هو المخصوص بإنزال الكتاب عليه كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ كُنَّا جَاءَ قَوْمًا بِآيَةٍ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتَى بِشَيْءٍ مِمَّا أَوْفَى رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فيكون في هذا إظهار استجبارهم على رسول الله ﷺ على جهة التعتت والعناد، فيصير^(٤) ذلك آية لهم على تحقيق رسالة النبي ﷺ كما قال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ تَرَفَّ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُؤْيَاكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

ففي هذه الآية إبانة أنهم كانوا يطلبون إنزال الكتاب عليهم ليتفرّروا لديهم رسالة نبينا محمد ﷺ وكان ذلك على التعتت والعناد. ولأ لو تفكروا في حاله إذا هم ذلك إلى العلم برساليه من غير أن يحتاجوا إلى تثبيت رساليه بكتاب، ينزل عليهم، والله أعلم.

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٢٦٥. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أوجه ثلاثة أحدها. (٤) في الأصل وم: ليصير.

[والثاني^(١)]: أن يكونوا رأوا أكابرهم أحق بالرسالة من رسول الله ﷺ وأولى بإنزال الكتاب عليهم لما رأوهم أفضل من رسول الله ﷺ.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْبَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وقوله^(٢) في آية أخرى: ﴿أَنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا؟﴾ [ص: ٨] فأرادوا أن يؤتوا صُحُفًا مُنَشَّرَةً لهذا المعنى، إذ هم أولى أن يُخَصَّصوا بهذه الفضيلة.

وإنما ذكرنا هذه التاويلات في هذه الآية لأن هذه المعاني التي ذكرناها قد ظهرت منهم بِمَثَلِ الْقُرْآنِ، والتاويلات التي ذكرها أهل التفسير لا يَتَّبِعُهَا مِنْ جِهَةِ الْكِتَابِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الْأَخْبَارِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فصارت هذه التاويلات أمكن وأملك بالآية مِنْ غَيْرِهَا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ إن الذي حملهم على الطلب بأن يؤتى كل منهم صُحُفًا مُنَشَّرَةً إعراضهم عن الإيمان بالآخرة، وإلا لو آمنوا بها لكان إيمانهم بها يَحْمِلُهُمْ عَلَى تَرْكِ الْعِنَادِ وَالتَّعَتُّبِ وَعَلَى تَرْكِ الْجَوْرِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَذْعَرُهُمْ إِلَى الْإِذْعَانِ لِلْحَقِّ.

الآيتان ٥٤ و ٥٥ [وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ﴾ ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ سِيذَكُرْ مَعْنَاهُ^(٣) في سورة: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾^(٤) [بقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ﴾ ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ [الآيتان: ٥٤ و ٥٥]]^(٥).

الآية ٥٦ وسِيذَكُرْ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ في سورة: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [بقوله: ﴿وَمَا تَشَاوَرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الآية: ٢٩]]^(٦).

وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْلُ الثَّقَوَى وَأَقْلُ الثَّقَوَى﴾ فأهل التاويل صَرَفُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَقْلُ الثَّقَوَى وَأَقْلُ الثَّقَوَى﴾ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وجائز أن يُصَرَّفَ إِلَى الْبَشَرِ.

فإن كان المراد من قوله ﷺ: ﴿هُوَ أَقْلُ الثَّقَوَى﴾ الْبَشَرُ فَيَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿هُوَ أَقْلُ الثَّقَوَى﴾ أَي الَّذِي يَقُومُ بِالذِّكْرِ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْأَزْمَهُمْ كَلِمَةُ الثَّقَوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلُهَا؟﴾ [الفتح: ٢٦] فَجَعَلَ الَّذِينَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةُ الثَّقَوَى مِنْ أَهْلِ الثَّقَوَى.

وإن كان المراد من قوله ﷺ: ﴿هُوَ أَقْلُ الثَّقَوَى﴾ هُوَ^(٧) اللَّهُ ﷻ فَتَأْوِيلُهُ: [أَنَّهُ أَهْلُ ثَقَى]^(٨) الرُّلَّةِ وَالْعَثَرَةِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى.

والوجه فيه أن المرء في الشاهد إنما يَتَّقِي الرُّلَّةَ وَالْعَثَرَةَ إِلَى آخِرِ لِاحْدَى خِصَالِ ثَلَاثِ:

إحداها: لما يَرَى مِنْ أَفْتِقَارِهِ وَحَاجَتِهِ إِلَيْهِ يَتَّقِي^(٩) الْعَثَرَةَ تَبْجِيلًا وَتَعْظِيمًا.

[والثانية^(١٠)]: لما يَرَى مِنْ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ [يَتَّقِي رُلَّتَهُ]^(١١).

[والثالثة^(١٢)]: لِكثَرَةِ نَعِيمِهِ وَأَيَادِيهِ [يَتَّقِي رُلَّتَهُ]^(١٣) اسْتِحْيَاءً مِنْهُ.

وإذا كانت هذه الأشياء، هي الداعية إلى الإلتقاء، والخلافتُ بِأَجْمَعِهِمْ مُفْتَقِرُونَ وَمُحْتَاجُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَهُ الْقُدْرَةُ وَالسُّلْطَانُ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ الْمُنْعِمُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، فَهُوَ أَهْلٌ أَنْ يُعْظَمَ، وَيُوقَّرَ، وَأَنْ تُخَافَ رُقْمَتُهُ، وَيُسْتَحْيَى مِنْهُ. وَمِنْ أَتَقَى صَارَ أَهْلًا لِأَنْ يُعْفَرَ.

(١) في الأصل وم: وجائز. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في نسخة الحرم المكي: معنى هذه الآية. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أي. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أهل أن يتقى. (٩) في الأصل وم: فيتقى. (١٠) في الأصل وم: ويتقى رُلَّتَهُ ذلك. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: أو يتقى رُلَّتَهُ. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وجائز أن يكون معنى قوله ﷻ: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ أي هو أهلٌ بأن يُسألَ عما^(١) يتقى من النار لقوله^(٢) تعالى: ﴿وَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وقوله^(٣): ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦].

ثم علّمنا وجه الإتياء بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آتَاكَ الشَّارِكُ [البقرة: ٢٠١] فَبَيَّنْ أَنْ الْإِتِّقَاءَ أَنْ يَفْرَغَ [المرء]^(٤) إلى الله تعالى، وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ، لِيَقْبَلَهُ^(٥) بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَقَالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

فأمرنا، جلّ جلاله، بالناصبة مع الشيطان للمحاربة، وأخبر أن محاربته أن نفزع إلى الله تعالى بالإستعاذة بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]. وقوله^(٦) تعالى في آية أخرى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ مَمَرَاتٍ الشَّيَاطِينِ﴾ الآية [المؤمنون: ٩٧].

فهو أهل أن يطلب منه ما بقي به، وأهل أن يستعاذ به لدفع كيد العدو ﴿وَأَهْلُ التَّقْوَى﴾ أي أهل أن يطلب منه المغفرة. جعلنا الله تعالى من أهل التقوى والذين من عليهم بالمغفرة.

وقال بعضهم: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ التَّقْوَى﴾ أي هو أهل أن يتقى منه، وأهل أن يغفر لمن اتقاه. والله المستعان [والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه أجمعين]^(٧).



(١) في الأصل وم: عنه ما. (٢) في الأصل وم: بقوله. (٣) في الأصل وم: ويقول. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ليقب. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في م: والله أعلم.

سورة القيامة

وهي مكية^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و ٢

قوله تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ اختلف في تأويله.

فمنهم من قال^(٢): أقسم الله تعالى بيوم القيامة، ولم يُقسم بالنفس اللوامة، وذكر ذلك عن الحسن، ويكون معناه: لأقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوامة.

لكن ذكر عنه أنه يقول في قوله تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ﴿وَأَنْتَ حَلُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ﴿وَوَالِدٌ وَمَا وَلَدٌ﴾ [البلد: ١ و ٢ و ٣]: إن القسم يقع على البلد والوالد، وهو آدم عليه السلام، وما ولد على جملة أولاده.

فإذا كان القسم جائزاً بالوالد والمولود جميعاً كانت النفس / ٦١٥ - أ / اللوامة داخلية في جملة [الوالد والمولود]^(٣) وقد أقسم بالنفس اللوامة عنده، فلا معنى للرد^(٤) وهنا.ثم موقع ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا أَقِيمُ﴾ تأويله يذكر في قوله: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ في سورة، يذكر فيها البلد. ومنهم من ذكر^(٥) أن القسم وقع بها جميعاً، والله تعالى أن يُقسم بما شاء من خلقه.

ثم صرف بعض أهل التأويل معنى القسم إلى قوله تعالى: ﴿أَتَحْسَبُ الْإِنْسَانَ أَنْ يُجْعَ عِظَامُهُ﴾ [الآية: ٣] وجعله موضع القسم.

فإن كان على هذا، فالإشكال عليه أن يقول قائل: كيف أكد أمر البعث وجمع العظام بالقسم بيوم القيامة، وقد جرى من القول الذي احتج عليهم به الآية الإنكار بيوم القيامة، فكأنه أكد القسم بشيء جرى به الإنكار؟

والجواب عن هذا من وجهين:

أحدهما: أن يكون القسم منصرفاً إلى الحكمة التي توجب القول بالبعث؛ إذ قد بينا في غير موضع أنه بالبعث ما خرج خلق هذا العالم مخرج الحكمة، ولولا البعث لكان خلقه عبثاً باطلاً كقوله ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْكُمُ خَلْقُنَا عَبَثًا وَأَنْكُمْ لَا تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] كأنه قال: لا أقسم بحكمته الداعية إلى كون القيامة كذا أن يكون كذا.

[والثاني]^(٦): جائز أن يكون القسم في الحقيقة بالدلائل والبراهين التي من تفكر، وأمن النظر فيها حملة ذلك على القول بالبعث.

وإذا كان مُحْتَمَلاً صَحَّ القسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة، لأنَّ التَّفَكُّرَ بالنفس اللوامة والاعتبار بها يدعو إلى القول بالبعث.

ثم العادة جرت على القسم بالأشياء التي عظم خطرهما، وجل قدرهما في القلوب، وجلالة خطرهما تكون بأحد وجهين: إما بما كثرت منافعتها، فيكون خطرهما مشاهداً معروفاً [وإما]^(٧) بعظم خطرهما بالدلائل والأخبار.

(١) من م، في الأصل: يذكر فيها القيامة. (٢) في الأصل وم: ذكر. (٣) في الأصل وم: المولود. (٤) في الأصل وم: بالرد. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: أو.

فالسماوات والأرضون قد عرَفَ الخَلْقُ جَلَالَهٗ أَقْدَارِهَا بِالْعِيَانِ بِمَا كَثُرَتْ مَنَافِعُ الخَلْقِ بِهَا، وَعَظُمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا جَلَّ خَطَرُهُ فِي الْقُلُوبِ، وَبَيَّتَ الْقَوْلُ بِكُونِهِ بِالْإِدْلَالِ وَالْبَرَاهِينِ.

ثم قد وَصَفْنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقْسَمَ بِأَشْيَاءَ لِتَأْكِيدِ مَا يُعَرِّفُ بَيَانُهُ، وَيَجِبُ الْقَوْلُ بِهِ، لَوْلَا الْقَسَمُ لَمَّا^(١) أُمِعِنَ النَّظَرُ فِيهِ، فَأَعْمِلْتَ فِيهِ الرُّؤْيَةَ. لِذَلِكَ اسْتَقَامَ الْقَسَمُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَاخْتَلَفَ فِي النَّفْسِ اللُّوَامَةُ: قَالَ بَعْضُهُمْ: النَّفْسُ اللُّوَامَةُ، هِيَ النَّفْسُ الْكَافِرَةُ، تَلُومُ رَبِّهَا فِي تَضْيِيقِ الْعِيشِ عَلَيْهَا، وَتَشْكُو رَبِّهَا [مَنْ الْفَقِيرَ]^(٢) وَالْإِقْتَارِ عَلَيْهَا مَعَ كَثْرَةِ نِعَمِهِ عَلَيْهَا وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ صَرَفَ التَّأْوِيلَ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ مُؤْمِنَةٍ كَانَتْ أَوْ كَافِرَةٍ؛ فَهِيَ تَلُومُ غَيْرَهَا لِتُعَاطِيهَا أَشْيَاءَ قَدْ تَعَاطَتْ نَفْسُهَا مِثْلَهَا، وَامْتَحَنَتْ بِهَا. وَالْحَقُّ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَلَّا يَلُومَ أَخَاهُ بِمَا تَعَاطَى فِعْلاً، أَمَّا هُوَ ذَلِكَ الْفِعْلَ عَيْنُهُ أَوْ مِثْلُهُ^(٣). أُنْشِئَتْ كَذَلِكَ اللُّوَامَةُ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿إِذَا سَأَلَ سَأَلَ بِضُرُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ و ٢٠].

وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّ هَذَا يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ، وَالْكَافِرُ إِذَا أَبْقَى بِالْعَذَابِ وَمَا حَلَّ بِهِ مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالذَّمِّ^(٤) عَلَى مَا قَرَّطَ فِي جَنْبِ اللَّهِ، أَذْرَكَهُ^(٥) الْحَسْرَةَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَلُومُ نَفْسَهُ.

وَالْمُؤْمِنُ إِذَا عَاقَبَ الثَّوَابَ يَلُومُ نَفْسَهُ لَمَّا أَمْسَكَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَتَابَ، وَأَطَالَ الْمُقَامَ فِي الْمَحْرَابِ، وَأَبْصَرَ بِالْعَامِلِينَ بِالطَّاعَةِ حَسَنَ الْمَآبِ، يَلُومُ^(٦) نَفْسَهُ بِمَا شَدَّ مِنْهُ، وَغَابَ، عِنْدَ كَمَالِ الْقُوَّةِ وَعُفُوفَانِ الشَّيْبِ، وَيَقُولُ^(٧): كَيْفَ لَمْ أَزِدْ فِي الْعَمَلِ لِأَزْدَادَ فِي الثَّوَابِ؟

وَمِنْهُمْ مَنْ خَصَّ الْكَافِرَ فِي الْآخِرَةِ بِاللُّومِ عَلَى نَفْسِهِ، وَهَذَا أَظْهَرُ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَكْرِمَ بِالثَّوَابِ فَشَكَرَهُ لِلذَّكَاءِ يَشْغَلُهُ عَنِ اللُّومِ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَا يَتَفَرَّغُ لَهُ، وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُضَاعِفُ لَهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَيُعْطِيهِ مِنَ الدَّرَجَاتِ زِيَادَةً عَلَى مَا اسْتَوْجَبَهُ بِعَمَلِهِ فَضْلاً وَإِنْعَاماً. فَكَيْفَ يَلُومُ نَفْسَهُ بِتَقْصِيرِهَا فِي الْعَمَلِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنَ الْكِرَامَاتِ لَمْ يَنْلُ جَمَلَتَهَا بِعَمَلِهِ بَلْ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَبِكُرْمِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنَّ جَمْعَ عِظَامِهِ﴾ فَقَوْلُهُ: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ وَإِنْ خَرَجَ مَخْرَجَ الْإِسْتِفْهَامِ فِي الظَّاهِرِ فَلَيْسَ هُوَ بِاسْتِفْهَامٍ، وَلَكِنَّهُ تَحْقِيقُ حُسْبَانٍ مِنَ الْإِنْسَانِ.

فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ حَمْلُهُ عَلَى الْحُسْبَانِ، هُوَ أَنَّ الْقُدْرَةَ لَا تَنْتَهِي إِلَى هَذَا فِي أَنْ يَجْمَعَ الْعِظَامَ، وَيُؤَلَّفَهَا^(٨) بَعْدَ تَفْشِيئِهَا وَتَلَاثِيئِهَا، فَيَدْفَعُ حُسْبَانَهُ هَذَا بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَحْيَا آلَ دَاوُدَ أَشْهَاءَ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] فَمَنْ تَفَكَّرَ فِي النِّشَاءِ الْأَوَّلِيِّ عَلِمَ أَنَّ الْقُدْرَةَ تَنْتَهِي إِلَى جَمْعِ الْعِظَامِ بَعْدَ أَنْ صَارَتْ رَمِيماً، وَأَنَّ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى إِنْسَانِيَّاهَا قَادِرٌ عَلَى جَمْعِهَا بَعْدَ تَفْرِيقِهَا.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ حَسِبَ أَنَّ الْعِظَامَ لَا تُجْمَعُ بَعْدَ تَفْرِيقِهَا لِأَنَّهَا لَوْ جُمِعَتْ بَعْدَ التَّفْرِيقِ لَمْ تَكُنْ تُعْرَفُ بَعْدَ أَنْ وَجِدَتْ مُجْمُوعَةً. أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَرْءَ فِي الشَّاهِدِ لَا يَقْصِدُ إِلَى تَقْضِ مَا بَنَى لِيُعِيدَهُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الْجِهَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ [كَانَ]^(٩) عَابِثاً فِي هَدْيِهِ، وَلَمْ يَكُنْ حَكِيماً؟

فَإِذَا كَانَ هَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى الْحُسْبَانِ فَجَوَابُهُ أَنْ يَقَالَ: إِنَّ الْجَمْعَ الْأَوَّلَ وَقَعَ لِمَكَانٍ الْيَخْنُ وَالْإِبْتِدَاءَ، وَالْجَمْعَ بَعْدَ التَّفْرِيقِ لِمَكَانٍ الْجَزَاءِ. فَإِنْ كَانَ الْجَمْعُ الثَّانِي لِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي وَقَعَ الْجَمْعُ فِي الْإِبْتِدَاءِ كَانَ صَحِيحاً مُسْتَقِيماً، وَإِنَّمَا يَخْرُجُ عَنْ حَدِّ الْحِكْمَةِ إِذَا لَمْ تَكُنِ الْإِعَادَةُ إِلَّا لِلْوَجْهِ الَّذِي وَقَعَ الْإِبْتِدَاءُ.

أَلَا تَرَى أَنَّ الَّذِي نَقَضَ بِنَاءَهُ إِذَا أَعَادَهُ لَا لِلْوَجْهِ الَّذِي كَانَ بَنَى أَوَّلَ مَرَّةٍ لَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِ؟

وَفِي مَا ذَكَرْنَا رَدُّ قَوْلِ الْبَاطِنِيَّةِ لِأَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ هَذِهِ الْأَنْفُسَ تَتَلَاشَى، وَتَتَلَفُّ، فَلَا تُبْعَثُ، وَأَنَّ الْبَعْثَ يَقَعُ عَلَى النَّفْسِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَوْ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مِثْلَهَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَلِم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَذْرَكَهُ.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْعَاصِينَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيُؤَلِّفُ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الروحانيّة. ولو كان كما زعموا لم يكن لقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجْمَعَ عِظَامُهُ﴾ معنى، لأنّ العظام لا تُجمَع على قولهم بعد ما صارت رمية، فيكون الأمر إذن على ما وقّع في حُسابان هذا^(١) الإنسان. فلا معنى للردّ عليه بقوله: ﴿بَلْ تَذَرِينَّ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بِآثَرِهِ﴾ [الآية: ٤].

الا ترى أنّ الذي حمّله على الإنكار لجمع العظام بعد تفريقها هو أنّه لم ير هذا موجوداً في الشاهد؟ ولو كان الأمر على ما زعمت الباطنية لكان الإنكار مدفوعاً؛ إذ وجد النفس الروحانيّة مبعوثّة في الشاهد بعد توفّيها، وقال الله ﷻ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] فأخبر أنّ النفس التي أنشئت أوّل مرّة هي التي تحيي لا غير.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿بَلْ تَذَرِينَّ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بِآثَرِهِ﴾ [اختلف فيه]^(٢):

فمنهم من حمّل هذه الآية على الابتداء، وزعم أنّه ليس فيه جواب لما يقتضيه قوله ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجْمَعَ عِظَامُهُ﴾. ومنهم من ذكر أنّ قوله: ﴿بَلْ﴾ جواب لقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجْمَعَ عِظَامُهُ﴾ فاشتقّ بقوله: ﴿بَلْ﴾ بما سبق منه من الدلالات والحجج على القول بالبعث، فاقصر على قوله: ﴿بَلْ﴾ على الوصل بما تقدّم من الدلالات. ومنهم من جعل جوابه في قوله: ﴿تَذَرِينَّ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بِآثَرِهِ﴾ يعني أنّ تسوية البنّان هو الجعل من عظم واحد مجموعاً غير متفرّقٍ مثل خفّ البعير وحافر الدواب. ووجه الاستدلال أنهم أفروا بأنّ الله قادرٌ على أن يسوي البنّان لما رأوا التسوية موجودة في الدواب، ثم الجمع بعد التفريق أظهر وجوداً وأيسر فعلاً من تسوية البنّان.

الا ترى أنّ المرء في الشاهد قد يقدر على التاليف والجمع بين أشياء متفرّقة، ويعجز عن تسوية البنّان؟ فإذا كانت التسوية أيسر وجوداً من الجمع بعد التفريق، ثم وصفوا الله تعالى بالقدرة على تسوية البنّان، فكيف أنكروا قدرته على جمع العظام بعد تفريقها؟ ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

ومنهم من يقول: إنّ الله تعالى لما لم يسوّ بين بنّان الإنسان، وسوّ بين بنّان الدواب، ليصل إلى الأخذ والإعطاء وإلى التقديم والتأخير والقبض والبسط وأنواع المنافع التي خصّ بها / ٦١٥ - ب/ من نحو ما يملكون بالبنّان تسخير الدواب والأنعام: يُعلّم بالتفريق بين الدواب وبينهم^(٣) أنّ البشر هم المقصودون بالمنفعة والآيتروكهم سدى، لا يأمرهم، ولا ينهائهم، ولا يستأديهم شكر ما أنعم عليهم، وقد ائتمّر البعض، وعصى البعض، ولا^(٤) بد من دار أخرى للمجازاة.

فالنظر في هذا يحمّله على القول بالبعث والجزاء. ولأنّ الاستواء يقع في الابتداء، والجمع بعد التفريق يكون عند الإعادة، والعقول تشهد على أنّ الإعادة أيسر من أمر الابتداء، فإذا لم يتعلّز عليه الاستواء في الابتداء، فأنّى تغسّر عليه إعادة الجمع مع قدرته على الجمع في الابتداء، ولأنهم لما لم يخلقوا مستويي البنّان فليعلموا أنّ في ترك الاستواء حكمة. ولو كان الأمر على ما قدروا أنّ [لا]^(٥) بعث لكان يخرج على حدّ الحكمة، فيكون في ما ذكر تبيّن البعث والقول بالقدرة على جمع العظام بعد تفرّقها وتفتتها، والله أعلم.

الآية ٥

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ قال أهل التفسير: يؤخّر التوبة، ويُقدّم المعصية، ويقول: سوف أتوب، فيأتي الموت على شرّ حاله. وعندنا يُخرج على وجهين:

أحدهما: جائز أن يكون ذكر الإرادة لا على تحقيقها، ولكن من فعل شيئاً فعّله على الإرادة والاختيار، فكنتي بالإرادة عن الفعل لأنها تفتن بالفعل، فيكون في ذكرها ذكر الفعل، وهو كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧] ولكن خلقها خرج على الحكمة بالبعث والجزاء.

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: عدة، في م: هذه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: على. (٤) الراو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

ففي ترك القول بالبعث وصف بأن خلقهما للعب والباطل، ويؤدي إلى هذا، فيصير كأنهم قالوا ذلك، وظنوا كذلك. فعلى هذا يحتمل الأمر على الظن، لا أن وجد منهم الظن في الحقيقة. فكذلك إذا فعلوا فعل الفجور، وكان فعلهم على الإرادة والاختيار، فكانهم أرادوا أن يفجروا أمامه، لا أن كانت الإرادة منهم متحققّة، والاختيار لذلك مقصوداً.

[والثاني:]^(١) جائز أن يكون على تحقيق الإرادة؛ وذلك أن للشّر والفجور سبلاً من سلكها أفضت [بو]^(٢) إلى أن يستحق اسم الفجور، وللخير والهدى سبلاً من سلكها أفضى بو^(٣) الأمر إلى أن يستحق اسم البر والتقوى. وإنما صار إلى الفجور وإلى أنواع الشرور يسلكه ذلك السيل، وصار مُريداً من هذه الجهة.

ثم قوله تعالى: ﴿أَمَّا نَسُفٌ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: في ما بقي من عُمره، لأنه يترك الاستعداد والاسترشاد، وينمضي على العادة التي عود نفسه عليها^(٤) من الشرور والضلال.

[والثاني:]^(٥) يحتمل أن يكون الأمام، هو يوم القيامة، كقوله^(٦) في موضع آخر: ﴿وَيَذَرُونَ وراءَهُم يوماً ثقيلاً﴾ [الإنسان: ٢٧] بعد ذكر ذلك اليوم بالأمام والوراء جميعاً، فيكون قوله: ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ أي وراء الأوقات التي خلّت، ومضت.

فعلى اعتبار الإضافة إلى الأوقات الماضية يكون يوم القيامة ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ وعلى اعتبار الإضافة إلى ذلك الفاجر يكون ﴿أَمَّا نَسُفٌ﴾ لأنه يكون أمام هذا الفاجر. فبذلك استقام الوصف بالأمام والوراء جميعاً.

ثم ذكر الفجور، ولم يذكر الكفر، وإن كان الإنسان الذي يريد أن يفجر أمامه كافراً لأن في ذكر الفجور [تغييراً وتشبيهاً]^(٧) إذ هو اسم للتغيير خاصة، وليس في نفس الكفر تغيير، إذ كل أحد مؤمناً [كان]^(٨) أو كافراً مؤمناً بشيء [أو]^(٩) كافراً بشيء. فالكافر من حيث اسمه لم يصير قبيحاً، بل معناه ما قبح، فكان الفجور أبلغ في التغيير من الكفر، فسُمي بو، والله أعلم.

وقال أبو بكر: معنى قوله: ﴿يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَّا نَسُفٌ﴾ أي^(١٠) يريد أن يعاين يوم القيامة، ويُعلم بو أنه متى هو؟ تفسيره على إثرو؛ [وهو]^(١١) قوله تعالى: ﴿يَنْتَلِ أَلَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يريد أن يُعلمه بسؤاله: متى هو؟ فأخبر أنها تقوم: ﴿إِنَّا بِرَقِّ الْبَصَرِ﴾ ﴿وَنَسَفَ الْقَمَرِ﴾ [الآيتان: ٧ و ٨] والله أعلم.

الآية ٦ وقوله ﴿يَنْتَلِ أَلَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ سؤال تعثّب واستهزاء لما ذكرنا أنه ليس في تعرف وقت كونه [مزجراً ولا مرعباً]^(١٢). وإنما يقع الرجز والرغبة بتذكير الأحوال التي تكون في ذلك اليوم. فلذلك ذكر الأحوال التي تكون في ذلك اليوم، ولم يوفّقهم على ذلك الوقت متى يكون؟ إذ ليس في معرفة وقته كثير حُكم، فيجيبهم رسول الله ﷺ بجواب الحكماء لا بجواب مثليهم.

ثم إن كان المراد بو حالة الموت فقوله ﴿إِنَّا بِرَقِّ الْبَصَرِ﴾ قيل: دُهِشَ، وتَحَيَّرَ. ثم اختلّف بعد هذا؛ فمنهم من صرّف هذا إلى حالة الموت، ومنهم من ذكر أن هذه الأحوال تكون يوم القيامة.

وإلى أي الحالين صرّف التأويل فهو مستقيم، لأن المنكر البعث إذا جاءه بأس الله تعالى، ورأى ما حلّ بو من الأهوال أيقن بالبعث، وعلم بو.

ثم إن كان المراد بو حالة الموت، فقوله ﴿إِنَّا بِرَقِّ الْبَصَرِ﴾ ﴿وَنَسَفَ الْقَمَرِ﴾ ﴿وَجَمِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ﴾ [الآيات: ٧ و ٨ و ٩]

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم: (٣) في الأصل وم: بها. (٤) في الأصل وم: على ذلك. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: تعبير وتشبيهاً. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم: (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: مزجراً ولا مرعباً.

يُخْرِجُ عَلَى التَّمثِيلِ، لَيْسَ عَلَى التَّحْقِيقِ، لِأَنَّهُ بَصَرُهُ إِذَا دُهِشَ، وَتَحَيَّرَ، صَارَ بِحَيْثُ لَا يَنْتَفِعُ بِبَصَرِهِ وَجْهَهُ وَلَا يَبْصُرُ قَلْبُهُ، لَا يَرَى ضَوْءَ الْقَمَرِ، فَيَصِيرُ الْقَمَرُ كَالْمُنْخَفِيفِ، وَتَصِيرُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كَالْمَجْمُوعَيْنِ، وَلَا يَرَى ضَوْءَ الشَّمْسِ وَلَا نَوْرَ الْقَمَرِ، فَيَصِيرُ النَّهَارُ عَلَيْهِ لَيْلاً وَاللَّيْلُ نَهَاراً؛ شُغِلَ^(١) بِمَا حَلَّ بِهِ مِنَ الْبَلَايَا وَالْأَهْوَالِ. وَهِيَ كَمَا رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ [أَنَّهُ]^(٢) قَالَ: «الدُّنْيَا سَجَنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ، وَالْآخِرَةُ جَنَّةُ الْمُؤْمِنِ وَسَجَنُ الْكَافِرِ» [مسلم ٢٩٥٦] وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ» [البخاري ٦٥٠٧ و٦٥٠٨ ومسلم ٢٦٨٣].

فَصَرَفُوا تَأْوِيلَ هَذَيْنِ الْخَبَرَيْنِ إِلَى حَالَةِ الْمَوْتِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْكَافِرَ يُعَايِنُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مَا أُعِدَّ مِنَ الْأَهْوَالِ وَالشَّدَائِدِ فَكَرِهَ مُفَارَقَةَ رَوْحِهِ جَسَدَهُ لِئَلَّا يَقَعَ فِي تِلْكَ الْأَهْوَالِ وَالشَّدَائِدِ، وَتَصِيرُ الدُّنْيَا لَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَالْجَنَّةِ [لَا يُحِبُّ]^(٣) مُفَارَقَتَهَا.

وَالْمُؤْمِنُ إِذَا عَايَنَ مَا أُعِدَّ^(٤) مِنَ الْبِشَارَاتِ وَأَنْوَاعِ الْكِرَامَاتِ أَرَادَ الْخُرُوجَ مِنَ الدُّنْيَا لِيَصِلَ إِلَى مَا أُعِدَّ لَهُ، فَتَصِيرُ الدُّنْيَا عَلَيْهِ [كَالسَّجَنِ]^(٥) فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَيَكُونُ هَذَا كُلُّهُ عَلَى التَّمثِيلِ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا.

وَأَنَّ كَانَ ذَلِكَ عَلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَى تَحْقِيقِ الْخُسْفِ وَجَمْعِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْفَرَجَ﴾ [الْآيَةُ: ١٠] فَيُخْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: أَي لَيْسَ لِي مَوْضِعٌ فَرَارٍ عَمَّا حَلَّ بِي، أَوْ يَقُولُ: إِلَى أَيْنَ الْمَقَرُّ؟ وَإِلَى مَنْ النَّجِيُّ لَا تَخْلُصُ مِنَ الْعَذَابِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا بِرَيْبٍ مِنَ الْبَرِّ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِذَا شَخَّصَ الْبَصَرُ نَحْوَ الدَّاعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﷺ: ﴿لَيُزَيَّرَنَّ تَخْصُصٌ فِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٤٢] فَيُشَخَّصُ بِبَصَرِهِ إِلَى الدَّاعِي، لِأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ الَّذِي حَلَّ بِهِ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ لَا مَنَاجِيَ عَنْهُ مِنَ الْإِجَابَةِ لِلدَّاعِي فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، فَيَتَسَارَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي إِشْخَاصِ بَصَرِهِ إِلَى الدَّاعِي ابْتِدَاءً مِنْهُ إِلَى إِجَابَةِ الدَّاعِي.

الآية ٨

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَسَبَ الْفَرُّ﴾ أَي ذَهَبَ ضَوْؤُهُ وَنَوْرُهُ؛ فَفِيهِ أَنَّ الْعَالَمَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يُغَيَّرُ، وَيُبَدَّلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَرْضَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءَ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٤٨] وَقَوْلِهِ^(٦) تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تُسَرَّى السَّيْرُ لِلْجِبَالِ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧] وَقَوْلِهِ: ﴿يَبْسُفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه: ١٠٥ و١٠٦].

الآية ٩

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَجَّحَ النَّفْسَ وَالْقَرَّ﴾ فَفِيهِ أَنَّ سُلْطَانَهُمَا يَذْهَبُ فَلَا يَعْمَلَانِ عَمَلَهُمَا بَعْدَ ذَلِكَ. ثُمَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُمَا يُجْمَعَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالْبَعِيرَيْنِ الْقَرِيْبَيْنِ أَوْ الثَّوْرَيْنِ الْقَرِيْبَيْنِ، فَيُلْقَيَانِ فِي النَّارِ، وَيُعَذَّبَانِ بِهَا.

وَذَكَرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّهُ أَنْكَرَ هَذَا، وَقَالَ: ٦١٦ - / إِنَّهُمَا خُلِقَا اللَّهُ تَعَالَى طَائِعَانِ لَهُ ﷻ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَلِيلَيْنِ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٣٣] يَذَابَانِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَمَنْ كَانَ هَذَا وَصْفُهُ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعَذَّبَ؟

وَعِنْدَنَا أَنَّ لِقَاءَهُمَا، إِنْ ثَبَتَ، فَهَمَا يُلْقَيَانِ فِي النَّارِ لِيُعَذَّبَ بِهِمَا غَيْرُهُمَا، وَهُمُ الَّذِينَ عَبَدُوهُمَا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٩٨] الْآيَةُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي عُبِدَتْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا تُعَذَّبُ بِالنَّارِ، وَلَكِنَّهَا تُجْعَلُ حَصَباً وَنَاراً يُعَذَّبُ بِهَا مَنْ عَبَدَهَا. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْنَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَكَةً﴾ [الْمَدْثَر: ٣١] وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَلَائِكَةُ يَمْسُهُمْ أَذَى النَّارِ، بَلْ هُمُ الَّذِينَ يُعَذَّبُونَ. فَعَلَى ذَلِكَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، إِنْ ثَبَتَ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ، فَهَمَا لِيُعَذَّبَ بِهِمَا مَنْ عَبَدَهُمَا لَا أَنْ يُعَذَّبَا نَفْسَهُمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: شُغِلَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) أُدْرِجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَإِنِّي لَمَكْرُومٌ﴾ فجائز أن يكون قوله: ﴿إِنِّي لَمَكْرُومٌ﴾ على طلب الجيلة أن كيف احتال إلى أن أفرّ، أو إلى من التجرى لا تخلص من بأس الله وعذابه؟

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿إِنِّي لَمَكْرُومٌ﴾ أي ليس لي موضع فرار عما حلّ بي لإيقانه أن ليس له مفرّ. وجائز أن يكون هذا كله عند الموت على ما ذكرنا.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تَتَذَكَّرُ أَهْلُ التَّوِيلِ أَنَّ الْوَزَرَ، هُوَ الْجَبَلُ بُلُغُهُ جَمِيرٌ. وَذُكِرَ عَنِ الْحَسَنِ [أنه] ^(١) قال: كانت العرب يُخيف بعضها بعضاً، ويُفِرُّ ^(٢) بعضها بعضاً، فكان يكون الرجلان في ما شِيتهما، فلا يشعران حتى يربا نواصي الجبل، فيقول أحدهما لصاحبه: الوزر، يعني الجبل، فكانه يقول: ليس لهما إذ ذاك [ما] ^(٣) يُفِرُّ، وما ^(٤) يُسَلِّي من الأحزان كما يتسلى من يأوي إلى الجبل في الدنيا عن بعض ما يحلُّ به من الأفراح. وقيل: الوزر المَلَجَأ.

الآيتان ١٢ و ١٣ وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ رَبُّكَ بِيَوْمِئِذٍ لَّشَهِيدٌ﴾ ^(٥) ﴿يَبْكَو الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ فتأويله: أنه يتبأ من أول ما عمل إلى آخر ما انتهى إليه عمله كقوله: ﴿لَا يَأْوُدُّ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال بعض أهل التاويل: ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ من أنواع الطاعة ﴿وَأَخَّرَ﴾ من حق الله تعالى من اللوازم التي كانت عليه. وقال بعضهم: بما أعلن، وسرّ. وقال بعضهم: ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ في حياته من أعمالٍ ﴿وَأَخَّرَ﴾ ما سنّ من سنة، فاستثنى [به] ^(٦) بعد موته.

وقد ذكرنا أنه باللفظ من الله تعالى ما لم يعلم بالذي قدّم من الأعمال، وأخّرها، فيتذكّر بذلك حتى يصير ما كتبت في الكتاب حجة عليه، وإلا فالمرء في هذه الدنيا إذا كتب كتاباً، ثم أتت عليه مدة، لم يتذكّر جميع ما كتّب فيه، ولا وقف على علم ذلك.

الآيتان ١٤ و ١٥ وقوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ﴾ هذا يُخْرِجُ على وجهين: أحدهما: جائز أن يكون أراد بهذا في الدنيا أن الإنسان بصير بعمله نفسه، وإن جادل عنها أنه لم يفعل ذلك، وأسرّ ذلك عن [الناس] ^(٧) ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ﴾ أي ألقى الستور بما كسبت نفسه، والمعذار هو الستور.

والوجه الثاني: أن يكون في الآخرة، وهو يحتمل وجهين:

أحدهما: أن الإنسان وإن كان يعتذر يوم القيامة بقوله: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقوله ^(٨): ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا يَخْلِفُونَ لَهُمْ كُلًّا يَخْلِفُونَ لَهُمْ كُلًّا﴾ [المجادلة: ١٨] فيُقدِّمون على الحلف اعتذاراً منهم [على العلم منهم] ^(٩) أنهم مُبْطِلُونَ في جدالهم.

والثاني: أن يكون معنى البصيرة الشاهد أي أن الإنسان على نفسه [شاهد يوم القيامة بسوء أفعاله، وإن ألقى معاذيره، أي وإن] ^(١٠) شهدت عليه جوارحه، وذلك نحو قوله ﷺ: ﴿الْيَوْمَ نَحْشُرُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَكُلَّمَا أَيْدِيهِمْ وَكَشَفُوا أَرْجُلَهُمْ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ﴾ الآية [فصلت: ٢٠].

فإن قيل: إن الإنسان مذكّر كيف وصفه ^(١١) بالبصيرة بلفظة التأنيث بقوله: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ ولم يقل: بصير؟ فجوابه من أوجه:

أحدها: ما قيل: إن الإنسان تسمية جنس، فيه الجماعة، لا أن يكون تسمية للشخص الواحد فقط. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١ و ٢ و ٣] استثنى الذين آمنوا من

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. ويفر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم. ولا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم. وقال. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم. وصف.

قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ﴾ ولا تُسْتَفْتَى الجماعة من الواحد، وكذلك قوله ﷺ: ﴿لَقَدْ عَلَّقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَمْسٍ تَوْبِيرٍ﴾ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية [التين: ٤ و ٥ و ٦] فاستفتى الذين آمنوا من الإنسان، فثبت أن الإنسان تسمية جنس، والجنس جماعة، وتكون الجماعة مضمرة فيه؛ كأنه قال: إن جماعة الناس على أنفسهم بصيرة، فيكون قوله ﴿بَصِيرَةٌ﴾ راجعاً إلى الجماعة، والله أعلم.

[والثاني] (١): قوله: ﴿بَصِيرَةٌ﴾ وصف للإنسان بالغاية من البصر بكل ما عمل حتى لا يغرب عنه شيء، والهاء قد تدخل في خطاب المذكر عند الوصف بالمبالغة كقولك: فلان علامة ونسابة وراوية للشعر وبالغة في النحو.

والثالث: أن الإنسان تسمية ما يراه بجوارحه كلها من الأيدي والأرجل والسمع والبصر والرأس، ونحو ذلك: نفس أمانة بالسوء، فتصير جوارحه كلها بصيرة أي شاهدة عليه بما قَدَّم، وآخر.

وجائز أن يكون هذا على الإضمار، فيكون قوله: ﴿بَصِيرَةٌ﴾ أي نفس الإنسان بصيرة بما عملت.

ثم من الناس من يُثَبِّت للجوارح العلم بما كسبت نفسه حتى تصير شاهدة عليه يوم القيامة لقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] ولو لم يكن لها العلم بما قَدَّمت نفسه لا تشهد بما لا تعلم.

وليس الأمر عندنا على ما زعموا لأنها لو علمت بذلك لكان صاحبها يصل إلى العلم من جهتها.

ألا ترى أن القلب لما ثبت له المعرفة وقع لصاحبه العلم من جهته؟ كذلك السمع لما جعل منه وقع لصاحبه علم المسموع به، ولما كان بعينه يتصور الأشياء كان علم البصر واقعاً من جهتها.

فلما لم يقع له العلم بيديه ولا برجليه ولا بشيء من جوارحه سوى القلب علم أنه لا حظ لها في المعرفة، ولكن جعلت هي شاهدة وحجة يوم القيامة، تشهد على صاحبها بما يحدث الله تعالى فيها علماً ضرورياً بذلك، لا أن كان لها علم بالذي شهدت قبل ذلك كما جعلت ناطقة (٢) في ذلك الوقت، لا أن كان النطق فيها موجوداً من قبل، والله أعلم.

الآية ١٦ وقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّبِعَ بِهِ﴾ هذا كلام مبتدأ مُنْفَصِلٌ عن الأول. وذكر أهل التاويل أن جبريل ﷺ كان إذا أتى نبي الله ﷺ بالوحي كان لا يقرع من آخر الآية حتى يثقلوها (٣) نبي الله ﷺ من (٤) أولها مخافة النسيان على ما عليه عرف الخلق أنهم إذا أرادوا وعي الكلام وحفظه كَرَّرُوهُ بالسَّيِّئِمْ كي يضبطوه، ولا ينسوه (٥) فكان النبي ﷺ يفعل ذلك خشية النسيان. فنهي عن ذلك بقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّبِعَ بِهِ﴾ وهو كقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤].

وهذا عندنا مما لا يجوز أن يشهد على رسول الله ﷺ أنه كان يحرك لسانه قبل مجيء هذه الآية، ويتذكره مخافة النسيان إلا (٦) بأخبار متواترة لأن هذا في حق الشهادة على رسول الله ﷺ أنه كان يفعل كذلك إلا بتواتر الأخبار.

فأما إن ثبت بخبر واحد فلا، ولا يقال: إنه لو لم يتقدم منه التحريك لكان لا معنى / ٦١٦ - ب/ للنهي، فإنه ليس فيه ما يثبت مقالته، ويصح تأويلهم، ويسوغ لهم الشهادة، لأنه لا يستقيم في الابتداء أن ينهي، فيقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ ولا تفعل كذا، وإن لم يسبق منه ارتكاب ذلك الفعل، ولا تقدم منه تحريك لسانه، فثبت أنه ليس في ضمن هذه الآية بيان ما ادعوا. هذا إذا ثبت أن قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤] على النهي، وهو يختم معنى آخر غير النهي، وهو أن يكون هذا على البشارة له بالكناية أن قد كُفِّيت مؤونة الاستذكار للحفظ، وهذا من عظيم آيات الرسالة أن السورة تُلقَى عليه، فيحفظها كما هي مما يشتد على الناس حفظه وقراءته إلا أن يتكلفوا، ويجتهدوا في ذلك، فيعلم بهذا أن الله ﷻ هو الذي أقدَره على ذلك، وجعله آية من آياته، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: وجواب ثان. (٢) في الأصل وم: نطق. (٣) في الأصل وم: يقول. (٤) في الأصل وم: في. (٥) في الأصل وم: كرروها بالستهم كي يضبطوها ولا ينسوها. (٦) في الأصل وم: لا.

ثم الأصل أن مَنْ أُلْقِيَ إلى آخر كلاماً مُتتَابِعاً نَظَرَ في ذلك الكلام، فإن كَانَ الْقَصْدُ مِنْهُ حِفْظُ عَيْنِ الْكَلَامِ فَإِنَّ الْمُخَاطَبَ بِهِ لَا يَنْتَظِرُ فَرَاغَ الْمُتَكَلِّمِ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ، بَلْ يَسْتَعِجِلُ بِالتَّيَقَانِ وَحِفْظِهِ سَاعَةً مَا يُلْقَى إِلَيْهِ كَمَنْ يَنْشِدُ بَيْنَ يَدَيِ آخَرَ شِعْراً، وَارَادَ الْآخَرَ أَنْ يَحْفَظَ ذَلِكَ الشَّعْرَ، وَيَعْبَهُ، فَهُوَ لَا يَنْتَظِرُ فَرَاغَ الْمُشْدِّ مِنْ شِعْرِهِ، بَلْ هُوَ يَأْخُذُ بِالتَّيَقَانِ فِي أَوَّلِ مَا يَسْمَعُ مِنْهُ، إِذِ الْغَرَضُ مِنَ الْأَشْعَارِ حِفْظُ أَعْيُنِهَا لَا^(١) مَعَانِيهَا.

أَلَا تَرَى أَنَّ الْأَلْفَاظَ إِذَا حُدِّثَتْ مِنْهَا خَرَجَتْ عَنْ أَنْ تَكُونَ شِعْراً؟

وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنِ الْقَصْدُ مِنَ الْكَلَامِ ضَبْطُ عَيْنِهِ، وَإِنَّمَا أُريدُ بِهِ تَقَهُمُ مَا أُودِعَ فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى، فَالْعَادَةُ فِي مِثْلِهِ الْإِصْغَاءُ إِلَى آخِرِ الْكَلَامِ لِيُفْهَمَ مَعْنَاهُ وَمَا يُرَادُ بِهِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ كَتَبَ إِلَى آخَرَ كِتَاباً، وَأَنَّ الْمَكْتُوبَ إِلَيْهِ يَقْرَأُ الْكِتَابَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ لِيَعْرِفَ مُرَادَ الْكِتَابِ لَا أَنْ يَسْتَعِجِلَ بِضَبْطِ مَا أُودِعَ فِيهِ مِنَ الْأَلْفَاظِ [إِذْ لَيْسَ يُقْصَدُ بِالْكِتَابَةِ إِلَى حِفْظِ الْأَلْفَاظِ]^(٢)؟

فَإِذَا كَانَ الْمُرَادُ بِتَوَجُّهِ مِنَ الْكَلَامِ إِلَى مَا ذَكَرْنَا فِيهِ^(٣) الْقُرْآنَ قُصِدَ بِهِ الرَّجْهَانِ جَمِيعاً: ضَبْطُ حُرُوفِهِ وَنَظْمُهُ [وَأَنَّ]^(٤) يُعْرَفَ مَا أُودِعَ فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى، إِذْ صَارَ حُجَّةً بِنَظْمِهِ وَلَفْظِهِ وَالْمَعْنَى الْمَوْدُوعَةِ فِيهِ.

وَقِيلَ: لَا تَعَجَّلْ بِتَحْرِيكِ [اللسان]^(٥) كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَرِيدُ التَّيَقَانَ الْكَلَامِ الَّذِي يُلْقَى إِلَيْهِ، فَإِنَّكَ وَإِنْ أَخْرَجْتَ إِلَى حِفْظِ نَظْمِهِ وَحُرُوفِهِ فَقَدْ كُفِّتْ حِفْظَهُ بِدُونِ تَحْرِيكِ اللِّسَانِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ نَهْيٌ عَنْ تَحْرِيكِ اللِّسَانِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى حِفْظِهِ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى إِلَيْهِ بِالْوَحْيِ لِمَا فِيهِ مِنْ تَرْكِ الْعَظِيمِ مِمَّنْ يَأْتِيهِ بِالْوَحْيِ، فَأَمَرَ أَنْ يُضْغِيَ إِلَيْهِ بِسَمْعِهِ، وَيَسْتَمِعَ إِلَى آخِرِهِ تَعْظِيماً لِلَّذِي آتَاهُ الْوَحْيَ وَتَوْقِيراً لَهُ.

ثُمَّ هَذِهِ الْآيَةُ تَنْقُضُ عَلَى الْبَاطِنِيَةِ قَوْلَهُمْ [بِوَجْهِينَ]:

أَحْلَهُمَا^(٦): لِأَنَّ مِنْ قَوْلِهِمْ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يُنْزَلْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُؤَلَّفاً مَنْظُوماً، بَلْ أُنْزِلَ عَلَى قَلْبِهِ كَالْخِيَالِ، فَصَوَّرَهُ بِقَلْبِهِ، وَالْقَلْبُ بِلِسَانِهِ، فَأَتَى بِتَأْلِيْفٍ، عَجَزَ الْآخَرُونَ عَنْ أَنْ يُؤَلِّفُوا مِثْلَهُ.

وَنَحْنُ نَقُولُ: بَلْ أُنْزِلَ هَذَا الْقُرْآنُ مُؤَلَّفاً مَنْظُوماً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَكُنِ التَّأْلِيْفُ مِنْ فَعْلِهِ. وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَقَالَتِنَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ لِأَنَّ التَّأْلِيْفَ لَوْ كَانَ مِنْ فَعْلِهِ ﷺ لَكَانَ لَا يَوْجُدُ مِنْهُ تَحْرِيْكُ اللِّسَانِ وَقَدْ مَا نُزِّلَ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ كَالْخِيَالِ فَهُوَ يَحْتَاجُ أَنْ يُصَوَّرَهُ فِي قَلْبِهِ، ثُمَّ يَصِلَ إِلَى التَّأْلِيْفِ بَعْدَ التَّصْوِيرِ، وَتَنَاقَى لَهُ الْعِبَارَةُ بِاللِّسَانِ. وَإِنَّمَا يَقَعُ التَّحْرِيْكُ مِنْ مُؤَلِّفٍ مَنْظُومٍ. ثَبَّتَ أَنَّهُ أُنْزِلَ مُؤَلَّفاً مَنْظُوماً.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا أَنْتَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِمَا نَشَاءُ أَلَيْسَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبُكُمْ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ ثَبِثَ﴾ [النحل: ١٠٣] فَهَذِهِ الْآيَةُ نَفَتْ طَعْنَ أُولَئِكَ الْكَفَرَةِ الَّذِينَ يُزْعِمُونَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِقُرْآنٍ، بَلْ إِنَّمَا عَلَّمَهُ فُلَانٌ، وَكَانَ لِسَانُ ذَلِكَ الْبَشَرِ أَعْجَباً، وَهَذَا الْقُرْآنُ عَرَبِيٌّ. فَكَيْفَ يَسْتَقِيمُ أَنْ يُعَلِّمَهُ ذَلِكَ الْبَشَرُ، وَلِسَانُهُ غَيْرُ هَذَا اللِّسَانِ؟

وَلَوْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ وَقْتُ مَا أُنْزِلَ كَالْخِيَالِ لَكَانَ ذَلِكَ الطَّعْنُ قَائِماً لِأَنَّهُ كَانَ يُؤَلِّفُهُ، وَيَجْمَعُهُ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، وَإِنْ عَلِمَ بِالْأَعْجَمِيَّةِ لَمَا قَدَّرَ أَنْ يُؤَلِّفَهُ، وَيَنْظِمَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ خَيَالاً بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ.

الآية ١٧

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ لِأَنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنَ الْوَعْدِ فِي الْكِتَابِ الْمُتَقَدِّمَةِ بِإِنْزَالِ هَذَا الْقُرْآنِ وَإِرْسَالِ هَذَا الرِّسُولِ. فَعَلِينَا إِنْجَازَ ذَلِكَ الْوَعْدِ وَوَفَائِهِ، أَوْ عَلَيْنَا فِي حَقِّ الْحِكْمَةِ [جَمْعُهُ]^(٧) لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وَلَا يَتَّهَى لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُجْمَعَ لَهُ، فَيُؤَدِّيهِ إِلَى الْخَلْقِ، وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكِيمٌ فِي فِعْلِهِ، وَفَعَلَهُ مَوْصُوفٌ بِالْحِكْمَةِ، وَإِنْ لَمْ نَعْرِفْ نَحْنُ وَجْهَ الْحِكْمَةِ فِي فِعْلِهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: دُونَ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ رَم: ثُمَّ. (٤) فِي الْأَصْلِ رَم: وَ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٧) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم.

وجائز أن يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ في حق الرحمة والرافة على الخلق لا أن يكون ذلك حقاً لهم قبله تعالى، وهو كقولهِ تعالى: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَ بِاللَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: ٨٦ و ٨٧] فآخبر أنه أبقى القرآن، ولم يذهب به رحمة منه عبادة وفضلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ أي قراءته وتسميته قرآناً كما قيل في تأويل قوله: ﴿وَقُرْآنَهُ فَرَّقْنَاهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦] أي جعلناه قرآنًا.

الآية ١٨ وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاقْرَأْهُ﴾ أي جمعه في قلبك، أو جمعه حدوده ﴿فَاقْرَأْهُ﴾ ما أودع فيه من المعاني، أو جمعه بعد أن قرأناه في التنزيل.

وقوله تعالى: ﴿فَاقْرَأْهُ﴾ اتباعه يكون بأوجه: في أن يُلغى إلى الخلق، ويُعلم أمته، ويتبع حلاله، ويحْتَبِ حرامه [وغير ذلك] ^(١).

الآية ١٩ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَوْ عَلَيْنَا يَكُنْ﴾ جائز أن يكون قوله: ﴿عَلَيْنَا يَكُنْ﴾ أي بيان ما أنزلناه مُجَمَّلاً، فيكون بيانه في تعريف ما هو بحق الإتمام وما هو في حق الجواز وما هو في حق التحسين والتزيين، لأن الفرائض لها شعب وأركان وحواشي، أو نقول: فيها فرائض ولوازم وآداب وأركان على هذا، وفيه منع تعليق الحكم بظاهر المخرج، لأنه لو كان مُتَعَلِّقاً به لكان البيان مُقَضِّياً بنفس المُنْزَل، فلا يحتاج إلى أن يُبَيَّن.

وفيه دلالة تأخير البيان عن وقت قُرْع ^(٢) الخطاب السمع، ويَحْتَمِلُ أن يكون قوله: ﴿ثُمَّ لَوْ عَلَيْنَا يَكُنْ﴾ أي بيان ما هو بحق الكنايات والنتائج منها، وما هو بحق الأصول والفروع، وما هو بحق المقصود.

فَيُبَيِّنُ لِرَسُولِهِ ﷺ مَعْنَى الْأَصُولِ وَالْكُنَايَاتِ لِيَتَعَرَّفَ بِهِ [على] ^(٣) فروعها ونتائجها، وَيُبَيِّنُ لِمَنْ بَعْدَهُ مَنْ جَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَيَهْدِيهِ لِلذِّكْرِ [كما] ^(٤) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [المنكبات: ٦٩] أو يكون قوله: ﴿ثُمَّ لَوْ عَلَيْنَا يَكُنْ﴾ في أن يحفظك، ويعصمك، لِيَتِمَّكَ مِنْ تَبْلِيغِ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ إِلَى الْخَلْقِ، وَتُبَيِّنَ لَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ووجه آخر أن رسول الله ﷺ بُعِثَ إِلَى كُلِّ مَنْ كَانَ شَاهِداً مِنَ الْخَلَائِقِ إِلَى يَوْمِ الشَّادِي، ثُمَّ لَمْ يُمَكِّنْ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ مِمَّا ذَكَرْنَا بِنَفْسِهِ، فَكَانَهُ ضَمِنَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التَّبْلِيغَ إِلَى الْخَلَائِقِ كَافَّةً بِمَا شَاءَ، جَلُّ جَلَالُهُ، إِمَّا بِتَسْخِيرِ الرِّوَاةِ وَالْحُفَاطِ وَالْعُلَمَاءِ لِيَتَلَفَّحُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَدَّى إِلَيْهِمْ، وَإِمَّا ^(٥) بِكَوْنِ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ لَوْ عَلَيْنَا يَكُنْ﴾ أي بيان المُحَقِّقِ مِنَ الْمُبْطَلِ وَالْوَلِيِّ مِنَ الْعَدُوِّ؛ وَذَلِكَ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُعْرِفُ الْأَوْلِيَاءُ بِمَا يُحْيُونَ مِنَ الْكِرَامَاتِ، وَيَتَبَيَّنُ الْأَعْدَاءُ / ٦١٧ - ١ / والمبطلون ما يَحُلُّ بِهِمْ مِنَ الْحَسَابِ وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ.

الآيات ٢٠ و ٢١ وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ يُرِيدُ الْفَاجِلَةُ﴾ وَتَذَرُّهُ الْآخِرَةُ يَقُولُ: ﴿كَلَّا﴾ رَدُّعٌ وَمَنْعٌ عَمَّا سَبَقَ مِنْهُمْ. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْفَاجِلَةُ﴾ إِبَانَةٌ أَنَّ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْحُسْبَانِ أَنَّ الْعِظَامَ، لَا تُجْمَعُ، وَأَنَّ الْبَعْثَ، لَيْسَ بِشَيْءٍ، وَحُبُّهُمْ ^(٦) الْعَاجِلَةَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أُولِعُوا بِالْعَاجِلَةِ، وَأَحْبَبُوهَا حُبًّا أَنَسَاهُمْ الْإِيمَانَ ^(٧) بِالْآخِرَةِ وَالنَّظَرَ ^(٨) فِي الْحَجِجِ وَالْبِرَاهِينِ الَّتِي لَوْ أَمْتَعَنُوا النَّظَرَ فِيهَا أَذْنَتْهُمْ إِلَى الْقَوْلِ بِالْبَعْثِ، حَتَّى صَارُوا إِلَى الْآخِرَةِ يَقُولُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس: ٧].

الآيات ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ وقوله تعالى: ﴿رُجُوعُهُمْ يُرْجَى﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ نَازِلٌ﴾ ﴿وَرُجُوعُهُمْ يُرْجَى﴾ ﴿تَنْزِيلُ أَنْ يَقْلَ بِهَا قَافِرَةٌ﴾ [يحتمل وجوهاً:

أحدها] ^(٩): مَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ عَوَاقِبُ مِنَ التَّزَمِّ طَاعَةَ اللَّهِ، وَأَمَّنْ بِالْبَعْثِ وَالْحَسَابِ، وَبَيَانُ مَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ عَوَاقِبُ مَنْ تَوَلَّى عَنْ طَاعَتِهِ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وقوع. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: عن. (٨) في الأصل وم: أو عن النظر. (٩) ساقطة من الأصل وم.

فقولهُ: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ تَائِرُهُ﴾ جائز أن يكون أريد بها الأنفس، وتكون الوجوه كنايةً عنها. والذي يدلُّ على أنه أريد بها الأنفس لا أعينها قولهُ: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ بَائِرُهُ﴾ ﴿تَقُلُّ أَنْ يَمْلَأَ بِهَا قَائِرُهُ﴾ والوجوه لا تظُنُّ ذلك، ولا تعلمُ به. فثبت أن ذكر الوجوه على الكناية لا أن يُريد بها أعينها. فهذا التأويلُ أوفقُّ بما يقتضيه ظاهرُ اللفظ. وإنما صلَحَ أن تكون الوجوه كنايةً عن الأنفس؛ وذلك أن النفس إذا تَلَذَّذَتْ بامرٍ، ونالتْ شهوتها، ظهرَ سرورُ ذلك في وجهه، وإذا تألَّمتْ بامرٍ، واغترهاها الحزنُ ظهرَ أثرُ الحزنِ في وجهه.

فيكونُ في قولهِ: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ تَائِرُهُ﴾ وصفتُ لهم بما هم عليه من غاية السرورِ بالكراماتِ التي أُكْرِمُوا بها حتى نُصِرَتْ وجوههم بذلك.

فإذا ثبت أنهم قد نالوا الكراماتِ، ووصلوا إلى أنواعِ المَلَذَّاتِ، لم يَبْقَ لقولهِ: ﴿إِلَّا رَيْبًا نَاطِرَةً﴾ موضعٌ إلا أن يُصَرَّفَ إلى حقيقةِ النظرِ، فيكونُ في هذا إثباتُ القولِ بالرؤية.

والثاني: أن الملوك الذين من عادتهم الاحتجابُ عن الخلقِ إذا قَرَّبوا إنساناً، لم يَحْتَجِبُوا عنه، ويكونُ تركُّبُهُم^(١) الاحتجابُ أثرٌ إلى ذلك الذي أُكْرِمَ بالتقريبِ من سائرِ ما يُكْرَمُ به.

فجائز أن يكونَ الله تعالى يُكْرَمُ أوليائه بالنظرِ إليه، وَيَفْضَلُ عليهم بذلك.

[والثالث]^(٢): جائز أن يكونَ قولهُ: ﴿إِلَّا رَيْبًا نَاطِرَةً﴾ مُنْصَرَفاً إلى انتظارِ الثوابِ كما قاله بعضُ أهلِ التأويلِ، فَتَنْتَظِرُ ما يأتيها من الثَّخِيفِ والكراماتِ حتى وُصِفوا بنضارةِ الوجوه، وجائز أن يكونَ بَعْدَ تلك الكراماتِ ثَخَفٌ آخرٌ، لم تأتِهم بَعْدَ.

ألا تَرَى إلى قولهِ: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ بَائِرُهُ﴾ ﴿تَقُلُّ أَنْ يَمْلَأَ بِهَا قَائِرُهُ﴾؟ والبُسرُ من أدنى أحوالِ التَّغْيِيرِ، وغايةُ التَّغْيِيرِ أن تَسْوَدَّ الوجوه، وتُكَلِّخَ. فإذا لم يَحُلْ بهؤلاء بَعْدَ غايَةٍ ما أوعِدوا مِنَ العذابِ، فجائز أن يكونَ الذين وَعِدَ لَهُمُ الكراماتِ، بَعْدَ لم يَنْتَهوا إلى أقصاها، ولم ينالوا بَعْدَ أرقعها، وإنما أُكْرِمُوا ببعضها، وهم مُتَنَظِّرونَ لِمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ بَعْدَ.

[والرابع]^(٣): جائز أن يكونَ قولهُ: ﴿إِلَّا رَيْبًا نَاطِرَةً﴾ أن يَجْعَلَهَا ناظرةً^(٤) في ما أُكْرِمَتْ إلى الله تعالى، ولا تَرَى ذلك الفضلَ مُسْتَوْجِباً من جهتها كما قد يَرَى المرءُ في الشاهدِ بعضَ ما حَوَّلَ مِنَ المالِ بِحِيلِهِ وَسَعْيِهِ، والله أعلم.

[والخامس]^(٥): جائز أن يكونَ قولهُ: ﴿إِلَّا رَيْبًا نَاطِرَةً﴾ أن ليسَ كُلُّ الكراماتِ في نفسِهِ خاصَّةً وإلى ما يَنْتَهِي إليه نَظَرُهُ، بل يكونَ قَدَرُ^(٦) ذلك كراماتٍ آخرَ، فَتُصَرَّفُ قولهُ: ﴿إِلَّا رَيْبًا نَاطِرَةً﴾ إلى ذلك.

[والسادس]: جائز أن يكونَ^(٧): إلى أمرِ ربِّها ناظرةً.

وإذا كانَ قولهُ: ﴿إِلَّا رَيْبًا نَاطِرَةً﴾ مُخْتَمِلاً أن يُصَرَّفَ إلى حقيقةِ النظرِ، ويُصَرَّفَ إلى الكراماتِ مِنَ الوجوه التي يَنْتَظِرُها، لم يكنَ لأحدٍ أن يَجْعَلَ الأمرَ على الكراماتِ، فَيَنْفِي عنه حقيقةَ الرؤيةِ للأبدِ، لا بل ظاهرةً يُحِيلُ القولَ بالرؤية، فيدفعُ هذا التأويلَ بتلك الدلائلِ.

فأما إذا لم يمكنهُ إقامةُ الدلائلِ إلى حالةِ الرؤيةِ فليسَ لَهُ قَطْعُ هذا التأويلِ، وَصَرَفُ التأويلِ إلى انتظارِ الكراماتِ، فتكونُ الآيةُ حُجَّةً في جوازِ [الرؤية]^(٨) وإن لم تكن حُجَّةً في الوجوبِ^(٩)، والخلافُ فيهما واحدٌ.

واختِجَ من صَرَفِ التأويلِ إلى حقيقةِ الرؤيةِ أن قولهُ: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ بَائِرُهُ﴾ هو مقابلُ قولهِ: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ تَائِرُهُ﴾ وقولهُ: ﴿تَقُلُّ أَنْ يَمْلَأَ بِهَا قَائِرُهُ﴾ [لا]^(١٠) على قَدَرِ الرؤيةِ، ولكن على العقابِ نفسِهِ.

فكذلك قولهُ: ﴿إِلَّا رَيْبًا نَاطِرَةً﴾ ليسَ هو على حقيقةِ الرؤيةِ ووجودها، ولكن واقعٌ على الثوابِ نفسِهِ.

وجوابُ هذا الفصلِ من وجهين:

(١) في الأصل: وم. بركة. (٢) و(٣) في الأصل: وم. و. (٤) في الأصل: وم. نظرها. (٥) في الأصل: وم. و. (٦) في م: بعد. (٧) في الأصل: وم. ويحتمل أي. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل: وم. الوجوه. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

أخذهما: أن أهل العقاب بعد لم ينزل بهم جميع ما أوعدوا في هذه الدنيا من العقاب لما ذكرنا أن نهاية العذاب في تسود الوجوه وتكلمها، ليس في بسورها. فلذلك استقام أن يكون قوله: ﴿تَنْظُرُونَ أَنْ يَقُولَ يَا فَاقرَةٌ﴾ على نفس العذاب.

[والثاني: أن^(١)] أهل الجنة قد وصلوا إلى رفيع الدرجات وعظيم الكرامات، فوصفوا^(٢) بنضارة الوجوه، فاستقام أن يكون قوله: ﴿إِنَّهَا تَأْتِرَةٌ﴾ منصرفاً إلى رفيع حقيقة النظر لا إلى غيره من الكرامات.

ولأن الرؤية [من أعلى الكرامات وأرفعها، وأهل العقاب لم يتألوا أدنى الكرامات، فكيف يتوقعون أرفعها؟

أما أهل الجنة فهم قد نالوا من النعم والكرامات ما لا يحصى، فجاء أن يكرموا بالرؤية^(٣) أيضاً.

والأصل أن القول بالرؤية عندنا واجب، والنظر إليه ثابت كما قال ﷺ: ﴿جَاءَ أَشْرَفُكُمْ﴾ [هود: ٤٠ و...]. في غير خبر النظر إلى الله تعالى، وقد قال ﷺ: ﴿إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيِيهِ﴾ [البخاري ٦٥٧٣ ومسلم ١٨٢/٢٩٩].

وأهل التوحيد لم يختلفوا في صحة الأخبار التي جاءت في إثبات الرؤية. ولكن من نفى الرؤية بالبصر صرف الأخبار إلى العلم؛ وذلك غير مستقيم لوجهين:

أحدهما: أن الإشارة بالرؤية خص بها أهل الجنة. ولو كان المراد من الرؤية العلم لارتفع الاختصاص.

[والثاني^(٤)]: لأن العلم مما يقع به الاشتراك بين الفريقين، ولأن كلا [منهما]^(٥) يجمع على العلم بالله تعالى في الآخرة العلم الذي لا يغتريه الوسواس ولا الرب.

والعلم الذي لا يغتريه الوسواس والرب هو علم الاستدلال لأن الآيات لا يضطر أهلها إلى الحقيقي. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْزِلْنَا إِلَيْهِمْ لَنَأْكُلَهُنَّ الْخُبُزَ﴾ [الأنعام: ١١١] وقوله^(٦): ﴿وَلَوْ كُنَّا فَتَنَّا لَكُنَّا فَتَنًا مَّا كُنَّا شُكْرًا﴾ [الأنعام: ٢٣] وقوله^(٧): ﴿يَوْمَ يَبْقَعُ اللَّهُ حَيْمًا يَتَطَلَّوْنَ لَكُم كَمَا يَتَطَلَّوْنَ لَكُمْ وَنَحْسَبُ أَنَّكُمْ عَلَىٰ قَوْلٍ﴾ [المجادلة: ١٨].

فإذا ثبت ما ذكرنا فقد صاروا مثبتين للرؤية من [الوجوه التي]^(٨) أرادوا نفياً، وثبتت الرؤية على نفى جميع معاني الشبه عن الله تعالى، ولا نضيف الرؤية بالكيفية؛ إذ الكيفية تكون للذي صورة، وهو يرى بلا كيف؟ والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿تَنْظُرُونَ أَنْ يَقُولَ يَا فَاقرَةٌ﴾ فجاء أن يكون الظن في موضع العلم هنا، وجاء أن يكون على حقيقة الظن؛ وذلك أن الظن يتولد من ظواهر الأشياء، فالأسباب إذا كثرت، وازدحمت، وقع بها العلم، وإذا قلت، وخفيت، لم يقع بها علم. فجاء أن تكون أسباب الشر أحاطت به من كل جانب حتى وقع اليأس من النجاة، وأيقن أنه يفعل به الشر.

وجاء أن يكون الأمر^(٩) بعد لم يبلغ مبلغ الإياس، فيتوقع النجاة، ولا يتيقن أنه يفعل بها فاقة، بل يكون منه ظن، والله أعلم.

والفاقرة: قيل: الشر والمُنكر والداية، وقيل: الفقير هو كسير الظهر، والفقير الكسر، والفقار عظم في الظهر يكسر. فكان عظم الظهر يكسر في الآخرة، ويسحب في النار على وجهه.

قال، رَحِمَهُ اللَّهُ: كأن هذه السورة من أولها إلى ٦١٧ - ب/ أخرها إلا آيات منها، وهي^(١٠) قوله تعالى: ﴿بَلْ يُبْذَرُ الْغَلِيلَ﴾ ﴿وَتَذُنُّ الْآخِرَةُ﴾ ﴿رَبُّهُ يَوْمَ تَأْتِرُ﴾ ﴿إِنَّهَا تَأْتِرُ﴾ ﴿وَيَوْمَ يَوْمِهِمْ تَأْتِرُ﴾ ﴿تَنْظُرُونَ أَنْ يَقُولَ يَا فَاقرَةٌ﴾ [الآيات: ٢٠ - ٢٥].

نزلت في تبين معاملة أحد من الكفرة على الإشارة^(١١) إليه مع رسول الله ﷺ ليشارك في حكم من يشاركه في معاملته.

فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يعامله، ويستقبله بالذي [يحق]^(١٢) على الحكماء معاملة السفهاء، ولم يأمره أن يعامله

(١) في الأصل: وم. و. (٢) في الأصل: وم. بما وصفوا. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: علم. (٧) في الأصل: وم. وقال. (٨) في الأصل: وم. وقال. (٩) في الأصل: وم. الوجه الذي. (١٠) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: وم. الأيمن. (١١) في الأصل: وم. وهو. (١٢) من م، في الأصل: الاستشارة. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

[ومثل مُعاملَةٍ^(١)] السفهاء. وَيَتَنَّ معاملَتُهُ في هذه السورة لِيُعْلِمَ أُمَّتَهُ مَا لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْجَهْدِ وَالْبَلَاءِ فِي إِظْهَارِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَعْلَمُوا قُدْرَهُ وَمَنْزِلَتَهُ، وَيُعْظَمُوا دِينَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا نَالُوهُ سَهْلًا.

وَأَمْرُهُ أَنْ يَعَامَلَ [مَنْ]^(٢) مَعَهُ مُعاملَةً مَنْ يَرْجِعُ إِلَى الْمَنْعَةِ وَالشَّرَكَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ فَاوْزَكُ﴾ [الآيتان: ٣٤ و٣٥] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٦ وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنْ كُنْتُمْ لِلرَّاقِي﴾ فقوله: ﴿كَلَّا﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنْ يَكُونَ أُرِيدَ بِهِ حَقًّا.

[والثاني]^(٣): أَنْ يَكُونَ عَلَى الرُّذْءِ وَالرَّدِّ، أَيْ لَا تَفْعَلْ مِثْلَ هَذَا فَإِنَّكَ سَتَنْتَدِمُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي قَالَ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرَّاقِي﴾ كَانَهُمْ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ وَقْتِ تَدْمِيهِ، فَبَيَّنَ لَهُمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الرَّاقِي﴾ [والتراقي]^(٤) هِيَ عُروِقُ الْعُنُقِ. كَانَهُ يَقُولُ حِينَ نَزُولِ النَّفْسِ أَيْ الرُّوحِ عَنْ مَكَانِهَا، وَتَنْتَهِي إِلَى التَّرَاقِي.

الآية ٢٧ وقوله تعالى: ﴿يَقِيلُ نَارًا﴾ فجائز أَنْ يَكُونَ الْمَلَائِكَةُ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ هَذَا؛ يَقُولُ بَعْضُهُمْ: مَنْ يَرْقَى بِرُوحِهِ: أَمَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ أَمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ؟ ﴿نَارًا﴾ يَرْقَى أَيْ يَصْعَدُ؟ وَمَنْ يَقْبِضُ رُوحَهُ؟

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَقُولَ أَهْلُهُ: مَنْ الَّذِي يَرْقِيهِ فَيُشْفَى؟ فَيَكُونَ فِيهِ إِخْبَارٌ عَمَّا حَلَّ بِهِ مِنَ الضَّعْفِ وَالشَّدَّةِ:

إِنَّهُ يَمْتَنِعُ عَنْ أَنْ يَقُولَ: اذْعُوا لِي رَاقِيًا لَعَلِّي أُشْفَى، فَيَكُونَ أَهْلُهُ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ هَذَا فِي مَا يَبْتَهِمُ.

الآية ٢٨ وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا نَارًا﴾ فجائز أَنْ يَكُونَ الظَّنُّ عَلَى الْإِيقَانِ هَهُنَا لِمَا وَقَعَ لَهُ الْيَأْسُ مِنَ الْحَيَاةِ.

وكَذَلِكَ رُوِيَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: وَأَيُّقِنُ^(٥) أَنَّهُ الْفَرَاقُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَقِيقَةِ الظَّنِّ لِمَا لَمْ يَقَعْ لَهُ الْيَأْسُ مِنْ حَيَاتِهِ بَعْدُ، فَهُوَ يَأْمُلُ بَعْدُ.

الآية ٢٩

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ النَّاتِقِ﴾ اخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِهِ: قِيلَ: لُغَتٌ سَاقَاةٌ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى، فَلَا تَنْفَرِقَانِ كَالْتِفَافِ الْأَشْجَارِ حَتَّى لَا يَجِدَ مَفْرَأً^(٦) مِنْهَا وَلَا هَرَبًا. وَقِيلَ: إِنَّ سَاقِيَهُ فِي الْقِيَامَةِ لَتَضَعُفُ عَنْ حَمْلِهِ مِنْ شِدَّةِ الْفَرْعِ. وَقِيلَ: أُرِيدَ بِالسَّاقِ الشَّدَّةُ؛ يُقَالُ: قَامَتِ الْحَرْبُ عَلَى سَاقٍ أَيْ عَلَى شِدَّةٍ، أَيْ وَصِلَتْ شِدَّةُ الْمَوْتِ بِشِدَّةِ الْآخِرَةِ، وَاجْتَمَعَتْ شِدَائِدُ الدُّنْيَا مَعَ شِدَّةِ الْآخِرَةِ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ قَدْ حَلَّتْ بِهِ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ، وَنَزَلَتْ بِهِ شِدَائِدُ الْآخِرَةِ، وَذَلِكَ آخِرُ يَوْمِهِ مِنَ الدُّنْيَا وَأَوَّلُ يَوْمِهِ مِنَ الْآخِرَةِ.

وقيل: مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ إِلَّا التَّقَتَّ سَاقَاةٌ مِنْ شِدَّةٍ مَا يُقَاسِي مِنَ الْمَوْتِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَاللَّيْلِ النَّاتِقِ﴾ مَعْنَاهُ: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يُجَهِّزُونَ رُوحَهُ، وَبَنِي آدَمَ يُجَهِّزُونَ بَدَنَهُ، فَذَلِكَ التِّفَافُ السَّاقِ بِالسَّاقِ.

الآية ٣٠ وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ رَبُّكَ يَوْمَئِذٍ السَّاتِقِ﴾ أَيْ إِلَى مَا وَعَدَ رَبُّكَ يَوْمَئِذٍ يُسَاقُ إِمَّا إِلَى خَيْرٍ وَإِمَّا إِلَى شَرٍّ.

الآية ٣١ وقوله تعالى: ﴿وَلَا سَكَنَ وَلَا سَلَ﴾ أَيْ فَلَا صَدَقَ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْأَخْبَارِ، وَلَا صَدَّقَ رَسُولُهُ ﷺ ﴿وَلَا سَلَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أُرِيدَ بِهِ نَفْسُ الصَّلَاةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الصَّلَاةَ جِئَتْ إِلَى الْأَنْفُسِ كُلِّهَا حَتَّى لَا تَرَى أَهْلَ دِينٍ إِلَّا وَقَدْ رَجَبَتْ الصَّلَاةَ عَلَيْهِمْ، فَيَكُونُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا سَكَدَ وَلَا سَلَ﴾ إِبَانَةُ سَفْهِهِ وَجَهْلِهِ، أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا سَلَ﴾ أَيْ وَلَا أَتَى بِالْمَعْنَى الَّذِي لَهُ الصَّلَاةُ، وَهُوَ الْإِسْتِسْلَامُ وَالْإِنْقِيَادُ لِلَّهِ تَعَالَى.

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: مِثْلُهُ مِنْ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٣) فِي الْأَصْلِ رَم: وَيَحْتَمِلُ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) انْظُرْ مَعْجَمِ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَةِ ج ٨/ ١١. (٦) فِي الْأَصْلِ رَم: مَفَازًا.

الآية ٣٢

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَقَالَ﴾ أي ولكن كَذَّبَ الأخبار التي جاءتُهُ ﴿وَقَالَ﴾ أي أَعْرَضَ عن طاعة الله تعالى.

الآية ٣٣

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ أي يَتَبَخَّرُ، وَيَتَكَبَّرُ؛ وذلك أَنَّ الإختيال والتكبر إنما يليقُ بِمَن أتى بِفعلٍ عظيم، يَنْجِزُ غيرُهُ عن إثباتِ مثله نَحْوُ أَنْ يَهْزِمَ جُنْدًا عَظِيمًا أو يَفْتَحَ كُورَةً حَصِينَةً، وهذا الذي تَمَطَّى لم يَفْعَلْ سِوَى أَنْ كَذَّبَ بآياتِ الله تعالى، وأَعْرَضَ عن طاعته، وما هذا إِلَّا فِعْلُ السَّفَهَاءِ الحَمَقَى، فَأَتَى يَلِيْقُ بِمِثْلِهِ التَّمَطَّى؟

الآيات ٣٤ و ٣٥

وقوله تعالى: ﴿أَنذَرَكَ لَكِ فَاوْكَ﴾ ﴿ثُمَّ أَوَّكَ لَكَ فَاوْكَ﴾ [فيه وجهان]:

أحدهما: [١] جائز أن يكون رسول الله ﷺ قيل له: قل: ﴿أَنذَرَكَ لَكَ فَاوْكَ﴾ وكان رسول الله ﷺ قال له: ﴿أَنذَرَكَ لَكَ فَاوْكَ﴾ ويُنَّ الله تعالى ذلك في كتابه.

وقال أهل التأويل: هذا وعيدٌ على وعيد؛ كأنه قال: وِلْ لَكَ فَوِيلٌ، ثم وِلْ لَكَ فَوِيلٌ؛ ذِكْرُ أَنَّ رسول الله ﷺ أَخَذَ بِجَمِيعِ ثِيَابِهِ، وقال له هذا، فلم يَتَهَيَّأَ لذلك المسكين لأن يدفع رسول الله ﷺ عن نفسه، وكان يَفْتَحِرُ بِكَثْرَةِ أَنْصَارِهِ أَنَّهُ أَحْرُ مَنْ يَمْشِي بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ. فالله تعالى بِلَطْفِهِ أَذَلَّهُ، وَاِهَانَهُ، حتى لم يَتَهَيَّأَ لَهُ الجِرَاكُ مِمَّا نَزَلَ بِهِ، وَلَا نَفَعَتْهُ قُوَاهُ وَكَثْرَةُ اتِّبَاعِهِ.

وجائز أن يكون قوله: ﴿أَنذَرَكَ لَكَ فَاوْكَ﴾ أي لَأَجْدُرُ بِكَ أَنْ تَنْظُرَ فِي مَا جَاءَ [بِهِ] مُحَمَّدٌ ﷺ وفي الذي كَانَ عَلَيْهِ أَبَاوُكَ لِيُظْهَرَ لَكَ الصَّوَابُ مِنَ الْخَطِئِ وَالْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ، فَتَتَّبِعَ الصَّوَابَ مِنْ ذَلِكَ. فَتَجْهَزَ بِهِ شَرَفُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِذْ كَانَ يَفْتَحِرُ بِشَرَفِهِ وَعِزِّهِ؛ فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَدُومَ لَكَ الشَّرَفُ، فَالْأَوَّلَى لَكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَا ذَكَّرْنَا، فَتَتَّبِعَ الصَّوَابَ مِنْ ذَلِكَ.

والثاني: أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ عَادَتُهَا أَنْ تَقُومَ بِتَضَرُّعٍ قَبِيلَتِهَا، وَتَذُبُّ عَنْهَا: كَانَتْ ظَالِمَةً فِي ذَلِكَ أَوَّلَم تَكُنْ ظَالِمَةً فِي ذَلِكَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ مِنْ قَبِيلَةِ أَبِي جَهْلٍ. فَلَوْ كَانَ عَلَى غَيْرِ حَقٍّ عِنْدَهُ كَانَ الْأَوَّلَى بِهِ أَنْ يَنْصُرَهُ وَيُعِينَهُ عَلَى مَا عَلَيْهِ عَادَةُ الْعَرَبِ، وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا فَهُوَ أَوْلَى. فَتَرَكَ مَا هُوَ أَوْلَى مِنَ النُّصْرِ وَالْحِمَايَةِ.

الآية ٣٦

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [فيه وجهان]:

أحدهما: [٣] جائز أن يكون هذا الإنسان دَهْرِيَّ المذهب، فيكون قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ على حَقِيقَةِ الْحُسْبَانِ لَأَنَّهُ يَحْسَبُ أَنْ لَا يَبْعَثَ وَلَا حِسَابَ، وَقَدْ كَانَ فِي أَهْلِ مَكَّةَ مَنْ هُوَ دَهْرِيَّ المذهب، وَإِنْ كَانَ الْخُطَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ لَيْسَ عَلَى تَحْقِيقِ الْحُسْبَانِ. وَلَكِنْ مَعْنَاهُ: أَتَفْعَلُ فِعْلًا مِنْ يُؤْذِنُ عَنْ أَمْرِ كَانَ فَعَلَهُ مُوَافَقًا لِفِعْلِ مَنْ يَحْسَبُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى؟ كَمَا ذَكَّرْنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَانَةً﴾ [القيامة: ٥] وهو لَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ فَاجِرًا فِي الْحَقِيقَةِ، وَلَكِنْ يَفْعَلُ فِعْلًا مَنْ يَغْتُفُّ فِعْلَهُ الْفُجُورَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧] وَلَيْسَ عَلَى حَقِيقَةِ الظَّنِّ. وَلَكِنْ إِذَا لَمْ يَقُلْ بِالْبَعْثِ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ، فَقَدْ وَصَفَ أَنْ خَلَقَهُمَا إِذَنْ عَلَى بَاطِلٍ، وَذَلِكَ الْفِعْلُ الَّذِي ذَكَّرْنَا يَكُونُ فِي تَرْكِ الْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ وَفِي جُمُودِ الرِّسَالَةِ، لِأَنَّ الْمُحَاسِنَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهَا عَوَاقِبُ، وَكَذَلِكَ الْمَسَاوِي.

ثم تَعَرَّ هَذِهِ الدَّارُ عَلَى الْمُسِيءِ وَالْمُخْسِنِ مَرًّا وَاحِدًا، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ بَعْدَهَا (٤) دَارٌ أُخْرَى، فِيهَا تَنْبِيْهُنِ مَرْتَبَةُ الْمُخْسِنِ وَمَدَارُ (٥) الْمُسِيءِ. فَمَنْ (٦) لَمْ يُؤْمِنْ بِالْبَعْثِ فَهُوَ لَمْ يَجْعَلْ لِلْمُحَاسِنِ وَالْمَسَاوِي عَوَاقِبَ، وَسَوَى بَيْنَ مَرْتَبَةِ الْمُسِيءِ وَمَرْتَبَةِ الْمُخْسِنِ، وَذَلِكَ عَبَثٌ.

والثاني: أَنَّ مَنْ عَرَفَ أَنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ عَبَثًا، وَلَا يُتْرَكَ / ٦١٨ - ١ / سُدًى فَلَا بُدَّ لِمِثْلِهِ مِنْ أَنْ يَرْغَبَ، وَيَرْهَبَ، وَيُؤَمَّرَ، وَيُنْهَى، وَلَا يَعْرِفُ ذَلِكَ إِلَّا بِالرَّسُولِ، وَالضَّرُورَةُ أَخَوَاتُ إِلَى رَسُولٍ يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا يَأْتُونَ وَمَا يَتَّقُونَ وَمَا يَرْغَبُونَ فِي مِثْلِهِ وَعَمَا يَخْذَرُونَ. فَمَنْ أَنْكَرَ الرِّسَالَةَ فَقَدْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ عَنِ الْمَرْغُوبِ وَالْمَرْهُوبِ وَعَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَذَلِكَ حَالٌ مِنْ خُلُقِ سُدًى.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: ومدار. (٥) في الأصل: ومدار. (٦) في الأصل: وما.

الآيات ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُتَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً مُّلتَقًّى سَوَیًّا﴾ ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الْزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ والوجه فيه أن كل واحد يعلم أن نشوءه كان من نطفة، وتلك النطفة لو رُئيت موضوعة على طبقٍ، ثم اجتمع حكماء الأرض على أن يتدبروا منها بشراً سوياً كما قدّرهُ الله تعالى في تلك الظلمات لم يصلوا إليه أبداً، وإن استقرغوا جهودهم، وأنفذوا حيلهم وقواهم، ولو أرادوا أن يتعرفوا المعنى الذي لذلك المعنى صَلَحَتِ النُّطْفَةُ على أن يُنشَأَ منها العلقَةُ والمُضْعَةُ إلى أن يُنشَأَ بشرٌ سويٌّ عليه، لَعِلِمُوا^(١) أن من بلغت قدرته هذا، هو أحكم الحاكمين.

ولو كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا زَعَمُوا أَنْ لَا يَنْتَفِ لَمْ يَكُنْ هُوَ أَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ، بَلْ كَانَ وَاحِدًا مِنَ اللَّاعِينَ.

وَيَتَبَيَّنُ مِمَّا ذَكَرْنَا أَنَّ قُدْرَتَهُ^(٢) لَا تُوصَفُ بِالْعَجْزِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ قُدْرَتَهُ لَا تَنْتَهِي إِلَى الْبَغْيِ فَقَدْ وَصَفَ الرَّبَّ بِالْعَجْزِ ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠ والزمر: ٦٧].

الآية ٤٠ وقوله تعالى: ﴿أَيَسَّ ذَلِكَ يَتَذَكَّرُ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْكَوْنُ﴾ فقوله: ﴿أَيَسَّ﴾ في موضع التحقيق والتقرير، وإن كان خارجاً مخرج الاستفهام على ما ذكرنا أن ما يخرج مخرج لاستفهام من الله تعالى فحقه أن يضرك^(٣) إلى الوجه الذي يقتضيه ذلك الخطاب، إذ لو كان من مستفهم ومن قال لآخر في الشاهد: أيس الله تعالى بقادر على إحياء الموتى؟ فحقه أن يقول: بلى هو قادر على ذلك. وكذلك ذكر أن النبي ﷺ قال حين تلا هذه الآية: «سُبْحَانَكَ قَبْلِي» (أبو داود ٨٨٤).
 فقوله: ﴿أَيَسَّ ذَلِكَ يَتَذَكَّرُ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْكَوْنُ﴾ [أي هو قادر على إحياء الموتى]^(٤) والله الموفق، وإليه المستعين،
 [وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين]^(٥).



(١) في الأصل وم: فيعلموا. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: الذي. (٣) في الأصل وم: يصرفه. (٤) من م ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من م.

سورة الإنسان

[وهي مكية^(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ ف: ﴿هَلْ﴾، و﴿مِّنْ﴾، و﴿لَّمْ﴾: من الله تعالى واجب، وحقه أن يُنظر أن لو كان مثل هذا الكلام من مُستفهم ما الذي كان يقتضي من الجواب؟ فإذا قال الإنسان لآخر: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفَرَقَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأعراف: ٣٧ و...]. فجوابه أن يقول: لا أحد أظلم منه، وإذا قال لآخر: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ﴾ [طه: ٩ و...]. فحق المجيب أن يقول، إن كان قد أتاه حديث فلان: فقد أتاني، وإن كان لم يأتِهِ فحقه أن يسأله: كيف كان حديثه ليُعرفه؟ فإن كان رسول الله ﷺ قد أتاه خبر الإنسان بمعنى قوله ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ أي قد أتى على الإنسان. وإن لم يكن أتاه فحقه أن يسأله حتى يُبين له. وقيل: الإنسان آدم ﷺ.

ثم لقاتل أن يقول: كيف^(٢) قال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ فهو إن لم يكن شيئاً في ذلك الوقت، لم يكن إنساناً؟ وإذا لم يكن إنساناً لم يأت عليه حين من الدهر، وهو إنسان؟ وإن كان في ذلك الوقت مخلوقاً فقد صار مذكوراً، وإذا صار مذكوراً فقد أتى عليه حين من الدهر، وهو مذكور، فما معناه؟ قيل: فيه أوجه:

أحدها: أن يكون قوله ﷻ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ أي على ما منه الإنسان، وهو الأصل الذي خُلِقَ منه آدم ﷺ وهو التراب، فقال: ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ على الاستصغار لذلك الأصل، إذ التراب لا يُذكر في الأشياء المذكورة. وإلى هذا يذهب أبو بكر الأصم.

والوجه الثاني: قيل: قد أتى على الخلق حين من الدهر لم يكن الإنسان فيه شيئاً مذكوراً في تلك الخلائق. والوجه الثالث: قد أتى عليه حين من الدهر، ولم يكن مذكوراً في المُمْتَحِنِينَ، وهذا في كل إنسان، لأنه ما لم يبلغ لم يجز عليه الخطاب، ولم يكن مذكوراً في المُمْتَحِنِينَ.

قال الله تعالى: خَلَقَ الْخَلَائِقَ لِيَعْبُدُوهُ بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ إذا صاروا من أهل المِخْنَةِ. فإلى أن يبلغ قد أتى عليه حين من الدهر لم يكن مذكوراً في جملة من خُلِقوا للعبادة، والله أعلم.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [فيه وجهان:

أحدهما: أن^(٣) الإنسان لم يكن إنساناً في النطفة ولا في العلق ولا في المضغة، ولكن المقصود من إنشاء النطفة والعلق هذا الإنسان، والعواقب في الأفعال هي الأوائِل في القصد والمُراد. فاستقامت إضافته إلى ما ذكرنا لما رجَعَ إليه القصد من إنشائها.

ودوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أردت أمراً فتدبّر عاقبته، إن كان رُشدًا فامض به وإن كان عيًّا فانتبه» [الزبيدي في الإتحاف ٩٣/١٠، وعزاه لابن المبارك في الزهد].

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: و.

فَاللَّزُومُ النَّظَرُ فِي الْعَوَاقِبِ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ فِعْلِ أَهْلِ التَّمْيِيزِ الْعَاقِبَةُ، وَإِنْ كَانَتْ الْعَاقِبَةُ مَقْصُوداً إِلَيْهَا فِي الْإِبْتِدَاءِ. لَدَلَّكَ اسْتِقَامَتُ إِضَافَةِ الْإِنْسَانِ إِلَى النَّظْفَةِ وَالْعَلَقَةِ وَالْمُضْغَةِ.

ثُمَّ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ مُنْصَرِفٌ إِلَى أَوْلَادِ آدَمَ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى مِنَ الْإِنْسَانِ أَوْلَادُهُ. ثُمَّ ذَكَرَ لَهُمْ ابْتِدَاءَ أَحْوَالِهِمْ وَمَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ عَاقِبَتُهُمْ، وَهُوَ الْمَوْتُ، لِيَتَعَذَّبُوا بِهِ، وَيَتَذَكَّرُوا.

وَوَجْهُ الْإِتْعَازِ، هُوَ أَنَّهُمْ إِذَا عَلِمُوا ابْتِدَاءَ أَحْوَالِهِمْ، وَعَلِمُوا مَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ عَاقِبَتُهُمْ، عَلِمُوا فِي الْحَالِ الَّتِي هُمْ فِيهَا أَنَّ أَنْفُسَهُمْ فِي أَبْدَانِهِمْ لَيْسَتْ لَهُمْ، بَلْ [هِيَ] ^(١) عَارِيَةٌ فِي أَبْدَانِهِمْ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ صَنْعٌ فِي الْإِبْتِدَاءِ، وَأَمَانَةٌ، وَالْحَقُّ عَلَى الْأَعْيُنِ أَنْ تَقَوْمَ بِحِفْظِ الْأَمَانَةِ وَرِعَايَتِهَا وَالْأَتَاخُونِ صَاحِبِهَا فِيهَا.

فَإِنَّ هُوَ خَائِنُهَا، وَلَمْ يَتَوَلَّ حِفْظَهَا لِحَقَّقَتِ الْمَسَبَّةُ وَالْمَذْمَةُ. وَإِنْ حَفِظَهَا، وَرَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا اسْتَوْجَبَ الْحَمْدَ وَالنَّشَاءَ مِنْ صَاحِبِهَا.

وَالْحَقُّ عَلَى الْمُسْتَعِيرِ أَنْ يَتَمَتَّعَ بِالْعَارِيَةِ، وَيَنْتَفِعَ بِهَا إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي أُذِنَ لَهُ، وَالْأَلَا يُضَيِّعُهَا. فَإِنْ ضَيَّعَهَا لَحَقَّتْهُ الْغَرَامَةُ وَالضَّمَانُ بِتَضْيِيعِهِ إِيَّاهَا. وَكَذَلِكَ إِذَا عَلِمُوا أَنَّهَا ٦١٨ - ب/ فِي أَبْدَانِهِمْ عَارِيَةٌ وَأَمَانَةٌ عَلِمُوا أَنَّ عَلَيْهِمْ رِعَايَتَهَا وَاسْتِعْمَالَهَا فِي الْوَجْهِ الَّذِي أُذِنَ لَهُمْ فِيهَا، فَلَا ^(٢) تَلَحُّقَهُمُ التَّيْبَةُ فِي الْعَاقِبَةِ، وَلَا تَلْزَمُهُمُ الْمَسَبَّةُ وَالْمَذْمَةُ فِي ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالثَّانِي: أَنَّ النَّظَرَ فِي ابْتِدَاءِ الْخَلْقَةِ إِلَى مَا يَصِيرُ عِنْدَ انْقِضَاءِ الْأَمْرِ يَدْعُو إِلَى إِجَابِ الْقَوْلِ بِالْبَعْثِ إِلَى التَّصْدِيقِ بِكُلِّ مَا يَأْتِي بِهِ الرِّسَالُ مِنَ الْأَخْبَارِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ التَّأَمُّلَ فِي ابْتِدَاءِ الْخَلْقَةِ يُظْهِرُ عَجِيبَ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَطِيفَ حَكَمَتِهِ، وَيُعَلِّمُ أَنَّ الَّذِي بَلَّغَتْ حَكَمَتُهُ هَذَا الْمَبْلَغَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ قَضَاؤُهُ مِنْ إِنْشَاءِ الْخَلْقِ لِلْإِفْنَاءِ خَاصَّةً لِخُرُوجِهِ عَنْ حَدِّ الْحِكْمَةِ، فَيَحْمِلُهُمْ عَلَى الْقَوْلِ بِالْبَعْثِ. وَلِأَنَّ النَّظَرَ فِي ابْتِدَاءِ الْخَلْقَةِ وَالنَّظَرَ إِلَى مَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ بَعْدَ الْوَفَاةِ مِمَّا يَمْنَعُ الْإِفْتِخَارَ وَالتَّكْبُرَ لِأَنَّ إِنْشَاءَهُ كَانَ مِنْ نُطْفَةٍ، يَسْتَفْزِرُهَا الْخَلَائِقُ، وَمِنْ عَلَقَةٍ وَمُضْغَةٍ، يَسْتَحْزِنُهَا كُلُّ أَحَدٍ، وَبَعْدَ الْمَمَاتِ يَصِيرُ حُقَّةً ^(٣) قَذِرَةً.

وَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُ لَمْ يَحْسُنِ التَّكْبُرَ فِي مِثْلِهِ، فَكَانَ فِي تَذَكِيرِ أَوَائِلِ الْأَحْوَالِ وَأَوَاخِرِهَا مَوْعِظَةً لَهُمْ لِيَتَعَذَّبُوا، وَيَتَبَصَّرُوا، وَتَعْرِيفَ لَهُمْ أَنَّ التَّكْبُرَ لَا يَحْسُنُ مِنْ أَمَثَالِهِمْ، فَيَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ عَلَى التَّوَاضُّعِ وَتَرْكِ الْإِفْتِخَارِ وَالتَّجَبُّرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنسَاجُ بَنَاتِهِ﴾ وَالْأَمْسَاجُ الْأَخْلَاطُ، ثُمَّ الْأَخْلَاطُ يَقَعُ بِوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: فِي اخْتِلَاطِ مَاءِ الرَّجُلِ بِمَاءِ الْمَرْأَةِ.

وَالثَّانِي: يَقَعُ فِي الْأَحْوَالِ، وَهِيَ أَنَّ النَّظْفَةَ إِذَا حُوِّلَتْ عَلَقَةً، لَمْ تُحَوَّلْ بِدَفْعَةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ هِيَ تَغْلُظُ شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى إِذَا تَمَّ غِلْظُهَا صَارَتْ عَلَقَةً، وَكَذَلِكَ الْعَلَقَةُ يَدْخُلُ فِيهَا التَّغْيِيرُ شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى إِذَا تَمَّ التَّغْيِيرُ فِيهَا حَالَتْ مُضْغَةً، فَهَذَا هُوَ الْإِخْتِلَاطُ فِي الْأَحْوَالِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الْأَخْلَاطُ الطَّبَائِعُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي عَلَيْهَا جُبِلَ الْإِنْسَانُ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَرَفَ الْخَلْطَ [إِلَى] ^(٤) الْأَلْوَانِ، فَذَكَرَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَيْضُ يُخَالِطُهُ حُمْرَةٌ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَحْمَرُ يُخَالِطُهُ صَفْرَةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَنَاتِهِ﴾ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ. ثُمَّ الْإِبْتِلَاءُ [يَحْتَمِلُ] وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: ^(٥) [هُوَ] الْإِسْتِظْهَارُ لِمَا خَفِيَ مِنَ الْأُمُورِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرٌ، فَيَحْتَاجُ إِلَى اسْتِظْهَارِهِ، وَلَكِنْ ﴿بَنَاتِهِ﴾ لِيُظْهِرَ لِلْمُبْتَلَى مَا كَانَ خَفِيّاً عَلَيْهِ بِفِعْلِهِ وَتَرْكِهِ.

وَأَمَّا الْخَلْقُ فَهُمْ يُمْتَحَنُونَ، وَيُبْتَلَوْنَ لِيُظْهِرَ لَهُمْ مَا كَانَ خَفِيّاً عَلَيْهِمْ، فَيَكُونُ الْإِبْتِلَاءُ مُنْصَرِفاً إِلَيْهِمْ لَا إِلَى الْمُبْتَلَى وَالْمُتَمَحِّنِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في م: جيفة. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: أن الابتلاء لما كان الاستظهار لما خفي من الأمور؛ وذلك يكون بالأمر والنهي، فسمي الأمر من الله تعالى والنهي لعباده ابتلاء لمكان الأمر والنهي لا على تحقيق معنى الابتلاء منه.

وقال الحسن: لما صلح أن يضاف الاستخبار إلى الله تعالى، وإن كان هو خبيراً بما استُخبر، فجاء أن يضاف إليه الابتلاء أيضاً، وإن كان هو بالذي ابتلاه عالماً بصيراً من العبد بعد الابتلاء من الفعل [ما] ^(١) كان غائباً، فالله يعرفه شاهداً بفعله، وقبل ذلك كان يعرفه غائباً، لأن معرفة ما يكون أن يعرف مثل كونه غائباً وبعد كونه شاهداً، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَبِيحًا بُصِيرًا﴾ أي جعلناه له سمعاً، يميز بين ما يؤدي إليه سمعه، وجعلناه له بصراً، يبصر به ما أدى إليه ^(٢) [بصر] بصر الوجه ليضع كل شيء موضعه، وذلك هو بصر القلب وسمع القلب لأنه خص البشر بالابتلاء لمكان بصر الباطن والسمع الباطن.

ألا ترى أن البهائم لها بصر الظاهر وكذا السمع؟ ويختل أي جعلناه ﴿سَبِيحًا بُصِيرًا﴾، يبصر ماله وما عليه وما ينفعه وما يضره، ثم أنشأ فيه السمع والبصر، ولا يعرف كيفية السمع والبصر الذي جعل فيه، ولا ماهيته ولا مِمَّ هو لطفاً منه ليُعلم أنه مثنوي الكيفيات والماهيات وأنه يتعالى عن الوصف له بالكيفية والماهية؟

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّا شَاكِرًا وَإِنَّا كَفُورًا﴾ يحتمل قوله ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أوجهاً ثلاثة:

أحدها: هديناه السبيل لإصلاح بدنه ومعاشيه.

[والثاني] ^(٣): هديناه السبيل الذي يصل ^(٤) به إلى استبقاء النسل والتوالد إلى يوم التثادي.

[والثالث] ^(٥): هديناه السبيل الذي يرجع [إلى] ^(٦) إصلاح دينه ^(٧) وأمر آخرته ^(٨) بإكساب المحامد والمحاسن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا شَاكِرًا وَإِنَّا كَفُورًا﴾ إنه قد بين لهم السبيل، وهداهم إليه، ثم منهم من يختار الشكر، ومنهم من يختار الكفران له.

[الآية ٤] ثم بين ما أعد للكفور منهم، وهو ما قال: ﴿إِنَّا أَفْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلِيلًا وَأَغْلَلْنَا وَسْعِيرًا﴾.

ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ إن كان المراد منه الطريق فكأنه قال: إِنَّا بَيَّنَّا كِلَا الطَرِيقَيْنِ؛ فإن سلك طريق كذا، واختاره، فيكون شاكراً، وإن سلك طريق كذا فيكون كفوراً. ثم بين لكل طريق سلكه ^(٩) جزاء وثواباً.

ثم قوله ﴿إِنَّا أَفْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلِيلًا وَأَغْلَلْنَا وَسْعِيرًا﴾ فيه إنباء أن أيديهم تُغْل، ويُشْدُون بالسلاسل، فلا يتهيأ لهم أن يتقوا العذاب عن أوجههم.

ثم قرئ سلاسل ^(١٠) لأنها غير منصرفة، وقرئ سلايلاً، وصرفوه بناءً على أن الأسماء كلها منصرفة إلا [نوعاً واحداً] ^(١١) وقال الزجاج: السلاسل لا تنصرف [لأنها اسم] ^(١٢) لا فعل لها، لكن صرفها هنا لأنها من رؤوس الآيات. وقيل: لأنه جعله رأس الآية.

[الآية ٥] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ فمنهم من ذكر أن الكافور شيء أعدّه الله تعالى لأهل كرامته، لم يطلع عباده على ذلك في الدنيا. ومنهم من ذكر أن الكافور شيء جرى ذكره في الكتب المتقدمة، فذكر ذلك في القرآن، ومنهم من قال: إنه عين من عيون الجنة، ومنهم من صرفه إلى الكافور المعروف.

لكن قيل: إنه كناية عن طيب الشراب، وقيل: إنه كناية عن برودة الشراب لأنه ذكر أن ذلك الشراب في طبيبه

(١) و(٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من الأصل وم: أ. (٤) في الأصل وم: يصلون. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: دينهم. (٨) في الأصل وم: آخرتهم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: الذي. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ١٩/٨. (١٢) في الأصل وم: نوع واحد. (١٣) في الأصل وم: لأنه.

كالكاפור [لأنَّ أَلَدًا] ^(١) الشراب عند الناس البارد منه، لا أن يكون في نفسه بارداً، وذكروا أن الكأس لا تُسمى كأساً حتى يكون فيها خمر.

الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [ومعنى ﴿بِهَا﴾] ^(٢) منها، لا أن يقع شربهم بها، وسميت العين عيناً لوقوع العين [عليها] ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَهَا تَقْصِيرًا﴾ فيه إخبار أن ماء العيون جارية يُفَجِّرُونَهَا مِنْ حَيْثُ شَاؤُوا.

ثم المراد من ذكر العباد ههنا [أنهم] ^(٤) هم الذين أطاعوا الله، وقاموا بوفاء ما عليهم، وهم الذين قال الله تعالى [فيهم] ^(٥): ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَايِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

الآية ٧ وقوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ بِالْثَّنَدِ﴾ والثَّنَدُ هو العهد؛ فجائز أن يكون أراد به الوفاء بكل ما أوجب الله تعالى من الفرائض والحقوق، فتكون فرائضه عهده كقوله ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ [البقرة: ٤٠].

وجائز أن يكون أراد بالثَّنَدِ ما أوجبوا على أنفسهم من القرب سوى ما أوجبه الله تعالى عليهم. فيكون فيه إخبار أنهم قاموا بأداء الفرائض، وتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَعَ ذَلِكَ بِقَرَبٍ أُخَرَ، فاستوجبوا المدح بوفائهم بما أوجبوا على أنفسهم؛ قال ﷻ: ﴿آتَدْعُوهَا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا إِلَّا آبَعَةً رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا﴾ [الحديد: ٢٧] فَلَحَقَهُمُ الذَّمُّ لِمَا لَمْ يَقْرَأُوا بِرِعايَةِ حَقِّهِ، لَيْسَ بِإِيجَابِهِمْ عَلَى ٦١٩ - أ / أَنْفُسِهِمْ مَا لَمْ يُوجِبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُونَ يَوْمًا كَانَتْ شُرُؤُكُمْ مُسْتَطِيرًا﴾ قيل: استطار شُرُؤُكُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَمَلَأَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَكُلَّ شَيْءٍ حَتَّى انشَقَّتِ السَّمَاوَاتُ، وَتَنَازَلَّتِ النُّجُومُ ﴿وَوُضِّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥].

ومعناه أن هول ذلك اليوم قد عمَّ، وفشا في أهل السموات والأرض حتى خافوا على أنفسهم. وقيل: سُمِّيَ ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ أي طويلاً، ويقال: استطار الرجل إذا اشتدَّ غضبه، واستطار الأمر أي اشتدَّ، فُسِمِيَ ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ أي شديداً.

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ السَّعْمَ عَلَى حَيْوَةٍ مَسْكِينَةٍ وَبَيْنَا وَأَمِيرًا﴾ فالحب يتوجه إلى معان:

يَتَوَجَّهُ إِلَى الْإِثَارِ مَرَّةً، وَإِلَى مِيلِ النَّفْسِ وَرُكُونِ الْقَلْبِ أُخْرَى، وَمَرَّةً يُعْبَّرُ عَنِ الشَّهْوَةِ.

فالمُرَادُ مِنَ الْحَبِّ ههنا الشَّهْوَةُ، فيكون قوله ﷻ: ﴿عَلَى حَيْوَةٍ﴾ على شَهْوَتِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ.

وقيل: ﴿وَيُطْعَمُونَ السَّعْمَ﴾ في حالِ عِزَّةِ الطَّعَامِ، وقيل: ﴿وَيُطْعَمُونَ السَّعْمَ عَلَى حَيْوَةٍ لِلْحَيَاةِ﴾ ^(٦) وَحِزْمِهِمْ عَلَيْهَا، لَيْسَ أَنْ يُطْعَمُوا عِنْدَ الْإِيَّاسِ مِنَ الْحَيَاةِ عَلَى مَا رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَتَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ تَأْمُلُ الْعِيشَ وَتَخْشَى الْفَقْرَ» [مسلم ١٠٣٢].

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ قيل: إنهم لم يَتَكَلَّمُوا بِهَذَا اللَّفْظِ أَعْنِي: ﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ لا يُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا. الآية. ولكن عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، فَأَتَى عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ لِيَرْغَبَ فِي ذَلِكَ الرَّاغِبُونَ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ كَانُوا يُطْعَمُونَ الْأَسَارَى، وَلَا يُطْعَمُ مِنَ الْأَسَارَى الْمُجَازَاةُ وَالشُّكْرُ، لِيُعْلَمَ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْصِدُوا بِهِ [إِلَّا] ^(٧) وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ؟ وَالْمُجَازَاةُ هِيَ الْمُكَافَاةُ لِمَا أَسْدَى إِلَيْهِ، وَالشُّكْرُ هُوَ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ وَالتَّشْرُِّ ^(٨) عَنْهُ.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا غَنُوسًا قَطِيرًا﴾ فمنهم من جعلَ هَذَا نَعْتًا لِلذَّكَاءِ الْيَوْمِ، فيكون معناه: أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَيَّامِ، كَالْإِنْسَانِ الْعَبُوسِ مِنْ بَيْنِ غَيْرِهِ.

ومنهم من صَرَفَهُ إِلَى الْخَلَاتِقِ، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمًا غَنُوسًا قَطِيرًا﴾ أي يَوْمًا تَعَبُسُ فِيهِ وَجُوهُ الْخَلَاتِقِ، لَا أَنْ يَكُونَ الْيَوْمَ نَفْسُهُ غَبُوسًا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُكَارُ مُتَجِسِّرًا﴾ [يونس: ٦٧ و...] أي يُتَّصَرُّ فِيهِ، وَقَوْلُ الْعَرَبِ: مَا زَالَ

(١) في الأصل: لأن الذي، في م: لا الذي. (٢) في الأصل وم: ومعناه. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم:.. (٤) ساقطة من الأصل وم:.. (٥) ساقطة من الأصل وم:.. (٦) في الأصل وم: لها. (٧) ساقطة من الأصل وم:.. (٨) في الأصل وم: واليسر.

الطريق يُمرُّ منذَ اليوم على معتنى: يَمُرُّ النَّاسُ فِيهِ، فَيَرْجِعُ هَذَا إِلَى وَصْفِ مَا يَكُونُ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْيَوْمُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ الْيَوْمَ بِالْأَحْوَالِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا حَالُ ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ فَمَرَّةً قَالَ: ﴿وَرَى النَّاسَ سُكَرَى﴾ [الحج: ٣٢] وَمَرَّةً قَالَ: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وقوله تعالى: ﴿قَطْرًا﴾ قيل: شديدًا، وقيل: القَمَطِيرُ الذي يَقْبِضُ الوجةَ بالبُسُورِ والعُبُوسَةِ، وَيَزُوي ما بينَ الْعَيْنَيْنِ، وقيل: القَمَطِيرُ المُشَدَّدُ^(١) على أهلِ النَّارِ، وقيل: القَمَطِيرُ هي كلمةٌ من كُتُبِ الْأَوَّلِينَ.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ فجائزٌ أَنْ تَكُونَ الْوَقَايَةُ مُنْصَرِفَةً إِلَى الْمَوْعُودِ فِي ذَلِكَ [اليوم]^(٢) مِنَ الْعُقُوبَةِ وَالْكَفَالِ لَا أَنْ يَكُونُوا وَقُوهَا مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَلَا يَرَوْنَ الْجَحِيمَ وَلَا أَهْوَالَهَا.

وجائزٌ أَنْ يَكُونَ وَقَاهُمْ عَمَّا كَانُوا يَخَافُونَ مِنَ النَّبِيَّةِ لَدَى الْحِسَابِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي لَأَنْتَقِ حِسَابَكُمْ﴾ [الحاقة: ٢٠] فَكَانَهُمْ يَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمُ الْمُنَاقَشَةَ فِي الْحِسَابِ؛ فَإِذَا رَأَوْا سَيِّئَاتِهِمْ مَغْفُورَةً وَحَسَنَاتِهِمْ مُتَقَبَّلَةً سُرُّوا بِذَلِكَ، وَوَقُّوهَا شَرًّا.

وجائزٌ أَنْ يَكُونُوا أَوْمِنُوا مِنْ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ وَأَفْزَاعِهَا حِينَ تُشْرَوْنَ مِنَ الْقُبُورِ، وَتَلْقَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِالْبِشَارَةِ كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْهُمْ نَعْرَةٌ وَبُيُوتٌ﴾ فالسرورُ عبارةٌ عَنِ انْتِفَاعِ الْحَزَنِ عَنْهُمْ، وَالنَّضْرَةُ أَنْزَلُ كُلِّ نَعِيمٍ. وقيل: نَضْرَةٌ فِي وَجُوهِهِمْ وَسُرُورٌ فِي قُلُوبِهِمْ.

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقُهُمْ بِمَا سَبَّوْا﴾ أي على الطاعاتِ وَصَبَرُوا عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ ﴿جَنَّةٍ وَحَرِيرٍ﴾ أي جَزَاهُمْ جَنَّةً، وَجَزَاهُمْ حَرِيرًا؛ فَذَكَرَ الْحَرِيرَ لِأَنَّ الْجَنَّةَ إِنَّمَا تُذَكَّرُ فِي مَوْضِعِ التَّطَرُّبِ وَالتَّنَتُّمِ بِالْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ دُونَ التَّنَتُّمِ بِاللِّبَاسِ، فَوَعَدَ لَهُمْ مِنَ اللَّبَاسِ الْحَرِيرَ مَعَ مَا جَزَاهُمْ الْجَنَّةَ.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ فِيهَا عَلَ الْأَرْضِ﴾ يُذَكَّرُ تَفْسِيرُهَا بَعْدَ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى^(٣).

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ بَلْ يَكُونُ ظِلُّهَا دَائِمًا مَحْدُودًا. فجائزٌ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ أَنَّ ضِيَاءَ الْجَنَّةِ لَيْسَ بِالشَّمْسِ، وَلَكِنْ بِمَا خُلِقَتْ مُضِيئَةً، لِأَنَّ الشَّمْسَ فِي الدُّنْيَا يَقَعُ بِهَا الضِّيَاءُ، فَيَكُونُ ضِيَاءُ النَّهَارِ بِالشَّمْسِ، وَذَكَرَ أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ فِيهَا الزَّمْهَرِيرَ لِتَعَلُّمِ أَنَّ لَذَاتِ شَرَابِ الْجَنَّةِ وَبُرُودَتَهُ بِالْخَلْقَةِ لَا أَنْ تَكُونَ بُرُودَتُهَا بِتَغْيِيرِ يَقَعِ فِي الْأَحْوَالِ عَلَى مَا يَكُونُ عَلَيْهِ شَرَابُ أَهْلِ الدُّنْيَا، أَوْ يَكُونُ ذَكَرَ هَذَا لِتَعَلُّمِ أَنَّهُمْ لَا يُودُونَ بِحَرٍّ وَلَا بَرْدٍ.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا﴾ فجائزٌ أَنْ يُرَادَ أَنَّهَا دَانِيَةٌ مِنْ هَوَاءِ الَّذِينَ سَبَقَ نَعْتُهُمْ، وَهُمْ الْأَبْرَارُ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وَذَكَرَ أَنَّ ظِلَّهَا دَانِيَةٌ لِأَنَّهَا لَوْ لَمْ تَكُنْ دَانِيَةً لَكَانَ لَا يَقَعُ لَهُمْ بِهَا انْتِفَاعٌ. وقيل: هي ظِلَالُ عُصُودِ الْأَشْجَارِ قَرِيبٌ مِنْهُمْ لِأَنَّ الْجَنَّةَ نَوْرًا يَتَلَأَلُ، فَيَقَعُ بِالْأَشْجَارِ فِيهَا ظِلَالٌ كَمَا يَشْتَهَوْنَ فِي الدُّنْيَا، لَيْسَ عَلَى ذَلِكَ شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَوُكِّلَتْ لَهُمْ نَخِيلٌ﴾ فجائزٌ أَنْ يَكُونَ أُرِيدَ بِالتَّذْلِيلِ التَّلْيِينِ، أَيْ لَيْسَتْ، فَلَا يَرُدُّ أَيْدِيَهُمْ عَنْهَا شَوْكٌ. وقيل: إِنَّ أَشْجَارَهَا لَيْسَتْ بِطَوَالٍ، لَا تُنَالُ ثَمَارُهَا إِلَّا بَعْدَ عَنَاءٍ وَكَدٍّ، بَلْ قَرِيبَةٌ مِنْ أَرْبَابِهَا؛ يُقَالُ: حَاطَطَ ذَلِيلٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَالِيًا فِي السَّمَاءِ، وَقِيلَ: ذُلَّتْ أَي سَوِيَّتِ الْأَشْجَارُ لَا أَنْ يَتَفَاوَتْ بَعْضُهَا [عَنْ بَعْضٍ]^(٤)؛ يَقُولُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ إِذَا اسْتَوَتْ عُذُوقُ النَّخْلَةِ تَذَلَّتِ النَّخْلَةُ، وَقِيلَ: ذُلَّتِ النَّخْلَةُ، وَقِيلَ: ذُلَّتْ أَي سُخِّرَتْ، وَالتَّذْلِيلُ التَّسْخِيرُ، فَيَتَنَاوَلُونَ مِنْهَا كَيْفَ شَاءُوا؛ إِنْ شَاءُوا تَنَاوَلُوهَا، وَهُمْ قِيَامٌ، وَإِنْ شَاءُوا تَنَاوَلُوهَا، وَهُمْ جُلُوسٌ أَوْ نِيَامٌ عَلَى الْفَرْشِ.

وجائزٌ أَنْ يَكُونَ تَسْخِيرُهَا عَلَى مَا ذَكَرَ عَنْ بَعْضِ الْمُتَقَدِّمِينَ أَنَّ شَجَرَةَ الْجَنَّةِ: عُزُوقُهَا مِنْ فَوْقٍ، وَفُرُوعُهَا مِنْ أَسْفَلٍ، وَالثَّمَارُ بَيْنَ ذَلِكَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَشْدَةُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٢١. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: بَعْضًا.

الآية ١٥ وقوله تعالى: ﴿وَيُطَاوَلُ عَلَيْهِمْ يُخَيَّرُونَ بَيْنَ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ قيل: فتأويل الأكواب يُذكرُ في سورة: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ النَّاسِيَةِ﴾ [بقوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْشُوعَةٌ﴾ (الآية: ١٤)]^(١).

الآية ١٦ ثم أخبر أن تلك الأكواب ﴿قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ﴾ قيل: هي من فضة، ولها صفاء القوارير، يرى ما فيها من الشراب من خارجها لصفائها.

ثم الآية من الفضة في أعين أهلها أرفع وأشرف من الإناء المتخذ من التراب، فذلك الصفاء الذي يكون بالفضة أبلغ وأرفع في أعين أهلها من الصفاء الذي يقع بالقوارير: ﴿قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ﴾ على الأصل المعهود أنه لا ينصرف. وقرأ قوله تعالى: ﴿قَوَارِيرًا﴾ على الوقف عليه^(٢) موافقاً لآخر سائر الآيات، وقرأ قواريراً بالتثنية عند الوصل أيضاً لأنه رأس الآية.

وقوله تعالى: ﴿مَنْزُوعًا نَقِيرًا﴾ أي جُعِلَتْ على قدر ريهم، وقيل: يُسْقَوْنَ على القدر الذي قدره على أنفسهم، وحدثت به أنفسهم، فلا يقدرون في قلوبهم مقداراً إلا أتوا به^(٣) على ذلك.

الآيتان ١٧ و ١٨ وقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأَنَّهَا كَلْبٌ كَافٍ يَاجَأُهَا زَنْجَبِيلٌ﴾ [﴿عَيْنًا فِيهَا تُسْقَى سَلَسِيلٌ﴾]^(٤) فمنهم من زعم أن العرب إذا أعجبهم شراب نعتوه، وقالوا: كالزنجبيل، فخرجت الإشارة من الوجه / ٦١٩ - ب/ الذي ترعّب في مثله الأنفس، ومنهم من ذكر أن الزنجبيل والسلسيل واحد، وهما اسم العين، ومنهم من ذكر في السلسيل، أي سل سبيلاً إلى تلك العين. وقال قتادة: أي سلسلة السيل، مستغذّب ماؤها، وقيل: ﴿سَلَسِيلٌ﴾ شديدة الجزية.

الآية ١٩ وقوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ ذكر الولدان لا أن يكون فيها ولاد، ولكنهم أنشأوا ولداناً، فيخلدون كذلك: يكبرون، ولا يهرمون.

وجائز أن يكون الولدان ولدان الكفرة الذين ماتوا في الدنيا صغاراً، فلا يكون لهم في الجنة آباء ليترفعوا إلى درجة الآباء، فيجعلهم الله تعالى خدماً لأهل الجنة.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ ذُكِرْتُمْ تُلُوتُمْ﴾ فمنهم من يقول: إن الله تعالى شبه حسنتهم بحسن اللؤلؤ المنشور؛ إذ أحسن ما يكون اللؤلؤ إذا كان منشوراً. فجائز أن يكون هؤلاء الولدان أفضلوا في الحسنة على سائر الجواهر التي تكون في الجنة كما فضل الدر في الدنيا على سائر الجواهر.

ومنهم من يقول: إنهم ما لم يطوفوا، فمن رآهم حسبتهم لؤلؤاً منشوراً، وإذا طافوا، وتحركوا، فحينئذ يعلمون أنهم ولدان.

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيهِمْ فِيهَا مَوْلٌ مُغْمِرٌ﴾ قيل: هما اللذان، لا نعت لهما، ولا وصف، وقيل: المُلْكُ استبدان الملائكة عليهم، وملوك الدنيا، وإن علت زينتهم لم يملكوا الاحتجاب من دخول الملائكة عليهم بغير استبدان، والملك هو الذي [به]^(٥) نفاذ الأمور.

وجائز أن يكون ذكر النعيم والملك الكبير على معنى أنه لا ينقطع عنهم، بل إذا رأيتهم أبداً رأيتهم في نعيم وملك كبير.

الآية ٢١ وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ جُثَّةٌ وَاسْتَرْسَقُوا﴾ فجائز أن يكون أراد بالعالى ما علا من المكان الذي هم فيه، فيخبر أن في أعلى أماكنهم ثياب جثّة من سندس كما هو في المكان الذي [هو]^(٦) أسفل موضع جلوسهم، لأنهم يكونون على الأرائك والرجال^(٧)، فيكون ما تحت الرجال^(٨) والأرائك من الأماكن ﴿وَنَارٌ مَصْفُوعَةٌ﴾ ﴿وَنَارًا مَبْنُوءَةً﴾ [الغاشية: ١٥ و ١٦] ويكون عليها كذلك.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨ / ٢٣. (٣) في الأصل وم: بها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) و (٨) في الأصل وم: الأحبال.

فَإِنْ كَانَ عَلَىٰ هَذَا فَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ قُرْشٌ ذَلِكَ الْمَكَانِ مِنْ حَرِيرٍ وَدِيَّاجٍ غَلِيظٍ إِنْ أُرِيدَ بِالْإِسْتَبْرَاقِ الدِّيَّاجُ الْغَلِيظُ، وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ مِنْ دِيَّاجٍ رَقِيقٍ، إِذْ كُلُّ ذَلِكَ مَعًا يُرْغَبُ فِي مِثْلِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقيل: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي أعلى ثيابهم ﴿ثِيَابٌ سُندُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ وقال بعضهم: عالي أنفسهم ﴿ثِيَابٌ سُندُسٌ خُضْرٌ﴾ ومنهم مَنْ صَرَفَ السُّنْدُسَ وَالْإِسْتَبْرَاقَ إِلَى مَا يُبْسَطُ، لِأَنَّ الدِّيَّاجَ الْغَلِيظَ مِمَّا لَا تَرْغَبُ الْأَنْفُسُ إِلَى لِبْسِ مِثْلِهِ، فَجَمَعَ بَيْنَ مَا يُلْبَسُ وَبَيْنَ مَا يُفْرَشُ، وَبَيْنَ الْفِعْلِ فِي أَحَدِهِمَا، وَلَمْ يَذْكُرْ فِي الْآخَرِ.

ومنهم مَنْ قَالَ: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ هُمُ الرُّلْدَانُ يَطُوفُونَ مِنْ أَعَالِيهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ فَبَشَّرَهُمْ بِالْأَسَاوِرِ مِنَ الْفِضَّةِ، لِأَنَّ الْفِضَّةَ مُسْتَحْسَنَةٌ بِنَفْسِهَا لِيَبَاضِهَا، وَالذَّهَبُ اسْتِحْسَانُهُ لِنَدَرَتِهِ وَعِزَّتِهِ، لَيْسَ لِنَفْسِهِ، لِأَنَّهُ أَصْفَرُ، وَالْأَعْيُنُ لَا تَسْتَحْسِنُ هَذَا اللَّوْنَ، فَجَرَتْ الْبِشَارَةُ بِالْفِضَّةِ لَا بِالذَّهَبِ.

وقال بعضهم: يُحَلَّى الرِّجَالُ بِأَسْوَرَةٍ مِنَ الْفِضَّةِ عَلَى مَا أُبِيحَ لَهُمْ التَّحَلِّي بِخَاتَمِ فِي الدُّنْيَا، وَتُحَلَّى النِّسَاءُ بِأَسَاوِرِ الذَّهَبِ عَلَى مَا أُبِيحَ لَهُنَّ بِهَا فِي الدُّنْيَا.

وقوله تعالى: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ قيل: هو الخمر، يَظْهَرُ مِنَ الْآفَاتِ وَمِنْ كُلِّ مَكْرُوهِ، وَيُطَهِّرُ قُلُوبَهُمْ مِنَ الْفِيلِ، فَيَعْمَلُ ذَلِكَ الشَّرَابُ فِي تَطْهِيرِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ. وَشَرَابُ الدُّنْيَا يَظْهَرُ ظَاهِرَ الْبَدَنِ، وَبَاطِنُ الْبَدَنِ يُنَجِّسُهُ^(١) الشَّرَابُ.

وروي عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِثْقَلِ رَجُلٍ فِي الْأَكْلِ وَالشَّرَابِ وَالْجِمَاعِ» فَقَالَ يَهُودِيٌّ: إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ، وَيَشْرَبُ تَكُونُ لَهُ الْحَاجَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَاجَةُ أَحَدِهِمْ عَرَقُ يَفِيزُ مِنْ جَسَدِهِ، فَيَضْمُرُ لِذَلِكَ بَطْنُهُ» [أحمد ٣٧٦/٤ والنسائي في الكبرى ١١٤٧٨].

والأصل أنك قد ترى الطعام الذي يَطْعَمُهُ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا تَبْقَى قُوَّتُهُ فِي الْبَدَنِ حَتَّى يَظْهَرَ ذَلِكَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْ جَوَارِحِهِ، وَكَذَلِكَ شَهْوَتُهُ تَبْقَى فِيهَا، ثُمَّ يَخْرُجُ الثَّقُلُ مِنْهَا وَالْفَضْلُ.

فجائز أن يرفع الله تعالى عن ذلك الطعام الفضل الذي يُزِيلُ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ طَعَامُهُمْ ذَلِكَ اللَّطِيفُ الَّذِي يَبْقَى فِي النَّفْسِ.

الآية ٢٢ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا فَتُكَفَّرُ عَنْهُ﴾ فجائز أن تكون هذه البشارة خَرَجَتْ لِأَهْلِهَا فِي الدُّنْيَا، وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ: إِنَّ هَذَا الَّذِي أُكْرِمْتُمْ بِهِ مِنَ الْكَرَامَاتِ جَزَاءٌ لِعَمَلِكُمْ وَسَعْيِكُمْ فِي الدُّنْيَا.

الآية ٢٣ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ قيل: فَرَقْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَفْرِيقًا. وَالْحِكْمَةُ فِي التَّفْرِيقِ مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى فِي الْقُرْآنِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢] فَأَخْبَرَ أَنَّ فِي التَّفْرِيقِ تَثْبِيثًا، فَيَكُونُ النَّاسُ لَهُ أَوْعَى وَأَعْرِفَ بِمَوَاقِعِ النُّوْزِلِ مِنْهُ مِنْ أَنْ يُنْزَلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً.

ثم أضاف التنزيل إلى نفسه ههنا، وَأَضَافَهُ^(٢) إِلَى جِبْرَائِيلَ ﷺ فِي قَوْلِهِ ﷺ: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ﴾ ﴿وَكَانَ قَلْبُكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ و ١٩٤] وَقَوْلِهِ ﷺ: ﴿إِنَّمَا نَزَّلْنَا رُسُلًا كَرِيمًا﴾ [الحاقة: ٤٠ و...]. وَقَالَ فِي آيَةٍ: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فَأَضَافَهُ^(٣) إِلَى نَفْسِهِ كَقَوْلِهِ^(٤): ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢] فَهَذَا كُلُّهُ عَلَى مَجَازِ الْكَلَامِ، لَيْسَ عَلَى الْحَقِيقَةِ.

فَحَقُّ كُلِّ مَنْ ذَلِكَ أَنْ يُصْرَفَ إِلَى مَا إِلَيْهِ وَجْهًا^(٥) إِلَى أَنْ يَسْتَجِيزَ النَّاسُ مِنَ التَّعَامُلِ فِي مَا بَيْنَهُمْ بِذَلِكَ الْكَلَامِ.

فإذا قيل: هذا في اللوح فُهِمَ بِهِ، وَأُرِيدَ مِنْهُ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِيهِ. [قيل: قوله]^(٦) تعالى: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامًا يَذُلُّهُ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَلَامَهُ، وَأَضَافَهُ إِلَى جِبْرَائِيلَ ﷺ لِأَنَّهُ مِنْ قِبَلِهِ تَلْقَاءُ، لَا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَلَامَ جِبْرَائِيلَ ﷺ. ثُمَّ قَدْ ذَكَرَ الْحِكْمَةَ فِي إِنْزَالِ الْقُرْآنِ مُفْرَقًا قَبْلَ هَذَا وَالْفَضْلُ الْكَافِي مِنْهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَنْجِسُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَضَافَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَأَضَافَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْجِهَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ.

ثم جائز أن يكون التفريق لِمَكَانٍ أتباع رسول الله ﷺ ليس لِمَكَانِهِ لَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُسِّرُ عَلَى نَبِيِّهِ حِفْظَهُ حَتَّى كَانَ يَجِيءُ جَمِيعٌ مَا يُنَزَّلُ إِلَيْهِ جِبْرَائِيلُ ﷺ بِمَا يَقْرَأُ عَلَيْهِ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَقَالَ (١) لَهُ: ﴿لَا تُخَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجَاجِلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦] فَضَمِنَ لَهُ الْحِفْظَ فَأَمِنَ النَّسْيَانَ.

فَأَمَّا غَيْرُهُ فَإِنَّهُ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ أَنْ لَوْ كَلَّفَهُ حِفْظَهُ بِدَفْعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَنْزَلَهُ (٢) مُفَرَّقًا لِيَكُونُوا أَقْدَرَ عَلَى حِفْظِهِ. وَلِهَذَا كَثُرَ (٣) حِفْظُ الْقُرْآنِ فِي هَذِهِ الْأَمَةِ [وَكَثُرَ قُرْأُوهَا] (٤) وَكَثُرَ فَقْهَاءُ هَذِهِ الْأَمَةِ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَ مُفَرَّقًا عَلَى إَثْرِ النَّوَائِلِ، فَعَرَفُوا مَوَاقِعَ النَّوَاسِخِ (٥)، فَوَقَفُوا عَلَى مَعْرِفَةِ مَا أَوْدَعَ فِي الْآيَاتِ لِمَعْرِفَتِهِمْ مَوَاقِعَ النَّوَاسِخِ (٦) وَالْمَنْسُوخِ، وَلَوْ نَزَّلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً اشْتَبَهَ عَلَيْهِمُ النَّاسِخُ وَالْمَنْسُوخُ. فَأَنْزَلَهُ (٧) اللَّهُ تَعَالَى مُفَرَّقًا لِيَكُونُوا يَعْلَمُونَ (٨) النَّاسِخَ وَالْمَنْسُوخَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَلِأَنَّهُ إِذَا أَنْزَلَ مُفَرَّقًا كَانُوا إِلَيْهِ أَشْوَقَ وَأَرْغَبَ مِنْهُ إِذَا نَزَلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُتَكَمِّمَةٌ﴾ [الآية: ٢٠] فَاخْبِرْ أَنَّهُمْ يَرْغَبُونَ إِلَى أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ أَنْزَلَتْ إِلَيْهِمْ سُورَةٌ مِنْ قَبْلُ.

وفيه أيضاً تخويف للمنافقين / ٦٢٠ - / ١/ كما قال الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤] فكان في إنزاله مُفَرَّقًا مَا ذَكَّرْنَا مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْمَنَافِعِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٤ وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فيه أنه ابتلاء بما تَكْرَهُهُ نَفْسُهُ، وَيَشْتَدُّ عَلَيْهَا، حَتَّى دَعَا إِلَى الصَّبْرِ، لِأَنَّ الْمَرَّةَ لَا يُدْعَى إِلَى الصَّبْرِ عَلَى النَّعْمِ وَاللَّذَاتِ، وَإِنَّمَا يُدْعَى إِلَيْهِ إِذَا ابْتُلِيَ بِالْمَكَارِهِ وَالْبَلِيَّاتِ، وَقَدْ صَبَرَ ﷺ عَلَى الْمَكَارِهِ لِأَنَّهُ أَمَرَ بِمُضَادَّةِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، فَانْتَصَبَ لَهُمْ حَتَّى آذَوْهُ كُلَّ الْأَذَى، وَهَمُّوا بِقَتْلِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطِغْ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَوْ كَفُّرًا﴾ كَانَهُ قَالَ: وَلَا تَطِغْ مَنْ دَعَاكَ إِلَى مَا دَعَاكَ إِلَى مَا تَأْتُمُّ فِيهِ، أَوْ تَكُونُ كَفُورًا، أَوْ لَا تُجِبِ الْأَثَمَ أَوْ الْكُفُورَ إِلَى مَا يَدْعُوَانِ (٩) إِلَيْهِ.

الآية ٢٥ وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَسْمَ رَبِّكَ﴾ أَي كُنْ ذَاكِرًا لَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ.

وقوله تعالى: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الْبُكْرَةُ تَحْتَمِلُ صَلَاةَ الصَّبْحِ، وَالْأَصِيلُ يَحْتَمِلُ صَلَاةَ الظَّهِيرِ وَالْعَصْرِ.

الآية ٢٦ وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَلَيْلٍ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ تَحْتَمِلُ صَلَاةَ اللَّيْلِ النَّوَافِلَ إِنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿وَاذْكُرْ أَسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ فِي صَلَاةِ الْفَرَائِضِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ فَيَكُونُ كَانَهُ قَالَ: وَاذْكُرْ رَبِّكَ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَوْ يَقُولُ: فَلْيَكُنْ اسْمُ رَبِّكَ مَذْكُورًا حَتَّى لَا تَخْلُوَ سَاعَةً مِنْ هَذِهِ السَّاعَاتِ إِلَّا هُوَ مَذْكُورٌ فِيهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٧ وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ هَؤُلَاءِ تُجِبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ حُبُّ الْعَاجِلَةِ مِمَّا طُبِعَ [عَلَيْهِ] (١٠) الْخَلَائِقُ لِأَنَّ كُلَّ [مَخْلُوقٍ] (١١) طُبِعَ عَلَى حُبِّ الْإِنْتِفَاعِ وَالتَّمَتُّعِ بِالشَّيْءِ، فَلَا يَلْحَقُهُمُ الذَّمُّ بِحُبِّ مَا طُبِعُوا عَلَيْهِ، وَأَنْشَبُوا. وَلَكِنْ إِنَّمَا يَلْحَقُ الذَّمُّ مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا، وَاخْتَارَهَا، وَأَثَرَهَا عَلَى غَيْرِ الَّذِي جُعِلَتِ الدُّنْيَا [لَهُ] (١٢) وَأُسُسَتْ؛ فَالدُّنْيَا (١٣) إِنَّمَا أُسُسَتْ، وَجُعِلَتْ، لِيُكْتَسَبَ بِهَا نَعِيمُ الْآخِرَةِ وَالْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ اللَّذِيذَةِ.

فَمَنْ أَحَبَّ لِهَذَا، فَهُوَ لَا يَلْحَقُهُ بِذَلِكَ ذَمٌّ وَلَا تَغْيِيرٌ، وَمَنْ أَحَبَّهَا، وَأَثَرَهَا لَهَا، وَاتَّسَبَّهَا لَهَا، فَهُوَ الْمَذْمُومُ، وَأُولَئِكَ كَانُوا مُخْتَلِفِينَ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَكُونُوا عَلَى قَنٍّ وَاحِدٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَ حُبَّهُ إِيَّاهَا عَلَى انْكَارِ وَخِدَائِيَّتِهِ تَعَالَى وَالْوَهْيِيَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَ حُبَّهُ إِيَّاهَا عَلَى تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَالتَّعَادِي لَهُمْ وَمُكَابَرَةِ الْحَقِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَ حُبَّهُ إِيَّاهَا عَلَى انْكَارِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ لِمَا عَلِمُوا، وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَ حُبَّهُ الدُّنْيَا عَلَى التَّفْرِيقِ بَيْنَ الرُّسُلِ: أَنْكَرُوا بَعْضًا [وَصَدَّقُوا بَعْضًا] (١٤) وَتَوَلَّدَ مِنْ حُبِّهِمْ إِيَّاهَا مَا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقِيلَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فَأَنْزَلَ. (٣) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: النَّوَائِلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: النَّوَائِلِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: فَأَنْزَلَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَعْلَمُونَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَدْعُونَ. (١٠) وَ(١١) وَ(١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فِي الدُّنْيَا. (١٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

ذَكَّرْنَا، فَلَجَعَهُمُ الذَّمَّ لِلذِّكْرِ. وَلِذَلِكَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْإِنْفَاقِ فِي الدُّنْيَا حِينَ^(١) قَالَ: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ﴾ الآية [آل عمران: ١١٧].

فَمَنْ أَنْفَقَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَهَا فَتَكُونُ نَفَقَتُهُ مَا ذَكَرَ لِأَنَّهُ أَنْفَقَ لغيرِ ما جُعِلَتْ لَهُ النِّفَقَةُ، فَكَانَ مَا ذَكَرَ.

فَعَلَى ذَلِكَ مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا، وَاخْتَارَهَا لِلدُّنْيَا لَا لِاِكْتِسَابِ مَا ذَكَّرْنَا مِنَ النِّعَمِ اللَّذِيذَةِ الدَّائِمَةِ وَالْحَيَاةِ الْبَاقِيَةِ الَّتِي لَا انْقِطَاعَ لَهَا، كَانَ عَلَى مَا ذَكَرَ.

ثُمَّ إِذَا ذُكِرَتِ الدُّنْيَا ذُكِرَتِ الْآخِرَةُ وَرَاءَهَا، وَإِذَا ذُكِرَتِ الْآخِرَةُ [وَذُكِرَ^(٢)] عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ، قِيلَ: أَمَامَهُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مُقْبِلٌ إِلَيْهَا، فَتَكُونُ تِلْكَ أَمَامَهُ وَقُدَّامَهُ.

وَأَمَّا عِنْدَ ذِكْرِ الْآخِرَةِ^(٣) قِيلَ: وَرَاءَهَا، لِأَنَّهُ تَخَلَّفَهَا، وَكُلُّ مَنْ خَلَفَ آخَرَ يَكُونُ بَعْدَهُ وَوَرَاءَهُ، لِأَنَّهُ يَكُونُ عِنْدَ قَوْتِ الْآخِرِ؛ لِذَلِكَ كَانَ مَا ذَكَرَ.

الآية ٢٨ وقوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَاهُمْ نَسَكًا أَتْرَهَمُ﴾ رَجَعَ إِلَى الْإِخْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ لِمَا أَنْكَرُوا؛ يَقُولُ: يَغْلَمُونَ أَنَا خَلَقْنَاهُمْ بَدَأً، وَنَحْنُ شَدَدْنَا خِلَقَتَهُمْ، أَوْ نَحْنُ وَصَلْنَا جَوَارِحَهُمْ الْمُتَفَرِّقَةَ وَمَفَاصِلَهُمُ الْمُتَشَتِّتَةَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَنَحْنُ نُبَدِّلُ أَمْثَالَهُمْ إِنْ شِئْنَا. فَمَا بِالْهَمِّ يَتَكَبَّرُونَ قَدَرْتَنَا عَلَى الْبَعْثِ وَالْإِعَادَةِ بَعْدَ الْمَوْتِ؟

يَقُولُ: مَنْ قَدَرَ عَلَى مَا ذَكَرَ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَهُوَ عَلَى الْبَعْثِ أَقْدَرُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بِدَلَّكَ أَتَيْنَاكَ بَبَدَلٍ﴾ يُذَكِّرُ بَعْدَ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الآية ٢٩ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَتَذَكَّرَةٌ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ أَي هَذِهِ السُّورَةُ، لِأَنَّهُ ذَكَرَ فِي أَوَّلِهَا ابْتِدَاءَ إِنشَائِهِمْ وَخَلْقَهُمْ [وَفِي^(٤)] آخِرِهَا إِعَادَتَهُمْ وَفِي خِلَالِهَا^(٥) جَزَاءَ صَنِيعِهِمُ الَّذِي صَنَعُوا، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ تَذَكُّرَةً لَهُمْ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَتَذَكَّرَةٌ﴾ أَي الْأَنْبَاءُ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ، أَوْ هَذِهِ الْمَوَاعِظُ تَذَكُّرَةً لِمَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ، وَتَذَكُّرَةً لِمَا لِلَّهِ عَلَيْهِمْ وَلِمَا لِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَيْنَا سَبِيلًا﴾ هَذَا يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: يَقُولُ: قَدْ مَكَّنَ كَلًّا أَنْ يَتَّخِذَ سَبِيلًا إِلَى رَبِّهِ، أَيْ لَا شَيْءَ يَمْنَعُهُ عَنِ اتِّخَاذِ السَّبِيلِ إِلَى رَبِّهِ إِذَا شَاءَ، لَكِنْ مَنْ لَمْ يَتَّخِذْ [فَإِنَّمَا لَمْ يَتَّخِذْ^(٦)] لِأَنَّهُ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَتَّخِذَ سَبِيلًا، وَالْأَقْدَمُ مَكَّنَ لَهُ ذَلِكَ.

وَالثَّانِي: يَقُولُ: مَنْ شَاءَ اتَّخَذَ السَّبِيلَ فَلْيَتَّخِذْ السَّبِيلَ إِلَى رَبِّهِ عَلَى مَا تَذَكَّرُ عَلَى الْإِسْتِقْصَاءِ بَعْدَ هَذَا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الآية ٣٠ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنكَّاهُمْ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: مَنْ شَاءَ اتَّخَذَ السَّبِيلَ إِلَى رَبِّهِ [فَلَا يَتَّخِذُهُ^(٧)] إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ السَّبِيلَ إِلَى رَبِّهِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَّخِذُ.

وهذا عَلَى الْمَعْتَزِلَةِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ شَاءَ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ أَنْ يَتَّخِذُوا إِلَى رَبِّهِمْ سَبِيلًا، لَكِنَّهُمْ شَاؤُوا إِلَّا يَتَّخِذُوا إِلَى رَبِّهِمْ سَبِيلًا، فَلَمْ يَتَّخِذُوا. وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَشَاوُونَ اتَّخَاذَ السَّبِيلِ إِلَيْهِ، وَلَا يَتَّخِذُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ لَهُمْ اتَّخَاذَ السَّبِيلِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَّخِذُونَ مَا ذَكَرَ، وَيَشَاوُونَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ عَلِيمًا بِصُنْعِ خَلْقِهِ مِنَ التَّكْذِيبِ لَهُ وَالتَّصْدِيقِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، أَيْ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِصَنِيعِهِمْ؛ أَنْشَأَهُمْ، وَخَلَقَهُمْ ﴿حَكِيمًا﴾ فِي فِعْلِهِ ذَلِكَ وَخَلْقِهِ لِأَنَّهُمْ عَلَى مَا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ [إِلَى مَنْ^(٨)] خَلَقَهُمْ، وَأَنْشَأَهُمْ لِمَنْفَعِهِمْ وَلِحَاجَتِهِمْ لَا لِمَنْفَعَةٍ تَرْجِعُ إِلَيْهِ أَوْ لِمَصَارَءٍ تُدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الدُّنْيَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: خِلَال. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: لَا يَتَّخِذُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: إِنَّمَا.

فَخَلَقَهُ إِيَّاهُمْ وَبَعَثَهُ الرِّسَالَ إِلَيْهِمْ عَلَى عِلْمٍ بِمَا يَكُونُ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالرَّدِّ، لَا يَخْرُجُ فِعْلُهُ عَنِ الْحِكْمَةِ وَالْحَقِّ. بَلْ يَكُونُ حَكِيمًا فِي ذَلِكَ.

وَأَمَّا مَنْ يَبْعَثُ الرِّسَالَ فِي الشَّاهِدِ إِلَى مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ، وَيُرَدُّ رِسَالَتُهُ وَهَدْيَتُهُ، وَيَسْتَخِفُّ بِهِ، [وَأَنَّهُ سَفِيهٌ^(١)] لَيْسَ بِحَكِيمٍ^(٢)، لَأَنَّهُ إِنَّمَا يُرْسِلُ الرِّسَالَ، وَيَبْعَثُ هَدْيَتَهُ لِمَنَافَعِ تَكُونُ لَهُ^(٣)، فَعِلْمُهُ بِمَا يَكُونُ مِنْهُ سَفَهٌ، لَيْسَ بِحِكْمَةٍ، لِذَلِكَ افْتَرَقَا.

الآية ٣١

وقوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ هذا على المعتزلة أيضاً لأنه يدخل مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَهُمْ يَقُولُونَ: قد شاء أن يدخل كلاً في رحمة، لأنه شاء إيمان كل منهم، والله تعالى^(٤) أخبر أنه يدخل مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ.

دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَشَأْ أَنْ يُدْخِلَ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ عِلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ يَخْتَارُ الضَّلَالَ، وَلَكِنْ إِنَّمَا شَاءَ أَنْ يُدْخِلَ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ عِلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ يَخْتَارُ الْهُدَى. فَأَمَّا مَنْ عِلِمَ مِنْهُ اخْتِيَارَ غَيْرِهِ فَلَا يَخْتَصِّلُ أَنْ يَشَاءَ ذَلِكَ لَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وشاء أيضاً مَنْ عِلِمَ مِنْهُ الضَّلَالَ أَنْ يُعَذِّبَهُ عَذَابًا أَلِيمًا.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي وَحْفَصَةَ رضي الله عنهما يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ. وهذا الحرف تفسيراً وتأويلُ الآية، وَأَنْ تَكُونَ رَحْمَتُهُ ههنا، هُوَ الْهُدَى وَسَبِيلُ اللَّهِ.

وَيَخْتَصِّلُ أَنْ تَكُونَ رَحْمَتُهُ، هُوَ جَنَّتُهُ، سَمِيَتْ رَحْمَةً، لَأَنَّهُ بِرَحْمَتِهِ يَدْخُلُهَا^(٥) أَهْلُ الْإِيمَانِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ مَا أَرَادَ.



(١) في الأصل وم: سفيه. (٢) في الأصل وم: بحكمة. (٣) في الأصل وم: للمرسل. (٤) في الأصل وم: أعلم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: ما.

سورة المرسلات / ٦٢٠ - ب

[مكية^(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآيات ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا﴾ ﴿وَالْمُصَدِّقَاتُ غَضًا﴾ ﴿وَالشَّارِكُ نَشْرًا﴾ ﴿وَالْمُنَادِي دُرُودًا﴾ ﴿وَاللَّيْلِ نَسْرًا﴾

﴿ذِكْرًا﴾ اختلفوا في تأويلها:

فمنهم من حمل تأويل [هذا]^(٢) كله على الملائكة، ومنهم من صرفها إلى الرياح [ومنهم من صرف البعض إلى الرياح]^(٣) والبعض إلى الملائكة.

وجائز أن يجعل هذا كله في الرياح، ويستقيم أن يصرّف كله إلى الملائكة، ويستقيم أن يجعل البعض في الملائكة والبعض في الرياح.

فإن كان في الرياح استقام القسم بها، لأن من الرياح رياحاً، من مبشرات برحمته سابقات للنعم إلى عباده كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِكرَ بِرَحْمَتِهِ﴾ [الروم: ٤٦].

ومن الرياح رياح، هي منجيات؛ قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَّهْتُمْ بِرِيحٍ لَيَبْغُو وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢] فجعلها^(٤) الله تعالى سبباً لتسيير السفن في البحار كما جعل الماء سبباً لذلك.

وجعل منها مهلكات مذكّرات لقوته وسلطانه كما قال ﷻ: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ﴾ الآية [الإسراء: ٦٩] فهي تميتهم، وتهلكهم، من غير أن يذكروه بأبصارهم، وإن كانت الأبصار، هي أول ما يقع بها ذكرك الأشياء. ولو أراد أحد أن يعرف الوجه الذي له صارت المنجيات منجيات، أو يعرف الوجه الذي له صارت الرياح مهلكات أو مبشرات لم يقف عليه.

فصارت الرياح مذكّرات للنعم. وفي تذكير النعم إيجاب القول بالبعث وبكل ما يخبرهم [به الرسل]^(٥) لأنهم كانوا ينكرون البعث، ورأوا فيها من لطائف الحكمة وعجائب التدبير [ما لا يبلغها تذكيرهم]^(٦) وحكمته، علموا أن الأمر غير مُقدّر بعقولهم ولا بحكمته، فيكون في ذكر ما ذكرنا إزاحة ما اغترض لهم^(٧) من الشك والشبه في أمر البعث، فأقسم بها، جلّ جلاله، على ما ذكرنا أن القسم جويل لتأكيد ما يقصد إليه باليمين.فرجعنا إلى قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا﴾ قيل: هي الرياح المبشرات، سميت عُرْفًا لأن ما يأتي به من النعم معروف^(٨)، وقيل: العُرْف المتتابع وسمي عُرْف الفرس عُرْفًا لمتتابع بعض الشعر على بعض. فجائز أن يكون مُنصرِفًا إلى الرياح المُبشّرة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿عُرْفًا﴾ جائز أن يكون يُحمل على الرياح، لكن على الرياح المُبشّرات، وهي الرياح السهلة

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: فجعل. (٥) من م، في الأصل: بالرسول. (٦) من م، في الأصل: هم. (٧) في الأصل وم: له. (٨) في الأصل وم: معروفة.

الخفيفة، لأنَّ الشَّرَّ مذكورٌ في رِيَّاحِ الرَّحْمَةِ بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ نُشْرًا^(١) ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧] في بعضِ القراءات.

وقوله تعالى: ﴿فَالْمُصَوِّتِ عَصَا﴾ هي الرِّيحُ الشَّديدةُ التي تكسِرُ الأشياءَ، وتَقْصِمُهَا، وهي التي تُرْسِلُ للإِهْلَاكِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَيُرْسِلْ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ [الإسراء: ٦٩].

وجائزٌ أن يكونَ قوله تعالى: ﴿وَالرَّسَلَاتِ عَصَا﴾ هي اسمُ الرِّيحِ التي لم يَظْهَرْ أنها أُرْسِلَتْ للإِهْلَاكِ^(٢) أو لِلنَّبْشِ لِأنَّ الرِّيحَ التي تُرْسَلُ لِلرَّحْمَةِ يَظْهَرُ أنَّ رَحْمَتَهَا مِن سَاعَتِهَا مِن إِرْسَالِ السَّحَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَتَابَعَ. وكذلك الرِّيحُ التي هي رِيَّاحُ إِهْلَاكِ يَظْهَرُ عَلَمُ الإِهْلَاكِ مِنْ سَاعَتِهَا، وهو أن تكونَ قَاصِفَةً شَدِيدَةً قَبْلَ أَنْ تَتَابَعَ.

وقوله تعالى: ﴿فَاللَّيْلِ فَتَرَجًا﴾ يَحْتَمِلُ الرِّيحُ أَيْضًا، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ فَارَقَاتٍ لَّأنَّهَا تُفَرِّقُ السَّحَابَ، فَيَصِيرُ الْبَعْضُ فِي أَفْقٍ، وَالْبَعْضُ فِي أَفْقٍ آخَرَ.

وقوله تعالى: ﴿فَاللَّيْلِ فَتَرَجًا﴾ فجائزٌ أن يَصْرَفَ إلى الرِّيحِ، وَالْقَاءُ ذِكْرُهَا مَا ذَكَّرْنَا أَنَّهُ يَظْهَرُ بِهَا النَّعَمُ، وَتُذَكَّرُ، وَتُبَيَّنُ بِهَا النِّجَاةُ، وَيَقَعُ بِيَعُضِهَا الْهَلَاكُ. فَذَلِكَ إِقَاءُ ذِكْرُهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وإنَّ صُرِفَ الْكُلُّ إلى الْمَلَائِكَةِ فَيَحْتَمِلُ أَيْضًا؛ فَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَالرَّسَلَاتِ عَصَا﴾ أي الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ أُرْسِلُوا بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وقوله ﷻ: ﴿فَالْمُصَوِّتِ عَصَا﴾ أي الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ^(٣) يَعْصُونَ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ، أَيْ يَأْخُذُونَهَا عَلَى شِدَّةِ غَضَبٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ فَتَرَجًا﴾ جائزٌ أن يكونَ أُرِيدَ بِهَا النُّشْرَةُ^(٤) مِنَ الْمَلَائِكَةِ، سُمُّوا نَاشِرَاتٍ لِأَنَّهُمْ يَنْشُرُونَ الصُّحُفَ، وَيَقْرَءُونَهَا. وَجائزٌ أن يُرَادَ بِهَا الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى لَبِنٍ وَرَفِيقٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَاللَّيْلِ فَتَرَجًا﴾ جائزٌ أن يُرَادَ بِهَا الْمَلَائِكَةُ، وَسُمِّيَتْ فَارَقَاتٍ لِأَنَّهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

وقوله تعالى: ﴿فَالْمُصَوِّتِ عَصَا﴾ هُمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يُلْقُونَ الذِّكْرَ عَلَى السَّنَنِ الرَّسَلِ ﷻ.

وإنَّ صُرِفَ الْبَعْضُ إلى الْمَلَائِكَةِ وَالْبَعْضُ إلى الرِّيحِ فمستقيمٌ أَيْضًا؛ فَتَكُونُ الْمُرْسَلَاتُ الَّذِينَ أُرْسِلُوا بِالْمَعْرُوفِ وَالْخَيْرِ، وَالْعَاصِفَاتُ الرِّيحُ الشَّديدةُ، وَالنَّاشِرَاتُ الرِّيحُ الْخَفِيفَةُ السَّهْلَةُ، ﴿فَاللَّيْلِ فَتَرَجًا﴾ ﴿فَالْمُصَوِّتِ عَصَا﴾ هُمُ الْمَلَائِكَةُ.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ: أَن يُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالرَّسَلَاتِ عَصَا﴾ هُمُ الرُّسُلُ مِنَ الْبَشَرِ الَّذِينَ بُعِثُوا إِلَى الْخَلْقِ، فَمَا مِنْ رَسُولٍ بُعِثَ إِلَّا وَهُوَ مُرْسَلٌ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وكذلك جائزٌ أن يُرَادَ بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَاللَّيْلِ فَتَرَجًا﴾ ﴿فَالْمُصَوِّتِ عَصَا﴾ هُمُ الرُّسُلُ لِأَنَّهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَيُلْقُونَ الذِّكْرَ فِي مَسَامِعِ الْخَلْقِ.

وجائزٌ أن يكونَ قوله: ﴿وَالرَّسَلَاتِ عَصَا﴾ هي الْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ مِنَ السَّمَاءِ لِأَنَّهُ أُرْسِلَتْ بِالْمَعْرُوفِ وَكُلِّ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ، وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّيْلِ فَتَرَجًا﴾ لِلْحَقِّ وَالْهُدَى، وَكَذَا قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَاللَّيْلِ فَتَرَجًا﴾ لِأَنَّهُ تَفَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ أَيْضًا، وَكَذَلِكَ ﴿فَالْمُصَوِّتِ عَصَا﴾ فَإِنَّهَا سَبَبُ لَذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿عَذَابًا أَوْ تَذَرًا﴾ أي عَذَابًا مِنَ اللَّهِ تعالى؛ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تعالى أَرْسَلَ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ، وَبَيَّنَّ الْحُجَجَ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ لِأَحَدٍ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ذَلِكَ، فَهَذَا هُوَ الْإِعْذَارُ.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَذَرًا﴾ أي أَنْذَرَهُمْ، وَلَمْ يَعْجَلْ فِي إِهْلَاكِهِمْ، بَلْ بَيَّنَّ لَهُمْ مَا يُتَّقَى، وَيُجْتَنَّبُ، وَمَا يُنْذَبُ إِلَيْهِ، وَيُؤْتَى. فَهَذَا هُوَ الْإِنْدَارُ عَلَى تَأْوِيلِ الرِّيحِ مَا ذَكَّرْنَا أَنَّهَا مُذَكَّرَاتٌ نِعَمَ اللَّهِ وَنِقْمَتَهُ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ إِيْجَابٌ ذِكْرِ الْمُنْعِمِ وَالْمُنْتَقِمِ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ إِعْذَارٌ وَإِنْدَارٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) هذه قراءة ابن عامر وعبد الله بن مسعود، وللکلمة قراءات أخرى. أما قراءة الباقيين فهي ﴿بُشْرًا﴾ انظر معجم القراءات القرآنية ج ٢ / ٣٧١.

(٢) في الأصل: وم: للهلك. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل: السفرة.

الآية ٧ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفِّعُ﴾ فهذا موضع [جواب] ^(١) القسم بما ذكر من المرسلات إلى آخرها. ثم كان الموعود، هو البعث، فمعناه: أن الذي يُوعَدُونَ به من البعث لكائن على الجزاء والعقاب؛ فتأويله: إن ما توعَدُونَ به من العذاب لنازل بكم. فتكون الآية في قوم، عليم الله تعالى أنهم لا يؤمنون.

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّجِيمُ مُبْسِتٌ﴾ فكأنه، والله أعلم، لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفِّعُ﴾ سألوا رسول الله ﷺ عن وقت وقوعه: متى يكون؟ فنزل: ﴿إِنَّمَا التَّجِيمُ مُبْسِتٌ﴾ فأشار إلى الأحوال التي يومئذ لا إلى نفس الوقت. فقوله: ﴿مُبْسِتٌ﴾ أي ذهب ضوؤها ونورها، ثم تناثرت.

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿وَلَا السَّكَّةُ مُرْجَتٌ﴾ أي انشقت.

الآية ١٠ [وقوله تعالى] ^(٢): ﴿وَلَا اللَّيَالُ تُبْتُ﴾ أي قُلِعَتْ مِنْ أَصْلِهَا، فَسُوِّتْ بِالْأَرْضِ.

وقال الزجاج: نَسَفَتْ الشَّيْءَ، إِذَا أَخَذَتْهُ عَلَى سُرْعَةٍ.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿وَلَا الرُّسُلُ أُنْتَبَ﴾ وقرئ ^(٣) وَفُتَّتْ وكذلك أصله، لكن الهمزة أُبْدِلَتْ مكان الواو طلباً للتخفيف، وهو [من] ^(٤) التوقيف، أي جُمِعَتْ لوقت، وقيل: أُخْضِرَتْ الرُّسُلُ لِشَهِدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى قَوْمِهِ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ٢٢١-٢٢٢ / وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ [النحل: ٨٩].

وقيل: ﴿أُنْتَبَ﴾ أي وُعِدَ لَهُمْ بَيَانُ حَقِيقَةِ مَا إِلَيْهِ دَعَا مِنْ وَقْعٍ مَا أُوْعِدُوا قَوْمَهُمُ الَّذِينَ تَرَكُوا إِجَابَتَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَوُعِدَ لَهُمُ الْوَصُولُ إِلَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَجَابَ الرُّسُلَ فِي مَا دَعَوْهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ.

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِي يَوْمَ لُحُوتٍ﴾ فَأُجِلَّتْ، وَأُتَتْ وَاحِدٌ لِأَنَّهُ فِي التَّأْجِيلِ تَوْقِيتٌ، وَفِي التَّوْقِيتِ تَأْجِيلٌ.

الآية ١٣ ثم بَيَّنَّ وَقْتَ حُلُولِ الْأَجَلِ أَجَلَ الْعَذَابِ بِقَوْلِهِ ﷺ: ﴿يَوْمَ الْقَضَى﴾ أي لِيَوْمِ الْحُكْمِ وَالْقَضَاءِ.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩] وقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ١٩].

فجائز أن تكون الكلمة التي سَبَقَتْ مِنْهُ، هو تأخير العذاب إلى يوم البعث، فَجَعَلَ ذَلِكَ يَوْمَ الْجَزَاءِ، وَذَلِكَ يَكُونُ بِالْمُعَايَنَةِ، وَجَعَلَ هَذِهِ الدَّارَ دَارَ مِخْنَةٍ وَإِبْلَاءٍ؛ وَذَلِكَ يَكُونُ بِالْحُجُجِ وَالْيَتَابِ؛ فَكَأَنَّهُ قَالَ: لَوْ لَا مَا سَبَقَ مِنْ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ تَأْخِيرِ الْجَزَاءِ وَالْعَذَابِ، وَلَا كَانَ الْعَذَابُ وَاقِعًا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِالتَّكْذِيبِ.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخَّرَ الْجَزَاءَ وَالْعِقَابَ الَّذِي يَجْمَعُ فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَقَدَّرَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا خَلْقَ هَذَا الْبَشَرِ عَلَى التَّائِبِ إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ، إِذْ ذَلِكَ الْيَوْمِ، هُوَ الَّذِي يُوجَدُ فِيهِ الْجَمْعُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وسمى يوم الفصل لهذا: أَنَّهُ يَوْمُ الْقَضَاءِ وَالْحُكْمِ، وَلِأَنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي يَظْهَرُ فِيهِ مَنَوَى أَهْلِ الشَّقَاءِ وَأَهْلِ السَّعَادَةِ، وَيُفْصِلُ بَيْنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَعْدَاءِ، وَيُفْصِلُ بَيْنَ الْخَصَمَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْقَضَى﴾ أي لم تكن تدري، فَأَدْرَاكَ اللَّهُ تَعَالَى. ذَكَرَ هَذَا إِمَّا عَلَى التَّعْظِيمِ وَالتَّهْوِيلِ لِذَلِكَ الْيَوْمِ [وإما] ^(٥) عَلَى الْإِمْتِنَانِ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ بِإِطْلَاعِهِ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٥ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُمِيزُ الْيَتَكْذِبِينَ﴾ وفي هذا دليل على أَنَّ الْوَعْدَ الْمَذْكُورَ، عَلَى الْإِطْلَاقِ مُنْصَرَفٌ إِلَى أَهْلِ التَّكْذِيبِ. ثُمَّ لَمْ يَذْكُرْ مَا لِلْمُصْذِقِينَ، وَحَقُّهُ أَنْ يُقَالَ: طَوَّبَى لِلْمُصْذِقِينَ، لِأَنَّ حَرْفَ الْوَيْلِ يُتَكَلَّمُ بِهِ عِنْدَ الْوُقُوعِ فِي الْمَهْلَكَةِ، وَحَرْفَ طَوَّبَى يُتَكَلَّمُ بِهِ فِي مَوْضِعِ السُّرُورِ وَالْغَيْبَةِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ٣٤. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أ.

فإذا ذُكِرَ في أهلِ التكذيبِ حُرُفُ الهلاكِ كَانَ مَنْ كَانَ يَخْلَافُ حَالَهُمْ مُسْتَوْجِباً للسرورِ، ولكنه إنْ لم يُذَكَّرْ ههنا فقد ذُكِّرَ^(١) في موضعٍ آخرَ بقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَرَفَ كِتَابَهُ بِسِينَةٍ﴾ ﴿سَوَّاهُ بِحَاسِبٍ﴾ [الانشقاق: ٧ و ٨] وقال ﷺ: ﴿مَنْ ثَلَّثَ مَوَازِيَهُمْ فَأَوَّلُهُمْ ثُمَّ الْآخِرُونَ﴾ [الأعراف: ٨].

الآيات ١٦ و ١٧ و ١٨ و ١٩ [وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ أَوَّلَ نَبِيٍّ﴾ ﴿ثُمَّ نَبِيُّهُمْ الْآخِرِينَ﴾ ﴿كَذَلِكَ نَقُولُ بِالْمُجْرِبِينَ﴾ ﴿وَيَلْزَمُ الْكَاذِبِينَ﴾]^(٢).

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ [تقديم وتأخير]^(٣) فجائز أن يكونَ ذَكَرَ هذا لِيَذْفَعَ عَنْهُمْ الإشكالَ والرَّيبَ الذي اغْتَرَضَ لَهُمْ في أمرِ البعثِ، لأنَّ الأعجوبةَ في الإعادةِ لَيْسَتْ بِأَكْثَرَ مِنَ الأعجوبةِ في الإنشاءِ والإيتداءِ، فَذَكَرَ إيتداءَ خَلْقِهِمْ لِيُنْفِيَ عَنْهُمْ الرَّيبَ في الإعادةِ.

وجائز أن يكونَ ذَكَرَ خَلْقَهُمْ مِنَ المَاءِ المَهِينِ، وهو المَاءُ المُسْتَعْفِ المُسْتَقْدَرُ لِيَدْعُوا تَكْبِيرَهُمْ وَتَجَبُّرَهُمْ عَلَى رَسولِ اللَّهِ ﷺ وَيُقَادُوا، وَيُجْبُوا إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ.

واخبرَ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ في الظلماتِ التي لَا يَنْتَهِي إِلَيْهَا تَدْيِيرُ البَشَرِ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ، وَيَعْرِفُوا أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَحَمَلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى المراقبةِ وَعَلَى التَّيَقُّظِ وَالتَّبَصُّرِ.

الآيتان ٢١ و ٢٢ وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ ﴿إِنْ قَدَرْتَ مَقْلُوبٍ﴾^(٤) فالقَرَارُ المَكِينُ، هو الرَّجِمُ، جَعَلَهُ اللَّهُ تعالى قَرَاراً مَكِيناً يَتِمَكَّنُ فِيهِ المَاءُ المَهِينُ، فَيَخْلُقُ مِنْهُ عِلَاقَةً وَمُضْغَةً، وَيَقْرَهُ فِيهِ إِلَى الوَقْتِ الذي قَدَّرَ اللَّهُ تعالى الخُرُوجَ مِنْهُ.

الآيتان ٢٣ و ٢٤ وقوله تعالى: ﴿فَنَدَرْنَا نَدَارًا﴾ ﴿وَنَعْلَمُ الْغِيُوتَ﴾ [وَيَلْزَمُ الْكَاذِبِينَ]^(٥) أي: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَوْلٍ﴾ [القمر: ٤٩] ﴿فَنَدَرْنَا﴾ أي سَوَّيْنَا عَلَى مَا تُوجِبُ الحِكْمَةُ عَلَى الوجوهِ التي في قوله ﷺ: ﴿وَاللَّيْلُ قَدَّرَ فَهَيْئًا﴾ [الأعلى: ٣].

وقوله تعالى: ﴿فَنَعْمَ الْغِيُوتُ﴾ أي أَنَعَمَ بِهِ مِنْ قَادِرٍ، فَيَخْرُجُ مَخْرَجَ الآلَاءِ والنَّعَمِ، أي إِنَّ الذي فَعَلَ بِكُمْ هَذَا، هو اللَّهُ تعالى، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَنْ يَفْعَلَ بِكُمْ هَذَا الفِعْلَ.

الآيتان ٢٥ و ٢٦ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِنَانًا﴾ ﴿أَخِيَّةً وَأَمْرًا﴾ فجائز أن يكونَ هذا صِلَةً قَوْلِهِ ﷺ: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾^(٦) [الآيتان: ٢٠ و ٢١] في ذِكْرِ هذا كُلِّهِ تَذْكِيرُ الآلَاءِ والنَّعَمِ وتَذْكِيرُ القُدْرَةِ والسلطانِ والحِكْمَةِ.

فوجهُ تذكيرِ النَّعَمِ أَنَّ اللَّهَ تعالى في أَوَّلِ مَا أَنشَأَ [أَنْشَأَ]^(٧) نُطْفَةً قَدِيرَةً، وَجَعَلَ لَهَا مَكَاناً يَغِيْبُ عَنْ أَبْصَارِ الخَلْقِ، وَلَمْ يُقَوِّضْ تَدْيِيرَهَا إِلَى البَشَرِ، وَكَذَلِكَ في الوَقْتِ الذي أَنشَأَ عِلَاقَةً وَمُضْغَةً لَمْ يُقَوِّضْ تَدْيِيرَهَا إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، لِأَنَّهُ في ذَلِكَ الوَقْتِ بَحِيْثٌ يُسْتَعْفَى، وَيُسْتَقْدَرُ، وَلَا يُذْفَعُ عَنْهُ المَعْنَى الذي وَقَعَتِ الإِسْتِعَاْفَةُ والإِسْتِقْدَارُ بالتطهيرِ، فَجَعَلَ لَهُ قَرَاراً مَكِيناً يَسْتَرُّهُ عَنْ أَبْصَارِ الخَلَائِقِ.

ثم لَمَّا أَنشَأَ نَسَمَةً، وَسَوَّى خَلْقَهُ في بَطْنِ أُمِّهِ، أَلْقَى^(٨) فِي قَلْبِ أَبِيهِ الرَّاْفَةَ والعطفَ ليقوما^(٩) بتربيته وإمساكه إلى أَنْ يَبْلُغَ مَبْلَغاً، يَقُومُ بِتَدْيِيرِ نَفْسِهِ وَمَصَالِحِهِ.

ثم جَعَلَ لَهُ بَعْدَ مَمَاتِهِ أَرْضاً تَكْفِيْتُهُ، وَتَضُمُّهُ إِلَى نَفْسِهَا، فَيَسْتَرُّ بِهَا عَنْ أَبْصَارِ الناظرينَ؛ إِذْ رَجَعَ بِمَوْتِهِ إِلَى حَالِهِ تُسْتَعْفَى، وَيُسْتَقْدَرُ، وَلَا تَقْبَلُ التطهيرَ.

فَكَانَ في ذِكْرِ أَوَّلِ أَحْوَالِهِ وَإِلَى مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ تَذْكِيرُ النَّعَمِ لِيَصِلَ إِلَى آدَاءِ شُكْرِهِ؛ إِذْ جَعَلَ الرَّجِمَ قَرَاراً لَهُ في وَقْتِ كَوْنِهِ نُطْفَةً وَعِلَاقَةً وَمُضْغَةً لِمَا لَا يَعْرِفُ الخَلَائِقُ أَنَّهُ بِمَا يُغْدَى حَتَّى يَنْمُو، وَيَزِيدَ، فَرَفَعَ عَنْهُمْ مَوْوَنَةَ التَّربِيَةِ في ذَلِكَ الوَقْتِ.

(١) في الأصل وم: ذكرها. (٢) ساقطة من الأصل وم: (٣) أدرجت هذه العبارة في الأصل وم: بعد: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾. (٤) ساقطة من الأصل وم.

(٥) ساقطة من الأصل وم: (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: ﴿وَأَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِنَانًا﴾ ﴿أَخِيَّةً وَأَمْرًا﴾. (٧) ساقطة من الأصل وم: (٨) في الأصل وم: وألقى. (٩) في الأصل وم: ليقوما.

ثم إذا صار بحيث يَعْرِفُ وجهَ غذائه، وعَرَفَ الخَلْقُ المعْنَى الذي يَعْمَلُ في دفعِ حاجته، وأَخْرَجَهُ مِنْ بطنِ الأمِّ، وقَوَّضَ تدبيرَهُ إلى أبيه.

فهذه أوجهُ تذكيرِ القوةِ والسلطانِ والحكمةِ، وهي أَنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ النطفَةَ التي أَنشَأَ منها النَّسَمَةَ بحيثُ تَصْلُحُ أَنْ يَنْشَأَ منها عِلْقَةٌ ومُضْغَةٌ. ولو أَرَادَ الخَلْقُ أَنْ يَعْرِفُوا المعْنَى الذي لَهُ صَلَاحَتِ النطفَةِ بأنْ تَنْشَأَ منها العِلْقَةُ والمُضْغَةُ والعظامُ واللحمُ، ثم يَكُونُ منها نَسَمَةٌ سَوِيَّةً، لم يَصِلُوا إلى مَعْرِفَتِهِ، وإذا تَفَكَّرُوا في هذا عِلْمُوا أَنَّ حِكْمَتَهُ، لَيْسَتْ على ما يَنْتَهِي عِلْمُ البَشَرِ، و[قُوَّتُهُ لَا] ^(١) تَقْصُرُ على الحَدِّ الذي تَنْتَهِي إليه قُوَى البَشَرِ.

والذي كَانَ يَحْمِلُهُمْ على إنكارِ البعثِ بعدَ الإِمَاتَةِ تَقْدِيرُهُمْ الأمورَ على قُوَى أَنْفُسِهِمْ وَتَسْوِيَّتُهَا بِعُقُولِهِمْ. فإذا تَدَبَّرُوا في ابتداءِ أحوالِهِمْ، ورَأَوْا مِنْ لطائفِ التدبيرِ وعجائبِ الحِكْمَةِ عِلْمُوا أَنَّ الأمرَ لَيْسَ كما قالوا، وقَدَّرُوا، فَيَدْعُوهُمْ ذَلِكَ التَّصْدِيقُ بِكُلِّ ما يَأْتِي بِهِ الرُّسُلُ، وَيُخْبِرُهُمْ مِنْ أَمْرِ البعثِ وَغَيْرِهِ.

وجائزٌ أَنْ يَكُونَ ذِكْرُهُمْ ابتداءِ أحوالِهِمْ ونُشْوءُهُمْ وإلى ما يَصِيرُونَ إليه [لَا يَدْعُهُمْ إِلَى] ^(٢) التَّكْبِيرِ على دينِ اللهِ تعالى، فَيَنْقَادُوا لَهُ بِالْإِجَابَةِ، وَلَا يَسْتَكْبِرُوا على أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، لِأَنَّهُمْ فِي ابتداءِ أحوالِهِمْ كَانُوا نُطْفَةً ^(٣) يَسْتَقْدِرُهَا الْخَلَائِقُ ثُمَّ عِلْقَةٌ ومُضْغَةٌ، وَيَصِيرُونَ فِي مُنْتَهَى الأمرِ جَبَّارًا ^(٤) قَدِيرًا.

وَمَنْ كَانَ هَذَا وَصْفُهُ، فَأَنَّى يَلِيقُ بِهِ التَّكْبِيرُ على أَحَدٍ؟

ثم قَوْلُهُ ﷻ: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ جَعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ تَكْفِيفُهُمْ أَيِ تَضَمُّعُهُمْ، وَتَجَمُّعُهُمْ، فِي حَيَاتِهِمْ وَبَعْدَ مَمَاتِهِمْ. فَالْإِنْضِمَامُ إِلَيْهَا فِي حَالِ حَيَاتِهِمْ مَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الْمَسَاكِينِ فِيهَا وَالْيَتَامَى، وَجَعَلَ لَهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ مَقَابِرَ يُدْفَنُونَ فِيهَا، أَوْ جَعَلَ مُتَقَلِّبُهُمْ وَمَوَاهِمُ فِي ظُهُورِهَا فِي حَيَاتِهِمْ، وَجَعَلَ بطنَهَا مَأْوًى / ٦٢١ - ب / لَهُمْ بَعْدَ وفَاتِهِمْ، وَجَعَلَهَا ^(٥) بَسَاطًا لَهُمْ ﴿لِتَسْلَكُوا مِنْهَا سُبُلًا﴾ [نوح: ٢٠] وَقَدَّرَ لَهُمْ فِيهَا أوقَاتَهُمْ، فَذَكَرَهُمْ وَجْهَ النِّعَمِ فِي خَلْقِهِ الْأَرْضِ لِيَسْتَأْدِيَ مِنْهُمْ الشُّكْرَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٧ وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجَمًا وَغُلًّا﴾ فالرَّوَاسِي، هِيَ الْجِبَالُ الثَّابِتَاتُ فِي الْأَرْضِ، أَثْبَتَهَا فِي الْأَرْضِ، لِيَقْرُبَهَا، وَلَا تَمِيدَ بِأَهْلِهَا؛ إِذْ لَوْ مَادَتْ لَمْ يَصِلْ أَهْلُهَا إِلَى مَا قَدَّرَ لَهُمْ مِنَ الْمَنَافِعِ، فَذَكَرَهُمْ بِذِكْرِ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي عَظِيمِ نَعِيمِهِمْ لِيَسْتَأْدِيَ مِنْهُمْ الشُّكْرَ. وَالشَّامَخَاتُ هِيَ الطَّلَاحُ.

الآية ٢٨ وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَأَسْبَغْنَا لَهُ أَزْوَاجًا﴾ [وَبَلَّغْنَا لِكُلِّ دِينٍ] ^(٦) وَلَوْلَا إِنْزَالُهُ عَلَيْكُمْ لَمْ تَكُونُوا تَصِلُونَ إِلَيْهِ بِقَوَائِمِ وَجِلِّكُمْ.

ثم أَنزَلَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَلَمْ يُخْرِجْهُ ^(٧) مِنْ حُدِّ الْعَذُوبَةِ، وَلَا حَلَّ بِهِ التَّغْيِيرُ بِمُحَاسِنَةِ الْأَرْضِ [وَاخْتِلَاطِهِ بِهَا] ^(٨). وَهَذَا مُنْصَرَفٌ إِلَى الشَّرَابِ. ثُمَّ لَغِيْرَ الْعَذَابِ مِنَ الْمَنَافِعِ مَا لِلْعَذَابِ [لَا إِلَى] ^(٩) الشَّرَابِ خَاصَّةً.

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ^(١٠) [الآية: ١٦] وَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَقَوْمُ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿ثُمَّ نَعَّمْنَا الْآخِرِينَ﴾ [الآية: ١٧] قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَ لُوطٍ وَغَيْرَهُمْ ﴿كَذَلِكَ نَقُولُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿وَبَلَّغْنَا لِكُلِّ دِينٍ﴾ [الآيتين: ١٨ و ١٩] قِيلَ: مُجْرِمُو ^(١١) هَذِهِ الْأُمَمِ. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي وَقْتِ فَعْلِهِ:

فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا الْإِهْلَاكَ فِي الْآخِرَةِ لِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٦]. وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّهُ [مَا] ^(١٢) فَعَلَ بِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّ فِعْلَهُ بِمُجْرِمِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ» (الطبراني في الكبير: ١١٠٥٦) أَلْقَى اللهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ حَتَّى تَرَكُوا الْأَسْبَابَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ لِلْمُحَارَبَةِ مَعَ كَثْرَةِ شَوْكِهِمْ وَقِلَّةِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَا قُوَّتُهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لِيَدْعُوا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: نُطْفَةٍ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: جَبَّارًا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجَعَلَ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: يَخْرُجُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَاخْتَلَطَتْ بِهِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَّا. (١٠) انْظُرْ إِلَى مَا ذَكَرَ فِي مَطْلَعِ تَأْوِيلِ الْآيَةِ ٢٠. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: مُجْرِمِي. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

فهذا فعلُهُ بالمُجَرِّمِينَ، وفي إلقاء الرعبِ الطُفْ آيات رسالتي وأبين حُجَّةً عليها، إذ كَانَ فِيهِ مَا بَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الَّذِي أُنْعَدَهُمْ عَنِ الْقِتَالِ، وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، أَمْرٌ سَمَويٌّ، لَا غَيْرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٩ وقوله تعالى: ﴿أَطْلِقُوا إِنْ مَا كُتِرَ بِهِ تَكَذِّبُونَ﴾ مَغْنَاءُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴿إِنْ مَا كُتِرَ بِهِ تَكَذِّبُونَ﴾ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُمْ كَانُوا يَكْذِبُونَ بِالْبَعْثِ وَالْعَذَابِ، لَكِنْ يُقَالُ لَهُمْ هَذَا بَعْدَ الْبَعْثِ، فَهُوَ مُنْصَرِفٌ إِلَى مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْعَذَابِ.

الآية ٣٠ وقوله تعالى: ﴿أَطْلِقُوا إِنْ ظَلِيَ ذِي تِلْكَ شَعْبٍ﴾ ذَكَرَ أَنَّ ذَلِكَ الظِّلَّ دُخَانٌ يُخْرَجُ مِنْ جَهَنَّمَ، فَيَظُنُّونَ أَنَّهُ ظِلٌّ فَيَسْتَظِلُّونَ إِلَيْهِ رَجَاءً أَنْ يَنْتَفِعُوا بِهِ.

وقوله تعالى: ﴿ذِي تِلْكَ شَعْبٍ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنْ يَكُونَ أَصْلُهُ وَاحِدًا، ثُمَّ تَشَعَّبَ مِنْهُ شُعَبٌ ثَلَاثٌ.

[والثاني^(١)]: جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ فِي الْأَصْلِ [ذَا شَعْبٍ]^(٢) ثَلَاثٌ، تَأْتِي كُلُّ شُعْبَةٍ مِنْ نَاحِيَةٍ، ثُمَّ تَجْتَمِعُ، فَتَصِيرُ شَيْئًا وَاحِدًا.

الآية ٣١ وقوله تعالى: ﴿لَا ظِلِّ وَلَا يَبْقَى مِنَ الْلَهَبِ﴾ أَي لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ كَمَا^(٣) يُنْتَفَعُ بِالظِّلِّ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّ ظِلَّ الدُّنْيَا يُهَرَّبُ إِلَيْهِ لِدَفْعِ الْحَرِّ وَلِيُسْكَنَ فِيهِ، لِأَنَّ ظِلَّ الْبَيْتِ مِمَّا يُسْكَنُ فِيهِ، وَظِلُّ الشَّجَرِ وَالْحَيَاطَانِ لِيُؤْوِيَ إِلَيْهِ، وَلِيَتَرَوَّحَ بِهِ، وَذَلِكَ الظِّلُّ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ فِي دَفْعِ الْحَرَارَةِ وَلَا فِي غَيْرِهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْقَى مِنَ الْلَهَبِ﴾ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونُوا هَرَبُوا إِلَى ذَلِكَ الظِّلِّ مِنَ الْلَهَبِ، فَيُخْبِرُ أَنْ يَسْتَرَهَا لَا يَنْتَفِعُ الْلَهَبُ عَنْ أَنْ يَمَسَّهُمْ إِذَا انْضَمُّوا إِلَى الظِّلِّ.

الآية ٣٢ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَرَى بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ﴾ وَمَفْتُوحَةُ الصَّادِ^(٤)؛ فَالْقَرَاءَةُ الْمَعْرُوفَةُ: قِيلَ: يَرَادُ بِالْقَصْرِ الْمَعْرُوفِ السَّبِيحِ بِاللَّيْلِ وَالْحَشَبِ، وَقِيلَ: يَرَادُ بِهَا قُصُورُ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، وَهِيَ الْخِيَامُ.

وَمَنْ قَرَأَ بِالنَّصَبِ اخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِهِ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه [أَنَّهُ قَالَ]^(٥) كَالْقَصْرِ قَصْرُ النَّخْلِ، وَالْوَاحِدَةُ قَصْرَةٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّ النَخْلَةَ تُقَطَّعُ قَدْرُ ثَلَاثَةِ أَذْرُعٍ، وَأَقْصَرُ وَأَطْوَلُ يَسْتَوْدِدُونَ بِهَا فِي الشِّتَاءِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ أَصْلُ النَّخْلِ الْمُقَطَّوعِ الْمُتَقَعِرِ مِنَ الْأَرْضِ، وَقِيلَ: هُوَ أَعْنَاقُ النَّخْلِ، وَقِيلَ: الْقَصْرَةُ اسْمُ الْخَشَبِ الَّتِي تُقَطَّعُ عَلَيْهَا اللَّحُومُ، وَتُكْسَرُ الْعِظَامُ، تَكُونُ لِلْقَصَائِينِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَرَأَ مُحَقِّقَةً كَالْقَصْرِ غَيْرَ أَنَّهُ: فَسَّرَهَا: أَيِ الْجَزْلِ مِنَ الْخَشَبِ، الْوَاحِدَةُ قَصْرَةٌ كَقَوْلِكَ: ثَمَرَةٌ وَثَمَرٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفيه إخبارٌ عَنْ عِظَمِ شَرِّهَا وَقَدَرِهَا خِلَافًا لِمَا عَلَيْهِ الشَّرُّ فِي الدُّنْيَا، لَا يَأْخُذُ مَكَانًا، بَلْ يُتَبَيَّنُ، ثُمَّ يَنْطَفِئُ، ثُمَّ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ شَرِّهَا فِي الْعِظَمِ كَالْخِيَامِ وَبَعْضُهَا كَالْقُصُورِ وَبَعْضُهَا كَأَصُولِ الْأَشْجَارِ.

الآية ٣٣ وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ قُرِئَ جُمَالَةً ﴿صُفْرٌ﴾ جَمَاعَةُ الْجَمَلِ، وَقُرِئَ: جِمَالَاتٌ^(٦) جَمْعُ جِمَالَةٍ، وَالصُّفْرُ قِيلَ: السُّودُّ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ السُّودُّ صُفْرًا لِأَنَّ السُّودَّ، تَغْلُوها الصُّفْرَةُ فِي الْإِبِلِ، فَتُسَمَّى بِهَا. وَبِذَلِكَ^(٧) قَوْلُ الْقَاتِلِ:

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ، وَتِلْكَ رِكَابِي مِنْ صُفْرٍ أَوْلَادُهَا كَالزُّبَيْبِ^(٨)

شَبَّهَ الشَّرَّ بِالْقَصْرِ، وَالْقَصْرَ بِالْجُمَالَةِ، وَهِيَ الْإِبِلُ السُّودُّ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَا. (٤) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٣٨/٨. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٣٩/٨. (٧) الْوَائِدُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) قَاتِلُ هَذَا الْبَيْتِ الْأَعَشَى. انْظُرْ دِيوانَهُ ص ٢٩.

وَقُرِئَ جُمَلَاتُ^(١) بِرَفْعِ الْجِيمِ، وَهِيَ جِبَالُ السَّفِينِ، ثُمَّذُ، ثُمَّ إِذَا ضَمَّتْ تَكُونُ كَأَوْسَاطِ الرِّجَالِ، فَشَبَّهَ [الشَّرْرَ]^(٢) بِالْجِبَالِ الْمَمْدُودَةِ الصُّفْرِ عِنْدَ الْإِمْتِدَادِ، وَعِنْدَ الْإِنْضِمَامِ كَأَوْسَاطِ الرِّجَالِ، فَتَكُونُ كَالْقَصْرِ.

الآيتان ٣٤ و ٣٥ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْكَذِبِينَ﴾^(٣) ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ لَا يَنْطِقُونَ نَفْقًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ كَمَا لَمْ يَكُونُوا يَنْطِقُونَ فِي الدُّنْيَا كَلَامًا يُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَعَامَلَهُمْ [اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ حَسَبَ مَعَامَلَتِهِمْ إِيَّاهُ]^(٤) وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُنُوا لِلَّهِ غُلَامًا يَذُكَّرُونَ﴾ [الحشر: ١٩] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥].

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: لَا يَنْطِقُونَ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ، وَيَنْطِقُونَ فِي بَعْضِهَا. وَيَحْتَمِلُ أَيُّ لَا يَنْطِقُونَ بِحُجَّةٍ، بَلْ يُكَذِّبُونَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ رِيئًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

الآيتان ٣٦ و ٣٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَدْرَأُونَ لَمَّا يَنْزِلُ السَّمَاءُ سَكَابِشٌ﴾^(٥) [وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْكَذِبِينَ]^(٦) لَيْسَ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ الْعَذْرَ مِنْهُمْ إِذَا اتُّوا بِهِ، وَلَكِنْ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ لَا عُذْرَ لَهُمْ^(٧) لِقَبْلِ مِنْهُمْ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا تَتَعَوَّذُ مِنَ النَّارِ﴾ [المدثر: ٤٨] مَعْنَاهُ: أَنَّهُ لَا شَفِيعَ لَهُمْ، لَا أَنَّهُمْ إِذَا اتُّوا بِشَفَعَاءَ لَمْ يَشْفَعْ لَهُمْ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ عُذْرٌ لَهُمْ فَهُمْ^(٨) لَا يَغْتَدِرُونَ عُذْرًا.

الآية ٣٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْقَصْفِ جَمَعْنَاكَ وَالْأَوَّلِينَ﴾ فَبِهِ إِخْبَارٌ أَنَّهُ لَا يَخْصُصُ بِالْبَعْثِ فَرِيقًا دُونَ فَرِيقٍ، بَلْ يَجْمَعُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ، ثُمَّ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ، فَيَنْزِلُ كُلُّ مَنْزِلَةٍ الَّتِي اسْتَوْجَبَهَا ﴿فَرِيقٌ فِي النَّارِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] وَقِيلَ: هُوَ يَوْمُ الْحُكْمِ، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ سُمِّيَ بِهِ لِمَا يَخْتَصِمُ فِيهِ أَهْلُ الْمَذَاهِبِ، فَيَحْكُمُ فِيهِ بَيْنَ الْمُحِقِّ وَبَيْنَ الَّذِي كَانَ عَلَى الْبَاطِلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيتان ٣٩ و ٤٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾^(٩) [وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْكَذِبِينَ] جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ يُقَالُ لَهُمْ هَذَا فِي الْآخِرَةِ: أَنْ كِيدُوا حَتَّى تَنْجُوا بِأَنْفُسِكُمْ مِمَّا نَزَلَ بِكُمْ، أَيْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ حِيلٌ^(١٠) تَخْتَالُونَ بِهَا، فَافْعَلُوا، وَهُوَ حَرْفُ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ [يَذُلُّ]^(١١) عَلَى نَفْيِ نَفَاذِ الْمَكْرِ وَالْحِيلَةِ، لَيْسَ مَا عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا أَنَّهُمْ يَخْتَالُونَ، وَيَمْكُرُونَ بِأَنْوَاعِ الْخِدَاعِ وَالتَّمْويهَاتِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ قِيلَ لَكُمْ هَذَا فِي الدُّنْيَا [حِينَ]^(١٢) أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُعَارِضَهُمْ بِهَذَا، فَيَقُولُ لَهُمْ: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ بِقَتْلِي^(١٣) أَوْ إِخْرَاجِي مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِكُمْ كَمَا قَالَ هُوَذَا ﷺ: ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُون﴾ [هود: ٥٥]. فَعَجَزَهُمْ عَنْ ذَلِكَ يُظْهِرُ لَهُمْ [صَدَقَ]^(١٤) رِسَالَتِهِ وَحُجَّةَ بُرْهَانِهِ، إِذْ حَرَفَ الْإِغْرَاءَ مِنْ غَيْرِ أَعْوَانٍ كَانُوا لَهُ وَلَا جُنُودٍ مُجَنَّدَةٍ، بَلْ كَانَ وَحِيدًا فَرِيدًا بَيْنَ ظَهْرَانِي قَوْمٍ مُشْرِكِينَ، لَيْسَتْ هِمَّتُهُمْ إِلَّا إِطْفَاءُ هَذَا النَّوْرِ.

الآية ٤١ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾^(١٥) فَالْمُتَّقُونَ هُمُ الَّذِينَ اتَّقَوْا عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَرَأُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَقْلِبُوا نَازِكًا﴾ [التحریم: ٦] وَقَالَ: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقَدْ عَدَّابُ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] فَهَذَا هُوَ التَّقْوَى.

ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ التَّوْحِيدِ أَقْرَبُوا بِالْعَذَابِ، فَاجْتَهَدُوا فِي اتَّقَائِهِ، فَقِيلَ لَهُمْ: انْطَلِقُوا إِلَى ظِلَالٍ وَعُيُونٍ، وَأَهْلَ النَّارِ كَانُوا مُكْذِبِينَ بِالْعَذَابِ / ٦٢٢ - أ / فَقِيلَ لَهُمْ: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُتِبَ بِهِ تَكْذُوبُكُمْ﴾ [الآية: ٢٩] مِنَ الْعَذَابِ.

ثُمَّ أَخْبَرَنَا بِالْوَجْهِ الَّذِي يَقَعُ بِهِ الْإِثْقَاءُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] وَأَمَرَنَا بِالْإِثْتِصَابِ

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣٩/٨. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: الله تعالى، في م: في الآخرة حسب معاملتهم الله تعالى. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل: لهم، في م: فهم. (٨) في الأصل وم: حيل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) الباء ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

لِمُحَارَبَتِهِ، ثُمَّ عَلَّمَنَا وَجْهَ الْمُحَارَبَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا يَرْغَبَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعْ فَإِسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وقوله^(١): ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] وقوله^(٢): ﴿وَرَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آتَاكَ عَذَابُ الْكَارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] فَأَلْزَمْنَا الْفَرْعَ إِلَيْهِ، وَبَيَّنَّ أَنَّا لَا نَقْوَى عَلَى [مُحَارَبَةِ الشَّيْطَانِ]^(٣) إِلَّا بِالْإِنِّهَالِ إِلَيْهِ وَالْفَرْعِ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْإِتِّقَاءُ هَهُنَا مُنْصَرِّفًا إِلَى التَّصَدِيقِ خَاصَّةً لِأَنَّهُ ذَكَرَ الْإِتِّقَاءَ هَهُنَا مُقَابِلَ التَّكْذِيبِ فِي الْأَوَّلِينَ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مُنْصَرِّفًا إِلَى الْمُصَدِّقِينَ بِالْأَقْوَالِ وَالْمُوقِنِينَ بِالْأَعْمَالِ؛ فَالْمُتَّقِي هُوَ الَّذِي اتَّقَى إِسَاءَةَ صُحْبَةِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى، فَوَقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى شَرَّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مُجَازَاةً لَهُ، وَالْمُحْسِنُ هُوَ الَّذِي أَحْسَنَ صُحْبَةَ نِعَمِهِ، فَأَحْسَنَ اللَّهُ مُنْقَلَبَهُ، وَأَحْلَهُ بَدَارِ كَرَامَتِهِ فِي ظِلَالٍ وَعِیُونٍَ وَفَوَاكِهٍ، وَالْمُتَّقِي هُوَ الَّذِي وَقَى نَفْسَهُ عَنِ الْهَلَاكِ، فَوَقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْمُحْسِنُ هُوَ الَّذِي أَحْسَنَ إِلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ الَّذِي اسْتَعْمَلَهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى [فَأَحْسَنَ]^(٤) إِلَيْهِ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ مِنَ الظَّلَالِ وَالْعِیُونَ.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ فِي ظِلَالٍ، لِأَنَّ الظَّلَالَ مِمَّا تَرْغَبُ إِلَيْهِ الْأَنْفُسُ فِي الدُّنْيَا لِأَنَّهَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ أَدَى الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْمَطَرِ، وَهِيَ لَا تَحُولُ أَيْضًا [بَيْنَ]^(٥) أَدَى الرِّيحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَظِلَالُ الْأَشْجَارِ وَالْحِيطَانِ تَدْفَعُ أَدَى الْحَرِّ، وَظِلَالُ الْبُنْيَانِ تَدْفَعُ أَدَى الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْمَطَرِ، وَهِيَ لَا تَحُولُ أَيْضًا بَيْنَ الْمَرِيِّ وَالْأَشْيَاءِ عَنْ أَنْ يُدْرِكَ حَقَائِقُهَا، فَعُظِّمَتِ النِّعْمَةُ فِي الظَّلَالِ، وَوَقَعَتْ إِلَيْهَا الرِّغْبَةُ فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعِیُونٍَ﴾ وَقَالَ: ﴿وَقُلْ تَعَذَّرُوا﴾ ﴿وَمَا مَسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٣٠ و ٣١].

ثُمَّ الْأَنْفُسُ إِذَا أَوَتْ إِلَى الظَّلَالِ اسْتَهْتَتْ أَنْ تَتَمَتَّعَ بِهَ الْأَبْصَارُ، وَأَعْظَمُ مَا تَتَلَذَّذُ بِهِ الْأَبْصَارُ أَنْ يَكُونَ نَظَرُهَا إِلَى الْمِيَاءِ الْجَارِيَةِ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ فِي ظِلَالٍ وَعِیُونٍَ.

الآية ٤٢ وقوله تعالى: ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أَي فَوَاكِهَ أَيْضًا. فَأَخْبَرَ أَنَّ لَهُمْ فِيهَا مَا تَتَلَذَّذُ بِهِ الْأَبْصَارُ، وَتَتَمَتَّعُ بِهِ، وَفِيهَا مَا تُشْتَهِي أَنْفُسُهُمْ، وَفِيهَا مَا يَدْفَعُ عَنْ بَعْضِهِمُ الْأَدَى.

الآية ٤٣ وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ لَا تَبِعَةَ لَكُمْ مِنْ جِهَةِ السُّؤَالِ، وَلَا تَنْغِصَ، أَي لَا يُوْذِيهِمْ مَا يَأْكُلُونَ، وَيَشْرَبُونَ؛ فَالْمَنْعَى هُوَ الَّذِي لَا تَبِعَةَ عَلَى صَاحِبِهِ، وَلَا تَنْغِصَ فِيهِ.

الآية ٤٤ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فَسَمَّى الْمُتَّقِي مُحْسِنًا لِأَنَّهُ بَدَأَ بِذِكْرِ الْمُتَّقِينَ، وَذَكَرَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ جُزُوا ذَلِكَ بِإِحْسَانِهِمْ، فَيَكُونُ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْإِتِّقَاءَ مَتَى ذُكِرَ عَلَى الْإِنْفِرَادِ يَقْتَضِي إِيْتَابَ الْمُحْسِنِينَ وَالْإِتِّقَاءَ عَنِ الْمَهَالِكِ.

الآيات ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمُكَذِّبِينَ، فَقَالَ: ﴿وَبَلِّغْهُمْ إِلَيْنَا نَجْزِي الْمُكَذِّبِينَ﴾^(٦) ﴿كُلُوا وَتَشَبَّهُوا قِلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ [وَبَلِّغْهُمْ إِلَيْنَا نَجْزِي الْمُكَذِّبِينَ]^(٧) فَهَذَا بِالظَّاهِرِ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ وَعِيدٌ، وَهُوَ أَنَّ تَمَتُّعَكُمْ بِالْأَكْلِ وَغَيْرِهِ الَّذِي يَمْنَعُكُمْ عَنِ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ قَلِيلٌ؛ عَنْ سَرِيعِ تَفَارُقِهِ، وَتَصْصِيرِهِ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْمُجْرِمَ، هُوَ الْوَقَائِبُ فِي الْمَعَاصِي.

الآيتان ٤٨ و ٤٩ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْرَأُ قَلِيلٌ لَكُمْ أَذْكُمَا لَا يَرْكَوُونَ﴾ [وَبَلِّغْهُمْ إِلَيْنَا نَجْزِي الْمُكَذِّبِينَ]^(٨) أَي إِذَا قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ ﴿أَذْكُمَا﴾ أَي اخْضَعُوا، وَاسْتَسْلِمُوا لِلَّهِ تَعَالَى، امْتَنَعُوا عَنْ ذَلِكَ اسْتِكْبَارًا مِنْهُمْ عَلَى الرِّسْلِ وَإِعْرَاضًا عَنِ النَّظَرِ فِي حُجَجِ اللَّهِ تَعَالَى.

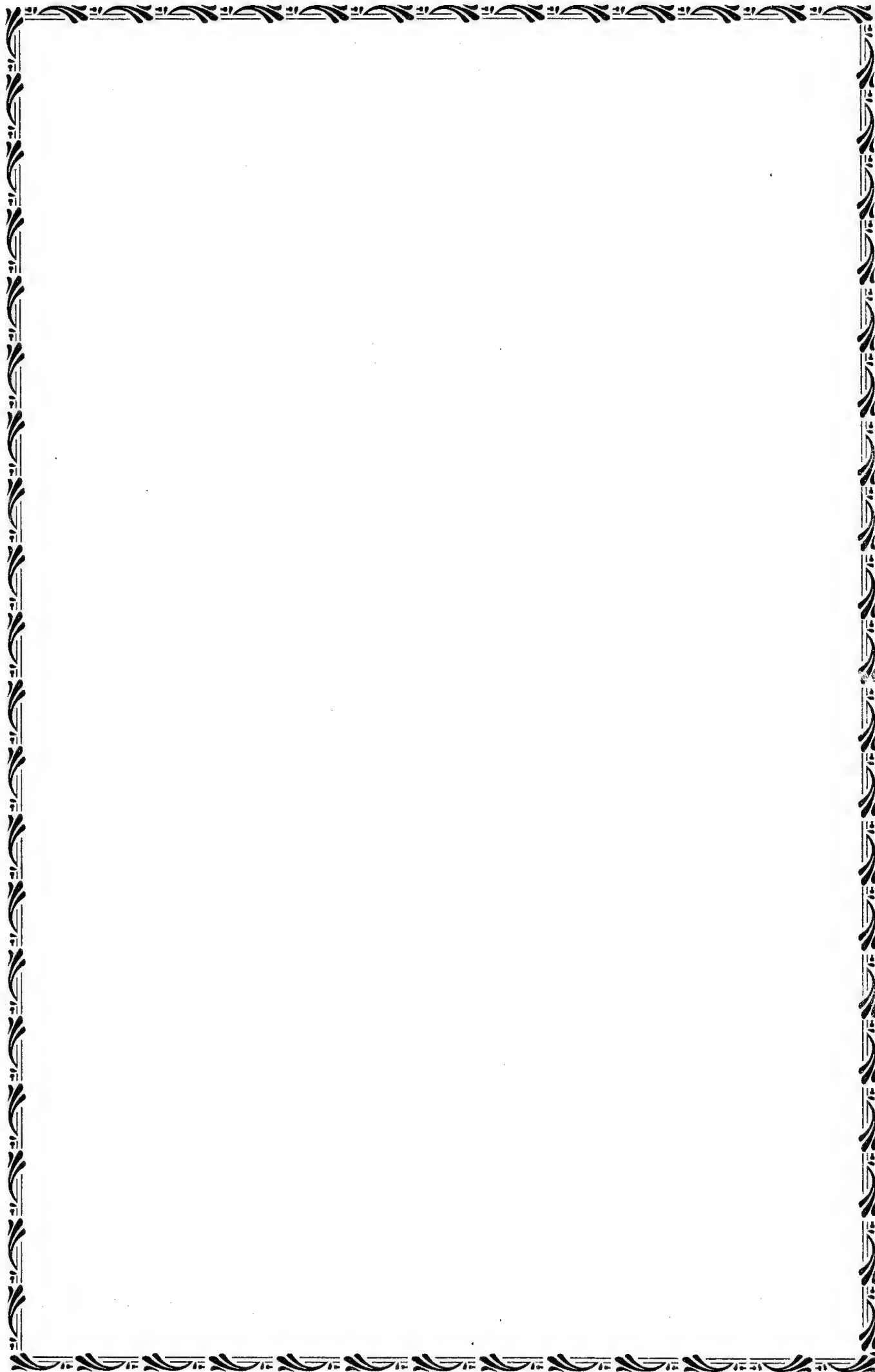
الآية ٥٠ وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أَي فَبِأَيِّ حَدِيثٍ يُصَدِّقُونَ بَعْدَ حَدِيثِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي لَا حَدِيثَ أَصْدَقُ مِنْهُ وَأَقْوَى فِي الدَّلَالَةِ؟

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ اللَّهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مُحَارَبَتِهِ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وجائز أن يكونَ هذا على تَسْفِيهِ عقولِهِمْ وأَحْلَامِهِمْ، وهو أَنَّهُمْ يَمْتَنِعُونَ عَنِ التَّصَدِيقِ بِحَدِيثِ اللَّهِ تَعَالَى، إِذْ لَا حَدِيثَ أَصْدَقَ مِنْهُ، ثُمَّ يُصَدِّقُونَ الْأَحَادِيثَ الْكَاذِبَةَ وَالْأَبَاطِيلَ الْمُرْخَرِفَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ [وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ] ^(١).



(١) من م، ساقطة من الأصل.



سورة النبأ

[وهي مكية^(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و ٢

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾؟ اختلف في التساؤل:

فمنهم من ذكر أن التساؤل كان عن أمر النبي ﷺ سألوا عن حاله: أهو نبي أم ليس بنبي؟ ومنهم من ذكر أن التساؤل كان عن القرآن أنه من الله تعالى؟ ويتساءلون في ما بينهم: هل تقدرون على إتيان مثله أم لا؟ وجائز أن يكون التساؤل عن أمر البعث وعن التوحيد كما قال الله تعالى خيراً عنهم: ﴿أَجْمَلُ آلَاءَ اللَّهِ وَحَدَّثًا﴾؟ [ص: ٥].

ثم جائز أن يكون هذا السؤال من أهل الكفر؛ سأل بعضهم بعضاً، واختلفوا فيه، ولم يحصلوا من اختلافهم على إصابة الحق.

الآية ٣

[وهو قوله تعالى: ﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْتَلَفُونَ﴾]^(٢).

الآيتان ٤ و ٥

الآية ٤: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾]^(٣) ولو كان فيهم مُصَدِّقٌ لكان وَقَعَ له العلم في ذلك الوقت، فلا يحتاج إلى أن يُعْلَمَ^(٤)، وَيَسْتَعْلَمَ.

فإن كان السؤال عن حال الرسول ﷺ فوجه اختلافهم أن بعضهم يزعم أنه شاعر، وقال بعضهم: هو ساحر، وقال بعضهم: مُفْتَرٍ كَذَّابٌ، وادَّعى بعضهم أنه مجنون.

وجائز^(٥) أن يكون السؤال من الكفرة للمؤمنين، وإن كان على هذا ما ذكره أهل التفسير؛ فهم^(٦) بين مُصَدِّقٍ ومُكَذِّبٍ؛ يُرَادُ بالمُكَذِّبِ الذين صدّوا عنهم السؤال، ويُرَادُ بالمُصَدِّقِ أهل الإسلام الذين سئلوا.

ثم لا يجوز لأحدٍ تحصيل السؤال على جهة واحدة والقطع عليه بالتوفيق الموجب للعلم.

الآية ٦

ثم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ جواب عما سبق من المسائل: فإذا كان السائل عن أمر الرسالة فحقه أن يُحْمَلَ على جهة غير الجهة التي يُحْمَلُ^(٧) عليها إذا صرّف التساؤل إلى أمر البعث وإلى أمر التوحيد أو القرآن.

والأصل فيه أن الله تعالى بما ذكر من مهاد الأرض وخلق الأزواج ذكر عبادة عظيم يعيى وكثرة إحسانه إليهم ليستأدي منهم الشكر. وإذا وقعت لهم الحاجة إلى الشكر احتاجوا إلى من يعرفهم بما به يشكر الله تعالى، وكيف يؤدى شكره، إذ لا يعرف في كل نعمة وجه شكرها إلا بالتوفيق، فيضطرهم ذلك إلى من يبين لهم، واحتاجوا إلى من يعرفهم الوعد والعيد محل الشكر^(٨) ومحل الكفر^(٩) ومحل الولاية^(١٠) ومحل المعادة^(١١)؛ إذ وجدوا هذه الدنيا تمُّ على الأولياء وعلى الأعداء على حالة واحدة، فاحتاجوا إلى من يعرفهم الوعد والعيد، وأوجب ما ذكرنا القول بالبعث ليظهر به منزلة الشكور والكفور.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يعلم. (٥) في الأصل وم: وحال. (٦) في الأصل وم: فهو. (٧) في الأصل وم: يحتمل. (٨) في الأصل وم: الشكور. (٩) في الأصل وم: الكفور. (١٠) في الأصل وم: الوالي. (١١) في الأصل وم: المعادي.

وفي ذكر هذه النعم أيضاً دلالة الوحدانية لأن الله تعالى مهّد الأرض، فجعلها ممتعة للخلق، وأخرج منها ما يتعيشون به، وجعل / ٦٢٢ - ب/ سبب الإخراج ما يتزل من السماء من القطر، فجعل منافع الأرض متصلة بمنافع السماء.

فلو لم يكن مدبرهما واحداً لانقطع الاتصال، ثم لو أراد أحد أن يعرف المعنى الذي يقع له إحياء الأشياء بالماء لم يصل إليه، ولو أرادوا أن يتداركوا الوجه الذي صلح هذا الطعام أن يكون سبباً لدفع الحاجات وقطع الشهوات لم يقفوا عليه، فيكون في ما ذكرنا إزالة الشبهة والشكوك التي تعتريهم في الأمور الخارجة عن تدبيرهم وقواهم.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكُونُونَ﴾ ﴿كَلَّا سَيَكُونُونَ﴾ فمنهم من ذكر [أن] (١) هذا وعيد، وقد ذكرنا أن حرف الوعيد مما يكرره العرب في ما يبنه للتأكيد [كما قال] (٢): ﴿هَيَاتَ هَيَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦] وقال: (٣) ﴿أَوَلَيْكَ فَالُوكَ﴾ ﴿ثُمَّ أَوَلَيْكَ فَالُوكَ﴾ [القيامة: ٣٤ و ٣٥].

وجائز أن يكون قوله: ﴿كَلَّا سَيَكُونُونَ﴾ على علم دلالة، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكُونُونَ﴾ على علم المشاهدة والعيان.

الآية ٧ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ يَهْدًا﴾ أي بساطاً ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ذكر أن الأرض لما خلقت ما بدت لأهلها، فأساها الله تعالى بالجبال لطفاً منه، لا أن جعلها سبباً للإرساء.

الآ ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَاكَ مِنَ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ إلى ١٠٧] فقد جعلناها (٤) في ذلك الوقت مستمسكة ثابتة مستقرة بدون الجبال، فثبت أنها ليست بسبب الإرساء في التحقيق. ويكون فيه تعريف الخلق وجوه الجبل في الأمور إذا تعدد عليهم الوصول إليها.

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ قيل: ألواناً، فيكون في هذا إبطال [الحكم بقوله القافئة] (٥) لأنهم يستدلون بالمشابهة في الألوان، ويحكمون بها. ولو كان الأمر على ما قدرنا لارتفع الاختلاف في الألوان، فيكون الخلق كلهم على لون واحد.

وقيل: ﴿أَزْوَاجًا﴾ فرقا شتى ليعرف كل منهم عنصره ومُنْتَهَى أصله. وقيل: ﴿أَزْوَاجًا﴾ أي جعل لكل أحد شكلاً من جنسه.

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ قيل: السبات التمدد، وقيل: السبات النوم الذي لا حركة فيه. ولهذا قيل للذي شبيهة بالميت: منبوث، وقيل: السبات الراحة، ولذلك سمي [يوم السبت سبتاً] (٦) لأنه يوم راحة وترك العمل في بني إسرائيل.

ثم في إنشاء النوم دليل سلطانيه ودخول الخلق بأجمعهم تحت تدبيره؛ إذ لا يتهيأ لأحد الاختيار من النوم حتى لا يفتريه، بل يفهم الجبارة، فيذلهم، ولا يمكنهم الخلاص منه بالجهد والأسباب.

ثم النوم من أقلل الأحمال وأشدّها، ثم إذا زایل الإنسان، وعاد المرء إلى حال اليقظة، وجد في نفسه خفة وراحة، ومن شأن هذا الإنسان أنه إذا حمل الحمل الثقيل مسه من ذلك فتور وكلال، لا يزول عنه ساعة ما يضع الحمل عن نفسه، بل يبقى ذلك الكلال فيه إلى مدة. فمن تدبر في أمر النوم دلل على عظم شأيه وعجائب تدبيره.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِبَاسًا﴾ فهذا اللباس لباس الأعين، لا غير. ألا ترى أنه لا يستغنى بلباس الليل عما أخذ عليه من اللباس للصلاة؟ ولا يعمل لباس الليل عما عمل اللباس المعروف في دفع أذى البرد والحر؟

وقال بعضهم: اللباس السكن كما قال في آية أخرى: ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦] فكان الذي حملهم على هذا التأويل، هو أن تمام السكن والراحة يقع بالنوم، فصرفوه إليه.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: كما يقال. (٣) في الأصل وم: ر. (٤) في الأصل وم: جعلنا. (٥) في الأصل وم: الحكم يقول القاف. (٦) في الأصل وم: السبت.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَنَاسِكًا﴾ أي يَتَعَيَّشُ فِيهِ لَا أَنْ يَكُونَ نَفْسُهُ مَعَاشًا كَمَا سَمَاءُ ﴿مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧...]. لِمَا يُبْصِرُ فِيهِ لَا أَنَّهُ فِي نَفْسِهِ مُبْصِرٌ^(١).

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿وَبَلَّغْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي السموات، فَذَكَّرَهُمْ هَذَا لِيُنَبِّهَهُمْ إِلَى قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، فَيَعْرِفُوا أَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّ رَيْكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧...]. قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ فَكَانَ السَّرَاجُ، هُوَ الشَّمْسُ ههنا، جَعَلَهَا تَتَوَهَّجُ، وَتَتَلَالَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّ الْمُعْصِرَاتِ هِيَ السَّحَابُ الَّتِي أَنْشَأَ فِيهَا الْقَطَرُ؛ يَقَالُ لِلدَّجَارَةِ الَّتِي دَنَتْ حَيْضَتُهَا: مُعْصِرَةٌ، فَشَبَّهَ السَّحَابَ بِمُعَاوِجِ الْجَوَارِي، وَقِيلَ: سُمِّيَ السَّحَابُ مُعْصِرًا لِأَنَّهُ يَعْصِرُ الْمَطَرَ، وَقِيلَ: ذَوَاتُ الْأَعَاوِصِ، يَعْنِي الرِّيَّاحُ كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا بَنَاهَا إِعْصَارٌ﴾ [البقرة: ٢٦٦] أَيْ رِيحٌ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: هِيَ السَّمَوَاتُ، وَقَالَ الزُّجَّاجُ: الْمُعْصِرُ، هُوَ الَّذِي قَدْ أَتَى وَقْتُ إِسْرَالِ الْقَطْرِ مِنْهُ كَمَا يُقَالُ: مُجْزِرٌ لِمَا أَتَى وَقْتُ جِزَارِهِ^(٢).

ثُمَّ فِي إِنْزَالِ الْمَاءِ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ تَذْكِيرُ النَّعْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ، وَكُلُّ وَجْهِ مِنْ هَذِهِ الْأَوْجُو الثَّلَاثَةِ يَوْجِبُ الْقَوْلَ بِالْبَعْبِ.

فَأَمَّا وَجْهُ تَذْكِيرِ النَّعْمِ، وَهُوَ أَنَّ الْقَطَرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مُتَتَابِعًا، ثُمَّ اللَّهُ تَعَالَى بِلَطْفِهِ، يَمْنَعُ اتِّصَالَ بَعْضٍ بِبَعْضٍ وَالتَّصَاقَهُ، وَيُرْسِلُ كُلَّ قَطْرَةٍ إِلَى الْأَرْضِ بِحَيَالِهَا، وَيُنْزِلُ بَعْضَهَا عَلَى إِثْرِ بَعْضٍ، لِيُسْتَفْعَ بِهِ^(٣). وَلَوْ التَّصَقَّ بَعْضُهَا، وَاتَّصَلَ لَمْ يَنْفَعْ لَهَا شَيْءٌ، وَكَانَتْ تَصِيرُ سَبَبًا لِلتَّعْلِيلِ وَالْإِهْلَاكِ. فَبِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ أَنْزَلَهَا مُتَتَابِعَةً لِيُسْتَفْعَ بِهَا الْخَلْقُ، وَيَتَشَتَّعُوا بِهَا. وَفِيهِ تَذْكِيرُ الْقُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ لِأَنَّهُ أَنْشَأَ السَّحَابَ الثَّقَالَ، وَسَاقَهُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَدَّرَ أَنْ يُرْسَلَ الْقَطَرُ إِلَيْهِ^(٤).

وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ الْإِرْسَالَ لَيْسَ مِنْ فِعْلِ السَّحَابِ، لِأَنَّ السَّحَابَ يَمْتَنِعُ عَنْ إِسْرَالِ الْقَطْرِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي أَمَرَ بِإِرْسَالِ الْقَطْرِ فِيهِ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ [مِنْ] السَّحَابِ نَفْسِهِ لَكَانَ أَيْنَ مَا مَرَّ يَعْمَلُ فِي الْإِرْسَالِ، وَلَوْ كَانَ ذَا ثَقْبٍ لَكَانَتْ الرِّيحُ مَتَى دَخَلَتْ فِي الثَّقْبِ أَرْسَلَ السَّحَابُ مَا أَنْشَأَ فِيهِ مِنَ الْقَطْرِ.

فَإِذَا لَمْ يَوْجَدْ ذَلِكَ بَانَ [أَنَّ] الله تَعَالَى بِحُكْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَلَطْفِهِ، هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ فِيهِ ذَلِكَ، وَدَبَّرَ إِسْرَالَهُ لَا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَمَلُ السَّحَابِ. وَلَوْ أَرَادَ أَحَدٌ مِنْ حُكَمَاءِ الْأَرْضِ أَنْ يَغْرِثَ الْمَغْنَى الَّذِي لَهُ صَلَاحُ ذَلِكَ السَّحَابِ أَنْ يَسْتَمْسِكَ فِيهِ الْقَطَرُ، وَلَا يَسْتَمْسِكَ فِي مَكَانٍ آخَرَ، لَمْ يَقِفْ عَلَيْهِ. فَذَكَّرَهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ حُكْمَتَهُ لَيْسَتْ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْتَهِي إِلَيْهِ حُكْمُ الْبَشَرِ [وَقُدْرَتُهُ غَيْرُ] مُقَدَّرَةٍ بِقَوَى الْبَشَرِ، بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧...].

وَفِيهِ أَنَّ تَدْبِيرَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْهَوَيَّ يَرْجِعُ إِلَى الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ؛ إِذْ لَا يَنْتَهِي لِأَحَدٍ أَنْ يَمْنَعَ الْقَطَرَ الْمُرْسَلَ مِنَ السَّمَاءِ عَنِ الْوَصُولِ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي أَمَرَ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهِ. وَالتَّجَاجُ الْقَطْرِ الْمُتَتَابِعُ بَعْضُهُ عَلَى إِثْرِ بَعْضٍ، وَالتَّجُّ الصَّبُّ وَالْإِرَاقَةُ.

الآية ١٥ وقوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّ مِنْهَا حَبًا وَإِنَّا لَهُ جَنَّةٌ﴾ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَكَرَ الْحَبِّ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ مِنْ زِرَاعَةِ مَا يَكُونُ لَهُ الْحَبُّ، فَذِكْرُهُ لِمَا إِلَيْهِ يَنْتَهِي الْقَضْدُ، وَيَكُونُ ذِكْرُ النَّبَاتِ مُنْصَرِفًا إِلَى مَا [لَا] حَبُّ لَهُ لِأَنَّ الْقَضْدَ مِنْ زِرَاعَتِهِ النَّبَاتُ، لَا غَيْرُ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مُنْصَرِفًا إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ لِأَنَّ الَّذِي فِيهِ النَّبَاتُ أَيْضًا.

الآية ١٦ وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ قَدْ ذَكَّرْنَا أَنَّ الْجَنَّةَ، هِيَ اسْمُ الْمَكَانِ الْمُتَلَفِّفِ بِالْأَشْجَارِ، وَهِيَ الَّتِي اجْتَمَعَتْ فِيهِ الْأَشْجَارُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مُبْصِرًا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: جَوَاء. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: هُنَالِكَ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَا قُدْرَتَهُ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

الآية ١٧

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ فالمِيقَاتُ الميعادُ أي وَعِدَ فِيهِ^(١) جَمْعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ صَالِحُهُمْ وَطَالِحُهُمْ صَغِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ، وَسُمِّيَ يَوْمُ الْفُضْلِ لِمَا يُفْضَلُ فِيهِ بَيْنَ الْأَوْلِيَاءِ وَبَيْنَ الْأَعْدَاءِ، وَيَتَبَيَّنُ فِيهِ^(٢) مَثْوَى الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا.

واليوم ليس يَوْمُ فَضْلٍ فِي الظَّاهِرِ لِأَنَّ الدُّنْيَا تَمُرُّ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنْ كَانَ قَدْ فُضِّلَ بَيْنَهُمَا بِالتَّوْفِيقِ وَالْخِذْلَانِ. وَقِيلَ: يَوْمُ الْفُضْلِ يَوْمُ الْحُكْمِ.

الآية ١٨

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ﴾ وقد ذَكَرْنَاهُ فِي مَا تَقَدَّمَ.

وقوله تعالى: ﴿تَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ قِيلَ: أُمَّةٌ [فَأُمَّةٌ]^(٣) تَأْتِي أُمَّةٌ كُلُّ رَسُولٍ بِحِجَالِهَا. وَقِيلَ: يُقَرَّنُ كُلُّ أَحَدٍ بِشِيعَتِهِ عَلَى مَا يَذْكُرُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ١٧]. / ٦٢٣ - ١/

الآية ١٩

وقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّهَا تَفْتَحُ لِإِنزَالِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَتَنْشَقُّ، وَتَنْفَطِرُ لِشِدَّةِ هَوْلِ الْقِيَامَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الشَّقَّ وَالْفَتْحَ وَالْإِنْفِطَارَ كُلُّهُ وَاحِدٌ؛ فَذَكَرَ الْفَتْحَ لِشِدَّةِ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

وجائز أن يكون الكلُّ يُقْتَضَى مَعْنَى وَاحِدًا، لِأَنَّهُ فِي مَا ذَكَرَ، فِيهِ نُزُولُ الْمَلَائِكَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ وَتُزِيلُ أَلُكَلِكُهَا تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

الآية ٢٠

وقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ شَبَّهَهَا بِالسَّرَابِ لِمَا أَنَّهَا إِذَا سُيِّرَتْ لَمْ تَوْجَدْ فِي الْمَكَانِ الَّذِي رَأَاهَا فِيهِ النَّاطِرُ كَالسَّرَابِ الَّذِي يُرَى مِنْ بُعْدٍ، إِذَا رَأَاهُ النَّاطِرُ، فَاتَاهُ، لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْجِبَالُ فِي الْحَقِيقَةِ سَرَابًا لِأَنَّ السَّرَابَ هُوَ الَّذِي يُتْرَأَى مِنَ الْبُعْدِ أَنَّهُ شَيْءٌ [وَهُوَ]^(٤) لَا شَيْءَ فِي الْحَقِيقَةِ. وَأَمَّا الْجِبَالُ، وَإِنْ سُيِّرَتْ، فَهِيَ فِي نَفْسِهَا شَيْءٌ.

الآية ٢١

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ مِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّهَا كَانَتْ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهَا تُرْصَدُ عَلَى مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، فَتُعَذَّبُهُ، وَلَا يُمَكِّنُهُ الْفِرَارُ عَنْهَا. وَقِيلَ: تُرْصَدُ بِشَهيقِهَا وَزَفِيرِهَا مَنْ اسْتَوْجَبَ الْعَذَابَ، فَتُعَذَّبُهُ، وَتُقَرَّبُ طَوَاعِيَّتُهَا لَهُ وَسُخْطُهَا عَلَى مَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ. وَقِيلَ: مَعْنَى^(٥) الْمِرْصَادِ أَنْ يَكُونَ مَمَرٌ كُلُّ كَافِرٍ وَمُؤْمِنٍ عَلَيْهَا، لِكُنْ الْكَافِرِ يَقَعُ فِيهَا، وَالْمُؤْمِنِ يَنْجُو مِنْهَا.

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ مَنَاقِبٌ﴾ أَي مَرْجِعًا، وَالطَّاعِي، هُوَ الَّذِي تَعَدَّى حَدَّ اللَّهِ تَعَالَى، وَضَيَّعَ حَقْقَهُ، وَكَفَرَ بِأَنْعُمِهِ.

الآية ٢٣

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابٌ﴾ ذَكَرَ الْأَحْقَابَ، وَلَمْ يُبَيِّنْ مُنْتَهَى الْعَدَدِ، وَلَوْ كَانَ اللَّبْتُ فِيهَا يَرْجِعُ إِلَى أَمَدٍ فِي حَقِّ الْكَفَرَةِ لَكَانَ يَأْتِي عَلَيْهِ الْبَيَانُ عَلَى مُنْتَهَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَقَوْلِهِ^(٦): ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] وَقَوْلِهِ^(٧): ﴿تَسْرِعُ الْمَلَكُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] فَلَمَّا لَمْ يُبَيِّنْ ثَبَتَ أَنَّهُ لَا يَرْجِعُ إِلَى حَدٍّ. وَإِلَى هَذَا يَذْهَبُ الْحَسَنُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ يَلْبَثُونَ ثَلَاثَةَ أَحْقَابٍ، وَالْحَقْبُ ثَمَانُونَ سَنَةً، يُعَذَّبُونَ بِلَوْنٍ آخَرَ مِنَ الْعَذَابِ بَعْدَ ذَلِكَ، لَا أَنْ يَنْقَطِعَ عَنْهُمْ الْعَذَابُ بَعْدَ مُضِيِّ الْأَحْقَابِ، وَالْأَحْقَابُ هِيَ النِّهَايَةُ فِي الْأَوْقَاتِ، فَذَكَرَ النِّهَايَةَ فِي الْأَوْقَاتِ وَمَا يَكْبُرُ فِيهَا كَمَا قَالَ: ﴿خَلْقَ بَيْنَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧] لِأَنَّهَا هُمَا اللَّتَانِ عُرِفَتَا بِالدَّوامِ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ مَعْنَى الدَّوامِ. فَكَذَلِكَ ذَكَرَ مَا هِيَ النِّهَايَةُ مِنَ الْأَوْقَاتِ، تُعْرِثُ أَنَّهُمْ أَبَدًا فِيهَا يَقِيمُونَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهَا. (٣) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مَعْنَاهُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: بِقَوْلِهِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ.

الآية ٢٤ وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْبَرْدَ، هُوَ النَّوْمُ، وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّ مَعْنَاهُ الرُّوحُ وَالرَّاحَةُ، قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ يَنْقُطِعُ عَنْهُمْ الْحَرُّ ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ يَنْقُطِعُ عَنْهُمْ.

الآية ٢٥ [وقوله تعالى:] ^(١) ﴿إِلَّا حَيْمًا وَغَشَاقًا﴾ فَالْحَيْمُ، هُوَ الْمَاءُ الَّذِي انْتَهَى فِي الْحَرِّ نَهَائَتُهُ، الْغَشَاقُ الزَّمْهَرِيرُ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مَا يَنْفَصِلُ عَنْ أَبْدَانِهِمْ مِنَ الصَّدِيدِ وَالرَّهْمَةِ، وَهُوَ الْوَدَكُ، فَمَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ الَّذِي يُطْعَمُ ^(٢) بِهِ أَهْلُ النَّارِ ^(٣) يُعَذِّبُهُمْ، وَلَا يَجِدُونَ بِهِ مُسْتَعْتَمًا، بَلْ يَصِيرُ ذَلِكَ سَبَبَ إِهْلَاكِهِمْ لَا أَنْ يَقَعَ ^(٤) لَهُمْ بِذَلِكَ الْبَرْدُ رَاحَةً [وَشِفَاءً لَهُمْ] ^(٥) كَمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: ٧٤] [بَلْ يَبْقَوْنَ] ^(٦) أَبَدًا فِي الْهَلَاكِ؛ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ، فَيَسْتَرْحَوْنَ، وَلَا يَنْقُطِعُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ، فَيَتَلَذَّثُوا ^(٧) بِالْحَيَاةِ.

وَقِيلَ: الْغَشَاقُ لَوْنٌ مِنَ الْعَذَابِ، لَمْ يُطْلِعِ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ [عَلَيْهِ] ^(٨).

الآية ٢٦ وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً وَجَاقًا﴾ أَيِ وَاثِقَ جَزَائِهِمْ أَعْمَالَهُمْ، لَا يُنْقَصُونَ، وَلَا يُزَادُونَ عَلَى قَدْرِ مَا اسْتَوْجَبُوا، بَلْ يُجْزَوْنَ مِثْلَ أَعْمَالِهِمْ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ أَنَّ جَزَاءَهُمْ وَاقِفٌ أَعْمَالَهُمْ فِي الْحُبِّ.

الآية ٢٧ وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ كَأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى حَقِيقَةِ الرَّجَاءِ، أَيِ لَمْ يَكُونُوا يَرْجُونَ الثَّوَابَ.

وَالْوَجْهُ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا، لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ وَلَا بِالْجَزَاءِ وَالْعَذَابِ حَتَّى يَخَافُوا الْعِقَابَ وَيَرْجُوا الثَّوَابَ.

فَإِنْ حَمَلْتُهُ عَلَى الْخَوْفِ، فَهُمْ لَمْ يَخَافُوهُ لِمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَكَذَلِكَ إِنْ حَمَلْتُهُ عَلَى حَقِيقَةِ الرَّجَاءِ، فَهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَرْجُونَ لِمَا كَتَبُوا بِهِ.

الآية ٢٨ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَّابًا﴾ فَالْكَذَّابُ وَالتَّكْذِيبُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَاحِدٌ، وَالْآيَاتُ: جَائِزٌ أَنْ يُرَادَ بِالْآيَاتِ آيَاتُ الْبَعْثِ، وَيُرَادَ بِهَا آيَاتُ الْوَحْدَانِيَّةِ وَآيَاتُ الرِّسَالَةِ وَنَحْوُهَا.

الآية ٢٩ وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْإِحْصَاءُ وَالْكِتَابُ وَاحِدًا، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ أَرِيدَ بِالْإِحْصَاءِ مَا أُثْبِتَ فِي الْكِتَابِ: ﴿لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

الآية ٣٠ وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ فَالزِّيَادَةُ فِي الْعَذَابِ هِيَ ^(٩) دَوَامُهُ وَتَقَاوُؤُهُ، لَا أَنْ يُرَادَ عَلَى الْقَدْرِ الَّذِي كَانَ أَعْدَّ لَهُمُ مِنَ الْعَذَابِ، لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مِثْلَهُ ^(١٠). فَإِذَا كَانَ الَّذِي عَذَّبُوا قِبْلَهُ جَزَاءً لَمْ يَجْزَ أَنْ يُزَادَا عَلَيْهِ، فَثَبِتَ أَنَّ الزِّيَادَةَ فِي الْعَذَابِ الدَّوَامُ وَالْبَقَاءُ.

وبهذا قَالَ أَصْحَابُنَا فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ [التوبة: ١٢٥] وَفِي كُلِّ مَا ذُكِرَ ^(١١) مِنَ الزِّيَادَةِ أَنَّهُ عَلَى الثَّبَاتِ وَالِدَّوَامِ عَلَيْهِ، لَا أَنَّهُ يَزِيدُ، وَيَنْقُصُ.

الآية ٣١ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَنِينَ مَفَازًا﴾ أَيِ مَفَازًا عَنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي الطَّاعِينَ.

الآية ٣٢ وقوله تعالى: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ فَالْحَدَائِقُ هِيَ الْأَمَاكِنُ الَّتِي أَحَاطَتْ بِالشَّجَارِ بِأَطْرَافِهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْنَابًا﴾ ظَاهِرٌ. وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّهُمْ وَعِدُوا فِي الْآخِرَةِ كُلِّ مَا يَقَعُ لَهُمُ الرِّغْبَةُ فِي الدُّنْيَا.

ثُمَّ الْأَصْلُ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ عَلَى إِثْرِ التَّسَاوُلِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [النَّحْلُ الْعَلِيطِيرُ] [الْآيَاتَانِ: ٢٠١] فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى السُّؤَالِ مَا اغْتَرَضَ لَهُمْ مِنَ الشُّبُهَةِ أَوْ خَطَرَ بِإِلَهُمُ، فَسَالُوا، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ، وَتَزُولَ عَنْهُمْ الشُّبُهَةُ، فَذَكَرَهُمْ عَقْلُ نَعِيمِهِ وَعَجَائِبُ تَدْبِيرِهِ وَقُوَّةَ وَسُلْطَانَهُ، وَوَعَدَ أَنْ مَنْ أَمْعَنَ النَّظَرَ فِيهَا دَلَّهْمُ ذَلِكَ عَلَى بَغْيِهِمْ وَإِزَاحَةِ الْإِشْكَالِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ينقطع. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: لا. (٤) من م، في الأصل: يقطع. (٥) في الأصل وم: وشفاءهم. (٦) في الأصل وم: فيبقون. (٧) في الأصل وم: فيتلذذون. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: هو. (١٠) في الأصل وم: مثلها. (١١) في الأصل وم: ذكرت.

عنهم بقوله: ﴿كَلَّا سَيَكُونُونَ﴾ [الآيتان: ٥٤ و٥٥] وَيَبْنَوْنَ مَابَ مِنْ اسْتِقَامَ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَسَلَّكَ سَبِيلَهُ، وَأَخْبَرَ أَنْ مَنْ لَمْ يُغْنِ النَّظَرَ فِيهَا، وَلَمْ يُعْطِ التَّصَفَّةَ مِنْ نَفْسِهِ، وَضَيَّعَهَا، فَمَصِيرُهُ إِلَى مَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْسَادًا﴾ [الآيتان: ٢١ و٢٢] وَسَيَعْلَمُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿كَلَّا سَيَكُونُونَ﴾ [الآيتان: ٥٤ و٥٥].

الآية ٣٢ وقوله تعالى: ﴿وَكَايِبَ آرَابًا﴾ قيل: الكاعب هي التي تكعب نذياها، وذلك حين تبلغ أن تحيض، وهي نامد، وهي أشهى ما يكون إلى الرجال. والأترا ب المستويات في السن. ففي هذا إنباء أنهم يكن أبداً على سن واحد، لا يتغيرن عن تلك الحال، ولا يهرمن.

الآية ٣٣ وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا دَهَابًا﴾ قيل: مَلَان، وقيل: صانياً، وقيل: مُتَنَابِعاً. فَوَضَعَهُ بِالْمَلَانِ لِيُعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ الشَّرَابَ، لَا يَنْقُصُ مَا دَامُوا يَشْرَبُونَ خِلَافاً لِمَا عَلَيْهِ شَرَابُ أَهْلِ الدُّنْيَا. وَمَنْ حَمَلَهُ عَلَى الصَّفَاءِ فَمَغْنَاهُ: أَنَّهُ صَافٍ مِنَ الْآفَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ^(١) التي تكون في شراب أهل الدنيا من التضديع وإذهاب العقل وغير ذلك.

وَمَنْ حَمَلَهُ عَلَى التَّنَائُعِ فَمَغْنَاهُ: أَنَّ ذَلِكَ الشَّرَابَ، لَا يَنْقَطِعُ، وَلَا يَنْقُذُ، مَا دَامُوا فِي شَرِبِهِ، بَلْ يَتَنَائِعُ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَخْذُ فِيهِمْ حَالاً، يَمْنَعُهُمْ مِنَ الشُّرْبِ مِنَ السُّكْرِ وَغَيْرِهِ، فَيَمْتَنِعُوا عَنْ شَرِبِهِ خِلَافاً لَشَرَابِ أَهْلِ الدُّنْيَا. وَرَوَى عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلِبِ أَنَّهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا اسْتَحَشْنَا السَّاقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ قُلْنَا: دَاهِقْ لَنَا، أَيِ تَابِعْ لَنَا.

الآية ٣٤ وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ أي لا يسمعون فيها ما يحق أن يلغى، بل يسمعون فيها كل خير. والذي يحق أن يلغى ما ذكروا مِنَ الْخُلْفِ/٢٢٣ - ب/ والباطل والكذب، فلا يسمعون شيئاً من ذلك كما يسمع في أهلها في الدنيا إذا شربوها.

وقوله تعالى: ﴿كِذَّابًا﴾ [قرئ بالتخفيف؛ فهو إن قرئ بالتخفيف، فهو من] الكذب أي لا يكذبون، وإن قرئ بالتشديد فهو من التكذيب، أي لا يكذبون بعضهم بعضاً كما يوجد في شراب أهل الدنيا. وقوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ في الجنة.

ثم قوله تعالى: ﴿كِذَّابًا﴾ قرأ بعضهم بالتخفيف في الموضعين: ههنا وفي ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ [الآية: ٢٨] وقرأ [بعضهم]^(٢) بالتشديد في الموضعين، وقرأ بعض القراء بالتشديد في الأول وبالتخفيف في الثاني^(٤). وعن الكسائي أنه قال: بالتخفيف لغة مضر، وبالتشديد لغة يمانية، يقولون: كذبه تكذيباً وكذاباً، وخربه تخريباً [وخراباً]^(٥) ونحو ذلك، والله أعلم.

الآية ٣٥ وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً يَنْزِلُكَ عَنَّا عَذَابًا﴾ قوله: ﴿جَزَاءً﴾ أي جزاء جزائهم، وأعطاهم عطاءً، و﴿عَذَابًا﴾ و﴿حِسَابًا﴾ حاسبهم.

وقال الحسن: ﴿جَزَاءً﴾ بأعمالهم أي زادهم على القدر الذي استوجبوا، قال بعضهم: أعطاهم عطاء كثيراً حتى قال واحد منهم: حسبي حسبي. والذي يؤيد هذا التأويل ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ ﴿جَزَاءً يَنْزِلُكَ عَنَّا عَذَابًا﴾ حسناً^(٦).

قال بعضهم: ﴿جَزَاءً﴾ بأعمالهم التي كتب الحفظ، وأخصها عليهم، وأعطى عطاء حساباً أي كثيراً لما أخفوا من أعمالهم التي لم يطلع عليها ملائكة، فأعطاهم عطاء يئناً ظاهراً، يعرفه الناس.

(١) في الأصل وم: والمكروه. (٢) في الأصل: قرئ بالتخفيف فهو أن، في م: أن قرئ بالتخفيف فهو من، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/٤٩. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/٤٨. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حساباً، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/٤٩.

وجائز أن يكون الجزاء عطاء من ربِّه، لا أنه يستوجب الجزاء لما ذكرنا أنه لا أحد من هذا البشر إلا وقد سبقت له من الله تعالى نعم، لو أنفد جميع عمره في أداء شكره منها لم يصل إلى كثر ما عليه من الشكر؛ إذ من قام بالشكر، ووفق عليه، زيد له أيضاً في النعم لمكان الشكر. فإذا وصل إلى جزاء عمله في الدنيا لم يستوجب به المزيد، فثبت أن الجزاء في الآخرة بحق الإنصاف من الله تعالى والإنعام لا بحق الاستيجاب.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾؟ [النساء: ٦٩] فسَمَّى الكرامة إنعاماً، وقوله^(١) في آية أخرى: ﴿وَجَعَلْنَا عَرِشًا كَعَرِشِ الْأَرْضِ أَثَدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾؟ [الحديد: ٢١].

فَجَعَلَ ما آتاهم من النعم فضلاً منه، فثبت أن الذي جزأهم به ﴿عَطَاكُمْ حَسَابًا﴾ أي كثيراً.

الآية ٣٧ وقوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فالربُّ المالك، فذكر أنه مالك السموات والأرض وما بينهما ليَعْلَمُوا أنه لم يمتحن أحداً بعبادته لحاجة تقع له أو لمنفعة تصل إليه، بل هو الغني، وله ما في السموات وما في الأرض، وأن ما امتحنوا به من العبادات راجعة إلى أنفسهم إذا وفوا بها [كان النفع راجعاً إليهم]^(٢)، وإذا لم يقوموا بأدائها كان الضرر راجعاً إليهم.

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بين أنه رحمن ليرغبوا في رحمته، ويتسارعوا إلى [طلب] ^(٣) مغفرته.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَلْكُوكَ إِنَّمَا يُطِيعُونَ﴾ هبة من الله تعالى وتعظيماً لحقه، فلا يملكون من هيبته ﴿يُطِيعُونَ﴾^(٤) بالشفاعة أو بالخصومة أو بأي شيء كان.

الآية ٣٨ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ اختلِف في الروح؛ فمنهم من قال: هو جبريل عليه السلام، ومنهم من صرَّفه إلى أرواح المسلمين، ومنهم من ذكر أنهم الحفظة على الملائكة، يرون الملائكة، ولا يراهم الناس.

وجائز أن يكون الروح الكتب المنزلة من السماء كما قال: ﴿يَزِيلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ﴾ [النحل: ٢] فتكون الكتب مخاصمة مع من ضيع حقها، أو نبذها وراء ظهره، وشافعاً لمن أدى حقها، وعمل بما فيها.

ومنهم من ذكر أن هذا من المكتوم الذي لا يُفسر؛ قال الله تعالى: ﴿وَنَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ جائز أن يكون هذا منصرفاً إلى الشافع أي الشافع لا يقول في ما يشفع غير الصواب، وما حلَّ به من الرهبة والخوف من هبة الله تعالى لا يُزيله عن التكلم بالحق بل الله تعالى يُثبِّتُه على الحق، ويُجري على لسانه الصواب.

قال بعضهم: مغناه: لا يشفع إلا من قال في الدنيا صواباً، وهو الحق، وقيل: مغناه: أنه لا يتأل من الشفاعة خطأ إلا من قال في الدنيا الصواب؛ والصواب أن يكون مقيماً في ما دأب به من التوحيد.

وذكر علي بن أبي طالب عليه السلام أنه مرَّ بمجنونة، وهي تدعو، فتقول: اللهم اجعلني من أهل شفاعة محمد ﷺ فقال لها: قل: اللهم اجعلني من رُفقاء محمد ﷺ في الجنة، فإن شفاعته لأهل الكبائر من أمته.

قال عليه السلام: وبهذا الفضل يُعارِضنا المعتزلة، فنقول: إذا قلتم: اللهم اجعل لنا من شفاعة محمد نصيباً فقد قلتم: اللهم اجعلنا ممن يرتكب الكبائر؛ إذ شفاعته في زعمكم لأهل الكبائر.

فالجواب عن هذا أن الذي ابتلي بارتكاب الكبائر دون الشرك إنما يتأل بما سبق منه من الخيرات من التوحيد وتعظيمه ربه ﷻ فمحاسبته التي سبقت منه، هي التي تجعله محلاً للشفاعة، ولو لاها ما نالها.

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم.

فإذا قال: اللهم اجعل لي من شفاعتي نبيك نصيباً، فهو يقول: اللهم وفقني على فعل الخيرات، واجعلني ممن يُعظمك، ويُتَرَبَّطُ إليك بالطاعة، حتى أنال بها الشفاعة، لا أن يقصِدَ بدعائه جعله من أهل الكبار.

والذي يَدُلُّ على صحته ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَنْتُمْ كَانُوا مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ﴿لَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَٰهٌ يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ [الصفات: ١٤٣ و ١٤٤] فأخبر الله تعالى أن تسبيحه أنقذه^(١) من بطن الحوت، ولو لم يكن مُسَبِّحاً لم يستوجب الخلاص. وكذلك صاحب الكبيرة يستوجب الشفاعة، ويُرجى له الخلاص بما سبق منه من الحسنات دون أن يستوجبها لازتكاب الكبيرة.

ثم من قول المعتزلة أنهم يرون الصغائر مغفورة لأربابها إذا اجتنبوا الكبار، فيقال لهم^(٢): إن من دعا الله تعالى، وسأله المغفرة، فكأنه يدعو، فيقول: اللهم ابتلي بالصغائر حتى تغفرها لي.

فإن قلتم: إن دعاءه بالمغفرة لا يقتضي ما عارضناكم به، فقولوا كذلك في من يقول: اللهم اجعل لي من شفاعتي محمد نصيباً، فإنه لا يقتضي أن يجعل من أهل الكبار.

الآية ٣٩ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ﴾ قيل: معناه ألا يقال في ذلك اليوم غير الحق. وجائز أن يكون منصرفاً إلى اليوم نفسه، فيكون معناه أن كونه حقاً يكون لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَٰهًا رَبًّا﴾ أي مرجعاً. تأويله: أن الله تعالى بين للخلق سبيل الضلال والهدى، ولم يَصُدْ^(٣) أحداً عن سبيل الضلال والهدى، وبين أن من سلك سبيل الضلال فمآبه إلى النار. ومن سلك سبيل الرشيد والهدى فمآبه إلى الجنة؛ وذلك مآبه إلى الله تعالى واتخاذ السبيل إليه تعالى.

الآية ٤٠ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ أي العذاب [الذي]^(٤) أوعدتم به قريب مآته، وإن استبعدتموه في أوامركم. قال الله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْظَرُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ مَا قَدَّمْتُمْ يَدًا﴾ فجائز أن يكون منصرفاً إلى الخلائق أجمع مؤمنهم وكافرهم. ثم تخصيص الأيدي بالذكر هو أن التقديم^(٥) في الشاهد يقع بالأيدي، فأضيف إليها؛ وإن احتمل ألا يكون للأيدي صنع في ما ارتكب من الآثام أو في ما فعل من الخيرات، وهو كالمطر، يسمى رحمة الله، وإن لم يكن ذلك من أوصافه لأنه برحمته منه^(٦) ينزل من السماء / ٦٢٤ - / وسمى الكلام لساناً، وإن لم يكن هو لساناً لأنه باللسان ما يتكلم، فكذا التقديم أضيف إلى الأيدي لما بها يقع التقديم في الشاهد، وإن لم يكن للأيدي صنع.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ إن هذا التمني في الكافر دون المؤمن لأن المؤمن يرى حسناته متقبلة وسنّاته مغفورة، فيأمن من عقاب الله تعالى، والكافر يرى نفسه مواخذة بالسنّات، ولا يرى لها حسنات متقبلة، فيتمنى أن يكون تراباً ليتخلص من عذاب الله تعالى.

قال بعضهم: إن الوحوش تحشر، والطيور كلها، ثم يقول الله تعالى: كونوا تراباً، فيتمنى الكافر في ذلك الوقت أن يكون تراباً، والله أعلم بالصواب.



(١) ادرج في الأصل وم قبلها: ما. (٢) في الأصل وم: له. (٣) في الأصل وم: يصدوا. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ادرج بعدها في الأصل وم: والتأخير. (٦) في الأصل وم: الله ما.

سورة النازعات

[وهي مكية^(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآيتان (١ و ٢) قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَقًا﴾ ﴿وَالنَّشِيطَاتُ نَشَاطًا﴾ اختلف في تأويله:

فمنهم من حمل ذلك كله على الملائكة، فقال: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَقًا﴾ هم الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفرة، ويغرقون إغراقاً، أي يشددون في النزاع كما يغرق النازع في القوس، فيشتد^(٢) عليه [النزع^(٣)] شدة الأمر على الغريق، أو تنزع أرواح الكفرة، فتغرقها^(٤) في النار.

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّشِيطَاتُ نَشَاطًا﴾ قيل: أي^(٥) تنشط أرواح الكفرة نشاطاً عنيفاً، أي تنزع ملائكة العذاب أرواح الكفرة من أجوافهم نزاعاً شديداً. وقيل: هذا في حق المؤمنين: إن الملائكة تنشط أرواح المؤمنين؛ تحلها حلاً رقيقاً كما تنشط [المفردة^(٦)] من العقال، فيخبر بهذا [عن^(٧)] خفة ذلك على المؤمنين، ويخبر بالأول [عن^(٨)] شدته على الكافرين.

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿وَالسَّيِّحَاتُ سَبَاحًا﴾ قيل: إن الملائكة يسلمون أرواح المسلمين سلاً رقيقاً، وقيل: الملائكة يسبحون بين السماء والأرض.

الآية ٤ وقوله تعالى: ﴿وَالسَّيِّئَاتُ سَبَاحًا﴾ أي تسبق الملائكة إلى أرواح المؤمنين. وقيل: ﴿وَالسَّيِّئَاتُ سَبَاحًا﴾ الملائكة الذين يسبقون بالزحى إلى الأنبياء ﷺ وقيل: هم الكروبيون الذين لا يقترون عن تسبيح رب العالمين.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿وَالْمُدْرَاتُ أَمْرًا﴾ هم الملائكة المؤكلون بأمور الخلائق وأرزاقهم. ومنهم من صرف تأويل الآيات إلى النجوم [اللاتي يظلمن^(٩)] من مطالعتهن لحوائج الخلق ولأمور جوعلت لها، ويغررن في مغاريبهن، ثم ينشطن إلى مطالعتهن، فيظلمن [منها، أي لا يظلمن^(١٠)] كرها بل ناشطات لأمر الله تعالى إلى ما سخرت له.

[وقوله تعالى: ﴿وَالسَّيِّئَاتُ سَبَاحًا﴾ الآية: ٣] وتسيبهن دورانهن في الأفق لأمور تخفى^(١٢) على الخلق لقوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣ ويس: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّيِّئَاتُ سَبَاحًا﴾ [الآية: ٤] أي يسبق بعضها بعضاً، أو يسبقن الشياطين بالرجم والطرد، لا تدعهن يقربون السماء، وبو قال الحسن، والله أعلم.

ومنهم من صرف تأويل الآيات إلى مختلف الأشياء، فقال: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَقًا﴾ هي القيسي تنزعها ﴿وَالنَّشِيطَاتُ نَشَاطًا﴾ هي الأوهاق تنشط بها الدابة، يكون منه في جهة ﴿وَالسَّيِّئَاتُ سَبَاحًا﴾ من السفن ﴿وَالْمُدْرَاتُ أَمْرًا﴾ هي الملائكة. وبو قال عطاء.

ومنهم من صرفها إلى أنفس المؤمنين وأرواحهم، فقال: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَقًا﴾ هي الأنفس التي تغرق في الصدر

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: النفوس أو يشتد، في م: القوس أو يشتد. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فيغرق. (٥) من م، في الأصل: أن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في م: أنهم النجوم اللاتي يظلمن، في الأصل: اللاتي. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: خفى ذلك. (١٣) في الأصل وم: يدعن.

﴿وَالنَّشِيطَاتِ فَتَطَا﴾ حِينَ تَنْشِطُ مِنَ الْقَدَمَيْنِ. وَقِيلَ: إِنَّ أَنْفُسَ الْمُؤْمِنِينَ يَنْشَطْنَ إِلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْأَبْدَانِ، إِذَا عَايَنُوا مَا أُعِدَّ لَهُمْ مِنَ [الثَّوَابِ] ^(١) فِي الْجَنَّةِ ﴿وَالنَّيْبَاتِ سَبَا﴾ هِيَ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ، سُمِّيَتْ سَابِحَاتٍ لِسهولة الأمرِ عليها كما يسهلُ الخروجُ مِنَ الْمَاءِ لِمَنْ يَعْلَمُ السَّباحَةَ.

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّيْبَاتِ سَبَا﴾ أيضاً أرواحُ المؤمنين أيضاً سُمِّيَتْ سَابِحَاتٍ لِمَا تَكادُ تَسْبِقُ، فَتُخْرَجُ قَبْلَ وَقْتِهَا لِمَا تُعَايِنُ مِنْ كَرَامَاتِ اللَّهِ تعالى وما يُنْشَرُ مِنَ الْخَيْرِ. يُؤَيِّدُ هَذَا مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» [مسلم ٢٩٥٦].

وقيلَ ذَلِكَ عِنْدَ مَوْتِهِ: الْمُؤْمِنُ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ صَارَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَالْمَسْجُونِ الَّذِي يَتَمَنَّى الرَّاحَةَ وَالْخَلَاصَ مِنْهُ، لِأَنَّهُ [يَرَى] ^(٢) مَا أُعِدَّ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ، فَتَهَرَّجَ نَفْسُهُ؛ يَوَدُّ لَوْ خَرَجَتْ حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَا أُعِدَّ لَهَا مِنَ الْكَرَامَةِ. وَالْكَافِرُ إِذَا رَأَى [مَا أُعِدَّ لَهُ] ^(٣) عِنْدَمَا [يُخْضَرُهُ الْمَوْتُ] ^(٤) جَعَلَ يَلْبِغُ نَفْسَهُ كَرَاهَةً أَنْ تُخْرَجَ، فَتَصِيرَ الدُّنْيَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَالْجَنَّةِ لَهُ، فَلَا ^(٥) يُحِبُّ مُفَارَقَتَهَا مِنْ شِدَّةِ مَا يَرَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تعالى.

وعلى هذا قيلَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» [البخاري ٦٥٠٧ و٦٥٠٨ ومسلم ٢٦٨٣].

إِنَّ ذَلِكَ عِنْدَ الْمَوْتِ. إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، وَأَرَى ثَوَابَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَدَّ أَنْ تُخْرَجَ نَفْسُهُ، فَيُحِبُّ لِقَاءَ اللَّهِ، وَيُحِبُّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَالْكَافِرُ يَكْرَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنْ تُخْرَجَ نَفْسُهُ، فَذَلِكَ حِينَ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ، كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتِ زَيْتُ أَثَرًا﴾ قَالُوا جَمِيعًا: الْمُرَادُ مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِأُمُورِ الْخَلْقِ وَأَرْزَاقِهِمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي الَّذِي قَصَدَ إِلَيْهِ بِالْيَمِينِ وَالْقَسَمِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّ الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهِ الْقَسَمُ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿أَوَلَا لَنُرْزِقَنَّ فِي لَمَّافَةٍ﴾ [الآية: ١٠] عَلَى مَعْنَى: مَبْعُوثِينَ، وَأَنَّ الْقَسَمَ حَقٌّ؛ فَكَانَهُ أَقْسَمَ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ إِنَّهُمْ لَمَبْعُوثُونَ، وَأَضَمَّ الْجَوَابَ هُنَا لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْمَعْنَى، فَانْتَفَى بِهِ.

الآيات ٦ و ٧ و ٨ وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّ الْقَصْدَ مِنَ الْيَمِينِ قَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّاوِدَةُ﴾ ﴿فَلَوْثٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ فَأَقْسَمَ بِمَا ذَكَرَ أَنَّ الثُّفْحَتَيْنِ كَانَتَانِ: فَالثُّفْحَةُ الْأُولَى يَمُوتُ بِهَا الْخَلْقُ، وَالثُّفْحَةُ الثَّانِيَةُ لِإِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَالرَّاجِفَةُ هِيَ الثُّفْحَةُ.

فجائزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَقِيقَةِ الثُّفْحِ، فَتَكُونَ الثُّفْحَةُ عِلَامَةَ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ لَا أَنْ تَكُونَ عَلَّةَ الْإِمَاتَةِ. ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ هَذَا؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَحْمِلُهُ عَلَى التَّحْقِيقِ، فَيَزْعُمُ أَنَّ الثُّفْحَةَ الْأُولَى يَهْلِكُ بِهَا الْخَلْقُ، وَالثُّفْحَةُ الثَّانِيَةُ يَحْيَى بِهَا الْخَلْقُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّ الثُّفْحَاتِ ثَلَاثَةٌ: الْأُولَى لِلتَّفْرِيعِ وَالتَّهْوِيلِ يَقُولُهُ ^(٦) تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَفْءٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿يَوْمَ تَرْوَنَهَا نَدْعُلُ كُلَّ مِرْضَعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [الآية: الحج: ٢١].

وَالثُّفْحَةُ الثَّانِيَةُ يَهْلِكُ بِهَا الْخَلْقُ يَقُولُهُ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية: الزمر: ٦٨].

وَالثُّفْحَةُ الثَّالِثَةُ يَحْيَى بِهَا الْخَلْقُ يَقُولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ بِنُجْتٍ﴾ [الآية: الزمر: ٦٨].

وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ عَلَى تَحْقِيقِ الثُّفْحِ بَلْ عَلَى التَّمْثِيلِ، فَمَثَلُ بِهِ إِمَّا لِخِفَةِ الْبَعْثِ وَالْإِحْيَاءِ عَلَى اللَّهِ تعالى، [وَأَمَّا لِسهولَتِهِ] ^(٧) بِخِفَةِ الثُّفْحِ عَلَى النَّافِعِ، أَوْ مَثَلُ بِهِ لِسرْعَتِهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَمَا أَثَرُ النَّفَاثَةِ إِلَّا كَلَمَجٍ الْبَصَرِ أَوْ هَوٍّ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حضر. (٥) في الأصل وم: في مالا. (٦) في الأصل وم: قال الله. (٧) في الأصل وم: وسهولته.

وقالوا: الراجفة، هي الزلزلة والتحرك/ ٦٢٤ - ب/ ﴿تَبْمَهَا الرّادفة﴾ وهي الزلزلة الأخرى.

ثم إن كان القسّم على إثبات البعث ففيها ذكر إشارة إلى أحوال البعث وأفعالها.

وإن كانت مرجفة على قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ﴾ ﴿تَبْمَهَا الرّادفة﴾ ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاعِنَةٌ﴾ فكانهم سألوا كيف تكون القلوب في ذلك اليوم؟ فقال: تكون واجفة، والواجفة الخائفة الوجلة.

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿أَبْصَرُهَا غَشِيَةً﴾ أي ذليلة. ووجه تخصيص الأبصار والقلوب، والله أعلم، هو أنه لا يتهيأ لأحد استعمال قلبه وبصره، بل يحدث للقلوب فكر وبذرات، لا يمكنه أن يدفع عنها الفكر، وكذلك هذا في البصر، فيخبر أن ما نزل بهم من الخوف والهيبة يمنع القلوب والأبصار عن عملها، فلا ينظر إلى الداعي، ولا يحدث للقلوب فكر، بل تكون أفئدة هؤلاء لا تقر لشدة ما حل بها^(١) من الخوف؛ إن المرة إذا حزّته^(٢) أمر، فهو يعمل أنواعاً من الجيل، ويوقع بصره على شيء فشيء رجاء أن يستدرك ما فيه خلاصه وسلامته من ذلك الأمر، ثم ينقطع عنهم التدبير في ذلك اليوم، فتكون قلوب هؤلاء لا تقر في موضع، ولا تقف على تدبير لشدة ما حل بهم، وتكون الأبصار خاشعة ذليلة إلى ما يدعو الداعي.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَوْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي لَمَافِرَةٍ﴾ أي يقولون: إنا لنرد إلى ما كنا عليه في الدنيا ابتداء الأمر خلقاً جديداً. يقال: أتى فلان فلاناً، فرجع على حافريته، يقول على [خلقته الأولى]^(٣) ويقال: التقّد عند الحافرة أي عند أول البيع والكلام، فقالوا هذا على جهة الإنكار بالبعث والاستهزاء به.

قال أبو بكر: هذا مأخوذ من حافر الدابة، وهو أن الفارس، يمكنه أن يضربها بحافرتها إلى الموضع الذي ابتدأ السير منه من وراء.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا خَيْرَةً﴾ وناخرة^(٤)، فالناخرة البالية التي لم تفت بعد، والناخرة، هي التي صارت رفاتاً، ودرست حتى تسيقها الريح.

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ قال الحسن وأبو بكر: هذا منهم تكذيب للبعث أي لا يكون أبداً، وقال غيرهما: معناه: أن لو كانت كربة كما يزعم المسلمون فهي كربة خاسرة على المسلمين، لأنهم ظنوا إذا كانوا في الدنيا أنعم حالاً وأرغد عيشاً، وكان المسلمون في ضيق من العيش وشدة من الحال لن يكونوا كذلك في الآخرة.

الآ ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رُودَتْ لِكِ رَبِّي لَاجِدَةً خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾؟ [الكهف: ٣٦] فكانوا يظنون أنهم بما أنعم الله تعالى عليهم إنما أنعم لأنهم أقرب منزلة وأعظم درجة من المؤمنين؛ إذ لا يجوز أن يضيق على أوليائه، ويوسع على أعدائه. فإذا وسع عليهم ظنوا أنهم هم المفضلون في الدنيا والآخرة، وأن من خالفهم فهم الأخسرون.

ومنهم من قطع هذا الكلام عن مقالة الكفرة، وزعم أن هذا الوصف راجع إلى الكفرة، فقيل: ﴿خَاسِرَةٌ﴾ لما خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم، و﴿خَاسِرَةٌ﴾ أي مخسرة.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا هِيَ بَرْجَةٌ وَجِدَتْ﴾ ففيه إخبار عن سرعة كون ذلك الوقت وسهولته على الله تعالى.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ قيل: الساهرة، هي وجه الأرض. وجائز أن يكون أريد بهذا أن العيون تسهر في ذلك اليوم، ولا يغترها النوم، بل تكون مهطعة إلى الداعي ذليلة.

الآية ١٥ وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ فمنهم من يقول: قد أتاك، فحرفهم [بؤ]^(٥).

وقال الحسن: لم يكن أتاه، فأتاه بهذا [كما يقول الرجل: هل أتاك فعل فلان، وهو يريد أن يذكره بهذا]^(٦) فيعلمه مع علمه أنه لم يكن علمه من قبل.

(١) في الأصل وم: به. (٢) من م، في الأصل: خرج به. (٣) في الأصل وم: معته الأول. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ٥٦. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وقد ذكرنا ما في ذكر الأنبياء من الفوائد من تثبيت الرسالة والتخويف لمن أساء صحبة الرسل ﷺ لئلا ينزل بهم ما نزل بفرعون وأتباعه حين أساءوا صحبة الرسول موسى ﷺ.

الآية ١٦ وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِئِ الْوَتْدِيِّ طُوى﴾ قيل: ﴿طوى﴾ اسم ذلك الوادي، وقيل: سمي طوى لأنه بورك مرتين: مرة حين أتاه إبراهيم ﷺ، ومرة بإتيان موسى ﷺ، وذكر عن الزجاج أن طوى بكسر الطاء^(١) الذي بورك مرتين.

ثم أضاف ذلك الحديث مرة إلى موسى ومرة إلى نفسه إذ ناداه؛ فظاهره أن الله تعالى، هو الذي كلمه، فأضيف إلى الله تعالى، لأن أصله من الله تعالى كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وفي قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠ و...].

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿أَنهَبَ إِيَّاكَ فَيَحْنَزِلْهُ مِنِّي﴾ أي عتأ، وطفى في نعيمه، فاستعملها في كفران نعيمه، فلم يشكر الله تعالى بها.

الآية ١٨ وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكُوكَ﴾ أي هل لك في إجابة من إذا أجبت تركيت؟ أو هل لك رغبة إلى ما تركوه نفسك، وتتمو؟

ثم في هذه الآية دلالة أن من أراد أن يدعو آخر إلى ما فيه رشدُه وصلاحه، فالواجب عليه أن يدعوهُ أولاً بالرفق واللين كما أمر به موسى وهارون ﷺ بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] وبقوله: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكُوكَ﴾ ثم إذا ترك الإجابة ختم كلامه بالتعنيف كما فعل موسى ﷺ بقوله: ﴿وَلَايَ لَأُظْلِكَ بِفِرْعَوْنَ مَشُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] بعد قوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَزَلَّكَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَابِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

الآية ١٩ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِلَهُكَ إِلَّا رَبُّكَ فَتَخَنَّنْ﴾ فتَهَنَّدِي، ثم تخشاه إذا اهتديت، أي عرفت عظمتُه وجلالَه ﴿فَتَخَنَّنْ﴾ عقوبته، فيكون العلم مؤمراً للخشية.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُسْلِمُونَ﴾؟ [فاطر: ٢٨].

أو [يكون]^(٢) ﴿وَأَمَّا إِلَهُكَ﴾ إلى طاعة ربك، وأنذرك عقابه إذا عصيته ﴿فَتَخَنَّنْ﴾ فلا تعصيه.

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ منهم من ذكر أن الآية الكبرى هي اليد؛ سُميت كبرى لأن سحرهم عمل في الجبال والعصي، ولم يعمل في اليد، فكانت هذه الآية خارجة عن نوع سحرهم، فسُميت كبرى لهذا المعنى.

ومنهم من ذكر أن الآية الكبرى، هي العصا، لأن غلبة موسى ﷺ، على السحرة كانت بالعصا حين^(٣) لَقَفْتُ ما أتوا به من السحر.

ولكن كل آياته كانت كبرى كما قال في آية أخرى: ﴿وَمَا يُرِيدُ مِنَ آيَةِ إِلَّا أَنْ يَكْبُرَ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨] فكانت إحداها أكبر من الأخرى عند ذوي الأحلام والنهي لمن تأمل فيها، وتذكر، والله الموفق.

الآية ٢١ وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ أي كَذَّبَ بآيات الله، وعصى نبيه موسى، فلم يطفه.

الآية ٢٢ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذِبرَ بَشْعًا﴾ قال الحسن: كان خفيفاً طيَّاشاً، وإلا فالملوك إذا دُعوا إلى أمر، تدبروا فيه، وتَفَكَّرُوا؛ إما ليُجيبوا الداعي إلى ما دعاهم [وإما]^(٤) ليردُّوا عليه. فأما الإذبار والسغي فليس إلا من الخفة والطيِّش.

وقال غيره: أدبر عن طاعته تعالى، وتولَّى عنه، وسعى في جمع السحرة، أو سعى في جمع من قال لموسى ﷺ: ﴿فَلْجَمَلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُؤْلَفُكُمْ﴾ [طه: ٥٨].

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ٥٧. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. حيث. (٤) في الأصل وم. أو.

الآية ٢٣ و ٢٤ وقوله تعالى: ﴿فَحَسَرَ فَادَى﴾ ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ وذلك اللعين قد عَلِمَ أنه ليسَ ربُّ السماء والأرض، ولكن قد اتَّخَذَ لقومِهِ أصناماً، فأمرَ العوامَ أنْ يعبُدوها ليقربَهُمْ ذلكَ إليه. لكن إذا صاروا من خاصَّتِهِ أُوذِنَ لَهُمْ بأنْ يعبُدوه، وأمرَ الخواصَّ منهم بعبادَتِهِ، فسَمَّى نفسه أَعْلَى الأربابِ لهذا.

الآية ٢٥ وقوله تعالى: ﴿تَأْتِيهِ الْخُزُوعُ وَالْأُكُلُ﴾ فمنهم مَنْ يقول: أَخَذَهُ بِعُقُوبَةِ الْكَلِمَتَيْنِ جميعاً: الكلمة الأولى قوله تعالى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨] والكلمة الثانية قوله تعالى: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾. ومنهم مَنْ يقول: أَخَذَهُ بِعُقُوبَةِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَجْرَامِ وما تأخَّرَ إلى أنْ غَرِقَ.

ومنهم مَنْ يقول: أَخَذَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَغَرَّقَهُ فِي الدُّنْيَا، وَغَذَّبَتْ رُوحَهُ بَعْدَ مَمَاتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] ويدخلُ في النارِ مع أتباعِهِ بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] فَاتَّصَلَتْ عُقُوبَةُ الدُّنْيَا بِعُقُوبَةِ الْآخِرَةِ.

الآية ٢٦ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ وفي ذلكَ كُلُّهُ عِبْرَةٌ، لكنَّ الذي يَغْتَبِرُ بِهَا مَنْ يَخْشَى الْعَوَاقِبَ، وَيَخَافُ عُقُوبَةَ اللَّهِ تعالى.

الآية ٢٧ ثم قوله ﷻ: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ أَتَيْتُكُمْ بِذِكْرٍ كَرِيمٍ﴾ فجائزُ أنْ يَكُونَ صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ﴾ [الآية: ٦] وفي قوله: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ تقريرٌ لَهُ أيضاً.

ثم قوله ﷻ: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ أَتَيْتُكُمْ بِذِكْرٍ كَرِيمٍ﴾ أَخَذَهَا: أَنْ إِعَادَتَهُمْ خَلْقًا جَدِيداً وَبَعَثَهُمْ أَيْسَرُ فِي عَقُولِ مُتَكِرِي الْبَعْثِ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ، وَقَدْ أَقْرَأُوا أَنَّهُ خَالِقُ السَّمَوَاتِ. [والثاني: إذا] ^(١) لم يَتَعَدَّزْ عَلَيْهِ خَلْقُ السَّمَاءِ، وَإِنْ كَانَ خَلْقُهُمْ أَشَدَّ فِي عَقُولِهِمْ مِنْ خَلْقِ أَمْثَالِهِمْ، فَمَا بِالْهَمِّ يُتَكَبَّرُونَ بَعَثَهُمْ وَإِعَادَتَهُمْ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَذَلِكَ أَهْوَنُ فِي عَقُولِهِمْ؟

[والثالث: إذا] ^(٢) أَنْ السَّمَاءَ مَعَ شِدَّةِ خَلْقِهَا أَشْفَقَتْ عَلَى نَفْسِهَا، فَأَبَتْ قَبُولَ مَا عَرَضَ مِنَ الْأَمَانَةِ، وَخَافَتْ نِقْمَةَ اللَّهِ تعالى، فَمَا بِالْهَذَا الْإِنْسَانِ مَعَ ضَعْفِهِ يَمْتَنِعُ عَنِ الْإِجَابَةِ إِلَى مَا دُعِيَ إِلَيْهِ، أَفَلَا يُشْفِقُ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا يَخَافُ نِقْمَةَ اللَّهِ تعالى؟ وَمَا خُلِقَتِ النَّارُ وَالْجَنَّةُ إِلَّا لِأَجْلِ الْإِنْسِ، فَيَذْكُرُهُمْ بِهَذَا لِيُخَوِّفَهُمْ، وَيَرْتَدِعُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ ^(٣) مِنَ الطُّغْيَانِ، وَيُجِيبُوا إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ الرَّسُولُ.

وجائزُ أنْ يَكُونَ صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] وقوله ^(٤): ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] فَيُخْبِرُ أَنَّ السَّمَاءَ مَعَ شِدَّتِهَا وَطَوَاعِيَّتِهَا، لَا تَقُومُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ، فَكَيْفَ يَقُومُ الْإِنْسَانُ لِهَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مَعَ ضَعْفِهِ؟ فَيَرْجِعُ هَذَا أَيْضاً إِلَى التَّخْوِيفِ.

الآية ٢٨ وقوله تعالى: ﴿بَنَيْنَا رَفْعَ سَعَتِكَا مَتْنَيْنَا﴾: أَي خَلَقَهَا رَفْعَ سَعَتِكَا سَفَفَهَا مَتْنَيْنَا بِالْأَرْضِ، أَوْ سَوَّاهَا عَلَى مَا تَوَجَّهَتْ الْحِكْمَةُ، وَيَدُلُّ عَلَى الْوَحْدَانِيَّةِ.

قَالَ إِمَامُ الْهُدَى أَبُو مَنْصُورٍ ﷺ: ثُمَّ لَمْ يُفْهَمْ أَحَدٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿بَنَيْنَا رَفْعَ سَعَتِكَا مَتْنَيْنَا﴾ مَا يُفْهَمُ مِنَ الْبِنَاءِ الْمُضَافِ إِلَى الْخَلْقِ، وَلَا فَهَمَ مِنَ الرِّفْعِ [مَا يُفْهَمُ مِنَ الرِّفْعِ] ^(٥) الْمُضَافِ إِلَيْهِمْ، وَلَا فَهَمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [الآية: ٣٠] مَا يُفْهَمُ مِنَ الْبَسْطِ الْمَعْرُوفِ الْمَنْسُوبِ إِلَى الْخَلْقِ، فَمَا بِالْبَعْضِ النَّاسِ فَيُفْهَمُ مِنَ الْمَجِيءِ الَّذِي أُضِيفَ إِلَى اللَّهِ تعالى مَا فَهَمُوا مِنَ الْمَجِيءِ الَّذِي يُضَافُ إِلَى الْخَلْقِ؟

فلولا أَنَّهُ حَمَلَتْهُمْ جِهَالَتُهُمْ عَلَى أَنْ يُفْهَمُوا مِنْهُ الْمَعْنَى الْمَكْرُوهَةُ، وَلَآ لَمْ تَنْصَرِفْ أَوْهَامُهُمْ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَإِذَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: خَلَقَهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَخْتَلِجُ وَجْهًا آخَرَ، وَهـ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهِمْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

الآية ٢٩

[وقوله تعالى^(١)]: ﴿وَأَعْلَسَ لَيْلًا﴾ قيل أظلم ﴿وَأَخْرَجَ ضُحًيًا﴾ نفى إظلام الليل وإخراج الضحى ما ينفي عن مُكبري البعث الشبهة التي تعتريهم؛ وذلك أنه يغش في ساعة لطيفة، ويغشي ظلمتها كل شيء، ثم يثليها في أدنى وهلة، ويثنيها، كأنها لم تكن، ثم يعيدها بعد ما أثقلتها، حتى لو أراد أحد أن يميز بين الأولى والثانية لم يقدر عليه، بل وقع عنده أن الأولى، هي الثانية، والثانية، هي الأولى. وهذا بعدما تَلَفَت الظلمة الأولى، وذهبت كلها حتى لم يبق منها أثر.

فلأن يكون قادراً على إعادتهم خلقاً جديداً بعد ما أفناهم، وقد بقي من آثار الخلق الأول بعضه، أولى. ثم أضاف ذلك إلى السماء لأن بدوها يظهر من عندنا.

الآية ٣٠

وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ قالوا بسطها؛ فمنهم من يقول: خلقها مُجْتَمِعَةً، ثم بسطها بعد ما خلق السموات.

ألا ترى أنه قال: ﴿دَحَاهَا﴾ ولم يقل خلقها؟ ومنهم من ذكر أنه خلق سماء الدنيا أولاً، ثم خلق الأرضين بعد ذلك، ثم خلق السموات الست من بعد. ومنهم من ذكر أنها كانت قبل أن تبسط تحت بيت المقدس^(٢)، ثم بسطها بعد ذلك.

قال أبو بكر: هذا لا يُحتمل؛ لأنه لا يجوز أن تكون بجمليتها وسعتها تحت بيت المقدس، والله أعلم.

ولكن معناه عندنا، إن كان على ما قالوا مُنْصَرَفٌ إلى الجوهر، أي الجوهر الذي خلقت منه الأرض، كان هنالك، لا أن كانت بجمليتها تحته كما خلق الإنسان من التُّفْطَةِ، وإن لم يكن بِكُلِّيَّتِهِ مِنَ^(٣) التُّفْطَةِ، وخلق من التراب، وإن لم يكن بِكُلِّيَّتِهِ على ما هو عليه من^(٤) التراب. وكان معناه أنه خلق من ذلك الجوهر، فعلى ذلك الحكم في ما ذكره.

ومنهم من زعم أن خلقهم كان معاً، وذكر عن الحسن أن الأرضين خلقت قبل السماء لقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله^(٥) في موضع آخر: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] وقيل^(٦): اسم السماء ما ارتفع [من الشيء]^(٧) كما يقال للسقف سماءً لارتفاعه عن الإنسان.

الآية ٣١

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَرَعَاهَا﴾ ذكر ما أنشأه لنا لنخدمه، وما أخرج منها للأنعام لتذكير النعم أيضاً، وتشكره، ونحمده عليه؛ إذ الدواب خلقت لنا، فما رجع إلى منافعها فهي راجعة إلينا؛ إذ بها ما يصلح إلى الانتفاع بالدواب.

الآية ٣٢

وقوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أثبتنا لئلا تميد بأهلها.

الآية ٣٣

وقوله تعالى: ﴿مَتَّعْنَا لَكُمْ دُلُوكُمْ﴾ فيه أن جعله متاعاً لنا قد جعل شيئاً من ذلك للدواب أيضاً، والذي جعله للأنعام لم يجعل لنا فيه شركاً؛ وذلك لأن الذي أنشأ لمتاع البشر، منه ما يستحب، ويستفد، ومنه ما يستطاب، ويدخر، فجعل ما طاب منه للبشر وما حُبث منه لمتاع الدواب، والذي أنشأ لمتاع الدواب مما تستحب الطباع، وتستفد، ففضل أغذيها من فضل منازلهم.

ففي ما ذكرنا دلالة إباحة التناول من الطيبات: أن الله تعالى من على عباده أن جعل أغذيهم بما طاب من الأشياء، وفضلهم على الأنعام. فمن كره ذلك، فقد كره^(٨) الانتفاع بما أنشئ للانتفاع، والله أعلم.

الآية ٣٤

وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَتِ الطَّلَاقُ الْكُبْرَىٰ﴾ قيل^(٩): الطائفة، هي الصبيحة؛ سُميت طائفة لأنها تظم الأشياء، وتعمها، وسُميت كبرى لأنها طمّت بالعذاب، فهو يدوم، ولا ينقطع، وإن أحاطت بالثواب والكرامة فهي^(١٠) تدوم، سُميت كبرى لدوامها.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: البيت. (٣) في الأصل وم: في. (٤) في الأصل وم: في. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وقال. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قال. (١٠) في الأصل وم: فهو.

الآية ٢٥ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ ما عَمِلَ، وتَذَكَّرُهُ يكون بوجهين:

أحدهما: بقراءة كتابه كقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

والثدُّ الثاني يكون بالجزاء.

فالتذكُّرُ الأوَّلُ يكون باللُّطفِ مِنَ اللَّهِ تعالى، وإلا فالمرادُ قد تُكْتَبُ أشياء، ثم ينساها^(١) إذا طالت المدة، ولا يتَذَكَّرُ بالقراءة. ففي ما لم يتَوَلَّ كتابه أحقُّ ألا يتَذَكَّرَ. لكنَّ الله تعالى بلطفِهِ يُذَكِّرُهُ بالقراءة، فيَعْرِفُ صدقَ ما كَتَبَتْهُ الملائكةُ، ويعْرِفُ أنه إذا عَوَّبَ عَوَّبَ جزاء ما كَسَبَتْ يداهُ، ويكونُ الجزاءُ أبلغَ بالتذكُّرِ، فيَتَذَكَّرُ في ذلك الوقت.

الآية ٣٦ وقوله تعالى: ﴿وَيُزَيِّنُ لِلْمُجِيبِ لِمَنْ يَرَى﴾ وقُرئَ لِمَنْ تَرَى^(٢)، فتُضافُ الرؤيةُ إلى الجحيمِ كقوله: ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَفِيْطًا وَتَفِيْكَرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿لِمَنْ يَرَى﴾ جائزٌ أن تكونَ الرؤيةُ كنايةً عن الحضورِ والدخولِ، فيكونُ ﴿لِمَنْ يَرَى﴾ أي لِمَنْ يَدْخُلُهَا، ويَحْضُرُهَا، وهو كقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِمَّنِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] ومغناه: أن رحمة الله للمحسنين، وقوله^(٣) تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَأُ هَذِهِ الشِّجْرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥ و...]. وأريدَ بالقُرْبِ التَّناوُلُ، فَكُنِيَ عَنْهُ بِالْقُرْبِ. فجائزٌ أن تكونَ الرؤيةُ ههنا كنايةً عن الدخولِ والحضورِ، فيكونُ فيه إخبارٌ عن إحاطةِ العذابِ بجميعِ أبدانِهِمْ.

وجائزٌ أن يكونَ أهلُ الرؤيةِ، هم أهلُ الجنةِ؛ يَرَوْنَهَا^(٤) مُشَاهِدَةً، فيَتَلَذَّذُونَ بِذلكَ لِمَا نَجَوْا، وفازوا بالنَّعَمِ، كما تَأْلَمُوا بِذُخْرِهَا عندما كانت / ٦٢٥ - ب/ غائبةً، لا يَرَوْنَهَا. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ مَا آتَا وَقُلُوبُهُمْ وَجْهَةٌ أَنَّهُمْ إِنْ يَرَوْهُمْ رَجَعُوا﴾ [المؤمنون: ٦٠] وقال^(٥): ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا بَقُلُوبِنَا أَهْلًا بِمُشْفِقِينَ﴾ ﴿فَمَرَّ اللَّهُ عَلَيْكُمُ﴾ الآية [الطور: ٢٦ و٢٧].

الآيتان ٣٧ و٣٨ وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ لَطَمَ﴾ ﴿وَدَاثَرُ لَحْيَوَيْهِ الدُّنْيَا﴾ أي عَصَى، وَتَمَرَّدَ، وَطَعَى بِأَنفُسِهِمُ اللهُ تعالى، فَاسْتَعْمَلَهَا في مَعَاصِيهِ، أو جَاوَزَ حُدُودَ اللهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَدَاثَرُ لَحْيَوَيْهِ الدُّنْيَا﴾ فجائزٌ أن يكونَ إشارتهُ أن يَتَّبِعِي مَحَاسِنَ^(٦) الحياةِ الدنيا حتى أنساهُ ذلكَ الآخرةَ^(٧)، وإذا ابتغى بها الحياةَ الدنيا لم يَبْقَ لَهُ في الآخرةِ نصيبٌ لأنه قد وُفِّيَ لَهُ عَمَلُهُ.

ألا تَرَى إلى قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا لَهَا تُوبَةً﴾ إِنْهُمْ أَعْمَلُوهُمْ؟ [هود: ١٥].

الآية ٣٩ وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ أي يَأْوِي إِلَيْهَا.

الآية ٤٠ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ فجائزٌ أن يكونَ أريدَ بالمَقَامِ حِسَابَ رَبِّهِ أو مَقَامُهُ عِنْدَ رَبِّهِ، فَأُضِيفَ إلى الله تعالى لأنَّ البعثَ مُضافٌ إليه، فكلُّ أحوالِهِ أُضِيفَتْ إِلَيْهِ أَيْضًا.

وجائزٌ أن يكونَ الخوفُ راجعاً إلى الحالةِ التي هو فيها، فيخافُ أن يكونَ مَقَامُهُ في مَوْضِعٍ نَهَى اللهُ تعالى عَنِ الْمَقَامِ فِيهِ. وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ أَلْفَسَ عَنِ أَلْمُؤْتَى﴾ فليسَ هذا نَهْيٌ قولٍ، وإنما نَهْيُهُ إِيَّاهَا أَنْ يَكْفُفَهَا عَنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَائِهَا، وَكَفُّهَا أَنْ يُشْعِرَهَا عَذَابَ الآخرةِ، وَيُخَوِّفَهَا أَلَامَهَا وَعِقَابَهَا. فإذا فَعَلَ ذلكَ سَهَّلَ عَلَيْهَا تَرْكَ الشَّهَوَاتِ الْحَاضِرَةِ، وَسَهَّلَ عَلَيْهَا الْعَمَلَ لِلآخرةِ. والناسُ في نَهْيِ نَفْسٍ عَنْ هَوَاهَا عَلَى ضَرَّتَيْنِ:

فمِنْهُمْ مَنْ يَقْهَرُهَا، فلا يُعْطِيهَا شَهَوَاتِهَا، فهو أبدأ في جَهْدٍ وَعَنَاءٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُذَكِّرُهَا الْعَوَاقِبَ، وَيُرِيهَا مَا أَعَدَّ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ، وَيُعْلِمُهَا مَا يَحُلُّ بِالظُّلْمَةِ، فيَصِيرُ ذلكَ لها كَالْعِيَانِ، فَتُخْتَارُ لَذَاتُ الآخرةِ عَلَى لَذَاتِ الدنيا، لأنَّ ذلكَ أَدْوَمُ وَالذُّ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ الْعَمَلَ لِلآخرةِ، وَالهَوَى، هو مِيلُ النَّفْسِ إِلَى شَهَوَاتِهَا وَلَذَائِهَا.

ففيه أن الأنفسَ جُبِلَتْ عَلَى حُبِّ الشَّهَوَاتِ وَالْمِيلِ إِلَيْهَا، ولا تَنْتَهِي عَنْ ذلكَ إِلَّا بِمَا ذَكَّرْنَا.

(١) في الأصل وم: ينساه. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ح ٦٤/٨. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: فيرونها. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: بمحاسنه. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: عن.

[وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَلَمْنَهُ فِي السَّائِرِ﴾^(١)]

الآية ٤١

وقوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّامَ مُرْسِكَ﴾ وهي القيامة، سُمِّيَتْ سَاعَةً إِمَّا لِيَخْفَ أمرُها على مَنْ إِلَيْهِ تَدْبِيرُهَا، أَوْ سُمِّيَتْ سَاعَةً لِسُرْعَةِ كَوْنِهَا إِذَا أَتَى وَقْتُهَا، أَوْ سُمِّيَتْ لِقُرْبِهَا إِلَى الْحَالَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَتُرِ اللَّهَ﴾ [النحل: ١].

الآية ٤٢

ثم [إن]^(٢) كَانَ هَذَا السُّؤَالُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ سُؤَالُ اسْتِغْثَاءٍ؛ كَأَنَّهُ لَمَّا قِيلَ لَهُمْ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانفطار: ١] [وقيل]^(٣): ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] قالوا: متى تَكُونُ السَّاعَةُ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ السُّؤَالُ مِنَ الْكَافِرَةِ لِمَا ذَكَّرْنَا أَنَّهُ لَيْسَ فِي تَبْيِينِ وَقْتُهَا كَثِيرُ مَنْفَعَةٍ حَتَّى تَقَعَ الْحَاجَةُ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَى تَبْيِينِهِ بِالسُّؤَالِ، فَيَسْأَلُونَ سُؤَالَ اسْتِغْثَاءٍ وَاسْتِخْفَافٍ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَسْأَلُونَهُ اسْتِغْثَاءً بِقَوْلِهِ: ﴿يَسْتَعِجِلْ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] فَكَانُوا يَسْأَلُونَهُ عَنْ شَيْءٍ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُتَعَثِّقُونَ فِي السُّؤَالِ قَضَاءً مِنْهُمْ [التَّائِيهِ] ^(٤) وَالتَّائِيهِ عَلَى الضَّعْفَةِ وَالْأَتْبَاعِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ الْوَقْتَ لَيْسَ هُوَ وَقْتُ مَجِيءِ السَّاعَةِ.

وَإِذَا طَلَبُوا الْاسْتِغْثَاءَ عَلِمُوا أَنَّهُ لَا يَنْتَهِي لَهُ أَنْ يُرِيَهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لِأَنَّ ^(٥) ذَلِكَ يَخْرُجُ مَخْرَجَ خِلَافِ الْوَعْدِ، فَيَحْتَجُونَ عَلَى الضَّعْفَةِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ صَادِقًا فِي مَقَالَتِهِ: إِنَّ السَّاعَةَ تَكُونُ لَكَانُوا مَتَى طَلَبُوا مَجِيئَهَا يَأْتِيَهُمْ بِهَا.

الآية ٤٣

وقوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَا﴾ أَي لَسْتَ أَنْتَ مِنْ عِلْمِهَا فِي شَيْءٍ. هَذَا إِنْ ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَطْلُغْ عَلَيْهَا.

الآية ٤٤

وقوله تعالى: ﴿إِنْ رَدَّكَ مُنْهَنًا﴾ أَي يَنْتَهِي إِلَيْهِ ^(٦) عِلْمُهَا، فَيَكُونُ هَذَا نَهْيَ السَّائِلِينَ عَنِ الْعَوْدِ إِلَى السُّؤَالِ.

الآية ٤٥

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ بَشَّرْتَهَا﴾ فَهُوَ ﷺ كَانَ مُنْذِرًا لِلْعَالَمِينَ جُمْلَةً بِقَوْلِهِ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] لَكِنَّهُ يَنْتَفِعُ بِإِنْذَارِهِ مَنْ يَخْشَى الْإِنْذَارَ.

الآية ٤٦

وقوله تعالى: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُؤْتَى لَوْ يَلْبَتُوا إِلَّا عِجَّةً أَوْ صُفْحًا﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا السَّاعَةَ اسْتَقْصَرُوا هَذِهِ الْأَيَّامَ، وَقَلَّتِ الدُّنْيَا فِي قُلُوبِهِمْ مَتَى عَايَنُوا الْآخِرَةَ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُهُ [أَنَّهُمْ لَوْ رَأَوْا] ^(٧) السَّاعَةَ لِلْحَالَةِ الَّتِي هُمْ فِيهَا لَمْ يَلْبَتُوا فِيهَا عِجَّةً أَوْ صُفْحًا، فَلَا يَقَعُ ذَلِكَ مَوْقِعَ التَّهْوِيلِ وَالتَّخْوِيفِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ ^(٨).



(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: إذ. (٦) في الأصل وم: إليها. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لو أرادوا. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

سورة عَبَسَ

[وهي مكية] ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآيتان ١ و ٢

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ ذَكَرَ الْحَسَنُ أَنَّ تَعَبَسَ الْوَجْهَ وَالتَّوَلَّى كَانَا بِنَفْسِ الْمَجِيءِ عَلَى ظَاهِرِ الْآيَةِ، فَإِنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ عِنْدَهُ مِنْ عُظَمَاءِ الْمَشْرِكِينَ، يَعْظُمُهُمْ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ. فَلَمَّا جَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، يَسْأَلُهُ، أَعْرَضَ عَنْهُ لِمَكَانِ أُولَئِكَ الْقَوْمِ، وَعَبَسَ وَجْهَهُ رَجَاءً إِسْلَامِيَهُمْ. وَذَكَرَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ أَنَّهُ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ لَمَّا سَأَلَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ عَمَّا فِيهِ رُشْدُهُ وَهُدَاهُ، فَعَبَسَ وَجْهَهُ بِقَطْعِهِ الْحَدِيثِ.

ثم هذا التَّعَبُّسُ مِنَ ﷺ، كَانَ فِي أَمْرٍ، لَوْ التَّامَ، ثُمَّ وُزِنَ ذَلِكَ بِخَيْرَاتِ أَهْلِ الْأَرْضِ لَرَجَحَ عَلَى خَيْرَاتِهِمْ وَمَحَاسِنِهِمْ لِأَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ مُقْبِلًا عَلَى رُؤَسَاءِ الْكُفْرَةِ، يَعْظُمُهُمْ، وَيُحَرِّضُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ رَجَاءً أَنْ يُسْلِمُوا، فَيَكُونُوا فِي إِسْلَامِهِمْ رَجَاءً إِسْلَامٍ كَثِيرٍ مِنَ الْقَوْمِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ عَلَيْهِ الْقَوْمِ وَعُظُمَائِهِمْ، فَكَانَ فِي إِسْلَامِهِمْ رَجَاءً إِسْلَامٍ مَنْ يَتَّبِعُهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، فَيَسْتَوْجِبُ بِإِسْلَامِهِمْ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ وَعِظَمِ الْمَنْزِلَةِ مَا لَا يَبْلُغُهُ آخَرُ بِجَمِيعِ مَحَاسِنِهِ، فَكَانَ فِي سَوَالِهِ إِيَاءُ مَنْعٍ مَا قَصَدَ إِلَيْهِ مِنْ إِحْرَازِ جَزِيلِ الثَّوَابِ وَكَرِيمِ الْخِصَالِ.

وَإِذَا كَانَ هَكَذَا [فَقِيهِ وَجْهَانِ:]

أَحَدُهُمَا: أَنَّ تَعَبَسَ [فِي] ^(٢) الْوَجْهِ [فِي] ^(٣) مِثْلِ هَذَا الْحَالِ أَمْرٌ سَهْلٌ، لَا يُسْتَبَعَدُ، وَلَا يُسْتَنْكَرُ.

والثَّانِي: أَنَّ تَعَبَسَ الْوَجْهَ عَلَى الْأَعْمَى وَالْإِعْرَاضَ عَنْهُ، لَا يُظْهَرُ لِلْأَعْمَى، لِأَنَّهُ لَا يَرَاهُ، فَلَا يَعْدُهُ جَفَاءً، وَكَانَ فِي إِقْبَالِهِ عَلَى أُولَئِكَ الْقَوْمِ وَحُسْنِ صُحْبَتِهِ إِيَاءَهُمْ رَجَاءً الْإِسْلَامِ مِنْهُمْ؛ إِذْ إِقْبَالُهُ وَحُسْنُ صُحْبَتِهِ يُظْهَرُ لَهُمْ، وَفِي الْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ ذَهَابُ ذَلِكَ الرَّجَاءِ وَإِبْدَاءُ الْجَفَاءِ مِنْهُ إِيَاءَهُمْ.

وَمَنْ أَثَرُ الْوَجْهِ الَّذِي فِيهِ اتِّقَاءُ الْجَفَاءِ وَالِدَعَاءُ مِنَ الرَّدْعِ إِلَى الْهُدَى وَصِلَاحِ الدِّينِ فَهُوَ مُحْمَدٌ عِنْدَ ذَوِي الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى، وَلِأَنَّ إِقْبَالَهُ عَلَى الْقَوْمِ إِذَا كَانَ لِمَكَانِ دَعَائِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَقَدْ أَمَرْنَا بِدَعَاءِ الْكُفْرَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَإِنْ كَانَ فِي دَعَائِهِمْ إِتْلَافٌ أَنْفُسِنَا وَأَمْوَالِنَا، فَلَا نَسْوَعُ الدَّعَاءَ مِنْ وَجْهِ، لَيْسَ فِيهِ تَغْيِيسُ الْوَجْهِ عَلَى وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوَّلَى.

وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ ٦٢٦ - أ / وَجِدَ مِنْهُ هَذَا النَّوعُ مِنَ الْإِيْثَارِ اجْتِهَاداً وَرَأياً، وَالْأَنْبِيَاءُ ﷺ، قَدْ جَاءَهُمُ الْعِتَابُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِتَعَاظِيهِمْ أَمْوراً، لَمْ يَسْبِقْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمُ الْإِذْنُ فِي ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ الَّذِي تَعَاظَوْهُ مِنَ الْأَمْورِ أَمْوراً مُحْمُودَةً فِي تَدْيِيرِ الْخَلْقِ نَحْوَ مَا عَوِّتَ يُونُسُ ﷺ، وَعَوَّقَ بِمُفَارَقَةِ قَوْمِهِ بِغَيْرِ إِذْنٍ، وَإِنْ كَانَ مِثْلُ تِلْكَ الْمُفَارَقَةِ، لَوْ وَجِدَ مِنْ وَاحِدٍ مِنَ أَهْلِ الْأَرْضِ اسْتَوْجَبَ بِهَا الْحَمْدَ وَحُسْنَ النَّسَاءِ، لِأَنَّ تِلْكَ الْمُفَارَقَةَ لَا تَخْلُو مِنْ تِلْكَ الْأَمْورِ الثَّلَاثَةِ ^(٤):

أَحَدُهَا: أَنَّ قَوْمَهُ كَانُوا أَهْلَ كُفْرٍ، وَكَانُوا لَهُ أَعْدَاءُ فِي الدِّينِ، فَفَارَقَهُمْ لِيَنْجُوَ مِنْهُمْ، وَيَسَلَّمَ لَهُ دِينُهُ، وَمِثْلُ هَذَا لَوْ وَجِدَ مِنْ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ، عُدَّ ذَلِكَ مِنْ أَفْضَلِ شَمَائِلِهِ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: فتعبس. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ثلاثة.

والثاني: أَنَّ فِي مُفَارِقَتِهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ [تَخْوِيفاً لَهُمْ وَتَهْوِلاً^(١)] قِيدَعُوهُمْ ذَلِكَ إِلَى الْإِنْقِلَاعِ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْفَرْجِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَمَنْ خَوَّفَ آخَرَ بِأَمْرِ، يَكُونُ فِيهِ دَعَاؤُهُ إِلَى الْهُدَى وَرَدُّعُهُ عَنِ الضَّلَالِ، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي النَّصِيحَةِ^(٢) وَاسْتِقَامَ عَلَى الطَّرِيقَةِ.

والثالث: أَنَّهُ يَفَارِقُهُمْ لِيَسْتَنْصِرَ بِغَيْرِهِمْ^(٣)، فَيَنْصُرُونَهُ عَلَيْهِمْ، وَيَتَّقَوْنَ بِهِمْ لِيَكُونَ عَلَى دَعَائِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ أَمْكَنَ وَأَقْدَرَ. وَمَنْ كَانَتْ مُفَارِقَتُهُ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى هَذِهِ النِّيَّةِ فَلْيَنْعَمِ الْمُفَارِقُ هُوَ، ثُمَّ عُوتِبَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ.

وَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْكِتَابِ قِصَّةَ لِلْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا. فَكَذَلِكَ الْوَجْهُ فِي مُعَاتِبَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَقْصِدْ إِلَى تَعْبِيسِ الْوَجْهِ عَلَى ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَلَا تَوَلَّى عَنْهُ عَمْدًا لِذَلِكَ. لَكِنْ لَمَّا قَطَعَ عَلَيْهِ حَدِيثُهُ، وَكَانَ فِيهِ قَطْعُ رَجَاءِ إِسْلَامِ أُولَئِكَ الْقَوْمِ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَاغْتَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ هَمٌّ شَدِيدٌ أَثَّرَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، لَا أَنْ كَانَ مِنْهُ ذَلِكَ عَلَى الْقَصْدِ.

وَوَجْهُ آخَرُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ فِي قَلْبِهِ ﷺ مِنَ الشَّقَقَةِ وَالرَّحْمَةِ عَلَى الْعَالَمِينَ حَتَّى بَلَغَ مِنْ شَفَقَتِهِ أَنْ كَادَتْ نَفْسُهُ تَذْهَبُ عَلَى مَنْ [أَعْرَضَ عَنْ^(٤)] دِينِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِيمَانِ بِهِ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِ، وَحَتَّى قَالَ^(٥) لَهُ: ﴿لَتَكُنَّ بَنِي نَفْسِكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وَقَالَ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠] وَقَالَ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وَتَأْوِيلُهُ: أَلَا تَحْزَنْ بِمَكَانِهِمْ كُلَّ هَذَا الْحُزْنِ، فَيَكُونُ فِيهِ تَخْفِيفُ الْأَمْرِ عَلَيْهِ لَا أَنْ يَكُونَ فِيهِ نَهْيٌ عَنِ الْحُزَنِ وَعَنِ الْحَسْرَةِ. وَلِلذَلِكَ قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحریم: ١] وَمَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَلَا تُحْمَلُ نَفْسُكَ كُلَّ هَذَا التَّحْمِيلِ حَتَّى تَمْتَنِعَ عَنِ الْإِنْتِفَاعِ بِمَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ الْإِنْتِفَاعَ بِهِ طَلَبًا لِمَرْضَاتِيهِنَّ، لَا أَنْ يَنْهَاهُ عَنِ ابْتِغَاءِ مَرْضَاتِيهِنَّ، بَلْ قَدْ نَذَبَهُ^(٦) إِلَى ابْتِغَاءِ مَرْضَاتِيهِنَّ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ أَذَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَرَضِيَتْ بِمَا ءَايَتْهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١].

فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اشْتَدَّ عَلَيْهِ إِعْرَاضُ أُولَئِكَ الْقَوْمِ عَنِ الْإِيمَانِ، وَكَبُرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى تَغَيَّرَ لَوْنُ وَجْهِهِ، فَتَرَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَسَى وَتَوَلَّى﴾ يُبَيِّنُ شِدَّةَ مَا اغْتَرَاهُ مِنَ الْهَمِّ حَتَّى أَثَّرَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، لَا أَنْ يَكُونَ فِيهِ مَذْمُومَةٌ وَمَنْقُصَةٌ.

ثُمَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَوَائِدُ آخَرُ:

إِحْدَاهَا^(٧): جَوَازُ الْعَمَلِ بِالْإِجْتِهَادِ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَلَ هَذَا النُّوعَ اجْتِهَادًا لَا نَصًّا؛ إِذْ لَوْ كَانَ الْإِذْنُ بِالتَّوَلَّى وَالتَّعْيِيسِ سَافِعًا لَمْ يَكُنْ يُعَاتَبُ بِفَعْلٍ مَا قَدْ أَمَرَ بِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ لَا تَذُلُّ الْمُعَاتِبَةُ عَلَى النَّهْيِ عَلَى إِقْدَامِهِ [عَلَى^(٨)] مِثْلِهِ، فَيُحَرِّمُ عَلَيْهِ الْإِجْتِهَادُ؟ قِيلَ^(٩) لَهُ: لَوْ كَانَ نَهْيًا لَمْ يَكُنْ يَعُودُ إِلَى الْعَمَلِ بِالْإِجْتِهَادِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَقَدْ وَجَدَ مِنْهُ ﷺ، الْعَوْدُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَمَّا أَثَبَّ اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] وَبِقَوْلِهِ^(١٠): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحریم: ١]. فَثَبَّتَ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ نَهْيٌ، وَفِيهِ أَنَّ الْكَافَرَ، وَإِنْ كَانَ مُبْجَلًا مُعْظَمًا فِي قَوْمِهِ، فَلَيْسَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُعْظَمُوهُ، وَيُبْجَلُوهُ، بَلْ يُسْتَرَدَّلُ، وَيُسْتَحَفُّ بِهِ، وَأَنَّ الْمُسْلِمَ يَنْبَغِي أَنْ يُعْظَمَ، وَيُكْرَمَ، وَإِنْ كَانَ حَقِيرًا فِي أَعْيُنِ الْخَلْقِ.

[وَالثَّانِيَةِ: ^(١١) آيَةُ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَدَلَالَةُ نُبُوَّتِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْتَلِقْ هَذَا الْكِتَابَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ مَنْ يَتَعَاطَى فِعْلًا، حَقُّهُ السِّرُّ، فَهُوَ يَسْتُرُّهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا يَهْتِكُ عَلَيْهَا السُّرَّ، لِثَلَا يُلْزَمَ عَلَيْهِ. فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَأْمُورًا بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ لَكَانَ يَجْتَهِدُ فِي السُّرِّ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَا يَنْبَغُ لِلْخَلِائِقِ. وَلَكِنَّهُ كَانَ رَسُولًا لَمْ يَجِزْ مِنْ تَبْلِيغِهِ إِلَى الْخَلْقِ بَدَأَ، فَبَلَّغَهُ كَمَا أَمَرَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: تَخْوِيفٌ لَهُمْ وَتَهْوِيلٌ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الصَّحْبَةُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بَغِيرِهِ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: قِيلَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: نَذَبَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَحَدُهُمَا. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقِيلَ. (١٠) الْوَارِثُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفِيهِ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُكَ إِلَّا دُجْرًا﴾ و: لَعَلَّ مِنْ اللَّهِ وَاجِبٌ. وقوله: ﴿يَذْكُرُكَ﴾ أي يَتَزَكَّى بِعِلْمِهِ وَيُتَبَّهِ. وفي (١) هذه الآية قضاء بإبطال قول مَنْ زَعَمَ أَنَّ جميع ما في القرآن ﴿وَمَا يَذْكُرُكَ﴾ هو مما لم يذره.

يُزَيِّدُ ذَلِكَ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ رضي الله عنه وغيره أنه (٢) قد أدراه ههنا بقوله: ﴿لَعَلَّ يَذْكُرُكَ﴾ و: لَعَلَّ مِنْ اللَّهِ وَاجِبٌ. وإذا جعلته واجباً، فقد زكاه، وإذا زكاه فقد علمه النبي ﷺ.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَذْكُرُكَ فَتَذْكُرُكَ لِيَاَهُ، فَيَنْتَفِعَ بِتَذْكُرِكَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنْ يَكُونَ يَتَذَكَّرُ بِتَذْكُرِكَ لِيَاَهُ، فَيَنْتَفِعَ بِتَذْكُرِكَ.

والثاني: أَنْ يَتَذَكَّرُ فِي مَا ذَكَرْتَهُ مِنَ الْعَوَاقِبِ وَمَا يَحِقُّ عَلَيْهِ فِي حَالِهِ، فَيَنْتَفِعَ بِهِ.

فتكون المنفعة في التأويل الأول بالتذكُّرِ بنفسِ تَذَكُّرِ الرسول ﷺ وفي التأويل الثاني بتذكُّره في ما ذَكَرَهُ النبي ﷺ.

الآية ٥

وقوله تعالى: ﴿أَنَا مَنِ اسْتَقْنَى﴾ أي بما اختاره عما جئت به مِنَ الدِّينِ، وَاسْتَقْنَى بِالَّذِي زَيْنَ لَهُ الشَّيْطَانُ عَمَّا جئت به، أَوْ يَكُونُ عَلَى الْغِنَى الْمَعْرُوفِ، لِأَنَّ الَّذِينَ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ كَانُوا أَهْلَ ثَرَةٍ وَغِنَى، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ رَجَاءً أَنْ يُسَلِّمُوا، فَيَتَّبِعُهُمْ أَتْبَاعُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، إِذْ كَانُوا مِنْ رُؤَسَائِهِمْ وَأَجَلَّتْهُمْ.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْتَ لَمْ تَصَدِّقْ﴾ أي مُقْبِلٌ عَلَيْهِ بِوَجْهِكَ (٣).

الآية ٧

[وقوله تعالى] (٤): ﴿وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَذْكُرُكَ﴾ أي لَيْسَ عَلَيْكَ غَيْرُ التَّذْكِيرِ إِذَا أَعْرَضَ عَنْكَ، وَعَادَاكَ، لَنْ يُمَكِّنَ مِنْ الْحَاقِّ ضَرَرَ بَكَ، بَلِ اللَّهُ يَغْصِمُكَ، وَيُدْفَعُ عَنْكَ شَرَّهُ.

الآيتان ٨ و ٩

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا مَنِ اسْتَقْنَى﴾ وهو يَحْتَمِلُ أَي يَفْعَلُ اللَّهُ تَعَالَى، وَيَخْشَاهُ.

فجائز أَنْ تَكُونَ الْخَشْيَةُ عِلَّةً لِلتَّوَكُّلِ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: أَنَّ خَشْيَتَهُ هِيَ الَّتِي حَمَلَتْهُ إِلَى التَّوَكُّلِ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يُخْرِجَ الْكَلَامُ مُخْرِجَ الْعُطْفِ عَلَى جَعْلِ أَحَدِهِمَا عِلَّةً لِلْأُخْرَى وَدَلِيلًا لَهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَنًا فَأَنْصِتْكُمْ ثُمَّ يُبَشِّرُكُمْ ثُمَّ يَحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فَكَانَ الْإِحْيَاءُ الْأَوَّلُ دَلِيلًا لِلْإِحْيَاءِ الثَّانِي فِي مَوْضِعِ الْعُطْفِ وَالتَّرْتِيبِ عَلَى الْكَلَامِ الْأَوَّلِ.

أَوْ أَنْ يَكُونَ ابْتِدَاءً: فَقَوْلُهُ: ﴿جَاءَكَ يَسْرًا﴾ وهو يَحْتَمِلُ اللَّهُ تَعَالَى، وَيَخَافُ التَّبِعَةَ وَحُلُولَ الثُّقْمَةِ.

الآيتان ١٠ و ١١

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْتَ عَنْتَ لِلَّهِ﴾ (٥) ﴿كَلَّا﴾ قَالَ الْحَسَنُ: مَعْنَاهُ أَنَّ الَّذِي فَعَلْتَهُ مِنَ التَّوَلَّى عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الْكُفْرَةِ لَيْسَ مِنْ حُكْمِي.

وَذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصْمُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَسَى وَتَوَكَّلْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَنْتَ عَنْتَ لِلَّهِ﴾ تَغْيِيرَ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَافَ زَوَالَ الرِّسَالَةِ، وَأَنْ يُمَحَى اسْمُهُ عَنْهَا. فَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا﴾ عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُوعِذْهُ رَبُّهُ حِينَ (٦) نَهَاهُ عَنِ الْعُودِ إِلَى مِثْلِهِ.

وَقَالَ الْمُفَسِّرُونَ: ﴿كَلَّا﴾ أَي لَا تَعُدْ إِلَى مِثْلِ هَذَا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَذْكُرُكَ﴾ فجائز أَنْ يَكُونَ هَذَا مُنْصَرِفًا إِلَى السُّورِ (٧) ٦٢٦ - ب/ كُلِّهَا. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مُنْصَرِفًا إِلَى هَذِهِ السُّورَةِ لِأَنَّ فِيهَا إِبْهَاتَ التَّوْحِيدِ وَإِبْهَاتَ الرِّسَالَةِ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا دَلَالََةَ الْبَعْثِ وَآيَاتِهِ أَنَّ خَلْقَ الْبَشَرِ لَيْسَ عَلَى الْبَعْثِ، فَهِيَ تَذْكِرَةٌ لِمَنْ يَذْكُرُ بِهَا. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مُنْصَرِفًا إِلَى الْآيَاتِ الَّتِي قَبْلَ هَذَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَهُوَ أَنَّ فِي مَا تَقَدَّمَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنَ الْآيَاتِ تَثْبِيتَ رِسَالَتِهِ بِمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُنَا لَهُ جَائِزٌ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ، أَي هَذِهِ الْمُعَاتَبَةُ تَذْكِرَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَعْرِفُوا مَنْ يَسْتَوْجِبُ التَّعْظِيمَ وَالتَّجْبِيلَ وَمَنْ يَسْتَوْجِبُ إِهَانَتَهُ وَالْإِسْتِخْفَافَ.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَمِنْ فِي. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لِأَنَّهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بِوَجْهِهِ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: السُّورَةُ.

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿مَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ جائز أن يكون مغنا: مَنْ شَاءَ الله أَنْ يَذْكُرَهُ، أو شَاءَ ذِكْرَهُ، أي قد مَكَّنَ كُلَّ التَّذْكِيرِ، وإنه ليس أحدٌ مَمْنُوعٍ ولا مَجْبُورٍ على الفعل؛ فَمَنْ تَرَكَ التَّذْكَرَ فهو الذي ضَيَّعَ ذلك حين^(١) آنَرَ، واختارَ ضِدَّهُ، واشتغلَ بغيره، وأغرضَ عن ذِكْرِهِ.

وجائز أن يكون على تحقيق الفعل أي مَنْ تَذَكَّرَ بِهِ فهو ذِكْرُهُ، فَكُنِيَ بالمشيئة عن الفعل لما ذَكَّرْنَا أنها تَقْتَرِنُ بالفعل، ولا تُزَالُهُ، فيكون في ذِكْرِها ذِكْرُ الفعل، أو يكون على إرادة الفعل قبل وجوده.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿فِي مِصْحَبٍ مُتَكَرِّرٍ﴾ قيل: هي المِصْحَفُ الْمُتَقَدِّمَةُ كقولِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا لَمِنَ الْمِصْحَفِ الْأَوَّلِ﴾ ﴿مِصْحَبِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٨ و ١٩]. وقوله: ﴿فِي مِصْحَبٍ﴾ أي بأيدي الملائكة، وقوله: ﴿مُتَكَرِّرٍ﴾ أي بما يُكْرَمُها أهلُ الكرامة، وهم السَّفَرَةُ الْبَرَّةُ، أو مُكْرَمَةُ على الله تعالى.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿تَرْثُوعَرٍ﴾ أي مَرْفُوعَةِ الْقَدْرِ ﴿تُطَهَّرُ﴾ مِنَ التَّنَاقُضِ وَالِاخْتِلَافِ، أو مُطَهَّرَةٌ مِنْ أَنْ تَنَالَهَا أيدي العُصَاةِ، أو مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْأَقْذَارِ وَالْأَدْنَسِ.

الآية ١٥ وقوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ فَالسَّفَرَةُ الْكُتُبَةُ.

الآية ١٦ وقوله تعالى: ﴿كَرِيمٍ يَذَرُ﴾ أي كِرَامَ على الله تعالى بَرَّةً فِي أَعْمَالِهِمْ كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾ قالوا: تاويلُهُ: لُعِنَ الْإِنْسَانُ.

وَذَكَرَ الْحَسَنُ وَالْمَعْتَزَةُ أَنَّ هَذَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الشُّمِّ وَالْتِسْمِيَةِ لَهُ بِذَلِكَ، وَاسْتَجَاوَا الشُّمَّ مِنْهُ.

والأصل أن ليس في الشُّمِّ إِلَّا ظَهْوُ سَفْوِ الشَّائِمِ وَعَبْسِهِ؛ إِذْ لَا ضَرَرَ يَلْحَقُ بِالْمَشْتُمِ مِنْ جِهَةِ الشُّمِّ، وَإِنَّمَا ضَرَرُ ذَلِكَ الشُّمِّ عَلَى الشَّائِمِ خَاصَّةٌ. وَأَمَّا الْمَشْتُمُ فَإِنَّمَا يَصِيرُ مَشْتُمًا بِفَعْلِهِ لَا بِشُمِّ الشَّائِمِ، وَجَلَّ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَنْ يَنْسَبَ إِلَيْهِ فَعْلُ السَّفْوِ. فَلِذَلِكَ قُلْنَا: إِنَّهُ لَا يَتَحَقَّقُ مَعْنَى الشُّمِّ فِي الْكَلِمَةِ الَّتِي عُرِفَتْ فِي مَا بَيْنَ الْخَلْقِ إِذَا جَاءَتْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا لَا يَتَحَقَّقُ فِي الْكَلِمَةِ الَّتِي عُرِفَتْ اغْتِيَابًا فِي مَا بَيْنَ الْخَلْقِ إِذَا جَاءَتْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَعْنَى الْإِغْتِيَابِ. بَلْ يَخْتَمِلُ ذَلِكَ عَلَى الرَّدْعِ وَالتَّنْبِيهِ، فَيَكُونُ فِي ذِكْرِهَا تَخْوِيفٌ مِنْ خَوْطِهَا، وَتَذْكِيرٌ لِلْخَلْقِ سَفْهَهُ وَجَهْلَهُ.

أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَرْءَ فِي الشَّاهِدِ قَدْ يَتَكَلَّمُ بِمَا فِيهِ هَتَكُ السُّتْرِ عَلَى الْمُخَاطَبِ، ثُمَّ لَا يُعَدُّ ذَلِكَ مِنْهُ اغْتِيَابًا إِذَا قُصِدَ بِهِ وَغْظُهُ وَزَجْرُهُ عَمَّا هُوَ وَرُشْدُهُ إِلَى مَا فِيهِ صَلَاحٌ آخِرِيٍّ وَأَوَّلَاهُ؟ فَكَذَلِكَ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا جَاءَ مِنْهُ مَا يُعَدُّ شُتْمًا مِنْ غَيْرِهِ وَاغْتِيَابًا لَمْ يَلْحَقْهُ وَصْفُ الشُّمِّ وَالْغِيَةِ [وَيَكُونُ^(٢)] ذَلِكَ مِنْهُ عَلَى التَّذْكِيرِ وَالتَّنْبِيهِ لِلْخَلْقِ وَعَلَى التَّخْوِيفِ وَالتَّهْوِيلِ لِمَنْ نُسِبَ إِلَيْهِ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿مَا أَكْفَرُ﴾ أي ما أَفْجَحَ كُفْرُهُ وَأَوْحَشَهُ وَأَشْنَعَهُ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ جَمِيعَ مَا أَنْعَمَ بِهِ مِنَ النِّعَمِ فَمِنَ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ هُوَ لَمْ يَشْكُرْ نِعْمَهُ، وَلَا أَطَاعَهُ فِي مَا دَعَاهُ إِلَيْهِ، بَلْ وَجَّهَ شُكْرَهُ إِلَى مَنْ لَا يَنْفَعُهُ وَلَا يَضُرُّهُ، فَعَبَدَ مَنْ لَا يَسْمَعُ، وَلَا يُبْصِرُ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا، مَا هَذَا إِلَّا غَايَةُ الْفُحْشِ وَنَهَايَةُ الْقُبْحِ، أَوْ مَا أَوْحَشَ كُفْرُهُ وَأَفْجَحَهُ بِمَا سَوَّى بَيْنَ الشُّكْرِ وَالْكَفْرِ وَبَيْنَ الْمُفْسِدِ وَالْمُضْلِحِ وَبَيْنَ الْوَلِيِّ وَالْعَدُوِّ، وَالْعَقْلُ يُوجِبُ التَّفَرُّقَ بَيْنَهُمَا، فَهُوَ بِإِنْكَارِهِ الْبَعَثَ كَابَرُ عَقْلُهُ، وَعَانَدَهُ، فَمَا أَشَدَّ كُفْرَ مَنْ هَذَا وَصَفُهُ.

ثم قوله تعالى: ﴿مَا أَكْفَرُ﴾ أي أيُّ شَيْءٍ أَكْفَرُهُ؟ فَيَكُونُ فِي ذِكْرِهِ تَعْجِيبٌ لِمَنْ آمَنَ مِنَ الْخَلَائِقِ وَتَذْكِيرٌ لَهُمْ عَنْ سُوءِ مَنْ هَذَا فَعَلُهُ وَسُوءِ مُعَامَلَتِهِ مَعَ رَبِّهِ.

الآيتان ١٨ و ١٩ وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقْتُمْ﴾ ﴿مِنْ نُّفُوفٍ خَلَقْتُمْ فَقَدْ رُحِمْتُمْ﴾ فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّ الَّذِي كَفَرَ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ خُلِقَ مِنْ نُّفُوفٍ، وَتِلْكَ النُّفُوفُ مَوَاتٌ، لَا سَمْعَ فِيهَا، وَلَا عَقْلَ، وَلَا شَيْءَ مِنَ الْجَوَارِحِ، ثُمَّ اللَّهُ تَعَالَى بَلَطْفِهِ وَعَجِيبِ حَكَمَتِهِ، دَبَّرَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذَا.

فيها بَصَرًا، يَرَى بِفَتْحِهِ وَاحِدَةً فِي أَذْنَى وَهَلَّةٍ مَسِيرَةَ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ، وَقَدَّرَ فِيهَا عَقْلًا، يَرَى بِهِ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَقَدَّرَ فِيهَا السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْجَوَارِحِ.

أَتَرَى أَنْ مَنْ بَلَغَتْ قُدْرَتُهُ هَذَا يَعْجَزُ عَنْ إِحْيَاءِ مَنْ أَمَاتَهُ وَعَنْ بَعْثِهِ بِأَقْلٍ مِنْ لَحْظَةٍ؟ أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿مِنْ ثَلَاثَةِ خَلْقَةٍ﴾ تعريفًا^(١) مِنْهُ أَنَّهُ خَلَقَهُ مِنْ نَظْفَةٍ، وَيَكُونُ فِي ذِكْرِهِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْفَوَائِدِ.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ أَي سَوَّاهُ عَلَى وَجْهِ تَكُونُ فِيهِ دَلَالَةٌ رُبُوبِيَّتِهِ وَشَهَادَةٌ وَحْدَانِيَّتِهِ أَوْ قُدْرَتُهُ عَلَى مَا فِيهِ صَلَاحُهُ وَمَنْفَعَتُهُ أَوْ قُدْرَتُهُ عَلَى [مَا]^(٢) يَشَاءُ مِنَ الْقَصْرِ وَالطُّولِ وَالذَّمَامَةِ وَالْمَلَا حَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ النَّبِيلَ يَنْسِرُهُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ السَّبِيلِ الدِّينِ؛ فَكَانَهُ يَقُولُ: يَسِّرْ لَهُ ذَلِكَ السَّبِيلَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَا ذَكَرْنَا أَنَّ الدِّينَ إِذَا أُطْلِقَ أُرِيدَ بِهِ دِينُ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَذَلِكَ الْكِتَابُ الْمُطْلَقُ يُرَادُ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى. فَعَلَى ذَلِكَ السَّبِيلِ إِذَا ذُكِرَ مُطْلَقًا كَانَ مُنْصَرِفًا إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ يَسِّرْ لَهُ السَّبِيلَ سَبِيلَ الْهُدَى وَسَبِيلَ الضَّلَالِ وَالسَّبِيلَ [الَّذِي] لَوْ سَلَكَهُ نَفَعُهُ وَالسَّبِيلَ^(٣) [الَّذِي] يَضُرُّهُ، أَوْ يَسِّرْ لَهُ السَّبِيلَ الَّذِي عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ يَخْتَارُهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَثَقًى﴾ وَصَدَقَ بِالْحَقِّ﴾ ﴿فَسَيَّئِرُ لِلْغُرَى﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَفْتَنَ﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ ﴿فَسَيَّئِرُ لِلْمُرَى﴾ [الليل: ٥ إلى ١٠] أَي يَسِّرْ عَلَيْهِ سَبِيلَ الْخُرُوجِ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ عَلَى ضَبِيقِ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ وَكِبَرِ جُثَّتِهِ لِيَعْلَمُوا أَنَّ مَنْ بَلَغَتْ قُوَّتُهُ هَذَا فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى [مَا]^(٤) أَرَادَ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرٌ.

الآية ٢١ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ فِي ذِكْرِ هَذَا ذِكْرُ النِّعَمِ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لِمَا يَخْبُثُ، وَيَتَغَيَّرُ، كُنَّا يُكْنَى فِيهِ، فَيَسْتَرْهُ عَنِ الْخَلْقِ لثَلَاثَ عَافُوهُ، وَيَسْتَقْذِرُوهُ، وَلَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ لِغَيْرِهِمْ، وَجَعَلَ لَأَنْفُسِهِمْ، إِذَا هِيَ^(٥) تَغَيَّرَتْ بِالمَوْتِ، وَصَارَتْ بَحِثٌ تُسْتَخْبَثُ، وَتُسْتَقْدَرُ، كُنَّا تُسْتَرْ فِيهِ^(٦) لِيُتَيَّبَ عَنِ الْخَلْقِ، فَلَا يَتَأَذُّوا بِهَا، فَذَكَرَهُمْ هَذَا لِيَشْكُرُوا.

الآية ٢٢ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ مَغْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، كَذَلِكَ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ لِأَنَّ هَذَا كُلَّهُ إِنْخِبَارٌ فِي مَوْضِعِ الْإِخْتِجَاجِ؛ فَكَانَهُ قَالَ: إِنَّ الَّذِي خَلَقَهُ مِنْ نَظْفَةٍ، وَقَدَّرَهُ، ثُمَّ أَمَاتَهُ، فَأَقْبَرَهُ، فَهُوَ كَذَلِكَ يَنْشُرُهُ إِذَا شَاءَ، وَكَذَلِكَ هَذَا فِي قَوْلِهِ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أَي إِنَّ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ أَمَاتَكُمْ، فَكَذَلِكَ هُوَ الَّذِي يُحْيِيكُمْ.

الآية ٢٣ وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَنَا بَقِيَّةٌ مَّا أَمَرُ﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّ هَذَا الْخِطَابَ فِي كُلِّ أَحَدٍ، لَا تَرَى إِنْسَانًا قَضَى جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى حَدِّ مَا أَمَرَ حَتَّى لَا يَغْفَلَ عَنْهُ، وَلَا يَقْصُرَ فِيهِ، بَلْ مَنْ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ طَرَفَةٍ عَيْنِ نِعْمَةٍ، لَا يَنْتَهِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُومَ بِكُنْهِ شُكْرِهَا حَتَّى لَا [يَقَعَ]^(٧) مِنْهُ فِي ذَلِكَ جَفَاءٌ وَلَا تَقْصِيرٌ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هَذَا فِي الْكَفَارِ خَاصَّةً، لَا يَقْضُونَ مَا أَمَرُوا بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ.

فَإِذَا كَانَ عَلَى هَذَا فَهُوَ مُنْصَرِفٌ إِلَى ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ، وَإِنْ كَانَ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ^(٨) فَهُوَ مُنْصَرِفٌ إِلَى كُنْهِ الْأَمْرِ، وَيَسْتَقِيمُ تَوَجُّهُهُ إِلَى الْكَافِرِ عَلَى مَا ذَكَرُوا، لِأَنَّ إِيْمَانَ الْمُؤْمِنِ، لَهُ حُكْمُ التَّجَدُّدِ فِي كُلِّ وَقْتٍ؛ إِذْ هُوَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَأْمُورٌ بِاجْتِنَابِ الْكُفْرِ، فَهُوَ يَجْتَنِبُهُ، فَكَذَلِكَ يَكُونُ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ/ ٦٢٧ - أ/ ثَبَّتَ أَنَّهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ مُؤْمِنٌ بِمَا^(٩) أَمَرَ بِهِ، مُجْتَنِبٌ^(١٠) عَمَّا نُهِيَ عَنْهُ، فَهُوَ بِإِيْمَانِهِ رَاجِعٌ عَنِ الزَّلَّاتِ فِي كُلِّ حَالٍ، مُتَعَقِّدٌ لِلْوَفَاءِ بِمَا أَمَرَ بِهِ، لِذَلِكَ كَانَ صَرْفُهُ إِلَى الْكَافِرِ أَوْجِبَ^(١١).

الآية ٢٤ وقوله تعالى: ﴿تَنْظُرُ إِلَى ظَاهِرِهِ﴾ كَيْفَ قُدَّرَ لَهُ حِينَ^(١٢) اسْتَعْمَلَ فِيهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَالْهَوَاءَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ؛ فَاسْتَعْمَالَ السَّمَاءِ فِي إِنْزَالِ الْمَطَرِ مِنْهَا، وَاسْتَعْمَالَ الْهَوَاءِ فِي جَفْلِهِ^(١٣) مَسْلَكًا لِلْمَطَرِ، وَاسْتَعْمَالَ الْأَرْضِ فِي جَفْلِهَا قَرَارًا لِلْمَطَرِ وَإِخْرَاجَ^(١٤) مِنْهَا مَا فِيهِ قَوَامُهُمْ وَمَنَافِعُهُمْ، فَيَكُونُ فِي ذِكْرِ هَذَا فَوَائِدُ:

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: تَعْرِيف. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: هَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهَا. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّذِي. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمَّا. (١٠) أُدْرِجَ قَبْلُهَا فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْجَه. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: جَعَلَهَا. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَخْرَجَ.

أحداها^(١): في مَوْضِعِ التعريفِ للخلاتِ أَنْ مُنْشِئَ السمواتِ والأرضينَ وَمُنْشِئَ الْخَلْقِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاحِدٌ لَا تُصَالُ مَنَافِعُ بَعْضٍ بِبَعْضٍ، إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَكَانَ لِمُنْشِئِ السَّمَاءِ أَنْ يَمْنَعَ مَنَافِعَ السَّمَاءِ عَنْ خَلْقِ مُنْشِئِ الْأَرْضِ.

[والثانية^(٢)]: فِيهِ تَذَكِيرٌ قُوَّتِهِ وَعَجِيبُ حَكْمِهِ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ مَا يُرِيدُ فَعَلَهُ، لَا يَضَعُفُ عَنْ ذَلِكَ، وَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ مَنَافِعِ مَا ذَكَرْنَا مَعَ تَنَاقُضِهَا وَاخْتِلَافِهَا فِي نَفْسِهَا، فَجَعَلَهَا مِنْ حَيْثُ الْمَنَافِعُ مُتَّفِقَةٌ مُتَّفَقَةً، وَجَعَلَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ كَالْمُتَّصِلَةِ بِالْأُخْرَى الْمُقْتَرَنَةِ بِهَا مَعَ بُعْدٍ مَا بَيْنَهُمَا.

فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى الْإِتْسَاقِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ، وَقَدَّرَ عَلَى الْوَصْلِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ الْمُتَبَاعِدَةِ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَمْوَاتِ وَالْبَعْثِ.

[والثالثة^(٣)]: تَذَكِيرُهُمْ^(٤) هَذَا لِيُبَيِّنَ لَهُمْ حَكْمَتَهُ وَعِلْمَهُ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ عَبَثًا، وَلَا يَتْرَكُهُمْ سُدىً، لَا يَسْتَأْذِي مِنْهُمْ الشُّكْرَ، وَلَا يَنْعَتُهُمْ، بَلْ يُنْشِئُهُمْ، وَيُمِيتُهُمْ فَقَطْ، فَيَخْرُجُ خَلْقُهُ عَلَى مَا فِيهِ خُرُوجٌ عَنِ الْحِكْمَةِ.

[والرابعة^(٥)]: أَنَّهُ^(٦) خَلَقَ الْبَشَرَ عَلَى وَجْهِ، تَمَسُّهُمُ الْحَاجَاتُ [فِيهِ، وَتَمَسُّهُمْ^(٧)] الشَّهَوَاتُ، وَقَدَّرَ الطَّعَامَ عَلَى وَجْهِ، إِذَا تَنَازَلَ [أَحَدًا^(٨)] مِنْهُ دَفَعَ حَاجَتَهُ، وَسَكَنَ شَهْوَتَهُ. وَلَوْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يُذْرِكَ^(٩) الْمَعْنَى الَّذِي يَعْمَلُ فِي دَفْعِ الْحَاجَةِ وَتَسْكِينِ الشَّهْوَةِ مَا هُوَ؟ لَمْ يَصِلْ إِلَى تَعْرِيفِهِ، فَيُؤَدِّي تَفَكُّرُهُ إِلَى رَفْعِ الشُّبُهَةِ وَالْإِغْتِرَاضَاتِ الَّتِي تَعْتَرِيهِ فِي أَمْرِ الْبَعْثِ. وَغَيْرُهُ إِذَا كَانُوا يَقْدُرُونَ الْأَمْرَ عَلَى قَوَاهِمِهِ، وَيُسَوِّوْنَهَا عَلَى مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ تَدْبِيرُهُمْ؛ فَإِذَا وَجَدُوا فِي الطَّعَامِ مَعَانِي، هِيَ خَارِجَةٌ عَنْ تَدْبِيرِهِمْ وَقَوَاهِمِهِ، عَلِمُوا أَنَّ لَيْسَ الْأَمْرَ عَلَى مَا قَدَّرُوا، فَيَرْتَفِعُ عَنْهُمْ الرَّيْبُ وَالْإِشْكَالُ.

وَكَذَلِكَ لَوْ أَرَادُوا أَنْ يَسْتَخْرِجُوا مِنَ الْمَاءِ الْمَعْنَى الَّذِي بَوَّحَ أَنْ تَكُونَ بِهِ حَيَاةُ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا مَعَ اخْتِلَافِ الْأَشْيَاءِ وَتَفَاضُلِهَا وَاخْتِلَافِ طُعُومِهَا وَالْوَانِيَا لَمْ يُمَكِّنْهُمْ ذَلِكَ، فَيَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي بَلَّغَتْ حَكْمَتُهُ هَذَا الْمَبْلَغَ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ ﴿فَقَالَ لَنَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]... وَيَكُونُ فِي النَّظَرِ فِي مَا ذَكَرَ حَاجَتَهُ وَافْتِقَارَهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَيَتَبَيَّنُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُنْشِئِ الْخَلْقَ لِحَاجَةِ نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا خَلَقَهُ لِحَاجَةِ الْبَشَرِ إِلَيْهِ.

الآيات ٢٥ و ٢٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَبَّأُ اللَّيْلَةَ سَبَّأً﴾ ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفَاقًا﴾ لِيَقَرَّ الْمَاءُ فِي شُقُوفِهَا، فَيَصِلَ الْخَلْقُ إِلَى الْإِنْتِفَاعِ بِهِ، أَوْ شَفَقْنَاهَا لِلنَّبَاتِ.

الآيات ٢٧ و ٢٨ [وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفَاقًا﴾] ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفَاقًا﴾ ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفَاقًا﴾ ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفَاقًا﴾ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْبَتَهَا فِي الْأَرْضِ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ غَيْرُ نَابِتِينَ فِي الْأَرْضِ، وَلَكِنْ أَخْرَجَهُمَا مِنْ أَصْلِ، هُوَ نَابِتٌ فِي الْأَرْضِ، فَاضَافَهُمَا [إِلَيْهِمَا لِمَا يَرْجِعُ^(١٠)] الْإِنْبِثَاءَ إِلَيْهَا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢] وَرِزْقُنَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَطَرِ. لَكِنَّ الَّذِي هُوَ رِزْقُنَا مِنَ الطَّعَامِ وَغَيْرِهِ إِنَّمَا يَنْبُتُ فِي الْأَرْضِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا بِالْفَطْرِ مِنَ السَّمَاءِ، فَأُضِيفَ إِلَيْهِ. فَعَلَى ذَلِكَ أُضِيفَ الْحَبُّ وَالْعِنَبُ إِلَى مَا ذَكَرْنَا لِلْمَعْنَى الَّذِي وَصَفْنَا.

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَبًا﴾ وَالْقَضْبُ، هِيَ الرُّطْبَةُ، سُمِّيَتْ قَضْبًا لِأَنَّهَا تُقَضَّبُ، وَتُقَطَّعُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ.

الآية ٢٩ [وقوله تعالى: ﴿وَرِزْقُنَا﴾] ﴿وَرِزْقُنَا﴾ فِي ذِكْرِ الزَّيْتُونِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْفَائِدَةِ، وَهُوَ أَنَّ الزَّيْتُونَ أَلْيَنُ الْأَشْيَاءِ نَبَتَ أَصْلُهُ فِي الْجِبَالِ الَّتِي هِيَ أَصْلَبُ الْأَرْضِ، فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى إِخْرَاجِ أَلْيَنِ الْأَشْيَاءِ مِنْ أَصْلَبِ الْأَشْيَاءِ قَادِرٌ عَلَى الْإِنْبِثَاءِ وَالْبَعْثِ؛ إِذْ مَنْ قَدَّرَ عَلَى أَنْ يُخْرِجَ أَلْيَنَ الْأَشْيَاءِ مِنْ أَصْلَبِ الْأَشْيَاءِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُلَيِّنَ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ حَتَّى تَلَيَّنَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

الآية ٣٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَدَائِقُ غُلَابٍ﴾ فَالْحَدَائِقُ، هِيَ الْبَسَاتِينُ الَّتِي أَخْدَقَتْ بِالْأَشْجَارِ، وَأَحَاطَتْ بِهَا، وَالْغُلْبُ الْغِلَظُ؛ يُقَالُ: رَجُلٌ أَغْلَبُ، إِذَا كَانَ غَلِيظَ الرَّقَبَةِ، وَقَوْمٌ غُلْبُ الرُّقَابِ أَيُّ غِلَظَ. وَقَالُوا أَيْضًا: الْغُلْبُ الْأَشْجَارُ الْكثِيفَةُ الطَّوِيلَةُ.

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: أَحَدُهُمَا. (٢) فِي الْأَصْلِ رَم: وَ. (٣) فِي الْأَصْلِ رَم: وَذَكَرَهُمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ رَم: وَلَا تَه. (٥) فِي الْأَصْلِ رَم: وَتَمَسَّهُ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٧) فِي الْأَصْلِ رَم: يَتَذَارَكُ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٩) فِي الْأَصْلِ رَم: إِلَيْهِمَا لِيَرْجِعَ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم.

الآيات ٣١ و ٣٢ وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا نَافَعَةٌ وَلَكُمْ فِيهَا فَائِزَةٌ﴾^(١) والاب الكلاء؛ فيُخِيرُ أنه أنشأ هذه الأشياء لتكون متاعاً للخلق والأنعام لا لمتافع نفسه.

الآية ٣٣ وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَتْ سَكَنُكَ﴾ قال الحسن: هي اسم القيامة؛ يصح لها كل شيء، ويو يقول أبو بكر: إنه يصح لمجيئها كل شيء، أي يخشع لها، ويظا طرأ رأسه للداعي كما قال الله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القم: ٨]. وقال القتيبي: الصاخة، هي الداهية، فذكر القيامة بالأحوال التي تكون فيها أو بالأفعال التي توجد فيها على ما ذكرنا. وقال الزجاج: الصاخة المصممة، تضم لها الاسماع عن كل شيء إلا إلى ما تدعى إليه^(٢).

الآيات ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْرُّءُوسُ مِنْ أَبْنِئِهِ﴾ [وَأَيْنِدَ وَأَيْنِدَ] ﴿وَصَحْبِهِ وَيَبْنِئِهِ﴾^(٣) فجائز أن يكون هذا على تحقيق الفرار، وجائز ألا يكون على التحقيق، ولكن وُصِفَ بالفرار لما يوجد منه المعنى الذي يوجد من الفرار. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ﴾ [المؤمنون: ١٠١] والوجه فيه أن الأقرباء من شأنهم إذا اجتمعوا استبشروا بعضهم ببعض، وأنسوا بالاجتماع، وإذا غابوا سألوا عن أحوالهم، واهتموا لذلك. ثم هم في ذلك اليوم يدعون السؤال عند الغيبة والإستينشار عند الحضرة، حتى كأنه لا أنساب بينهم في الحقيقة^(٤)، ولكن ما يحل بكل واحد من الإهتمام يشغله عن السؤال [عن حاله]^(٥) والإستينشار برويته حتى يصير كالفرار لوقوع المعنى الذي يوجد من الفرار لا على تحقيق الفرار لأنه قال: ﴿لِكُلِّ أَرْبٍ يُنْتَهِي يَوْمَئِذٍ شَأْنُهُ يُغْنِيهِ﴾ فما يحل من الشأن يمنع عن الفرار عن نفسه وعن أقربائه، أو يكون على حقيقة الفرار.

وذلك أن الأقرباء لا يوجد منهم القيام بوفاء جملته ما عليهم من الحقوق حتى لا يوجد منهم التقصير، فيخافوا^(٦) في ذلك اليوم أن يؤاخذوا بذلك، فيحملهم على الفرار، ويغير كل منهم من تحمّل ثقل الأقرباء كما قال: ﴿وَلَنْ تَدْعُ مَتَقَلَّةً إِلَا جَلِيلًا لَا يَحْمِلُ يَنْتَهِي شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨] وقد كانوا يتعاونون في الدنيا في تحمّل الأثقال، فيخبر أنهم لا يتعاونون في ذلك اليوم، بل يقرّون.

ثم جائز أن يكون هذا في الكفرة. وأما أهل الإسلام فإنه يجوز أن تبقى بينهم حقوق القرابة كما أبقيت المودة في ما بين الأجلاء بقوله تعالى: ﴿الْأَجْلَاءُ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ لِبَعْضٍ عَدُوًّا إِلَّا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وإن كان في المسلمين والكفرة جميعاً فجائز أن يكون الفرار في بعض الأحوال، وذلك في الوقت الذي لم يتفرغ [أحد]^(٧) عن شغل نفسه. فاما إذا آمن، وجاءته البشارة، فهو يقوم بشفاعته، ويسأل عن أحواله، ولا يفر منه.

الآية ٣٧ وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَرْبٍ يُنْتَهِي يَوْمَئِذٍ شَأْنُهُ يُغْنِيهِ﴾ قالوا: أقصى كل إنسان ما يشغله عن غيره.

الآية ٣٨ وقوله تعالى: ﴿رُبُّوهُ يَوْمَئِذٍ مُنْفَرَّةٌ﴾ أي مضيئة أو ناضرة ناعمة مشرقة. فيكون فيه إخبار عما هم من النعيم حتى يظهر ذلك في وجوههم.

الآية ٣٩ وقوله تعالى: ﴿حَاجَتُهُ مُنْتَشِرَةٌ﴾ أي مسرورة بنعيم الله تعالى الذي أنعم عليهم ﴿مُنْتَشِرَةٌ﴾ برضا الله عنها.

الآية ٤٠ وقوله تعالى: ﴿رُبُّوهُ يَوْمَئِذٍ عَلِيَّا غَبَرَةٌ﴾ قالوا: هذا أول تغير يظهر في وجوههم، كأنما علاها الغبار، ثم تسود/ ٦٢٧ - ب/ ثم تظلمس، وترد على أذارها كما قال: ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ تَطْمِسَ وَجُوهًا فَنَرَدَهَا عَلَى أَذْبَارِهَا﴾ [النساء: ٤٧].

الآية ٤١ وقوله تعالى: ﴿رَبْعَتَا فَرَّةٍ﴾ قال أبو بكر: ﴿رَبْعَتَا فَرَّةٍ﴾ أي تغشاهما الذلّة، أو تعلوها، ثم تتلون بعد ذلك، فتكون كأنما علاها الغبار، ثم تسود على ما ذكرنا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. إليها. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدد في الأصل وم. بنسب. (٥) في الأصل وم. بحاله. (٦) في الأصل وم. فيخافون. (٧) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٢ وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ ثُمَّ الْكَفَرَةُ الْفَجْرَةُ﴾ أي الكفرة بأنعم الله تعالى، الفجرة المائلة عن الحقوق، والله الموفق [وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين] ^(١).



(١) من م، ساقطة من الأصل.

سورة التكويد

وهي مكية^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ هذا ليس بابتداء خطاب، ولكنه جواب عن سؤال تقدم؛ فيُشبه أن يكون السؤال عن وقت لقاء الأنفس والأعمال^(٢)، فنزل قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إشارة إلى أحوال ذلك الوقت وأثارها على ما يذكر المعنى الذي له وقع لتبيين الأحوال دون تبيين الوقت في سورة. ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

واختلف في قوله تعالى: ﴿كُوِّرَتْ﴾ قال بعضهم: هي فارسية معربة، وهي بالعربية عورت.

قال بعضهم: ﴿كُوِّرَتْ﴾ أي ذهب ضوؤها؛ يقال: كُورَ الليل على النهار، أي اذهب نوره وضياءه؛ فالتكويد يُعطي كون الشيء عن الأبصار، فقيل: كُورَتِ الشمس أي حُسِ ضوؤها على الأبصار بالطمس [فيكون]^(٣) فيو إنباء أنه يطمس ظاهرها، ثم يرد التغيير في نفسها، فتتلف، وتلاشى، ومنه يقال: كُورَ العمامة إذا لفها على رأسه، فتغطي.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ تناثر، وتساقت، وهو كقوله: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢] وقيل: ذهب ضوؤها؛ فكأنه يذهب ضوؤها أولاً، ثم تتناثر بعد ذلك.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي قلبت عن أماكنها، وسيّرت كما قال في آية أخرى: ﴿وَرَوَى الْجِبَالُ﴾ [نوح: ٢٨] وهي تسمى جبالاً وهي تسمى من السحاب [النمل: ٨٨] وهي إذا قلبت تكسرت^(٤) حتى يتبين للناظر سيرها لتكسرها^(٥)، فتتخسبها جامدة، وهي تسير. فهذا أول تغير يظهر فيها، ثم تصير ﴿كِبًا مِهْلًا﴾ [المزمل: ١٤] ثم ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] ثم ﴿مِبْكًا مَنشُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] إلى أن تلاشى، وتتلف.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبُشَارُ عُطِّلَتْ﴾ فالعشار هي النوق الحوامل التي أتى على حملها عشرة أشهر، وهي من أنفس الأموال عند أهلها؛ فيُخير أن أربابها، يُعطّلونها في ذلك اليوم، ولا يلتفتون إليها لشغلهم بأنفسهم في ذلك [اليوم]^(٦) وهو كما قال: ﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ إلى قوله: ﴿وَرَوَى النَّاسُ سُكْرَى﴾ الآية [الحج: ٢].

الآية ٥

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قيل: جُمِعَتْ؛ وهو يختلج وجهين: أحدهما: أن تُجمع كلها، فتتلف، وتُهلك.

والثاني: أن تُحشَر، في أن يُحييها بعد موتها، فيضئع الله تعالى فيها ما يشاء، فيكون في هذا إخبار عن عظم ذلك اليوم حتى يؤثر الهول في الوحوش والشمس والقمر والسموات.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبُحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قيل: فُجِّرَتْ، وسندكر تأويل انفجر في ما بعد إن شاء الله تعالى^(٧).

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النَّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قيل: قُرِنَتْ. ثم اختلف في معنى القرآن:

قال بعضهم: قُرِنَ زوجها إليها، قال بعضهم: يُقَرَنُ كلُّ باهلٍ شيعته، فيقرن الكفرة بالباطنين، وأهل الشراب بأهل

(١) من م، في الأصل: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: تكسرت. (٥) في الأصل وم: لتكسرها. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) سيكون ذلك بإذن الله في تفسير الآية ﴿وَإِذَا الْبُحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣].

الشراب، وأهل الزنى بأهل الزنى كقولهِ^(١) ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الزخرف: ٣٦ و ٣٧ و ٣٨].

ففي هذا إخبار أن المعذب منهم، إذا رأى عذوبه، يُعَذَّبُ عذابه، ويكون في العذاب الذي هو فيه لم يتسَلْ بذلك شيئاً، ولم يَلْ بِوَ راحة، وإن كان المرء في الدنيا إذا رأى عذوبه، يُعَذَّبُ، يتسَلَّى بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ وقرأ بعضهم: وإذا الموءودة سألت^(٢)، وهذا هو الظاهر أن تكون، هي السائلة، أي تسأل إياهم.

الآية ٩ ﴿يَا أَيُّ ذُنُبِكُمُ الْقِيلَاتُ﴾ تقول: بأي ذنب قتلتموني؟ وكانت العرب، تدفن بناتها، يقال: وأذنته، أي دفنته.

ثم القراءة المعروفة ﴿سُئِلَتْ﴾ وهي تختل أوجهاً ثلاثة:
أحدها: [ما]^(٣) ذكر أبو عبيدة، وقال: إن قتلها تسأل ﴿يَا أَيُّ ذُنُبِكُمُ الْقِيلَاتُ﴾ الموءودة؟

[والثاني: (٤)] أن تسأل الموءودة عند حضرة الدين وأدومها ﴿يَا أَيُّ ذُنُبِكُمُ الْقِيلَاتُ﴾؟ يراد بالسؤال تخويف وتهويل للذين وأدومها، لا سؤال استخبار واستفهام، وهو كقولهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ لِلنَّاسِ الْخِشْيُونِ وَإِنِّي لَاللهِ مِنْ دُونِ آلِهَةٍ﴾ [المائدة: ١١٦] وليس يسأل عن هذا سؤال استخبار واستفهام، ولكن يسأل سؤال تخويف وتهويل من ادعى أن عيسى عليه السلام، هو الذي أمرهم أن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله.

[والثالث: (٥)] أن تسأل الموءودة: أتدعي؟ أم لا تدعي؟ وما الذي تدعي عليهم؟ فيبدأ بها بالسؤال كما يرى المدعي في الشاهد: هو الذي يبدأ بالسؤال، فيقال له: ما تدعي على هذا؟ فقولهُ: ﴿يَا أَيُّ ذُنُبِكُمُ الْقِيلَاتُ﴾ كأنها إذا سُئِلَتْ عن الذي ادعت، وقالت: ﴿يَا أَيُّ ذُنُبِكُمُ الْقِيلَاتُ﴾ والله أعلم.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الشُّجُرُ تَبَارَتْ﴾ أي الكتب نُشِرَتْ للحساب، وهي التي فيها أعمال بني آدم وقت ما تُدْفَعُ إليهم^(٦) بأيامهم وشمائلهم.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَلْمَمَ كُشَيْطٌ﴾ قيل: نُشِرَتْ، وذلك أن تنائر النجوم، وتطمس الشمس وتظوى السماء^(٧) ﴿كُلِّي السَّجِيلَ لِلْكَشِيِّ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وقيل: كُشِفَتِ السماء، فكشفت السماء كما يُكشَفُ الغطاء عن الشيء، ويقال: كُشِطَ، أي قُلِعَتْ كما يُقْلَعُ السقف.

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَبَابِيزُ سُيِّرَتْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: أن يُحْدَثَ تسعيرها، فيكون فيه علم الحديث، وكذلك في قولهِ: ﴿وَإِذَا أَلْبَحَارُ سُيِّرَتْ﴾ [الآية: ٦] يَحْتَمِلُ أن يبدأ تسجيرها، [ولم تسجر]^(٨) من قبل.

[والثاني: (٩)]: أن يراد التسجير والتسعير على ما كان من قبل لقولهِ تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَابِيزُ﴾ [البقرة: ٢٤] وقد كان وقودها بغير هذين. ثم يراد في وقودها الناس والحجارة.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمِنَةُ الْقِيلَاتِ﴾ قيل: قُرِبَتْ، فأضيف إليها التقرُّب لأن أهلها إذا قُرِبوا إليها، فقد قُرِبَتْ هي إليهم.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ أي ﴿مَا عَلِمَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْجَرًا وَمَا عَلِمَتْ مِنْ شَرٍّ﴾ [آل عمران: ٣٠] أو تَعْلَمُ ما أحضر لها الملائكة الذين كتبوا.

(١) في الأصل وم: وقال الله. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ٨٢. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وتحتل. (٥) في الأصل وم: وجائر. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: إليها. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ولما سجر. (١٠) في الأصل وم: وجائر.

الآية ١٥ وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَمِمْ لِلنَّاسِ﴾ ﴿لِلْجَوَارِ الْكُنُوسِ﴾ الأشياء التي وَقَعَ بها الْقَسَمُ تَقْتَضِي / ٦٢٨ - أ /
أحكاماً ثلاثة:

أولها: ما مِنْ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللهُ تعالى إِلَّا وفيه دليلٌ وَحْدَانِيَّةٍ وَآيَةُ رَبِّيَّةٍ، إِذَا أُمِعَ النَّظَرُ فِيهِ.

والثاني: تَثْبِيْتُ^(١) عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ يَدُلُّ عَلَى قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ.

والثالث: [٢] في تَثْبِيَتِ الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ إِيْجَابُ الْقَوْلِ بِالرَّسَالَةِ وَنَهْيُ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ.

فَلَوْ أُمِعُوا النَّظَرَ فِيهَا، وَتَفَكَّرُوا فِي أَمْرِهِ إِذَا هُمْ ذَلِكَ إِلَى الْقَوْلِ بِالْبَعْثِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى وَحْدَانِيَّةِ الرَّبِّ وَالْإِقْرَارِ بِالرُّسُلِ، فَلَا [كانوا]^(٣) يَدْعُونَ أَنْ مَعَهُ آلِهَةٌ أُخْرَى، وَلَا كَانُوا يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ، وَلَا يُكْذِبُونَ الرَّسُولَ.

فَانْقَسَمَ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَلَى التَّأَكِيدِ بِحُجَجِهِ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِهِ، أَوْ أَنَّ الْأَوَامِرَ مِنْ عِنْدِهِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ الْقَسَمُ تَلْقِيناً مِنَ اللهِ تعالى لِرَسُولِهِ بِأَنْ يُقَسِّمَ لَهُمْ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ لِيُزِيلَ عَنْهُمْ الشُّبُهَةَ وَالشُّكُوكَ الَّتِي اغْتَرَضَتْ لِلْكَفَرَةِ فِي أَمْرِ ﷺ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى النَّظَرِ فِي حُجَجِهِ وَآيَاتِهِ.

ثُمَّ الْقَسَمُ بِمَا لَطَفَ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَدَقِّقَ، وَبِمَا كَثُفَ، وَغَلْظَ، وَبِمَا كَبُرَ، وَصَغُرَ، وَبِمَا ظَهَرَ، وَخَفِيَ، تَتَفَقَّحُ كُلُّهَا فِي إِزَالَةِ الشُّبُهَةِ وَإِبْطَالِ التَّوْحِيدِ وَالرَّسَالَةِ وَالْبَعْثِ. بَلِ الْأَعْجُوبَةُ فِي مَا لَطَفَ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَعْظَمُ مِنْهَا بِمَا كَثُفَ، وَغَلْظَ. فَاقْسَمَ مَرَّةً بِالْكَوَكِبِ، وَمَرَّةً بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَمَا يَضْحَى وَبِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ.

إِنَّ الْخِلَاقَ كُلَّهُمَا فِي الشَّهَادَةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَإِبْطَالِ رَبِّيَّتِهِ وَثَبَاتِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ مُتَّفَقَةٌ، وَلِأَنَّ مَا لَطَفَ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَخَفِيَ مِنْهَا، يَتَّصِلُ بِمَا ظَهَرَ مِنْهَا، فَيَنْتَضِعُ ذِكْرُ مَا خَفِيَ مِنْهَا، وَاسْتَرَى، وَذِكْرُ مَا ظَهَرَ مِنْهَا، وَفِي ذِكْرِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ذِكْرُ مَنْشِئِهَا، فَيَكُونُ الْقَسَمُ فِي الْحَقِيقَةِ بِاللَّهِ تعالى.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي الْخُنُوسِ وَالْكُنُوسِ؛ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ الْخُنُوسَ، هِيَ النُّجُومُ الَّتِي يَظْلُغْنَ مِنْ مَطَالِيعِهَا، وَيَغْرُبْنَ فِي مَغَارِبِهَا، وَالْكُنُوسَ، هِيَ النُّجُومُ الَّتِي يَظْلُغْنَ مِنْ مَطَالِيعِهَا، ثُمَّ يَكْتَسِنُ، وَيَخْتَفِينَ إِلَى أَنْ يَبْغِضْنَ إِلَى مَطَالِيعِهِنَّ، فَيَظْلُغْنَ.

وقيل: الْخُنُوسُ الْجَوَارِي الْكُنُوسُ، هِيَ خَمْسَةُ كَوَاكِبَ، لَهَا مَجَارٍ فِي السَّمَاءِ، يُظْهَرْنَ بِاللَّيْلِ، وَيُسْتَرْنَ بِالنَّهَارِ، وَسَائِرُ الْكَوَكِبِ ثَوَابِتٌ. ثُمَّ قِيلَ: الْخُنُوسُ وَالْكُنُوسُ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْإِخْفَاءُ وَالْغُرُوبُ فِي مَغَارِبِهَا وَالْدُخُولُ فِيهَا. وَقِيلَ: الْكُنُوسُ الْإِخْفَاءُ، وَالْخُنُوسُ التَّأَخُّرُ، وَكَذَا قَالَ الْفَرَّاءُ: هِيَ النُّجُومُ الْخَمْسَةُ [تَخُنُسُ]^(٤) فِي مَجْرَاهَا، وَتَرْجِعُ.

وَفِي حَدِيثٍ كَثُفَ [الْخَبِيرُ]^(٥) فَيَخُنُسُ بِهِمُ النَّهَارُ كَمَا تَخُنُسُ النُّجُومُ الْخُنُوسَ، أَيْ يَحِيدُ بِهِمْ، وَيَتَأَخَّرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: [هِيَ]^(٦) الْوَحُوشُ اللَّاتِي تَخُنُسُ مِنَ الْإِنْسِ، وَتَكُنُسُ فِي مَكَانِيهِمْ. وَأَيَّاهُ^(٧) كَانَ، فَهِيَ كُلُّهَا دَالَّةٌ عَلَى الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَا.

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ قِيلَ: إِذَا أَقْبَلَ، وَقِيلَ: إِذَا أَدْبَرَ.

الآية ١٨ وقوله^(٨) تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ إِذَا انْفَجَرَ، وَإِذَا ارْتَفَعَ.

وَفِي إِقْبَالِ اللَّيْلِ وَإِقْبَالِ النَّهَارِ تَثْبِيْتُ الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ ظُلْمَةَ اللَّيْلِ إِذَا غَشِيَتْ سَتَرَتْ وَجُودَ^(٩) الْأَشْيَاءِ [وَنُورَ النَّهَارِ]^(١٠) كَشَفَتْ عَنْهَا السُّتْرَ. وَلَوْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يُعْطِيَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا بِالْحَيْلِ وَالْأَسْبَابِ لَمْ يَتِمَّ كُنْ [مِنْ ذَلِكَ]^(١١) وَلَوْ أَرَادَ نَزْعَ الْغِطَاءِ عَنْهَا^(١٢) لَمْ يَمْلِكْ. فَذَكَرَهُمْ هَذَا لِيَعْلَمُوا أَنَّ مَنْ بَلَغَتْ قُدْرَتُهُ هَذَا، فَلَا يُعْجِزُهُ أَمْرٌ، وَلَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ الْبَعْثُ، بَلِ هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَائِهِمْ وَبِعْثِهِمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَبِثَّتْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٦) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَإِنَّمَا. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفِي قَوْلِهِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنْ

وَجُودَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْهَا. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنْهُمْ.

الآية ١٩

[وقوله تعالى] (١): ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فَمَوْضِعُ الْقِسْمِ عَلَى هَذَا، وَعَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا سَاجِدُكُمْ بِمُتَجَنِّبِينَ﴾

[الآية: ٢٢].

ثم تأويلُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي هذا الذي أتاكم به محمد ﷺ تَلَقَّاهُ عَنْ رَسُولٍ كَرِيمٍ عَلَى رَبِّهِ، وَهُوَ جِبْرَائِيلُ ﷺ. ثُمَّ نَسَبَ ههنا إِلَى الرَّسُولِ مَا سَمِعَ مِنْهُ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهِ، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. فَسَمَّاهُ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى الْمَوَافَقَةِ أَوْ لِمَا أَنَّ ابْتِدَاءَهُ يَرْجِعُ إِلَيْهِ لَا أَنَّ يَكُونُ الْمَسْمُوعُ كَلَامَهُ كَمَا يُقَالُ: هَذَا قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهَذَا قَوْلُ فُلَانٍ الشَّاعِرِ، وَلَيْسَ الَّذِي سَمِعْتَهُ قَوْلٌ مَنْ نُسِبَ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ نُسِبَ إِلَيْهِ لِأَنَّ ابْتِدَاءَهُ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، فَكَذَلِكَ سَمَّى كَلَامَ اللَّهِ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى كَلَامِهِ وَلِمَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ ابْتِدَاؤُهُ لَا أَنَّ يَكُونُ نَفْسَ كَلَامِهِ.

الآية ٢٠

وقوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ وَفِي وَضْفِهِ بِالْقُوَّةِ فَائِدَتَانِ:

إحداهما: مَا ذَكَّرْنَا أَنَّ فِيهِ بَيَانُ الْآمِنِينَ مِنْ تَغْيِيرٍ، يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالشَّيَاطِينِ؛ وَالْإِنْسُ يَخْتَجِرُ عَنْهُمْ بِقُوَّتِهِ، فَلَا يَتَمَكَّنُونَ مِنْهُ حَتَّى يُغَيِّرُوهُ، وَيُبَدِّلُوهُ. وَوَضْفُهُ بِالْأَمَانَةِ فِي نَفْسِهِ لِأَمْنِ الْخَلْقِ نَاحِيَةً. [والثانية: (٢)] وَضْفُهُ بِالْقُوَّةِ عَلَى التَّخْوِيفِ وَالتَّخْذِيرِ لِلَّذِينَ عَادُوا مُحَمَّدًا ﷺ فَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ مَعَهُ يَدْفَعُ عَنْهُ شَرَّهُمْ وَكَيْدَهُمْ إِنْ هُمَا بِذَلِكَ بِهِ.

وَرَوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِجِبْرِيلَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَكَ بِالْقُوَّةِ، فَمَا أَثَرُ قُوَّتِكَ؟» فَقَالَ: لَمَّا أَمَرَنِي اللَّهُ تَعَالَى بِإِهْلَاكِ قَوْمٍ لَوِطَ قَلْعَتُ قَرِيَاتِهِمْ، وَرَفَعْتُهَا بِجَنَاحٍ وَاحِدٍ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ قَلْبْتُهَا [الذَّرَّ الْمُنْثُورُ: ٨/٤٣٣]، وَفِيهِ عَزْوُ السِّيَوطِي لِيَاةٍ إِلَى تَارِيخِ ابْنِ عَسَاكِرٍ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةٍ.

وَلَيْسَ بِنَا إِلَى تَعَرُّفِ قُوَّتِهِ حَاجَةً، وَإِنَّمَا بِنَا الْحَاجَةَ إِلَى أَنْ نَعْرِفَ مَا الْمَعْنَى وَالْحِكْمَةُ فِي ذِكْرِ قُوَّتِهِ؟

وقوله تعالى: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ فَإِنَّ كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الْعَرْشِ الْمُلْكُ فَمَعْنَاهُ: عِنْدَ ذِي الْمُلْكِ مَكِينٌ، أَيْ ذُو قُدْرَةٍ وَمَنْزِلَةٍ، وَقِيلَ: الْعَرْشُ السَّرِيرُ؛ فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَتَأْوِيلُهُ أَنَّهُ مَكِينٌ عِنْدَ مَنْ لَهُ سَرِيرُ الْمُلْكِ.

الآية ٢١

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ آيَيْنَ﴾ قِيلَ: إِنَّ جِبْرَائِيلَ ﷺ، رَسُولَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ كَمَا هُوَ رَسُولٌ إِلَى النَّاسِ. فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَفِيهِ إِخْبَارٌ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ يَعْبُدُهُمْ (٣) بَعْضُ الْكُفَرَةِ يُطِيعُونَ جِبْرَائِيلَ ﷺ، فِي مَا يَأْمُرُهُمْ، وَيَنْهَاهُمْ، فَمَا بِالْهُمْ يَتْرُكُونَ طَاعَتَهُ وَالْإِثْمَارَ بِأَمْرِهِ؟

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ آيَيْنَ﴾ أَيْ هُمْ يَأْتُمِنُونَ بِهِ، وَلَا يَتَّهِمُونَهُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَجِيءُ بِهِ إِلَيْهِمْ، فَكَيْفَ يَتَّهِمُهُ هَؤُلَاءِ فِي مَا يَأْتِي إِلَى الرَّسُولِ مِنَ الْوَحْيِ؟

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿وَمَا سَاجِدُكُمْ بِمُتَجَنِّبِينَ﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْكُفَرَةَ نَسَبُوهُ إِلَى الْجُنُونِ حِينَ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرَائِيلَ عَلَى صُورَتِهِ، فَغَشِيَ عَلَيْهِ، وَكَانَ يَتَغَيَّرُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَأْتِي بِهَا (٤) جِبْرَائِيلُ ﷺ، بِالْوَحْيِ (٥) لَوْ وَجْهَهُ، فَيَنْسُبُونَهُ إِلَى الْجُنُونِ لِهَذَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّمَا نَسَبُوهُ إِلَى الْجُنُونِ لِأَنَّهُ أَظْهَرَ الْمُخَالَفَةَ لِأَهْلِ الْأَرْضِ، وَكَانَ فِي الْأَرْضِ الْجَبَابِرَةُ وَالْفِرَاعِنَةُ الَّذِينَ مِنْ عَادَتِهِمُ الْقَتْلُ وَالتَّعْذِيبُ لِمَنْ أَظْهَرَ الْخِلَافَ لَهُمْ، فَكَانَ ذَلِكَ مِنْهُ مُخَاطَرَةٌ بِنَفْسِهِ وَرُوحِهِ حِينَ (٦) انْتَصَبَ لِمُعَادَاةٍ مَنْ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِمْ [وَمَنْ قَامَ بِخِلَافٍ مَنْ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ] (٧) وَانْتَصَبَ لِمُعَادَاتِهِ، فَذَلِكَ مِنْهُ حَقُّقٌ وَجُنُونٌ فِي الشَّاهِدِ، نَسَبُوهُ إِلَى الْجُنُونِ لِهَذَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَنْسُبُوهُ إِلَى الْجُنُونِ لِمَا ذَكَّرْنَا، وَلَكِنْ شِدَّةَ سَفَهِهِمْ [هِيَ الَّتِي حَمَلَتْهُمْ] (٨) عَلَى هَذَا، فَنَسَبُوهُ إِلَى

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: يعبدوا. (٤) في الأصل وم: به. (٥) من م، في الأصل: الوحي.

(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: هو الذي حملهم.

الْجُنُونِ مَرَّةً وَإِلَى أَنَّهُ سَاحِرٌ أُخْرَى، وَمَرَّةً قَالُوا: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وَمَرَّةً قَالُوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ﴾ [ص: ٧] فَكَانُوا يُنْسِبُونَهُ إِلَى كُلِّ مَا ذَكَرْنَا لَا عَنْ بَحْثٍ مِنْهُمْ فِي حَالِهِ وَلَكِنْ عَلَى السَّفَوِّ وَالْعِنَادِ.

الْآ تَرَى أَنَّهُمْ يُنْسِبُونَهُ إِلَى الْجُنُونِ مَرَّةً وَإِلَى السَّحَرِ ثَانِيًا، وَهُمَا أَمْرَانِ مُتَنَاقِضَانِ، لِأَنَّ السَّاحِرَ، هُوَ الَّذِي بَلَغَ فِي الْعِلْمِ غَايَتَهُ، وَالْجُنُونُ، هُوَ النِّهَايَةُ فِي الْجَهْلِ؟ وَلَوْ كَانُوا يَقُولُونَهُ عَنْ بَحْثٍ وَتَدَبُّرٍ لَكَانُوا لَا يَأْتُونَ بِالْمُخْتَلَفِ مِنَ الْقَوْلِ، فَيُظْهِرُ جَهْلَهُمْ لِمَنْ يُرِيدُونَ صَدَّهُ عَنِ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ بَلْ كَانُوا يَتَّقُونَ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، فَيَصُدُّونَ عَنْهَا حَتَّى يَقَعَ التَّلْبِيسُ مِنْهُمْ مَوْقَعَهُ، فَيَصِلُونَ إِلَى مُرَادِهِمْ مِنْ صَدِّ النَّاسِ عَنِ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ.

وكَذَلِكَ فِي مَا زَعَمُوا أَنَّهُ ﴿يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وَأَنَّهُ ﴿إِلَّا فَكَّ أَقْرَبَهُ﴾ [الفرقان: ٤] أَتُوا بِالْمُخْتَلَفِ مِنَ الْقَوْلِ لِأَنَّ اخْتِلَافَهُ ٦٢٨ - ب/ وَافْتِرَاءَهُ يُثَبِّتُ أَنَّهُ عَالِمٌ بِنَفْسِهِ مُسْتَعِينٌ عَنْ تَعْلِيمٍ غَيْرِهِ، وَحَاجَتُهُ إِلَى أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ غَيْرِهِ تُثَبِّتُ عَجْزَهُ وَجَهْلَهُ عَنِ الْإِخْتِلَاقِ بِنَفْسِهِ.

فَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُنْسِبُوهُ إِلَى الْجُنُونِ لِأَعْلَامٍ ظَهَرَتْ لَهُمْ، وَلَكِنْ قَرَفُوهُ بِكُلِّ مَا حَضَرَهُمْ سَفَهًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا. ثُمَّ إِنْ كَانُوا نَسِبُوهُ إِلَى الْجُنُونِ لَمَّا غُشِيَ عَلَيْهِ عِنْدَمَا رَأَى جِبْرَائِيلَ ﷺ، عَلَى صَوْرَتِهِ، فَقَدْ أَنَاهُمْ بِمَا لَوْ تَفَكَّرُوا فِيهِ لَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِصَاحِبِهِمْ جِنَّةٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِرُوحِي أَن تَقُولُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُردَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦] وَذَلِكَ أَنَّهُ (١) أَنَاهُمْ بِحِكْمَةٍ أَعْجَزَتْ (٢) حُكْمَاءَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَنْ إِتْيَانِ مِثْلِهَا (٣)، وَأَنَاهُمْ بِكِتَابٍ عَجَزَ أَهْلُ الْكِتَابِ عَنْ إِتْيَانِ مِثْلِهِ.

فَلَوْ تَفَكَّرُوا فِيهِ لَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ فِعْلِ الْمَجَانِينِ وَلَا مِنْ عُلُومِهِمْ، وَلَكِنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أَكْرَمَ بِهِ، وَإِنْ كَانُوا بِمَا نَسِبُوهُ إِلَى الْجُنُونِ لَمَّا خَاطَرَ بِرُوحِهِ، فَهُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى لَمْ يَتَّهَبُوا لَهُمْ أَنْ يَمْكُرُوا بِهِ وَلَا أَنْ يَقْتُلُوهُ، بَلْ أَظْفَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَأَظْهَرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، فَصَارَ ذَلِكَ الْوَجْهَ الَّذِي يُنْسِبُوهُ إِلَى الْجُنُونِ آيَةً رَسَالَتِهِ وَعَلَمَ نُبُوَّتِهِ.

الآية ٢٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْاَلَيْنِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: إِنَّهُ ﷺ رَأَى رَبَّهُ بِقَلْبِهِ، أَيْ عَظَمَتُهُ وَسُلْطَانَتُهُ مِنْ وَجْهِ، لَا يَقَعُ بِهِ تَشَابُهُ، وَخَصَّ بِالْأَفْئِ لِأَنَّهُ مِنَ الْاَفْئِ تَنَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ وَأَنْوَاعُ الْخَيْرِ كُلُّهَا، أَوْ الْمَرَادُ مِنْ ذَلِكَ الْأَمَكانُ كُلُّهَا.

[وَقَالَ] (٤) غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ التفسيرِ: صَرَفَ الرُّؤْيَا إِلَى جِبْرَائِيلَ ﷺ، وَذَكَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ جِبْرَائِيلَ ﷺ أَنْ يَرَاهُ عَلَى صَوْرَتِهِ، فَقَالَ لَهُ جِبْرَائِيلُ ﷺ، إِنَّ الْأَرْضَ لَا تَسْعُنِي، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتَ الْفَجْرَ فَانْظُرْ إِلَى أَفْئِ السَّمَاءِ، فَهَذَاكَ تَرَانِي، فَقَعَلَ، فَرَأَاهُ عَلَى صَوْرَتِهِ، ثُمَّ دَنَا مِنْهُ ﴿كَأَنَّ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩].

فَذَكَرَ الْاَفْئِ لِأَنَّ الشَّيْءَ مِنَ الْبَعِيدِ لَا يَتَّهَبُ أَنْ يَرَى مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، لِذَلِكَ خَصَّ الْاَفْئِ لِأَنَّ الشَّيْءَ، إِنْ كَانَ كَذَلِكَ، نَقَعَ رُؤْيَاهُ مِمَّا بَعُدَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَوْ عَلَى اللَّيْلِ يَعْنِينَ﴾ وَفُرِيَ بِظَنِّينِ (٥). قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: وَالظَّنِّينِ أَوْلَى، لِأَنَّهُ، هُوَ الْمُتَّهَبُ، وَالظَّنِّينِ الْبَخِيلُ، وَلَمْ يُنْسَبْ أَحَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْبُخْلِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَقَدْ كَانُوا يَتَّهَمُونَهُ عَلَى الْغَيْبِ، وَهُوَ الْقِرَآنُ، فَكَانُوا ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وَلَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا فَكَّ أَقْرَبَهُ﴾ [الفرقان: ٤] فَبَرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِمَّا قَالُوا بِقَوْلِهِ: وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِّينِ.

وَمَنْ قَرَأَ بِالضَّادِ فَهُوَ يَخْتَلُ أَوْجَهَا:

[أَخْذَهَا] (٦): مَا ذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ الْأَصْمُ، وَهُوَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ بِضَنِّينِ بِشَيْءٍ، عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ كَمَا يَقَعُ غَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ، لَا يُرِيدُونَ أَنْ يُعَلِّمُوا مَنْ اخْتَلَفَ إِلَيْهِمْ كُلِّ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعُلُومِ حَتَّى

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُمْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَعْجَزَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مِثْلُهُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٥) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَةِ ٨٥/٨٠. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

[٢٤] ^(١) يَسْتَغْنِي عَنْهُمْ. ورسول الله ﷺ كَانَ يَوْزُ أَنْ يُعَلِّمَ ^(٢) جَمِيعَ مَا عَلِمَ مِنَ الْعُلُومِ أَصْحَابَهُ؛ فَكَانَ يَقُومُ عَلَى تَعْلِيمِ كُلِّ مِنْهُمْ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ يَمْتَنِعُ عَنِ التَّعْلِيمِ بُخْلًا مِنْهُ وَضَنًا.

[والثاني] ^(٣): أَنْ يَكُونَ بَرَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ هَذَا لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَصَّ بَعْضَ أَصْحَابِهِ بِتَعْلِيمِ أَشْيَاءَ، لَمْ يُطْلَغْ عَلَيْهَا غَيْرُهُمْ، وَتَخْصِيصُ بَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ بِتَعْلِيمِ مَا عِنْدَهُ، يَحُلُّ فِي الشَّاهِدِ؛ فَكَانَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْقَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ تَكْذِيبُ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ هَذَا.

وهذا كما رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «صُومُوا لِرُؤُوسِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤُوسِهِ» [البخاري ١٩٠٩] فَكَانَهُ قَالَ هَذَا لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ فِي أُمَّةٍ مَنْ يَتَقَدَّمُ الشَّهْرَ بِالصِّيَامِ، فَقَالَ هَذَا لِيَتَعَرَّفَ خَطَأَ مَا يَتَقَدَّمُ مِنَ الشَّهْرِ بِالصِّيَامِ عَلَى الْخَطَا وَالْجَهَالَةِ لَيْسَ عَلَى إِصَابَةِ الْحَقِّ. فَعَلَى ذَلِكَ الْحُكْمُ فِي مَا ذَكَرْنَا.

ثُمَّ صَرَّفُوا تَأْوِيلَ الْغَيْبِ إِلَى الْقُرْآنِ، وَهُوَ عِنْدَنَا فِي الْقُرْآنِ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي أَطْلَعَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ عَلَيْهَا. [والثالث] ^(٤): أَنْ يَكُونَ الضَّرُّ مُنْصَرَفًا إِلَى الشَّفَاعَةِ الَّتِي أَكْرَمَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِهَا. فَهُوَ لَا يَخْصُصُ بَعْضَ أُمَّةٍ دُونَ بَعْضٍ بِالشَّفَاعَةِ، بَلْ يُمْعِنُهُمْ جَمِيعًا، فَيَكُونُ هَذَا تَخْرِيصًا عَلَى الْإِتِّبَاعِ لَهُ وَالْإِنْقِيَادِ لَطَاعَتِهِ.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ، وَهُوَ أَنَّهُ لَيْسَ بِضَنِينٍ فِي آدَاءِ شُكْرِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَقَدْ ^(٥) عَفَّرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، بَلِ اجْتَهَدَ فِي آدَاءِ شُكْرِهِ حَتَّى ذَكَرَ أَنَّهُ تَوَزَّعَتْ قَدَمَاهُ مِنْ طَوْلِ الْقِيَامِ، فَقِيلَ لَهُ: أَلَمْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا» [البخاري ١١٣٠ ومسلم ٢٨١٩ و٢٨٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَلَا بِمَجْنُونٍ كَمَا ذَكَرْتُمْ بَلْ هُوَ رَسُولٌ كَرِيمٌ، وَالَّذِي أَنَاكُمْ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ، لَمْ يَتَلَّ مِنْ الشَّيَاطِينِ، وَلَا هُوَ مِنْ قِبَلِهِمْ كَمَا تَلَقَّيْتُمُ الْكَهَنَةَ وَالسَّحَرَةَ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، بَلْ هُوَ ذَكْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَالَمِينَ أَنْزَلَهُ إِلَيْهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ الْقَوِيُّ الَّذِي لَا يَفْضِلُ [إِلَيْهِ] ^(٦) الشَّيْطَانُ، فَيَغَيِّرُهُ، وَيُبَدِّلُهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَذَهَبُونَ﴾ أَيِ فَايَنْ تَذَهَبُونَ عَنْ طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِهِ وَالْإِنْقِيَادِ لَهُ، وَقَدْ أَنَاكُمْ مَا يُلْزِمُكُمْ طَاعَتَهُ وَاتِّبَاعَهُ؟

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أَيِ عِظَةٌ لِلْعَالَمِينَ؛ يُذَكِّرُهُمْ بِمَا يَحِقُّ عَلَيْهِمْ فِي حَالِهِمْ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ مَا يُؤْتَى وَمَا يُنْتَقَى وَمَا تُصِيرُ إِلَيْهِ عَوَاقِبُهُمْ، أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أَيِ شَرَفٌ، قَدَّرَهُمْ بِهِ أُنْمَةً يُقْتَدَى بِهِمْ، وَيُخْتَلَفُ إِلَيْهِمْ لِيَتَعَلَّمَ مِنْهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ ﷺ: ﴿فَإِنْ تَذَهَبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أَوْجَهًا غَيْرَ مَا ذَكَرْنَا:

أَحَدُهَا: أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ تَلَقَّاهُ مِنْ رَسُولٍ كَرِيمٍ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى. فَإِذَا لَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ، وَلَمْ تَقْبَلُوهُ، فَمَا ذَهَبْتُمْ إِلَّا إِلَى قَوْلِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

[والثاني]: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَإِنْ تَذَهَبُونَ﴾ إِلَى مَنْ تَذَهَبُونَ؟ وَإِلَى مَنْ تَفَرَّعُونَ إِذَا أَنَاكُمْ بِأَسْ أَلَّهِ ﷻ وَنَفَقَتُهُ إِذَا لَمْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْكَرْتُمْ الْبَعْثَ، وَلَمْ تُصَدِّقُوا الرُّسُولَ ﷺ فِي مَا أَخْبَرَكُمْ بِهِ؟ فَإِذَا حُلَّ بِكُمْ مَا أَنْذَرَكُمْ بِهِ فإِلَى مَنْ تَلْجَوُونَ؟ وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨].

[والثالث]: أَنْكُمْ ^(٨) إِذَا لَمْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ تُتَّبِعُوا مَا أَنَاكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ وَقَدْ تَقَرَّرَ عِنْدَكُمْ [صِدْقُ مَا] ^(٩) أَنَاكُمْ مِنَ الْآيَاتِ الْمُعْجَزَةِ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ تُصَدِّقُونَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَتَذَهَبُونَ إِلَيْهِ؟ وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ؟﴾ [المرسلات: ٥٠].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يعلمهم. (٣) في الأصل وم: وجائز. (٤) في الأصل وم: وجائز. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: ويحتمل. (٧) في الأصل وم: ويحتمل. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: صدقه إنما.

الآية ٢٨ وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ معناه، والله أعلم، أن هذا القرآن ذِكْرٌ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَسْتَقِيمَ مِنَ الْعَالَمِينَ؛ فهو في نفسه ذِكْرٌ وآياتٌ وهُدًى، ولكن يَنْتَفِعُ بهذا الذِّكْرُ مَنْ شَاءَ الْإِسْتِقَامَةَ، وَيَهْتَدِي بِهِ مَنْ طَلَبَ الْهُدَايَةَ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وهو في نفسه هُدًى، ولكن يَهْتَدِي بِهُدَاةِ الْمُتَّقِينَ. وَمَنْ لَيْسَ بِمُتَّقٍ، فَهُوَ عَمَى عَلَيْهِ وَرَجَسٌ^(١) وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] وهو كَانَ يُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ، وَلَكِنْ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَنْتَفِعُ بِالَّذِي يُنذِرُ بِهِ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ. وَقَالَ: ﴿لَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ إِلَّا ذِكْرُهُ﴾ [الشمس: ١٣] وهي في أنفسهم آياتٌ، ولكن يَنْتَفِعُ بِآيَاتِهِ أُولُو الْأَبْصَارِ.

وقوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ فهو يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنْ يُحْمَلَ عَلَى تَحْقِيقِ الْمَشِيئَةِ، ويكونُ تَأْوِيلُهُ/٢٩٩- أ/ أَنْ مَنْ أَرَادَ الْإِسْتِقَامَةَ عَلَى أَمْرِ اللهِ تَعَالَى أَوْ عَلَى الْحَقِّ، فَهَذَا الذِّكْرُ، وَهُوَ الْقُرْآنُ يَقِيْمُهُ عَلَى الْحَقِّ وَعَلَى الْأَمْرِ، وَيَهْدِيهِ إِلَى ذَلِكَ.

[والثاني: (٢) أَنْ هَذَا عَلَى تَحْقِيقِ الْفِعْلِ، فيكونُ مَعْنَاهُ: مَنْ اسْتَقَامَ مِنْكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَالْأَمْرِ، فَهُوَ ذِكْرٌ لَهُ.

والأصلُ أَنَّ الْمَشِيئَةَ وَصِفُ فِعْلٍ كُلِّ مُخْتَارٍ. وَإِذَا كَانَ هَكَذَا صَارَتِ الْمَشِيئَةُ مُقْتَرَنَةً [بـ] (٣) فَإِذَا فَعَلَ فَقَدْ شَاءَ، فَكَانَ فِي إِبْثَاتِ الْفِعْلِ إِبْثَاتُ الْمَشِيئَةِ. لِذَلِكَ اسْتَقَامَ حَمْلُهُ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا، وَهُوَ أَنْ يُجْعَلَ أَحَدُهُمَا كِنَايَةً عَنِ الْآخَرِ.

الآية ٢٩ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ﴾ عَلَى تَحْقِيقِ الْمَشِيئَةِ، فَمَعْنَاهُ: أَنْكُمْ لَا تَشَاوِرُونَ الْإِسْتِقَامَةَ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ.

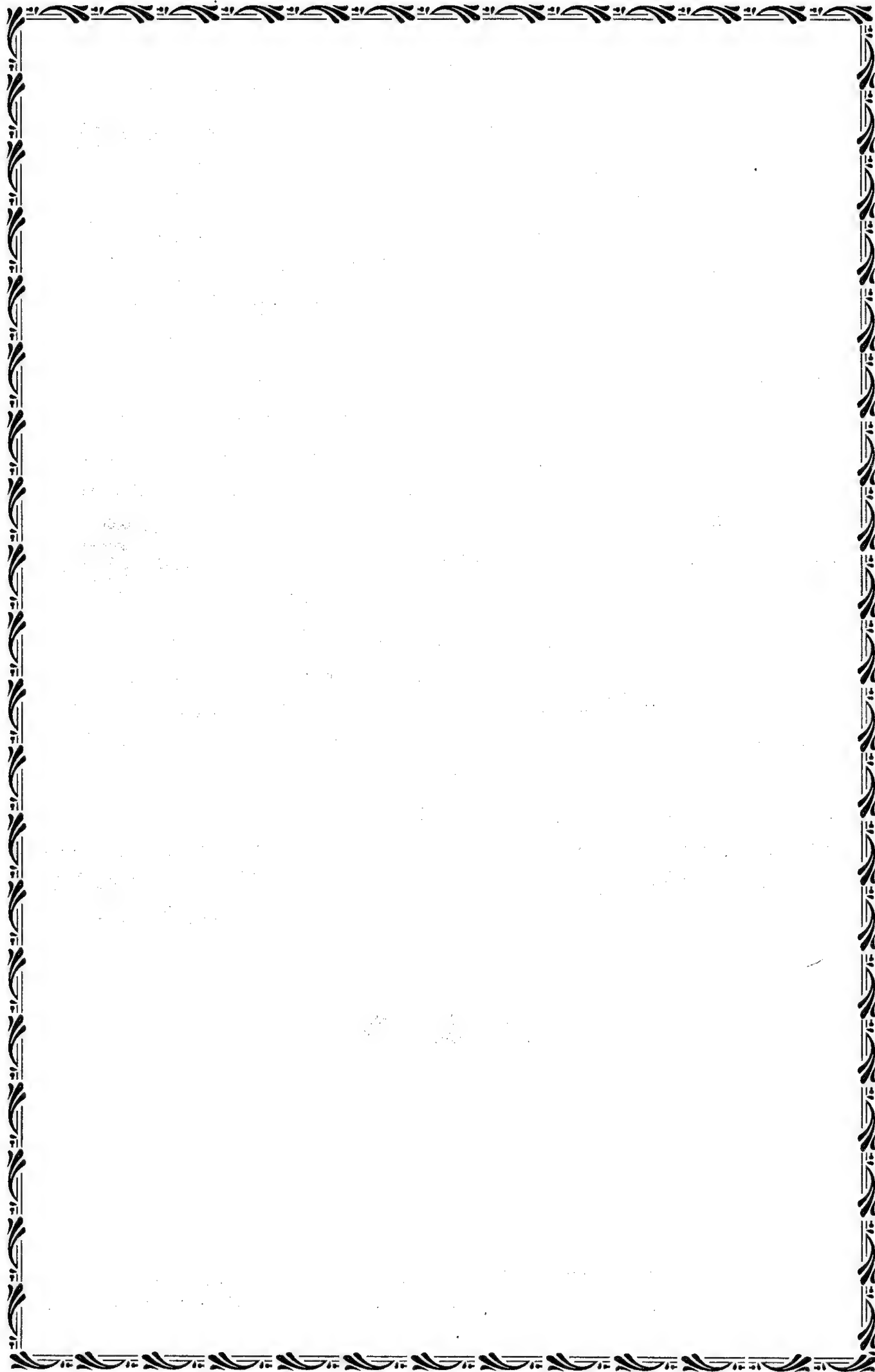
وإِنْ كَانَ عَلَى تَحْقِيقِ الْفِعْلِ فَتَأْوِيلُهُ أَنْكُمْ مَا اسْتَقَمْتُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى.

قَالَ بَعْضُهُمْ: تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ إِنْزَالُ هَذَا الْكِتَابِ، فَأَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ بِغَيْرِ مَشِيئَتِكُمْ. وَهَذَا غَيْرُ مُخْتَمَلٍ عِنْدَنَا لِأَنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنَ الْقَوْمِ الْإِرَادَةُ وَالسُّؤَالُ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَلْسِنَتِهِمْ لَيَنْتَهِيَنَّ إِلَيْنَا مَا يَشَاءُونَ﴾ [فاطر: ٤٢] فَتَبَيَّنَ أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنْهُمْ السُّؤَالُ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ، وَكَانَ (٤) تَأْوِيلُهُ مَا ذَكَّرْنَا.

نَمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّ كُلَّ مَنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ الْإِسْتِقَامَةَ تَوَجَّدَ مِنْهُ الْإِسْتِقَامَةُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَشَاءَ مِنْ أَحَدٍ اسْتِقَامَتُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ كَمَا قَالَتِ الْمَعْتَزَلَةُ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى مَنْ عَلَى مَنْ اسْتَقَامَ بِمَشِيئَةِ اسْتِقَامَتِهِ. فَلَوْ لَمْ تَوْجِدِ الْإِسْتِقَامَةُ مِنْ كُلِّ [مَنْ] (٥) شَاءَ الْإِسْتِقَامَةَ لَمْ يَكُنْ لِلْإِثْمَانِ مَعْنَى، لِأَنَّ الْإِسْتِقَامَةَ وَغَيْرَ الْإِسْتِقَامَةِ تَكُونُ بِوَلاَءِ اللهِ تَعَالَى، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ [وَلَا حَوْلَ، وَلَا قُوَّةَ، إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ] (٦).



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَعَلَيْهِ رَجَسٌ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَكُنْ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.



سورة الانفطار

[وهي مكية^(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ قد ذكرنا أن هذا جوابٌ عن سؤالٍ تقدّم، لم يُبيّن السؤال عند ذكر الجواب، لأنه^(٢) إذا الجواب عن سؤال [كان^(٣) متى؟ فجائز أن يكون سؤالهم ما ذكر في إتمام الجواب، وهو قوله تعالى: ﴿عِلْمَتٌ نَفْسٍ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الآية: ٥] فنزل قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ الآيات إلى آخرها.

ثم ذكر الانفطار ههنا، وهو الشق، وذكر الفتح في موضع آخر، وهو قوله تعالى: ﴿وَنُفِثَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبا: ١٩] وقوله^(٤) في موضع آخر: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُجِّرَتْ﴾ [المرسلات: ٩] [وقوله^(٥): ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

فمنهم من ذكر أن شقها وانفطارها أن تفتح أبوابها. ومنهم من حمله على السؤال الذي يعرف من شق الأشياء، وهذا أقرب، لأن الآية في موضع التخويف والتهلل، وليس في فتح أبوابها. وإنما التخويف في انشقاقها بنفسها. ثم السؤال عن ملاقة الأعمال وعن علم النفس بها فسؤال عن الساعة.

وفي ذكر انفطار السماء وانتشار الكواكب وتفجير البحار وتشجير الجبال وجعل الأرض قاعاً صاففاً وصف أحوال الساعة وآثارها، وليس فيه إشارة إلى وقت كونها لأنه ليس في التوقّف على حقيقة وقتها تخويف وتهويل، وفي ذكر آثارها تخويف؛ وهو أنه عظم هول ذلك اليوم، واشتدّ، حتى لا تقوم الأشياء القويّة الغالبة في نفسها، وهي الجبال والسموات والأرضون، بل يؤثر فيها هذا التأثير حتى تصير ﴿الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وتصير ﴿كَيْبًا مَّهِيلاً﴾ [المزمل: ١٤] وتشتق السماء، وتصير ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه: ١٠٦] فكيف يقوم لها الإنسان الضعيف المهين؟

وإذا كانت السموات والأرضون والجبال مع طواعيتها لربها، لا تقوم لها وأفزاعها، بل تنقطع، فكيف يقوم لها آدمي الضعيف مع حُبث عمله وكثرة مساوئ مع ربه؟

فَيَذَكِّرُهُمْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ لِيَخَافُوهُ، وَيَهَابُوهُ، فَيَسْتَعِدُّوا لَهُ.

فلهذا، والله أعلم، ذكرت الأحوال التي عليها حال ذلك اليوم، ولم يُبين متى وقته، ولهذا ما لم يُبين مُنتهى عمر الإنسان ليكون أبداً على خوفٍ ووجلٍ من حلول الموت به، فيأخذ أهبطه، ويستمر له.

ولو بين له كان يقع له الأمر بذلك، فيترك التزوّد إلى دُنُو ذلك الوقت، ثم يتأهب له إذا دنا انقضاء عمره.

ثم إن الله تعالى ذكر أحوال القيامة في مواضع، وجعل ذلك مترادفاً متتابعاً في القرآن، فيكون في ذلك مغنيتان:

أحدهما: أن للقلوب تغييراً وتقلباً في أوقات؛ قرب قلب لا يلبث لحادثة أول مرة حتى يُعاد عليه ذكرها^(٦) مرة بعد مرة وحالاً بعد حال، ثم يلبث في تتابع ذكر البعث والقيامة مرة [بعد مرة^(٧)] إبلاغ في النذارة وقطع عُذر المغذورين يوم القيامة.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: لأن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: ذكره. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

والثاني: أن القوم كانوا حديثي العهد بالإسلام، وقد وَقَعَ الإسلام في قلوبهم مَوْقِعاً، فيكون في تكرار المواعظ تَلْقِيحٌ لعقولهم وتَلْيِينٌ لقلوبهم على ما أَكْرَمَهُمُ اللهُ تعالى مِنَ الإيمانِ ونُصْرَةِ رسولِ ربِّ العالمينَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ بِآيَاتِنَا زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَزَعَتْ﴾ فإما أن يكون انتثارها لأنها مَجْعولةٌ لِمَنَافِعِ الخَلْقِ، فإذا اسْتَنْغَتْ عنها أهلها فلا مَعْنَى لِيَقَانِهَا أو لِمَا جُعِلَتْ زينةٌ للسماء، فإذا انْفَطَرَتِ السماءُ لم يُخْتَجِ إلى زينةٍ بَعْدَهَا.

الآية ٣ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال قائلون: أي يُعْجَرُ ماؤها في بَحْرٍ واحدٍ، ثم يَقُورُ ماءُ ذلك البحرِ الذي اجْتَمَعَ فِيهِ المِياهُ إما بما تُشَفِّهُها الأرضُ [ولمَّا بِجَعْلِهَا] ^(١) في بطنِ الحوتِ التي ذُكِرَ أَنَّ الأرضينَ، قارؤها على ظهره، أو في بطنِ الثور. ثم يُسَوِّي اللهُ تعالى الأرضَ كُلَّها حتى لا يَبْقَى فيها عَوَجٌ ولا قَعْرٌ. فَيَتَّيَسُّ البحارُ بما شاءَ إمَّا ^(٢) بالجبِالِ [ولمَّا بِغَيْرِهَا] ^(٣) وقال بَعْضُهُمْ: بل يَقُورُ ماءُ كلِّ بحرٍ في مكانٍ واحدٍ ويَجْرُ واحدٍ.

وقال بَعْضُهُمْ: بل يَمْتَزِجُ بعضها ببعضٍ، فتَصِيرُ ناراً، يُعَذِّبُ بها أهلها، وكذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] وقوله ^(٤): ﴿وَالْبَحْرُ الْمُسْجُورُ﴾ [الطور: ٦] والله أعلمُ أيُّ ذلك يكونُ.

الآية ٤ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي بُعِثَ مَنْ فِيهَا، أي ^(٥) تَقْدِفُ القُبُورُ مَنْ فِيهَا.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ أي تَعْلَمُ النفسُ مَا عَمِلَتْ إلى آخِرِ مَا انْتَهَى عَمَلُهَا، فلا يَخْفَى عليها شيءٌ من أَمْرِهَا.

ومنهم مَنْ يَقُولُ: مَا قَدَّمَتْ مِنْ خَيْرٍ وَأَخَّرَتْ مِنْ شَرٍّ فَتَسْتَعْرِفُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

ومنهم مَنْ يَقُولُ: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ أي مَا سَنَّتْ مِنَ السُّئَةِ، فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهَا. وهذا الذي ذَكَرُوهُ دَاخِلٌ فِي تَفْسِيرِ الْجُمْلَةِ الَّتِي ذَكَرْنَا أَنَّهَا تَعْلَمُ مَنْ أَوَّلَ مَا عَمِلَتْ إلى آخِرِ مَا انْتَهَى عَمَلُهَا.

الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ يَحْتَمِلُ مِنْ رَبِّكَ، فيكون تأويلُهُ أي شيءٌ غَرَّبَكَ مِنْ رَبِّكَ الْكَرِيمِ حَتَّى اغْتَرَزْتَ بِهِ، وَاغْتِرَاؤُهُ بِرَبِّهِ ^(٦) الإِعْرَاضُ عَنْ طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ الْبَاءُ فِي مَوْضِعِ مِنْ؛ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿عَيْنًا يَتَرَّبُهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] ومعناه: يَشْرَبُ مِنْهَا، لَا أَنْ يَشْرَبَ ^(٧) مِنْهَا كَرَعًا، أَوْ يَجْعَلَ الْعَيْنَ آتِيَةً لَهُمْ.

ثم وَجَّهَ الْجَوَابَ لِلْمُعْتَرِّ بِاللَّهِ تعالى فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ وَهُوَ أَنَّ كَرَمَهُ دَعَا الْإِنْسَانَ إِلَى رُكُوبِ الْمَعَاصِي لِأَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْهُ بِالْعُقُوبَةِ وَقَدْ جَرِمَتْهُ، فَتَجَاوَزَ عَنْهُ، أَوْ تَأَخَّرَ الْعُقُوبَةُ حَمَلَهُ عَلَى الْإِغْتِرَارِ؛ إِذْ ظَنَّ أَنَّهُ يُعْفَى عَنْهُ أَبَدًا [لِلذَلِكَ أُنْذِمَ] ^(٨) عَلَيْهَا، وَلَا لَوْ حَلَّتْ بِهِ الْعُقُوبَةُ وَقَدْ ارْتَكَبَ الْمَغْصِيَةَ لَكَانَ لَا يَتَعَاطَى الْمَعَاصِي، وَلَا يَرْتَكِبُهَا، فَعُدْرُهُ أَنْ يَقُولَ: الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى الْإِغْفَالِ وَالْإِغْتِرَارِ كَرَمُكَ أَوْ حُفْمِي كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ حِينَ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: الْحُمُقُ يَا رَبُّ.

أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أي أي شيءٌ غَرَّبَكَ حَتَّى ادَّعَيْتَ عَلَى اللهِ تعالى أَنَّهُ أَمَرَكَ بِاتِّبَاعِ آبَائِكَ، أَوْ تَشَهَّدَ عَلَيْهِ إِذَا ارْتَكَبْتَ الْفَحْشَاءَ أَنَّ اللهَ تعالى أَمَرَكَ بِهِ عَلَى مَا قَالَ: ﴿وَإِذَا قُلُوبُكُمْ فَحِشَةً قَالُوا وَبَدَدْنَا عَلَيْنَا آيَاتِنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ الرِّسُولَ؟ أَلَمْ أَنْزِلْ إِلَيْكَ الْكِتَابَ، فَيَتَبَيَّنْ لَكَ مَا أَمَرْتُ بِهِ عَمَّا نَهَيْتُ عَنْهُ؟

وقيل: نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي شَأْنِ كَلْدَةَ [بِنِ اسِيدِ الْجُمَحِيِّ حِينَ] ^(٩) ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يُعَاقِبْهُ اللهُ تعالى، فَاسْلَمَ حَمْزَةُ حَمِيَّةً لِقَوْمِهِ، فَهَمَّ كَلْدَةُ أَنْ يَضْرِبَهُ ثَانِيًا، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ؟﴾ [حِينَ لَمْ يُهْلِكْكَ] ^(١٠) عِنْدَ تَنَاوُلِ رَسُولِ اللهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ تَجَمَّلَ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَوْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ بَغِيرَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنْ رَبِّهِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: يَشْرَبُوا. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: كَذَلِكَ فَأَقْدَمَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم:

حَيْثُ لَمْ يَهْلِكْ.

لكن لو كانت الآية فيه، [لَكَانَ كُلُّ] ^(١) الناس في معنى الخطاب على السواء، والله أعلم.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ ففي هذا التعريف المنة ليستأدي منه الشكر، وفيه ذكر قوته وسلطانه حين ^(٢) قدر على تشويبه في تلك الظلمات الثلاث التي لا ينتهي إليها تدبير البشر، ولا يجري عليها سلطانهم ليهاوبه، ويحذروا مخالفته.

وفيه ذكر حكمته وعلوه ليغلموا أنهم لم يخلقوا عبثاً ولا سدى، لأن الذي بلغت حكمته ما ذكر من إنشائه في تلك الظلمات الثلاث من وجوه، لا يعرفه ^(٣) الخلق، لا يجوز أن يخرج خلقه عبثاً باطلاً، بل خلقهم لأمورهم، ونشأهم، ويُرسل إليهم الرسل، ويُنزل عليهم الكتب، فيلزمهم اتباعها، ويعاقبهم إذا أغرضوا عنها، وتركوا اتباعها.

وسنذكر وجه التشويه به في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢] أنه سواه على ما تُرجيه الحكمة، أو سواه من وجوه الدلالة على معرفة الصانع، أو سواه في ما خلق له من اليدين والرجلين والسمع والبصر.

وقوله تعالى: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي سواك، ووجه التشويه أن جعل له يدين مستويتين، لم يجعل إحداهما أطول من الأخرى، وكذلك سوى بين رجله، وقرأ بالتخفيف والتشديد ^(٤).

قال أبو عبيد: معنى قوله: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بالتخفيف أي أمالك، وليس في ذكره كثير حكمة، واختار التشديد فيه.

وليس كما ذكر، بل في ذكر هذا من الأعجوبة ما في ذكر الآية، فقوله: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي صرّك من حال إلى حال، ووجه صرّفه، والله أعلم، أنه كان في الأصل ماء مهيناً في صلب الأب، فصرفت ذلك الماء إلى رحم الأم، ثم أنشأ نطفة، ثم صرّفها إلى العلقة وإلى المضغة إلى إنشائه خلقاً سويّاً. أو صرّفه على ما عليه الحال من الصّحة إلى السقم ومن السقم إلى البرء، فيكون في ذكر هذا التعريف المنة والقدرة والحكمة كما في الأول؛ ففيه أعظم الفوائد.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ منهم من جعل: ما ^(٥): ههنا بمعنى الذي. ثم قوله: ﴿رَكَّبَكَ﴾ يختل أن يكون هذا عبارة عما تقدّم من الأوقات، وهو أنه قد شاء تركيبك على الصورة [التي] ^(٦) أنت عليها لا على صورة البهائم وغيرها، فيكون في ذكره تذكير العنّ والنعم ليستأدي منه الشكر.

ووجه التذكير أنه أنشأه على صورة، يتمناها، ولا يتمنى أن يكون بغير هذه الصورة من الجواهر، وأنشأه على صورة يعرف [بها] ^(٧) المحاسن والمساوي، ويعرف الحكمة والسفة، ويميز بينهما، ويميز بين المصائر والمنافع، وأنشأه على صورة سخر له [بها] ^(٨) السموات والأرضين والأنعام كما قال الله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [لقمان: ٢٠] وقال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَلَقْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الآية [الإسراء: ٧٠] ولم يسخره لغيره. فثبت أن فيه تذكير النعم لشكركه ويقوموا بحمده.

وجائز أن يكون هذا على الاستثنا في أن تركيبه على ما هو عليه، أي على صورة شاء من الصور التي يستقذرها، ويمسحها قرداً وخنزيراً لِمَكَانٍ مَا يَتَعَاطَى مِنَ الْمَعَاصِي، فيكون في ذكره تذكير القدرة والقوة ليراقب الله تعالى، وبها به، فيتترك معاصيه، ويسارع إلى طاعته.

الآية ٩

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ فإن حملت قوله: ﴿كَلَّا﴾ على التثنية والردع فيمكن أن يُعطف على ما قبله وعلى ما بعده، وكذلك إذا حملته على القسم بمعنى: حقاً، فإنه يستقيم عطفه على الأمرين جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿بِالَّذِينَ﴾ يختل أن يكون أريد به دين الإسلام. والأصل أن الدين إذا أُطلق أريد به الدين الحق، وهو الإسلام، وكذلك الكتاب المطلق كتاب الله تعالى.

(١) في الأصل وم: فكل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: يعرفها. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ٨٩. (٥) في الأصل وم: ألما. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

ويجوز أن يكون أريد به البعث والجزاء. وسُمِّي يوم الدين لما ذكرنا أن الناس يُدانون بأعمالهم. والحكمة فيه، والله أعلم، أنهم أقرّوا بأن الله تعالى أحكم الحاكمين. وتكذيبهم بيوم الدين يوجب أن يكون أشق^(١) السفهاء لا أن يكون أحكم الحاكمين، لأن الدنيا، عواقبها الفناء^(٢) والهلاك؛ فهم إذا كذبوا بالبعث، فقد زعموا أنهم ما أنشئوا إلا للهلاك والفناء، ومن بنى بناء، ولم يقصد بيناؤه سوى أن ينفذه، ويهدمه، فهو سفيه عاثر في الفعل، فلم يخلصوا من تكذيبهم إلا على نفي الحكمة من الصانع وتثبيت السفه لله تعالى ﴿سُبْحَنَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣] وهو قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧] وهم لم يكونوا يدعون أنهما خلقتا بطلا، ولا يظنون ذلك، ولكن الإنكار الذي وجد منهم بالبعث والجزاء يقتضي خلقهما باطلا. فعلى ذلك إنكارهم البعث يزِيل عنه القول بأنه أحكم الحاكمين، ويثبت ما ذكرنا من السفه ﴿سُبْحَنَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

الآية ١٠

وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىكُمْ لِحْظِينَ﴾ وهم لم يكونوا يقبلون الأخبار، ولا كانوا يؤمنون بها، ثم أخبرهم أن عليهم حقاظا لأن الذي حملهم على الجهل تركهم الإنصاف من أنفسهم، وإلا لو أنصفوا من أنفسهم لكان إعطاؤهم النصفة يوصلهم إلى تدارك الحق ومعرفة ما عليهم من الواجب.

ثم قد ذكرنا أن المرء إذا كان عليه حافظ أذاه ذلك إلى المراقبة، فيرتدع عن تعاطي ما يؤخذ عليه، فتبين أن علينا حقاظا لنحتشم عنهم، ولا نأتي من الأمور ما يسوئهم، ووصفهم أنهم كرام لنضحبهم ضحبة الكرام، ومن ضحبة الكرام أن نحترمهم، وننقي مخالفتهم، ولا نتعاطى ما يسوئهم.

الآية ١١

وذلك قوله تعالى: ﴿كَرَامًا كَبِيرًا﴾ وفي ذكر الكرام فائدة أخرى، وذلك أن قوله: ﴿كَرَامًا كَبِيرًا﴾ هم^(٣) على الله تعالى، والكريم على الله تعالى هو المتقي. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فيكون فيه أمان لهم أنهم لا يزيدون، ولا ينقصون في الكتابة، وإنما يكتبون قدر عملهم كما ذكرنا من الفائدة في وصف جبرائيل/ ٦٣٠ - أ/ عليه السلام، بالقوة والأمانة.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ مَا تُنْقُلُونَ﴾ فهو يختل وجهين:

أحدهما: أنهم ﴿يَتْلُونَ مَا تُنْقُلُونَ﴾ قبل أن تفعل بما عرفهم الله تعالى، فيكون في تعريفهم إياهم إلزام الحجة عليهم، ويكون الذي يكتبون امتحانا امتحنوا به؛ إذ قد فُرض إلى بعضهم أمر كتابة الأعمال وإلى بعض إرسالي المطاري^(٤) ونحو ذلك.

[والثاني: أنهم]^(٥) ﴿يَتْلُونَ مَا تُنْقُلُونَ﴾ وقت فعلكم جهة الفعل من خير أو شر، فيكون لفعل الخير آثار بها يعرفون أن الفاعل به قصد به جهة الخير، ويكون لفعل الشر آثار بها يعرفون ذلك أيضا.

ثم عذر المسلمين في ترك المراقبة أقل من عذر المكذبين بالدين لأن المسلمين علموا أن عليهم حقاظا، يحفظون أعمالهم، ويكتبونها عليهم، ثم هم مع ذلك يفعلون، ولا يضحبونهم ضحبة الكرام، ويتركون التيقظ والتبصر، والكفرة ينكرون أن يكون عليهم حقاظ، ومن كان هذا حاله فالإغفال عن مثله غير مستبعد.

الآيتان ١٣ و ١٤

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ﴿وَلَا النَّجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ قد ذكرنا أن البر أعطى ما طلب منه ما ذكر في قوله: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَبُوهَكُمْ قِيلَ الْمَشْرِيقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي هذه الآية دلالة على ما ذكرنا أن البر إذا ذكر دون التقوى اقتضى المعنى الذي يراى بالتقوى لأنه أخبر أن البر، هو الإيمان بالله واليوم الآخر، ثم ذكر أن الذي جمَعَ بين هذه الأشياء، هو المتقي.

(١) من م، في الأصل: أريد. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الفساد. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: الأمصار.

(٥) في الأصل وم: أو.

ثم اخْتَجَّ المعتزلة بقولهم بالتخليد في النار لِمَنْ ارْتَكَبَ الكبيرة بقوله تعالى: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ يَجْمَعُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا مِنْهَا﴾ [١٣] لأن مَنْ ارْتَكَبَ الكبيرة فاجِرٌ، وقد قال^(١) الله تعالى: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ يَجْمَعُ﴾ [١٣] ﴿وَمَا مِنْهَا يَتْلَوْنَ﴾ [١٣] يات بالشرائط [النبي]^(٢) ذكر في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فهو غير داخل في قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَجْمٍ﴾.

والأصل عندنا ما ذكرنا أن كلَّ وعيد مذكور مُقابل الوَعْدِ فهو في أهل التَّكْذِيبِ [لِما ذَكَرَ مِنَ التَّكْذِيبِ]^(٣) عند التفسير بقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُتُورِ لَفِي سِتْرٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ لِلتَّكْذِبِينَ﴾ [المطففين: ٧ إلى ١٠] وقال: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤ و ١٠٥] وإذا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَجِبْ قَطْعُ [القول]^(٤) بالتخليد لِمَنْ ارْتَكَبَ الكبيرة، بل وَجِبَ القول بالوقف فيهم.

ثم إن الله تعالى جَعَلَ لأهل النار يومَ البعث أعلاماً ثلاثة، بها يُعرفون، وتبينُ أنهم من أهل النار، لَمْ يَجْعَلْ شيئاً من تلك الأعلام في أهل السعادة:

أحدها: اسودادُ الوجوه [بقوله: ﴿وَسَوْدُوهُمُ﴾ [آل عمران: ١٠٦]]^(٥).

والثاني: بما يذْفَعُ إليهم يحاطهم بِشمالهم ومن وراء ظهورهم، ويذْفَعُ إلى أهل الجنة كُتُبهم بأيامهم.

والثالث: في أن تَخِفَ موازينهم، وتثْقُلَ موازين أهل الحق.

فهذه أعلامُ أهل الشقاء؛ وفي ما ذَكَرَ: اسودادُ الوجوه قَرَنَ به التَّكْذِيبُ؛ قال^(٦): ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ مِلَّتِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وفي ما ذَكَرَ دفعَ الكتابِ بالشَّمالِ ومن وراء الظهور؛ قال فيه: ﴿فَأَسْكُوهُمْ﴾ [إِنَّهُمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ] [الحاقة: ٣٢ و ٣٣] وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَرَبَتْ كَيْفَهُ ذَلَّةٌ ظَاهِرَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَنْ يُخْرَجُوا﴾ [إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ] [إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾] [الانشقاق: ١٠ إلى ٢٥].

وقال تعالى عنه ما ذَكَرَ [في حَقِّهِ]^(٧) الميزان: ﴿أَلَمْ تَكُنْ تَكُنْ عَابِقُ ثُلَاثًا عَلَيَّكَ فُكْتُ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥].

ولم يذكر شيئاً^(٨) من هذه الأعلام [في]^(٩) غير المُكْذِبِينَ، فثبت أن الوَعْدَ في المُكْذِبِينَ لا في غيرهم. لذلك لم يَسْغَ لنا أن نُشْرِكَ أهل الكبائر مع أهل التَّكْذِيبِ في استيجابِ العقابِ وقَطْعِ القولِ بالتخليد. بل وَجِبَ الوقفُ في حالهم والإرجاء في أمرهم.

وقد^(١٠) ذَكَرَ في مواضع الإيمان بالله تعالى أَدْنَى مَرَاتِبِ أهل الإيمان، وَوَعَدَ عليه الجنة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحديد: ١٩] وقال في موضع آخر: ﴿وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١] وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ الآية [النساء: ١٥٢] فذَكَرَ في هذه الآيات التي تَلَوْنَاهَا أَدْنَى مَنَازِلِ أهل الإيمان، وَوَعَدَ عليها الجنة بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ الآية [العصر: ٣] وقوله^(١١): ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

فجائزُ أن يكونَ ذِكْرُ الجميعِ على المُبالغةِ لا على جَعْلِهِ شَرْطاً، فيجبُ القولُ باستيجابِ الوَعْدِ بأدْنَى مَرَاتِبِهِ على ما ذَكَرَ في الآياتِ الأخرى.

وجائزُ أن يكونَ [ذِكْرُ]^(١٢) الجميعِ في ما ذَكَرَ فيه ﴿وَرُسُلِهِ﴾ الإيمان بالله ورُسُلِهِ مُضْمَرًا^(١٣)، أو يكونَ ذِكْرُ طَرَفٍ مِنْهُ على الإيجازِ.

(١) في الأصل: وم: وصف. (٢) في الأصل: وم: ولا يغيب عنها. (٣) في م: الذي، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم: (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل: وم: بقوله. (٨) في الأصل: وم: ﴿إِلَّا﴾. (٩) في م: حقة، في الأصل: حقة. (١٠) في الأصل: وم: شيء. (١١) ساقطة من الأصل وم: (١٢) في الأصل: وم: والثاني. (١٣) في الأصل: وم: وقال. (١٤) ساقطة من الأصل وم: (١٥) في الأصل: وم: مضمّر.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ ذَكَرَ الْكُفْرَ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ، وَأَوْعَدَ عَلَيْهِ النَّارَ، وَذَكَرَ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ الْكُفْرَ مَعَ سَبَابٍ أُخَرَ، وَأَوْعَدَ عَلَيْهِ النَّارَ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١] وقوله^(١) في موضعٍ أُخَرَ: ﴿قَالُوا لَوْ نَكَّ مِنْهُ التَّمَتُّعُونَ﴾ [المائدة: ٤٣ و٤٤].

ثم لم يُعَدِّ جميعَ ما ذَكَرَ مِنَ السَّيِّئَاتِ مَعَ الْكُفْرِ شَرْطًا، بَلْ أَوْجَبَ الْقَوْلَ بِالتَّخْلِيدِ لِمَنْ اقْتَصَرَ عَلَى الْكُفْرِ خَاصَّةً، فَثَبَّتَ أَنَّ لَيْسَ فِي ذِكْرِ الْمُبَالِغَةِ دَلَالَةٌ جَعَلَ الْمُبَالِغَةَ شَرْطًا، بَلْ جَائِزٌ أَنْ يُسْتَوْجَبَ الرَّعِيدُ بِدُونِهِ، فَلِلَّذَلِكَ لَمْ يَقْطَعْ الْقَوْلَ فِي أَصْحَابِ الْكِبَارِ بِالتَّخْلِيدِ فِي النَّارِ وَلَا بِأَنَّهُمْ مُسْتَوْجِبُونَ لِلْوَعْدِ، بَلْ قِيلَ فِيهِمْ بِالْإِرْجَاءِ.

الآيتان ١٦ و ١٧ وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ يَوْمَ الْآزِلِ﴾ ﴿وَمَا مِنْ عَنَّا بِقَائِلِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: تَأْوِيلُهُ مُنْصَرِفٌ إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَأَهْلِ الْجَنَّةِ، فَأَهْلُ الْجَنَّةِ لَا يَغْيِبُونَ عَنِ الْجَنَّةِ، وَلَا أَهْلُ النَّارِ [يَغْيِبُونَ]^(٢) عَنِ النَّارِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُرِيدَ بِهَا أَهْلُ النَّارِ خَاصَّةً أَنَّهُمْ لَا يَغْيِبُونَ عَنْهَا.

وَأَنْكَرَ بَعْضُ النَّاسِ الْخُلُودَ لِأَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ وَلَأَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَقَالُوا: لَوْ لَمْ يَكُنْ لِنَعِيمِ الْجَنَّةِ انْقِضَاءٌ وَلَا لِعَذَابِ الْآخِرَةِ انْتِهَاءٌ لَكَانَ يَرْتَفَعُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى الْوَصْفُ بِأَنَّهُ أَوَّلٌ وَآخِرٌ لِأَنَّهُمَا تَبْقَيَانِ أَبَدًا، فَلَا يَكُونُ هُوَ آخِرًا، وَقَدْ قَالَ: ﴿مُوَّالٍ وَآخِرٍ﴾ [الحديد: ٣] فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِهَما انْتِهَاءٌ حَتَّى يَسْتَقِيمَ الْوَصْفُ بِأَنَّهُ آخِرٌ.

وَلَأَنَّهُمَا لَوْ لَمْ يَوْصَفَا بِالْانْتِهَاءِ لَكَانَ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرَ مُحِيطٍ بِنَهَائِيَّتِهِمَا، فَتَكُونُ النِّهَايَةُ مُجَاوِزَةً لِعِلْمِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى مُحِيطٌ وَعَالَمٌ بِمَادِيَّتِهِمَا وَمُنْتَهَاهُمَا، فَلَا بُدَّ مِنَ الْقَوْلِ بِقُنَائِيَّتِهِمَا حَتَّى يَكُونَ عِلْمُهُ مُحِيطًا بِهِمَا.

وَلَأَنَّهُمْ إِنَّمَا اسْتَوْجَبُوا الْجَزَاءَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَأَهْلُ النَّارِ اسْتَوْجَبُوا الْعِقَابَ بِسَيِّئَاتِهِمْ، فَإِذَا كَانَ لِسَيِّئَاتِهِمْ نِهَايَةً، وَلِخَيْرَاتِ أَوْلَئِكَ نِهَايَةً، فَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْجَزَاءِ نِهَايَةً أَيْضًا.

وَالْأَصْلُ عِنْدَنَا [بِرُوحَيْنِ]:

أَخَذَهُمَا: [٣] أَنْ كُلَّ مَنْ اغْتَفَقَ مَذْهَبًا فَهُوَ يُعْتَقَدُ التَّدْيِينَ بِهِ أَبَدًا مَا بَقِيَ، لَا يَتَرُكُهُ. ثُمَّ الْعِقَابُ جُعِلَ جَزَاءً لِلْكَفْرِ، وَالثَّوَابُ جُعِلَ جَزَاءً لِلْإِتْقَانِ مِنَ الْمَهَالِكِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وقوله^(٤): ﴿وَجَنَّةٍ عَرَبَتْهَا السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وَإِذَا ثَبَّتَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا جَزَاءٌ لِمَذْهَبِهِ^(٥)، وَكَانَ الْإِغْتِقَادُ لِلأَبَدِ، فَكَذَلِكَ جَزَاؤُهُ يَقَعُ لِلأَبَدِ وَالْدَوَامِ لَا لِلزَّوَالِ وَالْإِنْقِطَاعِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْعِلْمَ بِزَوَالِ النِّعَمِ مِمَّا يُنْقَضُ النَّعِيمُ عَلَى أَرْبَابِهَا، وَيُمَرَّرُ عَلَيْهِمْ لَذَائِهَا، وَيُكَدَّرُ عَلَيْهِمْ مَا صَفَا مِنْهَا.

فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَتِمَّ لَهُمُ النَّعِيمُ. وَأَهْلُ النَّارِ إِذَا تَدَكَّرُوا الْخَلَاصَ مِنَ الْعَذَابِ تَلَذَّذُوا بِهَا، وَهَانَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، فَوَجِبَ الْقَوْلُ بِالْخُلُودِ لِيَتِمَّ النَّعِيمُ عَلَى أَهْلِهِ وَالْعَذَابُ عَلَى أَهْلِهِ.

وَالْجَوَابُ عَنْ قَوْلِهِمْ^(٦): إِنَّهُ يَرْتَفَعُ عَنْهُ الْوَصْفُ بِأَنَّهُ أَوَّلٌ وَآخِرٌ [أَنَّهُ أَوَّلٌ وَآخِرٌ]^(٧) بِذَاتِهِ لَا بِغَيْرِهِ، وَغَيْرُهُ يَصِيرُ أَوَّلًا وَآخِرًا بِغَيْرِهِ/ ٦٣٠ - ب/ ثُمَّ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَلَهُ أَوَّلٌ وَآخِرٌ، ثُمَّ لَا يَوْجِبُ ذَلِكَ إِسْقَاطَ الْأَوَّلِيَّةِ وَالْآخِرِيَّةِ. [وَالْجَوَابُ عَنْ قَوْلِهِمْ^(٨)]: بَأَنَّ اللَّهَ لا يَوْصَفُ بِالْإِحَاطَةِ بِالشَّيْءِ لَوْ وَجِبَ الْقَوْلُ بِالْخُلُودِ، فَنَقُولُ بِأَنَّ الْعِلْمَ بِمَا لَا نِهَايَةَ لَهُ يَوْجِبُ الْجَهْلَ لَا الْعِلْمَ.

وَالْجَوَابُ عَنِ الْفَصْلِ الثَّالِثِ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ يُعْتَقَدُ الْمَذْهَبُ لِلأَبَدِ، وَكَذَلِكَ الْجَزَاءُ يَتَأَبَّدُ، وَلَا يَقْطَعُ.

الآيتان ١٧ و ١٨ وقوله تعالى: ﴿وَمَا آذَنَكَ مَا يَوْمَ الْآزِلِ﴾ ﴿وَمَا آذَنَكَ مَا يَوْمَ الْآزِلِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّكَ لَمْ تَكُنْ تَدْرِي، فَادْرَاكَ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا عَلَى التَّعْظِيمِ لِذَلِكَ الْيَوْمِ وَالتَّهْوِيلِ عَنْهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: لِلْمَذْهَبِ.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ.

الآية ١٩

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ وذلك اليوم يوم تُجْزَى فيه الشفاعات، فيُشْفَعُ الأنبياء لكثير من الخلق، فيُشْفَعُ بهم. وإذا كان كذلك فقد ملكت نفس لنفس شيئا. ولكن تأويله يُخرُج على أوجه ثلاثة:

أحدها: أن الكفرة كانوا يتوادون في ما بينهم ليُناصِر بعضهم بعضاً في النوائب، فقال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ آوْتُنَا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بِمَعْصِكُم بَعْضًا وَمَأْوَيْكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَصْغِيرَةٍ﴾ [المنكوت: ٢٥].

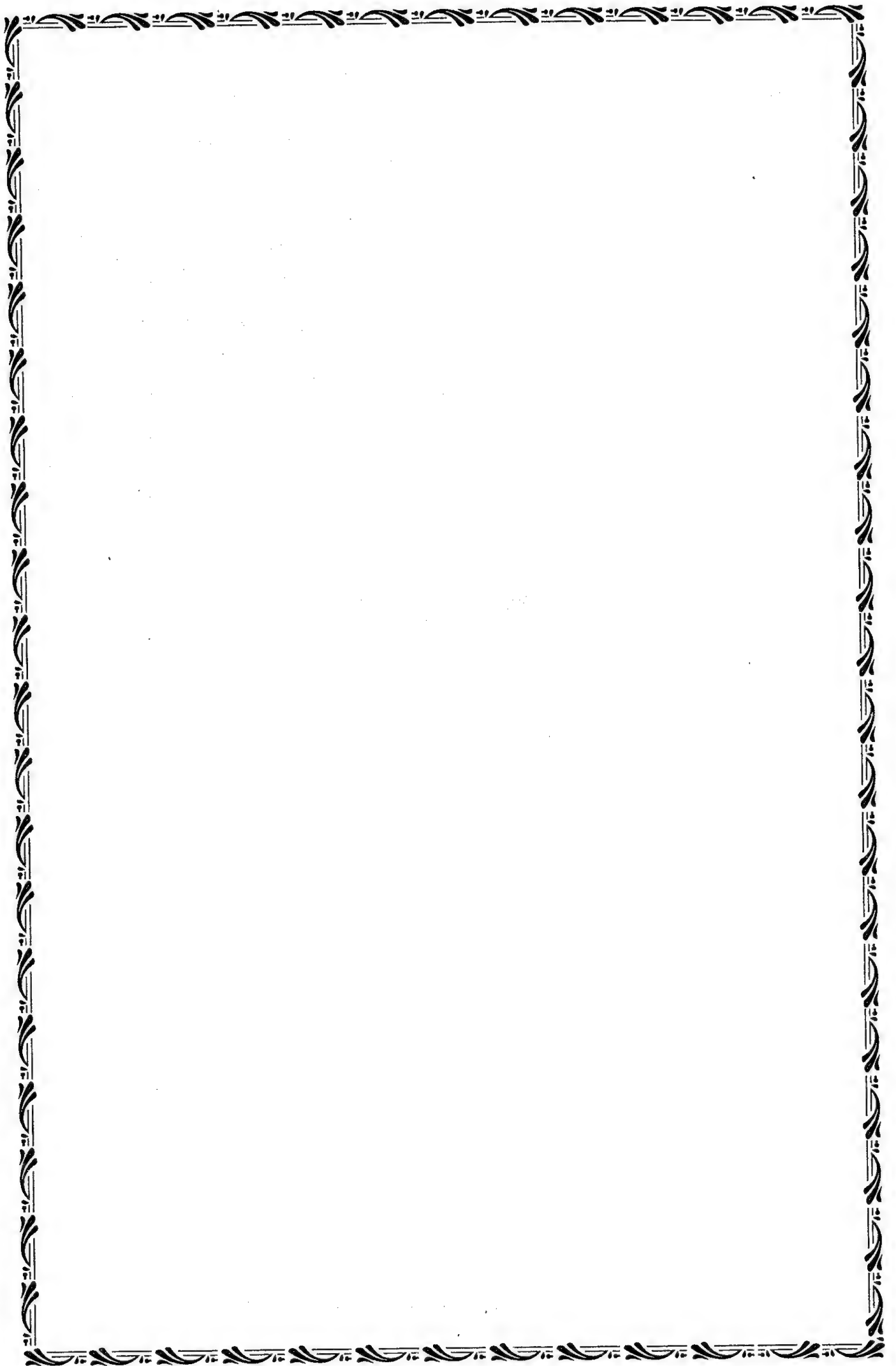
[والثاني: ^(١)] لا تملك نفس لنفس شيئا إلا بعد أن يؤذن لها كما قال ﷺ: ﴿لَا يَكَلِّمُونَ إِلَّا مَنْ أُوذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبي: ٣٨] وقد يجري التشفُّع في الدنيا لا بالاستئذان من أحد.

[والثالث: أن] ^(٢) يكون مغناه: أن كل نفس سيَّيئ لها في ذلك اليوم أنها لم تملك شيئا إلا بالتَّمْلِكِ.

وقوله تعالى: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَهِ لِلَّهِ﴾ أي لا يُتنازع فيه، وهو في كل وقت لله تعالى. لكن الظلمة يتنازعون في هذه الدنيا، أو ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَهِ لِلَّهِ﴾ أي يتبين لكل أحد في ذلك اليوم أن الأمر لله تعالى في ذلك اليوم وقبل ذلك اليوم، والله المستعان. [ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم] ^(٣).



(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) من م: ساقطة من الأصل.



[سورة المطففين]

وهي مكية^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فوجه تغييرهم بالتطفيف والحاق الوعيد لمكانه، وإن كانوا مستوجبين للوعيد، وإن أوقوا الحكيال، ولم يطففوا فيه، إذا كانوا جاحدين بالله تعالى ومكذبين بالبعث.

هو أن الكفرة لم يكونوا اعتقدوا الكفر بالله تعالى لتلذذ، يقع لهم بنفس الكفر، ولا التزموه على التحسين لهم إياه، وإنما أغرضوا عن الإيمان لحبيهم الرئاسة ولما كلة كانت لهم، خافوا زوالها عنهم بالإسلام، وزهدوا فيه لما يلزمهم بالإيمان مؤن، واختاروا الكفر لئلا يلزمهم بالإيمان تحملها. فكان الذي يحملهم على الصد عن الإيمان وترك النظر في آيات الله تعالى وحججه ما ذكرنا، فعبروا بالأفعال الدنيئة التي كانوا يتعاطونها في ما بينهم من التطفيف والهمز واللمز وتركهم إيتاء الزكاة بقوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَاثِرُونَ﴾ [فصلت: ٧] لينقلعوا عنها، فيحملهم ذلك على النظر في القرآن والتدبر فيه، وهو كما ذكرنا في القتال أن فيه ما يحملهم على الإيمان لأنهم كانوا يتزهدون عنه لحبيهم الدنيا؛ فإذا قوتلوا ضاقت عليهم الدنيا، فبعثهم ذلك إلى الإيمان بالله تعالى وعلى النظر في آياته.

وذكر أن رسول الله ﷺ لما تلا هذه الآية على أهل المدينة^(٢) تركوا التطفيف فلم يطففوا بعد ذلك. [ابن ماجه

٢٢٢٣].

قال أهل اللغة: التطفيف نقصان؛ يقال: إناء طفان إذا كان غير مملوء. وقال الزجاج: يقال: شيء طفيف أي يسير، فسمي مطففاً لما يسرق منه شيئاً فشيئاً في كل حكيال، وفي هذا دلالة أن حرمة الربا عامة على أهل الأديان، وفيه دلالة أن حرمة الربا ليست لمكان العاقلين، وإنما هي حق على العاقلين لله تعالى؛ وذلك أن الذي يكال له كان يأخذ ما يكال له على علم منه بتطفيف البائع، ثم كان يرضى به، ويتجاوز عن ذلك، ومع ذلك لحقه^(٣) التغيير بالتطفيف، فدل أن حرمة ليست لمكان العاقلين، ولكنها من حق الله تعالى.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ فمنهم من ذكر أن هذا على التقديم والتأخير؛ ومعناه: ويل للمطففين على الناس إذا اكثالوا، أو وزنوا، يستوفون. ومنهم من قال: إن ﴿على﴾ ههنا بمعنى من^(٤)، فكانه يقول: ويل للمطففين الذين إذا اكثالوا من^(٥) الناس يستوفون.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ فمنهم من حمل قوله: هم بعد ذكر الكيل والوزن على التاكيد والمبالغة.

فإن كان هذا على هذا فحقه الوقت على قوله: كالوا وعلى قوله: وزنوا.

ومنهم من قال: معناه: وإذا كالوا لهم، أو وزنوا لهم، لأن الألف بينهما ليست بثبوتية في المصاحف، وهو مستعمل: كلته، و: كلت له لقوله: وعدته، وعدت له.

(١) من م، ساطعة من الأصل. (٢) في الأصل رم: مكة. (٣) في الأصل وم: لحقهم. (٤) في الأصل وم: عن. (٥) في الأصل رم: عن.

فَإِنْ كَانَ هَذَا مَعْنَاهُ لَمْ يَسْتَقِمَّ الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ: كَالْوَأ، وَ: وَزَنُوا، لِأَنَّ قَوْلَهُ: لَهُمْ تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ: كَالْوَأ، أَوْ وَزَنُوا، وَلَا يَجُوزُ قَطْعُ التَّفْسِيرِ عَمَّا لَهُ التَّفْسِيرُ.

الآية ٤ وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ: أَلَا يَظُنُّ؟ أَلَا يَعْلَمُ؟ وَأَلَا يَتَيَقَّنُ؟

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصْمُ: أَلَا يَظُنُّ بِمَعْنَى أَلَا يَشْكُ أُولَئِكَ فِي الْبَعْثِ؟ وَهُوَ مُخْتَمَلٌ لِمَا ذَكَرْنَا لِأَنَّ الشَّكَّ يَوْجِبُ الرُّهْبَةَ، وَارْتِفَاعَهُ يَوْجِبُ الْأَمْنَ.

أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَرْءَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى مَكَانٍ، فَأَخْبَرَهُ إِنْسَانٌ أَنَّ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَسْلُكَ سَرَّاقًا وَقُطَّاعَ الطَّرِيقِ، فَإِنَّهُ يَتَرَهَّبُ لذلك، فَيَسْتَعِدُّ لَهُ بِمَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ ضَرَرَ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ وَضَرَرَ السَّارِقِ، وَإِنْ لَمْ يَتَيَقَّنْ أَنَّ الْمَخْبِرَ صَادِقٌ فِي مَقَالَتِهِ، وَلَا يَتَيَقَّنْ أَنَّ السَّرَّاقَ يَتِمَكَّنُونَ مِنَ الْإِضْرَارِ؟ فَكَيْفَ لَا يَشْكُ هَؤُلَاءِ بِكَوْنِ الْبَعْثِ بِمَا يُخْبِرُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَيَقِيمُ عَلَيْهِ الْحُجَجَ، وَهَذَا أَقْلُ مَنَازِلِ الْإِخْبَارِ أَنْ يَوْرَثَ شَكًّا؟

ثُمَّ الْأَصْلُ أَنَّ حَرْفَ الشَّكِّ عِنْدَ اسْتِثْوَاءِ طَرَفِي الدَّاعِيَيْنِ، وَالظَّنُّ يُسْتَعْمَلُ عِنْدَ اخْتِلَافِ طَرَفِي الدَّاعِيَيْنِ، وَهُوَ أَنْ تُغْلَبَ إِحْدَى الدَّلَالَتَيْنِ عَلَى الْأُخْرَى، لِلَّذِكِّ يَسْتَقِيمُ الْحُكْمُ وَالْقَوْلُ بِأَكْثَرِ الظَّنِّ، وَلَا يَسْتَقِيمُ بِأَكْثَرِ الشَّكِّ.

ثُمَّ الظَّنُّ يَقُولُ مِنَ الْبَحْثِ عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّظَرِ فِيهِ. وَإِذَا [تَذَبَّرَهُ الْمَرْءُ]^(١) فَهُوَ لَا يَزَالُ يَرْتَقِي فِي الظَّنِّ دَرَجَةً دَرَجَةً حَتَّى يَنْتَهِيَ نَهَايَتَهُ [وَهِيَ] ^(٢) بَلُوغُ الْيَقِينِ وَذَلِكَ الصَّوَابُ.

فَلِلَّذِكِّ حَمَلُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ تَأْوِيلَ الظَّنِّ هَهُنَا عَلَى الْيَقِينِ وَالْعِلْمِ: أَنَّ ذَلِكَ نَهَايَةُ لِلظَّنِّ، وَحَمَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى الشَّكِّ لِمَا تَرْتَفِعُ الشُّبْهَةُ كُلُّهَا فِي مَا كَانَ طَرِيقَ مَعْرِفَتِهِ الْإِجْتِهَادُ. / ٦٣١ - /

وَمِثَالُ الظَّنِّ هَهُنَا الْخَوْفُ الَّذِي ذَكَرْنَا أَنَّهُ قَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي مَوْضِعِ الْعِلْمِ لِأَنَّ الْخَوْفَ إِذَا بَلَغَ غَايَتَهُ صَارَ عِلْمًا كَالَّذِي يُهْدَدُ بِالْقَتْلِ أَوْ يَقْطَعُ غَضُو بِشَرْبِ الْخَمْرِ [مُدْعِيًا]^(٣) أَنَّهُ يُبَاحُ لَهُ الشُّرْبُ، وَيُجْعَلُ كَالْمُتَيَقِّنِ أَنَّهُ بِهِ لَا مُحَالَةَ لَوْ امْتَنَعَ عَنِ الشُّرْبِ لِبُلُوغِ الْخَوْفِ نَهَايَتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْحَقِيقَةِ مُتَيَقِّنًا، لِمَا يَجُوزُ أَنْ يَخْضُلَ بِهِ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْقَتْلِ، فَعَلَى ذَلِكَ الْحُكْمُ فِي الظَّنِّ.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ لِلْحِسَابِ الَّذِي يُحْصَلُ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَجِدُونَ مِنْهُ مَخْرَجًا، فَيَخْلَصُونَ مِنَ الْعَذَابِ، لَيْسَ عَلَى مَا يُحْصَلُ عَلَيْهِ الْحِسَابُ فِي الدُّنْيَا، يَجِدُ [الْمَرْءُ]^(٤) لِنَفْسِهِ الْخَلَاصَ وَوَجْهَ الْمَخْرَجِ مِنْهُ.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿لِيَرَى عَظِيمٌ﴾ سَمَاءَ عَظِيمًا لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ دَوَامِ عَذَابِهِ وَدَوَامِ عِقَابِهِ.

الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْآَلَيْنِ﴾ أَي لِحُكْمِهِ أَوْ لِحِسَابِهِ أَوْ لَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، أَوْ يَقُومُونَ لَهُ مُسْتَسْلِمِينَ خَاضِعِينَ بِجَمَلَتِهِمْ، وَإِنْ كَانَ الْبَعْضُ مِنْهُمْ وَجَدَ مِنْهُ الْإِمْتِنَاعَ عَنِ الْإِسْتِسْلَامِ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ الظُّلْمَةَ يُنَازِعُونَهُ، وَيَذْعَرُونَ لِنَفْسِهِمْ أَشْيَاءَ، فَيُنْكِرُونَهُ^(٥). فَأَمَّا يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَإِنَّهُمْ جَمِيعًا يَقْرُونَ لَهُ، وَيُنْقَادُونَ لِحُكْمِهِ وَقَضَائِهِ، لِذَلِكَ خَصَّهُ بِقِيَامِ النَّاسِ لَهُ.

الآية ٧ وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَأَبُو بَكْرٍ: حَقًّا، أَي بَعَثَهُمْ حَقًّا، فَيُبْعَثُونَ. وَقَالَ الرَّجَاجُ: ﴿كَلَّا﴾ حَرْفُ رَدِّعٍ وَتَنْبِيهِ، أَي لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَا يَبْعَثُونَ، بَلْ يَبْعَثُونَ، وَيُجَازَوْنَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَيَكُونُ فِي هَذَا لِإِجَابِ الْقَوْلِ بِالْبَعْثِ مِنْ طَرِيقِ الْإِسْتِزْلَالِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُتُورِ لَفِي سِتْرَيْنِ﴾ اخْتَلَفَ فِي السُّجْنِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ اسْمَ مَوْضِعٍ، وَأَشَارَ إِلَيْهِ فَقَالَ: هُوَ صَخْرَةٌ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ، يُوضَعُ كِتَابُ الْفُتُورِ^(٦) تَحْتَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: تَدْبِر. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيُنْكِرُونَ لَهُ.

(٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الْكَافِر.

ولكن [ليس] ^(١) بنا إلى معرفة ذلك الموضع حاجة، لأن الذين امتحنوا بجعلِهِ في ذلك الموضع [قد عرفوه] ^(٢) وهم الملائكة.

ومنهم من زعم أنه حرف موجود في كتب الأولين، فذكر ذلك في القرآن.

فجائز أن يكون المقصود يتحقق بدون الإشارة إليه، وجائز أن يكون السجين الموضع الذي أعد للكافرين في الآخرة للعباب.

ولكن أول ما يرد عمله الذي أثبت في كتابه، ثم يلحق به الروح، ثم يتبعهما جسده في الآخرة على ما روي عن النبي ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وسجن الكافر والآخرة سجن الكافر وجنة المؤمن» [بنحوه: مسلم: ٢٩٥٦] فيرد كتابه إلى ذلك السجن، ويرد كتاب الأبرار إلى الجنة التي أعدت له، ثم تتبعه روحه ثم جسده فذلك قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [الآية: ١٨].

ومنهم من قال على التمثيل، ليس على تحقيق المكان في العليين؛ وذلك أن السجن، هو مكان أهل الخبث في الدنيا، فمثلت أعمالهم بذلك لخبثها وقبحها، ومثلت أعمال الأبرار بما ذكر من العليين؛ وذلك مكان أهل الشرف وأولي القدر، فيكني بذلك كناية عن طيب أعمالهم.

وقال الكسائي: السجن مشتق من السجن، كقولك: رجل فسق وشرب وسكيت.

ثم ذكر كتاب الفجار، والفجور يكون بالكفر وبغيره، فهذا اسم يقع به الاشتراك بين أهل الكفر وأهل الإسلام، لكنه ألحق عند التفسير بما يجوز صرف الوعيد إلى الكفار بقوله: ﴿تَالْيَوْمِئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الآية: ١٠] وكذلك نجد هذا الشرط ملحقاً بالتفسير في جميع ما جرى به الوعيد بالاسم الذي يقع به الاشتراك من نحو الفسق وترك [الصلاة] ^(٣) بقوله تعالى: ﴿تَالْوَالِدَيْنِ إِذَا قَالَا يَبْنَؤُنَا الْوَعْدُ﴾ [المدثر: ٤٣] وفي ما جرى من الوعيد في الذي لا يؤتي الزكاة، فكان في ذكر التفسير على تقييده بالكذب قطع الشهادة وإيجاب العذاب على المكذبين.

وفي ذكر الاسم الذي يقع به الاشتراك إيجاب الخوف على المسلمين الذين أشركوا في ذلك، فترك قطع الشهادة عليهم بالوعيد بما لم يذكر عند التفسير.

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَئِذٍ﴾ فهو تعظيم ذلك اليوم ووضع به نهاية الشدة، أو على الإمتنان على نبيه ﷺ أنه لم يكن يعلم ذلك حتى أطلعه الله عليه. وهكذا تأويل قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [الآية: ١٩].

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ أي الكتاب الذي في السجن مرقوم. والمرقوم: مكتوب ومثبت، والرقم هو الإعلام؛ يقال: رقم الثوب إذا علمه. فجائز أن يكون علمه، هو أن يختتم، فيكون فيه إخبار أنه لا يزد على قدر ما عمل، ولا ينقص منه ^(٤)، وهو كما ذكرنا من الفائدة في ما وصف جبرائيل ﷺ، بالقوة والأمانة بقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ ﴿شُلَّحَ نَمَّ آمِينَ﴾ [التكوير: ٢٠ و ٢١] فوصفه بالأمانة ليؤمن الخلق عن خيائنه في الكتاب وتغييره، ووصفه بالقوة ليغلبه أن غيره لا يتنهأ له أن ينتزع منه ما أرسل على يده، وبغيره. فذلك وصفه بالحنم والإعلام ليؤمن من الزيادة والنقصان.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿تَالْيَوْمِئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي للمكذبين بجميع ما يحق عليهم تصديقه، وذلك يكون بالإيمان بالله تعالى وبآياته ورسله وبالبعث.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ فالدين اسم لشئتين: اسم للجزاء واسم للإستسلام والخضوع؛ فيسمى يوم الدين لما يدانون بأعمالهم أو لما يستسلمون لله تعالى في ذلك اليوم، ويخضعون له.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: فعرفوه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: منها.

وفي تكذيبهم يوم الدين تكذيب لقدره الله تعالى وتكذيب رسله؛ لأن الرسل كانوا يدعونهم إلى الإيمان يوم الدين، فكانوا يكذبونهم بتكذيبهم بذلك اليوم، فيكون تأويله منصرفاً إلى ما ذكرنا من تكذيبهم بجميع ما يحق التصديق به.

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ فالمعتدي هو الذي يتعدى حدود الله تعالى، والأثيم الذي يأتى برؤ، فتكون مجاوزته عن الحدود والتأثم برؤ، هو الذي يحمّله على التكذيب، وإلا لو قام بحفظ حدوده، لم يأتى برؤ، لكان لا يكذب يوم الدين، أو يكون فيه إخبار أن المكذب به معتد أثيم.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿إِذَا نُنَادِي عَلَىٰ رَبِّنَا قَالِ اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أباطيل الأولين. وقال أبو عبيدة: الأساطير، هي التي لا أصل لها. ومعناه عندنا: ما سطره الأولون، أي كتبه؛ فالسطر الكتابة، فيخبرون أنها ليست من عند الله تعالى، بل مما كتبه الأولون التي ^(١) لا نظام لها، ولم يكونوا ^(٢) يقولون هذا في كل ما يتلو عليهم من أنباء الأولين، وكانوا ينسبونه إلى السحر، إذا اتاهم بالآيات المعجزات.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَأَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قيل: الرين الستر والغطاء، وقيل: الرين الصدأ. فالله تعالى سمى الإيمان الذي، هو في النهاية من الخيرات، نوراً، وسمى الكفر الذي، هو في النهاية من الشرور، ظلمة.

فإذا كان الإيمان منوراً للقلب، والكفر مظلماً، فإذا اشتغل بالأسباب الداعية إلى الكفر شيئاً بعد شيء من الآثام، فكل سبب من ذلك يعمل في إظلام القلب حتى تيم الظلمة على ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ سئل عن هذه الآية، فقال: «هو العبد يذنب الذنب فتتكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب منها صفّا قلبه، وإن لم يتب، فعاد، فأذنب، نكتت في قلبه نكتة سوداء، وإن عاد نكتت في قلبه حتى يسود القلب أجمع» [بنحوه: الترمذي: ٣٣٣٤].

فذلك الرين، ومن يرد الله أن يهديه يشرح صدره شيئاً فشيئاً بأسباب تتقدم الإيمان حتى يحمّله ذلك على الإيمان، فذلك تمام الإتيارح.

وعلى هذا يخرج تأويل ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه / ٦٣١ - ب/ أن الإيمان يبدو لمطة بيضاء في القلب، كلما ازداد عظماً ازداد ذلك البياض، فإذا استكمل الإيمان أبيض القلب كله.

ومعنى قوله: يبدو لمطة في القلب بيضاء إلى قوله: [أبيض القلب كله] ^(٣) عندنا بالأسباب الداعية إلى الإيمان، فلا يزال ينشرح منه [شيئاً فشيئاً] ^(٤) حتى يؤمن، لا أن يكون الإيمان ذا أجزاء، ولكن للإيمان مقدمات ينشرح [شيئاً فشيئاً] ^(٥) بكل مقدمة منه حتى يقضي به إلى الإيمان.

ثم إن الله تعالى سمى السواير ^(٦) عن الإيمان أسامي ^(٧): مرة قال: ﴿وَطَلَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٩٣ و...]. ومرة قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الآية [الأنعام: ٢٥ و...]. ومرة قال: ﴿أَمَرَ عَلَىٰ قُلُوبِ أَهْلَالِهَا﴾ [محمد: ٢٤] فكان الذين وصفوا بالقفل على قلوبهم، هم الذين انتهوا في الكفر غايته، حتى لا يطمع منهم الإيمان، وهم المتمردون المعتقدون التكذيب، وهم الرؤساء منهم والأئمة.

ومنهم من هو مطبوع على قلبه، وهم الذين اعتقدوا الكفر لا عن تمرّد وعناد، ولكن لما لم تلمح ^(٨) لهم الأسباب الداعية إلى الإيمان.

وذكر الزجاج أن أول منازل السّتر العن، وهو السّتر الرقيق كالسحاب الرقيق في السماء يعمل في غشاء القلب غشاء السحاب الرقيق بلون السماء، ثم إذا زاد سمّي ريناً، ثم يرتقي إلى الطبع إلى أن يصير كالقفل على القلب؛ وفي هذا دليل على أن الله تعالى تديراً وضئاً في أفعال العباد، لأنه أنشأ للكفر ظلمة في القلب حتى تمنعه تلك الظلمة عن ذلك الخيرات

(١) في الأصل وم: الذين. (٢) في الأصل وم: يكن. (٣) في الأصل وم: حتى يستكمل الإيمان. (٤) و(٥) في الأصل وم: شيء فشيء. (٦) من م، في الأصل: التواتر. (٧) في الأصل وم: بأسمي. (٨) في الأصل وم: تلج.

ونور الإيمان؛ إذ كلُّ مَنْ اغْتَنَدَ الكُفْرَ فهو لَيْسَ يَعْتَقِدُهُ لِيَمْنَعَهُ عَنْ ذَلِكَ الأنوارِ، وإذا لم يوجَدْ منه هذا يَثْبُتُ أَنَّهُ صارَ كذلك بتدبيرِ الله تعالى وصُنْعِهِ؛ إذ لا يجوزُ أَنْ تُخْدَتْ ظُلْمَةٌ في القلبِ إِلَّا بِمُحَدِّثِهَا، وإذا انْتَفَى الصُّنْعُ مِنَ الكافرِ^(١) ثَبَتَ أَنَّهُ بِتَدْبِيرِ الله تعالى ما صارَ كذلك، وأنه أنشأ مُظْلِمًا، والله الموفق.

الآية ١٥ وقوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ اخْتَلَفَ في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فذكر أبو بكرٍ الأصمُّ أَنَّ هذا في الدنيا؛ يقول: إنهم حُجِبُوا عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِمْ بما عَبَدُوا غَيْرَ الله تعالى، فصارت عِبَادَتُهُمْ غَيْرَ الله حجاباً عَنْ عِبَادَتِهِ.

وذكر أهلُ التفسيرِ أَنَّ هذا في الآخرة؛ ثم منهم مَنْ يقول: إنهم حُجِبُوا عَنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ، وأوجبوا بهذا القولِ الرؤيةَ للمؤمنين، ومنهم مَنْ يقول: هم محجوبون: أي عن كرامتِهِ^(٢) التي أَعَدَّهَا لأوليائِهِ وعن رحمته، فوقبوا بالحجبِ عن ذلك جزاءً لِصَنِيعِهِمْ، لأنهم في الدنيا ضَمِعُوا نِعَمَ الله تعالى، فلم يَتَّقِلُوا بالشكرِ، ولم يُؤْمِنُوا برسوله الذي بعثه رحمةً للعالمين، فأبليسوا من رحمته وكرامته في الآخرة عقوبةً لهم ومُجَازاةً، وهو كقوله تعالى: ﴿سَأْأَلُ اللهَ فَنَسِيهِمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أي جَعَلَهُمْ كَالشَيْءِ الْمَنْسِيّ الذي لا يُعْبَأُ بِهِ، فعلى ما [وُجِدَ منهم]^(٣) مِنَ المعاملةِ لآيَاتِهِ وحُجْبِهِ بِتَرْكِهِمْ الإلتفاتَ إليها عُوِيلُوا بِمِثْلِهِ في الآخرة وكقوله^(٤) في آيةٍ أُخْرَى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥].

الآية ١٦ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ فَمَنْ صَرَفَ الْحَجْبَ إِلَى الدنيا فهو يقول: ثم إنهم يَصْلَوْنَ الْجَحِيمَ بَعْدَ ما عَبَدُوا غَيْرَ الله تعالى، وأنْحَجِبُوا^(٥) عَنْ عِبَادَتِهِ. وَمَنْ صَرَفَ التَّأْوِيلَ إِلَى أمرِ الآخرة فهو يقول: إنهم يَصْلَوْنَ الْجَحِيمَ بَعْدَ ما ظَهَرَ فِيهِمْ مِنْ أثرِ الْحِجَابِ مِنْ سَوَادِ الوجوه وإعطاءِ الكتابِ بِشَمَالِهِمْ وَمِنْ وراءَ ظُهُورِهِمْ.

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ هَآؤَ هَآؤَ الَّذِي كُنتُمْ بِهٖ تَكْذِبُونَ﴾ تأويلُهُ أنهم يُعْرِفُونَ أنهم صَلُّوا بتكذيبِهِمْ بها، وحُجِبُوا عن الله بتكذيبِهِمْ بذلك اليوم؛ وإلَّا لو آمَنُوا، وأَقْرَأُوا أَنَّ النَّارَ حَقٌّ، والبعثَ حَقٌّ، لم يكونوا يَصْلَوْنَها، فَيُعْرِفُونَ حتى يَقْرَأُوا بذلك بقوله: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

الآيات ١٨ و ١٩ و ٢٠ وقوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ﴾ ﴿وَمَا أَتَذَرُكَ مَا عَلَيْنَا﴾ ﴿كِتَابَ تَرَوْهُ﴾^(٦) [ذَكَرَ الْأَبْرَارَ]^(٧) ههنا مُقَابِلَ الْفُجَّارِ في الأولِ، ثم بَيَّنَّ الْفُجَّارَ أَنَّهُمُ الْمُكَذِّبُونَ بيوم الدين، وذلك أَوَّلُ مَنَازِلِ الْكُفْرَةِ، فإذا أُرِيدَ بِالْفُجَّارِ الْكُفَّارُ، وأُرِيدَ بِالْأَبْرَارِ الَّذِينَ آمَنُوا، فلذلك قَالَ^(٨): ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ همُ الْمُؤْمِنُونَ، والْبَرُّ، هو الذي يَكْثُرُ مِنْهُ نَعَاطِي الْبِرِّ، يُسَمَّى بَارًا إذا كَثُرَ مِنْهُ الْبِرُّ، والفاجرُ، هو الذي يَكْثُرُ مِنْهُ فَعْلُ الْفُجُورِ.

فجائزُ أَنْ يَكُونَ الْوَعْدُ في الَّذِينَ بَلَّغُوا في الْفُجُورِ غَايَتَهُ، ويكونَ حَكْمُ مَنْ دُونَهُمْ مَثْرُوكًا ذِكْرُهُ، فَيُوصَلُ إِلَى معرفةِ حَكْمِهِ بِالْإِسْتِدْلَالِ، ويكونَ الْوَعْدُ في الَّذِينَ أَكْثَرُوا أفعالَ الْبِرِّ، ويكونَ حَكْمُ مَنْ دُونَهُمْ مَعْرُوفًا بِغَيْرِهِ مِنَ الْأَدِلَّةِ.

الآية ٢١ وقوله تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فَذَكَرَ شَهَادَةَ الْمُقَرَّبِينَ في كتابِ الْأَبْرَارِ، ولم يَذْكُرْ شَهَادَتَهُمْ عِنْدَ ذِكْرِ كِتَابِ الْفُجَّارِ؛ فجائزُ أَنْ يَكُونَ شَهَادَتُهُمْ عَلَى التَّعْظِيمِ بِعِلْمِهِ والدَّعَاءِ لَهُ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وقيل: ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ همُ مُقَرَّبُو أَهْلِ كُلِّ السَّمَاءِ.

الآية ٢٢ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ فالْبَرُّ، هو الذي يَبْذُلُ ما سُئِلَ عَنْهُ، وَيُجِيبُ إِلَى ما دُعِيَ إِلَيْهِ، فإذا أَجَابَ الله تعالى في ما دَعَا إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَوَقَّى بِأوامِرِهِ، وَانْتَهَى عَنْ مَنَاهِيهِ، فهو مِنَ الْأَبْرَارِ.

ثم ما ذَكَّرْنَا يَكُونُ بوجهَيْنِ:

أحدهما: بِالْإِعْتِقَادِ وَبِتَحْقِيقِهِ بِالْفِعْلِ وَالْمُعَامَلَةِ، فهذا قد وَقَّى بِما طُلِبَ مِنْهُ قَوْلًا وَفِعْلًا، فيكونُ هذا مِمَّنْ يُقْطَعُ فِيهِ الْقَوْلُ بِاسْتِجَابِ الْوَعْدِ الْمَذْكُورِ لِلْأَبْرَارِ.

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الكلام. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ذَكَرَ الله. (٣) في الأصل وم: وجدت. (٤) في الأصل وم: قال. (٥) في الأصل وم: وحجبا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: قيل.

والثاني: أن يقوم بوفاء ما طلب منه اعتقاداً، ولم يف ما اعتقده بفعله. فالحكم في مثله الوقف، ولا يقطع فيه القول باستيجاب الموعود، بل لله تعالى أن يجازيه بما ضيع من حفظ حدوده بقدر ما وجد من التضييع، ثم يلحقه بأهل كرامته، وله أن يغفر عنه بفضل وسعة رحمته.

والفجور، هو الميل، والميل يكون بوجهين:

أحدهما: بترك الاعتقاد والفعل جميعاً.

[والثاني: بميل^(١) في المعاملة؛ وهو أن يخالف فعله عقده.

فالذي وجد منه الميل عن الوجهين جميعاً يحل به ما أوعد، لا محالة.

وأما الذي خالف فعله عقده فإنه يوقف فيه، ولا يشهد أنه من جملة من يلحقه الوعيد، لا محالة.

ثم قد ذكرنا أن البر إذا ذكر على الانفراد أريد به ما يراد بالتقوى والبر^(٢) جميعاً، وكذلك التقوى إذا أريد اقتضى معنى البر. فإذا قرنا جميعاً أريد بالتقوى جهة وبالبر جهة؛ وذلك أن التقوى، هو أن يتقي المهلك؛ وذلك يكون بالإجابة إلى ما دعي إليه قولاً وفعلًا والانتهاز عما نهى عنه قولاً وفعلًا، وهذا هو معنى البر أيضاً.

فإذا ذكرنا معاً أريد بالتقوى الاجتناب عن المحارم، وأريد بالبر إتيان المحاسن.

وكذلك الإيمان إذا ذكر بالانفراد أريد به ما يقتضي الإسلام من المعنى والإيمان جميعاً. وكذلك الإسلام يقتضي معنى الإيمان إذا ذكر بالانفراد، لأن الإسلام، هو أن ترى الأشياء كلها سالمة لله تعالى، لا تجعل لأحد فيها شرك^(٣)،

والإيمان أن تصدق الله تعالى بأنه رب كل شيء. وإذا صدقت أنه رب كل شيء فقد جعلت الأشياء كلها سالمة له.

فهذا معنى قولنا^(٤): إنه يراد بالإيمان إذا ذكر بالانفراد ما يراد بالإسلام. فإذا ذكرنا معاً أريد بالإسلام ما يقتضيه ظاهره من جعل الأشياء كلها سالمة له، وأريد بالإيمان ما يقتضيه ظاهره بقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٥].

وكذلك الحكم في الخوف والرجاء إذا ذكر كل واحد من الحرفين منفرداً اقتضى / ٦٣٢ - أ / كل واحد منهما معنى الآخر. وإذا ذكرنا معاً أريد بكل واحد منهما ما يقتضيه ظاهره، ولم يضرَف إلى ما يراد بالآخر.

وقوله تعالى: ﴿لِي نَبِيْرٌ﴾ فجائز أن يكون هذا في الآخرة؛ يصفهم أنهم أبدأ في نعيم، وجائز أن يكونوا في نعيم الدنيا والآخرة؛ فيكونون في الدنيا في نعيم العقول دون نعيم الأبدان، وذلك أنهم يطيعون العقل في ما يدعوهم إليه، فيتنعمون بعقولهم؛ وهم^(٥) الذين تدعوهم إليه عقولهم لما تأبى أنفسهم الإجابة له، ويشتد عليها ذلك، فهم في نعيم العقول لا في نعيم الأبدان.

ونعيم الآخرة نعيم البدن والعقل جميعاً، فتتنعم أنفسهم وعقولهم، ولا يحملون ما تأبى أنفسهم احتمال^(٦)؛ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْرِئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ٤١] وقال تعالى: ﴿فَلَنَجْزِيَنَّهُ حَيْرَةً طَيِّبَةً﴾ الآية [النحل: ٩٧] فثبت أنهم في الدنيا والآخرة ﴿لِي نَبِيْرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّ الْأَرْكَانَ يَنْظُرُونَ﴾ قد ذكرنا أن كل ما تشوق الأنفس، وتشتهي في الدنيا، فعلى مثله جرت الإشارة لأهل الجنة في الدنيا.

وذكر أن أهل اليمن، كان إذا شرفت قذر أحدهم، وعلت رُبَّتُهُ في الدنيا، اتَّخَذَ لنفسه أريكة نُسِيت إليه؛ فيقال: هذو أريكة فلان، فجرت الإشارة لأهلها بالأرائك لما يرغب إلى مثلها في الدنيا، لا أن أرائكها شبيهة بالأرائك التي تتخذ في

(١) في الأصل وم: وميل. (٢) في الأصل وم: أو البر. (٣) في الأصل وم: شركاً. (٤) في الأصل وم: قوله. (٥) في الأصل وم: يكن.

(٦) في الأصل وم: احتمالها.

الدنيا لأن أرائك الجنة مُطَهَّرَةٌ مِنَ الآفَاتِ التي هي آثارُ الفناء، لكنها ذُكِرَتْ بهذا الاسم لما لا وَجْهَ لِلْوُصُولِ إلى تَعْرِفِهَا بِغَيْرِ الاسمِ الْمُعْتَادِ في ما بَيْنَ الخَلْقِ، والأريكة هي السرير في الجبال.

وقوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ﴾ يَخْتَمِلُ [وجهين]^(١):

أحدهما: أن يَقَعَ النَّظَرُ في الحَجَلِ، وذلك عند تلاقِي الإخوان واجتماعِهِمْ على الشراب.

والنَّظَرُ الثاني: يكونُ إلى مملكته، فيكونُ ذلك خارجاً مِنَ الجبالِ على ما رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيَرَى جَمِيعَ مَالِهِ بِنَظَرَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَقْلُ مَا يُعْطَى الرَّجُلُ مِثْلُ سَعَةِ الدُّنْيَا وَعَرْضِهَا». فذلك النَّظَرُ يَتَجَاوَزُ عَمَّا فِي الْجِبَالِ، فَيَقَعُ خَارِجاً عَنْهَا.

الآية ٢٤ وقوله تعالى: ﴿تَعْرِثُ فِي وجوههم نَصْرَةُ الْعَمِيرِ﴾ أي تَعْرِثُ لو نَظَرْتَ في وجوههم نَظَرَةَ النِّعَمِ. فجائز أن تكون النَّظَرَةُ مُنْصَرَفَةً إلى نفسِ الخَلْقَةِ، وهي^(٢) أنهم أَنشِثُوا على خِلْقَةٍ لا تَتَغَيَّرُ، ولا تَفْتَنُ، بل [تَزْدَادُ]^(٣) بَهْجَةً وَنُضْرَةً، أو تكونُ نَصَارَتُهُمْ بِمَا أُنْعِمُوا مِنَ النِّعَمِ.

ثم خُصِّصَت الوجوه [لأمرين]:

أحدهما^(٤): لأنَّ النَّظَرَ مِنْ بَعْضِ إلى بَعْضٍ يكونُ إلى الوجوه لا إلى غيرها مِنَ الأعضاء، فَخُصِّصَت الوجوه بالذكر لهذا، لا أن تكونَ النَّصْرَةُ لها خاصَّةٌ، بل النَّصْرَةُ تُشْتَمِلُ سائرَ البدنِ.

والثاني: لأنَّ السُّرُورَ إذا اشْتَدَّ في القلبِ أَثَّرَ في الوجوه، وكذلك الحزنُ يُؤَثِّرُ في الوجهِ إذا غَمَزَ القلبُ، فيكونُ في ذِكْرِهِ ﴿نَصْرَةُ الْعَمِيرِ﴾ إخبارٌ عن غاية ما هم عليه مِنَ السُّرُورِ.

الآية ٢٥ وقوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الرَحِيقُ، هو الخمرُ الذي لا غِشَّ فيه، وهو أن يكونَ مُطَهَّراً مِنَ الآفَاتِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هو شيءٌ أَعَدَّهُ اللهُ لأوليائِهِ، لم يُظْلَمْهُمْ على ما هَيَّيَ في الدنيا على ما قَالَ: ﴿وَلَا تَمْلِكُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] فهو شرابٌ، تَقَرَّبَ بِهِ أَعْيُنُهُمْ، ممَّا أُخْفِيَ لَهُمْ إلى الوقتِ الذي يَشْرَبُونَهُ.

الآية ٢٦ وقوله تعالى: ﴿مَخْتُومٍ﴾ خَتْمُهُ مِسْكٌ فجائز أن يكونَ راجعاً إلى حالِ الإناءِ الذي كانوا يُؤثِرُونَهُ في الدنيا، وأخْبِرَ أَنَّ خِتَامَهُ بِأَنْفُسِ شَيْءٍ عَرَفُوهُ في الدنيا، وهو المِسْكُ، ليسَ كالخِتَامِ في الدنيا، لأنهم يَحْتُمُونَ أوانيَهُمْ في الدنيا بالشيءِ الرَّذَلِ وبما لا قَدْرَ لَهُ عندهم.

وجائز أن يكونَ مُنْصَرِفاً إلى الشاربين: إنهم لا يَشْرَبُونَ أبداً، بل يكونُ لَهُ خَتْمٌ، ولكن لا تَنْقَطِعُ لَذَّةُ الشرابِ عنهم، بل أبداً يَجِدُونَ مِنْ ذَلِكَ رِيحَ المِسْكِ.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ فجائز أن يكونَ أرادَ به الشرابُ الذي وَصَفَهُ في قوله: ﴿رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ والتنافسُ حَرْفٌ يُسْتَعْمَلُ في الخيراتِ؛ كأنه يقولُ: فَلْيَتَغَبَّوْا في الشرابِ الذي هذا وَصَفُهُ الذي ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧] لا في الشرابِ الذي [يَذْهَبُ]^(٥) بالعقولِ، وَيُضْعِفُ [الأبدانَ، وَيُثْلِفُ]^(٦) الأموالَ. أو فَلْيَتَنَافَسُوا في النعيمِ الذي وَصَفَ ههنا لا في النعيمِ [الذي]^(٧) يَنْقَطِعُ، ولا يدومُ؛ فكانه يقولُ: فَلْيَتَغَبَّوْا في ما يُغِيبُ لَهُمُ النعيمَ الدائمَ والشرابَ الذي لا تَنْقَطِعُ لَذَّتُهُ.

وقيل: ﴿خَتْمُهُ مِسْكٌ﴾ ما بَقِيَ في الكأسِ مِنَ البقيةِ يكونُ ذَلِكَ مِسْكَاً. والتنافسُ إنما يكونُ في المُسَارَعَةِ في الخيراتِ وَتَرْكِ الإِتْبَاعِ لِلشَّهَوَاتِ والإِنْتِهَاءِ عَنِ المَعَاصِي، وهو كقولِهِ: ﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فَيَلْعَمَ السَّامِعُونَ﴾ [الصافات: ٦١] أي فَلْيَكُنْ عملُهُمْ لِمَا يُثِيرُ لَهُمْ ما ذَكَرَ مِنَ النعيمِ، لا في الذي يَنْقَطِعُ، ويكونُ عُقْبَاهُ النارُ.

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. وهو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: يثلف. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٢٧ وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أُمَّةٍ أَعْتَبْنَا﴾ [السجدة: ١٧] التي لا تعلمها الأنفس: فوصفت مرة المزاج^(١) بالمسك ومرة بالكافور بقوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] ومرة أخبر أنه ممزوج بالتسنيم، ولم يبين ما التسنيم، والتسنيم ما ارتفع من الشيء؛ فيجوز أن سمي تسنيمًا لأنه ينحدر إليهم من الأعلى، وأخبر أنه ممزوج بما إلى مثله ترغب الأنفس في الدنيا، وتشتاق إليه. ألا ترى أن الشراب في الدنيا إذا كان ممزوجاً فهو في القلوب أوقع منه، وتكون الأنفس إليها أرغب منه إذا كان غير ممزوج، فرغبوا بمثله في الآخرة؟

وذكر بعض أهل التفسير أن المقرين يسقون من ذلك الشراب صيفاً، ويمزج لغيرهم.
وقال الحسن: المزاج يكون للمقرين وغيرهم، وجعل الممزوج منه أشرف على ما ذكرنا.

الآية ٢٨ وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ هم الذين يسارعون في الخيرات في الدنيا، فتركوا متى الأنفس، وأتقوا المهالك والزلات. فهم المقرين.
وأضاف التقرب إلى الغير لأنهم بغيرهم ما وقفوا لاكتساب الخيرات، وعصموا عن ارتكاب المهالك والزلات لا بأنفسهم في الدنيا للأمور التي ذكرنا.

الآيتان ٢٩ و٣٠ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا يَصْحَكُونَ﴾ [وإذا مرؤا بهم يتفامون]^(٢) فوجه ذكر صنيع الكفرة بالمؤمنين في القرآن وجعله آية تلى، وإن كان المؤمنون بذلك عارفين، يخرج على ثلاثة أوجه:

أحدها: في تبين موقع الحجج في قلوب المؤمنين وعملها بهم؛ وذلك أن المؤمنين لما امتحنوا أنفسهم باختمال الأذى والمكروه من الكافرين [الذين]^(٣) انتصبا للمعاداة أبائهم وأجدادهم وأهاليهم، رفضوا^(٤) شهواتهم، وتركوا أموالهم، واختاروا اتباع محمد ﷺ ودينه، ومعلوم أنهم لم يحملوا أنفسهم كل هذه المؤن ظمعا ورغبة في الدنيا لما لم يكن عند رسول الله ﷺ ما يرغب في مثله من نعيم الدنيا، فثبت أن الحجج، هي التي حملتهم، ودعتهن إلى متابعتها، لا غير؛ فيكون في ما ذكرنا تثبيت رسالته، وإن لم يكن في الآية إشارة إلى الحجج التي اضطرتهم إلى تصديقهم والانقياد له، فيكون في ذكره تقرير لمن تأخر عنهم من المؤمنين لرسالته ﷺ.

والثاني: أن أولئك المؤمنين صبروا على ما نالهم من المكارو، واستقبلتهم من أنواع الأذى في قيامهم بأمر الله تعالى ليكون في ذكره تذكير لمن تأخر عنهم من المؤمنين أن عليهم الأمر بالمعروف والنهي^(٥) ٦٣٢ - ب/ عن المنكر وأنه لا عذر لهم في الإمتناع عن القيام بما ذكرنا، وإن نالهم من ذلك أذى ومكروه. بل الواجب عليهم الصبر على ما يصيبهم والقيام بما يحق عليهم.

[الثالث:]^(٦) ذكر ما لقي الأوائل من السلف من المعاداة والشدايد من الكفرة بإظهارهم دين الإسلام ثم [ما]^(٧) نلنا نحن هذه الرتبة، وأكرمنا بالهدى بلا مشقة وعناء، لنشكر الله تعالى بذلك، ونحمده عليه لعمدة ثنائه لإدبنا وجزيل مني علينا.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَصْحَكُونَ﴾ فضحكهم يكون لأحد وجهين:

إما على التعجب منهم أن كيف اختاروا متابعة محمد ﷺ وحملوا أنفسهم من الشدايد، ورفضوا بزوال النعيم عنهم من غير منفعة لهم في ذلك، وهم قوم، كانوا لا يؤمنون بالبعث، يكذبون بما وعد المؤمنون من النعيم في الآخرة، فكان يحملهم ذلك على التعجب، فيضحكون متعجبين منهم.

(١) في الأصل وم: بالمزاج. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ورفضوا. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) ساقطة من الأصل وم.

[وإِذَا] ^(١) كانوا يَضْحَكُونَ على استَهْزَائِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ، ويقولون ^(٢): «إِنْ هَؤُلَاءِ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَصَدَّقُوهُ فِي مَا يُخْبِرُهُمْ مِنْ نَعِيمِ الْآخِرَةِ، وَلَا يَغْرِفُونَ أَنَّهُ كَذَلِكَ، فَكَانُوا يُجْهَلُونَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا جَهِلُوا بِأَنْفُسِهِمْ، وَظَنُّوا أَنْ لَا بَغْتَ وَلَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: المجرم هو الوثاب في المعاصي، وذكر أبو بكر أن في ذكر صنيع الكفار بالمؤمنين دلالة رسالة النبي ﷺ وذلك أنهم كانوا يضحكون من المؤمنين، ويتغامزونهم، وينسبونهم إلى الضلال سراً من المسلمين، فاطلع الله تعالى نبيّه ﷺ، على ما أسروا من الأفعال ليَجْعَلَ لَهُمْ مِنْ أفعالِهِمْ حُجَّةً عَلَيْهِمْ لِنَبِيِّتِهِ وَرِسالَتِهِ ﷺ.

الآية ٣١ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: لاهين، أو مُعْجِبِينَ بحال المؤمنين ومسرورين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِمْ مُسْرُورِينَ﴾ [الانشقاق: ١٣].

الآية ٣٢ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾ فيجوز أن يكونوا نسبوهم إلى الضلال لتركيبهم دين آبائهم، ورأوا ما اختاروا من تحمّل الشدائد، ورضوا من العيش ضللاً منهم.

الآية ٣٣ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ أي لم يرسلوا لحفظ أعمال المسلمين، فيكون في ذكر هذا تفسيفاً أحلامهم، وهو أنهم تركوا النظر في أحوال أنفسهم، وجعلوا يعدّون على المسلمين عيوبهم [كانهم] ^(٣) أرسلوا عليهم حُفَاطًا، وما أرسلوا، أو يكون هذا إخباراً عن الكفار أنهم يقولون: ما أرسل على أحد حافظ، يحفظ عليه أعماله، فيكون هذا على الإنكار منهم الكرام ^(٤) الكائنين.

الآية ٣٤ وقوله تعالى: ﴿قَالِيبٌ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ويكون ضحكهم على المجازاة للكفرة بما كانوا يضحكون منهم في الدنيا.

الآية ٣٥ وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرْأَيْكَ يَنْظُرُونَ﴾ فمنهم من وقف على قوله: ﴿عَلَى الْأَرْأَيْكَ﴾ ومنهم من رأى موضع الوقف على قوله: ﴿يَنْظُرُونَ﴾.

فإذا وقف على قوله: ﴿عَلَى الْأَرْأَيْكَ﴾ كان معناه أنهم ينظرون هل جوزي الكفار بما أوعدهم الرسل في الدنيا؟ أم ^(٥) لا بعد. وإذا وقفت على قوله: ﴿يَنْظُرُونَ﴾.

الآية ٣٦ كان قوله تعالى: ﴿هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ﴾ أي قد جوزي الكفار بما كانوا يفعلون؟ فهم ينظرون كيف يُعَاقَبُونَ؟ ثم القول: أن كيف احتملت أنفسهم النظر إلى الكفار بما هم فيه من التعذيب؟ والمرء إذا رأى أحداً في شدة العذاب لم يَحْتَمِلْ طَبْعُهُ ذَلِكَ، وَيَتَعَصَّ عَلَيْهِ الْعِيشُ.

فجائز أن يكون الله تعالى أنشأهم على خلقه، لا تقبل المكاره، ولا تجدّها، بل تنال اللذات كلها والمسا، أو ارتفع عنهم المكروه ليلوغي العداوة بينهم وبين أهل النار غائتها.

وكذلك يرى المرء في الشاهد إذا عادى إنساناً، واشتدت العداوة في ما بينهما، ثم رآه يُعَذَّبُ بِالْوَأَنِ الْعَذَابِ، لم يَنْقُلْ عليه ذلك، بل أحب أن يزداد منه.

ثم جائز أن يرفع إليهم أهل النار إذا اشتاقوا النظر إليهم، فيروهم ^(٦)، أو يجعل في بصرهم من القوة ما ينتهي إلى ذلك المكان.

(١) في الأصل وم: أو. (٢) الواو ماقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ماقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: بكرتم.

(٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: فيرونهم.

ثم ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّهَا نَزَلَتْ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ [أَنَّهَا فِي] ^(١) أَوَّلِهَا مَدَنِيَّةٌ وَآخِرُهَا مَكِّيَّةٌ [وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ] ^(٢).



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (٢) ساقطة من م.

سورة الانشقاق

وهي مكية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١

قوله تعالى: ﴿إِذَا النُّجُومُ انشَقَّتْ﴾ هو جواب سؤالٍ تقدّمَ لِمَا ذُكِرْنَا أَنَّ حَرْفَ ﴿إِذَا﴾ حَرْفُ جوابٍ، وليس بحَرْفِ ابتداءٍ، فكانَ رسولُ الله ﷺ سُئِلَ عَنْ مُلَاقَاةِ الأَعْمَالِ: متى وقْتُها؟

فقال تعالى: ﴿إِذَا النُّجُومُ انشَقَّتْ﴾ ﴿وَأَذِنتْ لِرَبِّهَا وَحَّتْ﴾ فذلك^(٢) وقتُ مُلَاقَاةِ الأَعْمَالِ.

وقيل: ذُكِرَ فِي الحَبَرِ أَنَّ أَحَوَيْنِ: أَحَدُهُمَا مُسْلِمٌ، وَالْآخَرُ كَافِرٌ، قَالَ [الكافر]^(٣) لِلْمُسْلِمِ: أَتُرَاباً بَعْدَ المَوْتِ مَبْعُوثُونَ؟ قَالَ لَهُ: بَلَى وَالَّذِي خَلَقَكَ ﴿وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٤].

فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ تُبَيِّنُ لَهُمْ وَقْتَ بَعْثِهِمْ أَنَّهُ عِنْدَ انشِقَاقِ السَّمَاءِ وَمَدِّ الأَرْضِ وَنَحْوِهِ.

ثُمَّ ذُكِرَ الجَوَابُ فِي ابْتِدَاءِ السُّورَةِ لِيَكُونَ العَمْرُ أَذْكَرَ لَهَا لِأَنَّهُ يَكُونُ أَذْعَى لَهَا، وَإِذَا ذُكِرَ فِي وَسْطِ السُّورَةِ لَمْ يَتَحَفَظْ إِلَّا بِالثَّلَاوَةِ. وَلِهَذَا المَعْنَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، جُعِلَتْ: ﴿الْدَّرُ﴾ و﴿الرُّ﴾ و﴿كَبَيْعَ﴾ و﴿طَه﴾ رُؤُوسَ السُّورِ لِأَنَّ الكُفْرَةَ كَانَ مِنْ عَادَتِهِمُ الإِعْرَاضُ عَنِ الْقُرْآنِ وَتَرْكُ الإِسْتِمَاعِ إِلَيْهِ، لِيَتَنَهَّمُوهُ.

فَابْتَدَأَتْ [بَعْضُ السُّورِ]^(٤) بِمَا ذُكِرْتُ مِنَ الرُّمُوزِ وَالْإِشَارَاتِ لِيُحْمِلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى التَّفَكُّرِ فِيهِ وَالتَّنْظُرِ، إِذْ لَمْ يَسْبِقْ مِنْهُمْ^(٥) العِلْمُ بِمَعْرِفَةِ مَا يُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْدَّرُ﴾ و﴿الرُّ﴾.

ثُمَّ ذُكِرَ انشِقَاقُ السَّمَاءِ وَمَدُّ الأَرْضِ وَاقْتِصَابُهَا لِمَا جَعَلَ فِيهَا لِيَعْرِفُوا شِدَّةَ ذَلِكَ اليَوْمِ، فَيَخَافُوهُ، وَيَسْتَعِدُّوا لَهُ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِنتْ لِرَبِّهَا وَحَّتْ﴾ قِيلَ: سَمِعَتْ لِرَبِّهَا، وَأَطَاعَتْ، وَأَجَابَتْ إِلَى مَا دُعِيَتْ إِلَيْهِ.

ثُمَّ الْمُرَادُ مِنَ الإِذْنِ مُخْتَلِفٌ، فَحَقُّهُ أَنْ يُضَرَفَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى مَا هُوَ الْأَوَّلَى بِهِ.

أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: أَذِنَ الرَّجُلُ لِعَبْدِهِ فِي التَّجَارَةِ، فَلَسْتَ تُرِيدُ بِقَوْلِكَ: أَذِنَ مَا تُرِيدُ بِهِ إِذَا أَذِنْتَ لِغَيْرِكَ أَنْ يَتَنَاوَلَ مِنْ طَعَامِكَ، بَلْ تُرِيدُ بِالْإِذْنِ لِلْعَبْدِ الأَمْرَ بِأَنْ يَتَجَرَّ حَتَّى إِذَا^(٦) لَمْ يَفْعَلْ تَلَزِمُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَتُرِيدُ بِالْآخِرِ إِيَّاحَةَ التَّنَاولِ؟

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَمَا كُنْتَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمَرَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠] فَكَانَ الْمُرَادُ مِنَ الإِذْنِ مُخْتَلِفًا^(٧).

فَبَيَّنَتْ أَنَّ حَقَّهُ أَنْ يَحْمِلَهُ إِلَى مَا دَعَاهُ إِلَيْهِ أَوْجَهُ؛ وَهُوَ إِلَى الطَّاعَةِ وَالْإِجَابَةِ ههنا / ٦٣٣ - أ / أَوْجَهُ. لِذَلِكَ حَمَلُوهُ عَلَيْهِ.

وقوله ﷻ: ﴿وَحَّتْ﴾ أَيِ حَقَّتْ لَهَا أَنْ تَسْمَعَ، وَتُطِيعَ. وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ الإِجَابَةُ مُنْصَرِفَةً إِلَى أَهْلِهَا، ثُمَّ نُسِبَ إِلَيْهَا ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ الأَهْلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَكُنْ مِنْ قَرِيبٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الطلاق: ٨] وَلَا يُوجَدُ مِنَ الْقَرْيَةِ عَتَوٌ، وَإِنَّمَا يُوجَدُ مِنْ أَهْلِهَا.

فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَفِيهِ أَنَّهُ لَا يَتَخَلَّفُ أَحَدٌ عَنِ الإِجَابَةِ إِلَى مَا دَعَاهُ إِلَيْهِ الرَّبُّ تَعَالَى خِلَافًا لِمَا^(٨) كَانُوا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا أَغْرَضُوا عَنْ طَاعَتِهِ، وَاشْتَغَلُوا بِمَعْصِيَتِهِ.

(١) مِنْ م، فِي الأَصْلِ: ﴿إِذَا النُّجُومُ انشَقَّتْ﴾. (٢) فِي الأَصْلِ وَم: فَكَذَلِكَ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الأَصْلِ وَم. (٤) فِي الأَصْلِ وَم: السُّورَةُ. (٥) فِي الأَصْلِ وَم: مِنْهُ. (٦) فِي الأَصْلِ وَم: لَوْ. (٧) مِنْ م، فِي الأَصْلِ: مُخْتَلَفٌ. (٨) فِي الأَصْلِ وَم: عَلَى مَا.

ثم الإجابة والطاعة والعلو والكثرة ومثل هذه الأوصاف إذا أُضيفت إلى مَنْ هو مِنْ أَهْلِ الاختيار فهو على الطُّوع المعروف والإجابة المعروفة، وإذا أُضيفت إلى مَنْ ليس هو مِنْ أَهْلِ الاختيار فهو على تَعْيِينِ الهيئة [على ما هي عليه الخلقة نحو الأرض، تُوصَف بالحياة إذا أَثْبَتَتْ، وتُوصَف بالموت إذا بَيَّسَ [ما^(١)] عليها، وصارت مُتَهَشِّمَةً، فَيَرَادُ بهما أنهما صارتا^(٢) بهيئة لو وُجِدَتْ تلك الهيئة^(٣)] في الروحانيين لَصَارَ أَحَدُهُمَا عِلْمًا لِحَيَاتِهِ، وَالْآخَرُ عِلْمًا لَوَفَاتِهِ، كَقَوْلِهِ^(٤) تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْرَوْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيْنَاهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آفِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [نصفت: ١١] وهما لا يُوصَفَانِ بِطَوَّعٍ وَلَا كَرْهٍ؛ خُلِقْنَا عَلَى هَيْئَةٍ لَوْ وُجِدَتْ تِلْكَ الْهَيْئَةُ فِي مَنْ وَصِفَ بِالطَّوَّعِ وَالْإِكْرَاهِ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ طَوْعًا. وقول^(٥) إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخْلَقْتُ كَيْدًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] [وهي^(٦)] في الحقيقة لا تُضِلُّ، ولكنها أَثْبَتَتْ عَلَى هَيْئَةٍ، لو كانت تَمْلِكُ الإِضْلَالَ لَعُدَّ ذَلِكَ مِنْهَا إِضْلَالًا.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿وَالَا أَرْضُ نَذَلَتْ﴾ قيل: بُسِطَتْ، وَسُورَتْ بِكَسْرِ الشَّعَابِ، وَالْأُودِيَةِ [بكسر الجبال، وتماستا، فصارت^(٧)] ﴿فَاعَا مَقْصَصًا﴾ ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِزًّا وَلَا أَمْنًا﴾ [طه: ١٠٦ و١٠٧].

الآيتان ٤ و ٥

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَخَضَتْ]^(٨) أي أَلْقَتْ مَا وَضَعَ فِيهَا مِنَ الْمَوْتَى وَالْكُنُوزِ، فَتَخَلَّتْ عَنْهَا، فَتَسَبَّبَ التَّخَلُّ لِيَهَا، وَإِنْ كَانَ مَنْ فِيهَا، هُوَ الَّذِي تَخَلَّى^(٩) عَنْهَا، وَكَانَتْ هِيَ الْحَابِسَةُ^(١٠)، لِأَنَّهُ إِذَا [تَخَلَّى عَنْهَا تَخَلَّتْ]^(١١) هِيَ عَنْهُ.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ الكادح، هُوَ السَّاعِي، وَهُوَ الَّذِي اغْتَادَ ذَلِكَ، وَهَذَا فِي كُلِّ إِنْسَانٍ، تَرَاهُ أَبَدًا سَاعِيًا إِمَّا فِي عَمَلِ الْخَيْرِ [وَأَمَّا فِي^(١٢)] عَمَلِ الشَّرِّ وَأَمَّا^(١٣) فِي مَا يَضُرُّهُ حَتَّى إِذَا^(١٤) هَمَّ بِتَرْكِ السَّعْيِ لَمْ يَقْدِرْ لِأَن تَرْكَهُ السَّعْيُ نَوْعٌ مِنَ السَّعْيِ.

وروي عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ حِينَ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ قَالَ: «أَنَا ذَلِكَ الْإِنْسَانُ» فَبُيِّنَ أَنَّهُ هُوَ الْمَخْصُوصُ بِالْخِطَابِ لِأَنَّهُ بَيَّنَّ الْإِنْسَانَ فَقَالَ: ﴿فَمَنْ أَوْفَى كِتَابِهِ يَسِيرًا﴾ [الإسراء: ٧١ و...]. ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابِهِ بِشَكَاكٍ﴾ [الحاقة: ٢٥] ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ رَبَّهُ ظَهْرًا﴾ [الانشقاق: ١٠]^(١٥) وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُرَادُ بِهَذَا كُلُّهُ؛ فَكُلُّ أَحَدٍ عَلَى الْإِشَارَةِ مُرَادٌ بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ فَلِلَّذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَا ذَلِكَ الْإِنْسَانُ».

وقوله تعالى: ﴿إِنْ رَيْتَكَ كَدًّا﴾ فجائز أن يكون مَعْنَاهُ: أَنْ اجْعَلْ كَذَلِكَ إِلَى رَبِّكَ فِي أَنْ تَسْعَى إِلَى طَاعَتِهِ وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ ﴿فَمَلَقِيهِ﴾ فَإِنَّكَ مَلَقِيهِ، لَا مَحَالَةَ؛ أَي تُلَاقِي جَزَاءَ عَمَلِكَ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

وجائز أن تكون المُلَاقَاةُ كِنَايَةً عَنِ الْبُعْثِ؛ إِذِ الْبُعْثُ قَدْ يُكْنَى عَنْهُ بِلِقَاءِ الرَّبِّ. قَالَ تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ١١٠] وَسُمِّيَ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْمَصِيرِ إِلَى اللَّهِ تعالى وَيَوْمَ الْبُرُوزِ بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَالِئِنَّكَ الْفَاصِرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وَقَوْلُهُ تعالى^(١٦): ﴿وَيَبْرُزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] وَجَهُ التَّسْمِيَةِ بِهَذَا الْأَسْمَى مَا ذَكَّرْنَا أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ خَلْقِ الْعَالَمِ الْعَاقِبَةُ، فَسُمِّيَ بُرُوزًا لِمَا لِلْبُرُوزِ أَنْشَاءٌ، وَسُمِّيَ مَصِيرًا إِلَى اللَّهِ تعالى لِمَصِيرِهِمْ إِلَى مَالِهِ خُلُقُوا، وَإِنْ كَانَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ بَارِزِينَ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَكُونُوا عَنْهُ غَائِبِينَ، فَيَصِيرُوا إِلَيْهِ خُصُوصًا لِذَلِكَ الْيَوْمِ.

الآيتان ٧ و ٨

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابِهِ يَسِيرًا﴾ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [فَسَمَاهُ حَسَابًا يَسِيرًا]^(١٧) لِيُوجِوهَ:

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: صارت. (٣) ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: بالجبال أو تماستا فصار، في م: بالجبال وتماستا فصار. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: خلا. (١٠) من م، في الأصل: الجاسية. (١١) في الأصل وم: خلا عنها، خلت. (١٢) في الأصل وم: أو. (١٣) في الأصل وم: أو. (١٤) في الأصل وم: لو. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) من م، ساقطة من الأصل.

أخذها: أَنَّ الْمُؤْمِنَ اعْتَقَدَ تَصْدِيقَ الرَّبِّ فِي كُلِّ مَا دَعَاهُ إِلَيْهِ. فَإِذَا كَانَ [مُصَدِّقًا] ^(١) سَهْلَ عَلَيْهِ تَذَكُّرُ ^(٢) مَا قَدْ عَمِلَهُ بِتَفَكُّرِ الجملة.

[والثاني] ^(٣): أَنَّهُ إِذَا نَظَرَ فِي كِتَابِهِ رَأَى حَسَنَاتِهِ مَقْبُولَةً وَسَيِّئَاتِهِ مَغْفُورَةً، فَسَمَّى ذَلِكَ الْيَوْمَ يَسِيرًا لَهُ لِمَا أَثْبَتَ فِيهِ مِنَ الْخَيْرَاتِ، وَمُحِيَّ عَنْهُ مِنَ السَّيِّئَاتِ كَمَا سُمِّيَتْ الْخَيْرَاتُ يُسْرَى وَسُمِّيَ مَا يَجْرِي عَلَيْهَا يُسْرًا أَيْضًا، فَكَذَلِكَ الَّذِي أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينُهُ، يَجْرِي عَلَيْهِ الْخَيْرُ، يُسَمَّى حِسَابُهُ يَسِيرًا.

[والثالث] ^(٤): أَنَّ يَكُونَ الْمُسْلِمُ، يُحَاسَبُ فِي أَنْ يَذْكُرَ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يُحَاسَبَ حِسَابَ تَوْبِيخٍ وَتَهْوِيلٍ بَأَن يُقَالَ لَهُ: لَمْ تَعْمَلْ كَذَا؟ وَالْكَافِرُ يُسْأَلُ سُؤَالَ تَوْبِيخٍ، فَيُقَالُ: فَعَلْتَ كَذَا عَلَى الْإِنْجَاءِ [بِالْمَلَأَمَةِ عَلَى مَا] ^(٥) فَعَلَّ وَفِي ذَلِكَ تَفْسِيرٌ عَلَيْهِ.

وَرُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ نَوَقَشَ فِي الْحِسَابِ فَهُوَ مُعَذَّبٌ» [البخاري ٦٥٣٦]. وَفِي بَعْضِهَا: «مَنْ حُوسِبَ عُذَّبَ» قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تَعَالَى: «سَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا» ﴿وَيَقْلَبُ إِلَهُ أَعْلِيهِ مَسْرُورًا﴾؟ قَالَ: «ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نَوَقَشَ الْحِسَابَ هَلَكٌ» [البخاري ٤٩٣٩].

قَالَ الْفَقِيهُ، رَحِمَهُ اللَّهُ: فِي ظَاهِرِ قَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ نَوَقَشَ الْحِسَابَ عُذَّبَ» [البخاري ٦٥٣٦] رَفَعَ مَا قَالَتْهُ عَائِشَةُ رضي الله عنها لِأَنَّ الْفَهْمَ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ نَوَقَشَ الْحِسَابَ» غَيْرُ الْفَهْمِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «سَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا» فَلَيْسَ فِي قَوْلِهِ ظَاهِرُ جَوَابٍ لَهَا، وَكَانَ الظَّاهِرُ مِنَ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ عَلَى مَا فَهَمْتُهُ عَائِشَةُ رضي الله عنها وَلَكِنْ وَجْهُ الْجَوَابِ فِيهِ أَنَّ قَوْلَهُ ﷺ: «مَنْ حُوسِبَ عُذَّبَ» وَقَوْلُهُ ﷺ: «سَوْفَ يُحَاسَبُ» لَيْسَ عَلَى كُلِّ الْحِسَابِ، وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى الْحِسَابِ الَّذِي لَا يُنَاقَشُ فِيهِ.

فَأَمَّا الَّذِي هُوَ عَرْضٌ فَلَيْسَ بِمَا يُعَذَّبُ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ فِيهِ إِبَانَةٌ أَنَّهُ لَا يُفْهَمُ بِالْخَطَابِ الْعَامِّ عُمُومُ الْمُرَادِ كَمَا فَهَمْتُهُ عَائِشَةُ رضي الله عنها بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخَطَابُ عَامًّا، وَالْمُرَادُ مِنْهُ خَاصًّا.

الآية ٩ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَيَقْلَبُ إِلَهُ أَعْلِيهِ مَسْرُورًا» وَقَالَ فِي شَأْنِ الَّذِي «أَوْقَى كَيْبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ» ﴿سَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ «وَيَقْلَبُ سَيْرًا»: [الآيات: ١٠ - ١٢] إِنَّهُ كَانَ فِي أَمَلِهِ مَسْرُورًا.

فَهَذَا لِأَنَّ الْمُسْلِمَ إِنَّمَا تَأَهَّلَ عَلَى قَصْدِ تَحْصِيلِ النِّفْعِ لِنَفْسِهِ فِي الْعَاقِبَةِ، وَتَكُونُ مُعِينَةً لَهُ عَلَى أُمُورِ الْآخِرَةِ، فَحَصَلَ لَهُ ذَلِكَ النِّفْعُ بِإِحْرَازِهِ السُّرُورَ الدَّائِمَ بِذَلِكَ. وَالْكَافِرُ تَأَهَّلَ لِلْمَنَافِعِ الْحَاضِرَةِ، وَسُرَّ بِأَمَلِهِ ^(٦) سُرُورًا، أَنْسَاءُ السُّرُورِ أَمْرَ الْعَاقِبَةِ، فَحَقُّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ لِتَرْكِهِ السَّعْيِ لِلْآخِرَةِ لَا لِسُرُورِهِ بِأَمَلِهِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ» ﴿الْإِسْرَاءُ: ١٨﴾.

وَالْكُلُّ مِمَّا يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهَا، لَكِنَّ الَّذِي يَضَلِّي جَهَنَّمَ، هُوَ الَّذِي ابْتَغَى الْعَاجِلَةَ ابْتِغَاءً أَنْسَاءَ ذَلِكَ الْآخِرَةِ ^(٧)، فَكَذَلِكَ الْمَسْرُورُ بِأَمَلِهِ، إِنَّمَا حَلَّتْ بِهِ الثَّقَمَةُ لِمَا مَنَعَهُ السُّرُورُ عَنِ النَّظَرِ لِلْعَاقِبَةِ لَا لِنَفْسِ السُّرُورِ، إِذْ كُلُّ مَتَاهِلٍ، لَا يَخْلُو عَنِ السُّرُورِ بِأَمَلِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَمَّا مَنْ أَوْقَى كَيْبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ» فَالْإِيتَاءُ مِنْ وَرَاءِ الظَّهْرِ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَخَذَهُمَا: أَنْ اسْتَفْزَرَ مِنْهُ لِحُبِّهِ مَنَظَرَهُ، فَأَوْتِيَ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ مُجَازَاةً لَهُ بِمَا سَبَقَ مِنْ صُنْعِهِ؛ وَصُنْعُهُ أَنَّهُ بَدَأَ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَتَرَكَ أَمْرَهُ وَنَوَاهِيَهُ كَذَلِكَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، فَجُوزِيَ أَيْضًا بِدَفْعِ كِتَابِهِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَدُفِعَ إِلَى الْمُؤْمِنِ/٦٣٣ - ب/ كِتَابُهُ يَمِينُهُ لِمَا فِي كِتَابِهِ مِنَ الْمَحَاسِنِ وَالْبَرَكَاتِ، وَالْيَمِينُ أَنْشِئَتْ لِتُسْتَعْمَلَ فِي الْبَرَكَاتِ وَأَنْوَاعِ [الْخَيْرِ] ^(٨)، وَسُمِّيَتْ أَيْضًا بِاسْمِ مُشْتَقٍّ مِنَ الْيَمَنِ وَالْبَرَكَةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَى التَّصْدِيقِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: تَذَكِيرٌ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجْهٌ آخَرُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: بِمَا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهِمْ. (٧) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: ذَلِكَ عَلَى. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

[والثاني: أن] ^(١) الشَّامَلُ جُعِلَتْ لِيُسْتَعْمَلَ فِي الْأَفْذَارِ وَالْأَنْجَاسِ، فَدُفِعَ كِتَابُهُ مِنْ حَيْثُ عَمِلَهُ إِلَيْهِ بِشِمَالِهِ أَيْضاً أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، لِأَنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ قَبِلُوا أَمْرَ ^(٢) اللَّهِ تَعَالَى وَنَوَاهِيَهُ، وَاسْتَقْبَلُوهَا بِالْتَّعْظِيمِ وَالتَّجْبِيلِ؛ وَمَنْ أَرَادَ تَعْظِيمَ الْآخِرِ فِي الشَّاهِدِ وَتَجْبِيلَهُ أَخَذَهُ بِيَمِينِهِ، فَجُوزُوا فِي الْآخِرَةِ بِالْتَّعْظِيمِ لَهُمْ بَأَن أَوْتُوا ^(٣) كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ.

وَأَمَّا الْكَافِرُ بَأَنَّهُ اسْتَحَفَّ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ فَجُوزِي فِي الْآخِرَةِ بَأَن أَوْتِي كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي الْأَفْذَارِ إِهَانَةً وَتَحْقِيرًا.

الآيات ١١ - ١٢ وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ [وَيَصَلِّي سَمِيرًا] ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَقْلِيهِ مَسْرُورًا﴾ ^(٤) الثُّبُورُ وَالْوَيْلُ حُرْفَانِ، يُتَكَلَّمُ بِهِمَا عِنْدَ الْوُقُوعِ فِي الْمَهَالِكِ، فَيَكُونُ فِي ذِكْرِ الثُّبُورِ ذِكْرٌ وَقُوعِهِ فِي الْمَهَالِكَةِ الَّتِي تَحِقُّ لَهُ، وَدَعَاءُ ^(٥) الثُّبُورِ وَالْوَيْلِ عَلَى نَفْسِهِ، دَعَا بِهِ، أَوْ لَمْ يَدْعُ، عَلَى سَبِيلِ الْكِنَايَةِ عَنِ الْوُقُوعِ فِي الْمَهَالِكِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢] فَالضُّحُوكُ كِنَايَةٌ عَنِ السُّرُورِ، وَالْبُكَاءُ كِنَايَةٌ عَنِ الْحُزَنِ؛ فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَسْتَقْبِلُهُ مَا يَخْزَنُ بِهِ طَوِيلًا، كَانَ هُنَاكَ بَكَاءً، أَوْ لَمْ يَكُنْ.

الآيات ١٣ - ١٤ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَمُوتَ﴾ [يَلْجَأَ] فِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّهُ إِنَّمَا حَلَّ بِهِ مَا ذَكَرَ مِنَ الْعَذَابِ، لِأَنَّهُ كَانَ لِلْبُعْثِ ظَنًّا، وَلَمْ يَكُنْ بِهِ مُتَيَقِّنًا.

وكَذَلِكَ اللَّهُ ﷻ [حِينَ] ^(٦) قَسَمَ الْوَعْدَ وَالْوَعْدَ لِلْفَرِيقَيْنِ ذَكَرَ فِي آخِرِهِ مَا يُبَيِّنُ أَنَّ الَّذِي أُوْعِدَ بِالْعَذَابِ، هُوَ الْمُكَذِّبُ، وَذَكَرَ الْوَعْدَ هَهُنَا، وَيُبَيِّنُ أَنَّ الَّذِي يَحُلُّ بِهِ هَذَا الْوَعْدُ، هُوَ الَّذِي كَانَ ظَنًّا بِالْمِيعَادِ، وَلَمْ يَكُنْ مُتَحَقِّقًا. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا أَلَيْنَ فَسَقُوا فَأَوْثَقْنَاهُمُ الْغَارَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ذُقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] فَتُبَيِّنُ أَنَّ الْوَعْدَ فِي الْمُكَذِّبِينَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَلْفَحُ وَجُوهُهُمُ النَّارَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿نُكْثِرُ بِهَا كُذُوبَكُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠٤ و ١٠٥] لِيُعْلَمَ أَنَّ الْوَعْدَ الدَّائِمَ فِي الْمُكَذِّبِينَ خَاصَّةً؛ فَيَكُونُ فِيهِ دَفْعُ قَوْلِ الْمُعْتَرِضِ: إِنَّ أَهْلَ الْكِبَائِرِ يُخْلَدُونَ فِي النَّارِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ أَي كَانَ بَصِيرًا بِمَا سَبَقَ مِنْ أَعْمَالِهِ الْخَبِيثَةِ، فَيَحَاسِبُهُ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِمَا كَسَبَتْ يَدَا، وَيُعَذِّبُهُ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِاِكْتِسَابِ مَا اسْتَوْجَبَ مِنَ الْعَذَابِ خِلَافًا لِأَمْرِ مَلُوكِ الدُّنْيَا؛ إِنَّهُمْ يُحَاسِبُونَ عَلَى تَذْكِيرِ الْغَيْرِ لَهُمْ مَا عَلَيْهِمْ ^(٧) مِنَ الْحِسَابِ، وَيُعَذِّبُونَ عَلَى تَعْرِيفِ الْغَيْرِ لَهُمْ مَا اسْتَوْجَبَ بِهِ التَّعْذِيبَ لَا عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ بِذَلِكَ.

أَوْ يَكُونُ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا فِي الْأَزَلِ أَنَّهُ مَاذَا يَفْعَلُ إِذَا أَنْشَأَهُ وَإِلَى مَاذَا يَنْقَلِبُ أَمْرُهُ إِلَى النَّارِ أَوْ إِلَى الْجَنَّةِ، فَخَلَقَهُ عَلَى عِلْمٍ أَنَّهُ يُعَادِي أَوْلِيَائَهُ، وَيَعْمَلُ بِمَعَاصِيهِ.

ولِقَائِلِ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ الْمَرَّةَ فِي الشَّاهِدِ، لَا يَشْرَعُ فِي الْأَمْرِ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّهُ فِي الْعَاقِبَةِ، يَضُرُّهُ، وَلَا يَنْفَعُهُ، وَلَوْ شَرَعَ فِيهِ، وَأَتَمَّهُ، كَانَ مَذْمُومًا عِنْدَ النَّاسِ، وَلَمْ يَكُنْ مَحْمُودًا، فَأَيُّ حِكْمَةٍ فِي إِنْشَاءِ عَذْوِهِ، وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّهُ يَسْعَى فِي مُعَادَاتِهِ.

فَجَوَابُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ الَّذِي يَشْرَعُ فِي الْأَمْرِ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ إِتِمَامَهُ، يَضُرُّهُ، وَلَا يَنْفَعُهُ، إِنَّمَا لِحَقَّقَتِ الْمَذْمَةُ لِمَا سَعَى فِي إِضْرَارِ نَفْسِهِ.

فَأَمَّا الَّذِي أَعْرَضَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ، وَكَفَرَ بِهِ، فَإِنَّمَا اِكْتَسَبَ الضَّرَرَ عَلَى نَفْسِهِ خَاصَّةً بِأَن أَوْقَعَهَا فِي الْمَهَالِكِ، وَلَمْ يَضُرَّ غَيْرَهُ، لِذَلِكَ لَمْ تَلْحَقْهُ الْمَذْمَةُ فِي خَلْقِهِ وَإِنْشَائِهِ.

وفي هذا دَلَالَةٌ أَنَّ اللَّهَ حِينَ ^(٨) خَلَقَ الْخَلْقَ لَمْ يَخْلُقْهُمْ لِمَنْفَعَةٍ لَهُ وَلَا لِمَضَرَّةٍ تَلْحَقُهُ مِنْ جِهَتِهِمْ، بَلْ مَنَافِعُهُمْ وَمَضَارُهُمْ رَاجِعَةٌ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٦ وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَ قَوْلَهُ: ﴿فَلَا﴾ عَلَى دَفْعِ مُنَازَعَةٍ، وَقَعَتْ فِي مَا بَيْنَ الْقَوْمِ عَلَى مَا تَذَكَّرُ فِي سُورَةِ ﴿لَا أُقِيمُ﴾ ^(٩) إِنَّ شَاءَ اللَّهُ. وَالْقَسَمُ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿أُقِيمُ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ لَا بِحَقِّ الصَّلَاةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَمْر. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْتِي. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٩) هِيَ سُورَةُ الْبَلَدِ. انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ١٥١/٨.

فَإِنْ كَانَ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ لَمْ يَجُزْ حَذْفُ لَا مِنَ الْكَلَامِ، بَلْ حَقُّهُ أَنْ يُقْرَأَ ﴿تَلَا أُنِيمُ﴾.
وَأِنْ كَانَ بِحَقِّ الصَّلَاةِ اسْتِقَامٌ فِي حَذْفِهِ كَمَا قَرَأَ بَعْضُ الْقُرَّاءِ: فَلَا تُقْسِمُ بِالشَّفَقِ. [ثُمَّ الشَّفَقُ يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:
أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ^(١) أَثَرُ النَّهَارِ. فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْقَسَمُ وَاقِعاً عَلَى النَّهَارِ كُلِّهِ، وَإِنْ كَانَ ذَكَرَ طَرَفاً مِنْهُ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الشَّفَقَ يَجْتَمِعُ فِيهِ أَثَرُ النَّهَارِ، وَهُوَ النُّورُ الَّذِي فِيهِ أَثَرُ الشَّمْسِ، وَهِيَ الْحُمْرَةُ الَّتِي تَكُونُ فِيهِ، فَيَكُونُ الْقَسَمُ
وَاقِعاً عَلَى النَّهَارِ بِمَا فِيهِ كَمَا كَانَ وَاقِعاً عَلَى اللَّيْلِ بِمَا فِيهِ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ فَتَكُونُ فِيهِ حُجَّةٌ لِقَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ رحمته الله:
إِنَّ وَقْتَ الْعِشَاءِ لَا يَدْخُلُ حَتَّى يَغِيبَ الشَّفَقُ، لِأَنَّ وَقْتُهَا يَدْخُلُ بِغَيْبِيَّةِ الشَّفَقِ، وَالشَّفَقُ وَجْهَانِ مُشْتَمِلَانِ عَلَى الْبَيَاضِ
وَالْحُمْرَةِ، فَمَا لَمْ يَتِمَّ الْغَيْبِيَّةُ لَمْ يَهْجُمْ وَقْتُهَا.

أَلَا تَرَى أَنَّ الصَّلَاةَ الَّتِي تَلِي الْغُرُوبَ لَا يَدْخُلُ وَقْتُهَا حَتَّى يَتِمَّ غُرُوبُ الشَّمْسِ؟ فَعَلَى ذَلِكَ الصَّلَاةُ الَّتِي تَلِي غُرُوبَ^(٢)
الشَّفَقِ، لَا يَدْخُلُ وَقْتُهَا حَتَّى يَتِمَّ الْغَيْبِيَّةُ.

الآية ١٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ أَيُّ وَمَا حَمَلَ مَعَهُ [مِنْ] ^(٣) الظُّلْمَةِ وَالنَّجْمِ
وَالدَّابَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَالْوَسَقُ الْجَمْلُ، يُقَالُ: وَسَقَ بَعِيرٌ أَيُّ جَمَلَ بَعِيرٌ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: وَسَقَ: أَيُّ جَمَعَ، وَسَقَى كُلُّ شَيْءٍ إِلَى مَأْوَاهُ مِنَ الطَّيْرِ وَالسَّبَاعِ، فَذَكَرَ النَّهَارَ وَاللَّيْلَ لِمَا فِيهِمَا مِنَ
الْمَنَافِعِ.

الآية ١٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا آتَقَ﴾ فَلَا تَسَاقُ الْإِجْتِمَاعُ، وَمَعْنَاهُ اسْتَوَى، وَكَمَلَ، إِذْ ذَلِكَ اجْتِمَاعُهُ، وَذَلِكَ
فِي لِبَالِي الْبَيْضِ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرِ الْأَصَمُّ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ جُمِعَ، وَسَوَّى، بَعْدَ أَنْ كَانَ ﴿كَالْمُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ [يس: ٣٩] فَيَذْكُرُهُمْ قُوَّتُهُ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ
قَادِرٌ عَلَى بَعْثِهِمْ^(٤).

الآية ١٩ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ قُرِئَ بِتَضْيِيقِ^(٥) الْبَاءِ وَرَفْعِهَا، وَكِلَا الْقَرَاءَتَيْنِ فِي الْمَعْنَى وَاحِدٌ؛ إِنْ
كَانَ فِي الظَّاهِرِ، إِحْدَاهُمَا لِلْجَمْعِ، وَالْأُخْرَى لِلوُحْدَانِ، وَإِخْدَى الْقَرَاءَتَيْنِ بِحَرْفِ الْجَمْعِ فَيَذْكُرُ بِالرَّفْعِ؛ فَإِنْ قَوْلُهُ:
﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ مُنْصَرَفٌ إِلَى كُلِّ إِنْسَانٍ فِي نَفْسِهِ خَاصَّةً لَا عَلَى الْإِقْتِصَارِ عَلَى شَخْصٍ وَاحِدٍ لِمَا لَيْسَ فِي قَوْلِهِ رحمته الله: ﴿يَكُونُ الْإِنْسَانُ
إِلَيْكَ كَاجِحٍ﴾ [الآية: ٦٦] إِشَارَةً إِلَى شَخْصٍ بَعِيْنِهِ، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ الْجُمْلَةُ، فَكَبِتَ أَنَّ الْخِطَابَ مُنْصَرَفٌ إِلَى الْجُمْلَةِ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ قِيلَ: حَالاً بَعْدَ حَالٍ. ثُمَّ جَائِزٌ أَنْ يُصْرَفَ إِلَى دَارِ الْآخِرَةِ، فَكَانَهُ قَالَ: لَتَرْكَبُنَّ
حَالَ الْآخِرَةِ بَعْدَ حَالِ الدُّنْيَا، فَيَكُونُ فِيهِ تَضْرِيحُ الْقَوْلِ عَلَى إِيْجَابِ الْبَعْثِ.

وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا؛ فَيَنْتَقِلَ إِلَى حَالِ الْمُضْغَةِ بَعْدَ كَوْنِهِ [نُطْفَةً وَآلِي]^(٦) حَالِ الْعَلَقَةِ وَآلِي حَالِ الطُّفُولَةِ إِلَى
أَنْ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، فَلَا يَزَالُ يَرْكَبُ حَالَةً بَعْدَ حَالَةٍ، فَيَكُونُ فِي نَفْسِهِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ إِبَانَةٌ أَنَّهُ لَمْ يَرُدَّ مِنْ إِنْسَانِيَّتِهِ أَنْ تَتَغَيَّرَ عَلَيْهِ
الْأَحْوَالُ فَقَطْ، بَلْ أُرِيدَتِ الْعَاقِبَةُ الَّتِي بِهَا صَارَ إِنْشَاءُ الْخَلْقِ حِكْمَةً لَا عَبَثًا، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ مُنْصَرَفاً إِلَى كُلِّ إِنْسَانٍ
فِي نَفْسِهِ خَاصَّةً لَا عَلَى الْإِقْتِصَارِ عَلَى شَخْصٍ وَاحِدٍ لِمَا ذَكَرْنَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا الْخِطَابِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه.

وَلَكِنْ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: لَتَرْكَبُنَّ يَا مُحَمَّدُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: لَتَرْكَبُنَّ السَّمَاءَ حَالاً بَعْدَ حَالٍ.

فَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فَفِيهِ إِشَارَةٌ بِإِسْلَامِ قَوْمِهِ وَإِجَابَتِهِمْ لَهُ، فَيَقُولُ: إِنَّهُمْ سَيُطْلَعُونَكَ،
وَيَصْبِرُونَ لَكَ أَنْصَاراً بَعْدَ صَدِّهِمُ النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ وَجَفَوْتِهِمْ لِيَاكَ.

(١) فِي الْأَصْلِ: هُوَ، فِي م: ثُمَّ الشَّفَقُ هُوَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الْغُرُوبُ. (٣) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ نَسْخَةِ
الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، فِي الْأَصْلِ وَم: بَعَثَ. (٥) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقَرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ج ٨/ ١٠٣. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مُصَفَّةٌ إِلَى.

وَمَنْ قَالَ: لَتَرْكَبُنَّ سَمَاءَ بَعْدَ سَمَاءٍ فَيَقُولُ: ذَلِكَ لَيْلَةُ أُسْرِي بِهِ.

والتأويل الأول أقرب لأن موقع / ٦٣٤ - ١ / القسم في قوله تعالى: لَتَرْكَبُنَّ، والإسراء لم يكن يعرفه قومه حتى يكون في ذكره دفع الإشتياء عن أولئك القوم.

فأما ظهور الإسلام وعلو النبي على أعدائه فمما يشاهده الناس، فيتحقق في الآخرة ما أخبر النبي ﷺ عن الغيب، فيكون تأكيداً لرسالته. فليذلك قلنا: إن الحمل على المعنى الأول أحق، والله أعلم.

الآية ٢٠

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأصل أن كل من اعتقد مذهباً فإنما يعتقده بحجة تقرر عند أو شبهة اعترضت له، ظنّها حجة. فأما أن يعتقده حراماً فليس يفعل، فقال الله تعالى في هؤلاء: ﴿فَمَا لَكُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. أي [أي] حجة لهم تمنعهم عن الإيمان بالله تعالى وبرسوله، وتدعوهم إلى الشرك والتزيين به؟

ثم قد ذكرنا أن ما خرج مخرج الاستفهام من الله تعالى فحقه أن ينظر ما يقتضي ذلك الكلام من الجواب أن لو كان من مستفهم، فيحمل الأمر عليه، وحق جواب هذا الكلام أن يقول: لا شيء يمنع عن ذلك. فقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا حجة لهم في ما اختاروا من الشرك، وإنما يتدبّرون به شهياً وتمنياً، فيكون هذا على الثاني في أن لا حجة لهم، أو كأنه يخاطب رسوله ﷺ، فيقول: سلهم لماذا لا يؤمنون؟ وإذا سألهم لم يجدوا لأنفسهم حجة في الإعراض عن الإيمان، فيرجع الأمر إلى ابتغاء الحجة أيضاً.

ثم المعتزلة اختلجت علينا بهذه الآية في تثبيتهم القدرة قبل الفعل، وزعمت أنه لو لم يكن أعطى قوة الإيمان لم يكن يعاتب على تركه لأنه لا عذر للعبد أعظم من أن يقول، إن قيل له: لم لا تؤمن^(٢)؟ لأنني لا أقدر عليه، ولأن^(٣) قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حرف تعجب، ولو كانت القوة ممنوعة قبل الفعل لكان له أن يقول: إنما لم أؤمن لأنني منعت عنه، فيرتفع عنه التعجب، فدلّ أنه أعطى القوة، فلم يبق له في الخلف عن الإيمان عذر.

والجواب عن الفصل الأول أن الكافر لما^(٤) لحقته كلفة الإيمان لأنه هو الذي ضيع القوة باختياره، فقل الكفر، وإنما ترتفع الكلفة إذا منعت عنه الطاقة.

وأما إذا كان هو الذي ضيعه فالكلفة عليه قائمة، والأصل أن القدرة في الصحيح السليم تحدث تبعاً على قدر حرصه على العبادة وميله إليها. ثم العبد متى اشتغل بفعل صار مضيقاً لضده من الأفعال^(٥)، إن كان ممنوعاً عن الفعل الذي هو ضد هذا.

فلذلك إذا أتر الكفر، وأتى به، فقد صار باختياره الكفر مضيقاً لقوة الإيمان لا^(٦) صار ممنوعاً عنها، لذلك لحقته كلفة الإيمان.

وأما ما ذكر من التعجب فقد وصفنا وجه التعجب في ذلك، وهو أنهم لم يلزموا الكفرة بحجة دعتهم إلى القول به، والمرء إذا تقلد^(٧) مذهباً تقلده^(٨) لا عن حجة وبرهان، فعجب الخلق باختيارهم الكفر لا عن حجة.

ثم لو كان الأمر على ما ظنّت المعتزلة أن الله تعالى قد أعطاهم جميع أسباب الهداية، ولم يبق في خزائنه شيئاً، منعه عنهم، لكان التعجب راجعاً إليه لا إلى الذين لم يؤمنوا، فيقول: مالي لا أصل إلى هدايتهم، ولم يبق عندي شيء، به هدايتهم، إلا وقد أعطيتهم، لا أن يعجب الخلق عن ضيعهم، فليس الذي اختاروه في القول بسوى وصفهم رب العالمين بالعجز، والعاجز لا يصح أن يكون رباً، والله الموفق.

الآية ٢١

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ﴾ فمنهم من صرف التأويل إلى سجود الصلاة والمراد منه

(١) من م: ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: يؤمنون فيقول. (٣) في الأصل وم: ولأنه. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: إذا. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: ان. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: قلده. (٧) في الأصل وم: قلده. (٨) في الأصل وم: قلده.

عندنا سُجُودُ التَّلَاوةِ، وهو سُجُودُ الْإِسْتِسْلَامِ وَالْخُضُوعِ عَلَى الشُّكْرِ لِمَا أَكْرَمَ الْمَرْءَ مِنَ الْإِيمَانِ، وَهَدَى اللَّهُ، لِأَنَّ سُجُودَ الصَّلَاةِ يَكُونُ عِنْدَ فِعْلِ الصَّلَاةِ لَا عِنْدَ ذِكْرِ التَّلَاوةِ.

ثم في الآية دلالةٌ وَجُوبِ السَّجْدَةِ عَلَى السَّامِعِ لِأَنَّهُمْ غَوَّيُوا بِتَرْكِهِمُ السُّجُودَ عِنْدَمَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ، وَقَرَّعُوا بِهِ، وَالتَّفْرِيعُ يَجْرِي فِي تَرْكِ الْإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي تَرْكِ مَا لَيْسَ عَلَيْهِ، وَلِأَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي لَهُ وَجِبَ السُّجُودُ عَلَى التَّالِي قَائِمٌ فِي السَّامِعِ؛ إِذَا التَّالِي إِنَّمَا لَزِمَهُ السُّجُودُ لِمَا ذَكَّرْنَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَامَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْحُجَجِ، فَيَلْزِمُهُ أَنْ يَخْضَعَ لَهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ فهو يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

الآية ٢٢

أحدهما: أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ عَلَى التَّكْذِيبِ بِالْقُرْآنِ لِأَنَّهُمْ إِذَا كَذَّبُوا رَسُولَهُ لَمْ يُصَدِّقُوهُ فِي مَا يَأْتِي مِنَ الْأَخْبَارِ، لَا أَنْ يَكُونَ فِي الْأَخْبَارِ مَعْنَى يَحْمِلُهُمْ عَلَى [التَّكْذِيبِ]. بَلِ الْقُرْآنُ يَحْمِلُهُمْ عَلَى^(١) التَّصْدِيقِ وَالْإِيمَانِ لَوْ أَمْتَنُوا النَّظَرَ فِيهِ، وَبَدَّلُوا مِنْ أَنْفُسِهِمُ الْإِنْصَافَ.

[والثاني]^(٢): يَكُونُ مَعْنَاهُ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا، هُمُ الْمُكْذِبُونَ، فَيَكُونُ الْكُفْرُ مِنْهُمْ تَكْذِيبًا، وَالتَّكْذِيبُ مِنْهُمْ كُفْرًا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّهُ أَكْبَرُ بِمَا يُوعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أَوْجْهًا:

الآية ٢٣

أحدها: مَا يُضْمِرُونَ مِنَ الْكَيْدِ وَالْمَكْرِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِكَيْدِهِمْ؛ لَا يَنْهَيَّا لَهُمْ أَنْ يُنْقِذُوا كَيْدَهُمْ فِيهِ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ فِيهِ بَشَارَةٌ لَهُ بِالنَّصْرِ وَالتَّائِيدِ.

والثاني: ﴿وَأَلَّهُ أَكْبَرُ بِمَا يُوعُونَ﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ التَّصْدِيقِ وَيُظْهِرُونَ مِنَ التَّكْذِيبِ بِالسُّتَيْهِمْ، أَوْ بِمَا يُلْمِحُونَ مِنَ التَّكْذِيبِ بِالسُّتَيْهِمْ وَقُلُوبِهِمْ مَعًا؛ وَذَلِكَ^(٣) أَنَّ الْبَعْضَ مِنْهُمْ كَانَ قَدْ أَيقَنَ بِرِسَالَتِهِ، فَكَانَ يُصَدِّقُهُ بِقَلْبِهِ، وَيُكْذِّبُهُ بِلِسَانِهِ عَلَى الْعِنَادِ مِنْهُ وَالتَّمَرُّدِ.

[والثالث]^(٤): مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ عَرَفَ صِدْقَهُ بِقَلْبِهِ لِمَا تَرَكَ الْإِنْصَافَ مِنْ نَفْسِهِ بِإِعْرَاضِهِ عَنِ النَّظَرِ فِي حُجَجِ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَانَ يُكْذِّبُهُ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ جَمِيعًا.

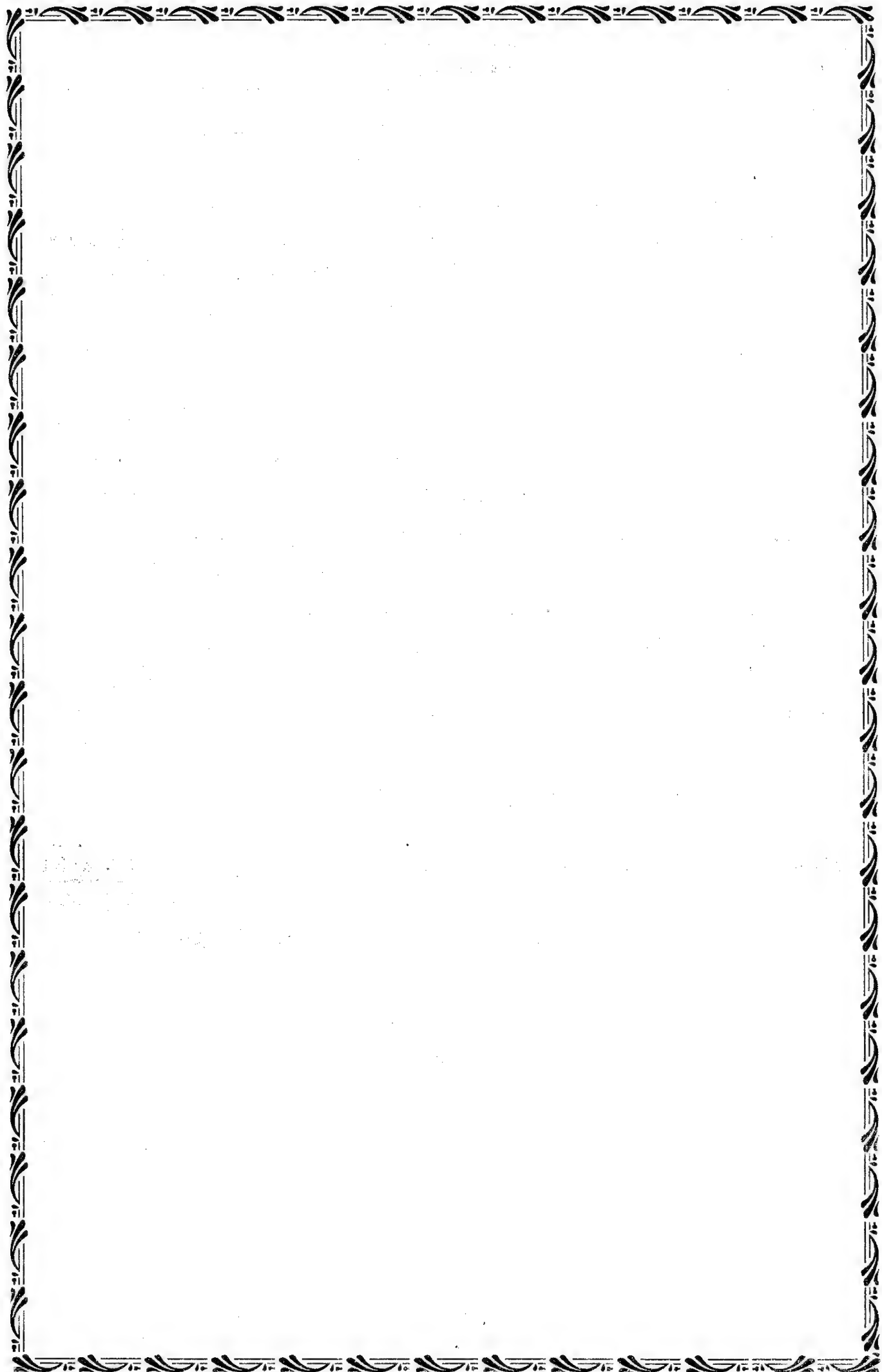
وقوله تعالى: ﴿فَنَبِّئْهُمْ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ فَالْبَشَارَةُ إِذَا قُضِيَ اسْتِقَامَ حَمْلُهَا عَلَى الْحُزْنِ وَالسُّرُورِ جَمِيعًا، وَأَمَّا الْبَشَارَةُ الْمُطْلَقَةُ فَإِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ فِي مَوْضِعِ إِدْخَالِ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ فِي الْقَلْبِ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مُنْصَرِفًا إِلَى كُلِّ مَنْ آمَنَ، وَجَائِزٌ أَنْ يُصَرَّفَ إِلَى مَنْ آمَنَ مِنَ الَّذِينَ كَانُوا ﴿يُوعُونَ﴾ مَا ذَكَّرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ لَبَئْرٌ غَيْرٌ مَنُونٍ﴾ نَذَكَّرُهُ فِي سُورَةِ ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.



(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و.



سورة البروج

وهي مكية^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿وَالْتَمَّ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ فقوله: ﴿ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ وكذلك ما ذكر عقيبه. ثم اختلف في موضع القسم في هذه السورة:

فمنهم من ذكر أن القسم لِمَكَانِ قوله: ﴿قِيلَ انْصَبْ الْآخُدُودَ﴾ [الآية: ٤] ومنهم من يقول: القسم، موضعه على قوله: ﴿إِنَّا بَلَّغْنَا رِبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [الآية: ١٢] وهو أشبه لأنه / ٦٣٤ - ب/ موضع الإحتجاج على الكفرة.

وإذا^(٢) حوّل القسم على قوله: ﴿قِيلَ انْصَبْ الْآخُدُودَ﴾ كان ذلك منصرفاً إلى المؤمنين، والمسلمون قد تيقنوا بصِدْقِ ما يأتي به الرسول من الأنباء، والقسم يُذكر على تأكيد ما يُقصد إليه ليزال عنه الريب، وإذا كان المسلمون غير مرتابين في أنبائه، استغفوا عن تأكيده بالقسم.

فلذلك قلنا: إن صرّفه إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَّغْنَا رِبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ اليق، فيكون فيه تحذير لمن كذب رسوله ﷺ أن يظن أنه لمن كذب رسوله شديد، وقد علموا ذلك بما وصل إليهم من نبي عاد وثمود وفرعون وغيرهم.

وجائز أن يكون موضع القسم على قوله: ﴿قِيلَ انْصَبْ الْآخُدُودَ﴾ وذلك أن أهل مكة كانوا أهل تعذيب لمن آمن بالنبي ﷺ فكان في ذكر ما نزل بالمتقدمين من الفراعنة من العذاب وصبر أولئك المعذبين على دينهم ورضيتهم به وحسن ثناء الله تعالى عليهم تضيير لهم وتهوين على ما يلقون من العذاب لينالوا حسن ثناء الله تعالى لهم: ما ناله من صبر ومن تقدمهم من السلف.

وكذلك ذكر سحرة فرعون، وأحسن الثناء عليهم بصبرهم على تعذيب فرعون [حين قالوا: (٣)] ﴿فَاقْصِصْ مَا أَنْتَ قَائِلٌ إِنَّكَ أَنْتَ قَائِلٌ﴾ [طه: ٧٢] ليكون ذلك عوناً لهم على الصبر بما يلقون من التعذيب، ثم أكد الأمر بالقسم لأنه لا كل مسلم يبتلى بتعذيبهم يبلغ يقينه مبلغاً، لا يغتريه الشك، ولا تتخالجه شبهة في ذلك، فأكد الأمر بالقسم لرفع الريب والإشكال، وقال تعالى: ﴿وَكَايْنِ بْنِ نِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُصْطَرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] وفي بعض القراءات: قيل^(٤) معه ريثون كثير.

فذكر المؤمنين ما لقي السلف من الكفرة، وابتلوا بقتل الرسل، وثباتهم على الدين ليستعينوا به على ما يصيبهم في سبيل الله، ولا ينقلبوا^(٥) على أعقابهم إذا أخبروا بقتل الرسول.

وفي ذكر هذه الأنباء دلالة أن قول الرسول ﷺ لِعَمَّارٍ ﷺ: ﴿إِنْ عَادُوا فَعُدَّ﴾ [البهقي في الكبرى ٢٠٩/٨] حين أكره على إجراء كلمة الكفر على لسانه، فأجرى ﴿وَقُلْتُمْ مُظْهِرٌ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] ليس على الأمر به والإيجاب عليه والتحصيل بطريق العزم. بل مغناه: إن عادوا فللك العود على سبيل الرخصة، لأنه لو كان على الأمر لم يكن في ذكر نبي أصحاب الأخدود وسحرة فرعون فائدة سوى أن يترك العمل بهما.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ولو. (٣) في الأصل وم: فقالوا. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٢/ ٧١. (٥) في الأصل وم: ينقلبون.

ومعلوم أن تلك الأنباء إنما دُكرت ليُعمل بها لا ليُترك بها العمل. لذلك حُمِلَ قوله ﴿وَلَقَدْ﴾^(١): «فَعَدَّ» على الرُّخْصَةِ لا على الأمر به ويكون المراد من قوله ﴿وَلَقَدْ﴾ أيضاً: «مَنْ لَمْ يَقْبَلْ رُخْصَتَنَا كَمَا يَقْبَلُ غَزَائِمَنَا فَلَيْسَ مِنَّا» [بنحو: أحمد ٧١/٢] أي لم يُرَ العمل به مؤسَّعاً، بل اشتُكِرَ، وأُبيحَ قبوله، لا أن يكون أمراً بترك العزيمة وإيجاب العمل بالرخصة، والله أعلم.

ثم نرجع إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذَاتُ الْبُرُوجِ﴾ [منهم من قال: هي^(٢) البروجُ المعروفة، وهي أطرافُ البناء، وإذا بنى [أحدهم]^(٣) بناءً اتَّخَذَ على طرفه بُرْجاً لِيُشَدَّ بِنَاءُهُ بِهِ. ومنهم من قال: البروجُ القصور، ومنهم من قال: البروجُ النجوم لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الحجر: ١٦] وزينة السماء، هي ﴿بُرْجَةُ الْكَوَاكِبِ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا فِي كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِجاً﴾ [الصافات: ٧٦]. ومنهم من قال: هي مجاري الشمس والقمر والكواكب؛ فَمَنَّا زِلْهَا هي البروجُ.

ثم ذَكَرَ السماءَ بالبروجِ ليُعرفَ حدُّها ودخولُها تحتَ تدبيرِ الغير؛ إذ ذَكَرُهَا بالمنافعِ المَجْعُولَةِ^(٤) فيها ليَتَلَمَّ الخَلْقُ أنها سُخَّرَتْ لِلْمَنَافِعِ، فيَعْرِفُوا بها حَدَّهَا، إذ المُسَخَّرُ لِمَنَافِعِ الْغَيْرِ دَاخِلٌ تَحْتَ قُدْرَةِ مَنْ سَخَّرَهُ، وَالْمَقْدُورُ يَخْذُلُ، وَهُمْ لَمْ يَشْهَدُوا بِدَوِّهَا لِيَعْرِفُوا بها حَدَّهَا، وَلَا كُلُّ أَحَدٍ يَعْرِفُ حَدِيثَ الشَّيْءِ لَكُونِهِ مَحْدُوداً فِي نَفْسِهِ، إِذَا لَمْ يُشَاهِدُوا بِدَوِّهِ.

فَذَكَرُهَا حَيْثُ ذَكَرُهَا بِمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ الْمَجْعُولَةِ لِلخَلْقِ إِذْ ذَلِكَ أَظْهَرَ وَجُودَ الدَّلَالَةِ عَلَى الْحَدِيثَةِ لِيَعْلَمُوا بِهَا حَدِيثَهَا. أَلَا تَرَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ، اخْتَجَّ عَلَى قَوْمِهِ بِنَفْيِ الْإِلَهِيَّةِ عَنِ الْكَوَاكِبِ بِأَقْوَلِهَا، إِذْ ذَلِكَ أَظْهَرَ وَجُودَ الْحَدِيثَةِ، وَلَمْ يَخْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِإِنْتِقَالِهَا مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ وَلَا بِكُونِهَا مَحْدُودَةً فِي نَفْسِهَا، بَلْ اخْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا ذَكَرْنَا لِيَتَحَقَّقَ عَنْدهُمْ حُدُوثُهَا وَدُخُولُهَا تَحْتَ سُلْطَانِ الْغَيْرِ.

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قيل: هو يومُ القيامةِ، يُسَمَّى موعوداً لِمَا وَعَدَ مِنْ جَمِيعِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ثُمَّ أَقْسَمَ بِذَلِكَ الْيَوْمِ، وَإِنْ كَانُوا مُنْكَرِينَ لَهُ لَمَّا قَرَّرَهُ عَلَيْهِمْ بِالْحَجِيجِ، وَالزَّمَمُ الْقَوْلُ بِهِ.

وقيل: ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هو كلُّ يومٍ يَأْتِي، فَيَأْتِي بِمَا وَعَدَ فِيهِ مِنَ الرِّزْقِ وَغَيْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣ وقوله تعالى: ﴿وَشَآهِدُوا مَشْهُوداً﴾ اِخْتَلَفَ فِي تَأْوِيلِهِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الشَّاهِدُ، هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَالْمَشْهُودُ، هُوَ الْخَلْقُ، وَاسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقيل: الشَّاهِدُ الرِّسُولُ ﷺ وَالْمَشْهُودُ أُمَّتُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩].

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الشَّاهِدُ هُوَ الْكَاتِبَانِ اللَّذَانِ يَكْتُبَانِ عَلَى [ابْنِ آدَمَ أَعْمَالَهُ]^(٥) وَالْمَشْهُودُ، هُوَ الْإِنْسَانُ الَّذِي يُكْتَبُ عَلَيْهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الشَّاهِدُ وَالْمَشْهُودُ، هُوَ الْإِنْسَانُ نَفْسُهُ، أَيْ جَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ شَهِيداً بِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَسْعَوْنَ﴾ [النور: ٢٤].

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الشَّاهِدُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَالْمَشْهُودُ يَوْمُ عَرَفَةَ؛ سُمِّيَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ شَهِيداً لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَشْهَدُهُمْ، وَيَأْتِيهِمْ، وَسُمِّيَ يَوْمُ عَرَفَةَ مَشْهُوداً لِأَنَّ عَرَفَةَ اسْمُ مَكَانٍ، وَالنَّاسُ يَأْتُونَهَا، وَيَشْهَدُونَهَا، وَلَا تَأْتِيهِمْ؛ فَيُعْظَمُ شَأْنُ عَرَفَةَ لِمَا يُعْظَمُهَا أَهْلُ الْأَدْيَانِ كُلُّهَا، وَعُظُمَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ لِأَنَّهُ يَوْمُ عِيدِ الْمُسْلِمِينَ، وَلِكُلِّ أَهْلِ دِينٍ يَوْمٌ يُعْظَمُونَهُ، فَأَكْرَمَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِهَذَا الْيَوْمِ لِيُعْظَمُوهُ، فَكَانَ الْيَوْمُ الَّذِي يُعْظَمُهُ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ، فَأَقْسَمَ بِهِمَا.

الآية ٤ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَزَّلْنَاهُ عَلَى الْخُسُوفِ﴾ اِخْتَلَفَ فِي تَأْوِيلِهِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ صَرَفَهُ إِلَى الْمُعَذِّبِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَرَفَهُ إِلَى الْمُعَذِّبِينَ. فَمَنْ صَرَفَهُ إِلَى الْمُعَذِّبِينَ حَمَلَ قَوْلَهُ: ﴿ثُمَّ نَزَّلْنَاهُ عَلَى الْخُسُوفِ﴾، أَيْ لُعِنُوا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نَزَّلْنَاهُ عَلَى الْخُسُوفِ﴾ [الذريات: ١٠] أَيْ لُعِنُوا، وَمَنْ صَرَفَهُ إِلَى الَّذِينَ عَذَّبُوا حَمَلَهُ عَلَى الْقَتْلِ الْمَعْرُوفِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: قال بعضهم: هي، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: المَجْعُول. (٥) في الأصل وم: بني آدم أَعْمَالَهُم.

ثم اختلف في قصة أولئك الذين عذبوا.

فإن كان القسم في الكفرة فما ينبغي أن يُفسر على وجه من ذلك ما لم يتواتر فيه الخبر عن المصطفى ﷺ، لأنهم وجدوها موافقة للأنباء المذكورة في كتبهم، وقد علموا أنه لم يصل إلى معرفتها [إلا بالله] (١) تعالى؛ إذ لم يروه يختلف إلى من عنده علم الأنباء ليصل إلى معرفتها بهم.

فإذا فسرت على وجه، أمكن أن يقع فيها زيادة أو نقصان على ما ذكروا في الكتاب، فيجدوا به موضع الظن والقبح لذلك، لم يسع أن يروا [أو ينقص عن] (٢) القدر الذي جرى ذكره في الكتاب إلا من الوجه الذي ذكرنا.

وإن كان القسم في المؤمنين وسع القول بحمل التأويلات التي ذكرها أصحاب التفسير لارتفاع المعنى الذي ذكرنا في الكفرة، والله أعلم.

ثم [في] (٣) ذكر هذه الأنباء تقرير رساليه ونبؤيه ﷺ، لما ذكرنا أنه لم يختلف إلى من عنده علم هذه الأنباء ليعلم به. فإذا أنبأهم على وجهها يتقنوا أنه بالله تعالى / ٦٣٥ - أ / علم.

وفيه تضيير لرسول الله ﷺ وتخفيف الأمر عليه لأنه يُخبره أن قومك ليسوا بأول من [أدوا، وعاندوا] (٤) بل لم يزل سلفهم، تلك عادتهم بأهل الإسلام.

وفائدة أخرى، ما ذكرنا أن في ذكره ما يستعين به من ابتلي بأذى الكفرة، وفيه أن أولئك الكفرة بلغ من ضنهم بدينهم ما يقاتلون عليه (٥) من أظهر مخالفتهم في الدين ليتعلموا أن القتال لِمَكَانِ الدين ليس بأمر شاق خارج عن الطباع، بل الطباع جبلت على القتال مع من عاداهم في الدين، فيكون فيه ترغيب للمسلمين على القتال مع الكفرة إذا امتحنوا، والله أعلم.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ [اختلف في تأويله] (٦) فمنهم من جعل الوقود بمن ألقي فيها من المؤمنين، ومنهم من جعل الوقود صفة تلك النار التي عذبوا بها.

الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ هَرَعَلْنَا نُورًا﴾ أي عظماءهم وكبرائهم جلوس عند الأخدود، وفيه أن أتباعهم هم الذين كانوا يتولون إلقاء المؤمنين في النار، وكبرائهم جلوس هنالك.

الآية ٧ وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [يختلف وجهين: أحدهما: أن يكون الشهود، هم العظماء والفراعنة.

[والثاني: أن] (٧) يكون منصرفاً إلى الاتباع، وهو أن الاتباع، كانوا يلقون المؤمنين في النار، ويشهدون أنهم على الضلال وأنهم رؤساءهم على الهدى والحق، وهو كما قال في موضع [آخر] (٨): ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَذِهِ هِيَ هَدًى مِّنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْنُؤُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [يختلف وجهين:

أحدهما: ذكر] (٩) العزيز الحميد ليعلم أنه لا يلحقه ذل بما يحل من الذل بأوليائه وأهل طاعته، ولا في حنوده قصور بقهر أوليائه خلافاً لما عليه ملوك الدنيا؛ وذلك أن ملوك الدنيا إذا حل بأوليائه واحد منهم ذل كان الذل حالاً فيه أيضاً، وإذا قهر بعض أتباعه، فترك نصرته، وهو قادر على نصرته وإغاثتهم، لم يخدموا ذلك منه، ولحقته المذمة؛ وذلك لأن الملك استغاث العز باتباعه وأنصاره، فإذا استذل أتباعه زال ما به نال العز، فلحقه الذل، ونال الحمد أيضاً بالإحسان إلى مملوكيه.

فإذا ترك نصرته، وهو ممكن من ذلك، فقد ترك إحسانه إليهم، فصار به غير ممدوح ومحمود. والله تعالى، استحق

(١) في الأصل وم: إلى الله. (٢) في الأصل وم: على. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أدوا وعاندوا. (٥) من م، في الأصل: عليهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: فذكر.

العِزُّ والْحَمْدُ بِذَاتِهِ لَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَلَمْ يَكُنْ فِي إِذْلَالِ أَوْلِيَائِهِ مَا يُوجِبُ النُّقْصَ فِي وَصْفِ الْحَمْدِ وَلَا مَا يُوجِبُ قُصُورًا فِي الْعِزِّ.

والثاني: أَنَّ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أُنْشِئَتْ لِلْإِهْلَاكِ، وَلَعَلَّ الْإِهْلَاكَ بِمَا ذَكَرَهُ أَيْسَرُ عَلَيْهِمْ مِنْ هَلَاكِهِمْ خَفَّتْ أُنُوفُهُمْ^(١)، وَكَانَ فِي ذَلِكَ النَّوْعِ مِنَ الْهَلَاكِ نَيْلُ دَرَجَةِ الشَّهَادَةِ، وَهِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ أَلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاكُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وَلَا تُنَالُ تِلْكَ الدَّرَجَةُ بِمَوْتِهِمْ خَفَّتْ أُنُوفُهُمْ^(٢)، فَهَذَا أَبْلَغُ نَصْرًا مِنْهُ إِيَّاهُمْ.

ثُمَّ لِلْجُزَاءِ وَالْعِقَابِ دَارٌ أُخْرَى، فِيهَا يَظْهَرُ تَغْزِيرُ الْأَوْلِيَاءِ وَقَمْعُ الْأَعْدَاءِ^(٣)؛ فَلَمْ يَكُنْ فِي تَرْكِ النَّصْرِ فِي الدُّنْيَا مَا يُوجِبُ وَهْنًا وَلَا ذُلًّا. وَأَمَّا مَلُوكُ الدُّنْيَا إِذَا تَرَكُوا نَصْرَهُمْ وَقَتَّ مُلْكِهِمْ لَاَوْلِيَائِهِمْ فَلَمْ يَتَوَقَّعْ مِنْهُمْ النَّصْرُ بَعْدَ ذَلِكَ، إِذْ لَيْسَتْ فِي أَيْدِيهِمْ إِلَّا الْمَنَافِعُ الْحَاضِرَةُ، لِذَلِكَ لَحَقَّتْهُمْ الْمَذْمَةُ بِتَرْكِ النَّصْرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ لَيْسَ فِي إِهْلَاكِ أَوْلِيَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ آمَنُوا وَاقْتِدَارِهِمْ عَلَيْهِمْ إِيَّاهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا عَلَى الْخَطِإِ، لِأَنَّ الْإِهْلَاكَ إِنَّمَا يَصِيرُ آيَةً إِذَا كَانَ عَلَى خِلَافِ الْمُعْتَادِ، وَإِهْلَاكُهُمْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، لِأَنَّ عَدَدَهُمْ كَانَ كَثِيرًا، وَكَانَ فِي الْمُؤْمِنِينَ قَلَّةٌ، وَإِهْلَاكَ الْكَثِيرِ لِلْقَلِيلِ غَيْرُ مُسْتَبْعَدٍ، بَلْ هُوَ أَمْرٌ مُعْتَادٌ، وَعَلَبَةُ الْفِتْنَةِ الْقَلِيلَةِ^(٤)، هِيَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ حُدِّ الْإِغْتِيَادِ، فَيَكُونُ فِيهَا آيَةٌ أَنَّ الْفِتْنَةَ الْقَلِيلَةَ عَلَى الْحَقِّ، وَالْأُخْرَى عَلَى الْبَاطِلِ، وَذَلِكَ نَحْوُ عُلْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ يَمُنُّ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ قَلَّةٍ عَدَدِهِمْ وَضَعْفِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَكَثْرَةِ أَتْبَاعِ الْكُفْرَةِ وَقُوَّتِهِمْ وَجَلَادَتِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ أَي لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَكَانِهِمْ جُزْءٌ مَنْ يَنْتَقِمُ مِنْهُمْ بِالْإِحْرَاقِ سِوَى أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى [وَقِيلَ: مَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، وَمَا أَنْكَرُوا مِنْهُمْ، وَفِي هَذَا تَبَيَّنَ سَفَهُهُمْ وَعُتُوبُهُمْ لِأَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ مَا لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ كُلِّهَا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَانَ الَّذِي يَحِقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى^(٥) وَيَشْكُرُوهُ بِمَا حَوَّلَهُمْ مِنَ النِّعَمِ، وَيَدْعُوا غَيْرَهُمْ^(٦) إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، لَا أَنْ يَقْتُلُوا، وَيُعَذِّبُوا مَنْ آمَنَ بِهِ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْعَزِيزُ الْغَلِيْبُ﴾ فَالْعَزِيزُ هُوَ الَّذِي لَا وُجُودَ لِمُثْلِهِ^(٧) أَوْ هُوَ عَزِيزٌ، لَا يَلْحَقُهُ ذُلٌّ، فَيَكُونُ الْعِزُّ مُقَابِلَ [الذُّلِّ]^(٨).

وَقَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: الْعِزُّ الْمَنْعُ، وَالْعَزِيزُ، هُوَ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَالْحَمِيدُ^(٩): الْمُسْتَوْجِبُ الْحَمْدِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ بِذَاتِهِ.

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الْآيَةُ؛ فَلِذَلِكَ هَذَا لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ فِي مُلْكِهِ قُصُورٌ بِقَتْلِ أَوْلِيَائِهِ وَأَنْصَارِ دِينِهِ، لِأَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ عِبِيدُ اللَّهِ تَعَالَى وَإِمَاؤُهُ، وَالسَّيِّدُ إِذَا قَتَلَ بَعْضَ مَمَالِكِهِ بَعْضًا لَمْ يَلْحَقِ السَّيِّدُ بِذَلِكَ ذُلٌّ وَلَا نُقْصٌ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ الذُّلُّ إِذَا قَتَلَهُمْ غَيْرُ مَمَالِكِهِ. فَإِذَا كَانَ الْخَلْقُ بِأَجْمَعِهِمْ عِبِيدَ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ فِي قَتْلِ بَعْضٍ بَعْضًا نُقْصٌ، يَدْخُلُ فِي مُلْكِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَي يَحْفَظُ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ، فَيَجَازِيهِمْ بِهَا، وَلَا يَغْرُبُ عَنْهُ شَيْءٌ.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ نَسُوا الذِّكْرَ وَالَّذِينَ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ فَالْفِتْنَةُ الْمِخْنَةُ، وَهِيَ مَا خُوذَتْ مِنْ قَتْلِ الذَّهَبِ إِذَا أَذَابَهُ، لِأَنَّهُ يُذَيَّبُ لِيُعَمَّرَ بِهِ بَيْنَ مَا خُبْتُ مِنْهُ وَبَيْنَ مَا صَفَا وَبَيْنَ الذَّهَبِ وَبَيْنَ مَا لَيْسَ بِذَهَبٍ، فَاسْتَعْمِلْتُ فِي مَوْضِعِ الْفِتْنَةِ، لِأَنَّ الْمِخْنَةَ، هِيَ الْإِتْيَاءُ لِيَتَبَيَّنَ بِهَا الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ وَالْمُحَقُّ مِنَ الْمُبْطِلِ؛ وَذَلِكَ يَكُونُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ؛ فَسُمِّيَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى امْتِحَانًا. هَذَا، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ.

ثُمَّ وَجْهٌ فَتَنَتْهُمْ أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا الْأَخَادِيذَ، وَأَوَقَدُوا فِيهَا النَّيْرَانَ لِيُلْقُوا فِيهَا مَنْ ثَبَّتَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَدَامَ عَلَيْهِ، وَتَرَكُوا لِقَاءَ مَنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، فَقِيلَ: فُتِنُوا لِهَذَا.

(١) وَ(٢) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ الْأَوْلِيَاءِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ الْكَثِيرَةِ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ غَيْرِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ لَه. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْ (٩) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ وَهُوَ الْحَمِيدُ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ نَارٌ مِّنْ تَحْتِ الْأَرْضِ وَغِيْرُهَا﴾ ففِيهِ أَنَّهُمْ لَوْ تَابُوا لَكَانَ يُغْفَى عَنْهُمْ، وَلَا يُعَاقَبُونَ، مَعَ عَظَمِ جُزْيِهِمْ بِرَبِّهِمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَكُونُ فِيهِ إِظْهَارُ كَرَمِهِ وَعَظَمِ عَطْفِهِ عَلَى خَلْقِهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَكُمُ الْعَذَابُ الْخَرِيفُ﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ صَرَفَ قَوْلَهُ: ﴿وَلَكُمُ الْعَذَابُ الْخَرِيفُ﴾ إِلَى الدُّنْيَا، فَقَالَ: إِنَّ تِلْكَ النَّارَ الَّتِي عَذَّبُوا بِهَا الْمُؤْمِنِينَ سُلِّطَتْ عَلَيْهِمْ حَتَّى أَخْرَقَتْهُمْ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي جَهَنَّمَ أَيْضًا، فَيَكُونُ فِيهِ إِخْبَارٌ بِأَنَّ نَارَ جَهَنَّمَ تَدُومُ عَلَيْهِمْ بِالْإِحْرَاقِ، وَلَا تَقْتَرُ عَنْهُمْ.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ صَرَفَ هَذَا الْخُطَابَ إِلَى الَّذِينَ عَذَّبُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَرَفَهُ ^(١) إِلَى الْمُعَذِّبِينَ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَوْ آمَنُوا مَعَ عَظَمِ جُزْيِهِمْ وَإِسَاءَتِهِمْ [إِلَى أَوْلِيَائِهِ] ^(٢) اللَّهُ تَعَالَى لَكَانَ يَغْفِرُ عَنْهُمْ، وَتَسَعُّمُ رَحْمَتُهُ.

وقوله ﷻ: ﴿لَكُمْ جَنَّتٌ قَبْرِي مِنْ تَحْتِ الْأَنْهَارِ﴾ فَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ تَحْتِ الْأَنْهَارِ﴾ يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مِنْ تَحْتِ أَمْلِهَآ.

وَالثَّانِي: مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا.

وَالْجَنَّةُ اسْمٌ لِلْمَكَانِ [الَّذِي فِيهِ] ^(٣) الْأَشْجَارُ الْمُتَلَفَّةُ، فَيُخَيَّرُ [أَنْ] ^(٤) الْمَاءُ يَجْرِي مِنْ تَحْتِ مَا بِهِ صَارَ جَنَّةً، وَهِيَ الْأَشْجَارُ. وَلَيْسَ يُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿تَحْتِهَا﴾ الْجَنَّةُ أَيْ تَحْتِ تَرَابِهَا، لِأَنَّ تَحْتَهَا تَكُونُ قَنَآةً أَوْ بَثْرًا، إِذْ لَيْسَ بِهِمَا كَثِيرُ نَزْهِقٍ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْقَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ وَالْفَائِزُ، هُوَ الَّذِي يَظْفَرُ بِمَا يَأْمُلُ، وَيَنْجُو عَمَّا يَخَافُ، وَيَخْذَرُ. وَوَصَفَ [الْقَوْزَ] ^(٥) أَنَّهُ كَبِيرٌ لِأَنَّهُ لَيْسَ لِمَا أَنْعَمَ زَوَالٌ وَلَا انْقِطَاعٌ.

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أَيْ أَخَذَهُ لِلْإِنْتِقَامِ شَدِيدًا؛ يَشْتَدُّ عَلَى الَّذِي يُعَذِّبُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُئِذٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يُبْدِئُ الْعَذَابَ، ثُمَّ يُعِيدُهُ. قَالَ بَعْضُهُمْ: يُبْدِئُ الْخَلْقَ / ٦٣٥ - ب/ ثُمَّ يُعِيدُهُ بَعْدَ مَا أَمَاتَهُ.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَفُورُ الْذُوْدُ﴾ الْغَفُورُ، هُوَ السُّتُورُ، يَسْتُرُ عَلَى الْمَذْنِبِ ذَنْبَهُ إِذَا تَابَ حَتَّى لَا يُذَكَّرَ بِهِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَضْفُو لَهُ نَعِيمُ الْآخِرَةِ مِنَ التَّغْنِيصِ.

وقوله تعالى: ﴿الذُّودُ﴾ يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: الْوَدُودُ ^(٦) الَّذِي يَتَوَدَّدُ إِلَى خَلْقِهِ فِي مَا يُنْعِمُ عَلَيْهِمْ، وَيُخَسِّنُ إِلَيْهِمْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَعَلَى آلِهِ: «جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبٍّ مِّنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا وَيُغْنِي مِنْ أَسَاءِ إِلَيْهَا» [أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيةِ ٤/ ١٢٠ وَفِي تَذَكُّرَةِ الْمَوْضُوعَاتِ ٦٨] فَجَعَلَ الْإِحْسَانَ سَبَبَ التَّوَدُّدِ.

وَالثَّانِي: أَنْ كُلَّ مَنْ وَاذَّ آخَرَ فَالْحَقُّ عَلَيْهِ أَنْ يُوَدَّهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ بُو نَالٌ مَا بِهِ يَتَوَدَّدُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: هُوَ الْمُسْتَوْجِبُ لِلْمُودَةِ مِنَ الْخَلْقِ.

الآية ١٥ وقوله تعالى: ﴿ذُرِّ الْعَرْشِ الْمَجِيدِ﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ الْمَجِيدَ تَغْنًا لِلْعَرْشِ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ تَغْنًا لِلَّهِ تَعَالَى؛ فَمَنْ جَعَلَهُ [تَغْنًا] ^(٧) لِلْعَرْشِ، فَهُوَ مُسْتَقِيمٌ، لِأَنَّهُ وَصَفَهُ فِي مَكَانٍ آخَرَ بِالْكَرِيمِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ [المؤمنون: ١١٦] وَالْمَجِيدُ يَقْرُبُ مَعْنَاهُ لِمَعْنَى الْكَرِيمِ [لِأَنَّ الْكَرِيمَ] ^(٨) هُوَ الَّذِي عَظَّمَ قُدْرَهُ وَشَرَفَهُ، وَالْمَجِيدُ كَذَلِكَ هُوَ الشَّرِيفُ الْمُعَظَّمُ، وَعَظَّمَ قُدْرَ الْعَرْشِ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَعَلَا، حَتَّى زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ مَكَانُ الرَّبِّ تَعَالَى.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: صَرَفَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: بِأَوْلِيَآءِهِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّتِي فِيهَا. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

والكريم في الشاهد، هو الذي يطعم عنده وجود ما يُرجى، ويُؤمل، ويُؤمن منه ما يتقى ويُحذر، وسمى الله تعالى النبات كريماً بقوله: ﴿فَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠] لما فيه من عظم المنافع للخلق.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [يختلج وجهين:

أحدهما: أن^(١) ما يريد تكوينه يكون^(٢)، فيكون فيه إيجاب القول [بخلق أفعال]^(٣) العباد، وأنه شاء لكل أحد ما علم أنه يكون منه لأنه امتدح، جل، وعلا، بالفعل لما يريد. ولو لم يثبت له صنع في أفعال العباد لكان لا يختص بهذا الامتدح، بل يكون كل واحد مستوجبا لهذا المدح، فثبت أن كون حقائق الأشياء بما الله تعالى فيه صنع.

والثاني: أن إحداث شيء في سلطان آخر وفي مملكته من حيث لا يشاؤه، ولا يريدُه آية الضعف والقهر، ومن ذلك وصفه لم يجز أن يكون رباً. لذلك لزم وصف الله تعالى بذلك.

وجائز أن يكون قوله تعالى: ﴿قَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ أي البعث، وهو أنه أنشأ هذا الخلق للعاقبة. وهكذا فعل كل مختار أنه يقصد بفعله العاقبة لا^(٤) أن يكون جاهلاً بها.

والآيتان ١٧ و ١٨ وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ ﴿فَرَعُونَ ثَمُودَ﴾ فقد [وصفناه]^(٥) في ذكر الأنبياء في^(٦) الفوائد، وقد ذكرنا أن فيها إثبات رسالته على ما تقدم ذكره غير مرة.

والآية ١٩ وقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ أي كفروا بأنعم الله تعالى، فهم في تكذيبهم بأنعم الله تعالى، أو لما جحدوا أنعم الله تعالى لم يوفقهم للإيمان به، فجعلوا على التكذيب.

والآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِنْ دَلَائِمِ غِيظٍ﴾ أي من وراء تكذيبهم محيط بما ينزل بهم من العذاب، ليس يوعدهم عن غفلة وخيال كما يفعل ملوك الدنيا، قد يوعدون بالعذاب، ولا يذرون أنهم يتمكنون من ذلك أم لا. والله ينزل عليهم عذابه كما أوعد.

أو يكون قوله: ﴿وَاللَّهُ مِنْ دَلَائِمِ غِيظٍ﴾ أي عالم بما يسرون، ويخفون عن الخلق، لا يغرب عنه شيء.

والآية ٢١ وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قَوَّانٌ مِجِدٌ﴾ فستاء مجيداً وكريماً وحكيماً؛ وهذه أوصاف؛ من وصف بها في الشاهد فقد استحق الوصف بفعل وجد منه، ولا يوجد في^(٧) القرآن فعل [لا]^(٨) يستحق به الوصف؛ فالوصف به يختلج أوجهاً:

أحدها: ﴿مِجِدٌ﴾ أي يصير من تبعه، وعمل بما فيه، مجيداً حكيماً كريماً كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ تَبَارَكَ تَعَالَى﴾ [يونس: ٦٧ و...]. أي يتصرف به.

[والثاني: أن]^(٩) يكون قوله: ﴿مِجِدٌ﴾ كريماً^(١٠) أي على الله تعالى.

[والثالث]^(١١): سماء كريماً مجيداً حكيماً لعظم قدره.

[والرابع]^(١٢): سماء كريماً مجيداً حكيماً لما يوجد منه ما يوجد من الكرماء والحكماء والأمجاد.

والآية ٢٢ وقوله تعالى: [١٣] ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ فمنهم من حقق اللوح والقلم، وقد وصفه أهل التفسير، ومنهم من جعل اللوح عبارة عما يلوح أي يظهر للمالك من الأمر لا على تحقيق اللوح.

وسميت الباطنية القلم المبدع الأول [واللوح المبدع الثاني، وجعلوا المبدع الأول]^(١٤) علّة كون المبدع الثاني، وزعموا أن المبدع الأول يدل له إنشاء المبدع الثاني. فهو المنشيء له. وسميت المبدع الأول بارياً والمبدع الثاني خالقاً رحماناً.

(١) في الأصل وم: أي. (٢) في الأصل وم: يكونه. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: إلا. (٥) في الأصل وم: وصفناها. (٦) في الأصل وم: من. (٧) في الأصل وم: من. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: أو. (١٠) في الأصل: كريم. (١١) في الأصل: أو. (١٢) في الأصل: أو. (١٣) ساقطة من م. (١٤) من م، ساقطة من الأصل.

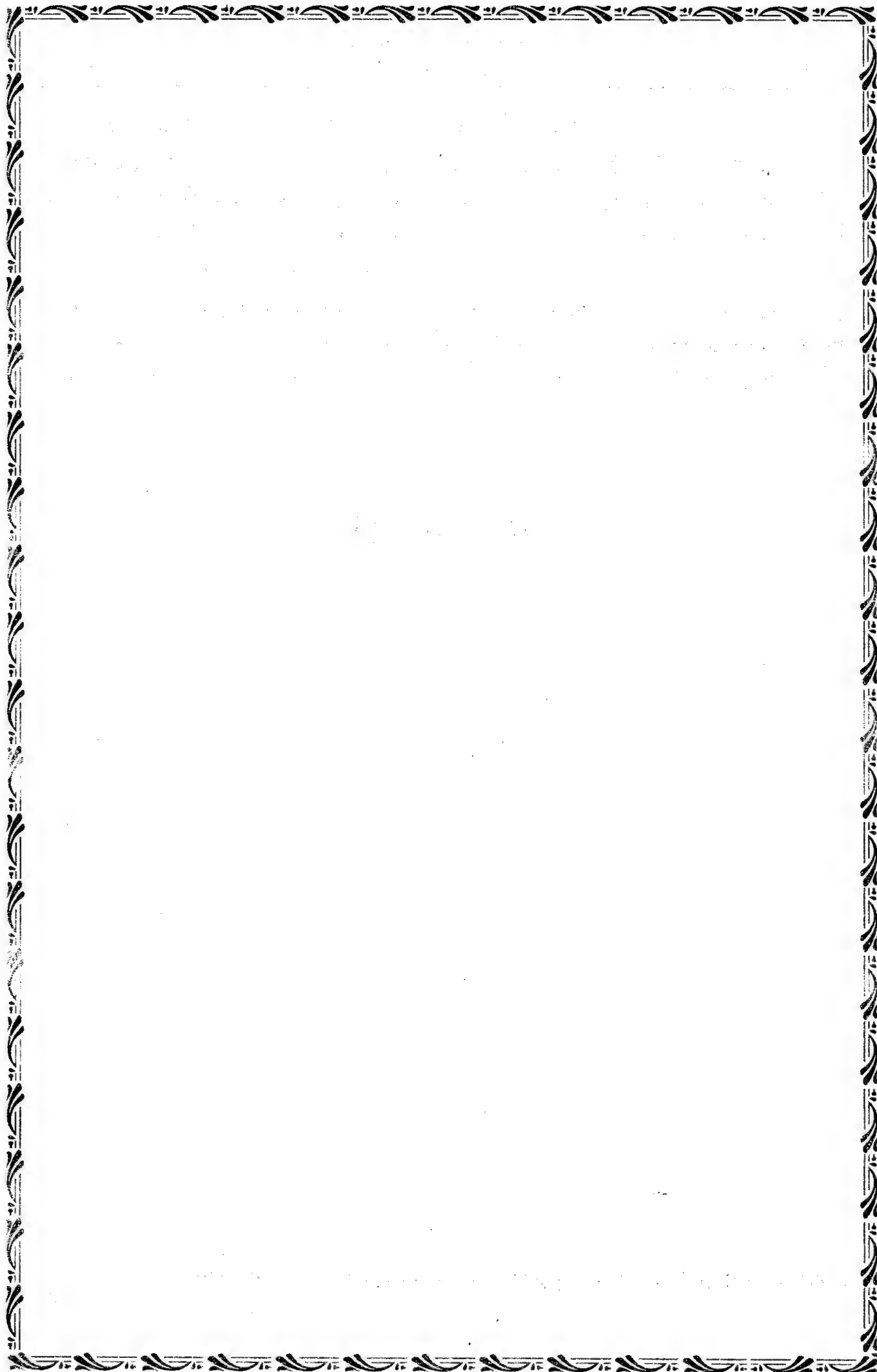
وَسَمَّتِ الْفَلَاسِفَةُ الْمُبْدِعَ الْأَوَّلَ عَقْلاً وَالثَّانِي نَفْساً، ثُمَّ حَدَّثَ التَّوَالِدُ مِنَ الْأَنْفُسِ.

فَأَمَّا جَعْلُهُمُ الْأَوَّلَ أَضْلاً وَعِلَّةً لِيُسَوُوا^(١) مَا ذَكَرُوا، فَذَلِكَ يَحْتَمِلُ أَنْ يُجْعَلَ الْأَوَّلُ أَضْلاً لِلثَّانِي وَعِلَّةً كَمَا اسْتَفَافَ أَنْ تُجْعَلَ النُّظْمَةُ أَضْلاً لِخَلْقِ الْبَشَرِ. وَلَكِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى بِوَاحِدٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي ذَكَرْتُهُمَا الْبَاطِنِيَّةُ وَالْفَلَاسِفَةُ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِنْشَاءُ الْأَسْمَاءِ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ اخْتِرَاعاً، أَوْ^(٢) تَسْمِيَتُهُمَا [بِمَا جَاءَتْ التَّسْمِيَةُ مِنْ غَيْرِ الْحُجَّةِ، وَإِنَّمَا جَاءَتْ^(٣) التَّسْمِيَةُ مِنْ عِنْدِ الْحُجَّةِ بِاللُّوْحِ وَالْقَلَمِ، فَلَا تُسَمِّيهِمَا بِغَيْرِهِمَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَحْفُوتُمْ﴾ أَيِ [مِنْ]^(٤) أَعْدَائِهِ، فَلَا يَتِمَّ كُنُونُ مَنْ تَغْيِيرُهُ وَتَبْدِيلُهُ. وَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ إِلَيْهِ عَلَى يَدَيِ رَسُولٍ قَوِيٍّ، فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَغْلِبَهُ، فَيُحَرِّفَ مَا فِيهِ، وَوَصَفَهُ بِالْأَمَانَةِ فِي نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﷻ: ﴿أَيُّنَ﴾ [التَّكْوِيرُ: ٢٠ و ٢١] لِيُؤْمَنَ تَغْيِيرُهُ بِنَفْسِهِ، وَاللَّهُ الْهَادِي لِلْعِبَادِ وَالْمَوْفِقُ لِلرَّشَادِ [وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ]^(٥).



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لِيَسُوا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: بَل. (٣) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي. (٤) فِي م: عَن، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.



سورة الطارق

[وهي مكية^(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و ٢

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلَ وَالطَّارِقَ﴾ [وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ] ^(٢) إِنَّ اللَّهَ، جَلَّ، وَعَلَا، عَظَّمَ قَدْرَ السَّمَاءِ فِي أَعْيُنِ الْخَلْقِ لَمَّا جَعَلَهَا مَعْدِنَ رَزْقِهِمْ وَمَسَكَنَ أُولَى الْقَدْرِ مِنْ خَلْقِهِ، وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَفِيهَا خَلَقَ الْجَنَّةَ، وَخَلَقَهَا بِغَيْرِ عَمَدٍ، تُرَى. فَاقْسَمَ بِهَا لَمَّا عَظَّمَ مِنْ شَأْنِهَا، وَجَعَلَ مَصَالِحَ الْأَغْذِيَةِ بِزِينَتِهَا، وَهِيَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ [وَالْكَوَاكِبُ].

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿النَّجْمِ الثَّاقِبِ﴾ أَقْسَمَ ^(٣) بالنجم الثاقب، وهو المتلألئ من النجوم، المضيء الذي يثقب الشيطان، أو يخرقه، ولما فيها أيضاً مِنْ عَظَمِ الْبَرَكَاتِ.

وَبَرَكَاتُهَا أَنَّهُا جُعِلَتْ بَحِثٌ يُهْتَدَى بِهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَيَوْصَلُ بِهَا إِلَى لَطَائِفِ التَّدْبِيرِ إِلَى أَنْ طَرَفَ بَعْضُ [النَّاسِ] ^(٤) أَنْ الْأَنْجَمِ السَّيِّئَةِ، هِيَ الْمُدْبِرَاتُ، وَبِهَا مَا مَنَعَ الشَّيَاطِينَ عَنِ الصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ لِيَتَّقَى بِهَا التَّلَاسُ عَلَى الرُّوحِ، لِأَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يُنَمَّعُوا ^(٥) عَنْهَا لَكَانُوا إِذَا وَقَفُوا عَلَى أَخْبَارِهَا أَسْرَعُوا بِحَمْلِهَا إِلَى الْكَهَنَةِ، فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى التَّلَاسِ.

وَمِنْ عَظَمِ قَدْرِهَا أَنَّهُا تَقَطُّعُ ٦٣٦ - ١ / فِي اللَّيْلَةِ الْوَاحِدَةِ مَسِيرَةَ أَلْفِ شَهْرٍ، فَاقْسَمَ [بِهَا] ^(٦) أَيْضاً.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنَ اللَّهِ تَعْلِيماً لِرَسُولِهِ ﷺ بِأَنْ يُقْسِمَ بِهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ قَسْماً مِنْهُ تَعَالَى [مَا] ^(٧) لَمْ يَكُونُوا يَرْتَابُونَ فِي أَلْهُوِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ وَصِدْقِ أَخْبَارِهِ، فَزَالَ عَنْهُمْ الرَّيْبُ بِالْقَسَمِ [وَأَنْ كَانُوا يَرْتَابُونَ فِي رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَعَلِمَهُ الْقَسَمُ بِمَا ذَكَرَ لِيُؤَكِّدَ أَمْرَهُ، فَيَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ عَلَى النَّظَرِ فِي أَمْرِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْقَسَمُ بِغَيْرِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ لِكُونِهَا مُعْظَمَةً عِنْدَ الْكُفَرَةِ، وَلَيْسَ لِلْكَفَرَةِ، وَلَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يُقْسِمُوا فِي مَا بَيْنَهُمْ؛ إِذْ يَكُونُ الْقَسَمُ بِهِذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ الْقَسَمُ بِخَالِقِهَا، فَكَانَ أَمْرُهُ بِالْقَسَمِ ^(٨) بِخَالِقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَلَى الْإِضْمَارِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَاخْتُلِفَ فِي تَأْوِيلِ ﴿الطَّارِقِ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَا يَجِيءُ بِهِ اللَّيْلُ، يُقَالُ: طَرَقَهُ بِاللَّيْلِ إِذَا آتَيْتَهُ.

وَقَالَ الرَّجَاجُ: الطَّارِقُ، هُوَ السَّاكِنُ، يُقَالُ: أَطْرَقَ فِي الْكَلَامِ مَلِيّاً إِذَا وَقَفَ، وَسَكَتَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ النَّجْمُ يَطْرُقُ بِاللَّيْلِ، وَيَخْتَفِي بِالنَّهَارِ، وَهُوَ النَّجْمُ الثَّاقِبُ؛ ذَكَرَهُ تَفْسِيراً لِلطَّارِقِ.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ اخْتُلِفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أُرِيدَ بِهِ هَهُنَا: مَا، وَقَوْلُهُ: ﴿لَمَّا﴾ صِلَةٌ فِي الْكَلَامِ؛ فَمَعْنَاهُ [فِي وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ^(٩) مَا مِنْ نَفْسٍ عَلَيْهَا حَافِظٌ، وَإِنَّمَا الْحَافِظُ عَلَى بَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْحَافِظُ عَلَى بَعْضٍ مَا فِي النَّفْسِ دُونَ بَعْضٍ؛ وَذَلِكَ الْبَعْضُ هُوَ الَّذِي يُظْهِرُهُ. فَأَمَّا الَّذِي يُخْفِيهِ فَإِنَّهُ لَا يَشْهَدُهُ كَاتِبُهُ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وأقسم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: يحفظوا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم.

ومنهم مَنْ حَمَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿لَا﴾ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ، فَقَالَ: مَعْنَاهُ مَا مِنْ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ.

قَالَ الرَّجَاجُ: حَرْفُ ﴿لَا﴾ اسْتَعْمِلَ فِي مَوْضِعِ الْإِسْتِثْنَاءِ، يُقَالُ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ لَمَّا فَعَلْتَ كَذَا، أَيْ إِلَّا فَعَلْتَ كَذَا. فَإِذَا كَانَ مَعْنَاهُ مَا ذَكَرُوا فِيهِ الْإِزَامُ التَّيَقُّظُ وَالتَّبَصُّرُ، وَالنَّفْسُ مِنْ طَبِيعِهَا إِذَا سَلَّطَ عَلَيْهَا مَنْ يُرَاقِبُهَا، وَيَحْفَظُهَا، اخْتَشَمَتْ [مِنْ] ^(١) مُرَاقِبِهَا، وَخَافَتَهُ، وَتَكُونُ مُتَيَقِّظَةً، وَلَا تَزْكِبُ مِنَ الْأُمُورِ إِلَّا مَا يُعْلَمُ أَنَّهُ لَا تَلَحُّفَهُ الثَّبَعَةُ مِنَ الْحَفَاطِ.

[وَالْمَرْءُ يُسَلِّطُ] ^(٢) عَلَيْهِ الْمَلَكَانِ أَيْضاً لِيَكُونَ مُتَيَقِّظاً فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ، فَلَا يَقْبَلُ إِلَّا إِلَى مَا فِيهِ نَفْعٌ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ.

وَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الْمَلَكَينِ ﴿كَرَامًا كَبِيرَيْنِ﴾ [الانفطار: ١١] وَمَنْ صَحِبَ الْمُكْرَمَ مِنَ الْخَلَائِقِ اخْتَشَمَ مِنْهُ، وَتَوَقَّى عَنْ إِيَابِهِ مَا يُسْتَخْفَى مِنْ مَثَلِهِ. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى أَحَدٍ كِتَاباً، لَمْ يُثَبِّتْ فِي كِتَابِهِ شَيْئاً، يُؤْخَذُ عَلَيْهِ، وَيُذَمُّ بِهِ، بَلْ يُحْكِمُ الْأَمْرَ، وَيُضْلِحُّهُ غَايَةً مَا يَحْتَمِلُهُ الْوُسْعُ، فَكَانَ فِي ذِكْرِ الْحَافِظِ عَلَى الْأَنْفُسِ الْإِزَامُ التَّيَقُّظُ وَالتَّبَصُّرُ مِنَ الرَّجْوِ الَّذِي ذَكَرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿حَافِظٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَحْفَظُ عَلَيْهَا رِزْقَهَا حَتَّى تَسْتَوْفِيَ بِهِ. فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا فَالْحَفَظُ يَكُونُ لَهَا لَا عَلَيْهَا. قَالَ بَعْضُهُمْ: يَحْفَظُ عَلَيْهَا أَعْمَالَهَا خَيْرَهَا وَشَرَّهَا.

الآيتان ٥ و ٦

وقوله تعالى: ﴿يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ﴿خُلِقَ مِنْ شَيْءٍ دَافِقٍ﴾ فَالْأَصْلُ أَنَّ إِمْعَانَ النَّظَرِ فِي مَا خُلِقَ مِنْهُ الْإِنْسَانُ مِمَّا يُوَصِّلُ الْمُتَنَبِّهِينَ لِلْبَعْثِ وَالْمُنْكَرِينَ لِلرَّسَالَةِ إِلَى الْقَوْلِ، وَذَلِكَ أَنَّ النُّطْفَةَ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا الْإِنْسَانُ، لَوْ رُيِّتْ مَوْضُوعَةً عَلَى طَبَقٍ، ثُمَّ رَامَ أَحَدٌ أَنْ يَغْرِثَ وَأَنْ يَنْتَرَعَ مِنْهَا الْمَعْنَى الَّتِي بِهِ صَلَحَ أَنْ تُنْشَأَ مِنْهَا الْعَلَقَةُ وَالْمُضْغَةُ، وَخُلِقَ مِنْهَا الْإِنْسَانُ، لَمْ يَدْرِكْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يُرْكَبُوا عَلَيْهَا جَارِحَةً مِنْ جَوَارِحِ الْإِنْسَانِ، لَمْ يَتَّهَيَّأْ لَهُمْ تَرْكِيبُهَا، أَوْ [أَنْ] ^(٣) يَغْرِثُوا الْمَعْنَى الَّتِي [بِهِ] ^(٤) صَلَحَ أَنْ تُنْشَأَ مِنْهُ السَّمْعُ وَالبَصَرُ، لَمْ يُوقَفُوا لَهُ.

فَتَبَيَّنَ أَنَّ الَّذِي بَلَّغَتْ قُدْرَتُهُ هَذَا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرٌ، وَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَتَبَيَّنَ لَهُمْ حَكْمَتُهُ. وَإِذَا عَرَفُوا حَكْمَتَهُ إِذَا هُمْ ذَلِكَ إِلَى الْقَوْلِ بِالْبَعْثِ، لِأَنَّهُ لَوْ لَا الْبَعْثُ لَكَانَ ^(٥) يُخْرَجُ إِنْشَاءُ الْخَلْقِ عَبَثاً بَاطِلاً، فَيُخْرَجُ عَنْ أَنْ يَكُونَ حَكِماً، وَلَزِمَهُمْ أَنْ يُصَدِّقُوا الرِّسْلَ بِجَمِيعِ مَا أَخْبَرَتْهُمْ.

وفيه دلالةٌ خَلَقَ الشَّيْءَ لَا مِنْ شَيْءٍ، إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِكُلِّيَّتِهِ مِنَ النُّطْفَةِ مُسْتَحْسِناً، فَظَهَرَ أَنَّهُ لَا يَسْعُ فِي الشَّيْءِ الْوَاحِدِ مَا لَا يُحْصَى ذَلِكَ مِنَ الْأَضْعَافِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَمَلُ النُّطْفَةِ أَيْضاً، وَإِنَّمَا مَوَاتٌ، لَا يُحْتَمَلُ أَنْ تُصَيَّرَ كَذَلِكَ إِلَّا بِتَدْيِيرٍ مُدَبَّرٍ عَلَيْهِمْ، فَيَكُونُ فِي مَا ذَكَرْنَا لِإِجَابِ الْقَوْلِ بِحُدُوثِ الْعَالَمِ. وَلَئِنْ لَوْ صَارَتْ مُضْغَةً وَعَلَقَةً وَخُلُقاً سَوِيّاً يَطْبَعُهَا لَكَانَتْ لَا تَخْلُو نُطْفَةً إِلَّا وَهِيَ تَنْتَقِلُ إِلَى مَا ذَكَرْنَا.

أَلَا تَرَى أَنَّ النَّارَ لَمَّا كَانَ مِنْ طَبِيعِهَا الْإِحْرَاقُ، وَالثَّلْجَ إِذَا كَانَ مِنْ طَبِيعِهِ التَّبَرُّدُ لَمْ يَجُزْ أَنْ يَنْتَقِلَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا عَنْ طَبِيعِهِ الَّذِي أُنْشِئَ عَلَيْهِ؟ ثُمَّ قَدْ وَجَدْنَا نُطْفَةً، تَخْلُو مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي ذَكَرْنَا، فَتَبَيَّنَ أَنَّهَا نُقِلَتْ إِلَى مَا ذَكَرْنَا بِتَدْيِيرٍ حَكِيمٍ مُدَبَّرٍ لَا يَطْبَعُهَا.

ثُمَّ الْأَعْجُوبَةُ فِي مَا فِيهِ خُلِقَ الْإِنْسَانُ لَيْسَتْ بِأَقْلَ مِنَ الْأَعْجُوبَةِ مِمَّا مِنْهُ خُلِقَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ فِي الظُّلُمَاتِ عَلَى مَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى، وَصَوَّرَهُ كَيْفَ شَاءَ. وَلَوْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَعْلَمَ عِلْمَ ذَلِكَ أَوْ يُصَوِّرَ مِثْلَهُ فِي حَالَةِ الْعِيَانِ لَمْ يَمْلِكْ [أَوْ] يَجْعَلْ ^(٦) ذَلِكَ الْمَكَانَ فِي مَا يَشْمُو فِيهِ الْوَلَدُ، وَيَتَغَذَّى ^(٧) فِيهِ مَخْصُوصاً مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَمَاكِنِ، وَلَوْ أَرَادَ حُكْمَاءُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ أَنْ يَغْرِثُوا الْوَجْهَ الَّذِي بِهِ صَلَحَ ذَلِكَ الْمَكَانُ لِلنَّمَاءِ وَالْغِذَاءِ، وَأَعْلَمُوا فِيهِ فَنُونَ الْعِلْمِ، لَمْ يَغْرِثُوا.

فَمَنْ تَفَكَّرَ فِي مَا ذَكَرْنَا عِلْمَ أَنَّ قُدْرَتَهُ ذَاتِيَّةٌ، لَا يَلْحَقُهَا فَنَاءٌ وَلَا عَجْزٌ، وَعِلْمُ أَنَّ عِلْمَهُ ذَاتِيٌّ، لَيْسَ بِمُكْتَسَبٍ، فَيَتَوَهَّمُ خَفَاءُ الْأُمُورِ عَلَيْهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهِ الْمَكَانُ أَيْضاً. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فَسَلَّطَ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فَيَالِ وَلَا كَانَ.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجَعَلَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَغْذَلُو.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ مِنْ تَلَوِّ دَانٍ﴾ يعني النُّطْفَةَ التي يَدْفُقُها الرجلُ في الرَّجَمِ، والدَّفَقُ مَذْفُوقٌ، أي يُدْفَقُ به كقولك: ليلٌ نائمٌ، أي يُنامُ فيه، وهو ناصِبٌ، أي يَنْصَبُ به. وقال الرَّجَّاجُ: ﴿تَلَوِّ دَانٍ﴾ أي ذي اندِفاقٍ.

الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ اختلف في تأويله؛ فمنهم من يقول: بينَ صُلْبِ الرجلِ وتَرَائِبِ المرأةِ، وهي الأضلاعُ الثمانية: أربعٌ عن يمينها وأربعٌ عن يسارها. قال بعضهم: التَّرَائِبُ، هي الأطرافُ، وقال بعضهم: التَّرَائِبُ مَوْضِعُ القِلَادَةِ منها، وقال بعضهم: التَّرَائِبُ ما دونَ التَّرَائِبِ وفوقَ الصُّدْرِ.

ثم من الناس من صَرَفَ تأويلها إلى الرجلِ خاصةً، فقال: قوله: ﴿بَيْنَ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ أريدَ به صُلْبُ الرجلِ وتَرَائِبُهُ، وزَعَمَ أنَّ الماءَ الذي يكونُ منه الولدُ، ليسَ مَعْدِنُهُ الصُّلْبُ خاصةً، بل يَجْتَمِعُ مِنْ أطرافِهِ كلها^(١). ومن حَمَلَهُ على المعاني الأخرِ صَرَفَ الأمرَ إليهما جميعاً؛ وهو أنَّ الماءَ الذي يُخْلَقُ منه الولدُ يكونُ منهما جميعاً. وذلكَ ذَكَرَهُ أبو بكرٍ الأصمُّ: أنَّ الصُّلْبَ كِنَايَةٌ عَنِ الرجلِ، والتَّرَائِبُ كِنَايَةٌ عَنِ المرأةِ، فيكونُ هذا اسماً لهما ماخوذاً من أصلٍ ما يكونُ منهما.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَحَلَلِمُلْ أَتَانِيكُمُ الَّذِينَ مِنْ أُمَّتِكُمْ﴾ الآية؟ [النساء: ٢٣] فأضافَ الأبناءَ إلى الأصلابِ.

وفي إخراجِ الماءِ مِنَ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ لُطْفٌ مِنَ اللَّهِ تعالى؛ لأنه لو اجْتَهَدَ الحَلَّاقُ باستِخراجِهِ مِنْ بَيْنِ ما ذَكَرَ بِحِيلِهِمْ وَقَوَاهُمْ وَوَضِعُوهُ فِي الرَّجَمِ لم يَقْدِرُوا عليه.

ثم الله يُلَفِّهِ وَضَعَ هَذِهِ الشُّهُورَةِ فِي ما بَيْنَ الحَلْقِي، واستَخْرَجَ بها الماءَ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ، لا أن يكونَ أحدُ يَمْلِكُ إخراجَها بالأسبابِ والحِيلِ كما وَضَعَ فِيهِمْ شُهُورَةَ الأكلِ والشُّرابِ في كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْ جَوَارِحِ الأكلِ باللُّطْفِ لا أن يكونَ ذَلِكَ العَمَلُ بالأكلِ والشُّرابِ خاصةً. وكذلك يَرَى الإنسانُ إذا سَقَى أَصْلَ الشَّجَرَةِ ظَهَرَتْ مَنَفَعَةُ السَّقْيِ فِي أغصانِها وأوراقِها وأثمارِها. ولو أرادَ أحدُ أن يَرَى^(٢) لَآيٍ مَعْنَى صَلَحَ أن يكونَ الماءُ بالمَحَلِّ الذي ذَكَرنا، وأرادَ أن يَسْتَخْرِجَ المَعْنَى المَجْعُولَ فِي الطَّعَامِ مِنَ القُوَّةِ التي ذَكَرنا لم يُذَكِّرْ^(٣) ذَلِكَ.

فيكونُ فِي ما ذَكَرنا أُنْبَغُ حُجَّةٍ عَلَى التَّنْوِيَةِ لَانَّهُمْ يُنْكِرُونَ خَلْقَ الأشياءِ/٦٣٦ - ب/ لا مِنْ أشياء، وزَعَمُوا أَنَّا لم نَشاهدُ كَوْنَ الشَّيْءِ مِنْ لا شَيْءٍ، والشَّاهِدُ دَلِيلُ الغَائِبِ، فَلَزِمَ ذَلِكَ فِي الذي غَابَ عَنَّا.

فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى تَصَوُّيرِ الولدِ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ فِي الأماكِنِ الضُّبُوقَةِ، وَقَدَّرَ أن يَجْعَلَ فِي الماءِ والطَّعَامِ المَعَانِي التي يَنْجِزُ الخَلْقُ عَنْ إدراكِها^(٤) قَادِرٌ عَلَى إنْشاءِ الحَلْقِي لا مِنْ شَيْءٍ؛ إِذْ الأعْجوبةُ فِي ما ذَكَرنا، لَيْسَتْ بِدونِ الأعْجوبةِ مِنْ إنْشاءِ شَيْءٍ [لا مِنْ شَيْءٍ]^(٥).

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجِيءٍ لَقَائِرٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ عَلَى رَدُّو إِلَى صُلْبِ أَبِيهِ لِقَائِرٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ عَلَى بَغْيِهِ لِقَائِرٍ، وَهَذَا أَشْبَهُ التَّأْوِيلَيْنِ لِأَنَّ الآيَةَ فِي مَوْضِعِ الإخْتِجَاجِ عَلَى الكُفْرَةِ. وَلَمْ يُذَكِّرْ عَنْ أَحَدِ التَّنَازُعِ فِي نَقْيِ الرُّدِّ إِلَى الصُّلْبِ وَإِنْكَارِهِ حَتَّى تُدْفَعَ الْمُنَازَعَةُ بِهَذَا.

وكانوا أَهْلَ إنْكَارِ البَعْثِ، فَاخْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِإِبْتِدَاءِ الخَلْقَةِ. وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ ما جَرَى بِهِ الإخْتِجَاجُ فِي إِبْطَاتِ البَعْثِ فِي القرآنِ، إِنَّمَا اخْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِالْإِبْتِدَاءِ.

[وإن]^(٦) كَانَ التَّأْوِيلُ عَلَى رَدُّو إِلَى صُلْبِ أَبِيهِ، فَوَجْهُ الرَّدِّ، هُوَ أن يُرَدَّ مِنْ حَالَةِ الشَّيْبِ إِلَى حَالَةِ الشَّبَابِ ثُمَّ مِنْ حَالَةِ الكِبَرِ إِلَى حَالَةِ الصُّبْرِ ثُمَّ إِلَى حَالَةِ الطُّفُولِيَّةِ، ثُمَّ يُرَدُّ مُضَعَّةً، ثُمَّ يُرَدُّ عِلْقَةً ثُمَّ نُطْفَةً، ثُمَّ تُرَدُّ النُّطْفَةُ إِلَى صُلْبِ أَبِيهِ، لا أن يُوَصَّفَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْقُدْرَةِ عَلَى رَدِّو، وَهُوَ عَلَى حَالِهِ نَسْمَةٌ عَظِيمَةٌ إِلَى صُلْبِ أَبِيهِ مَعَ ضَبْقِ ذَلِكَ المَكَانِ، وَلِأَنَّ هَذَا مُحَالٌ،

(١) فِي الأصلِ وم: كَلَهُ. (٢) فِي الأصلِ وم: أَنَّهُ. (٣) فِي الأصلِ وم: يَتَذَكَّرُ. (٤) فِي الأصلِ وم: اسْتَدْرَاكُهَا. (٥) مِنْ م، ساقطة من الأصل.

(٦) مِنْ م، فِي الأصل: وَ.

والله تعالى لا يوصف بالقُدرة على [مُحالٍ، وليس في ما لا يوصف بالقُدرة على] ^(١) المُحالِ نفْيُ القُدرة عنه في الأزل. وبهذا يُجاب من سأل، فقال: أيقدرُ الله تعالى على إدخال الدنيا في بيضة؟ فيقال له: إن أردت إدخالها في البيضة في أن تُصغر الدنيا، وتُضيقها، حتى تجعلها أضيق من البيضة أو [أن تُوسّع البيضة حتى تُسع فيها] ^(٢) الدنيا، فهو على ذلك قادر. وإن أردت أنه قادر على إدخالها فيها على إبقاء البيضة بحالها وبقاء الدنيا بحالها، فهذا مُحالٌ لما فيه من انقلاب البعض كلاً والكل بعضاً.

فكذلك يوصف الله تعالى [بالقُدرة] ^(٣) على ردّ النُسمَةِ إلى الصُلْبِ بالوجه الذي ذكرنا، لا أن يردّها على ما هي عليها إلى الصُلْبِ لما في ذلك من الإحالة.

وكذلك إذا سُئلنا عن حركات أهل الجنة والسكون، هل لهما غاية؟ فنقول: لا، فإن قالوا: هل يعلمُ الله تعالى غايتهما وعددهما؟ فنقول له: يعلمها غير منقطعة لا يعلمها منقطعة. ولم يكن في قولنا: إنه لم يعلمها منقطعة، إثبات جهل ولا نفْي العلم عنه، بل الجهل إنما يتحقّق إذا وُصف العلم بالانقطاع في ما لا ينقطع.

فكذلك ليس في نفْي الوصف بالقُدرة على المُحالِ إثبات عجزه، والله أعلم.

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُنُ النُّجُومُ﴾ أي يظهر ما كان أخفياً منها. فجائز أن يكون الإظهار مُنصِرفاً إلى التي لم يُطْلغ عليها الملائكة، فتكتبها عليه، فيذكره الله تعالى كيف شاء، فيقرّرها عليه، أو تنطق جوارحه بها كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ﴾ الآية [النور: ٢٤] أو يكون إظهاراً لقراءة ما عليه، فيظهر ذلك للخلقي، وإن كان قد أسرها عنهم في الدنيا.

ثم سُمّي ذلك ابتلاءً لأنّ الابتلاء، هو الاختيار؛ وإنما يكون الابتلاء بالسؤال أو بالأمر والنهي، فسُمّي ما يُسأل عنه في الآخرة ابتلاءً.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَمْ يَنْفَعِ قُوَّةٌ وَلَا نَاصِرٌ﴾ يَحْتَمِلُ [وجوهاً:

أحدها: ^(٤) أن ليست له قوة في كتمان ذلك على نفسه، ولا له قوة نفْي العذاب عن نفسه.

[والثاني: ^(٥) ماله من قوة، يمتنع بها، ولا ناصر، يمتنع عن نزول العذاب به.

[والثالث: ^(٦) أن الكفار كانوا يفتخرون بقواهم، وكثرة أنصارهم في الدنيا، لا تنفعهم في الآخرة، ولا تدفع عنهم بأس الله تعالى، وكانوا يعبدون الأصنام ليقربهم إلى الله تعالى، وتضرّهم من العذاب كما قال: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُصَرُّونَ﴾ [يس: ٢٤] فتبيّن أنها لا تنفي عنهم من الله شيئاً.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذَاتُ الرَّجْعِ﴾ قال أبو عبيدة: الرجّع هو الماء، أي السماء ذات المطر. وقال غيره: ﴿ذَاتُ الرَّجْعِ﴾ أي تعود في كل عام إلى ما كانت في العام الذي قبله بالمطر، والرجّع هو القود.

ويَحْتَمِلُ ﴿ذَاتُ الرَّجْعِ﴾ أي تكرر ^(٧) إدارار بركاتها على الخلق ليستقوا ^(٨) منها.

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ ذَاتُ الصَّغِيَرِ﴾ قيل: قوله: ﴿ذَاتُ الصَّغِيَرِ﴾ بالنبات، أو ﴿ذَاتُ الصَّغِيَرِ﴾ أي ذات أودية وأنهار، يجمع فيها الماء، فينتجع بها الخلق لسقي أراضيهم ودوابهم، فعظم أمر السماء والأرض، فأقسم بهما.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ يعني القرآن.

الآية ١٤ [وقوله تعالى: ^(٩) ﴿وَمَا هُوَ بِالْمُزَلِّ﴾.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: توسع فيه، في م: توسع البيضة حتى تسع فيه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٥) في الأصل وم: أر. (٦) في الأصل وم: ووجه. (٧) في الأصل وم: تتكرر إلى. (٨) في الأصل وم: ليستقوا. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وفي إخراج النبات من الأرض حكمة عجيبة ولطف وتديبر؛ وذلك أن النبات شيء لين [ينثني]^(١) بأدنى مس. ثم إن الله تعالى بلطفه صدع له الأرض اليابسة الطليئة، وأخرج^(٢) منها غير مثني ولا متكسر ليَعْلَمُوا أن مدبره حكيم، فيلزمهم بالتوحيد^(٣)، وجعل منافع الأرض بمنافع السماء مُتَّصِلَةً؛ إذ الأرض إنما تتصدع للنبات إذا أصابها المطر من السماء، فيكون في ذلك إنباء أيضاً أن مدبرهما واحد. ولولا ذلك^(٤) لم تحصل منفعة إحداهما بالأخرى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَنَزَّلَ فَلَلْ﴾ أي بين؛ بين فيه الحلال والحرام وما يُتَّقَى منه وما يُؤْتَى، وبين فيه الصواب من الخطأ، وبين فيه الوعد والوعيد، أو يكون مَعْنَى الفعل التفريق، وهو أنه فرق الوعد من الوعيد والحلال من الحرام والحق من الباطل، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ، ولم يخلط أحدهما بالآخر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِالْعَيبِ﴾ أي باللَّيْبِ والباطل.

الآيات ١٥ و ١٦ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أي أجزيهم جزاء كيدهم، فَسَمِيَ الْجَزَاءُ بِاسْمِ مَا لَهُ الْجَزَاءُ، وإن لم يكن ذلك كيداً، كما سَمِيَ [جزاء السَّيِّئَةِ]^(٥) سَيِّئَةً مثلها، وإن لم يكن الجزاء سيئةً وكما سَمِيَ جَزَاءُ الْإِعْتِدَاءِ، وإن لم يكن الجزاء اعتداءً بقوله: ﴿فَنَسِيَ أَغْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ يَمْلِكُ مَا أَغْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقوله^(٦): ﴿سُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أي جزأهم جزاء النسيان، أو جعلهم كالشيء المنسي الذي لا يُعْبَأُ به، لا أن يكون منه في الحقيقة نسيان. فكذا سَمِيَ جَزَاءُ الْكَيْدِ كَيْدًا لا أن يكون الجزاء كيداً.

[والثاني:]^(٧) أن الكيد في [حقيقته المكروء] وهو^(٨) أن يأخذ من وجوه أمينه، فيلحق الكائد اسم الدَّمِّ لأنه أخذ من وجوه، لم يشعر به. وهذا المعنى في الكيد الذي أضيف إلى الله تعالى [غير موجود لأن الله تعالى]^(٩) قد بين له الطريق الذي إذا سلكه وقع [بما]^(١٠) أريد الأمن من الطريق الذي إذا سلكه حل / ٦٣٧ - أ / به البوار والهلاك. فإذا سلك هذا الطريق كان سلوكه عن عناد منه أو عن ترك الإنصاف من نفسه، فوجد ما يكره من الكيد لا من المكاييد، فلم يلحقه بذلك الوصف المعنى المكروء.

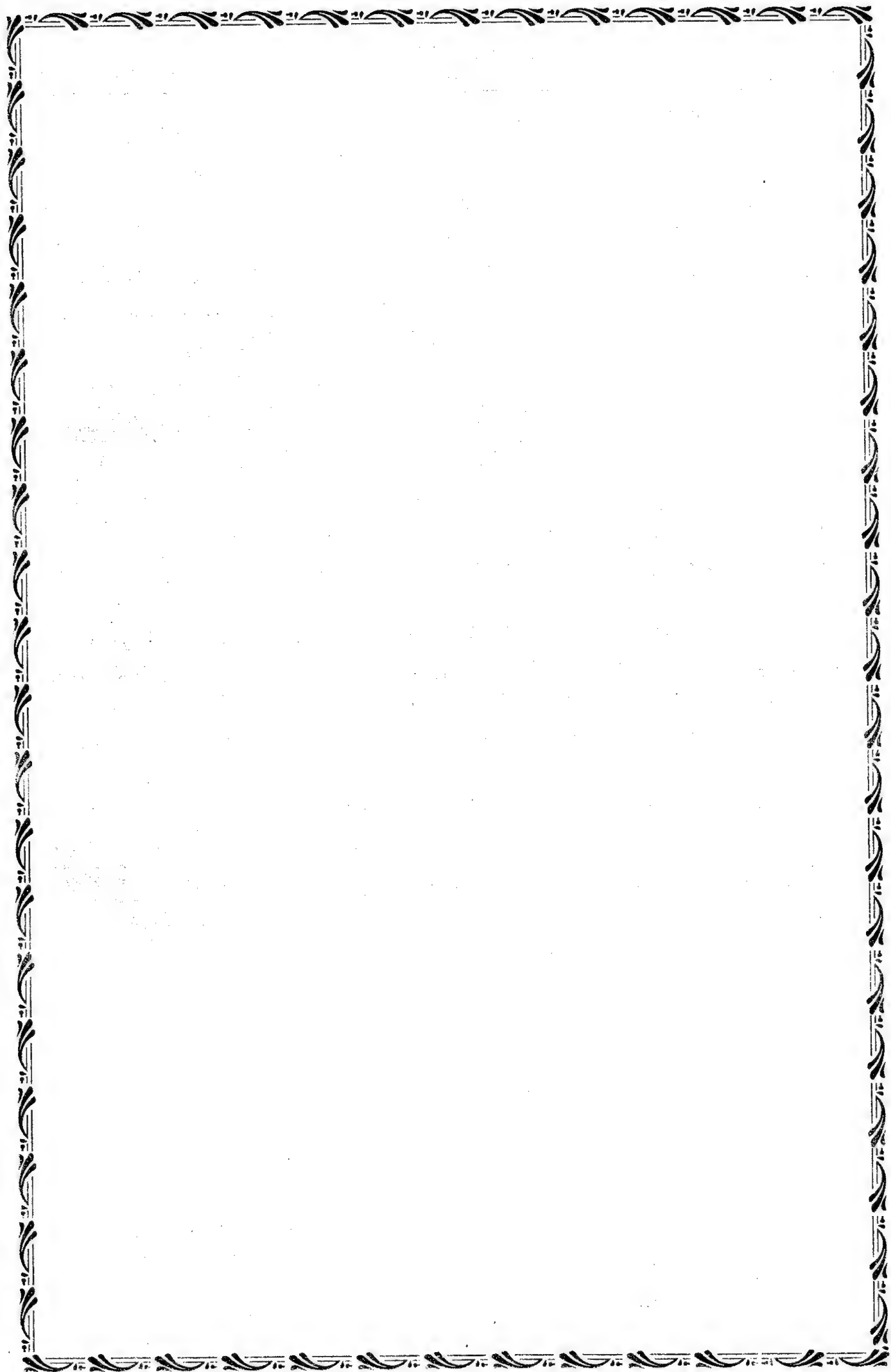
ثم كيدهم برسول الله ﷺ وبالمؤمنين [ما ذكر]^(١١) في آية أخرى، وهو قوله تعالى: ﴿وَرَادَّ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠].

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿قَبِلَ الْكَافِرِينَ أَتَيْنَهُمُ نَارًا﴾ قَمَلٌ، وأمهل لغتان؛ فكانه يقول: أمهلهم ﴿أَتَيْنَهُمُ نَارًا﴾ ولا تجازيهم بصنيعهم، فإن الله تعالى يجازيهم بصنيعهم عن قريب، وقد فعل ذلك بما سلط رسول الله ﷺ عليهم^(١٢) بقتلهم وسبيهم، فيكون في هذا بشارته لرسول الله ﷺ بالنصر عليهم وتكليفه إياهم.

وفي ذلك آية رساليه لأنه قال لهم هذا عند قلّة أعوانه وضعفه. ثم إن الله تعالى كثّر أنصاره، وأظهر عليهم كما قال لهم ليَعْلَمُوا أنه عليم ذلك بالوحي، والله الموفق.



(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وأخرج. (٣) في الأصل وم: به التوحيد. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: وإلا. (٥) في الأصل وم: الجزاء للسيئة. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: ووجه آخر. (٨) في الأصل وم: الحقيقة المكروء هو. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم.



[سورة ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١

قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قيل فيه من أوجوه:

أحدها: أَنْ سَبِّحَ رَبُّكَ، وقيل: سَبِّحْ اسْمَهُ، وقيل: سَبِّحْ رَبُّكَ بِأَسْمَائِهِ.

فَمَنْ قَالَ: سَبِّحْ رَبُّكَ فمعناه: أَنْ تَرْفَهُ^(٢) عن جميع المعاني التي يَحْتَمِلُهَا غَيْرُهُ مِنَ الْآفَاتِ وَالْحَاجَاتِ وَالْأَضْدَادِ وَالْأَنْدَادِ، فَيَكُونُ الْقَوْلُ بِهِ تَوْحِيداً. وَرُويَ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ سَلِيمَانَ أَنَّهُ قَالَ: تَأْوِيلُهُ: وَحْدُ رَبُّكَ، والتوحيدُ ما ذَكَّرْنَا.[والثاني: ما]^(٣) قَالَ الْمَفْسُورُونَ: تَأْوِيلُهُ: أَنْ صَلِّ لِرَبِّكَ، وَهَذَا مُحْتَمَلٌ لِأَنَّ الصَّلَاةَ بِنَفْسِهَا تَسْبِيحٌ [لأنه]^(٤) بِالْإِفْتِيحِ يَقْطَعُ وَجوهَ الْمُعَامَلَاتِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ، وَيَمْتَنِعُ نَفْسُهُ عَنْ حَوَائِجِهَا، فَيَجْعَلُهَا لِلَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ وَالْإِيمَانُ، لِأَنَّهُ بِالْإِيمَانِ تُجْعَلُ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالَى سَالِمَةً، فَصَارَتِ الصَّلَاةُ تَسْبِيحاً لِعَيْنِهَا لَا لِلتَّسْبِيحِ [المَجْعُولِ فِيهَا]. وَمَنْ حَمَلَ التَّسْبِيحَ^(٥) عَلَى الْإِسْمِ فَقَالَ: تَزَوَّ اسْمَهُ، فَذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى الْأَسْمَاءِ الدَّائِيَةِ، وَهُوَ أَلَّا يُشْرَكَ [غَيْرُهُ بِهَا]^(٦) فَيَسْمِيَهُ بِهَا.وَالْأَسْمَاءُ الدَّائِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ إِلَهِ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ. وَالْأَسْمَاءُ الصِّفَاتِيَّةُ بِأَنَّ^(٧) تَزَوَّيَ عَنْ الْمَعَانِي الَّتِي اسْتَوْجَبَ الْخَلْقُ الْوَصْفَ بِهَا^(٨) كَقَوْلِكَ: عَالِمٌ، حَكِيمٌ، رَحِيمٌ، مَجِيدٌ.فَمَنْ وَصَفَ بِالْعِلْمِ مِنَ الْخَلَائِقِ فَإِنَّمَا اسْتَوْجَبَ الْوَصْفَ بِهِ بِأَغْيَارٍ دَخَلْنَ فِيهِ، وَاسْتَوْجَبَ الْوَصْفَ بِالْحِكْمَةِ، وَالْوَصْفَ بِالْمَدْحِ بِالْأَغْيَارِ، وَاللَّهُ تَعَالَى اسْتَحَقَّ الْوَصْفَ بِهِ [بِذَاتِهِ]^(٩) لَا بِالْأَغْيَارِ، فَيَنْصَرِفُ التَّنْزِيهُ إِلَى الْأَغْيَارِ؛ إِذْ صِفَاتُهُ لَيْسَتْ^(١٠) بِأَغْيَارٍ الذَّاتِ، وَهِيَ لَا تُفَارِقُ الذَّاتَ، فَالْإِمْتِدَاحُ [الْوَاقِعُ بِالصِّفَاتِ امْتِدَاحٌ]^(١١) بِالذَّاتِ الْمَوْصُوفِ بِهَا. وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.[وَالثَّالِثُ: مَا]^(١٢) قَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: سَبِّحْ بِالْحَمْدِ وَالشَّاءِ، وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى مَا ذَكَّرْنَا مِنَ التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ؛ وَهُوَ أَنْ نَحْمَدَهُ بِالشَّاءِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ وَالتَّنْزِيهِ عَنْ مَعَانِي الْخَلْقِ.

وَمَنْ قَالَ: سَبِّحْ رَبُّكَ بِأَسْمَائِهِ فَهَذَا ظَاهِرٌ؛ وَهُوَ أَنْ نَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَسْمَاؤُهُ مَعْرُوفَةٌ لَا يُحْتَاجُ إِلَى إِظْهَارِهَا.

وقوله تعالى: ﴿الْأَعْلَى﴾ أَيُّ هُوَ أَعْلَى مِنْ أَنْ تَمَسَّهُ حَاجَةٌ أَوْ تُلْحَقَهُ أَفَةٌ، وَكَذَلِكَ هَذَا فِي الْأَكْبَرِ، وَيَكُونُ الْأَكْبَرُ وَالْأَعْلَى فِي النَّهَايَةِ مِنْ تَنْزِيهِ الْمَعَانِي الَّتِي ذَكَّرْنَا. وَهِيَ كَقَوْلِكَ: هُوَ أَحْسَنُ وَأَجْمَلُ. فَإِذَا قُلْتَ: أَحْسَنُ وَأَجْمَلُ أَرَدْتَ بِهِ النَّهَايَةَ فِي الْحَسَنِ وَالْجَمَالِ، أَوْ يَكُونُ ﴿الْأَعْلَى﴾ بِمَعْنَى الْعُلِيِّ وَالْأَكْبَرِ بِمَعْنَى الْكَبِيرِ، وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي اللَّغَةِ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سُبُّوحٌ﴾ يَحْتَمِلُ أَوْجُهًا:

أحدها: أَنْ يَكُونَ سَوَاءَهُ عَلَى مَا قَدَّرَهُ خِلَافاً لِأَفْعَالِ الْخَلْقِ لِأَنَّ الْفِعْلَ مِنَ الْخَلْقِ يَخْرُجُ مَرَّةً سَوِيًّا عَلَى مَا قَدَّرَهُ، وَمَرَّةً بِخِلَافِهِ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: نَزَهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٤) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، ساقطة من الأصل وَم. (٥) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٦) فِي نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ: بِهِ، ساقطة من الأصل وَم. (٧) الْبَاءُ ساقطة من الأصل وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهِ. (٩) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، ساقطة من الأصل وَم. (١٠) أُدْرِجَ قَبْلُهَا فِي الْأَصْلِ: مِنْ. (١١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ.

[والثاني: أن^(١)] يَكُونُ سَوَى الْخَلْقِ كُلِّهِ فِي دَلَالَةِ وَخْدَانِيَّتِهِ وَشَهَادَتِهِ؛ فَمَا مِنْ خَلْقٍ خَلَقَهُ إِلَّا إِذَا تَفَكَّرَ فِيهِ الْعَاقِلُ دَلَّتْ خَلْقَتُهُ عَلَى مَعْرِفَةِ الصَّانِعِ وَوَخْدَانِيَّةِ الرَّبِّ.

[والثالث: أَنْ يَكُونَ] ^(٢) سَوَاءً عَلَى مَا فِيهِ مَصْلَحَتُهُ وَمَنْفَعَتُهُ.

[والرابع: أَنْ يَكُونَ] ^(٣) سَوَاءً عَلَى مَا لَهُ خَلَقَ.

الْأَلَا تَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أُمِرَ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، خَلَقَهُ مِنْ وَجْهِ يَتَمَكَّنُ مِنَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ؟ فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِنَا: إِنَّهُ سَوَاءٌ عَلَى مَا لَهُ خَلَقَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

٢٤٨١

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ أَوْجَهًا:

أَحَدُهَا: هَدَاهُ إِلَى مَا أَحْرَجَهُ إِلَيْهِ، فَهَدَى الْعَبْدَ مَعِيشَتَهُ مِنْ أَيْنَ يَأْخُذُهَا، وَهَدَى كُلَّ دَابَّةٍ إِلَى رِزْقِهَا وَعَيْشِهَا، فَعَرَفْتُ كُلَّ دَابَّةٍ رِزْقَهَا.

[والثاني: أن] ^(٤) يكون قوله: ﴿فَهْدَى﴾ أي هدى به.

[وَالثَّالِثُ: أَنْ] ^(٥) تَكُونُ الْهَدَايَةُ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ؛ وَذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى الْخُصُوصِ مِنَ الْخَلْقِ الَّذِينَ لَهُمْ عَقُولٌ مُمَيِّزَةٌ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: هَدَى فِي مَنْ هَدَى.

وطلعت المعتزلة علينا بهذه الآية، فقالت: إن الله تعالى يقول: ﴿قَدْ فَهِمْنَا﴾ وأنتم تقولون: قَدَّرَ، وأضل.

ولكن هذا التحقيق راجع إليهم، لأنهم يجعلون تأويل الهداية على البيان. وإذا كان كذلك، وقد بين الله تعالى سبيل الهدى وسبيل الضلال جميعاً، فإذاً قد أضلهم حين^(٦) بين لهم سبيل الضلال على قولهم.

ثم ليس في قوله: ﴿قَدْ هَدَاكَ﴾ نفى الإضلال؛ إذ التخصيص بالذكر لا يدلُّ على نفى ذلك عما عداه، فلم يجب قطع الحكم على ما ذكره، وقد ذكر في موضع آخر المكرمين بالهدى، فقال: ﴿الْعَرَفَ﴾ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الآية [البقرة: ١٧١] فثبت أن الهدى راجع إلى الخصوص؛ فقله: ﴿قَدْ هَدَاكَ﴾ أي لخلقهم معاشهم، وهداهم وجهه أخذ المعيشة.

الآيتان ٤ و ٥

الآيتان ٤ و ٥ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أخرجَ الزَّرْعَ﴾ ﴿فَجَعَلَهُ غُثَّةً أَخضرَ﴾ ﴿ففي هذه الآياتِ^(٧) تعريفُ الربِّ الأعلى؛ كأنه يقول: الربُّ الأعلى ﴿الَّذِي خلقَ فسَوَّيَ﴾ ﴿وَالَّذِي قدَّرَ مهَلَهُ﴾ / ٦٣٧ - ب / ﴿وَالَّذِي أخرجَ الزَّرْعَ﴾.

ثم ذَكَرَ هذه الأشياءَ التي يُعْرِفُ انْقِضَاؤُهَا وِبُدْوُهَا وإِنشَاؤُهَا وإِهْلَاكُهَا مِنَ الْمَرْعَى وَغَيْرِهِ لِأَنَّ وَجْهَ الدَّلَالَةِ بِمَعْرِفَةِ الصَّانِعِ بِالأَشْيَاءِ التي يُعْرِفُ بُدْوُهَا وَانْقِضَاؤُهَا وَحُدُوثُهَا وَقَنَائُهَا أَقْرَبُ مِنْهُ بِمَعْرِفَةِ الصَّانِعِ بِالأَشْيَاءِ التي لَمْ يَشْهَدْ الْخَلْقُ بُدْوُهَا وَلَا انْقِضَاءَهَا؛ وَهِيَ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُونَ، إِذِ الْمَرْءُ لَمْ يَصِلْ إِلَى وَحْدَانِيَةِ الرَّبِّ وَبِمَعْرِفَةِ الصَّانِعِ بِالأَشْيَاءِ التي تَحْدُثُ، وَتَتَغَيَّرُ، بِأَذْنَى نَظَرٍ وَتَأْمُلٍ، وَلَا يَصِلُ إِلَى ذَلِكَ فِي مَا يَدُومُ إِلَّا بِلَطَائِفِ الْفِكْرِ وَفَضْلِ بَصَرٍ وَزِيَادَةِ تَأْمُلٍ.

وجائز أن يكونَ المَرعى، فكانَ قِوامُ هذا الخَلْقِ لَأنهُ لا بُدَّ للبَشَرِ مِنَ الدوابِّ والأنعامِ للتَّعِيشِ، والدوابُّ حَيَاتُهَا بالمَرعى، فكانَ قِوامُ الخَلْقِ في التَّحْصِيلِ بإخْراجِ المَرعى، فَذَكَرَهُمْ هَذَا لِيَسْتَأْذِيَهُمُ الشُّكْرَ.

وَإِذَا كَانَتِ الدَّوَابُّ لَمْ تَنْشَأْ لِنَفْسِهَا، وَإِنَّمَا أَنْشِئْتُ لِلْخَلْقِ لِتَتَمَتَّعُوا بِهَا. ثُمَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْشَأَ لِلدَّوَابِّ مَرْعَى، وَقَدَّرَ لَهَا أَقْوَاتَهَا، وَلَمْ يُضَيِّعْهَا، فَكَيْفَ يُضَيِّعُ هَذَا الْخَلْقَ، وَهُمْ الَّذِينَ قَصَدَ إِلَيْهِمْ مِنْ خَلْقِ هَذَا الْعَالَمِ، فَلَا يَزِرُهُمْ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ تَدْبِيرِهِ؟

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوًى﴾ قيل: الغناء اليابس الذي تحمله السيول والأمطار ﴿أَحْوًى﴾ أي أسود من قديمه. قيل: الأحوى، هو الأخضر الذي يضرب إلى السواد، وهو على التقديم والتأخير، أي جعله غناء بعد ما كان أحوى.

(١) في الأصل وم: أو. (٢) (٣) و(٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: الآية.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿سَتَقْرَأُكَ فَلَا تَنْسَ﴾ أي سنحفظ عليك ما أوحينا إليك من القرآن ﴿فَلَا تَنْسَ﴾ وفي حفظه ﷺ ما يوجه إليه دلالة رسالته لأنه لم يكن يعرف الكتابة، ولا كان يتلو الكتب، ثم كان يقرأ جميع ما يلقي إليه بمرّة واحدة مع ما كان مأموراً ألا يحرك لسانه بشيء مما يوحى إليه إلى أن يقضى إليه الوحي.

ومن كانت حالته تعدد عليه حفظ ما يلقي إليه بمرات، وإن كان ذلك لسانه، فكيف يحفظه^(١) بمرّة واحدة؟ فكان حفظه بالمرّة الواحدة نوعاً من آيات نبوته.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قال بعضهم: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ من ذلك، فإنه ينسبك ما أراد أن ينسبكه. ولكن ما أرى هذا التأويل صحيحاً؛ وذلك أن الذي أوحى إليه آية نبوته، فرسول الله ﷺ إذا أقرئ^(٢)، ثم أنسي، فلن يظن في رسالته، إن يستقرئ تلك الآية، ولا يتنهأ له أن يقرأها إذا كان قد أنسي، فيجد موضع الطعن عليه.

وقد روي في بعض الأخبار أنه أنسي، ولكنه^(٣) من أخبار الأحاد، ولا يجوز الحكم بها، لأن خبر الأحاد يوجب علم العمل به، لا يوجب علم الشهادة، وهو في موضع الشهادة ههنا.

ولكن تأويله عندنا، والله أعلم، يخرج على أوجه ثلاثة:

أحدها: أن الأنبياء ﷺ، لم يكونوا آمنين على أنفسهم بالعصية عن الرّلات التي لديها يخاف زوال ما أنعموا به، وإن ظهرت عصمتهم اليوم عندنا.

الآخرى إلى قصة إبراهيم ﷺ، عند حاجته قومه: ﴿قَالَ اتَّخِذُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام: ٨٠] وقال: ﴿وَأَجِئْتُنِي وَبِئْسَ الْأَصْنَامُ﴾؟ [إبراهيم: ٣٥] فخاف زوال ما أكرم به، وخشي أن يتلى بما ابتلي به أهل المعاصي حتى فرغ إلى الدعاء. وقال في قصة شعيب ﷺ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٨٩] وقال في قصة يوسف ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦] فثبت أنه لم يبين لهم حقيقة العصية عن الوقوع في الرّلات التي تزيل النعم.

فكذلك رسول الله ﷺ لم يأمّن عما يغضب الإنساء، بل قيل له: ﴿سَتَقْرَأُكَ فَلَا تَنْسَ﴾ ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.

الآخرى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾؟ [الزمر: ٦٥] فثبت أنهم كانوا على خوف وجل من ارتكاب ما يسلب به الوحي، وينسى.

[والثاني: أن^(٤) يكون الاستثناء راجعاً إلى إنساء^(٥) حكمه، وهو أن ينسخ حكمه حتى يترك، وينسى، ويصير كالمنسي كقوله تعالى: ﴿سُوا اللَّهُ فَنَسِيهِمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أي جعلهم كالشيء المنسي بما أنساه من رحمته، لا أن يكون هناك حقيقة نسيان، فكذلك إذا نسخ حكمه، وترك، صار كالمنسي، وإن لم يكن فيه حقيقة نسيان، فيكون النسيان منصرفاً إلى حكم التلاوة لا إلى عينها.

[والثالث: أن^(٦) يكون ﷺ، يذهب خاطره عن وهو، كأنه نسيه، وكان يعود ذلك إليه عند إحضاره ذهنته كما ترى المرّة في الشاهد يذهب عن وهو جميع ما في فاتحة الكتاب من الحروف إذا غفل رويته في أشياء أخرى حتى يصير كالناسي لها، وإن كان يعود إلى تذكرها إذا رام أن يقرأها.

فعلى هذه التأويلات يستقيم أن يوجه إليه الاستثناء، والله أعلم.

[وقوله تعالى^(٧): ﴿إِنَّ مَلَكَ الْجَهَنَّمَ وَنَارٍ﴾ أي ما يجهر بعض لبعض من الخلاقي أو ما يبر بعض عن بعض، أو يغلم ما يطلع عليه الملائكة من أعمالهم، ويغلم ما يعزب عنهم.

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يضبطه. (٢) في الأصل وم: قرأ. (٣) في الأصل وم: ولكنها. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من م، في الأصل: الإنسان. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) ساقطة من الأصل وم.

فَعَلِمَهُ فِي مَا أَسْرَ الْعَبْدُ كَعَلِمُوهُ فِي مَا أَظْهَرَ، وَجَهَرَ بِهِ. فَذَكَرْتُمْ هَذَا لِيَكُونُوا مُتَّقِظِينَ، فَلَا يُخْفُونَ^(١) وَلَا يَجْهَرُونَ إِلَّا الَّذِي يَحِقُّ عَلَيْهِمْ، إِذِ اللَّهُ تَعَالَى حَفِظَ عَلَيْهِمْ.

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿وَنُذِكرُكَ لِلنَّاسِ﴾ قالوا: وَنُيَسِّرُكَ لِلْخَيْرِ وَلِنَعْمَلِ أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَسُمِّيتِ أَعْمَالُ الْخَيْرِ يُسْرَى لَهَا تَنَقَّبُ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿نَذِيرٌ لِّمَن نَّعَى الذِّكْرَ﴾ فظاهرُ هذا يَقْتَضِي ألا يُذَكَّرَ إِلَّا مَنْ نَفَعَتْهُ الذِّكْرَى. وَلَكِنْ تَخْصِيصُ الْحَكْمِ فِي حَالٍ يُوصَفُ، لَا يُوجِبُ قَطْعَ الْحَكْمِ فِي مَا كَانَ الْحَالُ بِخِلَافِ ذَلِكَ الْوَصْفِ، بَلْ يُلْزَمُهُ أَنْ يُذَكَّرَ مَنْ نَفَعَهُ وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿نَذِيرٌ لِّمَن أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ الْآيَةُ أَمْرٌ بِالذِّكْرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ. ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِإِن نَّعَى الذِّكْرَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ ذَكَرَ فَقَدْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨] وَمَعْنَاهُ قَدْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا مَفْعُولًا، وَقَدْ نَفَعَتْ^(٢) الذِّكْرَى لِأَنَّهُ بِتَذْكِيرِهِ أَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ، وَبِهِ فَازُوا، وَبِهِ نَالُوا الدَّرَجَاتِ الْعُلْيَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَ لَنَفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

[وَالثَّانِي: أَنْ]^(٣) يَكُونُ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿نَذِيرٌ لِّمَن نَّعَى الذِّكْرَ﴾ قَسِيَانِي عَلَى أَقْوَامٍ لَا تَنْفَعُهُمُ الذِّكْرَى لَدَيْهَا؛ وَتِلْكَ حَالَةُ الْمُعَانِيَةِ لِيَأْسِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ أَي يَتَّقِظُ بِهَا مَنْ يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى أَوِ الْمَعَادَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٩٢] أَي بِالْقُرْآنِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ إِيْمَانُهُمْ بِهَذَا الْكِتَابِ لِأَنَّ فِي الْقُرْآنِ تَذْكِيرًا بِالْآخِرَةِ وَأَمْرًا بِالْإِسْتِعْدَادِ لَهَا.

فَتِلْكَ خَشْيَةٌ تُحْمِلُهُ عَلَى الْإِتْعَاطِ بِالذِّكْرِ وَالْإِنْتِفَاعِ بِهَا، وَالْخَشْيَةُ/٦٣٨ - أ/ هِيَ الْخَوْفُ اللَّازِمُ فِي الْقَلْبِ.

الآيتان ١١ و ١٢ وقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلِهَا أَتَقَى﴾ ﴿الَّذِي يَصِلُ أَثَرُ الْكِبَرِ﴾ فَأَضَافَتِ التَّجَنُّبَ مَهْنًا إِلَى الْأَشْقَى، وَهِيَ الْأَشْقَى، وَفِي مَا ذَكَرَ الْأَتَقَى أَضَافَتِ التَّجَنُّبَ إِلَى نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَسَيَجْعَلِهَا أَتَقَى﴾ ﴿الَّذِي يَزُوقُ مَالَهُ يَزَكَّى﴾ [الليل: ١٧ و ١٨] فَيَكُونُ فِي هَذَا دَلَالَةُ الْإِذْنِ بِإِضَافَةِ الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. وَفِي الْأَوَّلِ دَلَالَةٌ مَنَعَ إِضَافَةَ السُّرُورِ إِلَيْهِ، وَهَذَا لِأَنَّ إِضَافَةَ الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى تُخْرِجُ مُخْرَجَ الشُّكْرِ لَهُ، وَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ تُشْكِرَ نِعْمَتُهُ، وَلَيْسَ فِي إِضَافَةِ السُّرُورِ إِلَى آخِرِ شُكْرِهِ، فَلَمْ يَصْلُحْ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ أَي لَا تَنْقَضِي عَنْهُ أَعْمَالُ الْمَوْتِ، وَهِيَ أَلَمُهَا وَأَوْجَاعُهَا، بَلْ يَبْقَى فِي أَلَمِهَا أَبَدًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبِأَيِّهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِيَّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] أَي لَا يَقْضِي عَلَيْهِ حَتَّى يَتَخَلَّصَ مِنْ أَوْجَاعِهَا ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ فَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ أَي لَا يَرْتَفِعُ عَنْهُ أَلَمُ الْمَوْتِ، أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فَيُسْتَرِيحُ^(٤) ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ حَيَاةً يَتَلَذَّذُ بِهَا.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ أَي مَنْ أَتَى بِمَا تَزَكُّو بِهِ نَفْسَهُ، أَوْ أَتَى بِمَا تَظْهَرُ نَفْسُهُ بِهِ. وَسَنَذَكِّرُهُ^(٥) فِي سُورَةِ ﴿وَالنَّاسِ وَنَحْنُهَا﴾ مَعَ تَأْوِيلِ الْفَلَاحِ^(٦) إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الآية ١٥ وقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرِيدَ بِهِ أَنْوَاعُ الْعِبَادَاتِ لَا الصَّلَاةَ الْمَعْرُوفَةَ وَحْدَهَا، لِأَنَّ الصَّلَاةَ اسْمًا لِلدُّعَاءِ وَالنَّشَاءِ وَأَنْوَاعٍ مِنَ الْكِرَامَاتِ.

فإنَّهُ يَقُولُ: يَذْكُرُ الرَّبَّ مَا يَصِلُ إِلَى الْعِبَادَاتِ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ حُرِّمَ مِنَ الْعِبَادَاتِ، أَوْ يَكُونُ مُنْصَرِفًا إِلَى الصَّلَاةِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَخَافُونَ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَقَدْ تَعَقَّبَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٤) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَسَنَذَكِّرُهُ. (٦) فِي تَفْسِيرِ الْآيَتَيْنِ ٩ وَ ١٠.

المعروفة، فيكون قوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ أي يُصَلِّي بِتَقْدِيمِ اسْمِ الرَّبِّ، فيكون مُنْصَرَفًا إِلَى الْإِفْتِتَاحِ، فيكون حُجَّةً لَأَبِي حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ الْمُصَلِّيَّ، لَهُ أَنْ يَسْتَبِيحَ صَلَاتَهُ بِأَيِّ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى [إِنْ] ^(١) أَحَبَّ. ثم ذَكَرَ اسْمَ الرَّبِّ يَفْتَضِي الْمَعَانِي الَّتِي ذَكَرَتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾.

الآيتان ١٧ و ١٨ وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿أَيُّ يُؤْثِرُونَ حَيَاتَهَا عَلَى حَيَاةِ الْآخِرَةِ، وَيَكُونُ الْخُطَابُ مُنْصَرَفًا إِلَى الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرَةِ لَا إِلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ.﴾

ثم كانوا في الإِثَارِ مُخْتَلِفِينَ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ أَتَرَهَا فِي أَنْ يَنْتَظِرَ فِي الدُّنْيَا، وَأَعْرَضَ عَنِ النَّظَرِ فِي الْآخِرَةِ، وَجَحَدَهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ أَغْلَبَ سَعْيِهِ لِأَمْنِ الدُّنْيَا، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ [يُؤْثِرُ بَعْضُ] ^(٢) أَحْوَالِهَا عَلَى الْآخِرَةِ. وقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أَي إِثَارُ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَأَبْقَى مِنْ إِثَارِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

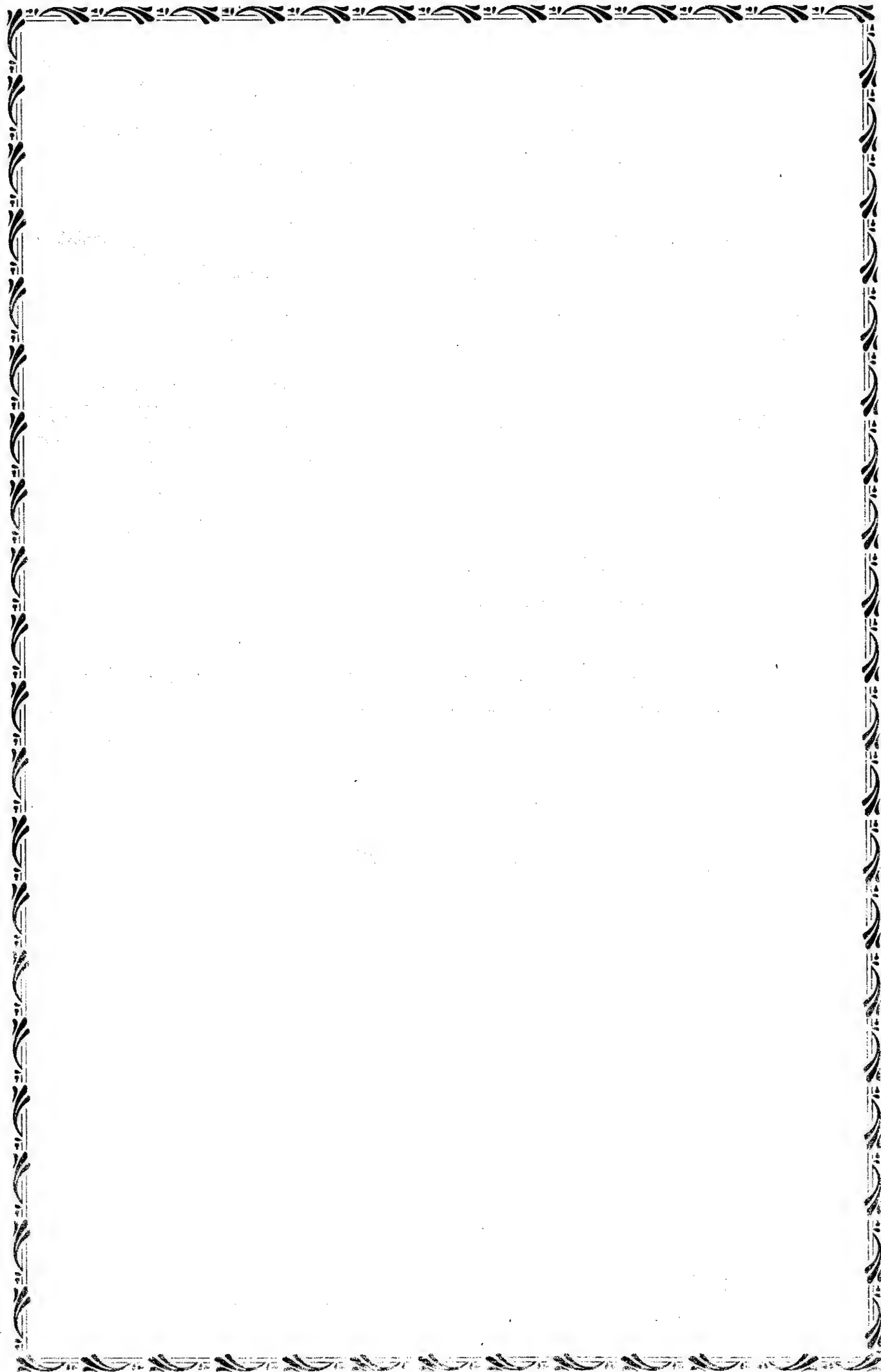
الآيتان ١٨ و ١٩ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ، أَوَّلُهُنَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ وَآخِرُهَا ^(٣) ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: السُّورَةُ كُلُّهَا أُنْزِلَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﷺ، فَإِنْ كَانَتِ السُّورَةُ كُلُّهَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى فَجَمِيعُ مَا فِي السُّورَةِ ذِكْرٌ ^(٤) بِحَقِّ الْحَاجَةِ لَهُمْ إِلَى تَعْرِفِهَا، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنسَى﴾ مَذْكُورًا بِحَقِّ الشَّاءِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَوَجْهُ الشَّاءِ مَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَعْدُونَكَ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي السُّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [الأعراف: ١٥٧] وَهُوَ يَسْتَحِقُّ [الشَّاءَ] ^(٥) وَبِهَذَا الْحَرْفِ لِمَا فِي حِفْظِهِ ﷺ، جَمِيعُ مَا يُوحَى إِلَيْهِ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ إِكْرَامًا لَهُ وَتَفْضِيلًا. فَصَلَحَ أَنْ يُنْتَهَى عَلَيْهِ بِهَذَا.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ دَلَالَةٌ أَنَّ اخْتِلَافَ الْأَلْسِنِ لَا يُغَيِّرُ الْأَشْيَاءَ عَنْ حَقَائِقِهَا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَهِيدٌ بِكَوْنِ هَذَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى بِهَذَا اللَّسَانِ، فَيَكُونُ فِيهِ حُجَّةً لَأَبِي حَنِيفَةَ فِي تَجْوِيزِ الْقِرَاءَةِ بِالْفَارْسِيَّةِ [وَاللَّهُ أَعْلَمُ] ^(٦).



(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: أغلب سعيه. (٣) في الأصل وم: إلى قوله. (٤) في الأصل: وذكر فيها، في م: ذكر فيها. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل.



سورة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١ قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ قيل معناه: قد أتاك حديث الغاشية. فإما أن يكون الإتيان سابقاً [وإما]^(١) أنه حديث الغاشية بنفس هذه السورة.

ثم في هذه الآيات ترغيب في ما تُحمد عاقبته، وتُحذّر عما يُدّم في العاقبة، وتبيّن أن العاقبة المَخمودة مُتصلة باكتسابه وكذبحه، وكذلك العاقبة المَدمومة ينالها بِعَمَلِهِ وَنَصْبِهِ.

ثم اختلف في تأويل الغاشية؛ فقول: الغاشية النارُ تُغشاهم كما قال تعالى: ﴿لَمَّ يَنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ مِثْلَ الْقَمَاحِ﴾ [الزمر: ١٦] وقال في آية أخرى: ﴿وَنَقُصِّى رُجُومَهُمْ النَّارَ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

ومنهم من يقول: الغاشية، هي الساعة، سُميت غاشية، لأنها تُغشى الصغيرَ والكبيرَ والمَخمودَ والمَدمومَ والشقي والسعيد، فَيُغْمَهُم جميعاً. وهذا التأويل أقرب لأنه ذُكر الغاشية أولاً، ثم ذُكر الجزاء بعد ذلك بقوله: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَنِيمَةٌ﴾ [عائلة ناصية] [الآيات: ٣ و ٢] وقوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الآيات: ٨ و ١٠].

الآية ٢ ثم قوله: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَنِيمَةٌ﴾ أي ذليلة، وإنما خصّ الوجه بالذكر لأنّ الحزن والسرور إذا استحكما في القلب أثرا في الوجه، فيكون في ذكر الوجه وَصْفُ الغاية التي هم عليها من الدّل.

الآية ٣ وقوله تعالى: ﴿عَائِلَةٌ نَّاصِيَةٌ﴾ قال بعضهم: [جائز أن يكون مُنصرفاً]^(٢) إلى عبادة الكفرة، وهو أنهم بقوا أبداً في النَّصَبِ والعَمَلِ في الدنيا والآخرة.

[قال بعضهم:]^(٣) جائز أن يكون نصّبها وعَمَلُها في النار، وهو أنها لم تَعْمَلْ في الدنيا، بل تَكَبَّرَتْ عن طاعة الله، فأَعْمَلَهَا، وأنصَبَهَا في الآخرة بِمُعالِجَةِ الْأَغْلَالِ والسُّلَاسِلِ في النارِ الحامية، أو عَمِلَتْ في الدنيا بالمعاصي، ونَصَبَتْ في الآخرة، فيكون فيه تبيين العمل والجزاء.

الآية ٤ وقوله تعالى: ﴿تَصَلَّى نَارًا كَاسِيَةً﴾ أي حارّة، قد أخماها الله تعالى من يوم خُلِقَتْ إلى الوقت التي تُنقَى منها.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿تُنَقَّى مِّنْ عَيْنٍ رَّابِيَةٍ﴾ قيل: الآنبي الذي قد انتهى في الحرّ غايته حتى لا حرّ لآخر فيه.

الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن رَّيْعٍ﴾ اختلف في الرّيع / ٦٣٨ - ب/ فمنهم من يقول: سُمي ضريعاً لأنهم يَتَضَرَّعون عنه، وَيَجْزَعُونَ إذا أَطْعِمُوا. ومنهم من جعل الرّيع لوناً من ألوان العذاب، لم يُبينه الله تعالى للخلق. ومنهم من قال: الرّيع اسمُ لَبِيبِ عَرَقَةِ الْعَرَبِ في ما يَبْنُهُمْ، يأكله الإبل والدواب ما دام رطباً، فإذا هاج، وبس، تركت الدواب أكله، وعاقته لِحَبِّهِ وكثرة ما عليه من الشوك، ويسمونه شبرقاً في الربيع، وإذا هاج، وخف، سمّوه ضريعاً. فذلك الثبّت في الدنيا يَعْمَلُ في إسمانِ الدابة، ويُغنيها من الجوع.

الآية ٧ فنقّى الله تعالى وجهَ الإسمانِ والإغناء، وحصل^(٤) أمره على الخُبث بقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي لَّا يَفْنَى مِن جُودٍ﴾

(١) في الأصل وم: أو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم.

وهو كقولهِ: ﴿فِي سِتْرِ مَخْشُورٍ﴾ ﴿وَكُلِّجَ مَشْهُورٍ﴾ [الواقعة: ٢٨ و ٢٩] فالسُّدْرُ اسْمُ شَجَرَةٍ ذَاتِ شَوْكٍ فِي الدُّنْيَا، فَأُنْشِئَتْ فِي الْآخِرَةِ بِلَا شَوْكٍ.

وَوَصَفَتْ خَمَرَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يَزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] وَالْخَمْرُ فِي الدُّنْيَا تَعْمَلُ فِي التَّصْدِيعِ، وَهِيَ تَنْزَفُ، فَتَقَى هَذِهِ الْأَفَاتِ، وَجَعَلَهَا لَذَّةً لِلشَّارِبِينَ، فَكَذَلِكَ الضَّرِيعُ نَقَى عَنْهُ مَا يَفْعُ بِهِ الْإِسْمَانُ وَالْإِغْنَاءُ، وَحَصَلَ أَمْرُهُ عَلَى الْخُبْتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيتان ٩ و ١٠ وقوله تعالى: ﴿وَبُيُوتُهُمْ يُوعَدُ أَزْوَاجُهُمْ﴾ ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةً﴾ أَي نَاعِمَةٌ بِمَا عَايَنَتْ مِنْ عَاقِبَةِ عَمَلِهَا الصَّالِحِ فِي الدُّنْيَا، وَرَضِيَتْ بِمَا أُوتِيَتْ جَزَاءً عَنْ سَعْيِهَا فِي الدُّنْيَا، جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي وُجُوهِ الْخَلْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آثَارَ صَنَائِعِهِمْ فِي الدُّنْيَا. فَمَنْ أَطَاعَهُ جَعَلَ عِلْمَ طَاعَتِهِ فِي وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ عَصَاهُ جَعَلَ أَثَرَهُ فِي وَجْهِهِ، يُعْرِفُ بِهِ.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ قَدِ عَلَا قَدْرُهَا، وَعَظُمَ شَأْنُهَا، فَيَكُونُ ﴿عَالِيَةٍ﴾ نَعْتًا لِلْجَنَّةِ، فَوَصَفَهَا بِالْعُلُوِّ مِنْ هَذَا الرَّجْعِ. وَالثَّانِي: يَحْتَمِلُ الْعُلُوُّ مِنْ حَيْثُ الدَّرَجَاتُ وَالْمَكَانُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَيٍّ﴾ مَا يَحِقُّ أَنْ يُلْقَى مِنَ الشَّيْءِ وَمِنْ كُلِّ مَا يُؤْتَمُّ صَاحِبُهُ، بَلْ هُمْ كَمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

ثُمَّ الَّذِي يَحُولُ الْمَرْءُ عَلَى شَيْءٍ الْمَرْءِ إِمَّا ضَمَرَ أَضْمَرَهُ فِي صَدْرِهِ [وَأَمَّا] ^(١) خُصُومَةٌ حَدَّثَتْ بَيْنَهُمَا [وَأَمَّا] ^(٢) أَفَّةٌ تَدْخُلُ فِي عَقْلِهِ بِسُكْرٍ وَمَا أَشْبَهَهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى نَفَى عَنِ الشَّرَابِ الْآفَاتِ ^(٣) بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يَزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] وَنَزَعَ الْغِلَّ عَنْ صُدُورِهِمْ، فَارْتَفَعَتْ دَوَاعِي السَّفْوَةِ كُلُّهَا، فَلَا يُسْمَعُ فِيهَا مَا يَحِقُّ أَنْ يُلْقَى بِهِ.

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أَي عَيْنُهَا جَارِيَةٌ تَأْخُذُهَا الْعَيْنُ، وَتَجْرِي عَلَى وَجْهِهَا، لَيْسَتْ كِمَيِّاءِ الدُّنْيَا فِي أَنْ بَعْضُهَا يَجْرِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَبَعْضُهَا تَحْتَهَا نَحْوَ مَاءِ الْقَنَاةِ وَمَاءِ الْبَيْرِ.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَرْفُوعَةٌ﴾ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، تَرْتَفِعُ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَإِذَا جَاءَ وَلِيُّ اللَّهِ تَعَالَى لِيَجْلِسَ عَلَيْهَا تَطَامَنَتْ لَهُ. فَإِذَا اسْتَوَى عَلَيْهَا ارْتَفَعَتْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى الْمَرْفُوعَةِ هُنَا أَنَّهَا أُتِشَتْ مَرْفُوعَةً الْقَدْرِ عِنْدَ أَهْلِهَا، فَوَعَدَ فِي الْآخِرَةِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ رَغْبَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلِإِثَارَتِهِمْ لَهَا. وَالْمَرْءُ يَرْغَبُ فِي الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا فِي الدُّنْيَا. فَعَلَى مِثْلِهِ جَرَى الْوَعْدُ فِي الْآخِرَةِ، وَكَذَلِكَ يَرْغَبُ فِي الْأَكْوَابِ وَالنَّمَارِقِ الْمَصْفُوفَةِ وَالزَّرَابِيِّ الْمَبْنُوتَةِ، فَوَعَدَ لَهُمْ مِثْلَهَا فِي الْآخِرَةِ، وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ: ﴿وَفَرُّوا مَرْفُوعَةً﴾ [الواقعة: ٣٤] وَرَفَعَهَا يَكُونُ مِنَ الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا فِي السُّرُرِ، فَوَعِدُوا بِهَا أَيْضًا فِي الْآخِرَةِ لِرَغْبَتِهِمْ ^(٤) فِيهَا فِي الدُّنْيَا.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿وَالْأَكْوَابُ مَرْفُوعَةٌ﴾ وَالْأَكْوَابُ، هِيَ الْكِزَانُ الَّتِي لَا عُرَا لَهَا؛ فَلَمَّا أَنْ يَكُونُ وَضْفًا لِكِبَرِ تِلْكَ الْأَكْوَابِ فِي أَنْفُسِهَا، حَيْثُ لَا عُرَا لَهَا كَالْحَبَابِ فِي الدُّنْيَا، [وَأَمَّا أَنْ] ^(٥) يَكُونُ فِيهِ لَهُمْ خَدَمًا وَوَلَدَانًا يَتَوَلَّوْنَ ثَقْلَهَا إِلَى أَيْنَ أَحَبُّوا، وَلَيْسَتْ لَهَا عُرَا، يَمْدُونُ أَيْدِيَهُمْ إِلَيْهَا، فَيَرْفَعُونَهَا.

الآيتان ١٥ و ١٦ وقوله تعالى: ﴿وَنَارُكَ مَصْفُوعَةٌ﴾ ﴿وَنَارُكَ مَبْنُوتَةٌ﴾ ^(٦) قِيلَ: هِيَ الْوَسَائِدُ وَضِعَتْ عَلَى الْبُسْطِ، وَكَذَلِكَ تُبْسَطُ الْوَسَائِدُ فِي الدُّنْيَا، فَرُغِبُوا بِذَلِكَ ^(٧) فِي الْآخِرَةِ.

الآيات ١٧ - ٢٠ وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِلَهِ كَيْفَ خَلَقَتْ﴾ ﴿وَلِلَّهِ السَّمَوَاتُ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ ﴿وَلِلَّهِ الْإِلْبَالُ كَيْفَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْآفَاتُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: لِرَغْبَتِهَا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ.

(٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: كَذَلِكَ.

نُصِبَتْ^(١) [وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ مُطِلَتْ] فَخَصَّ الْإِبِلَ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ جَمَلَةِ الدَّوَابِّ، وَخَصَّ السَّمَاءَ وَالْجِبَالَ وَالْأَرْضَ بِالذِّكْرِ، وَتَخْصِيصُهَا يَكُونُ لِأَحَدٍ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْإِبِلَ كَانَتْ مِنْ أَخْصَ دَوَابِّ أَهْلِ مَكَّةَ؛ عَلَيْهَا كَانُوا يُسَافِرُونَ، وَعَلَيْهَا كَانُوا يَنْقَلُونَ مَا اخْتَاجُوا إِلَيْهِ^(٢)، وَهِيَ أَيْضاً، أَعْنَى مَكَّةَ، مَشْهُوْمٌ بَيْنَ الْجِبَالِ، فَكَانَتْ لَا تُفَارِقُهُمُ الْجِبَالُ، وَكَانَتْ السَّمَاءُ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَالْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِمْ، فَخُصَّتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ بِالذِّكْرِ لِيَعْتَبِرُوا بِهَا، وَيَتَذَكَّرُوا.

[وَالثَّانِي: ^(٣) أَنَّ الْمَنَافِعَ الْمَجْعُولَةَ فِي الدَّوَابِّ كُلِّهَا تَجْتَمِعُ فِي الْإِبِلِ لِأَنَّ مَنَافِعَ الدَّوَابِّ أَنْ يُنْتَفَعَ بِظَهْرِهَا وَبِضَرْعِهَا وَبِصُوفِهَا وَبِلَحْيِهَا وَنَسْلِهَا، فَكُلُّ ذَلِكَ فِي الْإِبِلِ، فَصَارَتْ فِي الْإِبِلِ كَالْأَنْعَامِ لِلْمَنَافِعِ الْمُتَّخِذَةِ فِي الدَّوَابِّ وَالْبَرَكَاتِ الْمَعْقُودَةِ فِيهَا، وَكَذَلِكَ عِظَمُ الْمَنَافِعِ وَالْبَرَكَاتِ الْمَعْقُودَةِ فِيهَا مُتَّصِلَةٌ بِالسَّمَاءِ؛ فَبِهَا جُعِلَتْ أَرْزَاقُهُمْ، وَفِيهَا عَيْنُ الشَّمْسِ الَّتِي بِهَا صَالِحُ الْأَغْذِيَةِ، وَنَرَاهَا مُزَيَّنَةً بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ؛ فَهِيَ أَيْضاً كَالْأَمْرِ فِي الْمَنَافِعِ.

وَكَذَلِكَ الْأَرْضُ كَالْأَمْرِ فِي الْمَنَافِعِ؛ إِذْ فِيهَا مَأْوَى الْخَلْقِ، قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَ الْخَلْقِ وَأَرْزَاقَهُمْ، وَمِنْهَا يَخْرُجُ مَا يَتَّخِذُونَ مِنْهُ اللَّبَاسَ.

ثُمَّ بِالْجِبَالِ قِوَامُ الْأَرْضِ، وَلَوْلَاهَا لَكَانَتْ الْأَرْضُ تَمِيدُ بِأَهْلِهَا. فَخُصَّتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ بِالذِّكْرِ لِمَا ذَكَرْنَا.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: عَلَى الْأَمْرِ، أَيْ فَلْيَنْظُرُوا.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ عَلَى سَوَالٍ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ لِأَمْرِ اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ^(٤)، أَيْ لَوْ نَظَرُوا فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ لَكَانَ نَظَرُهُمْ فِيهَا وَتَفَكُّرُهُمْ بِهَا نَزَعَ عَنْهُمْ الْإِشْكَالَ، وَوَضَّحَ لَهُمْ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ.

وَذَكَرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مَا ذَكَرَ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ عَجِبَتْ قَرِيشٌ، وَقَالُوا^(٥): يَا مُحَمَّدُ اثْنَانَا بَآيَةٍ أَنْ مَا تَقُولُ حَقٌّ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾؟

ثُمَّ النَّظَرُ فِي رَفْعِ السَّمَوَاتِ وَالتَّفَكُّرِ فِي خَلْقِهَا ﴿يَتَذَكَّرُونَ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] وَالنَّظَرُ وَالِإِغْتِيَاظُ فِي خَلْقِ الْإِبِلِ وَنَضْبِ الْجِبَالِ وَسَطْحِ الْأَرْضِ، وَهُوَ الْبَسْطُ، مِمَّا يُوجِبُ الْقَوْلَ بِالْبَغْثِ، وَيَدْعُو إِلَى وَحْدَانِيَّةِ الرَّبِّ تَعَالَى وَإِلَى الْقَوْلِ بِإِثْبَاتِ الرِّسَالَةِ.

وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِي كَانَ يَحْمِلُ عَلَى انْكَارِ الْبَغْثِ، هُوَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْدَرُونَ الْأَشْيَاءَ بِقُوَى أَنْفُسِهِمْ/٦٣٩ - أ/ فَكَانُوا يَنْظُنُّونَ أَنَّ الْقُوَّةَ لَا تَبْلُغُ هَذَا؛ إِذْ إِحْيَاءُ الْمَوْتَى خَارِجٌ عَنْ وَسْمِهِمْ.

فَلَوْ نَظَرُوا، وَتَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَعَلِمُوا أَنَّ قُوَّةَ اللَّهِ غَيْرُ مُقَدَّرَةٍ بِقُوَى الْخَلْقِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ السَّمَوَاتِ خُلِقَتْ، وَرُفِعَتْ فِي الْهَوَاءِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، وَأَقْرَبَتْ، كَذَلِكَ لَا تَنْحَدِرُ عَنْ مَوْضِعِهَا، وَلَا تَضَعُدُ. وَلَوْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَقِرَّ فِي الْهَوَاءِ رِيشَةً حَتَّى لَا تَسْقُطَ، وَلَا تَتَصَعَّدَ، لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ. فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ تَنْبِيهُ أَنَّ قُدْرَتَهُ قُدْرَةٌ ذَاتِيَّةٌ، لَيْسَتْ بِمُسْتَفَادَةٍ.

وَكَذَلِكَ الْجِبَالُ تَرَوْنَهَا مَعَ شُمُوحِهَا وَارْتِفَاعِهَا وَصَلَابَتِهَا زُيِّنَتْ بِالْمِائَةِ وَالْأَشْجَارِ الْمُتَلَفِّفَةِ مِنْ وَجْهِ، لَوْ تَفَكَّرَ فِيهِ الْخَلَائِقُ، فَاسْتَفْرَغُوا مَجْهُودَهُمْ لَعَلِمُوا مِنْ أَيْ مَوْضِعٍ يَجْتَمِعُ الْمَاءُ، وَكَيْفَ يَنْبُتُ، وَكَيْفَ تَنْبُتُ الْأَشْجَارُ مِنْ بَيْنِ الْأَحْجَارِ، لَمْ يَصِلُوا إِلَى مَعْرِفَتِهِ، فَيَعْلَمُوا أَنَّ عِلْمَهُ لَيْسَ بِالَّذِي يُحَاطُ بِهِ، فَيَكُونُ فِي ذِكْرِ [هَذِهِ الْأَنْبَاءِ]^(٦) أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرٌ، وَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، بَلِ الْعَالَمُ كُلُّهُ تَحْتَ تَدْبِيرِهِ، يَفْعَلُ بِهِمْ مَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ بِمَا يُرِيدُ، وَأَنَّ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى خَلْقِ هَذَا قَادِرٌ عَلَى

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَى قَوْلِهِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَيْهَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ وَهُوَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: الْآيَةُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٦) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ وَم: نَبَا.

إحيائهم وبغيتهم للجزاء، وفي خلق هذه الأشياء ما يدعوهم إلى التوحيديّة لأن الله تعالى جعل منافع الأرض متصلةً بمنافع السماء؛ فالقَطَرُ ينزل من السماء إلى الأرض غير المُنْهَشِمَةِ، فَيُنْبِتُ لَهُمْ مِنَ الرِّوَانِ النباتَ رِزْقاً لَهُمْ ولأنعامهم.

فلو كان مُدَبِّرُ السماء غير مُدَبِّرِ الأرض لكان منَعَ منافع السماء عن خلق مُدَبِّرِ الأرض. فلو تَفَكَّرُوا فيها لكان يزول عنهم الإشكال، فلا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقولون: ﴿أَجْعَلِ آلَهُ إلهًا وَمِمَّا إِذْ هَذَا أَكْثَرُ﴾؟ [ص: ٥].

وقولنا: إن فيه إثبات الرسالة؛ وذلك أنهم بما أنعموا من النعم التي ذكرناها لا بد أن يستادي منهم الشكر، ولا يُعرف شكر كل شيء على الإشارة إليه، ثم يكون، فلا بد من رسول يُظْلِعُهُمْ على ذلك.

فإن قيل: كيف أمروا بالنظر في كيفية خلق هذه الأشياء، وهم لو نظروا [إلى] آخر الأبد ليغرفوا كيف خلقت هذه الأشياء لم يهتدوا إلى ذلك الوجه؟

فجوابه أنهم لو أدركوا^(٢) ذلك الوجه، وفهموه، لكان النظر فيها لا يرفع عنهم الإشكال، إذ يُقدِّرونه بأفعال الخلق التي تهتدي إليها. فارتفاع الإدراك^(٣) وخروجه عن أوهامهم هو الذي يوضح لهم المشكل، ويُرِيْلُ عنهم الشبهة، إذ به عرفوا أنه حاصل بقُدْرَةٍ من لا تُقدَّرُ قُوَّتُهُ بقُدْرَتِهِمْ وأنه خلافهم من جميع الوجوه، والله الموفق.

الآيتان ٢١ و ٢٢ وقوله تعالى: ﴿تَذَكَّرْ إِنَّمَّا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ ففي [هاتين الآيتين]^(٤) والله أعلم، أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ألا يجازيهم بصنيعهم إذا استقبلوه بما يكره من أذى يوجد منهم واستخفاف يحيي منهم، فيقول: ذكّر بالله تعالى، وذكّرهم عظم نعيمه، وذكّرهم كيف هلك مكذّبوا الرُّسُلَ؟ وكيف نجا من صدّقهم؟ وعظم أمرهم؟ ولا تُجازيهم بصنيعهم، وكل ذلك إلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ قال بعضهم: يُسَلِّطُ، قال بعضهم: يجبار. فإن أريد به الوجه الأوّل فهو ممّا يُحْتَمَلُ، ويجوز أن يُسَلِّطَ عليهم في أن يؤدّن [له]^(٥) يقتالهم وأسرهم وقهرهم ببذل الجزية. ولهذا قيل: إن هذا كان قبل سورة ﴿براءة﴾.

وإن كان تأويله لست يجبار عليهم على ما روي عن مجاهد فهذا الوجه ممّا يرد عليه التسخ، فلا يجوز أن يصير جباراً عليهم، ولا يكون قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ [الآية: ٢٣] استثناءً، ويكون مغناه لكن من تولى، وكفر ﴿يَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ أي من أعرض عن طاعة الله تعالى، وكفر بتوحيديّة الله تعالى وبكتبه ورسوله ﴿يَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾.

الآيتان ٢٣ و ٢٤ [وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ ﴿يَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾]^(٦) على التأويل الذي قيل: المُسَيِّرُ، هو المُسَلِّطُ بالسيف والأسر والقهر بالجزية التي هي صغار عليهم يكون قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ على الاستثناء، أي من أعرض عن طاعة الله، فسيُسلط عليهم بالسيف والأسر وأخذ الجزية. [وعلى ما]^(٧) قيل: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ أي أعرض، ولزم الإعراض، فيكون مُسَيِّطراً عليهم، أو تولى وقت التذكير، فسيُسيطر عليهم، وبالله النجاة.

وفي هذه الآيات^(٨) إشارة لرسول الله ﷺ بالقَطَرِ على الذين تَوَلَّوْا عن طاعة الله تعالى، وكفروا به. وفيها^(٩) آية رساليته لأنه قال هذا في وقت ضَعْفِهِ وَقِلَّةِ أَنْصَارِهِ. وكان الأمر كما قال ﷺ: ﴿نُصِرْتُ﴾^(١٠) بالرغب مسيرة شهرين [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦] وَتَنَحَّثَ لَهُ الْفَتْوحُ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ بِاللَّهِ تَعَالَى عَلِيمٌ.

الآية ٢٥ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أي مرجعهم.

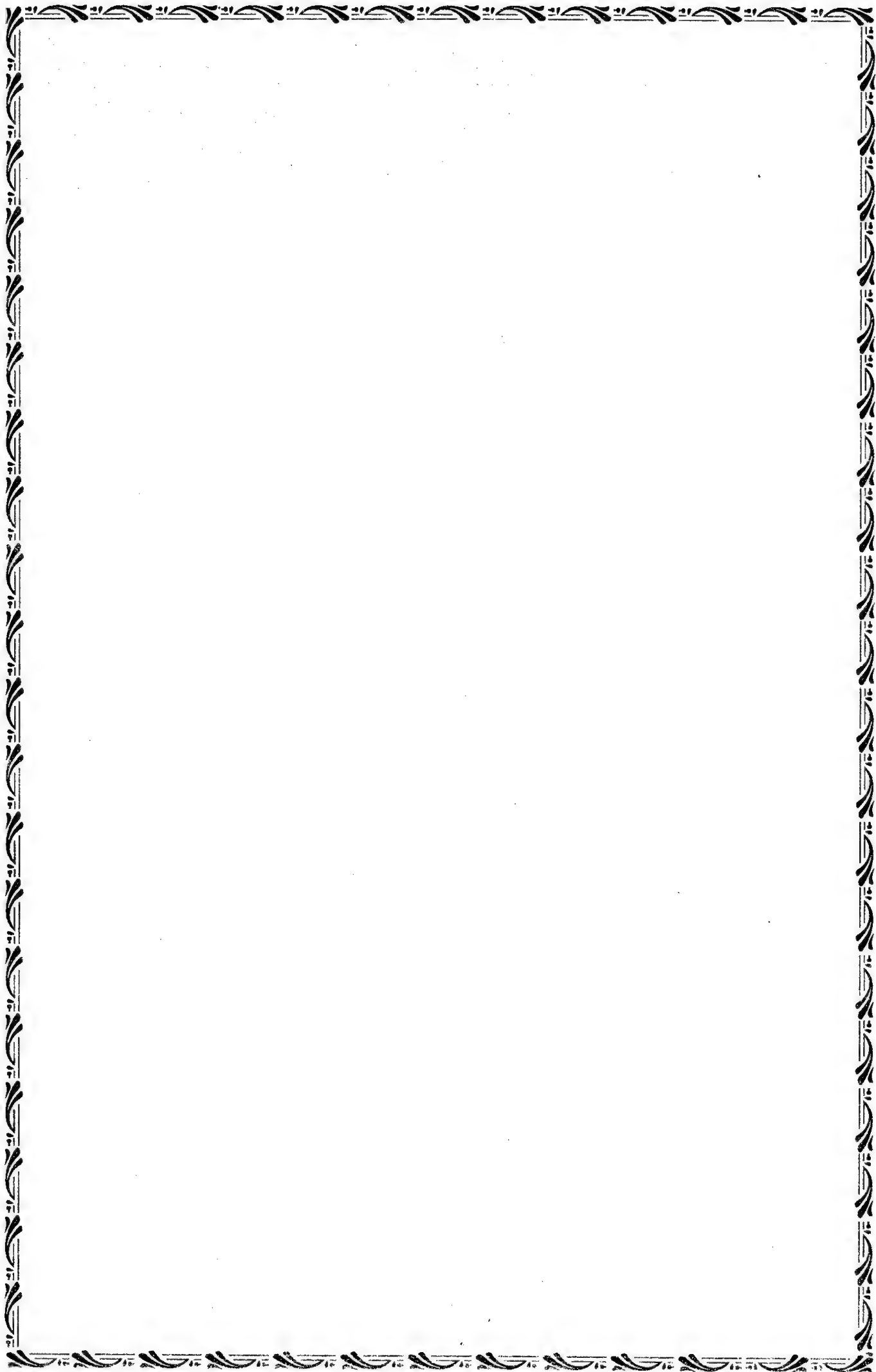
(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تداركوا. (٣) في الأصل وم: التدارك. (٤) في الأصل وم: هذه الآية. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: الآية. (٩) في الأصل وم: وفيه. (١٠) في الأصل وم: أن نصره الله تعالى.

الآية ٣٦

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنْ عَاقِبَتُنَا حَسَابُهُمْ﴾ أي من الحكمة أن نحاسبهم. وإذا كانت الحكمة تُوجب حسابهم وتعذيبهم، كان عليه أن يحاسبهم [وفي ما تركه]^(١) ترك الحكمة، وفي تركه سفة، تعالى الله عن ذلك، وبالله النجاة، ومنه التوفيق [والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله الطاهرين]^(٢).



(١) الواو ساقطة من الأصل، في م: في تركه لما في تركه. (٢) ساقطة من م.



سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات ١ - ٣ قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ﴿وَلَيْلٍ عَشِيرٍ﴾ ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ كانت العرب من عادتهم أنهم إذا استحسنوا شيئاً عظموه، وإذا عظموه أفسموا به.

ثم إن الله تعالى جعل في الحج وأوقاته لطائف من الحكمة وعجائب من التدبير؛ فمن لطيف حكمته وعجائب تدبيره أنه جعل المكان الذي يحج فيه مأمناً للخلق من وجوه لا يعرف الخلائق المعنى الذي به وقع الأمن والألف بين الخلق حتى يرغبوا جميعاً في الاجتماع هناك مع تباعضهم وتعاديتهم في ما بينهم من وجوه لا يدرى معناها.

وجعل [أهل مكة]^(١) يتقربون في البلاد آمين، وسخر^(٢) أهل الآفاق في حمل ما يقع لأهل مكة إليه حاجة من الميرة وغيرها، وجعلهم بحيث يزعمون في الإتيان إليها مع عظم ما يلزمهم من المؤن إلى أسباب مكة للحج. فثبت أن فيها معاني ولطائف، هي خارجة عن قواهم وتدبيرهم، فكان في ذكرها ما يوجب القول بالقدرة على البعث، ويزيل عنهم الشبهة في أمرهم.

فأقسم لما عظم من شأنها لمكان أنها أوقات الحج، فغاية أركان الحج تؤدي فيها، وعادة العرب أنهم يقسمون بأبائهم وأجدادهم وأصنامهم لما هي معظمة عندهم، وهذه الأشياء معظمة عندهم، فجرى القسم بها جرياً على عادتهم. ويدخل في أوقاتها الشفع والوتر والفجر؛ فقالوا: ﴿وَالشَّفْعِ﴾ / ٦٣٩ - ب/ يوم النحر لأنه اليوم العاشر من الشهر ﴿وَالْوَتْرِ﴾ هو يوم عرفة لأنه اليوم التاسع.

وجائز أن يكون أريد بالشفع والوتر ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ﴾ جملة العبادات جملة، إذ ما من عبادة إلا فيها شفع ووتر.

الآية ٤ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ﴾ أي يسري بها، وفي ذلك كناية عن الجهاد والإغارة بالليل كما يذكر في قوله: ﴿وَالْعَدِيدِ صَبَاحًا﴾ ﴿وَالْمُورِتِ قَدَحًا﴾ ﴿وَالْعِيرِ صَبَاحًا﴾ [العاديات: ١ و ٢ و ٣] فيكون هذا كله إشارة إلى جملة العبادات.

وجه القسم بالعبادات أن الله تعالى عظم أمر العبادات في قلوب الخلائق حتى تراهم جميعاً يستحسنونها، ويعظمون أمرها، وإنما يقع الاختلاف بينهم في ما هيئتها، ولا يقع^(٣) التمايز بينهم في أنفسهم، فأقسم بها. وجائز أن يكون أريد بالوتر هو الله تعالى، وأريد بالشفع الخلائق؛ إذ خلقهم أزواجاً، والله تعالى، هو الواحد بذاته، فيكون القسم بذاته وبجميع الخلق، ويحتمل أنه أريد بالشفع والوتر [الخلائق جملة، وفيهم معيان جميعاً الشفع والوتر، فيكون القسم بجميع الخلائق]^(٤).

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿مَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ يحتمل أن يكون تأويله أن وجه القسم بهذه الأشياء يعرفه ذوو الحجور، وهم ذوو الأبواب والحججا، لا أن يعرفه الجهلة.

قالوا: وموضع القسم على قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِصَادٍ﴾ [الآية: ١٤].

وجائز أن يكون وقع التنازع في ما بينهم؛ وكانوا يزعمون أن أوقات الحج، هي الليالي العشر، والشفع والوتر ليس بقسم بها.

(١) في الأصل وم: أهلها. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم: (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وقيل^(١): ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَبْرٍ﴾ أي للعاقل إذا تدبَّر فيها عَرَفَ أَنَّ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ [التي يُحْتَمَلُ أَنْ يُقَسَمَ بِهَا]^(٢) وهذه الأوقات التي تَدُلُّهُمْ عَلَى الْقَوْلِ بِالْبَعَثِ.

وقيل^(٣): إِنَّمَا أَقْسَمَ بِهِذِهِ الْأَيَّامِ وَخَطَرِهَا عِنْدَهُمْ لِمَا فِيهَا مِنْ صَلَاحٍ مَعَاشِيَهُمْ، وَيَكُونُ لَهُمْ فِيهَا سَعَةُ الْعَيْشِ: أَمَّا الْفُقَرَاءُ فَبِالْهِدَايَا^(٤) وَالْبُذْنِ، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَبِأَنْوَاعِ^(٥) الْمَكَاسِبِ وَالتَّجَارَاتِ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُعَدُّونَ^(٦) الْأَشْيَاءَ، وَيُهَيِّؤُونَهَا^(٧) مِنَ السَّنَةِ إِلَى السَّنَةِ لِلتَّجَارَةِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ [فَأَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا]^(٨) لِكُونِهَا مُعْظَمَةً عِنْدَهُمْ.

وقيل: إِنَّ مَوْضِعَ الْقِسْمِ غَيْرُ مَذْكُورٍ فِي هَذِهِ السُّورَةِ لِأَنَّهُ كَانَ عَلَى إِثْرِ حَادِثَةٍ عِنْدَهُمْ مَعْرُوفَةٌ، اسْتَغْنَى عَنْ ذِكْرِهَا لِشُهْرَتِهَا عِنْدَهُمْ، فَأَقْسَمَ إِنَّهَا لَحَقٌّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيات ٦ - ١٠ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَامَ بَاغٍ أَلَمَّادٍ ﴿٧﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَيْنَهُمَا بِلَدٌ ﴿٨﴾ وَتُحْتَفِلُ فِي الْبَلَدِ ﴿٩﴾ وَتَمُودَ الَّذِي جَاءَ بِالسِّحْرِ وَالْكَوَدِ ﴿١٠﴾ وَفَرْعُونَ ذِي الْأَرْوَاحِ ﴿١١﴾ فِي ذِكْرِ نَبِيٍّ عَادٍ وَتَمُودَ فَوَائِدُ ثَلَاثُ:

أحدها: فِي مَوْضِعِ التَّخْوِيفِ لِأَهْلِ الدِّينِ كَذَبُوا رَسُولَهُ ﷺ وَهُوَ أَنَّ أَوْلَئِكَ الْقَوْمَ كَانُوا أَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَأَعْدَاداً وَأَكْثَرَ فِي الْقُوَّةِ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا مُحَمَّدًا، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، فَلَمْ يُغْنِهِمْ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى [شَيْئاً، بَلِ اللَّهُ تَعَالَى]^(٩) انْتَقَمَ مِنْهُمْ لِرَسُولِهِ ﷺ بِمَا كَذَبُوهُمْ. فَمَا بَالُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا مُحَمَّدًا ﷺ لَا يَخَافُونَ مَقْتَهُ وَحُلُولَ النَّقْمَةِ بِتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ؟ وَلَيْسُوا بِأَكْثَرَ مِنْ أَوْلَئِكَ فِي الْعَدَدِ وَالْمَالِ وَالْقُوَّةِ.

[وَالثَّانِيَةُ: ^(١٠) أَنَّ أَوْلَئِكَ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى أَوْلَى مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَتْبَاعِهِ لِمَا بَسَطَ لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ، وَضَيَّقَ عَلَى الرُّسُولِ وَأَتْبَاعِهِ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ الَّذِينَ تَقَدَّمَتْهُمْ مِنْ مُكْذِبِي الرُّسُلِ كَانُوا أَرْفَعَ مِنْهُمْ فِي الْقُوَّةِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَعْدَادِ، وَكَانَتْ رُسُلُهُمْ فِي ضَيْقٍ مِنَ الْعَيْشِ، ثُمَّ كَانُوا هُمْ أَوْلَى بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمُكْذِبِينَ الْمُفْتَخِرِينَ بِكَثْرَةِ الْأَعْدَادِ وَالْقُوَّةِ، فَبَيَّنَ لَهُمْ هَذَا لِيَعْلَمُوا أَنَّ لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا ظَنُّوا، وَحَسِبُوا.

وَالثَّالِثَةُ^(١١): أَنَّهُمْ كَانُوا يَمْتَنِعُونَ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِرَسُولِهِ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى آثَرِهِمْ مُقَدَّمُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] فَيَكُونُ فِي ذِكْرِ هَذَا نَفْيُ التَّقْلِيدِ لِأَوْلَئِكَ لِأَنَّهُ كَانَ فِي آبَائِهِمْ مَنْ أَهْلِكَ بِتَكْذِيبِهِمْ الرُّسُلَ، وَهُمْ الْفَرَاغَةُ وَأَتْبَاعُهُمْ، وَفِيهِمْ مَنْ نَجَا، وَهُمْ الرُّسُلُ وَأَتْبَاعُهُمْ الْمُصَدِّقُونَ لَهُمْ، فَمَا بِالْهَمِّ قَلَدُوا الْمُهْلِكِينَ مِنْهُمْ دُونَ الَّذِينَ نَجَوْا؟

ثُمَّ الْآيَةُ لَمْ تُسَقِّ لِيُعْرِفَ نَسَبُ عَادٍ وَتَمُودَ وَفَرْعُونَ حَتَّى يُشْتَغَلَ بِتَعْرِفِهِ، وَإِنَّمَا سَيِّقَتْ لِلْأَوْجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَا؛ فَلَا شَيْغَالَ بِتَعْرِفِ أَسَانِبِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ نَوْعٌ مِنَ التَّكْلِيفِ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يُحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَيِ قَدْ رَأَيْتَ كَمَا يُقَالُ فِي الشَّاهِدِ: أَلَمْ تَرَ إِلَى مَا فَعَلَ فُلَانٌ، أَيِ قَدْ رَأَيْتَ، وَعَلِمْتَ، فَيُخْبِرُهُ بِصَنِيعِهِ عَلَى جِهَةِ التَّشْكِي مِنْهُ.

[وَالثَّانِي: ^(١٢) أَنَّهُ يَكُونُ هَذَا ابْتِدَاءً لِإِعْلَامِ مَنْهُ، فَيَقُولُ لَهُ: اغْلَمْ أَنَّ رَبَّكَ فَعَلَ بِعَادٍ كَذَا.

وَاخْتَلَفُوا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِرَامَ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ أَبُو عَادٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَبُو الْقَبِيلَةِ، فَتُسَبَّبَ إِلَيْهِ عَادٌ كَمَا يُقَالُ: هُوَ مِنْ بَكْرِ بْنِ وَاطِلٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ابْنَهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِرَامَ﴾ مَسَاكِينُ عَادٍ، وَقِيلَ: هُوَ اسْمُ الَّذِي بَنَى تِلْكَ الْأَمَاكِنَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَقَالَ. (٢) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَسْتَعْدُونَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَهَيِّوْنَ. (٨) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفَالِدَةٌ أُخْرَى. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالثَّلَاثُ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَحْتَمِلُ.

وقوله: ﴿ذَاتِ الْمَوَادِّ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ذَاتِ الْأَجْسَادِ الطَّوَالِ كَمَا ذُكِرَ فِي الْقِصَّةِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَاتِ الْبِنَاءِ الْمَشِيدِ الْمَرْفُوعِ فِي السَّمَاءِ كَالْعَمَدِ الطَّوَالِ، فَيَرْجِعُ إِلَى الْإِرَمِ عَلَى تَأْوِيلٍ مَنْ جَعَلَهُ عِبَارَةً عَنِ الْمَسَاكِينِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ ﴿ذَاتِ الْمَوَادِّ﴾ هِيَ الْخِيَامُ، لَهَا أَطْنَابٌ وَعَمَدٌ؛ كَانُوا أَصْحَابَ خِيَامٍ وَقِيَابٍ، وَكَانَتْ مَسَاكِينُهُمْ مَرْفُوعَةً بِالْعِمَادِ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَخْلُقْ يَثْلُهَا فِي الْبَلَدِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا وَصَفُ الْقَوْمِ بِالشَّدَّةِ وَالْقُوَّةِ وَعِظَمِ الْقُوَّةِ وَالْخَلْقَةِ وَقُضْلِ الْبَصَرِ فِي الْأُمُورِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَشْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] وقوله^(١) حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وقوله تعالى: ﴿وَكَاثُوا مُتَبَصِّرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨] فَوَصَفَهُمْ بِفَضْلِ الْبَصَرِ.

وجائز أن يكون أريد بها المساكين التي^(٢) بنوها أن ليس مثلها في البلاد.

وقوله تعالى: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الْعَصْرَ بِالْوَكَارِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: اتَّخَذُوا مِنَ الصَّخُورِ جَوَابِيَّ أَيِ قِصَاعاً كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رَجَفَانِ كَالْغُلُوبِ﴾ [سبأ: ١٣] وقال بعضهم: [نَحْتُوا]^(٣) فِي الصَّخُورِ بَيُوتاً كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا مِثْلَ بَنَاتِ الْحِجْرِ: ٨٢﴾ فَيَكُونُ فِي هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ قَوَائِمِهِمْ وَشِدَّتِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: سَمَاءُ ذَا الْأَوْتَادِ، وَالْوَتْدُ الْجَبَلُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: سُمِّيَ ذَا الْأَوْتَادِ لِأَنَّهُ كَانَتْ لَهُ أَوْتَادٌ نَصَبَهَا لِتَعْلِيْبٍ مَنْ غَضِبَ عَلَيْهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ كَانَ نَصَبَ عَلَى الطَّرِيقِ أَنْسَاءً: عَلَى كُلِّ طَرِيقٍ إِنْسَاناً رَاصِداً وَحَافِظاً. وَقِيلَ: أَيِ ذَوِ قُصُورٍ وَبُيُوتٍ مَشِيدَةٍ مَرْفُوعَةٍ تُشَبِّهُ الْجِبَالَ؛ إِذْ هِيَ أَوْتَادُ الْأَرْضِ.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾ ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ وَطَغْيَانُهُمْ فِي الْبِلَادِ، وَتَمَرَّدُهُمْ وَغُتُّوهُمْ فِيهَا.

وقوله تعالى: ﴿قَصَبَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سِوًى عَذَابٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: عَذَّبَهُمْ بِسِوْطِهِمُ الَّذِي كَانُوا يُعَذِّبُونَ الْخَلْقَ / ٦٤٠ - ١ / وَيَضْرِبُونَهُمْ [بِوَأ]^(٤).

وقال أبو بكرٍ الأصمُّ: إِنَّ السِّوْطَ لَوْنٌ مِنَ الْعَذَابِ، فَعَذَّبَ عَاداً بِلَوْنٍ مِنْهُ، وَعَذَّبَ ثَمُودَ بِلَوْنٍ مِنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلِرْمَادٍ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: يَرْضُدُ عَذَابَهُ بِأَعْدَائِهِ، يَنْتَظِرُ بِهِ أَجَالَهُمْ، ثُمَّ يُوقِعُ بِهِمُ الْعَذَابَ إِذَا أَتَى الْأَجَلَ.

وعندنا أنه يَرْضُدُ عَلَيْهِمْ مَا عَمِلُوا، فَلَا يَشْتَدُّ عَلَيْهِ، وَلَا يَغْرُبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ عَمَلِهِمْ، بَلْ يَحْفَظُ عَلَيْهِمْ مَا اسْتَرَّ مِنْهَا وَمَا ظَهَرَ.

وقيل: أَيِ لَا يُجَاوِزُهُ ظُلْمُ ظَالِمٍ، وَلَا يَقُوَّةُ هَارِبٍ. فَلَا^(٥) يَنْصَرِفُ وَهُمْ أَحَدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلِرْمَادٍ﴾ إِلَى إِثَارٍ مَكَانٍ. فَمَا بَالُ بَعْضِ النَّاسِ أَنْصَرَفَ وَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] إِلَى جَعْلِ الْعَرْشِ مَكَاناً لَهُ؟

الآيات ١٥ و ١٦ و ١٧: وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ وَالْإِنْشَاءُ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: قَوْلُ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ ﴿وَرَبِّي أَهْنَنِ﴾ خَرَجَ مُوَافِقاً لِمَا قَالَهُ الرَّبُّ تَعَالَى لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ﴾ فَخَرَجَ قَوْلُهُ: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ عَلَى الْمُوَافَقَةِ لِمَا قَالَ، وَكَذَا قَوْلُ هَذَا الْإِنْسَانِ حِينَ^(٦) ابْتُلِيَ بِتَقْيِضِهِ ﴿رَبِّي أَهْنَنِ﴾ خَرَجَ مُوَافِقاً لِمَا قَالَ: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾.

فَإِذَا كَانَ الْأَوَّلُ إِكْرَاماً كَانَ الثَّانِي^(٧) يُضَادُّهُ إِهَانَةً. أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّى الْمَالَ خَيْرًا وَالْفَقْرَ شَرًّا، وَسَمَّى الْمُطِيعَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّذِينَ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ لَمْ.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: اللَّهُ.

مُخْسِنًا وَالْعَاصِيَ مُسِيئًا، فكذا إذا استقام القول^(١) بالإكرام عندما يُنعم عليه، ويكرمه^(٢)، استقام القول^(٣) بالإمانة إذا صَيَّق عليه الرزق، ولم يكرمه^(٤)؟

فإذا كان هكذا فكيف ردَّ عليه مقالته بقوله: ﴿كَلَّا﴾ وهو في ذلك صادق؟

ولكن نحن نقول: إنَّ الردَّ بقوله: ﴿كَلَّا﴾ لم يَقَعْ على نفس القول، ولا انصرفت إليه، وإنما انصرفت إلى ما أَرَادَهُ بقوله؛ لأنَّ القائل بهذا كافرٌ بالله تعالى وباليوم الآخر، فكانه^(٥) يقول: لا بَعَثَ، ولا جَزَاءَ. وإنما يُجَاوِزُ بأعمالهم في هذه الدنيا. فَمَنْ أَحْسَنَ أَحْسَنَ إِلَيْهِ بِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ أَسَاءَ بِهِ، فيكون قوله: ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما صَوَّرَهُ في نفسه، بل الدنيا دارٌ عمل، وللجزاء بالكفر والإيمان دارُ الآخرة.

وهذا كقولهِ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَتَّبِعُكَ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وهم لم يكونوا كاذبين في شهادتهم ومقالتهم، بل كانوا صادقين أنه رسول الله وأن الله تعالى يعلم أنه رسولهُ، ولكنهم كانوا اعتقدوا تكذيبه في قلوبهم، فكانوا يُظهرون خلاف ما أضَمُّوا في أنفسهم. [والى]^(٦) ما أضَمُّوا انصرفت التكذيب لا إلى نفس القول؛ كذا هذا.

ولأنَّ أهلَ الكُفْرِ كانوا أصنافاً؛ فمنهم مَنْ كَانَ يَرَى إذا بُسِطَ عليه النعيم في الدنيا، وأُكْرِمَ، فإنما يُسِطُّ عليه لما استَوْجَبَهُ بِفِعْلِهِ، وإذا ضَيِّقَ عليه، وابتُلِيَ بالشدة، فإنما ضَيِّقَ عليه بإساءته وبما كَسَبَتْ يَدَاهُ، ومنهم مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ بِمَنْزِلَةٍ، وَأَنَّهُ اسْتَوْجَبَ الْإِنْعَامَ، وَأَنَّهُ إِذَا ابْتُلِيَ بِضِيقِ الْعِيشِ، وَأَضَاقَتْهُ شِدَّةٌ [فإنما]^(٧) أصَابَهُ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَتَشَاءَمُ بِهِ. أَلَا يَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ تُؤْنِسَهُمُ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَلْ مِنْ عِنْدِكَ؟﴾ [النساء: ٧٨]. وعلى هذا كَانَ ظَنُّ فِرْعَوْنَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَلِنْ تُؤْتِيَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١].

فقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ أي أكرمَهُ في نفسه بأنَّ أَصَحَّ جِسْمَهُ، أو جَعَلَهُ رَئِيسَ قَوْمِهِ ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ أي بَسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْهِ ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ فكانَ يَنْظُرُ بِذَلِكَ. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ﴾ أي إذا اخْتَبَرَهُ، فَضَيِّقَ عَلَيْهِ وَزَقَّهُ يَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ فكانَ يُظْهِرُ بِذَلِكَ الْجَزَعَ. والله تعالى اخْتَبَرَهُ بِالنِّعَمِ لِيَسْتَأْدِيَ بِمَا أَنْعَمَ [شُكْرَهُ]^(٨) وابتَلَاهُ بِضِيقِ الْعِيشِ لِيَصْبِرَ، لَا لِيَجْزَعَ؛ فَلَا شُكْرَ هَذَا النَّعْمِ، بَلْ يَطَّرُ، وَلَا صَبْرَ هَذَا عَلَى الشَّدَائِدِ، بَلْ جَزَعَ. فجائز أن يكون قوله: ﴿كَلَّا﴾ مُنْصَرِفًا إِلَى هَذَا رَدًّا لِإِغْتِيَادِهِمْ وَصْنِيعِهِمْ، وهو أَنَّهُ لَمْ يُكْرِمَ، وَلَمْ يُنْعِمَ لِيَنْظُرَ بِهِ، وَلَا ضَيِّقَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ لِيَجْزَعَ، بَلْ إِنَّمَا أَنْعَمَ لِيَشْكُرَ، وَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ لِيَصْبِرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ فجائز أنهم كانوا لَا يُكْرِمُونَهُ^(٩)، وَيُهَيِّنُونَهُ مَعَ ذَلِكَ، لِأَنَّ إِكْرَامَ الْيَتِيمِ لَيْسَ بِوَاجِبٍ، أَمَّا أَهَانَتُهُ فَحَرَامٌ^(١٠).

وجائز أَلَّا تُثَبِّتَ الإِهَانَةُ فِيهِمْ مَعَ نَفْيِ الْإِكْرَامِ، لِأَنَّ الْإِيجَابَ إِذَا دُكِرَ فِي مُضَادَّةِ الْإِيجَابِ اقْتَضَى ذَلِكَ إِبْثَاتَ الْمُقَابَلَةِ، وَإِذَا دُكِرَ الْإِيجَابُ فِي مُضَادَّةِ النَّفْيِ امْتَكَنَ أَنْ تُثَبِّتَ فِيهِ الْمُقَابَلَةُ، وَامْتَكَنَ أَلَّا تُثَبِّتَ.

أَلَّا تَرَى إِذَا قِيلَ: فَلَانْ جَائِزٌ كَانَ إِبْثَاتُ الْمُقَابَلَةِ، هُوَ نَفْيُ الْعَدْلِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: جَائِزٌ إِبْثَاتُ الْجَوْرِ، فَكَانَ فِي ذِكْرِهِ نَفْيُ الْعَدَالَةِ، وَفِيهِ إِبْثَاتُ الْمُقَابَلَةِ، وَإِذَا قُلْتُ: لَيْسَ بِعَدْلٍ لَمْ يَكُنْ فِيهِ تَحْقِيقُ لِإِبْثَاتِ الْمُقَابَلَةِ أَيْضاً؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا رِيحَتُ بِمُحَدِّثِهِمْ﴾ [البقرة: ١٦] فَكَانَ فِي نَفْيِ الرِّيحِ إِبْثَاتُ الْمُقَابَلَةِ فِي أَنَّهَا خَسِرَتْ.

ثم إكْرَامُ الْيَتِيمِ ههنا يَحْتَمِلُ أَوْجُهًا ثَلَاثَةً.

(١) في الأصل وم: القوم. (٢) في الأصل وم: ويكرم. (٣) في م، في الأصل: القوم. (٤) في الأصل وم: يكرم. (٥) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قال. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يكرمون. (١٠) الفاء ساقطة من الأصل وم.

أخذها: أن يكرمه في أن يحفظ عليه ماله حتى لا يضيعه، ويكرمه في نفسه، وهو أن يتعاهد أحواله عن أن يَدْخُلَ فيها خللٌ.

والوجه الثاني: أن يكرمه، فَيَعْلَمَهُ آدابَ الشريعة، ويرشده إليها.

والوجه الثالث: أن يكرمه، فَيَنْدُلَ لَهُ مِنْ مَالِهِ قَدْرَ حاجته إليه، ويصطنع إليه المعروف، فيكون التعبير ههنا في إعالة اليتيم أن يترك الإكرام الذي هو من باب حفظ ماله، فيكون تضييعاً، والله أعلم.

الآية ١٨ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْضَوْا عَلَىٰ طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾ أي لا تأخضوا غيركم^(١) على إطعام المسكين.

وجائز أن يحضوا، ولا يُلُوا بأنفسهم الإطعام، ويَحْتَمِلُ ألا يُلُوا ذلك بأنفسهم، ويَحْضُونَ غيرهم.

وفي هذه الآية ترغيب المسلمين بإكرام اليتيم وتعاهد ماله، وتبيين أن عليهم أن يطعموا بأنفسهم، وأن يحضوا الأغنياء على إطعام المسكين، والله أعلم.

الآية ١٩ وقوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَخْلًا لَّمَّا﴾ فاللُّم الجمع؛ يقال: لَمَّ المالُ أن جَمَعَ، فكانه يقول: يَجْمَعُونَ ما لم يرثوه بأنفسهم، وذلك نصيب الأيتام إلى ما يرثوا من أنصبايهم، فيأكلونه^(٢) جميعاً وقال بعضهم: ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَخْلًا لَّمَّا﴾ أي شديداً.

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿وَيَحْضُونَ الثَّالِثَ حَبًّا جَمًّا﴾ قال أبو بكر: أي تحبونه حباً واثياً وافرأ، ليس فيه قصور، فيكون فيه إخبار عن غاية حبهم الدنيا وشدة حرصهم عليها.

وجائز أن يكون على التقديم والتأخير، وهو أنهم يحبون المالَ الجَمَّ حباً أي^(٣) المالَ الكثير.

الآية ٢١ وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ [حرف]^(٤) رذع وتنبؤ؛ فمنهم من رد هذا الرذع إلى قوله تعالى: ﴿رَبِّتْ أَكْرَمَ﴾ و ﴿رَبِّتْ أَكْثَرَ﴾ / ٦٤٠ - ب/ فكانه يقول: كلا، ليست هذه الدار دار جزاء، فتكون الإهانة والإكرام يحق الجزاء، وإنما هي دارٌ ومحنةٌ وإبتلاءٌ.

ومنهم من حملهُ على الإبتداء، فقال: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ دكاً بمعنى حقاً، يُخْبِرُ عن مَدَمَّةٍ مَنْ تَرَكَ الإكرام لليتيم، وترك إطعام المسكين والحض عليه، إذا دُكَّتِ الأرضُ، أي دُقَّتْ، وكُسِرَتْ، وذلك يوم الحساب والبعث.

الآية ٢٢ وقوله تعالى: ﴿وَيَجَاءُ رُبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ يَحْتَمِلُ أوجهاً:

أخذها: أن يكون معناه: وجاء ربك بالملك، إذ يجوز أن تستعمل الواو مكان الباء؛ ألا تَرَى إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَتَّبِعُونَ لَنَا لَنْ تَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا﴾ [المائدة: ٢٤] ومعناه: برئكَ. وإذا حِيلَ على هذا ارتفعت الشبهة، واتضح الأمر، لأنه لو كان قال: وجاء ربك بالملك لكان لا ينصرف وهم أحد إلى الانتقال من مكان إلى مكان، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ومعناه، والله أعلم، يظلل من الغمام لأنه قال في موضع آخر: ﴿وَيَوْمَ تَشْقَى الْأَسْمَاءُ وَيَنْتَفِعُ﴾ [الفرقان: ٢٥] فَبَيَّنْتُ أَنَّ معناه ما ذكرنا. وإذا ثبت هذا ارتفع الريب والإشكال.

[والثاني]^(٥): أن معنى قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أي أمر الله، دليله ما ذكر في سورة النحل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَكُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣] فذكر مكان قوله: ﴿وَيَجَاءُ رَبُّكَ﴾ أمر ربك.

[والثالث]^(٦): أن يكون قوله: ﴿وَيَجَاءُ رَبُّكَ﴾ أي جاء وغدو وعيده، فنسب المجيء إلى الله تعالى، وإن لم يكن ذلك وصفاً لأنه لا يجوز أن تُنسب آثار الأفعال إلى الله تعالى نسبة حقيقة الفعل، وإن لم يوصف به كما قال الله تعالى:

(١) في الأصل وم: غيرهم. (٢) في الأصل وم: فيأكلون. (٣) من م، في الأصل: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ومنهم من ذكر. (٦) في الأصل وم: ويحتمل.

﴿فَتَنَفَّسْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢] فأُضيفَ التَّنَفُّعُ إليه، وإن لم يوصف بأنه نافع، وقال: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ بِهَا أَنْ أَلْفَسْنَا بِالْأَنفُسِ﴾ [المائدة: ٤٥] فأُضيفَتِ الكتابةُ إليه، وإن لم يوصف بأنه كاتبٌ لما ظَهَرَ مِنْ آثَارِ فِعْلِهِ. ويُقال: المطرُ رحمةُ الله أي آثارُ رحمته، لا أن تكونَ المطرُ صفةً له.

[والرابع: ما] ^(١) يُقال: الصلاةُ أمرُ الله والزكاةُ أمرُ الله أي بأمرِ الله يُصَلَّى، وبأمرِهِ يُزَكَّى، لا أن يكونا وصفين، وجهُهُ أن يكونَ مَعْنَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَجَاءَ رَيْكُ﴾ أي جاءَ الوقتُ الذي به صارَ إنشاءُ هذا العالمِ حكمةً؛ إذ لولا البعثُ للجزاءِ لكانَ إنشاءُ هذا العالمِ ثم الإهلاكُ خارجاً مَخْرَجَ الْعَبَثِ لِمَا وَصَفْنَاهُ مِنْ قَبْلِ لِقَوْلِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

فَقَبْتُ أَنْ ^(٢) خَلَقَهُ إِنَّمَا صَارَ حكمةً بالبعث؛ قال تعالى: ﴿لَمِنَ الْمَلَائِكَةِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَحِيدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقد كانَ الْمَلَكُ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ اليومِ، ولكن ملكه لكلِّ أَحَدٍ يَتَّبِعُ فِي ذَلِكَ الوقتِ، وقال: ﴿وَيَرْزُقُوا لَكُمْ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] وقد كانَ كلُّ شيءٍ لَهُ بارزاً. ولكن معناه أنه أتى الوقتُ الذي لَهُ بَرَزَ الْخَلْقُ.

ثم الأصلُ في كلِّ ما أُضيفَ إلى الله تعالى أن تَنْظُرَ إلى ما يَلِيقُ أن يوصَلَ بالمضافِ إليه، فتَصِلُهُ بِهِ، وتَجْعَلُهُ مُضْمَرًا فِيهِ. قال الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِمُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] لم ^(٣) يُفْهَمْ إثباتُ الحضورِ، بل ^(٤) كانَ معناه أن عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِهِمْ، وهو مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ، وقال: ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ أَنَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٢] لم يُفْهَمْ بِهِ الْإِنْتِقَالُ، بل كانَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ جَاءَهُمْ بِأَسْءُ، وجاءَ لأوليائِهِ نَصْرُهُ، وقال: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَفْ أَفَّ اللَّهُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦] لم ^(٥) يُفْهَمْ بهذا الإتيانُ ما فُهِمَ مِنَ الْإِتْيَانِ الذي يُضَافُ إلى الْخَلْقِ، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَصَبَّرُوا اللَّهُ يَصْرِفْكُمْ﴾ [محمد: ٧] بل ^(٦) كانَ مَعْنَاهُ: إِنْ تَصَبَّرُوا دِينَ اللَّهِ، لا أن الله تعالى يَلْحَقُهُ ضَعْفٌ يَحْتَاجُ إلى مَنْ يَقْوِيهِ، وقال الله تعالى: ﴿وَمَعِزُّكُمْ اللَّهُ تَنفُسُكُمْ﴾ [آل عمران: ٢٨] كانَ ^(٧) مَعْنَاهُ: أَنَّهُ يُحَذِّرُكُمْ عَذَابَهُ لا أن أريدَ بِهِ تحقيقُ النَّفْسِ، ومثلُ هذا في القرآنِ كثيرٌ، لا ^(٨) يُخَصِّصِي.

فَقَبْتُ أَنَّ محلَّ الإضافاتِ ما ذَكَرْنَا. فلذلك حُوِّلَ على الْوَعْدِ وَالْوَعْدِ أو على الوقتِ الذي صارَ خَلْقُ الْعَالَمِ حكمةً أو على ما صَلَحَ فِيهِ مِنَ الْإِضْمَارِ.

ومما يَدُلُّ على أَنَّهُ لَا يُفْهَمُ بِالْمَجِيءِ مَعْنَى وَاحِدٍ، بل يَقْتَضِي أَنَّ الْمَجِيءَ إِذَا أُضِفَ إلى الْأَعْرَاضِ فُهِمَ بِهِ غَيْرُ الذي يُفْهَمُ بِهِ إِذَا أُضِفَ إلى الْأَجْسَامِ؛ فإنه إِذَا أُضِفَ إلى الْأَعْرَاضِ أُرِيدَ بِهِ الظُّهُورُ. قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] ومَعْنَاهُ: إِذَا ظَهَرَ نَصْرُهُ، ولم يُرَدَّ بِهِ الْإِنْتِقَالُ، ولو كانَ مُضَافاً إلى الْجِسْمِ فُهِمَ مِنْهُ الْإِنْتِقَالُ مِنْ مَوْضِعٍ إلى مَوْضِعٍ، وقال الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١] ومَعْنَاهُ: ظَهَرَ الْحَقُّ، وَاضْمَحَلَّ الْبَاطِلُ، لا أن كانَ ^(٩) الْحَقُّ فِي مَكَانٍ، فَقَبِلَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ.

فَقَبْتُ أَنَّ الْمَجِيءَ إِذَا أُضِفَ إلى شيءٍ، وَجَبَ أَنْ يُوَصَلَ بِهِ ما يَلِيقُ بِهِ لا أن يُفْهَمَ بِهِ كُلُّهُ مَعْنَى وَاحِدٍ.

ورُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ حِكَايَةً عَنِ اللَّهِ تَعَالَى: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَيْبَرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي سَاعِيًا أَتَيْتُهُ هَرُولًا» [البخاري ٧٤٠٥ ومسلم ٢٦٧٥] لم يُفْهَمَ مِنْ هَذَا التَّقَرُّبِ ما يُفْهَمُ بِهِ إِذَا أُضِفَ إلى الْخَلْقِ، وكانَ مَعْنَاهُ: مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِالطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بِالتَّرْفِيقِ وَالنَّصْرِ أو بِالْإِحْسَانِ وَالْإِنْعَامِ.

وقال موسى، على نَبِيِّنَا ﷺ: «يَا رَبِّ أَقْرَبُ فَأَنَا جِئِكَ أَمْ ^(١٠) بَعِيدٌ فَأَنَا دَيْكَ؟» ولم يُرَدَّ بِهِ الْمَكَانُ، وإنما أرادَ بقوله: أَرْضِ أَنْتَ عَنِي فَأَنَا جِئِكَ أَمْ ^(١١) سَاخَطَ عَلَيَّ فَأَنَا دَيْكَ فِي أَنْ أُغْلِنَ بِالْبُكَاءِ وَالتَّضَرُّعِ؟

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: أنه. (٣) في الأصل وم: ولم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: ولم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: وكان. (٨) في الأصل وم: من أن. (٩) في الأصل وم: يكون. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: أو.

ثم الأصل في المَجِيءِ المُضَافِ إلى الله تعالى أَنْ يُتَوَقَّفَ فِيهِ، وَلَا يُقَطَّعَ الْحُكْمُ عَلَى شَيْءٍ لِمَا ذَكَّرْنَا أَنَّ الْمَجِيءَ لَيْسَ يُرَادُ بِهِ [وَجْهٌ وَاحِدًا] ^(١) لَأَنَّهُ إِذَا أُضِيفَ إِلَى الْأَعْرَاضِ أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ الَّذِي يُرَادُ بِهِ إِذَا أُضِيفَ إِلَى الْأَجْسَامِ وَالْأَشْخَاصِ، وَاللَّهُ تَعَالَى ^(٢) لَا يَوْصَفُ بِالْجَسَمِيَّةِ حَتَّى يُفْهَمَ مِنْ مَجِيئِهِ مَا يُفْهَمُ مِنْ مَجِيءِ الْأَجْسَامِ، وَلَا يَوْصَفُ بِالْعَرَضِ لِيُرَادَ بِهِ مَا يُرَادُ مِنْ مَجِيءِ الْأَعْرَاضِ؛ فَحَقُّهُ الْوَقْفُ فِي تَفْسِيرِهِ مَعَ اعْتِقَادِ مَا ثَبَتَ بِالتَّنْزِيلِ مِنْ غَيْرِ نِسْبَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ يُونُسَ مَجِيئُهُ﴾ قيل فيه من أوجوه:

أحدها: أنها أظْهَرَتْ، وَبُرْزَتْ لِأَهْلِهَا عَلَى مَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَبُرْزَتْ الْجَنِّمُ لِلْقَائِمِينَ﴾ [الشعراء: ٩١] لَا أَنَّهَا كَانَتْ فِي مَكَانٍ تَقْبَلَتْ عَنْهُ، وَقَدْ يُرَادُ بِالْمَجِيءِ الظُّهُورُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] وَمَعْنَاهُ: ظَهَرَ لَكُمْ لَا أَنَّ كَانَ فِي مَكَانٍ آخَرَ [جاء منه] ^(٣) إِلَيْهِمْ.

[والثاني: ما] ^(٤) قَالَ بَعْضُهُمْ: جِيءَ بِأَهْلِهَا إِلَيْهَا، أَيْ إِلَى جَهَنَّمَ، فَتَكُونُ حَقِيقَةُ الْمَجِيءِ مِنَ الْأَهْلِ، ثُمَّ نُسِبَ إِلَيْهَا لِأَنَّهُمْ إِذَا أَتَوْهَا فَقَدْ أَتَتْهُمْ هِيَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ﴾ ٦٤١ - أ / مَلَأَ [مريم: ٦١] فَنُسِبَ الْإِتْيَانُ إِلَى الَّذِي يَأْتِيهِ الْوَعْدُ، فَيَكُونُ الْوَعْدُ، هُوَ الَّذِي يَأْتِي أَهْلَهُ.

[والثالث: ما] ^(٥) قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَجَاءَتْ يُونُسَ مَجِيئُهُ﴾ أَيْ يَوْمِيذُ تَجِيءِ زَفَرَتُهَا وَشَهِيقُهَا وَتَغَيُّطُهَا عَلَى أَهْلِهَا لَا أَنَّ تَغَيَّرَ عَنْ مَكَانِهَا.

ومِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى حَقِيقَةِ الْمَجِيءِ، فَذَكَرَ أَنَّهُ يُؤْتَى بِهَا، وَلَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زَمَامٍ، عَلَى كُلِّ زَمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَأَنَّ لَهُ الذِّكْرَى﴾ يَخْتَوِيلُ أَنْ يَنْذَكُرَ إِشْفَاقَ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ وَنَصِيحَتَهُمْ لَهُ ^(٦)، فَيَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ فِي مَا تَوَقَّعَ بِهِمْ مِنَ الظُّنُونِ الْفَاسِدَةِ مُبْطَلًا، فَيَكُونُ بِذِكْرِهِ ذَلِكَ [مُصَدِّقًا لِلرَّسْلِ] ^(٧) ﴿وَأَنَّ لَهُ الذِّكْرَى﴾ أَيْ لَا يَنْفَعُهُ تَصْدِيقُهُ لِيَاثِمِهِمْ، إِذْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ فِي الدُّنْيَا، أَوْ ﴿يَنْذِكُرُ﴾ فِي أَنْ يَتَلَهَّفَ عَلَى مَا قَرَّطَ فِي جَنْبِ اللَّهِ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقْقِهِ وَالتَّضْيِيعِ الَّذِي سَبَقَ مِنْهُ حِينَ ^(٨) لَمْ يَشْكُرْ نِعْمَهُ، وَلَمْ يُوجِّهْ إِلَيْهِ الْعِبَادَةَ، فَيَكُونُ تَلَهُّفُهُ ذَلِكَ إِيْمَانًا، وَلَكِنْ لَا يَنْفَعُهُ تَلَهُّفُهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لِأَنَّ تِلْكَ الدَّارَ لَيْسَتْ بِدَارِ امْتِحَانٍ، بَلْ دَارُ جَزَاءٍ.

وَالَّذِي يَخْمَلُهُ عَلَى التَّضَدِيقِ مُشَاهَدَتُهُ الْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ، وَعِنْدَ الْمُشَاهَدَةِ تَرْتَفِعُ الْمُحَنَّةُ، وَيَكُونُ إِيْمَانُهُ حَيْثُئِذٍ ^(٩) ضَرُورِيًّا لَا حَقِيقَةً، فَذَلِكَ لَا يَنْفَعُهُ، وَإِنَّمَا تَنْفَعُهُ الطَّاعَةُ وَقَدْ مُلِكَهُ نَفْسُهُ.

فَإِذَا خَرَجَ مُلْكُ نَفْسِهِ مِنْ يَدِهِ لَمْ يَقَعْ لَهُ بِالْإِيْمَانِ جَذْوَى.

وقال بعضهم: ﴿يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ﴾ أَيْ يَتَوَقَّظُ، وَأَتَى لَهُ الْإِنْتِفَاعُ بِالْمَوْعِظَةِ.

ثم فِي هَذَا التَّذَكُّرِ بَيَانٌ لُطْفٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، يُعْطِيهِ [إِيَاءً] ^(١٠) حَتَّى يَنْذَكُرَ، وَإِلَّا فَالْإِنْسَانُ يَذْهَبُ عَلَيْهِ مَا قَدْ كَتَبَ فِي وَقْتٍ إِذَا أَتَى عَلَيْهِ حِينَ، حَتَّى لَوْ أَرَادَ أَنْ يَنْذَكُرَ وَقْتُ كِتَابَتِهِ، لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ.

ثم اللَّهُ تَعَالَى يَذْكُرُهُ فِي الْآخِرَةِ جَمِيعَ مَا سَبَقَ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا، فَيَنْذَكُرُ ذَلِكَ.

[وقوله تعالى] ^(١١): ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِيَاكُ﴾ أَيْ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِنَفْسِي حَيَاةً، تَسْلَمُ لِي، أَوْ حَيَاةً تَبْقَى لِي لَذَّتُهَا. فَهَذَا هُوَ تَلَهُّفُهُ وَتَذَكُّرُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ يَتَلَهَّفُ عَلَى مَا فَاتَهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ، وَيَنْدُمُ عَلَى اِزْتِكَاكِهِ الْمَعَاصِي وَكُفْرَانِهِ نِعَمَ اللَّهِ تَعَالَى.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجْهًا وَاحِدًا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَعْلَمُ، فِي م: أَعْلَمُ، وَاللَّهُ تَعَالَى. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُمْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: تَصْدِيقًا مِنَ الرَّسْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَلِكَ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ ^(١): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ حياةٌ تَسْلُمُ لي، فَاثْلَذُّ بِهَا، هُوَ أَنَّ الْكَافِرَ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَيَاةٌ فِي الظَّاهِرِ فَإِنَّمَا حَيَاتُهُ لِلتَّعْذِيبِ، فَتِلْكَ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَتْ بِحَيَاةٍ، بَلْ هِيَ هَلَاكٌ.

أَلَا تَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَخَذَ فِي النَّزْعِ، فَهُوَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ حَيٌّ بَعْدُ؟ لَكِنَّ حَيَاتَهُ لِلْهَلَاكِ، فَلَيْسَتْ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ حَيَاةً، لَكِنَّمَا لِلْهَلَاكِ ^(٢) فَعَلَى ذَلِكَ حَيَاةُ الْمُخَلَّدِ فِي النَّارِ.

الآيتان ٢٥ و ٢٦ وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ وَلَا يُؤْتِي وَفَاةً أَحَدًا ﴿قُرِئَتْ [هَاتَانِ الْآيَتَانِ] ^(٣) عَلَى نَصَبِ الدَّالِ وَالثَّاءِ ^(٤) وَعَلَى خَفْضِهِمَا ^(٥).

فَمَنْ قَرَأَهُمَا عَلَى الْخَفْضِ فَهُوَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْعَذَابَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ اشْتَدَّ مِنَ الْمُلُوكِ عَلَى الْإِنْسَانِ، فَهُوَ لَا يَبْلُغُ عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَعْدَائِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَإِنْ خَفَّ.

[وَالثَّانِي] ^(٦): ﴿لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ أَي لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ فِي الدُّنْيَا أَنْ يُعَذَّبَ أَحَدًا بِعَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ النَّارُ كَمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تُعَذَّبُوا أَحَدًا بِعَذَابِ اللَّهِ» (البخاري ٣٠١٧).

فَإِنْ كَانَ عَلَى النَّصَبِ فَهُوَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ أَيْضًا:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ التَّأْوِيلُ مُنْصَرِفًا إِلَى صِنْفٍ مِنَ الْكَفَرَةِ، وَهُمْ الَّذِينَ بَلَّغُوا فِي الْكُفْرِ أَعْلَى مَرْتَبَةٍ، فَلَا يُعَذَّبُ مَنْ دُونَهُمْ بِعَذَابِهِمْ.

وَالثَّانِي: لَا يُعَذَّبُ أَحَدٌ مَكَانَ أَحَدٍ كَمَا يَقَعُهُ مَلُوكُ الدُّنْيَا فِي أَنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ الْوَالِدَ مَكَانَ الْوَلَدِ، وَيُعَذَّبُونَ الْمُتَصَلِّيَ الَّذِينَ اسْتَوْجَبُوا الْعَذَابَ.

الآيات ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً] ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ ^(٧) فَاَلْمُطْمَئِنَّةُ، هِيَ السَّاكِنَةُ الَّتِي لَا تَرْتَابُ، وَلَا تَضْطَرِبُ طَمَأْنِينَتُهَا بِوَعْدِ اللَّهِ وَوَعِيدِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَتَوْحِيدِهِ.

ثُمَّ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي أَمْرِ الدُّنْيَا، فَيَكُونُ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ أَيِ ارْجِعِي إِلَىٰ مَا أَمَرَكَ رَبُّكِ رَاضِيَةً بِوَعْدِ اللَّهِ وَوَعِيدِهِ، فَتَكُونُ رَاضِيَةً بِالَّذِي وَعَدَهَا فِي الْآخِرَةِ جَزَاءً لِكُذِّبِهَا وَسُغْيِهَا فِي الدُّنْيَا مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أَيِ عِبَادِي الصَّالِحِينَ ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ أَيِ ادْخُلِي فِي مَا تُسْتَوْجَبُ بِهِ الْجَنَّةُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي الْآخِرَةِ؛ وَهُوَ [أَنْ] ^(٨) يَقَالُ لِلنَّفْسِ الَّتِي اطْمَأَنَّتْ فِي الدُّنْيَا بِوَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَعِيدِهِ، وَعَمِلَتْ بِطَاعَتِهِ: ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

وَقِيلَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ بِالدُّنْيَا ارْجِعِي إِلَىٰ طَلَبِ الْآخِرَةِ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِيهَا.

وَقِيلَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ طَاعَةِ اللَّهِ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَرَضِيَتْ بِعَطَاءِ اللَّهِ وَتَوَابِهِ لِيَاكَ فِي الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ [بِالصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَأُ] ^(٩).



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُنَا. (٢) مِنْ نَسْخَةِ لِحْرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: هَذِهِ الْآيَةُ. (٤) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ الْقُرْآنِيَّة: ح ١٤٦/٨ و ١٤٧. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الْخَفْضُ مِنْهُمَا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

سورة ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ [بِهَذَا الْبَلَدِ] ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١

قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ اختُلف في قوله: ﴿لَا﴾ ^(٢):

قال بعضهم: ﴿لَا﴾ ههنا في موضع الدُّفْعِ والردِّ لِمُنَازَعَةٍ كَانَتْ بَيْنَ قَوْمِهِ ^(٣)، فَدَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُنَازَعَةَ مِنْ بَيْنِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا﴾ وَكَانَتْ تِلْكَ الْمُنَازَعَةُ مَعْرُوفَةً فِي مَا بَيْنَهُمْ، فَتَرَكَ ذِكْرَهَا لِذَلِكَ كَمَا ذَكَرَ الْجَوَابَ فِي بَعْضِ السُّورِ، وَلَمْ يَذْكُرِ السُّؤَالَ لِمَا كَانَ السُّؤَالُ عَنْهُمْ مَعْرُوفًا، فَتَرَكَ ذِكْرَهُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا﴾ [الزلزلة: ١] وَغَيْرُ ذَلِكَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ حَرْفَ ﴿لَا﴾ مَرَّةٌ يُسْتَعْمَلُ فِي حَقِّ الصَّلَاةِ وَالتَّائِيدِ، وَمَرَّةٌ فِي مَوْضِعِ النَّفْيِ، فَيُظْهِرُ ^(٤) مُرَادَهُ بِمَا يَنْقُضُهُ مِنَ الْكَلَامِ. فَإِنَّ كَانَ الَّذِي يَنْقُضُهُ إِثْبَاتًا فَهُوَ بِحَقِّ التَّائِيدِ، وَإِنْ كَانَ الَّذِي يَنْقُضُهُ مِنَ الْكَلَامِ نَفْيًا فَهُوَ فِي مَوْضِعِ النَّفْيِ. ثُمَّ الَّذِي عَقِبَهُ مِنَ الْكَلَامِ [ههنا] ^(٥) إِبْثَاتٌ، وَلَيْسَ بِنَفْيٍ، فَذَلِكَ أَنَّهُ فِي مَوْضِعِ التَّائِيدِ؛ فَكَانَهُ قَالَ: لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ.

ثُمَّ كَانَ حَقُّهُ أَنْ يَقْرَأَ لَا أُقْسِمَنَّ بِهَذَا الْبَلَدِ بِإِثْبَاتِ النَّوْنِ كَمَا يُقَالُ: لَا فَعَلْنَا فِي الْيَمِينِ، لَكِنْ نَوْنُ التَّائِيدِ قَدْ تُذَكَّرُ/ ٦٤١ - ب/ فِي مَوْضِعٍ، وَقَدْ لَا تُذَكَّرُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا رَيْكَ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [النحل: ١٢٤] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ قالوا: أريد بهذا البلد مكة، فأقسم بها بما عظم شأنها بما سبق ذكرنا له وبخاصة هي مُعَظَّمَةٌ فِي أَعْيُنِ أَهْلِهَا؛ ثُمَّ كَانَ مِنْ عَادَةِ الْكَفَرَةِ الْقَسَمُ بِكُلِّ مَا يُعَظَّمُونَهُ، فَعَامَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي جَرَتْ الْعَادَةُ فِي مَا بَيْنَهُمْ لِيُؤَكِّدَ مَا قَصَدَ إِلَيْهِ بِالْقَسَمِ، فَيُزِيلُ عَنْهُمْ الشُّبُهَةَ الَّتِي اغْتَرَضَتْ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حَلَّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ قال بعضهم: وَأَنْتَ نَازِلٌ بِهَا، مِنَ الْحُلُولِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَأَنْتَ

حَلَّالٌ بِهَذَا الْبَلَدِ، وَالْحُلُّ وَالْحَلَالُ لُغَتَانِ؛ فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا فَالْحُلُّ غَيْرُ مُنْصَرِفٍ إِلَى نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا انْصَرَفَ إِلَى مَا أُجِلَّ لَهُ، لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِنَفْسِهِ حَلَالًا أَوْ حَرَامًا، فَالْحُلُّ وَالْحُرْمَةُ إِذَا أُضِيفَا إِلَى مَنْ لَهُ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ فَإِنَّمَا يُرَادُ بِالْحُلِّ وَالْحُرْمَةِ الشَّيْءُ الَّذِي أُجِلَّ لَهُ وَالشَّيْءُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْهِ، لَا أَنْ يَكُونَ الْوَصْفُ رَاجِعًا إِلَى الْمُضَافِ إِلَيْهِ.

فَإِذَا قِيلَ: هَذَا مُحَرَّمٌ أُرِيدَ بِهِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِ، وَإِذَا قِيلَ: هَذَا حَلَالٌ لَيْسَ بِمُحَرَّمٍ أُرِيدَ بِهِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ لَهُ حَلَالٌ.

وَإِذَا أُضِيفَا إِلَى مَنْ لَا يُخَاطَبُ بِالْحُلِّ وَالْحُرْمَةِ أُرِيدَ بِهِمَا عَيْنُ ذَلِكَ الشَّيْءِ كَقَوْلِهِ ﷺ ^(٦): «هَذَا لَحْمٌ حَلَالٌ أَوْ صَيْدٌ حَلَالٌ، وَهَذَا لَحْمٌ حَرَامٌ» [بنحوه: أحمد ٣٢٦/١] فَيُرِيدُ أَنَّ ذَلِكَ اللَّحْمَ حَلَالٌ، وَكَذَلِكَ الصَّيْدُ حَرَامٌ أَوْ حَلَالٌ.

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي الَّذِي أُجِلَّ لَهُ: فَمِنْهُمْ مَنْ صَرَفَهُ إِلَى الْقِتَالِ، فَقَالَ: إِنَّهُ أُجِلَّ لَهُ الْقِتَالُ فِيهَا؛ وَذَلِكَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ أُجِلَّ لَهُ الدَّخُولُ فِيهَا [إِذَا] ^(٧) جَاءَ مِنَ الْأَفَاقِ بِغَيْرِ إِحْرَامٍ، وَ لَا يَجِلُّ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ.

وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ^(٨) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: ^(٩) «إِنَّ مَكَّةَ حَرَامٌ حَرَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَوَضَعَ هَذَيْنِ الْجَبَلَيْنِ، لَمْ تَجِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا تَجِلْ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَلَمْ تَجِلْ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَهِيَ سَاعَتِي هَذِهِ، لَا يُخْتَلَى خِلَافُهَا وَلَا يُغْضَدُ شَوْكُهَا، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهَا وَلَا تُرْفَعُ لَفْظَتُهَا إِلَّا لِمَنْ نَشَدَهَا» فَقَالَ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ^(١٠) إِلَّا الْإِذْخِرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا غِنَى لَأَهْلِ مَكَّةَ عَنْهُ لِلْقَبْرِ وَالْبَنِيَانِ، فَقَالَ ﷺ: «إِلَّا الْإِذْخِرُ» [البخاري ١١٢ و ٢٠٩٠ ومسلم ٤٤٧/١٣٥٥].

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) انظر معجم الفراءات القرآنية ج ٨/ ١٥١. (٣) من م، في الأصل: قوم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: فإذا. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من م.

فَبَيَّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهَا أُحِلَّتْ لَهُ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ.

وَالْحِلُّ يَحْتَمِلُ الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا. وَذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُؤْذِيهِ أَهْلُ مَكَّةَ، فَيَتَأَذَى بِهِمْ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، فَيَجِلُّ لَهُ الصَّيْدُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ.

وَلَكِنْ لَا يَسَعُ صَرْفُ التَّأْوِيلِ إِلَى هَذَا؛ إِذْ لَا يُعْرَفُ مِثْلُ هَذَا إِلَّا بِالْخَبَرِ وَالثَّقَلِ.

ثُمَّ فِي قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى لِسَانِ الْعَبَّاسِ ﷺ «إِلَّا الْإِذْخِرُ» دَلَالَةٌ أَنَّ التَّحْرِيمَ لَمْ يَكُنْ مُنْصَرِفًا إِلَيْهِ، وَلَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ التَّحْرِيمُ شَامِلًا لَهُ، ثُمَّ اسْتِثْنَاهُ بِمَا ذَكَرَ الْعَبَّاسُ ﷺ مِنْ حَاجَةِ أَهْلِ مَكَّةَ إِلَيْهِ لِمَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ مَا ذَكَرَ مِنَ التَّحْرِيمِ وَالتَّخْلِيلِ كَثِيرٌ مَدَّةً، يَجْرِي فِي مِثْلِهَا النَّسْخُ، وَلَكِنْ تَرَكَ بَيَانَ الْحِلِّ إِلَى أَنْ سَأَلَهُ الْعَبَّاسُ ﷺ ثُمَّ بَيَّنَّهُ^(١)، وَهُوَ دَلِيلُ قَوْلِ أَصْحَابِنَا، رَجَحَهُمُ اللَّهُ: إِنَّ تَأْخِيرَ الْبَيَانِ جَائِزٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنْ يَكُونَ الْقِسْمُ مُنْصَرِفًا إِلَى نَفْسِهِ، فَأَقْسَمَ بِوَلِيمَا عَظَّمَ مِنْ أَمْرِهِ وَمَشَائِرِهِ، كَأَنَّهُ قَالَ ﷺ: لَا أَقْسَمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَبِالَّذِي، هُوَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ.

[والثاني: أَنْ]^(٢) يَكُونَ مُنْصَرِفًا إِلَى مَكَّةَ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ خَرَجَ مَخْرَجَ التَّعْرِيفِ لِمَكَّةَ لِكَوْنِهِ فِيهَا، أَيْ الْبَلَدِ الَّذِي أَنْتَ نَازِلٌ بِهِ وَحَالٌ بِهِ أَوْ حَلَالٌ فِيهِ.

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَمَا وُلَدُكَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْوَالِدُ هُوَ آدَمُ ﷺ ﴿وَمَا وُلَدُكَ﴾ أَوْلَادُهُ وَذُرِّيَّتُهُ. وَلَكِنْ آدَمُ وَأَوْلَادُهُ ﷺ لَيْسُوا مَخْصُوصِينَ بِالدُّخُولِ تَحْتَ اسْمِ الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ، بَلْ ذَلِكَ فِيهِمْ وَفِي جُمْلَةِ الرُّوحَانِيِّينَ. فَيَكُونُ الْقِسْمُ بِالْخَلَائِقِ أَجْمَعٍ، وَيَكُونُ ﴿وَمَا﴾ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ بِمَعْنَى الَّذِي.

وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ ﴿وَمَا﴾ مَا جَعَدَ، فَقَالَ: ﴿وَمَا وُلَدُكَ﴾ أَيْ الَّذِي لَا يُلِدُ، وَهُوَ الْعَاقِرُ، فَأَقْسَمَ بِالْبَشَرِ جُمْلَةً مَنْ يُلِدُ مِنْهُمْ وَمَنْ لَا يُلِدُ، وَأَقْسَمَ بِهِمْ أَيْضًا لِمَا جَعَلَهُمْ مُفَضَّلِينَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْخَلَائِقِ.

الآية ٣ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْكَبَدُ الْإِنْتِصَابُ؛ أَخْبَرَ [أَنَّهُ]^(٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مُنْتَصِبًا، وَخَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مُتَكَبِّةٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْكَبَدُ الشَّدَّةُ وَالْمُعَانَاةُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: خَلَقَهُ مُنْتَصِبًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ، ثُمَّ يَقْلِبُهُ^(٤) وَقَتَ الْإِنْفِصَالِ. وَلِقَائِلِ أَنْ يَقُولَ: أَيْ حِكْمَةٍ فِي ذِكْرِ هَذَا وَفِي تَأْكِيدِهِ بِالْقِسْمِ؟ وَكُلٌّ يَغْلِبُ أَنَّهُ خُلِقَ كَذَلِكَ.

فَجَوَابُهُ أَنْ فِي ذِكْرِ هَذَا إِبَانَةٌ أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلَقُوا عَبَثًا بِاطِّلَاءٍ، بَلْ خَلَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِيَمْتَحِنَهُمْ، وَيَأْمُرَهُمْ بِالْعِبَادَةِ كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات: ٥٦].

فَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ مُنْصَرِفًا إِلَى الشَّدَّةِ وَالْمُعَانَاةِ فَتَأْوِيلُهُ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ لِيُكَابِدُوا لِلْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ جَمِيعًا، وَخَلَقَهُمُ لِلشَّدَّةِ لِيَعْتَبِرُوا، وَيَتَذَكَّرُوا.

وَأِنْ كَانَ مُنْصَرِفًا إِلَى الْإِنْتِصَابِ فَفِيهِ تَعْرِيفٌ لِعَظَمِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانُوا مُسْتَوْجِبِينَ لِذَلِكَ لَيْسَتْ أَدْوَى مِنْهُمْ الشُّكْرُ بِذَلِكَ.

وَأِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ عَلَى مَا ذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَهُ مُنْتَصِبًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ، ثُمَّ يَقْلِبُهُ^(٥) وَقَتَ الْإِنْفِصَالِ فَفِيهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ وَأَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، [وَلَا يَنْهَى]^(٦) لِأَحَدٍ أَنْ يَقْلِبَ^(٧) أَحَدًا، فَيَجْعَلَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ إِلَّا أَنْ يَجِدَ مِثْلَهُ فِي الْمَكَانِ سَعَةً.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَلْبُهُ، فَجَعَلَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الضَّيِّقِ، فَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، فَيُخَوِّلُهُمْ ذَلِكَ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: بَيْنَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقْلِبُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقْلِبُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لِأَنَّهُ لَا يَنْهَى. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: الْقَلْبُ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ عِنْدَنَا: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ لِمَا لَهُ مُكَابَدَتُهُ فِي أَمْرِ الشَّيْطَانِ فَهُوَ لِلنَّارِ خُلِقَ. وَعَلَى هَذَا يُخْرِجُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسِ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] أَي ذَرَأَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يُؤْتِرُ طَاعَةَ الشَّيْطَانِ وَعِضْيَانِ الرَّحْمَنِ لَجَهَنَّمَ، وَذَرَأَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَغْبُدُ اللَّهَ، وَيُؤْخِذُهُ لِلْعِبَادَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وَالْأَصْلُ أَنَّ الْحَكَمَ أَبَدًا تُقْصَدُ بِفِعْلِهِ الْعَاقِبَةُ إِلَّا الَّذِي لَيْسَتْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِالْعَاقِبَةِ. فَأَمَّا مَنْ عَرَفَ الْعَاقِبَةَ فَابْتِدَاءُ فِعْلِهِ يَقَعُ لِنَتِكَ الْعَاقِبَةِ [فَإِنَّ كَانَتْ عَاقِبَتُهُ] ^(١) النَّارَ فَابْتِدَاءُ الْخَلْقِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَقَعُ / ٦٤٢ - أ / لِنَتِكَ الْوَجْهِ، وَإِنْ كَانَتْ الْعَاقِبَةُ الْجَنَّةَ فَهُوَ لِنَتِكَ الْوَجْهِ الَّذِي خُلِقَ.

فَعَلَى ذَلِكَ يُخْرِجُ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ ﷺ: «السَّعِيدُ سَعِيدٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالشَّقِيُّ شَقِيٌّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ» (البزار في كشف الأستار ٢١٥٠) وَهُوَ لَا يُوصَفُ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَلَكِنْ مَعْنَاهُ أَنَّهُ إِذَا آثَرَ الشَّقَاوَةَ فِي حَالِهِ الْإِمْتِحَانِ خُلِقَ لِنَتِكَ، وَإِذَا آثَرَ السَّعَادَةَ فَلِنَتِكَ أَيْضًا.

وَقَالَ نُوحٌ ﷺ: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَكْرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧] وَهُمْ فِي وَقْتٍ مَا وَلَدُوا غَيْرُ مَوْصُوفِينَ بِوَاحِدٍ مِنَ الْوَضْعَيْنِ، بَلْ يَصِيرُوا كَذَلِكَ، فَتَبَيَّنَ أَنَّهُمْ خُلِقُوا لِنَتِكَ.

وَقَدْ وَقَعَ الْقِسْمُ عَلَى مَا لَهُ يُكَابِدُ، لَيْسَ عَلَى الْمُكَابَدَةِ نَفْسِهَا، لِأَنَّ الْمُكَابَدَةَ مِنَ الْإِنْسَانِ ظَاهِرَةٌ لَا يُخْتِاجُ إِلَى تَأْكِيدِهَا بِالْقِسْمِ، وَقَوْلُنَا: إِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ ابْتِدَاءِ الْفِعْلِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا أَرَدْتَ أَمْرًا فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ، فَإِنْ كَانَ رُشْدًا فَاْمْضِهِ، وَإِنْ كَانَ غِيًّا فَانْتَهَ عَنْهُ» (الزَّيْدِيُّ فِي الْإِتْحَافِ ٩٣ / ١٠، وَعَزَاهُ لِابْنِ الْمُبَارِكِ فِي الزَّهْدِ).

وَزَعَمَتِ الْمُعْتَزَلَةُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَخْلُقْ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ إِلَّا لِيُعْبَدَهُ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا زَعَمُوا، وَظَنُّوا لِأَدَى ذَلِكَ إِلَى الْجَهْلِ بِالْعَوَاقِبِ، أَوْ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْعَقْلُ خَارِجًا مَخْرَجَ الْخَطِّ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ صَنَعَ أَمْرًا يَرِيدُ غَيْرَ الَّذِي يَكُونُ [يَكُونُ] ^(٢) جَاهِلًا بِالْعَوَاقِبِ أَوْ عَابَثًا بِالْفِعْلِ لِأَنَّ مَنْ أَنْشَأَ الشَّيْءَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ عُدَّ ذَلِكَ مِنْهُ عَيْنًا، وَلَوْ كَانَ غَيْرَ الَّذِي يَرِيدُهُ، وَهُوَ أَنْ يَبْنِيَ لِيَسْكُنَ، كَانَ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى الْبِنَاءِ جَهْلُهُ بِالْعَوَاقِبِ، وَجَلَّ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَنْ يَلْحَقَهُ خَطَأٌ فِي التَّدْبِيرِ أَوْ جَهْلٌ بِالْعَوَاقِبِ.

فَتَبَيَّنَ بِمَا ذَكَرْنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَاءَ لِكُلِّ فَرِيقٍ مَا عَلِمَ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُمْ، وَخَلَقَهُمْ لِنَتِكَ الْوَجْهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ خَلْقُ الْجَمَلَةِ لِلْعِبَادَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ «يَقُولُ أَهْلَكَ مَا لَا لُبْدًا» «أَيَحْسَبُ أَنْ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ» فَالْآيَاتُ ^(٤) تَحْتَوِي وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ حَسِبَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْدِرُ عَلَى بَعْثِهِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: «أَحَدٌ» هُوَ اللَّهُ تَعَالَى «يَقُولُ أَهْلَكَ مَا لَا لُبْدًا» أَي جَمًّا «أَيَحْسَبُ أَنْ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ» [يَقُولُ] ^(٥) أَنْفَقْتُ مِنْهُ مَقْدَارَ مَا يَخْرُجُ عَنِ الْإِحْصَاءِ، وَقَوْلُهُ: «أَنْ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ» أَي لَمْ يَعْلَمْ أَحَدٌ مَبْلَغَ مَا أَنْفَقَ مِنْ ذَلِكَ.

[وَالثَّانِي] ^(٦): أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: «أَيَحْسَبُ أَنْ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ» أَي أَلَمْ يَعْلَمْ أَتَابِعُهُ الَّذِينَ أَنْفَقَ عَلَيْهِمْ وَمَقْدَارَ مَا أَنْفَقَ عَلَيْهِمْ، فَيَكُونُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَهْلَكَ مَا لَا لُبْدًا» إظهارًا مِنْهُ السَّخَاوَةِ، وَجُودُهُ عَلَى الْإِفْتِخَارِ مِنْهُ بِذَلِكَ [وَامْتِنَانٌ مِنْهُ] ^(٧) عَلَى أَتَابِعِهِ.

فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا فَهُوَ [فِي] ^(٨) أَمْرِ الدُّنْيَا، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ الْقَدَرَ الَّذِي أَنْفَقَ عَلَيْهِمْ، وَعَلِمَ الْخَلْقَ سَخَاوَتَهُ، لَا بِقَوْلِهِ. فَلَيْسَ اشْتِغَالُهُ فِي إِظْهَارِ الْجُودِ وَالْإِمْتِنَانِ إِلَّا نَوْعٌ مِنَ السَّفْوَةِ، وَكَانَ الَّذِي يَحِقُّ عَلَيْهِ الْإِشْتِغَالُ بِالشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى وَتَوْجِيهِ

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فَمِنْ. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فَالْآيَةُ. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٧) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٨) مِنْ م، ساقطة من الأصل.

الحمد إليه لما عَلَّمَ أَنْ الذي أَنْعَمَ بِهِ مِنْ المَالِ الكثيرِ مِنَ الله تعالى، وَأَنَّ تِلْكَ الْمُنْقَبَةَ، وهي السخاوة، نَالَهَا بالله تعالى. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠] لم تَنَالُوا مَا تَذْكُرُونَ مِنَ الشَّرَفِ وَالْمَنَاقِبِ الْحَمِيدَةِ إِلَّا بِاللَّهِ تعالى، فَاذْكُرُوهُ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ.

وهذا النوعُ مِنَ الإفْخَارِ راجعٌ إلى الخصائصِ مِنَ القوةِ لا إلى الجملة؛ إذ كُلُّ أَحَدٍ يَقُولُ مِثْلَ ذَلِكَ: إِنَّهُ أَهْلَكَ مَا لَا بُدَّ، وَقَعَلَ كَذَا.

الآيتان ٨ و ٩ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ﴾ «وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ» فَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿أَيَسَّرَ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ عَلَى نَفْيِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَعْثِ. فَمِنْ بَلَّغَتْ قُدْرَتُهُ هَذَا لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ أَوْ يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرٌ. فَمِنْ بَلَّغَتْ قُدْرَتُهُ هَذَا لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ أَوْ يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرٌ.

فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ﴾ أَيِ الْم تَخْلُقُ لَهُ عَيْنَيْنِ يُدْرِكُ بِهِمَا الْمَحْسُوسَاتِ بِالنَّظَرِ، وَجَعَلْنَا لِهَاجِئِنَا أَشْعَارًا يَدْفَعُ بِهِنَّ الْقَذَى عَنْ عَيْنَيْهِ، وَيُفْضِلُهُمَا بِمِثْلِ عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَا لَا يَغْنِيهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلِسَانًا﴾ أَيِ خَلَقْنَا لَهُ لِسَانًا يُخَصِّرُ بِهِ مَا غَابَ، وَاسْتَرَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ فِي خَلْقِ الشَّفَتَيْنِ وَجِهَانِ مِنَ الْحِكْمَةِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ جَعَلَهُمَا طَبَقَتَيْنِ يَسْتَرَانِ قُبْحَ مَا فِي فَمِهِ، وَلَوْلَاهُمَا لَكَانَ النَّظَرُ إِلَيْهِ وَقَدْ مَضَى الطَّعَامُ أَوْ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ مِنْهُ.

[والثاني: أَنَّهُ^(١) جَعَلَهُمَا طَبَقَيْنِ لِلْسَانِ لئَلَّا يَمُدَّهُ، وَيَسْتَعْمِلَهُ فِي مَا لَا يَغْنِيهِ.

فَذَكَرَهُمْ عَظَمَ نِعَمِهِ فِي خَلْقِ الْعَيْنَيْنِ وَاللِّسَانِ وَالشَّفَتَيْنِ لِيَسْتَاذِي مِنْهُمُ الشُّكْرَ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي بَلَّغَتْ قُدْرَتُهُ هَذَا لَيْسَ بِالَّذِي يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أَيِ بَيَّنَّا لَهُ [مَا عَلَيْهِ وَمَا لَهُ]^(٢) وَمَا يُحْمَدُ عَلَيْهِ وَمَا يُذَمُّ وَمَا يَقْبَحُ وَيُجْمَلُ. وَالتَّجْدُ الطَّرِيقُ. فَبَيَّنَ لِلْخَلْقِ الطَّرِيقَيْنِ جَمِيعاً طَرِيقَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَمَكَّنَهُمْ مِنَ الْفَعْلَيْنِ جَمِيعاً. وَقَالَ بَعْضُهُم: التَّجْدَانِ التَّذْيَانِ، أَيِ هَدَيْنَاهُ التَّذْيَيْنَ فِي حَالَةِ الْإِرْضَاعِ، وَلَكِنَّ الشَّنَّ وَالْهَدَايَةَ لَمْ تَنْصَرَفْ إِلَى هَذَا خُصُوصاً، بَلْ هَذَا مِنْ بَعْضِ مَا هَدَاهُ، وَيَتَنَبَّهُ؛ فَقَدْ بَيَّنَّ لَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْأُمُورِ، وَلَا قَيْدَ فِي اللَّفْظِ، فَيُحْمَلُ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَالْعُمُومِ.

الآيات ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ وقوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ» «فَكَ رَقِيبٌ» «أَوْ يَطْمَعُ لِي يَوْمَ ذِي مَسْجِفٍ»^(٣) قِيلَ فِيهِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: فَهَلَّا^(٤) اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ لَمْ يَقْتَحِمْ.

فَإِنْ كَانَ عَلَى الْأَوَّلِ فَمَعْنَاهُ: أَنَّ الَّذِي قَالَ: ﴿أَمْلَكْتُ مَا لَا بُدَّ﴾ كَيْفَ لَا كَانَ إِنْفَاقُهُ فِي فَكِّ الرَّقِيبِ وَفِي الْإِنْفَاقِ عَلَى الْيَتِيمِ وَالْمَسْكِينِ الَّذِي بَلَغَ بِهِ الْجَهْدُ إِلَى أَنْ أُلْصِقَ بِالتَّرَابِ، وَيَكُونُ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى «وَتَوَاصَوْا بِالْعَمَلِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ» [الآية: ١٧] لِيَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ، وَيَكْتَسِبَ بِذَلِكَ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ فِي الْآخِرَةِ دُونَ أَنْ تَكُونَ الْعَاقِبَةُ فِي الْمَلَاهِي وَشَهَوَاتِ النَّفْسِ؟ فَلَمْ يُحْصَلْ لِنَفْسِهِ حَمْدًا وَلَا أَجْرًا فِي الْعُقُوبِ، بَلْ صَارَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَشْأَمَةِ، فَيَكُونُ مَا يَنْتَدُ قَوْلُهُ: ﴿أَمْلَكْتُ مَا لَا بُدَّ﴾ صِلَةً لَهُ وَتَفْسِيرًا.

وَأِنْ كَانَ التَّوَابُلُ عَلَى النَّفْسِ، فَفِيهِ تَكْذِيبٌ فِي مَا يَزْعُمُ أَنَّهُ أَنْفَقَ مَا لَا بُدَّ، فَنَقُولُ: لَوْ كَانَ عَلَى مَا يُظُنُّ ذَلِكَ^(٥) بِفَكِّ الرَّقَابِ وَالْإِنْفَاقِ^(٦) عَلَى الْيَتِيمِ وَعَلَى الْمَسْكِينِ الَّذِي، هُوَ ذُو مَثَرِيَّةٍ، فَيَكُونُ هَذَا كُلُّهُ صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿أَمْلَكْتُ مَا لَا بُدَّ﴾ أَيْضًا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فَلَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: لِيُظْهِرَ عَلَى. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْمَوَاسَاةَ.

ثم قيل في العَقَبَةِ في وجهين:

أحدهما: على تحقيق العَقَبَةِ، وهو أن يكون في النار عَقَبَةً، لا تُتجاوزُ، ولا تُقَطَّعُ إلا بما ذَكَرَ مِنْ فَكِّ الرَقَبَةِ والإطعام ﴿يَوْمَ ذِي مَسْجَرٍ﴾ [الآية: ١٤] كقولهِ تعالى: ﴿سَأُنْفِثُ صَوْداً﴾ [المدر: ١٧] وقولهُ تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ على تحقيق العَقَبَةِ؛ معناه: وما يُذْركَ بِمَ تُقَطَّعُ تلك العَقَبَةُ؟ ثم يَبَيِّنُ أنها تُقَطَّعُ بما ذَكَرَ مِنْ فَكِّ الرَقَبَةِ ونَحْوِهِ.

[والثاني^(١)]: جائز أن يكون على التَّشْبِيلِ لا على التَّحْقِيقِ، ووجههُ أنه يَشْتَدُّ عليه بِحَمْلِ الْمُؤْنِ التي ذَكَرَ مِنْ فَكِّ الرَقَبَةِ وإطعام المساكين ومواساة اليتيم، فتكون العَقَبَةُ كنايةً عن تَحَمُّلِ الْمُؤْنِ لا على العَقَبَةِ / ٦٤٢ - ب/ نغيبها، وهو كقولهِ: ﴿وَمَنْ يُؤَدِّ أَنْ يُؤَدِّ بِحَمْلِ صَدْرِهِ ضَيْقًا حَرِيًّا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] إذ يصيرُ الإيمانُ عليه في الشَّدَّةِ والثَّقَلِ كأنه كُفِّلَ الصُّعُودَ إلى السماء. وَيَشْتَدُّ على الأولِ تَحَمُّلُ الْمُؤْنِ [كما يَشْتَدُّ عليه قَطْعُ العَقَبَةِ والصُّعُودُ عليها.

والإِفْتِحَامُ هو رَمِي النفسِ في المَهَالِكِ، وقيل: الإِفْتِحَامُ، هو تَحَمُّلُ الْمُؤْنِ.

فإن كانَ على تَحَمُّلِ الْمُؤْنِ^(٢) فَوَجْهُهُ ما ذَكَرْنَا أنْ كَيْفَ لَمْ يَخْتَمِلْ هَذِهِ الْمُؤْنُ لِيَصِيرَ مِنْ أَهْلِ الْمَيْمَنَةِ؟

وإن كانَ على الرَّمِي في المَهَالِكِ لَمْ يَخْتَمِلْ هَذِهِ الْمُؤْنُ لِيَصِيرَ مِنْ أَهْلِ الْمَيْمَنَةِ. فكانهُ يقولُ: قد أَهْلَكَ نَفْسَهُ بِتَرْكِ الإِنْفَاقِ في الوجوه التي ذَكَرَ والإِعْرَاضِ عَنِ الإِيمَانِ بالله تعالى بِتَرْكِهِ فَكَاكَ الرَقَبَةِ.

وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ في تَفْسِيرِهِ خَبْرًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ أَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ، فَأَمَرَهُ بِعِتْقِ النَّسَمَةِ وَفَكِّ الرَقَبَةِ، فَقَالَ السَّائِلُ: أَلَيْسَتْ، هُمَا وَاحِدًا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا إِنَّ عِتْقَ النَّسَمَةِ أَنْ تَفَرَّدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكِّ الرَقَبَةِ أَنْ تُعِينَ عَلَى فَكَاكِهَا» [أحمد ٤/ ٢٩٩].

وَفَكَاكَ الرَقَبَةِ أَنْ تُخَلَّصَ مِنْ وَجْهِ الْمَهَالِكِ، وَذَلِكَ يَكُونُ بِالتَّخْلِيسِ مِنْ ذُلِّ الرُّقَى، وَأَنْ تَرَى إِنْسَانًا هَمَّ يَقْتُلِ آخَرَ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَتَذْفَعَ عَنِ الْمَظْلُومِ شَرَّ الظَّالِمِ، فَتَرَاهُ يَفْرُقُ، فَتُخَلَّصُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ كَلَهُ فَكَاكَ الرَقَبَةِ مِنَ الْمَهَالِكِ، لِيُكْتَسِبَ بِهَا الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ فِي الْآخِرَةِ.

فَاخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي هَذَا الْحَرْفِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ: فَكَّ^(٣) رَقَبَةً أَوْ أَطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَرٍ عَلَى النَّضْبِ، فَإِذَا قَرَأْتَهُ بِالنَّضْبِ فَمَعْنَاهُ: هَلَّا فَكَّ رَقَبَةً، أَوْ أَطْعَمَ، فَيَكُونُ رَاجِعًا إِلَى تَفْسِيرِ الإِفْتِحَامِ، وَإِنْ قَرَأْتَهُ بِالرَّفْعِ انْصَرَفَ التَّأْوِيلُ إِلَى تَفْسِيرِ الْعَقَبَةِ، فَكَانَهُ قَالَ: قَطَّعَ الْعَقَبَةَ يَكُونُ بِالْفَكِّ وَمَا ذَكَرْنَا.

وَذَكَرَ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: كُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فَقَدْ أَغْلَمَهُ، وَأَدْرَاهُ، وَكُلُّ مَا فِيهِ: ﴿وَمَا يَذْرُؤُكَ﴾ فَهُوَ لَمْ يُغْلَمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالْمَسْجَعَةُ الْمَجَاعَةُ.

وقوله تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي ذا قرينة منه.

الآية ١٥

وقوله تعالى: ﴿أَوْ وَشَكِيكَ ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي الصَّقُّ بطنه بالتراب، وقيل: ليس له شيء يخجبه عن التراب.

الآية ١٦

ثم في قوله: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ دلالة وجوب حق اليتيم على القريب إذا كان محتاجاً، فيكون فيه حجة لقول أصحابنا: إن اليتيم إذا كان محتاجاً فَرَضَتْ نَفَقَتُهُ على أقرابه.

وفي قوله: ﴿أَوْ وَشَكِيكَ ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ دلالة أن المسكين الذي وصفه، وهو ألا يكون بينه وبين التراب حائل، فكيفايته تُلزِمُ الخَلْقَ جملةً.

(١) في الأصل وم: و. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ١٥٢.

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فتأويله أنه لا ينفعه فك الرقية ولا الإطعام حتى يكون مؤمناً مع ذلك متواصياً بالصبر والرحمة. فإذا كان كذلك فحيثما يُجملُ قاطعاً للعقبة.

وجائز أن يكون الصبر أريد به الإيمان كقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١] أي آمنوا. والتواصي بالصبر والرحمة، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذ التواصي مأخوذ من الوصية، وهذا يوجب أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في اعتقاد الإيمان.

الآية ١٨ [وَأُولَئِكَ] ^(١) آمَنُوا كَيْتَبُوا أَي أصحاب الميامين، وهم أهل اليمن.

الآيتان ١٩ و ٢٠ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَةِ﴾ [عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ] ^(٢) أي أصحاب الشؤم على أنفسهم حين ^(٣) عملوا المعاصي، واستوجبوا به نارا مؤصدة، وهي المؤصدة المطبقة المبهمة، ووصفه الإطباق ما ذكر في آية أخرى، وذلك قوله ﷻ: ﴿لَمْ يَنْ تَوْفِيقِهِمْ ثُلُلٌ مِّنَ النَّارِ وَهِيَ تَحْتِيهِمْ ثُلُلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وقوله ^(٤) تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ الآية [الكهف: ٢٩] والله أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين ^(٥).



(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: وقال الله. (٥) ساقطة من م.

[سورة ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾^(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ قالوا: تأويله: والشمس وضوؤها [وقيل: وحرها]^(٢) وقيل: ونهارها. وهذا في موضع القسم؛ وذلك لأن الله تعالى جعل في الشمس معاني تدل على لطائف حكمته وعجائب تدبيره، وجعلها^(٣) في النهاية من البركات وفي النهاية من الآيات.

فمن عجيب تدبيره أنه جعل نورها بحيث تهللك نور الظل حتى إذا بدت في مكان أذهبت نور الظل ونور السراج ونور القمر، وسر نورها الكواكب عن أن ترى، وجعلها بحيث يظهر بها هباء الهواء. فبين أن الهواء ذو هباء.

ألا ترى أنك إذا نظرت في المشكاة حين تسقط الشمس فيها تبين لك بها [هباء]^(٤) الهواء، ولو أراد أحد من الخلق أن يذرك المعنى الذي به استنارت هذه^(٥) الشمس كل، ولم^(٦) يقف عليه؟

ثم [من]^(٧) بركاتها أن يحرارها صالح الأغذية، وبها صالح النبات، وبها يكبس الحب، وبها تنضج الفواكه.

ومن عجيب تدبيره أنه جعلها بالنائي عن كل شيء له بها صلاح؛ إذ لو دنت منه^(٨) لكانت تحرق الأشياء كلها.

ومن آياتها أن جعلت بحيث تسير، وتقطع كل يوم مسيرة ألف عام ما يتعذر على الذي خلق للسير والمشي قطع المسافة بمدة كثيرة، وهي أيضاً تظهر جود الرب، جل جلاله، لأن منافعتها تعم الخلق كلها برهم وفاجرهم والولي منهم والعدو، فأقسم الله بها ليزيل عن الكفرة الشبهة التي تغترض لهم من أمر الدين: إما في التوحيد [وإما]^(٩) في الرسالة [وإما]^(١٠) في البعث، والله أعلم.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا لَظَّهَا﴾ فجانز أن يتلوهما في كل ما ذكرنا في الشمس من المنافع والمعاني، فيكون تاليها في العمل، فإنه يقع به صلاح الأغذية أيضاً، وهو يذير أيضاً. إلا أنه لا ينتهي منتهاهما، ولا يبلغ مبلغها، والله أعلم.

وقال بعضهم: ﴿إِذَا لَظَّهَا﴾ أي يتلوهما في أول ما يهل، فإنه إذا وجبت الشمس في آخر اليوم من الشهر إلى غروبها [بدأ]^(١١) طلوع الهلال. وقال بعضهم: إنه يتلوهما إذا صار بذكراً، وفي هذا دلالة أن منشئهما واحد لأن منافعهما تعم الخلق جميعاً. ولو لم يكن مدبرهما واحداً لكانت لا تعم، بل يفتن كل واحد منهما الآخر^(١٢) عن إيصال النفع إلى قوم عدو.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمَ إِذَا جَلَّهَا﴾ يَحْتَمِلُ أوجه: يَحْتَمِلُ أن يكون النهار جلى الدنيا، ويَحْتَمِلُ أن يكون جلى الأرض، ويَحْتَمِلُ أن يكون جلى الشمس، ويَحْتَمِلُ أن يجلي الأبصار بنورها عن ظلمة الليل التي تغشاها.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَشَتْهَا﴾ يَنْصَرِفُ إلى الأوجه التي ذكرنا أيضاً، أي يغشى الدنيا أو الأرض أو الشمس، أو يغشى الأبصار بظلمتها عن الخلائق، والله أعلم.

ثم لليل والنهار زيادة سلطان ليس للشمس ولا للقمر، لأن من سلطان الليل والنهار أنهما يُفنيان الآجال، ويقطعان

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: هذا. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: منها. (٧) في الأصل وم: منها. (٨) في الأصل وم: منشئه. (٩) من م، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: منشئه. (١١) من م، ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: منشئه.

الاعمار، ولا يَتَهَيَّأُ لِأَحَدٍ الْإِمْتِنَاعُ وَالْتَحَرُّزُ مِنْ سُلْطَانِهِمَا، أَوْ يَتَهَيَّأُ لِلْخَلْقِ دَفْعَ أَذَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِالْجِيلِ وَالْأَسْبَابِ، فَكَانَ فِي ذِكْرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ زِيَادَةٌ مَعْنَى، لَيْسَ ذَلِكَ فِي ذِكْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ.

الآية ٥ وقوله **﴿وَاللَّيْلَ وَمَا بَنَاهَا﴾** قَالَ الرَّجَّاجُ: **﴿وَمَا﴾** بِمَعْنَى الَّذِي، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي مِثْلِهِ كَقَوْلِ الْعَرَبِ: سَبَّحْنَ مَا سَبَّحَتْ لَهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، أَيْ سَبَّحْنَ الَّذِي سَبَّحَتْ لَهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: **﴿وَمَا﴾** ههنا بِمَعْنَى مَنْ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: وَالسَّمَاءُ وَمَنْ بَنَاهَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: **﴿وَمَا﴾** ههنا تَجَعَلَ الْفِعْلُ الْمَاضِي بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ؛ تَقُولُ: أَعْجَبَنِي [مَا صَنَعْتَ أَيْ أَعْجَبَنِي] ^(١) صُنْعُكَ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: وَالسَّمَاءُ وَبَنَاهَا.

فَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ عَلَى الْوَجْهَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ يَرْجِعُ الْقَسَمُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى: **﴿وَاللَّيْلَ وَمَا بَنَاهَا﴾** وَإِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّهَارِ وَاللَّيْلِ. وَإِنْ كَانَ عَلَى التَّأْوِيلِ الْآخَرِ رَجَعَ الْقَسَمُ إِلَى مَا خَلَقَ، وَهُوَ السَّمَاءُ؛ فَإِنَّ بِنَاءَ السَّمَاءِ عَيْنُهَا.

وَقَالَ أَبُو بَكْرِ الْأَصَمُّ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ فِي قَوْلِهِ **﴿وَاللَّيْلَ وَمَا بَنَاهَا﴾** **﴿وَالْأَرْضَ وَمَا خَلَقَهَا﴾** **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾** تُخْرِجُ عَلَى التَّعْجِيبِ عَلَى شَرْطِ التَّقْدِيمِ، وَإِنْ كَانَتْ مُؤَخَّرَةً فِي اللَّفْظِ؛ [كَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ] ^(٢) وَمَا [أَذْرَاكَ مَا] ^(٣) السَّمَاءُ! ثُمَّ أَجَابَ بِأَنَّ **﴿رَفَعَ سَكَكَهَا سَوَّاهَا﴾** [النَّازعات: ٢٨] وَرَفَعَهَا **﴿يَتَرَعَّ عَمَرُ تَرَوَّاهَا﴾** [الرعد: ٢ ولقمان: ١٠].

الآية ٦ وقوله تعالى: **﴿وَالْأَرْضَ وَمَا خَلَقَهَا﴾** أَيْ بَسَطَهَا.

الآية ٧ وقوله تعالى: **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾** قَالُوا: تَسَوَّاهَا فِي أَنْ خَلَقَهَا بِالْيَدَيْنِ وَالرُّجْلَيْنِ وَالْعَيْنَيْنِ وَنَحْوِهَا.

فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا فَالتَّسْوِيَةُ تَرْجِعُ إِلَى الْأَعْلَى لَا إِلَى الْجَمَلَةِ؛ إِذْ لَيْسَ لِكُلِّ نَفْسٍ هَذِهِ الْجَوَارِحُ جَمَلَةً، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ أَنَّهُ سَوَّى أَكْثَرَ النَفُوسِ بِمَا ذَكَرَ مِنَ الْيَدَيْنِ وَالرُّجْلَيْنِ، وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي الْكَلَامِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَجَعَلَ الْإِنْسَانَ كَسَاكًا﴾** [الأنعام: ٩٦] [وقوله] ^(٤): **﴿وَجَعَلَ الْبَهَائِمَ مَنَاقِحًا﴾** [عم: ١١] وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ [جَعَلَ اللَّيْلَ] ^(٥) سَكَنًا وَمَقَرًّا لِأَكْثَرِ الْخَلَائِقِ لَا لِلْجَمَلَةِ، وَجَعَلَ النَّهَارَ لِأَكْثَرِ الْخَلَائِقِ مَعَاشًا لَا لِلْجَمَلَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقِيلَ: سَوَّى جَوَارِحَهَا وَأَطْرَافَهَا مَا لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ جَارِحَةٌ مِنْ تِلْكَ الْجَوَارِحِ لَوْصِفَ بِالنُّفُوسِ، وَهَذَا أَعْمُ مِنَ الْأَوَّلِ.

وَيَحْتَمِلُ **﴿سَوَّاهَا﴾** عَلَى ^(٦) مَا عَلَيْهِ مَضْلَحَتُهَا، فَتَمْلِكُ التَّقَلُّبَ وَالتَّعْيِشَ، لَيْسَ عَلَى مَا عَلَيْهِ سَائِرُ الْحَيَوَانِ.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: **﴿سَوَّاهَا﴾** أَيْ جَعَلَهَا بِحَيْثُ اخْتِمَالُ الْكُلْفَةِ وَالْمِخْنَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾** [القصص: ١٤] يَمَيَّزُ بَيْنَ الْقَبِيحِ وَالْحَسَنِ، وَيَعْرِفُ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ.

الآية ٨ وقوله تعالى: **﴿فَالْمَمْلَأَهَا فُجُورًا وَتَقْوَاهَا﴾** وَهَذَا يَحْتَمِلُ أَوْجَهًا:

أَحَدُهَا: أَيْ بَيَّنَّ لَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، وَعَلَّمَهَا. فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَعَارِفَ ضَرُورِيَّةٌ خَلْقَةً يَخْتَجُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَيَقُولُ: أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ عَلَّمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا وَأَنَّهُ وَضَعَ فِي نَفْسِهِ مَا يَعْرِفُ بِهِ قُبْحَ كُلِّ قَبِيحٍ وَحُسْنَ كُلِّ حَسَنٍ.

وَالْأَصْلُ فِيهِ عِنْدَنَا أَنَّهُ يَعْرِفُ حُسْنَ الْأَشْيَاءِ وَقُبْحَهَا جُمْلَةً بِبِدَاةِ الْعُقُولِ، وَلَكِنَّ الْعُقُولَ لَا تَعْرِفُ حُسْنَ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى الْإِشَارَةِ إِلَيْهِ وَلَا قُبْحَ كُلِّ قَبِيحٍ عَلَى الْإِشَارَةِ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ ذَلِكَ إِمَّا بِخَيْرٍ يَرُدُّ عَلَى لُغَى الرِّسْلِ **﴿وَأَمَّا﴾** ^(٧) بِاسْتِعْمَالِ الْفِكْرِ.

أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَجِدُ النَّفْسَ مِنْ طَبْعِهَا أَنَّهُ تَأَلَّفَ الْمَلَادُّ وَالْمَنَافِعَ، وَتَتَفَرَّغُ مِنَ الْمَكَارِهِ وَالْآلَامِ، وَلَكِنَّهَا لَا تَعْرِفُ مَعْرِفَةً كُلَّ مُنْتَفِعٍ عَلَى الْإِشَارَةِ، وَإِنَّمَا تَعْرِفُ ذَلِكَ بِالذُّوقِ.

وَكَذَلِكَ الْعَيْنُ تَذُرُّكَ الْأَلْوَانِ، لَكِنَّهَا لَا تَعْرِفُ [حُسْنَ اللَّوْنِ] ^(٨) وَقُبْحَهُ، بَلِ الْعَقْلُ هُوَ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: كَأَنَّهُ يَقُولُ اللَّهُ. (٣) ساقطة من الأصل وَم. انظر تفسير الآية ٣ من سورة الحاقة والآية ٤ من سورة المرسلات والآيات المشابهة لها. (٤) ساقطة من الأصل وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: جَعَلَهَا. (٦) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: غَيْر. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَسَن.

فَعَلَىٰ ذَلِكَ قَدْ جَعَلَ فِي طَبْعِ الْعَقْلِ قُبْحَ الْقَبَائِحِ جُمْلَةً وَحُسْنَ الْحَسَنِ، وَلَكِنْ لَا يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا عَلَى الْإِشَارَةِ إِلَى كُلِّ فِي نَفْسِهِ إِلَّا بِمَا ذَكَّرْنَا، فَيَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمَمْنَاهُمُ جُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أَي جَعَلَ فِي نَفْسِهَا مَا يُبَيِّنُ الْقُبْحَ مِنَ الْحَسَنِ وَالْخَيْرَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَيُبَيِّنُ قُبْحَ الْفُجُورِ وَحُسْنَ التَّقْوَى، وَلِزِمَهُ الْمِخْنَةُ وَالْكُلْفَةُ بِذَلِكَ. ثُمَّ يَصِلُ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ إِمَّا بِالرُّسُلِ وَإِمَّا بِاسْتِعْمَالِ الْفِكْرِ.

[والثاني^(١)]: أَنْ يُلْهِمَهَا تَقْوَاهَا إِذَا وَفَى بِمَا لَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ الْإِسْقَامَةِ وَالْمُجَاهِدَةِ.

الْأَتَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾؟ [العنكبوت: ٦٩] فَوَعَدَ الْهُدَايَةَ بِالْجِهَادِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ثُمَّ كَانَتْ الْإِجَابَةُ مُضْمَنَةً شَرِيعَةً، وَهِيَ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ.

الْأَتَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة: ١٨٦] وَقَوْلِهِ^(٢) تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وَقَوْلِهِ^(٣) تَعَالَى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾؟ [آل عمران: ١٢] ثَبِّتَ أَنَّ الَّذِي يُلْهِمُ التَّقْوَى، هُوَ الَّذِي يَقُومُ بِوَفَاءِ مَا عَلَيْهِ. فَإِذَا قَامَ بِهِ الْهَمَةُ التَّقْوَى، وَبَيَّنَّ لَهُ سَبِيلَ الْفُجُورِ.

[والثالث: ما^(٤)] قَالَ أَبُو بَكْرِ الْأَصَمُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْمَمْنَاهُمُ جُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أَي الزَّمَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، [فَيَكُونُ تَقْوَاهَا]^(٥) لَهَا وَفُجُورَهَا عَلَيْهَا، لَا يُؤَاخِذُ أَحَدٌ بِفُجُورِ أَحَدٍ. وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّقْوَى إِذَا ذُكِرَ مُفْرَدًا انْصَرَفَتْ إِلَى الْخَيْرَاتِ أَجْمَعِ، وَإِذَا قُرِنَ بِهَ الْبِرِّ وَالْإِعْطَاءِ انْصَرَفَتْ إِلَى الْإِثْقَاءِ عَنِ الْمَحَارِمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ [وَمَصَدَّقٌ بِالْحَقِّ]^(٦) [الليل: ٦٥] فَإِذَا^(٧) بَرَّ، وَاتَّقَى، أُرِيدَ بِهِ أَنَّهُ بَرَّ بِكُلِّ مَا يُحْمَدُ عَلَيْهِ، وَاتَّقَى عَنْ كُلِّ مَا يُذَمُّ عَلَيْهِ فَاعِلُهُ.

الآيتان ٩ و ١٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا﴾ وَ﴿قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّانَاهَا﴾ فَمَوْقِعُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْقَسَمِ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلَى هَذَا.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا﴾ وَ﴿قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّانَاهَا﴾^(٨) فِي الْآخِرَةِ^(٩) [فَيَكُونُ هَذَا مُنْصَرَفًا إِلَى الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ عَلَى^(١٠) مَا يَذْكُرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ٤] فَيَكُونُ فِي هَذَا إِيْجَابُ الْقَوْلِ بِالْبَعْثِ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي نَذَّرَ أَنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِ الْفَلَاحِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: أَفْلَحَ أَي سَعَدَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: أَي بَقِيَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَالْفَلَاحُ الْبَقَاءُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: أَفْلَحَ أَي فَازَ، وَالْمُفْلِحُ فِي الْجُمْلَةِ، هُوَ الَّذِي يَنْظُرُ بِمَا يَأْمُلُ، وَيَنْجُو عَمَّا يَخْذَرُ، فَيَدْخُلُ فِي تِلْكَ السَّعَادَةِ وَالْبَقَاءِ وَالْفَوْزِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ رَزَقْنَاهَا﴾ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مُنْصَرَفًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَجَائِزٌ أَنْ يَنْصَرِفَ إِلَى الْعَبِيدِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١] وَقَالَ: ﴿قُلْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ﴾ [يونس: ٥٨] فَيُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُفْضِلُ بِتَرْكِيبِهِ مَنْ زَكَا. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ يُصَرَّفُ إِلَى الْعَبِيدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَزَقْنَاهَا﴾ أَي صَاحِبُهَا. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّانَاهَا﴾ يَخْتَمِلُ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ، فَيَكُونُ ٦٤٣ - ب/ اللَّهُ تَعَالَى، هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ فِعْلَ الضَّلَالِ، فَيَكُونُ الْفِعْلُ مِنْ حَيْثُ الْإِنْشَاءُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَمِنْ حَيْثُ الْفِعْلُ مِنَ الْعَبِيدِ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ دَسَّانَاهَا﴾ أَي أَخْفَاهَا، وَإِخْفَاؤُهَا أَنَّهُ صَيَّرَهَا بِحَيْثُ لَا تُذَكَّرُ فِي الْمَحَافِلِ إِلَّا بِالذَّمِّ، وَزَكَّى الْآخَرَ [نَفْسُهُ: أَي طَهَّرَهَا]^(١١) حَتَّى يَنْظُرَ إِلَيْهَا النَّاسُ بِعَيْنِ التَّجْبِيلِ وَالتَّعْظِيمِ. وَهَكَذَا شَأْنُ الْمُتَّقِي أَنْ يَكُونَ مُبْجَلًا مُعْظَمًا فِي مَا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ وَهـ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) أُدْرِجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: قِيلَ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ، فِي م: عَلَى. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَظْهَرَهَا.

بَيْنَ الْخَلْقِ، وَالْفَاجِرُ يَعِيشُ مَذْمُومًا مُهَانًا فِي مَا بَيْنَ الْخَلْقِ، أَوْ يَرْجِعُ الْإِظْهَارُ وَالْإِخْفَاءُ إِلَى الْآخِرَةِ، فَيَجِلُّ قَدْرُ الْمُتَّقِي الْمُرْكَبِ، وَيَتَخَمَدُ ذِكْرُ الْفَاجِرِ.

وقوله تعالى: ﴿دَسَّخْنَا﴾ من دَسَسَ، فاسقط السين، وأبدل مكانها الياء.

ثم الإضافة في قوله ﴿دَسَّخْنَا﴾ إلى الله تعالى على خَلْقِ ذَلِكَ الْفَعْلِ مِنْهُ، وفي قوله ﴿مَنْ دَسَّخْنَا﴾ على التوفيق.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا﴾ ولم يُبَيِّنْ لِمَنْ كَذَّبُوا، وقد بَيَّنَّه في آيةٍ أُخْرَى، فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ النَّاسَ﴾ [الشعراء: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿يَطْفُونَهَا﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما^(١): لأجلِ مَعْصِيَتِهِمْ^(٢) وَطُغْيَانِهِمْ؛ إِذِ الْحَامِلُ لَهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ طُغْيَانُهُمْ وَتَرْكُهُمُ التَّقَرُّ فِي أَمْرِهِ، وَالْأُخْرَى تَفَكَّرُوا فِي مَا جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَجِدُوا مَوْضِعَ التَّكْذِيبِ.

والثاني: بأهلِ طُغْوَاهَا، أَيِ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِسَبِّ أَهْلِ الطُّغْيَانِ، فَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ لَمْ يُكَذِّبُوا رَسُولَهُمْ بِشُبُهَةِ اغْتَرَضَتْ لَهُمْ أَوْ بِحُجَّةٍ كَانَتْ لَهُمْ، بَلْ كَذَّبُوهُ عَنْ عِنَادٍ مِنْهُمْ وَتَيَقُّنٍ مِنْهُمْ بِرِسَالَتِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ نَبِيَّهُمْ صَالِحًا ﷺ جَاوَزَتْهُ الْحُجَجُ، لِأَنَّهُمْ أَوْتُوا النَّاقَةَ عَلَى سَوَالِ سَبَقٍ مِنْهُمْ وَعَلَى تَعَدٍّ مِنْهُمْ فِي السَّوَالِ عَلَى شَيْءٍ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ؛ فَهُمْ بِإِشَارَتِهِمْ إِلَى سَوَالِ النَّاقَةِ كَانُوا مُعْتَدِينَ فِيهِ.

ثم من حكمة الله أَنْ الْحُجَّةَ إِذَا كَانَتْ عَلَى إِثْرِ السَّوَالِ، ثُمَّ ظَهَرَ التَّكْذِيبُ مِنَ السَّائِلِينَ، هِيَ^(٣) الْإِسْتِثْنَالُ فِي الدُّنْيَا، وَقَدْ وَجَدَ مِنْ أَوْلَئِكَ الْقَوْمِ السَّوَالِ وَالتَّكْذِيبِ، فَعَوَّقُوا بِالْإِسْتِثْنَالِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتُ ثَمُودَ النَّاقَةُ ثَبِيرَةٌ﴾ [الإسراء: ٥٩] فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَعْنَى الَّتِي لَمْ يَرْسِلِ الْآيَاتِ الَّتِي سَأَلَتْ الْكَافِرَةَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ أَنَّهُمْ لَمَّا أَوْتُوا، ثُمَّ عَنَدُوا، اسْتَوْصَلُوا؛ فَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى إِقْنَاءَ أَتَمِّهِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَأَرْسَلَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ حُجَّتَهُ مِنْ وَجْهِ فِيهَا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَهِيَ الْقِتَالُ، وَكَانَ فِي الْجِهَادِ وَمَا يُضَيِّقُ عَلَيْهِمُ الْمَعَاشَ، وَيَضْطَرُّهُمْ إِلَى النَّظَرِ فِي الْحُجَجِ، فَيَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ عَلَى تَصْدِيقِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْقِتَالَ رَحْمَةٌ عَلَيْهِمْ.

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَتَيْتَ أَشْقَهَا﴾ أَيِ قَامَ أَشْقَاهَا، وَصَارَ أَشْقَاهَا بِمَا أَحْدَثَ مِنَ الْكُفْرِ بِعَقْرِ النَّاقَةِ وَرُؤْيَى عَنْ عَمَارِ بْنِ يَاسِرٍ ؓ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيِّ ؓ أَلَا أَخْبِرُكَ بِأَشْقَى النَّاسِ؟ [قَالَ: بَلَى، فَقَالَ: رَجُلَانِ]^(٤): أَحْيَمُ ثَمُودَ عَاقَرِ النَّاقَةِ، وَالَّذِي يَضْرِبُكَ عَلَى هَذِهِ، وَأَشَارَ إِلَى هَامِيهِ، حَتَّى تَبْتَلَّ مِنْهَا هَذِهِ، وَأَشَارَ إِلَى لِحْيَتِهِ [السيوطي في الدر المنثور ج ٨/ ٥٣١] فَصَارَ [ضَارِبُهُ كَعَاقِرٍ]^(٥) النَّاقَةُ أَشْقَى النَّاسِ لِأَنَّهُ اسْتَحْلَ قَتْلَهُ.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةُ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ فَهُوَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَيِ اخْذَرُوا نَاقَةَ اللَّهِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَسْمُوا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ إِلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣]

والثاني: أَيِ قَالَ اخْذَرُوا نَاقَةَ اللَّهِ تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ، وَذَرُوا بَيْنَ النَّاقَةِ وَوَسُقْيَاهَا وَشُرْبِهَا^(٦) ثُمَّ أَضْيَقَتْ النَّاقَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِوَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَأْذَنْ لِأَحَدٍ بِتَمَلُّكِهَا^(٧) حَتَّى يُنْسَبَ إِلَيْهِ الْمُلْكُ، بَلْ بَقِيََتْ غَيْرَ مَمْلُوكَةٍ لِأَحَدٍ، فَاضْيَقَتْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى كَمَا أَضْيَقَتْ إِلَيْهِ الْمَسَاجِدُ لِمَا لَا مِثْلَ لَهَا عَلَيْهَا.

[والثاني: أَنَّهَا]^(٨) أَضْيَقَتْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَعْنَى التَّقْضِيلِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَيِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مَعْصِيَتِهَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: رَجُلَيْنِ قَالَ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ.

(٥) فِي الْأَصْلِ وَم: عَاقَر. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ شَرِبَهَا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: بِالتَّمْلِكِ عَلَيْهِ، فِي م: بِالتَّمْلِكِ عَلَيْهَا. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ.

والأصل: أن إضافة الأشياء إلى الله تعالى بحق الحُرُمَات على تفضيل تلك الأجزاء من بين غيرها. فإضافة الأشياء إلى الله تعالى بحق الله تعالى بحق الكَلَبَات يُخْرِجُ مُخَرَّجَ تَعْظِيمِ الله تعالى؛ فإذا قيل: رب المساجد أريد به تفضيل المساجد من بين سائر البقاع، وإذا قيل: رب العرش أريد به تعظيم العرش، وكذلك إذا قيل: رب الناقة أريد به تعظيم أمرها، وإذا قيل: رب العالمين ورب كل شيء أريد به تعظيم الرب، جلّ جلاله.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كَذَّبُوا صَالِحًا ﷺ فِي رَسُولِيهِ، أَوْ كَذَّبُوهُ فِي مَا أَخْبَرَهُمْ مِنْ حُلُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ إِذَا عَقَرُوا النّاقَةَ، فَعَقَرُوهَا مَعَ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيِ أَطْبَقَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ عَلَى الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَمِنْهُ يُقَالُ: بَعِيرٌ مَدْمُومٌ إِذَا كَانَ سَمِينًا، أَطْبَقَ شَحْمُهُ عَلَى لَحْيِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: دَمْدَمَ عَلَيْهِمْ أَيِ دَمَّرَ عَلَيْهِمْ ﴿رَبُّهُمْ يَذْنِبُهُمْ﴾ وَذَنْبُهُمْ مَا تَعَدُّوا مِنْ تَكْذِيبِهِمُ الرّسُولَ وَعَقْرِهِمُ النّاقَةَ.

وقوله تعالى ﴿فَسَوَّلْنَا﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنَّهُ سَوَّلَهُمْ^(١) بِالْأَرْضِ كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْآرَضُ﴾

[النساء: ٤٢].

والثاني: أَنَّهُ^(٢) سَوَّى بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ فِي الْإِهْلَاكِ، فَالصَّغَارُ مِنْهُمْ يَوْمئِذٍ مَاتُوا بِأَجَالِهِمْ، وَالْكِبَارُ مِنْهُمْ اسْتَوْصَلُوا

بِذُنُوبِهِمْ.

الآية ١٥ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ فَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ الْإِضَافَةُ مُنْصَرِفَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَهْلَكَهُمْ لَمْ يَخَفْ تَبِعَةَ الْإِهْلَاكِ، وَوَجْهَ الْخَوْفِ، هُوَ أَنَّهُ فِي مَا [أَهْلَكَهُمْ]^(٣) بِمَا أَوْجَبَتْ الْحِكْمَةُ إِهْلَاكَهُمْ، وَلَمْ يَلْحَقْهُ تَقْصِيرٌ فِي الْحِكْمَةِ، وَلَا وَجَدَ الْغَائِبُ فِي ذَلِكَ مَقَالًا، وَهَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ: ذَاكَ رَبُّنَا لَمْ يَخَفْ مِمَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ.

أَوْ تَكُونَ مُنْصَرِفَةً^(٤) إِلَى الْعَاقِرِ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ أَنَّهُ عَقَرَهَا، وَلَمْ يَخَفِ الْعَاقِبَةُ الَّتِي حَذَّرَهُمْ بِهَا صَالِحٌ ﷺ فِي^(٥) قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَسْهَوْا يَسْؤُوا فَمَا خَلَّكُمْ عَذَابُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أَيِ لَمْ يَعْلَمْ مَا يَحُلُّ بِهِ مِنْ عَقْرِ تِلْكَ النّاقَةِ، وَلَوْ عَلِمَ لَمْ يَفْعَلْ، وَبِجَوْرِ اسْتِعْمَالِ الْخَوْفِ فِي مَوْضِعِ الْعِلْمِ لِأَنَّ الْخَوْفَ إِذَا بَلَغَ غَايَتَهُ صَارَ عِلْمًا.

ثُمَّ الْحِكْمَةُ فِي ذِكْرِ قِصَّةِ ثَمُودَ وَجِهَانِ:

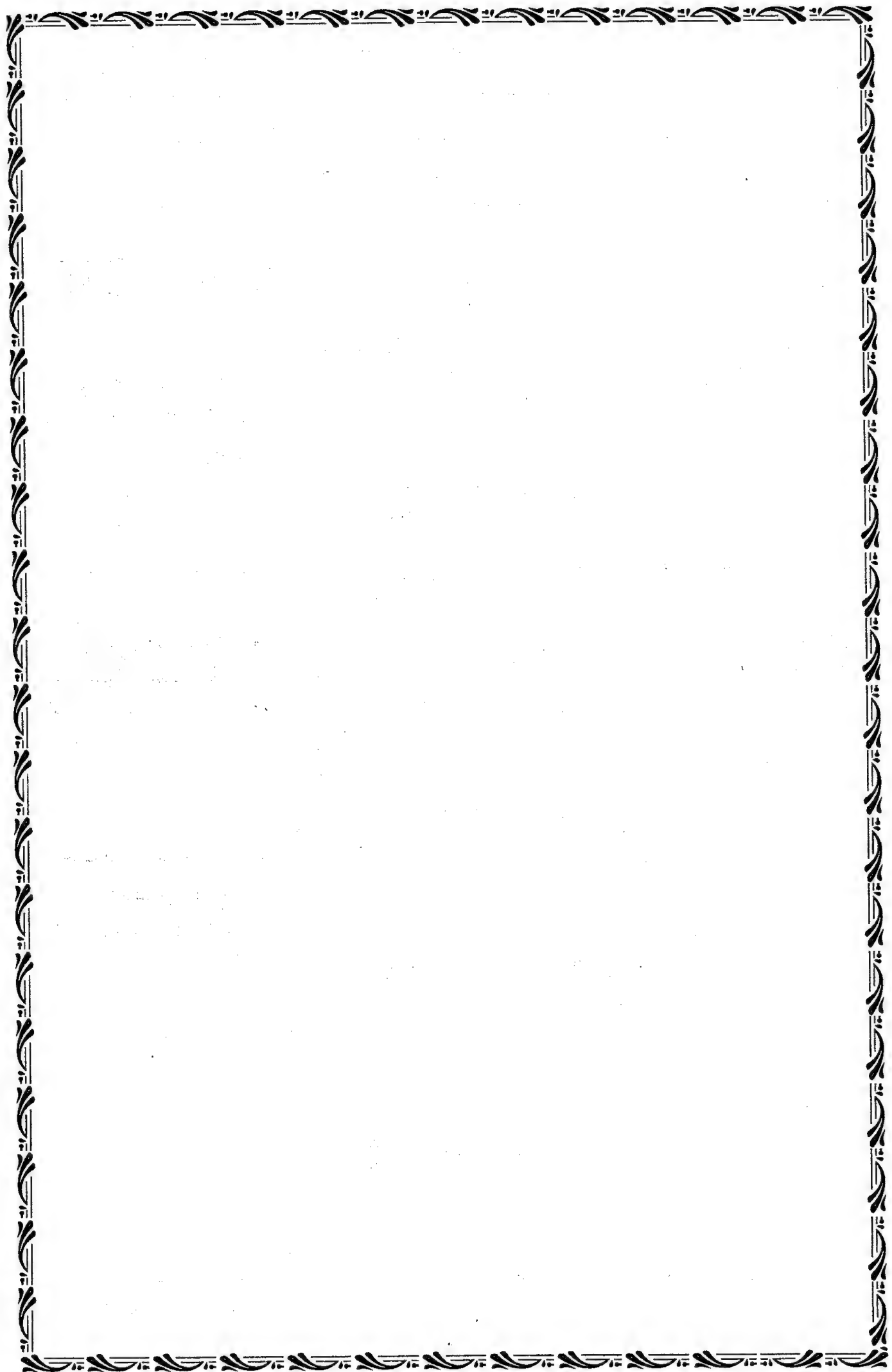
أحدهما: أَنَّ فِي ذِكْرِهَا تَثْبِيْتَ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُوجَدْ مِنْهُ الْإِخْتِلَافُ إِلَى مَنْ عِنْدَهُ / ٦٤٤ - أ /

عِلْمُ الْأَنْبَاءِ وَالْأَخْبَارِ [وَلَا]^(٦) كَانَ يَغْرِثُ الْكِتَابَةَ لَتَقَعَ لَهُ الْمَعْرِفَةُ بِهَا، فَثَبَّتَ أَنَّهُ بِالْوَحْيِ عَلِيمٌ.

والثاني: أَنَّ فِي ذِكْرِهَا تَحْذِيرًا لِمُكْذِبِي الرّسُلِ، فَحَذَّرُوا بِوَلِيْمَتَيْنِ عَنْ تَكْذِيبِهِ، فَلَا يَحُلُّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِمُكْذِبِي صَالِحٍ ﷺ مِنْ بَاسِهِ وَعَذَابِهِ، وَاللَّهُ الْهَادِي [وَعَلَيْهِ اِغْتِمَادِي]^(٧).



(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: سَوَّاهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: مُنْصَرِفًا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنْ م.



سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآيتان ١ و ٢

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَافَىٰ﴾ جَعَلَ اللَّهُ تعالى الليل والنهار آيتين عظيمتين ظاهرَتين مُكَرَّرَتَيْنِ على الخليق ما يَعْرِفُ كُلُّ كَافِرٍ وَمُؤْمِنٍ وَجَمِيعِ أَهْلِ التَّنَازُعِ الَّذِينَ تَنَازَعُوا: أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْجَبَابِرَةِ^(١) والفراعة.

والقسم بقوله: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [وقوله]^(٢) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ٢١] واحد. وقد ذُكِرْنَا أَنَّ الْقَسَمَ إِنَّمَا يُذَكِّرُ فِي تَأْكِيدِ مَا يَقَعُ بِهِ الْقَسَمُ مَا لَوْ لَا الْقَسَمُ لَكَانَ [ذلك]^(٣) يُوجِبُ دُونَ الْقَسَمِ؛ وَذَلِكَ لِإِعْظَمِ مَا فِيهِمَا حَتَّى قَهَرَا جَمِيعَ الْفِرَاعَةِ وَالْجَبَابِرَةِ، وَغَلَبَا عَلَيْهِمْ فِي إِيْتَانِهِمَا وَذَهَابِهِمَا حَتَّى إِنْ مَنْ أَرَادَ مِنْهُمْ دَفْعَ هَذَا وَمَجِيءَ هَذَا مَا قَدَّرُوا عَلَيْهِ. وَفِيهِمَا دَلَالَةٌ وَخَدَائِيقٌ وَأَلْوَهِيَّةٌ، فَاتَّسَقَتْهُمَا^(٤) أَوْ جَرَيَانُهُمَا عَلَى حَدِّ وَاحِدٍ وَسَنَنِ وَاحِدٍ مُذْ كَانَا، وَأَنْشِئْنَا مِنَ الظُّلُمَةِ وَالنُّورِ وَالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ، قَدَلَّ جَرَيَانُهُمَا عَلَى مَا ذُكِّرْنَا أَنَّ مُنْشِئَهُمَا وَاحِدٌ؛ إِذْ لَوْ كَانَ فِعْلٌ عَدَدٍ لَكَانَ إِذَا جَاءَ هَذَا، وَغَلَبَ الْآخَرُ، دَامَتْ غَلَبَتُهُ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ الْآخَرُ يَكُونُ مَغْلُوبًا أَبَدًا وَالْآخَرُ غَالِبًا. فَإِذَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ دَلَّ أَنَّهُ فِعْلٌ وَاحِدٌ. وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ لَيْسَ ذَلِكَ عَمَلُ النُّورِ وَالظُّلُمَةِ عَلَى مَا تَقَوْلُهُ الثَّنَوِيُّ، وَيَدُلُّ أَيْضًا [على أَنَّ]^(٥) مَنَافِعَ أَحَدِهِمَا بِمَنَافِعِ الْآخَرِ وَعَلَى^(٦) أَنَّ ذَلِكَ عَمَلٌ وَاحِدٌ لَا عَدَدٍ.

وَدَلَّ اتِّسَاقُ مَا ذُكِّرْنَا وَدَوَامُهُ^(٧) عَلَى حَدِّ وَاحِدٍ عَلَى الْإِسْتِثْوَاءِ أَنَّ مُنْشِئَهُمَا مُدَبَّرٌ عَلَيْهِمْ، عَنْ تَدْبِيرٍ وَعِلْمٍ خَرَجَ ذَلِكَ لَا عَلَى الْجُزْأَيْنِ بِلَا تَدْبِيرٍ. وَدَلَّ مَجِيءُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِطَرَفَةٍ عَيْنٍ عَلَى أَنَّ مُنْشِئَهُمَا قَادِرٌ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْ بَعَثٍ وَغَيْرِهِ^(٨). وَدَلَّ مَا ذُكِّرْنَا أَنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ حَكِيمٌ، عَنْ حِكْمَةٍ خَرَجَ فِعْلُهُ، لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَنْزُكَّهُمْ سُدًى، لَا يَأْمُرُهُمْ، وَلَا يَنْهَاهُمْ [وَلَا يَمْنَحُهُمْ]^(٩) بِأَمُورٍ. وَكَذَلِكَ جَعَلَ فِي مَا ذُكِّرَ [مِنَ الذِّكْرِ]^(١٠) وَالْأُنْثَى مِنَ الدَّلَالَاتِ وَالْآيَاتِ مِنَ الْإِزْدِوَاجِ وَالتَّوَالِدِ وَالتَّشَابُلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ حَرْفَ: مَا مَتَى قُرِنَ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي صَارَ بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَخَلَقِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ، فَيَكُونُ قَسَمًا بِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ، إِذْ لَا يَخْلُو شَيْءٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَىٰ، وَكَذَلِكَ ذُكِرَ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: [وَخَلَقِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ]^(١١). وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ كَذَلِكَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَا ههنا بِمَعْنَى الَّذِي، كَأَنَّهُ قَالَ: وَالَّذِي خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ، فَيَكُونُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الْقَسَمُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَعَلَى التَّوَالِدِ الْأَوَّلِ بِالذِّكْرِ وَالْأُنْثَىٰ.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لُمُخْتَلَفٌ﴾ قَالُوا: عَلَى هَذَا وَقَعَ الْقَسَمُ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ كُلًّا يَغْلَمُ مِنْ كَافِرٍ وَمُؤْمِنٍ أَنْ سَعْيَكُمْ لُمُخْتَلَفٌ، فَمَا الْحِكْمَةُ وَالْفَائِدَةُ مِنْ ذِكْرِ الْقَسَمِ عَلَى مَا يَغْلَمُ كُلُّ ذَلِكَ؟

(١) فِي الْأَصْلِ دَمٍ: مِنَ الْجَبَابِرَةِ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ دَمٍ. (٣) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ دَمٍ. (٤) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ دَمٍ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ دَمٍ. (٦) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ دَمٍ. (٧) فِي الْأَصْلِ دَمٍ: وَدَوَامُهَا. (٨) فِي الْأَصْلِ دَمٍ: وَلَا غَيْرِهِ. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١١) فِي الْأَصْلِ دَمٍ: وَالذِّكْرُ.

[قِيلَ: الرَّجُلُ] ^(١) فيه، والله أعلم أن ما يَقَعُ لَهُمُ بالسَّعْيِ وما يَسْتَوْجِبُونَ بِهِ مُخْتَلَفٌ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ جَزَاءُ السَّعْيِ، كَانَهُ قَالَ: إِنَّ جَزَاءَ سَعْيِكُمْ وَثَائِبُهُ لَمُخْتَلَفٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ كَانَتْ دَارُ أُخْرَى عَلَى مَا يَقُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ فَنَحْنُ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ بقوله: ﴿وَلَكِنْ زُودْتُ إِيَّاكَ رَبِّي لِأَجْدَنَ حَيْثُ مِنْهَا مُقْبَلًا﴾ [الكهف: ٣٦] أو أَن يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ سَيِّئَكَ لَنُفْقٌ﴾ لِأَنَّ الْمُعْطِيَّ فِي الشَّاهِدِ يَنْفَعُ غَيْرَهُ، وَيَضُرُّ نَفْسَهُ فِي الظَّاهِرِ، وَالْمُمْسِكُ يَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَضُرُّ غَيْرَهُ ^(٢) ثُمَّ الْمُعْطِيُّ مَحْمُودٌ عِنْدَ النَّاسِ. فَلَوْ لَمْ تَكُنْ عَاقِبَةُ، يَنْتَفِعُ الْمُعْطِيُّ بِمَا أُعْطِيَ، وَيَضُرُّ الْبَخِيلُ الْمَنْعَ لَكَ النَّاسُ بِمَا حَمَدُوا هَذَا، وَذَمُّوا الْآخَرَ، سَفَهَاءً. ذَلِكَ ^(٣) أَنَّ الْعَاقِبَةَ، هِيَ الَّتِي تُصَيِّرُ هَذَا مَحْمُودًا، وَأَنَّ الْخَلْقَ جَمِيعًا مِنْ مُسْلِمٍ وَكَافِرٍ وَمُحْسِنٍ وَمُسِيءٍ قَدْ اسْتَوَوْا فِي نِعَمِ هَذِهِ الدُّنْيَا وَلِذَلِكَ بِمَا ذَكَّرْنَا مِنْ مَمَرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِمَّا يَخْلُقُ فِيهِمَا مِنَ النَّبَاتِ وَالشَّجَرِ وَالْعَيُونِ وَالْأَشْجَارِ.

فَإِذَا وَقَعَ الْإِسْتِوَاءُ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَيَبْدَأُ الْأَخْبَارُ عَنِ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ أَنَّ النَّاسَ شُرَكَاءُ فِي الْمَاءِ وَالنَّارِ وَالْكَلَالِ، فَلَا ^(٤) بَدْءَ مِنْ دَارٍ أُخْرَى لِلْأَشْيَاءِ وَالْأَبْرَارِ لِيَقَعَ بِهَا التَّفَاوُتُ بَيْنَ الْأَبْرَارِ وَالْأَشْرَارِ أَوْ النَّافِعِ مِنْهُمْ نَفْسُهُ وَالضَّارِّ.

وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُمَا اسْتَوَيَا فِي مَنَافِعِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَجَمِيعِ مَا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَنْزَالِ وَغَيْرِهَا، فَإِذَا وَقَعَ الْإِسْتِوَاءُ بَيْنَهُمَا فِي الدُّنْيَا فَلَا بَدْءَ مِنْ دَارٍ أُخْرَى يَقَعُ التَّفَاوُتُ وَالتَّفَاوُلُ بَيْنَهُمَا، وَفِيهَا يُمَيِّزُ مَا ذَكَّرْنَا.

الآيات ٥ - ١٠ ثُمَّ يَبَيِّنُ أَنَّ السَّعْيَ [الَّذِي] ^(٥) يَقَعُ الْجَزَاءُ لَهُ مُخْتَلَفٌ لِمَا ^(٦) ذَكَرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿فَسَيَرْزُقْهُ يَغْنَى﴾ [وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَغْنَى] ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ [فَسَيَرْزُقْهُ يَغْنَى] ^(٧) وَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِهِ:

[أَحَدُهُمَا] ^(٨): يَخْتَلِفُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿أَيِ أَعْطَى مَا [أَمَرَ اللَّهُ] ^(٩) بِهِ، وَاتَّقَى عِضْيَانَهُ وَكُفْرَانَ نِعَمِهِ، أَوْ أَتَقَى الْمَنْعَ، أَوْ [مَنْ] ^(١٠) أَعْطَى التَّوْحِيدَ لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ نَفْسِهِ، وَاتَّقَى الشُّرْكَ وَالْكَفْرَانَ لِنِعَمِهِ، وَصَدَّقَ بِمَوْعُودِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فَسَيَرْزُقْهُ يَغْنَى﴾ لِلْأَعْمَالِ وَالشَّرَائِعِ أَوْ لِيُزْجِحَ صَدْرَهُ لِلتَّوْحِيدِ وَالْإِسْلَامِ، وَيُسِّرَّهُ عَلَيْهِ ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ﴾ وَلَمْ يَأْتِ بِالتَّوْحِيدِ ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا عِنْدَهُ، وَكَذَّبَ بِمَوْعُودِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فَسَيَرْزُقْهُ يَغْنَى﴾ لِمَا يُعْذُّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالثَّانِي: فِي حَقِّ الْقَبُولِ وَالْعَزْمِ عَلَى وِفَاءِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ أَيْ قَبِلَ الْإِعْطَاءَ، وَعَزَمَ عَلَى وِفَاءِ ذَلِكَ ﴿وَأَتَّقَى﴾ أَيْ عَزَمَ [عَلَى] ^(١١) اتِّقَاءَ مَعَاصِي اللَّهِ وَمَحَارِمِهِ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أَيْ بِمَوْعُودِهِ ﴿فَسَيَرْزُقْهُ يَغْنَى﴾ أَيْ سَيُسِّرُهُ لَوْفَاءِ مَا عَزَمَ ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ﴾ أَيْ [عَزَمَ] ^(١٢) عَلَى الْبُخْلِ وَالْمَنْعِ بِذَلِكَ ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ بِالَّذِي لَهُ عِنْدَهُ، وَكَذَّبَ بِمَوْعُودِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فَسَيَرْزُقْهُ يَغْنَى﴾ لَوْفَاءِ مَا عَزَمَ مِنَ الْخِلَافِ لِلَّهِ تَعَالَى وَالْمَعْصِيَةِ لَهُ.

وَعَلَى ذَلِكَ يُخْرِجُ مَا رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ / ٦٤٤ - ب / ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «كُلُّ مُسِيرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» [مُسْلِم] ٢٦٤٩ أَوْ قَالَ: «كُلُّ مُسِيرٍ لِمَا عَمِلَ» [الْبُخَارِي ٤٩٤٩].

وَالثَّلَاثُ: يُخْرِجُ عَلَى حَقِيقَةِ إِعْطَاءِ مَا وَجَبَ مِنَ الْحَقِّ فِي الْمَالِ وَحَقِيقَةِ الْمَنْعِ؛ يَقُولُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ مَا وَجَبَ مِنَ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَا لَهُ ﴿وَأَتَّقَى﴾ نِقْمَةَ اللَّهِ وَمَقْتَهُ وَعَذَابَهُ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أَيْ بِمَوْعُودِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فَسَيَرْزُقْهُ يَغْنَى﴾ فِي الْخَيْرَاتِ وَالطَّاعَاتِ ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَغْنَى﴾ أَيْ مَنَعَ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي فِي مَالِهِ ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ بِالَّذِي وَعَدَ عَلَى ذَلِكَ ﴿فَسَيَرْزُقْهُ يَغْنَى﴾ فِي الْإِفْضَاءِ إِلَى مَا وَعَدَ.

الآية ١١ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَتَّقِ عَنَّا مَالَهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ قِيلَ: إِنَّ أَهْلَكَ، وَمَاتَ، أَوْ تَرَدَّى فِي النَّارِ.

وَفِي ظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَتَّقِ عَنَّا مَالَهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ فِي حَقِيقَةِ الْإِعْطَاءِ مِنَ الْمَالِ وَالْمَنْعِ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(١٣): ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: بِالْجَنَّةِ، وَقِيلَ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَقِيلَ: بِالْخَلْفِ عَلَى مَا اتَّفَقَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَالْوَجْهَ. (٢) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: قَدَل. (٤) الْغَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ م. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: أَمْر. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

وجائز أن تكون اليسرى اسماً^(١) للجنة، وكذلك الحسنى، والعسرى والسواى النار. ويَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ اسماً لكل ما طاب، وحسن من العمل، والعسرى ما خُبث، وقُبِحَ مِنَ الْعَمَلِ.

ومنه من قال: إن الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه إنه اشترى بلالاً من أمية بن خلف وأبي بن خلف بريدة وعشر أواق [من الذهب]^(٢) فاعتقه لله تعالى، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَنشَغَرُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ سَيِّدَكَ لَشَقِيٌّ﴾ يعني سعي أبي بكر وأميه وأبي. وذكر في آخر السورة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَفْطَرَّ وَاسْتَكْبَرَ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ ﴿فَسَيَّئِرُ الْمُسْرَى﴾ أبو بكر رضي الله عنه ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخِلُّ وَاسْتَكْفَرُ﴾ ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ ﴿فَسَيَّئِرُ الْمُسْرَى﴾ أمية بن خلف [وأبي بن خلف]^(٣) يزوي^(٤) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه هذا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ هذا يُخْرِجُ عَلَى وَجوه:

أحدها: جائز أن يكون ﴿عَلَيْنَا﴾ أي لنا، وذلك جائز في اللغة جارٍ كقوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] أي للنُّصُبِ وكقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وكقوله^(٥): ﴿ثُمَّ لَنْ عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٦] أي لنا مُحَاسَبَتُهُمْ [وكقوله]^(٦): ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] أي لله قَصْدُ السَّبِيلِ وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] أي لربهم كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْكَائِبِينَ﴾ [المطففين: ٦٠]

ونحو ذلك كثير: أن يكون علينا بمعنى لنا، فيصير كأنه قال: إن لنا للهدى كقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] وكقوله: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢] يكون فيه إخبار أن الهدى والدين الخالص له. وأما سائر الأديان فهي^(٧) سبيل الشيطان، ليست لله تعالى.

على هذا جائز أن يُخْرِجَ تأويل الآية. والوجهان يُخْرِجان على حقيقة على. لكن أحدهما يُخْرِجُ ذِكْرَ الْهُدَى عَلَى إرادة البيان في تبين الطريق، والآخر على إرادة حقيقة الهدى [الذي]^(٨) هو ضد الكفر ومقابلته.

فأما على إرادة البيان فكأنه قال: إن علينا غاية البيان في حق الحكمة والعَدْلِ في ما يُمْتَحَنُونَ حتى إن كان التفسير والتفريط فإنما يكون من قبل أنفسهم لا من قبل الله تعالى، أو يبين لهم كل شيء غاية البيان ونهايته لتزول الشبهة عنهم، والله أعلم.

[والثاني: جائز]^(٩) أن يقول: إن علينا هداية من استهدانا^(١٠)، واجتهد في طلبها كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

[والثالث:]^(١١) أن علينا إنجاز ما وعدنا على الهدى لِمَنْ اهْتَدَى.

وإنجاز^(١٢) يُخْرِجُ تأويل الآية على أن إرادة البيان من الوجوه التي ذكرنا. وأما على إرادة حقيقة الهدى الذي هو مقابل الكفر فكأنه قال: إن علينا التوفيق والمعونة والعصمة في حق الإحسان والإفضال لا على أن ذلك عليه لهم. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: إن علينا بيان ما للأخرة والأولى كيلا يزول^(١٣) عن قصد الطريق، فتَهْلِكَ نفسه في كل مضيق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلَّا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ فهو يُخْرِجُ عَلَى وجهين:

أحدهما: يقول، والله أعلم، إنكم تعلمون أن لنا الآخرة والأولى، وليس لِمَا تَعْبُدُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى، فكيف صرفتم عبادتكم عَمَّنْ لَهُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى إِلَى مَنْ لَيْسَ لَهُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى عَلَى عِلْمٍ مِنْكُمْ بِذَلِكَ؟ يُسَفِّهُهُمْ فِي اخْتِيَارِهِمْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

(١) في الأصل وم: اسم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: يرويه. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ويحتمل وجهاً آخر وهو. (١٠) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: استمد. (١١) في الأصل وم: ووجه آخر. (١٢) في الأصل وم: وإخباره. (١٣) في الأصل وم: يزول.

والثاني: يقول، والله أعلم: ﴿وَلَا تَأْكُلْ أَمْوَالَكُم بَالٍ بَالًا﴾ فما لكم تبخلون بالإنفاق على أنفسكم وما ترجع منفعتكم إليكم بما ليس لكم في الحقيقة، وإنما هو لله تعالى وهذا التأويل صلة قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ يَبْذُلْ وَاسْتَفْتَى﴾ والأول صلة قوله: ﴿إِنَّ مَتَابَنَا لِلَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكَ نَارًا تَلْفَلْ﴾ أي ناراً تتوقد، وتتلهب، وتتشعب، على ما ذكر من صفتها.

الآية ١٤

ثم الإنذار يكون للفرقيين لأهل التوحيد ولأهل الشرك جميعاً، والله أعلم.

الآيتان ١٥ و ١٦

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْلَمُ إِلَّا الْأَشْقَى﴾ ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ قالت المعتزلة: هذا ليس على حقيقة التكذيب، ولكن على التفسير والتفريط في أمر الله تعالى والوقوع في مناهيه. فيصرون الآية إلى أصحاب الكبائر بارتكابهم الكبيرة، ويصرون^(١) مكذبين ومتولين لأنهم في ابتداء اعتقادهم التوحيد والإيمان اعتقدوا وفاء كل ما وقع به الأمر وفاء كل ما يليق به والانهاء عن كل ما لا يليق به.

فإذا ترك [المرء]^(٢) ذلك صار مكذباً لما اعتقد في الأصل وفاء ذلك.

لكن عندنا لا يصير بترك الوفاء مكذباً، لكن يصير مخالفاً لما وعد، واعتقد.

واستدلَّت المُرْجئة الذين لا يرون العذاب إلا لأهل الشرك والكفر بهذه الآية؛ يقولون: إنه لا يضلها إلا الذي كذب، وتولى، والمسلم، وإن ارتكب الكبيرة والصغيرة، فهو ليس بمكذب ولا متول.

ولكن تأويل الآية عندنا في الكفرة، ليست في أهل الإيمان.

ثم يحتمل قوله: ﴿لَا يَسْلَمُ إِلَّا الْأَشْقَى﴾ ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ في باب ودرك دون ذلك وباب [من النار]^(٣) فإن لكل^(٤) فريق ذكراً. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْكُفَّارِينَ فِي الْأَذَى الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وهذا كما قال: ﴿لَيْسَ لَكُم مَعَامٌ إِلَّا مِنْ رَبِّهِ﴾ [الغاشية: ٦] وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَنِيِّ﴾ [الحاقة: ٣٦]. فيكون الضريع الذي ذكر في باب ودرك منها والغشيل في باب آخر، فجازر على هذا ألا يضل ذلك الذك إلا الأشقى، ويجوز^(٥) أن يكون لصاحب الكبيرة ذلك خاص.

وأما ما ذكروا أن أصحاب الكبائر قد أوعدوا، وخوفوا بمواعيد شديدة، فلسنا نكثر المواعيد لهم وأنهم يُعذبون، ولكن نقول: لا يكونون في الذركات التي فيها الكفار، إن أدخلوا في النار / ٦٤٥ - أ / وجزاء أيضاً أن يُعذبوا بعذاب سيوى العذاب الذي ذكر بالنار والتلظى.

وعندنا هم في مشيئة الله تعالى؛ إن شاء عذبهم، وإن شاء تجاوز عنهم، وحلّى عنهم سبيلهم. وأما النار التي ذكر بصفتها التلظى، فهي للكفار، والله أعلم.

الآيتان ١٧ و ١٨

وقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ أخبر أنه يُجَنَّب النار عن الأتقى، ويقيها عنها.

ثم فيه دلالة أنه إنما يتجنبها، ويقيها، بالأعمال التي يعملها، فدل أن الله تعالى في أفعالهم صنفاً حين^(٦) أضاف الوقاية إليه والتجنب عنها، وهو كقولهِ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الْأَشْيَاءِ حَسَنَةٌ وَفِي الْأَشْيَاءِ حَسَنَةٌ وَفِي عَذَابِ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

الآيتان ١٩ و ٢٠

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكَ مِنْ نَعْمَةٍ تُجْزَى﴾ ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [يحتمل وجهين:

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وباب. (٤) من م، في الأصل: كل. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فاما يجوز. (٦) في الأصل وم: حيث.

أَحَدُهُمَا: أَنْ^(١) مَا لِأَحَدٍ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ نِعْمَةٍ يُجْزَى بِهَا، وَلَا يَدَّ يَسْتَحِقُّ [الثواب]^(٢) بِهَا. لَكِنْ إِذَا آتَى نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي أَعْطَاهَا لِإِبْنِهِ لِيُغَيِّرَ ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ، وَطَلَبَ مَرْضَاتِهِ، يُجْزِيهِ بِفَضْلِهِ، كَأَنَّهُ كَانَتْ لَهُ عِنْدَهُ نِعْمَةٌ، يُجْزِي بِهَا. وَالثَّانِي: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ^(٣) صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ أَي يَتَصَدَّقُ، وَيَتَزَكَّى لِابْتِغَاءِ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَنْ لَيْسَ عِنْدَهُ نِعْمَةٌ وَيَدَّ يُجَازِيهِ بِهَا، وَيُتَفَوَّقُ عَلَيْهِ جَزَاءً لِصَنِيعِ قَدْ سَبَقَ مِنْهُ فِي حَقِّهِ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا يُعْطِي الزَّكَاةَ أَحَدًا عَنْ مُجَازَاةٍ [مَا]^(٤) سَبَقَ مِنْهُ إِلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ، إِنَّمَا أَعْطَاهُ لَهُ لَا مُجَازَاةً، وَلَكِنْ لِلَّهِ تَعَالَى خَالِصًا. وَفِيهِ دَلِيلٌ أَلَّا يُعْطِيَ الرَّجُلُ زَكَاةً مَالِهِ مَنْ عِنْدَهُ لَهُ نِعْمَةٌ أَوْ مِثْلُهَا لِأَنَّهُ يُخْرِجُ ذَلِكَ مُخْرَجَ الْإِعْطَاءِ بِبَدَلٍ.

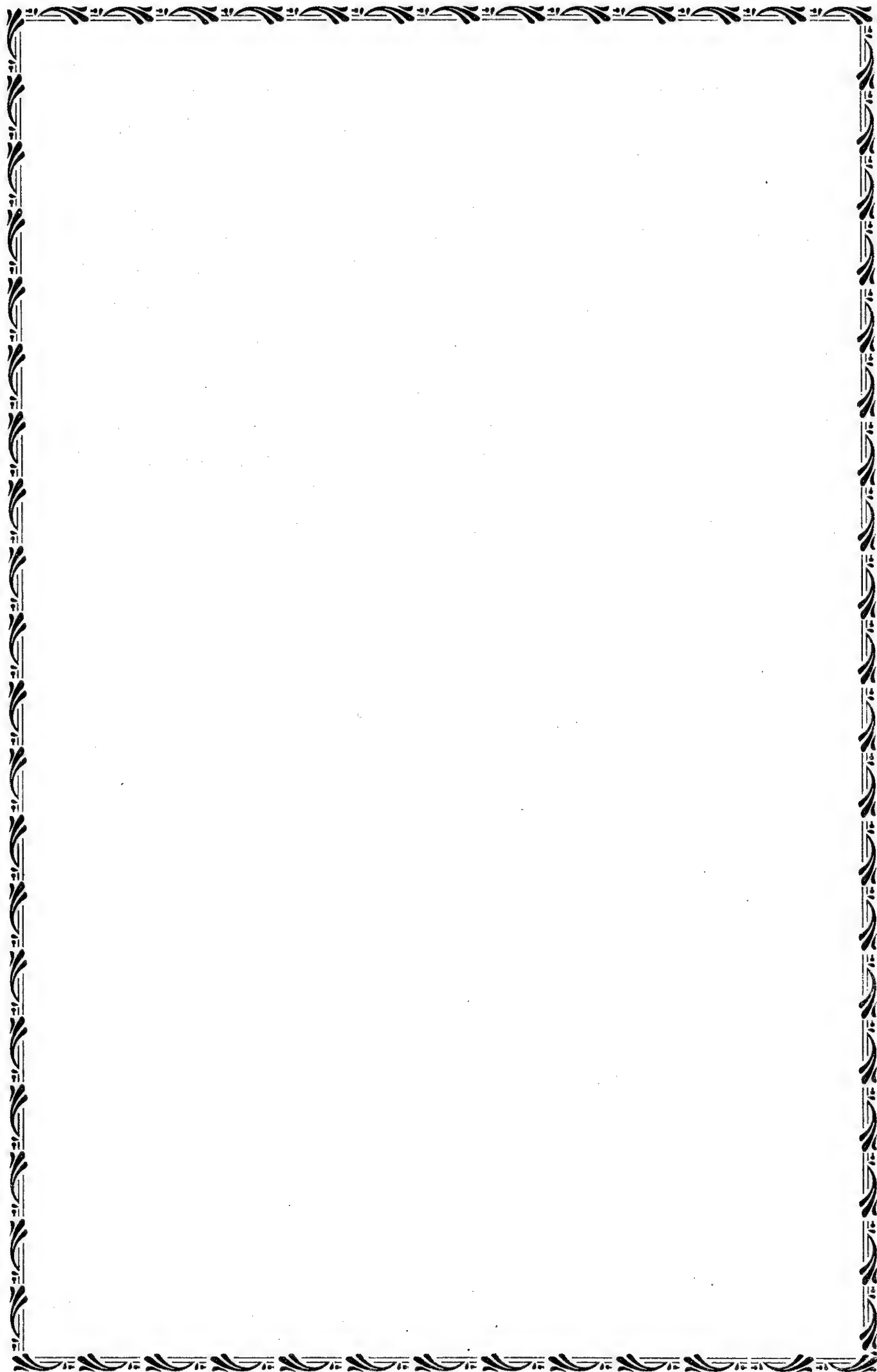
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ أَي يَرْضَى بِالَّذِي يُجْزَى بِهِ، وَيُسَاقُ إِلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ. وَحَرْفُ: ال: سَوْفَ وَ ال: عَسَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَاجِبٌ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: يُعْطِيهِ حَتَّى يَرْضَى.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَهُوَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكَ مِنْ فَتْنَةٍ تُجْزَى﴾ فِي أَبِي بَكْرٍ ﷺ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَبِي الدُّحْدَاحِ ﷺ طَلَبَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْهُ نُحْلَةً إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ^(٥).

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْأَدَبِ: ﴿تَزَكَّى﴾ [الآية: ١١] فِي النَّارِ، أَي سَقَطَ، وَيُقَالُ: ﴿تَزَكَّى﴾ تَفَعَّلَ مِنَ الرَّذَى، وَهُوَ الْهَلَاكُ، وَ﴿إِذَا تَجَلَّى﴾ [الآية: ٢] إِذَا بَدَأَ، وَ﴿لِيُتْرَى﴾ [الآية: ٧] مِنَ التَّيْسِيرِ، وَ﴿لِيُتْرَى﴾ [الآية: ١٠] مِنَ التَّعْسِيرِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. [وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ الطَّاهِرِينَ]^(٦).



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَي. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: هَذَا. (٤) فِي م: قَدْ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) لَقَدْ ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ خَبْرًا آخَرَ عَنْ أَبِي الدُّحْدَاحِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٢٤٥ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَتَصَدَّقَهُ بِحَدِيقَةٍ لَهُ، انْطَرَجَ ٤٣٨/١. (٦) سَاقِطَةٌ مِنْ م.



سورة الضحى

وهي مكية^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و ٢

قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ قال بعضهم: الضُّحَى ضوء النهار كقوله تعالى: ﴿وَضُحًى﴾ [الشمس: ١] أي وضوئها. وقال بعضهم: هو ساعة من النهار، وهي من أول النهار. ويقال: صلاة الضُّحَى، وهي عند ضُحوة النهار. ومنهم من يقول: هو كناية عن الحر كقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٨ و ١١٩] أي لا يصيبك الحر، والله أعلم. ومنهم من يقول: هو كناية عن النهار كله؛ أقسم به وبالليل الذي ذكر. فإن كان المراد من ﴿وَالضُّحَى﴾ هو ضوء النهار ومن ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ ظلمته، فيخرج القسم به على أن ظلمة الليل تستر الخلاق كلهم في طرفة عين، وكذلك ضوء النهار يكشف الستّر، ويجلي بطرفة عين جميع الخلاق من غير أن يعلم أحد يقل ذلك الستّر أو خفة ذلك الضوء. فأقسم بذلك لعظيم ما فيها من الآيه.

وإن كان المراد منه نفس الليل والنهار، فالقسم بهما لما جعل الله فيهما من المنافع الكثيرة.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا سَجَى﴾ اختلف فيه: قال بعضهم: إذا استوى. وقال بعضهم: إذا سكن، وركد. وقال بعضهم: ﴿إِذَا سَجَى﴾ إذا غشي، وأظلم، وعطى كل شيء، وستر، وهو من التَّسْجِيَةِ والتَّسْتُرِ؛ يقال: تَسَجَى قبر المرأة إذا تَسَتَر، وتَغَطَّى.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ على هذا وقع القسم. ثم اختلف في السبب الذي نزل هذا: قال بعضهم: إن النبي ﷺ كان سئلاً عن شيء، إذ طلبوا منه شيئاً، فقال: أفعل ذلك غداً، أو أخبركم عنه غداً، ولم يستثن، فاحتبس عنه الرُخى أياماً لذلك فقال المشركون: ودَّعه ربُّه، وقلاه، أي تركه، وأبغضه. ومنهم من قال: إنه أبطأ عليه الرُخى، فجنَّ جَزَعاً شديداً، فقالت له خديجة ﷺ: إني لأرى قد قلاك ربُّك، وودَّعَكَ، [لما رأته]^(٢) من جَزَعِهِ، فنزل قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ ولنا نذري كيف كان الأمر.

فإن كان نزل ذلك لقول قريش فالقسم يحتمل ذلك ردّاً لقولهم. [وإن كان]^(٣) نزل لقول خديجة ﷺ فهو غير مُحْتَمَلٍ لأن خديجة تعلم أن الله تعالى، لم يودَّعه، ولا قلاه، وكذا كل مؤمن مُعْتَقِدٌ أن الله تعالى لا يودَّع أحداً من رسله، ولأنها تصدق الرسول ﷺ أنه لم يودَّعه، ولا قلاه، إذا أخبرها بغير قسم، فلا معنى للقسم. دل [أن]^(٤) هذا الوجه غير مُحْتَمَلٍ.

ثم صرَّف تأويل الآية إلى غير ما قالوا أشبه عندنا وأقرب مما قالوا، وهو أنه ﷺ بُعِثَ إلى الفراعنة والجبابرة الذين كانت همتهم قتل من خالفهم وإهلاك من استغفلهم بالخلاف، ولم يكن معه فضل مالٍ وسعة، يستميل به قلوب الناس، فيقول أولئك الكفرة: إن ربُّه قد خذله، وتركه، وقلاه، حين^(٥) بعثه إلى ما ذكرنا من الفراعنة والجبابرة الذين كانت همتهم القتل وعادتهم إهلاك من خالفهم بلا أنصار ولا أعوان من الملائكة ولا مالٍ وسعة يستميل به القلوب والأنفس لأن من سلَّم إنساناً إلى أعدائه الذين يعلم أنهم أعداؤه، ويخلي بينه وبين الأعداء بلا أنصار وأعوان ولا مالٍ ولا سعة من الدنيا،

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: مما ترى. (٣) في الأصل وم: والقول الثاني أنه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.

يُقَالُ: إِنَّهُ قَدْ خَذَلَهُ، وَتَرَكَهُ، وَقَلَاهُ؛ إِذْ لَا يُفْعَلُ ذَلِكَ فِي الْأَصْلِ إِلَّا لِلذَّكَ. فَمَعْدَ ذَلِكَ قَالُوا: وَدَّعَهُ، وَقَلَاهُ، وَهُوَ مَا قَالُوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْنَا الْكِتَابَ - ب/ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿أَوْ يُنْفِقُ إِلَيْنَا كَثْرًا أَوْ نَكُونُ لَمْ جَنَّةٍ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٨ و ٧] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا قَالُوا.

فلولا صَرَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ تَأْوِيلَ الْآيَةِ إِلَى مَا ذَكَرُوا، لَكَانَ^(١) صَرَفُهُ إِلَى مَا ذَكَرْنَا أَشْبَهَ.

وفي^(٢) قولهم: قَدْ وَدَّعَهُ رَبُّهُ [دَلَالَتَانِ]:

أولاهما: [٣] أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَقْرَبُوا [بِذَلِكَ]^(٤) حَتَّى قَالُوا: نَزَّلَ قَوْلُهُ: ﴿مَّا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

والثانية^(٥): أَنَّهُ لَوْ كَانَ يَخْتَرِعُ عَلَى مَا كَانَ يَقُولُ^(٦) أَوْلَنَكَ لَكَانَ لَا يَخْتَرِيسُ عَنِ الْإِخْتِرَاعِ، وَيَكُونُ يَخْتَرِعُ أَبَدًا حَتَّى لَا يَقُولُوا: إِنَّهُ وَدَّعَهُ. فَذَلِكَ ظُهُورُ اخْتِيَاكِسِ الرُّوحِيِّ أَنَّهُ عَنْ أَمْرِ يُخْبِرُ [عَنْهُ]^(٧) وَأَنَّهُ مَأْمُورٌ بِذَلِكَ.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ [لَمْ يَبْعَثْهُ]^(٨) إِلَى هَؤُلَاءِ الْفِرَاعَةِ وَالْجَبَابِرَةِ لِمَا ذَكَرَ أَوْلَنَكَ الْكُفْرَةَ أَنَّهُ خَذَلَهُ، وَتَرَكَهُ، وَقَلَاهُ، وَلَكِنْ بَعَثَهُ، وَهُوَ يَنْصُرُهُ، وَيُعِينُهُ عَلَى تَبْلِيغِ مَا أَمَرَ بِتَبْلِيغِهِ إِلَى مَنْ أَمَرَ بِتَبْلِيغِهِ، وَلَمْ يَفْلِهِ، وَلَكِنَّهُ اصْطَفَاهُ، وَاخْتَارَهُ، حَتَّى يَغْلُو أَمْرُهُ، وَيَكْثُرَ ذِكْرُهُ، وَفِي ذَلِكَ آيَةٌ^(٩) عَظِيمَةٌ عَلَى إثْبَاتِ الرِّسَالَةِ، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ بُعِثَ إِلَى مَنْ هِمَّتْهُمْ الْقَتْلُ وَالْإِهْلَاكُ لِمَنْ خَالَفَهُمْ، فَفَهَرَهُمْ جَمِيعًا، وَغَلَبَ عَلَى الْكُلِّ حَتَّى أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ فِي مَنْ قُرْبَ مِنْهُ^(١٠) وَمَنْ بَعْدَ^(١١).

الآية ٤: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا آخِرَةَ خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ يَقُولُ: مَعَ مَا أُعْطَيْتَكَ^(١٢) فِي الدُّنْيَا مِنَ الشَّرَفِ وَالذِّكْرِ وَالْعَلْبَةِ عَلَى الْفِرَاعَةِ، فَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى؛ يَرْغَبُ فِي الْآخِرَةِ، وَيُزْهِدُهُ فِي الدُّنْيَا، أَوْ يَقُولُ: إِنَّ أَوْلَى لَكَ أَنْ يَكُونَ سَعْيُكَ لِلْآخِرَةِ مِنَ الْأُولَى، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلْيَقْبِدْ﴾ [الانشقاق: ٦].

الآية ٥: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ أَي لَتُعْطَى فِي الْآخِرَةِ مَا تَرْضَى مِنَ الْكَرَامَةِ وَالشَّرَفِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَي ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ فِي الدُّنْيَا مِنَ الذِّكْرِ وَالشَّرَفِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالْعَلْبَةِ عَلَى الْأَعْدَاءِ.

وَيَخْتَمِلُ: يُعْطِيكَ فِي أَمْتِكَ مَا تَرْجُو، وَتَأْمُلُ مِنَ الشَّفَاعَةِ لَهُمْ، وَتَرْضَى.

وَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: إِنَّ أَرْجَى آيَةٍ هَذِهِ حَيْثُ وَعَدَهُ^(١٣) أَنَّهُ يُعْطِيهِ مَا يَرْضَى، وَلَا يَرْضَى أَنْ تَكُونَ أَمْتُهُ فِي النَّارِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: أَرْجَى آيَةٍ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وَعِنْدَنَا: أَرْجَى الْآيَاتِ هِيَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رُسُلَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَذَلِكَ مَا أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ، فَاسْتَغْفَرُوا لَهُمْ.

الآية ٦: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَوَّيًّا﴾ [آيَةٌ مِمَّا]^(١٤) ذَكَرَ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي ذَكَرَ فِيهِ: مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَوَّيًّا﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الآيات: ٦ و ٧ و ٨] وَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّمْ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي ذَكَرَ فِيهِ [وَهِيَ]^(١٥) فِي الظَّاهِرِ أَحْوَالٌ تُذَكِّرُ لِلتَّائِبِينَ فِي مَنْ يُقَالُ فِيهِ.

لَكِنْ فِي ذِكْرِ مَا ذُكِرَ فِيهِ مِنَ الْأَحْوَالِ ذِكْرُ بَشَارَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالنَّصْرِ لَهُ وَالْعَوْنُ آيَةٌ لَهُ عَلَى رُسُلِهِ وَنُبِيِّيهِ؛ لِأَنَّ نَفَادَ الْقَوْلِ وَعَلْبَةَ الْأَمْرِ مَعَ الْأَحْوَالِ الَّتِي ذَكَرَ أَعْظَمُ فِي الْأَعْجَابِ مِنْ نَفَادِهِ فِي أَحْوَالِ السَّعَةِ وَحَالِ قُوَّةِ الْأَسْبَابِ وَتَأْكِيدِهَا،

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَا. (٢) الرِّوَا سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: دَلَالَةٌ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالثَّانِي. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقُولُونَ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَبْعَثُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: لَآيَةٌ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: بَعْدَهُ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أُعْطِيَتْ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَعَدَلَهُ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: الْآيَةُ مَا. (١٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وهو^(١) قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ يَتِيمًا فَتَافٍ﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ ونحوه لأن أولئك الكفرة كانوا ينسبونه إلى الافتراء والاختراع من ذات نفسه، فأخبر أن اليتيم والفقير، ليس يبلغ في العلم والمعرفة المبلغ الذي يقدر على الاختراع وإنشاء الشيء من ذات نفسه على وجوه يعجز عن مثله جميع الخلائق لما لا يجد ما ينفي في ذلك، ويتحمل المؤمن حتى يبلغ مبلغ الاختراع. وكذلك ما ذكر حين^(٢) قال: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] لأنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا يُلْمِئُكُمْ بُشْرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] فالبشر إنما يتعلمون بالكتابة والخط. فإذا لم يكن لرسول الله ﷺ [حظ]^(٣) من ذلك دل أنه بالله تعالى عرف وخده.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ يَتِيمًا فَتَافٍ﴾ يَحْتَمِلُ^(٤) قوله: ﴿فَتَافٍ﴾ وجوهاً:

أحدها: وجَدَكَ يَتِيمًا فَأَوَّاكَ إِلَى عَمِّكَ حَتَّى رَبَّكَ، وَدَفَعَ عَنْكَ كُلَّ أَدَى وَأَفَى وَسَاقَ إِلَيْكَ كُلَّ خَيْرٍ وَبَرٍّ إِلَى أَنْ بَلَغْتَ [المَبْلَغَ الَّذِي بَلَغْتَ]^(٥).

والثاني: يَقُولُ قَدْ وَجَدَكَ يَتِيمًا فَأَوَّاكَ إِلَى عَدُوٍّ مِنْ أَعْدَائِهِ^(٦) حَتَّى تَوَلَّى تَرْبِيَّتَكَ، وَبَرَّكَ، وَعَظَفَ عَلَيْكَ، وَتَوَلَّى عَنْكَ دَفْعَ الْمَكْرُوهِ وَالْأَدَى، يَذْكُرُ مَنَّتَهُ وَعَظِيمَ نَعِيمِهِ عَلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ مَا ذَكَرَ، ثُمَّ صَيَّرَ عَدُوًّا مِنْ أَعْدَائِهِ^(٧) أَشْفَقَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَأَعْظَفَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

والثالث: قَدْ وَجَدَكَ يَتِيمًا فَأَوَّاكَ إِلَى نَفْسِهِ، وَعَظَفَ عَلَيْكَ، حَتَّى اخْتَصَمَكَ، وَاضْطَفَاكَ لِلرَّسَالَةِ وَالتَّبَوُّةِ حَتَّى صِرْتَ مَذْكُورًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَحَتَّى أَخَوَجَ جَمِيعَ النَّاسِ إِلَيْكَ؛ لَيْسَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ الْيَتِيمِ أَنَّهُ يَبْلُغُ شَأْنَهُ وَأَمْرُهُ إِلَى مَا بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ وَشَأْنِكَ حَتَّى صِرْتَ مَخْصُوصًا مِنْ بَيْنِ النَّاسِ جَمِيعًا فِي مَا ذَكَرْنَا مِنْ اخْتِصَاصِهِ إِيَّاكَ بِالرَّسَالَةِ، وَأَخَوَجَ جَمِيعَ النَّاسِ إِلَيْكَ؛ يَذْكُرُ عَظِيمَ مَنِّهِ وَنَعِيمِهِ عَلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ هَذَا يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِ:

الآية ٧

أحدها: يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هَدَاكَ لَدِينَهُ، وَوَفَّقَكَ لَهُ، لَوَجَدَكَ^(٨) ضَالًّا، إِذْ كَانَ مَشْهُوَّةً بَيْنَ قَوْمِ ضَلَالٍ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَهْدِيهِ، وَيَدْعُوهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَكِنَّهُ هَدَاكَ، وَأَرْشَدَكَ، فَلَمْ يَجِدْكَ ضَالًّا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] أَيْ لَوْلَا أَنَّهُ أَنْقَذَكُمْ مِنْهَا لَصِرْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ، لَوْلَمْ يُنْقَذْكُمْ مِنْهَا، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكَبُ إِلَيْنَا شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] لِأَنَّ الْبَشَرَ أَتَشَى، وَطَبَعَ عَلَى الرُّكُودِ وَالْمِيلِ إِلَى التَّعَمُّقِ الْعَاجِلَةِ وَاخْتِيَارِ الْإِسْرِ وَالْأَلَذِّ، وَلَكِنَّهُ بِفَضْلِهِ وَلُطْفِهِ تَبَيَّنَكَ، وَعَصَمَكَ، وَلَمْ يَكُنْكَ [إِلَى مَا]^(٩) طَبِغْتَ، وَأَنْشِئْتَ فِي أَصْلِ الْخَلْقَةِ.

فَعَلَى ذَلِكَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ أَيْ لَوْلَا أَنَّهُ هَدَاكَ لَوَجَدَكَ^(١٠) ضَالًّا، وَلَمْ يَهْدِكَ، فَفِيهِ أَنَّهُ هَدَا، وَلَمْ يَجِدْهُ ضَالًّا.

والثاني: يَقُولُ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ لَا ضَلَالٌ كَسَبَ وَاخْتِيَارَ، وَلَكِنْ ضَلَالٌ خَلَقَ الَّتِي أَنْشِئَ عَلَيْهَا الْخَلْقَ، وَالضَّلَالُ بِمَعْنَى الْجَهْلِ، لِأَنَّ الْخَلْقَ فِي ابْتِدَاءِ أَحْوَالِهِمْ يَكُونُونَ جُهَالًا لَا جَهْلَ كَسَبَ يَلْمُونَ عَلَيْهِ، أَوْ يَكُونُ لَهُمْ عِلْمٌ يُحْمَدُونَ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ جَهْلٌ خَلَقَ [وَضَلَالٌ خَلَقَ]^(١١) لِمَا لَيْسَ مَعَهُمْ أَلَّةٌ دَرْكَ الْعِلْمِ، فَلَا صُنْعَ لَهُ فِي كَسَبِ الْجَهْلِ.

فَأَمَّا بَعْدَ الظُّفْرِ بِالْأَلَةِ الْعِلْمِ يَكُونُ الْجَهْلُ مُكْتَسَبًا، فَيَذُمُّ عَلَيْهِ، وَكَذَا الْعِلْمُ، فَيَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْحَمْدُ وَالذَّمُّ.

فَعَلَى ذَلِكَ يَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ أَيْ وَجَدَكَ جَاهِلًا عَلَى مَا يَكُونُ فِي أَصْلِ الْخَلْقَةِ وَحَالَةِ الصُّغَرِ،

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ أَنْ يَكُونَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) أُدْرِجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَعْدَائِكَ. (٧) أُدْرِجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: دَفْعَ الْمَكْرُوهِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَا وَجَدَكَ. (٩) فِي الْأَصْلِ: عَلَى، فِي م: عَلَى مَا. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَا وَجَدَكَ. (١١) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

فَهَذَا إِلَى عِلْمِكَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكَسْبُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْتَلِمْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كَيْسٍ﴾ يَذْكُرُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ / ٦٤٦ - أ / يَدْرِي شَيْئًا حَتَّى أَذْرَاهُ، وَعَلَّمَهُ.

وَالثَّالِثُ: يَقُولُ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أَيِ غَافِلًا عَنِ [الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ] ^(١) وَأَخْبَارِهِمْ حَتَّى أَظْلَعَكَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ نَقَضَ عَلَيْهِ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

[وَالرَّابِعُ] ^(٢): يَقُولُ: وَوَجَدَكَ فِي أَمْرِ الْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ جَاهِلًا غَافِلًا عَنْ عِلْمِهِ ^(٣)، فَأَعْلَمَكَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَوَجَدَكَ بَيْنَ قَوْمٍ ضَلَالٍ، فَهَذَا، أَيِ أَخْرَجَكَ مِنْ بَيْنِهِمْ، مَا لَوْ لَمْ يُخْرِجَكَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ لَدَعَوْكَ إِلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَأَجْبَرُوكَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْضَوْا مِنْكَ إِلَّا ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ عَنْ طَرِيقِ مَكَّةَ، فَهَذَا لِلتَّوْحِيدِ.

وَلَكِنْ هَذَا وَخَشٍ مِنَ الْقَوْلِ؛ إِذْ لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى ذَلِكَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ فَهَذَا لِلتَّبَوُّةِ. فَهُوَ قَرِيبٌ مِمَّا ذَكَرْنَا.

الآية ٨

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ أَيِ فَقِيرًا فَاغْنَاكَ بِمَا أَرَاكَ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ وَمَا يَسُوقُ إِلَيْكَ مِنْ نَعِيمِهَا، أَيِ بِمَا أَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ وَمَا وَعَدَ لَهُ مِنَ النِّعَمِ وَالْكَرَامَاتِ، فَهَئِثَ عَلَيْهِ الدُّنْيَا حَتَّى ذُكِرَ أَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ تَعْدِلُ عَنْدهُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ. وَكَذَلِكَ رُويَ أَنَّ «الغنى غنى القلب» [السهمي في تاريخ جرجان ص ١٤٠].

وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ جَعَلَ لَهُ ^(٤) مَالًا؛ بِلُطْفِهِ أَغْنَاهُ كَمَا رُويَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «أَنَّهُ نَهَى عَنِ الْوَصَالِ، فَقِيلَ: أَنْتَ تُوَصِّلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ ﷺ: أَنَا لَسْتُ كَأَحَدِكُمْ إِنْ رَبِّي يُطْعِمُنِي، وَيَسْقِينِي» [البخاري ١٩٦٥].

فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ ﷻ لُطْفًا أَغْنَاهُ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يُطْلِعْنَا عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَغْنَاكَ بِمَالِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَقَالَ بَعْضُهُمْ «فَأَغْنَى» أَيِ فَارْضَاكَ بِمَا أَعْطَاكَ مِنَ الرِّزْقِ، وَافْتَعَلَكَ.

الآية ٩

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ^(٥)، فَالْكَهْرُ الزُّجْرُ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَلَا تَزُجِّرْ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ أَيِ لَا تَمْنَعْ حَقَّهُ، وَادْفَعْ إِلَيْهِ حَقَّهُ وَمَالَهُ، أَوْ يَكُونَ ذَكَرَ هَذَا لِيَقُولَ: كُنْتُ يَتِيمًا، وَرَأَيْتُ حَالَ الْيَتِيمِ فَيَكُونُ عَلَى الصَّلَةِ لِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَأَزَى﴾ ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ الْيَتِيمَ بَعْدَ ذَلِكَ.

الآية ١٠

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٦): ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أَيِ كُنْتُ مُحْتَاجًا فَقِيرًا، فَعَرَفْتُ مَحَلَّ الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ وَشِدَّةَ حَالِهِ ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ السَّائِلَ، أَيِ لَا تَزُجِّرْهُ، وَلَكِنْ أَعْطِهِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ [لَا] ^(٧) عَلَى النَّهْيِ، وَلَكِنْ عَلَى الْأَمْرِ بِالْإِمْرِ لَهُوْلَاءِ وَالْإِعْطَاءِ لَهُمْ.

وَجَائِزٌ أَنْ يُرَادَ فِي نَهْيِ شَيْءٍ إِثْبَاتُ ضِدِّهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا رِيحَتْ يَحْدَرُتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦].

أَيِ خَسِرَتْ، وَعَلَى هَذَا الْحَدِيثِ؛ وَهُوَ مَا رُويَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا أَتَاكُمُ السَّائِلُ فَلَا تَقْطَعُوا عَلَيْهِ مَسَالَتَهُ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْهَا، ثُمَّ رُدُّوا عَلَيْهِ بِرَفْقٍ وَلِينٍ إِنَّمَا يَبْذُلُ يَسِيرًا أَوْ بَرْدًا جَمِيلًا، فَإِنَّهُ قَدْ يَأْتِيكُمْ مَنْ لَيْسَ بِأَنْسٍ وَلَا جِنٌّ يَرَى كَيْفَ صَنَعْتُمْ فِي مَا حَوَّلَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى».

وَقَالَ قَوْمٌ: [فِي] ^(٨) تَرْوِيجِ الْيَتِيمِ قَهْرُهُ، لَمَّا فِيهِ مِنَ الْإِسْتِذْلَالِ وَالْإِضْرَارِ، فَلَمْ يَزُوجُوا مِنْ غَيْرِ الْأَبِ وَالْجَدِّ، وَأَجَاوَزُوا بَيْعَ مَالِهِ مِنْ وَصِيِّهِ، إِنْ كَانَ وَصَى الْأَبُ أَوْ الْجَدُّ وَصَّى أَنَّهُ فِي تَرْكِيهِ ^(٩).

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْأَنْبِيَاءُ الْمُتَقَدِّمَةُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: عِلْمٌ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهِ. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ١٨٣. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: تَرْكِيهِ.

قَدْ لَأَنْ تَزْوِجَ الْيَتِيمَ لَيْسَ مِنْ قَهْرِهِ فِي شَيْءٍ.

وقد رُوِيَ عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ زَوَّجَ بِنْتَ حَمْزَةَ سَلَمَةَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ، وَهُوَ صَغِيرٌ وَيَتِيمٌ، وَزَوَّجَ ابْنَ عُمَرَ بِنْتَ أَخِيهِ، وَهِيَ صَغِيرَةٌ، وَزَوَّجَ عُرْوَةَ ابْنَتَهُ مِنْ مُضْعَبٍ، [وهو صغير] ^(١)، فَقَهَرُ الْيَتِيمِ فِي ظُلْمِهِ وَالْإِغْتِدَاءُ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ فِي التَّزْوِيجِ.

والآية ١١ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْعَمَ عَلَيْكَ فَحَدِّثْ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: يَقُولُ: حَدِّثْنَهُمْ بِنِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَهُوَ هَذَا الْقُرْآنُ؛ إِذِ الْقُرْآنُ مِنْ أَعْظَمِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَأَمَرَهُ بِالتَّحَدِّثِ بِمَا عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ لِيَعْرِفُوا عَظِيمَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِخْتِصَاصِ لَهُمْ حِينَ جَعَلَهُمْ مِنْ أُمَّتِهِ وَمِنْ قَوْمِهِ، أَوْ أَمَرَهُ أَنْ يَقْرَأَهُ، وَيُحَدِّثَ بِمَا فِيهِ.

وقد رُوِيَ عَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْعَطَاءِ أَنَّهُ قَالَ: خَرَجَ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ، وَعَلَيْهِ مُطَرَفٌ خَزَلٌ لَمْ يَرِ عَلَيْهِ قَبْلُ وَلَا بَعْدُ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ، وَيَبْغُضُ الْبُؤْسَ وَالتَّبَوُّسَ» [أحمد ٤٧٤/٣].

وعَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ [أَنَّهُ] ^(٢) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى خَيْرًا فَلْيَرَّ عَلَيْهِ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَارْضُخْ مِنَ الْفَضْلِ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كِفَافٍ، وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ» [بمعناه: البيهقي في الكبرى ١٩٨/٤].

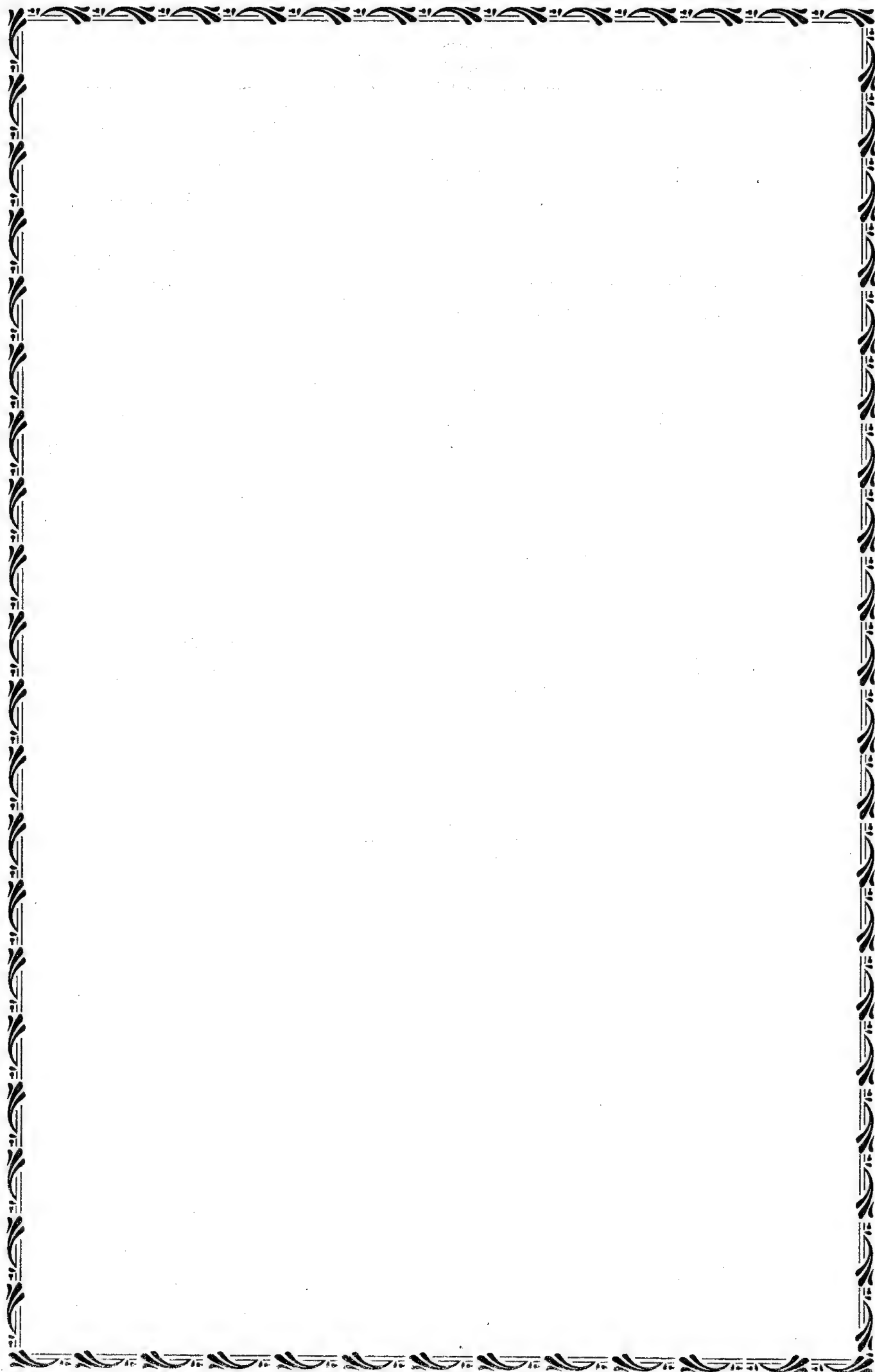
وَعَنْ يَحْيَى عَنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ [أَنَّهُ قَالَ:] ^(٣) «إِذَا بَسَطَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَلْتَرَّ عَلَيْهِ» يَعْنِي بِهِ الصَّدَقَةَ وَالْمَعْرُوفَ.

[وقوله عَنْ] ^(٤) ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: «وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ» [البخاري ١٤٢٦]. دَلِيلٌ عَلَيْهِ.

قَالَ أَهْلُ الْأَدَبِ: عَالٌ، أَيُ كَثُرَ عِيَالُهُ، وَيُقَالُ: أَسْجَيْتُهُ، أَسْكَنْتُهُ، وَقَالُوا ^(٥): «الْإِنْتِهَارُ الْكَلَامُ الْحَشِينُ [وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ]» ^(٦).



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهِيَ صَغِيرَةٌ. (٢) وَ(٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْل. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٦) فِي م: وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.



[سورة] ﴿الْمَنْشُورِ﴾

وهي مكة^(١)

وقال الحسن: في قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ بلى قد شَرَحَ له صدره، ومَلَأَهُ علماً وحكمة، ثم قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ إلى ما ذكر إن كان المخاطب به رسول الله، وهو المراد به.

فتاويل السورة يُخْرِجُ على ما ذكر من تيسير^(١) الأمر عليه وتخفيف ما حمَّله عليه، وأمر به.

الآيتان ٢ و ٣ وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ ﴿الَّذِي أَنتَقَضَ ظَهْرَكَ﴾ على ابتداء وضع الوزر والإثم على ما نذكر، وإن كان المخاطب به غيره، وهم أمته، وإن كان الخطاب أضيف إليه فالأمر فيه سهل.

وإن كان الخطاب على الاشتراك فيحتاج إلى التاويل أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ ﴿الَّذِي أَنتَقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: ما]^(٢) قال عامة أهل التاويل على تحقيق الوزر له والإثم كقوله: ﴿لَيَقْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢٢] وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِي وَاللَّذُنُوبَيْنِ وَالَّذِينَ مَنَعْتُ﴾ [محمد: ١٩] يقولون: أثبت له الذنب والوزر، فَوَضَعَ ذلك عنه.

ولكن هذا وحش من القول. لكننا نقول: إن قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ ﴿الَّذِي أَنتَقَضَ ظَهْرَكَ﴾ الوزر، هو الجمل والثقل، كأنه يقول: قد خَفَفْنَا عليك من أمر التوبة والرسالة والأعمال التي حمَلْنَا^(٣) عليك، كأنه يقول: قد خَفَفْنَا^(٤) ذلك عليك ما لو لم يكن تخفيفنا إياه عليك لَأَنْتَقَضَ ظَهْرُكَ، أي أثقل.

والثاني: جائز أن يكون قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ ابتداء وضع الوزر أي عَصَمَكَ، وحفظك ما لو لم تكن عصمتك إِيَّاكَ^(٥) لكأنك لك أوزاراً وأثاماً كقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] أي لو لم يَهْدِكَ لوجدك ضالًّا، لأنه كان بين قوم ضلَّالٍ، ولكن هداه، فلم يَجِدْهُ [ضالًّا، فَعَلَى]^(٦) ذلك ما ذكر من وضع وزر ابتداء، وهو كقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُنَّ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣] أي عَصَمَهُنَّ عن أن يَدْخُلُوا فيها، لا أن كانوا فيها، ثم أَخْرَجَهُنَّ، ولكن [هو]^(٧) ابتداء إخراج. فعلى ذلك ما ذكر من وضع وزره.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتَقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي أثقل ظهرك.

الآية ٤ وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ جائز أن يكون رفع ذكره لما ألزم الخلق الإيمان به حتى لا يُقْبَلَ من أحد الإيمان بالله والتوحيد له والطاعة والعبادة إلا بالإيمان به والطاعة له. قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقال: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ سُرْبًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء: ٦٥].

وجائز أن يكون ما ذكر من رفع ذكره، هو أنه يُذَكَّرُ حين^(٨) ذُكِرَ الله، قرَنَ ذكره بذكره في الأذان والإقامة وفي الصلاة في الشَّهَادَةِ وفي غيره من الخطب، والله أعلم. والأول عندنا أرفع وأعظم من الثاني.

وجائز أن يكون رفع ذكره ما أضاف اسمه إلى اسمه بما قال: رسول الله، ونبي الله، ولم يُسمَّ باسمه على غير إضافة إلى الرسالة والتبوة، فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحریم: ١] ونحو ذلك، وهو المخصوص بهذا دون غيره من إخوانه، لأنه قلما أضاف اسمهم إلى اسمه، وقلما قرَنَ أسماءهم باسمه، بل ذكَّرتهم بأسمائهم كقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٣] إلى قوله: ﴿وَأَسْمِعِمْ وَأَلْبِسْ﴾^(٩) وَيُؤْثِرْ وَلَوْطًا﴾ [الأنعام: ٨٦] ونحو ذلك، أو [أن يكون]^(١٠) رفع ذكره بما عظمه، وشرَّفه عند الخلق كله حتى إن من استخفَّ به خسر الدنيا والآخرة.

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: تبين. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حمل. (٤) في الأصل وم: خفف. (٥) في الأصل وم: إياه. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: واذكر اسماعيل والبس وقوله. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

الآيات ٥ و ٦

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ﴿وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ رُوِيَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ قَالَ ﷺ: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ» [الحاكم في المستدرک: ٥٢٨/٢].

قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا كَانَ عُسْرًا وَاحِدًا، وَإِنْ ذَكَرَهُ مَرَّتَيْنِ، لِأَنَّ الْعُسْرَ الثَّانِيَّ ذَكَرَهُ بِحَرْفِ التَّعْرِيفِ فَهُوَ الْأَوَّلُ وَاحِدٌ، وَالْيُسْرُ ذَكَرَهُ بِحَرْفِ النِّكَرَةِ، فَهُوَ غَيْرُ الْأَوَّلِ.

وَقَالَ أَبُو مُعَاذٍ: كُلَّمَا كُرِّرَتِ الْمَعْرِفَةُ كَانَتْ وَاحِدَةً^(١)، وَالنِّكَرَةُ عَلَى الْعَدَدِ؛ يُقَالُ فِي الْكَلَامِ: إِنَّ مَعَ الْأَمِيرِ غُلَامًا، إِنَّ مَعَ الْأَمِيرِ غُلَامًا، فَلَا أَمِيرَ وَاحِدًا، وَمَعَهُ غُلَامَانِ، وَإِذَا قِيلَ: إِنَّ مَعَ الْأَمِيرِ الْغُلَامَ، إِنَّ مَعَ الْأَمِيرِ غُلَامًا، فَلَا أَمِيرَ وَاحِدًا، وَمَعَهُ غُلَامَانِ، وَإِذَا قِيلَ: إِنَّ مَعَ الْأَمِيرِ الْغُلَامَ، إِنَّ مَعَ الْأَمِيرِ الْغُلَامَ، فَلَا أَمِيرَ وَاحِدًا، وَالْغُلَامُ وَاحِدٌ، وَإِذَا قِيلَ: إِنَّ مَعَ أَمِيرٍ غُلَامًا، إِنَّ مَعَ أَمِيرٍ غُلَامًا، فَهِيَ أَمِيرَانِ وَغُلَامَانِ. فَعَلَى ذَلِكَ مَا ذَكَرَ ههنا.

ثُمَّ قَوْلُهُ ﷺ^(٢) «يُسْرَيْنِ» هُمَا^(٣) يُسْرُ الْإِسْلَامِ وَالْهُدَى، وَيَجُوزُ أَنْ يُطْلَقَ اسْمُ الْيُسْرِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالِدِينِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسَيَبْرَأُ الْيُسْرَى﴾ [الليل: ٧] وَيُسْرٌ آخَرُ مَا وَعَدَ لَهُمْ مِنَ السَّعَةِ فِي الدُّنْيَا.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ «يُسْرَيْنِ» أَخَذَهُمَا: رَجَاءُ الْيُسْرِ، وَالْآخِرُ وَجُودُهُ، فَهِيَ يُسْرَانِ: الرَّجَاءُ وَالْوُجُودُ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ يُسْرًا فِي الدُّنْيَا وَيُسْرًا فِي الْآخِرَةِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ تَوْسِيعًا^(٤) عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا وَيُسْرًا^(٥) مَا يَفْتَحُ لَهُمُ الْفَتْوحَ فِي الدُّنْيَا، وَيُسَوِّقُ إِلَيْهِمُ الْمَغَانِمَ وَالسَّبَايَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَالُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ / ٦٤٧ - أ/ أَي بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرًا.

وَأَصْلُهُ: أَنَّ حَرْفَ: مَعَ إِذَا أُضِيفَ إِلَى الْأَوَاقِ وَالْأَحْوَالِ يَقَعُ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَوَاقِ فِي الْمَكَانِ الْوَاحِدِ، وَإِذَا أُضِيفَ إِلَى الْمَكَانِ يَقَعُ عَلَى اخْتِلَافِ الْمَكَانِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ. وَههنا أُضِيفَ إِلَى الْوَقْتِ، فَهُوَ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَوَاقِ وَاحِدٌ بَعْدَ وَاحِدٍ. فإِذَا قِيلَ: فَلَانٌ مَعَ فَلَانٍ فِي مَكَانٍ فَالْوَقْتُ وَاحِدٌ، وَالْمَكَانُ مُخْتَلِفٌ مُتَّفَقٌ.

الآيات ٧ و ٨

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَفَعْتَ فَاَنْصَبْ﴾ ﴿وَلَا رَيْكَ فَاَرْغَبْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِذَا قَرَعْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَانْصَبْ لِآخِرَتِكَ، وَهُوَ مِنَ النَّصَبِ أَيِ التَّعَبِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: أَمْرُهُ إِذَا قَرَعَ مِنْ غَزْوَةٍ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي الْعِبَادَةِ لَهُ. لَكِنَّ هَذَا بَعِيدٌ لِأَنَّهُ نَزَلَ ذَلِكَ بِمَكَّةَ، وَلَمْ يَكُنْ أَمِيرًا بِالْغَزْوِ وَالْجِهَادِ بِمَكَّةَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَمِيرًا بِالْجِهَادِ بِمَكَّةَ فِي أَوَاقٍ، تَأْتِيهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَيَكُونُ الْحُكْمُ لَازِمًا عَلَيْهِ فِي تِلْكَ الْأَوَاقِ لَا فِي حَالِ وُجُودِ الْأَمْرِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِذَا قَرَعْتَ مِنَ الصَّلَاةِ فَانْصَبْ فِي الدُّعَاءِ.

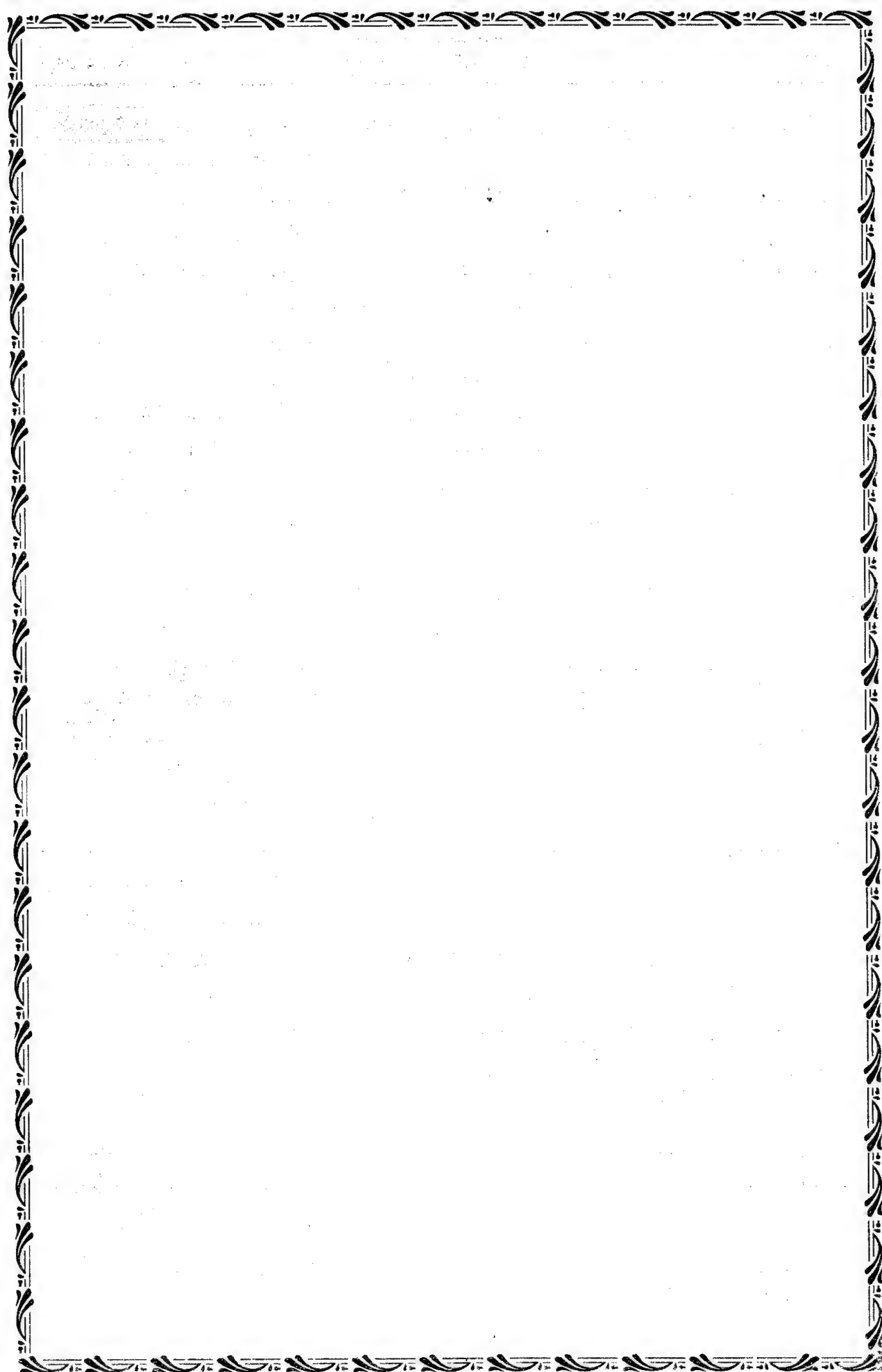
وَقَالَ قَتَادَةُ: [أَمْرُهُ]^(٦) إِذَا قَرَعَ مِنَ الصَّلَاةِ أَنْ يُبَالِغَ فِي دُعَائِهِ وَسُؤَالِهِ لِيَأْهُ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ [أَنَّهُ]^(٧) قَالَ: إِذَا فَرَعْتَ مِنَ الْفَرَائِضِ فَانْصَبْ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ.

وَيَحْتَمِلُ عِنْدَنَا إِذَا فَرَعْتَ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ فَانْصَبْ لِعِبَادَةِ رَبِّكَ وَالْأُمُورِ الَّتِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَبِّكَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي أَحَدِ التَّوَالِيَيْنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧] فِي أَمْرِ الرِّسَالَةِ وَالتَّبْلِيغِ [أَيِ ادَّكُرًا]^(٨) اسْمُ رَبِّكَ فِي مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَبِّكَ. وَيَجِبُ أَلَّا تَتَكَلَّفَ تَفْسِيرَ مَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، لِأَنَّهُ أَمْرٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْلَمُ مَا أَرَادَ [بِهِ فِي مَا خَاطَبَهُ]^(٩) مِنَ الْجَمِيعِ وَأَنَّهُ فِي مَا كَانَ. وَقَدْ كَانَ خُصُوصًا لَهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِمَّا يَجِبُ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِهِ حِينَ يُلْزِمُنَا التَّكَلُّفُ لِإِسْتِخْرَاجِ ذَلِكَ سِوَى الشَّهَادَةِ عَلَى اللَّهِ، فَكَانَ الْإِمْسَاكُ عَنْهُ أَوَّلَى، وَتَرْكُ التَّكَلُّفِ فِيهِ وَالِاسْتِغْنَاءُ بِهِ أَرْفَقَ وَأَسْلَمَ. وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَاحِدًا. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: تَوْسِيعٌ تَوْسِيعٌ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَسْرِيَانِ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَادَّكُرَ. (٩) م، فِي الْأَصْلِ: فِي مَا خَاطَبَ.



والثالث: لما أخرج منها مع شِدَّتِها وصلابتها وغلظها وارتفاعها الجباه الجارية الصافية الباردة، وهي من ألين الأشياء، وأخرج منها الأشجار المثمرة الكثيرة وغير المثمرة من غير إنبات أحد ولا غرس^(١) وغير ذلك من المنافع التي جعل في الجبال ما لا يمكن للخلق استخراج ذلك بحيلهم وتكليفهم.

فأقسم بها لعظيم ما جعل في الجبال من المنافع والبركات.

[والرابع^(٢)]: كذلك أن كان القسم بالثين الذي يؤكل والزيتون الذي يُخرج منه الزيت لما جعل لهم في ذلك من المنافع العظام كقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَلْبُتُ بِاللَّهُمِّ وَسَبَّحَ لِلَّذِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

فمن هذه الوجوه التي ذكرنا يختل القسم بالجبال والثين والزيتون، أو ذكر الثين والزيتون، والمراد بهما الجبل لما في الجبل يكونان عندهم على ما ذكرنا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا إِلَهِ الْأَيُّوبَ﴾ وهو مكة، سماء أميناً لما يأمَن من دخله، أو يؤمَن من دخله، ويحفظه لأن الأمين عند الناس، هو الذي يحفظ من الثمين عليه وفيه، وهو المأمون به.

ثم جائز أن يكون القسم بالبلد لأهل مكة ولأهل الشوك لما عظم شأنه وأمره عندهم وفي قلوبهم، وأقسم بالجبال لعظيم قدرها ومنزلتها ومحلها في قلوب أهل الكتاب لما كانوا يؤمنون ببعض الرُخى، وأهل مكة لا يؤمنون بالرسول وبالرُخى، ولكن يعظمون ذلك البلد. وجائز أن يكون القسم بما ذكر كله لهم جميعاً، والله أعلم.

الآية ٤: وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ قال أهل التأويل: على هذا وقع القسم، لكن القسم بغيره أولى وأقرب، لأنهم قد شاهدوا، وعرفوا أنه خلق الإنسان على أحسن تقويم؛ إذ لم يتمن أحد أن يكون على غير هذا التقويم وعلى غير هذه الصورة التي أنشأها عليه.

والأشبه أن يكون القسم واقعاً على قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [الآية: ٥] لما فيه دفع الإنكار والتكذيب، وهو ناز جهنم، فأكد ذلك بالقسم، كأنه قال تعالى: مع أنا خلقنا الإنسان في أحسن تقويم نردُّهم إلى أسفل السافلين لكفرهم وعنادهم بسوى المؤمنين.

ثم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يُخرج على وجوه:

أخذها: أحسن صورة يشاهدون، ويعاينون، لأن الملائكة جعلهم أحسن صورة وأحسن تقويماً من البشر، ولكن يرجع إلى سائر ٦٤٧ - ب/ الخلاقي دونهم، وذلك لأن خلق البشر على صورة، لا يتمنى أحد منهم أن يكون على غير صورة البشر، دل أنه خلقهم على أحسن صورة.

والثاني: على أحسن تقويم أي على أحكم تقويم وأتقنه لأنه جعلهم، وأنشأهم على هيئته، تُهيئ^(٣) لهم استئعمال الأشياء كلها في منافعهم والإنشاع بها بحيل وأسباب علمهم [أيها، وجعلها]^(٤) فيهم، ومكن لهم ذلك.

[والثالث^(٥)]: يختل القسم أي أحكم وأتقن على الدلالة على وُحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وألوهيته.

[والرابع^(٦)]: جعلهم أهل تمييز ومعرفة بحيث يكون منهم الخيرات في أنواع الطاعات التي يثابون عليها، ويتألون بها الثواب الجزيل والكرامة العظيمة ما لا يكون لغيرهم.

الآية ٥: وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ هو يختل وجوهاً:

أخذها: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ وهو جهنم؛ يرد الكافر إلى جهنم، وهي أسفل السافلين، والمؤمن رُدُّناه إلى الجنة، وهي^(٨) ما استثنى بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الآية: ٦] في الجنة.

(١) في الأصل رم: غرسها. (٢) في الأصل رم: و. (٣) في الأصل رم: يتهيا. (٤) في الأصل رم: وجعل. (٥) في الأصل رم: و. (٦) في الأصل رم: أو. (٧) في الأصل رم: وهو. (٨) في الأصل رم: وهو.

والثاني: رَدُّنَاهُ إِلَى أَسْفَلٍ مَا اخْتَارَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَفْعَالِ، وهو ما اخْتَارَ مِنْ فِعْلِ الشُّرْكِ وَالْكُفْرِ، وَرَدَّ الْمُؤْمِنَ إِلَى أَعْلَى مَا اخْتَارَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْعَالِيَةِ الرَّفِيعَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

والثالث: ما قَالَه أَهْلُ التَّأْوِيلِ: ثُمَّ رَدُّنَاهُ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ وَأَسْفَلِهِ.

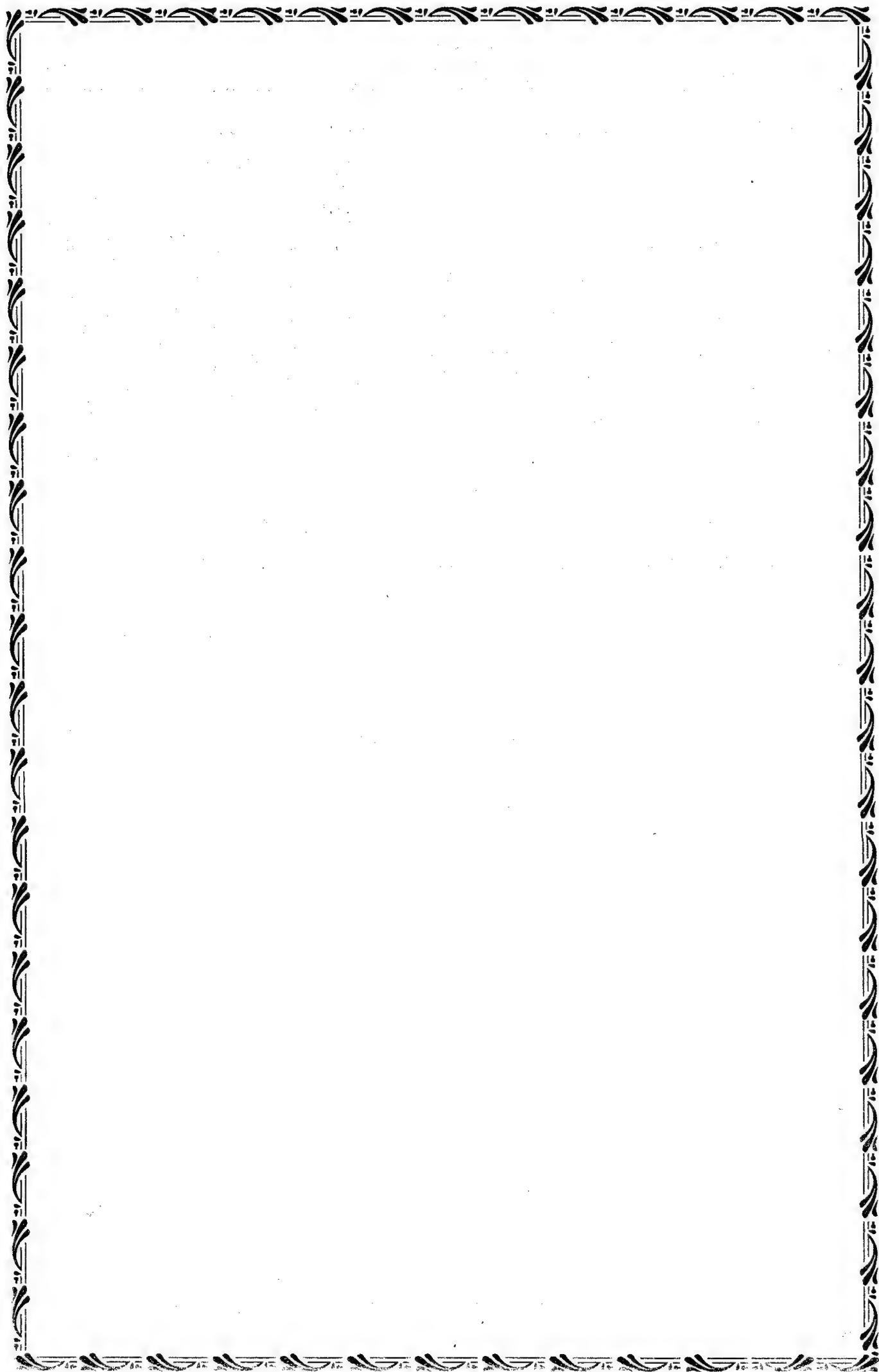
الآية ٦ ثُمَّ اسْتَنْتَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لَهُمْ ذَلِكَ. وَهَذَا التَّأْوِيلُ إِنَّمَا يَصِحُّ، إِذْ لَوْ اسْتَنْتَى الْمُخْسِنِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ. فَأَمَّا إِذَا اسْتَنْتَى أَهْلَ الْإِيمَانِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ فَإِنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ، وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ.

الآيتان ٨ و ٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالَّذِينَ﴾ [﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْبَرَ لِلْكَافِرِينَ﴾] ^(١) إِنْ كَانَ الْخِطَابُ بِهِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ كَذَّبَ بِالَّذِينَ يَقُولُهُ، فَمَا ^(٢) الَّذِي دَعَاكَ إِلَى تَكْذِيبِكَ بِالَّذِينَ، وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ لَا يَفْعَلُ إِلَّا [مَا] ^(٣) هُوَ حَكِيمٌ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ يَوْمَ الدِّينِ كَانَ فِعْلُهُ عَبَثًا بَاطِلًا، لِأَنَّهُ انْشَأَكُمْ، ثُمَّ رَيَّاكُمْ إِلَى أَنْ بَلَّغْتُمْ. فَلَوْ لَمْ يَكُنْ بَعَثَ لَكَانَ يَخْرُجُ فِعْلُهُ عَبَثًا بَاطِلًا، أَوْ نَقُولُ: لَمَّا سَوَّى بَيْنَ مَا اخْتَارَ وَلَايَتَهُ وَبَيْنَ مَا اخْتَارَ الرِّلَايَةَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَفِي الْحِكْمَةِ التَّفْرِيقَ بَيْنَهُمَا، فَلَا بُدَّ مِنْ مَكَانٍ يَفْرُقُ بَيْنَهُمَا هُنَاكَ.

وإِنْ كَانَ الْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالَّذِينَ﴾ لِرَسُولِ اللَّهِ تَعَالَى فَيَقُولُ ^(٤): أَيُّ حُجَّةٍ لَهُ فِي تَكْذِيبِكَ بِمَا تُخْبِرُهُ مِنَ الدِّينِ؟ أَيُّ لَا حُجَّةَ لَهُ فِي ذَلِكَ، أَوْ نَقُولُ: مَا الَّذِي دَعَاهُ إِلَى تَكْذِيبِهِ بِالَّذِينَ بَعْدَ مَا عَرَفَ أَنِّي أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَحْكَمُ الْقَاضِيَيْنِ، أَيُّ أَعْدَلَهُنَّ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَحْكَمُ الْحُكَمَاءِ، وَإِلَّا فَنَاءٌ بِلَا بَعِثَ فِعْلُ السُّفَهَاءِ لَا فِعْلُ الْحُكَمَاءِ، وَهُوَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، أَيُّ أَعْدَلُ الْقَاضِيَيْنِ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَعْدَاءِ، وَقَدْ اجْتَمَعُوا فِي الدُّنْيَا، فَلَا بُدَّ مِنْ دَارٍ يَفْرُقُ بَيْنَهُمَا فِيهَا، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.



(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: يقول.



سورة الحلق

[وهي مكية^(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١

قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ذَكَرَ أَهْلُ التَّوِيلِ أَنَّ هَذِهِ أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَوَّلُ وَحْيٍ أَوْحِيَ إِلَيْهِ. وَقِيلَ: غَيْرُ هَذِهِ، هِيَ الْأَوَّلُ.

ثُمَّ الْإِشْكَالُ أَنَّهُ أَمَرَ بِأَنْ يُقْرَأَ ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وَحَقُّ هَذَا وَنَحْوِهِ إِذَا قِيلَ لَهُ: اقْرَأْ، أَوْ أَفْعَلْ أَلَا يَقُولُ لَهُ: اقْرَأْ، أَوْ أَفْعَلْ مِثْلَ مَا قِيلَ لَهُ: اقْرَأْ، أَوْ أَفْعَلْ، لِأَنَّهُ أَمَرَ فِي الظَّاهِرِ، وَإِنَّمَا^(٢) يَكُونُ عَلَيْهِ الْإِثْمَارُ بِذَلِكَ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الْكَافِرُونَ: ١] وَقَوْلُهُ^(٣): ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الْإِحْلَاصُ: ١] وَقَوْلُهُ^(٤): ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الْفَلَقُ: ١] وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [النَّاسِ: ١] وَكَذَلِكَ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ: ﴿يَتَذَكَّرُونَ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [الْأَحْزَابُ: ٢٨] وَأَمَّا ذَلِكَ يَجِبُ أَلَا يَقُولُ لَهُ مِثْلَ مَا قِيلَ لَهُ: ﴿قُلْ﴾ أَوْ ﴿اقْرَأْ﴾ وَلَكِنْ يَقُولُ: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ وَيَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [وَيَقُولُ: (٥)] ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [وَيَقُولُ: (٦)] ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هَذَا هُوَ وَجْهُ الْكَلَامِ.

وَمَعْنَاهُ وَجَوَابُهُ أَنَّهُ يَخْتَمِلُ وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ أُرِيدَ بِهَذَا أَنْ يَكُونَ قِرَاءَانًا يُقْرَأُ هَكَذَا، فِي حَقِّ الْقِرَاءَةِ يُتْلَى، وَيُثَبَّتُ فِي الْمَصَاحِفِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ لِيُعْلَمَ كَيْفَ قِيلَ لِلرَّسُولِ ﷺ وَكَيْفَ أَوْحِيَ إِلَيْهِ.

[وَالثَّانِي]^(٧): أَنَّهُ لَمْ يَتْرَكْ مِمَّا قِيلَ لَهُ حَرْفًا وَاحِدًا لِيَكُونَ حُجَّةً لِرِسَالَتِهِ وَآيَةً لِنُبُوَّتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[وَالثَّالِثُ]^(٨): أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ عَلَى خِلَافِ الْمَفْهُومِ مِنْ كَلَامِ [النَّاسِ]^(٩) لَنَلَّا يَكُونُ الْمَفْهُومُ مِنْ وَحْيِ السَّمَاءِ وَالْمُنَزَّلِ مِنْهَا كَخِطَابٍ بَعْضُ بَعْضًا، وَلَكِنْ خِلَافٌ فِيهِ.

[وَالرَّابِعُ: أَنْ]^(١٠) يَكُونَ الْخِطَابُ^(١١) مِنْهُ لِكُلِّ أَحَدٍ وَمِنْ كُلِّ أَحَدٍ لآخرَ خِطَابَ جِبْرِيلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَمْرُهُ أَنْ يَقْرَأَ، ثُمَّ يَأْمُرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ، وَذَلِكَ الْغَيْرُ يَقُولُ لآخرَ كَذَلِكَ، فَيَكُونُ الْخِطَابُ مِنْهُ لِكُلِّ أَحَدٍ وَمِنْ كُلِّ أَحَدٍ لآخرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ يَخْتَمِلُ [وَجُوهًا]:

أَحَدُهَا: [١٢] أَنْ يُرِيدَ بِهِ أَنْ يَفْتَحَ الْقِرَاءَةَ بِاسْمِ رَبِّكَ عَلَى مَا جَعَلَ افْتِتَاحَ كُلِّ شَيْءٍ بِاسْمِ الرَّبِّ لِيَنَالَ بَرَكَتَهُ ذَلِكَ فِيهِ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ عَلَى إِثْرِ اسْمِ رَبِّهِ، هُوَ تَفْسِيرُ اسْمِ رَبِّهِ حِينَ^(١٣) قَالَ: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [الْآيَةُ: ٢] فَيَكُونُ هَذَا تَفْسِيرًا لِمَا ذَكَرَ مِنْ اسْمِ رَبِّهِ.

[وَالثَّالِثُ: أَنْ]^(١٤) يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ كَمَا يُقَالُ: أَسَأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي إِذَا دُعِيتَ بِهِ أَجَبْتَ، وَإِذَا سُئِلْتَ بِهِ أُعْطِيتَ. وَذَلِكَ الْاسْمُ مَكْتُومٌ بَيْنَ أَسْمَائِهِ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: ويحتمل. (٩) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (١٠) فِي م: والثاني. (١١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) فِي الأصل وم: حيث. (١٤) فِي الأصل وم: أو.

ثم قوله تعالى: ﴿وَأَنزِلْنَا إِلَيْهِ مُخْرَجَ الْتَعْظِيمِ لِرَسُولِ اللَّهِ وَخُصُوصِيَّتُهُ لَهُ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا أَنَّ إِضَافَةَ خَاصِيَّةِ الْأَشْيَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى تُخْرِجُ مُخْرَجَ تَعْظِيمِ ذَلِكَ الْخَاصِّ؛ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَن مَّهِرًا بَيْنَ﴾ [البقرة: ١٢٥] وقوله^(١): ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣ و...]. [وقوله^(٢)]: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ إِضَافَةِ خَاصِيَّةِ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ.

وَإِضَافَةُ كَلِيَّةِ الْأَشْيَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى تُخْرِجُ [مُخْرَجَ]^(٣) تَعْظِيمِ الرَّبِّ وَالْمَحْمَدَةِ لَهُ نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧ و...]. [وقوله^(٤)]: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ثم ٦٤٨ - أ/ لا تجوز إضافة الخاص الذي لا خصوصية ظهر له إلى الله تعالى؛ لا يجوز أن يقال: يارب زيد، ويا رب عمرو، ونحو ذلك، إنما يجوز ذلك في من ظهر له خصوصية وفضل من الأنبياء والرسل والملائكة ﷺ والبقاع والامكنة التي ظهرت لها خصوصية وفضل ليكون ذلك تعظيماً لها، والله أعلم.

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ العلق الدم الجامد. ثم قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أراد كل إنسان، وقوله^(٥): ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [الآية ٥] كذلك، ليُعلم أن اسم الفرد إذا دخله لام التعريف أريد به العموم، وهو كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ﴾ [العصر: ٢].

وفي الآية دلالة على إبطال قول من يدعي طهارة النطفة بعلّة أن الإنسان خلق منها؛ فإنه أخبر أنه ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ نسب خلق الإنسان إليه، ولا شك أن العلق نجس، ثم أخبر أنه خلق الإنسان منه. فعلى ذلك أن تكون النطفة التي منها يُخلق الإنسان نجسة، وذلك غير مستحيل.

ثم أضاف خلقه مرة إلى الأحوال التي قلب منها حين^(٦) قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [غافر: ٦٧] إلى آخر ما ذكر، وأضاف ههنا إلى حال واحدة، وهي العلقة [التي]^(٧) ذكر، وإن لم يكن الإنسان في الحقيقة مخلوقاً من العلقة والنطفة والتراب الذي ذكر، لأن هذه الأسماء أسامي هذه الأشياء باغتياب خاصيات فيها. وتلك الخاصيات تتقدم باغتياب حال أخرى عليها، وإنما يخلق الإنسان من المضعفة، وإنما ذكر خلق الإنسان منه، ونسبه إلى ما ذكر لما أن الإنسان، هو المقصود من خلق ذلك، وهو النهاية التي ينتهي إليها، فذكر بالذکر [ما] ينتهي إليه من الغاية، والله أعلم.

الآيتان ٣ و ٤ وقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ رَبُّكَ الْأَكْرَمَ﴾ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ذكر الأكرم ليُعلم أن اختياره واضطفاؤه لرساليه ونبوتيه [وتعليمه القرآن]^(٨) ابتداء إحسان منه إليه وتفضل عليه، لا لِحَقِّ له عليه؛ إذ ذكر في موضع الجنة والفضل والكرم؛ إذ الأكرم، هو الوصف بغاية الكرم كالأعلم، هو وصف بإحاطة العلم وكماله.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ جعل الله تعالى القلم سبباً، به يحفظ، به يُثبت، وبه يوصل ما يخاف قوته ونسيانه من أمر دينهم ودنياهم ما لو لم يكن القلم، لم يستقيم أمر دينهم ولا دنياهم.

ثم قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أي علم الخط والكتابة بالقلم، وكذلك ذكر في حرف ابن مسعود وأبي حفصة ﷺ من^(٩) علم الخط بالقلم، ثم أضاف التعليم بالقلم إلى نفسه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فهو يُخرج على وجهين:

أحدهما: أن يكون أضاف ذلك إلى نفسه إما يخلق منهم فيعلمهم.

[والثاني]^(١٠): إضافة إليه للأسباب التي جعلها لهم في التعليم، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: وتعليم. (٩) من م، في الأصل: ومن. (١٠) في الأصل وم: ويحتمل.

ثم ذلك التعلیم بالقلم لأمره [١٧] لرسول الله ﷺ لأنه علمه إياه بلا كتابة ولا خط حين^(١) قال: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ وَبَيِّنَاتٍ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ثم في تعليم رسول الله ﷺ بلا قلم ولا كتابة آية عظيمة لرساليه حين^(٢) جعله بحالٍ يحفظ بقلبه بلا إثبات ولا خط، خطه.

ثم قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ﴾ يختصم رسول الله ﷺ بكوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] وكقوله تعالى: ﴿يَلْكَ مِنْ أَبْنَاءِ النَّاسِ تُوجِبُ إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩] وقوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢].

ويختصم قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ﴾ كل إنسان كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

الآيتان ٦ و ٧ وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا﴾ ﴿أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى﴾ طغى بالبغي، أي تكبر، وافتخر بما رأى نفسه غنية. وعلى هذا ما روي في الخبر^(٣) من التعمد من غنى يطغى وفقير ينسى، لأن الغنى يخيل على التكبر والافتخار والطغيان، والطغيان هو المجاوزة عن الحد والتعدي فيه، والفقير المنسى، هو المجاهد الذي ينسى غيره من النعم؛ أعني ينسى غير المال من صحة البدن والعقل والعلم ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا﴾ ﴿أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى﴾ ليس هذا وصف ذلك الكافر بعينه على ما ذكره أهل التاويل أبي جهل، لعنه الله، ولكن [هو وصف] كل كافر يطغى أن رأى نفسه غنية.

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهًا لَّهُ الْوَيْحُ﴾ أي المرجع، كذا قال أبو عبيد^(٤). وقال غيره: الرجوع.

ثم يختصم قوله: ﴿إِنَّ إِلَهًا لَّهُ الْوَيْحُ﴾ أي المرجع لكل إلى ما أعد لهم؛ أعد للكافر النار وللمؤمن الجنة على ما ذكر في الآية. وجائز أن يكون إخباراً عن رجوع الكل إليه.

ثم قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا﴾ أريد به إنسان دون إنسان؛ إذ لم يطلع كل إنسان، ولا خلقت يقع في خبر الله، فكان المراد منه البعض ليعلم أن الفهم يظهر الخطاب، والعموم ليس بواجب، ولكن على حسب قيام الدليل على المراد منه. وفيه إن المراد منه قد يكون متبهاً مقروناً به، وقد يكون مطلوباً غير مقرون به.

الآيتان ٩ و ١٠ وقوله تعالى: ﴿أَنبَأْتُ آلِي بَنِي﴾ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ ذكر أهل التاويل أن الذي ينهى أبو جهل، لعنه الله ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ رسول الله ﷺ وذلك أنه كان يصلي في الحجير، فكان ينهأه أبو جهل، فنزل [قوله تعالى] ﴿أَنبَأْتُ آلِي بَنِي﴾ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾.

الآيات ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ [وقوله تعالى] ﴿أَنبَأْتُ إِنْ كَانَ عَلَى الْكُفَّةِ﴾ ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ ﴿أَنبَأْتُ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿أَوْ يَتَمَرَّ﴾ [أن الله يري] ^(٥).

جائز أن يجمع هذا كله في الوعيد الذي ذكره على إثر ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿أَوْ يَتَمَرَّ﴾ [أن الله يري] كأنه قال ﴿أَنبَأْتُ آلِي بَنِي﴾ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ أرايت الذي ينهى من ﴿كَانَ عَلَى الْكُفَّةِ﴾ ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ وهو رسول الله ﷺ؛ كان ينهأه ذلك الكافر إذا صلى، وينهأه عن الهدى وعن الأمر بالتقوى ﴿أَنبَأْتُ إِنْ كَذَّبَ﴾ رسول الله ﷺ ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن طاعة الله تعالى ﴿أَوْ يَتَمَرَّ﴾ [أن الله يري].

يدخل جميع ما ذكر في هذا الوعيد، فيكون ذلك جواباً لما تقدم من قوله: ﴿أَنبَأْتُ آلِي بَنِي﴾ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ إلى آخر ما ذكر.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) انظره في الترمذي: ٢٣٠٦. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في نسخة الحرم المكي: عبيدة. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وجائز أن يكون جواب قوله: ﴿أَتَدْعِي اللَّهَ يَنفَعُ﴾ ﴿عَبَا إِذَا سَلَ﴾ مسكوناً عنه، ترك للنفهم.

ثم قوله تعالى: ﴿أَرَيْتُمْ أَنَّا اللَّهُ بِرَأْيِهِ﴾ أي ألم يعلم بأن الله يراه^(١) [فَيَنْتَقِمُ مِنْهُ لِرَسُولِ اللَّهِ، أو ﴿أَرَيْتُمْ أَنَّا اللَّهُ بِرَأْيِهِ﴾]^(٢) فَيَذْفَعُهُ عَمَّا هُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ. فهو وعيد.

ثم قوله: ﴿أَرَيْتُمْ أَنَّا اللَّهُ بِرَأْيِهِ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: قد عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ يَرَى جَمِيعَ مَا يَقُولُهُ، وَيَعْلَمُهُ، وَيَهْمُ بِهِ، لكنه قَالَ ذَلِكَ عَلَى الْمُكَابَرَةِ وَالْعِنَادِ.

والثاني: ﴿أَرَيْتُمْ أَنَّا اللَّهُ بِرَأْيِهِ﴾ عَلَى نَفْيِ الْعِلْمِ لَهُ بِذَلِكَ؛ إِذْ لَوْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ يَرَى، وَيَعْلَمُ مَا يَقُولُهُ مِنَ التَّهْيِ عَنِ الصَّلَاةِ وَالْمَكْرِ بِهِ لَكَانَ لَا يَقُولُ ذَلِكَ بِهِ.

الآيتان ١٥ و ١٦ وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ﴾ ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَالِثَةٍ﴾ أي حقاً لئن لم ينته عن صنيعه الذي يصنع برسول الله لنسفعن^(٣) ﴿نَاصِيَةٍ﴾ أي لناخذلن بالناصية؛ كأنه عبارة عن الأخذ الشديد والجرح الشديد على الناصية.

ثم يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْوَعْدُ لَهُ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ / ٦٤٨ - ب/ لو لم ينته عما ذكر.

فإن كان في الدنيا فيكون السفع كناية عن العذاب أي لتعذبن. وقيل: قد أخذ بناصره يوم بدر، فألقى بين يدي رسول الله قتيلاً، وإن كان في الآخرة فهو عن حقيقة أخذ الناصية كقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمُقًا وَيَكْفُرُ﴾ [الإسراء: ٩٧] وقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨].

وقال أهل العربية ﴿لَنَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي نقيض، وسفعنا ناصيته، أي قبضت، ويقال: سفعه بالعصا، أي ضربته، ويقال: اسفع بيده، أي أخذ بيده.

وقوله تعالى: ﴿كَذِبَةٍ خَالِثَةٍ﴾ يَحْتَمِلُ مَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿كَذِبَةٍ خَالِثَةٍ﴾ [أن يكون]^(٤) كناية عن النفس، ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كناية عن الناصية التي تقدم ذكرها.

الآيتان ١٧ و ١٨ وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْصَبْ نَاصِيَتَهُ﴾ ﴿سَتَلْعَ الْأَرْبَابَةَ﴾ أي أهل مجلسه في الإعانة له بما يهّم برسول الله ﷺ ﴿سَتَلْعَ الْأَرْبَابَةَ﴾ نحن في الدفع عنه لئلا يرى هل يقدر أن يفعل ما هم به.

ويَحْتَمِلُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، وقد ذكر أنه قيل يوم بدر. وجائز أن يكون ذلك الدفع من الرأبانية [في الآخرة، وسُموا ربابية]^(٥) للدفع أي يذفعون أهل النار في النار.

وقيل: الربابية الشرط، والواحد: ربابية، والنادي المجلس، يريد به قومه.

الآية ١٩ وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُلْفَعُهُ﴾ أي لا تطغ ذلك الكافر، وكان ما ذكر: لم يطغ حتى مات.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنصَبْ وَأَقْرَبْ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا خِطَاباً لِلنَّبِيِّ، أي صل، وأقرب إلى الله.

ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنصَبْ وَأَقْرَبْ﴾ خِطَاباً لِأَبِي جَهْلٍ، أي اقرب إلى محمد حتى ترى، على سبيل الوعيد، ولما كان يقصد المكرب بالنبي ﷺ في حال الصلاة.

وعلى^(٦) التأويل الظاهر الآية حجة لنا على أهل التشبيو، فإنه لم يفهم من قوله: ﴿وَأَقْرَبْ﴾ القرب من حيث المكان وقرب الذات. ولكن قرب المنزلة والقدر.

وكذلك ما ذكر في بعض الأخبار: ﴿مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا﴾ [البخاري ٧٤٠٥] ونحو ذلك لا يفهم منه قرب الذات، ولكن قرب المنزلة والقدر بالإجابة، وكذلك جميع ما ذكر في القرآن من القرب قرب المنزلة والقدر.

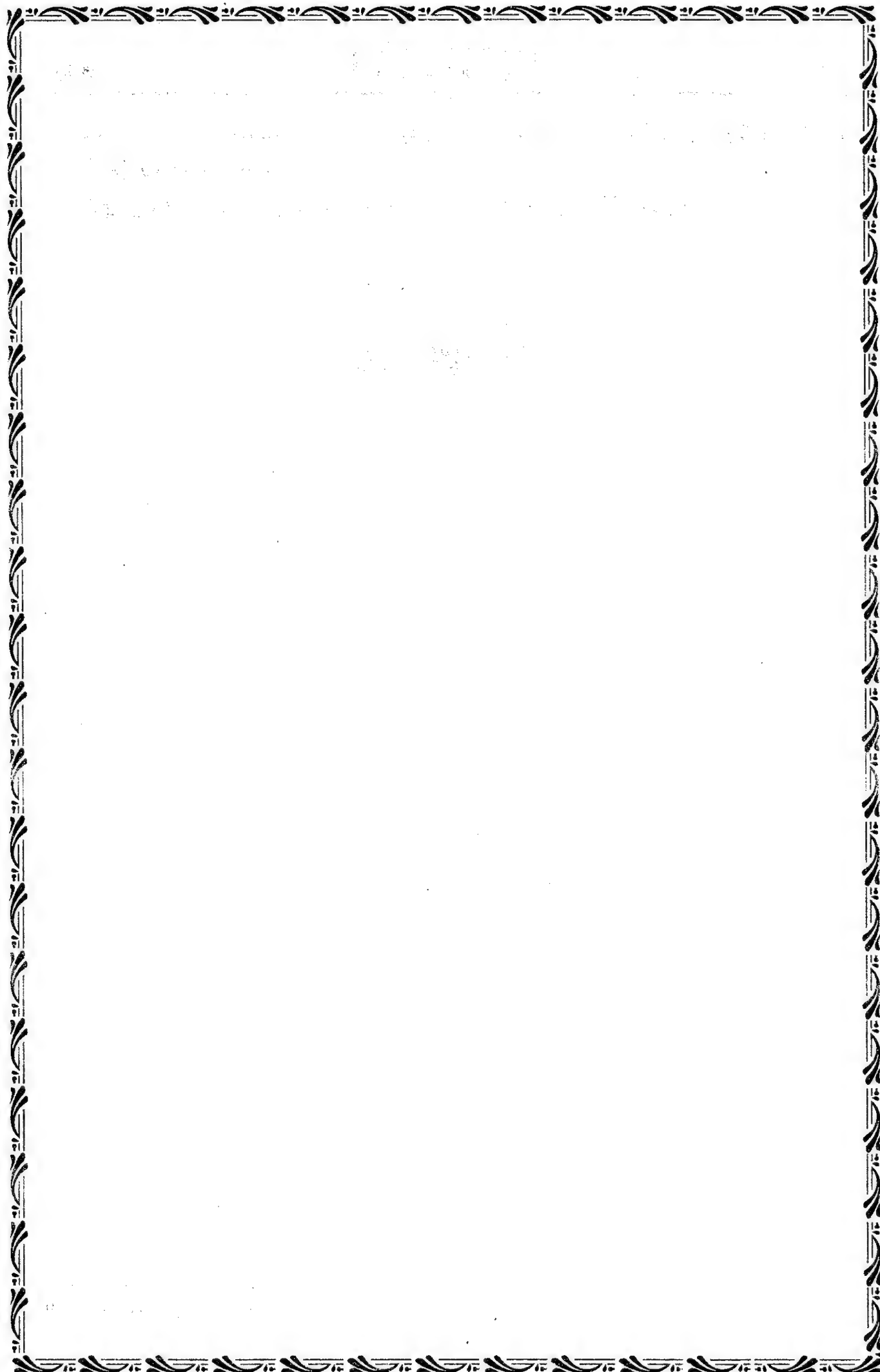
(١) في الأصل وم: يرى. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ١٩٨. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم.

ثم في هذه السورة السجدة لما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سَجَدَ فِي ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ و﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ومن هو خير منهما.

وروي عن علي أنه قال: في اقْرَأْ مِنْ غَزَائِمِ السُّجُودِ، وأبي ^(١) عبيدة عن عبد الله أنه سَجَدَ فِيهَا.



(١) في الاصل وم: وأبو.



سورة القدر

[وهي مكية^(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ بِعَنِي [القرآن، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ بِعَنِي^(٢) السَّلامَ الَّذِي ذَكَرَ فِي آخِرِ السُّورَةِ حَيْثُ قَالَ: ﴿بَيْنَ كُلِّ أَمْسٍ﴾ ﴿سَلَّمَ﴾ [الآيتان ٤ و ٥].

فَمَنْ قَالَ: أَنْزَلَ الْقُرْآنَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَهَمْ مُخْتَلِفُونَ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَنْزَلَ الْقُرْآنَ جَمْلَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَهِيَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ كَقَوْلِهِ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] أَيْ أَنْزَلَ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، ثُمَّ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالتَّفَارِيقِ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْمَوَاعِظِ وَكُلِّ مَا يُخْتَاجُ إِلَيْهِ إِلَى الْعَامِ الْقَابِلِ جَمْلَةً. ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نُجُومًا بِالتَّفَارِيقِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ لَا تَدْرِي أَنَّ تِلْكَ الْفَضِيلَةَ الَّتِي جُعِلَتْ لِهَذِهِ اللَّيْلَةِ لِفَضْلِ عِبَادَةٍ جُعِلَتْ فِيهَا، امْتَحِنَ الْخَلْقُ بِأَدَانِهَا عَلَى التَّرْغِيبِ وَالْإِدْبِ، أَوْ فَضَّلْتَ لِمَكَانٍ مَا امْتَحَنَ الْمَلَائِكَةُ، وَكَلَّفَهُمْ بِالتَّزْوِيلِ فِيهَا وَالْعِبَادَةَ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ وَإِنْزَالِ الْقُرْآنِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، أَوْ لِحِكْمَةٍ وَمَعْنَى فَضَّلْتَ، لَمْ يُظْلِعْ عَلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى أَحَدًا.

وَقَدْ جُعِلَتْ لِبَعْضِ الْأَمَكَةِ الْفَضِيلَةُ لِعِبَادَاتٍ جُعِلَتْ فِيهَا نَحْوُ مَا ذُكِرَ [عَنِ النَّبِيِّ ﷺ]^(٣): «صَلَاةٌ وَاحِدَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ تُعْدِلُ مِثْلَ أَلْفِ صَلَاةٍ فِي غَيْرِهِ، وَصَلَاةٌ وَاحِدَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا تُعْدِلُ أَلْفَ صَلَاةٍ فِي غَيْرِهِ سِوَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» [ابن ماجه ١٤٠٦]. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ أَلْسَكَةَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] خُصِّصَتْ هَذِهِ الْبِقَاعُ بِالْفَضِيلَةِ عَلَى غَيْرِهَا لِعِبَادَاتٍ جُعِلَتْ فِيهَا. فَعَلَى ذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ تُخَصَّ بَعْضُ الْأَوْقَاتِ دُونَ بَعْضٍ بِالْفَضِيلَةِ لِمَكَانٍ عِبَادَاتٍ جُعِلَتْ فِيهَا. لَكِنْ يَبَيِّنُ تِلْكَ الْأَمَاكِنَ، وَلَمْ يَبَيِّنْ تِلْكَ الْأَوْقَاتَ الْمُفَضَّلَةَ [وَلَمْ يَجْعَلْهَا]^(٤) مُطْلُوبَةً مِنْ بَيْنِ غَيْرِهَا مِنَ الْأَوْقَاتِ؛ فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ [أَنَّهُ لَوْ بَيَّنَّهَا، وَأَشَارَ]^(٥) إِلَيْهَا لَكَانَ لَا مَوْؤَنَةَ تُلْزَمُ فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُ يُحْفَظُ ذَلِكَ الْوَقْتُ وَتِلْكَ اللَّيْلَةُ خَاصَّةً، وَأَمَّا الْمَكَانُ فَتُلْزَمُ^(٦) الْمَوْؤَنَةُ فِي إِتْيَانِ ذَلِكَ الْمَكَانِ.

وَعَلَى ذَلِكَ يُخْرَجُ مَا لَمْ يَبَيَّنْ وَقْتُ خُرُوجِ رُوحِ الْإِنْسَانِ مِنْ بَدَنِهِ، لِأَنَّهُ لَوْ بَيَّنَّ، وَأُعْلِمَ نَهَايَةَ عُمرِهِ، لَتَعَاطَى الْفُسْقُ، وَارْتَكَبَ الْمَعَاصِيَ آمِنًا إِلَى آخِرِ أَجْزَاءِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ يَتَوَبُّ، فَلَمْ يَبَيَّنْ لِيَكُونَ أَبَدًا عَلَى خَوْفٍ وَحَذَرٍ وَرَجَاءٍ. فَعَلَى ذَلِكَ لَمْ يَبَيَّنْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ لِتُظَلَّبَ مِنْ بَيْنِ اللَّيَالِي جَمِيعًا، لِتُخَصَّى اللَّيَالِي غَيْرُهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ إِنْ كَانَ السُّؤَالُ عَنِ الْقُرْآنِ، هُوَ الْمُنَزَّلُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، فَيَكُونُ دَلِيلُهُ قَوْلُهُ: ﴿حَمْدٌ﴾ ﴿وَالْحِكْمَةُ الْبَيِّنَاتُ﴾ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَتٍ﴾ [الدخان: ١-٣] وَإِنْ كَانَ السُّؤَالُ عَنِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَيَكُونُ الْبَيَانُ عَنْهَا.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: يَقُولُ: مَا كُنْتُ تَدْرِي حَتَّى أَدْرَاكَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩].

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وجعلها. (٥) في الأصل وم: أن لو بين وأشير. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم.

[والثاني^(١)]: قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ على التعظيم لها والتعجب، والله أعلم.

وقيل: نزل هذه الآية يكون على معنى التسلي؛ إعطاء فضل هذه الليلة / ٦٤٩ - ١ / والعمل بها.

الآية ٣

ثم بين فضلها حين^(٢) قال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ اختُلف فيه؛ قال بعضهم: إن النبي ﷺ أرى بني أمية على منبر، فسأه ذلك، فنزل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي من ألف شهر يملكها بعدك بنو أمية.

وقال بعضهم: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [أي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر]^(٣) سيواها.

وقيل أيضاً: «إن رسول الله ﷺ ذكر لأصحابه أن رجلاً جاهد ألف شهر في سبيل الله، فعظم ذلك عليهم، فنزل قوله:

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾» [البيهقي في الكبرى ٣٠٦/٤] أي العمل فيها خير من جهاد ذلك الرجل في ألف شهر.

ويحتمل أن يكون ذكر ألف شهر على سبيل التمثيل لا على التوقيف، أي خير من ألف شهر وأكثر؛ إذ التقدير قد يكون لبيان العدو نفسه، وقد يكون لبيان شرف ذلك الشيء وعظميته، فلا يكون الغرض، هو القصر على العدو، وهو كقوله: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٨٠] ونحو ذلك.

ثم اختُلف في تسمية ليلة القدر؛ قال بعضهم: هي ليلة الحكم والقضاء؛ فيها يخكم، ويقضي ما يريد أن يكون في ذلك العام المُقبل كقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] وسُميت ليلة القدر لأنها لها قدر ومنزلة عند الله لما يوصف الشيء العظيم بالقدر والمنزلة، أو سُميت ليلة مباركة لأنه تنزل فيها البركات والرحمة من الله تعالى على خلقه، أو سُميت مباركة لكثرة ما يُعمل فيها من العبادات.

الآيتان ٤ و ٥

وقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ ﴿سَلَّمَ مِنْ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

قال بعضهم: الروح هنا جبرائيل كقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وقال بعضهم: خلق موكلون بالملائكة كما أن الملائكة موكلون^(٤) ببني آدم.

وجائز أن يكون الروح هنا، هو الرحمة، أي تنزل الملائكة بالرحمة فيها على ما سُميت مباركة بما تنزل فيها من البركات.

ثم اختلفوا في قوله: ﴿فِيهَا﴾ قال بعضهم: أي في تلك الليلة تنزل الملائكة والروح، وقيل: ﴿فِيهَا﴾ أي في الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي ينزلون بإذن ربهم.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ قال بعضهم: أي بكل أمر يُقدَّر في تلك السنة على الأرض. وكذا قال القتيبي: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ ﴿سَلَّمَ﴾. وقيل: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ يُدبره الله تعالى؛ أي الملائكة، لا علم لهم في ما يُقدَّر الله تعالى إلا أن يُطلعهم

عليه، فكانهم يُطلعون على [ما]^(٥) يُقدَّر في تلك السنة من الأمور، فينزلون بها بأمر الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿سَلَّمَ مِنْ﴾ قيل: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ﴾ تخفُّق بأجنتها بالسلام من الله والرحمة والمغفرة.

وقيل^(٦): أي هي ليلة لا يحدث فيها شر، ولا يُرسل فيها شيطان ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ وقال بعضهم: هو سلام الملائكة،

أي يُسلم الملائكة على كل مؤمن ومؤمنة. وقال بعضهم: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ ﴿سَلَّمَ﴾ أي من كل آفة وبلاء سلام، وكذلك ذكر في قوله: ﴿لَمْ نُعَيِّضْ رِيّاً بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] قال بعضهم: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ يَحْفَظُونَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وقال بعضهم: يَحْفَظُونَهُ بأمر الله تعالى، فلذلك يحتمل قوله: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ ﴿سَلَّمَ﴾ هذين الوجهين.

(١) في الأصل وم: ويحتمل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وقال.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ يَحْتَمِلُ أَي تِلْكَ الْبَرَكَاتُ الَّتِي ذُكِرَتْ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ، وَيَحْتَمِلُ ذَلِكَ السَّلَامُ الَّذِي ذُكِرَ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ، وَيَحْتَمِلُ الْمَلَائِكَةُ، يَكُونُونَ فِي الْأَرْضِ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ. وَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَرَأَ ﴿وَمِنْ كُلِّ آتٍ﴾ سَلَّمَ وَقَالَ: يَعْنِي الْمَلَائِكَةُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: اخْتَلَفَتِ الرِّوَايَاتُ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. مَتَى تَكُونُ؟ وَاخْتَلَفَتِ الصَّحَابَةُ، رَضَوْنَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، فِيهَا:

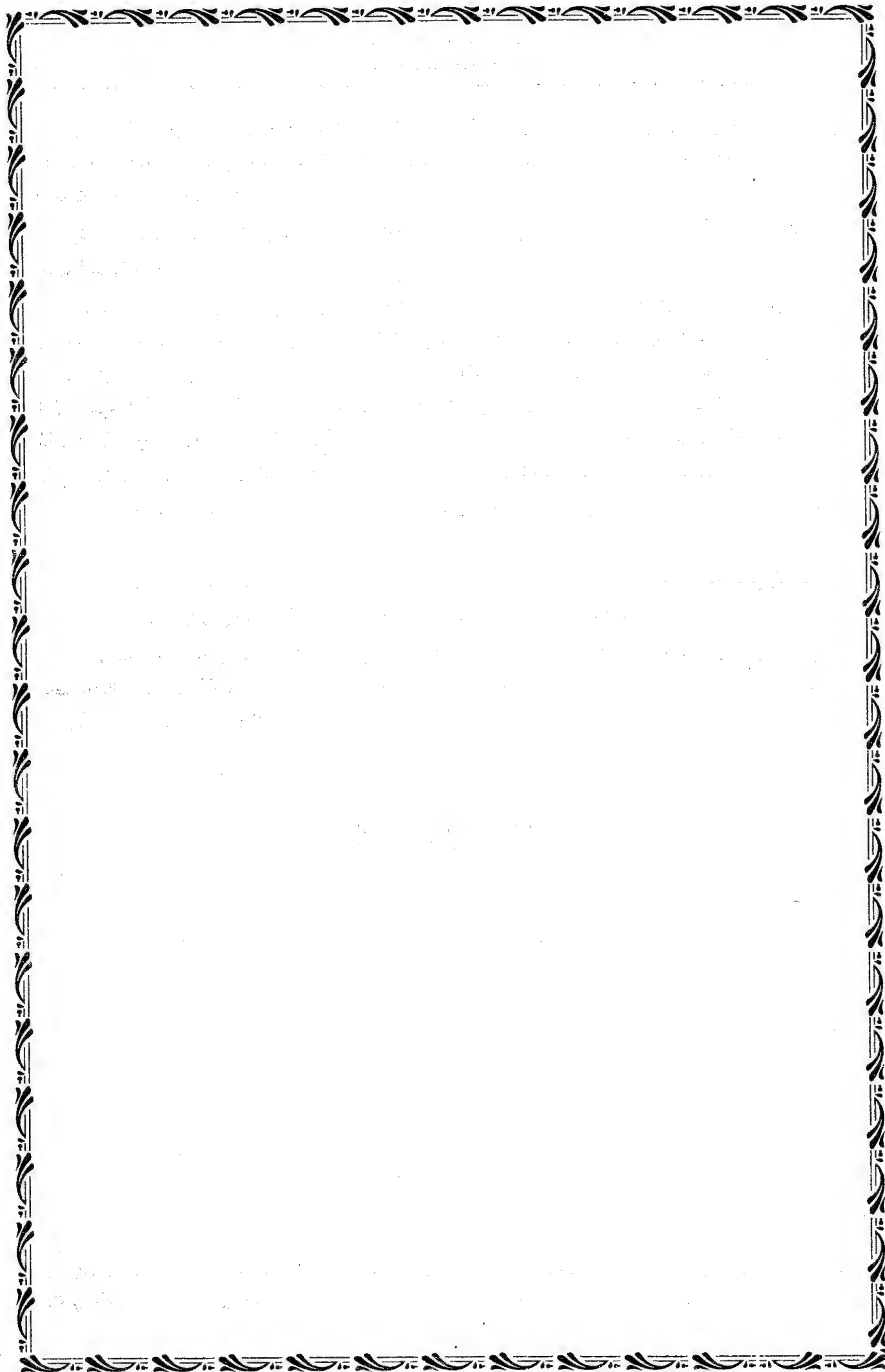
يُرَوِّى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَنَسٍ [الْجُهَنِيُّ] ^(١) عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم [أَنَّهُ] ^(٢) قَالَ: «التَّيَسُّوْهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ، وَاطْلُبُوهَا فِي كُلِّ وَتَرٍ» [البخاري ٢٠٢٧ عن أبي سعيد الخدري] وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَيْلَةُ [تِسْعَ عَشْرَةَ] ^(٣) مِنْ رَمَضَانَ» أَوْ «لَيْلَةُ [إِحْدَى وَعَشْرِينَ] أَوْ «لَيْلَةُ ثَلَاثٍ» ^(٤) وَعَشْرِينَ» [الترمذي: ٧٩٢] وَرَوَى ابْنُ عُمرَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي السَّبْعِ الْآخِرِ» (مسلم ١١٦٥/٢٠٦) وَرَوَى أَنَّهُ فِي سَبْعٍ وَعَشْرِينَ. [وعن] ^(٥) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمرَ أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَأَنَا أَسْمَعُ، قَالَ: «هِيَ فِي كُلِّ رَمَضَانَ» [أبو داود ١٣٨٧]. وَعَنْ [زُرَّ أَنَّهُ] ^(٦) قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي بِنِ كَعْبٍ: أَخْبِرْنِي عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، فَإِنَّ صَاحِبَنَا ^(٧) عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ سَأَلَ عَنْهَا، فَقَالَ: «مَنْ يُقِمِ الْحَوْلَ يُصِيبَهَا» [مسلم: ٧٦٢] فَقَالَ: نَعَمْ، رَحِمَ اللَّهُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمَ أَنَّهَا فِي رَمَضَانَ، كَرِهَ أَنْ يَتَّكِلُوا، وَاللَّهِ إِنَّهَا فِي رَمَضَانَ لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ.

ثُمَّ لَيْسَ لَنَا وَلَا لِأَحَدٍ أَنْ يُشِيرَ إِلَى تِلْكَ اللَّيْلَةِ، فَيَقُولَ: هِيَ لَيْلَةُ كَذَا: لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ أَوْ تِسْعٍ وَعَشْرِينَ إِلَّا أَنْ يَثْبُتَ بِالتَّوَاتُرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي ذَلِكَ خَبَرٌ بِالْإِشَارَةِ إِلَيْهَا، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَسْعُ، وَإِلَّا كَانَتْ مَطْلُوبَةً فِي اللَّيَالِي.

وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ تُخَرِّجُ الْأَخْبَارُ الْمَرْوِيَّةُ عَلَى التَّوَافُقِ دُونَ الْمُنَاقِضَةِ، وَتَكُونُ كُلُّهَا صَحِيحَةً، فَتَكُونُ فِي سَنَةِ [فِي] ^(٨) بَعْضِ اللَّيَالِي وَفِي سَنَةِ أُخْرَى فِي غَيْرِهَا، وَفِي سَنَةِ ^(٩) فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، وَفِي سَنَةِ فِي الْعَشْرِ الْأَوْسَطِ مِنْ رَمَضَانَ، وَفِي سَنَةِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ، وَفِي سَنَةِ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ ^(١٠).



(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ثلاثة. (٤) في الأصل وم: تسعة عشر. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: زير. (٧) في الأصل وم: صاحبه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: سبع. (١٠) من م، في الأصل: بذلك.



سورة البينة

وهي^(١) مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿لَا يَكْفُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ذكر في حق أهل الكتاب ﴿لَا يَكْفُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ بحرف ﴿ين﴾ وهو للتبعية، ولم يقل أهل الكتاب، وذكر في حق أهل الشرك^(٢) والمُشْرِكِينَ لأن أهل الكتاب كانوا فرقة:

منهم من كان آمن برسول الله / ب/ ٦٤٩ - قبل أن يبعث، فلما بعث آمن به، ولزم الإيمان، ومنهم من كان كافراً به، فلما بعث، وأرسل لزم الكفر به، ولم يؤمن، فلما كانوا أصنافاً وفرقة لذلك قال: ﴿لَا يَكْفُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ بحرف ﴿ين﴾.

وأما المُشْرِكُونَ فإنهم كانوا صنفاً واحداً، ثم لم يبين بأنهم إذا أتاهم البينة ينفكون أو لا.

وجائز أن يكون قوله ﴿لَا يَكْفُرُ﴾ إلى قوله ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي لم يكن بعض أهل الكتاب وبعض المُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ مِنَ الْكُفْرِ لَأَنَّهُ عَطَفَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، بل كانوا أهل كُفْرٍ وشرك إلى آخر عُمرِهِمْ، وإن أتتهم البينة. والبينة، هي ما [في]^(٣) خلقه كل أحد مما يدل على ألوهيته ووحدانيته. ويحتمل أن بعضاً من الفريقين على الشرك حتى تأتيهم البينة، وهي معاينة العذاب عند الموت كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤] ونحو ذلك.

وذكر في حرف ابن مسعود^(٤): لم يكن المُشْرِكُونَ وأهل الكتاب مُنْفَكِينَ، وفي حرف أبي: ما كان الذين أشركوا من أهل الكتاب والمُشْرِكِينَ.

ثم اختلف في قوله ﴿مُنْفَكِينَ﴾ قال بعضهم: ﴿لَا يَكْفُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ خارجين من الدنيا ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

ثم اختلفوا في البينة التي ذكر أنها تأتيهم؛ قال بعضهم: البينة رسول الله ﷺ لهما^(٥) قال على إفره ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾ [الآية: ٢] وقال بعضهم: ما جاء به محمد رسول الله ﷺ من الحجج.

فمن جعل قوله: ﴿مُنْفَكِينَ﴾ مُنْتَهَيْنَ زَائِلِينَ يَجْعَلُ الْبَيِّنَةُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُمِّيَ بَيِّنَةً لَأَنَّهُ بُو يُعْرَفُ كُلُّ خَيْرٍ وَكُلُّ إِحْسَانٍ، وبه يبين الحق والباطل وكل شيء من أمر المعاد والمعاش وكذلك القرآن، جاء به.

ومن قال: ﴿مُنْفَكِينَ﴾ خارجين من الدنيا يجعل البينة التي ذكر أنها تأتيهم العذاب معاينة جهرًا كقوله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل قتل مؤمن﴾ [النساء: ١٥٩] أي خارجين من الدنيا حتى يعاينوا^(٥) العذاب، فعند ذلك يؤمنون.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾ على التأويل الأول في البينة يكون ما ذكر من قوله: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ تفسيراً للبينة.

(١) من م، في الأصل: ذكر أن هذه السورة البينة. (٢) في الأصل رم: الكتاب. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل رم: حيث.

(٥) في الأصل رم: يعلموا.

وعلى الثاني يُخْرِجُ على الإبتداء؛ يقول: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾.

ثم جائز أن يكون سُمِّيَ القرآنَ وَحْدَهُ صُحُفًا على المُبالغة؛ إذ قد يُسَمَّى الواحدُ بِاسْمِ الجَمْعِ على المُبالغة. وجائز أن يكونَ قولُهُ ﴿يَتْلُوا صُحُفًا﴾ القرآنَ وسائرَ الصُّحُفِ لأنَّ سائرَ الصُّحُفِ فيه، وكذلك [قوله^(١)]: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ [الآية: ٣] جائز أن يكونَ سُمِّيَ كتابُهُ الْمُتَنَزَّلَ على رسولِ اللهِ ﷺ، كُتِبًا على الإبلاغِ والتأكيدِ على ما ذكرنا. وجائز أن يكونَ ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ وكُتِبًا عليهم، وهي التوراةُ والإنجيلُ والزبورُ؛ كانَ هذا القرآنُ في تلكَ الكتبِ في هذا، وهو كقولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ لَبِئْسَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] وقولهِ ﷺ: ﴿إِنَّ هَذَا لَكِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿صُفِّ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٨ و ١٩] أَخْبَرَ أَنَّهُ فِي تِلْكَ الْكُتُبِ، وَأَنَّ الْكُتُبَ الْأُولَى فِيهِ، فَيَصِيرُ بِتِلَاوَةِ هَذَا عَلَيْهِمْ كَأَنَّهُ تِلَا تِلْكَ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ.

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ نَّبِيٍّ ذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِهِ﴾ [الأنبياء: ٢٤] وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿مُطَهَّرَةً﴾ يَحْتَمِلُ ﴿مُطَهَّرَةً﴾ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِلْبَاطِلِ فِيهَا^(٢) حُجَّةٌ أَوْ مَذْخَلٌ، أَوْ ﴿مُطَهَّرَةً﴾ مِنَ الْإِفْتِعَالِ وَالْإِفْتِرَاءِ، أَوْ ﴿مُطَهَّرَةً﴾ مِنْ أَنْ تَحْتَمِلَ مَا ذَكَرَهُ أُولَئِكَ الْكَفَرَةُ.

وقال قتادة: سُمِّيَ كتابُهُ بِأَحْسَنِ الْأَسْمَاءِ، وَأُنْتِى عَلَيْهِ بِأَحْسَنِ الثَّنَاءِ؛ سَمَاءُ نُورًا وَهُدًى وَرَحْمَةٌ وَبَرَكَةٌ وَآيَةٌ وَشِفَاءٌ وَنُحُوءٌ.

الآية ٣ وقوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: فِيهَا كُتِبَ صَادِقَةٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَادِلَةٌ، وَقَالَ غَيْرُهُمْ: مُسْتَقِيمَةٌ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الْحِكْمَةُ.

وجائز أن يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ أَي أَحْكَامٌ كَثِيرَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ وَالْحِكْمَةُ.

الآية ٤ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ يقولُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: إِنَّمَا تَفَرَّقُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ.

قال أبو بكرٍ: هذا التأويلُ خَطَأٌ لَأَنَّهُمْ كَانُوا مُتَّفَقِينَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَلَا مَعْنَى لِذَلِكَ^(٣).

وعندنا: لَيْسَ كَمَا تَزْعُمُ هُوَ، وَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَا تَفَرَّقُوا فِي مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِهِ؛ عِنْدَ ذَلِكَ تَفَرَّقُوا فِيهِ، فَأَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَكَانُوا^(٤) مُتَّحِدِينَ فِيهِ كُلُّهُمْ.

[والثاني^(٥)]: مَا تَفَرَّقُوا فِيهِ فِي الدِّينِ وَالْمَذْهَبِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ، أَي عَنْ بَيَانٍ وَعِلْمٍ تَفَرَّقُوا فِي الدِّينِ.

وفي مَا تَفَرَّقُوا فِيهِ هُوَ^(٦) مَا جَعَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّ وَاحِدٍ دَلَالَةً التَّوْحِيدِ وَالتَّوْبِيَّةَ لَهُ مَا لَوْ تَفَكَّرُوا لَعَرَفُوا أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ. وَالبَيِّنَةُ تَحْتَمِلُ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالْقُرْآنَ وَنَفْسَ الْخَلْقَةِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أَي مَا أُمِرَ أَوَائِلُهُمْ وَأَوَاخِرُهُمْ فِي تِلْكَ الْكُتُبِ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَلَا يَعْْبُدُوا مِنْ دُونِهِ، أَوْ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَلَا يَعْْبُدُوا مِنْ دُونِهِ، أَوْ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَجْعَلُوا الْأُلُوهِيَّةَ لِلَّهِ وَالْوَحْدَانِيَّةَ لَهُ.

وَدَلَّ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ عَلَى أَنَّ تَأْوِيلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فيه. (٣) في الأصل وم: كذلك. (٤) الغاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: وهو.

[الذاريات: ٥٦] على إضمار الأمر أي [لا ليأمرهم بالعبادة على كل حال، لأنه لو خلَقَهُم للعبادة ما قَدَرُوا غيرَهُ، أو أن يكون قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ لِيْنٍ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ على الخصوص، خلَقَ عَنْ عِلْمٍ أَنَّهُ يُعْبَدُهُمْ^(١) للعبادة.

وقوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: ﴿لَهُ﴾ يُخْرِجُ على وجهين:

أحدهما: أَنْ يُخْلَصَ لَهُ الدِّينُ، وَيُضْفَى، لَا يُشْرَكَ فِيهِ غَيْرُهُ، وَيَكُونُ مِنْ خُلُوصٍ وَصْفَاءٍ^(٢).

والثاني: الدِّينُ الْخَالِصُ، هُوَ الدَّائِمُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢] وكذلك يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لَهُ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

وقوله تعالى: ﴿حُفَّتْ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: الْمُسْلِمُونَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿حُفَّتْ﴾ مُتَّبِعِينَ، وَالْحُفْتُ الْمِيلُ، كَأَنَّهُ قَالَ: مَا تَلِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَقِيلَ: ﴿حُفَّتْ﴾ الْحُجَّاجُ، وَقِيلَ: الْحِفْتُ الْمُسْتَقِيمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّعُوا الصَّلَاةَ وَزُكُّوا الزَّكَاةَ﴾ يَحْتَمِلُ الْقَبُولُ، أَيْ قَبِلُوا إِقَامَةَ الصَّلَاةِ وَإِتَاءَ الزَّكَاةِ، أَيْ تَابَوْا، وَقَبِلُوا ذَلِكَ، لَيْسَ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِقَامَةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِقَامَةِ وَالِإِتْيَانِ، وَأَيُّهُمَا كَانَ فَبِهِ أَنْ أَوَائِلَهُمْ كَانُوا مَامُورِينَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ.

ثم الْمَعْنَى الَّذِي فِي الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، لَا يَحْتَمِلُ النِّسْخَ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، لِأَنَّ الصَّلَاةَ، مَعْنَاهَا الْإِسْتِسْلَامُ وَالْخُضُوعُ لَهُ، وَالزَّكَاةُ، هِيَ تَزْكِيَةُ النَّفْسِ وَطَهَارَتُهَا، وَذَلِكَ لَا يَحْتَمِلُ النِّسْخَ [أصلاً]^(٣).

وقوله^(٤) تعالى: ﴿وَذَلِكَ مِنْ الْقِسْمَةِ﴾ ٦٥٠ - أ / وَالِدَيْنِ مُذَكَّرٌ، وَالْقِسْمَةُ مُؤَنَّثٌ. فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الَّذِي ذَكَرَ، هُوَ الْعِلَّةُ، وَيَحْتَمِلُ دِينَ الْأُمَّةِ الْقِسْمَةَ، وَهُوَ قَوْلُ الرَّجَاحِ، أَوْ يَقُولُ: ذَلِكَ الدِّينُ قَوْمَتُهُ الْحُجَّاجُ، وَالْبَرَاهِينُ أَضِيفَتْ إِلَى الْحُجَّاجِ.

وجائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَكَرَ الْقِسْمَةَ عَلَى التَّسْوِيَةِ بَيْنَ مَا سَبَقَ، وَتَقَدَّمَ مِنْ أَوَاخِرِ الْآيِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْيَتْنَةُ﴾ وَقَوْلِهِ^(٥): ﴿مُطَهَّرَةً﴾ وَقَوْلِهِ^(٦): ﴿كُتِبَ قِسْمَةٌ﴾ تَسْوِيَةً بَيْنَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿خَبَرُ الْيَتْنَةِ﴾ وَقَوْلِهِ^(٧): ﴿نُشْرُ الْيَتْنَةِ﴾. وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: [ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ لغيرِهِ]^(٨).

وفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْيَتْنَةُ﴾ وَجِهَانِ:

أحدهما: تَحْذِيرٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ لئَلَّا يَتَفَرَّقُوا كَمَا تَفَرَّقَ أَوْلَئِكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي مَا جَاءَ بِهِ.

والثاني: يَكُونُونَ دَائِمًا فَرِيعِينَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ وَقْتٍ خَائِفِينَ مِنْهُ وَلَا يَكْلُوا إِلَى الْبَيَانِ الَّذِي جَاءَهُمْ، فَيَتَفَرَّقُوا كَمَا تَفَرَّقَ أَوْلَئِكَ.

الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ ظَاهِرٌ هَذَا أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلَ قَوْلِهِ: ﴿لَهُ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية: ١] أَيْ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ فِي النَّارِ لَا كُلُّ الْمُشْرِكِينَ، وَلَكِنْ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كَانَ كَمَنْ كَفَرَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ لَكِنَّ الْكُفْرَ، هُوَ الشُّرْكُ، وَالشُّرْكُ، هُوَ الْكُفْرُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فَذَلِكَ أَنَّ الْكُفْرَ وَالشُّرْكَ وَاحِدٌ، وَكُلُّ كَافِرٍ مُشْرِكٌ، فَكَأَنَّهُ قَالَ ﷺ: إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾.

ثم جَاءَ هَذَا التَّشْدِيدُ لِهَؤُلَاءِ لِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ مِنْ نَسْلِ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ تَرَكُوا أَتْبَاعَهُمْ، وَالْمُشْرِكِينَ قَدْ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِهْدَى الْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] ثُمَّ تَقَضَّوْا ذَلِكَ الْعَهْدَ.

وَأَهْلُ الْكِتَابِ ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى مِثْلِ الَّذِي عَلَيْنَا وَنَحْنُ عَلَى مِثْلِهِمْ﴾ [مُتَهَدِّثُونَ] وَقَالُوا: ﴿وَلَئِنْ عَلَيْنَا لَأُثَرِّمَهُمْ مُتَعَدِّتُونَ﴾^(٩) [الزخرف: ٢٢ و ٢٣]. فَتَرَكُوا أَتْبَاعَ الصَّالِحِينَ مِنْ آبَائِهِمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: يَعْبُدُهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ رَم: وَصْفَاءُهُ. (٣) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٤) فِي الْأَصْلِ رَم: وَقَالَ.

(٥) فِي الْأَصْلِ رَم: وَ. (٦) فِي الْأَصْلِ رَم: وَ. (٧) فِي الْأَصْلِ رَم: وَ. (٨) فِي الْأَصْلِ رَم: الْقِيَمَةُ لغيرِهَا. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم.

والعرب أيضاً كانوا أقرب إلى رسول الله ﷺ من غيرهم، فَحَقُّهُ عَلَيْهِمُ الزُّمُّ وَأَوْجِبَ. فَشَدَّدَ [على] ^(١) هؤلاء لهذا المعنى.

ثم إن كانَ [لَفْظًا] ^(٢) «الْبَرِّيَّةُ» مأخوذاً مُقَدَّرًا مِنَ الْبَرِّ، وهو التراب، وَيَرْجِعُ تَأْوِيلُ الْآيَةِ إِلَى الْبَشَرِ، فكانه قال: أولئك هم شرُّ ما أنشئنا من الأرض، وإن كانَ مأخوذاً [مُقَدَّرًا] ^(٣) مِنَ الْبَرِّ، وهو الخلق، فيصيرُ كأنه قال: أولئك هم شرُّ ما خلَقُوا، فَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ وَالْجِنُّ وَالْبَشَرُ، وَفِي الْأَوَّلِ لَا يَدْخُلُ إِلَّا الْبَشَرُ خَاصَّةً.

الآية ٧ وكذلك ما ذَكَرَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ حِينَ ^(٤) قَالَ: ﴿إِنَّكَ الْإِيمَانُ مَا شِئْنَا وَوَعَدْنَا أَلَمَّا كُنَّا مِنْكُمْ خَيْرَ الْبَرِّيَّةِ﴾ فَإِنْ كَانَ [لَفْظًا] ^(٥) «الْبَرِّيَّةُ» مأخوذاً مِنَ الْبَرِّ، فهو يرجعُ إِلَى الْأَصْنَافِ جَمِيعاً، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْبَرِّ، وهو التراب، فهو يرجعُ إِلَى الْبَشَرِ خَاصَّةً، فيصيرُ كأنه قال: شرُّ أَهْلِ الْبَشَرِ مِنْ جَنَسِهِمْ، وَخَيْرُ أَهْلِ الْخَيْرِ مِنْ جَنَسِهِمْ لَأَنَّهُمْ صَارُوا قَادَةً فِي الْهُدَى وَالْخَيْرِ.

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿جَزَاءُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فَإِنْ كَانَ الْعَدَنُ، هو المَقَامُ، فجميعُ الْجَنَانِ عَدَنٌ، وَجميعُ الْجَنَانِ ^(٦) نعيمٌ. ثم قد قَسَمَ الْخَلْقُ صِنْفَيْنِ [صِنْفًا] ^(٧) جَعَلَهُ شَرَّ الْبَرِّيَّةِ [وَصِنْفًا] ^(٨) جَعَلَهُ خَيْرَ الْبَرِّيَّةِ. ثم يكونُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ شَرٌّ مِنْ شَرٍّ وَخَيْرٌ مِنْ خَيْرٍ، وَسَوَى بَيْنَ مَنْ نَشَأَ عَلَى الْكُفْرِ، وَدَامَ عَلَيْهِ فِي التَّأْيِيدِ وَالتَّخْلِيدِ، وَبَيْنَ مَنْ أَخَذَتْ الْكُفْرَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ، وَكَذَلِكَ مَنْ دَامَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ أَخَذَهُ سَوَى بَيْنَهُمَا، وَلَمْ يَجْعَلْ لِمَا مَضَى مِنَ الْكُفْرِ جَزَاءً وَلَا عِقَاباً، وَذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، هُوَ أَنْ مَنْ اغْتَقَدَ إِيْمَانًا إِنَّمَا ^(٩) يَغْتَقِدُ لِلْأَبَدِ، وَكَذَلِكَ مَنْ يَغْتَقِدُ الْكُفْرَ إِنَّمَا يَغْتَقِدُ لِلْأَبَدِ.

فإذا أَخَذَتْ الْإِيمَانُ بَعْدَ الْكُفْرِ اغْتَقَدَ قُبْحُ [مَا] ^(١٠) عَمِلَ فِي حَالِ كُفْرِهِ وَشَرُّهُ وَحُسْنُ مَا أَخَذَتْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ. وَكَذَلِكَ مَنْ أَخَذَتْ الْكُفْرَ بَعْدَ الْإِيمَانِ اغْتَقَدَ قَسَادَ مَا عَمِلَ فِي حَالِ إِيْمَانِهِ.

لِلَّذَلِكَ [سَوَى] ^(١١) بَيْنَ مَنْ أَخَذَتْ وَبَيْنَ مَنْ دَامَ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ كَمَنْ يُذَيِّبُ فِي وَقْتٍ، وَيَتَوَبُّ فِي وَقْتٍ، لِأَنَّهُ [لَيْسَ] ^(١٢) يَغْتَقِدُ حُسْنَ ذَلِكَ وَلَا قُبْحَهُ فِي الْأَبَدِ، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ.

وقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [يَخْتَلِ وَجْهَيْنِ] ^(١٣):

أَحَدُهُمَا: يَقُولُ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بِعَمَلِهِمُ الَّذِي عَمِلُوا لِأَنْفُسِهِمْ وَسَعْيِهِمُ الَّذِي سَعَوْا فِي الدُّنْيَا لَهُمْ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْ سَعْيِهِمْ لَهُمْ، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أَي رَضُوا مِنْهُ بِمَا أَكْرَمَهُمْ، وَوَقَّعَهُمْ لِلْأَعْمَالِ الَّتِي عَمِلُوا لِأَنْفُسِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَشْكُرُوا بِرَحْمَةِ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] أَي إِنْ قَبِلُوا مَا أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ، وَأَحْسَنُوا صُحْبَةً إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ يَرْضَ ذَلِكَ لَهُمْ.

وهذا يدلُّ أَنَّ مَا يَعْمَلُونَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ إِنَّمَا يَعْمَلُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلَمَنْعَةٍ تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَوْ مَضْرُوءٍ تَنْدَفِعُ عَنْهُمْ.

والثاني: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بِمَا أَكْرَمَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ لِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوا لِأَنْفُسِهِمْ ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بِكَرَامَتِهِ الَّتِي أَكْرَمَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ هَذَا مِنْهُ إِفْضَالٌ وَإِنْعَامٌ حِينَ ^(١٤) ذَكَرَ رِضَاهُ عَنْهُمْ.

وإنْ ذَكَرَ الْعَفْوُ وَالتَّجَاوُزُ كَانَ حَقًّا. وَلَكِنْ هَذَا كَمَا ذَكَرَ مِنْ لَطِيفِ مُعَامَلَتِهِ عِبَادَهُ حِينَ ^(١٥) سَمَّى مَا أَدَّخَرُوا فِي وَقْتِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ قَرْضًا حَسَنًا حِينَ ^(١٦) قَالَ: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [العزمل: ٢٠] وَسَمَّى بَذْلَهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ شِرَاءً ^(١٧) وَمَا يَعْمَلُونَ لِأَنْفُسِهِمْ جَزَاءً وَشُكْرًا، وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَهُ.

وَلَكِنْ سَمَّى الَّذِي ذَكَرْنَا لُطْفًا مِنْهُ وَقَضَاءً. فَعَلَى ذَلِكَ مَا ذَكَرَ مِنْ رِضَاهُ عَنْهُمْ بِهِ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من م. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: و. (٩) من م، في الأصل: تاماً. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) في الأصل وم: حيث. (١٧) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ النَّبِيِّينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَتَوَلَّاهُمْ بَدَلًا لَهُمْ الْجَنَّةَ﴾

وكذلك قوله: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ذَكَرَ رِضَاهُمْ عَنْهُ بِفَضْلِهِ وَلُطْفِهِ، وَإِلَّا فَمِنْهُمْ^(١) الرِّضَا عَنْ اللَّهِ تَعَالَى.

ثم هو يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ سِوَى مَا ذَكَرْنَا:

أحدهما: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما امْتَحَنَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْمِحْنِ الشَّدِيدَةِ الْعَظِيمَةِ، وَإِنْ اشْتَدَّتْ، وَثَقُلَتْ^(٢) عَلَى أَنْفُسِهِمْ، إِذَا رَأَوْا إِحْسَانَ اللَّهِ تَعَالَى وَقَضْلَهُ فِي الْآخِرَةِ.

والثاني: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بِالنِّعَمِ الَّتِي أَكْرَمَهُمْ فِي الْجَنَّةِ ﴿لَا يَبْتَغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ وَلَا يُرِيدُونَ غَيْرَهَا، وَلَا يَمْلُونَ [عَلَى مَا يَمْلُونَ]^(٣) فِي الدُّنْيَا.

قَالَ أَبُو عَرُوسَ جَعَلَهُ: ﴿مُنْفَكِينَ﴾ أَي لَا يَزَالُونَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ؛ يَقُولُ الرَّجُلُ: مَا انْفَكَّكَتُ أَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا. وَقَالَ الْفَتْيُّ وَأَبُو عُيَيْدٍ وَغَيْرُهُمَا: ﴿مُنْفَكِينَ﴾ زَائِلِينَ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أَيِ الَّذِي ذَكَرَ مِنَ الْجَزَاءِ لِمَنْ خَشِيَ يَقَمَّتْهُ أَوْ خَشِيَ سُوءَ صُحْبَةِ نَعِيمِهِ.

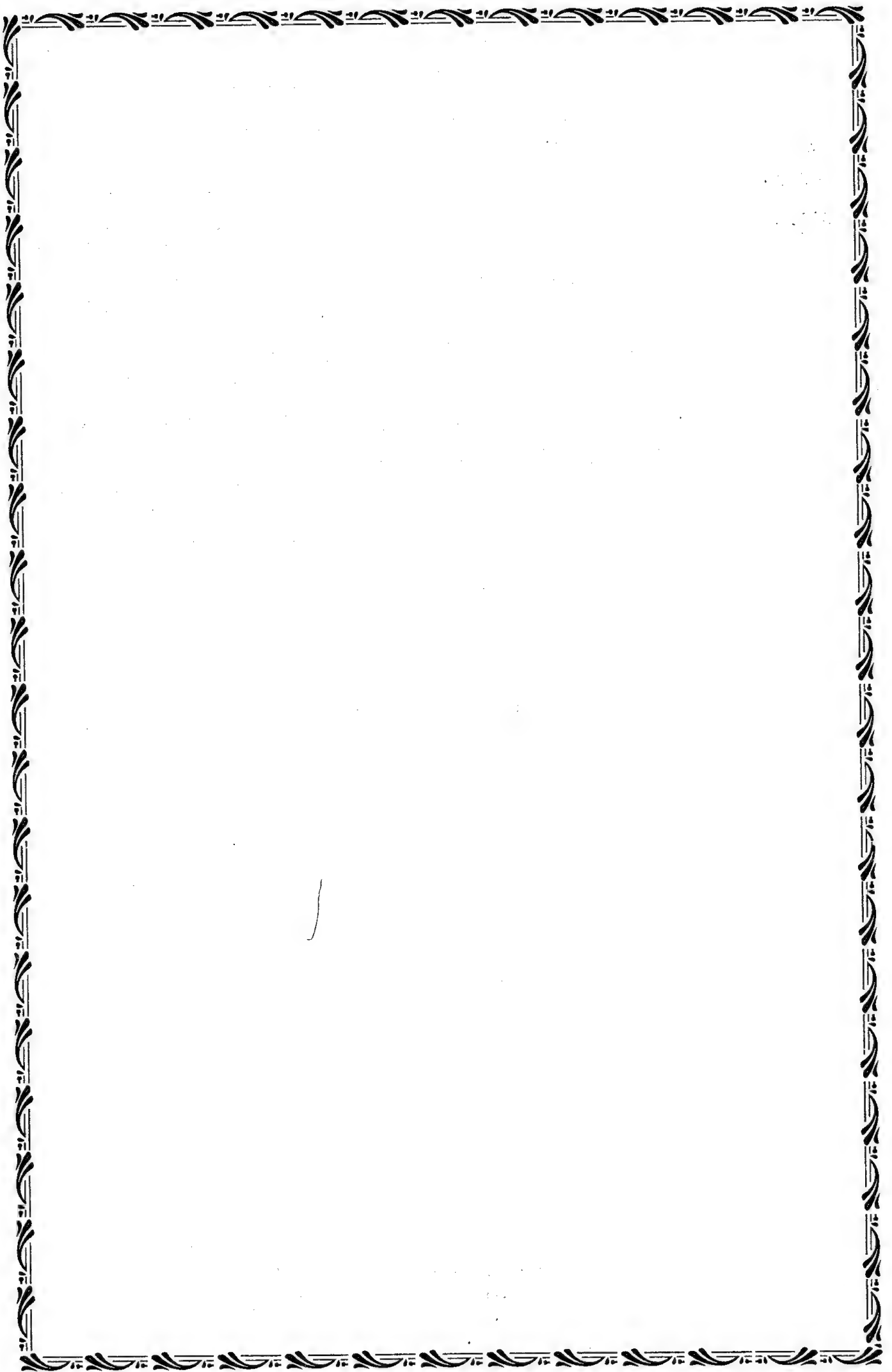
وَأَصْلُهُ: أَنَّ مَنْ اجْتَنَبَ الْمَعَاصِيَ، وَعَمِلَ بِالطَّاعَاتِ فَإِنَّمَا يَقَعُلُ ذَلِكَ لِخَشْيَةِ رَبِّهِ ﷻ فَكُلُّ مَنْ [هُوَ]^(٤) أَعْلَمَ بِرَبِّهِ فَهُوَ أَخْشَى لِرَبِّهِ تَعَالَى، وَمَنْ [هُوَ]^(٥) أَجْهَلُ بِهِ فَهُوَ أَجْرَأُ [عَلَى مَعْصِيَتِهِ]^(٦).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُلْكُوتُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وَقَالَ الْحَسَنُ: الْخَشْيَةُ، هِيَ^(٧) الْخَوْفُ اللَّازِمُ فِي الْقَلْبِ الدَّائِمُ فِيهِ، أَيِ^(٨) خَشْيِ خِلَافَتِهِ وَكُفْرَانِ نَعِيمِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: ذلك. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: هو. (٨) في الأصل وم: أو.



سورة (١) الزلزلة

مكية (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم
٦٥٠ - ب /

الآية ١

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ قد ذكرنا أن حرف ﴿إِذَا﴾ يُذكرُ عن سؤالٍ سبقَ منهم؛ كأنهم سألوا عن الوقت الذي كانوا يُوعَدون فيه، وإن لم يُذكر السؤال، لأنه قد يكونُ في الجوابِ بيانُ السؤالِ، وفي السؤالِ بيانُ الجوابِ، وإن لم يُذكر. فعند ذلك قال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أخبرهم عن أحوال يوم القيامة والحساب، ولم يُخبرهم عن وقتها، وقد ذكر في غير موضع.

ثم قوله ﷻ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي حُرِّكَتِ الأرضُ تحريكاً شديداً ليهول ذلك اليوم، وهو يُخرجُ على وجهين: أحدهما: جائز أن تكون تُتزلزلُ، وتُحركُ حتى تُلقَى ما ارتفعَ منها من الجبالِ الرواسي في الأودية حتى تستوي الأرض، فلا يبقى فيها هبوط ولا صعود كقوله تعالى: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧].

[والثاني] (٣): جائز أن يكون قوله: ﴿زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ أي تُزلزلُ، وتُحركُ بغير الجبالِ الرواسي حتى تُصيرَ كما ذكر: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤ و٥].

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. فإذا فُيِّت، وتلاشت، بقيت الأرضُ مُستوية على ما ذكره. ويَحْتَمِلُ أن تكون تُتزلزلُ، وتُحركُ، حتى تُصيرَ غيرَ تلك كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٨].

ويَحْتَمِلُ أن يكون تبدلها وتحريكها ومدّها، هو تغيُّرُ صفاتها على ما ذكرنا في الوجهين الأولين. قال الزجاج: لا يصحُّ هذه (٤) القراءة لأن الزلزالَ من المضاعف، إنما تكون بالخفض مصادرها. أمّا الأسماء فقد (٥) تكون نصباً كقوله تعالى: ﴿بَيْنَ سَلَمِينَ﴾ [الحجر: ٢٦ و...]. ونحوه. والزلزالُ مُضَدَّرٌ، فيكون في الأصلِ المُطَرَّدُ فيه، هو الكسرُ، والنصبُ يكون نادراً، والله أعلم.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَفْقَالَهَا﴾ أي أحمالها ليهول ذلك اليوم كقوله في آية أخرى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَلَثَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤].

ثم يَحْتَمِلُ ﴿وَأُخْرِجَتِ﴾ و﴿وَأَلْقَتْ﴾ ما فيها من الموتى من أول ما دُفِنَ فيها من كل شيء من الحيوان وغيرها إلى آخر ما يُجعلُ فيها من الكنوز وغيرها ممّا يَحْتَمِلُ الحسابُ وممّا لا يَحْتَمِلُ من البشرِ وجميعِ المُنْتَحِنِينَ وغيرهم. ويَحْتَمِلُ ﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَفْقَالَهَا﴾ المُنْتَحِنِينَ خاصّةً وممّن يُحاسبون، ويُثابون، ويُجزون.

الآيات ٢ و ٤

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ [بَوْمِئِذٍ نُخَبِّرُكَ أَخْبَارَهَا] (٦) قال الكافرُ مالها تتحرك؟ فقال بعضهم: أحمق في الدنيا وأحمق في الآخرة حين (٧) يسأل: الأرض مالها تتزلزلُ، وتتحرك؟ يظن أنها بنفسها تفعل ذلك،

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكران. (٢) أدرج قبلها في م: وهي. (٣) في الأصل وم: و. (٤) المقصود بها: زلزال بالفتح، وهي قراءة عاصم الجعدي وعيسى بن عمر بالفتح، انظر معجم القراءات القرآنية ح ٨/ ٢١٨. (٥) الباء ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث.

لَا لِفَرْعِهِ مِمَّا^(١) يَرَى مِنْ أَهْوَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَتَغْيِيرِ أَحْوَالِهَا عَلَى مَا لَمْ يَنْظُرْ فِي الدُّنْيَا فِي الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ حَتَّى يَقْبَلَهَا، وَيَخْضَعَ لَهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأَخِيرِ كَأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ تَشْهَدُ، وَتُخْبِرُ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا.

ثُمَّ [قَوْلُهُ تَعَالَى]^(٢): ﴿أَخْبَارَهَا﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِ:

أَحَدُهَا: مَا قَالَهُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: أَنَّهَا تُخْبِرُ، وَتُحَدِّثُ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ أَوْ طَاعَةٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ. لَكِنْ لَا يَحْتَمِلُ ﴿أَخْبَارَهَا﴾ الْخَيْرَ لِأَنَّهَا إِنَّمَا تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ لِانْكَارِ أَهْلِ الْكُفْرِ مَا كَانَتْ مِنْهُمْ مِنْ فِعْلِ الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ. وَأَمَّا أَهْلُ الْجَنَّةِ فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ مُقَرَّنِينَ بِالْخَيْرَاتِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُضِدُّهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَكذلك مَا ذَكَرَ مِنْ شَهَادَةِ الْجَوَارِحِ؛ إِنَّمَا تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ عَلَى مَا يُنْكِرُونَ مِنَ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَاصِي. فَعَلَى ذَلِكَ التَّأْوِيلُ يَكُونُ ﴿أَخْبَارَهَا﴾ عَلَى حَقِيقَةِ النِّطْقِ وَالْكَلَامِ.

[وَالثَّانِي: مَا]^(٣) قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَخْبَارَهَا﴾ مَا ذَكَرَ مِنْ تَزَلُّلِهَا وَتَحَرُّكِهَا وَالْأَحْوَالِ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا، هُوَ تَحْدِيثُهَا وَأَخْبَارُهَا الَّتِي تَكُونُ مِنْهَا.

[وَالثَّلَاثُ: مَا]^(٤) قَالَ بَعْضُهُمْ: يَوْمَئِذٍ تَبَيَّنَ، وَتَقَعُ أَخْبَارُهَا الَّتِي أَخْبَرُوا فِي الدُّنْيَا، فَكَذَّبُوهَا، يَوْمَئِذٍ يَتَبَيَّنُ لَهُمْ ذَلِكَ، وَتَقَعُ لَهُمُ الْمَشَاهِدَةُ عِيَانًا مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

وَفِي الْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَتَذَرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: أَخْبَارُهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَامَّةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا» [الترمذي: ٢٤٢٩].

الآية ٥ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ مَنْ قَالَ بِأَنَّ أَخْبَارَهَا مِنْ شَهَادَتِهَا بِمَا عَمِلُوا عَلَى ظَهْرِهَا [فَيَكُونُ تَأْوِيلُ]^(٥) قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْحَى لَهَا﴾ مِنْ شَهَادَتِهَا بِمَا عَمِلُوا عَلَى ظَهْرِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْحَى لَهَا﴾ أَيِ إِذْنِهَا بِالشَّهَادَةِ، فَتَشْهَدُ.

وَمَنْ قَالَ: ﴿أَخْبَارَهَا﴾ هُوَ تَزَلُّلُهَا وَتَحَرُّكُهَا وَالْأَحْوَالِ الَّتِي تَكُونُ مِنْهَا، فَيَقُولُ عَلَى إِسْقَاطِ ﴿لَهَا﴾: يَقُولُ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى﴾ أَيِ فَعَلَ ذَلِكَ بِهَا.

وَالْوَحْيُ قَدْ يَكُونُ الْوَحْيَ وَالْإِلْهَامَ وَالْأَمْرَ، وَتُسْتَعْمَلُ فِي مَا يَلِيقُ.

الآية ٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاكَ لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ صُدُورُ النَّاسِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: يَصُدُّرُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَى الْحِسَابِ لِيُرَوْا كِتَابَةَ أَعْمَالِهِمْ، أَيِ لِيُرَوْا مَا كُتِبَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ الَّتِي عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا.

[وَالثَّانِي]^(٦): صُدُّورُهُمْ عَلَى مَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ. فَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ لِيُرَوْا جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ الَّتِي عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي النَّارِ﴾ [الشورى: ٧] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١] هَذَا تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿أَشْتَاكَ﴾.

الآيتان ٧ و ٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَرَى الْكَافِرُ مَا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلَا يَرَى لِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِهَا، وَلَا يَعْمَلُ لَهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: مَا. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم. يَكُونُ تَأْوِيلُهُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم. وَيَحْتَمِلُ.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاقِلَةَ عَجَّلْنَا لَمْ يَبْقَ فِيهَا مَا تَشَاءُ لِمَنْ تُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] والمؤمن يرى ما عَمِلَ مِنْ شَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَمَا عَمِلَ [مِنْ خَيْرٍ] ^(١) فِي الْآخِرَةِ.

وعلى ذلك رُوِيَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ عليه السلام كَانَ جَالِسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَكُلْتُ مَا عَمِلْتُ مِنْ شَرِّ يَرَاهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا تَرَوْنَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا تَكْرَهُونَ فَهُوَ مِنْ ذَلِكَ، وَيَذْخُرُ الْخَيْرُ لِأَهْلِهِ فِي الْآخِرَةِ [الحاكم فِي الْمُسْتَدْرَكِ ٢/ ٥٣٢ و ٥٣٣].

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ عَلَى الْإِحْصَاءِ وَالْحِفْظِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَقَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أَيْ لَا يَذْهَبُ عَنْهُ شَيْءٌ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ حَتَّى الدَّرَّةُ.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ، وَهُوَ ^(٢) أَنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ أَيْ مَنْ يَعْمَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلُ مِنَ الْكُفَّارِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ فِي الْآخِرَةِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ فِي غَيْرِ آيَةٍ ^(٣) مِنَ الْقُرْآنِ أَنَّهُ يَقْبَلُ حَسَنَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧] وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وقوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ لَيْسَ إِرَادَةً حَقِيقَةَ الدَّرَّةِ، وَلَكِنْ عَلَى التَّمْثِيلِ.

ثم قيل: مِنْ أَخْبَارِ الْأَرْضِ وَمَا ذَكَرَ مِنْ شَهَادَةِ الْجَوَارِحِ أَنْ كَيْفَ اخْتَمَلَ ذَلِكَ، وَهِيَ ^(٤) أَمْوَاتٌ، وَالْأَمْوَاتُ ^(٥) لَا عِلْمَ لَهَا؟

فجائزٌ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ لَهَا عِلْمًا، وَيُنْطِقُهَا بِذَلِكَ، وَأَنْ لَهَا بِذَلِكَ عِلْمًا عَلَى جَعْلِهَا آيَةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَسَوْفَ أَعْلَمُكُمْ﴾ دَلَالَةً أَنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. وقوله ﷻ ^(٦): «لَا تُسَافِرُوا بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضٍ / ٦٥١ - أ / الْعَدُوِّ» [مسلم ١٨٦٩ / ٩٤]. وَقَوْلُ النَّاسِ: يُقْرَأُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَفِي الْمَصَاحِفِ [قُرْآنٌ، لَا يُرَادُ بِهِ حَقِيقَةُ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْمَصَاحِفِ] ^(٧) وَلَا حَقِيقَةُ كَوْنِ الْقِرَاءَةِ فِيهَا وَالسُّقْرِ بِهِ وَلَا حَقِيقَةُ سَمَاعِ كَلَامِهِ تَعَالَى، وَيَكُونُ عَلَى مَا أَرَادَ مِنْ سَمَاعِ مَا بِهِ يُفْهَمُ كَلَامُهُ، وَيُسْمَعُ مَا يُعْبَرُ بِهِ عَنْ كَلَامِهِ، وَكَذَلِكَ يَكُونُ فِي الْمَصَاحِفِ مَا يُفْهَمُ بِهِ كَلَامُهُ أَوْ مَا يُعْبَرُ بِهِ عَنْ كَلَامِهِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ رُؤْيَا الْأَعْمَالِ وَأَعْيُنِ الْأَعْمَالِ، وَلَكِنْ يُرَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهَا، وَهُوَ الْمَكْتُوبُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ فِي الْكِتَابِ الَّتِي فِيهَا أَعْمَالُهُمْ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ [وَصَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مُحَمَّدٍ، وَسَلَّم]. تَمَّتْ هَذِهِ السُّورَةُ ^(٨).



(١) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: آي. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَهُوَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْمَوَات. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنْ م.

سورة (١) العاديات

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿وَالْمَدِينَتِ ضَبْحًا﴾ إلى آخره؛ قال علي، كرم الله وجهه، وعبد الله، رضي الله عنه: هي الإبل، وقال ابن عباس رضي الله عنه وغيره من أهل التأويل: هي الخيل، غير أن علياً رضي الله عنه قال: ذلك يوم بدر، وقال ابن مسعود رضي الله عنه ذلك ومن قال: هي الخيل، قال ذلك في سرية بعثها رسول الله ﷺ فأنبطاً عليه خبرها، فاعتم رسول الله ﷺ فنزل جبرائيل، صلوات الله عليه وسلامه، يخبرها على ما ذكر، ووصف، فسر بذلك المؤمنون.

فإن كان في أمر السرية والخيل على ما قاله ابن عباس رضي الله عنه فجهة القسم بذلك يَحْتَوِلُ وجوهاً:

أحدها: أنه من علم الغيب؛ إذ لا يعلم بحالهم، وما وصف من أمر الخيل، لا يكون إلا بالوحي من السماء أو من شهد ذلك. فإذا لم يُخبرهم ^(١) أحدٌ ومن شهدها، ثم أخبر بذلك رسول الله ﷺ ثم ظهر عندهم على ما أخبر رسول الله ﷺ علموا بذلك أنه رسول الله ﷺ وأنه إنما عرفت بالوحي من الله تعالى، وذلك من أعظم آيات الرسالة.

[والثاني: ^(٢) أن يكون بما ذكر من شدة الخيل وقوتها وجدة بصرها حين ^(٣) عدت في ليل مظلم، لا قمر فيه، ولا نور، عدواً، تخرج النار من شدة عدوها من الحجارة التي تضرب بحوافرها، ما لا يُقدَّر لإنسان العدو في مكانٍ مُستَوٍ فضلاً إلا ^(٤) يُقدَّر على ذلك من الصعود والهبوط وما ذكر من إثارة الثع من شدة عدوها وتوسطها في العدو.

[والثالث: أن ^(٥) يذكر موافقة مرادهم وحصول غرضهم في الإغارة على عدوهم في أغفل ما يكون العدو، وهو وقت

الصبح.

ثم القسم يقول: ﴿وَالْمَدِينَتِ ضَبْحًا﴾ وما ذكر من الموريات وغيره، هو صفة العاديات ونعوتها، وفيه إشارات ثلاث:

إحداها: ^(٦) أنه لم تحدث لهم حادثة، والثانية ^(٧): الإغارة على العدو. والثالثة ^(٨): أنهم توسطوا العدو.

ومن قال: هي الإبل، وذلك في أمر الحج، يذكر سرعة سيرها وشدة عدوها في الليلة المظلمة التي فيها الأودية والهبوط والصعود.

الآية ٢

ثم قوله تعالى: ﴿قَالَتُورَيْتَ قَدَسًا﴾ على هذا التأويل؛ أي تضرب الحجر بالحجر فتخرج منه النار من شدة سيرها وعدوها، وفي الخيل شدة ضرب الحوافر على ما ذكرنا.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿قَالَتُورَيْتَ ضَبْحًا﴾ على هذا التأويل يقول بعضهم: نُزِلَتْهم في تلك الغارات والأودية في وقت الصبح. والأشبه أن يكون خروجهم في تلك الغارات والأودية في ذلك الوقت لأن ذلك الوقت وقت الخروج منها والرواح ^(٩) لا وقت المقام، أو يكون قد استقبلهم العدو هنالك.

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) في الأصل وم: يحضرهم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: أن. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: بشارة ثلاثة أحدها. (٨) في الأصل وم: والثاني. (٩) في الأصل وم: والثالث. (١٠) في الأصل وم: والدفع.

وَمَنْ أَرَادَ بِهِمُ الشَّرَّ فَتَكُونُ الْمَغِيرَاتُ عَلَى الْإِغَارَةِ عَلَيْهِمْ، إِنْ كَانَ ثُمَّ عَدُوٌّ.

الآية ٥ [وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ بِهِ نَقْمًا﴾^(١) ﴿فَوَسَّلَنَ بِهِ جَمًّا﴾ على هذا التأويل الجَمْعُ في الحج، وهو الجَمْعُ المعروف.

وَمَنْ قَالَ ذَلِكَ فِي الْخَيْلِ يَكُونُ تَوَسُّطُهُنَّ فِي جَمْعِ الْعَدُوِّ.

الآية ٦ ثم الذي وَقَعَ بِهِ الْقَسَمُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أي الإنسان لِينْعَمَ رَبُّهُ لَكَفُورٌ، لَا يَشْكُرُهَا، وهو أَنَّ الْإِنْسَانَ يَذْكُرُ مَصَائِبَهُ وَمَا يُصِيبُهُ مِنَ الشَّدَةِ فِي عُمُرِهِ أَبَدًا، وَيَنْسَى جَمِيعَ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ وَلَا^(٢) يَفَارِقُهُ ظَرْفَةُ عَيْنٍ. وَكَذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ: الْكَنُودُ، هُوَ الَّذِي يَعُدُّ الْمَصَائِبَ، وَيَنْسَى النَّعَمَ.

وقيل: الْكَنُودُ الْقَتُورُ الْبَخِيلُ الشَّحِيحُ فِي الْإِنْفَاقِ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ وَصِفَ كُلِّ إِنْسَانٍ مَا ذَكَرَ. لَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَتَكَلَّفُ شُكْرَ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَجْتَهِدُ فِي ذَلِكَ، وَيَضْبِرُ عَلَى الْمَصَائِبِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩] وقوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وهو كُلُّ إِنْسَانٍ. ثُمَّ اسْتَشْنَى ﴿إِلَّا الْفَالِغِينَ﴾ [المعارج: ٢٢] مِنْهُمْ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ، أَيْ كَذَلِكَ خُلِقَ، وَطَبَعَ كُلُّ إِنْسَانٍ. لَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَتَكَلَّفُ إِخْرَاجَ نَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ الطَّبِيعِ [الذي]^(٣) أَنْشَأَ عَلَيْهِ، وَطَبَعَ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الطَّبَائِعِ كَالْبَهَائِمِ وَالسَّبَاعِ الَّتِي طَبَعَهَا الْغَوْرُ مِنَ النَّاسِ بِالْإِسْتِيْحَاشِ عَنْهُمْ، ثُمَّ تَصِيرُ بِالرِّيَاضَةِ مَا تَسْتَقِرُّ عَنْدهُمْ، وَتُجِيبُهُمْ عِنْدَ دَعْوَتِهِمْ.

الآية ٧ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْتِي عَلَى ذَلِكَ لَشَيْدٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْإِنْسَانَ عَلَى مَا فَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا لَشَهِيدٌ فِي الْآخِرَةِ عَلَى مَا جَمَعَهُ، أَيْ يَشْهَدُ ذَلِكَ، وَيَعْلَمُهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤].

وقال بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَا تَأْتِي﴾ أَيْ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ بِخُلُوعِهِ وَامْتِنَاعِهِ عَنِ الْإِنْفَاقِ لَشَهِيدٌ، أَيْ يَتَوَلَّى حِفْظَ مَا لَهُ وَاجْتِنَاءَهُ بِنَفْسِهِ، لَا يَتَّقُ بَغْيَهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَا تَأْتِي﴾ يَعْنِي اللَّهُ تَعَالَى ﴿عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أَيْ عَالَمٌ يُخَصِّصُهُ، وَيَحْفَظُهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَأْخُذُ سَفِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ إِلَّا أَحْصَنَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْتِي لِحَبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أَيْ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ لَشَدِيدُ الْحَبِّ لِلْمَالِ، فَذَكَرَ بُخْلَهُ وَشَحَّةَ فِي الْمَالِ فِي تَرْكِ الْإِنْفَاقِ وَالْبَذْلِ. وَعَلَى ذَلِكَ طَبَعَ كُلُّ إِنْسَانٍ عَلَى مَا ذَكَرْنَا، لَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَتَكَلَّفُ إِخْرَاجَ نَفْسِهِ مِمَّا طَبَعَ بِالرِّيَاضَةِ، وَيَجْتَهِدُ بِالْإِنْفَاقِ. وَالْحَبُّ هُنَا حُبُّ إِثَارِ أَيْ يُؤْثِرُ لِنَفْسِهِ.

الآيتان ٩ و ١٠ وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ [وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ]^(٤) يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَفَلَا يَعْلَمُ قُدْرَةَ رَبِّهِ وَسُلْطَانَهُ وَحِكْمَتَهُ فِي إِنْشَائِهِ أَنَّهُ يَسْتَخْرِجُ مَا فِي الْقُبُورِ، وَيُخَيِّبُهُمْ؟ أَوْ يَقُولُ^(٥): أَفَلَا يَعْلَمُ أَيْ فَيَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ [وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ].

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أَيْ رَبُّهُمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا.

[وقوله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ يَقُولُ: فَهَلَّا يَعْلَمُ أَيْضًا أَنَّهُ يُعَيِّرُ مَا فِي الصُّدُورِ، وَيُبَيِّنُ، وَيُظْهِرُ مَا فِيهَا، لَا يَتْرُكُ فِيهَا^(٦) غَيْرَ مُبَيَّنٍّ وَلَا مُبَيَّنٍّ، بَلْ يُظْهِرُ، وَيُعَيِّرُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَبِّئُ الْفَاسِقِينَ﴾ [الطارق: ٩] ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أَيْ [على عِلْمٍ]^(٨) بِذَلِكَ، يُخَيِّرُهُمْ^(٩)، وَيَجْزِيهِمْ بِمَا^(١٠) يَجْزِيهِمْ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ دَلَالَةٌ أَنَّ حُصُولَ الْأَعْمَالِ وَخُلُوصَهَا وَمَا يُثَابُ عَلَيْهَا، وَتُعَاقَبُ بِالْقُلُوبِ [وَبِاللِّبَابِ لَا بِنَفْسِ الْأَعْمَالِ حِينَ^(١١) قَالَ: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾]^(١٢).

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. والا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم. يكون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم. كذلك. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: عن علمه له. (٩) في الأصل وم: أحدهم. (١٠) في الأصل وم: منا. (١١) في نسخة الحرم المكي: حيث. (١٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿صَبَحًا﴾ الصَّبْحُ صَوْتُ فِي الصُّدُورِ، صَبَحَ يَضْبَحُ / ٦٥١ - ب/ صَبَحًا، فَهُوَ ضَابِحٌ ﴿فَأَنزَلَ بِهِ نَقْعًا﴾ أَي مَيِّجَنَ الْغَبَارَ بِحَوَافِرِهِمْ، وَالنَّقْعُ الْغُبَارُ، وَالتَّقْوُوعُ جَمَاعَةٌ ﴿فَوَسَطْنَ﴾ مِنَ التَّوَسُّطِ، أَي صِرْنَ فِي الْوَسْطِ، وَ﴿لَكَنُودٌ﴾ كَفُورٌ، وَ﴿رَحْمِيلٌ﴾ أَي اخْتَبِرَ، يُقَالُ: حَصَلْتُ أَيِ اخْتَبَرْتُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمُ الْقَتَيْبِيُّ: ﴿وَالْمَدِينَتِ﴾ الْخَيْلُ، وَالصَّبْحُ صَوْتُ حُلُوقِهَا إِذَا عَدَّتْ. وَقِيلَ: الصَّبْحُ وَالصَّبْحُ وَاحِدٌ فِي السَّيْرِ، يُقَالُ: صَبَحَتِ النَّاقَةُ، وَصَبَعَتْ ﴿وَاللَّوْرَيْنِ﴾ أَي أَوْرَتِ النَّارَ بِحَوَافِرِهَا، وَالْأَرْضُ الْكَنُودُ الَّتِي لَا تُنْبِتُ شَيْئًا. وَقَالَ: ﴿بَعِثَتْ﴾ أَي قَلَبَتْ، فَجُعِلَ اسْفَلُهَا أَعْلَاهَا ﴿وَرَحْمِيلٌ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أَيِ اخْتَبِرَ مَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْيَقِينِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ^(١).



سورة القارعة^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١ - ٢ قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ [﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ وَ﴿مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾] ^(٢) قَالَ: الْقَارِعَةُ عِنْدَهُمْ، هِيَ الدَّاهِيَةُ الشَّدِيدَةُ مِنَ الْأُمُورِ، وَهِيَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَصْفٌ لِشِدَّةِ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى تَذَكِيرٌ لِعِبَادِهِ وَتَعْجِيبٌ لَهُ عَمَّا يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ ذَلِكَ الْيَوْمَ بِمَا يَكُونُ فِيهِ مِنْ اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿الْمَآئَةُ﴾ وَ﴿الْوَاقِعَةُ﴾ وَمَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ.

فكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ تَذَكِيرٌ لَهُمْ بِمَا وَصَفَ مِنْ حَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَشِدَّتِهِ لِيَتَفَكَّرُوا فِي الْعَوَاقِبِ، وَيَتَذَبَّرُوا مَا يَسْتَقْبِلُهُمْ فِي الْأَوَاخِرِ مِنَ الْعَذَابِ، فَيَمْتَنِعُوا بِذَلِكَ عَمَّا نَهَاَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ فِي بَنِي آدَمَ نَفْسًا تُدْرِكُ بِهَا الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ فِي الدُّنْيَا وَعَقْلًا تَتَذَكَّرُ بِهِ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ وَأَوَاخِرَهَا، وَيَزِيدُهُ ذَلِكَ تَبْقَاطًا وَتَبْصُرًا، ثُمَّ الْعَقْلُ مَرَّةً يَدْعُوهَا إِلَى نَفْسِهِ حَتَّى تَمِيلَ إِلَى مَا يَدْعُوهُ فِي جَزَاءٍ مَا أَطْمَعَ فِي الْعَاقِبَةِ، وَالنَّفْسُ مَرَّةً تَدْعُو [إِلَى الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ] ^(٣)، فَيَصِيرُ هَوَاهُ وَمِيلُهُ فِي مَا يَتَلَذَّذُ مِنَ الشَّهَوَاتِ فِي دُنْيَاهُ. وَعَلَى ذَلِكَ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يُوسُف: ٥٣] أَيِ يَرْحَمُهُ، وَيَعْصِمُهُ عَنِ اخْتِيَارِ السُّوءِ، أَيِ رَحِمَهُ حَتَّى جَعَلَ هَوَاهُ فِي مَا تَوَجَّهَ الْعَوَاقِبُ مِنَ الْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ.

فكَذَلِكَ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَتَهُ بِمَا يَسْتَقْبِلُهُمْ مِنَ الْأَحْوَالِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِيُعْمِلُوا عَقُولَهُمْ فِي [اذْكَارِهِ وَتَذَكُّرِهِ] ^(٤)، فَيَتَزَجَّرُوا عَمَّا زَجَرَهُمْ عَنْهُ، أَوْ يَتَذَكَّرُوا مَا ^(٥) وَعَدَ لَهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَيَزِدَادُوا بِذَلِكَ جِزْأً فِي الْخَيْرَاتِ.

الآية ٤ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ اخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِهِ مِنْ وَجْهِهِ، لَكِنَّهُ فِي الْحَاصِلِ يَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ: فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ أَيِ كَالْجَرَادِ الْمُتَنَشِّرِ حِينَ أَرَادَاتِ الطَّيْرَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: كَالْجَرَادِ الَّذِي يَمْرُجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ الَّذِي يَتَهَاوَتْ فِي النَّارِ، فَيَخْتَرِقُ. وَكُلُّ ذَلِكَ يُؤَدِّي مَعْنَى الْحَيْرَةِ وَالْإِضْطِرَابِ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

وَأَصْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَى النَّاسُ سُكْرَى وَمَا هُمْ بِسُكْرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢] فَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ: إِنَّهُمْ يَصِيرُونَ فِي الْحَيْرَةِ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَشِدَّتِهِ كَالطَّائِرِ الَّذِي لَا يَدْرِي أَيْنَ يَطِيرُ؟ أَيْنَ يَثْبُتُ؟ أَيْنَ يَنْزِلُ؟

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: كَالصُّوفِ الْمَصْبُوغِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَالْمَنْدُوفِ مِنَ الصُّوفِ.

فَإِنْ كَانَ عَلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ فَمَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ الْجِبَالَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَتَلَوَّنُ أَلْوَانًا مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ يَلَوْنُ الْعَيْنِ، أَلَا تَرَاهُ يَقُولُ: ﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَاوِدَةً﴾ [النمل: ٨٨] وَيَقُولُ ^(٦): ﴿وَمَسْتَوْلَاكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] فَكَذَلِكَ هَذَا عَلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى.

وَإِنْ كَانَ عَلَى التَّأْوِيلِ الْآخِرِ فَمَعْنَاهُ: أَنَّ الْجِبَالَ مَعَ شِدَّتِهَا وَصَلَابَتِهَا تَصِيرُ فِي الرِّخَاوَةِ وَالضَّعْفِ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ كَالصُّوفِ الْمَنْدُوفِ، إِنَّ ذَلِكَ أَوْعَفُّ أَحْوَالِهِ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَيْهِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: الْكَارِهُ وَالتَّذَكُّيرُ عَنْهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: عَمَّا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ.

وقَالَ قَتَادَةُ: شَبَّهَهُمْ بِغَنَمٍ لَا رَاعِيَ لَهَا، وَذَكَرَ الْعِيْنُ كِنَايَةً عَنِ الْغَنَمِ.

الآيات ٦ و ٧ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ اختلفوا في تأويل الميزان من وجوه، ولكن أقربها عندنا وجهان:

أحدهما: أن يكون المراد من قوله: ﴿ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ جملة المؤمنين، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ جملة الكفار، ويكون الوجه في ذلك أن المؤمن لما عظم حق الله تعالى، وأقام حدوده كان له ميزانٌ وقيمةٌ وخطرٌ عند الله تعالى في ذلك، والكافر لما ترك ذلك خف وزنه وقيمتُه وخطرُه. وقد يُلَقَّبُ، والله أعلم، هذا الكلام على معنى الجاه والمُنزلة؛ يقال: لفلان عند فلان وزنٌ وقيمةٌ، وليس عنده ذلك الوزن. فكذاك هذا.

والوجه الثاني من وزن السرائر التي لم يُطْلِعِ الله تعالى على ملائكتِهِ الذين يكتبون أعمال بني آدم ذلك.

ومعلوم أن ذلك إنما يحصل من المؤمنين دون الكفرة. وقد وصفنا مسألة الميزان^(١)، وبينّاها، فلذلك اختصرنا الكلام في هذا الموضع، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ منهم من قال ﴿مَرْضِيَةٍ﴾ [الفجر: ٢٨] يَرْضَى أهل الجنة بتلك العيشة، فهي مَرْضِيَةٌ، ومنهم من قال: ذات رضاء كقوله تعالى: ﴿بَيْنَ مَلَكٍ ذَا قُوَّةٍ﴾ [الطارق: ٦] أي ذات اندفاع. ومنهم من قال: إنه أضاف الرضاء إلى العيش، لأنه به يَرْضَى.

الآيات ٨ - ١٠ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿فَأَنَّهُمْ هَكَوِيَةٌ﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ﴾^(٢) منهم من قال: سُمِّي النارُ أمًّا للكافر لأنه إليها يَأْوِي. ومنهم من يقول: المراد من الأم أم رأيه أي يُلْقَى في جهنم على أم رأيه منكوساً.

وقوله تعالى: ﴿هَكَوِيَةٌ﴾ أي يَهْوِي به حين^(٣) لا يكون له ثبّت ولا قرار.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أي تحميهِ، وتَنْصِفُهُ. ومنهم من قال: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أي شديدة الحر، والله أعلم [والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام]^(٤) على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.



(١) في قوله: ﴿ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [المؤمنون: ١٠٢ و ١٠٣]. (٢) في الأصل وم: ﴿فَأَنَّهُمْ هَكَوِيَةٌ﴾. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في م: وصلى الله.

سورة التكاثر^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم / ٦٥٢ - أ /

الآيتان ١ و ٢ قوله تعالى: ﴿الْهَنَكُمُ الْتَكَاثُرُ﴾ ﴿حَتَّىٰ ذُئِمُّوا الْمَقَابِرَ﴾ أي شغلكم التفاضر بالتكاثر. ثم لم يقل عماذا شغلهم. فيجوز أن يكون ﴿الْهَنَكُمُ﴾ أي شغلكم ﴿الْتَكَاثُرُ﴾ عن توحيد الله تعالى أو عن التفكير في حجاج رسول الله ﷺ أو عن ذكر البعث.

ثم قوله تعالى: ﴿الْهَنَكُمُ الْتَكَاثُرُ﴾ ﴿حَتَّىٰ ذُئِمُّوا الْمَقَابِرَ﴾ يَحْتَمِلُ تَاوِيلَيْنِ: أحدهما: أن يكون الغرض [مِنَ الْخِطَابِ]^(٢) بهذه الآية آباءهم وسلفهم الذين تقدموا بالأخبار عن قُبْحِ صنيعهم واشتغالهم بالسفوه، فيكون هذا صِلَةً آياتٍ أُخَرِ نَحْوُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ وقوله: ﴿مُتَّقِدُونَ﴾^(٣) [الزخرف: ٢٢ و ٢٣] وغير ذلك، فكان الله تعالى يُخَبِّرُهُمْ بِآبَائِهِمْ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الْإِقْتِدَاءِ بِآبَائِهِمْ لأنهم تعاطوا أفعالا تَخْرُجُ عَنِ الْحِكْمَةِ حَتَّى مَاتُوا. وَذَلِكَ يَقَعُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنَّ مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً، فَجَحَدَهَا، وَلَمْ يُؤَدِّ شُكْرَهَا، اسْتَوْجِبَ الْمَقْتَّ والعقوبة؛ يقول: كَيْفَ تَقْتَدُونَ بِآبَائِكُمْ، وَإِنَّهُمْ كَفَرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ، وَجَحَدُوا بِهَا، بَلِ الْوَاجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَّبِعُوا [النَّبِيَّ الَّذِي]^(٤) جَاءَ هُدًى [لَا مَا]^(٥) وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ. والثاني: أن يكون فيه علامة [دلالة البعث]^(٦) أَنَّ آبَاءَهُمْ لِمَا فَعَلُوا مَا يُسْتَوْجِبُ بِهِ الْمَقْتَّ والعقوبة، وماتوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُصَيِّبَهُمْ ذَلِكَ فِي دُنْيَاهُمْ وَأَنَّ^(٧) لَهُمْ دَارًا أُخْرَى يُعَاقَبُونَ فِيهَا بِمَا فَعَلُوا.

وإن كَانَ الْخِطَابُ إِذَا انْصَرَفَ [إِلَيْهِمْ]^(٨) ففیه إخبارهم عن سَفْهِهِمْ أَنَّهُ شَغَلَهُمُ التَّفَاخُرُ بِالتَّكَاثُرِ حَتَّى جَحَدُوا آيَاتِ رَسُولِهِ ﷺ أَوْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ إخبارٌ عَنْ سَفْهِهِمْ مِنْ وَجْهِ أُخَرَ، وَهُوَ أَنَّ الْإِفْخَارَ كَيْفَ وَقَعَ بِالْأَمْوَالِ، وَالتَّفَاخُرُ بِالْأَمْوَالِ غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ! أَوْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ وَجْهٌ ثَالِثٌ: إِنَّمَا تَفَاخَرُوا بِمَا لَا صُنْعَ لَهُمْ فِيهِ [لأنهم]^(٩) إِنَّمَا افْتَحَرُوا بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَذَلِكَ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى وَجَمِيلِ صُنْعِهِ، فَيَكُونُ فِي هَذَا كَلَمٌ ذَكَرَ لَهُمْ بِمَا [هُمْ]^(١٠) فِيهِ مِنَ السَّفْوَةِ وَالْخَرَفِ.

ثم التَّعْيِيرُ بِذِكْرِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ إِنَّمَا وَقَعَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، دُونَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأَسْبَابَ مِمَّا يُبْتَلَىٰ بِهِ الْمُؤْمِنُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، فَعَيَّرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ لِيَكُونَ فِيهِ تَذَكُّرٌ وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ.

وَلَوْ خَرَجَ ذِكْرُ الْكُفَارِ مِنْ^(١١) هَذَا لَكَانَ لَا يَجْتَنِبُ الْمُؤْمِنُ شَيْئًا^(١٢) مِنْ هَذِهِ الْأَفْعَالِ.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ: ﴿الْهَنَكُمُ الْتَكَاثُرُ﴾ فَقَالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي، وَمَالِكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتُ فَأَقْنَيْتُ»^(١٣) [مسلم ٢٩٥٨].

فهذا على أَنَّ الوعيدَ على الإطلاقِ مِنْ غَيْرِ تَضَرُّعٍ بِأَهْلِ الْكُفْرِ لِمَوْعِظَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ ذُئِمُّوا الْمَقَابِرَ﴾ يَحْتَمِلُ حَقِيقَةَ زِيَارَةِ الْمَوْتَى، وَذَلِكَ مِمَّا يُذَكِّرُهُمْ أَنَّ التَّكَاثُرَ مِمَّا لَا يَنْفَعُهُمْ إِذَا كَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ هَذَا. وَيَحْتَمِلُ أَيْ صِرْتَهُمْ إِلَى الْمَقَابِرِ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَحَيْثُ تَذْكُرُونَ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ لَا يَنْفَعُكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: بالخطاب. (٣) في الأصل وم: مقتدون. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: فما. (٦) في الأصل وم: ودلالة للبعث. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) و(٩) و(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: في. (١٢) في الأصل وم: شيء. (١٣) أدرج بعدها في الأصل وم: الخبر.

الآيتان ٣ و ٤ وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَلَّا﴾ بِمَعْنَى التَّنْفِي والتَّعْطِيلِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿كَلَّا﴾ أَي حَقًّا.

فَإِنْ كَانَ عَلَى الْأَوَّلِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ كَمَا حَسِبْتُمْ، وَتَوَهَّمْتُمْ، وَقَدَّرْتُمْ عِنْدَ أَنْفُسِكُمْ، وَتَعْلَمُونَ ذَلِكَ إِذَا نَزَلَ بِكُمْ الْعَذَابُ، وَهُوَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ.

وَإِنْ كَانَ عَلَى مَعْنَى حَقًّا، فَكَأَنَّهُ قَالَ: سَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ كَمَا قَدَّرْتُمْ عِنْدَ أَنْفُسِكُمْ.

وَكُلُّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى الْوَجْهِ الَّتِي وَصَفْنَا: أَنْكُمْ سَتَعْلَمُونَ غَدًا حَقًّا أَنَّ الَّذِي الْهَأُكُمُ، وَشَغَلَكُمُ عَنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ التَّفَكُّرِ فِي حُجَجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ الْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ كَانَ عِبْثًا بَاطِلًا، وَأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَنْظُرُوا فِي حُجَجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتُؤْمِنُوا بِالْبَعْثِ.

وَفَائِدَةُ التَّكْرَارِ بِمَا جَرَى مِنَ الْعَادَةِ فِي تَكَرُّرِ الْكَلَامِ عِنْدَ الْوَعِيدِ وَعِنْدَ الْإِيَّاسِ أَوْ الرَّجَاءِ نَحْوُ قَوْلِهِمْ: الْوَيْلُ الْوَيْلُ، وَقَوْلِهِمْ: بَخٍ بَخٍ وَغَيْرُ ذَلِكَ. فَكَذَلِكَ هَذَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَ كُلَّ لَفْظَةٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى تَأْوِيلٍ عَلَى حِدَةٍ: أَنَّ قَوْلَهُ ﷻ ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عِنْدَ الْمَوْتِ عِنْدَ مَا تَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَمَا حَسِبْتُمْ، وَتَعْلَمُونَ فِي يَوْمِ الْبَعْثِ أَنَّهُ حَقٌّ يَقِينٌ.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ يَعْنِي بِهِذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِبْطَالًا مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الظُّنُونِ وَالْحُسْبَانِ^(١) فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنْظِنُ إِلَّا ظَنًّا؟﴾ [الجمانية: ٣٢] فَإِذَا نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ تَحَقَّقَ عِنْدَهُمْ، وَعَلِمُوا عِلْمًا يَقِينًا؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حِينَ نَزَلَ بِكُمْ الْمَوْتُ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فِي الْقَبْرِ. وَكَذَلِكَ رَوَى عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: كُنَّا نَشْكُ فِي عَذَابِ [الْقَبْرِ]^(٢) حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ.

وَفِيهِ وَجْهٌ ثَانٍ، وَهُوَ أَنَّهُمْ كَانُوا عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ عُلَمَاءَ وَأَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّ عِلْمَهُمْ كَانَ حُسْبَانًا. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَحْسِبَنَّ أَنَّهُ يَخْسِرُونَ مُمْسِكًا﴾ [الكهف: ١٠٤] فَيُظْهِرُ لَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْيَقِينَ مَا نَزَلَ بِهِمْ وَأَنَّ الَّذِي عَلِمُوا لَمْ يَكُنْ عِلْمًا يَقِينًا، بَلْ كَانَ شَكًّا وَحُسْبَانًا؟

الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: تَرَوْنَهَا عِنْدَ الْمَوْتِ.

وَالثَّانِي: أَي تَرَوْنَهَا بِالتَّفَكُّرِ وَالنَّظَرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَحُجَجِهِ فِي الدُّنْيَا.

الآية ٧ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ لَهُ مَعْنَيَانِ:

أَحَدُهُمَا: عِيَانًا وَمُشَاهَدَةً.

وَالثَّانِي: أَنْ تَكُونَ رُؤْيَاهُمْ بِعَيْنِ الْيَقِينِ لَيْسَ عَلَى مَا كَانَ عِنْدَهُمْ: أَنَّهُمْ لَوْ قُتِبَ لَهُمْ بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَغَرَجُوا إِلَيْهَا ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ عَنْ قَوْمٍ مُشْجَرُونَ﴾ [الحجر: ١٥] يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَرْفَعُ السَّحَرُ عَنْ أَبْصَارِهِمْ، فَيَرَوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ.

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنُنْزِلَنَّ يَوْمَئِذٍ مِنَ السَّمَاءِ ظَاحِرًا هَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ سُؤَالُهُمْ بَعْدَ مَا دَخَلُوا النَّارَ، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿ثُمَّ لَنُنْزِلَنَّ﴾ بَعْدَ مَا وَصَفَ أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ النَّارَ، قَبْلَ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ.

فَإِنْ^(٣) كَانَ عَلَى ذَلِكَ، فَهُوَ فِي مَوْضِعِ التَّقْرِيرِ عِنْدَهُمْ أَنَّهُمْ اسْتَوْجَبُوا الْمَقْتَّ وَالْعُقُوبَةَ لِأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ أَنَّ مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْحِسَابُ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ.

عليه بنعمة، فلم يشكرها، استوجب المقت والعقوبة؛ فإن الله تعالى يسألهم في ذلك الوقت عن شكر ما أنعم عليهم ليقرر عندهم استيجاب العقوبة.

ويجوز هذا عند الحساب لأنه قال: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ولم يقل: قَبْلَ ذَلِكَ، أو بَعْدَهُ، بل قال على الإطلاق، فيعمل به. وإذا احتمل ذلك الوجه إلى المؤمنين والكافرين، وكان الوجه في سؤال المؤمنين تذكيراً لهم أن أعمالهم [لم] ^(١) تبلغ ما يستوفي بها شكر النعمة التي أنعمها عليهم، وليعلموا أن الله تعالى تفضل عليهم، وتجاوز عنهم، لا أن بلغت إليه حسنتهم، فاستوجبوا رحمته بها، بل بكرمه وفضله.

وإن كان في الكافرين، فهو تقرير ما استوجبوا من نعمته حين ^(٢) تركوا شكر نعمه. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّهُ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ إن ^(٣) كان السؤال للكفرة ^(٤)، فإنهم يسألون عما تركوا من الإيمان وعما ^(٥) أتى إليهم الرسول ﷺ [وعن غير] ^(٦) ذلك من النعم. وإن كان للمؤمنين ^(٧) فهو في سائر النعم من المأكول والمشروب والملبوس ونحوها، والله أعلم.



(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وإن. (٤) في الأصل وم: من الكفرة. (٥) في الأصل وم: وبما. (٦) في الأصل وم: وبغير. (٧) في الأصل وم: من المؤمنين.

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
٦٥٢ - ب /

الآيتان ١ و ٢

قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَيْرٌ﴾ خَرَجَ قوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ مَخْرَجَ الْقَسَمِ، والقَسَمُ موضوع في الشاهد لتأكيد ما ظهر من الحق الخفي أو لثبتي شبهة اغترضت أو دغوى اذيعت، فذلك في الغائب.

ثم الأصل بعد هذا أنه ليس في جميع القرآن شيء مما وقع عليه القسم إلا إذا تأمل المرء، واستقصى فيه المعنى الذي أوجب القسم.

ثم اختلفوا في تأويل^(١) قوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾: فمنهم من قال: هو الدهر والزمان، ومنهم من قال: هو آخر النهار، فذلك وقت يشتغل على طرفي النهار وأول الليل، فكانه أراد به الليل والنهار.

وقال أبو معاذ: يقول العربي^(٢): لا أكلمك العصر إن يرد^(٣) الليل والنهار، وفي مرور الليل والنهار مرور الدهور والأزمنة لأنهما يأتیان على الدهور والأزمنة وما فيهما، فكان في ذكر الليل والنهار ذكر كل شيء، والقسم بكل شيء قسم بمنشئ^(٤) لأن كل شيء من ذلك إن نظرت فيه ذلك على صانعه ومنشئه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَيْرٌ﴾ إن الدنيا وما فيها كانها خلقت، وأنشئت، متجراً^(٥) للخلق، والناس فيها تجار كما ذكر في غير آية^(٦) من القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْتَ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١] وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَيْعَةٍ شَرَّكُمْ مِنْ ذَلِكَ آلِهِمُ﴾ [الصف: ١٠] أي ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَيْرٌ﴾ من تجارته ومبايعته.

الآية ٣

[وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية. لقائل أن يقول: كيف استثنى أهل الربح من أهل الخسران، ولم يستثنِ أهل الخسران من أهل الربح؟ فنقول: إن الإنسان لفي ربح إلا الذين كفروا، واستثناء هذه الفرقة من تلك أولى في القول من تلك.

والجواب عن هذا أن هذه الآية إنما نزلت بقرب من مبعث رسول الله ﷺ والقوم أجمعهم كانوا أهل كفر وخسران، فذلك وقع الاستثناء على ما ذكر؛ إذ استثناء القليل من الكثير، هو المستحسن عند أهل اللغة، وإن كان الكثير في حد الجواز، والقرآن في أعلى طبقات الكلام في الفصاحة.

ثم قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ اسم [جنس]^(٧) فكانه أراد جميع الناس. ألا ترى أنه قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؟ ولا تستثنى الجماعة من الفرد، فكانه يقول على هذا: إن الناس في أحوالهم واختياراتهم في خسران إلا من كانت تجارته في تلك الحالة ما ذكر.

وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكون تأويله ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ التي كانت معروفة في الكفر والإسلام من حسن الأخلاق وغيره. ألا ترى أنه قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾؟ [آل عمران: ١١٠] يقول: المعروف، هو المعروف الذي هو معروف في الطبع والعقل، والمنكر الذي يَنْكَرُهُ العقل، وينفّر عنه الطبع.

(١) في الأصل وم: تأويله. (٢) في الأصل وم: العرب. (٣) في الأصل وم: يريدون. (٤) في الأصل وم: متحركا. (٥) في الأصل وم: أي.

(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

وإن كان المراد منه الكُفْرُ فكانه قال: إن الكافرين في هلاكٍ وخُسرانٍ إلا من آمن بالله تعالى ورسوله، وعَمِلَ صالحاً. ثم في هذه الآية ذَكَرَ الذين آمنوا، وعَمِلُوا الصالحاتِ، وكذلك ذَكَرَ الصالحاتِ في سورة التين [الآية: ٦] وَتَرَكَ ذَكَرَ الصالحاتِ في سورة البلد؛ فكان الله تعالى [تَرَكَ] ^(١) ذَكَرَ الصالحاتِ في تلك السورة لما قد كان ذَكَرَها بعد ^(٢) ذلك. ألا تَرَى إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ اِطْمَئِنَّ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾؟ [البلد: ١٤] وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ الحق في الأصل كل ما يُحْمَدُ عليه فاعله، والصبر، هو الكُفْ عن كل ما يُدْمُ عليه فاعله. فكان التواصي بالحق تواصياً بكل ما يُحْمَدُ عليه، والتواصي بالصبر تواصياً عن كل ما يُدْمُ عليه.

[ثم] ^(٣) ظاهر قوله تعالى: ﴿وَالصَّبْرُ﴾ «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ» «إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا» الآية ما يُوجِبُ أَنْ مَنْ لم يَجْمَعْ بين هذه الأشياء التي ذَكَرَ في هذه الآية «لَنْ يَخْشَى» فيكون ظاهره حُجَّةٌ للخوارج والمعتزلة، إلا أن الانفصال عن هذا، والله أعلم، أن الله تعالى، وَعَدَ الْجَنَّةَ لِمَنْ جَمَعَ هذه الأشياء التي ذَكَرَ في هذه الآية، وَذَكَرَ الإيمانَ مُفْرَداً في آيةٍ أُخْرَى، وَعَدَ عليه الجنة، فلا يَخْلُو وَعْدُهُ الْجَنَّةَ عَنِ الإيمانِ المفرد في تلك الآية مِنْ أَحَدٍ وَجْهَيْنِ:

إما أن يكون ذَكَرَ الإيمانَ مُفْرَداً، وأراد به الإكْتِفَاءَ عَنْ ذَكَرِ الجملة، فيكون في ذِكْرِ طَرَفٍ مِنْهُ ذِكْرٌ لِجُمْلَتِهِ.

[وإما أن] ^(٤) يكون في إيجابِ الجنة له على مُفْرَدِ الإيمانِ، فالحال فيه موقوفة.

ولأن الله تعالى أَوْجَبَ الجنة، ولم يَنْفِ إيمانه عَمَّنْ يَنْتَقِصُ عن ذلك، فالحال فيه موقوفة على دليله.

وإذا كان كذلك لم يَقْطَعْ القول على إيجابِ الجنة لِمَنْ أتى بالإيمانِ مُفْرَداً على إيجابِ النارِ، فيكون السبيلُ فيه على الرجاء، لأنه لو لم يَذْكُرْ ^(٥) كان يَقَعُ به اليأس.

وأصل كل عبادة في الدنيا إنما يُنَبِّثُ على الرجاء والخوف، فكذلك كان الأمر على ما وَصَفْنَا، أو نقول بأن الله تعالى أَوْجَبَ النارَ على مَنْ أتى بجميع السيئات، ولم يكن فيه دليلٌ على مَنْ أتى بالكُفْرِ وحده، لا يَسْتَوْجِبُ به ناراً. فكذلك الله ﷻ وإن أَوْجَبَ الجنةَ لِمَنْ جَمَعَ بين هذه الأعمال فلا يدلُّ على مَنْ أتى بالإيمانِ وحده، لا يَسْتَوْجِبُ الجنةَ.

وعلى أنه يجوز أن يكون استثناء كل مَنْ أتى بشيء من هذه الأعمال بالإفراد، فيكون فيه استثناء كل طائفة من ذلك على حدة؛ كانه قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ».

وإذا كان كذلك لا يكون حُجَّةً لهم، وإذا أُريدَ به الجمع يكون حُجَّةً، فجاء التعارض والاختيال، فَوَجَبَ التَّوَقُّفُ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الإِغْتِقَادُ، أي «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ» «إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا» مَنْ آمَنَ، واعتَقَدَ هذه الأعمال الصالحة كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥] والله أعلم [والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين] ^(٦).



(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قبل. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: يذكر. (٦) ساقطة من م.

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ اختلفوا في معنى الهمزة واللمزة، فقال بعضهم: معناه واحد، وهو الذئع والظعن، وقال بعضهم: الهمزة، هو الذي يؤدي جليسه بلسانه، واللمزة الذي يؤدي بعينه، وقال: بعضهم: الهمزة الذي يظعته / ٦٥٣ - أ/ عند حضريه، واللمزة الذي يظعته عند غيبته. وهذا إنما يسمى به من يعتاد ذلك الفعل. وأهل اللغة وصفوا هذا المثال، وهو فعل من يعتاد ذلك، ويخترقه.

قال أهل التأويل: إن الآية في الكفار، لكن بعضهم قالوا: نزلت في الأخنس ابن شريق، وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. ولقاتل أن يقول: إن الآية نزلت في الكفار، وكذلك كثير من الآي: كقوله^(١) تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ [المطففين: ١ و ٢] ونحوه^(٢)، ومعلوم [أن من]^(٣) وجد منهم هذا الفعل أو مثله^(٤) استوجبوا ما ذكر من العقوبات وأشد، مع أن الذي فيه من الكفر أقيح من هذين الفعلين، فكيف وقع تغييرهم بذلك؟

والجواب عن هذا وأمثاله من نحو قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ [المطففين ١ و ٢] وقوله: ﴿تَرَكَّ يَدَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَلَكُوتٌ مُّكِينٌ﴾... ﴿وَكُنَّا نَكُذِّبُ بَنِي الْأَعْرَابِ﴾ [المدثر: ٤٣ - ٤٦] [في وجوه:

أحدها: أنهم]^(٥) وإن أقاموا الصلاة، وأعطوا الزكاة، لم يؤزل عنهم عقوبة النار. والجواب عنه أن الإيمان لم يحسن لاسميه، ولا قبح الكفر لنفس اسم الكفر لأنه ليس أحد ممن يذهب مذهباً، أو يدين ديناً إلا وهو يكفر بشيء، ويؤمن بشيء، لأن المسلم مؤمن بالله تعالى كافر بالطاغوت، والكافر يكفر بالرحمن، ويؤمن بالطاغوت، ويعبده.

فثبت أن الإيمان ليس يحسن لنفس اسم الإيمان، ولا قبح الكفر لعين اسم الكفر، ولكن الإيمان بالله تعالى إنما يحسن بحسن [من حين]^(٦) أوجبت الحكمة الإيمان به، ويقبح الكفر لأن الحكمة أوجبت ترك الكفر بالله تعالى؛ فالإيمان حسن لما فيه من [معنى الإيمان]^(٧)، والكفر قبيح لما فيه من معنى الكفر.

وهذان الفعلان قبيحان في نفسيهما^(٨) لا بغيرهما، فكان التغيير الذي يقع بهذين الفعلين أكثر وأبلغ منه في تغييرهم بالكفر. لذلك غيرهم الله تعالى بهذين الفعلين.

[والثاني:]^(٩) أن هذا يخرج مخرج الموعظة لأمية محمد ﷺ وذلك أن رسول الله ﷺ كان يهمز به، ويسخر منه لما يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ولا يحمله ما كانوا يتعاطون على ترك أمرهم بالمعروف ونهيهم^(١٠) عن المنكر لما يخشى أن يسخر به، أو يستهزأ.

والثالث: أن يكون هذا على وجه المكافاة والإنقام لما كانوا يفعلون ببينا محمد ﷺ على الرجز والرذع عن ذلك؛ إذ العقلاء يمتنعون عن الأفعال القبيحة.

فعلَى هذه الوجوه يحتل معنى تغييرهم.

(١) في الأصل وم: من قوله. (٢) في الأصل وم: ونحوها. (٣) في الأصل وم: انه. (٤) في الأصل وم: عدمه. (٥) في الأصل وم: فهم. (٦) في الأصل: من حيث. ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: المعنى. (٨) في الأصل وم: أنفسهما. (٩) في الأصل وم: وجه آخر. (١٠) في الأصل وم: والنهي.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدُوهُ﴾ قُرئ على التَّخْفِيفِ. جَمَعَ مِنَ الْجَمْعِ، أَي جَمَعَ مَالَهُ عِنْدَهُ، وَلَمْ يُقَرِّفْهُ، وَعَدَّدَهُ، وَذَكَرَهُ؛ أَي حَفِظَ عَدَدَهُ، وَذَكَرَهُ عَلَى الدَّوَامِ لئَلَّا يَنْقُصَهُ، وَصَفَهُ بِالْبُخْلِ وَالشُّحِّ.

وَمَنْ قَرَأَ بِالتَّشْدِيدِ^(١) فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ جَمَعَهُ، وَادَّخَرَهُ بِمَمَرِ الزَّمَانِ، وَلَمْ يُجْمَعْ ذَلِكَ فِي أَيَّامٍ قَصِيرَةٍ. وَالْأَصْلُ: جَمَعَهُ بِالتَّخْفِيفِ، لَكِنْ شَدَّدَهُ^(٢) لِمَا فِيهِ مِنْ زِيَادَةِ الْجَمْعِ.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدُوهُ﴾ يَتَوَجَّهُ بِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَنَّهُ [قَدَّرَهُ عِنْدَ]^(٣) نَفْسِهِ أَنَّهُ يَبْقَى لِيَقَاءِ الْأَمْوَالِ لَهُ لِمَا يَرَى بَقَاءَهُ مِنْ حَيْثُ الظَّاهِرُ بِهَا، فَتَقَرَّرَ عِنْدَهُ أَنَّ مَا آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَمْوَالِ، هُوَ رِزْقُهُ، فَيَعِيشُ إِلَى أَنْ يَسْتَوْفِيَ جَمِيعَ رِزْقِهِ، فَيَجْمَعُهُ، وَيَدَّخِرُهُ لِكَيْ يَزِيدَ فِي عُمُرِهِ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ عَلَى الظَّنِّ وَالْحُسْبَانِ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدُوهُ﴾ جَمَعَ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ مَالَهُ يَزِيدُ فِي عُمُرِهِ. فَإِنْ كَانَ عَلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ فَقَوْلُهُ: ﴿كَلَّا﴾ رَدٌّ عَلَيْهِ، أَي لَيْسَ كَمَا قَدَّرَهُ عِنْدَ نَفْسِهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَى التَّأْوِيلِ الثَّانِي فَعَلَى إيجابِ عَقُوبَةٍ مُبْتَدَأَةٍ.

وقيل: عَدَّدَهُ: أَي أَكْثَرَ عَدَدَهُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: عَدَّدَهُ أَي صَنَّفَهُ، فَجَعَلَ مَالَهُ أَصْنَافًا، وَجَعَلَ أَنْوَاعًا مِنَ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَالْدَّوَرِ وَالْعَقَارِ وَالْمَنْقُولِ وَغَيْرِهَا، وَقِيلَ: عَدَّدَهُ: أَي اسْتَعَدَّهُ، وَأَعَدَّهُ، وَهِيَئَهُ.

الآية ٤ و ٥

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُبَدِّلَنَ فِي السَّعَةِ﴾ [وَمَا أَدْرَاكَ مَا السَّعَةُ]^(٤) قيل: بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ النَّارِ، وَقِيلَ: هِيَ صَفَةُ النَّارِ، وَالْحَطْمُ، هُوَ الْكُسْرُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: النَّارُ الَّتِي يُعَذِّبُ بِهَا الْكَافِرَةَ، وَتُكْسَرُ عِظَامُهُمْ، وَتُحَطَّمُهُمْ.

الآيتان ٦ و ٧

وقوله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ [أَلَيْ تَتْلِي عَلَى الْأَفِيدَةِ] قيل: إِنَّ النَّارَ تَأْتِي عَلَى جُلُودِهِمْ وَغُرُوقِهِمْ وَلُحُومِهِمْ وَعِظَامِهِمْ حَتَّى تَأْكُلَهَا، وَتُكْسَرُ الْعِظَامُ، فَتُطْلَعُ عَلَى أَفِيدَتِهِمْ، فَحِينَئِذٍ يَتَبَدَّلُونَ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ. وَقِيلَ: إِنَّمَا تَحْرَقُ النَّارُ مِنْهُمْ كُلَّ شَيْءٍ سِوَى الْفُؤَادِ لِأَنَّ الْفُؤَادَ إِذَا اخْتَرَقَ لَمْ يَتَأَلَّمْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِالْعَذَابِ. وَالْمُرَادُ مِنَ الْإِحْرَاقِ الْإِحَاقَ الْأَلَمَ وَالضَّرَرَ بِهِمْ.

الآيتان ٨ و ٩

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَصَّدَةٌ﴾ [فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ] قُرئ عُمِدٌ بِرَفْعِ الْعَيْنِ وَالْمِيمِ، وَقُرئ بِالنُّصْبِ فِيهِمَا. وَذَكَرَ عَنِ الْفَرَّاءِ أَنَّهُ قَالَ: الْعُمْدُ وَالْعَمْدُ جَمَاعَتَا الْعُمُودِ وَالْعِمَادِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْعَمْدُ جَمْعُ الْعَمْدَةِ نَحْوُ بَقَرَةٍ وَبَقَرٍ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَصَّدَةٌ﴾ [فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ] أَي النَّارُ عَلَيْهِمْ مُطَبَّقَةٌ، يَقُولُ: أَطَبَّقْتُهَا^(٥) مُمَدَّدَةٌ فِي عَمَدٍ مِنْ نَارٍ مُمَدَّدَةٍ عَلَيْهِمْ مِنْ قُرُوقِهِمْ، وَالْعَمْدُ كَعَمَدِ أَهْلِ الدُّنْيَا، غَيْرَ أَنَّهَا مِنْ نَارٍ تُمَدُّ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ]^(٦).



(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ٢٣٣. (٢) في الأصل وم: شلدها. (٣) في الأصل وم: قدر عنده. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ٢٣٥. (٦) في الأصل وم: طبقها. (٧) ساقطة من م.

[سورة الفيل]

وهي مكية^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

[الآية ١]

قوله تعالى: ﴿هَآءِ تَرَىٰ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾؟ اختلفوا في السبب الذي بوَّع القصدُ من أصحاب الفيل إلى تهديم البيت وتخريبه.

فمنهم من قال: إنهم اتخذوا بيتاً في بلادهم، وسَمَوْهُ كعبةً لكي ينساب الناسُ [إليه كما ينسابون]^(٢) إلى الكعبة، فأبى الناسُ إتيان^(٣) ذلك البيت، فغاضهم ذلك حتى قصدوا تهديم هذا البيت.

ومنهم من قال: إن العربَ حرَّقوا بيعةً، كانت لهم، وخرَّبوها، فغاضهم ذلك حتى أرادوا تهديم هذا البيت جزاءً بما فعَلَتِ العربُ بهم.

ومنهم من قال: إنهم كانوا ملوكاً وفراعنةً، ومن عاديتهم أنهم يُعادون من ضادَّهم في مُلكهم وسلطانهم.

وأيُّ ذلك كان فلا حاجةَ إلى معرفته، وإنما حاجتنا إلى تعريفِ المعنى الذي بوَّع أنزلتِ السورة، وثُبَّت.

وتأويلُ ذلك يُخرِّجُ على أوجهٍ ثلاثة:

أحدها: أنَّ الله تعالى ذكَّرههم تلك النِّعمَ التي أنعمَها عليهم في صَرْفٍ من أرادوا إهلاكهم؛ فإنهم قصدوا قتلَ أهلِ مكة وسبَّي نسايتهم وذرائعهم وأخذ^(٤) أموالهم، فذكَّرههم الله تعالى جميلَ صنعه بهم / ٦٥٣ - ب/ ليشكروا له، ويعبدوه حقَّ عبادته، ويتزجروا عن عبادةٍ غيره.

والوجه الثاني أنَّ الله تعالى خَوَّفَ أهلَ مكة، ووجَّه ذلك أنَّ الله تعالى لما أهلك أصحابَ الفيل بما ضيَّعوا حُرمةَ بيته، فلا يأتى أهلُ مكة من إهلاكِهِ إيَّاهم وتغذيبهم بما ضيَّعوا حُرمةَ رسوله ﷺ مع أنَّ حُرمةَ الرسول ﷺ أعظمُ من حُرمةِ البيت. وقد^(٥) نَزَلَ بأولئك ما نَزَلَ لما جاء منهم من تضييعِ حُرمةِ بيته، فلأنَّ يُخْشَى عذابه ونقمته من تضييعِ حُرمةِ رسوله أولى.

والوجه الثالث: أنَّ الله تعالى لما أهلك أولئك لما أراههم من آياته لم ينصرفوا، لأنه ذكَّرَ أنهم كانوا إذا وجَّهوا الفيل نحو البيت امتنع، ووقَّف، وإذا وجَّهوه نحو أرضهم هزَّوْل، وتَسَارَعَ. فلما رَأَوْا ذلك، ولم ينصرفوا، أهلكهم الله تعالى. فلا يؤمنُ على أهلِ مكة أيضاً، لأنهم^(٦) لما رَأَوْا الآياتِ المُعْجِزةَ مِنَ الرسول ﷺ فلم يؤمنوا [تَوَعَّدَهُمْ بِأَنَّ]^(٧) يَهْلِكَهُمُ اللهُ ﷻ وَيَنْتَقِمَ مِنْهُمْ بِعُقُوبِهِ.

فعلى ما ذكَّرنا يُخرِّجُ معنى نزولِ السورة.

وقيل: إنه على البشارة لرسولِ الله ﷺ على الإشارة أنه لم يكن للبيت ناصرٌ في ذلك الوقت ولا مُعين، بل كان وحده، فنصره الله تعالى، حتى لم يُمكن أعداءه من هدمه، فعلى ذلك ينصرك، ويعينك، ويهلك عدوك، وإن كنت أنتَ وخدك؛ إذ كان وقتُ نزولِ هذه السورة لم يكن له كثيرُ أعوان، وقد فعَلَ ذلك يومَ بدر.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في م: إليه كما ينسابوا، ساقطة من الأصل. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: إلى. (٤) في الأصل وم: واخذوا. (٥) في الأصل وم: فلما. (٦) في الأصل وم: أنهم. (٧) في الأصل وم: ان.

ثم قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ حَزَفَ اسْتَعْمِلَ فِي تَذَاكُرٍ أَعْجُوبَةٍ قَدْ كَانَتْ، وَعَرَفُوهَا، ثُمَّ عَفَلُوا عَنْهَا، أَوْ فِي مَا لَمْ يَكُنْ، فَيَعْجِبُهُمْ بِمَا فَعَلَ بِأَعْدَائِهِ لِيُخَوِّلَهُمْ عَلَى الزَّجْرِ وَالْإِنْتِهَاءِ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى، فَكَأَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتَ رَبَّكَ كَيْفَ فَعَلَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ مِنْهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُرَادُ غَيْرُهُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا خِطَابًا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ.

ثُمَّ تَسَمَّيْتُهُمْ أَصْحَابَ الْفِيلِ، وَنَسَبَهُ الْفِيلَ إِلَيْهِمْ يَخْتَوِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَيِ الَّذِينَ صَحَبُوا الْفِيلَ. وَالثَّانِي: أَصْحَابُ الْفِيلِ أَيِ أَرْبَابِ الْفِيلِ كَمَا يَقَالُ: رَبُّ الدَّارِ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أَيِ ابْطَلْ مَا قَدَّرُوهُ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ مِنْ تَخْرِيبِ الْبَيْتِ وَتَهْدِيمِهِ مَا ذَكَّرْنَا بِذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَةٌ جَمَاعَةٌ جَمَاعَةٌ، وَهَكَذَا السَّنَةُ فِي الْخُرُوجِ لِمُحَارَبَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُخْرِجُوا جَمَاعَةً جَمَاعَةً. وَقِيلَ: هِيَ طَيْرٌ، لَمْ يُرَقَّبَلْهَا وَلَا بَعْدَهَا مِثْلُهَا، لَهَا رُؤُوسٌ كَالسَّبَاعِ، وَقِيلَ: شَيْهَةٌ بِرِجَالِ الْهِنْدِ.

وقوله تعالى: ﴿تَرِيَهُمْ بِحِجَابٍ مِنْ سِجَالٍ﴾ اخْتَلَفُوا فِي السَّجَالِ، قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ اسْمُ مَوْضِعٍ خُلِقَتْ حِجَارَتُهُ لِتَغْلِيبِ الْفِرَاعَةِ وَإِهْلَاكِهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَارِسِيَّةٌ مُعَرَّبَةٌ، وَهِيَ سَنَكٌ وَكِيلٌ، وَهُوَ الْأَجْرُ فِي التَّقْدِيرِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذِهِ عِبَارَةٌ عَنْ شِدَّةِ الْحِجَارَةِ وَقُوَّتِهَا^(١).

وقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُهُمْ كَمَصِّ مَأْكُولٍ﴾ قَالُوا: الْعَصْفُ هُوَ وَرَقُ الزَّرْعِ أَوْ وَرَقُ كُلِّ نَابِتٍ.

وقوله: ﴿مَأْكُولٍ﴾ يَنْحُو نَحْوَيْنِ، وَيَتَوَجَّهُ وَجْهَيْنِ: إِلَى مَا قَدْ أَكَلَ وَإِلَى مَا لَمْ يُؤْكَلْ؛ إِذَا مَا لَمْ يُؤْكَلْ إِذَا كَانَ مُعَدًّا لِلْأَكْلِ سُمِّيَ مَأْكُولًا.

فَإِنْ كَانَ غَيْرَ الْمَأْكُولِ فَكَأَنَّهُ^(٢) قَالَ: جَعَلَهُمْ فِي الضَّغْفِ وَالرَّخَاوَةِ مَعَ قُوَّتِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ كَعَلَفِ الدَّوَابِّ حَتَّى لَا يُخَافَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَبَدًا.

وَإِنْ كَانَ عَلَى الْمَأْكُولِ فَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى، جَعَلَهُمْ كَالْمَأْكُولِ [الَّذِي أَكَلَتْهُ]^(٣) الدُّودُ، فَيَكُونُ [فِيهِ ثَقُوبٌ]^(٤)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقُوتُهُ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فَإِنَّهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّتِي أَكَلَتْهَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهَا ثَقُبٌ.

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ - ٢ قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ ﴿لِإِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾^(١) هذا يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِ:

أحدها: ما قَالَ الْفَرَاءُ: إِنَّ اللَّامَ لَمْ الْإِعْتِدَالِ لِأَنَّ السُّورَةَ صِلَةُ سُورَةٍ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قَالَ: ﴿جَعَلْنَاهُمْ كَمَصْفٍ مَّا كُؤِلِ﴾ ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ كَأَنَّهُ يَقُولُ: أَهْلَكْتُ أَصْحَابَ الْفِيلِ، وَقَعَلْتُ بِهِمْ مَا فَعَلْتُ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ بِذَلِكَ الْمَكَانِ كَمَا أَلْفَوْا بِهِ الرَّحْلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ جَعَلْنَا لَهُمْ فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أَنْ يَقُولَ: أَلَزِمْتُ الْخَلْقَ عِبَادَةَ رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ، وَحُمِّلُوا مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ وَأَهْلُ ذَلِكَ الْمَكَانِ مِنَ الطَّعَامِ وَمَا يَتَعَيَّشُونَ بِهِ لِتَأَلَّفِ قُرَيْشٍ عِبَادَةَ هَذَا الْبَيْتِ مَا لَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَنْهَيْ لَهُمُ الْمَقَامَ بِذَلِكَ الْمَكَانِ، لِأَنَّهُ لَا زَرْعَ فِيهِ، وَلَا نَبَاتَ، وَلَا مَا يَتَعَيَّشُ بِهِ، وَهُوَ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ. **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذَا الْبَيْتَ﴾** [إبراهيم: ٣٧] وَإِنَّمَا تَعَيَّشُهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ بِمَا يَحُلُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْآفَاقِ وَالْأَمَكَةِ النَّائِيَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحِيطُ إِلَيْهِ فَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

و[الثالث:]^(٢) قَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرْتُ قُرَيْشٌ أَنْ يَأْلَفُوا عِبَادَةَ رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ بِإِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ؛ يَقُولُ: كَمَا أَلْفَنَاهُمَا تَيْنِ الرَّحْلَتَيْنِ فَأَلْفُوا عِبَادَةَ رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ.

و[الرابع:]^(٣) قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ كَانُوا يَزْتَجِلُونَ تُجَارًا آمِنِينَ فِي الْبِلَادِ، لَا يَخَافُونَ شَيْئًا لِحُرْمَتِهِمْ، لِأَنَّ النَّاسَ يَحْتَرِمُونَهُمْ لِمَكَانِ الْحَرَمِ حَتَّى لَا يَتَعَرَّضَ لَهُمْ بِشَيْءٍ، وَلَا يُؤْذِيهِمْ أَحَدٌ، حَتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لِيُصَابَ فِي حَيٍّ مِنْ الْأَحْيَاءِ، فَيَقَالَ: هَذَا حَرَمِي، فَيُخَلَّى عَنْهُ وَعَنْ مَالِهِ تَعْظِيمًا لِذَلِكَ الْمَكَانِ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿وَأَمَّنَّهُمْ مِنَ الْخَوَافِ﴾ [الآية: ٤].

و[الخامس:]^(٤) قِيلَ: إِنَّ الْعَرَبَ كَانَ يَغْيِرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَأَهْلُ مَكَّةَ كَانُوا آمِنِينَ فِي حَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَرَمِهِمْ﴾؟ [العنكبوت: ٦٧] فَذَكَرَ عَظِيمُ نَعِيمِهِ عَلَيْهِمْ وَبَيَّنَّ لِيَعْلَمُوا ذَلِكَ أَنَّهُ مِنْهُ.

الآية ٤ [وقوله تعالى: ﴿أَلَّذِي أَلْمَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾] **﴿وَأَمَّنَّهُمْ مِنَ الْخَوَافِ﴾** [٥] أَصْلُهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا كَانَ مِنْ حُكْمِيهِ وَإِرَادَتِهِ جَعَلَ الرِّسَالَةَ فِي قُرَيْشٍ وَإِبْقَاؤَهَا إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ تَبْقَى جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ وَالْأَرْزَاقِ الَّتِي تُجْبَى إِلَيْهِمْ وَمَا يَتَعَيَّشُونَ [بِهِ]^(٦) فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لِيَتَّقُوا إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ الَّذِي أَرَادَ إِبْقَاءَهُمْ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ مَا أَرَادَ عَلَى مَا أَرَادَ. فَكَمَا أَنشَأَ هَذَا الْعَالَمَ لِلْبَقَاءِ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَتَّقُوا فِيهِ^(٧) جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ مَا يَتَّقُونَ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي أَرَادَ لِيَكُونَ مَا أَرَادَ. / ٦٥٤ - أ / فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ.

قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: الْإِيلَافُ مُصَدَّرُ أَلْفْتُ فَلَانًا كَذَا إِيْلَافًا كَمَا تَقُولُ: أَلَزِمْتُهُ الْإِزَامًا. وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: أَلْفْتُ الْمَكَانَ أَلْفْتُهُ لُغْتَانِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ **﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾** أَي لِيَصْنَعَ قُرَيْشٌ **﴿لِإِيلَافِهِمْ﴾** صَنِيعَهُمْ **﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾** **﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾** **﴿أَلَّذِي أَلْمَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾** السَّنِينَ الَّذِي أَصَابَهُمْ **﴿وَأَمَّنَّهُمْ مِنَ الْخَوَافِ﴾** الْعَدُوِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ [وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ]^(٨).

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. و. (٣) في الأصل وم. و. (٤) في الأصل وم. و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم. فيها. (٨) ساقطة من م.

سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١ - ٣

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبِّ﴾ [فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَلَيْسَ] ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْيَسْكِينِ﴾^(١) اختلفوا في نزوله، قال ابن عباس رضي الله عنه: هي مدنية، وقال مقاتل ومجاهد وجماعة: هي مكية. وجائز أن يكون أولها نزل بمكة لأن الذي ذكر أنها نزلت في شأنه كان مكياً، وهو العاصم بن وائل السهمي مع ما أنهم هم الذين يكذبون بيوم الدين، وأخرها نزل بالمدينة، لأن في آخرها وصف المنافقين، وهو ما ذكر من المراءاة في الصلاة ومنع ما ذكر.

ثم إن كان نزولها في الكفرة فالجهة فيه والمعنى غير الجهة والسبب لو كانت نزلت في المنافقين.

ثم قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ حُرِّفَ يُسْتَعْمَلُ في موضع السؤال والاستفهام، ويجوز أن يكون استعماله على وجه التقرير على^(٢) السائل لما يراؤ به إعلامه على سبيل ما روي في الخبر: «أرأيت لو كان على أهلك دين، فقضيت، أما قبل منك؟» (أحمد ٤٢٩/٦) وكان ذلك في موضع التقرير. فذلك قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ مغناه، والله أعلم، إن أعلم أن ﴿الَّذِي يَدْعُ أَلَيْسَ﴾ ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْيَسْكِينِ﴾ هو الذي يكذب بالدين [قال أهل التأويل جميعاً: يكذب بالدين]^(٣) أي بالحساب والبعث.

وجائز أن يكون ﴿يُكَذِّبُ بِالذِّبِّ﴾ الذي يظهر لك، ولا يحقق.

فإن كان في المنافقين، لأن أهل النفاق كانوا يكذبون [فهو من]^(٤) يظهر الموافقة لرسول الله ﷺ والمؤمنين.

[وإن كان في أهل الكفر، فهو في الرؤساء منهم؛ فتكذبيهم بالدين، هو ما كانوا يظهرُونَ لاتباعهم من الجهاد والشدّة، يُمَوِّهُونَ بذلك على أتباعهم ليَقَعَ عندهم أن الذي هم عليه حق وأن الذي عليه رسول الله ﷺ باطل، فيكذبون بالدين الذي يرون من أنفسهم، ويظهرُونَ بالتَمَوِّهَاتِ التي يُمَوِّهُونَ بها عليهم، فكيف أن كانت نزلت في المنافقين أو في أهل الكفر أو في الذي كَذَّبَ بالحساب والبعث أو في الذي ذكرنا أنه يظهر خلاف ما يضمير؟]

فيه عظة وتنبية للمؤمنين^(٥) وزجر لهم عن مثل صنيعهم لأنه نعت الذي كذب بالدين؛ إذ كان المراد به الحساب أو الدين نفسه حين^(٦) قال: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَلَيْسَ﴾ ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْيَسْكِينِ﴾ كأنه قال: ﴿الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبِّ﴾ هو ﴿الَّذِي يَدْعُ أَلَيْسَ﴾ أي يظلم اليتيم، وحقه يمنع ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْيَسْكِينِ﴾ يقول، والله أعلم، للمؤمنين: لا تظلموا اليتيم، ولا تمنعوا حقه، ولا تسيروا صُخْبَةَ اليتيم كما فعل من كذب بالدين [وما حَضَّ]^(٧) على طعام المسكين؛ يَصِفُ بخلهم واستهانتهم باليتيم والمساكين وسوء معاملتهم التي عاملوها؛ يعظ المؤمنين، ويذمهم عن ذلك.

وجائز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْيَسْكِينِ﴾ لما عندهم أن من أعطي المال، ووسّع عليه الدنيا، إنما أعطي ذلك لكرامة له عند الله تعالى، ومن ضيق عليه، ومنع ذلك عنه، ليهوان له عنده وخفارة كقوليه ﷺ: «قَاتِلُوا الْإِنْسَانَ إِذَا مَا آتَاكُمْ رَبُّكُمْ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمْ فَيَقُولَ رَبِّي أَكْرَمَنِ» ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولَ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ [الفجر ١٥ و ١٦] وقوله ﷺ:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عند. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ما. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: وحضوا.

﴿أَتْلَعُم مِّن لَّوْ يَسَاءَ اللَّهُ أَتَلَمَعُمُ؟﴾ [يس: ٤٧] يَظُنُّونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنَعَ مَن^(١) مَنَعَ ذَلِكَ لِهَوَانِهِ لَهُ عِنْدَهُ، وَمَن وَسَّعَ عَلَيْهِ وَسَّعَ لِكِرَامَةِ لَهُ عِنْدَهُ [فَيَقُولُونَ: كَيْفَ نُكْرِمُ] ^(٢) مَن أَهَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى؟

فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ أَنَّهُ لَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى ظُلْمِهِ الْيَتِيمَ وَتَرْكِهِ إِطْعَامَهُ تَكْدِيئَهُ بِالْبَغْتِ لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلْيَتِيمِ مَن يَنْصُرُهُ، وَيَقُومُ بِدَفْعِ مَن يَقْصِدُ ظُلْمَهُ، وَيَمْنَعُ حَقَّهُ، وَكَانَ لَا يَخَافُ عِقَابَ الْبَغْتِ؛ إِذْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالذِّبِّ﴾ ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾ أَنْ يَكُونَ فِي الْإِغْتِقَادِ وَالرُّؤْيَةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي حَقِّ الْفِعْلِ نَفْسِهِ.

فَإِنْ كَانَ فِي الْإِغْتِقَادِ وَالرُّؤْيَةِ فَاهْلُ الْإِسْلَامِ لَا يَتَّقِدُونَ، وَإِنْ كَانَ فِي حَقِّ الْفِعْلِ فَإِنَّهُمْ رُبَّمَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ. وَحَمَلُهُ عِنْدَنَا عَلَى الْإِغْتِقَادِ أَوْجِبَ وَأَقْرَبُ لِمَا وَصَفْنَا أَنَّ الْيَتِيمَ لَا نَاصِرَ لَهُ، وَلَيْسَ لِلْكَافِرِ خَوْفُ الْعَاقِبَةِ لِمَا لَا يُؤْمِنُ بِذَلِكَ، وَإِنَّمَا يُمْنَعُ الْمَرْءُ مِنْ سُوءِ الصَّحْبَةِ لِهَٰذِهِنَّ: إِمَّا رَغْبَةً فِي جِزَاءِ الْآخِرَةِ [وَأَمَّا] ^(٣) خَوْفُ الْمُكَافَاتِ فِي الدُّنْيَا.

وَالْمَسَاكِينُ لَيْسَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مَا يَكْفِيهِمْ، وَيُجَازِيهِمْ، وَلَيْسَ لِلْيَتِيمِ نَاصِرٌ لِيُخَافَ مِنْهُ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْكَافِرِ رَغْبَةً فِي ثَوَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الْعِقَابِ لِعَدَمِ تَصَدِيقِهِ بِذَلِكَ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾ هُوَ النِّهَايَةُ فِي وَضْفِهِ بِالْبُخْلِ لِأَنَّ الْحَثَّ عَلَى الصَّدَقَةِ أَنْ يُزَجِّجَهُ، وَيُظْلِمَهُ فِي ثَوَابِهِ. فَإِذَا لَمْ يُزَجَّ [هُوَ] ^(٤) بِنَفْسِهِ، فَكَيْفَ يُزَجِّي غَيْرَهُ مَعَ مَا أَنَّ الْحِكْمَةَ عِنْدَ هَٰؤُلَاءِ الْكَافِرَةِ: مَن جَرَّ إِلَى نَفْسِهِ نَفْعًا، فَهُوَ الْحَكِيمُ، وَمَن ضَرَّ نَفْسَهُ، فَهُوَ جَائِرٌ غَيْرُ حَكِيمٍ، وَهُوَ إِذَا مَنَعَ الصَّدَقَةَ نَفَعَ نَفْسَهُ، وَإِذَا أَوْفَى الْيَتِيمَ حَقَّهُ ضَرَّهَا؟ فَلِذَلِكَ لَا يَزْعُبُ فِيهَا. فَهَٰذَا الْمَغْنَى الَّذِي وَصَفْنَاهُ دَعَانَا إِلَى تَوْجِيهِ التَّأْوِيلِ إِلَى الْإِغْتِقَادِ.

الآيات ٤ - ٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَوْلِيلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاكِدُونَ﴾ ﴿وَيَسْتَمْتَعُونَ﴾ ﴿الْمَاعُونَ﴾ ^(٥) إِنْ كَانَ هَٰذَا فِي أَهْلِ الثَّفَاقِ، كَذَلِكَ كَانُوا لَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا مِنَ الطَّاعَاتِ إِلَّا وَكَانُوا عَنْهَا لَا هِمَّ سَاهِينَ، وَإِذَا فَعَلُوا شَيْئًا مِنْهَا فَعَلُوا مُرَآةً كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ﴾ [التوبة: ٥٤] فَذَكَرَ كَسَلَهُمْ وَبُخْلَهُمْ.

فَعَلَى ذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَوْلِيلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ فِي الْمُنَافِقِينَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ نَعْتِهِمْ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ فِي أَهْلِ الْكُفْرِ، وَأَهْلُ الْكُفْرِ يُصَلُّونَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] أَخْبَرَ أَنَّ صَلَاتَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَتْ بِصَلَاةٍ، فَجَائِزٌ / ٦٥٤ - ب/ أَنْ تَكُونَ عَلَى صُورَةِ الْحَقِيقَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُصَلُّونَ مُسْتَقْبِلِينَ نَحْوَ أَصْنَامِهِمْ، يُرَوْنَ النَّاسَ كَثْرَةَ اجْتِهَادِهِمْ فِي طَاعَةِ الْأَصْنَامِ حَتَّى إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ تَأْيٍ عَنْهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ حَقٌّ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ صَدٌّ عَنِ إِبَاجَةِ الرُّسُولِ وَدَفْعُ وَجْهِ الْقَوْمِ عَنْهُ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كِتَابَةً عَنِ الْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ، فَيَكُونُ مَغْنَاءً: وَيُلُّ لِلَّذِينَ لَا يَخْضَعُونَ، وَلَا يَخْشَعُونَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَيَّ سَهْوٍ عَنْ صَلَاتِهِمْ لَأَنْفُسِهِمْ، وَصَلَاتُهُمْ الَّتِي هِيَ لِأَنْفُسِهِمْ، هِيَ أَنْ تَكُونَ الصَّلَاةُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَيَجْعَلُونَهَا لَهُ، وَلَا يُصَلُّونَ لِغَيْرِ اللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا، لِأَنَّ مَن صَلَّى لِلَّهِ تَعَالَى يُرْجِعُ مَنَفَعَتَهُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَيْهِ لِمَا تَعَلَّقَ بِهَا مِنَ الْجِزَاءِ الْجَمِيلِ، فَهُمْ بِالسَّهْوِ عَنْ تِلْكَ الصَّلَاةِ وَتَرْكِهَا يُلْجِقُونَ الضَّرَرَ بِأَنْفُسِهِمْ، وَإِنْ ^(٦) جَعَلُوهَا لِلْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ، وَلَا تَنْفَعُ.

وَالثَّانِي: سَهْوَتُهُمْ [عَنِ] ^(٧) الصَّلَاةِ حِينَ أَضَاعُوهَا، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ ﷺ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] يَقُولُ: [سَهْوًا عَنِ] ^(٨) الصَّلَاةِ، فَلَمْ يَمْتَنِعُوا عَمَّا ذَكَرَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مَمْن. (٢) يَقُولُ كَيْفَ أَكْرَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٤) مَن م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: سَهَيْتُمْ.

وعن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً: «هم الذين يؤخرونها عن وقتها» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٣٠/٣١١]. وقال مجاهد: «الساهي الذي لا يبالي صلى أم لم يصل» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٣٠/٣١١] ألا ترى أنه قال: «الذين هم يتركون». وقال الحسن: «هم المنافقون، يؤخرونها عن وقتها، ويأوون إذا صلوا» [بنحوه: الطبراني في الأوسط ٢٢٩٧]. وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ^(١): «السهُو» ^(٢) عن الوقت» [بنحوه: الطبراني في الأوسط ٢٢٩٧]. وقال أبو العالية: «الساهي هو الذي لا يذري عن شفع انصرف أو عن وثرة» [الدر المنثور ٨/٦٤٣]. وروى عن سليمان أنه قال: الحمد لله لأنه ^(٣) لم يقل: في صلاتهم، ولكنه قال «عن صلاتهم ساهون».

وقوله تعالى: «وَيَسْتَعِزُّونَ الْمَاعُونَ» قال ابن عباس رضي الله عنه «هو الزكاة» [الحاكم في المستدرک ٢/٥٣٦] رواه ابن الزبير وعكرمة ومجاهد عنه. وروى عن علي رضي الله عنه «هو الزكاة» [الحاكم في المستدرک ٢/٥٣٦]. وعن ابن عباس رضي الله عنه في رواية أخرى «هو العارية» [الحاكم في المستدرک ٢/٥٣٦]. وعن ابن عمر قال: «هو الذي لا يعطى حقه، وهو الزكاة» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٣٠/٣١٥].

وروى عن علي رضي الله عنه في رواية: «الماعون منع القدر والدلو والفأس» [الطبراني في الأوسط: ١٤٩٥]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه مثله. وكذا عن ابن عباس في رواية أخرى. وقال أبو عبيدة: كل ما فيه منفعة، فهو الماعون. وعن ابن عباس رضي الله عنه ^(٤) قال: «ما جاء هؤلاء ^(٥) بغد» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٣٠/٣١٩].

فإن كان ذلك على العواري فالمعنى منها ذم البخل، وأشدّه منع القرص. وجائز أن يكون الماعون كل معروف وكل ما يُعان [به] ^(٦)؛ يدخل في ذلك الزكاة وغيرها؛ ففيه ذكر بُخلهم وشحهم ومنع الحق من المستحق.

قال أبو عوسجة: «يَدْعُ الْيَسَرَ» أي يضرب، ويدفع في قفاه؛ يقال: دَعَّ يَدْعُ دَعًّا، فهو داع ومَدْعُو. وقال القتيبي: «يَدْعُ الْيَسَرَ» أي يدفعه، وكذلك في قوله تعالى: «يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى تَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا» [الطور: ١٣] أي يُدْفَعُونَ.

وقال أبو عوسجة: «وَلَا يَخْصُ» لا يحرص، ولا يحث «سَاهُونَ» غافلون. وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه لا هون، وكذلك في حرف أبي رضي الله عنه والله أعلم بحقيقة ما أراد.



(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الترك. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في تفسير الطبري: أهلها. (٦) ساقطة من الأصل وم.

سورة (١) الكوثر

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ﴾ هذا خَرَجَ مَخْرَجَ الْإِمْتِنَانِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْإِنْعَامِ وَالْإِفْضَالِ لِيَسْتَادِيَ بِذَلِكَ شُكْرَهُ وَالْخُضُوعَ لَهُ.

ثم اختلفوا في الكوثر [قال بعضهم: (٢)] هو الخير الكثير [والخير الكثير] (٣) ما أُعْطِيَ مِنَ الشُّبُورَةِ وَالرَّسَالَةِ وَمَا لَا يَنْجُو أَحَدٌ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِهِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِهِ وَالتَّصَدِيقُ لَهُ وَمَا صَيَّرَهُ مَعْرُوفًا مَذْكُورًا فِي الْمَلَائِكَةِ، وَمَا قَرَنَ ذِكْرَهُ بِذِكْرِهِ، وَرَفَعَ قَدْرَهُ وَمَنْزَلَتْهُ فِي جَمِيعِ الْخَلَائِقِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُحْصَى. وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

وقال بعضهم: نَهَرٌ فِي الْجَنَّةِ. وَعَلَى ذَلِكَ جَاءَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْكَوْثَرِ، فَقَالَ: «نَهَرٌ فِي الْجَنَّةِ» [الترمذي ٣٣٥٩] أَوْ قَالَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ سَوَالٍ.

فَإِنْ ثَبَّتِ الْأَخْبَارُ فَهُوَ بِذَلِكَ (٤) كُفِينَا عَنْ ذِكْرِهِ، وَإِنْ لَمْ تَثْبُتِ الْأَخْبَارُ فَالْوَجْهُ الْأَوَّلُ أَقْرَبُ عِنْدَنَا، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي إِعْطَائِهِ النَّهْرَ تَخْصِيبٌ فِي التَّشْرِيفِ وَالْعَطِيَّةِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ لِأَمْرِهِ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا لِمَا رُوِيَ فِي الْأَخْبَارِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ» [البخاري ٣٢٤٤] وَمُسْلِمٌ [٢٨٢٤]. وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا فِي الْإِنْعَامِ أَكْثَرُ مِنَ النَّهْرِ الَّذِي وَصَفَ.

وقال بعضهم: الْكَوْثَرُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ، لَا يُعْرَفُ.

وَأَصْلُهُ: أَنَّهُ شَيْءٌ، خَاطَبَ بِهِ رَسُولَهُ، وَهُوَ قَدْ عَرَفَهُ، فَلَا يَجِبُ أَنْ يَتَكَلَّفَ [أَحَدٌ] (٥) مَعْرِفَتَهُ وَتَفْسِيرَهُ، لِأَنَّهُ إِنْ أَخْطَأَ (٦) لِحَقِّهِ الضَّرَرُ، وَإِنْ أَصَابَهُ لَمْ يَنْتَفِعْ (٧) بِهِ كَثِيرَ نَفْعٍ.

وقيل: الْكَوْثَرُ، هُوَ حَرْفٌ أُخِذَ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْعِرْ﴾ اختلف فيه:

قال بعضهم: حَقِيقَةُ الصَّلَاةِ، هِيَ الْخُضُوعُ وَالْخُشُوعُ وَالِدُّعَاءُ، أَمْرُهُ بِجَمِيعِ مَا يُعْبَدُهُ فِي نَفْسِهِ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَأْتِيَ بِمَا تَعْبَدُهُ مِنَ الْقَرَابِينِ وَالذَّبَائِحِ وَالضَّحَايَا الَّتِي فِيهَا نِفَارُ الطَّبَاعِ حَتَّى إِنَّ مِنَ الْكُفْرَةِ مَنْ يُحَرِّمُ الذَّبَائِحَ وَالتَّخَرُّعَ لِلْأَلَامِ الَّتِي فِيهَا، وَالطَّبَاعُ تَنْفَرُ عَنْ ذَلِكَ، فَتَعْبَدُهُ بِالَّذِي فِيهِ مُنَاقَضَةٌ طَبْعِهِ وَنِفَارُهُ عَنْهُ.

وجائز أن يكون لا على الأمر (٨) بالصلاة والتَّخَرُّعِ، وَلَكِنْ مَعْنَاهُ: إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ لِلَّهِ، لِأَنَّ أَوَّلَ الْكُفْرَةِ كَانُوا يُصَلُّونَ لِلْأَصْنَامِ، وَيَذْبَحُونَ لَهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى الْقُتُوبِ﴾ [المائدة: ٣] أَيْ لِلشُّصِبِ فَأَمْرُهُ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَى.

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ذاك. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أخطأ. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ينفع. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: رأي.

وقال الحسن: صَلِّ لِرَبِّكَ صلاة العبد، وانحرِ البدنَ بَعْدَهَا. وقال مجاهد وعطاء: صَلِّ الصُّبْحَ بِجَمْعٍ، وانحَرِ بِنِى. وقال بعضهم: صَلِّ لِرَبِّكَ حقيقة الصلاة، وهي الصلاة المَعْرُوفَةُ المَعْرُوفَةُ وهي مُنْعُ العبادة [بنحوه: الترمذي ٣٣٧١]. على ما ذُكِرَ في الخبر، وكذلك ما ذَكَرَ: «إِنَّ الْمُصَلِّيَ مُنَاجِ الرَّبِّ تَعَالَى» [أحمد ٦٧/٢].

وهو، والله أعلم، لأنه ما من عبادة إلا وفيها شيء من اللذة وقضاء الشهوة للنفس وأمانيتها من السير والركوب والأكل والشرب والكلام والانتقال من موضع [إلى موضع] ^(١) وغير ذلك من الطاعات مما فيه شيء من اللذة للنفس وقضاء شهواتها، وإن قل، من الحج ٦٥٥ - أ / والزكاة والجهاد وغير ذلك، إلا الصلاة نفسها فإن فيها قَطْعُ النفس عن جميع شهواتها وأمانيتها وعن جميع ما يُتَلَذَّذُ به من أنواع اللذات. وعلى ذلك ما سَمِعَ موسى ﷺ كليم الله ونَجِيَّهُ، لأنه فارق قومه وجميع ما للنفس فيه لذة وراحة، وأتى جبلاً، ليس فيه أحد، وكَلِمَةُ رَبِّهِ في ذلك، فَسَمِيَ نَجِيًّا لله. وعلى ذلك سَمِيَ الْمُصَلِّي مُنَاجِيًّا رَبَّهُ، وَخَصَّ بِذَلِكَ الإِسْمَ لِمَا ذَكَرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿وَانْحَرِ﴾ هو ما ذَكَرْنَا من نَحْرِ البدن الذي يُعْبَدُ للكل لما فيه من نَفَارِ النَّفْسِ بالتَّأَلُّمِ الذي يَخْصُلُ لِغَيْرِهِ بِفِعْلِ غَيْرِهِ. فَالتَّأَلُّمُ به يَفْعَلُ بنفسه أَكْثَرَ من التَّأَلُّمِ بِفِعْلِ غَيْرِهِ، وهو مُجَاهِدَةُ النَّفْسِ، وَيُغَيِّرُ مَا امْتَحَنَهُ ﷺ بِتَحْمِلِ الْمَشَقَّةِ لَوَجْهِهِ تَعَالَى مَرَّةً بِالتَّبْلِيغِ إِلَى الْكَفَرَةِ مَعَ الْخَطَرِ عَلَى نَفْسِهِ وَمَرَّةً بِمُجَاهِدَةِ نَفْسِهِ بِالْقِيَامِ بِاللَّيْلِ وَمَرَّةً بِإِتْيَانِ خِلَافِ الطَّبْعِ، وهو ذَنْبُ الْبَدَنِ؛ إِذِ الطَّبَائِعُ تَنْفَرُ عَنْ إِرَاقَةِ الدَّمَاءِ، مَعَ أَنَّهُ مِنْ أَشْفَقِ النَّاسِ وَأَرْحَمِهِمْ عَلَى خَلْقِهِ.

فَبَلَغَ مِنْ حَسَنِ إِجَابَتِهِ لَهُ وَطَاعَتِهِ لَهُ أَنْ سَاقَ مِثْلَ بَدَنِهِ، فَتَحَرَ سِتْنَيْنِ مِنْهَا بِيَدِهِ، وَوَلَّى عَلِيًّا ﷺ نَحَرَ أَرْبَعِينَ عَلَى مَا ذُكِرَ فِي الْخَبَرِ: [أحمد ٣١٤/١ و ٣١٥].

وَرَوَى أَبُو الْجَوَازِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ [أنه] ^(٢) قَالَ: «فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرِ» وَضَعَ الْيَمِينَ عَلَى الشِّمَالِ فِي الصَّلَاةِ، وَكَذَا رَوَى عَنْ عَلِيٍّ ﷺ وَعَنْ عَاصِمِ الْجَحْدَرِيِّ [أنه] ^(٣) قَالَ: هُوَ وَضَعَ الْيَمِينَ عَلَى الشِّمَالِ فِي الصَّلَاةِ.

وَمِنْ قَوْلِ الشُّوَبَةِ أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ ذَنْبَ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْأَلَمِ وَالْأَذَى. وَقَوْلُهُمْ هَذَا، لَيْسَ بِصَحِيحٍ لِأَنَّا نَعْلَمُ أَنَّ إِمَاءَةَ الرُّوحِ بِالذَّنْبِ أَهْوَنُ عَلَى الْمَذْبُوحِ مِنْ مَوْتِهِ خَفَّتْ أَنْفِهِ، فَإِذَا جَازَ فِي الْحِكْمَةِ أَنْ يُزْهَقَ رُوحَهُ بِغَيْرِ الذَّنْبِ [فَلَا أَنْ يَجُوزَ بِالذَّنْبِ] ^(٤) أَحَقُّ.

وَأَصْلُهُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ فِي مُخَاطَبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِهِ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ، وَهُوَ أَعْلَمُ ^(٥) بِالَّذِي خَاطَبَهُ بِهِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالتَّحَرِّ وَالْكَوْثَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَلَا تَتَكَلَّفُ نَحْنُ تَفْسِيرَهُ مَخَافَةَ الْكَذْبِ عَلَى اللَّهِ سِوَى أَنْ نَذْكَرَ أَقَاوِيلَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ.

الآية ٢ وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ شَانِئُهُمْ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ يَذْكَرُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ أَنَّ فَلَانًا سَمِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَبْتَرًا، فَتَزَلَّ أَنَّ الَّذِي سَمَّاكَ أَبْتَرًا، هُوَ الْأَبْتَرُ، لَا يَعْرِفُهُ حَقِيقَةً، لِأَنَّهُ لَمْ يَذْكَرْ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَوْلَادِ الْفِرَاعَةِ وَأَعْدَاءِ الرِّسْلِ ﷺ افْتَحَرَ بَابِيهِ، أَوْ أَحَدًا مِنْ أَوْلِيائِهِمْ [أَوْ الْمُتَنَبِّئِينَ إِلَيْهِمْ افْتَحَرَ بِهِمْ] ^(٦) وَافْتَحَرَ أَوْلَادُ ^(٧) أَوْلِيَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَتَّبِعُونَا بِذَلِكَ فِي مَا بَيْنَهُمْ.

يَقُولُ: ﴿إِنَّكَ شَانِئُهُمْ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أَيُّ مُعَادِيكَ وَمُبْغِضِكَ، هُوَ الْأَبْتَرُ دُونَكَ، أَوْ يَقُولُ: أَعْدَاؤُكَ، هُمُ الَّذِينَ يُبْتَرُ ذِكْرُهُمْ، وَأُولَئِكَ مَذْكُورُونَ أَبَدًا عَلَى مَا قُلْنَا.

وَأَصْلُهُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ خَاطَبَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ عَرَفَ ذَلِكَ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ فِي أَيِّ شَيْءٍ كَانَتِ الْقِصَّةُ؟ وَفِيمَ نَزَلَتْ الْآيَةُ؟ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) و (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: يعلم. (٦) في الأصل وم: المتعين بهم. (٧) ساقطة من م.

قَالَ أَبُو عَرَسَجَةَ: الشَّائِئُ الْمُبْغِضُ، يُقَالُ: شَتَأْتُهُ ابْغِضْتُهُ، وَالْأَبْتَرُ، هُوَ الَّذِي لَا وَلَدَ لَهُ ذَكَرًا، وَلَا عَقِبَ لَهُ.
 وَفِي قَوْلِهِ ﷺ ﴿إِنَّكَ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ بِشَارَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْعَلْبَةِ عَلَيْهِمُ الْقَهْرُ لَهُمْ وَالتَّضَرُّعُ عَلَيْهِمْ وَإِظْهَارِ
 دِينِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْبِلَادِ وَالْأَفَاقِ، إِذْ أَخْبَرَ أَنَّ الَّذِي عَادَاهُ، وَبَاغَضَهُ، هُوَ الْمُنْقَطِعُ وَالْأَبْتَرُ، لَا هُوَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.



سورة (١) الكافرون

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قوله تعالى: ﴿قُلْ بِكَيْفَا الْكَافِرُونَ﴾ إلى آخرها، دُكر أنها نزلت في مُنَابَذَةِ الْمُتَمَرِّدِينَ الْمُعَانِدِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا، وَلَا يَرْجِعُونَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِسْلَامِ، لِأَنَّهُ لَا كُلُّ كَافِرٍ يَكُونُ عَلَى وَصْفِ أَنَّهُ لَا يَنْعُدُ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ؛ إِذْ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي وَقْتٍ [كَافِرًا] ^(٢) ثُمَّ يُسْلِمُ فِي وَقْتٍ آخَرَ. فَذَلِكَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ نَزَلَتْ فِي الْمُتَمَرِّدِينَ الْمُعَانِدِينَ الَّذِينَ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ يَثْبِتُونَ عَلَى الْكُفْرِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا، وَكَانَ كَمَا أَخْبَرَ. وفيه ^(٣) دلالة إثبات الرسالة، إِذْ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا، وَمَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ.

الآيات ٢ - ٥ وقوله تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أَنْتُمْ الْآنَ ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ فِي مَا بَعْدَ الْيَوْمِ [﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾] ^(٤).

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَوَّلُ فِي مَا مَضَى مِنَ الْوَقْتِ، وَالثَّانِي: إِخْبَارٌ عَنِ الْحَالِ، وَالْآخِرُ فِي مَا بَقِيَ مِنَ الْوَقْتِ، وَلَكِنْ لَا يَجِيءُ أَنْ يَكُونَ هَكَذَا، بَلْ يَجِيءُ بِهِ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فِي حَادِثِ الْوَقْتِ، لِأَنَّ حَرْفَ: ﴿لَا﴾ إِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي حَادِثِ الْأَوْقَاتِ؛ يَقُولُ الرَّجُلُ: لَا أَفْعَلُ كَذَا؛ يَرِيدُ بِهِ حَادِثَ الْوَقْتِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ كَذَلِكَ أَيْضًا فِي حَادِثِ الْأَوْقَاتِ، أَوْ إِخْبَارٌ عَنِ الْحَالِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ إِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الْمَاضِي مِنَ الْأَوْقَاتِ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَمْ أَكُنْ أَنَا عَابِدًا [﴿مَا عَبَدْتُمْ﴾] ^(٥) قَطُّ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ عَبْدًا غَيْرَ اللَّهِ قَطُّ.

وفي هذه السورة وجهان من الدلالة:

أحدهما: مَا ذَكَرْنَا مِنْ إِثْبَاتِ الرِّسَالَةِ.

والثاني: إِخْبَارٌ عَنِ الْإِيَّاسِ لَهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى دِينِهِمْ أَبَدًا وَقَطَعَ رَجَائِهِمْ وَطَمَعِهِمْ فِي ذَلِكَ.

وفيه أَيْضًا أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ [غَيْرَ اللَّهِ فِي عِبَادَتِهِ] ^(٦) وَعَبَدَ غَيْرَهُ دُونَهُ عَلَى رَجَاءِ الْقُرْبَى إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ لَيْسَ بِعَابِدٍ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَا مُوَحِّدٍ لَهُ، لِأَنَّ أَوَّلَئِكَ إِنَّمَا عَبَدُوا الْأَصْنَامَ رَجَاءً أَنْ تُشْفَعَ لَهُمْ وَرَجَاءً أَنْ تُقَرِّبَهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى. أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا تُقَرِّبُهُمْ زُلْفَى وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمُؤَحِّدِينَ وَلَا عَابِدِينَ لِلَّهِ تَعَالَى.

الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يَخْتَلِفُ وَجْهَيْنِ ^(٧):

أحدهما: لَكُمْ جَزَاءُ دِينِكُمْ، وَلِيَ جَزَاءُ دِينِي الَّذِي دَنْتُ.

والثاني: عَلَى الْمُنَابَذَةِ وَالْإِيَّاسِ: لَكُمْ مَا اخْتَرْتُمْ مِنَ الدِّينِ، وَلِيَ مَا اخْتَرْتُ، لَا يَعُودُ وَاحِدٌ مِنَّا إِلَى دِينِ الْآخَرِ. وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يَظْمَعُ كُلُّ فَرِيقٍ عَوْدَ الْفَرِيقِ الْآخَرِ إِلَى دِينِهِمْ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ.

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ففيه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: غيره في عبادة الله. (٧) في الأصل وم: وجهان.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ليس على الأمر [على ما ذكرنا في سورة الإخلاص والمعوذتين؛ إذ لو كان على الأمر للزم^(١) أن يقول كل واحد منا لكل كافر ذلك. فإذا لم يلزم دل أنه ليس على الأمر^(٢)].

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قُلْ لِلَّذِينَ / ٦٥٥ - ب/ كَفَرُوا: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿وَلَا أَنْتَ عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾^(٣) ﴿وَلَا أَنْتَ عَابِدٌ مَا عَبَدُ﴾ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ﴾.

وعنه أنه قال: من قرأ هذه السورة فقد أكثر، وأظنّب.

وفي حديث مرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل: «إذا قرئت إلى فراشك فاقرا: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فإنه براءة من الشرك» [الترمذي ٣٤٠٣].

وأهل التأويل يقولون: إن سَبَبَ نزول هذه مُنَابَذَتُهُ إِيَّاهُمْ: أن رهطاً من قريش قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم هلم فلتعبد ما نعبد، واعبد ما نعبد نحن، فيكون أمرنا أمراً واحداً فنزلت هذه السورة.

قال أبو عوسجة: الذين العادة؛ تقول: هذا ديني أي عادي.

ثم المعنى الذي وقع عليه التكرار لهذه الأحرف عندنا أن التكرار حَرَفٌ جَرَى الاستعمال به في موضع المبالغة والتأكيد لما قصد به من الكلام [في أي كلام]^(٤) كان: رجاء أو وعيداً أو غيره كقولهم: بَخْ بَخْ والويل [الويل]^(٥) وهيئات هيئات وغير ذلك، فكَذَلِكَ في هذا الموضع لما وَقَعَ الإيَّاسُ مِنْ إيمانهم بالله تعالى بما عَلِمَ النبي صلى الله عليه وسلم بطريق الوحي أنهم لا يؤمنون، كَرَّرَ هذا الكلام تأكيداً للإيَّاس وإبلاغاً، والله أعلم [والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام]^(٦) على سيدنا محمد [وآله وصحبه أجمعين]^(٧).



(١) في م: فهو يلزم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.

(٦) في م: صلى الله. (٧) ساقطة من الأصل.

سورة النصر^(١)مكية^(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال عائشة أهل التأويل: إن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ هو مكة والنصر الذي نصر رسول الله ﷺ على أهل مكة.

قال أبو بكر الأصم: هذا يَحْتَمِلُ لأنَّ فَتْحَ مكة كان بعد الهجرة بثمانين سنة، ونزول هذه السورة كان بعد الهجرة بِمِئَةِ سِنِينَ، ولا يُقال للذي قَضَى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ولكن أراد سائر الفُتُوح التي فَتَحَهَا لَهُ، أو كلام نحو هذا.

ولكن يَحْتَمِلُ أن يكون قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ بِمَعْنَى أن جاء. وجائز ذلك في اللغة، وفي القرآن كثير: إذا مكان إن. فإن كان على هذا فَيَسْتَقِيمُ حَمْلُهُ على فَتْحِ مكة على ما قاله أولئك، أو [أن]^(٣) يكون قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ أي قد جاء نصر الله، أي أن يكون أراد بما ذكر من النَّصْرِ وَالْفَتْحِ الْفُتُوحِ التي كَانَتْ لَهُ مِنْ بَعْدِ حِينَ دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً على ما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾ أي عون الله وجزلانه لأعدائه أو أن يكون قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ هو^(٤) فتوح الأمور التي فَتَحَهَا اللَّهُ ﷻ عليه من تبليغ الرسالة إلى مَنْ أَمَرَ بِتَبْلِيغِهَا إِلَيْهِمْ وَالْقِيَامِ بِالْأُمُورِ التي أَمَرَهُ أَنْ يَقُومَ بِهَا، فَتَحَ تِلْكَ الْأُمُورَ عَلَيْهِ، وَأَتَمَّهَا.

فإن كان على هذا فَتَصِيرُ فَتُوحُ تِلْكَ الْأُمُورِ لَهُ نَعِيّاً بِالدَّلَالَةِ على ما قاله أهل التأويل: إنه نَعِيٌّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَفْسُهُ، وَجِهَةٌ الْإِسْتِدْلَالِ بِالْوَجْهِ التي ذكرنا.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾ ذكر أهل التأويل أنه كان قَبْلَ ذَلِكَ يَدْخُلُ وَاحِدٌ وَاحِدٌ. فَلَمَّا كَانَ فَتْحُ مكة جَعَلُوا يَدْخُلُونَ دِينَهُ أَفْوَاجاً أَفْوَاجاً وَقَبِيلَةً وَقَبِيلَةً.

ويَحْتَمِلُ ما ذكرنا من سائر الفُتُوحِ أي فَتُوحِ الْأُمُورِ التي ذكرنا على ما رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ شَهراً أَمَامِي وَشَهراً وَرَائِي» (الطبراني في الكبير ٦٦٧٤).

ثم في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾ نَعِيٌّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ وَجْهِهِ، وَقَدْ ذُكِرَ فِي الْأَخْبَارِ أَنَّهُ نَعِيَ إِلَيْهِ نَفْسُهُ بِهَذِهِ السُّورَةِ:

أَحَدُهَا: ما ذكرنا من جِهَةِ الْإِسْتِدْلَالِ عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ دَنَا أَجَلُهُ [حِينَ أَتَمَّ]^(٥) ما أَمَرَ بِهِ، وَفَرَّغَ مِنْهُ مِنَ التَّبْلِيغِ وَالِدَعَاءِ.

والثاني: عَرَفَ ذَلِكَ أَطْلَاعاً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَظْلَعَهُ عَلَيْهِ بِعَلَامَاتٍ جَعَلَهَا لَهُ، فَفَهِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ما لا تُدْرِكُ أَفْهَامُنَا ذَلِكَ.

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر أن. (٢) أدرج قبلها في م: وهي. (٣) الواو ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: هي. (٦) في الأصل: حيث، في م: حيث أتم.

والثالث: لَمَّا كُفِيَ مَوْنَةُ الْقِيَامِ بِالتَّبْلِيغِ بِنَفْسِهِ عَرَفَ بِذَلِكَ حُضُورَ أَجَلِهِ، وهو نوعٌ مِنَ الدَّلَالَةِ. وَجْهُ الدَّلَالَةِ أَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ فَوْجاً فَوْجاً دَلَّ ذَلِكَ عَلَى ظُهُورِ الْإِسْلَامِ وَكَثْرَةِ أَهْلِهِ، فَكَانَتْ الْغَلْبَةُ وَالنُّصْرُ دَلِيلَ الْأَمْنِ مِنَ الزُّوَالِ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ إِذَا زَالَ الرَّسُولُ.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿نَسِجَ يَحْمَدُ رَبِّكَ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: أَيَّ صَلٍّ بِأَمْرِ رَبِّكَ.

واضله: ما ذَكَّرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ أَنَّ التَّسْبِيحَ، هو التَّنْزِيهُ، وَالتَّنْزِيهُ عَنْ جَمِيعِ مَعَانِي الْخَلْقِ، وَالْوَصْفُ بِمَا يَلِيقُ بِهِ. قَالَ: تَزْفُهُ، وَبَرُّهُ بِالشَّأْنِ عَلَيْهِ، وَصِفُهُ بِالصِّفَاتِ الْعَلَا، وَسَمُّهُ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى الَّتِي عَلَّمَكَ رَبُّكَ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿نَسِجَ يَحْمَدُ رَبِّكَ﴾ أَيُّ قُلٍّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَيَحْمَدُهُ عَلَى مَا جَاءَ فِي الْأَخْبَارِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُكْثِرُ مِنْ دَعَائِهِ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَيَحْمَدُهُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ» [مسلم ٤٨٤/٢٢٠].

وهذا لِأَنَّ «سُبْحَانَ اللَّهِ» حَرْفٌ جَامِعٌ يَجْمَعُ جَمِيعَ مَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الشَّأْنِ عَلَيْهِ وَالْوَصْفِ لَهُ بِالْعُلُوِّ وَالْعِظَمَةِ وَالْجَلَالِ وَالتَّنْزِيهِ عَنْ جَمِيعِ الْعُيُوبِ وَالْآفَاتِ وَعَنْ جَمِيعِ مَعَانِي الْخَلْقِ؛ جَعَلَ لَهُمْ هَذَا الْحَرْفَ الْجَامِعَ لِمَا عَرَفَ عَجَزَهُمْ عَنِ الْقِيَامِ بِالْوَصْفِ بِجَمِيعِ مَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الشَّأْنِ عَلَيْهِ.

وكذلك حَرْفٌ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» هو حَرْفٌ جَامِعٌ يَجْمَعُ جَمِيعَ شُكْرِ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ؛ جَعَلَ لَهُمْ ذَلِكَ لِمَا عَرَفَ عَجَزَهُمْ وَقِلَّةَ شُكْرِ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ وَاحِدَ بَعْدَ وَاحِدٍ.

وعلى ذَلِكَ يُخْرِجُ قَوْلَهُ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ» (البخاري ٦٣٥٧) أَمْرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا الصَّلَاةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» [الأحزاب: ٥٦] وَلَمَّا لَمْ يَجْعَلْ فِي وَسْعِهِمُ الْقِيَامَ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ أَمْرَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ» لِيَكُونَ هُوَ الْمُتَوَلَّى ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُهُ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: دَلَّ قَوْلُهُ ﷺ: ﴿وَأَسْتَغْفِرُهُ﴾ عَلَى أَنْ كَانَ مِنْهُ تَقْصِيرٌ وَتَقْرِيطٌ فِي أَمْرِهِ حَتَّى أَمَرَهُ^(١) بِالْإِسْتِغْفَارِ عَنْ ذَلِكَ.

لَكِنَّ هَذَا كَلَامٌ وَخَشْ، لَا يَصِفُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ / ٦٥٦ - أ/ بِالتَّقْصِيرِ فِي شَيْءٍ وَلَا بِالتَّقْرِيطِ فِي أَمْرٍ، وَلَكِنْ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ أَحَدٍ مِنْ نِعَمِهِ وَقُضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ فِي طَرَفَةِ عَيْنٍ وَلِحِظَةٍ بَصَرٍ مَا لَيْسَ فِي وَسْعِهِ وَطَاقَتِهِ الْقِيَامَ بِشُكْرِ وَاحِدٍ مِنْهَا، وَإِنْ لَطَفَ، وَطَالَ عُمُرُهُ.

فَأَمَرَهُ بِالْإِسْتِغْفَارِ لِمَا يَتَوَهَّمُ مِنْهُ التَّقْصِيرُ فِي آدَاءِ شُكْرِ نِعَمِهِ عَنِ الْقِيَامِ بِذَلِكَ أَوْ أَنْ يَكُونَ لِأَمْرِهِ لَا لِنَفْسِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا مَعْنَى أَمْرِهِ بِالْإِسْتِغْفَارِ؟ وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّهُ عَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ.

فَالْجَوَابُ عَنْهُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَمْرُهُ^(٢) بِالْإِسْتِغْفَارِ لِأَمْرِهِ نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِي وَاللَّذُنُوبِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ [محمد: ١٩].

[والثاني: ^(٣) أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى وَعَدَ لَهُ الْمَغْفِرَةَ إِذَا لَزِمَ الْإِسْتِغْفَارَ، وَدَامَ عَلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ أَيُّ كَانَ، وَلَمْ يَزَلْ تَوَّابًا لَيْسَ أَنْ صَارَ تَوَّابًا بِأَمْرِ اخْتِسَابِهِ، وَآخِذَتُهُ، عَلَى مَا تَقَوْلُهُ الْمُعْتَزَلَةُ: إِنَّهُ صَارَ تَوَّابًا.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَوَّابًا﴾ [يَحْتَمِلُ وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: ^(٤) عَلَى التَّكْثِيرِ، أَيُّ يَقْبَلُ تَوْبَةً بَعْدَ تَوْبَةٍ، أَيُّ إِذَا تَابَ مَرَّةً، ثُمَّ ارْتَكَبَ الْحُرْمَ، وَعَصَاهُ، ثُمَّ تَابَ ثَانِيًا وَثَالِثًا، وَإِنْ كَثُرَ فَإِنَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَمْر. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَمْر. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

والثاني: تَوَاباً أَي رَجَاعاً يُرْجِعُهُمْ، وَيُرْدُهُمْ عَنِ الْمَعَاصِي إِلَى أَنْ يَتُوبُوا، أَي هُوَ الَّذِي يُوَفِّقُهُمْ إِلَى ^(١) التَّوْبَةِ. [وَالثَّالِثُ: (٢)] قَالَ ﴿تَوَابًا﴾ وَلَمْ يَقُلْ غَفَّارًا، وَحَقُّ مِثْلِهِ مِنَ الْكَلَامِ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ غَافِقِينَ﴾ [نوح: ١٠].

وَلَكِنَّ الْمَعْنَى عِنْدَنَا أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ، لَيْسَ قَوْلُهُ: اسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَلَكِنْ أَنْ يَتُوبَ إِلَيْهِ، وَيُطْلَبَ مِنْهُ الْمَغْفِرَةُ بِالتَّوْبَةِ ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَابًا﴾.

[وَالرَّابِعُ] ^(٣): يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ إِضْمَارٌ؛ كَأَنَّهُ قَالَ ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ وَتُبَّ إِلَيْهِ ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَابًا﴾.

[وَالخَامِسُ: (٤)] يَجُوزُ ذِكْرُ ^(٥) الْإِسْتِغْفَارِ فِي السُّؤَالِ عَنْ ذِكْرِهِ فِي الْجَوَابِ اجْتِزَاءً ^(٦) بِذِكْرِ التَّوْبَةِ [مِنْهُ] ^(٧) فِي الْجَوَابِ عَنْ ذِكْرِهِمَا فِي السُّؤَالِ، وَيَجُوزُ مِثْلُ هَذَا فِي الْكَلَامِ.

ثُمَّ الدِّينُ اسْمٌ يَقَعُ عَلَى مَا يَدِينُ بِهِ الْإِنْسَانُ حَقًّا كَانَ أَوْ بَاطِلًا. وَعَلَى ذَلِكَ أَضَافَ النَّبِيُّ ﷺ مَا كَانَ يَدِينُ بِهِ إِلَى نَفْسِهِ وَمَا دَانَ بِهِ الْكُفْرَةُ إِلَيْهِمْ حِينَ ^(٨) قَالَ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكَافِرُونَ: ٦].

وَأَمَّا إِضَافَتُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى حِينَ ^(٩) قَالَ: ﴿يَدْعُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [الْآيَةُ: ٢] [فَهُوَ] ^(١٠) الدِّينُ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِهِ، وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ. لِذَلِكَ خَرَجَتْ الْإِضَافَةُ وَالنُّسْبَةُ إِلَيْهِ [وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ] ^(١١) [وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ] ^(١٢).



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَى. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: ثَم. (٣) وَ(٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: تَذَكَّر. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَاجْتَرَى. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) وَ(٩) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (١٠) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١١) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنْ م.

سورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أي خَسِرَتْ، وخَابَتْ. كذلك قال أبو عوسجة، يقال: تَبَّ يَتَبُّ تَبًّا وتَبَابًا. ثم ما ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ يَحْتَمِلُ حَقِيقَةَ الْيَدِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَكَرَ الْيَدَ عَلَى الصَّلَةِ. فَإِنْ كَانَ عَلَى إِرَادَةِ حَقِيقَةِ الْيَدِ، فَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِهِ.

أَحَدُهَا: مَا ذَكَرَ أَنَّهُ كَثِيرُ الْإِحْسَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِ وَالصَّنَائِعِ إِلَيْهِ. وَكَانَ يَقُولُ: إِنْ كَانَ الْأَمْرُ لِمُحَمَّدٍ يَوْمَئِذٍ فَيَكُونُ لِي عِنْدَهُ يَدٌ، وَإِنْ كَانَ لِقُرَيْشٍ فَلِي عِنْدَهَا يَدٌ، فَأَخْبَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُ خَسِرَ فِي مَا طَمِعَ، وَرَجَا مِنَ الْيَدِ الَّتِي لَهُ عِنْدَهُ وَالْإِحْسَانِ الَّذِي أَحْسَنَ إِلَيْهِ، إِذْ لَمْ يُصَدِّقْهُ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ، وَخَسِرَ أَيْضًا مَا ادَّعَى مِنَ الْيَدِ لَهُ عِنْدَ قُرَيْشٍ. وَالثَّانِي: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَبِي لَهَبٍ تَخْوِيفٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْبَطْشِ وَالْأَخْذِ بِالْيَدِ، فَأَمَّنَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ مِمَّا خَوَّفَهُ بِهِ حِينَ^(٢) قَالَ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أَي خَسِرَتْ يَدَاهُ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْبَطْشِ.

وَالثَّالِثُ: يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْيَدُ كِنَايَةً عَنِ الْقُوَّةِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي دَفْعِ الْعَذَابِ عَنْ نَفْسِهِ^(٣) لِقَوْلِهِمْ: ﴿عَنَّا أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥].

وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] جَمَعَ عَشَائِرُهُ الْأَقْرَبَ فَلَا اقْرَبَ مِنْهُمْ، وَقَالَ: «إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ تَفَعُّا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَقُولُوا شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ عِنْدَ ذَلِكَ: تَبًّا لَكَ يَا مُحَمَّدُ أَلِهَذَا دَعَوْتُنَا؟ فَتَزَلَّ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾» [بنحوه: البخاري ٤٧٧٠] مُجَازَاةً لَهُ.

فَهَذَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي فِعْلِهِ فِي الْقِصَّةِ اسْتِغْمَالُ الْيَدَيْنِ، فَيَجُوزُ أَنَّهُ كَانَ يَضْرِبُ النَّاسَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَبِيدُوهُ، أَوْ حِينَ دُعِيَ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى مَدَّ يَدَهُ عَلَى التَّعَجُّبِ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: أَلِهَذَا دَعَوْتُنَا، فَرَدَّ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ، وَغَيَّرَهُ بِهِ.

وَقَدْ يَجُوزُ، وَإِنْ [لَمْ^(٤)] يَظْهَرُ فِي الْجَوَابِ مُقَدِّمَةُ السُّوَالِ، وَإِنْ لَمْ يُذَكَّرْ ذَلِكَ فِي السُّوَالِ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾؟ [البقرة: ٢٢٢] فَعَلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ السُّوَالِ إِنَّمَا كَانَ عَنْ قُرْبَانِهِمْ فِي الْمَحِيضِ، فَكَذَلِكَ الْأَوَّلُ.

وَإِنْ كَانَ ذَكَرَ الْيَدَ عَلَى الصَّلَةِ فَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِينِ:

أَحَدُهُمَا: ذَكَرَ الْيَدَ كِنَايَةً عَنِ الْعَمَلِ وَالْفِعْلِ، إِلَّا أَنَّهُ ذَكَرَ الْيَدَ لِمَا بِالْيَدِ يَقُومُ، وَيَعْمَلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَمَّا قَدَّمْتُ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] [وقوله تعالى^(٥)]: ﴿يَمَّا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وَذَلِكَ عَلَى الْكِنَايَةِ عَمَّا كَانَ مِنْهُ مِنَ الصَّنِيعِ، أَوْ خَسِرَتْ أَعْمَالُهُ، وَيَطْلُثُ.

وَالثَّانِي: ذَكَرَ الْيَدَ عَلَى إِرَادَةِ قُدَامِ وَأَمَامِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] أَي أَمَامِهِ وَخَلْفِهِ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ مَا قَدَّمَ مِنَ الْأَعْمَالِ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَنْفُسِهِمْ. (٤) ساقطة من الأصل وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ.

ثم تخصيص أبي لهب بالذكر من بين سائر الكفرة يحتل وجوهاً:

أحدها: خصه بالاسم لأنه كان من الفراعنة والأكابر، وهو المقصود به، والفراعنة قد يُذكرون بأسمائهم لما هم المقصودون به، وإن كان من دونهم يشاركونهم في ذلك كذكر فرعون وعاد وحمود وغيرهم.

والثاني: كان شديد الهيبة والخوف، فذكره باسمه، وخصه به ليُعلم أن محمداً ﷺ لا يهابه، ولا يخافه، والله أعلم.

والثالث: أنه كثير الأيادي والصنائع يحق رسول الله ﷺ فلو كان الخطاب بهذا نعم الكفرة لكان يظن بما سبق منه من الأيادي أنه غير داخل تحت الخطاب، فخصه بالذكر ليُعلم أنه لا يغنيه من الله شيء.

ثم ذكره بالكنية يُخرج على وجوه:

أحدها: يحتل أن يكون بالكنية / ٦٥٦ - ب/ عرفت عند الناس، وبها كان^(١) معروفاً دون اسميه، فذكره بالذي كان معروفاً به.

والثاني: ما ذكر أن اسمه كان عبد العزى، فلم يرز أن ينسبه إلى غيره، وهو العزى، فذكره بالكنية لهذا.

والثالث: أنه غير بأشياء، وخوفه بمواعيد. فلو ذكره باسمه، فلعله يضرب ذلك الخطاب والوعيد الذي كان له إلى غيره لما شرك غيره في الاسم إذ^(٢) كانوا يُسمون أولادهم، ويُنسبونهم إلى أصنامهم، ولم يكن أحد شركه في كنية، فلا يمكنه التحويل إلى غيره.

وقيل: ذكره بالكنية يُخرج مخرج الوعيد له، أي تصير النار كالابن، وهو كالابن لها، وذلك لأن هذه الكنى إنما تُذكر في المتعارف على وجه التفاضل كما يقال: أبو منصور على رجاء أن يولد له ابن يُسميه^(٣) منصوراً.

ثم إن الله تعالى سَمَّى النار في بعض الآيات أمّاً للكافر كقوله: ﴿تَأْتِيهِمْ مَكَاوِدٌ﴾ [القارعة: ٩] وفي بعضها مولى حين^(٤) قال: ﴿تَوْلَيْكُمْ وَيَشِ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٥] فجاز أيضاً أن تكون النار إذا قربت منه، وانضمت إلى جحره، أن تصير في التمثيل كالولد، وتصير هو أباً لها، فقال: ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ على هذا الوجه من التأويل.

ووجه آخر، وهو أن ذكر الكنية، وإن كان يراد بها التعظيم، فعند ذكر المواعيد والعقوبات يراد بها الاستخفاف والإهانة، وهو على ما ذكر في البشارة أنها، وإن كانت تُذكر عندما يُبشّر، ويُبشّر في الأغلب؛ فعند ذكر العقوبة نذارة كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

فعلى ذلك الكنية، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ هذا يُخرج على وجهين:

أحدهما: أي لم يُغن ماله وقوته وما كسب من عذاب الله شيئاً على ما يقولون: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥].

والثاني: أي شيء ﴿أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾؟

ثم قوله تعالى: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يحتل الولد؛ أي ما أغنى عنه ما جمع من ماله وما كسب من الولد على ما ذكر في الخبر: روى أبو الأسود عن عائشة ؓ عن النبي ﷺ [قوله]^(٥): «إِنَّ أَطْيَبَ مَا يَأْكُلُ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنَّ ابْنَهُ مِنْ كَسْبِهِ» [النسائي ٧/ ٢٤١].

وسئل^(٦) ابن عباس ؓ أيا أخذ الرجل من ماله ولديه؟ فتلا: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتَاهُ وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الْذُّكْرُ﴾

(١) أدرج قبلها في الأصل: ما. (٢) في الأصل وم: إذا. (٣) في الأصل وم: يسمى. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم.

(٦) أدرج بعدها في الأصل وم: عن.

[الشورى: ٤٩] فهو مما وَهَبَ اللهُ لنا، فهم وأموالهم لنا، والله أعلم، ما أغنى عنه ما جَمَعَ من المال وما كَسَبَ من العمل والإنفاق الذي أنفق على الطمع الذي فعل، أي لم يُغْنِهِ شيئاً، أو ما كَسَبَ من صد الناس عن رسول الله ﷺ والدخول في دينه والإتباع له وسوء المقال الذي قال فيه.

وفي حرف ابن مسعود **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾** وقد تَبَّ **﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾** وما اكتسب.

الآية ٣

وقوله تعالى: **﴿سَيَصِلُنَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾** أي ذات الלהاب.

وفيه دلالة إثبات رسالته حين^(١) أخبر أنه **﴿سَيَصِلُنَّ نَارًا﴾** ولا يصلى النار إلا بعد ما يختم بالكفر، ثم كان كما أخبر؛ دل أنه علم ذلك بالله تعالى.

وفي هذه السورة دلتان أخريان تدلان على نبوته:

إحداهما: أن رسول الله ﷺ إنما قرأ هذه السورة عليهم بمكة حين لم يكن له ناصر في الدين، وكانت المنعة والقوة للكفرة، وكانوا جميعاً أولياء أبي لهب وأنصاراً له عن آخرهم^(٢). ولا يتخيل أن يكون محمد ﷺ يقرأ هذه السورة عليه، وفيها^(٣) سب له وتغيير إلى يوم القيامة مع قلة أوليائه وكثرة أعدائه؛ إذ فيه خوف هلاكه، إلا يرب^(٤) العالمين.

[والثانية:]^(٥) أنه ﷺ كان موصوفاً بحسن العشرة وجمال الصخبة مع الأجانب، فما ظنك بالتشيرة والاقارب؟ مع ما أنه كان ممتزهاً عن الفحش في جميع أوقاته.

فما جاز له هذا إلا بأمر من الله تعالى، فدل ذلك على نبوته ورسالته.

الآيتان ٤ و ٥

وقوله تعالى: **﴿وَأَمَّا رَأْتُمْ حَمَالَةَ الْخَطَبِ﴾** [في جديها حبل من مسد]^(٦) قال بعضهم: أي حمالة التسمية والحديث بين الناس، فأوعدها الله تعالى لذلك في الآخرة بما ذكر **﴿في جديها حبل من مسد﴾** وهي السلسلة، ومنه يقال: فلان يخطب إذا أغرى.

وقال بعضهم: كانت حمالة الخطب حقيقة؛ كانت تحمِلُ الخطب الذي فيه الشوك، وتطرّحه^(٧) في طريق رسول الله ﷺ والمسلمين، فأوعدها^(٨) الله تعالى بما ذكر من حبل من مسد في الآخرة.

ومنهم من قال: إنها كانت كذلك في الدنيا، تحمِلُ الخطب إلى منزلها، وكان في جديها حبل من ليف، فعيرها بذلك لأنها كانت تُعَيِّرُ رسول الله ﷺ بالفقر والحاجة.

وذكر أنها كانت تُمسِكُ في عنقها حبلًا من ليف سراً من زوجها، وذلك مما لا تتحلّى بها النساء، وليس هو من أسباب الزينة، فأخبر الله تعالى عن سفهها وجهلها ليكون ذلك سباً وتغييراً مجازاة لما كانت تقول في رسول الله ﷺ وكذلك قالت لأبي بكر الصديق **﴿أما رضي محمد أن يهجو عمه حتى هجاني، أو قالت: حتى هجاني رب محمد﴾** [والله أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين]^(٩).



(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: إخراجهم. (٣) في الأصل وم: وفيه. (٤) أي: بإذن رب. (٥) في الأصل وم: ومعنى آخر. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وتطرّح. (٨) من م، في الأصل: فأوعده. (٩) في م: صلى الله تعالى عليه وسلم.

سورة الإخلاص

[وهي مكية^(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ دُكِرَ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ نِسْبَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقِيلَ: عَنْ صِفَتِهِ، وَقِيلَ: عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، مَا هُوَ؟ فَتَزَلَّتْ هَذِهِ السُّورَةُ مُغْلَمَةً لِجَمِيعٍ مَنِ سَأَلَ عَنْهُ جَوَابَهُ، وَلِلَّذَلِكَ أَثَبَتْ: ﴿قُلْ﴾ لَتَكُونَ مُخَاطَبَةٌ كُلِّ مَسْئُولٍ عَنْ ذَلِكَ أَنَّ ﴿قُلْ﴾ لَا عَلَى تَخْصِيصِ الرَّسُولِ ﷺ بِهَذَا الْأَمْرِ؛ إِذْ لَيْسَ فِي حَقِّ الْإِثْمَارِ بِالْأَمْرِ إِعَادَةُ حَرْفِ الْأَمْرِ فِي الْإِثْمَارِ، فَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى تَخْصِيصِ الرَّسُولِ ﷺ بِالتَّعَلُّمِ، بَلْ هُوَ أَحَقُّ مَنْ سَبَقَ لَهُ الْغِنَى عَنْ تَعَلُّمِ الإِجَابَةِ بِهَذَا عِنْدَ حَضَرَةِ هَذَا السُّؤَالِ، كَمَا سَبَقَتْ مِنْهُ الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِحَقِيقَةِ مَا جَرَى بِهِ السُّؤَالُ، وَكَمَا أَثَبَتْ ذَلِكَ^(٢) لِيُقَرَّأَ أَبَدًا.

وَحَقُّ الْمَخْصُوصِ / ٦٥٧ - أ / بِالْأَمْرِ أَنْ يَأْتِيَ، وَلَا يَجْعَلْ ذَلِكَ مَثَلًا كَذَلِكَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَا يَحْتَمِلُ الْمَأْمُورُ الْأَمْرَ بِهِ. ثَبَّتَ أَنَّ ذَلِكَ عَلَى مَا شَاءَ.

وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ﴾ أَنَّهُ عَلَى أَمْرِ سَبَقَ عَنْهُ السُّؤَالُ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ إِجَابَةٌ لِمَا سَبَقَ عَنْهُ السُّؤَالُ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ مَا فِي الْقُرْآنِ: ﴿قُلْ﴾ فِيهِ^(٣) أَحَدُ أَمْرَيْنِ: إِمَّا إِجَابَةٌ عَنْ أَمْرِ سَبَقَ عَنْهُ السُّؤَالُ، فَيَنْزِلُ بِحَقِّ تَعْرِيفِ كُلِّ مَسْئُولٍ عَنْ مِثْلِهِ [وَأَمَّا أَنْ]^(٤) يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى إِذْ عَلِمَ أَنَّهُ ﷻ أَوْ مَنْ يَتَّبِعُهُ يَسْأَلُ عَمَّا يَقْتَضِي ذَلِكَ الْجَوَابَ، فَأَنْزَلَ مَا بِهِ يَبْقَى فِي أَهْلِ التَّوْحِيدِ مَنَّا مِنْهُ وَقَضَلًا. ثُمَّ لَمْ يَجِبْ تَحْقِيقُ الْحَرْفِ الَّذِي وَقَعَ عَنْهُ السُّؤَالُ إِلَّا لِمَنْ شَهِدَ، وَسَمِعَ، وَقَدْ يَتَوَجَّهُ هَذَا الْحَرْفُ الَّذِي وَقَعَ عَنْهُ إِلَى مَا ذَكَرُوا مِنَ الْأَسْبَابِ وَغَيْرِهَا، وَفِي مَا نَزَلَ يَصْلُحُ جَوَابَ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَيَلِيقُ بِهِ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَشْهَدُ عَلَى حَقِيقَةِ مَا كَانَ أَنَّهُ ذَا دُونَ ذَا، وَنَجِيبُ بِذَلِكَ لَوْ سُلِّطْنَا عَمَّا ذَكَرْنَا وَعَنْ كُلِّ حَرْفٍ يَصْخُ فِي الْعَقْلِ، وَالْحِكْمَةُ الْجَوَابُ بِمِثْلِ مَا اقْتَضَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ﴾ اخْتَلَفَ فِي تَأْوِيلِهِ: مِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ: هُوَ إِضَافَةٌ إِلَى الَّذِي عَنْهُ كَانَ، أَوْ يَكُونُ السُّؤَالُ الْمُقْتَضِي مَا جَرَى بِهِ الْبَيَانُ مِنَ الْجَوَابِ الَّذِي يَسْأَلُونَ عَنْهُ: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿اللَّهُ الصَّكْدُ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ.

ومنه من قال: هُوَ اسْمُ اللَّهِ أَكْبَرُ؛ يُرَوَى ذَلِكَ عَنْ بَعْضِ أَوْلَادِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دَعَائِهِ: يَا هُوَ، يَا مَنْ لَا هُوَ إِلَّا هُوَ، يَا مَنْ بِهِ كَانَتْ هُوِيَّةُ كُلِّ هُوَ، وَذَلِكَ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ هُوَ بِذَاتِهِ وَهُوِيَّةُ كُلِّ مَنْ سِوَاهُ لِمَا هُوَ يَكُونُ مُخْتَمِلًا لِلثَّلَاثِي وَالْوُجُودِ إِلَّا هُوَ، سُبْحَانَهُ لَمْ يَزَلْ، وَلَا يَزَالُ هُوَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] عَلَى مَا اقْتَضَى بَيَانُ وَحْدَانِيَّتِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ. وَعَلَى ذَلِكَ قِيلَ: هُوَ الْأَحَدُ بِذَاتِهِ، الْمُشَيِّئُ أَحَدِيَّةُ كُلِّ الْأَحَادِ، الْمُتَعَالِي عَنْ كُلِّ مَعَانِي أَحَدِيَّةٍ مِنْ سِوَاهُ.

والثَّانِي: أَنْ تَكُونَ إِضَافَتُهُ إِلَى اسْمِهِ الَّذِي لَا يَحْتَمِلُ اللَّسَانَ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَطْلُغْ عَلَيْهِ الْخَلَائِقُ، وَهُوَ الَّذِي يُرَادُ فِي الدَّعَاءِ: بِاسْمِكَ الَّذِي مِنْ سَالِكٍ بِهِ أُعْطِيَتْهُ وَمَنْ دَعَاكَ بِهِ أَجَبْتُهُ، فَيَكُونُ السُّؤَالُ مِمَّا يَكُنَى عَنْهُ مِنَ الْوُجُو [الذي]^(٥) ذَكَرْتُ لَا أَنْ يَسَعَهُ اللَّسَانُ، أَوْ يَحْتَمِلُ الطُّوقُ الْقُوَّةَ بِهِ، تَعَالَى.

(١) فِي الْأَصْلِ: وَهِيَ، سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: كَذَلِكَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا فَيهِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

والتأويل الأول أقرب إلى الأفهام وأحق أن يكون على ذكر من يقتضي عنه السؤال، ثم التفسير على ما جرى.

وقوله تعالى: ﴿الله﴾ اختلف في المعنى الذي جرى هذا في حق أهل هذا اللسان في وجهين:

أحدهما: ما قال قوم: ^(١) إنه مما اشتق من أمر عرفوه أولاً عن أمر عرفوه؛ إذ في كل لسان ما أريد به عند الذكر لبيان العرب اسم يدعى به، ويسمى، وإن اختلف وزن كل من ذلك على اختلاف الألسن ليُعلم أن الأحرف والتقطيع في التكلم إنما هي ^(٢) ليُفهم المقصود لا على توهم حقيقة الاسم بتلك الحروف والتقطيع؛ وذلك كما يُعبر عن تكوينه الخلاق بـ: ﴿كن﴾ لا على تحقيق كاف ونون في التكوين. فعلى ذلك جميع ما يسمي الله تعالى لا على تحقيق [الحروف التي] ^(٣) يجري بها التسمية، ثم لا يَحتمل طوقه إلا بها، لكن على ما يقرب إلى الأفهام المراد في التقوُّه به.

[والثاني: ما] ^(٤) قال قوم: ﴿الله﴾ هو المعبود في لسان العرب لا على الاستحقاق، لكن على وضع ذلك كذلك. دليله تسميته كل من عبده وكل شيء عبده إلهاً، وإن كان جميع ما سوى إله الحق ممن عبده لا يَحتمل شيئاً من تلك المعاني التي زعم من ادعى الاشتقاق عنها من الإيجاب والإلجاء إليه ونحو ذلك. فثبت أنه اسم موضوع للمعبود.

وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوًى﴾ [الفرقان: ٤٣] أي معبوده ما يهواه لا أن للهوى شيئاً من ذلك، فيكون المعبود الحق، هو الله تعالى لما له في كل شيء أثر عبودية ذلك الشيء ودلالة الربوبية له عليه، سبحانه، هو المعبود بذاته لمعنى مستحق بذاته العبادة من جميع خلقه والاستسلام له والخضوع بما ذكرته من الموضوع في كل آية ذلك، ولا قوة إلا بالله.

وهذا تحقيق ما ذهبنا إليه أنه خالق بذاته رحمان رحيم بذاته موصوف به في الأزلي، وإن كان الذي وصل إليه أثر رحمته، وفيه ظهور دلالة تديرو، حدث بعد أن لم يكن على ما كانت العبادة والاستحقاق كان ممن حدث وفي من كان بعد أن لم يكن، وهو إله، لم يزل، ولا يزال.

وعلى ذلك قوله ﷻ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] [وقوله: ^(٥) ﴿وَمَوْزِبُ كُلِّ شَيْءٍ﴾] [الأنعام: ١٦٤] وإن كان من الأشياء ما سيكون لا أنها كانت كائنة، وكذلك يوم الدين، فعلى ذلك أمر خالق ونحو ذلك.

ومن هذا الوجه أنكر قوم أن يكون الإله اسم معبود في الحقيقة أو اسم مشتق عن لسان؛ إذ هو لم يزل إلهاً، ومن به العبادة وعنه الاشتقاق حادث.

والأصل عندنا ما ذكرنا أنه بجميع ما وُصف بذاته؛ إذ لا يَحتمل التغير والاستحالة ولا نيل مدح بغير مُدَح، وإنما يُمدح به لذاته لأنه استحق من كل ذلك الوقت كون ذلك القول بالعالم والقادر أنه كذلك، وإن كان الذي علمه ممن سواه، وكل مقدور عليه حادث بعد أن لم يكن، ولا قوة إلا بالله.

وقال الضحاك: ﴿الله﴾ اسمه الأكبر لأنه يتبدأ به في كل موضع.

ثم اختلف في معنى الاشتقاق؛ فمنهم من يقول: أصله إله من إله الرجل إلى آخر، أي التجأ إليه، واستجاره، فآلهة بمعنى أجاره، وآمنه، فسمي إلهاً على وزن الفعل كما يسمي إماماً لما يؤتم به، وفُحْم ^(٦) بإدخال الألف واللام، ثم لِين، وحذفت الهمزة كما هو لغة قريش، ثم أذغيم أحد اللامين في الآخر، فشدَّد، فصار الله.

وعلى ذلك تأويل الصمد أن يضمَد إليه في ^(٧) الحوائج، ويُسْتَغاث به، ويُلْتَجأ إليه.

وقيل: إن اشتقاقه من وَلَ يَالَهُ وَلَهَا، إذا فزع إليه [فسمي به لأنه المفزع إليه] ^(٨) وهو قريب من الأول، ولكن حق ذلك في الاسم أن يكون ولاهاً، فأبدلت الواو ألفاً كما يقال في وكاف: إكاف، وكذلك أهل الحجاز يجعلون الواو ألفاً. قال الشاعر:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) في الأصل وم: الحرف الذي. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) يقصد جملة علماء للخالق. (٧) في الأصل وم: و. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

فَأَنْبَلَتْ إِلَيْهَا تُكَلِّى عَلَى عَجَلٍ [كُلُّ دُعَايَا، وَكُلُّ عِنْدَهَا اجْتَمَعَا] ^(١)
وَقِيلَ: سُمِّيَ بِهِ لِأَنَّهُ إِلَهٌ كُلُّ شَيْءٍ، أَيْ ذَلُّهُ، وَعَبْدُهُ؛ تَأَلَّاهُ أَيْ عَبْدَهُ. قَالَ قَائِلُهُمْ:

إِلَهَ إِلَهَكَ وَاحِدًا مُتَّفَرِّدًا سَادَ الْمُلُوكَ بِعِزِّهِ، وَتَمَجَّدَا
وَقَالَ آخَرُونَ: سُمِّيَ بِهِ لِاسْتِثْنَائِهِ، وَمِنْهُ يُقَالُ: لَيْتَ، فَلَا تُرَى. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

لَا رَيْبَ مِنَ الْخَلَائِقِ طَرًّا خَالَقُ الْخَلْقِ لَا يُرَى، وَيَرَانَا

وَقِيلَ: سُمِّيَ بِهِ لِتَحْيِيرِ الْقُلُوبِ عَنِ التَّفَكُّرِ فِي عَظَمَتِهِ كَقَوْلِهِ: الْإِلَهِي الشَّيْءُ حَتَّى إِلَهْتُ، وَمِنْهُ مَفَاذَةٌ مُلْهِيَةٌ؛ يَعْنِي الْعَقْلَ
يَحَارُ عِنْدَ النَّظَرِ إِلَى عَظَمَتِهِ، وَمِنْهُ إِلَهٌ يَأَلُّهُ، فَهُوَ إِلَهٌ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

وَبَيْنَمَا تَبِو تَأَلُّ الْعَيْنُ وَنَظَرُهَا مُحَقَّقَةٌ أَصْلَامَ بَيْدَاءَ سَمَلَتِي

قَالَ ﷺ: وَالْأَصْلُ عِنْدَنَا الْإِغْضَاءُ عَنْ هَذَا لِمَا أَنَّ الْحَاجَةَ إِلَى تَعَرُّفِ الْإِشْتِقَاقِ وَالْوَضْعِ لِتَعَرُّفِ مَحَلِّ الْأَمْرِ وَمَوْجِ
الْحُكْمِ وَمِنْ جَمِيعِ مَا اشْتَقُّوا بِهِ الْإِسْمَ تَحْتَمِلُ تَسْمِيَةَ الْغَيْرِ بِكُلِّ ذَلِكَ وَتَحْقِيقُ الْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ وَتَسْمِيَتُهُ إِلَهًا أَوْ إِضَافَةً مَا بِهِ
عُرِفَ الْحَقِيقَةُ لَا يَحْتَمِلُ غَيْرَهُ، ﷺ وَلَا تَجُوزُ التَّسْمِيَةُ بِهِ. ثَبَتَ الْغِنَى فِي مَعْرِفَتِهِ عَنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ الَّتِي أُريدَ الْإِسْتِخْرَاجُ؛ إِذْ
هِيَ طَرِيقٌ تَوْصِلُ بِهِمْ إِلَى الْعِلْمِ بِالْمَقْصُودِ وَالرُّقُوفِ عَلَى الْمُرَادِ، وَقَدْ عُرِفَ دُونَ الَّذِي ذَكَرُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالْأَصْلُ عِنْدَنَا / ٦٥٧ - ب/ أَنَّ اللَّهَ ﷻ يُلْطَفُ بِمَنْعِ الْخَلْقِ عَنْ تَسْمِيَةِ أَحَدٍ إِلَهًا إِلَّا مِنْ جِهَةِ أَحْوَالٍ تَغْتَرِضُ، فَسَمُّوا بِهِ
عَلَى مَعْنَى جَعْلِ الْإِسْمِ الَّذِي جَرَتْ التَّسْمِيَةُ بِهِ حَقِيقَةً لَهُ، فَسَمُّوا ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ بِذَلِكَ التَّوَسُّلَ وَالتَّقَرُّبَ لَا أَنَّ يَرَوُا الشَّيْءَ مِنْ
ذَلِكَ حَقِيقَةً ذَلِكَ، بَلْ قَالُوا: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وقالوا: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾
[يونس: ١٨] وقالوا: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] لِيُعْلَمَ أَنَّهُمْ عَرَفُوا اللَّهَ بِمَا ادَّعَوْا لِنَفْسِهِمْ فِي ذَلِكَ مَعَانِي، تَرُدُّهُمْ
إِلَى اللَّهِ ﷻ فَذَكَرُوا مَجَازًا عَنْ أَحَدٍ لِسَانَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ:

[أَحَدُهُمَا: عَنْ] ^(٢) لِسَانِ الرِّسَالِ فِي ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أُمُورٍ تُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾
[النساء: ٥٩] وَقَوْلِهِ ^(٣): ﴿إِنْ تَصْرَفُوا إِلَى اللَّهِ فَإِنَّ تَصْرَفَكُمْ﴾ [محمد: ٧] وَقَوْلِهِ ^(٤): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]
وَصَفَتْ مُبَايَعَةَ الْعَبِيدِ وَنُصْرَةَ أَوْ نُصْرَةَ دِينِهِ نُصْرَةَ اللَّهِ وَمُبَايَعَتَهُ بِمَا يَقْرُبُ ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَعَلَى ذَلِكَ تَسْمِيَتُهُمْ مَنْ عَبَدُوهَا لَا أَنَّهُمْ
رَأَوْهَا ^(٥) أَلَهَةً فِي الْحَقِيقَةِ.

[وَالثَّانِي] ^(٦): عَنْ أَلْسِنِ الْفَلَاسِفَةِ أَنَّ لِسَانَ اللَّهِ اسْمٌ ذَاتِيٌّ، وَإِنَّمَا هُوَ سُمِّيَ بِذِكْرِ كُلِّ ذِي شَرَفٍ وَمَنْزِلَةٍ عِنْدَهُ، فَعَلَى ذَلِكَ
أَنَّ مَحَلَّ مَنْ يَعْبُدُونَ عِنْدَهُمْ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْقَوْلِ عَنْهُمْ، فَسَمُّوا بِهِ لَا أَنَّ حَقَّقُوا كَمَا ذَكَرُوا حَقِيقَةَ ذَلِكَ الْإِسْمِ إِلَى مَنْ عَرَفُوهُ
أَنَّهُ إِلَهٌ رَدُّوا أَمْرَهُمْ فِي ذَلِكَ؛ وَذَلِكَ لُطْفٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَا سَخَّرَهُمْ عَلَيْهِ كَتَسْمِيَةِ الْخَالِقِ وَالرَّحْمَنِ أَنَّهُمْ لَا يُسَمُّونَ أَحَدًا
بِهِمَا، وَإِنْ كَثُرَتْ أَفْعَالُهُ، وَعَظُمَتْ رَحْمَتُهُ فِي الْخَلْقِ لِيُعْلَمَ أَنَّهَا أَسْمَاءُ اللَّهِ تَعَالَى، مَنْعَ الْخَلْقِ عَنِ التَّسْمِيَةِ بِهَا بِاللُّطْفِ مَنْ
حَيْثُ لَا يُعْرِفُ سَيِّئَهُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ ﷻ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أَيْ الْأَمْرُ، هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ كَمَا تَقُولُ: إِنَّهُ زَيْدٌ قَائِمٌ، أَيْ الْأَمْرُ، زَيْدٌ قَائِمٌ، جَوَابٌ مَنْ
يَسْأَلُكَ مَا الْأَمْرُ وَالشَّأْنُ [فِي أَنْ] ^(٧) قُمْتَ ههنا؟ فَتَقُولُ: الْأَمْرُ زَيْدٌ قَائِمٌ، أَيْ قُمْتُ لِأَجْلِهِ. إِلَى هَذَا يَذْهَبُ الرَّجَاجُ؛ كَأَنَّهُ
يَذْهَبُ إِلَى أَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَقِيلَ لَهُ: مَا الْأَمْرُ وَالشَّأْنُ؟ قَالَ ^(٨): الْأَمْرُ اللَّهُ أَحَدٌ لِيَعْرِفُوا أَنَّهُ كَذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَحَدٌ﴾ يَتَوَجَّهُ إِلَى وَاحِدٍ، ثُمَّ وَاحِدٌ اسْمٌ يَنْفِي الْمِثْلَ فِي الْإِضَافَةِ. كَمَا يُقَالُ: هُوَ وَاحِدُ الزَّمَانِ

(١) هذا عجز البيت وهو للأعشى الأكبر ميمون بن قيس، انظر الديوان ص ١٠٥. (٢) في الأصل وم: إما. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في
الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: رأوا. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فإن. (٨) في الأصل وم:
فقال.

وواحدُ الخَلْقِ على نَفْيِ التشبيهِ له عما أُضيفَ إليه، ويكونُ واحداً من حيثِ العَدَدُ بما عن مثله يُبتدأُ الحسابُ، ولا يُبتدأُ من أحدٍ، فَيَصِيرُ أحداً من ذا الوجهِ، وإن كانَ اللهُ تعالى بأيِّ حَرْفَيْنِ ذُكِرَ، ففيه ذلكُ، وهو الواحدُ الذي يَسْتَحِيلُ أن تكونَ وحدانيتهُ من وَجْهِ يَحْتَمِلُ ثانياً أو من وَجْهِ تَعْدِيلٍ؛ هو الواحدُ الإلهُ الخالقُ المُتَعَالِي عن مَغْنَى الأعدادِ والأندادِ، وهو على ما ذَكَرَ الحكيمُ في الأحادِ أنه أربعة^(١):

واحدٌ: [هو كُلُّ، لا يَحْتَمِلُ التَّضْعِيفَ^(٢) لإحالةِ كونه وراءَ الكلِّ.

وواحدٌ^(٣): هو الأقلُّ، وهو الذي لا يَحْتَمِلُ التَّنْصِيفَ والتَّجْزِئَةَ لأنه أقلُّ الأشياءِ، فإذا يُصَفُّ يكونُ ذلكُ النُّصْفُ أقلَّ منه.

وواحدٌ: هو واسطٌ، وهو الذي يَحْتَمِلُ التَّنْصِيفَ والتَّضْعِيفَ جميعاً.

والرابعُ: هو الذي^(٤) قامَ به الأحادُ؛ هوَ ولا هوَ أخفى من هو [هو]^(٥) الذي انْحَرَسَ عنه اللسانُ، وانْقَطَعَ عنه البيانُ، وانْحَسَرَتْ عنه الأوهامُ، وحَارَتْ فيه الأفهامُ. فذلك اللهُ ربُّ العالمينَ.

والأصلُ في ذلك أنه لا سَبِيلَ إلى العبارةِ عنه بِغَيْرِ هذا اللسانِ [ولا وَجْه]^(٦) لِلتَّقْرِيبِ إلى الأفهامِ بهذا اللسانِ إلا بما جَرَى به الإغتيادُ، وظَهَرَتْ به المعارفُ في ما ذَكَرْنَا مِنَ الضَّرورةِ جعلِ التَّوْحِيدِ في الحقيقةِ بالأدلةِ وبالبراهينِ في ضَمَنِ التَّشْبِيهِ في عبارةِ اللسانِ، وَحَقُّهُ بما أَخْبَرَتْ من ضَروراتِ الأحوالِ في إرادةِ التَّقْرِيبِ إلى الأفهامِ إلى عباراتِ اللسانِ المؤسَّسِ^(٧) على الإغتيادِ في إظهارِ المعارفِ، فَعَلَى ذلك القولُ بواحدٍ وبأحدٍ لا على أَحَدِيَّةٍ غَيْرِهِ من جِهَةِ التَّوَسُّطِ أو [إمين]^(٨) جِهَةِ القِلَّةِ أو [إمين]^(٩) جِهَةِ الكثرةِ مع ما كُلُّ مَنْ هو في مَغْنَى واحدٍ، فهو واحدُ الأحادِ المُجْتَمِعَةِ إلى الواحدِ الذي يُقالُ: جُزْءٌ، لا يَتَجَزَّأُ، وهو: مِنْ غَيْرِ في الجملةِ مُتَجَزَّئٌ عن تَوْحِيدِ ذلك الجُزْءِ، غَيْرُ مُتَجَزَّئٍ في الوَهمِ، أو هو الأقلُّ منه، وهو جُزْءٌ في الحقيقةِ، واللهُ يَتَعَالَى عَنِ الوُصفِ بالكلِّ والبعضِ والقليلِ والكثيرِ والواحدِ ممَّا لَهُ حقُّ الإِبْعاضِ أو الكلِّ أو رُثْبَةُ القليلِ والكثيرِ، جَلَّ ثَنَاؤُهُ.

بل هو الذي [جَمَعَ جميعاً]^(١٠) ما وَصَفْتُ، بل هو الذي خَلَقَ ما وَصَفْتُ، وَجَعَلَ لكلٍّ من ذلك مُقَابِلاً بما ذَكَرَ لِيَصِيرَ كُلٌّ مِنْ ذلكَ رَواجاً، فَتَكُونُ الْوَحْدَانِيَّةُ الْحَقُّ لَهُ، ولا قُوَّةُ إِلَّا باللهِ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَكْثَرُ﴾ قد ذَكَرَ أنه أحدٌ، وذَكَرَ أنه الصَّمَدُ في تحقيقِ ما وَصَفَ مِنَ الْأَحَدِيَّةِ، وهو، واللهُ أَعْلَمُ، أنه أَخْرَجَ جَمِيعَ مَنْ سِوَاهُ حَتَّى تَحَقَّقَ قَضْدُ جَمِيعِ مَنْ سِوَاهُ بِالْحَاجَاتِ إِلَيْهِ بِالْكُونِ فِي الْخَلْقِ وَفِي الصَّلَاحِ بَعْدَ الْكُونِ وَفِي الَّذِي، به الدَّوامُ بَعْدَ الْوُجُودِ وَالْوُجُودُ بَعْدَ الْعَدَمِ، ما اخْتَمَلَ الْوُجُودُ دُونَهُ وَلَا الْبَقَاءُ إِلَّا بِهِ، أَحَاطَتْ الْحَاجَاتُ بِكُلِّ لِيَكُونَ لَهُ الْغَنَى عَنِ الْكُلِّ فِي الْوُجُودِ وَالْبَقَاءِ لِيَتَحَقَّقَ أَنَّهُ الْمَوْجُودُ بِذَاتِهِ [والباقِي بِذَاتِهِ وَالمَتَعَالِي بِذَاتِهِ]^(١١) عَنْ مَغْنَى وُجُودِ غَيْرِهِ، سُبْحَانَهُ، وهو ما ذَكَرْنَا مِنْ عَجْزِ الْأَلْسِنِ عَنِ الْبَيَانِ عَنْهُ بِالْعِبَارَةِ إِلَّا عَلَى التَّقْرِيبِ إِلَى الْأَفْهَامِ بِالْمَجْعُولِ مِنْ آثَارِ [هُوِيَّةِ الْوُحْيِيَّةِ]^(١٢) فِي جَمِيعِ الْأَنَامِ.

ثم قِيلَ فِي ﴿أَكْثَرُ﴾ بِوُجُوهٍ، تُرْجَعُ جَمِيعُ ذلكَ إِلَى ما يَبَيَّنَا:

أحدها: السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ انْتَهَى سُؤْدُدُهُ، وَمَعْنَى ذلكَ الْمَفْهُومُ^(١٣) مِنَ السُّؤْدُودِ فِي صَرْفِ الْحَوَائِجِ إِلَيْهِ وَرَجَاءِ كُلِّ الْمَحَاجِجِ إِلَيْهِ.

(١) في الأصل وم: أربع. (٢) أي التعدد. (٣) من م، في الأصل: واحد. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: والأوجه. (٧) من م، في الأصل: المؤتسبن. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل: جمع، في م: جميع. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: في المتعالي. (١٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: هويته. (١٣) من م، في الأصل: في المعنى.

والثاني: في أن لا جوف له، وذلك في وصف الوحدانية والتعالى عن معنى أحدية غيره من اجتماع أجزاء، مُمكن بها الفَرْج والثَقُوب^(١) التي لا كالأجواف، أو على ما فُسِّرَ قومٌ بالذي هو ظاهر [في]^(٢) ظاهر العبارة مَخْرُجُ الكتاب، وهو الذي ذَكَرَ على أثره، وهو قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأن كل ذي الكون ذو جوف، عنه يتولد الأولاد، ويكون في ذلك إحالة قول من نُسِبَ إليه الولد.

فقول: كيف يكون له ولد، وقد تعلمون أنه ليس بذي جوف كما قال: ﴿يَبْلُغُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ مَرْجِيَّةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] في قوم نزهوه عن الصاحبة، وهم لم يشهدوا الولادة إلا عن ذي جوف؟ فيكون في هذا نقض قول هذا الفريق فيه بالولاد بما نزهوه عن الجوف كما في الأول بما برؤوه عن الصاحبة.

[والثالث: (٣)] بما لذي الأجواف من الحاجات، فيرجع إلى التأويل الأول أن المضمود إليه بالحوائج.

وظن قوم أنه إذا نفى عنه الجوف يثبت أنه مُضَمَّتْ، وذلك معنى اجتماع أجزاء، تتداخل، فتكثر كذي الجوف، هو اجتماع أجزاء، تنفك.

إذا تحقق التنزيه عن أحد الوجهين تحقق التنزيه عن الوجه الآخر [إذا]^(٤) في الوجهين نفى الوحدانية وتحقيق ازدواج الأجساد مع ما قد تنفى عن أشياء أمور، لا تتحقق لها المقابلة كما ينفي عن الأعراض السمع والبصر والعلم لا على إثبات مقابليتها بما علموا أن الأعراض لا تختمل الإغترافات. فعلى ذلك العلم بوحداية الله تعالى والتنزيه عن احتمال الازدواج^(٥) يُحقق القول الذي ذُكرت.

وقد قيل في الصمد: إنه الدائم / ٦٥٨ - أ / وذلك أيضاً يرجع إلى ما ذُكرت أنه لا يَحْتَمِلُ التَّغْيِيرَ وَالِاسْتِحَالَةَ وإصابة أثر الحاجة، وهو الصمود إليه بالحوائج.

وقد قال قائل في التأويل الأول:

لَقَدْ بَكَرَ النَّاصِي بِخَيْرِي بَنِي أَسَدٍ بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ^(٦)

ويقال: صمدت إلى فلان، أي قصدت إليه، وهذا يوضح معنى الصمد، أي يضمّد إليه في الحوائج.

الآيتان ٣ و ٤ وقيل في ذلك: إن الصمد، تأويله: ﴿لَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

قال الشيخ أبو منصور رحمته: الأصل أنه، تعالى، أعظم القول بالولاد ما عظم يجعل الشركاء؛ وذلك أن معنى الولاد أن يكون بجوهر من له ولد، فيكون بذلك شريكاً، وذلك ينفي التوحيد. فعلى ذلك القول بالولاد. ولذلك أعظم القول به، والزوم^(٧) من عرفه بالأدلة القول ببراءته عن الولاد كما يثبت [نفى]^(٨) الاشتراك من الوجه الذي بينا، وقد شهد العالم بكليته بحق الخلق على الله، تعالى منشؤه عن الشركاء والأشياء جميعاً، فيبطل القول بالذي ذكرنا مع ما كان جميع الخلائق على الإشارة إلى كل، منه يَحْتَمِلُ الازدواج، ومنه يكون التوالد، والله متعالٍ عن ذلك.

وبعد فإن كلام العالم على الإشارة إلى أحد متولد عن غير أو يتولد منه غيره، وهما أمران راجعان إلى ما عليه خلق هذا العالم، وعليه موضوعهم، وقد ثبت تعالى عن جميع معاني غيره، إذ كل غير، له بجميع معانيه حدث بعد أن لم يكن أتى عليه تدبير غيره، وجرى عليه تقدير سلطان^(٩) غيره. والله، تعالى، لو كان يتوهم شيء من ذلك فيه، يُسْقِطُ لَهُ الألوهية، ويُحَقِّقُ لَهُ الحاجة إلى غيره، ويوجب جزئي تقدير^(١٠) سلطان غيره عليه؛ وهذا يوجب غيراً خارجاً [عن]^(١١) هذه المعاني حتى تسلم الأدلة له على حد الموضوع، وتصفو له الشهادة على ما قامت، وأنطق بالخلق وبما فيه من الحكمة، ولا قوة إلا بالله.

(١) في الأصل وم: الثقب. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: وقيل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الأزواج. (٦) القائل هو سبرة بن عمرو الأسدي، انظر مجاز القرآن ٣١٦/٢. (٧) جاء بعدها في الأصل وم: على. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: سلطانه. (١٠) في الأصل وم: بعد. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وعلى ذلك ختم السورة [بقوله]: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كُفْرًا أَحَدٌ﴾^(١) أن ليس له أحد كُفِرَ لأنه [بالخلق]^(٢) من ذلك يوجب المماثلة، وفي المماثلة اشتراك، وقد ثبت فساد العالم بتوهم الاشتراك في تديبره، وقد لزم التعالي عن المعاني التي لا لزواج بها يقوم التدبير، ويجري سلطان التدبير.

وجائز أن يكون مخرج السورة في تحقيق نعت من قد عرفوه بإحدى [خصلتين]:

[إحدهما: (٣)] بالتلقين لكل عن كل إلى أن ينتهي ذلك إلى علام الغيوب؛ فسخرهم بذلك، وأنشأهم على ذلك حتى أيقن من جحد ذلك أنه بعد تلقين متوارث^(٤) ظاهر، لا يحتمل مثله الخطأ في حق توارث الأمور بما يبطل المعارف كلها، بأسرها أنشأوا، وبها تعاملوا، وذلك كأول علوم الخلق وكالشيء المطبوع الذي لا يستطيع جحد إلا بما به لعله^(٥) الطباع المخلوقة على جهة الرياضة وأنواع الجبل.

والثانية^(٦): بالتأمل فيها في كل جزء من أجزاء العالم من الأدلة عليه والشهادة له، فبين بالآية أن الذين عرفوه بأحد الوجوه التي ذكرنا نعتهم بكذا ليقطع به توهم المثل له أو العذل في أمر ليغرفوا أن القول بغير خارج عن الوجوه التي ذكرنا وأنه يرجع إلى ضرب [من] (٧) التلقين، ليس له حق الطباع ولا حق التلقين الذي له صفة الكفاية^(٨) والكلي في التلقين ولا في حق شهادة الكل بذلك التأمل والتفكير، فيمتنع عن ذلك، ويرجع إلى حقيقة ما جرى [به]^(٩) التعت دون غيره مما لغوا فيه، يرجع إلى تلقين من ذكر وتليس بلا حجة. لذلك لا يضاهي شيئاً مما ذكرت مع ما في كل ذلك جميع ما في غير ذلك إحالة الألوهية من كل الوجوه من شهادة الخلقة والحاجة فيها إلى غيره من الإيجاد والإبقاء، وهو الأحد بما لا دليل لغيره، بل في ذلك إحالة الألوهية من كل الوجوه الثلاثة؛ وهو الصمد بمعنى المضمود إليه في الحوائج، المالك لقضاها، وهو الذي ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وهو المتعالي عن احتمال ولاد فيه ومنه لما ذكرت من فساد الألوهية الثابتة بما ذكر من الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كُفْرًا أَحَدٌ﴾ لما في كل أحد سواه الوجوه التي منها يعرف سلطان غيره عليه وأنه دليل لمن دل له كل شيء على السواء، ولا قوة إلا بالله، ومنه الاستهداء.

ولما ذكرت سميت هذه السورة سورة الإخلاص أنها في إخلاص التوحيد لله ونفي الأشياء والشركاء في الإلهية والربوبية، وأن كل شيء سواه مربوبه ومملوك له، ولا قوة إلا بالله [والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله أجمعين]^(١٠).



(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: خصال ثلاث: إما. (٤) من م، في الأصل: توارث. (٥) في الأصل وم: لعل. (٦) في الأصل وم: وإما. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الكافية. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من م.

سورة الفلق

وهي مدنية^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ قَالَ الْفقيه، رَجَمَهُ اللهُ: الأمرُ بالتَّعوُّذِ بِهِ يَحْتَمِلُ وجوهاً ثلاثة:

أحدها: على التَّعليم لا لنزالةِ كَانَتْ في ذلك الوقت. لكن لما عَلِمَ اللهُ تعالى من عظيم شرِّ مَنْ ذَكَرَ بما يَظُنُّ بالأغلبِ أَنَّ شرَّ ما ذَكَرَ يَتَّصِلُ بالذي ذَكَرَ في عِلْمِ اللهِ تعالى، فَأَمَرَهُمُ بالتَّعوُّذِ بِهِ كما أَخْبَرَ في أمرِ الشَّيْطَانِ أَنَّهُ عَدُوٌّ لَهُمْ وَأَنَّهُ يَرَاهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ لِيَكُونُوا أَبَدًا مُعِدِّينَ مُتَيَقِّظِينَ أو فَرَعِينَ إلى اللهِ تعالى مُغْتَصِمِينَ، وهذا أَحَقُّ في التَّعليمِ مِنَ الذي ذَكَرَهُ في سورة النَّاسِ لَأَنَّهُ أَضَرُّ مِنْ ذلك العَدُوِّ لِأَنَّ ضَرَرَهُ لَأَنَّ ضَرَرَهُ إِنَّمَا يَتَّصِلُ بِهِ بِإِتْيَانِهِ ما دَعَاهُ الشَّيْطَانُ وما يُوسَّوسُ في صَدْرِهِ الوَسْوَاسَ؛ وذلك فِعْلُهُ، يُمَكِّنُهُ الإِمْتِنَاعُ عَنْهُ، وهذا الضَّرَرُ يَقَعُ بِفِعْلِ غَيْرِهِ مِنْ وَجْهِ، لَا يَعْلَمُ مَا تَأْتَاهُ، أَعْنِي شرَّ النَّفَّاثَاتِ وَنَحْوِ ذلك. فهو أَحَقُّ في تَعْلِيمِ العِبَادِ فِيهِ والأمرُ بالفَرَجِ إلى مَنْ يُلْطِفُهُ جَعَلَ ذلك الفِعْلَ وَمَنْ ذَكَرْنَا مَعْمُولًا [فِيهِ]^(٢) مُؤَثَّرًا.

والثاني: ما قِيلَ: نَزَلَ جَبْرِيلُ ﷺ على رَسُولِ اللهِ ﷺ [فَقَالَ لَهُ]^(٣) إِنَّ عَفْرِيئًا مِنَ الْجِنِّ يَكِيدُكَ، فَتَعَوَّذْ بِـ ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وَ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ٦٥٨ - ب/ مِنْ شَرِّهِ إِذَا أُوتِيَ إِلَى الْفَرَّاشِ.

والثالث: قِيلَ: إِنَّ واحداً مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَتَزَلَّ هذا.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: ذَكَرُوا فِي هَذِهِ [السُّورَةِ]^(٤) حَدِيثًا مِمَّا لَا يَجُوزُ، فَتَرَكْتُهُ^(٥).

قَالَ الْفقيه، رَجَمَهُ اللهُ: وَلَكِنْ عِنْدَنَا فِي ما قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُحِرَ، وَجِهَانِ فِي إِثْبَاتِ رِسَالَتِهِ وَبُيُوتِهِ:

أحدهما: بما عَلِمَهُ بِالوَحْيِ أَنَّهُ سُحِرَ؛ وذلك فِعْلٌ فَعَلُوهُ سِرًّا، وَلَا وَقُوفٌ لِأَحَدٍ عَلَى الْغَيْبِ إِلَّا بِالوَحْيِ.

والثاني: بما أَبْطَلَ عَمَلَ السُّحْرِ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَيَصِيرُ لِتِلَاوَتِهِ فِي إِبْطَالِ عَمَلِ السُّحْرِ ما لَيْعَصَا مُوسَى ﷺ [وَلِإِنَّ هَذَا فِي كَوْنِهِ آيَةٌ أَكْبَرُ مِمَّا فَعَلَ مُوسَى ﷺ]^(٦) لِأَنَّ ذلك يَتَوَعَّجُ بِنَوْعٍ ما لَهُ الْفِعْلُ وَالْعَمَلُ مِنْ حَيْثُ الْجَوْهَرُ وَالطَّنْبُ مِنْ حَيْثُ مَرَأَى الْعَيْنِ ما بِهِ تُعْبَانَا تَلَقَّفَ ما صَنَعُوا.

فَأَمَّا إِبْطَالُ السُّحْرِ وَعَمَلُهُ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فَلَا^(٧) يَكُونُ إِلَّا بِاللُّطْفِ مِنَ اللهِ تعالى، وَاللهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ الْأَصْلُ فِي هَذَا عِنْدَنَا قَدْ ثَبِتَ الْأَمْرُ [بِالتَّعوُّذِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾] وَقَدْ بَيَّنَّا حَقَّ الْإِشْتِرَاكِ فِي مَنْ يَتَضَمَّنُ هَذَا الْأَمْرَ^(٨) إِنَّ كَانَ عَلَى نَازِلَةٍ فِي وَاحِدٍ أَوْ عَلَى إِبْتِدَاءِ التَّعْلِيمِ، فَهُوَ أَمْرٌ، فِيهِ رَجَاءُ الْفَرَجِ وَالْمَخْرَجِ مِنَ الْأُمُورِ الضَّارَّةِ بِمَا يُعْتَصَمُ فِيهَا بِاللَّهِ تعالى بِمَا عِنْدَهُ مِنَ اللَّطَائِفِ.

فَجَائِزُ تَمَكُّنُهُ مِنْ أُمُورٍ ضَارَّةٍ بِاللُّطْفِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ الْبَشَرُ، وَلَعَلَّ الذي يَفْعَلُ بِهِ لَا يَعْلَمُ حَقِيقَةَ ذلك الْعَمَلِ الذي جَعَلَ اللهُ لذلك الْعَمَلَ [إِلَّا بِمَا]^(٩) يَسْبِقُ مِنْ وَقُوعِ ذلك.

وقَدْ يَجُوزُ الْأَمْرُ [بِأَشْيَاءَ، وَالنَّهْيُ]^(١٠) عَنْهَا عَنِ الْأَفْعَالِ لِمَكَانِ^(١١) ما يَتَوَلَّدُ عَنْهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ بِاللُّطْفِ مِنْ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل.

(٥) من م، في الأصل: فتركه. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) الفاء ساقطة من م. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل:

الذي. (١٠) في الأصل وم: والنهي بأشياء. (١١) في الأصل وم: المكان.

حيث الفعل في حقيقة ذلك للخلق، وإنما ذلك لطف من الله تعالى نحو ما نهى عن أكل أشياء وأمر بها مما بها الإغذاء والقتل من غير أن تعلم حقيقة وصول ذلك إلى ما يعدو أو يقتل وأي حكمة من ذلك ومعنى له، وكذلك الموضوع في المناجح يطلب الولد، وتسقى الأشجار والزرع بما يحدث الله فيها، وإن كان وجه العمل بالمأمور به والمنهي عنه وحقيقته لغير الذي له ذلك.

وعلى ذلك الأمر بالاستماع والنظر لما يلقى إليه، ويراه، وإن لم تكن حقيقة الإدراك فعله.

وعلى ذلك التقدير جائز أن يكون الله تعالى يجعل الثقت بالعزائم أو بأنواع السحر أو بأنواع الرقى أعمالاً: المقصود بها من النفع والضر لا تعلم حقيقة الوقوع والمعنى الموضوع فيه، له من منه ذلك الفعل، وهو به مأمور وعنه منهي، بما له من حقيقة الفعل، وإن لم يكن النافع به في حقيقة فعله.

ثم قوله ﷺ: ﴿الْفَلَقِ﴾ اختلّفوا فيه: قال بعضهم: الضبح، وقيل: كل شيء يتفلق من جميع ما خلق نحو الأرحام ليتعرف ما فيها والحب والتوى والهوام.

فمن ذهب إلى تخصيص الضبح فهو لأنه آخر الليل وأول النهار، وقد جرى تدبير الله تعالى في إنشاء هذين الوقتين على جميع العالم بحيث لا يملك أحد الامتناع عن حكميهما في ما جعل لهما، وهما النهاية في العلم، يعلم الله تعالى الغيب؛ إذ جرى من تدبيره في آخر الأوقات في الليل والنهار على حد واحد، كل عالم بما فيهما من الرحمة للخلق وأنواع المنفعة، ومن عليهما بما يأتیان الخلق، ويذهبان، فكانما ذكر جميع الخلق على ما ذكر في تأويل قوله تعالى: ﴿يَرْبِّ أَلَناسٍ﴾ [الناس: ١] فيكون فيه، لو قصد بالذكر، ما في الكل، ولا قوة إلا بالله.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ له وجهان:

أحدهما من شر خلقه لما أضافه إلى فعله كما يقال: من شر فعل فلان أو من شر يفعله. [والثاني: (١) من شر يكون من خلقه.

لكن الإضافة إليه بما هو خالق كل شيء من فعل خلقه ومن خلق ما له الفعل، ولا فعل. والأول كأنه أقرب لما ذكر في بقية السورة الواقع بخلق المكنسب من جهتهم، وأضيف إليه لما بيّن، ولأن كل شر اكتسبه الخلق، فذلك منسوب إلى الله تعالى خلقاً، وهو فعل المكنسب وكسبه.

فمضى كان المراد من قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ هذا النوع، فكان ذكر ما بعده، يكون تكريراً. وإذا حوّل الأول على مخض التخليق في ما لا صنع للخلق فيه من الشرور كان ذكر ما لهم صنع فيه، وإن كان خلق الله تعالى لا يكون تكريراً، فيكون هذا التأويل أحق مع ما قد بيّن أنه يمنع في فعل غيره بلطف أو إعجاز [وفي الإعجاز] (٢) لا يحتمل التعوذ من شر من لا يقدر على فعل يتصل به الشر.

وفي ذلك إثبات التمكن لما يقع به الشر، فيجوز التعوذ من الذي منه؛ إذ به يكون من غيره على [ما] (٣) بيّن من جواز الأمر والنهي عن أفعال لمكان ما يقع بها، وإن لم يكن الواقع في الحقيقة لهم. فعلى ذلك التعوذ من شر خلقه، وهو المكين والمستعان.

وفي هذا تعلق بعض من يقول بالقوة تسبق الفعل: إنه لو لم تكن له قوة على الشر كيف كان يتعوذ من شر، لا يقوى عليه؟ والجواب من وجهين:

أحدهما: أن التعوذ يكون بما سيفعل بما يملك هو ما يقع لديه الفعل، وهو الآلات السليمة، والقدرة تحدث تبعاً على حدوث الأفعال، ويحدث لما يختار هو، فصارت القدرة في كونها لما يختار ككون ما يختار من الفعل بالاختيار بحدوث القدرة حالة الفعل، فيتعوذ منه لعل له أن الذي به كأنه في يده.

(١) في الأصل وم: ويحتمل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل.

والثاني: أن قد جرت العادة بالعلم بما يقع في المتعارف كالعلم بما هو واقع في الرغبة والرغبة.

ألا ترى أنه يتعوذ من ظلم الجبابة والظلمة على ما بينهم من بُعد الأمكنة وطول المدد لإمكان الوصول بما اعتقد منهم بلوغ أمثال ذلك؟ وإن كانت القدرة على الظلم في حق اللحال معدومة، لا يبقى في مثل هذه المدة. فعلى ذلك الأمر بالأول.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ اختلّف فيه؛ قيل: الغاسق هو الليل المظلم، والغسق الظلمة، وقيل: سَمَى الليل غاسقاً لأن الغاسق البارء. وقال الله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ ﴿جَزَاءً وَكَفَّارًا﴾ [النبا: ٢٤ و ٢٥ و ٢٦] والليل أبرد من النهار، لذلك سَمِيَ غَسَّاقًا.

والأصل في هذا أن الذي ذكر، لا يكون منه ضرر، يتعوذ منه. لكنه يزجج إلى من كان في ظلم الليل، إذ في نور القمر من الذي يأتي منه الضار؟ ومعلوم أن من الشرور ما لا يمكن منها إلا في ظلم الليل، ومنها في الليالي [ما لا يمكن منها] ^(١) إلا بنور القمر.

فأمر التعوذ متى يكون فيها لا أن يكون منها، وهو كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ مُبْسِرًا﴾ [يونس: ٦٧ و...]. بما يقع به الإبصار، لا أنه يقع منه ذلك.

وهذا، والله أعلم، ليس على تخصيص الليل بذلك لأنه ليس له فعل الضرر، لكن قد يعرض به الإمكان / ٦٥٩ - أ / من الشر لما المعلوم أن من الشرور ما لا يمكن منها إلا في ظلم الليل، ومنها في الليل لا يمكن [منها] ^(٢) إلا في ضوء القمر.

فأمر التعوذ منه عما يتحقق فيه. فعلى ذلك يجوز التعوذ من شر النهار على تأويل ما يقع به من التمكن من الشر، ويوجد فيه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ اختلّفوا في معنى ﴿وَقَبَ﴾ قيل: إذا جاء، وقيل: معناه القمر إذا خسف؛ أمر بالاستعاذة من ذلك؛ إذ هو علم من أعلام الساعة، لهذا قال: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ إذ القمر لا يخسف إلا في الليل.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ الْفَقْصِ الْفَقْصِ﴾ فهذا تعوذ من [شر كل] ^(٣) بحسب سببه، لكنه في الحقيقة فعل لهم، وفي الأول يقع سببه بلا صنيع لهم، فكانه في الجملة أمر بالتعوذ من كل أسباب خفيّة ^(٤)، تولد الشر منه، فغلا كان ذلك ^(٥) أو لم يكن.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَرْزِقُكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَزِدُّكُمْ بِاللَّهِ الْمَرْوُءُ﴾؟ [لقمان: ٣٣ و...]

وقد يكون للشيطان فعل في الحقيقة، ولا يكون للحياة الدنيا فعل، فوقع التثني عن الإغترار بهما. فعلى ذلك التعوذ من شر الأمرين، وإن لم يكن لأحدهما فعل بما يقع فيه.

وجائز أن يكون من هذا الوجه في الملائكة [محنة] ^(٦) في الدفع والحفظ كقوله تعالى: ﴿لَمْ تُعَفِّكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] قيل فيه: أي بأمر الله يقع حفظه.

فجائز أن يكون في هذه الأمور الخفية وأنواع المضار من حيث لا يعلم إلا بعد جهد يقع الحفظ بالله تعالى على استعمال الملائكة.

وعلى ذلك يجوز أن يكون أمر سلامة المطاعم والمشارب والمنافع التي للبشر من إفساد الجن؛ يحفظه من ذكر ليكون فيها مخنة للملائكة على ما كان مكان وسواس الشيطان لإيقاظ الملائكة ومعونتهم.

(١) في الأصل وم: لا يمكن. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: شرم. (٤) في الأصل وم: خيف. (٥) جاء بعدها في الأصل وم: له. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وَيُخَوِّلُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ لَمْ يُمَكِّنْهُمْ إفساداً ما ذَكَّرْنَا، وَإِنْ مَكَّنْهُمْ الْوَسْوَاسُ؛ إِذْ بِاللُّطْفِ يَنْتَعُ مِنْ حَيْثُ لَا يُعْلَمُ.
وقيل أيضاً: مِنْ أَمْرِ اللَّهِ عَذَابُهُ وَأَنْوَاعُ الْبَلَايَا إِلَى وَقْتِ إِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْوُقُوعَ.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: إِذَا كَانَ الْحَاسِدُ دُونَ الْمَحْسُودِ، وَلَا يَقْوَى عَلَى الشَّرِّ لِيفْعَلَ بِهِ، وَالشَّرُّ الْمُتَوَهَّمُ مِنْهُ يَكُونُ مِنْ شَرِّهِ ^(١) عَيْنُهُ، وَعَمَلُ الْحَسَدِ إِرَادَةُ زَوَالِ نِعَمِ الْمَحْسُودِ وَذَهَابِ دَوْلَتِهِ.

[والثاني: ^(٢)] أَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ ﷻ يُلْطِفُهُ بِجَعْلِهِ فِي بَعْضِ الْأَعْيَانِ عَمَلًا يُنَادِي بِالنَّظَرِ إِلَى مَا يَسْتَحْسِنُهُ مِنَ النِّعَمِ إِلَى الزَّوَالِ، وَيُؤْثِرُونَ ذَهَابَ الدَّوْلَةِ عَنْهُ، فَأَمَرَ بِالتَّعَرُّوْذِ.

هذا وقد بَيَّنَّا لَكَ الْمُتَوَلَّدَاتِ مِنَ الْأَفْعَالِ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا مِنَ الْمَضَارِّ وَالْمَنَافِعِ مَا لَا يُلْغِيهَا عِلْمُ الْخَلْقِ، بَلْ لَوْ أَرَادَ الْخَلْقُ أَنْ يَعْرِفُوا مَا فِي الْبَصَرِ مِنَ الْحِكْمَةِ الَّتِي تُدْرِكُ بِفَتْحِ الْبَصَرِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنْ غَيْرِ كَثِيرٍ مُهْلَةً، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ.

وَرَوَى عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا رُفِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ» [أبو داود ٣٨٨٤]. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ [قوله ﷺ] ^(٣) «الْعَيْنُ حَقٌّ فَإِنْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبِقُ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ» [مسلم ٢١٨٨] وَفِي خَبَرٍ آخَرَ: «لَا شَرَّ فِي الْهَامِ، وَالْعَيْنُ حَقٌّ» [الترمذي ٢٠٦١] وَيَذُلُّ عَلَيْهِ فِي قِصَةِ يُوسُفَ ﷺ [ما] ^(٤) قَالَ: «لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدَ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ» [يوسف: ٦٧].

وقد فَسَّرَ قَوْمٌ وَجْهَ عَمَلِ الْعَيْنِ وَكَيْفِيَّتَهُ [بِأَمْرَيْنِ]:

أحدهما: أَنَّهُ ^(٥) أَمْرٌ كَعَمَلِ الشَّمْسِ فِي الْعَيْنِ نَفْسِهَا فِي مَا تُبْصِرُ الشَّمْسَ، وَتَنْظُرُ إِلَيْهَا، فَإِنَّهَا تَضُرُّهُ، وَتَغْلِيهِ عَنِ النَّظَرِ عَلَى بُعْدِهَا ^(٦) مِنَ الْعَيْنِ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى، وَذَلِكَ مِنَ اللَّطْفِ وَالْحِكْمَةِ، وَكَذَلِكَ عَمَلُ الْعَيْنِ فِي الْمَعْيُونِ.

والثاني: أَنْ يَكُونَ بِمَا حَسَدَ أَنْ يَبْعَثَ حَسَدَهُ عَلَى الْحِيلِ وَأَنْوَاعِ مَا بِهِ الْعَيْنُ مِنَ السَّعْيِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي بِهَا الْفَسَادُ عَلَى ضَعْفِهِ فِي نَفْسِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي صِفَةِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُوَ الْمَدُّ فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ [المنافقون: ٤] فَمَعَ مَا بَيَّنَّ مِنْ قَسَلِهِمْ وَضَعْفِهِمْ أَمَرَهُمْ بِالْحَذَرِ مِنْهُمْ، وَقَالَ: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] ثُمَّ أَمَرَ بِالتَّعَرُّوْذِ مِنْ شَرِّهِ. فَكَذَلِكَ الْحَاسِدُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ [بالصواب] ^(٧).



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: شَر. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: لَكِنَّهُ. (٦) فِي م: بَعْدَ. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

سورة الناس

مدنية^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فظاهره أمر لرسول الله ﷺ وشيء مُشار إليه، وهو التَّعوُّذُ، وفي^(٢) الإجابة في مثله أن يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ لكنه، والله أعلم، يُخْرِجُ على وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك أنزله حتى^(٣) يصير ذلك أمراً لكل من بلغه وتعلماً بالذي عليه بالإغتصام بالله تعالى والإلتجاء إليه من شر الذي ذكره ليُعِيده. وتكون الإعادة بوجهين:

أحدهما: في تذكير ما عرّفه من الحُجَج في دفع ما يخطر بباله والمكروه.

والثاني: باللطف الذي لا يبلّغه علم الخلق، ولا تُدرّكه عقولهم؛ ممّا لديه يقع الأمن من الزَّيغ، ممّا حقه الإفضال. والذي ذلك حقه [فلله تعالى أن يُكرّم العبد مُبتدأً، وله أن يُقدّم فيه مِحنة السؤال والإغتصام به على الإكرام أيضاً، ويكرّم من اغتصم به من الرِّزّة، أو هُدي إلى سنّة الشُّكر لله تعالى]^(٤) في ما ابتدأه أو أكرّم به عند السؤال.

والوجه الثاني من وجهي الخطاب: أن يكون الخطاب لغيره، وإن كان راجعاً إلى مُشار إليه؛ فهو ممّا يشترك في منغاه غيره، فأنبى، وأنبى ما به يصير مخاطباً من بلغ ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ حتى يدوم هذا إلى آخر الدهر. وعلى [هذا جميع ما]^(٥) فيه حرف الكلفة والمِحنة، أعني صيغة الأمر، والله الموفق.

ثم في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إلى آخر السورة وجهان من الحكمة فيهما نقض قول أهل الإغترال:

أحدهما: أن المِحنة قد ثبتت بالامتناع عن طاعة الشيطان والمخالفة له. فأمّا إن كان الله تعالى قد أعطاه، فهو يطلب ذلك بالتَّعوُّذ والإغتصام بالله تعالى، كاتماً لما أعطاه طالباً ما ليس عند الله تعالى، فيكون الأمر بالتَّعوُّذ مِحنة وأمرأ بما به كتمان ذلك، وذلك حين استوفاه بكون إنكاره ستر نعم الله، وقد تَبَرَّأ / ٦٥٩ - ب/ من الأمر بالفحشاء والمنكر، ويَبَيّن أن ذلك من عمل الشيطان.

[والثاني]^(٦): في المِحنة بهذا مِحنة الاستهزاء بالله تعالى لأنه يطلب منه ما يعلم أنه لا يملكه، ولا يجده عند نفسه؛ وذلك من علم الهُزء وعند ذوي العقول.

فَمَنْ ظَنَّ أن الله تعالى يمتحن عباده، ويأمرهم بشيء ممّا ذكرنا، فهو جاهل بالله تعالى ويحكمته، وإن لم يكن الله تعالى أعطاه، فعنده بعد ذلك.

ثم كان من مذهبهم أنه ليس لله تعالى أن يمتحنهم بفعل إلا بعد إتياء جميع ما عنده ممّا فيه قوامه وجوده، ففي ذلك اغتراف بلزوم المِحنة، وتوجّه التكليف قبل إتياء جميع ما عنده ممّا به الوصول إلى ما أمر به؛ وذلك ترك مذهبهم مع ما كان عندهم أنه لو كان عند الله أمر ومعنى لا يقع فغل المختار لأجل أنه^(٧) لا يعطيه ذلك، لم يكن له أن يمتحنه، وهو بالامتناع جائر.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: بحق أن. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: جميع لما، في م: جميع ما. (٦) في الأصل وم: ثم. (٧) في الأصل وم: لأنه.

فَأَمَّا إِنْ سَأَلُوهُ بِفِعْلٍ قَدْ أَمَرَ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَعْطَاهُمْ ذَلِكَ، وَهُمْ مَا وَصَفُوا اللَّهَ تَعَالَى بِمِثْلِ ذَلِكَ أَوْ بِفِعْلٍ يَثْلُو وَقْتُ الْأَمْرِ بِذَلِكَ، وَيَكُونُ أَعْطَاهُمْ ذَلِكَ وَقْتُ الْأَمْرِ، فَكَأَنَّهُ ظَنَّ أَنْ يُؤْمَرُوا، وَلَا يُعْطَى حَتَّى يُسْأَلَ، وَذَلِكَ حَرْفُ الْجَوْرِ.

ثُمَّ الْأَصْلُ الَّذِي اِظْمَأَّتْ بِهِ قُلُوبُ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ اللَّهَ تَعَالَى: أَنَّهُ مَتَى هَدَى الْهَدَايَةَ الَّتِي سُئِلَ، أَوْ عَصَمَ الْعِصْمَةَ الَّتِي تُظَلَّبُ، أَوْ وَقَّفَ لِمَا يُزْجَى مِنَ الْفِعْلِ، أَوْ أَعَانَ عِنْدَ مَا يُخَافُ: أَنَّهُ كَانَ ذَلِكَ، لَا مُحَالَةً، وَتَحَقَّقَ بِهَا شُبْهَةٌ، وَيُؤْمَنُ لَدَيْهِ مِنَ الرِّبِّ وَالضَّلَالِ، وَعَلَى ذَلِكَ جُبِلُوا مِمَّا لَا تَجِدُ غَيْرَ مُغْتَزَلِي إِلَّا وَقَدْ اِظْمَأَّتْ قَلْبُهُ بِهِ حَتَّى يُعْلَمَ أَنَّ هَذَا مِنْهُ وَقَعَ، الْمَجْبُولُ عَلَيْهِ، بِالتَّقْلِيدِ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ تَعَالَى.

الآيتان ٢ و ٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ وَلَمْ يَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْخَلْقِ، وَهَذَا أَعَمُّ مِنَ الْأَوَّلِ، وَإِضَافَةُ كُلِّيَّةِ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ أَوْ إِضَافَتُهُ إِلَى الْكُلِّ بِالرُّبُوبِيَّةِ مِنْ بَابِ التَّعْظِيمِ لِلَّهِ تَعَالَى، فَمَا كَانَ أَعَمُّ فَهُوَ أَقْرَبُ فِي التَّعْظِيمِ. فَهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يُخْرِجُ عَلَى أَوْجِهِ:

أَحَدُهُمَا: أَرَادَ التَّعْرِيفَ، وَبِهَذَا تَقَعُ الْكِفَايَةُ فِي مَعْرِفَةٍ مِنْ يَفْزَعُ إِلَيْهِ وَمَنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ لِيَعُوذَ مِنْهُ. لَكِنَّهُ ذَكَرَ ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الْفَلَقُ: ١] فِي مَوْضِعٍ، وَ﴿بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٧] وَ﴿بِكَ﴾ [المؤمنون: ٥٨] فِي مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الْكَلْبِطِينَ﴾ [المؤمنون: ٩٧] وَقَالَ: ﴿فَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠ و...]. لِيُعْلِمَ بِهِ مِنْ سَعَةِ الْأَمْرِ وَتَحْقِيقِ الْفَرْعِ وَالرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ نَزُولِ مَا يَنْزِلُ بِالْمَرْءِ مِمَّا يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ، وَيَشْغَلُ قَلْبَهُ، أَنَّ لَهُ ذِكْرًا مَا يَحْضُرُهُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَيْ اسْمٍ كَانَ؛ إِذَا مَا مِنْ اسْمٍ إِلَّا وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى نَعَمِهِ وَسُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ لِيَكُونَ فِي ذَلِكَ تَوْجِيهُ الشُّكْرِ^(١) إِلَيْهِ وَإِخْلَاصُ الْحَمْدِ لَهُ بِإِضَافَةِ النِّعَمِ [إِلَيْهِ]^(٢) لِيَكُونَ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ مَا بِهِ الشُّفْعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذِكْرِ قُدْرَتِهِ وَإِحْسَانِهِ أَرْفَعَ فِي ذِكْرِ النَّاسِ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الَّذِينَ عُرِفَ فِيهِمُ الْأَرْبَابُ وَالْمُلُوكُ وَالْعِبَادَاتُ لِمَنْ دُونَ اللَّهِ تَعَالَى، هُمُ الْإِنْسُ دُونَ غَيْرِهِمْ، فَأَمَرَ أَهْلَ الْكِرَامَةِ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْعِصْمَةِ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ وَالْإِغْتِرَافِ بِالْمُلْكِ وَالرُّبُوبِيَّةِ لَهُ أَنْ يَفْزَعُوا إِلَيْهِ عَمَّا ذَكَرَ ذَاكِرِينَ لِذَلِكَ وَاصِفِينَ بِأَنَّهُ الرَّبُّ لَهُمْ وَالْمَلِكُ عَلَيْهِمْ وَالْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ لَا غَيْرُهُ.

أَوْ لَمَّا كَانَ لِلْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَا ضَلَّ الْقَوْمُ مِنْ اتِّخَاذِهِمْ أَرْبَابًا دُونَ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ نُزُولِهِمْ عَلَى رَأْيِ مَلُوكِهِمْ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ وَفِي الْبَسِيطِ وَالْقَبْضِ أَوْ عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَفَزَعِهِمْ إِلَيْهِ؛ فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْكِرَامَةِ بِمَا ذَكَرْتُ الْفَرْعَ [إِلَى] الَّذِي يُذَكِّرُ بِهِذِهِ الْأَوْصَافِ عَلَى الْحَقِيقَةِ عَلَى تَخَوُّرِ فَرْعٍ^(٣) الضَّالِّينَ إِلَى أَرْبَابِهِمْ وَمَلُوكِهِمْ وَالَّذِينَ [عَبَدُوهُمْ دُونَهُ]^(٤) إِذْ إِلَيْهِ مَفْزَعُ الْكُفْرَةِ أَيْضًا عِنْدَ الْإِيَّاسِ وَمَنْ اتَّخَذُوهُمْ دُونَ اللَّهِ لِيُنْصِرَتِهِمْ وَمَعُونَتِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالثَّلَاثُ: أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ خَلْقِ هَذَا الْعَالَمِ هُمُ الَّذِينَ نَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ السُّورَةُ، وَغَيْرُهُمْ كَالْمَجْعُولِ الْمُسَخَّرِ لَهُمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ﴾ [النحل: ١٤] وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

فَإِذَا قِيلَ: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ فَكَأَنَّهُ قِيلَ: بِرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ لِأَنَّ مَا سِوَاهُمْ جُعِلَ لَهُمْ، وَذِكْرُ الْخَلْقِ وَالتَّوَجُّهُ إِلَيْهِ فِي الْإِسْتِعَاذَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ، هُوَ إِغْتِرَافُ الْأَيْمَانِ غَيْرُهُ ذَلِكَ، فَاسْتَوَى الْأَمْرَانِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقِيلَ فِي: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ مُضْلِحُ النَّاسِ، وَذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى أَنَّ بِهِ صَلَاحَتَهُمْ فِي الدِّينِ وَفِي النَّفْسِ.

وَقِيلَ: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ عَلَى الْإِخْبَارِ بِأَنَّ الْمُلْكَ لَهُ فِيهِمْ جَمِيعًا وَفِي الْخَلْقِ مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ فِيهِ وَجْهُ الْمُلْكِ، فَبَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي التَّحْقِيقِ لِلَّهِ تَعَالَى وَمُلْكِهِ، وَلِغَيْرِهِ يَكُونُ مِنْ جِهَتِهِ عَلَى مَا أُعْطِيَ لَهُمْ بِقَدْرِ مَا اخْتَجَرُوا إِلَيْهِ.

وَقِيلَ: سَيِّدُهُمْ، لَكِنَّ لَفْظَةَ السَّيِّدِ لَا تُذَكِّرُ لِمَالِكِ غَيْرِ النَّاسِ، وَيُوصَفُ بِالرَّبِّ وَالْمَلِكِ وَالْمَالِكِ عَلَى الْإِضَافَةِ لَا مُطْلَقًا؛ يُقَالُ: رَبُّ الدَّارِ، وَمَالِكُ الْجَارِيَةِ، وَمَلِكُ الْمَضَرِّ، وَتَحْوُ ذَلِكَ فَكَأَنَّهُ أَقْرَبُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَلِكُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: عَبْدُهُمْ دُونَهُمْ.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿مِنْ سَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَفَّاسِ﴾ قَسَمِي الذي يُوسِسُ بَأَنَّهُ وَسْوَاسٌ وَخَفَّاسٌ. وقيل في تأويله من أوجوه:

أحدها^(١): أَنَّهُ يُوسِسُ لِذِي الْعَقْلَةِ، وَيَخْتَسُ عِنْدَ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، أَيْ يَخْرُجُ، وَيَذْهَبُ.

والثاني: أَنَّهُ^(٢) يَخْتَسُ، لَا يُرَى، وَلَا يَظْهَرُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ يَرْنِكُمْ هُوَ وَقِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُ﴾ [الأعراف: ٢٧] ولهذا قيل في: ﴿بِالْخَفَّاسِ﴾ [التكوير: ١٥] إِنَّهُمْ يَظْلَمُونَ مِنْ مَطَالِعِهِمْ، وَتَخْتَسُ بِالنَّهَارِ أَيْ تَخْتَفِي.

الآيتان ٥ و ٦

والثالث: جائز^(٣) أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿الَّذِي يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ﴿مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ﴾^(٤)؛ صَبَّرَ الْمُوسِسَ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ.

والرابع: [الرابع: ٥]^(٥) عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ؛ مَعْنَاهُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ الَّذِي يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ.

أَمَّا الْوَسْوَسةُ فَهِيَ أَمْرٌ مَعْرُوفٌ، وَذَلِكَ مِمَّا يُلْقَى مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَشْغَلُ الْقَلْبَ، وَتُحِيرُهُ، لِمَا فِي أَمْرِ الدِّينِ مَا^(٦) لَا يُعْرِفُ الَّذِي يُلْقَى إِلَيْهِ الْمُخْرَجُ مِنْ ذَلِكَ.

وعلى ذلك أَمْرُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَأَصْنَافِ الْكُفْرَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِكُفْرٍ إِلَا أَنِّي أَنبِئُكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وَأَمَّا شَيْطَانُ الْجِنِّ فَهُوَ أَمْرٌ ظَاهِرٌ عِنْدَ جَمِيعِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ وَمَنْ آمَنَ بِالرَّسْلِ ﷺ لَكِنَّ الدُّفْعَةَ وَمُنْكَرِي [الرسل: ٧] يَقُولُونَ: لَيْسَ فِي الْجِنِّ شَيْطَانٌ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ يُخَوِّفُ بِهِ مَدْعُو الرِّسَالَةِ لِيُزِمُوا الْخَلْقَ الْإِسْتِمَاعَ إِلَيْهِمْ فِي تَعْرِيفِ الْجَهْلِ، وَمَا عِنْدَهُمْ فِي دَعْوَاهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعَارِفِ [شيء: ٨] وَهَذَا لِسَفَهِهِمْ قَالُوهُ^(٩). وَلَوْ أَنَّهُمْ تَأَمَّلُوا فِي ذَلِكَ لَعَرَفُوا أَنَّهُمْ عَلَى غَيْرِ بَحْثٍ عَمَّا أَلْزَمَهُمْ ضَرُورَةُ الْفَعْلِ الْطَلَبِ، وَدَعَتْهُمْ إِلَى الْبَحْثِ عَنْهُ مَا مَسَّهُمْ مِنَ الْحَاجَةِ؛ وَهِيَ الْخَوَاطِرُ الَّتِي تَقَعُ فِي الْقُلُوبِ، وَالْخِيَالَاتُ الَّتِي تَعْرِضُ فِي الصُّدُورِ / ٦٦٠ - أ / [منها ما]^(١٠) إِذَا صُوِّرَتْ وَجِدَتْ قَبَاحًا، وَمِنْهَا^(١١) مَا إِذَا صُوِّرَتْ وَجِدَتْ حَسَنًا.

وَلَا يَجُوزُ وَقُوعُ أَمْرٍ أَوْ كَوْنُ شَيْءٍ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ لِلْإِحَالَةِ فِي أَنْ يَصِيرَ، لَا شَيْءَ بِنَفْسِهِ، شَيْئًا قَبِيحًا أَوْ حَسَنًا بِلَا مُدَبِّرٍ، وَقَدْ عَلِمَ جَمِيعُ الْإِنْسَانِ بِالَّذِي ذَكَرْتُ مِنَ الْإِتِّلَاءِ بِهِ مِمَّا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَفْسِهِ مَعْنَى يُحْدِثُ لَهُ ذَلِكَ.

فَبَيَّنْتُ أَنَّ قَدْ كَانَتْ الضَّرُورَةُ تُلْزِمُ الْبَحْثَ عَنْ ذَلِكَ. ثُمَّ لَا يَعْلَمُ مِنْ حَيْثُ طَلَبُ الْأَبْدَانِ الْمُوجِبَةُ لَهَا، وَلَا فِي الْعُقُولِ دَرْكُهَا، فَيَجِبُ بِهَا أَمْرَانِ مَعَافَاهُ عَنِ الْعِلْمِ بِهِمَا [هما: ١٢] الْقَنُوعُ بِالْجَهْلِ وَحُبُّ الرَّاحَةِ: أَحَدُهُمَا الْقَوْلُ بِالصَّانِعِ وَدُخُولُ الْعَالَمِ تَحْتَ تَدْبِيرِ حَكِيمٍ عَلِيمٍ قَدِيرٍ. وَالْآخَرُ الْقَوْلُ بِالرِّسَالَةِ، تَأْتِيهِمْ مِنْ عِنْدِ عَلَامِ الْغُيُوبِ. وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ بِحَيْثُ لَا يَبْلُغُهُ عِلْمُ الْبَشَرِ، فَيَعْرِفُ حَقِيقَةَ ذَلِكَ، فَيَعْلَمُ عِنْدَ النَّظَرِ وَالْبَحْثِ أَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: الرِّسْلُ بِمَا مَعَهُمْ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ؛ فَيَقُولُونَ بِهِمْ وَبِالتَّوْحِيدِ بِمَا رَأَوْا مِنَ آيَاتِ الصِّدْقِ، وَإِذْ قَدْ عَلِمُوا أَنَّ فِي الْأَخْبَارِ صِدْقًا؛ لَوْلَا ذَلِكَ لَكَانُوا لَا يَدْعُونَ شَيْئًا، إِذْ هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ^(١٣).

وَالثَّانِي: يُلْزِمُهُمْ بِمَا يُعَايِنُونَ مِنْ خُرُوجِ الْأَمْرِ مِنْ غَيْرِ الْحُكَمَاءِ أَنَّهَا تَقَعُ مُتَفَاوِتَةٌ مُضْطَرِبَةٌ، وَالْعَالِمُ بِمَا خَرَجَ مُنْشَقًّا عَلَى الْحِكْمَةِ وَالْمُضْلَحَةِ، فَعَلِمُوا أَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ^(١٤) مَا بِهِ الصَّالِحُ، فَيُلْزِمُهُمْ بِهِ أَمْرَانِ أَيْضًا: التَّوْحِيدُ وَالرِّسَالَةُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ تَعَالَى.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجْهَيْنِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقِيلَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقِيلَ. (٤) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: الْآيَةُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقِيلَ أَيْضًا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: بِمَا. (٧) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) إِلَهَاءٌ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَمِنْهُمْ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: بَعْدَ.

والأصلُ عندنا بِتَمَكِينِ الشَّيْطَانِ ما ذَكَرْنَا مِنَ الْوَسْوَسةِ: أَنَّ الشَّيْطَانَ وَالْمَلَكَ خُلِقَانِ لِلَّهِ تَعَالَى، عَرَفْنَاهُمَا بِالرُّسُلِ ﷺ وبما بَيَّنَّا مِنْ ضَرُورَةِ الْحَاجَةِ إِلَى الْعِلْمِ بِمَنْ بِالْغَايَةِ يَصِيرُ عِنْدَ التَّصَوُّيرِ قَبِيحاً أَوْ حَسَناً، فَيَأْتِيَانِ جَمِيعاً بِمَا مَكَّنَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعاً: أَمْرُ الْمَلَائِكَةِ الْخَيْرِ وَالْحِكْمَةِ، فَيَسْهَلُ عَلَيْهِ سَبِيلُهُ بِتَسْيِيرِ اللَّهِ تَعَالَى وَفَضْلِهِ، وَأَمْرُ الشَّيْطَانِ الضَّلَالِ وَالشَّرِّ، فَيَسْرُ عَلَيْهِ حَتَّى صَارَ الْخَيْرُ لِلأَوَّلِ كَالطَّبِيعِ وَالشَّرُّ لِلثَّانِي كَذَلِكَ.

فإِذْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مُمَكَّنًا مِنَ الْأَمْرَيْنِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَسْلَى وَآلَقَ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﷺ: ﴿تَسْلِيْرُ لِلْمُسْرِي﴾ [الليل: ٥ - ١٠] وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ثم الأصلُ في الإنسِ أَنَّهُمْ امْتَحِنُوا بِحَقْقِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَبِحَقْقِ فِي مَا بَيْنَهُمْ، وَكُلَّفُوا بِتَثْبِيْتِ الْمَلَائِكَةِ إِيَّاهُمْ [بقوله] (١): ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا إِلَيْهِ﴾ [الأنفال: ١٢] وَأَمَرُوا بِرَدِّ مَا يُوسِسُ إِلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وعلى ذَلِكَ خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مُتَمَحِّنِينَ بِالْكِتَابَةِ عَلَى الْبَشَرِ بِقَوْلِهِ: ﴿كِتَابًا كَبِيرًا﴾ [الأنفطار: ١١] فَتَكُونُ الْحِكْمَةُ فِي تَكْلِيفِ التَّمَكِينِ لِمَا وَصَفَ مِنْ مَحَنَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُمْ طَاعَتَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي مَا مَكَّنُوا مِنْ غَيْرِهِمْ عَلَى مَا ذَكَرْتُ مِنْ أَمْرِ الْإِنْسِ.

وحكمةُ ذَلِكَ لِلْإِنْسَانِ (٢) إلْزَامُ التَّيَقُّظِ وَالنَّظَرِ فِي مَا يَقَعُ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَوَاطِرِ لِيَعْلَمَ الَّذِي لَهُ مِنَ الَّذِي عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ فِي تَكْلِيفِ الْمَلَائِكَةِ كِتَابَةَ قَوْلِهِ وَفَعْلِهِ لِيَكُونَ مُتَيَقِّظًا وَمُتَنَبِّهًا فِي كُلِّ أَعْمَالِهِ وَأَحْوَالِهِ كَتَيَقُّظِهِ فِي مَا كَانَ الْأَوْلِيَاءُ وَالْأَعْدَاءُ مِنَ الْكَاتِبِينَ الظَّاهِرِينَ عَلَيْهِ أَنَّهُ يَحْذَرُ كُلَّ الْحَذَرِ عَمَّا يُوْذِي وَلِيَّهٖ، وَيَقْبَلُ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ فِيهِ يَظْمَعُ بِمَا أَمَلَ، وَيَحْذَرُ عَدُوَّهُ أَشَدَّ الْحَذَرِ لِئَلَّا يُوْذِيَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ، فَيَتَّهِمُهُ كُلَّ تَهْمَةٍ.

ثم معلومٌ أَلَّا يَمَلُ الْكِتَبَةُ إِلَّا بَعْدَ إِحْكَامِهِ وَإِصْلَاحِهِ غَايَةً مَا يُحْتَمَلُ الْوَسْوَسةُ. فَعَلَى ذَلِكَ فِي مَا خَفِيَ؛ إِذْ هُمْ فِي الْعُقُولِ فِي [ذَلِكَ] (٣) مَا مِنْهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ كَالَّذِينَ ذَكَرَ مِنْهُمْ وَمِمَّنْ ظَهَرَ وَالْأَلَا يُضَارُّهُمْ، وَاللَّهُ الْمَوْفَّقُ.

وَكَذَلِكَ صَلَحَتِ الْمَحَنَةُ وَالْأَمْرُ فِي صَحْبَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَعْدَاءِ بِحَقِّ الْوِلَايَةِ وَالْعَدَاوَةِ فِي مَا لَا يَرُونَ صَلَاحَهَا وَفِي مَا يَرُونَ، إِذْ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي فِيهِ الْوِلَايَةُ وَالْعَدَاوَةُ مُزَيَّنَةٌ لِأَبْصَارِ الْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ فَيَمَكَّنُ الْحَذَرَ وَالْمُعَامَلَةَ جَمِيعاً.

وعلى هَذَا التَّقْدِيرِ لَمْ يُمْكِنْ اللَّهُ أَعْدَاءَهُ الَّذِينَ لَا يَرُونَ مِنْ مُعَادَاتِهِمْ بِأَعْمَالٍ مِنْ أَعْدَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بِالسَّلْبِ وَالتَّنْجِيسِ وَالْإِفْسَادِ، وَقَدْ مَكَّنَ أَعْدَاءَهُمْ مِنَ الْإِنْسِ ذَلِكَ لِتَمَكُّنِهِمُ الدَّفْعَ عَنْ ذَلِكَ وَالْحَذَرَ عَنْهُ بِمَا وَقَعَ الْوُقُوفُ لِبَعْضٍ عَلَى حَيْلٍ بَعْضٍ وَالصَّرْفَ عَنْ ذَلِكَ.

وما هَذَا إِلَّا كَذَرِكِ الْحَوَاسِّ بِأَعْمَالِهَا وَأَسْبَابِهَا بِالْحَسِّ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْمَلَائِكَةِ. لَكِنْ مَنْ لَا يَحْتَمِلُ عَقْلُهُ مَعْرِفَةَ الصَّانِعِ وَالتَّوْحِيدَ مَعَ شَهَادَةِ الْعَقْلِ وَكُلِّ شَيْءٍ، فَجَهَلُهُ بِالشَّيْطَانِ غَيْرُ مُسْتَبْعَدٍ وَلَا مُسْتَنْكَرٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ ﷺ: ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي وَجْهِ تَمَكُّنِ الشَّيْطَانِ مِنَ الْإِنْسِ فِي مَا يُوسِسُ إِلَيْهِ: قَدْ رُوِيَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّهُ يَجْرِي فِيهِ مَجْرَى الدَّمِ [مسلم ٢١٧٤] فَأَنْكَرَ ذَلِكَ قَوْمٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِمَّا يُنْكَرُ بَعْدَ الْعِلْمِ بِاخْتِمَالِ جَرِي الدَّمِ فِيهِ وَجَرِي قُوَّةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَمَا بِهِ حَيَاةُ الْأَبْدَانِ وَالْحَوَاسِّ مِمَّا لَطَفَ مَجْرَاهُ فِي جَمِيعِ الْعُرُوقِ وَالْأَعْيَابِ. وَكُلُّ شَيْءٍ بِطَافَةِ ذَلِكَ [فَعَلُ ذَلِكَ] (٤) الشَّيْطَانِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: للإنس. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وعلى ما روي في أمر الملك مما يكتب ما لا يعلم موضع تعوذه، ولا يسمع صرير قلبه، ولا ما يكتب علينا من ذلك أمر الذي ذكرته.

ثم قد ثبت القول بأمر الله تعالى نبيه أن يتعوذ به من همزه ونزغيه وحضوره بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠٠ وفصلت ٣٦] وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] وقوله^(١) تعالى: ﴿إِنَّكَ الْإِنْسَانُ أَثْقَالٌ إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١] وقوله^(٢): ﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٥] فثبت أن أمره على ما يشاء.

ثم القول في أي موضع لوقت ما له من الوحي والتمس والنزغ أمر لا يحتاج إليه بحق، لأن الله تعالى أخبرنا أنا لا نراه بقوله: ﴿لَكُمْ يَرْكَبُكُمْ هُوَ وَقِيلُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ولكن الذي رجعت المحنة إلى أفعاله التي يقع لها آثار في الصدور، وقد مكنا بحمد الله تعالى منه^(٣) لنذكر منه. وإنما علينا التيقظ لما يقع في الصدور من أفعاله وسواويه لنذفع بما مكنا الله تعالى من الأسباب، وعرفنا من الحجج نقض الباطل والتمسك بالحق كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ الْإِنْسَانُ أَثْقَالٌ إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١] ورجعوا إلى الله تعالى بالتعوذ في طلب اللطف الذي جعله الله تعالى للدفاع كقول يوسف عليه السلام: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ﴾ الآية [يوسف: ٣٣] على العلم فيه بطوائف الأشياء من المجهول ليدفع كيدهن.

وكذلك قول الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُفِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ الآية [آل عمران: ٨].

لكن من الناس من يقول: هو يعلم النفس في ما تهوى، فيزيّن لها ذلك، والعقل في ما يدعو إلى ذلك، يمنع^(٤) عن ذلك.

ومنهم من يقول: لا. لكن في ذلك آثار من الظلمة والنور والطيب والخبيث، فتعرف بالآثار، وفيها موقع وسوايه حتى يصل إلى العقل. وقد يكون عمل الهوى والعقل جميعاً في الجسد وخارج منه وبخاصة آثار الأعمال.

ومنهم من يقول: ليس له بشيء من ذلك علم / ٦٦٠ - ب/ لكن بكل ما يزجو العمل من التفرير أو في التمرير والتليس كالأغى في ما يمس، ويطلب المضار من المنافع ونحو ذلك، لكن ذلك كله طريق عمل الشيطان وطريق إمكانيه وجيله، وذلك من لم يؤمن بمغفرته، وإنما علينا مجاهدته في منع ذلك بالتيقظ أو بدفعه بما نذكر. هكذا ذكرت في الآيات أو بالفرع إلى الله تعالى في دفعه ومنعه إن حضر بما عنده من اللطائف التي لديها يقع الأمن عن الزيف والظفر بالرشيد.

ويؤول كثير منهم أنه يؤسوس في صدور الجن كما يؤسوس في صدور الناس، وذلك ممكن بما يكون من كل جنس ضلال وغواية وأخبار وأبرار.

فأما حق تأويل السورة [فهو]^(٥) على ما وصفنا في ذكر وسواس الجن والإنس.

ثم القول في المعوّذتين: إنهما من القرآن أوليسنا من القرآن:

قال الفقيه، رحمه الله: لنا من أمرهما أنبهتا بما أنبهت إلى أهل هذا العصر معرفة القرآن في الجميع بين اللّوحيين بتوارث الأمة. ولنا نحن ومن يعرف بالمحنة والسّر بما به نعلم أنهما معجزتان أو لا. وإنما حق ذلك [الأخذ عن أهل ذلك] [العصر]^(٦) والشهادة بعد ذلك أنهما من القرآن، وأنه معجز، حق أمثالنا فيه الإتيان، وقد اتضح بما به جرى التعارف في جميع الشرائع التي بها يشهد أنها عن الله تعالى وأنها حق. فعلى ذلك هذا.

لكن ذكر عن ابن مسعود عليه السلام أنه لم يكتبهما في مصحفه. وذلك عندنا يخرج على وجهين:

(١) وفي الأصل وم: وقال. (٢) وفي الأصل وم: ومنه. (٣) وفي الأصل وم: فيمنعه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من م. (٦) ساقطة من الأصل.

أحدهما: أنه لم يكن سمع رسول الله ﷺ [أنه] ^(١) قال فيهما شيئاً أنهما من القرآن أو ^(٢) لا .

[والثاني: ^(٣) لم يكن أيضاً رأى على نفسه السؤال عن ذلك حقاً واجباً لأن القرآن وما جاء به الرسول ﷺ في ما يلزم علم الشهادة والعمل به واحداً؛ إذ المقصود من كل ذلك القيام بالمقصود من حق الكلفة لا التسمية . ولم يكن الثجاء يمتحنون أنفسهم بالسُّر في الوجوه [التي] ^(٤) بها يعرفون المعجز من غير ذلك أنه قرآن أو غيره . وإنما ذلك من عمل المرتابين الشاكين في خبر الرسول ﷺ ليعرفوا أنه مبعوث مُرسَل .

فأما من تقرر عنده، واطمأن به قلبه، وزال عنه الحرج في ما آتاها فقد كفوا [عن] ^(٥) ذلك .

وكذلك يجوز ترك البحث عن ذلك لما ذكرته، لا أن عنده أنهما ليستا من القرآن .

وفي خبر عُقْبَةَ [بن عامر] ^(٦) الجهني أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «نزل اليوم آيات لم ير مثلهن قط، قيل: ما هن يا رسول الله؟ فقال: المعوذتان» [مسلم ٨١٤/٢٦٥] . دل أنهما من القرآن .

وأيد أيضاً ما ذكرته في ترك الكتابة ما روي عن أبي بن كعب ؓ أن رسول الله ﷺ أخبره بهما: «قال [لي] . . قال: فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ» ^(٧) [البخاري ٤٦٩٣] لم نشهد في تلك بأنهما منه، ولا ليستا منه، بما لم يكن رسول الله ﷺ أخبره بهما .

فعلَى ذلك أمر عبد الله بن مسعود ؓ .

ويؤيد ذلك أيضاً أمر استعادة القرآن أنها مُقدَّمة على القراءة، وحق هاتين السورتين لو كانتا منه لتعين أن تكونا في افتتاح المصحف كالاستعادة للقرآن .

فهذا أيضاً بعض [الذي] ^(٨) يمنع [العلم] ^(٩) بحقيقة ذلك عنه، وقد بينا جواز وجه الإشكال مع ما كان الإنزال لحاجة العباد . وعلى ذلك جرى العمل بهما من رسول الله ﷺ وغيره، فهو أمر لا [يضره الجهل بالوجوه] ^(١٠) الذي ذكرته .

وعن ابن مسعود ؓ أنه قال: لو علمت أن أحداً أعلم بالقرآن مني، وحملتني مطيئتي، لأتيته .

وقد روي عن ابن مسعود ؓ «أن رسول الله ﷺ كان يغرض [القرآن] ^(١١) على جبرائيل ؑ مرة [في] ^(١٢) العام إلا في العام الذي قبض، عرضه ^(١٣) عليه مرتين، وقد شهدهما جميعاً عند الله» [أحمد ١/٣٢٥] .

وإذا كان كذلك لم يكن هو ممن يسأل في هذا الباب غيره ليثبت عنده السماع أنهما أثبتا في المصحف، فبقي قوله بحيث لا تعرف حقيقة .

وجه آخر: أن يكون رأهما منه، لكن لم يكتبهما ^(١٤) لوجهين:

أحدهما: لما لم يكن موضع الكتاب والتدبير على ما ذكرنا أن تكونا ^(١٥) في أول المصاحف، فكره أن يكتبهما ^(١٦) بتدبيره، ويتخير لهما ^(١٧) موضعاً للكتابة، فلم يكتبهما لذلك ^(١٨) .

والثاني: أنه يكتب ليحفظ، ولا ينسى، وقد أمِنَ عليهما النسيان لأنهما بحيث يجب تلاوتهما في أوائل النهار ومبادئ الليل وعند النوازل، ينفع التعود بهما عن كل شر وكيد على نحو الاستعادة وأنواع الدُعوات المدعوة . فلما أمِنَ خفاءهما لم يكتبهما ^(١٩) .

وعلى ذلك ترك كتابة فاتحة الكتاب، والله أعلم [والحمد لله رب العالمين] ^(٢٠) .

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يضر الجهل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: عرض. (١٤) في الأصل وم: يكتب. (١٥) في الأصل وم: تكون. (١٦) في الأصل وم: يكتب. (١٧) في الأصل وم: له. (١٨) في الأصل وم: يكتب كذلك. (١٩) في الأصل وم: يكتب. (٢٠) في م: بالصواب تمت.

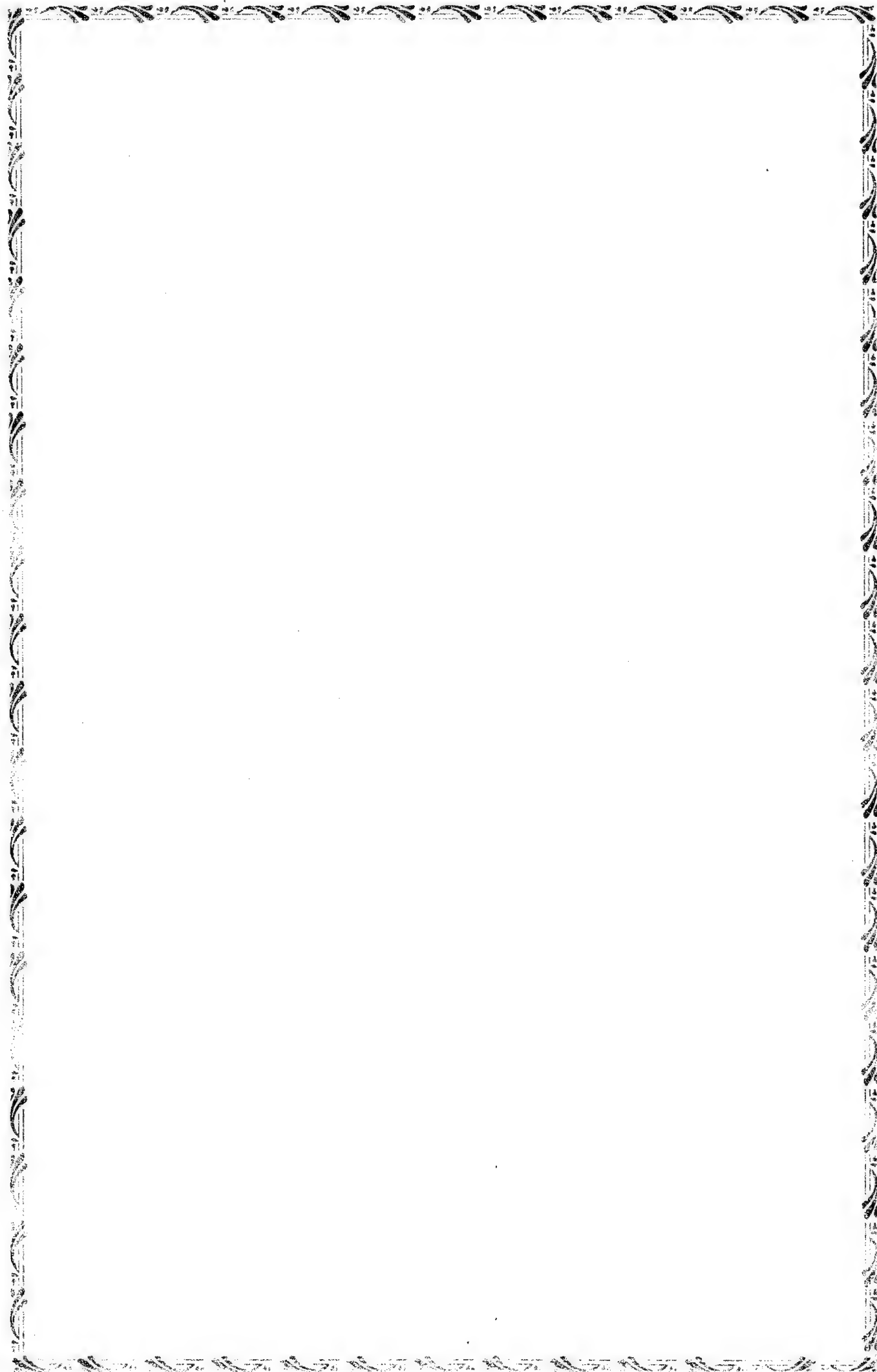
الخاتمة

أُحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى الَّذِي أَقْدَرَنِي
عَلَى إِنْجَازِ هَذَا الْعَمَلِ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُقَيِّضَ
لَهُ مَنْ يَفِيهِ حَقَّهُ فَهَمًّا وَعَمَلًا، وَنُرْتَدِّدَ
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

الاثنين ١٢ / ٥ / ١٤٢٥ هـ

٢٨ / ٦ / ٢٠٠٤ م

فاطمة يوسف الخيمي



المراجع

- ١- أبو منصور الماتريدي، حياته وآراؤه العقديّة، الدكتور بلقاسم الغالي، تونس، دار التركي للنشر ١٩٨٩م.
- ٢- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، محمد الحسيني الزبيدي المُرْتَضَى، أبو الفيض، المتوفى ١٢٠٥هـ، بيروت، دار الفكر.
- ٣- الإتيقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، المتوفى ٩١١هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- ٤- أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص، الحنفي، أبو بكر، المتوفى ٣٧٠هـ، بيروت، دار الكتاب العربي ١٣٣٥هـ.
- ٥- إشارات المرام من عبارات الإمام، أحمد بن حسن البياضي، كمال الدين، المتوفى ١٠٩٨هـ، تحقيق يوسف عبد الرزاق، ط١ القاهرة ١٣٦٥هـ/١٩٤٩م.
- ٦- الأعلام، خير الدين الزركلي، ط١ بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٢م.
- ٧- الأنساب، عبد الكريم بن محمد السمعاني، أبو سعد، المتوفى ٥٦٢هـ، ط١ دار الجنان ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ٨- البحر المحيط في التفسير، محمد بن يوسف، الأندلسي الغرناطي، أبو حيان، المتوفى ٧٥٤هـ، بيروت، دار الفكر ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- ٩- البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء، المتوفى ٧٧٤هـ، القاهرة، دار الحديث ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- ١٠- البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله الزركشي، المتوفى ٧٩٤هـ، تحقيق المرعشلي والذهبي والكردي، ط١ بيروت دار المعرفة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- ١١- تأويلات أهل السنة، محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي الحنفي، أبو منصور، المتوفى ٣٣٣هـ، الجزء الأول، تحقيق الدكتور إبراهيم عوضين والسيد عوضين، القاهرة ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
- ١٢- تأويلات أهل السنة، محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي، الحنفي، أبو منصور، المتوفى ٣٣٣هـ، تحقيق سورة البقرة الدكتور محمد مستفيض الرحمن، بغداد، مطبعة الإرشاد ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.
- ١٣- تأويل مشكل القرآن، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو محمد القتيبي، المتوفى ٢٧٦هـ، شرح ونشر أحمد صقر، القاهرة، دار التراث ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
- ١٤- تاج التراجم في طبقات الحنفية، قاسم بن قطلوبغا، السوداني، زين الدين، ط١ دار القلم، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- ١٥- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان.
- ١٦- تاريخ جرجان، حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمي، المتوفى ٤٢٧هـ، ط٣ بيروت، عالم الكتب ١٩٨١م.
- ١٧- تاريخ المذاهب الإسلامية في تاريخ المذاهب الفقهيّة، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.
- ١٨- تبين كذب المفتري في ما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، المتوفى ٥٧١هـ، بيروت، دار الكتاب العربي ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- ١٩- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.
- ٢٠- تذكرة الموضوعات، محمد طاهر بن علي الهندي الفُتني، المتوفى ٩٨٦هـ، الناشر أمين دمج، بيروت.

- ٢١- تفسير غريب القرآن، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو محمد القتيبي، المتوفى ٢٧٦هـ، تحقيق أحمد صقر، دار إحياء التراث العربية، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.
- ٢٢- جامع الأحاديث للجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير، جلال الدين السيوطي المتوفى ٩١١هـ، جمع وترتيب أحمد صقر، وأحمد عبد الجواد، دمشق، مطبعة هاشم الكتيبي.
- ٢٣- جامع الأصول في أحاديث الرسول، المبارك بن محمد، الأثير، الجزري، مجد الدين، أبو السعادات، المتوفى ٦٠٦هـ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ط ١ بيروت، دار الفكر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ٢٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أو تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، أبو جعفر، المتوفى ٣١٠هـ، بيروت، دار الفكر ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ٢٥- الجامع الصحيح، أو سنن الترمذي، عيسى بن محمد بن سورة الترمذي، أبو عيسى المتوفى ٢٧٩هـ تحقيق وتعليق إبراهيم عطوة عوض، القاهرة، دار إحياء التراث العربي ١٣٨٣هـ/١٩٦٢م.
- ٢٦- الجامع الصحيح، أو سنن الترمذي، عيسى بن محمد بن سورة الترمذي، أبو عيسى، المتوفى ٢٧٩هـ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، إشراف زهير الشاويش، الرياض، مكتبة المعارف.
- ٢٧- الجامع الصحيح، أو سنن الترمذي، عيسى بن محمد بن سورة، المتوفى ٢٧٩هـ، تحقيق وشرح أحمد بن محمد شاكر، ط ١ القاهرة، دار الحديث، ١٩٩٩م.
- ٢٨- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد، الأنصاري القرطبي، أبو عبد الله، المتوفى ٦٧١هـ، صححه أحمد عبد العليم البردوني ط ٢ بيروت، دار إحياء التراث العربي ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م.
- ٢٩- جامع المسانيد، محمد بن محمود الخوارزمي، أبو المؤيد، المتوفى ٦٦٥هـ، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ٣٠- جنة المرتاب بنقد المثنى عن الحفظ والكتاب، عمر بن بدر الموصلي، أبو حفص، المتوفى ٦٢٢هـ، ط ١ دار الكتاب العربي ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- ٣١- الجواهر المضية في طبقات السادة الحنفية، عبد القادر بن أبي الوفاء محمد القرشي محيي الدين، المتوفى ٧٧٥هـ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية في الهند، حيدرآباد، الدكن، ١٣٣٢هـ.
- ٣٢- حجة القراءات، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، أبو زرعة، تحقيق وتعليق سعيد الأفغاني، ط ٤ بيروت، مؤسسة الرسالة ١٩٨٤م.
- ٣٣- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبد الله، الأصفهاني، الحافظ أبو نعيم، المتوفى ٤٣٠هـ، ط ٤ دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- ٣٤- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، المتوفى ٩١١هـ، ط ١ بيروت دار الفكر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ٣٥- ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، شرح وتعليق: الدكتور محمد حسين، نشر مكتبة الجماهير، القاهرة ١٩٥٠م.
- ٣٦- ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، تقديم وشرح وضبط ووضع فهرس الدكتور محمد أحمد قاسم، ط ١، بيروت المكتب الإسلامي ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

٣٧. ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتوثيق ودراسة الدكتور عبد الحفيظ السطلي، دمشق، المطبعة التعاونية ١٩٧٤م.
٣٨. ديوان زهير بن أبي سلمى، طبعة وزلة الثقافة والإرشاد القومي مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩١٩٦٤م.
٣٩. ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، الدكتور عزيزة نوال بادس، بيروت، دار الجيل ١٩٩٥.
٤٠. زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج جمال الدين، المتوفى ٥٩٧هـ، حَقَّقَهُ الدكتور محمد بن عبد الرحمن، وخرَّجَ أحاديثه محمد السعيد بن بسيوني زغلول، أبو هاجر، ط ١ بيروت، دار الفكر، بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٤١. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، ط ١ الرياض، مكتبة المعارف ١٩٩٢م.
٤٢. سنن أبي داود، الإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، المتوفى ٢٧٥هـ، مراجعة محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي.
٤٣. سنن الدارقطني، علي بن عمر الحافظ المتوفى ٣٨٥هـ، علق عليه، وخرج أحاديثه مجدي بن منصور بن سيد الشوري، ط ١ بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
٤٤. السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، أبو بكر، المتوفى ٤٥٨هـ، ط ١ بيروت، دار المعرفة ١٣٥٦هـ.
٤٥. سنن النسائي، أحمد بن شعيب بن علي، المتوفى ٣٠٣هـ، شرح جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، اعتنى به، ورقمه، ووضع فهارسه عبد الفتاح أبو غرة، ط ٢ بيروت دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٤٦. سير أعلام النبلاء، الإمام محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، شمس الدين، المتوفى ٧٤٨هـ، تحقيق محب الدين العمروي، ط ١ بيروت، دار الفكر، ١٩٩٧م.
٤٧. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة، ط ١ دمشق دار القلم، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
٤٨. شرح صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين، المتوفى ٦٧٦هـ، راجعه الشيخ خليل الميس، ط ١ بيروت، دار القلم ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٤٩. شرح الفقه الأكبر، النعمان بن ثابت، المتوفى ١٥٠هـ، شرح الإمام محمد بن محمد بن محمود الحنفي الماتريدي السمرقندي، أبو منصور، المتوفى ٣٣٣هـ، عني بطبعه، وراجعه عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، صيدا، بيروت، المكتبة العصرية. طبع سنة ١٣٢١هـ، حيدرآباد، الدكن.
٥٠. شرح مشكل الآثار، أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، أبو جعفر، المتوفى ٣٢١هـ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط ١ بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤م.
٥١. شعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي، أبو بكر، المتوفى ٤٥٨هـ، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، أبو هاجر، ط ١ ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
٥٢. شفاء الصدور في تفسير القرآن الكريم، محمد بن الحسن النقاش الموصل، أبو بكر، المتوفى ٣٥١هـ.
٥٣. صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد البُستي، أبو حاتم، تأليف الأمير علاء الدين بن بلبان الفارسي، المتوفى ٣٥٤هـ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط ٢ مؤسسة الرسالة ١٩٩٣م.

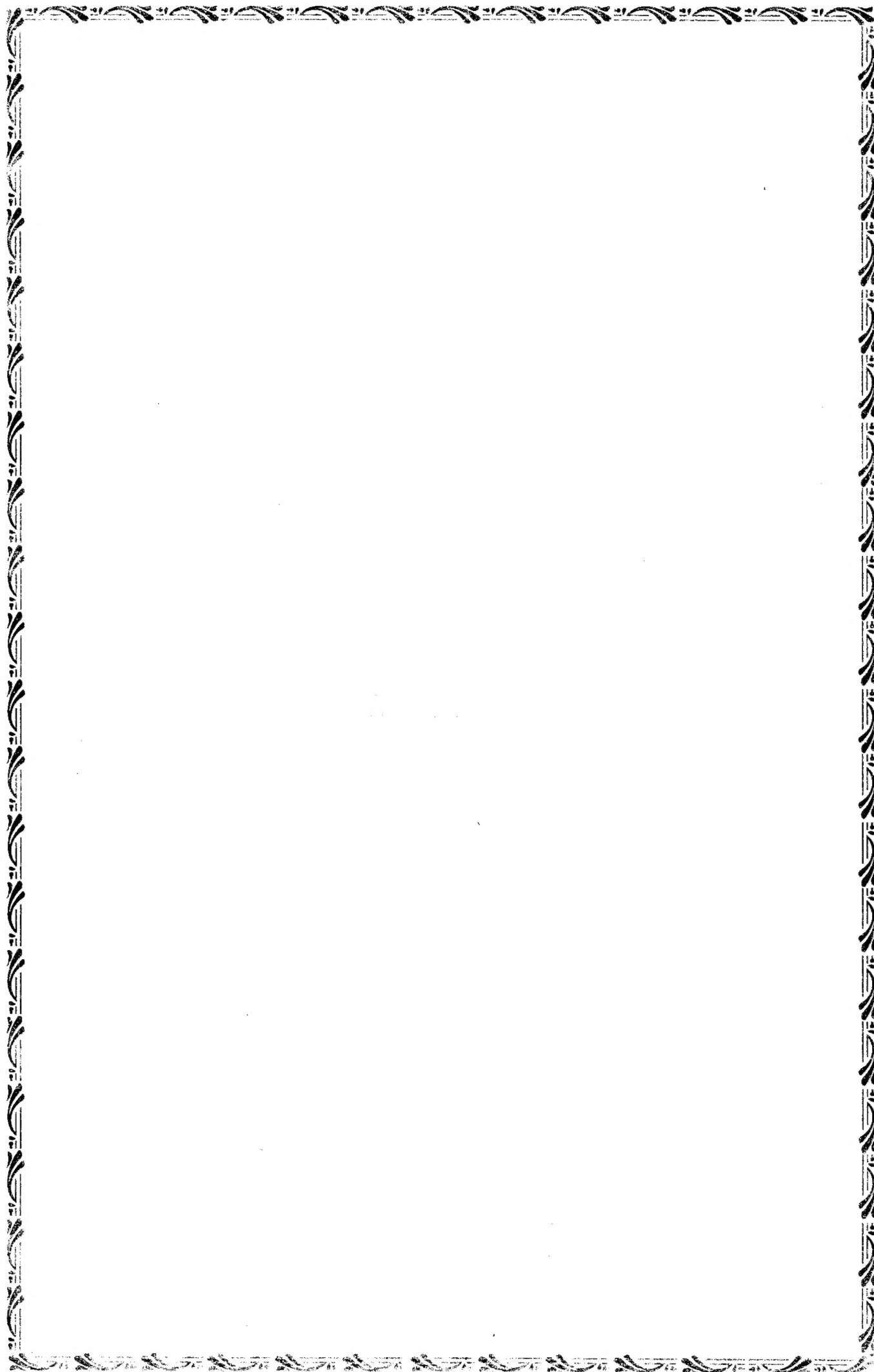
- ٥٤- صحيح سنن الحافظ، محمد بن يزيد القزويني، ابن ماجه، أبو عبد الله، المتوفى ٢٧٥هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي؛ ط١ بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.
- ٥٥- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، أبو الحسين، المتوفى ٢٦١هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- ٥٦- ضحى الإسلام، أحمد أمين، القاهرة ١٩٣٦م.
- ٥٧- طبقات المفسرين، جلال الدين السيوطي، المتوفى ٩١١هـ، مراجعة لجنة من العلماء بإشراف الناشر، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ٥٨- ظهر الإسلام، أحمد أمين، ط٥، بيروت، دار الكتاب العربي.
- ٥٩- العالم والمتعلم، النعمان بن ثابت الكوفي، أبو حنيفة، المتوفى ١٥٠هـ، حيدر آباد، الدكن، المطبعة الحيدلية ١٩١١م.
- ٦٠- غريب القرآن على حروف المعجم، محمد بن عزيز السجستاني، أبو بكر، المتوفى ٣٣٠هـ، دراسة وتحقيق أحمد عبد القادر صلاحية، دمشق، دار طلاس ١٩٩٣.
- ٦١- فتح الباري بشرح صحيح الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، أبو عبد الله المتوفى ٢٥٦هـ، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المتوفى ٨٥٢هـ، بيروت، دار الفكر.
- ٦٢- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والتفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، المتوفى ١٢٥٠هـ، وثق أصوله، وعلق عليه سعيد محمد اللحام ط١. بيروت، دار الفكر ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- ٦٣- الفردوس بمأثور الخطاب، شيرويه الديلمي الهمداني أبو شجاع الملقب إلكيا المتوفى ٥٠٩هـ، إعداد محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ط١ بيروت دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- ٦٤- الفتح المبين في طبقات الأصوليين، عبد الله مصطفى المراغني، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٤م.
- ٦٥- الفهرست، محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بابن النديم، المتوفى ٣٨٠هـ، شرحه وعلق عليه الدكتور يوسف علي الطويل، وضع فهرسه أحمد شمس الدين، ط١ بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- ٦٦- الفوائد البهية في تراجم الحنفية، محمد عبد الحي اللكنوي المتوفى ١٣٠٤هـ، بيروت، دار المعرفة.
- ٦٧- فيض القدير بشرح الجامع الصغير، محمد عبد الرؤوف المناوي، المتوفى ١٠٣١هـ، ط١ بيروت، دار المعرفة ١٣٩١هـ/١٩٧٢م.
- ٦٨- الكامل في ضعفاء الرجال، عبد الله بن عُديّ الجرجاني، المتوفى ٣٦٥هـ، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ٦٩- كتاب التوحيد، محمد بن محمد بن محمود، الماتريدي السمرقندي الحنفي، المتوفى ٣٣٣هـ، حققه وقدم له، فتح الله خليف الإسكندرية، دار الجامعات المصرية ١٩٩٥م.
- ٧٠- كتاب سيبويه، عمر بن عثمان، أبو بشر، المتوفى ١٨٠هـ تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط٢ الهيئة المصرية العامة ١٩٧٩م.
- ٧١- كتاب الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك المروزي، المتوفى ١٨١هـ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، نشر محمد عفيف الزعبي، بيروت، مؤسسة الرسالة.

٧٢. الكشف في غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمد بن عمر الزمخشري جار الله، المتوفى ٥٣٨هـ، تحقيق أحمد عبد الموجود و...، ط١ الرياض، مكتبة العبيكان.
٧٣. كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة، علي بن أبي بكر الهيثمي، نور الدين، المتوفى ٨٠٧هـ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤م.
٧٤. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني، الجراحي، المتوفى ١١٦٢هـ، أشرف على طبعه وتصحيحه أحمد القلاش، بيروت، مؤسسة الرسالة.
٧٥. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله، القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بالملا كاتب الجلبلي والمعروف بحاجي خليفة، المتوفى ١٠١٧هـ، دار الفكر، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
٧٦. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علي المتقي بن حسام الدين علاء الدين الهندي البرهان فوري، المتوفى ٩٧٥هـ، ضبطه الشيخ بكري حياني، صححه ووضع فهرسه الشيخ صفوت السقا، حلب، منشورات مكتبة التراث الإسلامي.
٧٧. لسان العرب، محمد بن مكرم، ابن منظور المصري، أبو الفضل، المتوفى ٧١١هـ.
٧٨. مجاز القرآن، معمر بن المثنى، التيمي، أبو عبيدة، المتوفى ٢١٠هـ، عارضه بأصوله، وعلق عليه الدكتور محمد فؤاد سزكين، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٥٤م.
٧٩. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، نور الدين، المتوفى ٨٠٧هـ، ط١ بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٣م.
٨٠. المحتسب في تبين وجوه شواذ القرآن والإيضاح عنها، عثمان بن جني، أبو الفتح المتوفى ٣٩٢هـ، تحقيق علي النجدي ناصف والدكتور عبد الحليم النجار والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي، القاهرة ١٣٨٦هـ.
٨١. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أو تفسير ابن عطية، عبد الحق بن عطية الأندلسي، أبو محمد، المتوفى ٥٤١هـ، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري وعبد العال السيد إبراهيم، ط١، قطر.
٨٢. مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه، المتوفى ٣٧٠هـ، تحقيق ج. براجشتراسر، القاهرة، مكتبة المتنبى ١٩٨٠م.
٨٣. مذاهب الإسلاميين، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ط٢، بيروت دار العلم للملايين، ١٩٧٩م.
٨٤. مرجع العلوم الإسلامية، الدكتور محمد وهي، الزحيلي، دمشق، دار المعرفة.
٨٥. مساوئ الأخلاق ومذمومها، محمد بن جعفر بن سهيل، السامري الخرائطي، ط١ مكتبة السوادي، ١٩٩٢م.
٨٦. المستدرک على الصحيحين، محمد بن عبد الله بن محمد، الإمام الحاكم، أبو عبد الله، المتوفى ٤٠٥هـ، إشراف الدكتور يوسف بن عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار المعرفة.
٨٧. مسند الإمام أحمد بن حنبل، المتوفى ٢٤١هـ، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، ط١، بيروت، دار الفكر ١٤١١هـ/١٩٩١م.
٨٨. مسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ط٥ بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٥م.

- ٨٩- مسند الدارمي المعروف بـ: سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الحافظ الدارمي، المتوفى ٢٥٥هـ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، دار المغني، ط ١ الرياض، دار ابن حزم، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- ٩٠- مشكل القرآن، أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، أبو جعفر، المتوفى ٣٢١هـ، مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد، الدكن، الهند ١٣٣٣هـ، محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاني ١٩٨٠م.
- ٩١- معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، أبو إسحاق، المتوفى ٣١١هـ، شرح وتحقيق الدكتور عبد العزيز عبده شلبي، ط ١، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- ٩٢- معجم الأحاديث القدسية، عصام الدين الضباطي، أبو عبد الرحمن، القاهرة دار الريان للتراث.
- ٩٣- معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم، الدكتور إسماعيل أحمد عمارة والدكتور عبد الحميد مصطفى السيد، ط ١، بيروت مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- ٩٤- معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادى الإمام أبو عبد الله، المتوفى ٦٢٦هـ، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- ٩٥- المعجم الصغير، سليمان بن أحمد بن أيوب، الطبراني، أبو القاسم، المتوفى ٢٦٠هـ، تقديم كمال يوسف الحوت، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- ٩٦- معجم القراءات القرآنية، الدكتور عبد العال سليم مكرم والدكتور أحمد مختار عمر، ط ١، مطبوعات جامعة الكويت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- ٩٧- معجم المؤلفين، تراجم مصنفى الكتب العربية، عمر رضا كحالة، بيروت دار إحياء التراث العربي.
- ٩٨- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، أي. ي. ونستك ليدن، مكتبة بربل، ١٩٨٨م.
- ٩٩- مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، فخر الدين، أبو عبد الله، المتوفى ٦٠٦هـ، القاهرة ١٣٠٧م.
- ١٠٠- مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد بن المفضل، الراغب الأصفهاني، أبو القاسم، المتوفى ٥٠٢هـ، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط ١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ط ١، دمشق، دار القلم، بيروت، الدار الشامية.
- ١٠١- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، علي بن إسماعيل، الأشعري، أبو الحسن، المتوفى ٣٢٤هـ، عني بتصحيحه هلموت ريتز، ط ١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٠م.
- ١٠٢- الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم بن محمد، الشهرستاني، المتوفى ٥٤٨هـ، تحقيق محمد سيد كيلاني، بيروت، دار المعرفة.
- ١٠٣- مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد بن الحسن، أحمد بن عثمان الذهبي، أبو عبد الله، الإمام الحافظ، المتوفى ٧٤٨هـ، تحقيق محمد زاهد الكوثري وأبو الوفاء الأفغاني، نشر لجنة إحياء المعارف النعمانية، حيدرآباد، الدكن، ط ٣، الهند، لبنان ١٤٠٨هـ.
- ١٠٤- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، علي بن أبي بكر، الهيثمي، نور الدين المتوفى ٨٠٧هـ، تحقيق وتعليق شعيب الأرنؤوط ومحمد رضوان العرقسوسي، ط ١ بيروت مؤسسة الرسالة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

- ١٠٥- موسوعة أطراف الحديث النبوي، محمد السعيد بن بسيوني زغلول، أبو هاجر، عالم التراث، ط١، بيروت، دار الفكر ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- ١٠٦- موسوعة فقه عمر بن الخطاب، الدكتور محمد رواس قلعه جي، دار النفائس، ط٣، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- ١٠٧- موطأ الإمام مالك بن أنس المتوفى ١٧٩هـ، رواية يحيى بن يحيى الليثي، إعداد أحمد راتب عرموش، ط٦، دار النفائس بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ١٠٨- النهاية في غريب الحديث والأثر، المبارك بن محمد المبارك الجزري ابن الأثير، مجد الدين، المتوفى ٦٠٦هـ، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، بيروت دار إحياء التراث العربي.
- ١٠٩- النهر الماد في البحر المحيط، محمد بن يوسف، الأندلسي الغرناطي، أبو حيان، المتوفى ٧٤٥هـ، تحقيق الدكتور عمر الأسعد، ط١، دار الجيل، ١٤١٦هـ/١٩٩٥.
- ١١٠- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، إسماعيل باشا ابن محمد أمير بن مير سليم، الباباني أصلاً، البغدادي مولداً وسكناً، المتوفى ١٠٣٩هـ، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ١١١- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن خلكان، أبو العباس، شمس الدين، المتوفى ٦٨١هـ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، القاهرة، مكتبة النهضة العربية، ١٩٤٨م.





فهرس تفسير السور

٥	سورة الرحمن
٢١	سورة الواقعة
٣٧	سورة الحديد
٥٩	سورة المجادلة
٨٣	سورة الحشر
١٠٣	سورة الممتحنة
١١٧	سورة الصف
١٢٥	سورة الجمعة
١٣٥	سورة المنافقون
١٤٣	سورة التغابن
١٥٥	سورة الطلاق
١٧١	سورة التحريم
١٨٧	سورة الملك
٢٠٧	سورة القلم
٢٢٥	سورة الحاقة
٢٤٥	سورة المعارج
٢٥٩	سورة نوح
٢٧١	سورة الجن
٢٨٩	سورة المزمل
٣٠٩	سورة المدثر
٣٣١	سورة القيامة

٣٤٥	سورة الإنسان
٣٥٥	سورة المرسلات
٣٦٥	سورة النبأ
٣٧٣	سورة النازعات
٣٨١	سورة عبس
٣٨٩	سورة التكويد
٣٩٧	سورة الانفطار
٤٠٥	سورة المطففين
٤١٥	سورة الانشقاق
٤٢٣	سورة البروج
٤٣١	سورة الطارق
٤٣٧	سورة الأعلى
٤٤٣	سورة الغاشية
٤٤٩	سورة الفجر
٤٥٧	سورة البلد
٤٦٣	سورة الشمس
٤٦٩	سورة الليل
٤٧٥	سورة الضحى
٤٨١	سورة الشرح
٤٨٥	سورة التين
٤٨٩	سورة العلق
٤٩٥	سورة القدر
٤٩٩	سورة البينة
٥٠٥	سورة الزلزلة

٥٠٨	سورة العاديات
٥١١	سورة القارعة
٥١٣	سورة التكاثر
٥١٦	سورة العصر
٥١٨	سورة الهمزة
٥٢٠	سورة الفيل
٥٢٢	سورة قريش
٥٢٣	سورة الماعون
٥٢٦	سورة الكوثر
٥٢٩	سورة الكافرون
٥٣١	سورة النصر
٥٣٤	سورة المسد
٥٣٧	سورة الإخلاص
٥٤٣	سورة الفلق
٥٤٧	سورة الناس
٥٥٣	الخاتمة
٥٥٥	المراجع
٥٦٣	فهرس تفسير السور